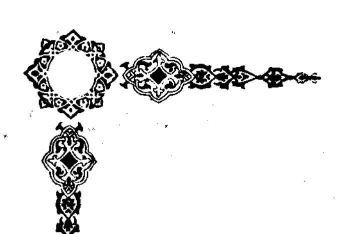
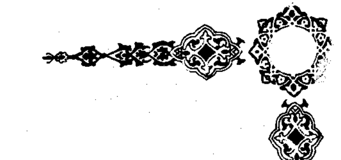
صفوة التفاسير

تفسير للقرآن الكريم ، جامع بين المأثور والمعقول ، مستمد من أوثق كتب التفسير
« الطبري ، الكشاف ، القرطبي ، الألوسي ، ابن كثير ، البحر المحيط » وغيرها
بأسلوب ميسّر ، وتنظيم حديث ، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

المجلّد الثاني

تأليف
محمّد علي الصّابوني
الأستاذ بكلّية الشريعة والدراسات الإسلاميّة
مكة المكرمة - جامعة الملك عبد العزيز

دار القرآن الكريم
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

صفوة التفاسير

قال الله تعالى: "إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم"

"ونُنَزِّلُ من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين".. "الإسراء"

وقال عليه الصلاة والسلام:

"أشراف أمتي حملة القرآن" "الترمذي"

"مَنْ قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنةٌ والحسنةُ بعشر أمثالها، لا أقول الم حرف، ولكن ألفٌ حرف ولامٌ حرف وميمٌ حرف." "البخاري"

"إقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه" "البخاري"

إلى كل مؤمن ومؤمنة..
يريد السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة..
أهدي كتاب الله وتفسيره..
ليكون عوناً على فهم القرآن والعمل به..
وقد قال عليه الصلاة والسلام:
"تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنتي". "متفق عليه"



السيد حسن عباس شربتلي



الطبعة الرابعة
(منقحة)

١٤٠٢ هـ = ١٩٨١ م

طُبع على نفقة
المحسن الكبير
معالي السيد حسن عبّاس الشربتلي
وجعله وقفاً لله تعالى
فجزاه الله كلّ خير

يُوزع مجّاناً ولا يُباع



(١١) سُورَةُ هُودٍ مَكيَّة
وآياتها ثلاث وعشرون ومائة

بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة هود مكية وهي تُعْنى بأصول العقيدة الإِسلامية «التوحيد،الرسالة، البعث والجزاء» وقد عرضت لقصص الأنبياء بالتفصيل تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام على ما يلقاه من أذى المشركين لا سيما بعد تلك الفترة العصيبة التي مرت عليه بعد وفاة عمه «أبي طالب» وزوجه «خديجة» فكانت الآيات تتنزَّل عليه وهي تقص عليه ما حدث لإِخوانه الرسل من أنواع الابتلاء، ليتأسى بهم في الصبر والثبات.

* ابتدأت السورة الكريمة بتمجيد القرآن العظيم، الذي أحكمت آياته، فلا يتطرق إليه خلل ولا تناقض، لأنه تنزيل الحكيم العليم، الذي لا تخفى عليه خافية من مصالح العباد.. ثم عرضت لعناصر الدعوة الإِسلامية، عن طريق الحجج العقلية، مع الموازنة بين الفريقين: فريق الهدى، وفريق الضلال، وضربت مثلاً للفريقين وضَّحت به الفارق الهائل بين المؤمنين والكافرين، وفرقت بينهما كما تفرق الشمس بين الظلمات والنور ﴿مَثَلُ الفريقين كالأعمى والأصم، والبصير والسميع، هل يستويان مثلاً؟ أفلا تذكَّرون﴾؟.

* ثم تحدثت عن الرسل الكرام مبتدئة بقصة «نوح» عليه السلام أب البشر الثاني، لأنه لم ينج من الطوفان إلا نوحٌ والمؤمنون الذين ركبوا معه في السفينة، وغرق كل من على وجه الأرض، وهو أطول الأنبياء عُمُراً، وأكثرهم بلاءً وصبراً.

* ثم ذكرت قصة «هود» عليه السلام الذي سميت السورة الكريمة باسمه، تخليداً لجهوده الكريمة في الدعوة إلى الله، فقد أرسله الله تعالى إلى قوم «عاد» العتاة المتجبرين، الذين اغتروا بقوة أجسامهم وقالوا: من أشدُّ منا قوَّة؟ فأهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية، وقد أسهبت الآيات في الحديث عنهم بقصد العظة والعبرة للمتكبرين المتجبرين ﴿وتلك عادٌ جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله، واتَّبعوا أمر كل جبار عنيد.. إلى قوله ألاَ إن عاداً كفروا ربهم، ألاَ بُعداً لعادٍ قوم هود﴾.

* ثم تلتها قصة نبيّ الله «صالح» ثم قصة «لوط» ثم قصة «شعيب» ثم قصة «موسى وهارون» صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ثم جاء التعقيب المباشر بما في هذه القصص من العِبر والعظات في

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى

إهلاك الله تعالى للظالمين ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد .. إلى قوله تعالى : وكذلك أخذُ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمةٌ إنَّ أخذه أليم شديد﴾ .

* وختمت السورة الكريمة ببيان الحكمة من ذكر قصص المرسلين ، وذلك للاعتبار بما حدث للمكذبين في العصور السالفة ، ولتثبيت قلب النبي عليه السلام أمام تلك الشدائد والأهوال ﴿وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحقُّ وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين .. إلى قوله فاعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعلمون﴾ وهكذا تختم السورة بالتوحيد كما بدأت به ليتناسق البدء مع الختام ! !

اللغــة : ﴿أُحكمت﴾ الإحكام : المنعُ من الفساد يقال : أحكم الأمر إذا أتى به على وجه لا يتطرأ إليه خلل أو فساد ﴿مستقرها﴾ المكان الذي تأوي إليه في الدنيا ﴿مستودعها﴾ المكان الذي تصير إليه بعد الموت ﴿أمـة معـدودة﴾ الأمة هنا بمعنى المدة من الزمن أي مدة محدودة من السنين قال القرطبي : والأمَّة اسم مشترك يطلق على ثمانية أوجه : الجماعة ، الملة ، الرجل الجامع للخير ، الحين والزمن ، أتباع الأنبياء[1] الخ ﴿مريـة﴾ شك وارتياب ﴿ضلَّ﴾ ضاع وتلاشى ﴿لا جرم﴾ كلمة واحدة بمعنى حقاً وهو قول الخليل وسيبويه ﴿أخبتوا﴾ خشعوا وخضعوا والإخباتُ : الذل والخضوع ﴿الأصم﴾ الذي لا يسمع وبه صمم .

سَبَبُ النّزول : ذكر القرطبي عن ابن عباس أن « الأخْنس بن شريق » كان رجلاً حلو الكلام وحلو المنطق ، يلقى رسول الله ﷺ بما يحب ، وينطوي له بقلبه على ما يسوء فأنزل الله ﴿ألا إنهـم يثنـون صدورهـم ليستخفوا منه ..﴾ الآية[2].

التفسِير : ﴿الٓـــر﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن ، وأنه مركب من أمثال هذه الحـروف الهجائية ، وعن ابن عباس أن معناه : أنا الله أرى ﴿كتـابٌ أُحكمـت آياتـه﴾ أي هو كتابٌ جليل القدر ، نظمت آياته نظماً محكماً ، لا يلحقه تناقضٌ ولا خلل ﴿ثـم فُصِّلت﴾ أي بُيِّنت فيه أمور الحلال والحرام ، وما يحتاج إليه العباد في أمور المعاش والمعاد ﴿مـن لـدن حكيمٍ خبيـر﴾ أي من عند الله فصَّلها وبيَّنها الخبير العالم بكيفيات الأمور ، ولذا كانت محكمة أحسن الإحكام ومفصلة أحسن التفصيل ﴿ألاَّ

---

(١) كقوله تعالى ﴿وجد عليه أمةً من الناس﴾ أي جماعة ، وقوله ﴿وادَّكر بعد أمـة﴾ أي حينٍ من الزمن ، وقوله ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمـة﴾ أي ملة ودين الخ . (٢) القرطبي ٩/ ٥ .

فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ

تعبدوا إلا الله﴾ أي لئلا تعبدوا إلا الله **﴿إنني لكم منه نذيرٌ وبشير﴾** أي إنني مرسلٌ إليكم من جهته تعالى ، أنذركم بعذابه إن كفرتم ، وأبشركم بثوابه إن آمنتم **﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾** أي استغفروه من الذنوب وأخلصوا التوبة واستقيموا عليها بالطاعة والإنابة **﴿يمتّعْكُم متاعاً حسناً﴾** أي يمتعكم في هذه الدنيا بالمنافع الجليلة من سعة الرزق ، ورغَد العيش **﴿إلى أجلٍ مسمًّى﴾** أي إلى وقتٍ محدَّد هو انتهاء أعماركم **﴿ويؤتِ كلَّ ذي فضلٍ فضله﴾** أي ويعطي كل محسنٍ في عمله جزاء إحسانه **﴿وإن تولَّوْا﴾** أي وإن تتولوا عن الايمان وتُعرضوا عن طاعة الرحمن **﴿فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾** أي أخاف عليكم عذاب يوم القيامة ، ووصف العذاب بأنه كبير لما فيه من الأهوال الشديدة **﴿إلى الله مرجعكم﴾** أي إليه جلَّ وعلا رجوعكم بعد الموت **﴿وهو على كل شيء قدير﴾** أي قادر على إماتتكم ثم إحيائكم وعلى معاقبة من كذَّب لا يعجزه شيء ، وفي الآية تهديد عظيم **﴿ألاَ إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه﴾** قال ابن عباس : نزلت في الأخنس بن شريق كان يجالس رسول الله ﷺ ويحلف أنه ليحبه ويضمر خلاف ما يظهر[1] وقال القرطبي : أخبر عن معاداة المشركين للنبي ﷺ والمؤمنين ، ويظنون أنه تخفى على الله أحوالهم[2] والمعنى إنهم يطوون صدورهم على عداوة النبي والمؤمنين ، يريدون بذلك أن يستخفوا من الله حتى لا يفتضح أمرهم **﴿ألاَ حين يستغشون ثيابهم﴾** أي حين يتغطون بثيابهم **﴿يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾** أي يعلم تعالى ما يُبْطنون وما يُظهرون وكأن الآية تقول : لا تظنوا أن تغطيتكم تحجبكم عن الله بل الله يعلم سرائركم وظواهركم لا تخفى عليه خافية من أحوالكم **﴿إنه عليمٌ بذات الصدور﴾** أي عالم بما في القلوب **﴿وما من دابةٍ في الأرض إلا على اللهِ رزقُها﴾** أي ما من شيء يدب على وجه الأرض من إنسان أو حيوان إلا تكفّل الله برزقه تفضلاً منه تعالى وكرماً ، فكما كان هو الخالق كان هو الرازق **﴿ويعلم مستقرها ومستودعها﴾** قال ابن عباس : مستقرها حيث تأوي إليه من الأرض ، ومستودعها الموضع الذي تموت فيه فتدفن[3] **﴿كلٌّ في كتابٍ مبين﴾** أي كلٌّ من الأرزاق ، والأقدار ، والأعمار ، مسطَّرٌ في اللوح المحفوظ **﴿وهو الذي خلق السمواتِ والأرضَ في ستة أيام﴾** أي خلقها في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا ، وفيه الحث للعباد على التأني في الأمور فإن الإله القادر على خلق الكائنات بلمح البصر خلقها في ستة أيام

(١) البحر ٥/٢٠٢ . (٢) القرطبي ٩/٥ . (٣) البحر ٥/٢٠٤ .

أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ

﴿وكان عرشه على الماء﴾ أي وكان العرش قبل خلقهما على الماء قال الزمخشري : أي ما كان تحته خلق ، وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل السموات والأرض[1] ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ أي خلقهن لحكمة بالغة ليختبركم فيظهر المحسنُ من المسيء ، ويجازيكم حسب أعمالكم ﴿ولئن قلتَ إنكم مبعوثون من بعد الموت﴾ أي ولئن قلت يا محمد لأولئك المنكرين من كفار مكة إنكم ستبعثون بعد موتكم للحساب ﴿ليقولنَّ الذين كفروا إن هذا إلا سحرٌ مبين﴾ أي ليقولنَّ الكفار المنكرون للبعث والنشور ما هذا القرآن إلا سحرٌ واضح مكشوف ﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة﴾ أي إلى مدةٍ من الزمن قليلة ﴿ليقولُنَّ ما يحبّسه﴾ أي ليقولُنَّ استهزاءً ما يمنعه من النزول ؟ ﴿ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم﴾ أي ألا فليتنبهوا فإنه يوم يأتيهم العذاب ليس مدفوعاً عنهم ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أي نزل وأحاط بهم جزاء ما كانوا به يستهزئون ﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة﴾ أي أنعمنا على الإنسان بأنواع النعم من الصحة ، والأمن ، والرزق وغيرها من النعم ﴿ثم نزعناها منه﴾ أي ثم سلبنا تلك النعم منه ﴿إنه ليئوسٌ قنوط﴾ أي قنوط من رحمة الله، شديد الكفر به ﴿ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته﴾ أي ولئن منحنا الإنسان نعمة من بعد ما نزل به من الضر ، وما أصابه من البلاء ، كالفقر والمرض والشدة ﴿ليقولنَّ ذهب السيئات عني﴾ أي انقطع الفقر و الضيق والمصائب ولن تصيبني بعد اليوم ﴿إنه لفرحٌ فخور﴾ أي بطرٌ بالنعمة مغترٌ بها ، متعاظم على الناس بما أُوتي ، والآيةُ ذمٌ لمن يقنط عند الشدائد ، ويبطر عند النعم ﴿إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات﴾ أي هذه عادة الإنسان إلا المؤمنين الذين يصبرون على الضراء ، ويفعلون الخير في النعماء ، فهم في حالتيْ المحنة والنعمة محسنون ﴿أولئك لهم مغفرةٌ وأجر كبير﴾ أي أولئك الموصوفون بالصفات الحميدة لهم مغفرةٌ لذنوبهم ، وأجر كبيرٌ في الآخرة هو الجنة قال في البحر : ووصف الثواب بأنه كبير وذلك لما احتوى عليه من النعيم السرمدي ، والأمن من العذاب ، ورضا الله عنهم ، والنظر إلى وجهه الكريم[2] ﴿فلعلَّك تاركٌ بعض ما يُوحى إليك﴾ كان المشركون يقترحون على رسول الله ﷺ أن يأتي بكنز أو يأتي معه ملك ، وكانوا يستهزئون بالقرآن فقال الله تعالى له : فلعلك يا محمد تاركٌ بعض ما أُنزل

(١) الكشاف ٢/ ٣٨٠ . (٢) البحر ٥/ ٢٠٦ .

أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل ﴿١٢﴾ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴿١٣﴾ فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴿١٤﴾ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ﴿١٥﴾ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴿١٦﴾ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن

إليك من ربك فلا تبلغهم إيَّاه لاستهزائهم **﴿وضائقٌ بـه صـدرك﴾** أي ويضيق صدرك من تبليغهم ما نزل عليك من ربك خشية التكذيب ، والغرضُ تحريضُه ﷺ على تبليغ الرسالة وعدم المبالاة بمن عاداه **﴿أن يقولوا لـولا أُنزل عليـه كنـزٌ﴾** أي لأجل أن يقولـوا هلاّ أُنـزل عليه مالٌ كثير **﴿أو جـاء معـه ملَـك﴾** أي جاء معه ملك يصدِّقه كما اقترحنا ، قال تعالى محدّداً مهمته عليه السلام **﴿إنمـا أنـت نذيـر﴾** أي لست يا محمد إلا منذراً تخوِّف المجرمين من عذاب الله **﴿والله علـى كل شـيء وكيـل﴾** أي قائم على شئون العباد يحفظ عليهم أعمالهم **﴿أم يقولون افتـــراه﴾** أي بل أيقولون اختلق محمد هذا القرآن وافتراه من عند نفسه ؟ **﴿قـل فأتــوا بعشر سُوَرٍ مثلـه مفتريـات﴾** أي إن كان الأمر كذلك فأتوا بعشر سور مثله في الفصاحة والبلاغة مفتريات فأنتم عرب فصحاء **﴿وادعـوا من استطعتـم مـن دون اللـه﴾** أي استعينوا بمن شئتم غير الله سبحانه **﴿إن كنتـم صادقيــن﴾** في أنَّ هذا القرآن مفترى **﴿فإن لـم يستجيبوا لكـم فاعلموا أنمـا أُنزل بعلـم اللـه﴾** أي فإن لم يستجب لكم من دعوتموهم للمعاونة وعجزوا عن ذلك فاعلموا أيها المشركون أنما نزل هذا القرآن بوحيٍ من الله **﴿وأن لا إلـه إلا هــو﴾** أي لا ربّ ولا معبود إلا الله الذي أنزل هذا القرآن المعجز **﴿فهـل أنتـم مسلمـون﴾** لفظه استفهام ومعناه أمرٌ أي فأسلموا بعد ظهور هذه الحجة القاطعة إذ لم يبق لكم عذر مانع من ذلك ، قال في التسهيل : الاستفهام معناه استدعاءٌ إلى الإسلام ، وإلزامٌ للكفار أن يسلموا لما قام الدليل على صحة الإسلام لعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن[1] **﴿مـن كـان يريد الحياة الدنيا وزينتهـا﴾** أي من كان يقصد بأعماله الصالحة نعيم الدنيا فقط لأنه لا يعتقد بالآخرة **﴿نوفّ إليهـم أعمالهـم فيهـا﴾** أي نوفّ إليهم أجور أعمالهم بما يحبون فيها من الصحة والأمن والرزق **﴿وهـم فيهـا لا يبخسـون﴾** أي وهم في الدنيا لا يُنقصون شيئاً من أجورهم قال قتادة : من كانت الدنيا همَّه ونيّته جازاه الله بحسناته في الدنيا ، ثم يُفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يُعطى بها ، وأما المؤمن فيُجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة[2] **﴿أولئـك الذيـن ليس لهم في الآخرة إلا النـار﴾** أي هؤلاء الذين هدفهم الدنيا ليس لهم في الآخرة إلا نار جهنم وعذابها المخلَّد **﴿وحبـط**

---

(١) التسهيل ٢/١٠٢ . (٢) المختصر ٢/٢١٤ .

قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا

ما صنعوا فيها﴾ أي بطل ما صنعوه من الأعمال الصالحة لأنهم قد استوفوا في الدنيا جزاءها **﴿وباطلٌ ما كانوا يعملون﴾** تأكيدٌ لما سبق أي باطل ما كانوا يعملون في الدنيا من الخيرات **﴿أفمن كان على بيّنةٍ من ربه﴾** أي أفمن كان على نور واضح ، وبرهان ساطع من الله تعالى ، وهو النبي ﷺ والمؤمنون ، وجوابه محذوف أي كمن كان يريد الحياة الدنيا ؟ يريد أن بينهما تفاوتاً كبيراً ، وتبايناً بعيداً ، فلا يستوي من أراد الله ، ومن أراد الدنيا وزينتها **﴿ويتلوه شاهدٌ منه﴾** أي ويتبعه شاهد من الله بصدقه قال ابن عباس : هو جبريل عليه السلام **﴿ومن قبله كتابُ موسى إماماً ورحمة﴾** أي ومن قبل القرآن كتاب التوراة الذي أنزله الله على موسى قدوةً في الخير ورحمة لمن نزل عليهم **﴿أولئك يؤمنون به﴾** أي أولئك الموصوفون بأنهم على نور من ربهم يصدّقون بالقرآن حق التصديق **﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنارُ موعده﴾** أي ومن يكفر بالقرآن من أهل الملل والأديان ، فله نار جهنم يردها لا محالة **﴿فلا تكُ في مريةٍ منه﴾** أي فلا تكن في شكٍ من هذا القرآن **﴿إنه الحق من ربك﴾** أي إنه الحق الثابت المنزّل من عند الله **﴿ولكنَّ أكثر الناس لا يؤمنون﴾** أي لا يصدّقون أنه تنزيل رب العالمين **﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾** أي لا أحد أطغى ولا أظلم ممن اختلق الكذب على الله بنسبة الشريك والولد إليه **﴿أولئك يُعرضون على ربهم﴾** أي يُعرضون يوم القيامة في جملة الخلق على خالقهم ومالكهم **﴿ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم﴾** أي ويقول الخلائق والملائكة الذين يشهدون على أعمالهم هؤلاء الذين كذبوا على الله ، والغرضُ فضيحتهم في الدار الآخرة على رءوس الأشهاد والتشهيرُ بهم خزياً ونكالاً **﴿ألا لعنةُ الله على الظالمين﴾** لظلمهم وافترائهم على الله ، واللعنةُ : الطرد من رحمة الله **﴿الذين يصدون عن سبيل الله﴾** أي يمنعون الناس عن اتّباع الحق ، وسلوك سبيل الهدى الموصل إلى الله **﴿ويبغونها عوجاً﴾** أي ويريدون أن تكون السبيل معوّجة أي يبغون أن يكون دين الله معوجاً على حسب أهوائهم **﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾** أي جاحدون بالآخرة منكرون للبعث والنشور **﴿أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض﴾** أي ليسوا مفلتين من عذاب الله وإن أمهلهم **﴿وما كان لهم من دون الله من أولياء﴾** أي ليس لهم من يتولاهم أو يمنعهم من عذاب الله **﴿يضاعف لهم العذاب﴾** جملة مستأنفة أي يضاعف عليهم العذاب بسبب إجرامهم

كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ * مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

وطغيانهم ﴿ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يُبصرون﴾ أي سبب تشديد العذاب ومضاعفته عليهم أن الله جعل لهم سمعاً وبصراً ، ولكنهم كانوا صُماً عن سماع الحق ، عمياً عن اتباعه ، فلم ينتفعوا بما منحهم الله من حواس ﴿أولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ أي خسروا سعادة الدنيا والآخرة ، وخسروا راحة أنفسهم لدخولهم نار جهنم ﴿وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي وغاب عنهم ما كانوا يزعمونه من شفاعة الآلهة ﴿لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ أي حقاً إنهم يوم القيامة من أخسر الناس ، ولا ترى أحداً أبينَ خسراناً منهم ، لأنهم آثروا الفانية على الباقية ، واستعاضوا عن الجِنان بلظى النيران ، ثم لما ذكر تعالى حال الكفار الأشقياء ، ذكر حال المؤمنين السعداء فقال ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم﴾ أي جمعوا مع الإيمان والعمل الصالح الإخبات : وهو الاطمئنان إليه سبحانه والخشوع له والانقطاع لعبادته ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ أي منعّمون في الجنة لا يخرجون منها أبداً ﴿مثل الفريقين﴾ أي فريق المؤمنين وفريق الكافرين ﴿كالأعمى والأصم ، والبصير والسميع﴾ قال الزمخشري : شبَّه فريق الكافرين بالأعمى والأصم ، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع ، وهو من اللفّ والطباق[1] والمعنى حال الفريقين العجيب كحال من جمع بين العمى والصمم ، ومن جمع بين السمع والبصر ﴿هل يستويان مثلاً﴾ الاستفهام إنكاري أي لا يستويان مثلاً فليس حال من يبصر نور الحق ويستضيء بضيائه كحال من يخبط في ظلمات الضلالة ولا يهتدي إلى سبيل السعادة ﴿أفلا تذكّرون﴾ أي أفلا تعتبرون وتتعظون ؟ والغرض التفريق بين أهل الطاعة والإيمان ، وأهل الجحود والعصيان .

البَلاغَة : ١ ـ ﴿عذاب يوم كبير﴾ إضافة العذاب إلى اليوم الكبير للتهويل والتفظيع .

٢ ـ ﴿ما يسرون وما يعلنون﴾ بينهما طباقٌ وكذلك بين ﴿نعماء وضراء﴾ وبين ﴿نذير وبشير﴾ .

٣ ـ ﴿يئوس كفور﴾ من صيغ المبالغة أي شديد اليأس كثير الكفران .

٤ ـ ﴿كالأعمى والأصم﴾ فيه تشبيه مرسل مجمل لوجود أداة التشبيه وحذف وجه الشبه أي مثل الفريق الكافر كالأعمى والأصم في عدم البصر والسمع، ومثل الفريق المؤمن كالسميع والبصير .

لطيفة : قال بعض الصالحين : الاستغفار بلا إقلاع عن الذنب توبة الكذابين[2] .

---

(١) الكشاف ٢/٣٨٧ . (٢) القرطبي ٩/٣ .

تـنبيـه : التحدي بعشر سور جاء بعد التحدي بالقرآن الكريم ، فلما عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن تحداهم بعشر سور ، ثم لما عجزوا تحداهم بالإتيان بسورة مثله في البلاغة والفصاحة والاشتمال على المغيبات والأحكام التشريعية وأمثالها ، وهي الأنواع التسعة وقد نظمها بعضهم بقوله :

ألا إنما القرآنُ تسعةُ أحرفٍ   سأنبيكها في بيت شعر بلا مَلَل
حلالٌ ، حرامٌ ، محكمٌ ، متشابهٌ   بشيرٌ ، نذيرٌ ، قصةٌ ، عظةٌ ، مَثَل

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه . . إلى . . فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ من آية (٢٥) إلى نهاية آية (٤٩) .

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى عناد الكافرين من أهل مكة ، وتكذيبهم لرسول الله ﷺ واتهامهم له بافتراء القرآن ، ذكر هنا قصة نوح مع قومه الكافرين لتكون كالعظة والعبرة لمن كذّب وعاند ، ولتسلية الرسول ﷺ بسرد قصص المرسلين وما جرى لهم مع أقوامهم .

اللغَـة : ﴿الملأ﴾ أشراف القوم وسادتهم ﴿أراذلنا﴾ الأراذل هنا : المراد بهم الفقراء والضعفاء والسَّفَلة ، وهو جمع أَرْذَل بمعنى السافل الذي لا خَلاَق له ولا يبالي بما يفعل ﴿فعُمِّيت﴾ عمي عن كذا ، وعمي عليه كذا ، بمعنى التبس عليه ولم يفهمه ، وخفي عليه أمره ﴿جادلتنا﴾ الجدل في كلام العرب : المبالغة في الخصومة ﴿تزدري﴾ تحتقر ﴿الفُلْك﴾ السفينة ويطلق على المفرد والجمع ﴿التنور﴾ مستوقد النار ﴿مرساها﴾ رسا الشيء يرسو ثبت واستقر ﴿عاصم﴾ مانع يقال : عصمه إذا منعه ومنه الحديث (فقد عصموا مني دماءهم) ﴿غيض﴾ غاض الماء نقص بنفسه وغضتُه أنقصته ﴿الجودي﴾ جبلٌ بقرب المَوْصل .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا

التفسِيـر : ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ أي أرسلناه رسولاً إلى قومه بعد أن امتلأت الأرض بشركهم وشرورهم ﴿إني لكم نذيرٌ مبين﴾ أي بأني منذرٌ لكم ومخوّف من عذاب الله إن لم تؤمنوا ﴿أن لا تعبدوا إلا الله﴾ أي أرسلناه بدعوة التوحيد وهي عبادة الله وحده ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾ أي إني أخاف عليكم إن عبدتم غيره عذاب يوم شديد مؤلم ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ أي قال السادة والكبراء من قوم نوح ﴿ما نراك إلا بشراً مثلنا﴾ أي ما نراك إلا واحداً مثلنا ولا فضل لك علينا قال الزمخشري : وفيه تعريضٌ بأنهم أحقُّ منه بالنبوة ، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحدٍ من البشر لجعلها فيهم[1] ﴿وما نراك اتَّبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾ أي وما اتبعك إلا سفلةُ الناس قال في التسهيل : وإنما

(١) الكشاف ٢/ ٣٨٨ .

بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ

وصفوهم بذلك لفقرهم جهلاً منهم واعتقاداً بأن الشرف هو بالمال والجاه ، وليس الامر كذلك ، بل المؤمنون أشرف منهم على فقرهم وخمولهم[1] ﴿باديَ الرأي﴾ أي في ظاهر الرأي من غير تفكر أو رويّة ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ أي وما نرى لك ولأتباعك من مزية وشرف علينا يؤهلكم للنبوة ، واستحقاق المتابعة ﴿بل نظنكم كاذبين﴾ أي بل نظنكم كاذبين فيما تدعونه ، أرادوا أن يحجوا نوحاً من وجهين : أحدهما : أن المتبعين له أراذل القوم ليسوا قدوة ولا أسوة ، والثاني : أنهم مع ذلك لم يتروَّوا في اتّباعه ، ولا أمعنوا الفكر في صحة ما جاء به ، وإنما بادروا إلى ذلك من غير فكرة ولا رويّة ، وغرضُهم ألا تقوم الحجة عليهم بأن منهم من آمن به وصدّقه ﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بيّنةٍ من ربي﴾ تلطف معهم في الخطاب لاستمالتهم إلى الايمان أي قال لهم نوح : أخبروني يا قوم إن كنتُ على برهان وأمرٍ جليٍّ من ربي بصحة دعوايَ ﴿وآتاني رحمةً من عنده﴾ أي ورزقني هداية خاصة من عنده وهي النبوة ﴿فعُمِّيتْ عليكم﴾ أي فخفي الأمر عليكم لاحتجابكم بالمادة عن نور الايمان ﴿أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾ أي أنكرهكم على قبولها ونجبركم على الإهتداء بها والحال أنكم كارهون منكرون لها ؟ والاستفهام للإنكار أي لا نفعل ذلك لأنه لا إكراه في الدين﴿ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً﴾ أي لا أسألكم على تبليغ الدعوة أجراً ، ولا أطلب على النصيحة مالاً حتى تتهموني ﴿إن أجريَ إلا على الله﴾ أي ما أطلب ثوابي إلا من الله فإنه هو الذي يثيبني ويجازيني ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾ أي ولست بمبعد هؤلاء المؤمنين الضعفاء عن مجلسي ، ولا بطاردهم عني كما طلبتم ﴿إنهم ملاقوا ربهم﴾ أي إنهم صائرون إلى ربهم ، وفائزون بقربه فكيف أطردهم ؟ ﴿ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾ أي ولكنكم قوم تجهلون قدرهم فتطلبون طردهم ، وتظنون أنكم خير منهم ﴿ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم﴾ أي من يدفع عني عقاب الله إن ظلمتهم وطردتهم ؟ ﴿أفلا تذكّرون﴾ أي أفلا تتفكرون فتعلمون خطأ رأيكم وتنزجرون عنه ؟ ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ أي لا أقول لكم عندي المال الوافر الكثير حتى تتبعوني لغناي ﴿ولا أعلم الغيب﴾ أي ولا أقول لكم إني أعلم الغيب حتى تظنوا بي الربوبية ﴿ولا أقول إني مَلَك﴾ أي ولا أقول لكم إني من الملائكة أُرسلت

(١) التسهيل ٢/١٠٣ .

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

إليكم فأكون كاذباً في دعواي ﴿ولا أقول للذين تزدري أعينُكم لن يؤتيَهم اللهُ خيراً﴾ أي ولا أقول لهؤلاء الضعفاء الذين آمنوا بي واحتقرتموهم لفقرهم لن يمنحهم الله الهداية والتوفيق ﴿اللهُ أعلم بما في أنفسهم﴾ أي أعلم بسرائرهم وضمائرهم ﴿إني إذاً لمن الظالمين﴾ أي إني إن قلت ذلك أكون ظالماً مستحقاً للعقاب ﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرتَ جدالنا﴾ أي قال قوم نوح لنوحٍ عليه السلام : قد خاصمتنا فأكثرتَ خصومتنا ﴿فأْتِنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ أي فائتنا بالعذاب الذي كنت تعدنا به إن كنت صادقاً في ما تقول ﴿قال إنما يأتيكم به الله إن شاء﴾ أي أمر تعجيل العذاب إليه تعالى لا إليَّ فهو الذي يأتيكم به إن شاء ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ أي ولستم بفائتين الله هرباً لأنكم في ملكه وسلطانه ﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردتُ أن أنصح لكم﴾ أي ولا ينفعكم تذكيري إياكم ونصحي لكم ﴿إن كان الله يريدُ أن يغويكم﴾ أي إن أراد الله إضلالكم وهو جواب لما تقدم والمعنى ماذا ينفع نصحي لكم إن إراد الله شقاوتكم وإضلالكم ؟ ﴿هو ربكم وإليه تُرجعون﴾ أي هو خالقكم والمتصرف في شئونكم ، وإليه مرجعكم ومصيركم فيجازيكم على أعمالكم ﴿أم يقولون افتراه﴾ أي أيقول كفار قريش اختلق محمد هذا القرآن من عند نفسه[1] ﴿قل إن افتريتُه فعليَّ إجرامي﴾ أي قل لهم يا محمد إن كنت قد افتريت هذا القرآن فعليَّ وزري وذنبي ، ولا تؤاخذون أنتم بجريرتي ﴿وأنا بريء مما تُجْرمون﴾ أي وأنا بريءٌ من إجرامكم بكفركم وتكذيبكم ، والآية اعتراضٌ بين قصة نوح للإشارة إلى أن موقف مشركي مكة كموقف المشركين من قوم نوح في العناد والتكذيب ﴿وأُوحي إلى نوحٍ أنه لن يؤمن من قومك إلاّ من قد آمن﴾ أي أوحى الله إلى نوحٍ أنه لن يتبعك ويصدِّق برسالتك إلا من قد آمن من قبل ﴿فلا تبتئسْ بما كانوا يفعلون﴾ أي فلا تحزن بسبب كفرهم وتكذيبهم لك فإني مهلكهم ﴿واصنع الفُلْك بأعيننا﴾ أي اصنع السفينة تحت نظرنا وبحفظنا ورعايتنا ﴿ووحينا﴾ أي وتعليمنا لك قال مجاهد : أي كما نأمرك ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ أي لا تشفع فيهم

(١) هذا رأي أكثر المفسرين ، وذهب ابن عطية وأبو حيان إلى أن الآية من جملة قصة نوح وأن الضمير عائد إلى قوم نوح والمعنى أيقولون افترى نوح هذه الأخبار الخ .

مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ

فإني مهلكهم لا محالة ﴿إنهم مُغْرقون﴾ أي هالكون غرقاً بالطوفان ﴿ويصنعُ الفُلْك﴾ حكايةُ حالٍ ماضيةٍ لاستحضارها في الذهن أي صنع نوحُ السفينة كما علّمه ربُّه ﴿وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه﴾ أي كلما مرَّ عليه جماعة من كبراء قومه هزءوا منه وضحكوا وقالوا : يا نوحُ كنتَ بالأمس نبياً ، وأصبحتَ اليوم نجاراً !! ﴿قال إن تسخروا منّا﴾ أي إن تهزءوا منا اليوم ﴿فإنّا نسخر منكم كما تسخرون﴾ أي فإنّا سنسخر منكم في المستقبل عندما تغرقون مثل سخريتكم منا الآن ، فأنتم أولى بالسخرية والاستهزاء ﴿فسوف تعلمون﴾ وعيدٌ وتهديد أي سوف تعلمون عاقبة التكذيب والاستهزاء ﴿من يأتيه عذابٌ يخزيه﴾ أي عذابٌ يُذلُّه ويهينه وهو الغرق ﴿ويحلُّ عليه عذابٌ مقيم﴾ أي وينزل عليه عذاب دائم لا ينقطع وهو عذاب جهنم ﴿حتى إذا جاء أمرنا﴾ أي جاء أمرنا الموعود بالطوفان ﴿وفار التنور﴾ أي فار الماء من التنور الذي يوقد به النار قال العلماء : جعل الله ذلك علامة لنوح وموعداً لهلاك قومه ، وقال ابن عباس : التنور وجهُ الأرض قال الطبري : والعرب تسمي وجه الأرض تنور الأرض ، قيل له : إذا رأيتَ الماء على وجه الأرض فاركب أنت ومن معك[1] في السفينة وقال ابن كثير : التنور وجه الأرض أي صارت الأرض عيوناً تفور ، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار صارت تفور ماءً ، وهذا قول جمهور السلف والخلف[2] ﴿قلنا احملْ فيها من كلٍ زوجين اثنين﴾ أي احمل في السفينة من كل صنفٍ من المخلوقات اثنين : ذكراً ، وأنثى ﴿وأهلَكَ إلا من سبَق عليه القولُ﴾ أي واحمل قرابتك أيضاً أولادك ونساءك إلا من حكم الله بهلاكه ، والمراد به ابنهُ الكافر « كنعان » وامرأته « واعلة » ﴿ومن آمن﴾ أي واحمل معك من آمن من أتباعك ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾ أي وما آمن بنوح إلا نزرٌ يسير مع طول إقامته بينهم وهي مدة تسعمائة وخمسين سنة ، قال ابن عباس : كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم ، وعن كعب : كانوا اثنين وسبعين نفساً ، وقيل : كانوا عشرة[3] ﴿وقال اركبوا فيها باسم الله مجْريها ومُرْساها﴾ أي وقال نوح لمن آمن به اركبوا في السفينة، باسم الله يكون جريُها على وجه الماء ، وباسم الله يكون رسوُّها واستقرارها قال الطبري : المعنى بسم الله حين تجري وحين تُرسي ، أي حين تسير وحين تقف[4] ﴿إنَّ ربي لغفور رحيم﴾ أي ساتر لذنوب التائبين ، رحيمٌ بالمؤمنين حيث نجاهم من الغرق ﴿وهي تجري بهم في موجٍ كالجبال﴾ أي والسفينة تسير بهم وسط الأمواج ، التي هي كالجبل في العِظَم والارتفاع ، بإذن الله وعنايته ولطفه قال الصاوي : رُوي أن الله أرسل المطر

(١) بعد أن ذكر الإمام الطبري أقوال السلف في المراد بالتنور قال : وأولى هذه الأقوال عندنا قولُ من قال : هو التنور الذي يخبز فيه لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب ، وكلام الله يحمل على الأغلب الأشهر . انظر الطبري ١٢/٤٠ . (٢) المختصر ٢/ ٢٢٠ .

(٣) مختصر ابن كثير ٢/٢٢٠ . (٤) الطبري ١٢/ ٤٤ .

﴿فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾

أربعين يوماً وليلة ، وخرج الماء من الأرض ينابيع كما قال تعالى ﴿ففتحنا أبواب السماء بماءٍ مُنْهمرٍ وفجَّرنا الأرضَ عُيوناً فالتقى الماءُ على أمرٍ قدْ قُدر﴾ وارتفع الماء على أعلى جبل أربعين ذراعاً حتى أغرق كل شيء[١] ﴿ونادى نوحٌ ابنه وكانَ في مَعْزل﴾ أي ونادى نوحٌ ولده « كنعان » قبيل سير السفينة وكان في ناحيةٍ منها لم يركب مع المؤمنين ﴿يا بُنيَّ اركبْ معنا﴾ أي اركب معنا ولا تهلكْ نفسك بالغرق ﴿ولا تكن مع الكافرين﴾ أي فتغرق كما يغرقون ﴿قال سآوي إلى جبلٍ يعصمني من الماء﴾ أي سأصعد إلى رأس جبل أتحصن به من الغرق ، ظناً منه أن الماء لا يصل إلى رءوس الجبال ﴿قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾ أي قال له أبوه نوح : لا معصوم اليوم من عذاب الله ولا ناجي من عقابه إلا من رحمه الله ﴿وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾ أي حال بين نوحٍ وولده موجُ البحر فغرق ﴿وقيل يا أرضُ ابلعي ماءك﴾ أي انشقي وابتلعي ما على وجهك من الماء ﴿ويا سماءُ أقلعي﴾ أي أمسكي عن المطر ﴿وغيضَ الماءُ﴾ أي ذهب في أغوار الأرض قال مجاهد : نقص الماء ﴿وقُضي الأمرُ﴾ أي تمَّ أمر الله بإغراق من غرق ، ونجاة من نجا ﴿واستوت على الجودي﴾ أي استقرت السفينة على جبل الجودي بقرب الموصل ﴿وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ أي هلاكاً وخساراً لمن كفر بالله وهي جملة دعائية قال الألوسي : ولا يخفى ما في الآية من الدلالة على عموم هلاك الكفرة ، بل على عموم هلاك أهل الأرض ما عدا أهل السفينة ، ويدل عليه ما رُوي أن الغرقَ أصاب امرأة معها صبيٌّ لها فوضعته على صدرها ، فلما بلغها الماء وضعته على منكبها ، فلما بلغها الماء رفعته بيديها ، فلو رحم الله أحداً من أهل الأرض لرحمها[٢] ﴿ونادى نوحٌ ربَّه فقال ربِّ إن ابني من أهلي﴾ أي نادى نوح ربَّه متضرعاً إليه فقال : ربِّ إن ابني « كنعان » من أهلي وقد وعدتني بنجاتهم ﴿وإنَّ وعدكَ الحقُّ﴾ أي وعدك حقٌ لا خُلْف فيه ﴿وأنت أحكم الحاكمين﴾ أي وأنت يا ألله أعدل الحاكمين بالحق ﴿قال يا نوحُ إنه ليسَ من أهلِك﴾ أي قال له ربه : يا نوحُ إنَّ ولدك هذا ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم لأنه كافر ولا ولاية بين المؤمن والكافر ﴿إنه عملٌ غيرُ صالح﴾ أي إنَّ عمله سيءٌ غير صالح ﴿فلا تسألْنِ ما ليس لك به علم﴾ أي لا تطلب مني أمراً لا تعلم أصوابٌ هو أم غير صواب ؟ ﴿إني أعظك أن تكون من

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ٢١٦ . (٢) روح المعاني ١٢/ ٦٢ .

قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

الجاهلين﴾ أي إني أنبهك وأنصحك خشية أن تكون من الجاهلين قال في التسهيل : وليس في ذلك وصفٌ له بالجهل ، بل فيه ملاطفةٌ وإكرام[1] **﴿قال ربِّ إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم﴾** أي قال نوح معتذراً إلى ربه عمّـا صدر عنه: ربّ إني أستجير بك من أن أسألك أمراً لا يليق بي سؤ اله **﴿وإلا تغفرْ لي وترحمني أكنْ من الخاسرين﴾** أي وإلا تغفر لي زلتي ، وتتداركني برحمتك ، أكنْ ممن خسر آخرته وسعادته **﴿قيل يا نوح اهبط بسلامٍ منا﴾** أي اهبط من السفينة بسلامة وأمن **﴿وبركاتٍ عليك وعلى أممٍ ممن معك﴾** أي وخيراتٍ عظيمة عليك وعلى ذرية من معك من أهل السفينة ، قال القرطبي : دخل في هذا كل مؤ من إلى يوم القيامة[2] **﴿وأممٌ سنمتعهم﴾** أي وأمم أخرى من ذرية من معك نمتعهم متاع الحياة الدنيا وهم الكفرة المجرمون **﴿ثم يمسُّهم منا عذاب أليم﴾** أي ثم نذيقهم في الآخرة العذاب الأليم وهو عذاب جهنم **﴿تلك من أنْباء الغيب﴾** أي هذه القصة وأشباهها من أخبار الغيوب السالفة التي لم تشهدها **﴿نوحيها إليك﴾** أي نعلمك بها يا محمد بواسطة الوحي **﴿ما كنتَ تعلمُها أنتَ ولا قومُك من قبلِ هذا﴾** أي لم يكن عندك ولا عند أحدٍ من قومك علمٌ بها من قبل هذا القرآن **﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾** أي فاصبر على أمر الله بتبليغ الدعوة كما صبر نوح ، فإن العاقبة المحمودة لمن اتقى الله ، وفيه تسلية له ﷺ على أذى المشركين .

البَـلاَغَـة : ١ ـ **﴿فعُمِّيَتْ عليكم﴾** شبّه الذي لا يهتدي بالحجة لخفائها عليه ، بمن سلك مفازةً لا يعرف طرقها ومسالكها ، واتبع دليلاً أعمى فيها على سبيل الاستعارة التمثيلية.

٢ ـ **﴿أفلا تذكَّرون﴾** الاستفهام للإنكار والتقريع .

٣ ـ **﴿فائتنا بما تعدنا﴾** الأمر يراد به التهكم والاستهزاء .

٤ ـ **﴿فعليَّ إجرامي﴾** مجاز بالحذف أي عقوبة إجرامي وجاء بـ **﴿إن﴾** الدالة على الشك لبيان أنه على سبيل الفرض **﴿إن افتريته﴾** بخلاف إجرامهم فإنه محقّق **﴿وأنا بريءٌ مما تُجْرمون﴾** .

٥ ـ **﴿واصنع الفُلْك بأعيننا﴾** الأعين كناية عن الرعاية والحفظ يقال للمسافر « صحبتك عين الله » أي رعاية الله وحفظه .

---

(١) التسهيل ٢/١٠٦ . (٢) القرطبي ٩/٤٨ .

٦ - ﴿يا أرضُ ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي﴾ بين الأرض والسماء طباقٌ ، وبين ابلعـي وأقلعـي جناسٌ ناقص ، وكلاهما من المحسنات البديعية .

فـائـدَة : قال ابن عباسٍ في قوله تعالى ﴿إنه ليس من أهلك﴾ كان ابنه من صلبه ، ولكنه لم يكن مؤمناً ، وما بغت امرأة نبيٍّ قط ومعنى الآية : إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك[١] .

أقول : نبهت الآية على أن أهله هم الصلحاء ، أهل دينه وشريعته ، فمن لا صلاح له لا نجاة له ، ومدار الأهلية القرابة الدينية ، لا القرابة البدنية .

أبـي الإسـلام لا أبَ لي سواه إذا افتخـروا بقيسٍ أو تميم

لطيفَـة : روي أن أعرابياً سمع هذه الآية ﴿وقيل يا أرضُ ابلعي ماءك ، ويا سماء أقلعي . .﴾ الآية فقال : هذا كلام القادرين لا يشبه كلام المخلوقين ، ويروى أن « ابن المقفع » - وكان أفصح أهل زمانه - رام أن يعارض القرآن فنظم كلاماً ، وجعله مفصلاً ،وسمّـاه سوراً، فمرَّ يوماً بصبي فسمعه يقرأ الآية فرجع إلى بيته ومحا ما كان قد بدأ به ، وقال : أشهد أن هذا لا يُعارض أبـداً ، ومـا هو من كلام البشر[٢] .

تـنبيـه : هذه الآية بلغت من أسرار الإعجاز غايتها ، وحوت من بدائـع الفوائـد نهايتهـا ، وجمعت من المحاسن اللفظية والمعنوية ما يضيق عنه نطاق البيان ، وقد اهتم بإظهار لطائفهـا وأسرارهـا العلاّمة أبو حيان حيث قال رحمه الله وطيَّب ثراه : في هذه الآية أحدٌ وعشرون نوعاً من البديع : المناسبةُ في قوله ﴿أقلعي وابلعـي﴾ والمطابقـةُ بذكر الأرض والسماء ، والمجـازُ في ﴿يا سماء﴾ المراد مطـر السماء ، والاستعارةُ في ﴿أقلعي﴾ والإشارة في ﴿وغيضَ الماءُ﴾ فإنها إشارة إلى معانٍ كثيرة ، والتمثيلُ في ﴿وقُضي الأمر﴾ عبَّر بالأمر عن إهلاك الهالكين ونجاة الناجيـن ، والإرداف في ﴿واستوت على الجـودي﴾ فلفـظ واستوت كلام تامٌ أردفه بلفظ ﴿على الجـودي﴾ قصـداً للمبالغـة في التمـكن بهـذا المكان ، والتعليلُ في ﴿وغيض الماءُ﴾ فإنه علة للاستواء ، والاحتراسُ في ﴿بعداً للقوم الظالمين﴾ وهو أيضاً ذم لهم ، والإيجاز وهو ذكر القصة باللفظ القصير مستوعباً للمعاني الجمَّة ، وعدَّد بقية الوجوه وهي : الإيضاحُ ، والمساواة ، وحسنُ النَّسق ، وصحة التقسيم ، وحسن البيان ، والتمـكين ، والتجنيس ، والتسـهيم ، والمقابلـة ، والتهذيب ،والوصف[٣] .

« مقتطفات من تفسير سيد قطب في ظلال القرآن »

وننقل هنا فقراتٍ من تفسير شهيد الإسلام « سيد قطب » عليه الرحمة والرضوان حيث قال ما نصه :

(١) الطبري ١٢/ ٥١ . (٢) روح المعاني ١٢/ ٦٣ . (٣) النهر المادّ من البحر ٥/ ٢٢٧ .

« وعند هذا المقطع من قصة نوح يلتفت السياقُ لفتةً عجيبة ، إلى استقبال مشركي قريش لمثل هذه القصة التي تشبه أن تكون قصَّتهم مع الرسول ﷺ ودعواهم أن محمداً يفتري هذا القصص ﴿أم يقولون افتراه ؟ قل إن افتريتُه فعليَّ إجرامي وأنا بريءٌ مما تجرمون﴾ فالافتراء إجرام وعليَّ تبعته ، وأنا أعرف أنه إجرام فمستبعدٌ أن أرتكبه ، وهذا الاعتراضُ لا يخالف سياق القصة في القرآن لأنها إنما جاءت لتأدية غرضٍ معيَّن ، ثم يمضي السياقُ في قصة نوح يعرض مشهداً ثانياً ، مشهد نوح يتلقى وحي ربه وأمره ﴿وأُوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تَبْتَئِس بما كانوا يفعلون . واصنع الفُلك بأعيننا ووحينا﴾ أي برعايتنا وتعليمنا ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ فقد تقرر مصيرهم ، وانتهى الإنذار ، وانتهى الجدل . والمشهد الثالث من مشاهد القصة : مشهدُ نوح يصنع الفلك ﴿ويصنع الفلك وكلما مرَّ عليه ملأٌ من قومه سخروا منه﴾ والتعبير بالمضارع هو الذي يعطي المشهد حيويته وجدَّته ، فنحن نراه ماثلاً لخيالنا من وراء هذا التعبير ، وقومه المتكبرون يمرون به فيسخرون ، يسخرون من الرجل الذي كان يقول لهم إنه رسول ، ثم إذا هو ينقلب نجاراً يصنع مركباً ، والمشهد الرابع : مشهد التعبئة عندما حلت اللحظة المرتقبة ﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كلٍ زوجين اثنين . .﴾ ثم يأتي المشهد الهائل المرهوب : مشهد الطوفان ﴿وهي تجري بهم في موجٍ كالجبال . . .وحال بينهما الموجُ فكان من المغرقين﴾ إن الهول هنا هولان : هولٌ في الطبيعة الصامتة ، وهولٌ في النفس البشرية يلتقيان . وإننا بعد آلاف السنين لنمسك أنفسنا ـ ونحن نتابع السياق ـ والهولُ يأخذنا كأننا نشهد المشهد ، ﴿وهي تجري بهم في موجٍ كالجبال﴾ ونوحٌ الوالد الملهوف يبعث بالنداء تلو النداء ، وابنه الفتى المغرور يأبى إجابة الدعاء ، والموجة الغامرة تحسم الموقف في سرعةٍ خاطفة راجفة ﴿وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾ وينتهي كل شيء ، وكأن لم يكن دعاء ولا جواب ، وتلك سمة بارزة في تصوير القرآن . وتهدأ العاصفة ، ويخيِّم السكون ، ويقضى الأمر ، ويوجه الخطاب إلى الأرض والسماء بصيغة العاقل ، فتستجيب كلتاهما للأمر الفاصل ، فتبلع الأرض وتكف السماء ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ، وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي ، وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ ».

* * *

قال الله تعالى: ﴿وإلى عادٍ أخاهم هوداً . . إلى . . رحمتُ الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾ من آية (٥٠) إلى نهاية آية (٧٣) .

المنَاسَبَة : هذه هي القصة الثانية من القصص التي ذكرها الله في هذه السورة الكريمة ، وهي قصة هود مع قومه عاد ، وقد ذكرها تعالى بالإسهاب ، ولهذا سميت السورة « سورة هود » ثم أعقبها بالحديث عن ثمود وهي القصة الثالثة في هذه السورة ، ثم قصة إبراهيم وبشارة الملائكة له بإسحاق وهي القصة الرابعة .

اللغَــة : ﴿مدراراً﴾ كثيراً متتابعاً من درَّت السماء تدرُّ إذا سكبت المطر بسخاء ، والمدرارُ : الكثير الدرّ وهو من أبنية المبالغة ﴿اعتراك﴾ أصابك ﴿ناصيتها﴾ الناصيةُ : منبت الشعر في مقدم الرأس ﴿جبار﴾ الجبار : المتكبر ﴿عنيد﴾ العنيد : الطاغي الذي لا يقبل الحق ولا يذعن له ، قال أبو عبيدة : العنيد والمعاند: المعارضُ بالخلاف ﴿استعمركم فيها﴾ جعلكم عمَّارهـا وسكانها ﴿تخسير﴾ تضليل وإبعاد عن الخير ﴿حنيذ﴾ مشوي يقال : حنذتُ الشاة أحنِذُها حنْذاً أي شويتها ﴿نكِرهم﴾ أنكرهم يقال : نكره وأنكره واستنكره بمعنى واحد وهو أن يجده على غير ما عهده قال الشاعر :

وأنكرتْــي ومــا كان الــذي نكِرت ... من الحـوادث إلا الشيبَ والصَّلَعا[١]

فجمع الشاعر بين اللغتين ﴿أوجس﴾ استشعر وأحسَّ ﴿بعلي﴾ زوجي .

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾

التفسِــير : ﴿وإلى عادٍ أخاهم هوداً﴾ أي ولقد أرسلنا إلى قبيلة عاد نبياً منهم اسمه هود ﴿**قال يا قوم اعبدوا الله**﴾ أي اعبدوا الله وحده دون الآلهة والأوثان ﴿**ما لكم من إله غيره**﴾ أي ليس لكم معبودٌ غيره يستحق العبادة ﴿**إن أنتم إلا مفترون**﴾ أي ما أنتم في عبادتكم غير الله إلا كاذبون عليه جل وعلا ، لأنه لا إله سواه ﴿**يا قوم لا أسألكم عليه أجراً**﴾ أي لا أطلب منكم على النصح والبلاغ جزاءً ولا ثواباً ﴿**إن أجريَ إلا على الذي فطرني**﴾ أي ما ثوابي وجزائي إلا على الله الذي خلقني ﴿**أفلا تعقلون**﴾ أي أتغفلون عن ذلك فلا تعقلون أن من يدعوكم إلى الخير دون إرادة جزاءٍ منكم هو لكم ناصح أمين ؟ والاستفهام للإنكار والتقريع ﴿**ويا قوم استغفروا ربكم**﴾ أي استغفروه من الكفر والإشراك ﴿**ثم توبوا إليه**﴾ أي ارجعوا إليه بالطاعة والإستقامة على دينه والتمسك بالايمان والتوحيد ﴿**يرسل السماء عليكم مِدْرارا**﴾ أي يرسل عليكم المطر غزيراً متتابعاً ، رُوي أن عاداً كان حُبس عنهم المطر ثلاث سنين حتى كادوا يهلكون ، فأمرهم هودٌ بالتوبة والاستغفار ووعدهم على ذلك بنزول الغيث والمطر ، وفي الآية دليل على أن التوبة والاستغفار ، سببٌ للرحمة ونزول الأمطار ﴿**ويزدكم قوةً إلى قوتكم**﴾ أي ويزدكم عزاً وفخاراً فوق عزكم وفخاركم قال مجاهد : شدة إلى شدتكم[٢] ، فإنهم كانوا في غاية القوة والبطش حتى قالوا ﴿من أشدُّ منا قوة﴾ ؟ ﴿**ولا تتولّوا مجرمين**﴾ أي لا تعرضوا عما أدعوكم إليه مصرّين على الإجرام ، وارتكاب الآثام ﴿**قالوا يا هودُ ما جئتنا ببينة**﴾ أي ما جئتنا بحجةٍ واضحة تدل على صدقك قال الآلوسي : وإنما قالوه لفرط عنادهم ، أو لشدة

(١) القرطبي ٩/ ٦٦ . (٢) الطبري ١٢/ ٥٨ .

وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾

عَماهم عن الحق[1] ﴿وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك﴾ أي لسنا بتاركين عبادة الأصنام من أجل قولك ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ أي لسنا بمصدقين لنبوتك ورسالتك ، والجملة تقنيطٌ من دخولهم في دينه ، ثم نسبوه إلى الخبل والجنون فقالوا ﴿إن نقول إلا اعتراك بعضُ آلهتنا بسوء﴾ أي ما نقول إلا أصابك بعض آلهتنا بجنون لما سببتها ونهيتنا عن عبادتها قال الزمخشري : دلت أجوبتهم المتقدمة على أن القوم كانوا جفاةً ، غلاظ الأكباد ، لا يلتفتون إلى النصح ، ولا تلين شكيمتهم للرشد ، وقد دلَّ قولهم الأخير على جهلٍ مفرط ، وبلَهٍ متناهٍ ، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم[2] ﴿قال إني أُشْهِدُ اللَّهَ﴾ أي قال هودٌ إني أُشهدُ الله على نفسي ﴿واشهدوا أني بريءٌ مما تشركون من دونه﴾ أي وأشهدكم أيضاً أيها القوم بأنني بريءٌ مما تشركون في عبادة الله من الأوثان والأصنام ﴿فكيدوني جميعاً ثم لا تُنْظِرون﴾ أي فاحتالوا في هلاكي أنتم وآلهتكم ثم لا تمهلوني طرفة عين قال أبو السعود : وهذا من أعظم المعجزات ، فإنه عليه السلام كان رجلاً مفرداً بين الجم الغفير من عتاة عاد ، الغلاظ الشداد ، وقد حقّرهم وهيّجهم بانتقاص آلهتهم ، وحثهم على التصدّي له فلم يقدروا على مباشرة شيء ، وظهر عجزهم عن ذلك ظهوراً بيناً[3] وقال الزمخشري : من أعظم الآيات أن يُواجه بهذا الكلام رجلٌ واحد أمة عطاشاً إلى إراقة دمه ، يرمونه عن قوسٍ واحدة ، وذلك لثقته بربه وأنه يعصمه منهم ، فلا تنشب فيه مخالبهم ، ومثله قول نوح ﴿فأجمعوا أمركم وشركاءكم﴾[4] ﴿إني توكلتُ على الله ربي وربكم﴾ أي إني لجأت إلى الله وفوضت أمري إليه تعالى مالكي ومالككم ﴿ما من دابةٍ إلا هو آخذٌ بناصيتها﴾ أي ما من نسمةٍ تدبُّ على وجه الأرض إلا هي في قبضته وتحت قهره ، والأخذُ بالناصية تمثيلٌ للملك والقهر ، والجملةُ تعليلٌ لقوة توكله على الله وعدم مبالاته بالخلق ﴿إنَّ ربي على صراطٍ مستقيم﴾ أي إن ربي عادل ، يجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، لا يظلم أحداً شيئاً ﴿فإن تولَّوْا فقد أبلغْتُكم ما أُرسلتُ به إليكم﴾ أي فإن تُعرضوا عن قبول دعوتي فقد أبلغتكم أيها القوم رسالة ربي ، وما على الرسول إلا البلاغ ﴿ويستخلفُ ربي قوماً غيركم﴾ أي فسوف يهلككم الله ويستخلف قوماً آخرين غيركم ، وهذا وعيدٌ شديد ﴿ولا تضرونه شيئاً﴾ أي لا تضرون الله شيئاً بإشراككم ﴿إن ربي على كل شيء حفيظ﴾ أي إنه سبحانه رقيبٌ على كل شيء ، وهو يحفظني من شركم ومكركم ﴿ولما

(١) الألوسي ١٢/ ٨١ . (٢) الكشاف ٢/ ٤٠٣ . (٣) أبو السعود ٣/ ١٥ . (٤) الكشاف ٢/ ٤٠٣ .

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا﴾

جاء أمرنا﴾ أي ولما جاء أمرنا بالعذاب ، وهو ما نزل بهم من الريح العقيم **﴿نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمةٍ منا﴾** أي نجينا من العذاب هوداً والمؤمنين بفضلٍ عظيم ونعمة منا عليهم **﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾** أي وخلصناهم من ذلك العذاب الشديد ، وهي الريح المدمرة التي كانت تهدم المساكن ، وتدخل في أنوف أعداء الله وتخرج من أدبارهم ، وتصرعهم على وجوههم حتى صاروا كأعجاز نخلٍ خاوية **﴿وتلك عادٌ جحدوا بآيات ربهم﴾** الإشارة لآثارهم أي تلك آثار المكذبين من قوم عاد انظروا ماذا حلَّ بهم ، حين كفروا بالله ، وأنكروا آياته في الأنفس والآفاق الدالة على وحدانيته ؟ **﴿وعصوا رسله﴾** أي عصوا رسوله هوداً، وجمعه تفظيعاً لحالهم ، وإظهاراً لكمال كفرهم وعنادهم ، ببيان أن عصيانهم له عصيانٌ لجميع الرسل السابقين واللاحقين لاتفاق كلمتهم على التوحيد **﴿واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾** أي أطاعوا أمر كل مستكبر على الله ، حائدٍ عن الحق ، لا يُذعن له ولا يقبله ، يريد به الرؤساء والكبراء **﴿وأُتبعوا في هذه الدنيا لعنةً﴾** أي وأُلحقوا باللعنة والطرد من رحمة الله في الدنيا **﴿ويوم القيامة﴾** أي ويوم القيامة أيضاً تلحقهم اللعنة قال الرازي : جعل اللعن رديفاً لهم ومتابعاً ومصاحباً في الدنيا والآخرة ، ومعنى اللعنة الإبعادُ من رحمة الله تعالى ومن كل خير[1] **﴿ألاَ إنَّ عاداً كفروا ربهم﴾** هذا تشنيعٌ لكفرهم وتهويلٌ بحرف التنبيه وبتكرار اسم عاد أي ألا فانتبهوا إنَّ عاداً كفروا بربهم إذْ عبدوا غيره ، وجحدوا نعمته إذ كذبوا رسوله ، فاستحقوا اللعنة في الدنيا ، واللعنة في الآخرة **﴿ألا بعداً لعادٍ قوم هود﴾** أي أبعدهم الله من الخير ، وأهلكهم عن بكرة أبيهم ، وهي جملة دعائية بالهلاك واللعنة **﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾** أي ولقد أرسلنا إلى قوم ثمود نبياً منهم وهو صالح عليه السلام **﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره﴾** أي اعبدوا الله وحده ليس لكم ربٌّ معبود سواه **﴿هو أنشأكم من الأرض﴾** أي هو تعالى ابتدأ خلقكم من الأرض ، فخلق آدم من تراب ثم ذريته من نطفة **﴿واستعمركم فيها﴾** أي جعلكم عمَّارها وسكانها تسكنون بها **﴿فاستغفروه ثم توبوا إليه﴾** أي استغفروه من الشرك ثم ارجعوا إليه بالطاعة **﴿إن ربي قريبٌ مجيب﴾** أي إنه سبحانه قريب الرحمة مجيب الدعاء **﴿قالوا يا صالحُ قد كنت فينا مرجواً قبل هذا﴾** أي كنا نرجو أن تكون فينا سيّداً قبل تلك المقالة فلما قلتها انقطع رجاؤنا فيك **﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبدُ آباؤنا﴾** أي أتنهانا يا صالح عن عبادة الأوثان التي عبدها آباؤنا ؟ **﴿وإننا لفي شكٍ ممّا تدعونا إليه مريب﴾** أي وإننا لشاكون في

---

(١) الفخر الرازي ١٨/ ١٦ .

لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ

دعواك ، وأمرُك مريب يوجب التهمة ﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بينة من ربي﴾ أي أخبروني إن كنتُ على برهانٍ وحجة واضحةٍ من ربي ﴿وآتاني منه رحمة﴾ أي وأعطاني النبوة والرسالة ﴿فمن ينصرني من الله إن عصيته﴾ أي فمن يمنعني من عذاب الله إن عصيت أمره ؟ ﴿فما تزيدونني غير تخسير﴾ أي فما تزيدونني بموافقتكم وعصيان أمر الله غير تضليل وإبعاد عن الخير قال الزمخشري : ﴿غير تخسير﴾ يعني تخسّرون أعمالي وتبطلونها[1] ﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية﴾ أضاف الناقة إلى الله تشريفاً لها لأنها خرجت من صخرة صماء بقدرة الله حسب طلبهم أي هذه الناقة معجزتي لكم وعلامة على صدقي ﴿فذروها تأكل في أرض الله﴾ أي دعوها تأكل وتشرب في أرض الله فليس عليكم رزقها ﴿ولا تمسُّوها بسوءٍ فيأخذكم عذابٌ قريبٌ﴾ أي لا تنالوها بشيءٍ من السوء فيصيبكم عذاب عاجل لا يتأخر عنكم ﴿فعقروها فقال تمتعـوا في داركم ثلاثةَ أيام﴾ أي ذبحوا الناقة فقال لهم صالح : استمتعوا بالعيش في بلدكم ثلاثة أيام ثم تهلكون قال القرطبي : إنما عقرها بعضهم وأضيف إلى الكل لأنه كان برضى الباقين ، فعقرت يوم الأربعاء فأقاموا يوم الخميس والجمعة والسبت وأتاهم العذاب يوم الأحد[2] ﴿ذلك وعـدٌ غـير مكذوب﴾ أي وعـدٌ حق غـير مكذوب فيه ﴿فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه﴾ أي فلما جاء أمرنا بإهلاكهم نجينا صالحاً ومن آمن به ﴿برحمةٍ منا﴾ أي بنعمةٍ وفضلٍ عظيم من الله ﴿ومن خزي يومئذٍ﴾ أي ونجيناهم من هوان ذلك اليوم وذُلّه ﴿إن ربّكَ هو القويُّ العزيز﴾ أي القوي في بطشه ، العزيز في ملكه ، لا يغلبه غالب ، ولا يقهره قاهر ﴿وأخذَ الّذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ أي أخذتهم صيحـةٌ من السماء تقطعـت لهـا قلوبهم ، فأصبحوا هامدين موتى لا حِرَاك بهم كالطير إذا جثمت ﴿كأن لم يَغْنوا فيها﴾ أي كأن لم يقيموا في ديارهم ولم يَعْمُروها ﴿ألاَ إنَّ ثموداْ كفروا ربهم ألاَ بعداً لثمود﴾ أي ألا فانتبهوا أيها القوم إن ثمود كفروا بآيات ربهم فسحقاً لهم وبُعْداً ، وهلاكاً ولعنة ﴿ولقد جاءت رسلنا إبـراهيم بالبشرى﴾ هذه هي القصـة الرابعة وهي قصة لوط وهلاك قومه المكذبين أي جاءت الملائكةُ الذين أرسلناهم لإهلاك قوم لوط إبراهيمَ

(١) الكشاف ٢/ ٤٠٨ . (٢) القرطبي ٩/ ٦٠ .

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ۝٦٩ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ۝٧٠ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ۝٧١ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ۝٧٢ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ۝٧٣﴾

بالبشارة بإسحاق[1] ، قال القرطبي : لما أنزل الله الملائكة لعذاب قوم لوط مرّوا بإبراهيم فظنهم أضيافاً ، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل قاله ابن عباس ، وقال السدي : كانوا أحد عشر ملكاً على صورة الغلمان الحسان الوجوه[2] ﴿قالوا سلاماً﴾ أي سلموا عليه سلاماً ﴿قال سلامٌ﴾ أي قال لهم إبراهيم : سلام عليكم قال المفسرون : ردَّ عليهم التحية بأحسن من تحيتهم لأنه جاء بها جملة اسميّة وهي تدل على الثبات والاستمرار ﴿فما لبثَ أن جاء بعجلٍ حنيذٍ﴾ أي فما أبطأ ولا تأخر مجيئه حتى جاء بعجلٍ مشويٍّ فقدمه لهم قال الزمخشري : والعجل : ولد البقرة ويسمى « الحسيل » وكان مال إبراهيم عليه السلام البقر ، والحنيذ : المشوي بالحجارة المحماة في أخدود وقيل : الذي يقطر دسمه ويدل عليه « بعجلٍ سمين »[3] ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكِرَهم﴾ أي فلما رآهم لا يمدون أيديهم إلى الطعام ولا يأكلون منه أنكرهم ﴿وأوجس منهم خيفة﴾ أي أحسَّ منهم الخوف والفزع قال قتادة : كان العرب إذا نزل بهم ضيف فلم يطعم من طعامهم ظنوا أنه لم يجيء بخير وأنه جاء يحدث نفسه بشرّ[4] ﴿قالوا لا تخفْ إنا أُرسلنا إلى قوم لوط﴾ أي قالت الملائكة : لا تخف فإنا ملائكة ربك لا نأكل ، وقد أُرسلنا لإهلاك قوم لوط ﴿وامرأته قائمة فضحكت﴾ أي وامرأة إبراهيم واسمها « سارة » قائمة وراء الستر تسمع كلامهم فضحكت استبشاراً بهلاك قوم لوط ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ أي بشرتها الملائكة بإسحاق ولداً لها ويأتيه مولودٌ هو يعقوب ابناً لولدها ﴿قالت يا يُويلتىَ أألد وأنا عجوزٌ وهذا بعلي شيخاً﴾ أي قالت سارة متعجبة : يا لهفي ويا عجبي أألد وأنا امرأة مسنّة وهذا زوجي إبراهيم شيخ هرم أيضاً فكيف يأتينا الولد ؟ ﴿إن هذا لشيءٌ عجيب﴾ أي إن هذا الأمر لشيء غريب لم تجر به العادة قال مجاهد : كانت يومئذٍ ابنة تسع وتسعين سنة ، وإبراهيم ابن مائة وعشرين سنة[5] ﴿قالوا أتعجبين من أمر الله﴾ أي أتعجبين من قدرة الله وحكمته في خلق الولد من زوجين هرمين ؟ ليس هذا بمكان عجب على قدرة الله ﴿رحمتُ الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ أي رحمكم الله وبارك فيكم يا أهل بيت إبراهيم ﴿إنه حميد مجيد﴾ أي إنه تعالى محمود ممجّد في صفاته وذاته ، مستحقٌ للحمد والتمجيد من عباده ، وهو تعليل بديع لما سبق من البشارة .

البَـلاغَـة : ١ ـ ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ المراد بالسماء المطر فهو مجاز مرسل لأن المطر ينزل

(١) البشرى هي البشارة بالولد ، وقيل : بهلاك قوم لوط قال الزمخشري : والظاهر الولد . (٢) القرطبي ٩/ ٦٢ .
(٣) الكشاف ٢/ ٤٠٩ . (٤) الطبري ١٢/ ٧١ . (٥) البيضاوي ٢٥٣ .

من السماء ولفظ « مدراراً» للمبالغة أي كثير الدر .

٢ - ﴿فكيدوني جميعاً﴾ أمرٌ بمعنى التعجيز .

٣ - ﴿ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾ استعارة تمثيلية شبّه الخلق وهم في قبضة الله وملكه وتحت قهره وسلطانه بالمالك الذي يقود المقدور عليه بناصيته كما يقاد الأسير والفرس بناصيته .

٤ - ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾ استعارة لطيفة عن كمال العدل في ملكه تعالى فهو مطلع على أمور العباد لا يفوته ظالم ، ولا يضيع عنده معتصم به .

٥ - ﴿ولما جاء أمرنا﴾ الأمر كناية عن العذاب .

٦ - ﴿نجينا هوداً . . ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ التكرار في لفظ الإنجاء لبيان أن الأمر شديد عظيم لا سهل يسير ، ويسمى هذا الإطناب .

٧ - ﴿وعصوا رسله﴾ أي عصوا رسولهم هوداً وفيه تفظيع لحالهم وبيان أن عصيانهم له عصيانٌ لجميع الرسل السابقين واللاحقين ، وهو مجاز مرسل من باب إطلاق الكل وإرادة البعض .

٨ - ﴿ألا إن عاداً . . ألا بعداً لعاد﴾ تكرير حرف التنبيه وإعادة لفظ « عاد » للمبالغة في تهويل حالهم .

تنبيه : لم يقل هود عليه السلام : إني أُشهد الله وأشهدكم وإنما قال: ﴿إني أُشْهد اللَّهَ واشهدوا أني بريء مما تشركون﴾ وذلك لئلا يفيد التشريك بين الشهادتين والتسوية بينهما ، فأين شهادة الله العلي الكبير من شهادة العبد الحقير ؟ !

* * *

قال الله تعالى : ﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروع . . إلى . . ويوم القيامة بئس الرفد المرفود﴾ من آية (٧٤) إلى نهاية آية (٩٩) .

المناسبة : لا تزال الآيات تتحدث عن قصة ضيوف إبراهيم ، وهم الملائكة الذين مروا عليه وهم بطريقهم لإهلاك قوم لوط ، وبشروه بالبشارة السارة بولادة غلام له ، وقد ذكرت الآيات مرورهم على لوط وما حلَّ بقومه من النكال والدمار ، وهي القصة الخامسة ، ثم ذكرت قصة شعيب مع أهل مدين ، وقصة موسى مع فرعون ، وفي جميع هذه القصص عبرٌ وعظات .

اللغة : ﴿الروع﴾ الخوف والفزع ﴿منيب﴾ الإنابة : الرجوع والتوبة ﴿عصيب﴾ شديد في الشر قال الشاعر :

وإنــك إلاّ تُرض بكرَ بن وائلٍ يكنْ لك يومٌ بالعــراق عصيب

﴿يهْرعون﴾ يسرعون قال الفراء : الإهراع الإسراع مع رِعدة يقال أُهرع الرجل إهراعاً أي أسرع في رعدة من برد أو غضب[١] ﴿تُخْزون﴾ أخزاه: أهانه وأذله قال حسان :

فأخـزاكَ ربـي يا عُتَيْبَ بن مالكٍ ولقَّاك قبل الموتِ إحـدى الصَّواعق

﴿سجيل﴾ السّجيل والسّجين : الشديد من الحجر قاله أبو عبيدة ، وقال الفراء : طينٌ طبخ حتى صار كالآجر ﴿منضود﴾ متتابع بعضه فوق بعض في النزول ﴿مسوّمة﴾ معلَّمة من السيما وهي العلامة ﴿شقاقي﴾ الشقاق : العداوة قال الشاعر :

ألاَ من مبلغٌ عني رسولاً فكيف وجدتم طعم الشقاق[٢]

﴿رهطك﴾ رهط الرجل : عشيرته التي يتقوى بهم ﴿الورد﴾ المدخل ﴿الرفد﴾ العطاء والإعانة .

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ

التفسير : ﴿فلما ذهبَ عن إبراهيم الرَّوع﴾ أي فلما ذهب عن إبراهيم الخوفُ الذي أوجسه في نفسه ، واطمأن قلبُه لضيوفه حين علم أنهم ملائكة ﴿وجاءته البشرى﴾ أي جاءته البشارة بالولد ﴿يجادلنا في قوم لوط﴾ أي أخذ يجادل ملائكتنا في شأن إهلاك قوم لوط ، وغرضُه تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون قال المفسرون: لما قالت الملائكة: ﴿إنا مهلكو أهل هذه القرية﴾ قال لهم: أرأيتم إن كان فيها خمسون من المسلمين أتهلكونهم؟ قالوا: لا ، قال: فأربعون؟ قالوا : لا فما زال يتنزّل معهم حتى قال لهم: أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونهم؟ قالوا لا فقال لهم ﴿إن فيها لوطاً ، قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينَّه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾[٣] ﴿إنَّ إبراهيم لحليمٌ﴾ أي غير عجولٍ في الانتقام من المسيء إليه ﴿أواهٌ منيب﴾ أي كثير التأوه والتأسف على الناس لرقة قلبه ، منيب رجّاعٌ إلى طاعة الله ﴿يا إبراهيم أعرضْ عن هذا﴾ أي قالت الملائكة : يا إبراهيم دع عنك الجدال في قوم لوط فقد نفذ القضاء بعذابهم ﴿إنه قد جاء أمر ربك﴾ أي جاء أمر الله بإهلاكهم ﴿وإنهم آتيهم عذابٌ غير مردود﴾ أي نازلٌ بهم عذابٌ غير مصروفٍ عنهم ولا مدفوع ﴿ولمَّا جاءت رسلُنا لوطاً سيء بهم﴾ أي ولما جاءت الملائكة لوطاً أصابه سوء وضجر ، لأنه ظهر أنهم من البشر فخاف عليهم من قومه ﴿وضاقَ بهم ذرعاً﴾ أي ضاق صدره بمجيئهم خشيةً عليهم من قومه الأشرار ﴿وقال هذا يومٌ عصيب﴾ أي شديد في الشر ﴿وجاءه قومُه يُهرعون إليه﴾ أي جاء قومه

(١) القرطبي ٩/ ٧٤ . (٢) الرسول هنا بمعنى الرسالة والبيت للأخطل كذا في القرطبي . (٣) انظر الطبري ١٢/ ٨٠ .

كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا

يسرعون إليه لطلب الفاحشة بالضيوف كأنهم يدفعون إلى ذلك دفعاً **﴿ومن قبلُ كانوا يعملون السيئات﴾** أي ومن قبل ذلك الحين كانت عادتهم إتيان الرجال وعمل الفاحشة فلذلك لم يستحيوا حين جاءوا يهرعون لها مجاهرين قال القرطبي : وكان سبب إسراعهم أن امرأة لوط الكافرة لما رأت الأضياف وجمالهم ، خرجت حتى أتت مجلس قومها فقالت لهم : إن لوطاً قد أضاف الليلة فتيةً ما رأيت مثلهم جمالاً فحينئذٍ جاءوا يُهرعون إليه[1] **﴿قال يا قوم هؤلاء بناتي هنَّ أطهر لكم﴾** أي قال لهم لوط : هؤلاء نساء البلدة أُزوِّجكم بهن فذلك أطهر لكم وأفضل ، وإنما قال بناتي لأن كل نبيٍّ أبٌ لأمته في الشفقة والتربية **﴿فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي﴾** أي اخشوا عذاب الله ولا تفضحوني وتهينوني في ضيوفي **﴿أليس منكم رجلٌ رشيد﴾** أي استفهام توبيخ أي أليس فيكم رجل عاقل يمنع عن القبيح ؟ **﴿قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق﴾** أي قال له قومه : لقد علمت يا لوط ما لنا في النساء من أرب ، وليس لنا رغبة فيهن **﴿وإنك لتعلم ما نريد﴾** أي وأنت تعلم غرضنا وهو إتيان الذكور ، صرّحوا له بغرضهم الخبيث قبّحهم الله **﴿قال لو أنَّ لي بكم قوة﴾** أي لو كان لي قوة أستطيع أن أدفع أذاكم بها **﴿أو آوي إلى ركنٍ شديد﴾** أي ألجأ إلى عشيرة وأنصار تنصرني عليكم ، وجواب « لو » محذوف تقديره لبطشتُ بكم وفي الحديث (رحم الله أخي لوطاً لقد كان يأوي إلى ركنٍ شديد)[2] يريد ﷺ أن الله كان ناصره ومؤيده ، فهو ركنه الشديد وسنده القوي قال قتادة : وذُكر لنا أن الله تعالى لم يبعث نبياً بعد لوط إلا في منعة من عشيرته[3] ، وحين سمع رسل الله تعالى تحسر لوط على ضعفه وانقطاعه من الأنصار **﴿قالوا يا لوطُ إنّا رسلُ ربك لن يصلوا إليك﴾** أي قالت الملائكة للوط : إنا رسلُ ربك أُرسلنا لإهلاكهم وإنهم لن يصلوا إليك بضرر ولا مكروه **﴿فأسْر بأهلك بقِطْعٍ من الليل﴾** أي اخرج بهم بطائفةٍ من الليل قال الطبري : أي اخرج من بين أظهرهم أنت وأهلك ببقية من الليل[4] **﴿ولا يلتفتْ منكم أحدٌ إلا امرأتك﴾** أي لا ينظر أحدٌ منكم وراءه إلا امرأتك فإنها ستهلك كما هلكوا ، نُهوا عن الالتفات لئلا تتفطر أكبادهم على قريتهم قال القرطبي : إن امرأة لوط لمّا سمعت هدَّة العذاب التفتت وقالت : واقوماه ! فأدركها حجر فقتلها[5] **﴿إنه مصيبُها ما أصابهم﴾** أي إنه يصيب امرأتك من

(١) القرطبي ٩/ ٧٥ . (٢) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة مرفوعاً . (٣) روح المعاني ١٢/ ١٠٨ . (٤) الطبري ١٢/ ٨٩ .
(٥) القرطبي ٩/ ٨٠ .

جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ

العذاب ما أصاب قومك ﴿إنَّ موعدهم الصبحُ﴾ أي موعد عذابهم وهلاكهم الصبحُ ﴿أليس الصبحُ بقريب﴾ استعجلهم بالعذاب لغيظه على قومه فقالوا له : أليس وقت الصبح قريباً ؟ قال المفسرون : إن قوم لوط لما سمعوا بالضيوف هرعوا نحوه ، فأغلق بابه وأخذ يجادل قومه عنهم من وراء الباب ، فتسوروا الجدار ، فلما رأت الملائكة ما بلوطٍ من الكرب قالوا يا لوط : افتح الباب ودعنا وإيّاهم ، ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم وعموا ، وانصرفوا على أعقابهم يقولون : النجاءَ ، النجاء كما قال تعالى ﴿ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم﴾ ثم إن لوطاً سرى بمن معه قبل الفجر ، ولما حان وقت عذابهم أمر الله جبريل فاقتلع مَدائن قوم لوط - وهي خمسٌ - من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها ، حتى سمع أهل السماء صراخ الديكة ، ونباح الكلاب ، ثم أرسلها مقلوبة وأتبعهم الله بالحجارة ولهذا قال تعالى ﴿فلما جاء أمرُنا جعلنا عاليها سافِلَها﴾ أي فلما جاء وقت العذاب قلبنا بهم القرى فجعلنا العالي سافلاً ﴿وأمطرنا عليها حجارةً من سجيل﴾ أي أرسلنا على أهل تلك المدن حجارة صلبة شديدة من نارٍ وطين ، شبّهها بالمطر لكثرتها وشدتها ﴿منضود﴾ أي متتابعة ، بعضُها في إثر بعض ﴿مسوَّمة عند ربك﴾ أي معلَّمة بعلامة قال الربيع : قد كتب على كل حجر اسم من يُرمى به قال القرطبي : وقوله ﴿عند ربك﴾ دليلٌ على أنها ليست من حجارة الأرض[١] ﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾ أي ما هذه القرى المهلكة[٢] ببعيدة عن قومك « كفار قريش » فإنهم يمرون عليها في أسفارهم أفلا يعتبرون ؟ قال المفسرون : وقد صار موضع تلك المدن بحراً أُجاجاً يعرف بـ « البحر الميت » لأن مياهه لا تغذي شيئاً من الحيوان وقد اشتهر باسم « بحيرة لوط » والأرض التي تليها قاحلة لا تنبتُ شيئاً ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾ هذه هي القصة السادسة من القصص المذكورة في هذه السورة أي وأرسلنا إلى قبيلة مدين أخاهم شعيباً ، وقد كان شعيب من نفس القبيلة ولهذا قال « أخاهم » ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أي اعبدوا الله وحده فليس لكم ربٌ سواه ﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان﴾ أي لا تنقصوا الناس حقوقهم في المكيال والميزان ، وقد اشتهروا بتطفيف الكيل والوزن ﴿إني أراكم بخير﴾ أي إني أراكم في سعةٍ تغنيكم عن نقص الكيل والميزان قال القرطبي : أي في سعة من الرزق ، وكثرةٍ من النعم[٣] ﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾ أي إني أخاف عليكم إن لم تؤمنوا عذاب يومٍ مهلك ، لا يفلت منه أحد ، والمراد به عذاب يوم القيامة ﴿ويا قوم أوفوا المكيالَ والميزان بالقسط﴾ أي أتموا الكيل والوزن للناس بالعدل ﴿ولا تبخسوا الناسَ

(١) القرطبي ٩/ ٨٣ . (٢) وقيل الضمير يعود على الحجارة أي وما تلك الحجارة بشيء بعيد عن كل ظالم . (٣) القرطبي ٩/ ٨٥ .

بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ

أشياءهم﴾ أي لا تُنْقصوهم من حقوقهم شيئاً **﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾** أي ولا تسعوا بالفساد في الأرض ، والعثيُّ أشد الفساد **﴿بقيَّتُ الله خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين﴾** أي ما أبقاه الله لكم من الحلال خيرٌ مما تجمعونه من الحرام ، إن كنتم مصدّقين بوعد الله ووعيده وقال مجاهد : أي طاعة الله خير لكم[1] **﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾** أي ولستُ برقيب أحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم بها وإنما أنا ناصح مبلّغ ، وقد أعذر من أنذر **﴿قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾** لما أمرهم شعيب عليه السلام بعبادة الله تعالى وترك عبادة الأوثان ، وبإيفاء الكيل والميزان ، ردّوا عليه على سبيل السخرية والاستهزاء فقالوا : أصلاتك تدعوك لأن تأمرنا بترك عبادة الأصنام التي عبدها آباؤ نا ؟ إن هذا لا يصدر عن عاقل **﴿أو أن نفعلَ في أموالنا ما نشاء﴾** أي وتأمرك بأن نترك تطفيف الكيل والميزان .

قال الإمام الفخر : إن شعيباً أمرهم بشيئين : بالتوحيد ، وترك البخس ، فأنكروا عليه أمره بهذين النوعين فقوله **﴿ما يعبد آباؤ نا﴾** إشارة إلى التوحيد ، وقوله **﴿نفعل في أموالنا﴾** إشارة إلى ترك البخس ، وقد يراد بالصلاة الدينُ والمعنى : دينُك يأمرك بذلك ؟ وأطلق عليه الصلاة لأنها أظهر شعار الدين ، وروي أن شعيباً كان كثير الصلاة وكان قومه إذا رأوه يصلي تغامزوا وتضاحكوا ، فقصدوا بقولهم **﴿أصلاتك تأمرك﴾** السخرية والهزء ، كما إذا رأيت معتوهاً يطالع كتباً ثم يذكر كلاماً فاسداً فتقول : هذا من مطالعة تلك الكتب[2] ؟ **﴿إنك لأنتَ الحليمُ الرشيد﴾** أي إنك لأنت العاقل المتصف بالحلم والرشد ؟ قال الطبري : يستهزئون به فإنهم أعداء الله قالوا له ذلك استهزاءً ، وإنما سفّهوه وجهّلوه بهذا الكلام[3] **﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بينة من ربي﴾** أي قال لهم شعيب : أخبروني إن كنت على برهانٍ من ربي وهو الهداية والنبوة **﴿ورزقني منه رزقاً حسناً﴾** أي أعطاني المال الحلال ، فقد كان عليه السلام كثير المال قال الزمخشري : والجواب محذوف دل عليه المعنى أي أخبروني إن كنت على حجة واضحة ، ويقينٍ من ربي ، وكنتُ نبياً على الحقيقة أيصح لي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان ، والكف عن المعاصي ؟ والأنبياء لا يُبعثون إلا لذلك[4] **﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾** أي لست أنهاكم عن شيء وأرتكبه وإنما آمركم بما آمر به نفسي **﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت﴾** أي لا أريد فيما آمركم به وأنهاكم عنه إلا إصلاحكم وإصلاح أمركم بقدر استطاعتي **﴿وما توفيقي إلا بالله﴾** أي ليس التوفيق

(١) الطبري ١٢/ ١٠٠ . (٢) تفسير الرازي ١٨/ ٤٢ . (٣) الطبري ١٢/ ١٠٣ . (٤) الكشاف ٢/ ٤٢٠ .

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ

إلى الخير إلا بتأييده سبحانه ومعونته ﴿عليه توكلتُ وإليه أنيب﴾ أي على الله سبحانه اعتمدت في جميع أموري ، وإليه تعالى أرجع بالتوبة والإنابة ﴿ويا قوم لا يجرمنَّكم شقاقي﴾ أي لا يكسبنكم عداوتي ﴿أن يصيبكم مثلُ ما أصابَ قومَ نوحٍ أو قومَ هودٍ أو قومَ صالحٍ﴾ أي يصيبكم العذابُ كما أصاب قوم نوح بالغرق ، وقوم هود بالريح ، وقوم صالح بالرجفة وقال الحسن المعنى : لا يحملنكم معاداتي على ترك الإيمان فيصيبكم ما أصاب الكفار[1] ﴿وما قومُ لوطٍ منكم ببعيد﴾ أي وما ديار الظالمين من قوم لوطٍ بمكان بعيد ، أفلا تتعظون وتعتبرون ! ؟ ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾ أي استغفروا ربكم من جميع الذنوب ، ثم توبوا إليه توبةً نصوحاً ﴿إن ربي رحيم ودود﴾ أي إنه جل وعلا عظيم الرحمة ، كثير الود والمحبة لمن تاب وأناب ﴿قالوا يا شعيبُ ما نَفْقه كثيراً مما تقول﴾ أي قالوا لنبيِّهم شعيب على وجه الاستهانة : ما نفهم كثيراً مما تحدثنا به قال الألوسي : جعلوا كلامه المشتمل على فنون الحِكَم والمواعظ ، وأنواع العلوم والمعارف ، من قبيل التخليط والهذيان الذي لا يُفهم معناه ، ولا يدرك فحواه مع أنه كما ورد في الحديث الشريف (خطيب الأنبياء)[2] ﴿وإنّا لنراك فينا ضعيفاً﴾ أي لا قوة لك ولا عزَّ فيما بيننا ﴿ولولا رهطُك لرجمناك﴾ أي ولولا جماعتك لقتلناك رمياً بالأحجار ﴿وما أنتَ علينا بعزيز﴾ أي لستَ عندنا بمكرَّم ولا محترم حتى نمتنع من رجمك ﴿قال يا قوم أرهطي أعزُّ عليكم من الله﴾ ؟ هذا توبيخ لهم أي أتتركوني لأجل قومي ولا تتركوني إعظاماً لجناب الرب تبارك وتعالى ؟ فهل عشيرتي أعزّ عندكم من الله وأكرم ؟ قال ابن عباس : إن قوم شعيب ورهطه كانوا أعزَّ عليهم من الله وصغُر شأنُ الله عندهم ، عزَّ ربنا وجلَّ ثناؤه[3] ﴿واتخذتموه وراءكم ظهرياً﴾ أي جعلتم الله خلف ظهوركم لا تطيعونه ولا تعظمونه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يُعبأ به ، وهذا مثلٌ قال الطبري : يقال للرجل إذا لم يقض حاجة الرجل : نبذ حاجته وراء ظهره أي تركها ولم يلتفت إليها[4] ﴿إن ربي بما تعملون محيط﴾ أي إنه جل وعلا قد أحاط علماً بأعمالكم السيئة وسيجازيكم عليها ﴿ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل﴾ تهديدٌ شديد أي اعملوا على طريقتكم إني عاملٌ على طريقتي

(١) القرطبي ٩/ ٩٠ . (٢) روح المعاني ١٢/ ١٢٣ . (٣) الطبري ١٢/ ١٠٦ . (٤) الطبري ١٢/ ١٠٦ .

وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

كأنه يقول : اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة ، فأنا ثابت على الإسلام والمصابرة **﴿سوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يخزيه﴾** أي سوف تعلمون الذي يأتيه عذاب يذله ويهينه **﴿ومن هو كاذب﴾** أي وتعلمون من هو الكاذب **﴿وارتقبوا إني معكم رقيب﴾** أي انتظروا عاقبة أمركم إنني منتظر معكم **﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا﴾** أي ولما جاء أمرنا بإهلاكهم نجينا شعيباً والمؤمنين معه بسبب رحمة عظيمة منا لهم **﴿وأخذت الذين ظلموا الصيحة﴾** أي وأخذ أولئك الظالمين صيحةُ العذاب قال القرطبي : صاح بهم جبريل صيحةً فخرجت أرواحهم من أجسادهم[1] **﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾** أي موتى هامدين لا حراك بهم قال ابن كثير : وذكر ههنا أنه أتتهم صيحة ، وفي الأعراف رجفة ، وفي الشعراء عذاب يوم الظلة ، وهم أمةٌ واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلّها ، وإنما ذكر في كل سياقٍ ما يناسبه[2] **﴿كأن لم يَغْنَوا فيها﴾** أي كأن لم يعيشوا ويقيموا في ديارهم قبل ذلك **﴿ألا بعداً لمدينَ كما بعدت ثمود﴾** قال الطبري : أي ألا أبعد الله مدين من رحمته بإحلال نقمته ، كما بعدت من قبلهم ثمود من رحمته بإنزال سخطه بهم[3] **﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطانٍ مبين﴾** هذه هي القصة السابعة وهي آخر القصص في هذه السورة والمعنى : لقد أرسلنا موسى بشرائع وأحكام وتكاليف إلهية ، وأيدناه بمعجزاتٍ قاهرة ، وبينات باهرة ، كالعصا واليد **﴿إلى فرعون وملائه﴾** أي إلى فرعون وأشراف قومه **﴿فاتَّبعوا أمر فرعون﴾** أي فأطاعوا أمر فرعون وعصوا أمر الله **﴿وما أمرُ فرعون برشيد﴾** أي وما أمر فرعون بسديد لأنه ليس فيه رشد ولا هدى ، وإنما هو جهل وضلال **﴿يَقْدُم قومَه يوم القيامة﴾** أي يتقدم أمامهم إلى النار يوم القيامة كما كان يتقدمهم في الدنيا **﴿فأوردهم النار﴾** أي أدخلهم نار جهنم **﴿وبئس الوردُ المورود﴾** أي بئس المدخل المدخول هي **﴿وأُتبعوا في هذه لعنةً﴾** أي أُلحقوا فوق العذاب الذي عجله الله لهم لعنةً في الدنيا **﴿ويوم القيامة﴾** أي وأُردفوا بلعنةٍ أخرى يوم القيامة **﴿بئس الرفد المرفود﴾** أي بئس العونُ المُعان والعطاء المُعْطى لهم ، وهي اللعنة في الدارين .

(١) القرطبي ٩/ ٩٢ . (٢) المختصر ٢/ ٢٣١ . (٣) الطبري ١٢/ ٠٩ .

البَلاغَة : ١ - ﴿ذهب الروعُ . . وجاءته﴾ بينهما طباقٌ وهو من المحسنات البديعية .

٢ - ﴿جاء أمر ربك﴾ كناية عن العذاب الذي قضاه الله لهم .

٣ - ﴿أليس منكم رجلٌ رشيد﴾ الاستفهام للتعجب والتوبيخ .

٤ - ﴿أو آوي إلى ركنٍ شديد﴾ قال الشريف الرضي : وهذه استعارة والمراد بها قومه وعشيرته ، جعلهم ركناً له لأن الإنسان يلجأ إلى قبيلته ، ويستند إلى أعوانه كما يستند إلى ركن البناء الرصين ، وجاء جواب « لو » محذوفاً تقديره : لحلت بينكم وبين ما هممتم به من الفساد ، والحذف ههنا أبلغ لأنه يوهم بعظيم الجزاء وغليظ النكال[1] .

٥ - ﴿عاليها سافلها﴾ بينهما طباقٌ .

٦ - ﴿عذاب يوم محيط﴾ فيه مجاز عقلي أسند الإحاطة لليوم مع أن اليوم ليس بجسم باعتبار أن العذاب يكون فيه ، فهو إسنادٌ للزمان .

٧ - ﴿واتخذتموه وراءكم ظهرياً﴾ فيه استعارة تمثيلية كالشيء الذي يلقى وراء الظهر ولا يكترث به .

٨- ﴿فأوردهم النار﴾ فيه استعارة مكنية لأن الورود في الأصل يقال للمرور على الماء للاستسقاء منه ، فشبّه النار بماءٍ يورد وحذف ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الورود، وشبّه فرعون في تقدمه على قومه بمنزلة من يتقدم على الواردين إلى الماء ليكسر العطش وقوله ﴿وبئس الورد المورود﴾ تأكيد له لأن الورد إنما يورد لتسكين العطش وتبريد الأكباد وفي النار إلهابٌ للعطش وتقطيع للأكباد، نعوذ بالله من نار جهنم.

* * *

قال الله تعالى :﴿ذلك من أنباء القرى نقصُّه عليك . . إلى . . وما ربك بغافل عما تعملون﴾ من آية (١٠٠) إلى نهاية آية (١٢٣) .

المنَاسَبَة : لمّا ذكر تعالى بعض قصص المرسلين ، وما حلَّ بأممهم من النكال والدمار ، ذكر هنا العبرة من سرد هذه القصص ، وهي أن تكون شاهداً على تعجيل العقوبة للمكذبين والانتقام العاجل منهم ، وبرهاناً على تأييد الله ونصرته لأوليائه وأنبيائه ، وقد ذكرت الآيات يوم القيامة وانقسام الناس فيه إلى فريقين : سعداء ، وأشقياء ، وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالصبر على الأذى ، والتوكل على الحي القيوم .

(١) تلخيص البيان ١٦٣ .

اللغــة : ﴿حصيـد﴾ مستأصل كالزرع المحصود ﴿تتبيـب﴾ التباب : الهلاك والخسران قال لبيد :

فلقـد بَليتُ وكلُّ صاحـب جِدَّةٍ لبِلىً يعـودُ وذاكُـمُ التَّتْبيبُ[1]

﴿زفيـر﴾ الزفير : إخراج النَّفَس من شدة الجري ﴿وشهيق﴾ الشهيقُ : ردُّ النَّفَس وقال الليث : الزفير أن يملأ الرجل صدره من النَّفَس في حال الغمّ الشديد ويخرجه ، والشهيقُ أن يخرج ذلك النَّفَس بشدة[2] وقال بعض أهل اللغة : الزفير مثلُ أول نهيق الحمار ، والشهيق مثل آخره ﴿مجذوذ﴾ مقطوع من جذَّه يجذه إذا قطعه ﴿تركنوا﴾ الركون : الميلُ إلى الشيء والرضا به ﴿زُلَفاً﴾ الزُّلَف : جمع زُلْفة وهي الطائفة من أول الليل قال ثعلب : هي أول ساعات الليل ، وأصلها من الزلفى وهي القربة ﴿وأزلفت الجنـة﴾ قُرِّبـت ﴿أُترفوا﴾ التَّرف : البطر يقال فلان مترف أي أبطرته النعمة وسعة العيش ﴿مرية﴾ شك وريب .

سَبَبُ النّزول : عن ابن مسعود أن رجلاً جاء إلى النبيﷺ فقال : إني عالجتُ امرأةً في أقصى المدينة ، وإني أصبتُ منها من دون أن أمسَّها، وأنا هذا فاقض فيَّ ما شئتَ ! فقال له عمر : لقد سترك الله لو سترت على نفسك ، فلم يردَّ عليه رسولُ اللهﷺ شيئاً ، فانطلق الرجل ونزلت هذه الآية ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزُلفاً من الليل إنَّ الحسناتِ يذهبْن السيئـات﴾ فأتبعه رسول اللهﷺ رجلاً فدعاه فتلاها عليه[3] .

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ

التفسير : ﴿ذلـك مـن أنباء القـرى نقصُّـه عليـك﴾ أي ذلك القصص من أخبار القرى التي أهلكنا أهلها بكفرهم وتكذيبهم الرسل ، نقصه عليك يا محمد ونخبرك عنه بطريق الوحي ﴿منهـا قائـمٌ وحصيـد﴾ أي من هذه القرى ما هو عامر قد هلك أهلُه وبقي بنيانُه ، ومنها ما هو خراب قد اندثر بأهله فلم يبق له أثر كالزرع المحصود ﴿ومـا ظلمناهـم ولكن ظلمـوا أنفسهـم﴾ أي وما ظلمناهم بإهلاكهم بغير ذنب ، ولكنْ ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي فاستحقوا عذاب الله ونقمتـه ﴿فمـا أغنـت عنهـم آلهتهـم التي يدعون من دون الله من شـيء﴾ أي ما نفعتهم آلهتهم التي عبدوها من دون الله ، ولا دفعت عنهـم شيئاً من عقاب الله وعذابه ﴿لمّـا جـاء أمـر ربـك﴾ أي حين جاء قضاء اللـه بعذابهـم ﴿ومـا زادوهـم غير تتبيـب﴾ أي وما زادتهم تلك الآلهة غير تخسير وتدمير ﴿وكذلك أخذ ربـك إذا أخَـذَ القـرى وهـي ظالمـة﴾ أي مثل ذلك الأخذ والإهلاك الذي أخذ الله به أهل القرى الظالمين المكذبين ، يأخذ تعالى

(١) القرطبي ٩/ ٩٥ . (٢) البحر ٥/ ٢٥١ . (٣) القرطبي ٩/ ١١١ .

عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ

بعذابه الفجرة الظلمة قال الألوسي : وفي الآية من إنذار الظالم ما لا يخفى كما قال عليه السلام (إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته) ثم قرأ الآية[١] **﴿إن أخذه أليمٌ شديد﴾** أي إن عذابه موجع شديد ، وهذا مبالغة في التهديد والوعيد **﴿إنَّ في ذلك لآيةً لمن خاف عذاب الآخرة﴾** أي إن في هذه القصص والأخبار لعظة وعبرة لمن خاف عذاب الله وعقابه في الآخرة **﴿ذلك يوم مجموعٌ له الناس﴾** أي يجتمع فيه الخلائق للحساب والثواب والعقاب **﴿وذلك يوم مشهود﴾** أي يشهده أهل السماء والأرض ، والأولون والآخرون قال ابن عباس : يشهده البر والفاجر[٢] **﴿وما نؤخره إلا لأجلٍ معدود﴾** أي ما نؤخر ذلك اليوم - يوم القيامة - إلا لزمنٍ معيَّن سبق به قضاء الله ، لا يتقدم ولا يتأخر **﴿يوم يأت لا تكلَّمُ نفسٌ إلا بإذنه﴾** أي يوم يأتي ذلك اليوم الرهيب لا يتكلم أحدٌ إلا بإذن الله تعالى **﴿فمنهم شقيٌّ وسعيد﴾** أي فمن أهل الموقف شقيٌّ ، ومنهم سعيد كقوله **﴿فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير﴾** **﴿فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفيرٌ وشهيق﴾** أي فأما الأشقياء الذين سبقت لهم الشقاوة فإنهم مستقرون في نار جهنم ، لهم من شدة كربهم **﴿زفيرٌ﴾** وهو إخراج النَّفَس بشدة **﴿وشهيقٌ﴾** وهو ردُّ النَّفَس بشدة ، وقال بعض المفسرين : شبَّه صراخهم في جهنم بأصوات الحمير قال الطبري : في روايته عن قتادة : صوتُ الكافر في النار صوت الحمار ، أوله زفير وآخره شهيق[٣] **﴿خالدين فيها ما دامت السمٰوات والأرض﴾** أي ماكثين في جهنم أبداً على الدوام ما دامت السموات والأرض قال الطبري : إن العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت : هذا دائمٌ دوام السموات والأرض بمعنى انه دائمٌ أبداً ، فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفون به بينهم قال ابن زيد : ما دامت السماء سماءً ، والأرض أرضاً والمعنى خالدين فيها أبداً[٤] وقال الزمخشري : فيه وجهان : أحدهما أن تراد سمٰوات الآخرة وأرضها وهي دائمة مخلوقة للأبد ، والثاني : أن يكون عبارة عن التأبيد ونفي الانقطاع[٥] **﴿إلا ما شاء ربُّكَ﴾** الاستثناء في أهل التوحيد[٦] ، لأن لفظة **﴿شقوا﴾** تعم الكفار والمذنبين، فاستثنى الله من خلود أهل الشقاوة العصاة من المؤمنين ، فإنهم يطهرون في نار جهنم ثم يخرجون منها بشفاعة سيد المرسلين ﷺ ويدخلهم الله الجنة ويقال لهم : **﴿طبتم فادخلوها خالدين﴾** **﴿إن ربَّك فعَّال لما يريد﴾** أي يفعل ما يريد يرحم ويعذب كما يشاء ويختار ، لا معقِّب لحكمه ، ولا رادّ لقضائه

(١) روح المعاني ١٢/ ١٣٧ . (٢) القرطبي ٩/ ٩٦ . (٣) الطبري ١٢/ ١١٧ . (٤) الطبري ١٢/ ١١٧ . (٥) الكشاف ٢/ ٤٣ .
(٦) هذا اختيار الطبري وهو أحد أوجه عشرة ذكرها المفسرون في معنى الاستثناء وانظر القرطبي ٩/ ٩٩ .

فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا

﴿وأمَّا الذين سُعِدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السمواتُ والأرضُ إلا ما شاء ربك﴾ هذا بيانٌ لحال الفريق الثاني « أهل السعادة » اللهم اجعلنا منهم أي وأما السعداء الأبرار فإنهم مستقرون في الجنة ، لا يُخْرجون منها أبداً ، دائمون فيها دوام السموات والأرض ، أو ما دامت سمواتُ الجنة وأرض الجنة حسب مشيئته تعالى ، وقد شاء تعالى لهم الخلود والدوام ﴿عطاءً غير مجذوذ﴾ أي عطاءً غير مقطوع عنهم ، بل هو ممتد إلى غير نهاية ﴿فلا تك في مريةٍ مما يعبد هؤلاء﴾ أي لا تكن في شكٍ من عبادة هؤلاء المشركين في أنها ضلال بمعنى لا تشك في فساد دينهم ﴿ما يعبدونَ إلا كما يعبدُ آباؤُهم من قبلُ﴾ أي هم متبعون لآبائهم تقليداً من غير حجة ولا برهان ، وهذه تسلية للرسول ﷺ ووعدٌ له بالانتقام منهم ، إذ حالهُم حالُ من سبقهم من الضالين المكذبين ، وقد بلغك ما نزل بأسلافهم فسينزل بهم مثله ﴿وإنّا لموفوهم نصيبهم غير منقوص﴾ أي وسنعطيهم جزاءهم من العذاب كاملاً غير منقوص وقال ابن عباس : ما قُدِّر لهم من الخير والشر[1] ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختُلِفَ فيه﴾ قال الطبري : يقول تعالى مسلياً نبيه في تكذيب مشركي قومه له : لا يحزنك يا محمد تكذيب هؤلاء لك ، فلقد آتينا موسى التوراة كما آتيناك الفرقان ، فاختلف في ذلك الكتاب ، فكذَّب به بعضُهم ، وصدَّق به بعضُهم ، كما فعل قومك[2] ﴿ولولا كلمةٌ سبقت من ربك لقُضي بينهم﴾ أي ولولا حكم الله السابق بتأخير الحساب والجزاء إلى يوم القيامة لقُضي بينهم في الدنيا فجوزي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، ولكن سبق القدر بتأخير الجزاء إلى يوم الحساب ﴿وإنهم لفي شكٍ منه مريب﴾ أي وإن كفار قومك لفي شك من هذا القرآن مُريب لهم ، إذ لا يدرون أحقٌ هو أم باطل ؟ ﴿وإنَّ كلاً لَّما ليوفينَّهم ربُّك أعمالَهم﴾ أي وإنَّ كلاً من المؤمنين والكافرين لَّما ينالوا جزاء أعمالهم وسيوفيهم ربُّك جزاءها في الآخرة ﴿إنه بما يعملون خبير﴾ أي عليمٌ بأعمالهم جميعاً ، صغيرها وكبيرها ، وسيجازيهم عليها ﴿فاستقمْ كما أُمرت﴾ أي استقم يا محمد على أمر الله واثبُت وداوم على الاستقامة كما أمركَ ربُّك ﴿ومن تابَ معك﴾ أي ومن تاب من الشرك والكفر وآمن معك ﴿ولا تطْغَوا﴾ أي لا تجاوزوا حدود الله بارتكاب المحارم ﴿إنه بما تعملون بصير﴾ أي إنه تعالى مطّلع على أعمالكم ويجازي عليها ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسَّكم النار﴾ أي لا تميلوا الى الظلمة من الولاة وغيرهم من الفسقة الفجرة فتمسكم نار جهنم قال

(١) الطبري ١٢/ ١٢٢ . (٢) الطبري ١٢/ ١٢٣ .

لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ

البيضاوي : الركونُ هو الميل اليسير أي لا تميلوا إليهم أدنى ميل فتمسكم النار بركونكم إليهم ، وإذا كان الركونُ اليسير إلى من وجد منه ما يسمى ظلماً كذلك ، فما ظنك بالركون إلى الظالمين الموسومين بالظلم ، والميل إليهم كلَّ الميل[١] ؟ ! ﴿وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تُنْصرون﴾ أي ليس لكم من يمنعكم من عذابه ثم لا تجدون من ينصركم من ذلك البلاء قال القرطبي : والآية دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي فإن صحبتهم كفرٌ أو معصية إذْ الصحبةُ لا تكون إلا عن مودَّة ، وأما صحبة الظالم على التقيَّة فمستثناةٌ من النهي بحال الاضطرار[٢] ﴿وأقم الصلاةَ طرفيّ النهار﴾ أي أقم الصلاة المكتوبة على تمامها وكمالها أول النهار وآخره ، والمراد صلاة الصبح والعصر لأنهما طرفا النهار[٣] ﴿وزُلَفاً من الليل﴾ أي ساعاتٍ منه قريبةً من النهار ، والمراد بهما المغرب والعشاء ﴿إن الحسناتِ يُذْهبن السيئات﴾ أي إن الأعمال الصالحة ومنها الصلوات الخمس تكفّر الذنوب الصغائر ، لحديث (الصلواتُ الخمسُ كفارةٌ لما بينها ما اجتُنبتْ الكبائرُ) قال المفسرون : المراد بالحسنات الصلواتُ الخمسُ واستدلوا على ذلك بسبب النزول ، وهذا قول الجمهور ، والأظهر أن المراد بها العموم وهو اختيار ابن كثير حيث قال : المعنى إن فعل الخيرات يكفّر الذنوب السالفة كما جاء في الحديث (ما من مسلم يُذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غُفر له)[٤] ﴿ذلك ذكرى للذاكرين﴾ أي ذلك المذكور من الاستقامة والمحافظة على الصلاة ، عظةٌ للمتعظين وإرشادٌ للمسترشدين ﴿واصبرْ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ أي اصبر يا محمد على ما تلقى من المكاره ومن أذى المشركين ، فإنَّ الله معك وهو لا يضيع ثواب المحسنين ﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولواْ بقيةٍ ينهون عن الفساد في الأرض﴾ أي فهلاَّ كان من الأمم الماضية قبلكم أُولُو عقل وفضل ، وجماعةٌ أخيارٌ ينهون الأشرار عن الإفساد في الأرض ﴿إلا قليلاً ممن أنجينا منهم﴾ استثناء منقطع أي لكنْ قليلاً منهم ، نهوْا عن الفساد فَنَجَوْا قال في البحر : « لولا » في الآية للتحضيض صحبها معنى التأسف والتفجع مثل قوله ﴿يا حسرةً على العباد﴾ والغرضُ التأسف على تلك الأمم التي لم تهتد كقوم نوح وعاد وثمود ومن تقدم ذكره[٥] ﴿واتَّبع الذين ظلموا ما أُترفوا فيه﴾ أي واتَّبع أولئك الظلمة شهواتهم ، وما نُعّموا به من الاشتغال بالمال واللذات وآثروها على الآخرة ﴿وكانوا

(١) البيضاوي ٢٥٨ . (٢) القرطبي ٩/١٠٨ . (٣) هذا قول الحسن وقتادة واختار الطبري أنهما الصبح والعصر وهو مروي عن ابن عباس . (٤) المختصر ٢/ ٢٣٥ . (٥) البحر ٥/ ٢٧١ .

ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

مجرمين﴾ أي وكانوا قوماً مصرِّين على الإجرام **﴿وما كان ربك ليُهْلِكَ القرى بظلم وأهلُها مصلحون﴾** أي ما جرت عادة الله تعالى أن يهلك القرى ظلماً وأهلُها مصلحون في أعمالهم ، لأنه تعالى منزّه عن الظلم ، وإنما يهلكهم بكفرهم ومعاصيهم **﴿ولو شاء ربُّك لجعل الناس أمةً واحدة﴾** أي لو شاء الله لجعل الناس كلَّهم مؤمنين مهتدين على ملة الإسلام ، ولكنَّه لم يفعل ذلك للحكمة **﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربُّك﴾** أي ولا يزالون مختلفين على أديان شتى ، وملل متعددة ما بين يهودي ، ونصراني ، ومجوسي ، إلا ناساً هداهم الله من فضله وهم أهل الحق **﴿ولذلك خلقهم﴾** اللام لامُ العاقبة أي خلقهم لتكون العاقبة اختلافهم ما بين شقي وسعيد قال الطبري : المعنى وللاختلاف بالشقاء والسعادة خلقهم ، فريق في الجنة ، وفريقٌ في السعير[1] **﴿وتمَّتْ كلمةُ ربك لأملأنَّ جهنمَ من الجِنَّة والناس أجمعين﴾** أي تمَّ أمر الله ونفذ قضاؤ ه بأن يملأ جهنم من الجنّ والإنس من الكفرة الفجرة جميعاً قال الألوسي : والجملة متضمنة معنى القسم ولذا جيء باللام في **﴿لأملأنَّ﴾**[2] وكأنه قال : واللهِ لأملأن جهنم من أتباع إبليس من الإنس والجن أجمعين **﴿وكلاً نقصُّ عليك من أنْباء الرسل ما نثبّت به فؤادك﴾** أي كل هذه الأخبار التي قصصناها عليك يا محمد من أخبار الرسل السابقين ، إنما هي بقصد تثبيتك على أداء الرسالة ، وتطمين قلبك ، ليكون لك بمن مضى من إخوانك المرسلين أسوة فتصبر كما صبروا **﴿وجاءك في هذه الحقُّ﴾** أي جاءك في هذه الأنباء التي قصها الله عليك النبأ اليقيني الصادق **﴿وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين﴾** أي وجاءك في هذه الأخبار أيضاً ما فيه عظة وعبرة للمعتبرين ، وخصَّ المؤمنين بالذكر لانتفاعهم بمواعظ القرآن **﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنَّا عاملون﴾** أي اعملوا على طريقتكم ومنهجكم إنا عاملون على طريقتنا ومنهجنا ، وهو أمرٌ ومعناه التهديد والوعيد **﴿وانتظروا إنَّا منتظرون﴾** تهديدٌ آخر أي انتظروا ما يحلُّ بنا إنا منتظرون ما يحل بكم من عذاب الله **﴿ولله غيبُ السمواتِ والأرض﴾** أي علمُ ما غاب وخفي فيهما ، كلُّ ذلك بيده وبعلمه **﴿وإليه يُرجع الأمر كله﴾** أي إليه يردُّ أمر كل شيء ، فينتقم ممن عصى ،ويثيب من أطاع وفيه تسلية للنبي ﷺ وتهديد للكفار بالانتقام منهم **﴿فاعبده وتوكَّلْ عليه﴾** أي اعبد ربَّك وحده ، وفوِّضْ إليه أمرك ، ولا تعتمدْ على أحدٍ سواه ، فإنه كافي من توكَّل عليه

(١) الطبري ١٢/ ١٤٤ . (٢) روح المعاني ١٢/ ١٦٥ .

﴿ومـا ربـك بغافـل عمَّا تعملـون﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ، ويجازي كلاً بعمله .

البَــلاَغَــة : ١ - ﴿منها قائم وحصيد﴾ شبَّه ما بقي من آثار القرى وجدرانها بالزرع القائم على ساقه ، وشبَّه ما هلك مع أهله ولم يبق له أثر بالزرع المحصود بالمناجل على طريق الاستعارة المكنية .

٢ - ﴿وما ظلمناهم ولكنْ ظلموا أنفسهم﴾ فيه طباق السلب .

٣ - ﴿إذا أخذ القرى﴾ مجازٌ عن الأهل أي أخذ أهل القرى .

٤ - ﴿شقيٌ وسعيد﴾ بينهما طباقٌ وهو من المحسنات البديعية .

٥ - ﴿فأما الذين شقوا . . وأما الذين سُعدوا﴾ فيه لفٌ ونشر مرتب .

٦ - ﴿لولا كلمة سبقت من ربك﴾ الكلمة هنا كناية عن القضاء والقدر .

٧ - ﴿إنَّ الحسنات يذهبن السيئات﴾ بينهما طباقٌ .

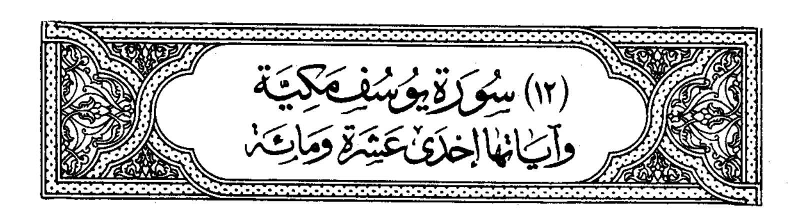
٨ - ﴿ذكرى للذاكرين﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

تــنبيــه : خلود أهل الجنة في الجنة ، وأهـل النـار في النـار ، ثابـتٌ مقطـوعٌ به بالنصـوص العديدة ، وأما الاستثناء بالمشيئة في هذه السورة فقد استعمل في أسلوب القـرآن للدلالـة على الثبـوت والاستمرار ، والنكتة في ذكره بيان أنَّ هذه الأمور إنما كانت بمشيئته تعالى ولو شاء لغيَّرها ، وليس شيء خارج عن مشيئته ، فالإِيمان والكفر ، والسعادة والشقاوة ، والخلود والخروج كلها بمشيئته تعالى .

فَــائِــدَة : أشار الشهاب إلى لطيفةٍ من البلاغة القرآنية ، وهي أن الأوامر بأفعال الخير أفردت للنبي ﷺ وإن كانت عامة في المعنى ﴿فاستقم كما أُمرت ، وأقم الصلاة ، واصبر﴾ وفي المنهيات جمعت للأمة ﴿ولا تطغوا ، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا﴾ كذا في العناية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة هود »

* * *



(١٢) سورة يوسف مكية
وآياتها إحدى عشرة ومائة

بين يدي السورة

* سورة يوسف إحدى السور المكية التي تناولت قصص الأنبياء ، وقد أفردت الحديث عن قصة نبي الله « يوسف بن يعقوب » وما لاقاه عليه السلام من أنواع البلاء ، ومن ضروب المحن والشدائد ، من إخوته ومن الآخرين ، في بيت عزيز مصر ، وفي السجن ، وفي تآمر النسوة ، حتى نجَّاه الله من ذلك الضيق ، والمقصودُ بها تسلية النبي ﷺ بما مرَّ عليه من الكرب والشدة ، وما لاقاه من أذى القريب والبعيد .

* والسورة الكريمة أسلوبٌ فذٌ فريد ، في ألفاظها ، وتعبيرها ، وأدائها ، وفي قَصَصها الممتع اللطيف ، تسري مع النفس سريان الدم في العروق ، وتجري - برقتها وسلاستها - في القلب جريان الروح في الجسد ، فهي وإن كانت من السور المكية ، التي تحمل - في الغالب - طابع الإنذار والتهديد ، إلا أنها اختلفت عنها في هذا الميدان ، فجاءت طريَّةً نَديَّة ، في أسلوب ممتع لطيف ، سَلِسٍ رقيق ، يحمل جو الأنس والرحمة ، والرأفة والحنان ، ولهذا قال خالدُ بن مَعْدان : « سورة يوسف ومريم ممَّا يتفكَّه بهما أهل الجنة في الجنة » وقال عطاء : « لا يسمع سورة يوسف محزونٌ إلا استراح إليها »[1] .

* نزلت السورة الكريمة على رسول الله ﷺ بعد سورة « هود » ، في تلك الفترة الحرجة العصيبة من حياة الرسول الأعظم ﷺ ، حيث توالت الشدائد والنكبات عليه وعلى المؤمنين ، وبالأخص بعد أن فقد عليه السلام نصيريه : زوجه الطاهر الحنون « خديجة » وعمَّه « أبا طالب » الذي كان له خير نصير ، وخير معين ، وبوفاتهما اشتد الأذى والبلاء على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين ، حتى عُرف ذلك العام بـ « عام الحُزْن » .

* في تلك الفترة العصيبة من حياة الرسول الكريم ، وفي ذلك الوقت الذي كان يعاني فيه الرسول والمؤمنون، الوحشة ، والغربة ، والانقطاع في جاهلية قريش ، كان الله سبحانه ينزِّل على نبيه الكريم هذه السورة تسليةً له ، وتخفيفاً لآلامه ، بذكر قصص المرسلين ، وكأن الله تعالى يقول لنبيه عليه السلام : لا تحزن يا محمد ولا تتفجع لتكذيب قومك ، وإيذائهم لك ، فإن بعد الشدة فَرَجاً ، وإن بعد الضيق

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ٢٣٣ .

مخرجاً ، أُنظر إلى أخيك « يوسف » وتمعَّنْ ما حدث له من صنوف البلايا والمِحَن ، وألوان الشدائد والنكبات ، وما ناله من ضروب المِحَن : محنة حَسد إخوته وكيدهم له ، ومحنة رميه في الجب ، ومحنة تعلق امرأة العزيز به وعشقها له ، ثم مراودته عن نفسه بشتّى طرق الفتنة والإغراء ، ثم محنة السجن بعد ذلك العزِّ ورغد العيش !! انظر إليه كيف أنه لما صبر على الأذى في سبيل العقيدة ، وصبر على الضرّ والبلاء ، نقله الله من السجن إلى القصر ، وجعله عزيزاً في أرض مصر ، وملّكه الله خزائنها ، فكان السيد المطاع ، والعزيز المكرَّم . . وهكذا أفعل بأوليائي ، ومن صبر على بلائي ، فلا بدَّ أن توطِّد النفس على تحمل البلاء ، اقتداءً بمن سبقك من المرسلين ﴿فاصبر كما صبر أُولو العزم من الرسل﴾ ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ولا تك في ضَيّقٍ مما يمكرون﴾ .

* وهكذا جاءت قصة يوسف الصدّيق تسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه ، وجاءت تحمل البِشْرَ والأنس ، والراحة ، والطمأنينة لمن سار على درب الأنبياء ، فلا بدَّ من الفرج بعد الضيق ، ومن اليسر بعد العُسر ، وفي السورة دروسٌ وعبر ، وعظات بالغات ، حافلات بروائع الأخبار العجيبة ، والأنباء الغريبة ﴿لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ .

* هذا هو جوُّ السورة ، وهذه إيحاءاتُها ورموزُها . . تُبشِّر بقرب النصر ، لمن تمسَّك بالصبر ، وسار على طريق الأنبياء والمرسلين ، والدعاة المخلصين ، فهي سلوى للقلب ، وبلسمٌ للجروح ، وقد جرت عادة القرآن الكريم بتكرير القصة في مواطن عديدة ، بقصد « العظة والاعتبار » ولكنْ بإيجاز دون توسع ، لاستكمال جميع حلقات القصة ، وللتشويق إلى سماع الأخبار دون سآمة أو ملل ، وأما سورة يوسف فقد ذُكرت حلقاتها هنا متتابعة بإسهاب وإطناب ، ولم تكرر في مكان آخر كسائر قَصص الرسل ، لتشير إلى « إعجاز القرآن » في المجمل والمفصَّل ، وفي حالتي الإيجاز والإطناب ، فسبحان المَلِك العلي الوهاب .

قال العلاَّمة القرطبي : ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن ، وكررها بمعنى واحد ، في وجوه مختلفة ، وبألفاظ متباينة ، على درجات البلاغة والبيان ، وذكر قصة يوسف عليه السلام ولم يكررها ، فلم يقدر مخالف على معارضة المكرر ، ولا على معارضة غير المكرر ، والإعجاز واضح لمن تأمل . وصدق الله ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب . .﴾ !

* * *

قال الله تعالى : ﴿الَر تلك آياتُ الكتاب المبين . . إلى . . آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٢) .

اللغــة : ﴿المبين﴾ الظاهر الجلي ﴿القَصَص﴾ إتباعُ الخبر بعضُه بعضاً وأصلُه في اللغة المتابعة ﴿وقالت لأخته قُصّيه﴾ أي اتبعي أثَره والمراد بالقَصَص الأخبار التي قصها علينا الله في كتابه العزيز ﴿الرؤ يا﴾ خاصة بالمنام وأما باليقظة فهي بالتاء الرؤية قال الألوسي : مصدر رأى الحلمية الرؤ يا ومصدر

البصرية الرؤية ولهذا خُطِّىء المتنبي في قوله « ورؤ ياكَ أحلى في العيون من الغَمْض »[1] ﴿يجتبيك﴾ الاجتباء : الاصطفاء والاختيار وأصله من جبيتُ الشيء أي حصَّلته ﴿عُصْبَة﴾ جماعة قال الفراء : ما زاد على العشرة ، والعصبةُ والعصابة العشرة فصاعداً ﴿اطرحوه﴾ الطرح : رمي الشيء وإلقاؤه ﴿غيابة الجب﴾ قعره وغوره سمي به لغيبته عن عين الناظر ﴿يرتَعْ﴾ يتسع في أكل ما لذَّ وطاب قال الراغب : الرتع حقيقته في أكل البهائم ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير قالت الخنساء :

ترتَــعُ ما رتَعَــتْ حتَّــى إذا ادكرتْ ... فإنَّـما هيَ إقبــالٌ وإدبار[2]

﴿السيارة﴾ المسافرين ﴿سولَّت﴾ زيَّنت ﴿واردهم﴾ الوارد الذي يرد الماء ليستقي للقوم.

سَبَبُ النّزول : روي أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف وما حصل له مع إخوته من أولاد يعقوب فنزلت السورة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾

التفسِير : ﴿الر﴾ إشارة إلى الإعجاز، فمن هذه الحروف وأمثالها تتألف آيات الكتاب المعجز[3] ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ أي تلك الآيات التي أنزلت إليك يا محمد هي آيات الكتاب المعجز في بيانه ، الساطع في حججه وبراهينه ، الواضح في معانيه ، الذي لا تشتبه حقائقه، ولا تلتبس دقائقُه ﴿إنَّا أنزلناه قرآناً عربياً﴾ أي أنزلناه بلغة العرب كتاباً عربياً مؤلفاً من هذه الأحرف العربية ﴿لعلكم تعقلون﴾ أي لكي تعقلوا وتدركوا أن الذي يصنع من الكلمات العادية هذا الكتاب المعجز ليس بشراً ، وإنما هو إله قدير ، وهذا الكلام وحيٌ منزل من رب العالمين ﴿نحن نقصُّ عليك أحسن القصص﴾ أي نحن نحدثك يا محمد ونروي لك أخبار الأمم السابقة ، بأصدق كلام ، وأحسن بيان ﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾ أي بإيحائنا إليك هذا القرآن المعجز ﴿وإنْ كنتَ من قبلهِ لمن الغافلين﴾ أي وإنَّ الحال والشأن أنك كنتَ من قبل أن نوحي إليك هذا القرآن لمن الغافلين عن هذه القصة ، لم تخطر ببالك ، ولم تقرعْ سمعك ، لأنك أميٌّ لا تقرأ ولا تكتب ﴿إذْ قال يوسفُ لأبيه يا أبتِ إني رأيتُ أحدَ عشر كوكباً﴾ من هنا بدايةُ القصة ، أي اذكر حين قال يوسفُ لأبيه يعقوب يا أبي إني رأيت في المنام هذه الرؤيا العجيبة ، رأيت أحد عشر كوكباً من كواكب السماء خرّت ساجدةً لي ﴿والشمسَ والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾ أي ورأيت في المنام الشمس والقمر ساجدةً لي مع الكواكب قال ابن عباس : كانت الرؤيا فيهم وحياً[4] قال المفسرون : الكواكب الأحد عشر كانت

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١٧٩. (٢) تصف بقرةً فقدت ولدها فكلما غفلت عنه رتعت فإذا ذكرته حنت إليه فأقبلت وأدبرت ، وهو مثل لفقدها أخاها صخراً . (٣) انظر ما كتبناه حول الحروف المقطعة والتحقيق الدقيق حول الموضوع في أول سورة البقرة . (٤) الطبري ١٢/ ١٥١.

لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ

إخوته ، والشمس والقمر أبواه ، وكان سنه إذ ذاك اثنتي عشرة سنة ، وبين هذه الرؤيا واجتماعه بأبيه وإخوته في مصر أربعون سنة[1] ﴿قال يا بُنيَّ لا تقصص رؤياك على إخوتك﴾ أي قال له يعقوب : لا تخبرْ بهذه الرؤ يا إخوتك ﴿فيكيدوالك كيداً﴾ أي فيحتالوا لإهلاكك حيلةً عظيمة لا تقدر على ردّها ﴿إن الشيطان للإنسان عدوٌ مبين﴾ أي ظاهر العداوة قال أبو حيان : فهم يعقوب من رؤيا يوسف أن الله تعالى يبلّغه مبلغاً من الحكمة ، ويصطفيه للنبوة ، وينعم عليه بشرف الدارين ، فخاف عليه من حسد إخوته فنهاه أن يقصَّ رؤياه عليهم[2] ﴿وكذلك يجتبيك ربك﴾ أي وكما أراك مثل هذه الرؤيا العظيمة كذلك يختارك ربك للنبوة ﴿ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾ أي يعلمك تفسير الرؤيا المناميَّة ﴿ويتمُّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب﴾ أي يتمم فضله وإنعامه عليك وعلى ذرية أبيك يعقوب ﴿كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق﴾ أي كما أكمل النعمة من قبل ذلك على جدك إبراهيم وجدك إسحق بالرسالة والاصطفاء ﴿إن ربك عليم حكيم﴾ أي عليمٌ بمن هو أهلٌ للفضل ، حكيم في تدبيره لخلقه ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آياتٌ للسائلين﴾ أي لقد كان في خبر يوسف وإخوته الأحد عشر عبرٌ وعظاتٌ للسائلين عن أخبارهم ﴿إذ قالوا ليوسُفُ وأخوه أحبُّ إلى أبينا منّا﴾ هذه هي المحنة الأولى ليوسف عليه السلام أي حين قالوا : والله ليوسفُ وأخوه « بنيامين » أحبُّ منّا عند أبينا ، أرادوا أن زيادة محبته لهما أمر ثابتٌ لا شبهة فيه ، وإنما قالوا ﴿وأخوه﴾ وهم جميعاً إخوة لأن أمهما كانت واحدة ﴿ونحن عصبةٌ﴾ أي والحال نحن جماعة ذوو عدد ، نقدر على النفع والضر ، بخلاف الصغيرين ﴿إنَّ أبانا لفي ضلال مبين﴾ أي إنه في خطأٍ وخروجٍ عن الصواب بيّن واضح ، لإيثاره يوسف وأخاه علينا بالمحبة قال القرطبي : لم يريدوا ضلال الدين إذ لو أرادوه لكفروا ، وإنما أرادوا أنه في خطأٍ بيِّنٍ في إيثار اثنين على عشرة[3] ﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً﴾ أي أُقتلوا يوسف أو ألقوه في أرض بعيدة مجهولة ﴿يخْل لكم وجهُ أبيكم﴾ أي فعند ذلك يخلصْ ويصفو لكم حبُّ أبيكم، فيُقْبل عليكم قال الرازي : المعنى إن يوسف شغله عنا وصرف وجهه إليه ، فإذا فقده أقبل علينا بالمحبة والميل[4] ﴿وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾ أي وتتوبوا من بعد هذا

(١) الصاوي على الجلالين ٢/ ٢٣٤ . (٢) البحر ٥/ ٢٨٠ . (٣) القرطبي ٩/ ١٣١ . (٤) الرازي ١٨/ ٩٤ .

لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ

الذنب وتصبحوا قوماً صالحين ﴿قال قائلٌ منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب﴾ أي قال لهم أخوهم « يهوذا »[١] وهو أكبر ولد يعقوب : لا تقتلوا يوسف بل ألقوه في قعر الجب وغوره ﴿يلتقطْه بعضُ السيّارة﴾ أي يأخذه بعض المارَّة من المسافرين ﴿إن كنتم فاعلين﴾ أي إن كان لا بدَّ من الخلاص منه فاكتفوا بذلك ، وكان رأيه فيه أهون شراً من رأي غيره ﴿قالوا يا أبانا مَا لَكَ لا تأْمنَّا على يوسف﴾المعنى أيُّ شيء حدث لك حتى لا تأمنا على أخينا يوسف ، ونحن جميعاً أبناؤ ك ؟ ﴿وإنا له لناصحون﴾ أي ونحن نشفق عليه ونريد له الخير قال المفسرون : لما أحكموا العزْم ذكروا هذا الكلام وأظهروا عند أبيهم أنهم في غاية المحبة ليوسف ، وفي غاية الشفقة عليه ، ليستنزلوه عن رأيه في تخوفه منهم وكأنهم قالوا : لِمَ تخافنا عليه ونحن نحبه ونريد الخير به !! ﴿أرسلْه معنا غداً يرتَعْ ويلعبْ﴾ أي أرسله معنا غداً إلى البادية ، يتسع في أكل ما لذَّ وطاب ، ويلهو ويلعب بالاستباق وغيره ﴿وإنا له لحافظون﴾ أي ونحن نحفظه من كل سوء ومكروه ، أكّدوا كلامهم بإنَّ واللام وهم كاذبون ﴿قال إني ليحزنني أن تذهبوا به﴾ أي قال لهم يعقوب : إنه ليؤ لمني فراقُه لقلة صبري عنه ﴿وأخاف أن يأكله الذئبُ وأنتم عنه غافلون﴾ أي وأخاف أن يفترسه الذئب في حال غفلتكم عنه ، وكأنه لقنهم الحجة قال الزمخشري : إعتذر إليهم بشيئين : أحدهما : أن ذهابهم به ومفارقته إيّاه مما يحزنه لأنه كان لا يصبر عنه ساعة ، والثاني : خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم[٢] ﴿قالوا لئن أكله الذئب ونحن عُصبة إنّا إذاً لخاسرون﴾ اللام للقسم أي والله لئن أكله الذئب ونحن جماعة أقوياء أشداء إنا لمستحقون أن يُدعى علينا بالخسار والدمار ﴿فلما ذهبوا به﴾ في الكلام محذوف أي فأرسله معهم فلما أخذوه وابتعدوا به عن أبيه ﴿وأجمعوا أن يجعلوه في غيابةالجب﴾أي عزموا واتفقوا على إلقائه في غور الجب ﴿وأوحينا إليه لتنبئنَّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ أي أوحينا إلى يوسف لتخبرنَّ إخوتك بفعلهم هذا الذي فعلوه بك وهم لا يشعرون في ذلك الوقت أنك يوسف ، قال الرازي : وفائدة هذا الوحي تأنيسُه ، وتسكينُ نفسه ، وإزالةُ الغمّ والوحشةِ عن قلبه ، بأنه سيحصل له الخلاص من هذه المحنة[٣] ﴿وجاءو أباهم عشاءً يبكون﴾ أي رجعوا إلى أبيهم وقت العشاء ليلاً وهم يبكون ، روي أنه لما سمع يعقوب بكاءهم

(١) هذا قول ابن عباس وقيل هو « روبيل » وهو قول قتادة . (٢) الكشاف ٢/ ٤٤٨ . (٣) الفخر الرازي ١٨/ ١٠٠ .

عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾

فزع ، وقال : ما لكم يا بَنيَّ ، وأين يوسف ؟ ﴿قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق﴾ أي نتسابق في العَدْو ، أو في الرمي ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب﴾ أي تركنا يوسف عند ثيابنا وحوائجنا ليحفظها فجاء الذئب فافترسه ﴿وما أنت بمؤمنٍ لنا ولو كنا صادقين﴾ أي لست بمصدّق لنا في هذه المقالة ولو كنا في الواقع صادقين ، فكيف وأنت تتهمنا وغير واثق بقولنا ؟ وهذا القول منهم يدل على الارتياب ، وكما قيل : يكاد المريبُ يقول خذوني ﴿وجاءوعلى قميصه بدمٍ كذبٍ﴾ أي جاءوا على ثوبه بدمٍ كاذب ، وُصِفَ بالمصدر مبالغةً كأنه نفسُ الكذب وعينُه قال ابن عباس : ذبحوا شاة ولطخوا بدمها القميص فلما جاءوا يعقوب قال : كذبتم لو أكله الذئب لخرقَ القميص[1] وروي أنه قال : « ما أحلم هذا الذئب أكل ابني ولم يشقَّ قميصه » ؟ ! ﴿قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً﴾ أي زيَّنت لكم أنفسكم أمراً في يوسف وليس كما زعمتم أن الذئب أكله ﴿فصبرٌ جميل﴾ أي أمري صبرٌ جميل لا شكوى فيه ﴿والله المستعانُ على ما تصفون﴾ أي وهو سبحانه عوني على تحمل ما تصفون من الكذب ﴿وجاءت سيارة﴾ أي قوم مسافرون مروا بذلك الطريق قال ابن عباس : جاء قوم يسيرون من مدين إلى مصر فأخطئوا الطريق فانطلقوا يهيمون حتى هبطوا على الأرض التي فيها جب يوسف ، وكان الجب في قفرة بعيدة عن العمران[2] ﴿فأرسلوا واردهم﴾ أي بعثوا من يستقي لهم الماء ﴿فأدلى دلوه﴾ أي أرسل دلوه في البئر قال المفسرون : لما أدلى الواردُ دلوه وكان يوسف في ناحيةٍ من قعر البئر تعلّق بالحبل فخرج فلما رأى حسنه وجماله نادى﴿قال يا بشرى هذا غلام﴾قاله على سبيل السرور والفرح لتبشير نفسه وجماعته قال أبو السعود: كأنه نادى البشرى وقال تعاليْ فهذا أوانك حيث فاز بنعمة جليلة[3] ﴿وأسرّوه بضاعة﴾ أي أخفوا أمره عن الناس ليبيعوه في أرض مصر متاعاً كالبضاعة ، والضمير يعود على الوارد وجماعته ﴿والله عليمٌ بما يعملون﴾ أي لا يخفى عليه سبحانه أسرارهم ، وما عزموا عليه في أمر يوسف ﴿وشروه بثمنٍ بخسٍ دراهمَ معدودةٍ﴾ هذه هي المحنة الثانية في حياة يوسف الصدّيق وهي محنة الاسترقاق أي باعه أولئك المارة الذين استخرجوه من البئر بثمنٍ قليل منقوص هو عشرون درهماً كما قال ابن عباس ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾ أي وكانوا في يوسف من الزاهدين الذين لا يرغبون فيه لأنهم التقطوه وخافوا أن يكون عبداً آبقاً فينتزعه سيّده من أيديهم ، ولذلك باعوه بأبخس الأثمان ﴿وقال الذي اشتراه من مصرَ لامرأته أكرمي مثواه﴾ أي وقال الذي اشتراه من مدينة مصر لزوجته أكرمي إقامته عندنا قال

(١) الطبري ١٢/ ١٦٤ . (٢) الرازي ١٨/ ١٠٥ . (٣) أبو السعود ٢/ ٥٩ .

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

ابن عباس : كان اسم الذي اشتراه « قطفير » وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر[1] ﴿عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾ أي عسى أن يكفينا بعض المهمات إذا بلغ أو نتبناه حيث لم يكن يولد لهما ولد ﴿وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض﴾ أي وكما نجيناه من الجب جعلناه متمكناً في أرض مصر يعيش فيها بعز وأمان ﴿ولنعلّمه من تأويل الأحاديث﴾ أي نوفقه لتعبير بعض المنامات ﴿والله غالبٌ على أمره﴾ أي لا يعجزه تعالى شيء ﴿ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون﴾ أي لا يعلمون لطائف صنعه وخفايا فضله ﴿ولما بلغ أشدَّه﴾ أي بلغ منتهى شدته وقوته وهو ثلاثون سنة ﴿آتيناه حُكماً وعلماً﴾ أي أعطيناه حكمةً وفقهاً في الدين ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ أي المحسنين في أعمالهم .

البَلاَغَة : ١ ـ ﴿تلك آيات﴾ الاشارة بالبعيد لبعد مرتبته في الكمال وعلو شأنه .

٢ ـ ﴿كما أتمها على أبويك﴾ تشبيه مرسل مجمل .

٣ ـ ﴿أحد عشر كوكباً والشمسَ والقمر﴾ قال الشريف الرضي : هذه استعارة لأن الكواكب والشمس والقمر مما لا يعقل فكان الوجه أن يقال : ساجدة ، ولكنها لما أطلق عليها فعل من يعقل جاز أن توصف بصفة من يعقل لأن السجود من فعل العقلاء[2] .

٤ ـ ﴿بدم كذب﴾ الدم لا يوصف بالكذب والمراد بدم مكذوبٍ فيه أو دمٍ ذي كذب وجيء بالمصدر على طريق المبالغة .

لطيفَة : روي أن امرأةً تحاكمت إلى شريح فبكت فقال الشعبي : يا أبا أمية أما تراها تبكي ؟ فقال الشعبي : لقد جاء إخوة يوسف يبكون وهم ظلمةٌ كذبة ، لا ينبغي للإنسان أن يقضي إلا بالحق[3] .

تنبيه : ذهب بعض المفسرين إلى أن إخوة يوسف أنبياء واستدلوا على ذلك بأنهم الأسباط المذكورون في قوله تعالى ﴿قل آمنا باللهِ وما أنزل علينا وما أُنْزل على إبراهيم وإسماعيلَ وإسحقَ ويعقوب والأسباط﴾ والصحيح أن الأسباط ليسوا أولاد يعقوب وإنما هم القبائل من ذرية يعقوب كما نبّه عليه المحققون ، ولو كان إخوة يوسف أنبياء لما أقدموا على مثل هذه الأفعال الشنيعة ، فالحسد ، والسعي بالفساد ، والإقدام على القتل ، والكذبُ ، وإلقاء يوسف في الجب ، كل ذلك من الكبائر التي تنافي

---

(١) الطبري ١٢/ ١٧٥ . (٢) تلخيص البيان ١٦٩ . (٣) الفخر الرازي ١٨/ ١٠١ .

عصمة الأنبياء ، فالقول بأنهم أنبياء ـ مع هذه الجرائم ـ لا يقبله عقل حصيف ، وانظر ما قاله العلامة ابن كثير رحمه الله في هذا الشأن ، فإنه لطيف ودقيق .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وراودته التي هو في بيتها . . إلى . . فلبث في السجن بضع سنين﴾ من آية (٢٣) إلى نهاية آية (٤٢) .

المناسبة : لما ذكر تعالى ما أكرم به يوسف من الإقامة في القصر مع عزيز مصر ، ذكر هنا ما تعرّض له عليه السلام من أنواع الفتنة والإغراء من زوجة العزيز ، وصموده أمام تلك الفتنة العارمة ، وما ظهر منه من العفة والنزاهة حتى آثر دخول السجن على عمل الفاحشة ، وكفى بذلك برهاناً على عفته وطهارته .

اللغة : ﴿وراودته﴾ المراودة: الطلب برفقٍ ولين مأخوذة من راد يرود إذا جاء وذهب ومنه الرائد لطلب الكلأ ، يقال في الرجل : راودها عن نفسها، وفي المرأة راودته عن نفسه أي طلبت منه مضاجعتها ﴿هيت﴾ اسم فعل أمر بمعنى تعال وهلُمّ ﴿مثواي﴾ مقامي ، والثواء الإقامة مع الاستقرار ﴿همَّت﴾ الهمُّ يأتي بمعنى العزم والقصد ، ومنه ﴿وهمَّت كلُّ أمةٍ برسولهم ليأخذوه﴾ ويأتي بمعنى الخاطر وحديث النفس دون عزم قال الشاعر :

همـمـتُ بهـمٍّ من بثينـةَ لو بدا شفيتُ غليلاتِ الهوى من فؤاديا[1]

فالهمُّ من امرأة العزيز كان هم عزمٍ وتصميم ، والهـمُّ من يوسف كان مجرد حديث نفس ﴿السوء﴾ المنكر ، والفجور ، والمكروه ﴿الفحشاء﴾ ما تناهى قبحه والمراد به الزنى ﴿قدَّت﴾ القدُّ : الشق والقطع وأكثر ما يستعمل في الطول ، والقطُّ يستعمل في العرض ﴿ألفيا﴾ وجدا ﴿كيدكن﴾ الكيد : المكر والحيلة ﴿الخاطئين﴾ المتعمدين للذنب قال الأصمعي : خطىء الرجل فهو خاطىء إذا تعمد الذنب ، وأخطأ يخطىء إذا غلط ولم يتعمد[2] ﴿شغفها حباً﴾ وصل حبه إلى سويداء قلبها قال الزجاج : الشغاف سويداء القلب ﴿أصبُ﴾ أملْ يقال : صبا إلى اللهو إذا مال إليه .

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ

التفسير : ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه﴾ هذه هي المحنة الثالثة بعد محنة الجب والاسترقاق ، والمراودةُ الطلبُ برفقٍ ولين كما يفعل المخادع بكلامه المعسول المعنى : طلبت امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها منه أن يضاجعها ، ودعته برفق ولين أن يواقعها ، وتوسَّلت إليه بكل وسيلةٍ ﴿وغلَّقت الأبواب﴾ أي غلّقت أبواب البيوت عليها وعلى يوسف وأحكمت إغلاقها قال القرطبي : كانت سبعة أبواب غلّقتها ثم دعته إلى نفسها[3] ﴿وقالت هيتَ لك﴾ أي هلُمَّ وأسرع إلى الفراش فليس ثمة مايُخشى قال في البحر : أمرته بأن يسرع إليها[4] ﴿قال معاذ الله﴾ أي عياذاً بالله من فعل السوء قال أبو السعود : وهذا إشارة إلى أنه منكر هائل يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه ، لما أراه الله من البرهان النيِّر على ما

(١) القرطبي ٩/ ١٦٦ . (٢) غريب القرآن لابن قتيبة ٢١٥ . (٣) القرطبي ٩/ ١٦٣ . (٤) البحر ٥/ ٢٩٣ .

مَثْوَايَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا

فيه من غاية القبح ونهاية السوء[1] ﴿إنه ربي أحسن مثواي﴾ أي إن زوجك هو سيدي العزيز الذي أكرمني وأحسن تعهدي فكيف أسيء إليه بالخيانة في حَرَمه ؟ ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ أي لا يظفر الظالمون بمطالبهم ، ومنهم الخائنون المُجازون الإحسانَ بالسوء ، ثم أخبر تعالى أن امرأة العزيز حاولت إيقاعه في شراكها ، وتوسَّلت إليه بكل وسائل الإغراء ، ولولا أنَّ الله جلَّ وعلا حفظه من كيدها لهلك فقال ﴿ولقد همَّت به﴾ أي همَّت بمخالطته عن عزمٍ وقصدٍ وتصميم ، عزماً جازماً على الفاحشة لا يصرفها عنها صارف ، وقصدت إجباره على مطاوعتها بالقوة ، بعد ان استحكمت من تغليق الأبواب ، ودعوته إلى الإسراع ، مما اضطره إلى الهرب إلى الباب ﴿وهمَّ بها﴾ أي مالت نفسه إليها بمقتضى الطبيعة البشرية ، وحدثته نفسُه بالنزول عند رغبتها حديث نفسٍ ، دون عزمٍ وقصد ، فبين الهمَّين فرق كبير[2] قال الإمام الفخر : الهمُّ خطورُ الشيء بالبال أو ميلُ الطبع ، كالصائم في الصيف يرى الماء البارد فتحمله نفسُه على الميل إليه وطلب شربه ، ولكنْ يمنعه دينُه عنه[3] ﴿لولا أن رأى برهان ربه﴾ جوابه محذوفٌ أي لولا حفظ الله ورعايتُه ليوسف ، وعصمتُه له لخالطها وأمضى ما حدثته نفسه به ، ولكنَّ الله عصمه بالحفظ والتأييد فلم يحصل منه شيءٌ البتَّة قال في البحر : نسب بعضُهم ليوسف ما لا يجوز نسبتُه لآحاد الفُسَّاق ، والذي أختاره أن « يوسف » عليه السلام لم يقع منه همٌّ البتَّة ، بل هو منفيٌّ لوجود رؤية البرهان كما تقول : « قارفتَ الذنبَ لولا أن عصمك الله » وكقول العرب : « أنتَ ظالمٌ إن فعلتَ » وتقديره : إن فعلتَ فأنتَ ظالم وكذلك هنا التقدير : لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها ولكنه وجد رؤية البرهان فانتفى الهمُّ ، وأمّا أقوال السلف فنعتقد أنه لا يصح عن أحدٍ منهم شيءٌ من ذلك ، لأنها أقوالٌ متكاذبة يناقضُ بعضُها بعضاً مع كونها قادحة في بعض فساق الملل فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة[4] وقال أبو السعود : إن همَّه بها بمعنى ميله إليها بمقتضى الطبيعة البشرية ، ميلاً جبلياً ، لا أنه قصدها قصداً اختيارياً ، ألا يرى إلى ما سبق من استعصامه المنبيء عن كمال كراهيته له ونفرته عنه ، وحكمه بعدم إفلاح الظالمين ، وهل هو إلا تسجيلٌ باستحالة صدور الهمّ منه تسجيلاً محكماً ؟ وما قيل : إنه حلَّ الهميان ، وجلس مجلس الختان ، فإنما هي خرافاتٌ وأباطيل ، تمجها الآذان ، وتردّها العقول والأذهان[5] ﴿كذلك لنصرف عنه السوء﴾ أي ثبتناه على العفة أمام دوافع الفتنة والإغراء لنصرف عنه المنكر والفجور ، وهذه آيةٌ بيِّنة ، وحجةٌ قاطعة على أنه عليه السلام لم يقع منه همٌّ بالمعصية ، ولو كان كما زعموا لقال « لنصرفه عن السوء والفحشاء » فلما قال ﴿لنصرف عنه﴾ دلَّ على أن ذلك شيء خارج عن الإرادة فصرفه الله عنه ، بما منحه من موجبات العفة والعصمة ﴿والفحشاء﴾ أي لنصرف عنه الزنى الذي تناهى قبحهُ ﴿إنه من عبادنا المخلَصين﴾ بفتح اللام أي

(١) أبو السعود ٢/ ٦٢ . (٢) هذا من باب المشاكلة وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى ، فالهمُّ منها كان همَّ عزمٍ وقصدٍ ، والهمُّ منه كان حديث نفس . (٣) الفخر الرازي ١٨/ ١١٩ . (٤) البحر ٥/ ٢٩٥ . (٥) أبو السعود ٢/ ٦٣ .

لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ * وَقَالَ نِسْوَةٌ

الـذين أخلصهـم اللـه لطاعتـه ، واصطفاهـم واختارهـم لوحيه ورسالتـه ، فلا يستـطيع أن يغويهـم الشيطان . . ثم أخبر تعالى بما حصل من المفاجأة العجيبة بقدوم زوجها وهما يتسابقان نحوالباب،ولا تزال هي في هياجها الحيواني ﴿واستبقا الباب﴾ أي تسابقا نحو باب القصر ، هو للهرب ، وهي للطلب ﴿وقدَّتْ قميصه من دُبُر﴾ أي شقت ثوبه من خلف لأنها كانت تلحقه فجذبته فشقت قميصه ﴿وألفيا سيدها لـدا الباب﴾ أي وجدا العزيز عند باب القصر فجأة وقد حضر في غير أوان حضوره ، وبمهارة فائقة تشبه مهارة إبليس انقلب الوضع فأصبح الظالم مظلوماً ، والبريء متهماً ﴿قالتْ ما جزاءُ من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذابٌ أليم﴾ أي ما جزاؤه إلا السجن أو الضرب ضرباً مؤلماً وجيعاً ﴿قال هي راودتني عن نفسي﴾ أي قال يوسف مكذباً لها : هي التي دعتني إلى مقارفة الفاحشة لا أني أردت بها السوء ﴿وشهد شاهدٌ من أهلها﴾ قال ابن عباس : كان طفلاً في المهد أنطقه الله ، وكان ابن خالها[1] قال في البحر : وكونُه من أهلها أوجب للحجة عليها ، وأوثقُ لبراءة يوسف ، وأنفى للتهمة[2] ﴿إن كان قميصهُ قدَّ من قُبُل فصدقت وهو من الكاذبين﴾ أي إن كان ثوبهُ قد شُقَّ من أمام فهي صادقة وهو كاذب ﴿وإن كان قميصهُ قُدَّ من دُبُر فكذبتْ وهو من الصادقين﴾ أي وإن كان ثوبه قد شُقَّ من الوراء فهي كاذبة وهو صادق ، لأن الأمر المنطقي أن يُشق الثوب من خلف إن كانت هي الطالبة له وهو الهارب ﴿فلما رأى قميصه قُدَّ من دُبُر﴾ أي فلما رأى زوجها أن الثوب قد شُقَّ من الوراء ﴿قال إنه من كيدكنَّ﴾ أي إن هذا الأمر من جملة مكركن واحتيالكنَّ أيتها النسوة ﴿إنَّ كيدكنَّ عظيم﴾ تأكيد لما سبق ذكره أي مكركنَّ معشر النسوة واحتيالكنَّ للتخلص مما دبرتُنَّ شيءٌ عظيم ﴿يوسفُ أعرضْ عـن هـذا﴾ أي يا يوسـف أكتم هذا الأمر ولا تذكره لأحد ، يقول سيد قطب عليه الرحمة والرضوان : وهنا تبدو صورةٌ من « الطبقة الراقية » في المجتمـع الجاهلي ، رخاوةٌ في مواجهة الفضائح الجنسية ، وميلٌ إلى كتمانها عن المجتمع ، فيلتفت العزيز إلى يوسف البريء ويأمره بكتم الأمر وعدم إظهاره لأحد ، ثم يخاطب زوجهُ الخائن بأسلوب اللباقـة في مواجهـة الحادث الذي يثير الدم في العروق ﴿واستغفري لذنبك﴾ أي توبي واطلبي المغفرة من هذا الذنب القبيح ، وكأن هذا هو المهم محافظة على الظواهر[3] ﴿إنكِ كنتِ من الخاطئين﴾ أي من القوم المتعمدين للذنب ، وفي هذا إشارة إلى أن العزيز كان قليل الغَيْرة حيث لم ينتقم ممن أرادت خيانتـه ، وتـدنيس فراشـه بالإثـم

---

(١) الطبري ١٢/١٩٣ . (٢) البحر ٥/٢٩٧ . (٣) الظلال .

فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ

والفجور قال ابن كثير : كان زوجها لينّ العريكة سهلاً ، أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه[1] ﴿وقال نسوة في المدينة﴾ أي قال جماعة من النساء في مدينة مصر ، روي أنهن خمس نسوة : امرأة ساقي العزيز ، وامرأة الحاجب ، وامرأة الخباز ، وامرأة صاحب الدواب ، وامرأة صاحب السجن قاله ابن عباس وغيره ، والأظهر أن تلك الواقعة شاعت في البلد ، واشتهرت وتحدث بها النساء ﴿امرأة العزيز تراودُ فتاها عن نفسه﴾ أي امرأة عزيز مصر تطلب من خادمها وعبدها أن يواقعها وتخادعه وتتوسل إليه لقضاء وطرها منه قال أبو حيان : وتصريحهن بإضافتها إلى العزيز مبالغة في التشنيع ، لأن النفوس أميل لسماع أخبار ذوي الجاه ، وعبَّر ن بـ ﴿تراود﴾ للدلالة على أن ذلك صار سجيّةً لها فهي دائماً تخادعه عن نفسه لأن المضارع يفيد التجدد والاستمرار[2] ﴿قد شغفها حباً﴾ أي بلغ حبُّه شَغَاف قلبها ـ وهو حجابه ـ وشقَّه حتى وصل إلى فؤ ادها ﴿إنَّا لنراها في ضلالٍ مبين﴾ أي إنا لنعتقد أنها في ضلال عن طريق الرشد واضح بسبب حبها إيّاه﴿فلما سمعت بمكرهنّ﴾أي فلما سمعت بحديثهن ،وسماه مكراً لأنه كان في خفية، كما يخفي الماكر مكره ﴿أرسلتْ إليهنَّ﴾ أي أرسلت إليهنَّ تدعوهنَّ إلى منزلها لحضور وليمة قال المفسرون : دعت أربعين امرأةً من الذوات منهن النساء الخمس المذكورات ﴿وأعتَدتْ لهنَّ متكأً﴾ أي هيأتْ لهنَّ ما يتكئن عليه من الفرش والوسائد[3] ﴿وآتتْ كلَّ واحدةٍ منهنَّ سكيناً﴾ في الكلام محذوف أي قدمت لهن الطعام وأنواع الفاكهة ثم أعطت كل واحدةٍ منهنَّ سكيناً لتقطع به ﴿وقالتْ اخرجْ عليهن﴾ أي وقالت ليوسف وهنَّ مشغولات بتقشير الفاكهة والسكاكين في أيديهن : اخرجْ عليهنَّ فلم يشعرن إلا ويوسف يمرُّ من بينهن ﴿فلما رأينه أكبرْنَه﴾ أي فلما رأين يوسف أعظمْنه وأجللْنه ، وبُهتن من جماله ودُهشن ﴿وقطَّعْن أيديهن﴾ أي جرحن أيديهن بالسكاكين لفرط الدهشة المفاجئة ﴿وقلن حاش لله﴾ أي تنزَّه الله عن صفات العجز ، وتعالت عظمته في قدرته على خلق مثله ﴿ما هذا بشراً﴾ أي ليس هذا من البشر ﴿إنْ هذا إلا ملك كريم﴾ أي ما هو إلا مَلَك مِن الملائكة ، فإن هذا الجمال الفائق ، والحسن الرائع مما لا يكاد يوجد في البشر ﴿قالت فذلكنَّ الذي لمتنني فيه﴾ صرَّحت عند ذلك بما في نفسها من الحب ليوسف لأنها شعرت بأنها انتصرت عليهن فقالت قولة

(١) مختصر ابن كثير ٢/ ٢٤٧ . (٢) البحر ٥/ ٣٠١ . (٣) يقول الشهيد سيد قطب عليه الرحمة والرضوان : لقد أقامت لهن مأدبة في قصرها ، وندرك من هذا أنهن كنَّ نساء الطبقة الراقية ، فهن اللواتي يُدعين إلى المآدب في القصور ، وهنَّ اللواتي يؤ خذن بهذه الوسائل الناعمة المظهر ، ويبدو أنهنَّ يأكلن وهنَّ متكئات على الوسائد والحشايا وأعدت لهن هذا المتكأ وآتت كل واحدة منهن سكيناً تستعملها في الطعام ، ويؤ خذ من هذا صورة الترف والحضارة المادية التي كان عليها أهل القصور ، وبينا هنَّ منشغلات بتقطيع اللحم أو تقشير الفاكهة فاجأتهنَّ بيوسف فلما رأينه بهتن لطلعته ودهشن وجرحن أيديهن بالسكاكين . ظلال القرآن ١٢/ ٢٣٢ .

ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ

المنتصرة : هذا الذي رأيتموه هو ذلك العبد الكنعاني الذي لمتُنّني في محبته ، فانظرن ماذا لقيتنَّ منه من الافتتان والدهش والإعجاب!! ﴿ولقد راودتُه عن نفسه فاستعصم﴾ أي أردت أن أنال وطري منه ، وأن أقضي شهوتي معه ، فامتنع امتناعاً شديداً ، وأبى إباءً عنيفاً **قال الزمخشري** : والاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد[1] ﴿ولئن لم يفعلْ ما آمُره ليسجننَّ ليكوناً من الصاغرين﴾ أي ولئن لم يطاوعني ليعاقبنَّ بالسجن والحبس وليكوننَّ من الأذلاء المهانين قال القرطبي : عاودته المراودة بمحضرٍ منهنَّ ، وهتكتْ جلباب الحياء ، وتوعدتْ بالسجن إن لم يفعل ، ولم تعد تخشى لوماً ولا مقالاً ، خلاف أول أمرها إذ كان ذلك سراً بينها وبينه[2] ﴿قال ربّ السجنُ أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه﴾ لجأ يوسف إلى ربه وجعل يناجيه في خشوع وتضرعٍ فقال : ربّ السجن آثرُ عندي وأحبُّ إلى نفسي من اقتراف الفاحشة ، وأسند الفعل إليهن لأنهن جميعاً مشتركات في الدعوة بالتصريح أو التلويح ، وقيل إنها لما توعدته نصحنه وزيَّن له مطاوعتها ، ونهينه عن إلقاء نفسه في السجن ﴿وإلاّ تصرفْ عني كيدهُنَّ﴾ أي وإن لم تدفع عني شرهن وتعصمني منهن ﴿أصبُ إليهنَّ﴾ أي أملْ إلى إجابتهن بمقتضى البشرية ﴿وأكنْ من الجاهلين﴾ أي بسبب ما يدعونني إليه من القبيح ، وهذا كله على سبيل التضرع والاستغاثة بجناب الله تعالى كعادة الأنبياء والصالحين ﴿فاستجاب له ربُّه فصرفَ عنه كيدهنَّ﴾ أي أجاب الله دعاءه فنجّاه من مكرهن ، وثبَّته على العصمة والعفة ﴿إنه هو السميع﴾ أي لدعاء الملتجئين إليه ﴿العليم﴾ بأحوالهم وما انطوت عليه نياتهم . . وهكذا اجتاز يوسف محنته الثالثة بلطف الله ورعايته ﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجنُنَّه حتى حين﴾ هذه بداية المحنة الرابعة وهي الأخيرة من محن الشدة في حياة يوسف الصّديق وهي « محنة السجن » وكل ما بعدها فرخاء والمعنى ثم ظهر للعزيز وأهله ومن استشارهم بعد الدلائل القاطعة على براءة يوسف ، سجنه إلى مدة من الزمن غير معلومة ، روي أن امرأة العزيز لما استعصى عليها يوسف وأيست منه ، احتالت بطريق آخر ، فقالت لزوجها : إن هذا العبد العبراني قد فضحني في الناس يقول لهم : إني راودته عن نفسه وأنا لا أقدر على إظهار عذري ، فإما أن تأذن لي فأخرج وأعتذر ، وإما أن تحبسه ، فعند ذلك بدا له سجنه قال ابن عباس : فأمر به فحمل على حمار ، وضُرب بالطبل ، ونُودي عليه في

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٦٧ . (٢) القرطبي ٩/ ١٧٨

خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ

أسواق مصر ، إن يوسف العبراني أراد سيدته فجزاؤه أن يسجن ، قال أبو صالح ما ذكر ابن عباس هذا الحديث إلا بكى[1] ﴿ودخل معه السجن فتيان﴾ أي أُدخل يوسف السجن واتفق أنه أُدخل حينئذٍ آخران من خدم الملك الخاص أحدهما خبازه ، والآخر ساقيه ، اتهما بأنهما أرادا أن يسماه فحبسهما ﴿قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً﴾ أي قال الساقي إني رأيت في المنام أني أعصر عنباً يئول إلى خمر وأسقي منه الملك ﴿وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه﴾ أي وقال الخباز : إني رأيت في منامي أني أحمل على رأسي طبقاً فيه خبز ، والطيرُ تأكل من ذلك الخبز ﴿نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين﴾ أي أخبرنا بتفسير ما رأينا إنا نراك من الذين يحسنون تفسير الرؤيا ، أخبراه عن رؤياهما لما علما أنه يجيد تفسير الرؤيا ﴿قال لا يأتيكما طعامٌ تُرزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما﴾ أي لا يأتيكما شيء من الطعام إلا أخبرتكما ببيان حقيقته وماهيته وكيفيته قبل أن يصل إليكما ، أخبرهما بمعجزاته ومنها معرفة «المغيبات» توطئةً لدعائهما إلى الايمان قال البيضاوي : أراد أن يدعوهما إلى التوحيد ويرشدهما إلى الدين القويم قبل أن يسعفهما إلى ما سألاه عنه ، كما هو طريقة الأنبياء في الهداية والإرشاد ، فقدَّم ما يكون معجزة له من الإخبار بالغيب ليدلهما على صدقه في الدعوة والتعبير[2] ﴿ذلكما مما علّمني ربي﴾ إن ذلك الإخبار بالمغيبات ليس بكهانة ولا تنجيم ، وإنما هو بإلهامٍ ووحيٍ من الله ﴿إني تركتُ ملة قوم لا يؤمنون بالله﴾ أي خصني ربي بذلك العلم لأني من بيت النبوة وقد تركت دين قومٍ مشركين لا يؤمنون بالله ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ أي يكذبون بيوم القيامة ، نبّه على أصلين عظيمين : الايمان بالله ، والايمان بدار الجزاء ، إذ هما أعظم أركان الايمان ، وكرر لفظة ﴿هم﴾ على سبيل التأكيد ﴿واتبعتُ ملة آبائي إبراهيمَ وإسحقَ ويعقوب﴾ أي اتبعت دين الأنبياء ، لا دين أهل الشرك والضلال ، والغرضُ إظهار أنه من بيت النبوة ، لتقوى رغبتهما في الاستماع إليه والوثوق بكلامه ﴿ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء﴾ أي ما ينبغي لنا معاشر الأنبياء أن نشرك بالله شيئاً مع اصطفائه لنا وإنعامه علينا ﴿ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس﴾ أي ذلك الايمان والتوحيد من فضل الله علينا حيث أكرمنا بالرسالة ، وعلى الناس حيث بعث الرسل لهدايتهم وإرشادهم ﴿ولكنَّ أكثر الناس لا يشكرون﴾ أي لا يشكرون فضل الله عليهم فيشركون به غيره . . ولما ذكر عليه السلام ما هو عليه من الدين الحنيف الذي هو دين الرسل ، تلطَّفَ في حسن الاستدلال على فساد ما عليه قوم الفتيين من عبادة

(١) البحر المحيط ٥/٣٠٧ . (٢) البيضاوي ٢٦٤ .

ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

الأصنام فقال﴿يا صاحبي السجن أأربابٌ متفرقون خيرٌ أم الله الواحد القهار﴾أي يا صاحبيَّ في السجن أآلهة متعددة لا تنفع ولا تضر ولا تستجيب لمن دعاها كالأصنام ، خيرٌ أم عبادة الواحد الأحد ، المتفرد بالعظمة والجلال ؟! ﴿ما تعبدونَ من دونه إلا أسماءً سميتموها أنتم وآباؤكم﴾ أي ما تعبدون يا معشر القوم من دون الله إلا أسماءً فارغة سميتموها آلهة وهي لا تملك القدرة والسلطان لأنها جمادات ﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾ أي ما أنزل الله لكم في عبادتها من حجة أو برهان ﴿إنِ الحكمُ إلا لله﴾ أي ما الحكم في أمر العبادة والدين إلا لله رب العالمين ﴿أمر ألاّ تعبدوا إلا إيّاه﴾ أي أمر سبحانه بإفراد العبادة له ، لأنه لا يستحقها إلا من له العظمة والجلال ﴿ذلك الدين القيِّم﴾ أي ذلك الذي أدعوكم إليه من إخلاص العبادة لله هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه ﴿ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي يجهلون عظمة الله فيعبدون ما لا يضر ولا ينفع . . تدرّج عليه السلام في دعوتهم وألزمهم الحجة بأن بيَّن لهم أولاً رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة المتعددة ، ثم برهن على أن ما يسمونها آلهة ويعبدونها من دون الله لا تستحق الألوهية والعبادة ، ثم نصَّ على ما هو الحق القويم والدين المستقيم وهو عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد ، وذلك من الأسلوب الحكيم في الدعوة إلى الله ، حيث قدَّم الهداية والإرشاد ، والنصيحة والموعظة ، ثم شرع في تفسير رؤياهما فقال ﴿يا صاحبيْ السجنِ أمَّا أحدكما فيسقي ربه خمراً﴾ أي يا صاحبيَّ في السجن أمّا الذي رأى أنه يعصر خمراً فيخرج من السجن ويعود إلى ما كان عليه من سقي سيده الخمر ، وأمّا الآخر الذي رأى على رأسه الخبز فيُقتل ويُعلَّق على خشبة فتأكل الطير من لحم رأسه ، قال المفسرون : روي أنه لما أخبرهما بذلك جحدا وقالا ما رأينا شيئاً فقال ﴿قُضي الأمر الذي فيه تستفيتان﴾ أي انتهى وتمَّ قضاء الله صدقتما أو كذبتما فهو واقع لا محالة ﴿وقال للذي ظنَّ أنه ناجٍ منهما﴾ أي قال يوسف للذي اعتقد نجاته وهو الساقي ﴿اذكرني عند ربك﴾ أي اذكرني عند سيّدك وأخبره عن أمري لعلّه يخلصني ممّا ظُلمتُ به ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾ أي أنسى الشيطان الساقي أن يذكر أمر يوسف للملك ﴿فلبث في السجن بضع سنين﴾ أي مكث يوسف في السجن سبع سنين ، قال المفسرون : وإنما لبث في السجن بضع سنين ، لأنه اعتمد ووثق بالمخلوق ، وغفل أن يرفع حاجته إلى الخالق جل وعلا قال القرطبي : قال وهب بن منبه : أقام أيوب في البلاء سبع سنين ، وأقام يوسف في السجن سبع سنين .

البَـــلاَغَـــة : ١ - بين ﴿صدقتْ﴾ و ﴿كذبتْ﴾ و ﴿الصادقين﴾ و ﴿الكاذبين﴾ طباقٌ وهو من المحسنات البديعية .

٢ - ﴿من الخاطئين﴾ من باب تغليب الذكور على الإناث .

٣ - ﴿سمعت بمكرهنَّ﴾ استعير المكر للغيبة لشبهها له في الإخفاء .

٤ - ﴿وقطَّعن أيديهن﴾ كذلك فيه استعارة حيث استعار لفظ القطع عن الجرح أي جرحن أيديهن .

٥ - ﴿أعصر خمراً﴾ مجاز مرسل باعتبار ما يكون أي عنباً يئول إلى خمر .

فَـــائِـــدَة : روي أن جبريل جاء إلى يوسف وهو في السجن معاتباً له فقال له : يا يوسف من خلصك من القتل من أيدي إخوتك ؟ قال:الله تعالى ، قال:فمن أخرجك من الجب ؟ قال:الله تعالى ، قال : فمن عصمك من الفاحشة ؟ قال:الله تعالى ، قال : فمن صرف عنك كيد النساء ؟ قال : الله تعالى ، قال : فكيف تركتَ ربك فلم تسأله ووثقت بمخلوق !؟ قال : يا رب كلمةٌ زلّتْ مني أسألك يا إله إبراهيم وآله والشيخ يعقوب عليهم السلام أن ترحمني فقال له جبريل : فإن عقوبتك أن تلبث في السجن بضع سنين[1] .

تـــنبيـــه : قال العلماء في قوله تعالى ﴿واستبقا الباب﴾ هذا من اختصار القرآن المعجز ، الذي يجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة ، وذلك أنها لما راودته عن نفسه وأبى ، عزمت على أن تجبره بالقسر والإكراه ، فهرب منها فتسابقا نحو الباب هي لترده إلى نفسها وهو يهرب منها فاختصر القرآن ذلك كله بتلك العبارة البليغة ﴿واستبقا الباب﴾ .

﴿شطحات بعض المفسرين في تفسير الهمّ﴾

لقد شطَّ القلم، وزلقت القدم ببعض المفسرين حين زعموا أن يوسف عليه السلام قد همَّ بمقارفة الفاحشة ، وشُحنت بعضُ كتب التفسير بكثير من الروايات الإسرائيلية الواهية ، بل المنكرة الباطلة في تفسير « الهمّ » و « البرهان » حتى زعم بعضهم أن يوسف حلَّ رباط السروال ، وجلس منها مجلس الرجل من امرأته ، ثم رأى صورة أبيه « يعقوب » عاضاً على أصبعه ، فقام عنها وتركها خجلاً من أبيه إلى غير ما هنالك من أقوال واهية ، لا زمام لها ولا خطام . ولستُ أدري كيف دخلت تلك الروايات المنكرة إلى بعض كتب التفسير ، وتقبّلها بعضهم بقبول حسن ، وكلُّها - كما يقول العلامة أبو السعود - خرافات وأباطيل ، تمجّها الآذان ، وتردها العقول والأذهان ! ؟ ثم كيف غاب عن أولئك المفسرين أن « يوسف الصدّيق » نبيٌ كريم ، ابن نبيٍ كريم ، وأن العصمة من صفات الأنبياء !! يا قوم اعقلوا وفكروا ، ونزّهوا هذه الكتب عن أمثال هذه الترّهات والأباطيل ، فإن الزنى جريمة من أبشع الجرائم فكيف يرتكبها نبيٌ من الأنبياء المكرمين ؟ وهاكم الأدلة أسوقها من كتاب الله فقط على عصمته عليه السلام من عشرة وجوه :

الأول : امتناعه الشديد ووقوفُه أمامها بكل صلابة وعزم ﴿قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي . .﴾ .

الثاني : فراره منها بعد أن غلّقت الأبواب وشدّدت عليه الحصار ﴿واستبقا البابَ وقدَّت قميصَه من دُبُر . .﴾ .

(١) القرطبي ٩/ ١٩٦ .

الثالث : إيثاره السجن على الفاحشة ﴿قال رب السجنُ أحـبُّ إليَّ مما يدعونني إليه . .﴾ .

الرابع : ثناء الله تعالى عليه في مواطن عديدة ﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾ ﴿آتيناهُ حُكماً وعلماً﴾ فهل يكون مخلصاً لله من همَّ بفاحشة الزنى ؟ .

الخامس : شهادة الطفل الذي أنطقه الله وهو في المهد بالحجة الدامغة ﴿وشهد شاهدٌ من أهلها . .﴾ الآية .

السادس : اعتراف امرأة العزيز ببراءته وعفته ﴿ولقد راودتُه عن نفسه فاستعصم . .﴾ .

السابع : استغاثته بربه لينجيه من كيد النساء ﴿فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهـن . .﴾ .

الثامن : ظهور الأمارات الواضحة والبراهين الساطعة على براءته وإدخالِهِ السجن لدفع مقالة الناس ﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليَسجننَّه حتى حين﴾ .

التاسع : عدم قبوله الخروج من السجن حتى تبرأ ساحته من التهمة ﴿ارجعْ إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن . .﴾ ؟ .

العاشر : الاعتراف الصريح من امرأة العزيز والنسوة ببراءته ﴿قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾ . وكفى بذلك برهاناً على عفته ونزاهته ! ! والله يقول الحقَّ وهو يهدي السبيل .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان . . إلى . . ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ من آية (٤٣) إلى نهاية آية (٦٨) .

المنَاسَبَة : لما أراد الله الفرج عن يوسف وإخراجه من السجن ، رأى ملك مصر رؤيا عجيبة أفزعته ، فجمع السحرةَ والكهنة والمنجمين وأخبرهم بما رأى في منامه ، وسألهم عن تأويلها فأعجزهم الله جميعاً ليكون ذلك سبباً في خلاص يوسف من السجن .

اللغَـــة : ﴿عجاف﴾ هزيلة ضعيفة جمع أعجف والأنثى عجفاء ﴿تعبرون﴾ التعبير : معرفة تفسير الرؤيـا المنامية ﴿أضغـاث﴾ جمع ضِغث وهو الحزمة من الحشيش اختلط فيها اليابس بالرطب ﴿أحلام﴾ جمع حُلـم وهو ما يراه النائم ومعناه أخلاط منامات اختلط فيها الحق بالباطل ﴿أدكر﴾ تذكّر بعد النسيان ﴿دأباً﴾ الدَّأب : الاستمرار على الشيء يقال : دأب على عمله فهو دائب أي استمر عليه ﴿تحصنون﴾ تحرزون وتدخرون ﴿حصحص﴾ ظهر وبان ﴿مكيـن﴾ ذو مكانة رفيعة ﴿رحالهم﴾ جمع رحل وهو ما على ظهر المركوب من متاع الراكب وغيره ﴿نميـر﴾ نأتي لهم بالميرة وهي الطعام ﴿يحاطَبكم﴾ تهلكوا جميعاً .

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ

التفسِـير : ﴿وقال الملكُ إني أرى سبعَ بقراتٍ سمانٍ يأكلهنَّ سبعٌ عجاف﴾ أي قال ملك مصر إني رأيت في منامي سبع بقرات سمانٍ خرجت من نهرٍ يابسٍ ، وفي أثرهن سبع بقراتٍ هزيلة في غاية الهُزال

أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ

فابتعلت العجافُ السمانَ ﴿وسبعَ سنبلاتٍ خضرٍ وأُخرَ يابسات﴾ هذا من تتمة الرؤيا أي ورأيتُ أيضاً سبع سنبلاتٍ خضر قد انعقد حبُّها وسبعاً أُخر يابسات قد استحصدت ، فالتوتْ اليابسات على الخضر فأكلنهنّ ﴿يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي﴾ أي يا أيها الأشراف من رجالي وأصحابي أخبروني عن تفسير هذه الرؤيا ﴿إن كنتم للرؤيا تعبُرون﴾ أي إن كنتم تجيدون تعبيرها وتعرفون مغزاها ﴿قالوا أضغاث أحلام﴾ أي أخلاط رؤيا كاذبة لا حقيقة لها قال الضحاك : أحلامٌ كاذبة ﴿وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾ أي ولسنا نعرف تأويل مثل هذه الأحلام الكاذبة[1] ﴿وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أمة﴾ أي وقال الذي نجا من السجن وهو الساقي وتذكّر ما سبق له مع يوسف بعد مدة طويلة ﴿أنا أنبئكم بتأويله﴾ أي أنا أخبركم عن تفسير هذه الرؤيا ممن عنده علم بتأويل المنامات ﴿فأرسلون﴾ أي فأرسلوني إليه لآتيكم بتأويلها ، خاطب الملك بلفظ التعظيم قال ابن عباس : لم يكن السجن في المدينة ولهذا قال فأرسلون[2] ﴿يوسفُ أيها الصدّيق﴾ في الكلام محذوف دلَّ عليه السياق وتقديره: فأرسلوه فانطلق الساقي إلى السجن ودخل على يوسف وقال له: يا يوسف يا أيها الصِّديق وسمّاه صديقاً لأنه كان قد جرب صدقه في تعبير الرؤيا التي رآها في السجن، والصدّيق مبالغةٌ من الصدق ﴿أفتنا في سبع بقراتٍ سمانٍ يأكلهنَّ سبعٌ عجاف، وسبع سنبلات خضرٍ وأُخر يابسات﴾ أي أخبرنا عن تأويل هذه الرؤيا العجيبة ﴿لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون﴾ أي لأرجع إلى الملك وأصحابه وأخبرهم بها ليعلموا فضلك وعلمك ويخلصوك من محنتك قال الإمام الفخر : وإنما قال ﴿لعلّي أرجع إلى الناس﴾ لأنه رأى عجز سائر المعبّرين عن جواب هذه المسألة فخاف أن يعجز هو أيضاً عنها فلهذا السبب قال لعلّي[3] ﴿قال تزرعون سبع سنين دأَباً﴾ أي تزرعون سبع سنين دائبين بجدٍ وعزيمة ﴿فما حصدتم فذروه في سنبله﴾ أي فما حصدتم من الزرع فاتركوه في سنبله لئلا يسوّس ﴿إلا قليلاً مما تأكلون﴾ أي إلا ما أردتم أكله فادرسوه واتركوا الباقي في سنبله ﴿ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد﴾ أي ثمَّ يأتي بعد سنيّ الرخاء سبع سنين مجدبات ذات شدة وقحط على الناس ﴿يأكلْنَ ما قدمتم لهنّ﴾ أي تأكلون فيها مما ادخرتم أيام الرخاء ﴿إلا

---

(١) وقيل المعنى : لسنا نعرف تأويل الأحلام على الإطلاق . (٢) الطبري ١٢/ ٢٢٩ . (٣) الرازي ١٨/ ١٤٩ .

يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ

قليلاً مما تحصنون﴾ أي إلا القليل الذي تدخرونه وتخبئونه للزراعة **﴿ثم يأتي من بعد ذلك عامٌ فيه يُغاثُ الناس وفيه يعصرون﴾** أي ثم يأتي بعد سنيّ القحط والجدب العصيبة عام رخاء ، فيه يُمطرالناس ويُغاثون ، وفيه يعصرون الأعناب وغيرها لكثرة خصبه ، قال الزمخشري : تأول عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب ، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة ، ثم بشّرهم بأن العام الثامن يجيء مباركاً خصيباً ، كثير الخير ، غزير النعم ، وذلك من جهة الوحي[١] **﴿وقال الملك ائتوني به﴾** أي ولما رجع الساقي إلى الملك وعرض عليه ماعبَّر به يوسف رؤياه استحسن ذلك فقال: أحضروه لي لأسمع منه تفسيرها بنفسي ولأبصره **﴿فلما جاءه الرسول﴾** أي فلما جاء رسول الملك يوسف **﴿قال ارجع إلى ربك﴾** أي قال يوسف للرسول : إرجع إلى سيدك الملك **﴿فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطَّعْن أيديهن﴾** أي سلْه عن قصة النسوة اللاتي قطَّعن أيديهن هل يعلم أمرهنَّ ؟ وهل يدري لماذا حُبستُ ودخلت السجن ؟ وأني ظُلمت بسببهنَّ؟ أبى عليه السلام أن يخرج من السجن حتى تُبرأ ساحته من تلك التهمة الشنيعة ، وأن يعلم الناس جميعاً أنه حُبس بلا جرم **﴿إن ربي بكيدهن عليم﴾** أي إنه تعالى هو العالم بخفيات الأمور وبما دبّرن من كيدٍ لي **﴿قال ما خطبكنَّ إذْ راودتُنَّ يوسف عن نفسه﴾** جمع الملك النسوة ودعا امرأة العزيز معهن فسألهن عن أمر يوسف وقال لهن: ما شأنكن الخطير حين دعوتن يوسف إلى مقارفة الفاحشة؟[٢] **﴿قُلن حاشَ للّهِ ما علمنا عليه من سوء﴾** أي معاذ الله أن يكون يوسف أراد السوء، وهو تنزيهٌ له وتعجب من نزاهته وعفته **﴿قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق﴾** أي ظهر وانكشف الحق وبان بعد خفائه **﴿أنا راودتُه عن نفسه وإنه لمن الصَّادقين﴾** أي أنا التي أغريتُه ودعوتُه إلى نفسي وهو بريءٌ من الخيانة وصادقٌ في قوله «هي راودتني عن نفسي » وهذا اعتراف صريحٌ ببراءة يوسف على رءوس الأشهاد **﴿ذلك ليعلم أني لم أخنْه بالغيب﴾** الأظهر أن هذا من كلام يوسف قاله لمّا وصله براءة

(١) الكشاف ٢/ ٤٧٧ .

(٢) يقول الشهيد سيد قطب عليه الرحمة : رجع الرسول فأخبر الملك ، وأحضر الملك النسوة يستجوبهن ، والخطبُ: الأمرُ الجلل ، فكأن الملك استقصى فعلم أمرهنَّ ، فهو يواجههن مقرراً الاتهام ، ومشيراً إلى أمرٍ لهن جلل وشأنٍ لهنَّ خطير ﴿ما خطبكنَّ إذْ راودتن يوسف عن نفسه﴾ ؟ ومن هذا نعلم شيئاً مما دار في حفل الاستقبال في بيت العزيز ، وما قالته النسوة ليوسف وما أشرن إليه من الإغراء الذي يبلغ درجة المراودة ، ومن هذا نتخيل صورة لهذه الأوساط ونسائها حتى في ذلك العهد الموغل في التاريخ ، فالجاهلية دائماً هي الجاهلية ، إنه حيثما كان الترف ، وكانت القصور والحاشية ، كان التحلل والتميّع ، والفجور الناعم الذي يرتدي ثياب الأرستقراطية ! ! ظلال القرآن ١٢/ ٢٤٨ .

إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ

النسوة له والمعنى ذلك الأمر الذي فعلتُه من ردّ الرسول حتى تظهر براءتي ليعلم العزيز أني لم أخنه في زوجته في غيبته بل تعففت عنها ﴿وأنَّ اللهَ لا يهدي كيدَ الخائنين﴾ أي لا يوفق الخائن ولا يسدّد خطاه ﴿وما أبرىء نفسي إن النفس لأمّارةٌ بالسوء﴾ أي لا أزكي نفسي ولا أنزّهها ، فإن النفس البشرية ميّالة إلى الشهوات ، قاله يوسف على وجه التواضع قال الزمخشري : أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه ، لئلا يكون لها مزكياً ، وبحالها معجباً ومفتخراً[1] ﴿إلا ما رحم ربي﴾ أي إلا من رحمه الله بالعصمة ﴿إن ربي غفور رحيم﴾ أي عظيم المغفرة وواسع الرحمة ﴿وقال الملكُ ائتوني به استخلصْهُ لنفسي﴾ أي ائتوني بيوسف اجعله من خاصتي وخلصائي ، قال ذلك لمّا تحقق براءته وعرف عفته وشهامته وعلمه ﴿فلما كلّمه قال إنك اليوم لدينا مكينٌ أمين﴾ أي فلما أتوا به وكلّمه يوسف وشاهد الملك فضله ، ووفور عقله ، وحُسن كلامه قال إنك اليوم قريب المنزلة رفيع الرتبة ، مؤتمنٌ على كل شيء ﴿قال اجعلني على خزائن الأرض﴾ أي قال يوسف للملك اجعلني على خزائن أرضك ﴿إني حفيظ عليم﴾ أي أمينٌ على ما استودعتني ، عليمٌ بوجوه التصرف ، وإنما طلب منه الولاية رغبةً في العدل ، وإقامة الحق والإحسان ، وليس هو من باب التزكية للنفس ، وإنما هو للإشعار بحنكته ودرايته لاستلام وزارة الماليّة ﴿وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض﴾ أي وهكذا مكنّا ليوسف في أرض مصر ، وجعلنا له العزَّ والسلطان بعد الحبس والضيق ﴿يتبوأ منها حيث يشاء﴾ أي يتخذ منها منزلاً حيث يشاء ويتصرف في المملكة كما يريد ﴿نصيب برحمتنا من نشاء﴾ أي نخص بإنعامنا وفضلنا من نشاء من عبادنا ﴿ولا نضيع أجر المحسنين﴾ أي لا نضيع أجر من أحسن عمله وأطاع ربه بل نضاعفه له ﴿ولأجر الآخرة خيرٌ للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ أي أجر الآخرة وثوابها خيرٌ للمؤمنين المتقين من أجر الدنيا ، وفيه إشارة إلى أن المطلب الأعلى هو ثواب الآخرة ، وأن ما يُدَّخر لهؤلاء المحسنين أعظم وأجلُّ من هذا النعيم العاجل في الدنيا ﴿وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون﴾ أي دخلوا على يوسف فعرف أنهم إخوته ولكنهم لم يعرفوه لهيبة المُلْك ، وبُعْد العهد ، وتغير الملامح قال ابن عباس : كان بين إلقائه في الجب وبين دخولهم عليه اثنتان وعشرون سنة فلذا أنكروه[2] ، وكان سبب مجيئهم أنهم أصابتهم مجاعة في بلادهم بسبب القحط الذي عمَّ البلاد ، فخرجوا إلى مصر ليشتروا من

(١) الكشاف ٢/ ٤٨٠ . (٢) حاشية الصاوي ٢/ ٢٤٩ .

﴿وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ۝٦٠ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٦٢ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٦٣ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٦٤ وَلَمَّا فَتَحُواْ﴾

الطعام الذي ادخره يوسف ، فلما دخلوا على يوسف قال كالمنكر عليهم : ما أقدمكم بلادي ؟ قالوا : جئنا للميرة ، قال : لعلكم عيونٌ «جواسيس» علينا ؟ قالوا : معاذ الله ، قال : فمن أين أنتم ؟ قالوا : من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبيُّ الله ، قال : وله أولاد غيركم ؟ قالوا : نعم كنا اثني عشر فذهب أصغرنا وهلك في البرية ـ وكان أحبَّنا إليه ـ وبقي شقيقه فاحتبسه ليتسلّى به عنه وجئنا نحن العشرة ، فأمر بإنزالهم وإكرامهم[1] ﴿ولما جهّزهم بجهازهم﴾ أي هيأ لهم الطعام والميرة وأعطاهم ما يحتاجون إليه في سفرهم ﴿قال ائتوني بأخٍ لكم من أبيكم﴾ أي ائتوني بأخيكم بنيامين لأصدقكم ﴿ألا ترون أني أوفي الكيل﴾ أي ألا ترون أني أتم الكيل من غير بخسٍ ﴿وأنا خير المنزلين﴾ أي خير من يكرم الضيفان وخير المضيفين لهم ، وكان قد أحسن إنزالهم وضيافتهم ﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون﴾ أي إن لم تأتوني بأخيكم فليس لكم عندي بعد اليوم ميرة ، ولا تقربوا بلادي مرة ثانية ، رغبهم ثم توعدهم قال في البحر : والظاهر أن كل ما فعله يوسف عليه السلام كان بوحيٍ من الله وإلا فمقتضى البر أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه لكنَّ الله أراد تكميل أجر يعقوب ومحنته ، ولتتفسَّر الرؤيا الأولى[2] ﴿قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون﴾ أي سنخادعه ونحتال في انتزاعه من يده ، ونجتهد في طلبه منه ، وإنّا لفاعلون ذلك ﴿وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم﴾ أي قال يوسف لغلمانه الكيالين اجعلوا المال الذي اشتروا به الطعام في أوعيتهم ﴿لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم﴾ أي لكي يعرفوها إذا رجعوا إلى أهلهم وفتحوا أوعيتهم ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي لعلهم يرجعون إلينا إذا رأوها ، فإنه علم أنَّ دينهم يحملهم على رد الثمن لأنهم مطهّرون عن أكل الحرام فيكون ذلك أدعى لهم إلى العود إليه ﴿فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا مُنع منا الكيل﴾ أي فلما عادوا إلى أبيهم قالوا له ـ قبل أن يفتحوا متاعهم ـ يا أبانا لقد أُنذرنا بمنع الكيل في المستقبل إن لم نأت بأخينا بنيامين ، فإنَّ ملك مصر ظنَّ أننا جواسيس وأخبرناه بقصتنا فطلب أخانا ليتحقق صدقنا ﴿فأرسلْ معنا أخانا نكتلْ﴾ أي أرسل معنا أخانا بنيامين لنأخذ ما نستحقه من الحبوب التي تُكال لنا ﴿وإنَّا له لحافظون﴾ أي نحفظه من أن يناله مكروه ﴿قال هل آمَنُكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل﴾ أي قال لهم يعقوب : كيف آمنكم على بنيامين وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم بعد أن ضمنتم لي حفظه ، ثمَّ خنتم العهد؟ فأخاف أن تكيدوا له كما كدتم لأخيه؟ فأنا لا أثق بكم ولا بحفظكم ، وإنما أثق بحفظ الله ﴿فالله خيرٌ حافظاً﴾ أي حفظُ

(١) تفسير الجلالين ٢/ ٢٤٩ . (٢) البحر المحيط ٥/ ٣٢٢ .

مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا

الله خيرٌ من حفظكم ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ أي هو أرحم من والديه وإخوته ، فأرجو أن يمُنَّ عليَّ بحفظه ولا يجمع عليَّ مصيبتين ﴿ ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم رُدَّت إليهم ﴾ أي ولما فتحوا الأوعية التي وضعوا فيها الميرة وجدوا ثمن الطعام في متاعهم ﴿قالوا يا أبانا ما نبغي﴾ أي ماذا نبغي ؟ وأيَّ شيءٍ نطلب من إكرام الملك أعظم من هذا ؟ ﴿هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا﴾ أي هذا ثمن الطعام قد رُدَّ إلينا من حيثُ لا ندري ، فهل هناك مزيدٌ فوق هذا الإحسان ، أوفى لنا الكيل ، وردَّ لنا الثمن !! أرادوا بذلك استنزال أبيهم عن رأيه ﴿ونَميرُ أهلنا﴾ أي نأتي بالميرة والطعام لأهلنا ﴿ونحفظ أخانا﴾ أي نحفظه من المكاره ، وكرروا حفظ الأخ مبالغةً في الحض على إرساله ﴿ونزداد كيل بعير﴾ أي ونزداد باستصحابنا له حمل بعير ، روي أنه ما كان يعطي الواحد إلا كيل بعير من الطعام ، فأعطاهم حمل عشرة جمال ومنعهم الحادي عشر حتى يحضر أخوهم ﴿ذلك كيلٌ يسيرٌ﴾ أي سهلٌ على الملك إعطاؤه لسخائه ﴿قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتنّني به﴾ أي قال لهم أبوهم : لن أرسل معكم بنيامين إلى مصر حتى تعطوني عهداً مؤكداً وتحلفوا بالله لتردُنه عليَّ ﴿إلاّ أن يُحاط بكم﴾ أي إلا أن تُغلبوا فلا تقدروا على تخليصه ، ولا يبقى لكم طريق أو حيلة إلى ذلك قال مجاهد : إلا أن تموتوا كلُّكم فيكون ذلك عذراً عندي ﴿فلما آتوه موثقهم﴾ أي فلما حلفوا له وأعطوه العهد المؤكد ﴿قال الله على ما نقول وكيل﴾ أي الله شهيد رقيب على ذلك ﴿وقال يا بنيَّ لا تَدْخلوا من بابٍ واحدٍ وادخلوا من أبوابٍ متفرقة﴾ أي لا تدخلوا مصر من بابٍ واحد قال المفسرون : خاف عليهم من العين إن دخلوا مجتمعين إذ كانوا أهل جمالٍ وهيبة ، والعينُ حقٌ تُدخل الرجلَ القبرَ ، والجملَ القِدر كما جاء في الحديث ﴿وما أُغني عنكم من الله من شيء﴾ أي لا أدفع عنكم بتدبيري شيئاً مما قضاه الله عليكم ، فإن الحذر لا يدفع القدر ﴿إن الحكم إلا لله﴾ أي ما الحكم إلا للّه جلَّ وعلا وحده لا يشاركه أحد ، ولا يمانعه شيء ﴿عليه توكلت﴾ أي عليه وحده اعتمدت وبه وثقت ﴿وعليه فليتوكل المتوكلون﴾ أي وعليه فليعتمدْ أهل التوكل والإيمان ، وليفوضوا أمورهم إليه ﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم﴾ أي دخلوا من الأبواب المتفرقة كما أوصاهم أبوهم ﴿ما كان يغني عنهم من الله من شيء﴾ أي ما كان دخولهم متفرقين ليدفع عنهم من قضاء الله شيئاً ﴿إلا حاجةً في نفس يعقوب قضاها﴾ أي إلا خشية العين شفقةً منه على بنيه ﴿وإنه لذو علمٍ لما علمناه﴾ أي وإن يعقوب لذو علمٍ واسع لتعليمنا إياه بطريق

وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

الوحي ، وهذا ثناءٌ من الله تعالى عظيمٌ على يعقوب ، لأنه علم بنور النبوة أن القدر لا يدفعه الحذر ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي لا يعلمون ما خصَّ الله به أنبياءه وأصفياءه من العلوم التي تنفعهم في الدارين .

البَـلاَغَـة : ١ - ﴿إني أرى سبع بقرات﴾ صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية .

٢ - ﴿سمان . . . وعجاف﴾ بينهما طباقٌ وكذلك بين ﴿خضر . . ويابسات﴾ طباقٌ .

٣ - ﴿أضغاث أحلام﴾ هذا من أبلغ أنواع الاستعارة وألطفها فإن الأضغاث هو المختلط من الحشيش المضموم بعضه إلى بعض ، فشبه اختلاط الأحلام وما فيها من المحبوب والمكروه ، والخير والشر باختلاط الحشيش المجموع من أصناف كثيرة .

٤ - ﴿يوسف أيها الصدّيق﴾ هذا من براعة الاستهلال فقد قدَّم الثناء قبل السؤال طمعاً في إجابة مطلبه .

٥ - ﴿يأكلنْ ما قدمتم لهن﴾ فيه مجاز عقلي لأن السنين لا تأكل وإنما يأكل الناس ما ادَّخروه فيها ، فهو من باب الإسناد إلى الزمان كقول الفصحاء : نهارُ الزاهدِ صائم وليلُه قائم .

٦ - ﴿لأمَّارة بالسوء﴾ لم يقل آمرة مبالغة في وصف النفس بكثرة الدفع في المهاوي ، والقود إلى المغاوي لأن « فعّال » من أبنية المبالغة .

٧ - ﴿فعرفهم وهم له منكرون﴾ بين عرف وأنكر طباقٌ .

٨ - ﴿لا تدخلوا من باب واحدٍ وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ فيه إطناب وهو زيادة اللفظ على المعنى ، وفائدتُه تمكين المعنى من النفس ، وفيه أيضاً من المحسنات البديعية ما يسمى « طباق السلب » .

فَـائِـدَة : أثنى رسول الله ﷺ على يوسف الصِّديق في كرمه وصبره وحلمه فقال : (لو لبثتُ في السجن ما لبثَ يوسفُ لأجبتُ الداعي) وكفى بهذا برهاناً على عفة يوسف ونزاهته عليه السلام .

لطيفَـة : ذكر بعض العلماء أن يوسف عليه السلام ما زال النساء يملن إليه ميل شهوة حتى نبأه الله ، فألقى عليه هيبة النبوة فشغلت هيبتُه كل من رآه عن حسنه .

قال الله تعالى : ﴿ولما دخلوا على يوسف . . إلى . . وأتوني بأهلكم أجمعين﴾
من آية (٦٩) إلى نهاية آية (٩٣) .

* * *

المنَاسَبَة : تتحدث الآيات عن مجيء إخوة يوسف للمرة الثانية إلى مصر ومعهم « بنيامين » الأخ الشقيق ليوسف ، وما كان من شأنه حين ظهر الصواع في رحله ، فاحتجزه يوسف عنده بحكم شريعة يعقوب ، ثم ما كان من تمام المحنة على يعقوب عليه السلام بفقد ولديه حتى ذهب الحزن ببصره .

اللغَة : ﴿تبتئس﴾ تحزن ﴿العير﴾ الإبل التي عليها الأحمال ثم كثر الاستعمال حتى قيل لكل قافلة عيرٌ ﴿صُواع﴾ الصُّواع : الصاع الذي يكال به يُذكَّر ويؤنَّث وهو السقاية ﴿زعيم﴾ كفيل ﴿سوَّلت﴾ زيَّنت وسهَّلت ﴿كظيم﴾ ممتلىء من الحزن يكتمه ولا يبديه ﴿تفتأ﴾ لا تفتأ ولا تزال من أخوات كان الناقصة ﴿حَرَضاً﴾ الحَرَض : المَرَض الذي يُشْفِي على الهلاك قال الشاعر :

سَرَى همِّي فأمْرضني وقِـدْمـاً زادني مَرَضـاً
كـذاك الحُبُّ قبـلَ اليـو مِ ممّـا يُـورثُ الحَرَضـا

وأصل الحَرَض الفساد في الجسم أو العقل ﴿بثي﴾ البثُّ : أشد الغمّ والهمّ ﴿فتحسسوا﴾ التحسُّسُ : طلب الشيء بالحواس ، والتعرُّفُ عليه مع الاستقصاء الدقيق ويستعمل في الخير كما أن التجسُّس يستعمل في الشر ، وقيل يستعمل في الخير والشر ﴿لا تثريب﴾ التثريبُ : التأنيب والتوبيخ .

وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا

التفسِير : ﴿ولما دخلوا على يوسف﴾ أي وحين دخل أولاد يعقوب على يوسف ﴿آوى إليه أخاه﴾ أي ضمَّ إليه أخاه الشقيق بنيامين ﴿قال إني أنا أخوك﴾ أي أنا أخوك يوسف ، أخبره بذلك واستكتمه ﴿فلا تبتئسْ بما كانوا يعملون﴾ أي لا تحزنْ بما فعلوا بنا فيما مضى فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا بخير قال المفسرون : لما دخل إخوة يوسف عليه أكرمهم وأحسن ضيافتهم ثم أنزل كل اثنين في بيت وبقي « بنيامين » وحيداً فقال : هذا لا ثاني له فيكون معي ، فبات يوسف يضمه إليه ويعانقه ، وقال له : أنا أخوك يوسف فلا تحزن بما صنعوا ، ثم أعلمه أنه سيحتال لإبقائه عنده وأمره أن يكتم الخبر ﴿فلما جهَّزهم بجهازهم﴾ أي ولمّا قضى حاجتهم وحمَّل إبلهم بالطعام والميرة ﴿جعلَ السقايةَ في رَحْل أخيه﴾ أي أمر يوسف بأن تُجعل السقاية - وهي صاعٌ من ذهب مرصَّعٌ بالجواهر - في متاع أخيه بنيامين ﴿ثم أذَّن مؤذنٌ﴾ أي نادى منادٍ ﴿أيتها العيرُ﴾ أي يا أصحاب الإبل ويا أيها الركب المسافرون ﴿إنكم لسارقون﴾ أي أنتم قوم سارقون ، وإنما استحل أن يرميهم بالسرقة لما في ذلك من المصلحة من إمساك أخيه ﴿قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون﴾ ؟ قال المفسرون : لما وصل المنادون إليهم قالوا : ألم نكرمكم ونحسن ضيافتكم ؟ ونوفّ إليكم الكيل ؟ ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم ؟ قالوا : بلى وما ذاك ؟ قالوا : فقدنا سقاية الملك ولا نتّهم عليها غيركم فذلك قوله تعالى : ﴿قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون﴾ أي التفتوا إليهم وسألوهم ماذا ضاع

تَفۡقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ

منكم وماذا فُقد ؟ وفي قولهم ﴿ماذا تفقدون﴾ بدل «ماذا سرقْنا» إرشادٌ لهم إلى مراعاة حسن الأدب ، وعدم المجازفة بنسبة البريئين إلى تهمة السرقة ، ولهذا التزموا الأدب معهم فأجابوهم **﴿قالوا نفقِد صُواع الملك﴾** أي ضاع منا مكيال الملِك المُرصَّع بالجواهر **﴿ولمنْ جاءَ به حِمْل بعير﴾** أي ولمن جاءنا بالمكيال وردَّه إلينا حِمْلُ بعيرٍ من الطعام كجائزة له **﴿وأنا به زعيم﴾** أي أنا كفيلٌ وضامنٌ بذلك **﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنُفْسد في الأرض﴾** قسمٌ فيه معنى التعجب أي قالوا متعجبين : والله لقد علمتم أيها القوم ما جئنا بقصد أن نفسد في أرضكم **﴿وما كنا سارقين﴾** أي ولسنا ممن يُوصف بالسرقة قطُّ لأننا أولاد أنبياء ولا نفعل مثل هذا الفعل القبيح قال البيضاوي : استَشْهدوا بعلمهم على براءة أنفسهم لما عرفوا منهم من فرط أمانتهم ، كردّ البضاعة التي جُعلت في رحالهم ،وككمِّ أفواه الدواب لئلا تتناول زرعاً أو طعاماً لأحد[1] **﴿قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين﴾** أي ما عقوبة السارق في شريعتكم إن كنتم كاذبين في ادعاء البراءة **﴿قالوا جزاؤه من وُجد في رَحْله فهو جزاؤه﴾** أي جزاء السارق الذي يوجد الصاع في متاعه أن يُسترقَّ ويصبح مملوكاً لمن سرَق منه **﴿كذلك نجزي الظالمين﴾** أي كذلك نجازي من تعدَّى حدود الله بالسرقة وأمثالها ، وهذا القول منهم هو الحكم في شريعة يعقوب وقد نسخ بقطع الأيدي في الشريعة الإسلامية **﴿فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه﴾** أي بدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه بنيامين قال المفسرون :هذا من تمام الحيلة ودفع التهمة فإنهم لما ادعوا البراءة قالوا لهم : لا بدَّ من تفتيش أوعيتكم واحداً واحداً فانطلقوا بهم إلى يوسف فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء «بنيامين» قال قتادة : ذُكر لنا أنه كان لا يفتح متاعاً ولا ينظر وعاءً إلا استغفر الله مما قذفهم به ، حتى بقي أخوه ـ وكان أصغرَ القوم فقال : ما أظُنُّ هذا أخذ شيئاً فقالوا : والله لا نتركُك حتى تنظر في رَحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا ، فلما فتحوا متاعه وجدوا الصُّواع فيه فذلك قوله تعالى **﴿ثم استخرجها من وعاء أخيه﴾** أي استخرج الصُّواع من متاع أخيه بنيامين ، فلما أخرجها منه نكَّس الإخوةُ رءوسَهم من الحياء ، وأقبلوا عليه يلومونه ويقولون له فضحتنا وسوَّدت وجوهنا يا ابن راحيل **﴿كذلك كدنا ليوسف﴾** أي كذلك صنعنا ودبرنا ليوسف وألهمناه الحيلة ليستبقي أخاه عنده **﴿ما كان ليأخذ أخـاه في دين الملِك﴾** أي ما كان ليوسف أن يأخذ أخاه في دين ملك مصر ، لأن جزاء السارق عنده أن يُضرب ويُغرَّم ضعفَ ما سرَق **﴿إلا أن يشاء الله﴾** أي إلا بمشيئته تعالى وإذنه ، وقد دلّت الآية على أن تلك الحيلة كانت بتعليم الله وإلهامه له

(١) البيضاوي ٢٦٧ .

كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ

﴿**نرفع درجاتٍ مَنْ نشاء**﴾ أي نرفع بالعلم منازل من نشاء من عبادنا كما رفعنا يوسف ﴿**وفوق كل ذي علمٍ عليمٌ**﴾ أي فوق كل عالمٍ من هو أعلم منه حتى ينتهي إلى ذي العلم البالغ وهو ربُّ العالمين قال الحسن : ليس عالمٌ إلا فوقه عالم حتى ينتهي العلم إلى الله وقال ابن عباس : الله العليم الخبير فوق كل عالم[1] ﴿**قالوا إنْ يسرقْ فقد سرق أخٌ له من قبل**﴾ أي إن سرق فقد سرق أخوه الشقيق من قبله يعنون يوسف ، تنصّلوا من السرقة ورموا بها يوسف وأخاه ﴿**فأسرَّها يوسفُ في نفسه ولم يُبدها لهم**﴾ أي أخفى تلك القولة في نفسه وكتمها ولم يُظهرها لإخوته تلطفاً معهم ﴿**قال أنتم شرٌّ مكاناً**﴾ أي أنتم شرٌّ منزلةً حيث سرقتم أخاكم من أبيكم ثم طفقتم تفترون على البريء ، ولم يواجههم بهذا الكلام وإنما قاله في نفسه ﴿**والله أعلمُ بما تصفون**﴾ أي أعلم بما تتقوّلون وتفترون ﴿**قالوا يا أيها العزيزُ إنَّ له أباً شيخاً كبيراً**﴾ استرحامٌ واستعطافٌ أي قالوا مستعطفين يا أيها السيد المبجّل إنَّ أباه شيخ كبير في السِّن لا يكاد يستطيع فراقه ﴿**فخذْ أحدنا مكانه**﴾ أي خذْ بدله واحداً منا فلسنا عنده بمنزلته من المحبة والشفقة ﴿**إنا نراك من المحسنين**﴾ أي أتممْ إحسانك علينا فقد عودتنا الجميل والإحسان ﴿**قال معاذَ الله أن نأخذ إلاّ من وجدنا متاعنا عنده**﴾ أي نعوذ بالله من أن نأخذ أحداً بجرم غيره ﴿**إنا إذاً لظالمون**﴾ أي نكون ظالمين إن فعلنا ذلك قال الألوسي : والتعبير بقوله ﴿**من وجدنا متاعنا عنده**﴾ بدل « من سَرَقَ » لتحقيق الحق والاحتراز عن الكذب[2] ﴿**فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً**﴾ أي ولما يئسوا من إجابة طلبهم يأساً تاماً ، وعرفوا أن لا جدوى من الرجاء ، اعتزلوا جانباً عن الناس يتناجون ويتشاورون ﴿**قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله**﴾ أي قال أكبرهم سناً وهو « روبيل » أليس قد أعطيتم أباكم عهداً وثيقاً بردِّ أخيكم ؟ ﴿**ومن قبلُ ما فرطتم في يوسف**﴾ أي ومن قبل هذا ألا تذكرون تفريطكم في يوسف ؟ فكيف ترجعون إليه الآن ؟ ﴿**فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي**﴾ أي فلن أفارق أرض مصر حتى يسمح لي أبي بالخروج منها ﴿**أو يحكم الله لي**﴾ أي يحكم لي بخلاص أخي ﴿**وهو خير الحاكمين**﴾ أي وهو سبحانه أعدل الحاكمين لأنه لا يحكم إلا بالعدل والحق ﴿**إرجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إنَّ ابنك سرَق**﴾ أي ارجعوا إلى أبيكم فأخبروه بحقيقة ما جرى

---

(١) الطبري ١٣/٢٧ . (٢) روح المعاني ١٣/ ٣٤ .

أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ

وقولوا له إن ابنك بنيامين سَرَق ﴿وما شهدنا إلا بما علمنا﴾ أي ولسنا نشهد إلا بما تيقنا وعلمنا فقد رأينا الصاع في رَحْله ﴿وما كنّا للغيب حافظين﴾ أي ما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الميثاق ﴿واسألْ القرية التي كنا فيها﴾ أي واسأل أهل مصر عن حقيقة ما حدث قال البيضاوي : أي أرسلْ إلى أهلها واسألهم عن القصة[1] ﴿والعيرَ التي أقبلنا فيها﴾ أي واسأل أيضاً القافلة التي جئنا معهم وهم قوم من كنعان كانوا بصحبتهم في هذه السفرة ﴿وإنا لصادقون﴾ أي صادقون فيما أخبرناك من أمره ﴿قال بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً﴾ أي زيَّنتْ وسهَّلت لكم أنفسكم أمراً ومكيدةً فنفذتموها ، اتهمهم بالتآمر على «بنيامين» لما سبق منهم في أمر يوسف ﴿فصبرٌ جميل﴾ أي لا أجد سوى الصبر محتسباً أجري عند الله ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾ أي عسى أن يجمع الله شملي بهم ، ويقرّ عيني برؤ يتهم جميعاً ﴿إنه هو العليم الحكيم﴾ أي العالم بحالي الحكيم في تدبيره وتصريفه ﴿وتولّى عنهم﴾ أي أعرض عن أولاده كراهة لما سمع منهم ﴿وقال يا أسفى على يوسف﴾ أي يا لهفي ويا حسرتي وحزني على يوسف ﴿وابيضَّتْ عيناه من الحزن﴾ أي فقد بصره وعشي[2] من شدة البكاء حزناً على ولديه ﴿فهو كظيم﴾ أي مملوء القلب كمداً وغيظاً ولكنه يكتم ذلك في نفسه ، وهو مغموم ومكروب لتلك الداهية الدهياء قال أبو السعود : وإنما تأسف على يوسف مع أن الحادث مصيبة أخويه لأن ذكر يوسف كان آخذاً بمجامع قلبه لا ينساه ولأنه كان واثقاً بحياتهما طامعاً في إيابهما وأما يوسف فلم يكن في شأنه ما يحرك سلسلة رجائه سوى رحمة الله وفضله[3] وقال الرازي : الحزن الجديد يقوّي الحزن القديم الكامن في النفس ، والأسى يبعث الأسى ويثير الأحزان قال الشاعر :

فقلت له إن الأسى يبعث الأسى فدعْني فهذا كله قبر مالك[4]

﴿قالوا تاللَّهِ تفتَؤُاْ تذكر يوسف﴾ أي لا تفتأ ولا تزال تذكر يوسف وتتفجع عليه ﴿حتى تكون حَرَضاً أو تكون من الهالكين﴾ أي حتى تكون مريضاً مشرفاً على الهلاك أو تهلك أسىً وحسرة وتموت ﴿قال إنما أشكواْ بثي وحزني إلى الله﴾ أي قال لهم يعقوب : لستُ أشكو غمّي وحزني إليكم وإنما أشكو ذلك إلى الله فهو الذي

(١) البيضاوي ٢٦٨ . (٢) عشي البصر ضعف حتى كاد لا يرى من شدة البكاء كأن غشاوة صارت عليه قال الشاعر : عشيتْ عيناي من طول البكا . قال المفسرون : إن يعقوب فقد بصره من شدة حزنه على يوسف وبقي لا يبصر ست سنوات حتى كشف الله عنه الضر بقميص يوسف واستدلوا بقوله تعالى ﴿ألقاه على وجهه فارتدَّ بصيراً . .﴾ . (٣) أبو السعود ٣/ ٨٨ . (٤) الفخر الرازي ١٨/ ١٩٣ .

﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨٦ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٧ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ۝٨٨ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ۝٨٩ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠﴾

تنفع الشكوى إليه ﴿وأعلمُ من الله ما لا تعلمون﴾ أي أعلم من رحمته وإحسانه ما لا تعلمون أنتم فأرجو أن يرحمني ويلطف بي ويأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب ﴿يا بنيَّ اذهبوا فتحسَّسوا من يوسف وأخيه﴾ أي اذهبوا إلى الموضع الذي جئتم منه فالتمسوا يوسف وتعرّفوا على خبره وخبر أخيه بحواسكم ﴿ولا تيأسوا من رَوْح الله﴾ أي لا تقنطوا من رحمة الله وفرجه وتنفيسه ﴿إنه لا ييأسُ من رَوْح الله إلا القومُ الكافرون﴾ أي فإنه لا يقنط من رحمته تعالى إلا الجاحدون المنكرون لقدرته جلَّ وعلا ﴿فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسَّنا وأهلَنا الضرُّ﴾ في الكلام محذوف أي فخرجوا راجعين إلى مصر فدخلوا على يوسف فلما دخلوا قالوا يا أيها العزيز أصابنا وأهلنا الشدة من الجدب والقحط ﴿وجئنا ببضاعة مزجاة﴾ أي وجئنا ببضاعة رديئة مدفوعة يدفعها كل تاجرٍ رغبة عنها واحتقاراً قال ابن عباس: كانت دراهمهم رديئة لا تقبل في ثمن الطعـام[1] ، أظهروا له الذل والانكسار استرحاماً واستعطافاً ﴿فأوفِ لنا الكيل﴾ أي أتمم لنا الكيل ولا تنقصْه لرداءة بضاعتنا ﴿وتصدَّق علينا﴾ أي بردّ أخينا إلينا[2] أو بالمسامحة عن رداءة البضاعة ﴿إن الله يجزي المتصدقين﴾ أي يثيب المحسنين أحسن الجزاء . . ولما بلغ بهم الأمر إلى هذا الحد من الاسترحام والضيق والانكسار أدركته الرأفة فباح لهم بما كان يكتمه من أمره ﴿قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذْ أنتم جاهلون﴾ ؟ أي هل تذكرون ما فعلتم بيوسف وأخيه حال شبابكم وطيشكم ؟ والغرض تعظيم الواقعة كأنه يقول : ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه ! قال أبو السعود : وإنما قاله نصحاً لهم ، وتحريضاً على التوبة ، وشفقةً عليهم[3] ﴿قالوا أئنك لأنت يوسف﴾ أي قال إخوته متعجبين مستغربين : أأنت يوسف حقاً ؟ ﴿قال أنا يوسف وهذا أخي﴾ أي قال : نعم أنا يوسف وهذا أخي الشقيق ﴿قد منَّ الله علينا﴾ أي منَّ علينا بالخلاص من البلاء ، والاجتماع بعد الفرقة ، والعزة بعد الذلة ﴿إنه من يتق ويصبر﴾ أي إنه من يتق الله فيراقبه ويصبر على البلايا والمحن ﴿فإنَّ الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ أي لا يبطل أجرهم ولا يضيع إحسانهم بل يجزيهم عليه أوفى الجزاء قال البيضاوي : ووضع المحسنين موضع الضمـير للتنبيه على أن المحسن من جمع بين التقوى والصبر[4] ﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا﴾ اعترافٌ بالخطيئة وإقرار بالذنب

---

(١) الرازي ١٨/ ٢٠١ . (٢) هذا قول ابن جريح واختار الطبري أن المراد المسامحة لرداءة البضاعة . (٣) ابو السعود ٣/ ٩٠ .
(٤) البيضاوي ٢٦٩ .

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

أي والله لقد فضَّلك الله علينا بالتقوى والصبر ، والعلم والحلم ﴿**وإن كنّا لخاطئين**﴾ أي وحالُنا وشأننا أننا كنا مذنبين بصنيعنا الذي صنعنا بك ، ولذلك أعزَّك الله وأذلنا ، وأكرمك وأهاننا ﴿**قال لا تثريب عليكم اليوم**﴾ أي قال لهم يوسف : لا عتب عليكم اليوم ولا عقوبة بل أصفح وأعفو ﴿**يغفر الله لكم**﴾ دعاءً لهم بالمغفرة وهذا زيادة تكريم منه لما فرط منهم ﴿**وهو أرحم الراحمين**﴾ أي هو جل وعلا المتفضل على التائب بالمغفرة والرحمة ، أرحم بعباده من كل أحد ﴿**إذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي**﴾ قال الطبري : ذُكر أن يوسف لمّا عرَّف نفسه إخوته سألهم عن أبيهم فقالوا : ذهب بصره من الحزن فعند ذلك أعطاهم قميصه[1] ، وأراد يوسف تبشير أبيه بحياته ، وإدخال السرور عليه بذلك ﴿**يأتِ بصيراً**﴾ أي يرجع إليه بصره ﴿**وأْتوني بأهلكم أجمعين**﴾ أي وجيئوني بجميع الأهل والذرية من أولاد يعقوب .

البَـلاَغَـة : ١ ـ ﴿ولمَّا جهزهم بجهازهم﴾ فيه جناس الاشتقاق وكذلك في ﴿أذَّن مؤذن﴾ .

٢ ـ ﴿فأسرَّها . . ولم يبدها﴾ بينهما طباق .

٣ ـ ﴿شيخاً كبيراً﴾ فيه إطناب للاستعطاف .

٤ ـ ﴿واسأل القرية﴾ مجاز مرسل علاقته المحلية .

٥ ـ ﴿يا أسفَى على يوسف﴾ بين لفظتي الأسف ويوسف جناس الاشتقاق .

٦ ـ ﴿ تاللَّهِ تفتأ﴾ إيجاز بالحذف أي تالله لا تفتأ .

٧ ـ ﴿ولا تيأسوا من روح الله﴾ فيه استعارة استعير الرَّوْح وهو تنسيم الريح التي يلذُّ شميمها ويطيب نسيمها ، للفرَج الذي يأتي بعد الكربة ، واليُسر الذي يأتي بعد الشدة .

لطيفَـة : ذكر القاضي عياض في كتابه «الشفا» أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ هذه الآية ﴿فلما استيأسوا منه خلَصوا نجيّاً﴾ فقال : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام[2] . وذلك أن الآية ذكرت صفة اعتزالهم لجميع الناس ، وانفرادهم من غيرهم ، وتقليبهم الآراء ظهراً لبطن ، وأخذهم في تزوير ما يلقون به أباهم عند عودهم إليه ، وما يوردون عليه من ذكر الحادث ، فتضمنت تلك الآية القصيرة ، معاني القصة الطويلة .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولما فصلت العير قال أبوهم . . . إلى . . . وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ من آية (٩٤) إلى نهاية السورة الكريمة .

---

(١) الطبري ١٣/ ٥٧ . (٢) كتاب الشفا بحث إعجاز القرآن .

المناسبة : تتحدث الآيات عن مجيء أسرة يعقوب بأسرهم إلى مصر ، ودخولهم على يوسف وهو في عز السلطان وعظمة الملك ، وتحقيق الرؤيا بسجود إخوته الأحد عشر له مع أبيه وأمه ، واجتماع الشمل بعد الفرقة ، وحلول الأنس بعد الكدر ، ثم تختم السورة الكريمة بتوجيه الأنظار إلى عجائب الكون الدالة على القدرة والوحدانية ، وما في قصص القرآن من العبر والعظات ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾ !!

اللغة : ﴿تفنِّدون﴾ تنسبوني إلى الخَرَف قال الأصمعي : إذا كَثُر كلام الرجل من خَرَف فهو المفند وقال الزمخشري : التفنيد النسبة إلى الفَنَد وهو الخَرَف وإنكار العقل من هرم يقال : شيخ مُفند ولا يقال عجوز مُفْندة ، لأنها لم تكن في شبيبتها ذات رأي فتفند في كبرها[1] ﴿ضلالك﴾ ذهابك عن الصواب ﴿البدو﴾ البادية ﴿نزغ﴾ أفسد وأغوى وأصله من نزغ الراكب الدابة إذا نخسها ليحملها على الجري ﴿فاطر﴾ مبدع ومخترع وأصله من فطر إذا شقَّ ثم صار عبارة عن الخلق والإيجاد ﴿غاشية﴾ عذاب يغشاهم ﴿بغتةً﴾ فجأة ﴿بأسنا﴾ عذابنا ﴿عبرة﴾ عظة وتذكرة .

وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ

التفسير : ﴿ولمَّا فصلت العير﴾ أي خرجت منطلقة من مصر إلى الشام ﴿قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف﴾ أي قال يعقوب لمن حضر من قرابته إني لأشمّ رائحة يوسف قال ابن عباس : هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف وبينهما مسيرة ثمان ليال[2] ﴿لولا أن تفنّدون﴾ أي تسفهوني وتنسبوني إلى الخَرَف وهو ذهاب العقل وجواب ﴿لولا﴾ محذوف تقديره لأخبرتكم أنه حيٌّ ﴿قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾ أي قال حفدته ومن عنده : والله إنك لفي خطأ وذهاب عن طريق الصواب قديم ، بإفراطك في محبة يوسف ، ولهجك بذكره ، ورجائك للقائه قال المفسرون : وإنما قالوا ذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات ﴿فلما أن جاء البشير﴾ أي فلما جاء المبشر بالخبر السارّ قال مجاهد : كان البشير أخاه يهوذا الذي حمل قميص الدم فقال : أُفرحه كما أحزنته[3] ﴿ألقاه على وجهه﴾ أي طرح البشير القميص على وجه يعقوب ﴿فارتدَّ بصيراً﴾ أي عاد بصيراً لما حدث له من السرور والانتعاش ﴿قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ أي قال يعقوب لأبنائه : ألم أخبركم بأني أعلم ما لا تعلمونه من حياة يوسف وأن الله سيرده عليَّ لتتحقق الرؤيا ؟ قال المفسرون : ذكّرهم بقوله ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ روي أنه سأل البشير كيف يوسف ؟ فقال : هو ملك مصر ، قال ما أصنع بالملك ! على أيّ دين تركتَه ؟ قال : على دين الإسلام ، قال : الآن تمَّت النعمة[4] ﴿قالوا يا أبانا استغْفِر لنا ذنُوبَنا﴾ طلب أبناؤه أن يستغفر لهم لما فرط منهم ثم اعترفوا بخطأهم بقولهم ﴿إنَّا كنّا خاطئين﴾ أي مخطئين فيما ارتكبنا مع يوسف

---

(١) ٢/ ٥٠٤ . (٢) القرطبي ٩/ ٢٥٩ . (٣) الطبري ١٣/ ٦٣ . (٤) الرازي ١٨/ ٢٠٩ .

مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ

﴿قال سوف استغفر لكم ربي﴾ وعدهم بالاستغفار قال المفسرون :أخَّر ذلك إلى السَّحَر ليكون أقرب إلى الإجابة وقيل : أخَّرهم إلى يوم الجمعة ليتحرى ساعة الإجابة[1] ﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾ أي الساتر للذنوب الرحيم بالعباد ﴿فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه﴾ أي فلما دخل يعقوب وأبناؤه وأهلوهم على يوسف ضمَّ إليه أبويه واعتنقهما ﴿وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾ أي ادخلوا بلدة مصر آمنين من كل مكروه ، وإنما قال ﴿إن شاء الله﴾ تبركاً وتيمناً ﴿ورفع أبويه على العرش﴾ أي أجلسهما على سرير الملك بجانبه ﴿وخرّوا له سُجَّداً﴾ أي سجد له أبوه وأمه وإخوته حين دخولهم عليه قال المفسرون : كان السجود عندهم تحية وكرامة لا عبادة ﴿وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل﴾ أي هذا تفسير الرؤيا التي رأيتها في منامي وأنا صغير ﴿قد جعلها ربي حقاً﴾ أي صدقاً حيث وقعت كما رأيتها في النوم ﴿وقد أحسن بي إذْ أخرجني من السجن﴾ أي أنعم عليَّ بإخراجي من السجن قال المفسرون : ولم يذكر قصة الجب تكرماً منه لئلا يُخْجل إخوته ويذكّرهم صنيعهم بعد أن عفا عنهم ﴿وجاء بكم من البدو﴾ أي جاء بكم من البادية لأنهم كانوا أهل إبل وغنم ببادية فلسطين ، ذكّرهم بنعمة الله على آل يعقوب حيث نقلهم من البادية إلى الحضر واجتمع شمل الأسرة بمصر قال الطبري : ذُكر أن يعقوب دخل مصر هو ومن معه من أولاده وأهاليهم وأبنائهم وهم أقل من مائة ، وخرجوا منها يوم خرجوا وهم زيادة على ستمائة ألف[2] ﴿من بعد أن نَزَغَ الشيطانُ بيني وبينَ إخوتي﴾ أي أفسد ما بيني وبين إخوتي بالإغواء قال أبو حيان : وذكر هذا القدر من أمر إخوته لأن النعمة إذا جاءت إِثْر بلاءٍ وشدة كانت أحسن موقعاً[3] ﴿إنَّ ربي لطيف لما يشاء﴾ أي لطيف التدبير يحقّق مشيئتَه بلطفٍ ودقةٍ خفية لا يحسها الناس ولا يشعرون بها ﴿إنه هو العليم الحكيم﴾ أي العليم بخلقه الحكيم في صنعه قال المفسرون : إن يعقوب عليه السلام أقام مع يوسف في مصر أربعاً وعشرين سنة ثم مات وكان قد أوصى أن يُدفن بالشام إلى جنب أبيه إسحق ، فمضى يوسف بنفسه ودفنه ثمَّة ،ثم لما عاد إلى مصر عاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة ، فلما تم أمره وعلم أنه لا يدوم تاقت نفسه إلى الملك الدائم الخالد ، واشتاق إلى لقاء الله وإلى آبائه الصالحين إبراهيم وإسحق فقال ﴿ربِّ قد آتيتني من الملك﴾ أي

(١) يقول سيد قطب عليه الرحمة : وحكاية عبارته بكلمة ﴿سوف﴾ لا تخلو من إشارة إلى قلب إنساني مكلوم فإنه يعدهم بالاستغفار بعد أن يصفو ويسكن ويستريح . (٢) الطبري ١٣/٧٣ . (٣) البحر ٥/ ٣٤٩.

ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ

أعطيتني العزَّ والجاه والسلطان ، وذلك من نعمة الدنيا **﴿وعلمتني من تأويل الأحاديث﴾** أي علمتني تفسير الرؤيا ، وذلك من نعمة العلم **﴿فاطرَ السموات والأرض﴾** أي يا مبدع السموات والأرض وخالقهما على غير مثال سابق **﴿أنتَ وليّي في الدنيا والآخرة﴾** أي أنت يا رب متولي أموري وشئوني في الدارين **﴿توفني مسلماً وألحقْني بالصالحين﴾** أي اقبضني إليك مسلماً ، واجعل لحاقي بالصالحين ، ابتهل إلى ربه أن يحفظ عليه إسلامه حتى يموت عليه ، وإلى هنا تنتهي قصة يوسف الصدّيق ، ثم يأتي التعقيب بعد ذلك بإقامة البرهان على صحة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام **﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾** أي ذلك الذي أخبرناك عنه يا محمد من أمر يوسف وقصته ، من الأخبار المغيَّبة التي لم تكن تعلمها قبل الوحي ، وإنما نُعلمك نحن بها على أبلغ وجه وأدق تصوير ، ليظهر صدقُك في دعوى الرسالة **﴿وما كنتَ لديهم إذْ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾** أي وما كنت حاضراً مع إخوة يوسف حين تآمروا على أخيهم وأجمعوا أمرهم على إلقائه في الجب وهم يحتالون ويمكرون به وبأبيه ليرسله معهم ، فإنك يا محمد لم تشاهدهم حتى تقف على حقيقة القصة وإنما جاءتك بوحيٍ من العليم الخبير **﴿وما أكثرُ الناسِ ولو حرصتَ بمؤمنين﴾** هذه تسلية للنبي ﷺ أي ليس أكثر الخلق ولو حرصتَ على إيمانهم وبالغتَ في إرشادهم بمصدقين لك لتصميمهم على الكفر **﴿وما تسألهم عليه من أجر﴾** أي وما تطلب منهم على هذا النصح ، والدعاء إلى الخير والرشد أجرة حتى يثقل عليهم **﴿إن هو إلا ذكرٌ للعالمين﴾** أي ما هذا القرآن إلا عظة وتذكير للعالمين ، وأنت لا تطلب في تلاوته عليهم مالاً ، فلو كانوا عقلاء لقبلوا ولم يتمردوا **﴿وكأيّنْ من آية في السموات والأرض﴾** أي كم من الآيات والعلامات الدالة على وجود الله جل وعلا ووحدانيته ، الكائنة في السموات والأرض كالشمس والقمر والنجوم ، والجبال والبحار والأشجار ، وسائر ما فيهما من العجائب **﴿يمرون عليها﴾** أي يشاهدونها ليلَ نهار ، ويمرون عليها بالعشي والإبكار **﴿وهم عنها معرضون﴾** أي لا يفكرون فيها ولا يعتبرون ، فلا تتعجب من إعراضهم عنك فإن إعراضهم عن هذه الآيات الدالة على وحدانية الله وقدرته أغرب وأعجب **﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾** أي لا يؤمن أكثر هؤلاء المكذبين من قومك إلا إذا أشركوا مع الله غيره ، فإنهم يقرّون بأن الله هو الخالق الرازق ويعبدون معه الأصنام قال ابن عباس : ومن ذلك قولهم في تلبيتهم : «لبيّك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك» [1] **﴿أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من**

(١) القرطبي ٩/٢٧٢ .

عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن

﴿عذاب الله﴾ أفأمن هؤلاء المكذبون عقوبةً من عذاب الله تغشاهم وتشملهم ؟ ﴿أوتأتيهم الساعة بغتةً وهم لا يشعرون﴾ أي أو تأتيهم القيامة بأهوالها فجأة من حيث لا يشعرون ولا يتوقعون ؟ والاستفهام إنكاري وفيه معنى التوبيخ ﴿قل هذه سبيلي﴾ أي قل يا محمد هذه طريقي ومنهاجي واضحة مستقيمة لا عوج فيها ولا شك ولا شبهة ﴿أدعواْ إلى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتبعني﴾ أي أدعو إلى عبادة الله وطاعته ، على بيانٍ وحجة واضحة أنا ومن آمن بي ﴿وسبحان الله وما أنـا من المشركين﴾ أي وأنزهـه سبحانـه عن الشركاء والأنداد ، فأنا مؤمن موحِّد ولست من المشركين ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم﴾ أي وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلا رجالاً من البشر لا ملائكة من السماء قال الطبري : أي رجالاً لا نساءً ولا ملائكة نوحي إليهم آياتنا للدعاء إلى طاعتنا[1] ، والآية ردٌّ على من أنكر أن يكون النبي من البشر ، أو زعم أن في النساء نبيات ﴿من أهل القرى﴾ أي من أهل المُدن والأمصار لا من أهل البوادي قال الحسن : لم يبعث الله نبياً من أهل البادية قط ولا من النساء ولا من الجن[2] قال المفسرون : وإنما كانوا من أهل الأمصار لأنهم أعلم وأحلم ، وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء والقسوة ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ أي أفلم يسر هؤلاء المكذبون في الأرض فينظروا نظر تفكر وتدبر ما حلَّ بالأمم السابقين ومصارع المكذبين فيعتبرون بذلك ؟ والاستفهام للتوبيخ ﴿ولدارُ الآخرة خيرٌ للذين اتقوا﴾ أي الدار الآخرة خير للمؤمنين المتقين من هذه الدار التي ليس فيها قرار ﴿أفلا تعقلون﴾ أي أفلا تعقلـون فتؤمنـون !! ﴿حتى إذا استيأس الرسل﴾ أي يئس الرسل من إيمان قومهم ﴿وظنوا أنهم قد كُذبوا﴾ أي أيقن الرسل أن قومهم كذّبوهم ﴿جاءهم نصرنا﴾ أي أتاهم النصر عند اشتداد الكرب ، ففي اللحظة التي تستحكم فيها الشدة ، ويأخذ فيها الكرب بالمخانق ، ولا يبقى أملٌ في غير الله ، في هذه اللحظة يجيء النصر كاملاً حاسماً فاصلاً ﴿فنُجِّي من نشاء﴾ أي فنجينا الرسل والمؤمنين بهم دون الكافرين ﴿ولا يُردُّ بأسنا عن القوم المجرمين﴾ أي ولا يُردُّ عذابنا وبطشنا عن المجرمين إذا نزل بهم ﴿لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب﴾ أي لقد كان في قصة يوسف وإخوته عظة وتذكرة لأولي العقول النيِّرة ﴿ما كان حديثاً يُفترى﴾ أي ما كان هذا القرآن أخباراً تُروى أو أحاديث تختلق ﴿ولكنْ تصديقَ الذي بين يديه﴾ أي ولكن كان هذا القرآن مصدقاً لما

(١) الطبري ١٣/ ٨٠ . (٢) القرطبي ٩/ ٢٧٤ .

﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

سبقه من الكتب السماوية المنزّلة من قبل ﴿وتفصيل كل شيء﴾ أي تبيان كل مايُحْتاج إليه من أحكام الحلال والحرام ، والشرائع والأحكام ﴿وهدىً ورحمةً لقوم يؤمنون﴾ أي وهداية من الضلالة ورحمة من العذاب لقوم يصدّقون به ويعملون بأوامره ونواهيه .

البَــلاَغَــة : ١ ـ ﴿ تالله إنك لفي ضلالك﴾ أكدوا كلامهم بالقسم وإنَّ واللام وهذا الضرب يسمى ﴿إنكارياً﴾ لتتابع أنواع المؤكدات .

٢ ـ ﴿أُدخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾ جملة ﴿إن شاء الله﴾ دعائيةٌ جيء بها للتبرك وفي الآية تقديم وتأخير تقديره : ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله .

٣ ـ ﴿ورفع أبويه على العرش وخرُّوا له سجداً﴾ أبواه المراد به الأب والأم فهو من باب التغليب ، والرفع مؤخر عن الخرور وإن تقدم لفظاً للاهتمام بتعظيمه لهما أي سجدوا له ثم أجلس أبويه على عرش الملك .

٤ ـ ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ جملة ﴿ولو حرصت﴾ اعتراضية بين اسم ﴿ما﴾ الحجازية وخبرها ، وجيء بهذا الاعتراض لإفادة أن الهداية بيد الله جل وعلا وحده .

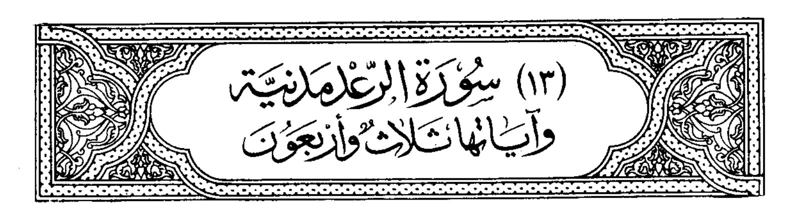
٥ ـ ﴿وما تسألهم عليه من أجر﴾ هذا على حذف مضاف أي وما تسألهم على تبليغ القرآن من أجر .

٦ ـ ﴿وهم عنها معرضون﴾ ﴿إلا وهم مشركون﴾ فيه من المحسنات البديعية « السجعُ » وهو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير .

تـنبيـه : دلَّ قوله تعالى ﴿لقد كان في قَصَصهم عبرةٌ لأولي الألباب﴾ على أن الغرض من ذكر هذه القصص والأخبار ، العظةُ والاعتبار ، ووجه الاعتبار بهذه القصة أن الذي قدر على إخراج يوسف من الجب بعد إلقائه فيه ، وإخراجه من السجن ، وتمليكه مصر بعد العبودية ، وجمع شمله بأبيه وإخوته بعد المدة الطويلة واليأس من الاجتماع ، قادرٌ على إعزاز محمدﷺ ، وإعلاء شأنه ، وإظهار دينه ، وأن الإخبار بهذه القصة العجيبة جار مجرى الإخبار عن الغيوب ، فكان ذلك معجزة لرسول اللهﷺ .

« انتهى بعون الله وتوفيقه تفسير سورة يوسف »

* * *



بين يدي السورة

سورة الرعد من السور المدنية، التي تتناول المقاصد الأساسية للسور المدنية، من تقرير « الوحدانية » و « الرسالة » و « البعث والجزاء » ودفع الشبه التي يثيرها المشركون .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقضية الكبرى ، قضية الإيمان بوجود الله ووحدانيته ، فمع سطوع الحق ووضوحه ، كذَّب المشركون بالقرآن ، وجحدوا وحدانية الرحمن ، فجاءت الآيات تقرر كمال قدرته تعالى ، وعجيب خلقه ، في السموات والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والزروع والثمار ، وسائر ما خلق الله في هذا الكون الفسيح البديع .

* ثم تلتها الآيات في إثبات البعث والجزاء ، ثم بعد ذكر الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة على انفراده جل وعلا بالخلق والإيجاد ، والإحياء والإماتة ، والنفع والضر ، ضرب القرآن مثلين للحق والباطل أحدهما : في الماء ينزل من السماء ، فتسيل به الأودية والشعاب ، ثم هو يجرف في طريقه الغثاء ، فيطفو على وجهه الزَّبد الذي لا فائدة فيه والثاني : في المعادن التي تُذاب لتصاغ منها الأواني وبعض الحلية كالذهب والفضة ، وما يعلو هذه المعادن من الزبد والخبث ، الذي لا يلبث أن يذهب جفاءً ويضمحل ويتلاشى ، ويبقى المعدن النقي الصافي ﴿أنزل من السماء ماءً فسالتْ أوديةٌ بقدرها فاحتمل السيلُ زبداً رابياً . .﴾ الآيات فذلك مثل الحق والباطل .

* وذكرت السورة الكريمة أوصاف أهل السعادة وأهل الشقاوة ، وضربت لهم المثل بالأعمى والبصير ، وبينت مصير كلٍ من الفريقين ، ثم ختمت بشهادة الله لرسوله بالنبوة والرسالة وأنه مرسل من عند الله .

التسمية : سميت ﴿سورة الرعد﴾ لتلك الظاهرة الكونية العجيبة ، التي تتجلى فيها قدرة الله وسلطانه ، فالماء جعله الله سبباً للحياة ، وأنزله بقدرته من السحاب ، والسحابُ جمع الله فيه بين الرحمة والعذاب ، فهو يحمل المطر ويحمل الصواعق ، وفي الماء الإحياء ، وفي الصواعق الإفناء ، وجمع النقيضين من العجائب كما قال القائل : جمعُ النقيضين من أسرار قدرته : هذا السحاب به ماء به نار . فما أجلَّ وأعظم قدرة الله !!

اللغة : ﴿عَمَدٍ﴾ العَمَد : الدعائم وهو اسم جمع وقيل : جمع عمود ﴿صِنْوَان﴾ جمع صِنْو

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ (١) ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا﴾

وهو الغصنُ الخارج عن أصل الشجرة وأصله المِثْلُ ومنه قيل للعمّ صِنْوٌ لمماثلته للأب ، فإذا كان للشجرة عدة فروع فهي صنوان ﴿الأغلال﴾ جمع غل وهو طوقٌ تُشدُّ به اليد إلى العُنُق ﴿المَثُلات﴾ جمع مَثُلَة وهي العقوبة وسميت بذلك لما بين العقاب والمُعاقب من المماثلة ﴿تغيضُ﴾ غاض الماءُ نقص أو غار ﴿ساربٌ﴾ الساربُ : الذاهب في سَرْبه أي طريقه بوضَح النهار لا يستخفي عن الأنظار ﴿معقّبات﴾ ملائكة يعقب بعضهم بعضاً أي يأتي بعضهم عقب بعض ﴿المِحَال﴾ القوة والإهلاك والنّقمة .

سَبَبُ النّزول : عن أنس أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً إلى جبّار من فراعنة العرب فقال : اذهب فادعه لي فقال يا رسول الله : إنه جبارٌ عاتٍ قال : اذهب فادعه لي ، فذهب إليه فقال : يدعوك رسول الله ﷺ فقال : أخبرني عن إله محمد أمن ذهبٍ هو ؟ أو من فضة ؟ أو من نحاس ؟ فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما قال الرجل وقال له : ألم أخبرك أنه أعتى من ذلك ؟ فقال : ارجع إليه الثانية فادعه لي ، فرجع إليه فأعاد عليه ذلك الكلام ، فبينا هو يجادله إذ بعث الله عليه سحابة حيال رأسه فرعدت فوقعت منها صاعقة فذهبت بقحف رأسه فأنزل الله ﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال﴾[١]

التفسير : ﴿المر﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن[٢] وقال ابن عباس معناه : أنا الله أعلم وأرى[٣] **﴿تلك آيات الكتاب﴾** أي هذه آيات القرآن المعجز، الذي فاق كل كتاب **﴿والذي أُنزل إليك من ربك الحقُّ﴾** أي والذي أوحي إليك يا محمد في هذا القرآن هو الحق الذي لا يلتبس بالباطل ، ولا يحتمل الشك والتردّد **﴿ولكنَّ أكثر الناس لا يؤمنون﴾** أي ومع وضوحه وجلائه كذّب به أكثر الناس **﴿اللهُ الذي رفع السموات بغير عمد ترونها﴾** أي خلقها مرتفعة البناء ، قائمة بقدرته لا تستند على شيء حال كونكم تشاهدونها وتنظرونها بغير دعائم ، وذلك دليل وجود الخالق المبدع الحكيم **﴿ثم استوى على العرش﴾** أي علا فوق العرش علواً يليق بجلاله من غير تجسيم ولا تكييفٍ ولا تعطيل[٤] **﴿وسخّر الشمس والقمر كلٌّ يجري لأجلٍ مسمى﴾** أي ذلّل الشمس والقمر لمصالح العباد ، كلٌّ يسير بقدرته تعالى إلى زمنٍ معيَّن هو زمن فناء الدنيا **﴿يدبّر الأمر﴾** أي يصرِّف بحكمته وقدرته أمور الخلق وشئون الملكوت من إيجاد وإعدام ، وإحياء وإماتة وغير ذلك

---

(١) أسباب النزول ١٥٦ . (٢) انظر توضيح الحروف المقطعة في أول تفسير سورة البقرة .

(٣) الطبري ١٣/ ٩١ (٤) أنظر أقوال السلف في سورة الأعراف من هذا الكتاب .

رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ

﴿يفصّل الآيات﴾ أي يبيّنها ويوضّحها ﴿لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾ أي لتصدقوا بلقاء الله ، وتوقنوا بالمعاد إليه ، لأن من قدر على ذلك كلّه فهو قادرٌ على إحياء الإنسان بعد موته ﴿وهو الذي مدَّ الأرض﴾ أي هو تعالى بقدرته بسط الأرض وجعلها ممدودة فسيحة ، وهذا لا ينافي كرويتها فإن ذلك مقطوعٌ به ، والغرضُ أنه تعالى جعلها واسعة فسيحة ممتدة الآفاق ليستقر عليها الإنسان والحيوان ، ولو كانت كلها جبالاً ووديانا لما أمكن العيش عليها قال في التسهيل : ولا يتنافى لفظُ البسط والمدِّ مع التكوير ، لأن كل قطعةٍ من الأرض ممدودةٌ على حِدَتها ، وإنما التكوير لجملة الأرض[1] ﴿وجعل فيها رواسي﴾ أي وخلق في الأرض جبالاً ثوابتَ رواسخ لئلا تضطرب بأهلها كقوله ﴿أن تميدَ بكم﴾ ﴿وأنهاراً﴾ أي وجعل فيها الأنهار الجاريات ﴿ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾ أي جعل فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين اثنين ذكراً وأنثى ليتمَّ بينهما أسباب الإخصاب والتكاثر طبق سنته الحكيمة[2] وقال أبو السعود : أي جعل من كل نوع من أنواع الثمرات الموجودة في الدنيا ضربين وصنفين ، إمّا في اللون كالأبيض والأسود ، أو في الطعم كالحلو والحامض ، أو في القَدْر كالصغير والكبير ، أو في الكيفيّة كالحارّ والبارد وما أشبه ذلك[3] ﴿يغشي الليلَ النهار﴾ أي يُلبسه إياه فيصير الجو مُظْلماً بعد ما كان مضيئاً ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ أي إنَّ في عجائبِ صنع اللّه لدلالات وعلامات باهرة على قدرته ووحدانيته لمن تأمل وتفكَّر ، وخُصَّ « المتفكرون » بالذكر لأنَّ ما احتوتْ عليه هذه الآيات من الصنيع العجيب لا يُدرك إلا بالتفكر ﴿وفي الأرض قطعٌ متجاورات﴾ أي في الأرض بقاعٌ مختلفةٌ متلاصقات قريبٌ بعضها من بعض قال ابن عباس : أرضٌ طيبة ، وأرضٌ سَبِخة تُنْبتُ هذه ، وهذه إلى جنبها لا تُنْبت[4] ﴿وجناتٌ من أعناب﴾ أي بساتين كثيرة من أشجار العنب ﴿وزرعٌ ونخيلٌ صِنْوانٌ وغير صِنْوان﴾ أي وفي هذه القطع المتجاورة أنواع الزروع والحبوب والنخيل والرطب ، منها ما يَنْبُت منه من أصلٍ واحدٍ شجرتان فأكثر ، ومنها ما ينبت منه شجرة واحدة ﴿يُسْقى بماءٍ واحد ونفضّل بعضَها على بعض في الأُكل﴾ أي الكل يسقى بماء واحدٍ ، والتربة واحدة ، ولكنَّ الثمار مختلفات الطعوم قال الطبري : الأرض الواحدة يكون فيها الخوخ ، والكمثرى ، والعنب الأبيضُ والاسود ، بعضُها حلوٌ ، وبعضُها حامض ، وبعضها أفضل من بعض مع اجتماع جميعها على شربٍ واحد[5] ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ أي علامات باهرة ظاهرة لمن عقل وتدبَّر ، وفي ذلك ردٌّ على

(١) التسهيل في علوم التنزيل ١٣٠/٢ . (٢) قال في الظلال : هذه حقيقة لم يعرفها البشر من طريق علمهم وبحثهم إلا قريباً وهي أن كل الأحياء تتألف من ذكرٍ وأنثى ، حتى النباتات التي كان مظنوناً أن ليس لها من جنسها ذكور تبيِّن أنها تحمل في ذاتها الزوج الآخر ، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مجتمعة في زهرة أو متفرقة في العود . الظلال ٥/ ٧٢ . (٣) أبو السعود ٩٧/٣. (٤) الطبري ١٣/ ٩٧ .
(٥) نفس المرجع السابق ١٣/ ٩٨ .

قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ

القائلين بالطبيعة ﴿وإنْ تعجبْ فعجبٌ قولُهم أئذا كنا تُراباً أئنَّا لفي خلقٍ جديد﴾ أي إن تعجب يا محمد من شيء فليس ما هو أعجب من قول الكفار أئذا متنا وأصبحنا رفاتاً هل سنبعث من جديد ؟ فإن إنكارهم للبعث حقيقٌ أن يُتعجب منه ، فإن الذي قدر على إنشاء ما ذكرنا من السموات والأرض ، والأشجار والثمار ، والبحار والأنهار قادرٌ على إعادتهم بعد موتهم ﴿أولئك الذين كفروا بربهم﴾ أي هؤلاء الذين أنكروا البعث هم الجاحدون لقدرة الله ﴿وأولئك الأغلال في أعناقهم﴾ أي يُغلُّون بالسلاسل في أعناقهم يوم القيامة ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي وهم في جهنم مخلدون فيها أبداً لا يموتون فيها ولا يُخْرجون﴿ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة﴾ أي يستعجلك المشركون يا محمد بالبلاء والعقوبة قبل الرخاء والعافية ، استعجلوا ما هُدِّدوا به من عذاب الدنيا استهزاءً ﴿وقد خَلَتْ من قبلهم المَثُلات﴾ أي وقد مضت عقوباتُ أمثالهم من المكذبين ، فما لهم لا يعتبرون ولا يتَّعظون ؟ ﴿وإنَّ ربكَ لذُو مغفرةٍ للناسِ على ظلمهم﴾ أي وإن ربك لذو صفحٍ عظيم للناس ، لا يعجّل لهم العقوبة وإن كانوا ظالمين بل يمهلهم بتأخيرها ﴿وإنَّ ربكَ لشديدُ العقاب﴾ أي شديد العقاب لمن أصرَّ على المعاصي ولم يتب من ذنوبه . قرن تعالى بين سعة حلمه وشدة عقابه ليبقى العبد بين الرغبة والرهبة ، والرجاء والخوف ﴿ويقول الذين كفروا لولا أُنزلَ عليه آيةٌ من ربه﴾ أي ويقول المشركون من كفار قريش هلاَّ أُنزل على محمد معجزة تدل على صدقه مثل معجزات موسى وعيسى !! قال في البحر : لم يعتدّوا بالآيات الخارقة المنزلة كانشقاق القمر ، وانقياد الشجر ، ونبع الماء من بين الأصابع وأمثال هذه المعجزات فاقترحوا عناداً آيات أخرى[1] ﴿إنما أنتَ منذرٌ ولكل قوم هاد﴾ جواب لما اقترحوا أي لستَ أنت يا محمد إلا محذّر ومبصِّر ، شأنك شأن كل رسول قبلك ، فلكل قوم نبيٌّ يدعوهم إلى الله وأما الآيات الخارقة فأمرها إلى مدبّر الكون والعباد ﴿اللهُ يعلم ما تحملُ كلُّ أنثى﴾ أي الله وحده الذي يعلم ما تحمله كل أنثى في بطنها هل هو ذكرٌ أم أنثى ؟ تامٌ أم ناقص ؟ حسنٌ أو قبيح ﴿وما تغيضُ الأرحامُ﴾ أي وما تنقصه الأرحامُ بإلقاء الجنين قبل تمامه ﴿وما تَزْداد﴾ أي وما تزداد على الأشهر التسعة قال ابن عباس : ما تغيضُ بالوضع لأقلَّ من تسعة أشهر ، وما تزداد بالوضع لأكثر من تسعة أشهر ، وعنه المراد بالغيض : السقطُ الناقصُ ، وبالازدياد : الولدُ التام[2] ﴿وكلُّ شيءٍ عنده بمقدار﴾ أي كلُّ شيء من الأشياء عند الله تعالى بقدر محدود لا يتجاوزه حسب المصلحة والمنفعة ﴿عالمُ

(١) البحر ٥/ ٣٦٧ . (٢) زاد المسير ٤/ ٣٠٨ .

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾

الغيب والشهادة﴾ أي ما غاب عن الحسّ وما كان مشاهَداً منظوراً ، فعلمهُ تعالى شاملٌ للخفيِّ والمرئيِّ لا يخفى عليه شيء **﴿الكبيرُ المتعال﴾** أي العظيم الشأن ا لذي كل شيء دونه المستعلي على كل شيء بقدرته المنزَّه عن المشابهة والمماثلة **﴿سواءٌ منكم من أسرَّ القول ومن جهر به﴾** أي يستوي في علمه تعالى ما أضمرتْهُ القلوبُ وما نطقتْ به الألسنة **﴿ومن هو مستخفٍ بالليلِ وساربٌ بالنَّهار﴾** أي ويستوي عنده كذلك من هو مستترٌ بأعماله في ظلمات الليل وهو في غاية الاختفاء ، ومن هو ذاهبٌ في طريقه بوَضَح النهار مستعلنٌ لا يستخفي فيما يعمل وهو في غاية الظهور **﴿له معقبات﴾** أي لهذا الإنسان ملائكة موكّلةٌ به تتعقب في حفظه يأتي بعضُهم بعقِب بعض كالحَرَس في الدوائر الحكومية **﴿من بين يديه ومن خلفه﴾** أي من أمام الإنسان ومن ورائه **﴿يحفظونه من أمر الله﴾** أي يحفظونه من الأخطار والمضارّ بأمره تعالى قال مجاهد : ما من عبدٍ إلا وملكٌ موكلٌ به يحفظه في نومه ويقظته من الجنّ والإنس والهوام[1] **﴿إنَّ الله لا يغيّر ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾** أي لا يزيل نعمته عن قومٍ ولا يسلبهم إيّاها إلا إذا بدلّوا أحوالهم الجميلة بأحوال قبيحة ، وهذه من سنن الله الاجتماعية أنه تعالى لا يبدل ما بقومٍ من عافيةٍ ونعمة ، وأمنٍ وعزة إلا إذا كفروا تلك النعم وارتكبوا المعاصي وفي الأثر « أوحى الله إلى نبيٍّ من أنبياء بني إسرائيل أن قلْ لقومك : إنه ليس من أهل قرية ، ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله إلا حوّل الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون »[2] **﴿وإذا أراد الله بقومٍ سوءاً﴾** أي وإذا أراد تعالى هلاك قومٍ أو عذابهم **﴿فلا مردَّ له﴾** أي لا يقدر على ردّ ذلك أحد **﴿وما لهم من دونه من وال﴾** أي ليس لهم من دون الله وليٌّ يدفع عنهم العذاب والبلاء **﴿هو الذي يريكم البرق﴾** هذا بيانٌ لآثار قدرته تعالى المنبثّة في الكون أي يريكم أيها الناس البرق الخاطف من خلال السحاب **﴿خوفاًوطمعاً﴾** قال ابن عباس : خوفاً من الصواعق وطمعاً في الغيث[3] ، فإن البرق غالباً ما يعقبه صواعق مدمّرة ، وقد يكون وراءه المطر المدرار الـذي به حياة البـلاد والعباد **﴿ويُنشِئُ السحاب الثقال﴾** أي وبقدرته كذلك يخلق السحب الكثيفة المحمَّلة بالماء الكثير **﴿ويسبّح الرعد بحمده والملائكةُ من خيفته﴾** أي يسبّح الرعد له تسبيحاً مقترناً بحمده والثناء عليه ، وتسبّح له الملائكة خوفاً من عذابه ، وتسبيحُ الرعد حقيقةٌ دلَّ عليها القرآن فنؤ من بها وإن لم نفهم تلك الأصوات فهو تعالى لا يخبر

(١) الطبري ١٣/ ١١٩. (٢) أخرجه ابن أبي حاتم كذا في مختصر ابن كثير ٢/ ٢٧٤ . (٣) زاد المسير ٤/ ٣١٣ .

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ

إلا بما هو حقٌّ كما قال ﴿وإن من شيءٍ إلا يسبّح بحمده﴾ ﴿ويرسلُ الصواعقَ فيصيب بها من يشاء﴾ أي يرسل الصواعق المدمّرة نقمة يهلك بها من شاء ﴿وهم يجادلون في الله﴾ أي وكفار مكة يجادلون في وجود الله ووحدانيته وفي قدرته على البعث ﴿وهو شديد المِحال﴾ أي وهو تعالى شديد القوة والبطش والنكال، القادر على الانتقام ممن عصاه ﴿له دعوةُ الحقِّ﴾ أي للّه تعالى تتجه الدعوةُ الحق فهو الحقيق بأن يُعبد وحده بالدعاء والالتجاء ﴿والذين يدعون من دونه﴾ أي والآلهة الذين يدعوهم الكفار من دون الله ﴿لا يستجيبون لهم بشيء﴾ أي لا يستجيبون لهم دعاءً، ولا يسمعون لهم نداءً ﴿إلا كباسطِ كفيه إلى الماء ليبلغ فاهُ وما هو ببالغه﴾ أي إلا كمن يبسط كفيه للماء من بعيد يدعوه ويناديه ليصل الماء إلى فمه، والماءُ جمادٌ لا يُحسُّ ولا يسمع قال أبو السعود: شبّه حال المشركين في عدم حصولهم عند دعاء آلهتهم على شيء أصلاً بحال عطشان هائم لا يدري ما يفعل، قد بسط كفيه من بعيد إلى الماء يبغي وصوله إلى فمه وليس الماء ببالغٍ فمه أبداً لكونه جماداً لا يشعر بعطشه[1] ﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ أي ما دعاؤهم والتجاؤهم لآلهتهم إلا في ضياع وخسار لأنه لا يُجدي ولا يفيد ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض﴾ أي ولله وحده يخضع وينقاد أهل السموات وأهل الأرض ﴿طوْعاً وكرْهاً﴾ أي طائعين وكارهين قال الحسن: المؤمن يسجد طوعاً، والكافر يسجد كرْهاً[2] أي في حالة الفزع والاضطرار ﴿وظلالُهم بالغدو والآصال﴾ أي وتسجد ظلالُهم أيضاً لله في أول النهار وأواخره، والغرضُ الإِخبار عن عظمة الله تعالى وسلطانه الذي قهر كلَّ شيء، ودان له كل شيء، بأنه ينقاد لجلاله جميع الكائنات حتى ظلال الآدميّين، والكل في نهاية الخضوع والاستسلام لأمره تعالى ﴿قل من رب السموات والأرض﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين مَنْ خالق السموات والأرض ومدبّر أمرهما؟ والسؤال للتهكم والسخرية بما عبدوا من دون الله ﴿قل الله﴾ أي قل لهم تقريعاً وتبكيتاً: اللهُ خالقُهما ﴿قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولاضرّاً﴾ أي قل لهم - إلزاماً لإِقامة الحجة عليهم - أجعلتم للّه شركاء وعبدتموهم من دونه وهم لا يقدرون على نفع أنفسهم، ولا على دفع الضّرّ عنها، فكيف يستطيعونه لغيرهم؟ ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلماتُ والنور﴾ هذا تمثيلٌ لضلالهم في عبادة غير الله، والمراد بالأعمى الكافر وبالبصير المؤمن، وبالظلمات الضلالُ وبالنور

(١) أبو السعود ٣/١٠٢. (٢) القرطبي ٩/٣٠١.

﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (١٦)

الهدى أي كما لا يستوي الأعمى والبصير ، وكما لا تستوي الظلمات والنور ، كذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر ضياء الحق ، والمشرك الذي عمي عن رؤية ذلك الضياء ، فالفارق بين الحق والباطل واضحٌ وضوح الفارق بين الأعمى والبصير ، والفارق بين الإيمان والضلال ظاهر ظهور الفارق بين النور والظلام ﴿أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم﴾ هذا من تمام الاحتجاج عليهم والتهكم بهم أي أم اتخذ هؤلاء المشركون آلهةً خلقوا مخلوقاتٍ كالتي خلقهـا الله فالتبس الأمر عليهم فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم ؟ وهو تهكم لاذع فإنهم يرون كل شيء من خلق الله ، ويرون هذه الآلهة المزعومة لم تخلق شيئاً ثم بعد هذا كلّه يعبدونها من دون الله ، وذلك أسخف وأحط ما تصل إليه عقول المشركين ، ولما أقام الحجة عليهم جاء بهذا البيان الواضح ﴿قل الله خالقُ كل شيء وهو الواحد القهار﴾ أي الله الخالق لجميع الأشياء لا خالق غيره ، وهو المنفرد بالألوهية والربوبية ، الغالب لكل شيء ، وجميعُ الأشياء تحت قدرته وقهره .

البَـلاَغَـة : في الآيات الكريمة من وجوه الفصاحة والبيان والبديع ما يلي :

١ ـ الإشارة بالبعيد عن القريب في ﴿تلك آيات الكتاب﴾ تنزيلاً لها منزلة البعيد للدلالة على علو شأنها ورفعة منزلتها و ﴿أل﴾ في الكتاب للتفخيم أي الكتاب العجيب الكامل في إعجازه وبيانه .

٢ ـ الاستعارة التبعية في ﴿يغشي الليلَ النهار﴾ شبّه إزالة نور النهار بواسطة ظلمة الليل بالغطاء الكثيف واستعار لفظ ﴿يغشي﴾ المشير إلى تغطية الأشياء الظاهرة بالأغطية الحسية للأمور المعنوية .

٣ ـ الطباق في ﴿تغيضُ . . وتـزداد﴾ وفي ﴿الغيب والشهـادة﴾ وفي ﴿أسرَّ . . وجهـر﴾ وفي ﴿مستخفٍ . . وسارب﴾ لأن السارب الظاهـر وفي ﴿خوفاً وطمعاً﴾ وفي ﴿طوعـاً وكرهـاً﴾ وكلهـا من المحسنات البديعية اللفظية .

٤ ـ الإيجاز بالحذف في ﴿قل اللهُ﴾ أي اللهُ خالقُ السموات والأرض .

٥ ـ التشبيه التمثيلي في ﴿كباسط كفيه﴾ شبَّه عدم استجابة الأصنام للداعين لها بعدم استجابة الماء لباسط كفيه إليه من بُعْد فوجه الشبه منتزع من متعدد .

٦ ـ الاستعارة في ﴿هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنـور﴾ استعـار لفـظ الظلمات والنور للكفر والإيمان وكذلك لفظ الأعمى للمشرك الجاهـل والبصير للمؤمن العاقل .

تـنبيـه : سميت الملائكة معقبات لأنهـم يتعاقبـون على أعمال العبـاد بالليل والنهـار كما في البخاري (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائـكة بالنهـار فيجتمعـون في صلاة الفجـر والعصر . .) الحديث .

فـائـدة : روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا سمع صوت الرعد يقول : (سبحان من يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير) وكان أبو هريرة يقول من قالها فأصابته صاعقةٌ فعليَّ ديته[1] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿أنزل من السماء ماءً . . إلى . . وما لهم من الله من واق﴾ من آية (١٧) إلى نهاية آية (٣٤) .

المناسبة : لما ذكر تعالى في الآيات السابقة أنَّ في الأرض دعوتين : دعوة الحق ، ودعوة الباطل ، وذكر أن دعوة الله هي دعوة الحق ، ودعوة ما يعبدون من دونه هي دعوة الباطل . . ذكر تعالى هنا مثلين ضربهما للحق وأهله ، والباطلِ وحزبه ، ليتضح الفرق بين الهدى والضلال ، والرشد والغيّ ، ثم أعقبه بذكر مآل المؤمنين في دار النعيم ، والكافرين في دار الجحيم .

اللغة : ﴿زبداً﴾ الزبد : الغثاء الذي يحمله السيل ﴿رابياً﴾ عالياً منتفخاً ﴿جفاء﴾ مضمحلاً متلاشياً لا منفعة فيه ولا بقاء له[2] يقال : جفا الماء بالزبد إذا قذفه ورمى به ﴿المهاد﴾ الفِراش وأصله المكان الممهَّد الموطأ للنوم والراحة ﴿يدرءون﴾ يدفعون والدرءُ : الدفع ﴿عقبى﴾ العاقبة ويسمى الجزاء على الفعل عقبى لأنه يكون عقب الفعل ﴿عدن﴾ استقرار وثبات وخلود يقال : عَدَن بالمكان إذا أقام به ﴿يبسط﴾ يوسّع ﴿يقدر﴾ يضيّق ﴿متاع﴾ كل شيء يتمتع به إلى أجل ثم ينتهي ويفنى ﴿طوبى﴾ فرحٌ وقرة عين قال الزمخشري : مصدر من طاب كبشرى وزلفى ومعناه أصبتَ خيراً وطيباً[3] ﴿ييأس﴾ اليأسُ : القنوط من الشيء ﴿أمليتُ﴾ أمهلتُ يقال : أملى الله له إذا أمهله وطوَّل له المدة ﴿واق﴾ اسم فاعل من وقى إذا دفع الأذى والضر عنه .

سبب النزول : قال ابن عباس : نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي ﷺ : اسجدوا للرحمن قالوا : وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا ؟ فأنزل الله ﴿وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلتُ وإليه متاب﴾[4] .

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ

التفسير : ﴿أنزل من السماء ماءً﴾ أي أنزل تعالى من السماء مطراً ﴿فسالتْ أودية بقدَرها﴾ أي فجرت مياه الأودية بمقدار سعتها كل بحَسَبه ، فالكبير بمقدار كبره ، والصغير بمقدار صغره ﴿فاحتمل السيلُ زبداً رابياً﴾ أي حمل السيل الذي حدث من الأمطار زبداً عالياً فوقه وهو ما يحمله السيل من غثاء ، ورغوة تظهر على وجه الماء قال الطبري : هذا مثلٌ ضربه الله للحق والباطل ، والإِيمان والكفر ، فمثل الحق في ثباته ، والباطل في اضمحلاله ، مثلُ الماء الذي أنزله الله من السماء إلى الأرض ، فاحتمل السيل زبداً عالياً ، فالحق هو الماء الباقي الذي يمكث في الأرض ، والزبد الذي لا يُنتفع به هو الباطل ، وهذا أحد مثلي الحق

(١) القرطبي ٩/ ٢٩٨ . (٢) البحر ٥/ ٣٨٢ . (٣) الكشاف ٢/ ٥٢٨ . (٤) أسباب النزول ١٥٧ والقرطبي ٩/ ٣١٨ .

مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ * أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾

والباطل ، والمثل الآخر[1] قوله تعالى ﴿**ومما يُوقدون عليه في النار ابتغاء حليةٍ أو متاعٍ زبدٌ مثله**﴾ أي ومن الذي يوقد عليه الناس من المعادن كالذهب والفضة والنحاس ، مما يُسبك في النار طلب الزينةِ أو الأشياء التي يُنتفع بها كالأواني زبدٌ مثل زبد السيل ، لا يُنْتفع به كما لا يُنْتفع بزَبَد السيل ﴿**كذلك يضرب الله الحق والباطل**﴾ أي كذلك يضرب الله المَثَل للحق والمَثَل للباطل ، فمثلُ الحق في ثباته واستقراره كمثل الماء الصافي الذي يستقر في الأرض فينتفع منه الناس ، ومثل الباطل في زواله واضمحلاله كمثل الزبد والغثاء الذي يقذف به الماء يتلاشى ويضمحل ﴿**فأما الزبدُ فيذهب جُفاءً**﴾ أي فأما الزبد الذي لا خير فيه مما يطفو على وجه الماء والمعادن فإنه يرمي به السيل ويقذفه ويتفرق ويتمزّق ويذهب في جانبَيْ الوادي ﴿**وأمّا ما ينفع الناسَ فيمكث في الأرض**﴾ أي وأمّا ما ينتفع الناس به من الماء الصافي ، والمعدن الخالص فيبقى ويثبت في الأرض ﴿**كذلك يضرب الله الأمثال**﴾ أي مِثْلَ المَثَلين السابقين يبيّن الله الأمثال للحق والباطل ، والهدى والضلال ليعتبر الناس ويتعظوا[2] ﴿**للذين استجابوا لربهم الحُسْنى**﴾ أي للمؤمنين الذين استجابوا لله بالإِيمان والطاعة المثوبةُ الحسنى وهي الجنة دار النعيم ﴿**والذين لم يستجيبوا له**﴾ أي لم يجيبوا ربهم إلى الإِيمان به وهم الكافرون ﴿**لو أنَّ لهم ما في الأرض جميعاً**﴾ أي لو كان لهم جميع ما في الدنيا من الأموال ﴿**ومِثْلَه معه**﴾ أي ومثلَ جميع ما في الدنيا ﴿**لافتدوا به**﴾ أي لبذلوا كل ذلك فداءً لأنفسهم ليتخلصوا من عذاب الله ﴿**أولئك لهم سوء الحساب**﴾ أي لهم الحساب السيء قال الحسن : يُحاسبون بذنوبهم كلها لا يُغفر لهم منها شيء ﴿**ومأواهم جهنم**﴾ أي المكان الذي يأوون إليه يوم القيامة نار جهنم ﴿**وبئس المهاد**﴾ أي بئس هذا المستقر والفِراش الممهد لهم في النار ﴿**أفمن يعلم أنما أُنزل إليك من ربك الحقُّ كمن هو أعمى**﴾ الهمزة للاستفهام الإِنكاري أي هل يستوي من آمن وصدَّق بما نزل عليك يا محمد ومن بقي يتخبط في ظلمات الجهل والضلال لا لُبَّ له كالأعمى ؟ والمراد به عمى البصيرة قال ابن عباس نزلت في حمزة وأبي جهل ﴿**إنما يتذكر أولوا الألباب**﴾ أي إنما يتعظ بآيات الله ويعتبر بها ذوو العقول السليمة ، ثم عدَّد تعالى

(١) الطبري ١٣/ ١٣٤ . (٢) يقول الشهيد « سيد قطب » في تفسيره الظلال ما نصه : « ثم نمضي مع السياق يضرب مثلاً للحق والباطل ، للدعوة الباقية والدعوة الذاهبة مع الريح ، إن الماء لينزل من السماء فتسيل به الأودية ، وهو يلمُّ في طريقه غُثاءً يطفو على وجهه في صورة الزبد ، وهو نافشٌ رابٍ منتفخ ولكنه بعدُ غثاء ، والماء من تحته ساربٌ ساكنٌ هادىء ولكنه هو الماء الذي يحمل الخير والحياة ، كذلك يقع في المعادن التي تُذاب لتُصاغ منها حلية كالذهب والفضة أو آنية كالحديد والرصاص ، فإن الخبث يطفو ولكنه بعدُ خبثٌ يذهب ويبقى المعدن في نقاء ، ذلك مثل الحق والباطل ، فالباطل يطفو ويعلو ويبدو رابياً منتفخاً ولا يلبث أن يذهب جفاءً مطروحاً لا حقيقة له ولا تماسك ، والحق يظل هادئاً ساكناً ولكنه الباقي في الأرض كالماء المحيي ، والمعدن الصريح » .

ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ

صفاتهم فقال ﴿الذين يوفون بعهد الله﴾ أي يتمون عهد الله الذي وصاهم به وهي أوامره ونواهيه التي كلَّف بها عباده ﴿ولا ينقضون الميثاق﴾ أي لا يخالفون ما وثقوه على أنفسهم من العهود المؤكدة بينهم وبين الله ، وبين العباد ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يُوصل﴾ أي يصلون الأرحام التي أمر الله بصلتها ﴿ويخشون ربهم﴾ أي يهابون ربهم إجلالاً وتعظيماً ﴿ويخافون سوء الحساب﴾ أي يخافون الحساب السيء المؤدي لدخول النار ، فهم لرهبتهم جادّون في طاعة الله ، محافظون على حدوده ﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم﴾ أي صبروا على المكاره طلباً لمرضاة الله ﴿وأقاموا الصلاة﴾ أي أدّوا الصلاة المفروضة بحدودها في أوقاتها ﴿وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية﴾ أي أنفقوا بعض أموالهم التي أوجبها الله عليهم في الخفاء والعلانية ﴿ويدرءون بالحسنةِ السيئة﴾ أي يدفعون الجهلَ بالحلم والأذى بالصبر وقال ابن عباس : يدفعون بالعمل الصالح السيء من الأعمال[1] بمعنى يفعلون الحسنات ليدرءوا بها السيئات وفي الحديث (وأتبع السيئةَ الحسنة تمحها) ﴿أولئك لهم عقبى الدار﴾ أي العاقبة المحمودة في الدار الآخرة وهي الجنة وقد جاء تفسيرها في قوله ﴿جناتُ عدنٍ يدخلونها ومن صَلَح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم﴾ أي جنات إقامة خالدة يدخلها أولئك الأبرار ومن كان صالحاً من آبائهم ونسائهم وأولادهم ، ليأنسوا بلقائهم ويتمَّ بهم سرورهم ، وإن لم يكونوا يستحقون هذه المنازل العالية بأعمالهم ، فترفع منازل هؤلاء إكراماً لأولئك وذلك فضل الله ، ثم إنَّ لهم إكراماً آخر بيّنه بقوله ﴿والملائكةُ يدخلون عليهم من كل باب﴾ أي والملائكةُ تدخل عليهم للتهنئة من كل باب من أبواب الجنة يقولون لهم ﴿سلامٌ عليكم بما صبرتم﴾ أي سلمتم من الآفات والمحن بصبركم في الدنيا ، ولئن تعبتم فيما مضى فلقد استرحتم الساعة ، وهذه بشارة لهم بدوام السلامة ﴿فنعم عقبى الدار﴾ أي نعمت هذه العاقبة الحميدة عاقبتكم وهي الجنة بدل النار ، ولما ذكر تعالى أوصاف المؤمنين التسع أعقبه بذكر أوصاف الكافرين الذميمة فقال ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ أي ينقضون عهودهم بعدما وثقوا على أنفسهم لله أن يعملوا بما عهد إليهم من طاعته والإيمان به ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ أي يقطعون الرحم التي أمر الله بوصلها ﴿ويُفسدُون في الأرض﴾ ﴿أولئك لهم اللعنة﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذُكر من القبائح لهم البعد

(١) القرطبي ٩/ ٣١١ .

لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَـٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ

من رحمته ، والطردُ من جنته **﴿ولهم سوء الدار﴾** أي لهم ما يسوءهم في الدار الآخرة وهو عذاب جهنم على عكس المتقين **﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرزق لمن يشاء ويقدرُ﴾** أي يوسّع على من يشاء من عباده ويضيّق على من يشاء حسب الحكمة والمصلحة **﴿وفرحوا بالحياة الدنيا﴾** أي وفرح هؤلاء المشركون بنعيم الدنيا فرح أشَر وبطر ، وهو إخبار في ضمنه ذمٌ وتسفيه لمن فرح بالدنيا ولذلك حقّرها بقوله **﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاعٌ﴾** أي قليل وشيء حقير بالنظر إلى الآخرة **﴿ويقول الذين كفروا لولا أُنزل عليه آيةٌ من ربه﴾** أي ويقول كفار مكة هلاّ أُنزل على محمد معجزة من ربه مثل معجزة موسى في فلق البحر ، ومعجزة عيسى في إحياء الموتى ونحو ذلك **﴿قلْ إنَّ اللهَ يُضلُّ من يشاءُ ويَهْدي إليهِ من أناب﴾** أي قل لهم يا محمد الأمر بيد الله وليس إليَّ ، يُضلُّ من يشاء إضلاله فلا تغني عنه الآياتُ والنُّذُر شيئاً ، ويرشد إلى دينه من أراد هدايته لأنه رجع إلى ربه بالتوبة والإنابة قال في التسهيل : خرج بالكلام مخرج التعجب حين طلبوا آية والمعنى قد جاءكم محمد ﷺ بالقرآن وآياتٍ كثيرة فعميتُم عنها ، وطلبتم غيرها ، وتماديتم على الكفر فإنه تعالى يضل من يشاء مع ظهور الآيات ، ويهدي من يشاء دون ذلك[1] **﴿الذين آمنوا وتطمئنُّ قلوبُهم بذكر الله﴾** هذا بدلٌ والمعنى يهدي أهل الإنابة وهم الذين آمنوا وتسكن وتستأنس قلوبهم بذكر الله وتوحيده ، وجيء بصيغة المضارع لإفادة دوام الاطمئنان واستمراره **﴿ألا بذكر الله تطمئنُّ القلوب﴾** أي ألا فانتبهوا أيها القوم فإن بذكر الله تستأنس وتسكن قلوب المؤمنين ، فلا يشعرون بقلق واضطراب من سوء العقاب ، على عكس الذين إذا ذكر الله اشمأزتْ قلوبهُم **﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسنُ مآب﴾** أي أما المؤمنون أهل الأعمال الصالحة فقرة عينٍ لهم ونعم ما يلقون من الهناءة والسعادة في المرجع والمنقلب قال ابن عباس : **﴿طوبى لهم﴾** فرحٌ وقرة عين **﴿كذلك أرسلناك في أمةٍ قد خَلَتْ من قبلها أممٌ﴾** أي كما أرسلنا الأنبياء من قبلك كذلك أرسلناك يا محمد في أمة قد مضت قبلها أمم كثيرة ، فهي آخر الأمم وأنتَ خاتم الأنبياء **﴿لتتلوَ عليهم الذي أوحينا إليك﴾** أي لتبلّغهم هذا الوحي العظيم والذكر الحكيم **﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾** أي والحال أنهم يكفرون بالرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء **﴿قل هو ربي لا إله إلا هو﴾** أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين إن الرحمن الذي كفرتم به

(١) التسهيل ٢/ ١٣٤ .

﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾

وأنكرتم معرفته هو ربي الذي آمنتُ به لا معبود لي سواه ﴿عليه توكلت وإليه متاب﴾ أي عليه وحده اعتمدت ، وإليه توبتي ومرجعي فيثيبني على مجاهدتكم ، والغرضُ تسلية النبي ﷺ مما يلقاه من كفار قريش من الجحود والعناد فقد كذَّب قبلهم الأمم ﴿ولو أن قرآناً سُيِّرت به الجبال﴾ أي لو كان كتابٌ من الكتب المنزّلة سُيرت بتلاوته الجبال وزعزعت عن أماكنها ﴿أو قُطّعت به الأرض﴾ أي شُققت به الأرض حتى تتصدَّع وتصير قطعاً ﴿أو كُلِّم به الموتى﴾ أي خوطبت به الموتى حتى أجابت وتكلمت بعد أن أحياها الله بتلاوته عليها ، وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره : لكان هذا القرآن ، لكونه غايةً في الهداية والتذكير ، ونهايةً في الإنذار والتخويف[1] وقال الزجاج : تقديره « لما آمنوا » لغلوهم في المكابرة والعناد ، وتماديهم في الضلال والفساد ﴿بلْ للّهِ الأمرُ جميعاً﴾ بلْ للإضراب والمعنى : لو أن قرآناً فُعل به ما ذُكر لكان ذلك هذا القرآن ، ولكنَّ الله لم يجبهم إلى ما اقترحوا من الآيات ، لأنه هو المالك لجميع الأمور والفاعل لما يشاء منها من غير أن يكون لأحدٍ عليه تحكّمٌ أو اقتراح ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء اللهُ لهدى الناسَ جميعاً﴾ أي أفلم يقنط وييأس المؤمنون من إيمان الكفار ، ويعلموا أنه تعالى لو شاء هدايتهم لهداهم لأن الأمر له ، ولكنْ قضت الحكمة أن يكون بناء التكليف على الاختيار[2] ﴿ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة﴾ أي ولا يزال كفار مكة يصيبهم بسوء أعمالهم وكفرهم داهيةٌ تقرع أسماعهم وتقلق بالهم من صنوف البلايا والمصائب ﴿أو تحلُّ قريباً من دارهم﴾ أي أو تحلُّ القارعة والداهية قريباً من ديارهم فيفزعون منها ويتطاير إليهم شررها ﴿حتى يأتي وعدُ الله﴾ بإظهار الإسلام وانتصارك عليهم بفتح مكة ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ أي لا يخلف وعده لرسله وأوليائه بنصرتهم على أعدائه ﴿ولقد استهزىء برسلٍ من قبلك﴾ تسلية وتأنيس للنبي ﷺ أي كما استهزأ بك المشركون فقد استهزأ المجرمون برسلهم وأنبيائهم ﴿فأمليتُ للذين كفروا ثم أخذتهم﴾ أي أمهلتهم وتركتهم في أمنٍ ودَعة ثم أخذتهم بالعذاب ﴿فكيف كان عقاب﴾ أي فكيف كان عقابي لهم على الكفر والتكذيب ؟﴿أفمن هو قائمٌ على كل نفسٍ بما كسبتْ﴾ أي أفمن هو رقيب حفيظ على عمل كل إنسان لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد وهو الله تعالى ، والخبر محذوف تقديره : كمن ليس بهذه الصفة من الأصنام التي لا تسمع ولا تنفع ولا تملك من الأمر شيئاً قال الفراء : وتُرك جوابُه لأن

---

(١) هذا اختيار الزمخشري واختار الزجاج أن التقدير « لما آمنوا » .

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾ أفلم يعلم ويتبيَّنْ وهي لغة هوازن وهذا منقول عن بعض السلف ، ولكن لا ضرورة لإخراج الكلمة عن معناها الأصلي طالما يمكن فهمها على الوجه المتبادر كما بينا .

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾

المعنى معلومٌ وقد بيّنه بعد هذا بقوله ﴿وجعلوا للّهِ شركاء﴾ كأنه قيل : هل اللـه كشركائهـم ؟[١] وقـال الزمخشري : هذا احتجاجٌ عليهم في إشراكهم بالله يعني أفالله الذي هو قائم رقيب على كل نفسٍ صالحة أو طالحة بما كسبت من خير أو شر وقد أعدَّ لكلٍ جزاءه كمن ليس كذلك[٢] ﴿وجعلوا للّه شركاء قل سمّوهم﴾ أي وجعل المشركون آلهة عبدوها معه من أصنام وأنداد في منتهى العجز والحقارة والجهالة ، قل لهـم يا محمد : سمّوهم لنا وصفوهم لننظر هل لهم ما يستحقون به العبادة والشركة مع الله ؟ ﴿أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض﴾ أي أم تخبرون الله بشركاء لا يعلمهم سبحانه وهو استفهام للتوبيخ ﴿أم بظاهرٍ من القول﴾ أي أم تسمونهم شركاء بظنٍ باطلٍ فاسد لا حقيقة له ، لفرط الجهل وسخافة العقل ﴿بل زُيّن للذين كفروا مكرهُم﴾ أي زيَّن لهم الشيطان ذلك الكفر والضلال ﴿وصُدّوا عن السبيل﴾ أي مُنعوا عن طريق الهدى ﴿ومن يضللِ اللهُ فماله من هاد﴾ أي ومن يضلله الله فما له أحدٌ يهديه ﴿لهم عذابٌ في الحياة الدنيا﴾ أي لهؤلاء الكفرة عذاب عاجل في هذه الحياة الدنيا بالقتل والأسر وسائر المحن ﴿ولعذاب الآخرة أشقُّ﴾ أي ولعذابهم في الآخرة أثقل وأشد إيلاماً من عذاب الدنيا ﴿وما لهم من الله من واق﴾ أي وليس لهم من يحميهم من عذاب الله أو يدفع عنهم سخطه وانتقامه .

البَـلاَغَـة : ١ - ﴿أنزل من السماء ماءً فسالت أودية . .﴾ الآية شبّه تعالى الحق والباطل بتشبيه رائع يسمى « التشبيه التمثيلي » لأن وجه الشبه فيه منتزعٌ من متعدد ، فمثَّل الحق بالماء الصافي الذي يستقر في الأرض ، والجوهر الصافي من المعادن الذي به ينتفع العباد ، ومثَّل الباطل بالزبد والرغوة التي تظهر على وجه الماء ، والخبث من الجوهر الذي لا يلبث أن يتلاشى ويضمحل ، والصورة التي توحي بها الآية « صورة الحق والباطل » وهما في صراع كالزبد الذي تتقاذفه الأمواج ﴿فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ وهو تمثيل في منتهى الروعة والجمال .

٢ - ﴿فسالت أوديةٌ بقدرها﴾ مجاز عقلي من إسناد الشيء لمكانه والأصل فسالت مياه الأودية .

٣ - ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل﴾ فيه إيجاز بالحذف أي أمثال الحق وأمثال الباطل .

٤ - ﴿للذين استجابوا . . والذين لم يستجيبوا﴾ بينهما طباق السلب .

٥ - ﴿كمن هو أعمى﴾ شبّه الجهل والكفر بالعمى على سبيل الاستعارة التبعية لأن المراد بالأعمى الجاهل الكافر .

(١) زاد المسير ٤/ ٣٣٣ . (٢) الكشاف

٦ - ﴿سراً وعلانية﴾ بينهما طباق وكذلك بين ﴿الحسنة والسيئة﴾ و ﴿يبسط ويقدر﴾ و ﴿يضل ويهدي﴾ للتضاد بين اللفظين .

٧ - ﴿إلا متاع﴾ أي إلا مثل المتاع الذي يستمتع به الإنسان في الحاجات الموقتة ففيه تشبيه بليغ لحذف الأداة ووجه الشبه .

فـائـدة : بيَّن تعالى في قوله ﴿ومن صلَح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم﴾ أن النسب لا ينفع إذا لم يحصل معه العمل الصالح ، وفيه قطع للأطماع الفارغة لمن يتمسك بمجرد حبل الأنساب .

تـنبيـه : قال الإمام الطيبي في قوله تعالى ﴿أفمن هو قائم على كل نفس . .﴾ في هذه الآية احتجاج بليغ مبنيٌّ على فنونٍ من علم البيان أولها : التوبيخ لهم على قياسهم الفاسد في عبادة غير الله ثانيها : وضع الظاهر موضع الضمير ﴿وجعلوا للّه شركاء﴾ تنبيهاً على ضلالهم في جعل شركاء لمن هو فردٌ واحد لا يشاركه أحد في اسمه ثالثها : إنكار لوجود الشركاء على وجه برهاني ﴿قل سمّوهم﴾ رابعها : نفي الشيء بنفي لازمه ﴿أم تنبئونه بما لا يعلم﴾ خامسها : الاحتجاج عليهم بطريق التدرج لبعثهم على التفكر ﴿أم بظاهر من القول﴾ أي أتقولون بأفواهكم من غير روية ولا تفكير ببطلان ما تقولون ؟ فكان هذا الاحتجاج منادياً على نفسه بالإعجاز وأنه ليس من كلام البشر(١) .

* * *

قال الله تعالى : ﴿مثل الجنة التي وُعد المتقون تجري من تحتها الأنهار . . إلى . . ومن عنده علم الكتاب﴾ من آية (٣٥) إلى نهاية السورة الكريمة .

المناسبة : لما ذكر تعالى ما أعدَّ للكفار في الآخرة ذكر ما أعد للمؤمنين في جنات النعيم ، ثم توعد المشركين بالعذاب الأليم ، وختم السورة الكريمة ببيان صدق رسالته عليه السلام بشهادة الله تعالى وشهادة المؤمنين من أهل الكتاب .

اللغة : ﴿الأحزاب﴾ الطوائف المتفرقة من أحزاب اليهود والنصارى سموا بذلك لأنهم جماعات متفرقة لا تجمعهم عقيدة واحدة ﴿مآب﴾ أي مآبي بمعنى مرجعي ﴿يمحو﴾ المحو : إزالة الأثر من كتابة أو غيرها وعكسه الإثبات ﴿أم الكتاب﴾ أصل كل الكتب والمراد منه علم الله أو اللوح المحفوظ ﴿البلاغ﴾ اسم بمعنى التبليغ ﴿مكر﴾ المكرُ : تدبير أمرٍ في خفاء ، وقد يكون في الخير وقد يكون في الشر .

سبب النزول : قال الكلبي : عيَّرت اليهود رسول الله ﷺ وقالت : ما نرى لهذا الرجل مهمة إلا النساء والنكاح ولو كان نبياً كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء ، فأنزل الله تعالى ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية﴾(٢) .

---

(١) نقلاً عن حاشية الصاوي على الجلالين . (٢) أسباب النزول ١٥٨ .

* مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ

التفسير : ﴿مثلُ الجنةِ التي وُعِد المتقون تجري من تحتها الأنهار﴾ أي صفة الجنة العجيبة الشأنِ التي وعد الله بها عباده المتقين أنها تجري من تحت قصورها وغرفها الأنهار ﴿أُكلها دائم وظلها﴾ أي ثمرها دائم لا ينقطع ، وظلُّها دائم لا تنسخه الشمس ﴿تلك عقبى الذين اتقوا﴾ أي تلك الجنة عاقبة المتقين ومآلهم ﴿وعقبى الكافرين النار﴾ أي وأما عاقبة الكفار الفجار فهي النار ﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أُنزل إليك﴾ أي والذين أنزلنا إليهم التوراة والإِنجيل ـ ممن آمن بك واتبعك يا محمد ـ كعبد الله بن سلام والنجاشي وأصحابه يفرحون بهذا القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به ﴿ومن الأحزاب من يُنكِر بعضه﴾ أي ومن أهل الملل المتحزبين عليك وهم أهل أديانٍ شتى من ينكر بعض القرآن مكابرة مع يقينهم بصدقه لأنه موافق لما معهم ﴿قل إنما أُمرتُ أن أعبد الله ولا أُشرك به﴾ أي قل يا محمد إنما أُمرتُ بعبادة الله وحده لا أشركُ معه غيره ﴿إليه أدعوا وإليه مآب﴾ أي إلى عبادته أدعو الناس وإليه مرجعي ومصيري ﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربياً﴾ أي ومثل إنزال الكتب السابقة أنزلنا هذا القرآن بلغة العرب لتحكم به بين الناس ﴿ولئن اتبعتَ أهواءهم بعدما جاءك من العلم﴾ أي ولئن اتبعتَ المشركين فيما يدعونك إليه من الأهواء والآراء بعدما آتاك الله من الحجج والبراهين ﴿ما لك من الله من وليٍّ ولا واق﴾ أي ليس لك ناصرٌ ينصرك أو يقيك من عذاب الله ، والمقصود تحذير الأمة من اتباع أهواء الناس لأن المعصوم إذا خوطب بمثل ذلك كان الغرض تحذير الناس قال القرطبي : الخطاب للنبي ﷺ والمراد الأمة[1] ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك﴾ أي أرسلنا قبلك الرسل الكرام ﴿وجعلنا لهم أزواجاً وذرية﴾ أي وجعلنا لهم النساء والبنين ، وهو ردٌّ على من عاب على الرسول ﷺ كثرة النساء وقالوا : لو كان مرسلاً حقاً لكان مشتغلاً بالزهد وترك الدنيا والنساء ، فردَّ الله مقالتهم وبيَّن أن محمداً ﷺ ليس ببدعٍ في ذلك ، بل هو كمن تقدم من الرسل ﴿وما كان لرسولٍ أن يأتي بآيةٍ إلا بإذن الله﴾ أي لم يكن لرسولٍ أن يأتي قومه بمُعجزة إلا إذا أذن الله له فيها ، وهذا ردٌّ على الذين اقترحوا الآيات ﴿لكل أجلٍ كتاب﴾ أي لكل مدةٍ مضروبة كتابٌ كتبه الله في اللوح المحفوظ، وكلُّ شيءٍ عنده بمقدار قال الطبري : لكل أمر قضاه الله كتابٌ قد كتبه فهو عنده[2] ﴿يمحوا اللهُ ما يشاءُ ويُثْبت﴾

---

(١) القرطبي ٩/ ٣٢٧ . (٢) الطبري ١٣/ ١٦٥ .

مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

أي ينسخ الله ما يشاء نسخه من الشرائع والأحكام وصحف الملائكة الكرام ، ويثبتُ ما يشاء منها دون تغيير قال ابن عباس : يبدّل الله ما يشاء فينسخه إلا الموتَ والحياة والشقاء والسعادة فإنه قد فرغ منها[1] وقيل : إن المحو والإثبات عامٌ في جميع الأشياء لما روي أن عمر بن الخطاب كان يطوف بالبيت ويبكي ويقول : اللهمَّ إن كنتَ كتبت عليَّ شقوةً أو ذنباً فامحه ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أمُّ الكتاب ، واجعله سعادةً ومغفرة[2] ، وقد رجحه أبو السعود وهو قول ابن مسعود أيضاً ﴿وعنده أمُّ الكتاب﴾ أي أصل كل كتاب وهو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقاديرَ الأشياءِ كلِّها ﴿وإنْ ما نرينك بعض الذي نعدهم﴾ أي وإن أريناك يا محمد بعض الذي وعدناهم من العذاب ﴿أو نتوفينَّك﴾ أي نقبضك قبل أن نقر عينك بعذاب هؤلاء المشركين ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ أي ليس عليك إلا تبليغ الرسالة وعلينا حسابهم وجزاؤهم ﴿أولم يروا أنا نأتي الأرضَ ننقصها من أطرافها﴾ أي أولمْ ير هؤلاء المشركون أنّا نمكّن للمؤمنين من ديارهم ونفتح للرسول الأرض بعد الأرض حتى تنقص دار الكفر وتزيد دار الإسلام ؟ وذلك من أقوى الأدلة على أن الله منجزٌ وعده لرسوله عليه السلام[3] ﴿والله يحكم لا معقّب لحكمه﴾ أي ليس يتعقب حكمه أحد بنقضٍ ولا تغيير ﴿وهو سريع الحساب﴾ أي سريع الانتقام ممن عصاه ﴿وقد مكر الذين من قبلهم﴾ أي مكر الكفار الذين خَلَوْا بأنبيائهم كما مكر كفار قريش بك ﴿فللّه المكر جميعاً﴾ أي له تعالى أسباب المكر جميعاً لا يضر مكرهم إلا بإرادته ، فهو يوصل إليهم العذاب من حيث لا يعلمون ﴿يعلم ما تكسب كلُّ نفس﴾ أي من خير وشر فيجازي عليه ﴿وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار﴾ أي لمن تكون العاقبة الحسنة في الآخرة ﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلاً﴾ أي يقول كفار مكة لستَ يا محمد مرسلاً من عند الله ﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾ أي حسبي شهادة الله بصدقي بما أيدني من المعجزات ﴿ومَنْ عنده علم الكتاب﴾ أي وشهادة المؤمنين من علماء أهل الكتاب .

البَــلاغَــة : في الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

(١) وهذا قول مجاهد أيضاً حيث قال : إلا الحياة والموت والشقاوة والسعادة فإنهما لا يتغيران . (٢) الطبري ١٣/١٦٧ . (٣) قال سيد قطب : أن يد الله القوية تأتي الأمم الغنية حين تبطر وتكفر وتفسد فتنقص من قوتها وقدرها وثرائها وتحصرها في رقعة ضيقة من الأرض بعد أن كانت ذات امتداد وسلطان أقول : هذا التفسير جديدٌ وفيه إشراقة من إشراقات النور ، ونفحة من نفحات الجمال .

١ ـ التشبيه في قوله ﴿كذلك أرسلناك﴾ وفي ﴿وكذلك أنزلناه﴾ ويسمى مرسلاً مجملاً .

٢ ـ الإِيجاز بالحذف في ﴿أُكلها دائم وظلُّها﴾ أي وظلها دائم حذف منه الخبر بدليل السابق .

٣ ـ المقابلة في ﴿تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار﴾ وهو من المحسنات البديعية .

٤ ـ جناس الاشتقاق في ﴿أرسلنا رسلاً﴾ .

٥ ـ الطباق في ﴿يمحو . . ويثبت﴾ .

٦ ـ القصر في ﴿إنما أُمرتُ أن أعبدَ الله﴾ وفي ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ وكلاهما قصرٌ إضافي من باب قصر الموصوف على الصفة أي ليس لك من الصفات إلا صفة التبليغ .

٧ ـ التهييج والإِلهاب ﴿ولئن اتبعتَ أهواءهم﴾ .

٨ ـ المجاز المرسل في ﴿نأتي الأرض﴾ أي يأتيها أمرنا وعذابنا .

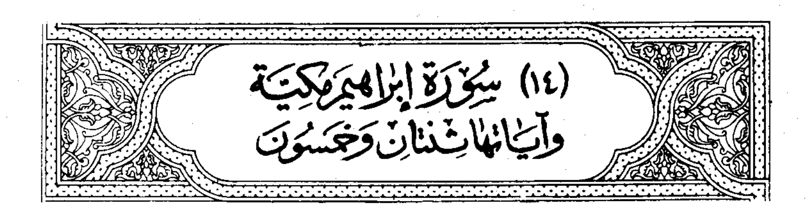
لطيفة : فسَّر بعضهم قوله تعالى ﴿ننقصها من أطرافها﴾ أن نقصانها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير والصلاح ، وهذا مرويٌ عن مجاهد وابن عباس في رواية عنه وأنشد بعضهم :

الأرضُ تحيا إذا ما عاشَ عالِمُها ... متى يَمُتْ عالمٌ منها يمتْ طَرَفُ
كالأرض تحيا إذا ما الغيثُ حلَّ بها ... وإن أبى عادَ في أكنافها التَّلَفُ[1]

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الرعد »

* * *

(١) مختصر ابن كثير ٢/٢٨٧ .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* تناولت السورة الكريمة موضوع العقيدة في أصولها الكبيرة « الايمان بالله ، الإيمان بالرسالة ، الإيمان بالبعث والجزاء » ويكاد يكون محور السورة الرئيسي « الرسالة والرسول » فقد تناولت دعوة الرسل الكرام بشيء من التفصيل، وبيَّنتْ وظيفة الرسول، ووضحت معنى وحدة الرسالات السماوية، فالأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين جاءوا لتشييد صرح الايمان ، وتعريف الناس بالإله الحق الذي تعنو له الوجوه ، وإخراج البشرية من الظلمات إلى النور ، فدعوتُهم واحدة ، وهدفهم واحد ، وإن كان بينهم اختلافٌ في الفروع .

* وقد تحدثت السورة عن رسالة موسى عليه السلام ، ودعوته لقومه إلى أن يعبدوا الله ويشكروه ، وضربت الأمثال بالمكذبين للرسل ، من الأمم السابقة كقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، ثم تناولت الآيات موضوع الرسل مع أقوامهم على مر العصور والدهور ، وحكت ما جرى بينهم من محاورات ومناورات انتهت بإهلاك الله للظالمين ﴿وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودُنَّ في ملتنا ، فأوحى إليهم ربهم لنهلكنَّ الظالمين .ولنسكننّكم الأرضَ من بعدهم ،ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾ .

* وتحدثت السورة عن مشهد من مشاهد الآخرة ، حيث يلتقي الأشقياء المجرمون بأتباعهم الضعفاء ، وذكرت ما يدور بينهم من حوار طويل ، ينتهي بتكدس الجميع في نار جهنم يصطلون سعيرها ، فلم ينفع الأتباع تلك اللعنات والشتائم التي وجهوها إلى الرؤساء فالكل في السعير ، ثم ضربت الآيات مثلاً لكلمة الايمان ، وكلمة الضلال ، بالشجرة الطيبة ، والشجرة الخبيثة ، وختمت السورة ببيان مصير الظالمين يوم الجزاء والدين .

التسمية : سميت السورة الكريمة «سورة إبراهيم» تخليداً لمآثر أب الأنبياء، وإمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام ،الذي حطم الأصنام ،وحمل راية التوحيد ،وجاء بالحنيفية السمحة ودين الإسلام الذي بعث به خاتم المرسلين ، وقد قص علينا القرآن الكريم دعواته المباركات بعد انتهائه من بناء البيت العتيق ، وكلها دعوات إلى الايمان والتوحيد .

اللغة : ﴿ويلٌ﴾ هلاكٌ ودمار ﴿يستحبون﴾ يختارون ويفضّلون ﴿يسومونكم﴾ يذيقونكم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾

يقال: سامه الذلَّ أي أذاقه الذل ﴿تأذَّن﴾ أعلم إعلاماً لا شبهة فيه ﴿نبأ﴾ النبأ: الخبر وجمعه أنباء ﴿سلطان﴾ حجة وبرهان ﴿فاطر﴾ مبدع ومخترع ﴿استفتحوا﴾ استنصروا على أعدائهم ﴿جبار﴾ الجبار: المتكبر الذي لا يرى لأحدٍ عليه حقاً ﴿عنيد﴾ العنيد: المعاند للحق والمجانب له الذي يذهب عن طريق الحق، تقول العرب: شرُّ الإبل العنُود ﴿صديد﴾ الصديد: القيح الذي يسيل من أجساد أهل النار ﴿يتجرعه﴾ أي يتحسّاه ويتكلف بلعه بمرارة ﴿يُسيغُه﴾ يبتلعه.

التفسير: ﴿الٓر﴾ هذا الكتاب المعجز مؤلف من جنس هذه الحروف المقطعة فأتوا بمثله إن استطعتم ﴿كتابٌ أنزلناه إليك﴾ أي هذا القرآن كتاب أنزلناه عليك يا محمد، لم تنشئْه أنتَ وإنما أوحيناه نحن إليك ﴿لتُخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ أي لتخرج البشرية من ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم والإيمان ﴿بإذن ربهم﴾ أي بأمره وتوفيقه ﴿إلى صراط العزيز الحميد﴾ أي لتهديهم إلى طريق الله العزيز الذي لا يُغالب، المحمود بكل لسان، الممجَّد في كل مكان ﴿اللهِ الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ أي المالك لما في السموات والأرض، الغني عن الناس، المسيطر على الكون وما فيه ﴿وويلٌ للكافرين من عذاب شديد﴾ قال الزجاج: ﴿ويلٌ﴾ كلمة تُقال للعذاب والهلكة[1]، أي هلاك ودمارٌ للكافرين ويا ويلهم من عذاب الله الأليم، ثم وضّح صفات أولئك الكفار بقوله ﴿الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة﴾ أي يفضّلون ويؤثرون الحياة الفانية على الحياة الآخرة الباقية ﴿ويصدُّون عن سبيل الله﴾ أي يصرفون الناس ويمنعونهم عن دين الإسلام ﴿ويبغونها عِوَجاً﴾ أي يطلبون أن تكون دين الله معوجَّة لتوافق أهواءهم ﴿أولئك في ضلالٍ بعيد﴾ أي أولئك المتصفون بتلك الصفات الذميمة في ضلالٍ عن الحق مبين، لا يُرجى لهم صلاح ولا نجاح ﴿وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسانِ قومه﴾ أي وما أرسلنا في الأمم الخالية رسولاً من الرسل إلا بلغة قومه ﴿ليبيِّنَ لهم﴾ أي ليبيِّن لهم شريعة الله ويفهمهم مراده، لتتمَّ الغاية من الرسالة ﴿فيضلُّ اللهُ من يشاءُ ويهدي من يشاءُ﴾ أي وليست وظيفة الرسل إلا التبليغ وأما أمر الهداية والإيمان فذلك بيد

(١) القرطبي ٩/ ٣٣٩.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ

الله يضلُّ من يشاء إضلاله ، ويهدي من يشاء هدايته على ما سبق به قضاؤه المحكم ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي وهو العزيز في ملكه ، الحكيم في صنعه ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ أي أرسلنا موسى بالمعجزات الباهرات الدالة على صدقه ﴿أنْ أخرجْ قومكَ من الظلمات إلى النور﴾ أن تفسيرية بمعنى أيْ والمعنى أي أخرج بني إسرائيل من ظلمات الجهل والكفر إلى نور الإيمان والتوحيد قال أبو حيان : وفي قوله ﴿قومك﴾ خصوصٌ لرسالة موسى إلى قومه بخلاف قوله لمحمد ﴿لتخرج الناس﴾ مما يدل على عموم الرسالة[1] ﴿وذكّرهم بأيام الله﴾ أي ذكّرهم بأياديه ونعمه عليهم ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور﴾ أي في التذكير بأيام الله لعبراً ودلالات لكل عبد منيب صابر على البلاء ، شاكر للنعماء ﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم﴾ أي اذكروا نعم الله الجليلة عليكم ﴿إذْ أنجاكم من آل فرعون﴾ أي حين نجاكم من الذل والاستعباد من فرعون وزبانيته ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ أي يذيقونكم أسوأ أنواع العذاب ﴿ويذبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ أي يذبحون الذكور ويستبقون الإناث على قيد الحياة مع الذل والصغار ﴿وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم﴾ أي وفي تلك المحنة ابتلاءٌ واختبار لكم من ربكم عظيم قال المفسرون : وكان سبب قتل الذكور أن الكهنة قالوا لفرعون إنَّ مولوداً يولد في بني إسرائيل يكون ذهاب ملكك على يديه ، فأمر بقتل كل مولود ﴿وإذْ تأذَّنَ ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ هذا من تتمة كلام موسى أي واذكروا أيضاً حين أعلم ربكم إعلاماً لا شبهة فيه لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم من فضلي ﴿ولئن كفرتم إنَّ عذابي لشديد﴾ أي ولئن جحدتم نعمتي بالكفر والعصيان فإن عذابي شديد ، وعدَ بالعذاب على الكفر ، كما وعَدَ بالزيادة على الشكر ﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً﴾ أي وقال موسى لبني إسرائيل بعد أن أيس من إيمانهم لئن كفرتم أنتم وجميع الخلائق فلن تضروا اللهَ شيئاً ﴿فإنَّ الله لغنيٌّ حميد﴾ أي هو غنيٌّ عن شكر عباده ، مستحق للحمد في ذاته وهو المحمود وإن كفره من كفره ﴿ألم يأتكم نبؤاْ الذين من قبلكم قوم نوحٍ وعادٍ وثمود﴾ أي ألم يأتكم أخبار من قبلكم من الأمم المكذبة كقوم نوح وعاد وثمود ماذا حلَّ بهم لما كذبوا بآيات الله ؟ ﴿والذين من بعدهم﴾ أي والأمم الذين جاءوا بعدهم ﴿لا يعلمهم إلا

(١) البحر ٥/ ٤٠٥ .

بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا

﴿الله﴾ أي لا يحصي عددهم إلا الله **﴿جاءتهم رسلهم بالبينات﴾** أي بالحجج الواضحات ، والدلائل الباهرات **﴿فردّوا أيديهم في أفواههم﴾** أي وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم وقال ابن مسعود : عضوا أصابعهم غيظاً[1] **﴿وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به﴾** أي كفرنا بما زعمتم أن الله أرسلكم به **﴿وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب﴾** أي في شك عظيم من دعوتكم ، وقلق واضطراب من دينكم **﴿قالت رسلهم أفي الله شك﴾** أي أجابهم الرسل بقولهم : أفي وجود الله ووحدانيته شك؟ والاستفهام للإنكار والتوبيخ لأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة ولهذا لفتوا الانتباه إلى براهين وجوده بقولهم **﴿فاطر السموات والأرض﴾** أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق **﴿يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم﴾** أي يدعوكم إلى الايمان ليغفر لكم ذنوبكم **﴿ويؤخركم إلى أجلٍ مسمى﴾** أي إن آمنتم أمدَّ في أعماركم إلى منتهى آجالكم ولم يعاقبكم في العاجل فيهلككم **﴿قالوا إن أنتم إلا بشرٌ مثلنا﴾** أي ما أنتم إلا بشر مثلنا لا فضل لكم علينا **﴿تريدون أن تصدّونا عما كان يعبد آباؤنا﴾** أي تريدون أن تصرفونا عن عبادة الأوثان التي كان عليها آباؤ نا **﴿فأتونا بسلطانٍ مبين﴾** أي فأتونا بحجة ظاهرة على صدقكم **﴿قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم﴾** أي قالت الرسل : نحن كما قلتم بشر مثلكم **﴿ولكنَّ الله يمنُّ على من يشاء من عباده﴾** أي يتفضل على من يشاء بالنبوة والرسالة قال الزمخشري : لم يذكروا فضلهم تواضعاً منهم وسلّموا لقولهم وأنهم بشرٌ مثلُهم في البشرية وحدها ، فأمّا ما وراء ذلك فما كانوا مثلهم[2] **﴿وما كان لنا أن نأتيكم بسلطانٍ إلا بإذن الله﴾** أي وما ينبغي لنا أن نأتيكم بحجة وآية مما اقترحتموه علينا إلا بمشيئة الله وإذنه **﴿وعلى الله فليتوكلْ المؤمنون﴾** أي على الله وحده فليعتمد المؤمنون في جميع أمورهم **﴿وما لنا ألاّ نتوكل على الله﴾** أي قالت الرسل : أيُّ شيء يمنعنا من التوكل على الله ؟ **﴿وقد هدانا سبُلنا﴾** أي والحال أنه قد بصّرنا طريق النجاة من عذابه **﴿ولنصبرنَّ على ما آذيتمونا﴾** أي ولنصبرنَّ على أذاكم قال ابن الجوزي : وإنما قُصَّ هذا وأمثاله على نبيناﷺ ليقتدي بمن

(١) مبنى القول الثاني على المجاز ومثله ﴿عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ والقول الأول محمول على الحقيقة وتوضيحه أنهم لما سمعوا كلام الأنبياء عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية فعند ذلك ردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل ذلك من غلبه الضحك فوضع يده على فيه .
(٢) الكشاف ٢/ ٥٤٤ .

لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

قبله في الصبر وليعلم ما جرى لهم[1] ﴿**وعلى الله فليتوكل المتوكلون**﴾ ليس هذا تكراراً وإنما معناه الثبات على التوكل أي فليدوموا وليثبتوا على التوكل عليه وحده ، وهنا يسفر الطغيان عن وجهه متبجحاً بالقوة المادية التي يملكها المتجبرون ﴿**وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودنَّ في ملتنا**﴾ أي قال الكفار للرسل الأطهار والله لنطردنكم من ديارنا أو لترجعنَّ إلى ديننا ﴿**فأوحى إليهم ربُّهم لنهلكنَّ الظالمين**﴾ أي أوحى الله إلى الرسل لأهلكنَّ أعداءكم الكافرين المتجبرين ﴿**ولنسكننكم الأرضَ من بعدهم**﴾ أي ولأمنحنكم سكنى أرضهم بعد هلاكهم ﴿**ذلك لمن خاف مقامي وخاف وَعِيدِ**﴾ أي ذلك النصر للرسل وإهلاك الظالمين لمن خاف مقامه بين يديَّ وخاف عذابي ووعيدي قال في البحر : ولما أقسموا على إخراج الرسل أو العودة في ملتهم أقسم تعالى على إهلاكهم ، وأي إخراجٍ أعظم من الإهلاك بحيث لا يكون لهم عودة إليها أبداً[2] ﴿**واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد**﴾ أي واستنصر الرسل بالله على قومهم وخسر وهلك كل متجبر معاند للحق ﴿**من ورائه جهنم ويُسقى من ماءٍ صديد**﴾ أي من وراء ذلك الكافر جهنم ويسقى فيها من ماءٍ صديد هو من قيح ودمٍ ﴿**يتجرعه ولا يكاد يسيغه**﴾ أي يبتلعه مرة بعد مرة لمرارته ، ولا يكاد يستسيغه لقبحه وكراهته ﴿**ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميِّت**﴾ أي يأتيه الموت بأسبابه المحيطة به من كل مكان ، ولكنَّه لا يموت ليستكمل عذابه ﴿**ومن ورائه عذاب غليظ**﴾ أي ومن بين يديه عذابٌ أشدُّ مما قبله وأغلظ .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة أنواعاً من البلاغة والبيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستعارة في ﴿لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ حيث استعار الظلمات للكفر والضلال ، والنور للهدى والإيمان ، وكذلك ﴿ويأتيه الموتُ﴾ استعارة عن غواشي الكروب وشدائد الأمور ، فقد يوصف المغموم بأنه في غمرات الموت مبالغة في عظيم ما يغشاه وأليم ما يلقاه .

٢ ـ الطباق بين ﴿يضل ويهدي﴾ وبين ﴿شكرتم وكفرتم﴾ وبين ﴿نخرجنَّ وتعودُنَّ﴾ .

(١) زاد المسير ٤/ ٣٥٠ . (٢) البحر ٥/ ٤١١ .

٣ ـ صيغة المبالغة في ﴿صبّار شكور﴾ وفي ﴿جبّار عنيد﴾ .

٤ ـ جناس الاشتقاق في ﴿أرسلنا من رسول﴾ وفي ﴿فليتوكل المتوكلون﴾ .

٥ ـ السجع في ﴿شديد ، بعيد ، عنيد﴾ الخ .

فَائِدَة : ذكر تعالى في البقرة ﴿يذبّحون﴾ بغير واوٍ وهنا ﴿ويذبحون﴾ بالواو ، والسرُّ في ذلك أنه في سورة البقرة جاء اللفظ تفسيراً لما سبق من قوله ﴿سوء العذاب﴾ فكأنه قال يسومونكم سوء العذاب ثم فسره بقوله ﴿يذبّحون أبناءكم﴾ أما في هذه السورة فهو غير تفسير لأن المعنى أنهم يعذبونهم بأنواع من العذاب وبالتذبيح أيضاً فهو نوع آخر من العذاب غير الأول والله أعلم .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد . . إلى . . إن الإنسان لظلوم كفار﴾ من آية (١٨) إلى نهاية آية (٣٤) .

المُنَاسَبَة : لما حكى تعالى استهزاء الكفار بالرسل ، وما أعدَّ لهم من العذاب والنكال في الآخرة ، ضرب مثلاً لأعمالهم ، ثم ذكر المناظرة بين الرؤساء والأتباع ، وعقّبها بالتذكير بنعم الله على العباد ليعبدوه ويشكروه .

اللغَة : ﴿عاصف﴾ شديد الريح ﴿برزوا﴾ البروز : الظهور بعد الخفاء ، والبَراز المكان الواسع لظهوره ، وامرأةٌ برْزة أي تظهر للناس ﴿محيص﴾ منجى ومهرب يقال : حاصَ عن كذا أي فرَّ وأراد الهرب منه ﴿جزعنا﴾ الجزع : عدم احتمال الشدة وهو نقيض الصبر ﴿مُصرخكم﴾ مُغيثكم الصارخ المستغيث ، والمُصرخ المغيث قال أمية :

فلا تجْزعوا إني لكم غيرُ مُصْرخٍ ... وليس لكم عندي غناءٌ ولا نصْر[1]

﴿اجتثت﴾ اقتلعت من أصلها ﴿البوار﴾ الهلاك ﴿خِلال﴾ جمع خُلَّة وهي الصحبة والصَّداقة قال امرؤ القيس :

صرفتُ الهَوى عنهنَّ من خشيةِ الرَّدى ... فلستُ بمقْليِّ الخِلال ولا قالي[2]

﴿دائبين﴾ الدؤب في اللغة : مرورُ الشيء في العمل على عادة مطردة يقال دأب دؤ باً .

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ

التفسِير : ﴿مثلُ الذين كفروا بربهم أعمالهم كرمادٍ اشتدت به الريح﴾ أي مثلُ أعمالِ الكفار التي عملوها في الدنيا يبتغون بها الأجر من صدقةٍ وصلة رحم وغيرها مثلُ رمادٍ عصفت به الريح فجعلته هباءً منثوراً ﴿في يوم عاصف﴾ أي في يومٍ شديد هبوب الريح قال القرطبي : ضرب الله هذه الآية

(١) القرطبي ٩/ ٣٥٧ . (٢) البحر ٥/ ٤٢٧ .

هُوَ الضَّلَٰلُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَٰٓؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم

مثلاً لأعمال الكفار في أنه يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى[1] ﴿**لا يقدرون مِمَّا كسبوا على شيءٍ**﴾ أي لا يقدر الكفار على تحصيل ثواب ما عملوا من البرِّ في الدنيا لإحباطه بالكفر ، كما لا يستطيع أن يحصل الإنسان على شيء من الرماد الذي طيَّرته الريح ﴿**ذلك هو الضلال البعيد**﴾ أي الخسران الكبير ﴿**ألم تر أنَّ الله خلق السموات والأرض بالحق**﴾ أي ألم تر أيها المخاطب بعين قلبك وتتأمل ببصيرتك أنَّ اللهَ العظيم الجليل انفرد بالخلق والإيجاد ، وأنه خلق السموات والأرض ليُستدلَّ بهما على قدرته ؟ قال المفسرون : أي لم يخلقهن عبثاً وإنما خلقهنَّ لأمرٍ عظيم ﴿**إنْ يشأْ يذهبْكم ويأتِ بخلقٍ جديد**﴾ أي هو قادرٌ على الإفناء كما قادر على الإيجاد والإحياء قال ابن عباس يريد : يميتكم يا معشر الكفار ويخلق قوماً غيركم خيراً منكم وأطوع[2] ﴿**وما ذلك على الله بعزيز**﴾ أي ليس ذلك بصعبٍ أو متعذرٍ على الله ، فإنَّ القويَّ القادر لا يصعبُ عليه شيء ﴿**وبرزوا للّهِ جميعاً**﴾ أي خرجوا من قبورهم يوم البعث ، وظهروا للحساب لا يسترهم عن الله ساتر قال الإمام الفخر : ورد بلفظ الماضي ﴿**وبرزوا**﴾ وإن كان معناه الاستقبال لأن كل ما أخبر الله تعالى عنه فهو صدقٌ وحقٌ ، فصار كأنه قد حصل ودخل في الوجود ونظيره ﴿**ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار**﴾[3] ﴿**فقال الضعفاء للذين استكبروا**﴾ أي قال الأتباع والعوام للسادة الكبراء والقادة الذين أضلوهم في الدنيا ﴿**إنّا كنّا لكم تبعاً**﴾ أي كنا أتباعاً لكم نأتمر بأمركم ﴿**فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء**﴾ أي هل أنتم دافعون عنا شيئاً من عذاب الله ؟ والاستفهام للتوبيخ والتقريع ﴿**قالوا لو هدانا الله لهديناكم**﴾ أي قال القادة معتذرين : لو هدانا الله للإيمان لهديناكم إليه ، ولكن حصل لنا الضلال فأضللناكم فلا ينفعنا العتاب ولا الجزع ﴿**سواءٌ علينا أجزعنا أم صبرنا**﴾ أي يستوي علينا الجزع والصبر قال الطبري : إن أهل النار يجتمعون فيقول بعضهم لبعض : إنما أدركَ أهلُ الجنةِ ببكائهم وتضرعهم إلى الله فتعالوْا نبكي ونتضرع إلى الله ، فبكوا فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا : تعالوا نصبر فصبروا صبراً لم يُر مثلُه ، فلما رأوا أنه لا ينفعهم قالوا ﴿**سواء علينا أجزعنا أم صبرنا**﴾[4] وقال مقاتل : جزعوا خمسمائة عام ، وصبروا خمسمائة عام[5] ﴿**ما لنا من محيص**﴾ أي ليس لنا من مهرب أو ملجأ ﴿**وقال الشيطان لما قُضي الأمر**﴾ هذه هي الخطبة البتراء التي يخطب بها إبليس في محفل

(١) القرطبي ٩/ ٣٥٣ . (٢) زاد المسير ٤/ ٣٥٥ . (٣) الفخر الرازي ١٩/ ١٠٧ . (٤) الطبري ١٣/ ٢٠٠ . (٥) زاد المسير ٤/ ٣٥٦ .

مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ

الأشقياء في جهنم أي لمّا فُرِغ من الحساب ودخل أهلُ الجنةِ الجنة وأهلُ النارِ النارَ ﴿إنَّ اللـهَ وعدكـم وعْدَ الحقِّ﴾ أي وعدكم وعداً حقاً بإثابة المطيع وعقاب العاصي فوفّى لكم وعده ﴿ووعدتُكم فأخلفتُكم﴾ أي وعدتكم ألاّ بعث ولا ثواب ولا عقاب فكذبتكم وأخلفتكم الوعد ﴿ومـا كان لـي عليكـم مـن سلطـان﴾ أي لم يكن لي قدرة وتسلط وقهر عليكم فأقهركم على الكفر والمعاصي ﴿إلا أن دعوتـكـم فاستجبتم لـي﴾ أي إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بالوسوسة والتزيين فاستجبتم لي باختياركم ﴿فـلا تلومونـي ولوموا أنفسكـم﴾ أي لا ترجعوا باللوم عليَّ اليوم ولكن لوموا أنفسكم فإن الذنب ذنبكم ﴿مـا أنا بمُصرخكـم ومـا أنتم بمُصْرخـيَّ﴾ أي ما أنا بمغيثكم ولا أنتم بمغيثيَّ من عذاب الله ﴿إنـي كفرتُ بما أشركتمون من قبل﴾ أي كفرت بإشراككم لي مع الله في الطاعة ﴿إن الظالميـن لهم عـذاب أليـم﴾ أي إن المشركين لهم عذاب مؤلم قال المفسرون : هذه الخطبة إنما تكون إذا استقر أهل الجنةِ في الجنة ، وأهلُ النار في النار، فيأخذ أهل النار في لوم إبليس وتقريعه فيقوم فيما بينهم خطيباً بما أخبر عنه القرآن[1] وقال الحسن : يقف إبليس يوم القيامة خطيباً في جهنم على منبرٍ من نار يسمعه الخلائق جميعاً[2] ﴿وأُدخـل الذيـن آمنوا وعملوا الصالحات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم﴾ لمّا ذكر تعالى أحوال الأشقياء ، ذكر بعده أحوال السعداء ، ليبقى العبد بين الرغبة والرهبة ، وبين الخوف والرجاء أي أدخلهم الله تعالى جناتٍ تجري من تحت قصورها أنهارالجنة ماكثين فيها أبداً بأمره تعالى وتوفيقه وهدايته ﴿تحيتهم فيها سـلام﴾ أي تُحيِّهم الملائكة بالسلام مع الإجلال والإكرام ﴿ألـم تر كيـف ضرب اللـه مثلاً كلمـةً طيبةً كشجـرةٍ طيبـة﴾ هذا مثلٌ ضربه الله لكلمة الإيمان وكلمة الإشراك ، فمثَّل لكلمـة الإيمـان بالشجـرة الطيبة ، ولكلمة الإشراك بالشجرة الخبيثة قال ابن عباس : الكلمة الطيبة «لا إلـه إلا اللـه» والشجرة الطيبة «المؤمـن»[3] ﴿أصلهـا ثابـت وفرعهـا في السمـاء﴾ أي أصلها راسخ في الأرض وأغصانها ممتدة نحو السماء ﴿تـؤتي أكلَها كل حيـن بإذن ربهـا﴾ أي تعطي ثمرها كلَّ وقت بتيسير الخالـق وتكوينـه ، كذلك كلمة الإيمان ثابتة في قلب المؤمن ، وعملُه يصعد إلى السماء ويناله بركته وثوابه في كل وقت ﴿ويضربُ اللهُ الأمثال للناس لعلهـم يتذكرون﴾ أي يبيّـن لهم الأمثال لعلهم يتعظون فيؤمنون ﴿ومثلُ كلمةٍ خبيثـة كشجرةٍ خبيثـة﴾ أي ومثل كلمة الكفر الخبيثة كشجرة الحَنْظل الخبيثة ﴿اجتُثَّتْ مـن فـوق

(١) الفخر الرازي ١٩/ ١١٠ . (٢) القرطبي ٩/ ٣٥٦ . (٣) المختصر ٢/ ٢٩٦ .

لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ

الأرض﴾ أي استؤصلت من جذورها واقتلعت من الأرض لعدم ثبات أصلها **﴿ ما لها من قرار﴾** أي ليس لها استقرارٌ وثبات ، كذلك كلمة الكفر لا ثبات لها ولا فرع ولا بركة قال ابن الجوزي : شُبه ما يكسبه المؤمن من بركة الإِيمان وثوابه في كل وقت بثمرتها المجتناة في كل حين ، فالمؤمن كلما قال «لا إله إلا الله» صعدت إلى السماء ثم جاء خيرُها ومنفعتها ، والكافر لا يُقبل عمله ولا يصعد إلى الله تعالى ، لأنه ليس له أصل في الأرض ثابت ، ولا فرع في السماء[1] **﴿يثبّتُ اللهُ الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا﴾** أي يثبتهم على كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» وعلى الإِيمان في هذه الحياة فلا يزيغون ولا يُفْتنون **﴿وفي الآخرة﴾** أي عند سؤال الملكين في القبر كما في الحديث الشريف (المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله تعالى**﴿يثبّتُ الله الذين آمنوا﴾**. .)[2] الآية **﴿ويضلُّ الله الظالمين﴾** أي لا يهديهم في الحياة ولا عند سؤال الملكين وقت الممات **﴿ويفعل الله ما يشاء﴾** أي من هداية المؤمن وإضلال الكافر لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون **﴿ألم تر إلى الذين بدَّلوا نعمة الله كفراً﴾** استفهام للتعجيب أي ألا تعجب أيها السامع من أولئك الذين غيّروا نعمة الله بالكفر والتكذيب؟قال المفسرون : هم كفار مكة فقد أسكنهم الله حرمه الآمن ، وجعل عيشهم في السَّعة ، وبعث فيهم محمداًﷺ فلم يعرفوا قدر هذه النعمة ، وكفروا به وكذبوه ، فابتلاهم الله بالقحط والجدب **﴿وأحلّوا قومهم دار البوار﴾** أي أنزلوا قومهم دار الهلاك بكفرهم وطغيانهم ثم فسَّرها بقوله **﴿جهنَّم يصلونها وبئس القرار﴾** أي أحلوهم في جهنم يذوقون سعيرها وبئست جهنم مستقراً **﴿ وجعلوا للهِ أنداداً ليُضلوا عن سبيله﴾** أي جعلوا لله شركاء مماثلين عبدوهم كعبادته ليُضلوا الناس عن دين الله **﴿قل تمتعوا فإنَّ مصيركم إلى النار﴾** أي استمتعوا بنعيم الدنيا فإن مردكُم ومرجعكم إلى عذاب جهنم ، وهو وعيد وتهديد **﴿قل لعبادي الذينَ آمنوا يقيموا الصلاة﴾** أي قل يا محمد لعبادي الذين آمنوا فلْيقيموا الصلاة المفروضة عليهم ويؤ دوها على الوجه الأكمل **﴿وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية﴾** أي ولينفقوا مما أنعمنا عليهم به من الرزق خفيةً وجهراً **﴿من قبل أن يأتي يومٌ لا بيعٌ فيه**

(١) زاد المسير ٤/ ٣٦٠ . (٢) أخرجه البخاري وهذا الرأي هو اختيار الطبري .

﴿وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾

﴿ولا خلال﴾ أي من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا انتفاع فيه بمبايعة ولا صداقة ، ولا فداء ولا شفاعة . . ولما أطال الكلام في وصف أحوال السعداء والأشقياء ختم ذلك بذكر الدلائل الدالة على وجود الخالق الحكيم فقال ﴿الله الذي خلق السموات والأرض﴾ أي أبدعهما واخترعهما على غير مثال سبق ﴿وأنزل من السماء ماء﴾ أي أنزل من السحاب المطر ﴿فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم﴾[1] أي أخرج بالمطر من أنواع الزروع والثمار رزقاً للعباد يأكلونه ﴿وسخّر لكم الفُلْك لتجري في البحر بأمره﴾ أي ذلّل السفن الكبيرة لتسير بمشيئته ، تركبونها وتحملون فيها أمتعتكم من بلد إلى بلد ﴿وسخَّر لكم الأنهار﴾ أي الأنهار العذبة لتشربوا منها وتسقوا وتزرعوا ﴿وسخَّر لكم الشمسَ والقمرَ دائبين﴾ أي وذلّل لكم الشمس والقمر يجريان بانتظام لا يفتران ، لصلاح أنفسكم ومعاشكم ﴿وسخَّر لكم الليل والنهار﴾ أي لتسكنوا في الليل ، ولتبتغوا من فضله بالنهار ، هذا لمنامكم وذاك لمعاشكم ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾ أي أعطاكم كل ما تحتاجون إليه ، وما يصلح أحوالكم ومعاشكم ، مما سألتموه بلسان الحال أو المقال ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحْصُوها﴾ أي وإن تعدُّوا نِعَم اللهِ عليكم لا تطيقوا حصرها وعدَّها ، فهي أكبر وأكثر من أن يحصيها عدد ﴿إن الإنسان لظلومٌ كفار﴾ الإنسان اسم جنس أي إن الإنسان لمبالغٌ في الظلم والجحود ، ظالمٌ لنفسه بتعديه حدود الله ، جحودٌ لنعم الله ، وقيل : ظلوم في الشدة يشكو ويجزع ، كفّار في النعمة يجمع ويمنع .

البَلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ التشبيه التمثيلي ﴿أعمالهُم كرمادٍ اشتدت به الريح﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد .

٢ ـ التشبيه المرسل المجمل ﴿ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة﴾ ومثلها ﴿ومثل كلمةٍ طيبة﴾ .

---

(١) يقول سيد قطب رحمه الله : « وهنا يُفتح كتاب الكون على مصراعيه ، فتنطق سطوره الهائلة بنعم الله التي لا تُحصى : السموات والأرضُ ، الشمس والقمر ، الليل والنهار ، البحار والأنهار ، الأمطار والثمار ، هذه الصفحات الكونية المعروضة على الأنظار ، ولكنَّ البشر لا ينظرون ولا يقرءون ، ولا يتدبرون ولا يشكرون ، إن الإنسان لظلوم كفار ، يجعل للّهِ أنداداً وهو الخالق الرازق مسخر الكون لهذا الإنسان ، والمشهد الهائل المعروض هنا لأيادي الله وآلائه ، تسير فيه خطوط الريشة المبدعة : أفكل هذا الكون الهائل مسخر لذلك المخلوق الصغير؟ السموات ينزل منها الماء ، والأرض تتلقاه ثم تخرج به الثمار ، والبحر تجري فيه الفُلْك بأمر الله مسخرة ، والأنهار تجري بالحياة والأرزاق في مصلحة الإنسان ، والشمس والقمر دائبان لا يفتران ، والليل والنهار يتعاقبان ، أفكل ذلك للإنسان ثم لا يشكر ولا يذكر ! ؟ » الظلال ١٣/ ١٦٦ .

٣ ـ الطباق في ﴿أصلها . . وفرعها﴾ وفي ﴿طيبة . . وخبيثة﴾ وفي ﴿يُذهب . . ويأتي﴾ وفي ﴿سراً . . وعلانية﴾ وفي ﴿جزعنا . . وصبرنا﴾ .

٤ ـ طباق السلب في ﴿فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾ .

٥ ـ التعجيب ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً﴾ .

٦ ـ التهديد والوعيد ﴿قل تمتعوا﴾ .

٧ ـ صيغة المبالغة ﴿ظلومٌ كفار﴾ لأن فعول وفعّال من صيغ المبالغة .

٨ ـ السجع المرصَّع دون تكلف مثل ﴿البوار . . القرار . . النار﴾ الخ .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا البلد. . إلى. . وليذكر أولوا الألباب﴾ من آية (٣٥) إلى آية (٥٢) نهاية السورة الكريمة .

المنَاسَبَة : لمّا ذكر تعالى بالدلائل الحسية والسمعية انفراده بالألوهية وأن لا معبود إلا الله ، ذكر هنا أبا الأنبياء « إبراهيم » عليه السلام حصن التوحيد ، ومبالغته في هدم الشرك والأوثان ، ثم ذكر موقف الظالمين يوم الدين ، وما يعتريهم من الذل والهوان في يوم الحشر الأكبر .

اللغَة : ﴿اجنبني﴾ أبعدني ونحّني يقال : جَنب وجنَّب وأصله جعل الشيء في جانب آخر ﴿تَشْخص﴾ شخَص البصر : إذا بقيت العين مفتوحة لا تغمض من هول ما ترى ﴿مهطعين﴾ مسرعين يقال أهطع إهطاعاً إذا أسرع قال الشاعر :

بدجلةَ دارهُم ولقد أراهم　　　بدجلةَ مُهْطعينَ إلى السَّماع[1]

﴿مقنعي﴾ المقنعُ : الرافع رأسه المقبل ببصره على ما بين يديه ﴿هواء﴾ خالية ﴿مقرنين﴾ مشدودين ﴿الأصفاد﴾ الأغلال والقيود واحدها صفد ﴿سرابيلهم﴾ جمع سربال وهو القميص والثوب ﴿تغشى﴾ تجلّل وتغطّي .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى

التفسِير : ﴿وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا البلد آمناً﴾ أي اجعل مكة بلد أمنٍ يأمن أهله وساكنوه ﴿واجنبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام﴾ أي احمني يا رب وجنبني وأولادي عبادة الأصنام ، والغرضُ تثبيتُه على ملة التوحيد والإسلام ﴿ربّ إنهنَّ أضللْن كثيراً من الناس﴾ أي يا ربّ إنَّ هذه الأصنام أضلّت كثيراً من الخلق عن الهداية والإيمان ﴿فمن تبعني فإنه مني﴾ أي فمن أطاعني وتبعني على التوحيد فإنه

(١) القرطبي ٩/ ٣٧٦ .

زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ

من أهل ديني ﴿ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ أي ومن خالف أمري فإنك يا رب غفار الذنوب رحيمٌ بالعباد ﴿ربَّنا إني أسكنتُ من ذريتي﴾ كرّر النداء رغبةً في الإجابة وإظهاراً للتذلل والإلتجاء إلى الله تعالى أي يا ربنا إني أسكنت من أهلي ـ ولدي إسماعيل وزوجي هاجر ـ[1] ﴿بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرم﴾ أي بوادٍ ليس فيه زرع في جوار بيتك المحرم ، وهو وادي مكة شرفها الله تعالى ﴿ربَّنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدةً من الناس تهْوي إليهم﴾ أي يا ربنا لكي يعبدوك ويقيموا الصلاة أسكنتهم بهذا الوادي فاجعل قلوبَ الناس ِ تحنُّ وتسرع إليهم شوقاً قال ابن عباس : لو قال (أفئدة الناس) لازدحمت عليه فارس والروم والناسُ كلهم ، ولكنْ قال ﴿من الناس﴾ فهم المسلمون[2] ﴿وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ أي وارزقهم في ذلك الوادي القفر من أنواع الثمار ليشكروك على جزيل نِعمك، وقد استجاب الله دعاءه فجعل مكة حرماً آمناً يجبى إليها ثمرات كل شيءٍ رزقاً من عند الله ﴿ربنا إنك تعلم ما نُخفي وما نعلن﴾ أي يا ربنا إنك العالم لما في القلوب تعلم ما نسرٌّ وما نظهر ﴿وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾ أي لا يغيب عليه تعالى شيء في الكائنات ، سواء منها ما كان في الأرض أو في السماء ، فكيف تخفى عليه وهو خالقها وموجدها ؟ ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكِبر إسماعيل وإسحق﴾ أي الحمد لله الذي رزقني على كبر سني وشيخوختي إسماعيل وإسحاق قال ابن عباس : ولد له إسماعيل وهو ابن تسعٍ وتسعين ، وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة[3] ﴿إن ربي لسميع الدعاء﴾ أي مجيبٌ لدعاء من دعاه ﴿ربِّ اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي﴾ هذه هي الدعوة السادسة من دعوات الخليل عليه السلام أي يا رب اجعلني ممن حافظ على الصلاة واجعل من ذريتي من يقيمها أيضاً ، وهذه خير دعوةٍ يدعوها المؤمن لأولاده فلا أحبَّ له من أن يكون مقيماً للصلاة هو وذريته لأنها عماد الدين ﴿ربنا وتقبل دعاء﴾ أي تقبَّلْ واستجبْ دعائي فيما دعوتك به ﴿ربنا اغفر لي ولوالديَّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾ هذه هي الدعوة السابعة وبها ختم إبراهيم دعاءه الضارع الخاشع بالاستغفار له ولوالديه ولجميع المؤمنين ، يوم يقوم الناس لرب العالمين قال المفسرون : استغفر لوالديه قبل أن يتبيَّن له أنَّ أباه عدوٌ للّه قال القشيري : ولا يبعد أن تكون أمه

(١) روي أن هاجر لما ولدت إسماعيل غارت منها « سارة » زوجة إبراهيم فأمره الله تعالى أن يحمل ولده إسماعيل مع أمه من الشام إلى مكة فوضعهما عند دوحة مكان زمزم كما في الحديث . (٢) القرطبي ٩/ ٣٧٣ . (٣) زاد المسير ٤/ ٣٦٨ .

﴿ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾

مسلمة لأن الله ذكر عذره في استغفاره لأبيه دون أمه . .[١] وينتقل السياق إلى مشاهد القيامة وما فيها من الأهوال حين تتزلزل القلوب والأقدام ﴿ولا تحسبنَّ الله غافلاً عمّا يعمل الظالمون﴾ أي لا تظننَّ يا محمد أنَّ الله ساهٍ عن أفعال الظلمة ، فإن سنة الله إمهال العصاة ثم يأخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر ، قال ميمون بن مِهْران : هذا وعيدٌ للظالم ، وتعزيةٌ للمظلوم[٢] ﴿إنما يؤخرهم ليومٍ تشْخص فيه الأبْصار﴾ أي إنما يؤ خرهم ليوم ٍ رهيب عصيب ، تَشْخص فيه الأبصار من الفزع والهَلع ، فتظلُّ مفتوحة مبهوتة لا تطرف ولا تتحرك قال أبو السعود : تبقى أبصارهم مفتوحة لا تتحرك أجفانهم من هول ما يرونه[٣] ﴿مهطعين مقنعي رءوسهم﴾ أي مسرعين لا يلتفتون إلى شيء رافعين رءوسهم مع إدامة النظر قال الحسن : وجوه الناس يومئذٍ إلى السماء لا ينظر أحدٌ إلى أحد[٤] ﴿لا يرتدّ إليهم طرفُهم﴾ أي لا يطرفون بعيونهم من الخوف والجزع ﴿وأفئدتُهم هواء﴾ أي قلوبهم خالية من العقل لشدة الفزع ﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب﴾ أي خوّف يا محمد الكفار من هول يوم القيامة حين يأتيهم العذاب الشديد ﴿فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجلٍ قريب﴾ أي فيتوجه الظالمون يومئذٍ الى الله بالرجاء يقولون يا ربنا أمهلنا إلى زمنٍ قريب لنستدرك ما فات ﴿نجبْ دعوتك ونتَّبع الرسل﴾ أي نجب دعوتك لنا إلى الايمان ونتّبع رسلك فيا جاءونا به ﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبلُ ما لكم من زوال﴾ أي يقال لهم توبيخاً وتبكيتاً : ألم تحلفوا أنكم باقون في الدنيا لا تنتقلون إلى دار أخرى ؟ والمراد إنكارهم للبعث والنشور ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾ أي سكنتم في ديار الظالمين بعد أن أهلكناهم ، فهلاّ اعتبرتم بمساكنهم ؟ ﴿وتبيَّن لكم كيف فعلنا بهم﴾ أي تبيَّن لكم بالإخبار والمشاهدة كيف أهلكناهم وانتقمنا منهم ﴿وضربنا لكم الأمثال﴾ أي بينا لكم الأمثال في الدنيا فلم تعتبروا ﴿وقد مكروا مكرهم﴾ أي مكر المشركون بالرسول وبالمؤ منين حين أرادوا قتله ﴿وعند الله مكرهم﴾ أي وعند الله جزاء هذا المكر فإنه محيط بهم وبمكرهم ﴿وإن كان مكرهم لتَزُول منه الجبال﴾ أي وإن كان مكرهم من القوة والتأثير حتى ليؤ دي إلى زوال الجبال ولكنَّ الله عصَم ووقى منه ﴿فلا تحسبنَّ

(١) القرطبي ٩/ ٣٧٥ . (٢) الطبري ١٣/ ٢٣٦ . (٣) أبو السعود ٣/ ١٣٣ . (٤) القرطبي ٩/ ٣٧٧ .

مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

اللـهَ مُخْلـف وعـدِهِ رسُله﴾ أي لا تظننَّ أيها المخاطب أن الله يخلف رسله ما وعدهم به من النصر وأخذ الظالمين المكذبين ﴿إن اللـه عزيـزٌ ذو انتقـام﴾ أي إنه تعالى غالبٌ لا يعجزه شيء منتقم ممن عصاه ﴿يـوم تبدَّل الأرضُ غـير الأرض والسمـوات﴾ أي ينتقم من أعدائه يوم الجزاء ، يوم تتبدل هذه الأرض أرضاً أخرى ، وتتبدل السماوات سموات أخرى قال ابن مسعود : تُبدَّل الأرضُ بأرضٍ كالفضة نقية ، لم يسفك فيها دم ، ولم يعمل عليها خطيئة[1] ﴿وبرزوا للّـهِ الواحـدِ القهـار﴾ أي خرجت الخلائق جميعها من قبورهم ، ومثلوا أمام أحكم الحاكمين ، لا يسترهم ساتر ، ولا يقيهم واقٍ ، ليسوا في دورهم ولا في قبورهـم ، وإنما هم في أرض المحشر أمام الواحـد القهـار ﴿وتـرى المجرميـن يومئذٍ مُقرنـين فـي الأصفـاد﴾ أي وفي ذلك اليوم الرهيب تبصر المجرمين مشدودين مع شياطينهـم بالقيود والأغـلال قال الطبري : أي مقرَّنة أيديهم وأرجُلهم إلى رقابهم بالأصفاد وهي الأغـلال والسلاسـل ﴿سرابيلهـم مـن قَطِـران﴾ أي ثيابهم التي يلبسونها من قطران وهي مادة يسرع فيها اشتعال النار ، تُطلى بها الإبل الجربى فيحرق الجربَ بحرّه وحدته ، وهو أسود اللون منتنُ الريح ﴿وتَغْشى وجوههم النـارُ﴾ أي تعلوها وتحيط بها النار ، جزاء المكر والاستكبار ﴿ليجزيَ اللـه كل نفـسٍ ما كسبـت﴾ أي برزوا يوم القيامة لأحكم الحاكمين ليجازيهم الله على أعمالهم ،المحسنَ بإحسانه ، والمسيءَ بإساءته ﴿إنَّ اللـه سريـع الحسـاب﴾ أي لا يشغله شأن عن شأن، يحاسب جميع الخلق في أعجل ما يكون من الزمان ، في مقدار نصف نهار من أيام الـدنيا كما ورد بـه الأثـر ﴿هـذا بلاغٌ للنـاس﴾ أى هذا القـرآن بلاغٌ لجميع الخلـق من إنس وجان ، أُنزل لتبليغهم بما فيه من فنون العبر والعظات ﴿ولينْـذَروا بـه﴾ أي لكي يُنصحوا به ويخوّفوا من عقاب الله ﴿وليعلمـوا أنمـا هـو إله واحـد﴾ أي ولكي يتحققوا بما فيه من الدلائل الواضحة والبراهين القاطعة ، على أنه تعالى واحد أحدٌ ، فردٌ صمد ﴿وليذكّر أولوا الألباب﴾ أي وليتعظ بهذا القرآن أصحاب العقول السليمة ، وهم السعداء أهل النهى والصلاح .

---

(١) الطبري ١٣/ ٢٥٠ وعن ابن عباس هي تلك الأرض وإنما تغيرَّ صفاتها فتسوى الجبال وتقلع الاشجار وتنشق الأنهار ، وتتناثر الكواكب وأنشد :

وما النـاس بالنـاس الـذيـن عهدتهم ... ومـا الـدارُ بالـدار التي كنـت تعلم

أبو السعود ٣/ ١٣٧ .

البـــلاغـــة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ التشبيه البليغ ﴿وأفئدتهم هواء﴾ حذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه أي قلوبهم كالهواء لفراغها من جميع الأشياء فأصبح التشبيه بليغاً .

٢ ـ الإيجاز بالحـــذف ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات﴾ حذف منه والسموات تبدل غير السموات لدلالة ما سبق .

٣ ـ الطباق في ﴿تبعني . . وعصاني﴾ وفي ﴿نخفي . . ونعلن﴾ وفي ﴿الأرض . . والسماء﴾ .

٤ ـ جناس الاشتقاق في ﴿مكروا مكرهم﴾ .

٥ ـ العدول عن المضارع إلى الماضي ﴿وبرزوا﴾ بدل ﴿ويبرزون﴾ للدلالة على تحقق الوقوع مثل ﴿أتـــى أمر الله﴾ فكأنه حدث ووقع فأخبر عنه بصيغة الماضي .

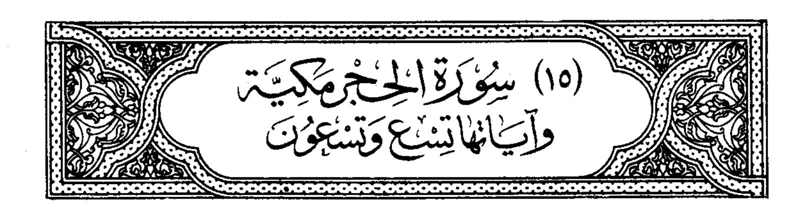
٦ ـ الاستعارة في ﴿فاجْعَلْ أفئدةً من الناس تهوي إليهم﴾ قال الشريف الرضي : وهذه من محاسن الاستعارة وحقيقةُ الهُوي النزول من علوٍ إلى انخفاض كالهبوط والمراد تسرع إليهم شوقاً وتطير إليهم حباً ، ولو قال «تحنُّ إليهـم» لم يكن فيه من الفائدة ما في التعبير بـ ﴿تهوي إليهم﴾ لأن الحنين قد يكون من المقيم بالمكان[1] .

لطيفـــة : حكمة تعريف البلد هنا ﴿اجعل هذا البلد آمناً﴾ وتنكيره في البقرة ﴿اجعل هذا بلداً آمناً﴾ أنه تكرر الدعاء من الخليل ، ففي البقرة كان قبل بنائها فطلب من الله ان تجعل بلداً ، وأن تكون آمناً ، وهنا كان بعد بنائها فطلب من الله أن تكون آمناً أي بلد أمنٍ واستقرار[2]،وهذا هو السرُّ في التفريق بين الآيتين ، اللهم ارزقنا فهم أسرار كتابك العظيم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة إبراهيم »

* * *

(١) تلخيص البيان ١٨٤ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ٢٨٦ .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة الحِجْر من السور المكية ، التي تستهدف المقاصد الأساسية للعقيدة الإسلامية « الوحدانية ، النبـوة ، البعث والجزاء » ومحور السورة يدور حول مصارع الطغاة والمكذبين لرسل الله في شتَّى الأزمان والعصور ، ولهذا ابتدأت السورة بالإنذار والتهديد ، ملفَّعاً بظلٍ من التهويل والوعيد ﴿ربما يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين * ذرهم يأكلواْ ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون﴾ .

* عرضت السورة لدعوة الأنبياء ، وبينت موقف أهل الشقاوة والضلالة من الرسل الكرام ، فما من نبيٍّ إلا سخر منه قومه الضالون ، من لدن بعثة شيخ الأنبياء «نوح» عليه السـلام ، إلى بعثة خاتـم المرسلين ، وقد بينت السورة أن هذه سنة المكذبين ، في كل زمان وحين ﴿ولقد أرسلنا من قبلك في شيَعِ الأولين * وما يأتيهم من رسولٍ إلا كانوا به يستهزئون . . ﴾ الآيات .

* وعرضت السورة إلى الآيات الباهرات ، المنبثة في صفحة هذا الكون العجيب ، الذي ينطق بآثار اليد المبدعة ، ويشهد بجلال عظمة الخالق الكبير ، بدءاً بمشهـد السماء ، فمشهـد الأرض ، فمشهـد الرياح اللواقح ، فمشهد الحياة والموت ، فمشهد الحشر والنشر ، وكلُّها ناطقة بعظمة اللـه وجلالـه ، وشاهدة بوحدانيته وقدرته ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين * وحفظناها من كل شيطان رجيم . . ﴾ الآيات .

* وعرضت السورة إلى قصة « البشرية الكبرى » قصة الهدى والضلال ممثلـة في خلـق آدم عليه السلام ، وعدوه اللدود إبليس اللعـين ، ومـا جرى من سجـود الملائـكة لآدم ، واستكبـار إبليس عن السجود ، واعتراضه على أمر الله وتوعده لذرية آدم ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالقٌ بشراً من صلصالٍ من حمأٍ مسنون . . ﴾ الآيات .

* ومن قصة آدم تنتقل السورة إلى قصص بعض الأنبياء ، تسليةً لرسول الله عليه السلام ، وتثبيتاً لقلبه الشريف لئلا يتسرب إليـه اليأس والقنوط ، فتذكر قصة لوط ، وشعيب ، وصالح عليهم السلام ، وما حل بأقوامهم المكذبين .

* وتختم السورة الكريمة بتذكير الرسول ﷺ بالنعمة العظمى عليه ، بإنزال هذا الكتاب المجيد المعجز ، وتأمره بالصبر والسلوان على ما يلقاه من أذى المشركين ، وتبشره بقرب النصر له وللمؤمنين ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم . .﴾ إلى آخر السورة الكريمة .

التسمية : سميت السورة الكريمة « سورة الحِجر » لأن الله تعالى ذكر ما حدث لقوم صالح ، وهم قبيلة ثمود ـ وديارهم في الحِجر بين المدينة والشام ـ فقد كانوا أشداء ينحتون الجبال ليسكنوها ، وكأنهم مخلدون في هذه الحياة ، لا يعتريهم موت ولا فناء ، فبينما هم آمنون مطمئنون جاءتهم صيحة العذاب في وقت الصباح ﴿فأخذتهم الصيحة مصبحين ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ .

* * *

اللغة : ﴿رُبَّما﴾ ربَّ للتقليل و ﴿ما﴾ نكره موصوفة أي رب شيء ﴿لوما﴾ للتحضيض كلولا وهلاّ ﴿شيَع﴾ جمع شيعة وهي الفرقة والطائفة من الناس ﴿نسلكه﴾ ندخله ، والسَّلْك : إدخال الشيء في الشيء ﴿يعرجون﴾ عرَج : صعد ، والمعارج المصاعد ﴿سُكِّرت﴾ سُدَّت ومنعت ﴿بروجاً﴾ البروج : منازل الكواكب السيارة وأصله الظهور ومنه تبرج المرأة وهو إظهار زينتها ﴿لواقح﴾ جمع لاقح وهي الريح التي تحمل المطر ، والتي لا تأتي بخير تسمى الريح العقيم ، أو ملقّحة للشجر أي تحمل اللِّقاح له ﴿صلصال﴾ طين يابس يسمع له صلصلة إذا يبس ﴿حمأ﴾ الحمأ : الطين الأسود ﴿مسنون﴾ منتن متغير قال الفراء : هو المتغيّر وأصله من سننتُ الحجر إذا حككته به ﴿السموم﴾ الريح الحارة القاتلة .

سَبَبُ النّزول : عن ابن عباس قال : كانت امرأة تصلي خلف رسول الله ﷺ حسناء من أحسن الناس ، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها ، ويتأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر فإذا ركع نظر من تحت إبطه فأنزل الله ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾[1] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ

التفسير : ﴿الر﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن أي هذا الكتاب العجيب المعجز كلام الله تعالى وهو منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية الألف واللام والراء ﴿تلك آيات الكتاب﴾ أي هذه آيات الكتاب ، الكامل في الفصاحة والبيان ، المتعالي عن الطاقة البشرية ، ﴿وقرآنٍ مبين﴾ أي قرآنٍ عظيم الشأن ، واضحٍ بيّن ، لا خلل فيه ولا اضطراب ﴿رُبَّما يود الذين كفروا﴾ أي ربما تمنى الكفار ﴿لو كانوا مسلمين﴾ أي لو كانوا في الدنيا مسلمين ، وذلك عند معاينة أهوال الآخرة ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا﴾

(١) أسباب النزول ١٥٨ والقرطبي ١/ ١٩.

﴿وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَلَوْ فَتَحْنَا﴾

أي دَعْهم يا محمد يأكلوا كما تأكل البهائم ، ويستمتعوا بدنياهم الفانية ﴿ويلههم الأمل﴾ أي يشغلهم الأمل بطول الأجل،عن التفكر فيما ينجيهم من عذاب الله ﴿فسوف يعلمون﴾ أي عاقبة أمرهم إذا رأوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا ، وهو وعيد وتهديد ﴿وما أهلكنا من قرية﴾ أي وما أهلكنا أهل قرية من القرى الظالمة التي كذبت رسل الله ﴿إلا ولها كتاب معلوم﴾ أي إلا لها أجل محدود لإهلاكها ﴿ما تسبقُ من أمةٍ أجلَها﴾ أي لا يتقدم هلاك أمةٍ قبل مجيء أوانه ﴿وما يستأخرون﴾ أي ولا يتأخر عنهم قال ابن كثير : وهذا تنبيهٌ لأهل مكة وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من العناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك[1] ﴿وقالوا يا أيها الذي نُزّل عليه الذكر﴾ قال كفار قريش لمحمد ﷺ على جهة الاستهزاء والتهكم : يا من تزعم وتدعي أن القرآن نزل عليك ﴿إنك لمجنون﴾ أي إنك حقاً لمجنون ، أكّدوا الخبر بإنَّ واللام مبالغة في الاستخفاف والاستهزاء بمقامه الشريف عليه السلام ﴿لو ما تأتينا بالملائكة إن كنتَ من الصادقين﴾ أي هلاّ جئتنا بالملائكة لتشهد لك بالرسالة إن كنت صادقاً في دعواك أنك رسول الله !! قال تعالى رداً عليهم ﴿ما ننـزّل الملائكة إلا بالحق﴾ أي ما ننزّل ملائكتنا إلا بالعذاب لمن أردنا إهلاكه ﴿وما كانوا إذاً منظرين﴾ أي وفي هذه الحالة وعندئذٍ لا إمهال ولا تأجيل ، والغرض أن عادة الله تعالى قد جرت في خلقه أنه لا ينزل الملائكة إلا لمن يريد إهلاكهم بعذاب الاستئصال ، وهو لا يريد ذلك مع أمته ﷺ لعلمه تعالى أنه يخرج من أصلابهم من يعبد الله ، ففيه ردٌ عليهم فيما اقترحوا ﴿إنّا نحن نزّلنا الذكر﴾ أي نحن بعظمة شأننا نزلنا عليك القرآن يا محمد ﴿وإنّا له لحافظون﴾ أي ونحن الحافظون لهذا القرآن ، نصونه عن الزيادة والنقصان ، والتبديل والتغيير ، قال المفسرون : تكفَّل الله بحفظ هذا القرآن ، فلم يقدر أحد على الزيادة فيه ولا النقصان ، ولا على التبديل والتغيير كما جرى في غيره من الكتب فإن حفظها موكولٌ إلى أهلها لقوله تعالى ﴿بما استحفظوا من كتاب الله﴾ وانظر الفرق بين هذه الآية ﴿وإنّا له لحافظون﴾ حيث ضمن حفظه وبين الآية السابقة حيث وكل حفظه إليهم فبدّلوا وغيّروا ﴿ولقد أرسلنا من قبلك في شيَع الأولين﴾ أي ولقد أرسلنا من قبلك يا محمد رسلاً في طوائف وفرق الأمم الأولين ﴿وما يأتيهم من رسولٍ إلا كانوا به يستهزءون﴾ أي وما جاءهم رسولٌ إلاّ سخروا منه واستهزءوا به ، وهذا تسلية للنبي ﷺ والمعنى كما فعل

(١) المختصر ٢/٣٠٨ .

عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴿١٩﴾ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ

بك هؤلاء المشركون فكذلك فُعل بمن قبلك من الرسل فلا تحزن ﴿كذلك نسلكه في قلوب المجرمين﴾ أي كذلك نسلك الباطل والضلال والاستهزاء بأنبياء الله في قلوب المجرمين ، كما سلكناه وأدخلناه في قلوب أولئك المستهزئين ﴿لا يؤمنون به وقد خَلَتْ سنةُ الأولين﴾ أي لا يؤمنون بهذا القرآن وقد مضت سنة الله بإهلاك الكفار ، فما أقرب هؤلاء من الهلاك والدمار ؟ ثم بيَّن تعالى أن كفار مكة لا ينقصهم توافر براهين الإِيمان فهم معاندون مكابرون ، وفي ضلالهم وعنادهم سائرون فقال ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلّوا فيه يعرجون﴾ أي لو فرض أننا أصعدناهم إلى السماء ، وفتحنا لهم باباً من أبوابها ، فظلوا يصعدون فيه حتى شاهدوا الملائكة والملكوت ﴿لقالوا إنما سُكِّرت أبصارنا﴾ أي لقالوا - لفرطِ مكابرتهم وعنادهم - إنما سُدَّت أبصارنا وخُدعت بهذا الارتقاء والصعود ﴿بل نحن قومٌ مسحورون﴾ أي سحرنا محمد وخيَّل إلينا ذلك وما هو إلا سحر مبين قال الرازي : لو ظل المشركون يصعدون في تلك المعارج ، وينظرون إلى ملكوت الله تعالى وقدرته وسلطانه ، وإلى عبادة الملائكة الذين هم من خشيته مشفقون لشكّوا في تلك الرؤية ، وبقوا مصرين على الكفر والعناد كما جحدوا سائر المعجزات من انشقاق القمر ، والقرآن المعجز الذي لا يستطيع الجن والإِنس أن يأتوا بمثله[1] ، ثم ذكر تعالى البراهين الدالة على وحدانيته وقدرته فقال ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً﴾ أي جعلنا في السماء منازل تسير فيها الأفلاك والكواكب ﴿وزيناها للناظرين﴾ أي زيناها بالنجوم ليُسرَّ الناظر إليها ﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾ أي حفظنا السماء الدنيا من كل شيطان لعين مطرود من رحمة الله ﴿إلا من استرق السمعَ فأتبعه شهابٌ مبين﴾ أي إلا من اختلس شيئاً من أخبار السماء فأدركه ولحقه شهاب ثاقب فأحرقه ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي﴾ أي بسطناها ووسعناها وجعلنا فيها جبالاً ثوابت[2] ﴿وأنبتنا فيها من كل شيء موزون﴾ أي أنبتنا في الأرض من الزروع والثمار من كل شيءٍ موزونٍ بميزان الحكمة ، بدقةٍ وإحكام وتقدير ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ أي ما تعيشون به من المطاعم والمشارب ﴿ومن لستم له برازقين﴾ أي وجعلنا لكم من العيال والمماليك والأنعام من لستم له برازقين ، لأننا نخلق طعامهم وشرابهم لا أنتم ﴿وإنْ من

(١) الفخر الرازي ١٩/١٦٧ (٢) قال الفخر الرازي : إن الأرض كرة في غاية العظمة ، والكرة العظيمة تكون كل قطعة صغيرة منها إذا نُظر إليها كالسطح المستوي فلا إشكال في بسطها مع أنها كرة والدليل قوله تعالى ﴿والجبال أوتاداً﴾ سماها أوتاداً مع أنه قد يحصل عليها سطوح عظيمة مستوية فكذا هنا . الرازي ١٩/ ١٧٠ .

مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا

شيءٍ إلاَّ عندنا خزائنه﴾ أي ما من شيء من أرزاق الخلق والعباد ومنافعهم إلا عندنا خزائنه ومستودعاته **﴿وما ننزّله إلا بقدر معلوم﴾** أي ولكن لا ننزله إلا على حسب حاجة الخلق إليه ، وعلى حسب المصالح ، كما نشاء ونريد **﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾** أي تلقِّح السحاب فيدر ماءً ، وتلقّح الشجر فيتفتّح عن أوراقه وأكمامه ، فالريح كالفحل للسحاب والشجر **﴿فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه﴾** أي فأنزلنا من السحاب ماءً عذباً ، جعلناه لسقياكم ولشرب أرضكم ومواشيكم **﴿وما أنتم له بخازنين﴾** أي لستم بقادرين على خزنه بل نحن بقدرتنا نحفظه لكم في العيون والآبار والأنهار ، ولو شئنا لجعلناه غائراً في الأرض فهلكتم عطشاً كقوله ﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماءٍ معين﴾؟ **﴿وإنّا لنحن نحيي ونميتُ ونحن الوارثون﴾** أي الحياة والموت بيدنا ونحن الباقون بعد فناء الخلق ، نرث الأرض ومن عليها وإلينا يُرجعون **﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾** أي أحطنا علماً بالخلق أجمعين ، الأموات منهم والأحياء قال ابن عباس : المستقدمون كل من هلك من لدن آدم عليه السلام والمستأخرون من هو حي ومن سيأتي إلى يوم القيامة [١] وقال مجاهد : المستقدمون : الأمم السابقة ، والمستأخرون أمة محمد ﷺ ، والغرضُ أنه تعالى محيطٌ علمه بمن تقدم وبمن تأخر ، لا يخفى عليه شيء من أحوال العباد ، وهو بيان لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته **﴿وإنَّ ربكَ هو يحشرُهم﴾** أي وإن ربك يا محمد هو يجمعهم للحساب والجزاء **﴿إنه حكيمٌ عليمٌ﴾** أي حكيمٌ في صنعه عليمٌ بخلقه ، ولما ذكر تعالى الموت والفناء ، والبعث والجزاء ، نبّههم إلى مبدأ أصلهم وتكوينهم من نفسٍ واحدة ، ليشير إلى أن القادر على الإحياء قادر على الإفناء والإعادة ، وذكّرهم بعداوة إبليس لأبيهم آدم ليحذروه فقال : **﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال﴾** أي خلقنا آدم من طين يابسٍ يسمع له صَلْصلة أي صوت إذا نُقر **﴿من حمأٍ مسنونٍ﴾** أي من طين أسود متغيّر **﴿والجانَّ خلقناه من قبلُ من نار السموم﴾** أي ومن قبل آدم خلقنا الجانَّ - أي الشياطين ورئيسهم إبليس - من نار السموم وهي النار الحارة الشديدة التي تنفذ في المسامّ فتقتل بحرها قال المفسرون : عني بالجانِّ هنا «إبليس» أبا الجنّ لأن منه تناسلت الجن فهو أصل لها كما أن آدم أصل للإنس **﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصالٍ من حمأٍ مسنون﴾** أي اذكر يا محمد وقت قول ربك للملائكة إني خالق بشراً من

(١) هذا اختيار الطبري ، وقد فسرت الآية بثمان تأويلات ذكرها في البحر ثم قال : الأولى حمل هذه الأقوال على التمثيل لا على الحصر البحر ٥/ ٤٥١ .

سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ

طين يابسٍ ، أسود متغيّر قال ابن كثير : فيه تنويهٌ بذكر آدم في الملائكة قبل خلقه له ، وتشريفه إيّاه بأمر الملائكة بالسجود له ، وامتناع إبليس عدوه عن السجود له حسداً وكفراً[1] ﴿**فإذا سويته**﴾ أي سويت خَلْقه وصورته ، وجعلته إنساناً كاملاً معتدل الأعضاء ﴿**ونفختُ فيه من روحي**﴾ أي أفضتُ عليه من الروح التي هي خلقٌ من خلقي فصار بشراً حياً ﴿**فقعوا له ساجدين**﴾ أي خروا له ساجدين ، سجود تحيةٍ وتكريم لا سجود عبادة ، قال المفسرون : وإنما أضاف الروح إليه تعالى على سبيل التشريف والتكريم كقوله « بيت الله ، ناقة الله ! شهر الله » وهي من إضافة الملك إلى المالك ، والصنعة إلى الصانع ﴿**فسجد الملائكة كلهم أجمعون**﴾ أي سجد لآدم جميع الملائكة لم يمتنع منهم أحد ﴿**إلا إبليسَ أبى أن يكون مع الساجدين**﴾ الاستثناء منقطع لأن إبليس خلقٌ آخر غير الملائكة[2] ، فهو من نار وهم من نور ، وهم لا يعصون الله ما أمرهم وهو أبى وعصى ، فليس هو من الملائكة بيقين ، ولكنه كان بين صفوفهم فتوجه إليه الخطاب والمعنى : سجد جميع الملائكة لكنْ إبليس امتنع من السجود بعد أن صدر له الأمر الإلهي ﴿**قال يا إبليس ما لكَ ألاّ تكونَ مع الساجدين**﴾ أي ما المانع لك من السجود ؟ وأيُّ داعٍ دعا بك إلى الإباء والامتناع ؟ وهو استفهام تبكيتٍ وتوبيخ ﴿**قال لم أكنْ لأسجد لبشرٍ خلقته من صلصالٍ من حمأٍ مسنون**﴾ أي قال إبليس : لا ينبغي ولا يليق لمثلي أن يسجد لآدم وهو مخلوق من طينٍ يابسٍ متغير ، فهو من طينٍ وأنا من نار فكيف يسجد العظيم للحقير ، والفاضل للمفضول ؟ رأى عدوُّ الله نفسه أكبر من أن يسجد لآدم ، ومنعه كبره وحسده عن امتثال أمر الله ﴿**قال فاخرج منها فإنك رجيم**﴾ أي اخرجْ من السموات فإنك مطرودٌ من رحمتي ﴿**وإنَّ عليكَ اللعنةَ إلى يوم الدين**﴾ أي وإن عليك لعنتي إلى يوم الجزاء والعقوبة ﴿**قال ربِّ فأَنْظرني إلى يوم يُبْعثون**﴾ أي قال اللعين : أمهلني وأخرني إلى يوم البعث ﴿**قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقتِ المعلوم**﴾ أي قال له الله : إنك من المؤجلين إلى حين موتِ الخلائق قال القرطبي : أراد بسؤاله الإنظار ـ إلى يوم يبعثون ـ ألا يموت ، لأن البعث لا موتَ بعده ، فأجابه المولى بالإنظار إلى يوم الوقت المعلوم وهو يوم موت الخلائق ، فيموت إبليس ثم يُبعث[3] ﴿**قال ربِّ بما أغويتني**﴾ أي بسبب إغوائك وإضلالك لي ﴿**لأزيننَّ لهم في الأرض**﴾ أي لأزيننَّ لذرية آدم المعاصي

(١) المختصر ٢/ ٣١١ . (٢) قد حققنا ذلك في سورة البقرة والأعراف ، وتقدم قول الحسن البصري : « والله ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين » وانظر كتابنا « النبوة والأنبياء » ص ١٢٨ ففيه البيان الشافي . (٣) القرطبي ١٠/ ٢٧ .

﴿رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

والآثام ﴿ولأغوينهم أجمعين﴾ أي ولأضلَّنهم عن طريق الهدى أجمعين ﴿إلا عبادكَ منهم المخلَصين﴾ أي إلا من استخلصته من عبادك لطاعتك ومرضاتك فلا قدرة لي على إغوائه ﴿قال هذا صراطٌ عليَّ مستقيم﴾ أي قال تعالى : هذا طريق مستقيم واضح ، وسنة أزليةٌ لا تتخلف وهي ﴿إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ أي إن عبادي المؤمنين لا قوة لك على إضلالهم ﴿إلا مَن اتَّبعك من الغاوين﴾ استثناء منقطع لأن الغاوين ليسوا من عباد الله المخلصين والمعنى لكنْ من غوى وضل من الكافرين فلك عليهم تسلط ، لأن الشيطان إنما يتسلط على الشاردين عن الله ، كما يتسلط الذئب على الشاردة من القطيع ﴿وإن جهنم لموعدهم أجمعين﴾ أي موعد إبليس وأتباعه جميعاً ﴿لها سبعة أبواب﴾ أي لجهنم سبعة أبواب يدخلون منها لكثرتهم وروي عن عليّ أنها أطباقٌ ، طبقٌ فوق طبق وأنها دركاتٌ بعضها أشد من بعض ﴿لكل بابٍ منهم جزءٌ مقسوم﴾ أي لكل جماعة من أتباع إبليس بابٌ معينٌ معلوم ، قال ابن كثير : كلٌّ يدخل من بابٍ بحسب عمله ، ويستقر في دَرَكٍ بقدر عمله[1] .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ المجاز المرسل في ﴿وما أهلكنا من قرية﴾ المراد أهلها وهو من باب إطلاق المحل وإرادة الحالّ .

٢ ـ الاستعارة التخيليَّة في ﴿عندنا خزائنه﴾ فهو تمثيل لكمال قدرته ، شبَّه قدرته على كل شيء بالخزائن المودوعة فيها الأشياء،وإخراج كل شيء بحسب مااقتضته حكمته على طريق الاستعارة.

٣ ـ الطباق بين ﴿نحيي . . ونميت﴾ وبين ﴿المستقدمين . . والمستأخرين﴾ .

٤ ـ جناس الاشتقاق في ﴿خزائنه . . وخازنين﴾ .

٥ ـ السجع الذي له وقع على السمع مثل ﴿المجرمين ، الأولين ، المنظرين﴾ الخ .

لطيفَة : ذكر أن رجلاً أراد أن يمتحن الأديان أيها أصح وأحسن ؟ فعمد إلى التوراة والإنجيل والقرآن ـ وكان خطاطاً ـ فنسخ من كل كتاب نسخة بخط جميل وزاد فيها ونقص ، ثم عرض التوراة على علماء اليهود فقبلوها وتصفحوها وأكرموه بالمال ، ثم عرض الإنجيل الذي نسخه بيده على القسس فاشتروه

(١) المختصر ٢/٣١٢ .

بثمن كبير وأكرموه ، ثم عرض نسخة القرآن على شيوخ المسلمين فنظروا فيه فلما رأوا فيه بعض الزيادة والنقص أمسكوا به فضربوه ثم رفعوا أمره إلى السلطان فحكم بقتله ، فلما أراد قتله أشهر إسلامه وأخبرهم بقصته وأنه امتحن الأديان فعرف أن الإسلام دين حق . انظر تفسير القرطبي ١٠/ ٦ .

* * *

قال الله تعالى : ﴿إن المتقين في جناتٍ وعيون . . إلى . . واعبدْ ربك حتى يأتيك اليقين﴾ من آية (٤٥) إلى نهاية آية (٩٩) .

المناسبة : لما ذكر تعالى حال الأشقياء من أهل الجحيم ، أعقبهم بذكر حال السعداء من أهل النعيم ، ثم ذكر قصص بعض الرسل مع أقوامهم «لوط ، وشعيب ، وصالح» تسلية لرسول الله ﷺ ليتأسى بهم في الصبر ، ثم ذكر الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين ، وختم السورة ببشارته عليه السلام بإهلاك أعدائه المستهزئين .

اللغة : ﴿نَصَبٌ﴾ تعب وإعياء ﴿وجلون﴾ خائفون فزعون ﴿الغابرين﴾ الباقين في العذاب ﴿القانطين﴾ القنوط: كمالُ اليأس ﴿تفضحون﴾ الفضيحةُ: أن يُظهر من أمره ما يلزمه به العارُ، يقال : فضحه الصبح إذا أظهره للناس قال الشاعر :

ولاح ضوءُ هلالٍ كاد يفضحنا مثلُ القلامةِ قد قُصَّت من الظُّفُر[1]

﴿لعمرك﴾ قسمٌ بحياة محمد ﷺ أي وحياتك ﴿سكرتهم﴾ السكرة : الغواية والضلالة ﴿يعمهون﴾ يترددون تحيراً أو يعمون عن الرشد ،والعَمه للقلب مثل العمى للبصر ﴿المتوسمين﴾ التوسُّم من الوَسم وهي العلامة التي يستدل بها على المطلوب يقال : توسَّم فيه الخير إذا رأى فيه أثراً منه قال ابن رواحة في رسول الله ﷺ :

إني توسَّمتُ فيك الخير أعرفه والله يعلم أني ثابتُ البصر[2]

وأصله التثبتُ والتفكر مثل التفرس وفي الحديث (اتقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)[3] ﴿الأيكة﴾ الشجرة الملتفَّة وجمعها أيْك ﴿الحِجر﴾ اسم واد كانت تسكنه ثمود ﴿عضين﴾ أجزاءً متفرقةمن التعضية وهي التجزئة والتفريق ﴿اليقين﴾ الموت لأنه أمر متيقن .

سَبَبُ النّزول : روي أن النبي ﷺ خرج على الصحابة وهم يضحكون فقال : أتضحكون وبين أيديكم الجنةُ والنار ؟ فشقَّ ذلك عليهم فنزلت ﴿نَبِّىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾[4] .

---

(١) البحر ٥/ ٤٥٦ . (٢) القرطبي ١٠/ ٤٣ .

(٣) رواه الترمذي . (٤) القرطبي ١٠/ ٣٤ .

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا

التفسير : ﴿**إنَّ المتقين في جنات وعيون**﴾ أي إن الذين اتقوا الفواحش والشرك لهم في الآخرة البساتين الناضرة ، والعيون المتفجرة بالماء والسلسبيل والخمر والعسل ﴿**أُدخلوها بسلامٍ آمنين**﴾ أي يقال لهم : أُدخلوا الجنة سالمين من كل الآفات ، آمنين من الموت ومن زوال هذا النعيم ﴿**ونزعنا ما في صدورهم من غلّ**﴾ أي أزلنا ما في قلوب أهل الجنة من الحقد والبغضاء والشحناء ﴿**إخواناً على سُّرر متقابلين**﴾ أي حال كونهم إخوةً متحابين لا يكدّر صفوهم شيء ، على سررٍ متقابلين وجهاً لوجه قال مجاهد : لا ينظر بعضُهم إلى قفا بعض زيادةً في الإنس والإكرام، وقال ابن عباس : على سررٍ من ذهب مكلَّلة بالدر والياقوت والزبرجد[١] ﴿**لا يمسُّهم فيها نصَبٌ**﴾ أي لا يصيبهم في الجنة إعياءٌ وتعب ﴿**وما هم منها بمخرجين**﴾ أي لا يُخرجون منها ولا يُطردون ، نعيمهم خالد ، وبقاؤ هم دائم ،لأنها دار الصفاء والسرور﴿**نبِّىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم**﴾ أي أخبر يا محمد عبادي المؤمنين بأني واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وأناب ﴿**وأنَّ عذابي هو العذاب الأليم**﴾ أي وأخبرهم أنَّ عذابي شديد لمن أصرَّ على المعاصي والذنوب قال أبو حيان : وجاء قوله ﴿وأنَّ عذابي﴾ في غاية اللطف إذ لم يقل على وجه المقابلة (وأني المعذّب المؤلم) وكل ذلك ترجيح لجهة العفو والرحمة[٢] ﴿**ونبئهم عن ضيف إبراهيم**﴾ أي وأخبرهم عن قصة ضيوف إبراهيم ، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط ، وكانوا عشرة على صورة غلمانٍ حسانٍ معهم جبريل ﴿**إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً**﴾ أي حين دخلوا على إبراهيم فسلَّموا عليه ﴿**قال إنَّا منكم وجلون**﴾ أي قال إبراهيم إنّا خائفون منكم ، وذلك حين عرض عليهم الأكل فلم يأكلوا ﴿**قالوا لا توجَلْ إنّا نبشرك بغلام عليم**﴾ أي قالت الملائكة لا تخف فإنا نبشرك بغلام واسع العلم ، عظيم الذكاء ، هو إسحاق ﴿**قال أبشرتموني على أنْ مسّنيَ الكِبَرُ فبم تُبشِّرون**﴾ أي قال إبراهيم أبشرتموني بالولد على حالة الكبر والهرم ، فبأي شيء تبشروني ؟ قال ذلك على وجه التعجب والاستبعاد ﴿**قالوا بشرناك بالحق فلا تكنْ من القانطين**﴾ أي بشرناك باليقين الثابت فلا تستبعدْه ولا تيأس من رحمة الله ﴿**قال ومن يقْنَطُ من رحمة ربهِ إلا الضالّون**﴾ استفهام إنكاري أي لا يقنط من رحمة الله إلا المخطئون طريق المعرفة والصواب ، الجاهلون برب الأرباب ، أما القلب العامر بالإيمان ، المتصل بالرحمن ، فلا ييأس ولا يقنط قال البيضاوي : وكان تعجب إبراهيم عليه السلام باعتبار

---

(١) زاد المسير ٤/ ٤٠٤ . (٢) البحر ٥/ ٤٥٧ .

خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾

العادة دون القدرة فإنَّ الله تعالى قادرٌ على أن يخلق بشراً من غير أبوين ، فكيف من شيخ فانٍ وعجوزٍ عاقر ؟ ولذلك أجابهم بذلك الجواب[١] ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون﴾ أي قال إبراهيم ما شأنكم وما أمركم الذي جئتم من أجله أيها الملائكة الكرام ؟ ﴿قالوا إنّا أُرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ أي أرسلنا ربنا إلى قومٍ مشركين ضالين لإهلاكهم يعنون قوم لوط ﴿إلاَّ آل لوطٍ إنا لمنجُّوهم أجمعين﴾ أي إلا أتباعَ لوط وأهلَه المؤمنين ، فسننجيهم من ذلك العذاب أجمعين ﴿إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين﴾ أي إلا امرأة لوط فقد قدَّر الله بقاءها في العذاب مع الكفرة الهالكين قال القرطبي : استثنى من آل لوط امرأته وكانت كافرة فالتحقت بالمجرمين في الهلاك[٢] ﴿فلما جاء آل لوط المرسلون﴾ أي فلما أتى رسلُ الله لوطاً عليه السلام ﴿قال إنكم قومٌ منكرون﴾ أي قال لهم إنكم قوم لا أعرفكم فماذا تريدون ؟ ﴿قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون﴾ أي قالوا له بل نحن رسل الله ، جئناك بما كان فيه قومك يشكُّون فيه وهو نزول العذاب الذي وعدتهم به ﴿وأتيناك بالحق وإنّا لصادقون﴾ أي أتيناك بالحق اليقين من عذابهم وإنا لصادقون فيما نقول ﴿فأسْر بأهلك بِقطع من الليل﴾ أي سرْ بأهلك في طائفةٍ من الليل ﴿واتّبعْ أدبارهم﴾ أي كنْ من ورائهم وسرْ خلفهم لتطمئنَّ عليهم ﴿ولا يلتفتْ منكم أحدٌ﴾ أي لا يلتفتْ أحد منكم وراءه لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم فيرتاع ﴿وامضوا حيث تُؤمرون﴾ أي سيروا حيث يأمركم الله عز وجل قال ابن عباس : يعني الشام ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوعٌ﴾ أي أوحينا إلى لوط ذلك الأمر العظيم أن أولئك المجرمين سيُستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحدٌ ﴿مصبحين﴾ أي إذا دخل الصباح تمَّ هلاكهم واستئصالهم ﴿وجاء أهلُ المدينة يستبشرون﴾ أي جاء أهل مدينة سدوم ـ وهم قوم لوطـ مسرعين يستبشرون بأضيافه ، طمعاً في ارتكاب الفاحشة بهم ، ظناً منهم أنهم أناسٌ أمثالهم قال المفسرون : أُخبر أولئك السفهاء أن في بيت لوطٍ شباناً مرداً حساناً فأسرعوا فرحين يبشّر بعضهم بعضاً بأضياف لوط[٣] ﴿قال إنَّ

---

(١) البيضاوي ٢٨٦ . (٢) القرطبي ١٠/ ٣٦ .

(٣) يقول سيد قطب عليه الرحمة والرضوان : « تسامع القوم بأن في بيت لوطٍ شباناً صباح الوجوه ففرحوا بأن هناك صيداً ﴿وجاء أهل المدينة يستبشرون﴾ والتعبيرُ على هذا النحو يكشف عن مدى الشناعة والبشاعة التي وصل إليها القوم في الدَّنس والفجور ، يكشف عن هذا المدى في مشهد أهل المدينة يجيئون جماعة مستبشرين بالعثور على شبان يعتدون عليهم جهرةً وعلانية ، هذه العلانية التي يترفع عنها الحيوان بينما أولئك =

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ﴾

هؤلاء ضيفي فلا تفضحون﴾ أي هؤلاء ضيوفي فلا تقصدوهم بسوء فتُلحقوا بي العار وتفضحوني أمامهم ﴿واتقوا اللهَ ولا تُخزون﴾ أي خافوا الله أن يحلَّ بكم عقابه ، ولا تهينوني بالتعرض لهم بالمكروه ﴿قالوا أوَلَمْ ننْهك عن العالمين﴾ أي قالوا ألم نمنعك عن ضيافة أحد ؟ قال الرازي : المعنى ألسنا قد نهيناك أن تكلمنا في أحدٍ من الناس إذا قصدناه بالفاحشة[1] ؟ ﴿قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين﴾ أي هؤلاء النساء فتزوجوهنَّ ولا تركنوا إلى الحرام إن كنتم تريدون قضاء الشهوة قال المفسرون : المراد بقوله ﴿بناتي﴾ بناتُ أمته لأن كل نبيٍّ يعتبر أباً لقومه ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ أي وحياتك يا محمد إن قوم لوط لفي ضلالهم وجهلهم يتخبطون ويترددون ، وهذه جملة اعتراضية جاءت ضمن قصة لوط قسماً بحياة الرسول ﷺ تكريماً له وتشريفاً قال ابن عباس : «ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرمَ على الله من محمد ﷺ وما سمعتُ اللهَ أقسم بحياة أحدٍ غيره»[2] ﴿فأخذتهم الصيحةُ مشرقين﴾ أي أخذتهم صيحةُ العذاب المهلكة المدمرة وقت شروق الشمس ﴿فجعلنا عاليها سافلَها﴾ أي قلبناها بهم فجعلنا أعالي المنازل أسافلها قال المفسرون : حمل جبريل عليه السلام قريتهم واقتلعها من جذورها ، حتى رأوا الأفلاك وسمعوا تسبيح الأملاك ثم قلبها بهم ﴿وأمطرنا عليهم حجارةً من سجيل﴾ أي أنزلنا عليهم حجارة كالمطر من طين طبخ بنار جهنم ﴿إن في ذلك لآياتٍ للمتوسمين﴾ أي فيما حلَّ بهم من الدمار والعذاب لدلالات وعلامات للمعتبرين ، المتأملين بعين البصر والبصيرة ﴿وإنها لبسبيلٍ مقيم﴾ أي وإن هذه القرى المهلكة ، وما ظهر فيها من آثار قهر الله وغضبه، لبطريقٍ ثابتٍ لم يندرس ، يراها المجتازون في أسفارهم أفلا يعتبرون ؟ ﴿إنَّ في ذلك لآيةً للمؤمنين﴾ أي لعبرةً للمصدّقين ﴿وإن كان أصحاب الأيكةِ لظالمين﴾ أي وإنه الحال والشأن كان قوم شعيب ـ وهم أصحاب الأيكة أي الشجر الكثير الملتف ـ لظالمين بتكذيبهم شعيباً ، وقطعهم الطريق ، ونقصهم المكيال والميزان ﴿فانتقمنا منهم﴾ أي أهلكناهم بالرجفة وعذاب يوم الظُلَّة قال المفسرون : اشتد الحر عليهم سبعة أيام حتى قربوا من الهلاك ، فبعث الله عليهم سحابة كالظلة ، فالتجئوا إليها واجتمعوا تحتها للتظلل بها ، فبعث الله عليهم منها ناراً فأحرقتهم

= القوم المجرمون يجاهرون بها ويتلمظون عليها ، وهي حالة من الارتكاس معدومة النظير ، فأما لوط فوقف مكروباً يحاول أن يدفع عن ضيوفه وعن شرفه ، وقف يستثير النخوة الآدمية فيهم ، ويستجيش وجدان التقوى لله وهو يعلم أن هذه النفوس المرتكسة المطموسة لم يعد فيها نخوة ولا شعور إنساني ، ولكنه في كربه وشدته يحاول ما يستطيع . » الظلال ١٤/ ٣١ .

(١) الفخر الرازي ١٩/ ٢٠٢ . (٢) الطبري ١٤/ ٤٤ .

ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا

جميعاً ﴿وإنهما لبإمامٍ مبين﴾ أي وإن قرى قوم لوط وشعيب لطريق واضح أفلا تعتبرون بهم يا أهل مكة ؟ ﴿ولقد كذَّب أصحابُ الحِجْرِ المرسلين﴾ هذه هي القصة الرابعة وهي قصة صالح عليه السلام أي كذبت ثمود نبيَّهم صالحاً ـ والحجرُ وادٍ بين المدينة والشام وآثاره باقية يمرُّ عليها المسافرون ـ قال البيضاوي : ومن كذَّب واحداً من الرسل فكأنما كذب الجميع ولذا قال ﴿المرسلين﴾[1] ﴿وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين﴾ أي وأريناهم معجزاتنا الدالة على قدرتنا مثل الناقة وما فيها من العجائب فكانوا لا يعتبرون بها ولا يتَّعظون قال ابن عباس : كان في الناقة آيات : خروجُها من الصخرة ، ودنوُّ ولادتها عند خروجها ، وعظمُ خَلْقها فلم تشبهها ناقة ، وكثرةُ لبنها حتى كان يكفيهم جميعاً فلم يتفكروا فيها ولم يستدلوا بها[2] ﴿وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين﴾ أي كانوا ينقبون الجبال فيبنون فيها بيوتاً آمنين يحسبون أنها تحميهم من عذاب الله ﴿فأخذتهم الصيحة مصبحين﴾ أي أخذتهم صيحة الهلاك حين أصبحوا ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ أي ما دفع عنهم عذابَ الله ما كانوا يشيدونه من القلاع والحصون ﴿وما خلقنا السمواتِ والأرضَ وما بينهما إلا بالحق﴾ أي وما خلقنا الخلائق كلَّها سماءها وأرضها وما بينهما إلا خلقاً ملتبساً بالحق ، فلذلك اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء المكذبين لئلا يعم الفساد ﴿وإن الساعة لآتيةٌ فاصفحِ الصفحَ الجميل﴾ أي وإن القيامة لآتيةٌ لا محالة فيُجازى المحسنُ بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، فأعرضْ يا محمد عن هؤلاء السفهاء وعاملهم معاملة الحليم ﴿إنَّ ربك هو الخلاّقُ العليم﴾ أي الخالق لكل شيء ، العليمُ بأحوال العباد ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾ أي ولقد أعطيناك يا محمد سبع آيات هي الفاتحة لأنها تثنّى أي تكرر قراءتها في الصلاة وفي الحديث (الحمدُ للهِ رب العالمين هي السبعُ المثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيتُه)[3] وقيل : هي السور السبع الطوال ، والأول أرجح ﴿والقرآنَ العظيم﴾ أي وآتيناك القرآن العظيم الجامع لكمالات الكتب السماوية ﴿لا تمدنَّ عينيكَ إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ أي لا تنظر إلى ما متعنا به بعض هؤلاء الكفار ، فإن الذي أعطيناك أعظم منها وأشرف وأكرم ، وكفى بإنزال القرآن عليك نعمة ﴿ولا تحزن عليهم﴾ أي لا تحزن لعدم إيمانهم ﴿واخفضْ جناحك للمؤمنين﴾ أي تواضعْ لمن آمن بك من المؤمنين وضعفائهم ﴿وقل إني أنا النذيرُ

(١) البيضاوي ٢٨٦ . (٢) زاد المسير ٤/ ٤١١ . (٣) أخرجه البخاري وهذا القول هو اختيار الطبري .

عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

المبينُ﴾ أي قل لهم يا محمد أنا المنذر من عذاب الله ، الواضح البيِّن في الإِنذار لمن عصى أمر الجبار **﴿كما أنزلنا على المقتسمين﴾** الكاف للتشبيه والمعنى أنزلنا عليك القرآن كما أنزلنا على أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى الذين آمنوا ببعض كتابهم وكفروا ببعضه ، فانقسموا إلى قسمين **﴿ الذين جعلوا القرآن عِضين﴾** أي جعلوا القرآن أجزاءً متفرقة وقالوا فيه أقوالاً مختلفة قال ابن عباس : آمنوا ببعضٍ وكفروا ببعض ، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم له بقولهم سحر ، وشعر ، وأساطير ، بأن غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب مثل فعل كفار مكة **﴿فوربك لنسألنَّهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾** أي فأقسمُ بربك يا محمد لنسألنَّ الخلائق أجمعين عما كانوا يعملون في الدنيا **﴿فاصدعْ بما تُؤمرُ وأعرضْ عن المشركين﴾** أي فاجهر بتبليغ أمر ربك ، ولا تلتفت إلى ما يقول المشركون **﴿إنا كفيناك المستهزئين﴾** أي كفيناك شرَّ أعدائك المستهزئين بإهلاكنا إياهم وكانوا خمسة من صناديد قريش **﴿الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر﴾** أي الذين أشركوا مع الله غيره من الأوثان والأصنام **﴿فسوف يعلمون﴾** وعيدٌ وتهديد أي سوف يعلمون عاقبة أمرهم في الدارين **﴿ولقد نعلم أنك يضيقُ صدرُك بما يقولون﴾** أي يضيق صدرك بالاستهزاء والتكذيب **﴿فسبِّح بحمد ربك وكن من الساجدين﴾** أي فافزع فيما نالك من مكروه إلى التسبيح والصلاة والإِكثار من ذكر الله **﴿ واعبدْ ربك حتى يأتيك اليقين﴾** أي اعبد ربك يا محمد حتى يأتيك الموت ، سمي يقيناً لأنه متيقن الوقوع والنزول .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ الإِيجاز بالحذف في **﴿أُدخلوها بسلام﴾** أي يقال لهم أدخلوها .

٢ ـ المقابلة اللطيفة في **﴿نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم﴾** مع الآية بعدها **﴿وأن عذابي﴾** فقد قابل بين العذاب والمغفرة وبين الرحمة الواسعة والعذاب الأليم، وهذا من المحسنات البديعية .

٣ ـ الكناية في **﴿أنَّ دابر هؤلاء مقطوعٌ ﴾** كنَّى به عن عذاب الاستئصال .

٤ ـ المجاز في **﴿قدرنا إنها لمن الغابرين﴾** أسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم مجازاً وهو لله وحده وذلك لما لهم من القرب والاختصاص لأنهم رسل الله أُرسلوا بأمره تعالى .

٥ ـ الجناس الناقص في ﴿الصيحة مصبحين﴾ وجناس الاشتقاق في ﴿فاصفح الصفح﴾ .

٦ ـ صيغة المبالغة في ﴿الغفور الرحيم﴾ وفي ﴿الخلاّق العليم﴾ .

٧ ـ الطباق في ﴿عاليها سافلها﴾ .

٨ ـ السجع بلا تكلف في مواطن عديدة مثل ﴿آمنين ، مصبحين ، معرضين﴾ .

٩ ـ عطف العام على الخاص في ﴿سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ .

١٠ ـ الاستعارة التبعية في ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾ حيث شبّه إلانة الجانب بخفض الجناح بجامع العطف والرقة في كلٍ واستعير اسم المشبَّه به للمشبَّه ، وهذا من بليغ الاستعارات لأن الطائر إذا كف عن الطيران خفض جناحيه .

تنبيه : الجمع بين هذه الآية ﴿فوربك لنسألهم أجمعين﴾ وبين قوله ﴿ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ وقوله ﴿فيومئذٍ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ أن القيامة مواطن ، فموطنٌ يكون فيه سؤال وكلام ، وموطنٌ لا يكون ذلك فيه ، هذا قول عكرمة ، وقال ابن عباس : لا يسألهم سؤال استخبار واستعلام هل عملتم كذا وكذا ، لأن الله عالم بكل شيء ، ولكن يسألهم سؤال تقريع وتوبيخ فيقول لهم : لم عصيتم القرآن وما حجتكم فيه[1] ؟

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الحجر »

* * *

(١) القرطبي ١٠/ ٦١ .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

سورة النحل من السور المكية التي تعالج موضوعات العقيدة الكبرى « الأُلوهية ، والوحي ، والبعث والنشور » وإلى جانب ذلك تتحدث عن دلائل القدرة والوحدانية في ذلك العالم الفسيح في السموات والأرض ، والبحار والجبال ، والسهولِ والوديان ، والماء الهاطل ، والنبات النامي ، والفلك التي تجري في البحر ، والنجوم التي يهتدي بها السالكون في ظلمات الليل ، إلى آخر تلك المشاهد التي يراها الإِنسان في حياته ، ويدركها بسمعه وبصره ، وهي صورٌ حيةٌ مشاهدة ، دالةٌ على وحدانية الله جلَّ وعلا ، وناطقةٌ بآثار قدرته التي أبدع بها الكائنات .

* تناولت السورة الكريمة في البدء أمر الوحي الذي كان مجال إنكار المشركين واستهزائهم ، فقد كذبوا بالوحي واستبعدوا قيام الساعة ، واستعجلوا الرسول ﷺ أن يأتيهم بالعذاب الذي خوَّفهم به ، وكلما تأخر العذاب زادوا استعجالاً وزادوا استهزاءً واستهتاراً .

* ولقد هدفت السورة الكريمة إلى تقرير مبدأ « وحدانية الله » جلَّ وعلا بلفت الأنظار إلى قدرة الله الواحد القهَّار ، فخاطبت كل حاسةٍ في الإِنسان ، وكل جارحةٍ في كيانه البشري ، ليتجه بعقله إلى ربّه ، ويستنير بما يرى من آثار صنع الله على عظمة اللهِ سبحانه .

* ثم تتابعت السورة الكريمةُ تذكّر الناس بنتيجة الكفر بنعم الله ، وعدم القيام بشكرها ، وتحذرهم تلك العاقبة الوخيمة التي يئول إليها مصيرُ كل معاندٍ وجاحد .

* وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والصبر والعفو عمَّا يلقاه من الأذى في سبيل تبليغ دعوة الله .

التَسمِيَة : سميت هذه السورة الكريمة « سورة النحل » لاشتمالها على تلك العبرة البليغة التي تشير إلى عجيب صنع الخالق ، وتدلُّ على الألوهية بهذا الصنع العجيب .

اللغَة : ﴿نُطفة﴾ النطفة الماء المهين الذي يتكون منه الإنسان ، مِن نطَف إذا قطر ﴿دفءٌ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ

الدفء : ما يستدفىء به الإنسان من البرد ﴿تُريحون﴾ الرَّواح : رجوع المواشي بالعشي من المرعى ﴿تسرحون﴾ السَّراح : الخروج بها صباحاً إلى المرعى ﴿أثقالكم﴾ الأثقال : الأمتعة جمع ثقل سميت أثقالاً لأنها ثقيلة الحمل ﴿جائر﴾ مائل عن الحق ﴿تُسيمون﴾ أسام الماشية تركها ترعى ، وسامت هي إذا رعت حيث شاءت فهي سائمة ﴿ذرأ﴾ خلق وأبدع ﴿مواخر﴾ أصل المخْر شقُّ الماء عن يمين وشمال يقال : مخرت السفينةُ إذا جرت تشق الماء مع صوت ﴿تميد﴾ تضطرب .

سَبَبُ النّزول : قال ابن عباس : لما نزل قوله تعالى ﴿اقتربت الساعة﴾ قال الكفار بعضهم لبعض : إنَّ محمداً يزعم أن القيامة قد اقتربت فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى ننظر ، فلما امتدت الأيام قالوا يا محمد : ما نرى شيئاً مما تُخوِّفنا به فأنزل الله تعالى ﴿أتى أمرُ الله فلا تستعجلوه . .﴾[١] الآية .

التفسير : ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ أي قرب قيام الساعة فلا تستعجلوا العذاب الذي أوعدكم به محمد ، وإنما أتى بصيغة الماضي لتحقق وقوع الأمر وقربه ، قال الرازي : لما كان واجب الوقوع لا محالة عبّر عنه بالماضي كما يقال للمستغيث : جاءك الغوثُ فلا تجزع[٢] ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي تنزَّه الله عما يصفه به الظالمون ، وتقدس عن إشراكهم به غيره من الأنداد والأوثان ﴿يُنزِّل الملائكة بالروح من أمره﴾ أي يُنزِّل الملائكة بالوحي والنبوة بإرادته وأمره ﴿على من يشاء من عباده﴾ أي على الأنبياء والمرسلين ، وسمَّى الوحي روحاً لأنه تحيا به القلوب كما تحيا بالأرواح الأبدان ﴿أنْ أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون﴾ أي بأن أنذروا أهل الكفر أنه لا معبود إلا الله فخافوا عذابي وانتقامي ، ثم ذكر تعالى البراهين الدالة على وحدانيته وقدرته فقال ﴿خلق السموات والأرض بالحق﴾ أي خلقهما بالحق الثابت ، والحكمة الفائقة ، لا عبثاً ولا جُزافاً ﴿تعالى عما يشركون﴾ أي تمجَّد وتقدَّس عن الشريك والنظير ﴿خلق الإنسان من نُطفة﴾ أي خلق هذا الجنس البشري من نطفةٍ مهينة ضعيفة هي المنيُّ ﴿فإذا هو خصيمٌ مبين﴾ أي فإذا به بعد تكامله بشراً مخاصمٌ لخالقه ، واضح الخصومة ، يكابر ويعاند ، وقد خُلق ليكون عبداً لا ضداً قال ابن الجوزي : لقد خُلق من نطفة وهو مع ذلك يخاصم وينكر البعث ، أفلا يستدل بأوله على آخره ، وبأن من قدر على إيجاده أولاً قادرٌ على إعادته ثانياً[٣] ؟ ﴿والأنعامَ خلقها﴾ أي وخلق الأنعام لمصالحكم وهي الإبل والبقر والغنم ﴿لكم فيها دفءٌ﴾

(١) زاد المسير ٤/ ٤٢٦ . (٢) الرازي ١٩/ ٢١٨ . (٣) زاد المسير ٤/ ٤٢٩ .

﴿وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٩ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾

أي لكم فيها ما تستدفئون به من البرد مما تلبسون وتفترشون من الأصواف والأوبار **﴿ومنافع ومنها تأكلون﴾** أي ولكم فيها منافع عديدة من النسل والدر وركوب الظهر ، ومن لحومها تأكلون وهو من أعظم المنافع لكم **﴿ولكم فيها جمالٌ حين تُريحون وحين تَسرحون﴾** أي ولكم في هذه الأنعام والمواشي زينةٌ وجمالٌ حين رجوعها عشياً من المرعى ، وحين غُدوِّها صباحاً لترعى ، جمال الاستمتاع بمنظرها صحيحةً سمينةً فارهة **﴿وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلاّ بشق الأنفس﴾** أي وتحمل أحمالكم الثقيلة وأمتعتكم التي تعجزون عن حملها إلى بلدٍ بعيد لم تكونوا لتصلوا إليه إلا بجهدٍ ومشقة **﴿إنَّ ربكم لرءوفٌ رحيم﴾** أي إنَّ ربكم أيها الناس الذي سخَّر لكم هذه الأنعام لعظيمُ الرأفة والرحمة بكم **﴿والخيل والبغالَ والحمير لتركبوها وزينةً﴾** أي وخلق الخيل والبغال والحمير للحمل والركوب وهي كذلك زينة وجمال **﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾** أي ويخلق في المستقبل ما لا تعلمونه الآن كوسائل النقل الحديث : القاطرات ، والسيارات ، والطائرات النفاثة وغيرها مما يجدُّ به الزمان وهو من تعليم الله للإنسان[1] **﴿وعلى الله قصدُ السبيل﴾** أي وعلى الله جل وعلا بيانُ الطريق المستقيم ، الموصلِ لمن يسلكه إلى جنات النعيم **﴿ومنها جائرٌ﴾** أي ومن هذه السبيل طريقٌ مائلٌ عن الحق منحرفٌ عنه ، لا يوصل سالكه إلى الله وهو طريق الضلال ، كاليهودية والنصرانية والمجوسية **﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾** أي لو شاء أن يهديكم إلى الايمان لهداكم جميعاً ولكنه تعالى اقتضت حكمته أن يدع للإنسان حرية الاختيار **﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾** ليترتب عليه الثواب والعقاب ، ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام ، شرع في ذكر سائر النعم العظام وآياته المنبثة في الكائنات فقال **﴿هو الذي أنزل من السماء ماءً﴾** أي أنزل المطر بقدرته القاهرة من السحاب **﴿لكم منه شراب﴾** أي أنزله عذباً فراتاً لتشربوه فتسكن حرارة العطش **﴿ومنه شجرٌ فيه تُسيمون﴾** أي وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم **﴿يُنبتُ لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب﴾** أي يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها **﴿ومن كل الثمرات﴾** أي ومن كل الفواكه والثمار يخرج لكم أطايب

---

(١) قال في الظلال : « لقد جدَّت وسائل للحمل والركوب لم يكن يعلمها أهل الزمان ، والقرآن يهيء لها القلوب والأذهان بلا جحود ولا تحجر ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ حتى لا يقول الناس : إنما استخدم آباؤنا الخيل والبغال والحمير فلا نستخدم سواها ، ولهذا هيأ القرآن الأذهان والقلوب لاستقبال ما يتمخض عنه العلم ويتمخض عنه المستقبل » .

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا﴾

الطعام ﴿إن في ذلك لآيةً لقوم يتفكرون﴾ أي إن في إنزال الماء وإخراج الثمار لدلالة واضحة على قدرة الله ووحدانيته لقومٍ يتدبرون في صنعه فيؤمنون قال أبو حيان : ختم الآية بقوله ﴿يتفكرون﴾ لأن النظر في ذلك يحتاج إلى فضل تأمل ، واستعمال فكر ، ألا ترى أن الحبة الواحدة إذا وُضعت في الأرض ومرَّ عليها زمن معيَّن لحقها من نداوة الأرض ما تنتفخ به فيُشق أعلاها فتصعد منه شجرة إلى الهواء ، وأسفلها يغوص منه في عمق الأرض شجرةً أخرى وهي العروق ، ثم ينمو الأعلى ويقوى وتخرج الأوراق والأزهار ، والأكمام والثمار ، المشتملة على أجسامٍ مختلفة الطبائع والألوان والأشكال والمنافع وذلك بتقدير قادرٍ مختار وهو الله تعالى[1] ﴿وسخَّر لكم الليل والنهار والشمسَ والقمر﴾ أي ذلّل الليل والنهار يتعاقبان لمنامكم ومعاشكم ، والشمس والقمر يدوران لمصالحكم ومنافعكم ﴿والنجومُ مسخراتٌ بأمره﴾ أي والنجومُ تجري في فلكها بأمره تعالى لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون﴾ أي إن في ذلك الخلق والتسخير لدلائل باهرة عظيمة ، لأصحاب العقول السليمة ﴿وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه﴾ أي وما خلق لكم في الأرض من الأمور العجيبة ، من الحيوانات والنباتات ، والمعادن والجمادات ، على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وخواصها ومنافعها ﴿إنَّ في ذلك لآيةً لقومٍ يذَّكَّرون﴾ أي لعبرةً لقوم يتعظون ﴿وهو الذي سخَّر البحر﴾ أي وهو تعالى ـ بقدرته ورحمته ـ ذلّل لكم البحر المتلاطم الأمواج للركوب فيه والغوص في أعماقه ﴿لتأكلوا منه لحماً طرياً﴾ أي لتأكلوا من البحر السمك الطريَّ الذي تصطادونه ﴿وتستخرجوا منه حليةً تلبسونها﴾ أي وتستخرجوا منه الجواهر النفيسة كاللؤلؤ والمرجان ﴿وترى الفُلك مواخر فيه﴾ أي وترى السفن العظيمة تشق عُباب البحر جاريةً فيه وهي تحمل الأمتعة والأقوات ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ أي سخر لكم البحر لتنتفعوا بما ذُكر ولتطلبوا من فضل الله ورزقه سبل معايشكم بالتجارة ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي ولتشكروا ربكم على عظيم إنعامه وجليل إفضاله ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾ أي نصب فيها جبالاً ثوابت راسيات لئلا تضطرب بكم وتميل قال أبو السعود : إن الأرض كانت كرةً خفيفة قبل أن تُخلق فيها الجبال ، وكان من حقها أن تتحرك كالأفلاك بأدنى سبب فلما خُلقت الجبال توجهت بثقلها نحو المركز فصارت كالأوتاد لها[2] ﴿وأنهاراً وسُبلاً لعلكم تهتدون﴾ أي وجعل فيها أنهاراً وطرقاً

(١) البحر ٥/ ٤٧٩ . (٢) أبو السعود ٣/ ١٦٧ .

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾

ومسالك لكي تهتدوا إلى مقاصدكم ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾ أي وعلامات يستدلون بها على الطرق كالجبال والأنهار ، وبالنجوم يهتدون ليلاً في البراري والبحار قال ابن عباس : العلامات معالمُ الطرق بالنهار وبالنجم هم يهتدون بالليل[1] ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾ الاستفهام إنكاري أي أتسوّون بين الخالق لتلك الأشياء العظيمة والنعم الجليلة ، وبين من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلاً عن غيره ؟ أتشركون هذا الصنم الحقير مع الخالق الجليل ؟ وهو تبكيت للكفرة وإبطالٌ لعبادتهم الأصنام ﴿أفلا تذكَّرون﴾ أي أفلا تتذكرون فتعرفون خطأ ما أنتم فيه من عبادة غير الله ؟ وهو توبيخٌ آخر ﴿وإن تعدُّوا نعمة الله لا تُحصوها﴾ أي إن تعدوا نعم الله الفائضة عليكم لا تضبطوا عددها فضلاً عن أن تطيقوا شكرها ﴿إن الله لغفورٌ رحيم﴾ أي غفور لما صدر منكم من تقصير رحيم بالعباد حيث ينعم عليهم مع تقصيرهم وعصيانهم ﴿والله يعلم ما تسرون وما تعلنون﴾ أي يعلم ما تخفونه وما تظهرونه من النوايا والأعمال وسيجازيكم عليها ﴿والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون﴾ أي والذين يعبدونهم من دون الله كالأوثان والأصنام لا يقدرون على خلق شيء أصلاً والحال أنهم مخلوقون صنعهم البشر بأيديهم ، فكيف يكونون آلهة تعبد من دون الله ؟ ﴿أمواتٌ غير أحياء﴾ أي وتلك الأصنام أمواتٌ لا أرواح فيها ، لا تسمع ولا تبصر لأنها جمادات لا حياة فيها ، فكيف تعبدونها وأنتم أفضل منها لما فيكم من الحياة ؟ ﴿وما يشعرون أيّان يبعثون﴾ أي ما تشعر هذه الأصنام متى يبعث عابدوها ، وفيه تهكم بالمشركين لأنهم عبدوا جماداً لا يحس ولا يشعر ﴿إلهكم إله واحدٌ﴾ أي إلهكم المستحق للعبادة إله واحدٌ لا شريك له ﴿فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة﴾ أي فالذين لا يصدّقون بالبعث والجزاء قلوبهم تنكر وحدانية الله عز وجل ﴿وهم مستكبرون﴾ أي متكبرون متعظمون عن قبول الحق بعدما سطعت دلائله ﴿لا جرم أنَّ اللهَ يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ أي حقاً إن الله تعالى لا تخفى عليه خافية من أحوالهم يعلم ما يخفون وما يظهرون ﴿إنه لا يحب المستكبرين﴾ أي المتكبرين عن التوحيد والإيمان ﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم﴾ أي وإذا سئل هؤلاء الجاحدون أيَّ شيء أنزل ربكم على رسوله ﷺ ؟ ﴿قالوا أساطير الأولين﴾ أي قالوا على سبيل الاستهزاء : ما أنزله

(١) زاد المسير ٤/ ٤٣٦ .

كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾

ليس إلا خرافات وأباطيل الأمم السابقين ليس بكلام رب العالمين قال المفسرون : كان المشركون يجلسون على مداخل مكة يُنفّرون عن رسول الله ﷺ إذا سألهم وفود الحاج ماذا أُنزل على محمد ؟ قالوا أباطيل وأحاديث الأولين[1] ﴿ليحملوا أوزارهم كاملةً يوم القيامة﴾ أي قالوا ذلك البهتان ليحملوا ذنوبهم كاملةً من غير أن يُكفَّر منها شيء ﴿ومن أوزار الذين يُضلونهم بغير علم﴾ أي وليحملوا ذنوب الأتباع الذين أضلوهم بغير دليلٍ أو برهان ، فقد كانوا رؤساء يُقتدى بهم في الضلالة ولذلك حملوا أوزارهم وأوزار من أضلوهم ﴿ألاَ ساء ما يزرون﴾ ألاَ للتنبيه أي فانتبهوا أيها القوم بئس الحمل الذي حملوه على ظهورهم ، والمقصودُ المبالغة في الزجر ﴿قد مكر الذين من قبلهم﴾ أي مكر المجرمون بأنبيائهم وأرادوا إطفاء نور الله من قبل كفار مكة ، وهذا تسلية له ﷺ ﴿فأتى اللهُ بنيانهم من القواعد﴾ أي قلع بنيانهم من قواعده وأسسه ، وهذا تمثيلٌ لإفساد ما أبرموه من المكر بالرسل ﴿فخرَّ عليهم السقفُ من فوقهم﴾ أي فسقط عليهم سقف بنيانهم فتهدّم البناء وماتوا ﴿وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ أي جاءهم الهلاك والدمار من حيث لا يخطر على بالهم ، والآية مشهد كاملٌ للدمار والهلاك ، وللسخرية من مكر الماكرين ، وتدبير المدبرين ، الذين يقفون لدعوة الله ويحسبون مكرهم لا يُردّ ، وتدبيرهم لا يخيب ، والله من ورائهم محيط ﴿ثم يوم القيامة يخزيهم﴾ أي يفضحهم بالعذاب ويذلهم ويهينهم ﴿ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم﴾ أي يقول تعالى لهم على سبيل التقريع والتوبيخ : أين هؤلاء الشركاء الذين كنتم تخاصمون وتعادون من أجلهم الأنبياء ؟ أحضروهم ليشفعوا لكم ، والأسلوب استهزاءٌ وتهكم ﴿قال الذينَ أُوتوا العلمَ إنَّ الخزي اليوم والسوءَ على الكافرين﴾ أي يقول الدعاة والعلماء شماتةً بأولئك الأشقياء إن الذلَّ والهوان والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله ﴿الذين تتوفاهم الملائكةُ ظالمي أنفسهم﴾ أي تقبض الملائكة أرواحهم الخبيثة حال كونهم ظالمي أنفسهم بالكفر والإشراك بالله ﴿فألقوا السَّلم ما كنا نعمل من سوء﴾ أي استسلموا وانقادوا عند الموت على خلاف عادتهم في الدنيا من العناد والمكابرة ، وقالوا ما أشركنا ولا عصينا كما يقولون يوم المعاد ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ ﴿بلى إنَّ الله عليم بما كنتم تعملون﴾ أي يكذبهم الله ويقول : بلى قد كذبتم وعصيتم

(١) البحر ٥/ ٤٨٤ .

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)﴾

وكنتم مجرمين ﴿فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها﴾ أي أدخلوا جهنم ماكثين فيها أبداً ﴿فلبئس مثوى المتكبرين﴾ أي بئست جهنم مقراً ومقاماً للمتكبرين عن طاعة الله .

البَلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ الالتفات في ﴿فاتقون﴾ فهو خطاب للمستعجلين بطريق الالتفات .

٢ ـ أسلوب الإطناب في ﴿أموات غير أحياء﴾ تأكيداً لسفاهة من عبد الأصنام ومثله ﴿لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون﴾ .

٣ ـ الطباق بين ﴿يسرون ويعلنون﴾ وبين ﴿تريحون وتسرحون﴾ .

٤ ـ صيغة المبالغة في ﴿خصيمٌ مبين﴾ وفي ﴿غفور رحيم﴾ .

٥ ـ طباق السلب في ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾ .

٦ ـ الجناس الناقص في ﴿لا يخلقون . . وهم يُخلقون﴾ .

٧ ـ الاستعارة التمثيلية في ﴿قد مكر الذين من قبلهم . . فخرَّ عليهم السقف من فوقهم﴾ شبهت حال أولئك الماكرين بحال قومٍ بنوا بنياناً شديد الدعائم فانهدم ذلك البنيان وسقط عليهم فأهلكهم بطريق الاستعارة التمثيلية ، ووجه الشبه أن ما عدوه سبباً لبقائهم ، عاد سبباً لفنائهم كقولهم « من حفر حفرة لأخيه سقط فيها » .

فَائِدَة : قال القرطبي : تسمى سورة النحل سورة النِّعم لكثرة ما عدَّد الله فيها من نعمه على عباده[1] .

* * *

قال الله تعالى :﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم . . إلى . . يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ من آية (٣٠) إلى نهاية آية (٥٠) .

المنَاسَبَة : لما أخبر تعالى عن حال الأشقياء الذين كفروا نعمة الله ، وطعنوا في القرآن فزعموا أنه أساطير الأولين ، وبيَّن ما يكونون عليه في الآخرة من الفضيحة والذل والهوان ، ذكر هنا ما أعده للمتقين من وجوه التكريم في دار النعيم ، ليظهر الفارق بين حال أهل السعادة وحال أهل الشقاوة ، وبين الأبرار

---

(١) القرطبي ١٠/ ٣٦

والفجار على طريقة القرآن في المقارنة بين الفريقين .

اللغـة : ﴿الزُّبُر﴾ الكتب السماوية جمع زبُور من زبرت الكتاب إذا كتبته ﴿يخسف﴾ خسفَ المكانُ خسوفاً إذا ذهب وغاب في الأرض ﴿يتفيأ﴾ يميل من جانب إلى جانب ومنه قيل للظل فيءٌ لأنه يفيء أي يرجع من جهة إلى أخرى ﴿داخرون﴾ صاغرون ذليلون ، والدخور الصغار والذل قال ذو الرمَّة :

فلم يبْـقَ إلا داخِـرٌ في مُخَيَّس ومنجَحِرٌ في غيرِ أرضِـكَ في جُحْرِ[1]

* ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن﴾

التفسـير : ﴿وقيل للذين اتقوا﴾ أي قيل للفريق الثاني وهم أهل التقوى والإِيمان ﴿ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً﴾ أي ماذا أنزل ربكم على رسوله ؟ قالوا أنزل خيراً قال المفسرون : هذا كان في أيام الموسم يأتي الرجل مكة فيسأل المشركين عن محمد وأمره فيقولون : إنه ساحر وكاهن وكذاب ، فيأتي المؤمنين ويسألهم عن محمد وعن ما أنزل الله عليه فيقولون : أنزل الله عليه الخير والهدى والقرآن[2] ، قال تعالى بياناً لجزائهم الكريم ﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ أي لهؤلاء المحسنين مكافأة في الدنيا بإحسانهم ﴿ولدار الآخرة خيرٌ﴾ أي وما ينالونه في الآخرة من ثواب الجنة خيرٌ وأعظم من دار الدنيا لفنائها وبقاء الآخرة ﴿ولنِعم دار المتقين﴾ أي ولنعم دار المتقين دار الآخرة وهي ﴿جناتُ عدنٍ﴾ أي جناتُ إقامة ﴿يدخلونها تجري من تحتها الأنهار﴾ أي يدخلون تلك الجنان التي تجري من بين أشجارها وقصورها الأنهار ﴿لهم فيها ما يشاءون﴾ أي لهم في تلك الجنات ما يشتهون بدون كدٍّ ولا تعب ، ولا انقطاعٍ ولا نَصب ﴿كذلك يجزي الله المتقين﴾ أي مثل هذا الجزاء الكريم يجزي الله عباده المتقين لمحارمه ، المتمسكين بأوامره ﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين﴾ أي هم الذين تقبض الملائكةُ أرواحهم حال كونهم أبراراً ، قد تطهروا من دنس الشرك والمعاصي ، طيبةً نفوسهم بلقاء الله ﴿يقولون سلامٌ عليكم﴾ أي تسلم عليهم الملائكة وتبشرهم بالجنة قال ابن عباس : الملائكة يأتونهم بالسلام من قِبل الله ، ويخبرونهم أنهم من أصحاب اليمين[3] ﴿أدخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ أي هنيئاً لكم الجنة بما قدمتم في الدنيا من صالح الأعمال ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكةُ أو يأتي أمرُ ربك﴾ عاد الكلام إلى تقريع المشركين وتوبيخهم على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا والمعنى ما ينتظر

(١) الطبري ١٤/١١٦ . (٢) الرازي ٢٠/٢٣ . (٣) الطبري ١٤/١٠١ .

كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ

هؤلاء إلا أحد أمرين : إما نزول الموت بهم ، أو حلول العذاب العاجل ، أو ليس في مصير المكذبين قبلهم عبرةٌ وغناء ؟ **﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾** أي كذلك صنع من قبلهم من المجرمين حتى حلَّ بهم العذاب **﴿وما ظلمهم اللهُ ولكنْ كانوا أنفسهم يظلمون﴾** أي ما ظلمهم الله بتعذيبهم وإهلاكهم ولكنْ ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي **﴿فأصابهم سيئات ما عملوا﴾** أي أصابهم عقوبات كفرهم وجزاء أعمالهم الخبيثة **﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾** أي أحاط ونزل بهم جزاء استهزائهم وهو العذاب الأليم في دركات الجحيم **﴿وقال الذين أشركوا﴾** أي قال أهل الكفر والإشراك وهم كفار قريش **﴿لو شاء اللهُ ما عبدنا من دونه من شيءٍ نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء﴾** أي لو شاء الله ما عبدنا الأصنام لا نحن ولا آباؤ نا ، ولا حرمنا ما حرمنا من البحائر والسوائب وغيرها ، قالوا هذا على سبيل الاستهزاء لا على سبيل الاعتقاد ، وغرضُهم أن إشراكهم وتحريمهم لبعض الذبائح والأطعمة واقع بمشيئة الله ، فهو راضٍ به وهو حقٌ وصواب[1] **﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾** أي مثل هذا التكذيب والاستهزاء فعل من قبلهم من المجرمين ، واحتجوا مثل احتجاجهم الباطل ، وتناسوا كسبهم لكفرهم ومعاصيهم ، وأن كل ذلك كان بمحض اختيارهم بعد أن أنذرتهم رسلهم عذاب النار وغضب الجبار **﴿فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾** أي ليس على الرسل إلا التبليغ ، وأمَّا أمر الهداية والإيمان فهو إلى الله جلَّ وعلا **﴿ولقد بعثنا في كل أمةٍ رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾** أي أرسلنا الرسل إلى جميع الخلق بأن اعبدوا الله ووحّدوه ، واتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم ، وكل من دعا إلى الضلال **﴿فمنهم من هدى اللهُ﴾** أي فمنهم من أرشده الله إلى عبادته ودينه فآمن **﴿ومنهم من حقَّت عليه الضلالة﴾** أي ومنهم من وجبت له الشقاوة والضلالة فكفر ، أعْلَمَ تعالى انه أرسل الرسل لتبليغ الناس دعوة الله فمنهم من استجاب فهداه الله ، ومنهم من كفر فأضلّه الله **﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة**

---

(١) قال في الظلال « وهذه مقولةٌ جديدة من مقولات المشركين في علة إشراكهم بالله ، فقد أحالوا اشراكهم وتحريمهم لبعض الذبائح والأطعمة ، على إرادة الله ومشيئته ، فلو شاء الله - في زعمهم - ألاّ يفعلوا شيئاً من هذا لمنعهم من فعله . . وهذا وهمٌ وخطأٌ في فهم معنى المشيئة الإلهية ، فالله سبحانه لا يريد لعباده الشرك ، ولا يرضى لهم أن يحرموا ما أحله لهم من الطيبات ، وإرادته هذه ظاهرة منصوص عليها في شرائعه على ألسنة الرسل الذين كلفوا بالتبليغ ولهذا قال تعالى بعده ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ فهذا أمره ، وهذه إرادته لعباده ، وقد شاءت ارادة الخالق الحكيم أن يخلق البشر باستعداد للهدى والضلال ، وأن يدع لهم مشيئة الاختيار »
ا . هـ ظلال القرآن ١٤/ ٦١ .

عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

المكذبين﴾ أي سيروا يا معشر قريش في أكناف الأرض ثم انظروا ماذا حلَّ بالأمم المكذبين لعلكم تعتبرون ! ﴿إن تحْرص على هداهم فإنَّ الله لا يهدي من يُضلُّ﴾ الخطاب للرسول ﷺ أي إن تحرص يا محمد على هداية هؤلاء الكفار فاعلم أنه تعالى لا يخلق الهداية جبراً وقسراً فيمن يخلق فيه الضلالة بسوء اختياره ﴿ومالهم من ناصرين﴾ أي ليس لهم من ينقذهم من عذابه تعالى ﴿وأقسموا بالله جهْد أيمانهم لا يبعث اللهُ من يموتُ﴾ أي حلف المشركون جاهدين في أيمانهم مبالغين في تغليظ اليمين بأن الله لا يبعث من يموت ، استبعدوا البعث ورأوه أمراً عسيراً بعد البلى وتفرق الأشلاء والذرات ، قال تعالى رداً عليهم ﴿بلى وعداً عليه حقاً﴾ أي بلى ليبعثنَّهم ، وعد بذلك وعداً قاطعاً لا بدَّ منه ﴿ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون قدرة الله فينكرون البعث والنشور ﴿ليُبيِّن لهم الذي يختلفون فيه﴾ أي سيبعثهم ليكشف ضلالهم في إنكارهم البعث ، وليظهر لهم الحق فيما اختلفوا فيه ، وليحقق العدل وهو التمييز بين المطيع والعاصي ، وبين المحق والمبطل ، وبين الظالم والمظلوم ﴿وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين﴾ أي وليعلم الجاحدون للبعث ، والمكذبون لوعد الله الحق أنهم كانوا كاذبين فيما يقولون ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كنْ فيكون﴾ أي لا يحتاج الأمر إلى كبير جهد وعناء فإنا نقول للشيء كنْ فيكون قال المفسرون : هذا تقريبٌ للأذهان ، والحقيقةُ أنه تعالى لو أراد شيئاً لكان بغير احتياج إلى لفظ ﴿كن﴾ ﴿والذين هاجروا في الله من بعد ما ظُلموا﴾ أي تركوا الأوطان والأهل والقرابة في شأن الله وابتغاء رضوانه من بعد ما عُذّبوا في الله قال القرطبي : هم صهيب وبلال وخبّاب وعمّار ، عذّبهم أهل مكة حتى قالوا لهم ما أرادوا ، فلما خلّوهم هاجروا إلى المدينة[1] ﴿لنبوئنهم في الدنيا حسنةً﴾ أي لنسكننهم داراً حسنة خيراً مما فقدوا قال ابن عباس : بوأهم الله المدينة فجعلها لهم دار هجرة ﴿ولأجرُ الآخرة أكبرُ لو كانوا يعلمون﴾ أي ثواب الآخرة أعظم وأشرف وأكبر لو كان الناس يعلمون ﴿الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي هم الذين صبروا على الشدائد والمكاره ، فهجروا الأوطان ، وفارقوا الإخوان ، واعتمدوا على الله وحده يبتغون أجره

(١) القرطبي ١٠/١٠٧

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ

ومثوبته ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نُوحي إليهم﴾ أي وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلى الأمم الماضية إلا بشراً نوحي إليهم كما أوحينا إليك قال المفسرون : أنكر مشركو قريش نبوة محمد ﷺ وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً ، فهلاً بعث إلينا ملكاً فنزلت[1] ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ أي اسألوا يا معشر قريش العلماء بالتوراة والإنجيل يخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا بشراً إن كنتم لا تعلمون ذلك ﴿بالبيّنات والزبر﴾ أي أرسلناهم بالحجج والبراهين الساطعة الدالة على صدقهم وبالزبُر أي الكتب المقدسة ﴿وأنزلنا إليك الذكر﴾ أي القرآن المذكّر الموقظ للقلوب الغافلة ﴿لتبيّنَ للناس ما نُزّل إليهم﴾ أي لتعرّف الناس الأحكام ، والحلال والحرام ﴿ولعلّهم يتفكرون﴾ أي ولعلهم يتفكرون في هذا القرآن فيتعظون ﴿أفأمنَ الذين مكروا السيئاتِ أن يخسف اللهُ بهم الأرض﴾ أي هل أمن هؤلاء الكفار الذين مكروا برسول الله ﷺ واحتالوا لقتله في دار الندوة ، هل أمنوا أن يخسف الله بهم الأرض كما فعل بقارون ؟ ﴿أو يأتيهم العذابُ من حيثُ لا يشعرون﴾ أي يأتيهم العذاب بغتةً في حال أمنهم واستقرارهم ، من حيث لا يخطر ببالهم ومن جهةٍ لا يعلمون بها ﴿أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين﴾ أي يهلكهم في أثناء أسفارهم للتجارة واشتغالهم بالبيع والشراء فإنهم على أي حال لا يعجزون الله ﴿أو يأخذهم على تخوّفٍ﴾ أي يهلكهم الله حال كونهم خائفين مترقبين لنزول العذاب قال ابن كثير : فإنه يكون أبلغ وأشد فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديدٌ[2] ﴿فإنَّ ربكم لرءوفٌ رحيم﴾ أي حيث لم يعاجلكم بالعقوبة ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء﴾ أي أولم يعتبر هؤلاء الكافرون ويروا آثار قدرة الله وأنه ما من شيء من الجبال والأشجار والأحجار ومن سائر ما خلق الله ﴿يتفيؤا ظلالُه عن اليمين والشمائل سُجَّداً لله﴾ أي تميل ظلالها من جانب إلى جانب ساجدة للَّهِ سجود خضوعٍ لمشيئته تعالى وانقياد ، لا تخرج عن إرادته ومشيئته ﴿وهم داخرون﴾ أي خاضعون صاغرون فكل هذه الأشياء منقادة لقدرة الله وتدبيره فكيف يتعالى ويتكبر على طاعته أولئك الكافرون ؟ ﴿ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون﴾ أي

(١) زاد المسير ٤/ ٤٤٩ . (٢) المختصر ٢/ ٣٣٣ .

﴿مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠)﴾

له تعالى وحده يخضع وينقاد جميع المخلوقات بما فيهم الملائكة فهم لا يستكبرون عن عبادته ﴿يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يُؤمرون﴾ أي يخافون جلال الله وعظمته ، ويمتثلون أوامره على الدوام .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ الإيجاز بالحذف ﴿قالوا خيراً﴾ أي قالوا أنزل خيراً .

٢ ـ الإطناب في قوله ﴿ما عبدنا من دونه من شيء . . ولاحرمنا من دونه من شيء﴾ .

٣ ـ الطباق في ﴿هَدى الله . . وحقّتْ عليه الضلالةُ﴾ وفي ﴿لا يهدي منْ يُضل﴾ وفي ﴿اليمين والشمائل﴾ .

٤ ـ صيغة المبالغة في ﴿لرءوفٌ رحيم﴾ لأن فعول وفعيل من صيغ المبالغة .

٥ ـ ذكر الخاص بعد العام في ﴿يسجد ما في السموات وما في الأرض . . والملائكةُ﴾ زيادةً في التعظيم والتكريم للملائكة الأطهار .

٦ ـ السجع في ﴿يتفكرون ، داخرون ، يشعرون﴾ .

فَائِدَة : استنبط بعض العلماء من قوله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً﴾ أن النبوة لا تكون إلا في الرجال ، وأما النساء فليس فيهن نبيَّة ، وهو استنباط دقيق .

تَنْبِيه : قال ابن تيمية في منهاج السنة : « والاحتجاج بالقدر حجةٌ باطلة داحضة ، باتفاق كل ذي عقلٍ ودين من جميع العالمين ، ولهذا لما قال المشركون ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤ نا﴾ ردَّ الله عليهم بقوله﴿قل هل عندكم من علمٍ فتخرجوه لنا إن تتَّبعون إلا الظنَّ وإن أنتم إلا تخرصون﴾والمشركون يعلمون بفطرتهم وعقولهم أن هذه الحجة باطلة ، فإنَّ أحدهم لو ظلم الآخر ، أو أراد قتل ولده ، أو الزنى بزوجته ، أو كان مصراً على الظلم فنهاه الناس عن ذلك فقال : لو شاء الله لم أفعل هذا ، لم يقبلوا منه هذه الحجة ولا يقبلها هو من غيره ، وإنما يحتج بها المحتج دفعاً للّوم عن نفسه بلا وجه . . »[1] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين . . إلى . . إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ من آية (٥١) إلى نهاية آية (٧٤) .

---

(١) عن محاسن التأويل الجزء العاشر بإيجاز .

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى أن كل ما في الكون منقادٌ لأمر الله ، خاضعٌ لسلطانه ، أمر هنا بإفراده بالعبادة لأنه الخالق الرازق ، ثم ضرب الأمثال في ضلالات أهل الجاهلية ، وذكَّر الناس بنعمه الجليلة ليعبدوه ويشكروه .

اللغَــة : ﴿واصباً﴾ دائماً ولازماً قال الجوهري : وصبَ الشيء وصوباً أي دام ومنه ﴿ولهم عذابٌ واصب﴾ أي دائم وقال الشاعر : « وهزيمٌ رعده واصب »[1] ﴿تجأرون﴾ الجؤار : رفع الصوت بالدعاء والتضرع يقال : جأر أي صاح قال الأعشى يصف بقرة :

فطافت ثلاثاً بينَ يومٍ وليلةٍ وكانَ النكيرُ أن تُطيف وتجْأرا[2]

﴿كظيم﴾ ممتلىء غماً وغيظاً ، والكظم أن يطبق الفم فلا يتكلم من الغيظ ﴿يتوارى﴾ يختفي ﴿هُون﴾ هَوانٍ وذُل ﴿فرث﴾ الفرْثُ : الزبل الذي ينزل إلى الكَرِش أو المِعَى ﴿سائغاً﴾ لذيذاً هيناً لا يغصُّ به من شربه ﴿ذُللاً﴾ جمع ذلول وهو المنقاد المسخَّر بلا عناء ﴿حفدة﴾ الحفدة : قال الأزهري أولاد الأولاد ، والحفدة : الخدم والأعوان .

* وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ

التفسِير : ﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين﴾ أي لا تعبدوا إلهين فإن الإله الحق لا يتعدد ﴿إنما هو إله واحد﴾ أي إلهكم واحد أحد فردٌ صمد ﴿فإياي فارهبون﴾ أي خافون دون سواي ﴿وله ما في السموات والأرض﴾ أي ملكاً وخلقاً وعبيداً ﴿وله الدين واصباً﴾ أي له الطاعة والانقياد واجباً ثابتاً فهو الإله الحق ، وله الطاعة خالصة ﴿أفغير اللهِ تتقون﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ أي كيف تتقون وتخافون غيره ، ولا نفع ولا ضر إلا بيده ؟ ﴿وما بكم من نعمةٍ فمن الله﴾ أي ما تفضَّل عليكم أيها الناس من رزقٍ ونعمةٍ وعافيةٍ ونصر فمن فضلِ اللهِ وإحسانه ﴿ثم إذا مسَّكم الضُرُّ فإليه تجْأرون﴾ أي ثم إذا أصابكم الضُرُّ من فقرٍ ومرضٍ وبأساء فإليه وحده ترفعون أصواتكم بالدعاء ،والغرض أنكم تلجأون إليه وحده ساعة العسرة والضيق ، ولا تتوجهون إلا إليه دون الشركاء ﴿ثم إذا كشف الضُرَّ عنكم إذا فريقٌ منكم بربهم يشركون﴾ أي إذا رفع عنكم البلاء رجع فريق منكم إلى الإشراك بالله قال القرطبي : ومعنى الكلام التعجيبُ من الإشراك بعد النجاة من الهلاك[3] ﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ أي ليجحدوا نعمته تعالى من كشف الضر والبلاء ﴿فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ أي تمتعوا بدار الفناء فسوف تعلمون عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب ، وهو أمرٌ

(١) البيت لحسان والهزيم : السحاب المتشقق بالمطر كذا في الطبري ١٤/ ١١٨ . (٢) القرطبي ١٠/ ١١٥ . (٣) القرطبي ١٠/ ١١٥ .

تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾

للتهديد والوعيد **﴿ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم﴾** أي يجعلون للأصنام التي لا يعلمون ربوبيتها ببرهان ولا بحجة[1] نصيباً من الزرع والأنعام تقرباً إليها **﴿تاللّهِ لتُسْألُنَّ عما كنتم تفترون﴾** أي والله أيها المشركون لتُسألُنَّ عما كنتم تختلقونه من الكذب على الله ، والمراد سؤال توبيخٍ وتقريع **﴿ويجعلون لله البنات﴾** أي ومن جهل هؤلاء المشركين وسفاهتهم أن جعلوا الملائكة بنات الله ، فنسبوا إلى الله البنات وجعلوا لهم البنين **﴿سبحانه﴾** أي تنزَّه الله وتعظَّم عن هذا الإفك والبهتان **﴿ولهم ما يشتهون﴾** أي ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون من البنين مع كراهتهم أنهم يأنفون من البنات **﴿وإذا بُشّر أحدهم بالأنثى﴾** أي إذا أُخبر أحدهم بولادة بنت **﴿ظلَّ وجهه مسوداً﴾** أي صار وجهه متغيراً من الغم والحزن قال القرطبي : وهو كناية عن الغم والحزن وليس يريد السواد ، والعربُ تقول لكل من لقي مكروهاً قد اسودَّ وجهه[2] **﴿وهو كظيم﴾** أي مملوءٌ غيظاً وغماً **﴿يتوارى من القوم من سوء ما بُشّر به﴾** أي يختفي من قومه خوفاً من العار الذي يلحقه بسبب البنت ، كأنها بليَّة وليست هبةً إلهية ، ثم يفكر فيما يصنع **﴿أيمسكه على هُونٍ أم يدسُّه في التراب﴾** أي أيمسك هذه الأنثى على ذلٍ وهوان أم يدفنها في التراب حية ؟ **﴿ألا ساءَ ما يحكمون﴾** أي ساء صنيعهم وساء حكمهم ، حيث نسبوا لخالقهم البنات - وهي عندهم بتلك الدرجة من الذل والحقارة - وأضافوا البنين إليهم ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً **﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مثلُ السوء﴾** أي لهؤلاء الذين لم يصدّقوا بالآخرة ونسبوا للّهِ البنات سفهاً وجهلاً ، صفةُ السوء القبيحة التي هي كالمثل في القبح ، فالنقصُ إنما ينسب إليهم لا إلى الله **﴿ولله المثلُ الأعلى﴾** أي له جل وعلا الوصف العالي الشأن ، والكمال المطلق ، والتنزه عن صفات المخلوقين **﴿وهو العزيز الحكيم﴾** أي العزيزُ في ملكه ، الحكيمُ في تدبيره ثم أخبر تعالى عن حلمه بالعباد مع ظلمهم فقال **﴿ولو يؤاخذُ الله الناس بظلمهم﴾** أي لو يؤاخذهم بكفرهم ومعاصيهم ويعاجلهم بالعقوبة **﴿ما ترك عليها من دابة﴾** أي ما ترك على الأرض أحداً يدبُّ على ظهرها من إنسانٍ وحيوان **﴿ولكنْ يؤخرهم إلى أجلٍ مسمًّى﴾** أي ولكنْ يؤخرهم إلى وقتٍ معيَّن تقتضيه الحكمة **﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون﴾** أي فإذا جاء الوقت المحدَّد

(١) وقيل المعنى يجعلون لآلهتهم التي لا علم لها لأنها جماد نصيباً مما أعطاهم الله . (٢) القرطبي ١٠/١١٦ .

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ

لهلاكهم لا يتأخرون برهةً يسيرةً من الزمن ولا يتقدمون عليها كقوله ﴿وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾ ﴿ويجعلون للّه ما يكرهون﴾ أي يجعلون له تعالى البنات مع كراهتهم لهنَّ ، وهو تأكيد لما سبق للتقريع والتوبيخ ﴿وتصفُ ألسنتُهم الكذبَ أنَّ لهم الحُسْنى﴾ أي يجعلون لله ما يجعلون ومع ذلك يزعمون أنَّ لهم العاقبة الحسنى عند الله وأنهم أهل الجنة ﴿لا جَرم أنَّ لهم النار﴾ أي حقاً إنَّ لهم مكان ما أملّوا نار جهنم التي ليس وراء عذابها عذاب ﴿وأنهم مفرَطون﴾ أي معجَّلون إليها ومُقدَّمون[1] ، ثم ذكر تعالى نعمته في إرسال الرسل ليتأسى صلوات الله عليه بهم في الصبر على تحمل الأذى فقال ﴿تاللّهِ لقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلِك فزيَّن لهم الشيطانُ أعمالَهم﴾ أي والله لقد بعثنا قبلك يا محمد رسلاً إلى أقوامهم فحسَّن الشيطان أعمالهم القبيحة حتى كذبوا الرسل وردّوا عليهم ما جاءوهم به من البينات ﴿فهو وليُّهم اليوم﴾ أي فالشيطان ناصرهم اليوم في الدنيا وبئس الناصر ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب مؤلم ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبيِّن لهم الذي اختلفوا فيه﴾ أي ما أنزلنا عليك القرآن يا محمد إلا لتبيِّن للناس ما اختلفوا فيه من الدين والأحكام لتقوم الحجة عليهم ﴿وهدى ورحمةً لقومٍ يؤمنون﴾ أي وأنزلنا القرآن هدايةً للقلوب ، ورحمة وشفاءً لمن آمن به ، ثم ذكر تعالى عظيم قدرته الدالة على وحدانيته فقال ﴿واللهُ أنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ أي أنزل بقدرته الماء من السحاب فأحيا بذلك الماء النبات والزرع بعد جدب الأرض ويُبسها ﴿إنَّ في ذلك لآيةً لقومٍ يسمعون﴾ أي إن في هذا الإحياء لدلالةً باهرة على عظيم قدرته لقوم يسمعون التذكير فيتدبرونه ويعقلونه ﴿وإنَّ لكم في الأنعام لعبرة﴾ أي وإنَّ لكم أيها الناس في هذه الأنعام « الإبل والبقر والضأن والمعز » لعظةً وعبرة يعتبر بها العقلاء ، ففي خلقها وتسخيرها دلالة على قدرة الله وعظمته ووحدانيته ﴿نُسقيكم ممَّا في بطونه﴾ أي نسقيكم من بعض الذي في بطون هذه الأنعام ﴿من بين فَرْثٍ ودمٍ لبناً خالصاً﴾ أي من بين الروث والدم ذلك الحليب الخالص واللبن النافع[2]

(١) هذا قول قتادة والحسن من الفرط وهو السابق إلى طلب الماء ، وقال مجاهد : « مُفرطون » متركون منسيُّون في النار .

(٢) قال الزمخشري : والآية بيانٌ للعبرة فإن الله سبحانه يخلق اللبن وسطاً بين الفرث والدم يكتنفانه وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغي أحدهما عليه بلونٍ ، ولا طعم ، ولا رائحة ، فسبحان الله ما أعظم قدرته ، وألطف حكمته لمن تفكر وتأمل . الكشاف ٢/ ٦١٥ .

مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾

﴿سائغاً للشاربين﴾ أي سهل المرور في حلقهم ، لذيذاً هنيئاً لا يغصُّ به من شربه **﴿ومن ثمراتِ النخيل والأعنابِ تتخذون منه سكراً﴾** أي ولكم مما أنعم الله به عليكم من ثمراتِ النخيل والأعناب ما تجعلون منه خمراً يسكر قال الطبري : وإنما نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر ثم حُرِّمتْ بعد[1] **﴿ورزقاً حسناً﴾** كالتمر والزبيب قال ابن عباس : الرزق الحسن : ما أُحلَّ من ثمرتها ، والسكر : ما حُرِّم من ثمرتها . **﴿إنَّ في ذلك لآيةً لقومٍ يعقلون﴾** أي لآيةً باهرة ، ودلالة قاهرة على وحدانيته سبحانه لقومٍ يتدبرون بعقولهم قال ابن كثير : وناسب ذكرُ العقل هنا لأنه أشرفُ ما في الإنسان ، ولهذا حرَّم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانةً لعقولها[2] ، ولما ذكر تعالى ما يدل على باهر قدرته ، وعظيم حكمته من إخراج اللبن من بين فرثٍ ودمٍ ، وإخراج الرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب ، ذكر إخراج العسل الذي جعله شفاءً للناس من النحل ، وهي حشرةٌ ضعيفة وفيها عجائب بديعة وأمور غريبة ، وكل هذا يدل على وحدانية الصانع وقدرته وعظمته فقال تعالى **﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون﴾** المراد من الوحي : الإلهامُ والهدايةُ أي ألهمها مصالحها وأرشدها إلى بناء بيوتها المسدَّسة العجيبة تأوي إليها في ثلاثة أمكنة : الجبال ، والشجر ، والأكوار التي يبنيها الناس **﴿ثم كلي من كلّ الثمرات﴾** أي كلي من كل الأزهار والثمار التي تشتهينها من الحلو ، والمر ، والحامض ، فإن الله بقدرته يحيلها إلى عسلٍ **﴿فاسلكي سُبُل ربك ذُللاً﴾** أي أدخلي الطرق في طلب المرعى حال كونها مسخرةً لك لا تضلين في الذهاب أو الإياب **﴿يخرج من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانُه فيه شفاءٌ للناس﴾** أي يخرج من بطون النحل عسلٌ متنوعٌ منه أحمر ، وأبيض ، وأصفر ، فيه شفاءٌ للناس من كثيرٍ من الأمراض قال الرازي فإن قالوا : كيف يكون شفاءً للناس وهو يضر بالصفراء ؟ فالجواب أنه تعالى لم يقل : إنه شفاءٌ لكل الناس ، ولكل داء ، وفي كل حال ، بل لمّا كان شفاء للبعض ومن بعض الأدواء صلح بأن يوصف بأنَّ فيه شفاء[3] **﴿إنَّ في ذلك لآية لقومٍ يتفكرون﴾** أي لعبرة لقومٍ يتفكرون في عظيم قدرة الله ، وبديع صنعه **﴿والله خلقكم ثم يتوفاكم﴾** أي خلقكم بقدرته بعد أن لم تكونوا شيئاً ثم يتوفاكم عند انقضاء آجالكم **﴿ومنكم من يُردُّ إلى أرذل العُمُر﴾** أي يُردُّ إلى أردء وأضعف العمر وهو الهَرم والخرف **﴿لكي لا يعلم بعد علمٍ شيئاً﴾** أي لينسى ما يعلم فيشبه الطفل في نقصان القوة والعقل **﴿إنَّ الله عليم قدير﴾** أي عليمٌ بتدبير خلقه ،

(١) الطبري ١٤/ ١٣٤ . (٢) التفسير الكبير ٢٠/ ٧٢ . (٣) المختصر ٢/ ٣٣٦ .

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

قديرٌ على ما يريده ، فكما قدر على نقل الإنسان من العلم إلى الجهل ، فإنه قادر على إحيائه بعد إماتته قال عكرمة : من قرأ القرآن لم يُردَّ إلى أرذل العمر[1] ﴿والله فضَّل بعضكم على بعض في الرزق﴾ أي فاوت بينكم في الأرزاق فهذا غنيٌّ وذاك فقير ، وهذا مالكٌ وذاك مملوك ﴿فما الذين فُضّلوا برادّي رزقهم على ما ملكتْ أيمانهم فهم فيه سواء﴾ أي ليس هؤلاء الأغنياء بمشركين لعبيدهم المماليك فيما رزقهم الله من الأموال حتى يستووا في ذلك مع عبيدهم ، وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى للمشركين قال ابن عباس : لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم ، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني[2] ؟ ﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾ الاستفهام للإنكار أي أيشركون معه غيره وهو المنعم المتفضل عليهم ؟ ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ أي هو تعالى بقدرته خلق النساء من جنسكم وشكلكم ليحصل الائتلاف والمودة والرحمة بينكم ﴿وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفَدَة﴾ أي جعل لكم من هؤلاء الزوجات الأولاد وأولاد الأولاد ، سمّوا حفدة لأنهم يخدمون أجدادهم ويسارعون في طاعتهم ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ أي رزقكم من أنواع اللذائذ من الثمار والحبوب والحيوان ﴿أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون﴾ أي أبعد تحقق ما ذُكر من نعم الله يؤمنون بالأوثان ويكفرون بالرحمن ؟ وهو استفهام للتوبيخ والتقريع ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً﴾ أي ويعبد هؤلاء المشركون أوثاناً لا تقدر على إنزال مطر ، ولا على إخراج زرعٍ أو شجر ، ولا تقدر أن ترزقهم قليلاً أو كثيراً ﴿ولا يستطيعون﴾ أي ليس لها ذلك ولا تقدر عليه لو أرادت ﴿فلا تضربوا للّهِ الأمثال﴾ أي لا تمثّلوا لله الأمثال ، ولا تشبّهوا له الأشباه ، فإنه تعالى لا مثل له ولا نظير ولا شبيه ﴿إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أي يعلم كل الحقائق ، وأنتم لا تعلمون قدر عظمة الخالق .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة من صنوف البيان والبديع ما يلي :

١ ـ الالتفات من التكلم إلى الغيبة من الغيبة الى المتكلم ﴿فإياي فارهبون﴾ لتربية المهابة والرهبة في القلوب مع إفادة القصر أي لا تخافوا غيري .

(١) زاد المسير ٤/٤٦٨ . (٢) المختصر ٢/٣٣٨ .

٢ ـ الطباق في ﴿يستقدمون . . ويستأخرون﴾ وفي ﴿أحيا الأرض بعد موتها﴾ وفي ﴿يؤمنون . . ويكفرون﴾ .

٣ ـ الجناس الناقص بين ﴿كلي من كلّ﴾ .

٤ ـ الاعتراض ﴿ويجعلون لله البنات ـ سبحانه ـ ولهم ما يشتهون﴾ فلفظة (سبحانه) معترضة لتعجيب الخلق من هذا الجهل القبيح .

٥ ـ صيغة المبالغة في ﴿العزيز الحكيم﴾ و﴿عليمٌ قدير﴾ .

٦ ـ السجع ﴿يعقلون ،يعرشون، يجحدون ، يكفرون﴾ .

٧ ـ التهديد والوعيد ﴿فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ .

٨ ـ قوله تعالى ﴿وتصف ألسنتهم الكذب﴾ قال الشهاب : هذا من بليغ الكلام وبديعه أي ألسنتهم كاذبة كقولهم ﴿عينُها تصفُ السحر﴾ أي ساحرة ، وقدُّها يصف الهيف أي هيفاء .

* * *

قال الله تعالى: ﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً. . إلى. . . يعظكم لعلم تذكرون﴾

من آية (٧٥) إلى نهاية آية (٩٠)

المناسبة : لما ذكر تعالى سفاهة المشركين في عبادتهم لغير الله ، أعقبه بذكر مثلين توضيحاً لبطلان عبادة الأوثان التي لا تضر ولا تنفع ، ولا تستجيب ولا تسمع ، ثم ذكَّر الناس ببعض النِّعم التي أفاضها عليهم ليعبدوه ويشكروه ، ويُخلصوا له العمل طائعين منيبين .

اللغة : ﴿أبكم﴾ الأبكم : الأخرس الذي لا ينطق ﴿كَلٌّ﴾ الكَلُّ : الثقيل الذي هو عيال على الغير وقد يسمى اليتيم كلاً لثقله على من يكفله قال الشاعر :

أكولٌ لمالِ الكلِّ قبلَ شبابه ... إذا كانَ عظْمُ الكلِّ غيرَ شديد[1]

﴿لمح﴾ اللَّمْح : النظر بسرعة مثل الخطفة يقال لَمحه لمحاً ولمحاناً ﴿ظعنكم﴾ الظَّعْنُ : السفر والرحيل لطلب الكلأ ، والظعينةُ المرأة المسافرة ﴿أوبارها﴾ الوبر للإبل كالصوف للغنم ﴿ظلالاً﴾ الظلالُ : كل ما يستظلُّ به من البيوت والشجر ﴿أكناناً﴾ جمع كنّ مثل حِمل وأحمال وهو كل ما يحفظ ويقي من الريح والمطر

(١) البحر المحيط ٥/٥١٨ .

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ﴾

وغيرهما ﴿سرابيل﴾ جمع سربال قال الزجاج : كلُّ ما لبسته من قميص أو درع فهو سربال[1] .

التفسير : ﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومَنْ رزقناه منا رزقاً حسناً﴾ هذا مثلٌ ضربه الله تعالى لنفسه وللأصنام التي أشركوها مع الله جل وعلا أي مثلُ هؤلاء في إشراكهم مثلُ من سوَّى بين عبدٍ مملوكٍ عاجزٍ عن التصرف ، وبين حرٍّ مالك يتصرف في أمره كيف يشاء ، مع أنهما سيّان في البشرية والمخلوقية لله سبحانه وتعالى ، فما الظنُّ بربِّ العالمين حيث يشركون به أعجز المخلوقات ؟ ﴿فهو يُنفق منه سراً وجهراً﴾ أي ينفق ماله في الخفاء والعلانية ابتغاء وجه الله ﴿هل يستوون﴾ ؟ أي هل يستوي العبيد والأحرار الذين ضُرب لهم المثل ، فالأصنام كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء ، والله تعالى له المُلك ، وبيده الرزق ، وهو المتصرف في الكون كيف يشاء ، فكيف يُسوَّى بينه وبين الأصنام ؟ ﴿الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي شكراً للهِ على بيان هذا المثال ووضوح الحق فقد ظهرت الحجة مثل الشمس الساطعة ، ولكنَّ المشركين بسفههم وجهلهم يسوّون بين الخالق والمخلوق ، والمالكِ والمملوك ﴿وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء﴾ هذا هو المثل الثاني للتفريق بين الإِله الحق والأصنام الباطلة قال **مجاهد** : هذا مثلٌ مضروبٌ للوثن والحقّ تعالى[2] ، فالوثنُ أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ، ولا يقدر على شيء بالكلية لأنه إما حجرٌ أو شجر ، ﴿وهو كَلٌّ على مولاه﴾ أي ثقيل عالة على وليِّه أو سيده ﴿أينما يوجّهه لا يأتِ بخير﴾ أي حيثما أرسله سيده لم ينجح في مسعاه لأنه أخرس ، بليد ، ضعيف ﴿هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراطٍ مستقيم﴾ أي هل يتساوى هذا الأخرس ، وذلك الرجل البليغ المتكلم بأفصح بيان ، وهو على طريق الحق والاستقامة ، مستنيرٌ بنور القرآن ؟ وإذا كان العاقل لا يسوّي بين هذين الرجلين ، فكيف تمكن التسوية بين صنم أو حجر[3] ،وبين الله سبحانه وهو القادر العليم ، الهادي إلى الصراط المستقيم ؟ ﴿ولله غيب

---

(١) قال الإمام ابن القيم : ذكر الله تعالى مثلين : فالمثل الأول ضربه لنفسه سبحانه والأوثان ، فالله هو المالك لكل شيء ، ينفق كيف يشاء على عبيده سراً وجهراً ، وليلاً ونهاراً ، والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء ، فكيف يجعلونها شركاء إليَّ ويعبدونها من دوني مع التفاوت العظيم والفرق المبين ؟ وأما المثل الثاني فالصنم الذي يُعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم ، لا يعقل ولا ينطق ، بل هو أبكم القلب واللسان ، ومع هذا لا يقدر على شيء البتة ، أينما أرسلته لا يأتيك بخير ، ولا يقضي لك حاجة ، والله سبحانه حيٌّ قادر ، متكلم ، يأمر بالعدل وهو على صراطٍ مستقيم ، وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد . أعلام الموقعين لابن القيم . (٢) الرازي ٢٠/٩٣ . (٣) مختصر ابن كثير ٢/ ٣٤٠ .

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ

﴿السموات والأرض﴾ أي هو سبحانه المختص بعلم الغيب ، يعلم ما غاب عن الأبصار في السموات والأرض ﴿وما أمرُ الساعةِ إلا كلمحِ البصر أو هو أقرب﴾ أي ما شأن الساعة في سرعة المجيء إلا كنظرة سريعة بطرف العين ، بل هو أقرب لأنه تعالى يقول للشيء : كن فيكون ، وهذا تمثيل لسرعة مجيئها ولذلك قال ﴿إنَّ الله على كل شيء قدير﴾ أي قادرٌ على كل الأشياء ومن جملتها القيامة التي يكذب بها الكافرون ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾ أي أخرجكم من أرحام الأمهات لا تعرفون شيئاً أصلاً ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾ أي خلق لكم الحواس التي بها تسمعون وتبصرون وتعقلون لتشكروه على نعمه وتحمدوه على آلائه ﴿ألمْ يروا إلى الطير مسخراتٍ في جوِّ السماء﴾ هذا من الأدلة على قدرة الله تعالى ووحدانيته والمعنى : ألم يشاهدوا الطيور مذلّلات للطيران في ذلك الفضاء الواسع بين السماء والأرض ﴿ما يُمسكهنَّ إلا الله﴾ أي ما يمسكهن عن السقوط عند قبض أجنحتهنَّ وبسطها إلا هو سبحانه ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنون﴾ أي إنَّ فيما ذُكر لآيات ظاهرة ، وعلامات باهرة على وحدانيته تعالى لقوم يصدِّقون بما جاءت به رسل الله ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً﴾ هذا تعداد لنعم الله على العباد أي جعل لكم هذه البيوت من الحجر والمدر لتسكنوا فيها أيام مُقامكم في أوطانكم ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً﴾ أي وجعل لكم بيوتاً أُخرى وهي الخيام والقُباب المتخذة من الشعر والصوف والوبَر ﴿تستخفونها يوم ظَعْنِكم ويومَ إقامتكم﴾ أي تستخفون حملها ونقلها في أسفاركم ، وهي خفيفةٌ عليكم في أوقات السفر والحضَر ﴿ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً﴾ أي وجعل لكم من صوف الغنم ، ووبر الإِبل ، وشعر المعز ما تلبسون وتفرشون به بيوتكم ﴿ومتاعاً إلى حين﴾ أي تنتفعون وتتمتعون بها إلى حين الموت[1] ﴿والله جعل لكم مّما خلق ظلالاً﴾ أي جعل لكم من الشجر والجبل والأبنية وغيرها ظلالاً تتقون بها حرَّ الشمس ﴿وجعل لكم من الجبال أكناناً﴾ أي وجعل لكم في الجبال مواضع تسكنون فيها كالكهوف والحصون قال الرازي : لما كانت بلادُ العرب شديدة الحر ، وحاجتهم إلى الظل ودفع الحر شديدة ، فلهذا ذكر تعالى هذه المعاني في معرض

(١) هذا قول ابن عباس ومجاهد ، وقال مقاتل : تنتفعون بها إلى أن تبلى .

﴿ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ﴾

النعمة العظيمة[1] ﴿وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرَّ﴾ أي جعل لكم الثياب من القطن والصوف والكتان لتحفظكم من الحر والبرد ﴿وسرابيل تقيكم بأسكم﴾ أي ودروعاً تشبه الثياب تتقون بها شر أعدائكم في الحرب ﴿كذلك يتم نعمته عليكم﴾ أي مثل ما خلق هذه الأشياء لكم وأنعم بها عليكم فإنه يُتم نعمة الدنيا والدين عليكم ﴿لعلكم تُسلمون﴾ أي لتخلصوا للهِ الربوبية ، وتعلموا أنه لا يقدر على هذه الإنعامات أحدٌ سواه ﴿فإن تولَّوا فإنما عليك البلاغ المبين﴾ أي فإن أعرضوا عن الايمان ولم يؤ منوا بما جئتهم به يا محمد فلا ضرر عليك لأن وظيفتك التبليغ وقد بلَّغت الرسالة وأديت الأمانة ﴿يعرفون نعمةَ الله ثم ينكرونها﴾ أي يعرف هؤ لاء المشركون نِعَم الله التي أنعم بها عليهم ، ويعترفون بأنها من عند الله ثم ينكرونها بعبادتهم غير المنعم **وقال السُّدي** : نعمةُ الله هي محمدﷺ عرفوا نبوته ، ثم جحدوها وكذّبوه[2] ﴿وأكثرهُم الكافرون﴾ أي أكثرهم يموتون كفاراً وفيه إشارة إلى أن بعضهم يهتدي للإسلام وأما أكثرهم فمصرّون على الكفر والضلال ﴿ويوم نبعث من كل أمةٍ شهيداً﴾ أي ويوم القيامة نحشر الخلائق للحساب ونبعث في كل أمة نبيَّها يشهد عليها بالايمان والكفر ﴿ثم لا يُؤذن للذين كفروا﴾ أي لا يؤ ذن للذين كفروا في الاعتذار لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه ﴿ولا هم يُسْتعتبون﴾ أي لا يُطلب منهم أن يسترضوا ربَّهم بقولٍ أو عمل ، فقد فات أوان العتاب والاسترضاء ، وجاء وقت الحساب والعقاب **قال القرطبي** : العُتبى هي رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب ، وأصل الكلمة من العتب وهي الموجدة فإذا وجد عليه يقال : عتَب ، وإذا رجع إلى مسرَّتك فقد أعتب[3] ﴿وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يُخفف عنهم﴾ أي وإذا رأى المشركون عذاب جهنم فلا يُفتَّر عنهم ساعة واحدة ﴿ولا هم يُنظرون﴾ أي لا يؤ خرون ولا يُمهلون ﴿وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم﴾ أي وإذا أبصر المشركون شركاءهم الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ويزعمون أنهم شركاء الله في الألوهية﴿قالوا ربَّنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك﴾ أي هؤ لاء الذين عبدناهم من دونك **قال البيضاوي** : وهذا اعترافٌ بأنهم كانوا مخطئين في ذلك والتماس لتخفيف العذاب[4] ﴿فألقوا إليهم القولَ إنكم لكاذبون﴾ أي أجابوهم بالتكذيب فيما قالوا في تقرير وتوكيد ، وذلك مما يوجب زيادة الغم والحسرة في قلوبهم ﴿وألقوا إلى الله يومئذٍ السَّلم﴾

---
(١) التفسير الكبير ٢٠/٩٣ . (٢) وهذا اختيار الطبري . (٣) القرطبي ١٠/١٦٣ . (٤) البيضاوي ٢٩٦ .

عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ * إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

أي استسلم أولئك الظالمون لحكم الله تعالى بعد الإباء والاستكبار في الدنيا ﴿**وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون**﴾ أي بطل ما كانوا يؤملون من أن آلهتهم تشفع لهم عند الله ، ثم أخبر تعالى عن مآلهم بعد أن أخبر عن حالهم فقال ﴿**الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله**﴾ أي كفروا بالله ومنعوا الناس عن الدخول في دين الإسلام ﴿**زدناهم عذاباً فوق العذاب**﴾ أي زدناهم عذاباً في جهنم فوق عذاب الكفر ، لأنهم ارتكبوا جريمة صدِّ الناس عن الهدى فوق جريمة الكفر ، فضوعف لهم العذاب جزاءً وفاقاً ﴿**بما كانوا يُفسدون**﴾ أي بسبب إفسادهم في الدنيا بالكفر والمعصية ﴿**ويوم نبعث في كل أمةٍ شهيداً عليهم من أنفسهم**﴾ أي اذكر للناس ذلك اليوم وهوْله حين نبعث في كل أمةٍ نبيَّها ليشهد عليها ﴿**وجئنا بك شهيداً على هؤلاء**﴾ أي وجئنا بك يا محمد شهيداً على أمتك ﴿**ونزَّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء**﴾ أي ونزّلنا عليك القرآن المنير بياناً شافياً بليغاً لكل ما يحتاج الناس إليه من أمور الدين فلا حجة لهم ولا معذرة **قال ابن مسعود** : قد بُيّن لنا في هذا القرآن كلُّ علمٍ ، وكل شيء[1] ﴿**وهدىً ورحمةً وبشرى للمسلمين**﴾ أي هداية للقلوب ، ورحمة للعباد ، وبشارةً للمسلمين المهتدين ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان**﴾ أي يأمر بمكارم الأخلاق بالعدل بين الناس ، والإحسان إلى جميع الخلق ﴿**وإيتاء ذي القُربى**﴾ أي مواساة الأقرباء ، وخصَّه بالذكر اهتماماً به ﴿**وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي**﴾ أي ينهى عن كل قبيح من قولٍ ، أو فعلٍ ، أو عملٍ **قال ابن مسعود** : هذه أجمعُ آيةٍ في القرآن لخيرٍ يُمتثل ، ولشرٍ يُجتنب[2] والفحشاء كل ما تناهى قبحه كالزنى والشرك ، والمنكر كل ما تنكره الفطرة ، والبغي هو الظلم وتجاوز الحق والعدل ﴿**يعظكم لعلكم تذكَّرون**﴾ أي يؤدبكم بما شرع من الأمر والنهي لتتعظوا بكلام الله .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ الاستعارة التمثيلية في ﴿وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم . .﴾ الآية تمثيلٌ للوثن بالأبكم الذي لا ينتفع منه بشيء أصلاً ، مع القادر السميع البصير وشتان بين الرب والصنم .

٢ ـ التشبيه المرسل المجمل في ﴿كلمح البصر﴾ .

---

(١) المختصر ٢/٣٤٣ . (٢) القرطبي ١٠/١٦٥ .

٣ ـ الطباق بين ﴿سراً وجهراً﴾ وبين ﴿يعرفون . . وينكرون﴾ وبين ﴿ظعنكم . . وإقامتكم﴾ .

٤ ـ الإيجاز بالحذف في ﴿سرابيل تقيكم الحرَّ﴾ أي والبرد حذف الثاني استغناءً بذكر الأول .

٥ ـ المقابلة اللطيفة ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي﴾ أمر بثلاثة ونهى عن ثلاثة وهو من المحسنات البديعية .

٦ ـ ذكر الخاص بعد العام للاهتمام بشأنه ﴿وإيتاء ذي القربى﴾ بعد لفظ الإحسان الذي هو عام .

لطيفة : ذكر أن « أكثم بن صيفي » لما بلغه خبر الرسول ﷺ انتدب رجلين فأتياه فقالا : من أنت ؟ وما أنت ؟ فقال أنا محمد بن عبد الله ، وأنا رسول الله ثم تلا علينا هذه الآية ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان . .﴾ الآية فرجعا إلى أكثم فلما قرءا عليه الآية قال : إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهى عن مساوئها ، فكونوا في هذا الأمر رؤساء ، ولا تكونوا فيه أذناباً[1] .

* * *

قال تعالى : ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم . . . إلى . . إن ربك من بعدها لغفورٌ رحيم﴾ من آية (٩١) إلى نهاية آية (١١٠) .

المناسبة : لما استقصى تعالى في الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، وذكر جملة المكارم والفضائل ، حذَّر تعالى هنا من نقض العهود والمواثيق وعصيان أوامر الله تعالى ، لأن العصيان سبب البلاء والحرمان ، ثم ذكر تعالى ما أعده لأهل الإيمان من الحياة الطيبة الكريمة .

اللغة : ﴿تنقضوا﴾ النقض ضدُّ الإبرام ، وهو فك أجزاء الشيء بعضها من بعض ﴿توكيدها﴾ التوكيد التثبيتُ يقال : توكيد وتأكيد ﴿أنكاثاً﴾ أنقاضاً والنكث : النقضُ بعد الفتل ﴿دخلاً﴾ الدَّخل : الدَّغل والخديعة والغش قال أبو عبيدة : كل أمرٍ لم يكن صحيحاً فهو دخَل ﴿ينفد﴾ نفد الشيء ينْفد فني ﴿أعجمي﴾ الأعجمي الذي لا يتكلم العربية وقال الفراء : الأعجم الذي في لسانه عجمة وإن كان من العرب ، والعجمي الذي أصله من العجم ﴿يُلحدون﴾ الإلحاد : الميل يقال لحد وألحد إذا مال عن القصد والاستقامة .

سَبَبُ النّزول : أ ـ روي أن النبي ﷺ كان يجلس عند المروة إلى غلام نصراني يقال له « جبْر » وكان يقرأ الكتب فقال المشركون : والله ما يعلِّمه ما يأتي به إلا جبرٌ الرومي فأنزل الله عز وجل ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلِّمه بشر . .﴾[2] الآية .

ب ـ عن ابن عباس أن المشركين أخذوا عمَّار بن ياسر وأباه ياسراً وأمه سُميَّة وصهيباً وبلالاً

---

(١) مختصر ابن كثير ٢/ ٣٤٤ . . (٢) القرطبي ١٠/ ١٧٧ .

فعذبوهم ، ورُبطت « سُميَّة » بين بعيرين ووُجىء قُبُلها بحربة فقتُلت ، وقُتل زوجها ياسر ـ وهما أول قتيلين في الإسلام ـ وأمّا عمّار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مُكرهاً ، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال له الرسول الكريم : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئنٌ بالإيمان ، فقال رسول الله ﷺ : فإن عادوا فعُدْ وأنزل الله ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أُكره وقلبه مطمئنٌ بالإيمان . . ﴾[1] الآية .

وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ

التفسير : ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾ أي حافظوا على العهود التي عاهدتم عليها الرسول أو الناس وأدوها على الوفاء والتمام ﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾ أي ولا تنقضوا أيمان البيعة بعد توثيقها بذكر الله تعالى ﴿وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً﴾ أي جعلتم الله شاهداً ورقيباً على تلك البيعة ﴿إنَّ الله يعلم ما تفعلون﴾ أي عليم بأفعالكم وسيجازيكم عليها ﴿ولا تكونوا كالتي نقضتْ غزلَها من بعد قوةٍ أنكاثاً﴾ هذا مثلٌ ضربه الله لمن نكث عهده[2] ، شبَّهت الآية الذي يحلف ويعاهد ويُبرم عهده ثم ينقضه بالمرأة تغزل غزلها وتفتله محكماً ثم تحلُه أنكاثاً أي أنقاضاً قال المفسرون : كان بمكة امرأة حمقاء تغزل غزلاً ثم تنقضه ، وكان الناس يقولون : ما أحمق هذه ! ﴿تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم﴾ أي تتخذون أيمانكم خديعة ومكراً تخدعون بها الناس ﴿أن تكون أمةٌ هي أربى من أمة﴾ أي لأجل أن تكون أمة أكثر عدداً وأوفر مالاً من غيرها قال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعزَّ ، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك[3] ﴿إنما يبلوكم الله به﴾ أي إنما يختبركم الله بما أمركم به من الوفاء بالعهدلينظر المطيع من العاصي ﴿وليُبيننَّ لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون﴾ أي ليجازي كل عاملٍ بعمله من خير وشرّ ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ أي لو شاء الله لخلق الناس باستعداد واحد ، وجعلهم أهل ملةٍ واحدة ، لا يختلفون ولا يفترقون ﴿ولكنْ يضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء﴾ أي ولكنْ اقتضت حكمته أن يتركهم لاختيارهم ، ناسٌ للسعادة وناس للشقاوة ، فيضلُّ من يشاء بخذلانه إياهم عدلاً ، ويهدي من يشاء بتوفيقه إياهم فضلاً ﴿ولتُسألنَّ عمَّا كنتم تعملون﴾ أي ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم على الفتيل والقطمير ﴿ولا تتخذوا أيمانكم دخَلاً بينكم﴾ كرره تأكيداً ومبالغة في تعظيم شأن العهود أي لا تعقدوا الأيمان وتجعلوها خديعة

(١) القرطبي ١٠/ ١٨٠ وأسباب النزول ١٦٢ . (٢) هذا قول مجاهد وقتادة . (٣) مختصر ابن كثير ١٠/ ١٧١ .

عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾

ومكراً تغرون بها الناس لتحصلوا على بعض منافع الدنيا الفانية[1] ﴿فتزلَّ قدمٌ بعد ثبوتها﴾ أي فتزلَّ أقدامكم عن طريق الاستقامةوعن محجةالحق بعد رسوخها فيه قال ابن كثير: هذا مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها ، وزلَّ عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة ، المشتملة على الصدّ عن سبيل الله ، لأن الكافر إذا رأى المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوقٌ بالدين ، فيصد بسببه عن الدخول في الإسلام[2] ولهذا قال ﴿وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله﴾ أي يصيبكم العقاب الدنيوي العاجل الذي يسوءكم لصدكم غيركم عن اعتناق الإسلام بسبب نقض العهود ﴿ولكم عذاب عظيم﴾ أي ولكم في الآخرة عذاب كبير في نار جهنم ﴿ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً﴾ أي لا تستبدلوا عهد الله وعهد رسوله بحطام الدنيا الفاني ﴿إنما عند الله هو خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي ما عند الله من الأجر والثواب خير لكم من متاع الدنيا العاجل إذا كنتم تعلمون الحقيقة ، ثم علَّل ذلك بقوله ﴿ما عندكم ينَفد وما عند الله باقٍ﴾ أي ما عندكم أيها الناس فإنه فانٍ زائل ، وما عند الله فإنه باقٍ دائم ، لا انقطاع له ولا نَفاد ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى ﴿ولنجزينَّ الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ أي ولنثيبنَّ الصابرين بأفضل الجزاء ، ونعطيهم الأجر الوافي على أحسن الأعمال مع التجاوز عن السيئات ، وهذا وعدٌ كريم بمنح أفضل الجزاء على أفضل العمل ، ليكون الجزاء على أحسن العمل دون سواه ، وكل ذلك بفضل الله ﴿من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن﴾ أي من فعل الصالحات ذكراً كان أو أنثى بشرط الإيمان ﴿فلنحيينَّه حياةً طيبةً﴾ أي فلنحيينَّه في الدنيا حياة طيبة بالقناعة والرزق الحلال ، والتوفيق لصالح الأعمال وقال الحسن : لا تطيب الحياة لأحدٍ إلا في الجنة لأنها حياة بلا موت ، وغنى بلا فقر ، وصحة بلا سقم ، وسعادة بلا شقاوة[3] ﴿ولنجزينَّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ أي ولنجزينَّهم في الآخرة بجزاء أحسن أعمالهم ، وما أكرمه من جزاء ! ﴿فإذا قرأت القرآن﴾ أي إذا أردت تلاوة القرآن ﴿فاستعذْ بالله من الشيطان الرجيم﴾ أي فاسأل الله أن يحفظك من وساوس الشيطان وخطراته ، كيلا يوسوس لك عند القراءة

---

(١) قال في الظلال : « واتخاذ الأيمان غشاً وخداعاً يزعزع العقيدة في الضمير ، ويشوّه صورتها في ضمائر الآخرين ، فالذي يقسم وهو يعلم انه خادع في قسمه ، لا يمكن أن تثبت له عقيدة ولا أن تثبت له قدم على صراطها ، وهو في الوقت نفسه يشوّه صورة العقيدة عند من يُقسم لهم ثم ينكث ، ويعلمون أن أقسامه كانت للغش والدَّخل ، ومن ثمَّ يصدهم عن سبيل الله بهذا المثل السيء الذي يضرب به للمؤمنين بالله ».

(٢) المختصر ٢/ ٣٤٥ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ٣٢٧ . والقول الأول لابن عباس وهو الأظهر .

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾

فيصدَّك عن تدبر القرآن والعمل بما فيه **﴿إنه ليس له سلطانٌ على الذين آمنوا﴾** أي ليس له تسلطٌ وقدرة على المؤمنين بالإغواء والكفر لأنهم في كنف الرحمن **﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾** أي يعتمدون على الله فيما نابهم من شدائد **﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه﴾** أي إنما تسلُّطه وسيطرته على الذين يطيعونه ويتخذونه لهم ولياً **﴿والذين هم به مشركون﴾** أي بسبب إغوائه أصبحوا مشركين في عبادتهم وذبائحهم ، ومطاعمهم ومشاربهم **﴿وإذا بدَّلنا آيةً مكان آية﴾** أي وإذا أنزلنا آيةً مكان آية وجعلناها بدلاً منها بأن ننسخ تلاوتها أو حكمها **﴿والله أعلم بما يُنزّل﴾** جملةٌ اعتراضية سيقت للتوبيخ أي والله أعلم بما هو أصلح للعباد وبما فيه خيرهم ، فإنَّ مثل آياتِ هذا الكتاب كمثل الدواء يُعطى منه للمريض جرعات حتى يماثل الشفاء ، ثم يستبدل بما يصلح له من أنواع أخرى من الأطعمة **﴿قالوا إنما أنت مفترٍ﴾** أي قال الكفرة الجاهلون إنما أنت يا محمد متقوِّلٌ كاذبٌ على الله **﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾** أي أكثرهم جهلة لا يعلمون حكمة الله فيقولون ذلك سفهاً وجهلاً **قال ابن عباس** : كان إذا نزلت آية فيها شدة ثم نسخت قال كفار قريش : والله ما محمد إلا يسخر من أصحابه ، يأمرهم اليوم بأمرٍ ، وينهاهم غداً عنه ، وإنه لا يقول : ذلك إلا من عند نفسه فنزلت[1] **﴿قل نزَّله روحُ القُدُس من ربك بالحق﴾** أي قل لهم يا محمد : إنما نزَّله جبريل الأمين من عند أحكم الحاكمين بالصدق والعدل **﴿ليثبِّت الذين آمنوا﴾** أي ليثبّت المؤمنين بما فيه من الحجج والبراهين فيزدادوا إيماناً ويقيناً **﴿وهدى وبشرى للمسلمين﴾** أي وهداية وبشارة لأهل الإسلام الذين انقادوا لحكمه تعالى ، وفيه تعريضٌ بالكفار الذين لم يستسلموا لله تعالى **﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلّمه بشرٌ﴾** أي قد علمنا مقالة المشركين الشنيعة ودعواهم أن هذا القرآن من تعليم « جبْر الرومي » وقد ردَّ تعالى عليهم بقوله **﴿لسانُ الذي يُلحدون إليه أعجمي﴾** أي لسان الذي يزعمون أنه علَّمه وينسبون إليه التعليم أعجميٌ **﴿وهذا لسانٌ عربيٌ مبين﴾** أي وهذا القرآن عربيٌ في غاية الفصاحة ، فكيف يمكن لمن لسانُه أعجمي أن يُعلم محمداً هذا الكتاب العربيَّ المبين ؟ ومن أين للأعجمي أن يذوق بلاغة هذا الكتاب المعجز في فصاحته وبيانه ! ! **﴿إنَّ الذين لا يؤمنون بآياتِ الله لا يهديهم الله﴾** أي إن الذين لا يُصدّقون بهذا القرآن لا يوفقهم

(١) التفسير الكبير الرازي ٢٠/١١٦ .

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

الله لإصابة الحق ، ولا يهديهم إلى طريق النجاة والسعادة **﴿ولهم عذاب أليم﴾** أي لهم في الآخرة عذابٌ موجع مؤلم ، وهذا تهديدٌ لهم ووعيد على كفرهم وافترائهم **﴿إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾** أي لا يكذب على الله إلا من لم يؤمن بالله ولا بآياته ، لأنه لا يخاف عقاباً يردعه ، فالكذب جريمةٌ فاحشة لا يُقدم عليها مؤمن ، وهذا ردٌّ لقولهم **﴿إنما أنتَ مفترٍ﴾** **﴿وأولئك هم الكاذبون﴾** أي وأولئك هم الكاذبون على الحقيقة لا محمد الرسول الأمين **﴿من كفر بالله من بعد إيمانه﴾** أي من تلفَّظ بكلمة الكفر وارتد عن الدين بعد ما دخل فيه **﴿إلا مَنْ أُكره وقلبه مطمئنٌ بالإيمان﴾** أي إلا من تلفَّظ بكلمة الكفر مكرهاً والحال أن قلبه مملوءٌ إيماناً ويقيناً ، والآيةُ تغليظٌ لجريمة المرتد لأنه عرف الإيمان وذاقه ثم ارتدَّ إيثاراً للحياة الدنيا على الآخرة قال المفسرون : نزلت في عمار بن ياسر أخذه المشركون فعذبوه حتى أعطاهم ما أرادوا مُكْرهاً فقال الناس : إنَّ عماراً كفر فقال رسول الله ﷺ : إنَّ عماراً ملىء إيماناً من فرقه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي فقال له رسول الله ﷺ : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئناً بالإيمان قال : إن عادوا فعُدْ[1] **﴿ولكنْ من شرَح بالكفر صدراً﴾** أي طابت نفسه بالكفر وانشرح صدره له **﴿فعليهم غضبٌ من اللهِ ولهم عذابٌ عظيم﴾** أي ولهم غضبٌ شديد مع عذاب جهنم ، إذْ لا جرم أعظم من جرمهم **﴿ذلك بأنهم استحبوا الحياةَ الدنيا على الآخرة﴾** أي ذلك العذاب بسبب أنهم آثروا الدنيا واختاروها على الآخرة **﴿وأنَّ الله لا يهدي القوم الكافرين﴾** أي لا يوفقهم إلى الإيمان ولا يعصمهم من الزيغ والضلال **﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعِهم وأبصارِهم﴾** أي ختم على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم فجعل عليها غلافاً بحيث لا تُذعن للحق ولا تسمعه ولا تبصره **﴿وأولئك هم الغافلون﴾** أي الكاملون في الغفلة إذْ أغفلتهم الدنيا عن تدبر العواقب **﴿لا جَرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون﴾** أي حقاً ولا شك ولا ريب في أنهم الخاسرون في الآخرة لأنهم ضيَّعوا أعمارهم في غير منفعة تعود عليهم قال المفسرون :[2] وصفهم تعالى بست صفات هي : الغضب من الله ، والعذاب العظيم ، واختيارهم الدنيا

(١) التفسير الكبير ٢٠/ ١٢١ . (٢) حاشية الصاوي ٢/ ٣٢٩ .

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٠)

على الآخرة ، وحرمانهم من الهدى ، والطبع على قلوبهم ، وجعلهم من الغافلين ﴿ثم إنَّ ربَّك للذينَ هاجروا من بعد ما فُتنوا﴾ أي ثم إن ربك يا محمد للذين هاجروا في سبيل الله بعد ما فتنهم المشركون الطغاة عن دينهم بالعذاب ﴿ثم جاهدوا وصبروا﴾ أي ثم جاهدوا في سبيل الله وصبروا على مشاقّ الجهاد ﴿إن ربك من بعدها لغفورٌ رحيم﴾ أي إن ربك بعد تلك الهجرة والجهاد والصبر سيغفر لهم ويرحمهم .

البَلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ التشبيه التمثيلي ﴿ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها﴾ الآية شبه تعالى من يحلف ثم لا يفي بعهده بالمرأة التي تغزل غزلاً ثم تنقضه .

٢ ـ الاستعارة في ﴿فتزلَّ قدم بعد ثبوتها﴾ استعار القدم للرسوخ في الدين والتمكن فيه لأن أصل الثبات يكون بالقدم ولما كان الزلل عن محجة الحق يشبه زلل القدم وانزلاقها عبَّر به عن الانزلاق الحسي بطريق الاستعارة .

٣ ـ الطباق بين ﴿يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ وبين ﴿أعجمي . . وعربي﴾ وبين ﴿ينفد . . وباق﴾

٤ ـ جناس الاشتقاق ﴿قرأت القرآن﴾ وفيه مجاز مرسل من إطلاق اسم المسبَّب على السبب أي إذا أردت قراءة القرآن .

٥ ـ الاعتراض ﴿والله أعلم بما يُنزّل﴾ الجملة اعتراضية لبيان الحكمة الإلهية في النسخ ، وفيه التفات من المتكلم إلى الغائب ، وذكر الاسم الجليل لتربية المهابة في النفس .

٦ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿لسان الذي يُلحدون إليه أعجمي﴾ استعار اللسان للّغة والكلام كقول الشاعر :

لسانُ السُّوءِ تُهديها إلينا … وخُنْتَ وما حسبتُكَ أن تخونا[1]

والعرب تستعمل اللسان بمعنى اللغة كقوله تعالى ﴿وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه﴾

لطيفَة : السرُّ في الاستعاذة قبل قراءة القرآن أن القرآن هو الذكر الحكيم ، والحق المبين ، ولما كان الشيطان يثير الشبهات بوساوسه ، ويفسد القلوب بدسائسه ، أُمرﷺ بأن يستعيذ بالله ويلتجىء إليه عند تلاوة القرآن ، لأن قوة الإنسان تضعف عن دفعه بسهولة فيحتاج إلى الاستعانة بالله العلي الكبير .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يوم تأتي كل نفس . . إلى . . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾

من آية (١١١) إلى نهاية السورة الكريمة

المَنَاسَبَة : لما ذكر تعالى حال من كفر بلسانه، وحال من كفر بلسانه وجنَانه ، ذكر هنا الجزاء

(١) القرطبي ١٠/ ١٧٩

العادل الذي يلقاه كل إنسانٍ في الآخرة ، وما أعدَّه من العقاب العاجل في الدنيا لبعض المكذبين ، ثم ذكر قصة إبراهيم الأوَّاه المنيب ، وأمر الرسول ﷺ باقتفاء آثاره المجيدة .

اللغــة : ﴿تجادل﴾ تخاصم وتحاجُّ ﴿رغداً﴾ واسعاً هنيئاً بلا كلفةٍ ولا تعب ﴿أنْعم﴾ جمع نعمة كالأشد جمع الشدَّة ﴿أمةً﴾ إماماً جامعاً لخصال الخير ﴿قانتاً﴾ مطيعاً خاضعاً من القنوت وهو الطاعة والخضوع ﴿اجتباه﴾ اصطفاه واختاره ﴿حنيفاً﴾ الحنيف : المائل عن الأديان الباطلة إلى دين الإسلام ، من الحنف وهو الميل .

سَبَبُ النّزول : لمَّا قُتل حمزة ومثَّل به المشركون في غزوة أُحد قال ﷺ حين رآه (واللهِ لأُمثلنَّ بسبعين منهم مكانك) فنزلت الآية الكريمة ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به . .﴾[1] الآية .

* ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ

التفسير : ﴿يـوم تأتـي كـلُّ نفسٍ تجادل عـن نفسهـا﴾ أي ذكِّرْهم يوم القيامة حين تخاصم كلُّ نفسٍ عن ذاتها سعياً في خلاصها ، لا يهمها شأنُ غيرها ﴿وتُوفّـى كـل نفسٍ ما عملـت﴾ أي تُعطى جزاءَ مـا عملت من غـير بخْسٍ ولا نقصـان ﴿وهـم لا يُظلمـون﴾ أي لا ينقصـون أجورهم بل يُعطونهـا كـاملـةً وافيـة ﴿وضرب الله مثـلاً قريـة﴾ هذا مثلٌ ضربـه الله لأهل مكـة وغيرهم ، بقومٍ أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمـة فعصـوا وتمـردوا ، فبدَّل الله نعمتهم بنقمة ﴿كانت آمنـةً مطمئنـة﴾ أي كان أهلها في أمنٍ واستقرار ، وسعادة ونعيم ﴿يأتيهـا رزقها رغَـداً من كـل مكان﴾ أي تأتيها الخيرات والأرزاق بسعةٍ وكثرةٍ من كل الجهات ﴿فكفـرت بأنعـم اللـه﴾ أي لم يشكروا الله على ما آتاهم من خير ، وما وهبهم من رزق ﴿فأذاقهـا اللـهُ لبـاسَ الجـوع والخوف﴾ أي سلبهم اللهُ نعمة الأمن والاطمئنان ، وأذاقهم آلام الخوف والجوع والحرمان ﴿بمـا كانوا يصنعـون﴾ أي بسبب كفرهم ومعاصيهم ، قال الرازي : وهذا مثلُ أهل مكة لأنهم كانوا في الأمن والطمأنينة والخِصْب ، ثم أنعم الله عليهم بالنعمة العظيمة وهو محمد ﷺ فكفروا به ، وبالغوا في إيذائه ، فعذبهم الله بالقحط والجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام[2] ﴿ولقـد جاءهـم رسـولٌ منهـم فكذبـوه﴾ أي ولقد جاءهم محمد بالآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة وهو رسولٌ منهم يعرفون أصله ونسبه فلم يصدقوه ولم يؤ منوا برسالته ، والآية دالة على أن المراد بهم أهل مكة وهو قول ابن عباس ﴿فأخذهـم العـذابُ وهـم ظالمـون﴾ أي فأصابتهم الشدائد والنكبات وهـم ظالمون بارتكاب المعاصي والآثـام ﴿فـكلـوا ممّـا

---

(١) زاد المسير ٤/٥٠٧ . (٢) التفسير الكبير ٢٠/١٢٨ .

ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾

رزقكم اللهُ حلالاً طيباً﴾ أي كلوا من نِعَم الله التي أباحها لكم حال كونها حلالاً طيباً ﴿واشكروا نعمة الله إن كنتم إيّاه تعبدون﴾ أي واشكروا الله على نعمه الجليلة إن كنتم مخلصين في إيمانكم لا تعبدون أحداً سواه ، ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم فقال ﴿إنما حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ أي لم يحرم ربكم عليكم أيها الناس إلا ما فيه أذى لكم كالميتة والدم ولحم الخنزير ﴿وما أُهلَّ لغير الله به﴾ أي وما ذبح على اسم غير الله تعالى فإنَّ فيه أذى للنفس والعقيدة ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عادٍ فإن الله غفور رحيم﴾ أي فمن اضطر لأكل ما حرَّم الله من المذكورات من غير بغيٍ ولا عدوان فإن الله واسع المغفرة عظيم الرحمة لا يؤاخذ من كان مضطراً ، ثم وبّخ تعالى المشركين الذين حلّلوا وحرّموا من تلقاء أنفسهم فقال ﴿ولا تقولوا لما تصفُ ألسنتكم الكذبَ هذا حلالٌ وهذا حرامٌ﴾ أي لا تقولوا أيها المشركون في شأن ما تصفه ألسنتكم من الكذب هذا حلالٌ وهذا حرام من غير دليلٍ ولا برهان ﴿لتفتروا على الله الكذب﴾ أي لتكذبوا على الله بنسبة ذلك إليه ﴿إن الذين يفترون على الله الكذبَ لا يفلحون﴾ أي إن الذين يختلقون الكذبَ على الله لا يفوزون ولا يظفرون بمطلوبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿متاعٌ قليلٌ ولهم عذاب أليم﴾ أي انتفاعهم واستمتاعهم في الدنيا قليل لأنه زائل ، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم ، ثم ذكر تعالى ما حرَّم على اليهود فقال ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبلُ﴾ أي وعلى اليهود خاصة حرمنا عليهم ما قصصنا عليك يا محمد مما سبق ذكره في سورة الأنعام عقوبةً لهم وهي شحوم البقر والغنم وكل ذي ظفر ﴿وما ظلمناهم ولكنْ كانوا أنفسهم يَظْلمون﴾ أي وما ظلمناهم بذلك التحريم ولكنْ ظلموا أنفسهم فاستحقوا ذلك كقوله ﴿فبظلمٍ من الذين هادوا حرمنا عليهم طيباتٍ أُحلَّت لهم﴾ ﴿ثم إنَّ ربك للذين عملوا السوء بجهالة﴾ أي ثم إن ربك يا محمد للذين ارتكبوا تلك القبائح بجهلٍ وسفه ﴿ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا﴾ أي ثم رجعوا إلى ربهم وأنابوا وأصلحوا العمل بعد ذلك الزلل ﴿إن ربك من بعدها لغفورٌ رحيم﴾ أي إنه تعالى واسع المغفرة عظيم الرحمة ، والآية

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ

تأنيسٌ لجميع الناس وفتحٌ لباب التوبة **﴿إن إبراهيم كان أمةً﴾** أي إنَّ إبراهيم كان إماماً قدوةً جامعاً لخصال الخير ولذلك اختاره الله لخلته **﴿قانتاً للّه﴾** أي مطيعاً لربه قائماً بأمره **﴿حنيفاً﴾** أي مائلاً عن كل دين باطل إلى الدين الحق ، دين الإسلام **﴿ولم يك من المشركين﴾** تأكيد لما سبق وردٌّ على اليهود والنصارى في زعمهم أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً **﴿شاكراً لأنعمه﴾** أي قائماً بشكر نعم الله **﴿اجتباه وهداه إلى صراطٍ مستقيم﴾** أي اختاره واصطفاه للنبوة وهداه إلى الإسلام وإلى عبادة الواحد الأحد **﴿وآتيناه في الدنيا حسنة﴾** أي جعلنا له الذكر الجميل في الدنيا **﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾** أي وهو في الآخرة من أصحاب الدرجات الرفيعة ، وفي أعلى مقامات الصالحين **﴿ثم أوحينا إليك أن اتَّبِعْ ملة إبراهيم حنيفاً﴾**[1] لما وصف تعالى إبراهيم بتلك الأوصاف الشريفة أمر نبيه محمداً ﷺ أن يتّبع ملته والمعنى ثم أمرناك يا محمد باتباع دين إبراهيم وملته الحنيفية السمحة **﴿وما كان من المشركين﴾** أي وما كان يهودياً أو نصرانياً ، وإنما كان حنيفاً مسلماً ، وهو تأكيد آخر لردّ مزاعم اليهود والنصارى أنهم على دينه **﴿إنما جُعل السبتُ على الذين اختلفوا فيه﴾** أي لم يكن تعظيم يوم السبت وتركُ العمل فيه من شريعة إبراهيم ولا من شعائر دينه ، وإنما جعل تغليظاً على اليهود لاختلافهم في الدين وعصيانهم أمر الله ، حيث نهاهم عن الاصطياد فيه فاصطادوا فمسخهم قردةً وخنازير **﴿وإنَّ ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾** أي وسيفصل الله تعالى بينهم يوم القيامة ، فيجازي كلاً بما يستحق من الثواب أو العقاب **﴿أدْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾** أي أدع يا محمد الناس إلى دين الله وشريعته القدسية بالأسلوب الحكيم ، واللطف واللين ، بما يؤثر فيهم وينجع ، لا بالزجر والتأنيب والقسوة والشدة **﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾** أي وجادل المخالفين بالطريقة التي هي أحسن من طرق المناظرة والمجادلة بالحجج والبراهين ، والرفق واللين **﴿إن ربك هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾** أي إن ربك يا محمد هو العالم بحال الضالين وحال المهتدين ،

(١) قال المفسرون : العطف بثمَّ **﴿ثم أوحينا إليك﴾** فيه تعظيم منزلة الرسول ﷺ وإجلال محله فكأنه بعد أن عدَّد مناقب الخليل عليه السلام قال : وههنا ما هو أعلى من ذلك كله قدراً ، وأرفع رتبة ، وهو أن النبي ﷺ الأمي الذي هو سيد البشر متبعٌ لملة إبراهيم ، مستمسك بشريعته وكفى بذلك فخراً .

فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

فعليك أن تسلك الطريق الحكيم في دعوتهم ومناظرتهم ، وليس عليك هدايتهم ، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ أي وإن عاقبتم أيها المؤمنون من ظلمكم واعتدى عليكم فعاملوه بالمثل ولا تزيدوا قال المفسرون : نزلت في شأن « حمزة بن عبد المطلب » لما بقر المشركون بطنه يوم أحد ، فقال النبي ﷺ : لئن أظفرني الله بهم لأمثلنَّ بسبعين منهم ﴿ولئنْ صبَرتُم لهو خيرٌ للصابرين﴾ أي ولئن عفوتم وتركتم القصاص فهو خير لكم وأفضل ، وهذا ندبٌ إلى الصبر ، وترك عقوبة من أساء ، فإن العقوبة مباحة وتركها أفضل ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾ أي واصبر يا محمد على ما ينالك من الأذى في سبيل الله ، فما تنال هذه المرتبة الرفيعة إلا بمعونة الله وتوفيقه ﴿ولا تحزنْ عليهم﴾ أي لا تحزن على الكفار إن لم يؤمنوا ﴿ولاتكُ في ضيْقٍ مما يمكرون﴾ أي ولا يضقْ صدرك بما يقولون من السَّفه والجهل ، ولا بما يدبرون من المكر والكيد ﴿إنَّ الله مع الذين اتَّقوا والذين هم محسنون﴾ أي مع المتقين بمعونته ونصره ، ومع المحسنين بالحفظ والرعاية ، ومن كان الله معه فلن يضرَّه كيد الكائدين .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات من صنوف البيان والبديع ما يلي :

١ ـ الاستعارة المكنية ﴿فأذاقها اللهُ لباسَ الجوعِ والخوف﴾ شبَّه ذلك اللباس من حيث الكراهية بالطعم المُر البشع وحذف المشبه به ورمز إليه بشيءٍ من لوازمه وهو الإذاقة على طريق الاستعارة المكنية .

٢ ـ الطباق بين ﴿حلال . . وحرام﴾ .

٣ ـ الالتفات ﴿وآتيناه في الدنيا حسنة﴾ التفت عن الغيبة إلى التكلم إشارة إلى زيادة الاعتناء بشأنه وتفخيم أمره .

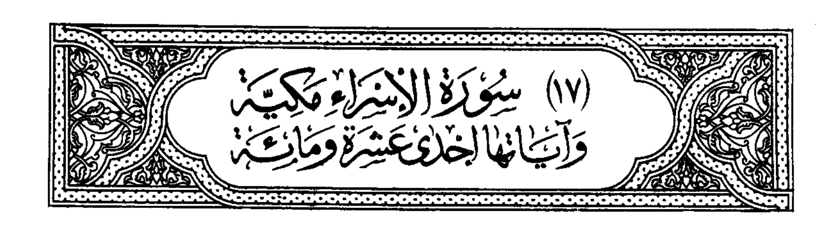
٤ ـ التشبيه البليغ ﴿كان أمةً﴾ أي كان بمفرده كالأمة والجماعة الكثيرة لجمعه أوصاف الكمالات التي تفرقت في الخلق كما قال الشاعر :

« وليس على الله بمستنكر أنْ يجمع العالم في واحد » .

تَنْبِيه : دل قوله تعالى ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ على الحث على الإنصاف في المناظرة ، واتباع الحق ، والرفق والمداراة ، على وجهٍ يظهر منه أن القصد إثباتُ الحق وإزهاقُ الباطل ، لا نصرة الرأي وهزيمة الرأي الآخر .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة النحل ولله الحمد والمنة »

* * *



بين يدي السورة

سورة الإسراء من السور المكية التي تهتم بشئون العقيدة ،شأنها كشأن سائر السور المكية من العناية بأصول الدين « الوحدانية ، والرسالة ، والبعث » ولكنَّ العنصر البارز في هذه السورة الكريمة هو « شخصية الرسول » ﷺ ، وما أيده الله به من المعجزات الباهرة ، والحجج القاطعة ، الدالة على صدقه عليه الصلاة والسلام .

* تعرضت السورة الكريمة لمعجزة الإسراء ، التي كانت مظهراً من مظاهر التكريم الإلهي ، لخاتم الأنبياء والمرسلين ، وآية باهرة تدل على قدرة الله جل وعلا في صنع العجائب والغرائب .

* وتحدثت عن بني إسرائيل ،وما كتب الله عليهم من التشرد في الأرض مرتين ، بسبب طغيانهم وفسادهم وعصيانهم لأوامر الله ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدُنَّ في الأرض مرتين . .﴾ الآيات .

* وتحدثت عن بعض الآيات الكونية ، التي تدل على العظمة والوحدانية ، وعن النظام الدقيق الذي يحكم الليل والنهار ، ويسير وفق ناموسٍ ثابت لا يتبدل ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل . .﴾ الآيات .

* وتعرضت السورة إلى بعض الآداب الاجتماعية ، والأخلاق الفاضلة الكريمة ، فحثت عليها ، ودعت إلى التحلي بها ليكون هناك المجتمع المثالي الفاضل بدءاً من قوله تعالى ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه . .﴾ الآيات .

* وتحدثت عن ضلالات المشركين حيث نسبوا إلى الله تعالى الصاحبة والولد ، والعجيب في أمرهم أنهم يكرهون البنات ، ثم ينسبونها إلى العلي الكبير ، المنزه عن الشبيه والنظير ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً ؟ إنكم لتقولون قولاً عظيماً . .﴾ الآيات .

* وتحدثت عن البعث والنشور، والمعاد والجزاء ، الذي كثر حوله الجدل ، وأقامت الأدلة والبراهين على إمكانه، ثم تحدثت عن القرآن العظيم، معجزة محمد ﷺ الخالدة، وذكرت تعنت المشركين في اقتراحاتهم، حيث طلبوا معجزة أخرى غير القرآن ، أن يفجّر لهم الأنهار ، ويجعل مكة حدائق وبساتين

﴿وقالوا لن نؤ من لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . .﴾ الآيات .

* ثم ختمت السورة بتنزيه الله عن الشريك والولد ، وعن صفات النقص ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريكٌ في الملك ولم يكن له وليٌّ من الذل وكبّره تكبيراً﴾ .

التسمية : سميت السورة الكريمة « سورة الإسراء » لتلك المعجزة الباهرة معجزة الإسراء التي خص الله تعالى بها نبيه الكريم .

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا

اللغة : ﴿سبحان﴾ اسمٌ للتسبيح ومعناه تنزيه الله تعالى من كل سوء ونقصٍ وهو خاصٌ به سبحانه ﴿أسرى﴾ الإسراء : السيرُ ليلاً يقال : أسرى وسرى لغتان قال الشاعر :

سريتَ من حَرَمٍ ليلاً إلى حَرَمٍ كما سَرَى البدرُ في دَاجٍ من الظُّلَم

﴿فجاسوا﴾ قال الزجاج : طافوا ، والجَوْسُ : الطواف بالليل والتردُّد والطلب مع الاستقصاء وقال الواحدي : الجوسُ هو التردُّد والطلب ﴿الكرَّة﴾ الدَّولة والغَلَبة ﴿تتبيراً﴾ هلاكاً ودماراً ﴿محونا﴾ طمسنا قال علماء اللغة : المحوُ إذهاب الأثر يقال محوتُه فانمحى أي ذهب أثره ﴿طائره﴾ عمله المقدَّر عليه سمي الخير والشر بالطائر لأن العرب كانوا يتفاءلون ويتشاءمون بالطير إذا طار جهة اليمين أو الشمال ﴿مترفيها﴾ المُتْرفُ : المتنعِّمُ الذي أبطرته النعمةُ وسَعَة العيش ﴿يصلاها﴾ يدخلها ويذوق حرَّها ﴿مدحوراً﴾ مطروداً مبعداً من رحمة الله .

التفسير : ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ أي تنزَّه وتقدَّس عما لا يليق بجلاله ، اللهُ العليُّ الشأن ، الذي انتقل بعبده ونبيه محمد ﷺ في جزءٍ من الليل ﴿من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا﴾ أي من مكة المكرمة إلى بيت المقدس ، وسمي بالأقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام قال المفسرون : وإنما قال ﴿ليلاً﴾ بلفظ التنكير لتقليل مدة الإسراء ، وأنه قطع به المسافات الشاسعة البعيدة في جزءٍ من الليل وكانت مسيرة أربعين ليلة ، وذلك أبلغ في القدرة والإعجاز ولهذا كان بدء السورة بلفظ ﴿سبحان﴾ الدال على كمال القدرة ، وبالغ الحكمة ، ونهاية تنزهه تعالى عن صفات المخلوقين ، وكان الإسراء بالروح والجسد ، يقظة لا مناماً ﴿الذي باركنا حوله﴾ أي الذي باركنا ما حوله بأنواع البركات الحسية والمعنوية ، بالثمار والأنهار التي خصَّ الله بها بلاد الشام ، وبكونه مقر الأنبياء ومهبط الملائكة الأطهار ﴿لنريه من آياتنا﴾ أي لنريَ محمداً ﷺ آياتنا العجيبة العظيمة ، ونطلعه على ملكوت السموات

إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ

والأرض ،فقد رأى صلوات الله عليه السموات العُلى والجنةَوالنار،وسدرة المنتهى ،والملائكةوالأنبياء وغير ذلك من العجائب والآيات التي تدل على قدرة الله تعالى ﴿إنه هو السميعُ البصيـر﴾ أي إنه تعالى هو السميع لأقوال محمد ، البصير بأفعاله ، فلهذا خصَّه بهذه الكرامات والمعجزات احتفاءً وتكريماً ﴿وآتينا موسى الكتـاب وجعلناه هـدىً لبني إسـرائيل﴾ أي أعطينا موسى التـوراة هدايةً لبنـي إسرائيل يخرجهـم بواسطة ذلك الكتاب من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان ﴿ألاّ تتخـذوا من دونـي وكيلاً﴾ أي لا تتخذوا لكم رباً تكلون إليه أموركم سوى الله الذي خلقكم قال المفسرون :لما ذُكر المسجدُ الأقصى وهو قلب الأرض المقدسـة التـي أسكنهـا الله بني إسرائيل جاء الحديث عنهـم في مكانه المناسب من سياق السورة ﴿ذريـةَ من حملنا مع نـوح﴾ أي يا ذرية ويا أبناء المؤمنين الذين كانوا مع نوح في السفينة ، لقد نجينا آباءكم من الغرق فاشكروا الله على إنعامه ﴿إنه كان عبداً شكوراً﴾ أي إن نوحاً كان كثير الشكر يحمد الله على كل حال فاقتدوا به ، وفي النداء لهم تلطفٌ وتذكير بنعمة الله ﴿وقضينـا إلى بنـي اسرائيل في الكتـاب﴾ أي أخبرناهم وأعلمناهم وأوحينا إليهم في التوراة ﴿لتُفْسـدُنَّ في الأرض مرتين﴾ أي ليحصلنَّ منكم الإفساد في أرض فلسطين وما حولها مرتين[1] قال ابن عباس : أول الفساد قتل زكريا والثاني قتل يحيى عليهما السلام ﴿ولَتَعْلُـنَّ علـواً كبيراً﴾ أي تطغون في الأرض المقدسة طغياناً كبيراً بالظلم والعدوان وانتهاك محارم الله ﴿فإذا جـاء وعد أولاهمـا﴾ أي أولى المرتين من الإفساد ﴿بعثنا عليكم عباداً لنـا﴾ أي سلَّطنا عليكم من عبيدنا أناساً جبارين للانتقام منكم ﴿أولـي بأسٍ شـديدٍ﴾ أي أصحاب قوةٍ وبطش في الحرب شديد قال المفسرون : إن بني إسرائيل لما استحلوا المحارم وسفكوا الدماء سلَّط الله عليهم بختنصَّر ملك بابل فقتل منهم سبعين ألفاً حتى كاد يفنيهم هو وجنوده ، وذلك أول الفسادين ﴿فجاسـوا خلالَ الديـار﴾ أي طافوا وسط البيوت يروحون ويغدون للتفتيش عنكم واستئصالكم بالقتل والسلب والنهب لا يخافون من أحد ﴿وكان وعداً مفعـولاً﴾ أي كان ذلك التسليط والانتقام قضاءً جزماً حتماً لا يقبل النقض والتبديل ﴿ثم رددنا لكم الكرَّة عليهم﴾ أي ثمَّ لما تبتم وأنبتم أهلكنا أعداءكم ورددنا لكم الدَّوْلةَ والغلبة عليهم بعد ذلك البلاء الشديد ﴿وأمددنـاكم بأمـوالٍ وبنيـن﴾ أي أعطيناكم الأمـوال الكثيرة والـذرية

---

(١) قضاء الله على بني إسرائيل بالإفساد مرتين ليس قضاء قهر وإلزام ، وإنما هو إخبارٌ من الله تعالى بما سيكون منهم حسب ما وقع في علمه الإلهي الأزلي فتنبَّهْ .

وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ

الوفيرة، بعد أن نهبت أموالكم وسُبيت أولادكم ﴿وجعلناكم أكثر نفيراً﴾ أي جعلناكم أكثر عدداً ورجالاً من عدوكم لتستعيدوا قوتكم وتبنوا دولتكم ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم﴾ أي إن أحسنتم يا بني إسرائيل فإحسانكم لأنفسكم ونفعه عائد عليكم لا ينتفع الله منها بشيء ﴿وإن أسأتم فلها﴾ أي وإن أسأتم فعليها لا يتضرر الله بشيء منها ، فهو الغني عن العباد ، لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية ﴿فإذا جاء وعدُ الآخرة﴾ أي فإذا جاء وعد المرة الأخيرة من إفسادكم بقتل يحيى وانتهاك محارم الله بعثنا عليكم أعداءكم مرة ثانية ﴿ليسوءوا وجوهكم﴾ أي بعثناهم ليهينوكم ويجعلوا آثار المساءة والكآبة باديةً على وجوهكم بالإذلال والقهر ﴿وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة﴾ أي وليدخلوا بيت المقدس فيخربوه كما خربوه أول مرة ﴿وليتبِّروا ما علَوْا تتبيراً﴾ أي وليدمروا ويهلكوا ما غلبوا عليه تدميراً ، فقد سلّط الله عليهم مجوس الفرس فشردوهم في الأرض وقتلوهم ودمَّروا مملكتهم تدميراً ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ أي لعل الله يرحمكم ويعفو عنكم إن تبتم وأنبتم ، وهذا وعدٌ منه تعالى بكشف العذاب عنهم إن رجعوا إلى الله و ﴿عسى﴾ من الله واجبة ﴿وإن عدتم عدنا﴾ أي وإن عدتم إلى الإفساد والإجرام عدنا إلى العقوبة والانتقام[1] ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾ أي وجعلنا جهنم محبساً وسجناً للكافرين ، لا يقدرون على الخروج منها أبدَ الآبدين ، ثم بيَّن تعالى مزية التنزيل الكريم الذي فاق بها سائر الكتب السماوية فقال ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ أي إنَّ هذا القرآن العظيم يهدي لأقوم الطرق وأوضح السُّبُل ، ولما هو أعدل وأصوب ﴿ويُبشِّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنَّ لهم أجراً كبيراً﴾ أي ويبشر المؤمنين الذين يعملون بمقتضاه بالأجر العظيم في جنات النعيم ﴿وأنَّ الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾ أي ويبشرهم بأن لأعدائهم الذين لا يصدقون بالآخرة العقاب الأليم في دار الجحيم ، وقد جمعت الآية بين الترغيب والترهيب ﴿ويدعُ الإنسان بالشرِّ دعاءه بالخير﴾ أي يدعو بالشر على نفسه كدعائه لها بالخير ،

---

(١) قال في الظلال : «ولقد عادوا إلى الإفساد فسلط الله عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيرة كلها ، ثم عادوا إلى الإفساد فسلَّط الله عليهم عباداً آخرين ، حتى كان العصر الحديث فسلط الله عليهم « هتلر » ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة «إسرائيل» وليسلطنَّ الله عليهم من يسومهم سوء العذاب تصديقاً لوعد الله القاطع ، وفاقاً لسنَّته التي لا تتخلف ، وإنَّ غداً لناظره قريب » .

ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلًا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ

ولو استجيب له في الشر كما يستجاب له في الخير لهلك قال ابن عباس : هو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يحبُّ أن يستجاب له : اللهمَّ أهلكه اللهمَّ دمّره ونحوه[1] ﴿وكـان الإنسـان عجولاً﴾ أي ومن طبيعة الإنسان العجلة ، يتعجل بالدعاء على نفسه ويسارع لكل ما يخطر ببالـه ، دون النظـر في عاقبته ، ثم أشار تعالى إلى آيات الله الكونية في هذا الوجود ، التي كلٌّ منها برهانٌ نيِّر على وحدانية الله فقال ﴿وجعلنـا الليلَ والنهـار آيتين﴾ أي علامتين عظيمتين على وحدانيتـا وكمال قدرتنـا ﴿فمحونـا آية الليـل﴾ أي طمسنا الليل فجعلناه مظلماً لتسكنوا فيه ﴿وجعلنـا آية النهـار مبصـرة﴾ أي جعلنا النهار مضيئاً مشرقاً بالنور ليحصل به الإبصار ﴿لتبتغوا فضلاً من ربكم﴾ أي لتطلبـوا في النهـار أسبـاب معايشـكم ﴿ولتعلموا عدد السنينَ والحساب﴾ أي ولتعلموا عدد الأيام والشهور والأعوام ، بتعاقب الليل والنهار ، فالليل للراحة والسكون ، والنهار للكسب والسعي ﴿وكلَّ شيءٍ فصَّلنـاه تفصيـلاً﴾ أي وكلَّ أمرٍ من أمور الدنيا والدين ، بينَّاه أحسن تبيين ، وليس شيء من أمر هذا الوجود متروكاً للمصادفة والجُزاف ، وإنما هو بتقديرٍ وتدبيرٍ حكيم ﴿وكلَّ إنسـانٍ ألزمنـاه طائره في عنقـه﴾ أي أن الإنسان مرهون بعمله مجزي به ، وعملُه ملازم له لزوم القلادة للعُنُق لا ينفك عنه أبداً ﴿ونُخـرج له يوم القيامـة كتاباً يلقـاه منشوراً﴾ أي نظهر له في الآخرة كتاب أعماله مفتوحاً فيه حسناته وسيئاته فيرى عمله مكشوفاً لا يملك إخفاءه أو تجاهله ﴿إقرأ كتابك كفى بنفسك اليومَ عليك حسيباً﴾ أي إقرأ كتاب عملك كفى أن تكون اليوم شهيداً بما عملت ، لا تحتاج إلى شاهد أو حسيب ﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسـه ومن ضلَّ فإنمـا يضلُّ عليهـا﴾ أي من اهتدى فثواب اهتدائه له ، ومن ضلَّ فعقاب كفره وضلاله عليها ﴿ولا تزر وازرةٌ وزر أخـرى﴾ أي لا يحمل أحد ذنب أحد ، ولا يجني جانٍ إلا على نفسه ﴿وما كنا معذبيـن حتى نبعـث رسـولاً﴾ أي وما كنا معذبين أحداً من الخلق حتى نبعث لهم الرسل مذكرين ومنذرين فتقوم عليهم الحجة ﴿وإذا أردنـا أن نهلك قريـة أمرنا مترفيهـا ففسقوا فيهـا﴾ أي وإذا أردنا هلاك قوم من الأقوام أمرنا المتنعِّمين فيها والقادة والرؤ ساء بالطاعة على لسان رسلنا فعصوا أمرنا وخرجوا عن طاعتنا وفسقوا وفجروا ﴿فحقَّ عليها القول فدمَّرناهـا تدميـراً﴾

(١) القرطبي ١٠/ ٢٢٥.

عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾

أي فوجب عليهم العذاب بالفسق والطغيان فأهلكناهم إهلاكاً مُريعاً قال ابن عباس : ﴿أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾ أي سلَّطنا أشرارها فعصوا فيها فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب[1] ﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح﴾ أي وكثير من الأمم الطاغية المكذبين للرسل أهلكناهم من بعد نوح كقوم عاد وثمود وفرعون قال ابن كثير : والآية إنذار لكفار قريش والمعنى إنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق فعقوبتكم أولى وأحرى[2] ﴿وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً﴾ أي كفى يا محمد أن يكون ربك رقيباً على أعمال العباد يدرك بواطنها وظواهرها ويجازي عليها ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد﴾ أي من كان يريد بعمله الدنيا فقط ولها يعمل ويسعى ليس له همٌّ إلا الدنيا عجلنا له فيها ما نشاء تعجيله من نعيمها لا كلَّ ما يريد ﴿ثم جعلنا له جهنَّم يصلاها مذموماً مدحوراً﴾ أي ثم جعلنا له في الآخرة جهنم يدخلها مهاناً حقيراً مطروداً من رحمة الله ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن﴾ أي ومن أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم المقيم ، وعمل لها عملها الذي يليق بها من الطاعات وهو مؤمن صادق الإيمان ﴿فأولئك كان سعيُهم مشكوراً﴾ أي فأولئك الجامعون للخصال الحميدة من الإخلاص ، والعمل الصالح ،والإيمان. كان عملهم مقبولاً عند الله أحسن القبول، مثاباً عليه ﴿كلاًّ نُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك﴾ أي كل واحدٍ من الفريقين الذين أرادوا الدنيا ، والذين أرادوا الآخرة نعطيه من عطائنا الواسع تفضلاً منا وإحساناً ، فنعطي المؤمن والكافر والمطيع والعاصي ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ أي ما كان عطاؤه تعالى محبوساً ممنوعاً عن أحد ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾ أي أنظر يا محمد كيف فاوتنا بينهم في الأرزاق والأخلاق في هذه الحياة الدنيا فهذا غني وذاك فقير ، وهذا شريف وذاك حقير ﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾ أي ولتفاوتُهم في الدار الآخرة أعظم من التفاوت في هذا الدار لأن الآخرة دار القرار وفيها ما لا عينٌ رأت ، ولا أُذُنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾ أي لا تجعل مع الله شريكاً ولا تتخذ غيره إلهاً تعبده ﴿فتقعد مذموماً مخذولاً﴾ أي فتصير ملوماً عند الله مخذولاً منه لا ناصر لك ولا معين .

البـــلاغـــة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

(١) المختصر ٢/ ٣٧١. (٢) المختصر ٢/ ٣٧١.

١ ـ براعة الاستهلال ﴿سبحان الذي أسرى﴾ لأنه لما كان أمراً خارقاً للعادة بدأه بلفظ يشير إلى كمال القدرة وتنزه الله عن صفات النقص .

٢ ـ إضافة التكريم والتشريف ﴿بعبده﴾ .

٣ ـ جناس الاشتقاق ﴿ولتعلُنّ علواً﴾ ﴿تَزر وازرةٌ﴾ .

٤ ـ الطباق بين ﴿أحسنتم . . وأسأتم﴾ وبين ﴿ضل . . واهتدى﴾ .

٥ ـ إيجاز بالحذف ﴿إقرأ كتابك﴾ أي يقال له يوم القيامة إقرأ كتابك ﴿أمرنا مترفيها﴾ أي أمرناهم بطاعة الله فعصوا وفسقوا فيها .

٦ ـ المجاز العقلي ﴿آية النهار مبصرةً﴾ لأن النهار لا يُبصر بل يُبْصر فيه فهو من إسناد الشيء إلى زمانه .

٧ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿طائره في عنقه﴾ استعير الطائر لعمل الإنسان ، ولما كان العرب يتفاءلون ويتشاءمون بالطير سموا نفس الخير والشر بالطائر بطريق الاستعارة .

لطيفة : الحكمة في إسرائه إلى بيت المقدس ثم عروجه من بيت المقدس إلى السموات العلى أنه مجمع أرواح الأنبياء ، وموطن تنزل الوحي الإلهي على الرسل الكرام ، ولما كانت هذه الرحلة رحلة تكريم أراد تعالى أن يشرفهم بزيارته . ولهذا صلى بهم إماماً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

تنبيه : وصفه تعالى في هذه السورة بالعبودية ﴿أسرى بعبده﴾ لأنه أشرف المقامات وأسمى المراتب العلية ، كما وصفه في مقام الوحي كذلك ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ وفي مقام الدعوة ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه﴾ ولهذا قال القاضي عياض :

ومما زادني شرفاً وتيهاً وكدتُ بأخمصي أطأ الثريّا
دخولي تحت قوْلك يا عبادي وأن صيَّرت أحمد لي نبياً

* * *

قال الله تعالى : ﴿وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلا إيَّاه وبالوالدين إحساناً . . إلى . . فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً﴾ من آية (٢٣) إلى نهاية آية (٤٨) .

المناسبة : لما جعل تعالى الإيمان والعملَ الصالح أساساً للفوز بالسعادة الأبدية ، وبيَّن حال المؤمن الذي أراد بعمله الدار الآخرة ، ذكر هنا طائفةً من الأوامر والزواجر التي يقوم عليها بنيان المجتمع الفاضل ، ثم ذكر تعالى موقف المشركين المكذبين من هذا القرآن العظيم .

اللغــة : ﴿أفٍّ﴾ كلمة تضجُّر وتبرُّم قال ابن الأعرابي الأفُّ : الضجر ، وأصلها أنه إذا سقط تراب أو رماد فنفخ الإنسان ليزيله ، فالصوت الحاصل هو أُفّ ثم توسعوا في الكلمة حتى أصبحت تقال لكل مكروه ﴿تنْهرهمـا﴾ النهْرُ : الزجرُ والغِلظة ﴿الأوَّابيـن﴾ جمع أوَّاب وهو كثير التوبة والإنابة من الأوْب بمعنى الرجوع ﴿محسوراً﴾ منقطعاً عن النفقة والتصرف قال الفراء : تقول العرب للبعير هو محسور إذا انقطع سيره ، وحَسرَت الدابة إذا انقطعت عن المسير لذهـاب قوتها ، فشُبّه حال من أنفق كلّ ماله بمن انقطع في سفره بسبب انقطاع مطيته[1] ﴿إمـلاق﴾ فقر وفاقة ، أملـق الرجـل إذا افتقـر ﴿خِطْـأً﴾ قال الأزهري : خطِىء يَخْطأ خِطأً إذا تعمَّد الخطأ ، وأخطأ إذا لم يتعمد[2] ﴿القِسْطـاس﴾ الميزان مأخوذ من القِسْط وهو العدل ﴿تَقْـفُ﴾ تَتّبع مأخوذ من قفوتُ أثر فلان إذا اتبعت أثَره وأصله البهتُ والقذف بالباطل ﴿مَرَحاً﴾ المَرَح : شدة الفرح والمراد به هنا التكبر والخيلاء ﴿صرَّفنا﴾ بيَّنا ﴿أكنَّة﴾ جمع كِنان وهو الغطاء الذي يستر الشيء ﴿وقراً﴾ صمماً وثقلاً .

* وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾

التفسيـر : ﴿وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلاّ إيَّاه﴾ أي حكم تعالى وأمر بأن لا تعبدوا إلَهاً غيره وقال مجاهد : ﴿وقضى﴾ يعني وصَّى بعبادته وتوحيده ﴿وبالوالدين إحسانـاً﴾ أي وأمر بأن تحسنوا إلى الوالدين إحساناً قال المفسرون : قرن تعالى بعبادته برَّ الوالدين لبيان حقهما العظيم على الولد لأنهما السبب الظاهر لوجوده وعيشه ، ولما كان إحسانهما إلى الولد قد بلغ الغاية العظيمة وجب أن يكون إحسان الولد إليهما كذلك ﴿إمّا يبلغنَّ عنـدكَ الكِبَر أحدهمـا أو كلاهمـا﴾ أي قد أوصينـاك بهما وبخاصـة إذا كبـرا أو كبـر أحدهما ، وإنما خصَّ حالة الكِبَر لأنهما حينئذٍ أحوج إلى البر والقيام بحقوقهما لضعفهما ومعنى ﴿عندك﴾ أي في كنفك وكفالتك ﴿فلا تقل لهما أفٍّ﴾ أي لا تقل للوالدين أقل كلمة تظهر الضجر ككلمـة أفٍّ ولا تسمعهما قولاً سيئاً حتى ولو بكلمة التأفف ﴿ولا تنهرهما﴾ أي لا تزجرهما بإغلاظٍ فيما لا يعجبك منهما ﴿وقلْ لهما قولاً كريماً﴾ أي قل لهما قولاً حسناً ليناً طيباً بأدبٍ ووقار وتعظيم ﴿واخفِضْ لهمـا جناح الـذُلّ من الرحمـة﴾ أي ألنْ جانبـك وتواضعْ لهما بتذلّل وخضوع من فـرط رحمتك وعطفـك عليهما ﴿وقلْ ربّ ارحمهمـا كما ربيـاني صغيراً﴾ أي أدع لهما بالرحمة وقل في دعائك يا رب ارحم والديَّ برحمتك الواسعة كما أحسنا إليَّ في تربيتهما حالة الصغر ﴿ربُّكم أعلـم بما نفوسكـم﴾ أي ربكم أيها الناس أعلم بما في نفوسكم من إرادة البر أو العقوق ﴿إن تكونـوا صالحين فإنـه كان للأوابين غفـوراً﴾ أي إن تكونوا قاصدين للبِرّ والصلاح دون

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٠/ ١٩٥ . (٢) القرطبي ١٠/ ٢٥٢ .

وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ

العقوق والفساد فإنه جلَّ وعلا يتجاوز عن سيئاتكم ويغفر للأوابين وهم الذين كلما أخطأوا عادوا إلى ربهم مستغفرين قال الرازي : والمقصود من هذه الآية أن الأولى لما دلَّت على وجوب تعظيم الوالدين ثم إن الولد قد يظهر منه ما يخلُّ بتعظيمهما فإن كانت تلك الهفوة ليست لأجل العقوق بل ظهرت بمقتضى الجبلَّة البشرية كانت في محل الغفران[1] ، وبمناسبة الإحسان إلى الوالدين يأمر تعالى بالإحسان إلى الأقارب والضعفاء والمساكين ﴿وآتِ ذا القربى حقَّه﴾ أي أعط كلَّ من له قرابة بك حقَّه من البر والإحسان ﴿والمسكينَ وابن السبيل﴾ أي وأعط المسكين المحتاج والغريبَ المنقطع في سفره حقَّه أيضاً ﴿ولا تبذّر تبذيراً﴾ أي لا تنفق مالكَ في غير طاعة الله فتكون مبذّراً ، والتبذير الإنفاق في غير حق قال مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كلَّه في الحق لم يكن مبذّراً ، ولو أنفق مُدّاً في غير حق كان مبذّراً وقال قتادة : التبذير النفقة في معصية الله تعالى وفي غير الحق والفساد[2] ﴿إن المبذّرين كانوا إخوان الشياطين﴾ هذا تعليل للنهي وهو غاية في الذم والتقبيح أي إن المبذرين كانوا أمثال الشياطين وأشباههم في الإفساد ، لأنهم ينفقون في الباطل وينفقون في الشر والمعصية فهم أمثالهم ﴿وكان الشيطانُ لربه كفوراً﴾ أي مبالغاً في كفران نعمة الله لا يؤدي حقَّ النعمة كذلك إخوانه المبذرون لا يؤدون حق النعمة ، وحقُّها أن ينفقوها في الطاعات والحقوق غير متجاوزين ولا مبذرين ﴿وإمَّا تُعْرضنَّ عنهم ابتغاءَ رحمةٍ من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً﴾ أي إن أعرضتَ عن ذوي القربى والمساكين وابن السبيل إذا لم تجد ما تعطيهم فقل لهم قولاً سهلاً ليناً وعدْهم وعداً جميلاً ﴿ولا تجعلْ يدك مغلولةً إلى عنقك﴾ تمثيلٌ للبخل أي لا تكنْ بخيلاً منوعاً لا تعطي أحداً شيئاً كمن حبست يده عن الإنفاق وشدَّت إلى عنقه ﴿ولا تبسطها كلَّ البسط﴾ تمثيل للتبذير أي ولا تتوسع في الإنفاق توسعاً مفرطاً بحيث لا يبقى في يدك شيء ، والغرض من الآية لا تكن بخيلاً ولا مسرفاً ﴿فتقعد ملوماً محسوراً﴾ أي فتصير مذموماً من الخَلْق والخالق ، منقطعاً من المال كمن انقطع في سفره بانقطاع مطيته ﴿إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي يوسّع الرزق على من يشاء ويضيّق على من يشاء ، وهو القابض ، الباسط المتصرف في خلقه ، بما يشاء حسب الحكمة ﴿إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾ أي إنه عالم بمصالح العباد، والتفاوتُ في الأرزاق ليس لأجل البخل بل لأجل رعاية المصالح فهو تعالى يعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق﴾ أي لا تُقدموا على قتل أولادكم مخافة الفقر ﴿نحن نرزقهم

---

(١) التفسير الكبير ٢٠/١٩٢ . (٢) المختصر ٢/٣٧٥ .

﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ﴾

﴿وإيّاكم﴾ أي رزقُهم علينا لا عليكم فنحن نرزقهم ونرزقكم فلا تخافوا الفقر بسببهم **﴿إنَّ قتلهم كان خِطْأً كبيراً﴾** أي قتلُهم ذنبٌ عظيم وجرمٌ خطير قال المفسرون : كان أهل الجاهلية يئدون البنات مخافة الفقر أو العار فنهاهم الله عن ذلك وضمن أرزاقهم **﴿ولا تقربوا الزنى﴾** أي لا تدنوا من الزنى وهو أبلغ من «لا تزنوا» لأنه يفيد النهي عن مقدمات الزنى كاللَّمس ، والقُبلة ، والنظرة ، والغمز وغير ذلك مما يجرُّ إلى الزنى فالنهي عن القرب أبلغ من النهي عن الفعل **﴿إنه كان فاحشة﴾** أي إن الزنى كان فعلة قبيحة متناهية في القبح **﴿وساء سبيلاً﴾** أي ساء طريقاً موصلاً إلى جهنم **﴿ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحق﴾** أي لا تقتلوا نفساً حرَّم الله قتلها بغير حقٍ شرعي موجبٍ للقتل كالمرتد ، والقاتل عمداً ، والزاني المحصن **﴿ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً﴾** أي ومن قُتل ظلماً بغير حقٍ يوجب قتله فقد جعلنا لوارثه سلطةً على القاتل بالقصاص منه ، أو أخذ الدية ، أو العفو **﴿فلا يسرفْ في القتل إنه كان منصوراً﴾** أي فلا يتجاوز الحدَّ المشروع بأن يقتل غير القاتل أو يُمَثِّل به أو يقتل اثنين بواحد كما كان أهل الجاهلية يفعلون ، فحسبُه أن الله قد نصره على خصمه فليكن عادلاً في قصاصه **﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾** أي لا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بالطريقة التي هي أحسن وهي حفظه واستثماره **﴿حتى يبلغ أشُدَّه﴾** أي حتى يبلغَ اليتيم سن الرشد ويحسن التصرف في ماله **﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً﴾** أي وفّوا بالعهود سواءً كانت مع الله أو مع الناس لأنكم تُسألون عنها يوم القيامة **﴿وأوفوا الكيل إذا كلتم﴾** أي أتموا الكيل إذا كلتم لغيركم من غير تطفيفٍ ولا بَخْس **﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾** أي زنوا بالميزان العدل السويّ بلا احتيالٍ ولا خديعة **﴿ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً﴾** أي وفاء الكيل وإقامة الوزن خيرٌ في الدنيا وأحسن مآلاً في الآخرة **﴿ولا تَقْفُ ما ليسَ لك به علم﴾** أي لا تتّبعْ ما لا تعلم ولا يَعْنيك بل تثبَّتْ من كل خبر ، قال قتادة : لا تقل رأيتُ ولم تر ، وسمعتُ ولم تسمع ، وعلمتُ ولم تعلم ، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله[1] **﴿إنَّ السمع والبصر والفؤاد كلُّ أولئك كان عنه مسئولاً﴾** أي إن الإنسان يُسأل يوم القيامة عن حواسه : عن سمعه ، وبصره ، وقلبه وعما اكتسبته جوارحه **﴿ولا تمش في الأرض مَرَحاً﴾** أي

(١) المختصر ٢/ ٣٧٧ .

ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ

لا تمش في الأرض مختالاً مشية المعجب المتكبر ﴿إنك لن تخْرق الأرضَ ولن تبلغ الجبال طولاً﴾ هذا تعليل للنهي عن التكبر والمعنى أنك أيها الإنسان ضئيل هزيل لا يليق بك التكبر ؟ كيف تتكبر على الأرض ولن تجعل فيها خرقاً أو شقاً ؟ وكيف تتطاول وتتعظَّمْ على الجبال ولن تبلغها طولاً ؟ فأنت أحقر وأضعف من كل واحدٍ من الجمادين فكيف تتكبر وتتعالى وتختال وأنت أضعف من الأرض والجبال ؟ وفي هذا تهكم وتقريع للمتكبرين ﴿كلُّ ذلك كان سيئه عند ربّكَ مكروهاً﴾ أي كل ذلك المذكور الذي نهى الله عنه كان عمله قبيحاً ومحرماً عند الله تعالى ﴿ذلك ممَّا أوحى إليك ربك من الحكمة﴾ أي ذلك الذي تقدم من الآداب والقصص والأحكام بعضُ الذي أوحاه إليك ربك يا محمد من المواعظ البليغة ، والحِكَم الفريدة ﴿ولا تجعلْ مع الله إلهاً آخر فتُلقى في جهنم ملوماً مدحوراً﴾ أي لا تشرك مع الله غيره من وثنٍ أو بشر فتلقى في جهنم ملوماً تلوم نفسك ويلومك اللهُ والخلق مطروداً مبعداً من كل خير قال الصاوي : ختم به الأحكام كما ابتدأها إشارةً إلى أن التوحيد مبدأ الأمور ومنتهاها ، وهو رأس الأشياء وأساسُها ، والأعمالُ بدونه باطلةٌ لا تفيد شيئاً[١] ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً ؟﴾ خطابٌ على وجه التوبيخ للعرب الذين قالوا إن الملائكة بنات الله والمعنى أفخصكم ربكم وأخلصكم بالذكور واختار لنفسه ـ على زعمكم ـ البنات ؟ كيف يجعل لكم الأعلى من النسل ويختار لنفسه الأدنى ! ﴿إنكم لتقولون قولاً عظيماً﴾ أي إنكم لتقولون قولاً عظيماً في شناعته وبشاعته حيث تنسبون إليه البنات وتجعلون لله ما تكرهون ﴿ولقد صرَّفْنا في هذا القرآن ليذكَّروا﴾ أي ولقد بينّا للناس في هذا القرآن العظيم الأمثال والمواعظ ، والوعد والوعيد ، ليتذكروا بما فيه من الحجج النيِّرة والبراهين الساطعة ، فينزجروا عما هم فيه من الشرك والضلال ﴿وما يزيدهم إلا نفوراً﴾ أي وما يزيدهم هذا البيان والتذكير إلا تباعداً عن الحق ، وغفلةً عن النظر والاعتبار ﴿قل لو كان معه آلهةٌ كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العَرْش سبيلاً﴾ أي لو فرضنا أن مع الله آلهة أخرى كما يزعم هؤلاء المشركون إذاً لطلبوا طريقاً إلى مغالبة ذي العزة والجلال ليسلبوا ملكه كما يفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض[٢] ﴿سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً﴾ أي تنزَّه

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ٣٥٠.

(٢) هذا أحد وجهين في تفسير الآية الكريمة والوجه الآخر أن المعنى : لو كان الأمر كما تقولون لكان أولئك المعبودون يبتغون سبيلاً إلى التقرب إليه بعبادته وطاعته ويطلبون الزلفى لديه ، وهذا اختيار ابن جرير وابن كثير ، والوجه الأول أظهر كما يقول العلامة أبو السعود وهو المناسب للآية لقوله تعالى بعدها ﴿سبحانه﴾ فإنه صريح في الإنكار وأن توهم فيه محذور عظيم .

عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ

تعالى وتقدَّس عما يقول أولئك الظالمون ، وتعالى ربنا عما نسبوه إليه من الزور والبهتان تعالياً كبيراً ، فإن مثل هذه الفِرية مما يتنزّه عنه مقامه الأسمى قال الشهاب : وذكر العلوّ بعد عنوانه بـ ﴿ذي العرش﴾ في أعلى مراتب البلاغة لأنه المناسب للعظمة والجلال ﴿تسبّح له السموات السبعُ والأرضُ ومَنْ فيهن﴾ أي تسبح له الكائنات ، وتنزهه وتقدسه الأرض والسموات ، ومن فيهن من المخلوقات ﴿وإنْ من شيءٍ إلا يسبح بحمده﴾ أي وما من شيء في هذا الوجود إلا ناطق بعظمة الله ، شاهد بوحدانيته جلَّ وعلا[1] ، السمواتُ تسبّح الله في زرقتها ، والحقولُ في خضرتها ، والبساتينُ في نضرتها ، والأشجار في حفيفها ، والمياهُ في خريرها ، والطيورُ في تغريدها ، والشمسُ في شروقها وغروبها ، والسحبُ في إمطارها ، والكل شاهد بالوحدانية للّه .

وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه واحدُ

﴿ولكنْ لا تفقهون تسبيحهم﴾ أي ولكنْ لا تفهمون تسبيح هذه الأشياء لأنها ليست بلغاتكم ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾ أي إنه تعالى حليم بالعباد لا يعاجل من عصاه بالعقوبة ، غفورٌ لمن تاب وأناب ، ولولا حلم الله وغفرانه لأخذ البشر أخذ عزيزٍ مقتدر ﴿وإذا قرأتَ القرآن جعلنا بينكَ وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً﴾ أي وإذا قرأت يا محمد القرآن على هؤلاء المشركين الذين لا يصدّقون بالآخرة جعلنا بينك وبينهم حجاباً خفياً يحجب عنهم فهم القرآن وإدراك أسراره وحِكمه ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنَّةً أن يفقهوه﴾ أي وجعلنا على قلوب هؤلاء الكفار أغطيةً لئلا يفهموا القرآن ﴿وفي آذانهم وقراً﴾ أي صمماً يمنعهم من استماعه ﴿وإذا ذكرتَ ربَّك في القرآنِ وحده ولَّوْا على أدْبارهم نفوراً﴾ أي وإذا وحَّدت الله وأنت تتلو القرآن فرَّ المشركون من ذلك هرباً من استماع التوحيد ﴿نحن أعلم بما يستمعون به﴾ أي نحن أعلم بالغاية التي يستمعون من أجلها للقرآن وهي الاستهزاء والسخرية قال المفسرون : كان المشركون يجلسون عند النبي ﷺ مظهرين الاستماع وفي الواقع قاصدين الاستهزاء فنزلت الآية تسلية للرسول ﷺ وتهديداً للمشركين ﴿إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى﴾ أي حين يستمعون إلى قراءتك يا محمد ثم

(١) قال في الظلال : «وإنه لمشهد كوني فريد حين يتصور القلب كلَّ حصاةٍ وكلَّ حجر ، كلَّ حبةٍ وكل ورقة ، كلَّ زهرة وكل ثمرة ، كل نبتةٍ وكل شجرة ، كل حشرة وكل زاحفة ، كل حيوان وكل إنسان ، كل دابة على الأرض ، وكل سابحةٍ في الماء والهواء ومعها سكان السماء ، كلُّها تسبّح الله وتتوجه إليه في علاه ، وحين تشف الروح وتصفو تدرك من أسرار هذا الوجود ما لا يدركه الغافلون» . الظلال ١٥/ ٣٩.

إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

يتناجون ويتحدثون بينهم سراً ﴿إذ يقول الظالمون إنْ تتبعون إلا رجلاً مسحوراً﴾ أي حين يقول أولئك الفجرة ما تتبعون إلا رجلاً سُحر فجُنَّ فاختلط كلامه ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا﴾ أي انظر يا محمد وتعجَّبْ كيف يقولون تارة عنك إنك ساحر ، وتارة إنك شاعر ، وتارة إنك مجنون ! وقد ضلوا بهذا البهتان والزور ﴿فلا يستطيعون سبيلاً﴾ أي لا يجدون طريقاً إلى الهدى والحق المبين .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ الاستعارة المكنية ﴿واخفض لهما جناح الذل﴾ شبَّه الذل بطائر له جناح وحذف الطائر ورمز له بشيء من لوازمه وهو الجناح على سبيل الاستعارة المكنية .

٢ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾ مثَّل للبخيل بالذي حبست يده عن الإعطاء وشدت إلى عنقه بحيث لا يقدر على مدها ، وشبَّه السرف ببسط الكف بحيث لا تحفظ شيئاً .

٣ ـ اللف والنشر المرتب ﴿فتقعد ملوماً محسوراً﴾ عاد لفظ ﴿ملوماً﴾ إلى البخل ولفظ ﴿محسوراً﴾ إلى الإسراف أي يلومك الناس إن بخلت ، وتصبح مقطوعاً إن أسرفت .

٤ ـ الطباق بين ﴿يبسط . . ويقدر﴾ .

٥ ـ جناس الاشتقاق ﴿ قرأتَ القرآن﴾ .

٦ ـ التوبيخ ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين﴾ ؟ .

٧ ـ الفرض والتقدير ﴿لو كان معه آلهة كما يقولون﴾ .

لطيفة : نقف هنا أمام مثلٍ من دقائق التعبير القرآني العجيبة ففي هذه السورة قدَّم تعالى رزق الأبناء على رزق الآباء ﴿نحن نرزقهم وإياكم﴾ وفي سورة الأنعام قدَّم رزق الآباء ﴿نحن نرزقكم وإياهم﴾ والسرُّ في ذلك أن قتل الأولاد هنا كان خشية وقوع الفقر بسببهم فقدَّم تعالى رزق الأولاد ، وفي الأنعام كان قتلهم بسبب فقر الآباء فعلاً فقدم رزق الآباء ، فللّه در التنزيل ما أروع أسراره !

* * *

قال الله تعالى : وقالوا أءذا كنا عظاماً ورفاتاً . . إلى . . ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً﴾ من آية (٤٩) إلى نهاية آية (٦٩) .

المناسبة : لما ذكر تعالى موقف المشركين من القرآن العظيم ، وذكر تعاميهم عن فهم آياته البينات ، أردفه بذكر شبهاتهم في إنكار البعث والنشور وكرَّ عليها بالإبطال والتفنيد ، ثم ذكر قصة آدم وإبليس للعظة والاعتبار ، وأعقبها بذكر نعمه العظيمة على العباد ثم بالوعيد والتهديد إن أصرَّوا على الكفر والجحود .

اللغة : ﴿رفاتاً﴾ الرُّفات : ما تكسَّر وبَلِيَ من كل شيء كالفُتات والحُطام والرُّضاض ﴿يُنْغضون﴾ قال الفراء : يقال أنغض فلانٌ رأسه إذا حركّه إلى فوق وأسفل كالمتعجب من الشيء[1] قال الراجز : « أَنْغَض نحوي رأسه وأقنعا » ﴿ينزغ﴾ يفسد ويهيِّج الشر والنزغُ : الإفسادُ والإغراء ﴿لأحتنكنَّ﴾ الاحتناك الأخذ بالكليَّةِ والاستئصال يقال : احتنك الجرادُ الزرعَ إذا ذهب به كلّه ﴿واستفزز﴾ اخدعْ واستخفَّ يقال : أفزَّه الخوف واستفزَّه إذا أزعجه واستخفَّه ﴿وأَجْلِبْ﴾ أصل الإجلاب السوقُ بجلبَةٍ من السائق وهو الصياح ، والجَلَب والجَلَبَةُ الأصوات ﴿ورَجِلِك﴾ الرَّجِلُ جمع راجل وهو الذي يمشي على قدميه ﴿يُزْجي﴾ يسوق ﴿حاصباً﴾ الحاصب والحصباء هي الحَصَى الصغار ﴿قاصفاً﴾ القاصف ما يقصف الشيء أي يكسره والريح الشديدة التي تكسر بشدة من قصف الشيء يقصفه أي كسره بشدة ، ورعد قاصف شديد الصوت ﴿تبيعاً﴾ طالباً يقال تابع وتبيع وهو النصير والمطالب .

سبب النزول : أ ـ عن ابن عباس أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن يُنحِّيَ عنهم الجبال فيزرعوا فقيل له : إن شئتَ أن تستأني بهم لعلنا نجتبي منهم ، وإن شئتَ نعطيهم الذي سألوا فإن كفروا أُهلكوا ، فقال : لا بل أستأني بهم فنزلت ﴿وما منعنا أن نُرسل بالآياتِ إلا أنْ كذَّبَ بها الأولون . . ﴾[2] الآية .

ب ـ لما ذكر تعالى شجرة الزقوم في القرآن قال أبو جهل : يا معشر قريش إن محمداً يخوّفكم بشجرة الزقوم ، ألستم تعلمون أن النار تحرق الشجر ؟ ومحمد يزعم أن النار تُنْبت الشجر ، فهل تدرون ما الزقوم ؟ هو التمر والزُّبد ، يا جارية ابغينا تمراً وزُبداً ، فجاءته به فقال : تزقّموا من هذا الذي يخوّفكم به محمد فأنزل الله تعالى ﴿والشجرةَ الملعونةَ في القرآن ونخوّفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾[3] .

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾

التفسير : ﴿وقالوا أئذا كنا عظاماً ورُفاتاً﴾ استفهام تعجب وإنكار أي قال المشركون المكذبون بالبعث أئذا أصبحنا عظاماً نخرة ، وذرات متفتتة كالتراب ﴿أئنا لمبعوثون خَلْقاً جديداً﴾ أي هل سنُبعث ونُخْلق خلقاً جديداً بعد أن نبلى ونفنى ؟ ﴿قل كونوا حجارةً أو حديداً﴾ أي قل لهم يا محمد لو كنتم حجارةً

(١) التفسير الكبير ٢٠/ ٢٢٦ . (٢) أسباب النزول للواحدي ص ١٦٦ . (٣) زاد المسير ٥/ ٥٥ .

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ﴾

أو حديداً لقدر الله على بعثكم وإحيائكم فضلاً عن أن تكونوا عظاماً ورفاتاً فإن الله لا يعجزه شيء ، فالحجارة والحديد أبعد عن الحياة وهي أصلب الأشياء ولو كانت أجسامكم منها لأعادها الله فكيف لا يقدر على إعادتكم إذا كنتم عظاماً ورفاتاً ؟ ﴿أو خَلْقاً ممّا يكبُر في صدوركم﴾ أي أو كونوا خلقاً آخر أوغل في البعد عن الحياة من الحجارة والحديد مما يصعب في نفوسكم تصوُّرُ الحياة فيه فسيبعثكم الله قال مجاهد : المعنى كونوا ما شئتم فستعادون ﴿فسيقولون من يعيدنا﴾ ؟ أي من الذي يردنا إلى الحياة بعد فنائنا﴿قل الذي فطركم أولَ مرة﴾ أي قل لهم يعيدكم القادر العظيم الذي خلقكم وأنشأكم من العدم أول مرة ﴿فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو﴾ ؟ أي يحركون رءوسهم متعجبين مستهزئين ويقولون استنكاراً واستبعاداً متى يكون البعث والإعادة ؟ ﴿قل عسى أن يكون قريباً﴾ أي لعله يكون قريباً فإن كلَّ ما هو آتٍ قريب ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً﴾ أي سيكون بعثكم يوم الحشر الأكبر يوم يدعوكم الرب جل وعلا للاجتماع في المحشر فتجيبون لأمره ، وتظنون لهَوْل ما ترون أنكم ما أقمتم في الدنيا إلا زمناً قليلاً ﴿وقلْ لعبادي يقولوا التي هي أحسن﴾ أي قل لعبادي المؤمنين يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلمة الطيبة ويختاروا من الكلام ألطفه وأحسنه وينطقوا دائماً بالحسنى ﴿إن الشيطان ينزَغ بينهم﴾ أي إن الشيطان يُفسد ويُهيج بين الناس الشرَّ ويُشعل نار الفتنة بالكلمة الخشنة يُفلت بها اللسان ﴿إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً﴾ أي ظاهر العداوة للإنسان من قديم الزمان يتلمس سقطَات لسانه ليُحْدث العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه ﴿ربكُمْ أعْلَمُ بكم إنْ يَشَأْ يرحَمْكُم أو إنْ يَشَأْ يعذبْكم﴾ أي ربكم أيها الناس أعلم بدخائل نفوسكم إن يشأ يرحمكم بالتوفيق للإيمان ، وإن يشأ يعذبكم بالإماتة على الكفر والعصيان ﴿وما أرسلناك عليهم وكيلاً﴾ أي وما جعلناك يا محمد حفيظاً على أعمال الكفار كفيلاً عنهم لتقسرهم على الإيمان إنما أرسلناك نذيراً فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار ﴿وربك أعلمُ بمن في السموات والأرض﴾ إنتقالٌ من الخصوص إلى العموم أي ربك جلَّ وعلا أعلمُ بعباده بأحوالهم ومقاديرهم فيخص بالنبوة من شاء من خلقه ، وهو أعلم بالسعداء والأشقياء ، والآية ردٌّ على المشركين حيث استبعدوا النبوة على رسول الله وقالوا : كيف يكون يتيم أبي طالب نبياً ؟ وكيف يكون هؤلاء الفقراء الضعفاء أصحابه دون الأكابر والرؤساء ؟ ﴿ولقد فضّلْنا بعض النبيّين على بعض﴾ أي فضلنا بعض الأنبياء على بعض حسب علمنا وحكمتنا وخصصناهم بمزايا فريدة ، فاصطفينا إبراهيم

بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾

بالخُلَّة ، وموسى بالتكليم ، وسليمان بالمُلْك العظيم ، ومحمداً بالإسراء والمعراج وجعلناه سيِّد الأولين والآخرين ، وكلٌّ ذلك فعل الحكيم العليم الذي لا يصدر شيءٌ إلا عن حكمته ﴿وآتينا داود زبوراً﴾ أي وأنزلنا الزبور على داود المشتمل على الحكمةِ وفصلِ الخطاب ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين أدعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دونه تعالى قال الحسن : يعني الملائكة وعيسى وعزيراً فقد كانوا يقولون إنهم يشفعون لنا عند الله ﴿فلا يملكون كشفَ الضُّر عنكم ولا تحويلاً﴾ أي فلا يستطيعون رفع البلاء عنكم ولا تحويله إلى غيركم ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيُّهم أقرب﴾ أي أولئك الآلهة الذين يدعونهم من دون الله هم أنفسهم يبتغون القرب إلى الله ، ويتوسلون إليه بالطاعة والعبادة ، فكيف تعبدونهم معه ؟ ﴿ويرجون رحمته ويخافون عذابه﴾ أي يرجون بعبادتهم رحمته تعالى ويخافون عقابه ويتسابقون إلى رضاه ﴿إنَّ عذابَ ربك كان محذوراً﴾ أي عذابه تعالى شديد ينبغي أن يُحذر منه ويخاف من وقوعه وحصوله ﴿وإنْ من قريةٍ إلاّ نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً﴾ أي ما من قريةٍ من القرى الكافرة التي عصتْ أمر الله وكذَّبتْ رسله إلا وسيهلكها الله إما بالاستئصال الكلي أو بالعذاب الشديد لأهلها ﴿كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾ أي كان ذلك حكماً مسطراً في اللوح المحفوظ لا يتغيَّر ﴿وما منعَنَا أنْ نُرسلَ بالآياتِ إلا أنْ كذَّب بها الأولون﴾ قال المفسرون : اقترح المشركون على رسول الله ﷺ معجزاتٍ عظيمة منها أن يقلب لهم الصفا ذهباً، وأن يزيح عنهم الجبال فأخبره تعالى أنه إن أجابهم إلى ما طلبوا ثم لم يؤمنوا استحقوا عذاب الاستئصال، وقد اقتضَت حكمته تعالى إمهالهم لأنه علم أنَّ منهم من يؤمن وأن من أولادهم من يؤمن فلهذا السبب ما أجابهم إلى ما طلبوا[1] أو المعنى ما منعنا من إرسال المعجزات والخوارق التي اقترحها قومك إلاّ تكذيبُ مَنْ سبقهم من الأمم حيث اقترحوا ثم كذبوا فأهلكهم الله ودمَّرهم ﴿وآتينا ثمودَ الناقة مبصرةً فظلموا بها﴾ أي وأعطينا قوم صالح الناقة آيةً بينة ومعجزةً ساطعة واضحة فكفروا بها وجحدوا بعد أن سألوها فأهلكهم الله ﴿وما نُرسل بالآياتِ إلا تخويفاً﴾ أي وما نرسل بالآيات الكونية كالزلازل والرعد والخسوف والكسوف إلا تخويفاً للعباد

(١) انظر سبب النزول المذكور سابقاً .

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ﴾

من المعاصي قال قتادة : إن الله تعالى يخوّف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويرجعون[١] ﴿وإذ قلنا لك إنَّ ربك أحاط بالنـاس﴾ أي واذكر يا محمد حين أخبرناك أن الله أحـاط بالنـاس علماً في الماضي والحاضر والمستقبل فهو تعالى لا يخفى عليه شيءٌ من أحوالهم وقد علم أنهم لن يؤ منوا ولو جئتهم بما طلبوا من الآيات والمعجزات ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنةً للنـاس﴾ أي وما جعلنا الرؤية التي أريناكها عياناً ليلة المعراج من عجائب الأرض والسماء إلا امتحاناً وابتلاءً لأهل مكة حيث كذبوا وكفروا وارتـد بعض الناس لما أخبرهم بها قال البخاري عن ابن عباس : هي رؤيا عينٍ أُريها رسولُ الله ﷺ ليلةَ أُسريَ به وليست برؤيا منام[٢] ﴿والشجـرةَ الملعونةَ في القـرآن﴾ أي وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن وهـي شجرة الزقوم إلا فتنةً أيضاً للناس قال ابن كثير : لما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار ورأى شجرة الزقوم كذبوا بذلك حتى قال أبو جهل متهكماً : هاتوا لنا تمراً وزُبْداً وجعـل يأكل من هذا بهـذا ويقول : تزقّمـوا فلا نعلم الزقوم غير هذا[٣] ﴿ونخوفهم فما يزيـدهم إلا طغيانـاً كبيراً﴾ أي ونخوّف هؤ لاء المشركيـن بأنـواع العـذاب والآيات الزاجـرة فما يزيدهم تخويفنا إلا تمادياً وغياً واستمراراً على الكفر والضلال ، فماذا تنفع معهم الخوارق ؟ ما زادتهم خارقة الإسراء والمعراج ، ولا خارقة التخويف بشجرة الزقوم إلا استهزاءً وإمعاناً في الضلال ، ثم أشار تعالى إلى أن هذا الطغيان سببه إغواء الشيطان ولهذا ذكر قصته عقب ذلك فقال ﴿وإذ قلنـا للملائكة اسجـدوا لآدم فسجدوا إلا إبليـس﴾ أي أذكر يا محمد حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم فسجدوا كلهم إلا ابليس استكبر وأبى افتخاراً على آدم واحتقاراً له ﴿قال أأسجـدُ لمن خلقـتَ طيناً﴾ استفهامٌ إنكاري أي أأسجد أنا العظيم الكبير لهذا الضعيف الحقير الذي خلقته من الطين ؟ كيف يصح للعالي أن يسجد للداني ؟ ﴿قال أرأيتـكَ هذا الذي كرَّمـتَ عليَّ﴾ أي قال إبليس اللعين جراءةً على الربّ وكفراً به : أتُرى هذا المخلوق الذي فضّلته عليَّ وجعلتَه أكرَم مني عندك ؟ ﴿لئن أخرتـنِ إلى يومِ القيامـة لأحتنكنَّ ذريتـه إلا قليلاً﴾ أي لئن أنظرتني وأبقيتني حياً إلى يوم القيامة لأستأصلنَّ ذريته بالإغواء والإضلال قال الطبري : أقسمعدوٌّ الله فقال لربه : لئن أخرتَ إهلاكي إلى يوم القيامة لأستأصلنَّهم ولأستميلنَّهم وأضلنَّهم إلا قليلاً منهم[٤] ﴿قال اذهبْ فمـنْ تَبِعـكَ منهـم فإن جهنم جزاؤكم جـزاءً موفوراً﴾ أي قال الرب جلَّ وعلا : إذهب فقد أنظرتُك وابذل جهدك فيهم فمن أطاعك من

(١) الطبري ١٥/١٠٩ . (٢) الطبري ١٥/١١٠ . (٣) المختصر ٢/٣٨٦ .
(٤) الطبري ١٥/١١٦ والمراد بالقليل : المخلصون الذين عصمهم الله .

﴿ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ﴾

ذرية آدم فإن جزاءك وجزاءهم نارُ جهنم جزاء كاملاً وافراً لا ينقص لكم منه شيء قال القرطبي : والأمر في ﴿اذهب﴾ أمرُ إهانة والمعنى اجهد جهدك فقد أنظرناك[1] ﴿واستفزِزْ من استطعتَ منهم بصوتِك﴾ أي استخفف واستجهل وحرِّكْ من أردتَ أن تستفزَّه فتخدعه بدعائك إلى الفساد قال ابن عباس : صوتُه كلُّ داعٍ يدعو إلى معصية الله تعالى وقال مجاهد : صوته الغناء والمزامير واللهو[2] ﴿وأَجْلِبْ عليهمْ بخيلِكَ ورَجِلِك﴾ أي صِحْ عليهم بأعوانك وجنودك من كل راكبٍ وراجل قال الطبري : المعنى اجمع عليهم من ركبان جندك ومشاتهم من يصيح عليهم بالدعاء إلى طاعتك ، والصرفِ عن طاعتي قال ابن عباس : خيلُه ورَجِله كلُّ راكبٍ وماشٍ في معصية الله تعالى[3] وقال الزمخشري : الكلام واردٌ مورد التمثيل ، مُثِّلَتْ حالُه في تسلطه على من يُغويه بفارسٍ مغوار أوقع على قومٍ فصوَّت بهم صوتاً يستفزهم عن أماكنهم ، ويُقلقهم عن مراكزهم ، وأجلبَ عليهم بجنده من خيَّالةٍ ورجَّالة حتى استأصلهم[4] ﴿وشارِكْهُمْ في الأموالِ والأولاد﴾ أي اجعل لنفسك شركة في أموالهم وأولادهم ، أما الأموال فبكسبها من الحرام وإنفاقها في المعاصي ، وأما الأولاد فبتحسين اختلاط الرجال بالنساء حتى يكثر الفجور ويكثر أولاد الزنى ﴿وَعِدْهُمْ وما يعدُهُم الشيطانُ إلا غروراً﴾ أي عدْهم بالوعود المغرية الخادعة والأماني الكاذبة ، كالوعد بشفاعة الأصنام ، والوعد بالغِنى من المال الحرام ، والوعد بالعفو والمغفرة وسَعَة رحمة الله ، والوعد باللذة والسرور في ارتكاب الموبقات كقول الشاعر :

خذوا بنصيبٍ من سرورٍ ولذةٍ   فكلٌ وإن طال المدى يتصرَّم

﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ أي إنَّ عبادي المخلصين ليس لك عليهم تسلطٌ بالإغواء لأنهم في حفظي وأماني ﴿وكفى بربك وكيلاً﴾ أي كفى بالله تعالى عاصماً وحافظاً لهم من كيدك وشرك ، ثم ذكَّر تعالى العباد بإحسانه ونعمه عليهم وبآثار قدرته ووحدانيته فقال ﴿ربكم الذي يُزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله﴾ أي ربكم أيها الناس هو الذي يُسيِّر لكم السفن في البحر لتطلبوا من رزقه في أسفاركم وتجاراتكم ﴿إنه كان بكم رحيماً﴾ أي هو تعالى رحيم بالعباد ولهذا سهَّل لهم أسباب ذلك ﴿وإذا مسَّكم الضُرُّ في البحر ضلَّ من تدعون إلا إياه﴾ أي وإذا أصابتكم الشدة والكرب في البحر وخشيتم من الغَرَق ذهب

---

(١) القرطبي ١٠/ ٢٨٨ . (٢) القرطبي ١٠/ ٢٨٨ . (٣) الطبري ١٥/ ١١٨ . (٤) الكشاف ٢/ ٦٧٨ . ويقول سيد قطب في الظلال : « إنه تجسيم لوسائل الغواية والإحاطة ، والاستيلاء على القلوب والمشاعر والعقول ، فهي المعركة الصاخبة تُستخدم فيها الأصوات والخيل والرجال على طريقة المعارك والمبارزات ، يرسل فيها الصوتُ فيزعج الخصوم ويخرجهم من مراكزهم الحصينة ، أو يستدرجهم للفخ المنصوب والمكيدة المدبَّرة ، فإذا استدرجوا إلى العراء أخذتهم الخيل ، وأحاطت بهم الرجال » الظلال ١٥/ ٥١ .

إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

عن خاطركم من كنتم تعبدونه من الآلهة ولم تجدوا غير الله مغيثاً يغيثكم ، فالإنسان في تلك الحالة لا يتضرع إلى الصنم والوثن ، والمَلك والفَلَك وإنما يتضرع إلى الله تعالى ﴿فلما نجّاكم إلى البَرِّ أعرضتم﴾ أي فلما نجاكم من الغرق وأخرجكم إلى البَرِّ أعرضتم عن الإيمان والإخلاص ﴿وكان الإنسان كفوراً﴾ أي ومن طبيعة الإنسان جحود نعم الرحمن ، ثم خوَّفهم تعالى بقدرته العظيمة فقال ﴿أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البَرِّ﴾ أي أفأمنتم أيها الناس حين نجوتم من الغرق في البحر أن يخسف الله بكم الأرض فيخفيكم في باطنها ؟ إنكم في قبضة الله في كل لحظة فكيف تأمنون بطش الله وانتقامه بزلزالٍ أو رجفةٍ أو بركان ؟ ﴿أويرسل عليكم حاصباً﴾ أي يمطركم بحجارة من السماء تقتلكم كما فعل بقوم لوط ﴿ثم لا تجدوا لكم وكيلاً﴾ أي لا تجدوا من يقوم بأموركم ويحفظكم من عذابه تعالى ﴿أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى﴾ أي يعيدكم في البحر مرةً أخرى ﴿فيرسل عليكم قاصفاً من الريح﴾ أي يرسل عليكم وأنتم في البحر ريحاً شديدة مدمِّرة ، لا تمرُّ بشيءٍ إلا كسرته ودمَّرته ﴿فيغرقكم بما كفرتم﴾ أي يغرقكم بسبب كفركم ﴿ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً﴾ أي لا تجدوا من يأخذ لكم بالثأر منا أو يطالبنا بتبعة إغراقكم .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ الاستفهام الإنكاري ﴿أئذا كنا عظاماً﴾ وتكرير الهمزة في ﴿أئنا لمبعوثون﴾ لتأكيد النكير وكذلك تأكيده بإنَّ واللام للإشارة إلى قوة الإنكار .

٢ ـ التعجيز والإهانة في الأمر ﴿قل كونوا حجارةً أو حديداً﴾ .

٣ ـ الطباق بين ﴿يرحمكم . . . ويعذبكم﴾ وبين لفظ ﴿البر . . والبحر﴾ .

٤ ـ الإيجاز بالحذف ﴿ولا تحويلاً﴾ أي ولا تحويل الضر عنكم حُذف لدلالة ما سبق .

٥ ـ المقابلة اللطيفة بين الجملتين ﴿يرجون رحمته﴾ ، ﴿ويخافون عذابه﴾ .

٦ ـ الإسناد المجازي ﴿وما منعنا أن نُرسل بالآيات﴾ المنع محالٌ في حقه تعالى لأن الله لا يمنعه عن إرادته شيء فالمنع مجاز عن الترك أي ما كان سبب ترك إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين .

٧ ـ المجاز العقلي ﴿الناقةَ مبصرةً﴾ لما كانت الناقة سبباً في إبصار الحق والهدى نسب إليها الإبصار ففيه مجاز عقلي علاقته السببية .

٨ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿وأَجْلبْ عليهم بخيلـك ورجلك﴾ مُثِّلَتْ حال الشيطان في تسلطه على من يغويه بالفارس الذي يصيح بجنده للهجوم على الأعداء لاستئصالهم .

٩ ـ التذييل ﴿إنه كان بكم رحيماً﴾ لأنه كالتعليل لما سبق من تسيير السفن وتسخيرها في البحر .

تـنبيـه : الغالب في لفظ ﴿الرؤيـا﴾ أن تكون منامية وإذا كانت بالعين يقال ﴿رؤية﴾ بالتاء ، وقوله تعالى ﴿وما جعلنا الرؤيـا التي أريناك إلا فتنةً للناس﴾ جاءت على غير الغالب لأن المراد بها الرؤية البصرية التي رآها رسول الله ﷺ في الإسراء والمعراج وقد تقدم قول ابن عباس : «هي رؤيـا عين أُريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به » ولو كانت رؤيـا منام لما كانت فتنةً للناس ولما ارتد بعضهم عن الاسلام .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولقد كرمنـا بني آدم وحملناهم في البر والبحر . . إلى . . فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ من آية (٧٠) إلى نهاية آية (٨٩) .

المنـاسبـة : لما ذكر تعالى ما امتنَّ به على الناس من تسيير السفن في البحر ، ومن تنجيتهم من الغرق، تمّم ذكر المنَّة بما أنعم به على النوع الإنساني من تكرمتهم ، ورزقهم ، وتفضيلهم على سائر المخلوقات ، ثم ذكر أحوال الناس ودرجاتهم في الآخرة ، ثم حذَّر الرسول ﷺ من اتباع أهواء المشركين .

اللغـة : ﴿بإمامهم﴾ الإمام في اللغة : كل من يأتم به غيره سواء كان على هدى أو ضلال ويطلق الإمام على كتاب الأعمال لأن الإنسان يكون تابعاً لكتاب أعماله يقوده إلى الجنة أو النار ﴿فتيلاً﴾ الفتيل : القشرة التي في شق النواة ويضرب مثلاً للشيء الحقير التافه ومثله القطمير والنقير ﴿تركن﴾ تميل ﴿ليستفزونك﴾ الاستفزاز : الإزعاج بسبب من الأسباب للحمل على الخروج من الوطن وغيره ﴿وتحويلاً﴾ تغييراً وتبديلاً ﴿لدلوك﴾ الدلوك : الغروب يقال دلكت الشمس أي غابت قال أبو عبيد وابن قتيبة : الدلوك الغروب وأنشد لذي الرمة :

مصـابيحُ ليسـتْ باللواتـي تقودها ... نجـومٌ ولا بالآفـلات الدَّوالكِ

وقال الأزهري : أصل الدلوك الميل يقال : مالت الشمس للزوال ، ومالت للغروب ﴿غسَق﴾ غسَقُ الليل : سواده وظلمته يقال : غسق الليل إذا اشتدت ظلمته ﴿فتهجد﴾ التهجد : صلاة الليل بعد الاستيقاظ من النوم ، والهجودُ : النوم ، قال الشاعر :

أَلاَ طَرَقَتْنَا والرِّفَاقُ هُجُود فباتَتْ بعَلاَّتِ النَّوَال تَجُود[١]

﴿زهق﴾ زال وبطل ﴿نأى﴾ تباعد والنأي : البُعد ﴿ظهيراً﴾ مُعيناً ونَصيراً .

سَبَبُ النّزول : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قالت قريش لليهود أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل ! فقالوا : سلوه عن الروح فأنزل الله ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي . .﴾[٢] الآية .

* ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا۟﴾

التفسير : ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ أي لقد شرفنا ذرية آدم على جميع المخلوقات بالعقل ، والعلم ، والنطق ، وتسخير جميع ما في الكون لهم ﴿وحملناهم في البرّ والبحر﴾ أي وحملناهم على ظهور الدواب والسفن ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ أي من لذيذ المطاعم والمشارب قال مقاتل :السمن والعسل والزبد والتمر والحلوى وجعلنا رزق الحيوان التبن والعظام وغيرها ﴿وفضلناهم على كثيرٍ ممَّنْ خلقنا تفضيلاً﴾ أي وفضلناهم على جميع من خلقنا من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات من الجن والبهائم والدواب والوحش والطير وغير ذلك ﴿يوم ندعو كلَّ أُناسٍ بإمامهم﴾ أي اذكر يوم الحشر حين نادي كل إنسان بكتاب عمله ليسلَّم له وينال جزاءه ، والإمام الكتاب الذي سجل فيه عمل الإنسان ويقوّيه ﴿وكلَّ شيءٍ أحصيناه في إمامٍ مبين﴾ قال ابن عباس : الإمام ما عُمل وأُملي فكتب عليه ، فمن بُعث متقياً لله جُعل كتابُه بيمينه فقرأه واستبشر[٣] ﴿فمن أُوتي كتابه بيمينه﴾ أي فمن أُعطي كتاب عمله بيمينه وهم السعداء أولو البصائر والنُّهى المتقون للّه ﴿فأولئك يقرءون كتابهم﴾ أي يقرءون حسناتهم بفرح واستبشار لأنهم أخذوا كتبهم بأيمانهم ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ أي ولا يُنقصون من أجور أعمالهم شيئاً ولو كان بمقدار الفتيل وهو الخيط الذي في شق النواة ﴿ومن كان في هذه أعمى﴾ أي ومن كان في هذه الدنيا أعمى القلب ، لا يهتدي إلى الحق ولا إلى الخير ﴿فهو في الآخرة أعمى وأضلُّ سبيلاً﴾ أي فهو في الآخرة أشدُّ عمىً وأشدُّ ضلالاً[٤] عن طريق السعادة والنجاة قال قتادة : من كان في هذه الدنيا أعمى عمّا عايَنَ من نعم الله وخلقه

---

(١) القرطبي ١٠/٣٠٨ . (٢) أسباب النزول للواحدي ص ١٦٨ . (٣) الطبري ١٥/ ١٢٦ وهذا ما رجحه ابن كثير وقيل : إمام هدى أو إمام ضلالة وقيل : نبيهم . (٤) هذا كله من عمى القلب وقيل المراد أنه يحشر يوم القيامة أعمى البصر لقوله تعالى ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عُمياً وبُكماً وصُماً . .﴾ الآية .

لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ

وعجائبه ، فهو فيما يغيب عنه من أمر الآخرة أشد عمى وأضلُّ طريقاً ﴿**وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك**﴾ أي وإن كان الحال والشأن أن المشركين قاربوا أن يصرفوك عن الذي أوحيناه إليك يا محمد من بعض الأوامر والنواهي ﴿**لتفتري علينا غيره**﴾ أي لتأتي بغير ما أوحاه الله إليك وتخالف تعاليمه ﴿**وإذاً لاتخذوك خليلاً**﴾ أي لو فعلت ما أرادوا لاتخذوك صاحباً وصديقاً قال المفسرون : حاول المشركون محاولات كثيرة ليثنوا رسول الله ﷺ عن المضي في دعوته منها : مساومتهم له أن يعبدوا إلهه مقابل أن يترك التنديد بآلهتهم وما كان عليه آباؤهم ، ومنها مساومة بعضهم أن يجعل أرضهم حراماً كالبيت العتيق الذي حرَّمه الله ، ومنها طلب بعض الكبراء أن يجعل لهم مجلساً غير مجلس الفقراء ، فعصمه الله من شرهم وأخبر أنه لا يكله إلى أحد من خلقه بل هو وليه وحافظه وناصره[1] ﴿**ولولا أن ثبتناك**﴾ أي لولا أن ثبتناك على الحق بعصمتنا إياك ﴿**لقد كدتَ تركَنُ إليهم شيئاً قليلاً**﴾ أي كدت تميل إليهم وتسايرهم على ما طلبوا ﴿**إذاً لأذقناك ضعف الحياةِ وضعفَ المماتِ**﴾ أي لو ركَنْتَ إليهم لضاعفنا لك عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، لأن الذنب من العظيم جرمٌ كبير يستحق مضاعفة العذاب ، والغرضُ من الآية بيانُ فضل الله على الرسول في تثبيته على الحق ، وعصمته من الفتنة ، ولو تخلَّى عن عصمتِه لمالَ إليهم بعض الشيء و ﴿**لولا**﴾ حرف امتناع لوجود أي امتنع الركون إليهم لعصمته تعالى وتثبيته له ، فليس في الآية ما يُنقص من قدر الرسول ﷺ وإنما هي بيان لفضل الله العظيم على نبيه الكريم ﴿**ثم لا تجد لك علينا نصيراً**﴾ أي لا تجد من ينصرك منا أو يدفع عنك عذابنا ﴿**وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها**﴾ أي وإن كاد المشركون بمكرهم وإزعاجهم أن يخرجوك يا محمد من أرض مكة ﴿**وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً**﴾ أي لو أخرجوك لم يلبثوا بعد خروجك إلا زمناً يسيراً وفق سنة الله التي لا تتبدل مع الذين يخرجون رسلهم من أوطانهم قال قتادة : همَّ أهلُ مكة بإخراج النبي ﷺ من مكة ولو فعلوا ذلك ما أمهلوا ولكنَّ الله تعالى منعهم من إخراجه حتى أمره بالخروج[2] ﴿**سُنَّةَ من قد أرسلنا قبلَكَ من رسلِنا**﴾ أي هذه عادة الله مع رسله في إهلاك كل أمةٍ أَخرجتْ رسولَها من بين أظهرهم ﴿**ولا تجدُ لسنَّتِنا تحويلاً**﴾ أي لن تجد لها تبديلاً أو تغييراً ﴿**أقم الصلاةَ لدلوك الشمس إلى غسَق الليل**﴾ أي حافظ يا محمد على الصلاة في أوقاتها من وقت زوال

(١) قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ معصوماً ، ولكنْ هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين في شيء من أحكام الله تعالى وشرائعه . القرطبي ١٠/ ٣٠٠ (٢) التفسير الكبير للرازي ٢١/ ٢٣

ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ

الشمس عند الظهيرة إلى وقت ظلمة الليل ﴿وقرآن الفجر﴾ أي وأقم صلاة الفجر، وإنما عبَّر عنها بقرآن الفجر لأنه تطلب إطالة القراءة فيها ﴿إنَّ قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ أي تشهده ملائكة الليل والنهار كما في الحديث (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فيجتمعون في صلاة العصر، وصلاة الفجر . .) الحديث،قال المفسرون : في الآية الكريمة إشارة إلى الصلوات المفروضة، فدلوكُ الشمس زوالُها وهو إشارة إلى الظهر والعصر، وغَسَقُ الليل ظلمتُه وهو إشارة إلى المغرب والعشاء، وقرآن الفجر صلاة الفجر، فالآية رمزٌ إلى الصلوات الخمس[1] ﴿ومن الليل فتهجَّدْ به نافلةً لك﴾ أي وقم من الليل بعد النوم متهجداً بالقرآن فضيلةً وتطوعاً لك ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ أي لعلَّ ربك يا محمد يقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً يحمدك فيه الأولون والآخرون وهو مقام « الشفاعة العظمى » قال المفسرون : ﴿عسى﴾ في كلام الله للتحقيق لأنه وعد كريم وهو لا يتخلف ولهذا قال ابن عباس : عسى من الله واجبة أي تفيد القطع ﴿ وقل ربِّ أدخلني مُدخل صدقٍ﴾ أي قل يا رب أدخلني قبري مُدْخل صدق أي إدخالاً حسناً ﴿وأخرجني مُخْرج صدق﴾ أي أخرجني من قبري عند البعث إخراجاً حسناً هذا قول ابن عباس، وقال الحسن والضحاك : المراد دخوله المدينة المنورة، وخروجه من مكة المكرمة وذلك حين أخرجه المشركون بعد أن تآمروا على قتله صلوات الله وسلامه عليه[2] ﴿واجعلْ لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾ أي اجعل لي من عندك قوةً ومَنَعة تنصرني بها على أعدائك وتُعزُّ بها دينك، وقد استجاب الله دعاءه فنصره على الأعداء، وأعلا دينه على سائر الأديان ﴿وقل جاء الحقُّ وزهقَ الباطل﴾ أي سطع نور الحق وضياؤه وهو الإسلام، وزهق الباطل وأنصاره وهو الكفر وعبادةُ الأصنام، فلا شرك ولا وثنية بعد إشراق نور الإيمان ﴿إن الباطل كان زهوقاً﴾ أي إن الباطل لا بقاء له ولا ثبوت لأنه يضمحل ويتلاشى، وإن كانت له صولةٌ وجولة فسرعان ما تزول كشعلة الهشيم ترتفع عالياً ثم تخبو سريعاً، روي أن النبي ﷺ لما دخل مكة عام الفتح كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فجعل يطعنها بعودٍ في يده ويقول : ﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾ فما بقي منها صنمٌ إلا خرَّ لوجهه ثم أمر بها فكسرت[3] ﴿وننزّل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين﴾ أي وننزّل من آيات القرآن العظيم ما يشفي القلوب من أمراض الجهل والضلال، ويُذهب صدأ النفس من الهوى والدَّنس، والشُّح والحسد، وما هو رحمة للمؤمنين بما فيه من الإيمان

(١) قال القرطبي : وهذه الآية إشارة إلى الصلوات المفروضة بإجماع من المفسرين .

(٢) اختار هذا القول الطبري وهو المشهور، والمعنى الأول أظهر لأنه سبقه لفظ البعث والغرض الدعاء بالموت على الإيمان والبعث على الإيمان.

(٣) التفسير الكبير للرازي ٢١/٢٣ وأصل الحديث أخرجه البخاري .

وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا

والحكمة والخير المبين ﴿**ولا يزيد الظالمين إلا خساراً**﴾ أي ولا يزيد هذا القرآن الكافرين به عند سماعه إلا هلاكاً ودماراً لأنهم لا يصدقون به فيزدادون كفراً وضلالاً ﴿**وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونـآى بجانبه**﴾ أي وإذا أنعمنا على الإنسان بأنواع النعم من صحةٍ ، وأمنٍ ، وغنىً أعرض عن طاعة الله وعبادته ، وابتعد عن ربه غروراً وكِبْراً ﴿**وإذا مسَّه الشرُّ كان يئوساً**﴾ أي وإذا أصابته الشدائد والمصائب أصبح يائساً قانطاً من رحمة الله ، والآية تمثيلٌ لطغيان الإنسان فإن أصابته النعمة بطر وتكبَّر ، وإن أصابته الشدة أيس وقنط كقوله ﴿إن الإنسان خُلق هلُوعاً ، إذا مسَّه الشرُّ جزوعاً ، وإذا مسَّه الخير منوعاً﴾ ﴿**قل كـلٌّ يعمل على شاكلتـه**﴾ أي كل واحدٍ يعمل على نهجه وطريقته في الهدى والضلال ، فإن كانت نفس الإنسان مشرقةً صافية صدرت عنه أفعال كريمة فاضلة ، وإن كانت نفسه فاجرةً كافرة صدرت عنه أفعال سيئةٌ شرّيرة ﴿**فربكم أعلم بمن هو أهـدى سبيـلاً**﴾ أي ربكم أعلم بمن اهتدى إلى طريق الصـواب وبمـن ضلَّ عنـه وسيجزي كل عاملٍ بعمله ﴿**ويسألونك عن الروح قل الـروح من أمري ربـي**﴾ أي يسألك يا محمد الكفار عن الروح ما هي ؟ وما حقيقتها ؟ فقل لهم إنها من الأسرار الخفية التي لا يعلمها إلا ربُّ البرية ﴿**وما أُوتيتـم من العلم إلا قليـلاً**﴾ أي وما أوتيتم أيها الناس من العلم إلا شيئاً قليلاً لأن علمكم قليلٌ بالنظر إلى علم الله ﴿**ولئن شئنـا لنذهبنَّ بالذي أوحينا إليـك**﴾ أي لو أردنا لمحونا هذا القرآن الذي هو مِنَّةُ الرحمن من صدرك يا محمد فإن ذلك في قدرتنا ﴿**ثم لا تجد لك بـه علينا وكيـلاً**﴾ أي لا تجد من يتوكل علينا باسترداده ، وردّه إليك بعد ذهابه ﴿**إلاَّ رحمـةً من ربـك**﴾ أي لكنْ رحمةً من ربك تركناه محفوظاً في صدرك وصدر أصحابك ﴿**إنَّ فضلـه كان عليـك كبيراً**﴾ أي فضل الله عليك عظيم حيث أنزل عليك القرآن ، وأعطاك المقام المحمود ، وجعلك خاتم المرسلين وسيد الأولين والآخرين ، والمقصود بالآية الامتنان على الرسول بالقرآن والتحذير له عن التفريط فيه ، والخطاب له عليه السلام والمراد أمته ﴿**قـل لئن اجتمعت الإنس والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القـرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيـراً**﴾ أي لو اتفق واجتمع أرباب الفصاحة والبيان من الإنس والجان وأرادوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن لما أطاقوا ذلك ولـو تعاونـوا وتساعدوا على ذلك جميعاً فإن هذا أمر لا يستطاع وليس بمقدور أحد ﴿**ولقد صرَّفنا للنـاس في هذا القـرآن من كل مثـل**﴾ أي بيَّنا لهم الحجج والبراهين القاطعة ، ووضحنا لهـم الحـقَّ بالآياتِ والعِبَـر ، والتـرغيب

ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾

والترهيب ﴿فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ أي ومع البراهين القائمة والحجج الواضحة أبى أكثر الناس إلا جحوداً للحق وتكذيباً لله ورسوله .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ الاستعارة ﴿كل أناسٍ بإمامهم﴾ الإمام الذي يتقدم الناس في الصلاة وقد استعير هنا لكتاب الأعمال لأنه يرافق الإنسان ويتقدمه يوم القيامة .

٢ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ يضرب مثلاً للقلة أي لا ينقصون من ثواب أجورهم ولا بمقدار الخيط الذي في شق النواة .

٣ ـ الطباق ﴿ضعف الحياة وضعف الممات﴾ .

٤ ـ المجاز المرسل ﴿وقرآن الفجر﴾ أطلق الجزء على الكل أي قراءة الفجر والمراد بها الصلاة لأن القراءة جزء منها فالعلاقة الجزئية .

٥ ـ الإظهار في مقام الإضمار لمزيد الاهتمام والعناية ﴿إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ بعد قوله ﴿وقرآن الفجر﴾ .

٦ ـ التفصيل بعد الإجمال ﴿فمن أوتي كتابه بيمينه . . ومن كان في هذه أعمى﴾ بعد ذكر كتاب الأعمال .

٧ ـ المقابلة اللطيفة بين ﴿أدخلني مُدْخل صدقٍ﴾ ﴿وأخرجني مخرج صدق﴾ وبين ﴿جاء الحق﴾ ﴿وزهق الباطل﴾ .

٨ ـ إسناد الخير إلى الله والشر لغيره ﴿أنعمنا على الإنسان . . وإذا مسَّه الشر﴾ لتعليم الأدب مع الله تعالى .

لطيفَـة : ذكر أن عالماً ممن ينكر المجاز والاستعارة في القرآن الكريم جاء إلى شيخٍ فاضل عالم منكراً عليه دعوى المجاز ـ وكان ذلك السائل المنكر أعمى ـ فقال له الشيخ ما تقول في قوله تعالى ﴿ومَنْ كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾ هل المراد بالعمى الحقيقة وهو عمى البصر ، أم المراد به المجاز وهو عمى البصيرة ؟ فبهت السائل وانقطعت حجته .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . . إلى . . ولم يكن له ولي من الذل وكبّره تكبيراً﴾ من آية (٩٠) إلى آية (١١١) نهاية السورة الكريمة

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى القرآن وما فيه من الدلائل الواضحة والبراهين القاطعة على صدق النبي الأمي ، وتحداهم فظهر عجزهم بوضوح إعجازه ، ذكر هنا نماذج عن تعنت الكفار وضلالهم باقتراح خوارق مادية غير القرآن العظيم ، ثم ذكر قصة موسى وتكذيب فرعون له مع كثرة الخوارق والمعجزات التي ظهرت على يديه تسليةً لرسول الله ﷺ عن تكذيب المشركين ، ثم ختم السورة الكريمة بدلائل القدرة والوحدانية .

اللغَــة : ﴿كِسَفاً﴾ قِطَعاً جمع كِسْفَة كدمِنْة ودِمَن يقال : كسْفتُ الثوبَ أكسِفُه كِسَفاً إذا قطعته قطعاً قال الفراء : سمعت أعرابياً يقول للبزّاز أعطني كِسْفَةً يريد قطعة[1] ﴿قبيلاً﴾ معاينةً ﴿ترقى﴾ تصعد ﴿خبَتْ﴾ خبت النار : سكنَ لهبها ، وخمدتْ : سكن جمرها ،وهَمَدت : طفئت جملة[2] ﴿قتوراً﴾ بخيلاً ﴿مثبوراً﴾ الثبور : الهلاك يقال : ثبَر اللهُ العدوَّ أهلكه ﴿لفيفاً﴾ اللفيف : الجمع من القوم من أخلاطٍ شتى قال الجوهري : اللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتّى يقال : جاء القوم بلَفِّهم ولفيفهم ﴿مُكْث﴾ المُكْث : التطاول في المدة يقال مكَثَ إذا أطال الإِقامة ﴿تخافت﴾ خافت في الكلام أسَرَّه بحيث لا يكاد يسمع أحد ﴿الأذقان﴾ جمع ذَقَن وهو مجتمع اللَّحْيَيْن قال الشاعر :

فخـرّوا لأذقـانِ الوجـوه تنوشُهم ... سبـاعٌ من الطـير العـوادي وتنتف

سَبَبُ النّزول : أ ـ عن ابن عباس أن رؤساء قريش اجتمعوا عند الكعبة فقالوا : ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تُعذروا فيه ، فبعثوا إليه إنَّ أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك فجاءهم سريعاً ـ وكان حريصاً على رُشدهم ـ فقالوا يا محمد : إنّا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخلَ على قومه ما أدخلتَ على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبتَ الدين ، وسفَّهتَ الأحلام ، وفرَّقت الجماعة ، فإن كنتَ إنما جئت بهذا لتطلب مالاً جعلنا لك من أموالنا ما تكون به أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تطلب الشَّرَف فينا سوَّدناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيّاً ـ أي تابعاً من الجنّ ـ بذلنا أموالنا في طلب الطِبِّ حتى نبرئك منه أو نُعذَر فيك ، فقال رسول الله ﷺ : ما بي ما تقولون ، ما جئتكم أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا المُلك عليكم ، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم ، فقالوا يا محمد إن كنت غير قابلٍ منا ما عرضنا فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيقَ بلاداً ، ولا أشدَّ عيشاً منا ، فسل ربك يُسيّر لنا هذه الجبال ، ويجري لنا أنهاراً ، ويبعث من مضى من آبائنا حتى نسألهم أحقٌّ ما تقول ؟ وسلْه أن يجعل لك جناناً وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة تغنيك عنا فأنزل الله ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . . ﴾[3] الآية .

(١) التفسير الكبير للرازي ٢١/ ٥٦ . (٢) البحر ٦/ ٦٨ . (٣) زاد المسير ٥/ ٨٥ .

ب ـ عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ مختفٍ بمكة ، وكان إذا صلّى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون سبُّوا القرآن ، ومن أنزله ومن جاء به ، فقال الله عز وجل لنبيه ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾(١) .

وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا

التفسير : ﴿وقالوا لن نُؤمنَ لكَ حتى تَفْجُر لنا من الأرض يَنْبوعاً﴾ لما تبيّن إعجاز القرآن ولزمتهم الحجة وغلبوا أخذوا يتعلَّلون باقتراح الآيات والخوارق والمعنى قال المشركون لن نصدقّك يا محمد حتى تشقّق لنا من أرض مكة عيناً غزيرة لا ينقطع منها الماء ﴿أو تكونَ لكَ جنةٌ من نخيلٍ وعِنَبٍ﴾ أي يكون لك بستانٌ فيه أنواع النخيل والأعناب ﴿فتفجِّرَ الأنهارَ خِلاَلَها تفجيراً﴾ أي تجعل الأنهار تتفجّر فيها وتسير وسطها بقوةٍ وغزارة ﴿أو تُسْقِطَ السماءَ كما زعمتَ علينا كسفاً﴾ هذا هو الاقتراح الثالث أي تجعل السماء تتساقط علينا قِطَعاً قِطَعاً كما كنتَ تخوّفنا وتزعم أن الله سيعذبنا إن لم نؤمن بك قال المفسرون : أشاروا إلى قوله تعالى ﴿إنْ نَشأْ نخسفْ بهم الأرضَ أو نُسْقِطْ عليهم كِسَفاً من السماء﴾ ﴿أو تأتيَ باللهِ والملائكةِ قبيلاً﴾ أي تُحضر لنا اللهَ وملائكته مقابلةً وعياناً فنراهم ﴿أو يكون لك بيتٌ من زخرف﴾ أي يكون لك قصرٌ مشيَّد عظيم من ذهبٍ لا من حجر أو طين ﴿أو تَرْقى في السماءِ ولن نُؤمن لرُقيِّكَ حتى تُنَزِّل علينا كتاباً نَقْرؤُهُ﴾ هذا هو الاقتراح السادس والأخير ، وكلُّها تدل على سفهٍ وجهلٍ كبير ، بسنة الله في خلقه وبحكمته وجلاله أي أو تصعد يا محمد إلى السماء بِسُلَّم ولن نصدّقك لمجرد صعودك حتى تعود ومعك كتاب من الله تعالى منشور أنك عبده ورسولُه نقرؤه بأنفسنا ﴿قل سبحان ربي هل كنتُ إلا بشراً رسولاً﴾ أي قل لهم يا محمد تعجباً من فرط كفرهم وعنادهم : سبحانَ الله هل أنا إله حتى تطلبوا مني أمثال هذه المقترحات ؟ ما أنا إلا رسولٌ من البشر بعثني الله إليكم فلم هذا الجحود والعناد ؟ ! ﴿وما مَنَعَ الناسَ أنْ يُؤْمنوا إذ جاءهم الهُدَى إلا أنْ قالوا أبَعَثَ اللهُ بَشراً رسولاً﴾ ؟ أي إن السبب الذي منع المشركين من الايمان بعد وضوح المعجزات هو استبعاد أن يبعث الله رسولاً إلى الخلق من البشر ، فلماذا يكون بشراً ولا يكون ملكاً ؟ وقد ردَّ تعالى عليهم بقوله ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين﴾ أي قل لهم يا

(١) أسباب النزول ص ١٧٠ .

بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ

محمد : لو كان أهل الأرض ملائكة يمشون على أقدامهم كما يمشي الناس ساكنين في الأرض مستقرين فيها **﴿لنزَّلنا عليهم من السماءِ مَلَكاً رسولاً﴾** أي لنزلنا عليهم رسولاً من الملائكة ولكنَّ أهل الأرض بشرٌ فالرسول إليهم بشرٌ من جنسهم ، إذْ جرت حكمة الله أن يرسل إلى كل قومٍ رسولاً من جنسهم ليمكنهم الفهم عنه ومخاطبته ، وهذا تسفيهٌ وتجهيل لمنطق المشركين **﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾** أي كفى اللهُ شاهداً على صدقي **﴿إنه كان بعبادِهِ خبيراً بصيراً﴾** أي هو تعالى العالم بأحوال العباد وسيجازيهم عليها **﴿ومن يهْدِ اللهُ فهو المُهْتَدِ﴾** أي من يهده الله إلى الحق فهو السعيد الرشيد **﴿ومن يُضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه﴾** أي ومن يضلله الله عن الحق بسبب سوء اختياره فلن تجد لهم أنصاراً يعصمونهم من عذاب الله **﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم﴾** أي يُسحبون يوم القيامة على وجوههم تجرُّهم الزبانية من أرجلهم إلى جهنم كما يُفعل في الدنيا بمن يبالغ في هوانه وتعذيبه **﴿عمياً وبُكماً وصُماً﴾** أي يُحشرون حال كونهم عمياً وبكماً وصماً يعني فاقدي الحواس لا يرون ولا ينطقون ولا يسمعون ثم يردُّ الله إليهم أسماعهم وأبصارهم ونطقهم فيرون النار ويسمعون زفيرها وينطقون بما حكى الله عنهم ، عن أنس قيل يا رسول الله : كيف يُحشر الناسُ على وجوههم ؟ قال : الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم[1] **﴿مأواهم جهنّمُ كلما خَبَتْ زدناهم سعيراً﴾** أي مستقرهم ومقامهم في جهنم كلما سكن لهبها وخمدت نارها زدناهم ناراً ملتهبة ووهجاً وجمراً[2] **﴿ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾** أي ذلك العذاب جزاء كفرهم بآيات الله وتكذيبهم بالبعث والنشور وقولهم أئذا أصبحنا عظاماً نخرة، وذرات متفتتة سنُخلق ونبعث مرة ثانية؟ وقد ردَّ تعالى عليهم بقوله **﴿أولم يروْا أنَّ اللّه الذي خلق السموات والأرض قادرٌ على أن يخلق مثلهُم﴾** أي أولم ير هؤلاء المشركون أن الله العظيم الجليل الذي خلق هذا الكون الهائل بسمواته وأرضه قادرٌ على إعادة جسد الإنسان بعد فنائه؟ فإن القادر على الإحياء قادر على الإعادة بطريق الأحرى قال في البحر: نبَّههم تعالى على عظيم قدرته وباهر حكمته بقوله **﴿أولمْ يرَوْا﴾** وهو استفهام إنكارٍ وتوبيخ على استبعادهم الإعادة، واحتجاجٌ عليهم بأنهم قد رأوا قدرة الله على خلق هذه الأجرام العظيمة التي بعضُ ما تحويه البشرُ، فكيف يقرون بخلق هذا المخلوق العظيم

(١) أخرجه الشيخان . (٢) قال في التسهيل : المراد كلما أكلت لحومهم فسكن لهبها بُدلوا أجساداً أخر ، ثم صارت ملتهبة أكثر مما كانت .

فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ

ثم ينكرون إعادته[1] ﴿وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه﴾ أي جعل لهؤلاء المشركين موعداً محدَّداً لموتهم وبعثِهم ، لا شك ولا ريب في مجيئه ﴿فأبى الظالمون إلا كفوراً﴾ أي أبى هؤلاء الكافرون الظالمون ـ مع وضوح الحق وسطوعه ـ إلا جحوداً وتمادياً في الكفر والضلال ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المعاندين المكابرين ، المقترحين للخوارق والمعجزات : لو كنتم تملكون خزائن رزق الله ونِعَمه التي أفاضها على العباد ﴿إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق﴾ أي إذاً لبخلتم به وامتنعتم عن الإنفاق خوفاً من نفادها ﴿وكان الإنسان قتوراً﴾ أي وكان الإنسان شحيحاً مبالغاً في البخل قال ابن عباس : ﴿قتوراً﴾ أي بخيلاً منوعاً وقال الزمخشري : ولقد بلغ هذا الوصف بالشُّح الغاية التي لا يبلغها الوهم[2] ، ثم ذكر تعالى أن كثرة الخوارق لا تُنشيء الإيمان في القلوب الجاحدة ، وها هو ذا موسى قد أُوتي تسع آيات بينات ثم كذَّب بها فرعون وملؤه فحلَّ بهم الهلاك جميعاً ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات﴾ أي والله لقد أعطينا موسى تسع آياتٍ واضحات الدلالة على نبوته وصحة ما جاء به من عند الله وهي « العصا ، واليد ، والطوفان ، والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع ، والدم ، وانفلاق البحر ، والسنين » خمسٌ منها في سورة الأعراف ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدَّم آياتٍ مفصلات﴾ والباقي متفرقات ﴿فاسألْ بني إسرائيل إذ جاءهم﴾ أي فاسألْ يا محمد بني إسرائيل عما جرى بين موسى وفرعون فإنهم يعلمونها مما لديهم في التوراة قال الرازي : وليس المطلوب من سؤال بني إسرائيل أن يستفيد هذا العلم منهم بل المقصود أن يظهر لعامة اليهود وعلمائهم صدق ما ذكره الرسول فيكون هذا السؤال سؤال استشهاد[3] ﴿فقال له فرعون إني لأظُنك يا موسى مسحوراً﴾ أي إني لأظنك يا موسى قد سُحرت فتخبَّط عقلُك ﴿قال لقد علمتَ ما أنزل هؤلاء إلا ربُّ السمواتِ والأرض بصائر﴾ أي قال له موسى توبيخاً وتبكيتاً : لقد تيقَّنت يا فرعون أن هذه الآيات التسع ما أنزلها إلا رب السمواتِ والأرض شاهدة على صدقي ، تبصِّرُ الناس بقدرة الله وعظمته ولكنك مكابرٌ معاند ﴿وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً﴾ أي وإني لأعتقدك يا فرعون هالكاً خاسراً ﴿فأراد أن يستفزهم من الأرض﴾ أي أراد فرعون أن يخرج موسى وقومه من أرض مصر ﴿فأغرقناه ومن معه جميعاً﴾ أي فأغرقنا فرعون وجنده أجمعين في البحر ﴿وقلنا من

(١) الكشاف ٢/ ٦٩٦ . (٢) التفسير الكبير ٢١/ ٦٥ . (٣) البحر ٦/ ٨٢ .

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿١٠٥﴾ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴿١٠٦﴾ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴿١١٠﴾﴾

بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض﴾ أي وقلنا لبني إسرائيل من بعد إغراق فرعون وجنده اسكنوا أرض مصر ﴿فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً﴾ أي فإذا جاء يوم القيامة جئنا بكم من قبوركم إلى المحشر مختلطين فيكم المؤمن والكافر ، والبرُّ والفاجر ، ثم نفصل بينكم ونميِّز السعداء من الأشقياء ، ثم عاد إلى تعظيم حال القرآن وجلالة قدره فقال ﴿وبالحقِّ أنزلناه وبالحقِّ نزل﴾ أي وأنزلنا هذا القرآن متلبساً بالحقِّ ، لا يعتريه شك أو ريب ، فيه الحكم والمواعظ والأمثال التي اشتمل عليها القرآن وهكذا أُنزل من عند الله ﴿وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً﴾ أي وما أرسلناك يا محمد إلا مبشراً بالجنة لمن أطاع ، ومنذراً بالنار لمن عصى ﴿وقرآناً فَرَقْنَاه لتقْرأه على الناسِ على مُكْثٍ﴾ أي وقرآناً نزّلناه مفرقاً منجماً لتقرأه على الناس على تُؤدةٍ ومهل ، ليكون حفظه أسهل ، والوقوف على دقائقه أيسر ﴿ونزّلناه تنزيلاً﴾ أي نزّلناه شيئاً بعد شيء على حسب الأحوال والمصالح ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ خطاب للمشركين الذين اقترحوا المعجزات على وجه التهديد والوعيد أي آمنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا فإن إيمانكم به لا يزيده كمالاً ، وتكذيبكم له لا يورثه نقصاً ﴿إنَّ الذين أوتوا العلم من قبله إذا يُتْلى عليهم يخرُّون للأذقان سجداً﴾ أي العلماء الذين قرءوا الكتب السالفة من صالحي أهل الكتاب إذا سمعوا القرآن تأثروا فخرّوا ساجدين للّهِ رب العالمين ، والجملة تعليل لما تقدم والمعنى : إن لم تؤمنوا به أنتم فقد آمن به من هو خير منكم وأعلم ﴿ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفْعُولاً﴾ أي يقولون تنزَّه الله عن إخلاف وعده إنه كان وعده كائناً لا محالة ﴿ويخِرُّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾ أي ويخرُّون لناحية الأذقان ساجدين على وجوههم باكين عند استماع القرآن ويزيدهم تواضعاً لله قال الرازي : والفائدة في هذا التكرير اختلاف الحالين وهو خرورهم للسجود وفي حال كونهم باكين عند استماع القرآن[1] ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ أي نادوا ربكم الجليل باسم ﴿الله﴾ أو باسم ﴿الرحمن﴾ ﴿أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ أي بأي هذين الإسمين ناديتموه فهو حسن لأن أسماءه جميعها حسنى وهذان منها قال المفسرون : سببها أن الكفار سمعوا النبي ﷺ يدعو (يا ألله ، يا رحمن) فقالوا إن كان محمد ليأمرنا بدعاء إله واحدٍ وها هو يدعو إلهين فنزلت الآية مبينة أنهما لمسمًّى واحد ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾ أي لا تجهر يا محمد بقراءتك في الصلاة فيسمعك المشركون فيسبوا القرآن ومن أنزله ولا تُسرَّ بقراءتك بحيث لا تسمع من خلفك ﴿وابتغ بين ذلك

(١) التفسير الكبير ٢١/ ٦٩ .

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾

سبيلاً﴾ أي اقصد طريقاً وسطاً بين الجهر والمخافتة قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ يرفع صوته بالقراءة فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله فنزلت[1] ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً﴾ أي الحمد لله الذي تنزَّه عن الولد ﴿ولم يكن له شريك في الملك﴾ أي ليس له شريك في ألوهيته ﴿ولم يكن له وليٌّ من الذل﴾ أي ليس بذليل فيحتاج إلى الوليّ والنصير ﴿وكبِّرْهُ تكبيراً﴾ أي عظِّمْ ربك عظمةً تامة واذكره بصفات العز والجلال ، والعظمة والكمال ، ختمت السورة كما بدأت بحمد الله وتقرير وحدانيته بلا ولد ولا شريك ، وتنزيهه عن الحاجة إلى الولي والنصير ، وهو العلي الكبير .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستفهام الإنكاري ﴿أبعث الله بشراً رسولاً﴾ ؟ .

٢ ـ الالتفات من الغيبة إلى التكلم ﴿ونحشرهم يوم القيامة﴾ اهتماماً بأمر الحشر .

٣ ـ الطباق بين ﴿من يهد . . ومن يضلل﴾ وبين ﴿مبشراً . . ونذيراً﴾ وبين ﴿تجهر . . وتخافت﴾ .

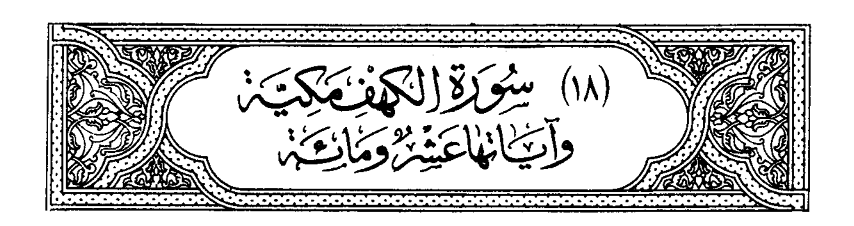
٤ ـ الجناس الناقص بين ﴿محسوراً﴾ و ﴿مثبوراً﴾ لتغير بعض الحروف .

٥ ـ المقابلة اللطيفة ﴿وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً﴾ مقابل قولة فرعون ﴿وإني لأظنك يا موسى مسحوراً﴾.

٦ ـ السجع الرصين الذي يزيد في جمال الأسلوب مثل ﴿فتفجّر الأنهار خلالها تفجيراً مبشراً ونذيراً﴾ ومثل ﴿إني لأظنك يا موسى مسحوراً . . وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً﴾ .

« تم بحمده تعالى تفسير سورة الإسراء »

(١) التفسير الكبير ٢١/ ٧٠ .



بين يدي السورة

* سورةُ الكهف من السور المكية ، وهي إحدى سورٍ خمس بُدئت بـ « الحمدُ لله » وهذه السور هي « الفاتحة ، الأنعام ، الكهف ، سبأ ، فاطر » وكلُّها تبتدىء بتمجيد الله جل وعلا وتقديسه ، والاعتراف له بالعظمة والكبرياء ، والجلال والكمال .

* **تعرضت السورة الكريمة لثلاث قصص من روائع قصص القرآن ، في سبيل تقرير أهدافها الأساسية لتثبيت العقيدة ، والإيمان بعظمة ذي الجلال . . أما الأولى فهي قصة « أصحاب الكهف » وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة ، وهم الفتية المؤمنون الذين خرجوا من بلادهم فراراً بدينهم ، ولجئوا إلى غارٍ في الجبل ، ثم مكثوا فيه نياماً ثلاثمائة وتسع سنين ، ثم بعثهم الله بعد تلك المدة الطويلة .**

* **والقصة الثانية :** قصة موسى مع الخضر ، وهي قصة التواضع في سبيل طلب العلم ، وما جرى من الأخبار الغيبية التي أطلع الله عليها ذلك العبد الصالح « الخضر » ولم يعرفها موسى عليه السلام حتى أعلمه بها الخضر كقصة السفينة ، وحادثة قتل الغلام ، وبناء الجدار .

* **والقصة الثالثة :** قصة « ذي القرنين » وهو ملك مكَّن الله تعالى له بالتقوى والعدل أن يبسط سلطانه على المعمورة ، وأن يملك مشارق الأرض ومغاربها ، وما كان من أمره في بناء السد العظيم .

* وكما استخدمت السورة ـ في سبيل هدفها ـ هذه القصص الثلاث ، استخدمت أمثلة واقعية ثلاثة ، لبيان أن الحقَّ لا يرتبط بكثرة المال والسلطان ، وإنما هو مرتبط بالعقيدة ، **المثل الأول :** للغني المزهو بماله ، والفقير المعتز بعقيدته وإيمانه ، في قصة أصحاب الجنتين . **والثاني :** للحياة الدنيا وما يلحقها من فناء وزوال ، **والثالث :** مثل التكبر والغرور مصوراً في حادثة امتناع إبليس عن السجود لآدم ، وما ناله من الطرد والحرمان ، وكل هذه القصص والأمثال بقصد العظة والاعتبار .

التسمية : سميت « سورة الكهف » لما فيها من المعجزة الربانية ، في تلك القصة العجيبة الغريبة قصة أصحاب الكهف .

* * *

قال الله تعالى : ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب . . إلى . . ولا يُشرك في حكمه أحداً﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٦) .

اللغــة : ﴿باخع﴾ قاتلٌ ومهلكٌ قال الليث : بخع الرجل نفسه إذا قتلها غيظاً وأصلُ البخع الجهد كما قال الفراء ﴿جُرزاً﴾ الجُرُز : الأرض التي لا نبات عليها ﴿الكهف﴾ النقب المتسع في الجبل وإذا لم يكن متسعاً فهو غار ﴿الرقيم﴾ اللوح الذي كتبت فيه أسماء أصحاب الكهف ﴿شططاً﴾ الشطط : الجور والغلو وتعدي الحد قال الفراء : اشتط في الأمر جاوز الحد ، وشطَّ المنزل بَعُدَ ﴿تزاور﴾ تتنحَّى وتميل من الازورار بمعنى الميل قال عنترة « وازْورَّ من وقع القنا بلبانه » ﴿الوصيد﴾ الفِناء أي فناء الكهف ﴿فجوة﴾ متَّسع من المكان ﴿ورقكم﴾ الورِق :اسمٌ للفضة سواءً كانت مضروبةً أم لا ﴿أعثرنا﴾ أطلعنا ﴿تمار﴾ تجادل والمراءُ : المجادلة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾

التفسير : ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾ أي الثناء الكامل مع التعظيم والإجلال للّه الذي أنزل على رسوله محمد القرآن نعمةً عليه وعلى سائر الخلق ﴿ولم يجعل له عِوجاً﴾ أي لم يجعل فيه شيئاً من العوج لا في ألفاظه ولا في معانيه ، وليس فيه أي عيبٍ أو تناقض ﴿قيِّماً﴾ أي مستقيماً لا اختلاف فيه ولا تناقض قال الطبري : هذا من المُقدَّم والمؤخر أي أنزل الكتاب قيّماً ولم يجعل له عِوَجاً يعني مستقيماً لا اختلاف فيه ولا تفاوت ، ولا اعوجاج ولا ميل عن الحق[1] ، ﴿لينذر بأساً شديداً من لدُنه﴾ أي لينذر بهذا القرآن الكافرين عذاباً شديداً من عنده تعالى ﴿ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات﴾ أي ويبشّر المصدقين بالقرآن الذين يعملون الأعمال الصالحة ﴿أن لهم أجراً حسناً﴾ أي أن لهم الجنة وما فيها من النعيم المقيم ﴿ماكثين فيه أبداً﴾ أي مقيمين في ذلك النعيم الذي لا انتهاء له ولا انقضاء ﴿ويُنذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾ أي ويخوّف أولئك الكافرين الذين نسبوا لله الولد عذابه الأليم قال البيضاوي : خصَّهم بالذكر وكرَّر الإنذار استعظاماً لكفرهم ، وإنما لم يذكر المُنْذَر به استغناءً بتقدم ذكره[2] ﴿ما لهم به من علم﴾ أي ما لهم بذلك الافتراء الشنيع شيءٌ من العلم أصلاً ﴿ولا لآبائهم﴾ أي ولا لأسلافهم الذين قلَّدوهم فتاهوا جميعاً في

(١) الطبري ١٥/ ١٩٠ . (٢) البيضاوي ٢/ ٢ .

فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ

بيداء الجهالة والضلالة ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم﴾ أي عظمت تلك المقالة الشنيعة كلمة قبيحة ما أشنعها وأفظعها ؟ خرجت من أفواه أولئك المجرمين ، وهي في غاية الفساد والبطلان ﴿إن يقولون إلا كذباً﴾ أي ما يقولون إلا كذباً وسفهاً وزوراً ﴿فلعلَّك باخعٌ نفسك على آثارهم﴾ أي فلعلك قاتلٌ نفسك يا محمد ومهلكها غمّاً وحزناً على فراقهم وتوليهم وإعراضهم عن الايمان ﴿إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾ أي إن لم يؤمنوا بهذا القرآن حسرةً وأسفاً عليهم ، فما يستحق هؤلاء أن تحزن وتأسف عليهم ، والآية تسليةٌ للنبي عليه السلام ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها﴾ أي جعلنا ما عليها من زخارف ورياش ومتاع وذهب وفضة وغيرها زينة للأرض كما زينا السماء بالكواكب ﴿لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ أي لنختبر الخلق أيهم أطوع لله وأحسن عملاً لآخرته ﴿وإنّا لجاعلون ما عليها صعيداً جُرُزاً﴾ أي سنجعل ما عليها من الزينة والنعيم حطاماً وركاماً حتى تصبح كالأرض الجرداء التي لا نبات فيها ولا حياة بعد أن كانت خضراء بهجة قال القرطبي : الآية وردت لتسلية النبي ﷺ والمعنى : لا تهتم يا محمد للدنيا وأهلها فإنا إنما جعلنا ذلك امتحاناً واختباراً لأهلها ، فمنهم من يتدبر ويؤمن ومنهم من يكفر ، ثم إن يوم القيامة بين أيديهم ، فلا يعظمنَّ عليك كفرهُم فإنا سنجازيهم[1] ﴿أم حسبت أنَّ أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً﴾ ؟ بدء قصة أصحاب الكهف ، والكهفُ الغار المتسع في الجبل ، والرقيمُ اللوح الذي كتب فيه أسماء أصحاب الكهف على المشهور والمعنى : لا تظننَّ يا محمد أن قصة أهل الكهف ـ على غرابتها ـ هي أعجبُ آيات الله ، ففي صفحات هذا الكون من العجائب والغرائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف قال مجاهد : أحسبت أنهم كانوا أعجب آياتنا ؟ قد كان في آياتنا ما هو أعجب[2] منهم ﴿إذْ أوى الفتية إلى الكهف﴾[3] أي اذكر حين التجأ الشبان إلى الغار في الجبل وجعلوه مأواهم ﴿فقالوا ربَّنا آتنا من لدنك رحمة﴾ أي أعطنا من خزائن رحمتك

---

(١) القرطبي ١٠/ ٣٥٤ . (٢) زاد المسير ٥/ ١٠٨ . (٣) خلاصة قصة أصحاب الكهف كما ذكرها المفسرون أن ملكاً جباراً يسمى دقيانوس ظهر على بلدةٍ من بلاد الروم تدعى « طرطوس » بعد زمن عيسى عليه السلام ، وكان يدعو الناس إلى عبادة الأصنام ويقتل كل مؤمن لا يستجيب لدعوته الضالة ، حتى عظمت الفتنة على أهل الايمان ، فلما رأى الفتية ذلك حزنوا حزناً شديداً وبلغ خبرهُم الملك الجبار فبعث في طلبهم فلما مثلوا عند الملك توعدهم بالقتل إن لم يعبدوا الأوثان ويذبحوا للطواغيت ، فوقفوا في وجهه وأظهروا إيمانهم وقالوا ﴿ربُّنا ربُّ السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً﴾ فقال لهم : إنكم فتيانٌ حديثةٌ أسنانكم وقد أخّرتكم إلى الغد لتروا رأيكم فهربوا ليلاً ومرّوا براعٍ معه كلب فتبعهم فلما كان الصباح آووا إلى الكهف وتبعهم الملك وجنده فلما وصلوا إلى الكهف هاب الرجال وفزعوا من الدخول عليهم فقال الملك : سدّوا عليهم باب الغار حتى يموتوا فيه جوعاً وعطشاً ، وألقى الله على أهل الكهف النوم فبقوا نائمين وهم لا يدرون ثلاثمائة وتسع =

لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم

الخاصة مغفرة ورزقاً ﴿وهيءْ لنا من أمرنا رشَداً﴾ أي أصلح لنا أمرنا كلَّه واجعلنا من الراشدين المهتدين ﴿فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً﴾ أي ألقينا عليهم النوم في الغار سنين عديدة ﴿ثُمَّ بعثناهم لنعلم أيُّ الحِزْبين أحْصى لما لبِثُوا أمداً﴾ أي ثم أيقظناهم من بعد نومهم الطويل لنرى أيُّ الفريقين أدقُّ إحصاءً للمدة التي ناموها في الكهف ؟ قال في التسهيل : والمراد بالحزبين : أصحابُ الكهف ، والذين بعثهم الله إليهم حتى رأوهم[١] وقال مجاهد : الحزبان من أصحاب الكهف لما استيقظوا اختلفوا في المدة التي لبثوها في الكهف فقال بعضهم : يوماً أو بعض يوم وقال آخرون : ربكم أعلم بما لبثتم[٢] ، والقول الأول مروي عن ابن عباس ﴿نحن نقصُّ عليك نبأهم بالحق﴾ أي نحن نقص عليك يا محمد خبرهم العجيب على وجه الصدق دون زيادةٍ ولا نقصان ﴿إنهم فتيةٌ آمنوا بربهم وزدناهم هدى﴾ أي إنهم جماعة من الشبان آمنوا بالله فثبتناهم على الدين وزدناهم يقيناً ﴿وربطنا على قلوبهم﴾ أي قوينا عزمهم وألهمناهم الصبر حتى أصبحت قلوبهم ثابتة راسخة ، مطمئنة إلى الحق معتزةً بالإيمان ﴿إذْ قاموا فقالوا ربُّنا ربُّ السمواتِ والأرض﴾ أي حين قاموا بين يدي الملك الكافر الجبار من غير مبالاة فقالوا ربنا هو خالق السموات والأرض لا ما تدعونا إليه من عبادة الأوثان والأصنام ﴿لن ندعوا من دونه إلهاً﴾ أي لن نشرك معه غيره فهو واحد بلا شريك ﴿لقد قلنا إذاً شطَطاً﴾ أي لئن عبدنا غيره نكون قد تجاوزنا الحقَّ ، وحُدنا عن الصواب ، وأفرطنا في الظلم والضلال ﴿هؤلاء قومنا

= سنين ثم أيقظهم الله وظنوا أنهم أقاموا يوماً أو بعض يوم ، وشعروا بالجوع فبعثوا أحدهم ليشتري لهم طعاماً وطلبوا منه التخفي والحذر فسار حتى وصل البلدة فوجد معالمها قد تغيرت ولم يعرف أحداً من أهلها فقال في نفسه : لعلي أخطأت الطريق إلى البلدة ثم اشترى طعاماً ولما دفع النقود للبائع جعل يقلبها في يده ويقول : من أين حصلت على هذه النقود ؟ واجتمع الناس وأخذوا ينظرون لتلك النقود ويعجبون ، ثم قالوا من أنت يا فتى لعلك وجدت كنزاً ؟ فقال لا والله ما وجدت كنزاً إنها دراهم قومي ، قالوا له إنها من عهد بعيد ومن زمن الملك دقيانوس ، قال : وما فعل دقيانوس ؟ قالوا مات من قرون عديدة ، قال والله ما يصدقني أحد بما أقوله : لقد كنا فتيةً وأكرهنا الملك على عبادة الأوثان فهربنا منه عشية أمس فأوينا إلى الكهف فأرسلني أصحابي اليوم لأشتري لهم طعاماً ، فانطلقوا معي إلى الكهف أريكم أصحابي ، فتعجبوا من كلامه ورفعوا أمره إلى الملك ـ وكان مؤمناً صالحاً ـ فلما سمع خبره خرج الملك والجند وأهل البلدة وحين وصلوا إلى الغار سمعوا الأصوات وجلبَة الخيل فظنوا أنهم رسل دقيانوس فقاموا إلى الصلاة فدخل الملك عليهم فرآهم يصلون فلما انتهوا من صلاتهم عانقهم الملك وأخبرهم أنه رجل مؤمن وأن دقيانوس قد هلك من زمن بعيد وسمع كلامهم وقصتهم وعرف أن الله بعثهم ليكون أمرهم آية للناس ثم ألقى الله عليهم النوم وقبض أرواحهم فقال الناس : لنتخذن عليهم مسجداً .

(١) التسهيل ٢/ ١٨٣ . (٢) حاشية الجمل على الجلالين ٣/ ٧ .

﴿مِّنْ رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ﴾

﴿اتخذوا من دونه آلهة﴾ أي هؤلاء أهل بلدنا عبدوا الأصنام تقليداً من غير حجة **﴿لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن﴾** أي هلاّ يأتون على عبادتهم لها ببرهان ظاهر ، والغرض من التحضيض **﴿لولا﴾** التعجيز كأنهم قالوا إنهم لا يستطيعون أن يأتوا بحجة ظاهرة على عبادتهم للأصنام فهم إذاً كذبة على الله[1] **﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾** استفهام بمعنى النفي أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله بنسبة الشريك إليه تعالى **﴿وإذْ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله﴾** أي وإذْ اعتزلتم أيها الفتية قومكم وما يعبدون من الأوثان غير الله تعالى **﴿فأووا إلى الكهف﴾** أي التجئوا إلى الكهف **﴿ينشر لكم ربكم من رحمته﴾** أي يبسط ربكم ويوسّعْ عليكم رحمته **﴿ويهيء لكم من أمركم مِرفقاً﴾** أي يُسهّل عليكم أسباب الرزق وما ترتفقون به من غداء وعشاء في هذا الغار **﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاورُ عن كهفهم ذات اليمين﴾** أي ترى أيها المخاطب الشمس إذا طلعت تميل عن كهفهم جهة اليمين **﴿وإذا غربتْ تقرضهم ذات الشمال﴾** أي وإذا غربت تقطعهم وتُبعد عنهم جهة الشمال والغرض أن الشمس لا تصيبهم عند طلوعها ولا عند غروبها كرامةً لهم من الله لئلا تؤذيهم بحرها **﴿وهم في فجوةٍ منه﴾** أي في متّسع من الكهف وفي وسطه بحيث لا تصيبهم الشمس لا في ابتداء النهار ، ولا في آخره **﴿ذلك من آيات الله﴾** أي ذلك الصنيع من دلائل قدرة الله الباهرة قال ابن عباس : لو أن الشمس تطلع عليهم لأحرقتهم ، ولو أنهم لا يُقلّبون لأكلتهم الأرض[2] **﴿من يهد الله فهو المهتد﴾** أي من يُوفقه الله للإيمان ويرشده إلى طريق السعادة فهو المهتدي حقاً **﴿ومن يُضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾** أي ومن يضلله الله بسوء عمله فلن تجد له من يهديه **﴿وتحسبُهم أيقاظاً وهم رقود﴾** أي لو رأيتهم أيها الناظر لظننتهم أيقاظاً لتفتح عيونهم وتقلبهم والحال أنهم نيام **﴿ونُقلِّبهم ذات اليمين وذات الشمال﴾** أي ونقلبهم من

---

(١) يقول الشهيد « سيد قطب » في الظلال : « وإلى هنا يبدو موقف الفتية واضحاً صريحاً حاسماً ، لا تردُّد فيه ولا تلعثم ، إنهم فتيةٌ أشداء في أجسامهم ، أشداء في إيمانهم ، أشداء في استنكار ما عليه قومهم ، ولقد تبيَّن الطريقان فلا سبيل إلى الإلتقاء ، ولا بدَّ من الفرار بالعقيدة . . إنهم فتية تبيَّن لهم الهدى في وسط ظالم كافر ، ولا حياة لهم في هذاالوسط؟ إن هم أعلنوا عقيدتهم وجاهروا بها ، وهم لا يطيقون كذلك أن يداروا القوم ويعبدوا ما يعبدون من الآلهة على سبيل التقية ويخفوا عبادتهم لله . والأرجح أن أمرهم قد كشف ، فلا سبيل لهم إلا أن يفروا بدينهم إلى الله وأن يختاروا الكهف على زينة الحياة ، وقد أجمعوا أمرهم فهم يتناجون بينهم ثم يأوون إلى الكهف الضيّق المظلم يستروحون فيه رحمة الله ، فإذا الكهف فسيح تنتشر فيه الرحمة وتمتد ظلالها فتشملهم بالرفق والرخاء واللين». الظلال ١٥/ ١٣ .

(٢) الطبري ١٥/ ٢١١ .

رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ

جانب إلى جانب لئلا تأكل الأرض أجسامهم **﴿وكلبُهم باسطٌ ذراعيه بالوصيد﴾** أي وكلبهم الذي تبعهم باسطٌ يديه بفناء الكهف كأنه يحرسهم **﴿لو اطَّلعتَ عليهم لولَّيتَ منهم فِراراً ولمُلئت منهم رعباً﴾** أي لو شاهدتهم وهم على تلك الحالة لفررت منهم هارباً رعباً منهم ، وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة ، فرؤيتهم تثير الرعب إذ يراهم الناظر نياماً كالأيقاظ ، يتقلبون ولا يستيقظون **﴿وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم﴾** أي كما أنمناهم كذلك بعثناهم من النوم وأيقظناهم بعد تلك الرقدة الطويلة التي تشبه الموت ليسأل بعضهم بعضاً عن مدة مكثهم وإقامتهم في الغار **﴿قال قائلٌ منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾** أي قال أحدهم : كم مكثنا في هذا الكهف ؟ فقالوا مكثنا فيه يوماً أو بعض اليوم **قال المفسرون** : إنهم دخلوا في الكهف صباحاً وبعثهم الله في آخر النهار فلما استيقظوا ظنوا أن الشمس قد غربت فقالوا لبثنا يوماً ، ثم رأوها لم تغرب فقالوا أو بعض يوم ، وما دروا أنهم ناموا ثلاثمائة وتسع سنين **﴿قالوا ربكم أعلمُ بما لبثتم﴾** أي قال بعضهم ، الله أعلم بمدة إقامتنا ولا طائل وراء البحث عنها فخذوا بما هو أهم وأنفع لكم فنحن الآن جياع **﴿فابعثوا أحدكم بورِقِكم هذه إلى المدينة﴾** أي فأرسلوا واحداً منكم إلى المدينة بهذه النقود الفضية **﴿فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه﴾** أي فليختر لنا أحلَّ وأطيب الطعام فليشتر لنا منه **﴿وليتلطَّف ولا يُشعرن بكم أحداً﴾** أي وليتلطف في دخول المدينة وشراء الطعام حتى لا يشعر بأمرنا أحد **﴿إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملَّتهم﴾** أي إن يظفروا يقتلوكم بالحجارة أو يردوكم إلى دينهم الباطل **﴿ولن تُفْلحوا إذاً أبداً﴾** أي وإن عدتم إلى دينهم ووافقتموهم على كفرهم فلن تفوزوا بخيرٍ أبداً ، وهكذا يتناجى الفتية فيما بينهم خائفين حذرين أن يظهر عليهم الملك الجبار فيقتلهم أو يردهم إلى عبادة الأوثان فيوصون صاحبهم بالتلطف بالدخول والخروج وأخذ الحيطة والحذر **﴿وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أنَّ وعد الله حقٌّ وأن الساعة لا ريب فيها﴾** أي وكما بعثناهم من نومهم كذلك أطلعنا الناس عليهم ليستدلوا بذلك على صحة البعث ويوقنوا أن القيامة لا شك فيها ، فتكون قصة أصحاب الكهف حجة واضحة ودلالة قاطعة على إمكان البعث والنشور فإن القادر على بعث أهل الكهف بعد نومهم ثلاثمائة عام قادر على بعث الخلق بعد مماتهم **﴿إذ يتنازعون بينهم أمرهم﴾** أي حين تنازع القوم في أمر أهل الكهف بعد أن أطلعهم الله عليهم ثم قبض أرواحهم

أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا

﴿فقالوا ابنوا عليهم بنياناً﴾ أي قال بعض الناس : ابنوا على باب كهفهم بنياناً ليكون علماً عليهم **﴿ربهم أعلم بهم﴾** أي الله أعلم بحالهم وشأنهم **﴿قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذنَّ عليهم مسجداً﴾** أي قال الفريق الآخر وهم الأكثرية الغالبة : لنتخذنَّ على باب الكهف مسجداً نصلي فيه ونعبد الله فيه **﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم﴾** أي سيقول هؤلاء القوم الخائضون في قصتهم في عهد الرسول ﷺ من أهل الكتاب هم ثلاثة رجال يتبعهم كلبهم **﴿ويقولون خمسةٌ سادسهم كلبُهم رجماً بالغيب﴾** أي ويقول البعض : إنهم خمسةٌ سادسهم الكلب قذفاً بالظنِّ من غير يقين ولا علم كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه **﴿ويقولون سبعةٌ وثامنهم كلبهم﴾** أي ويقول البعض إنهم سبعةٌ والثامن هو الكلب **﴿قلْ ربي أعلمُ بعدتهم﴾** أي الله أعلم بحقيقة عددهم **﴿ما يعلمهم إلا قليل﴾** أي لا يعلم عدتهم إلا قليل من الناس قال ابن عباس : أنا من ذلك القليل ، كانوا سبعةً إن الله عدَّهم حتى انتهى إلى السبعة[1] **قال المفسرون** : إن الله تعالى لمّا ذكر القول الأول والثاني أردفه بقوله **﴿رجماً بالغيب﴾** ولما ذكر القول الأخير لم يقدح فيه بشيء فكأنه أقر قائله ثم نبّه رسوله إلى الأفضل والأكمل وهو ردُّ العلم إلى علام الغيوب **﴿فلا تمار فيهم إلا مراءً ظاهراً﴾** أي فلا تجادل أهل الكتاب في عدتهم إلا جدال متيقنٍ عالم بحقيقة الخبر **﴿ولا تستفتِ فيهم منهم أحداً﴾** أي لا تسأل أحداً عن قصتهم فإنَّ فيما أوحي إليك الكفاية **﴿ولا تقولنَّ لشيء إني فاعلٌ ذلك غداً إلا أن يشاء الله﴾** أي لا تقولنَّ لأمرٍ عزمت عليه إني سأفعله غداً إلا إذا قرنته بالمشيئة فقلت إن شاء الله قال ابن كثير : سبب نزول الآية أن النبي ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف قال : (غداً أجيبكم) فتأخر الوحي عنه خمسة عشر يوماً[2] **﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾** أي إذا نسيت أن تقول إن شاء الله ثم تذكرت فقلها لتبقى نفسك مستشعرةً عظمة الله **﴿وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً﴾** أي لعلَّ الله يوفقني ويرشدني إلى ما هو أصلح من أمر ديني ودنياي **﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمائةٍ سنين وازدادوا تسعاً﴾** أي مكثوا في الكهف نائمين ثلاثمائة وتسع سنين ، وهذا بيانٌ لما أُجمل في قوله تعالى **﴿سنين عدداً﴾** **﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾** أي الله أعلم

(١) زاد المسير ٥/ ١٢٦ . (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ٤١٥ .

تِسۡعٗا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾

بمدة لبثهم في الكهف على وجه اليقين ﴿له غيب السموات والأرض﴾ أي هو تعالى المختص بعلم الغيب وقد أخبرك بالخبر القاطع عن أمرهم الحكيمُ الخبير ﴿أَبْصِرْ بهِ وأسمِعْ﴾ أي ما أبصره بكل موجود ، وما أسمعه لكل مسموع ، يدرك الخفيات كما يدرك الجليات ﴿ما لهم من دونه من ولي﴾ أي ليس للخلق ناصرٌ ولا معين غيره تعالى ﴿ولا يُشركُ في حكمه أحداً﴾ أي ليس له شريك ولا مثيل ولا نظير ، ولا يقبل في قضائه وحكمه أحداً لأنه الغنيّ عما سواه .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين ﴿يبشر . . وينذر﴾ وبين ﴿يهدي . . ويضلل﴾ وبين ﴿أيقاظاً . . ورقود﴾ وبين ﴿ذات اليمين . . وذات الشمال﴾ .

٢ ـ الطباق المعنوي بين ﴿فضربنا على آذانهم . . ثم بعثناهم﴾ لأن معنى الأول أنمناهم والثاني أيقظناهم .

٣ ـ الجناس الناقص بين ﴿قاموا . . وقالوا﴾ .

٤ ـ الإطناب بذكر الخاص بعد العام ﴿لينذر بأساً شديداً﴾ ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾ لشناعة دعوى الولد لله ، وفيه من بديع الحذف وجليل الفصاحة حذف المفعول الأول أي لينذر الكافرين بأساً شديداً ، ثم ذكر المفعول الأول وحذف الثاني في قوله ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾ عذاباًشديداً فحذف العذاب لدلالة الأول عليه وحذف من الأول المنذرين لدلالة الثاني عليه ، وهذا من ألطف الفصاحة .

٥ ـ صيغة التعجب ﴿أسمع به وأبصِر﴾ .

٦ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿باخعٌ نفسك على آثارهم﴾ شبَّه حاله عليه السلام مع المشركين بحال من فارقته الأحباب فهمَّ بقتل نفسه أو كاد يهلك نفسه حزناً ووجداً عليهم .

٧ ـ الاستعارة التبعية ﴿فضربنا على آذانهم﴾ شبّهت الإنامة الثقيلة بضرب الحجاب على الآذان كما تضرب الخيمة على السكان وكذلك يوجد استعارة في ﴿وربطنا على قلوبهم﴾ لأن الربط هو الشد والمراد شددنا على قلوبهم كما تشد الأوعية بالأوكية .

* * *

قال الله تعالى : ﴿واتل ما أُوحي إليك من كتاب ربك . . إلى قوله . . ولم يجدوا عنها مصرِفاً﴾ من آية (٢٧) إلى نهاية آية (٥٣) .

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى قصة أهل الكهف وهي تُمثل صور التضحية والبطولة في سبيل العقيدة والإيمان ، أعقبها بذكر قصة صاحب الجنتين وهي نموذج آخر للعقيدة ممثلة في قصة الأخوين من بني إسرائيل : المؤمن المعتز بإيمانه ، والكافر وهو صاحب الجنتين ، وما فيها من عبر وعظات ، وفي ثنايا

الآيات جاءت بعض التوجيهات القرآنية الكريمة .

اللغــة : ﴿ملتحداً﴾ ملجأ وأصله من لحَد إذا مال ، ومن لجأتَ إليه فقد ملتَ إليه هكذا قال أهل اللغة ﴿فُرطاً﴾ مجاوزاً للحد من قولهم فرسٌ فُرُط إذا كان متقدماً للخيل ، قال الليث : الفُرُط الأمر الذي يفرَّط فيه قال الشاعر :

لقد كلفتني شَطَطاً وأمراً خائباً فُرُطاً[1]

﴿سرادقها﴾ السُّرادق : السور والحائط ﴿المُهل﴾ كل ما أذيب من المعادن قال أبو عبيدة : كل شيءٍ أذبته من ذهب أو نحاسٍ أو فضة فهو المُهل ﴿سندس﴾ السندس : الرقيق من الحرير ﴿استبرق﴾ الاستبرق : الغليظ من الحرير وهو الديباج قال الشاعر :

تراهنَّ يلبسن المشاعر مرةً واستبرق الديباج طوراً لباسها[2]

﴿الأرائك﴾ جمع أريكة وهي السرير المزيَّن بالثياب والستور كسرير العروس ﴿حسباناً﴾ جمع حسبانة وهي الصاعقة ﴿هشيماً﴾ الهشيم : اليابس المتكسر من النبات ﴿نغادر﴾ نترك .

سَبَبُ النّزول : روى أن أشراف قريش اجتمعوا عند رسول الله ﷺ وقالوا له : إن أردت أن نؤمن بك فاطرد هؤلاء الفقراء من عندك يعنون « بلالاً ، وخباباً ، وصهيباً » وغيرهم فإنا نأنف أن نجتمع بهم ، وتعيِّن لهم وقتاً يجتمعون فيه عندك فأنزل الله ﴿واصبرْ نفسك مع الذين يدعون ربَّهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعدُ عيناك عنهم . .﴾[3] الآية .

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ﴾

التفسير : ﴿واتل ما أُوحي إليك من كتاب ربك﴾ أي إقرأ يا محمد ما أوحاه إليك ربك من آيات الذكر الحكيم ﴿لا مبدّل لكلماته﴾ أي لا يقدر أحدٌ أن يغيِّر أو يبدّل كلام الله ﴿ولن تجد من دونه ملتحداً﴾ أي لن تجد ملجأ غير الله تعالى أبداً ﴿واصبرْ نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ أي احبس نفسك مع الضعفاء والفقراء من المسلمين الذين يدعون ربهم بالصباح والمساء ﴿يريدون وجهه﴾ أي يبتغون بدعائهم وجه الله تعالى ﴿ولا تعدُ عيناك عنهم﴾ أي لا تصرف بصرك إلى غيرهم من ذوي الغنى والشرف قال المفسرون : كان عليه السلام حريصاً على إيمان الرؤساء ليؤمن أتباعهم ولم يكن مريداً لزينة الدنيا قط ، فأمِر أن يجعل إقباله على فقراء المؤمنين وأن يُعرض عن أولئك العظماء والأشراف من المشركين ﴿تريد زينة الحياة الدنيا﴾ أي تبتغي بمجالستهم الشرف والفخر قال ابن

(١) التفسير الكبير ٢١/ ١١٨ . (٢) البحر ٦/ ٩٤ . (٣) التفسير الكبير ٢١/ ١١٥ .

مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ

عباس : لا تجاوزهم إلى غيرهم تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة[1] **﴿ولا تُطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾** أي لا تطع كلام الذين سألوك طرد المؤمنين فقلوبهم غافلة عن ذكر الله ، وقد شغلوا عن الدين وعبادةِ ربهم بالدنيا قال المفسرون : نزلت في عُيينة بن حصن وأصحابه أتى النبي ﷺ وعنده جماعة من الفقراء منهم « سلمان الفارسي » وعليه شملة صوف قد عرق فيها فقال عُيينة للنبي ﷺ : أما يؤذيك ريح هؤلاء ؟ ونحن سادةُ مضر وأشرافُها إن أسلمنا يسلم الناس ، وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء فنحِّهمْ عنك حتى نتبعك ، أو اجعل لنا مجلساً ولهم مجلس ، فهمَّ رسول الله ﷺ أن يجيبهم إلى ما طلبوا فلما نزلت الآية خرج رسول الله ﷺ يلتمس هؤلاء الفقراء فلما رآهم جلس معهم وقال (الحمد لله الذي جعل في أُمتي من أمرني ربي أن أصبر نفسي معهم) **﴿واتَّبع هواه﴾** أي سار مع هواه وترك أمر الله **﴿وكان أمره فُرُطاً﴾** أي كان أمره ضياعاً وهلاكاً ودماراً **﴿وقل الحقُّ من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾** ظاهرُه أمرٌ وحقيقته وعيدٌ وإنذار أي قل يا محمد لهؤلاء الغافلين لقد ظهر الحق وبان بتوضيح الرحمن فإن شئتم فآمنوا وإن شئتم فاكفروا كقوله **﴿اعملوا ما شئتم﴾** **﴿إنّا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سُرادقها﴾** أي هيأنا للكافرين بالله ورسوله ناراً حاميةً شديدة أحاط بهم سورها كإحاطة السوار بالمعصم **﴿وإن يستغيثوا يُغاثوا بماءٍ كالمهل يشوي الوجوه﴾** أي وإن استغاثوا من شدة العطش فطلبوا الماء أُغيثوا بماءٍ شديد الحرارة كالنحاس المذاب أوكعكر الزيت المحمى يشوي وجوههم إذا قَرُب منهم من شدة حره وفي الحديث (ماءٌ كعكر الزيت فإذا قُرب إليه سقطت فروة وجهه فيه)[2] أي سقطت جلدة وجهه فيه أعاذنا الله من جهنم **﴿بئس الشراب وساءت مرتفقاً﴾** أي بئس ذلك الشراب الذي يُغاثون به وساءت جهنم منزلاً ومقيلاً يرتفق به أهل النار **﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنّا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾** لما ذكر تعالى حال الأشقياء أعقبه بذكر حال السعداء، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب، أي إنا لا نضيع ثواب من أحسن عمله وأخلص فيه بل نزيده وننميه **﴿أولئك لهم جنات عدن﴾** أي لهم جنات إقامة **﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾** أي تجري من تحت غرفهم ومنازلهم أنهار الجنة **﴿يُحلَّون فيها من أساور من ذهب﴾** أي يُحلَّون في الجنة بأساور الذهب قال المفسرون : ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أساور : سوارٌ من ذهب ، وسوار من فضة ، وسوار

(١) المختصر ٢/٤١٦ . (٢) أخرجه أحمد والترمذي .

﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۚ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ۞ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ﴾

من لؤلؤ ، لأن الله تعالى قال ﴿وحلوا أساور من فضة﴾ وقال ﴿ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير﴾ وفي الحديث(تبلغ حلية المؤمن حيث يبلغ الوضوء) ﴿ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق﴾ أي وهم رافلون في ألوانٍ من الحرير ، برقيق الحرير وهو السندس ، وبغليظه وهو الاستبرق **قال الطبري** : معنى الآية أنهم يلبسون من الحلي أساور من ذهب ، ويلبسون من الثياب السندس وهو ما رقَّ من الديباج ، والاستبرق وهو ما غلظ فيه وثخُن[1] ﴿**متكئين فيها على الأرائك**﴾ أي متكئين في الجنة على السرر الذهبية المزينة بالثياب والستور **قال ابن عباس** : الأرائك الأسرة من ذهب وهي مكلَّلة بالدُر والياقوت عليها الحجال ، الأريكةُ ما بين صنعاء إلى أيلة ، وما بين عدن إلى الجابية[2] ﴿**نعم الثواب وحسنت مرتفقاً**﴾ أي نعم ذلك جزاء المتقين ، وحسنت الجنة منزلاً ومقيلاً لهم ﴿**واضربْ لهم مثلاً رجلين**﴾ أي اضرب لهؤلاء الكفار الذين طلبوا منك أن تطرد الفقراء هذا المثل **قال المفسرون** : هما أخوان من بني إسرائيل ، أحدهما مؤمن ، والآخر كافر ، ورثا مالاً عن أبيهما فاشترى الكافر بما له حديقتين ، وأنفق المؤمن ماله في مرضاة الله حتى نفد ماله فعيَّره الكافر بفقره ، فأهلك الله مال الكافر ، وضرب هذا مثلاً للمؤمن الذي يعمل بطاعة الله ، والكافر الذي أبطرته النعمة ﴿**جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب**﴾ أي جعلنا لأحدهما - وهو الكافر - بستانينِ من شجر العنب، مثمريْن بأنواع العنب اللذيذ ﴿**وحففناهما بنخلٍ**﴾ أي أحطناهما بسياجٍ من شجر النخيل ﴿**وجعلنا بينهما زرعاً**﴾ أي جعلنا وسط هذين البستانين زرعاً ويتفجر بينهما نهر، وإنه لمنظرٌ بهيجٌ يصوره القرآن أروع تصوير ، منظر الحديقتين المثمرتين بأنواع الكرم ، المحفوفتين بأشجار النخيل ، تتوسطهما الزروع وتتفجر بينهما الأنهار ﴿**كلتا الجنتين آتت أُكُلها ولم تظلِم منه شيئاً**﴾ أي كلٌّ واحدة من الحديقتين أخرجت ثمرها يانعاً في غاية الجودة والطيب ولم تنقص منه شيئاً ﴿**وفجَّرنا خلالهما نهراً**﴾ أي جعلنا النهر يسير وسط الحديقتين ﴿**وكان له ثَمر**﴾ أي وكان للأخ الكافر من جنتيه أنواع من الفواكه والثمار ﴿**فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعزُّ نفراً**﴾ أي قال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن وهو يجادله ويخاصمه ويفتخر عليه ويتعالى : أنا أغنى منك وأشرف ، وأكثر أنصاراً وخدماً ﴿**ودخل جنته وهو**

(١) الطبري ١٥/ ٢٤٣ . (٢) القرطبي ١٠/ ٣٩٨ .

أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾

ظالم لنفسه﴾ أي أخذ بيد أخيه المؤمن ودخل الحديقة يطوف به فيها ويريه ما فيها من أشجار وثمار وأنهار وهو ظالم لنفسه بالعُجب والكفر ﴿قال ما أظنُّ أنْ تبيدَ هذه أبداً﴾ أي ما أعتقد أن تفنى هذه الحديقة أبداً ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ أي وما أعتقد القيامة كائنة وحاصلة ، أنكر فناء جنته وأنكر البعث والنشور ﴿ولئن رددتُ إلى ربي لأجدنَّ خيراً منها﴾ أي ولئن كان هناك بعثٌ ـ على سبيل الفرض والتقدير كما تزعمُ ـ فسوف يعطيني الله خيراً من هذا وأفضل ﴿منقلباً﴾ أي مرجعاً وعاقبة ، فكما أعطاني هذا في الدنيا فسيعطيني في الآخرة لكرامتي عليه ﴿قال له صاحبه وهو يحاوره﴾ أي قال ذلك المؤمن الفقير وهو يراجع أخاه ويجادله ﴿أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوَّاك رجلاً﴾ أي أجحدت الله الذي خلق أصلك من تراب ثم من منيّ ثم سوَّاك إنساناً سوياً ؟ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ﴿لكنَّا هو اللهُ ربي﴾ أي لكنْ أنا أعترف بوجود الله فهو ربي وخالقي ﴿ولا أُشرك بربي أحداً﴾ أي لا أُشرك مع الله غيره ، فهو المعبودُ وحده لا شريك له ﴿ولولا إذ دخلتَ جنتك قلت ما شاء الله﴾ أي فهلاّ حين دخلتَ حديقتك وأُعجبت بما فيها من الأشجار والثمار قلت : هذا من فضل الله ، فما شاءَ اللهُ كان وما لم يشأْ لم يكن ﴿لا قوة إلا بالله﴾ أي لا قدرة لنا على طاعته إلا بتوفيقه ومعونته ﴿إنْ ترنِ أنا أقلَّ منكَ مالاً وولداً﴾ أي قال المؤمن للكافر : إن كنت ترى أنني أفقر منك وتعتز عليَّ بكثرة مالك وأولادك ﴿فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك﴾ جواب الشرط أي إني أتوقع من صنع الله تعالى وإحسانه أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى فيرزقني جنةً خيراً من جنتك لإيماني به ، ويسلب عنك نعمته لكفرك به ويخرّب بستانك ﴿ويرسل عليها حسباناً من السماء﴾ أي يرسل عليها آفةً تجتاحها أو صواعق من السماء تدمّرها ﴿فتصبح صعيداً زلَقاً﴾ أي تصبح الحديقة أرضاً ملساء لا تثبت عليها قدم ، جرداء لا نبات فيها ولا شجر ﴿أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً﴾ أي يغور ماؤها في الأرض فيتلف كل ما فيها من الزرع والشجر ، وحينئذٍ لا تستطيع طلبه فضلاً عن إعادته وردّه ، وينتهي الحوار هنا وتكون المفاجأة المدهشة فيتحقّق رجاءُ المؤمن بزوال النعيم عن الكافر ،

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

وفجأة ينقلنا السياق من مشهد البهجة والازدهار الى مشهد البوار والدمار **﴿وأحيط بثمره﴾** أي هلكت جنته بالكلية واستولى عليها الخراب والدمار في الزروع والثمار **﴿فأصبح يُقلب كفيه على ما أنفق فيها﴾** أي يقلب كفيه ظهراً لبطن أسفاً وحزناً على ماله الضائع وجهده الذاهب قال القرطبي : أي يضرب إحدى يديه على الأخرى ندماً لأن هذا يصدر من النادم **﴿وهي خاويةٌ على عروشها﴾** أي مهشّمة محطمة قد سقطت السقوف على الجدران فأصبحت خراباً يباباً **﴿ويقول يا ليتني لم أُشرك بربي أحداً﴾** أي وهو نادم على إشراكه بالله يتمنى أن لم يكن قد كفر النعمة ، ندم حين لا ينفع الندم قال تعالى **﴿ولم تكن له فئةٌ ينصرونه من دون الله﴾** أي لم تكن له جماعة تنصره وتدفع عنه الهلاك **﴿وما كان منتصراً﴾** أي وما كان بنفسه ممتنعاً عن انتقام الله سبحانه ، فلم تنفعه العشيرة والولد حين اعتزّ وافتخر بهم وما استطاع بنفسه أن يدفع عنه العذاب **﴿هنالك الولايةُ للهِ الحقِّ﴾** أي في ذلك المقام وتلك الحال تكون النصرة لله وحده لا يقدر عليها أحد فهو الوليُّ الحق الذي ينصر أولياءه **﴿هو خيرٌ ثواباً وخيرٌ عُقْباً﴾** أي الله خير ثواباً في الدنيا والآخرة لمن آمن به ، وهو خيرٌ عاقبةً لمن اعتمد عليه ورجاه **﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الأرض﴾** هذا مثلٌ آخر للدنيا وبهرجها الخادع يشبه مثل الجنتين في الفناء والزوال والمعنى اضرب يا محمد للناس مثل هذه الحياة في زوالها وفنائها وانقضائها بماءٍ نزل من السماء فخرج به النبات وافياً غزيراً وخالط بعضه بعضاً من كثرته وتكاثفه **﴿فأصبح هشيماً تذروه الرياح﴾** أي صار النبات متكسراً من اليبس متفتتاً تنسفه الرياح ذات اليمين وذات الشمال **﴿وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾** أي قادراً على الإفناء والإحياء لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء **﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾** أي الأموال والأولاد زينة هذه الحياة الفانية ، ذاك مثلها وهذه زينتها والكل إلى فناء وزوال لا يغتر بها إلا الأحمق الجهول **﴿والباقيات الصالحاتُ خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً﴾** أي أعمال الخير تبقى ثمرتها أبد الآباد فهي خير ما يؤمله الإنسان ويرجوه عند الله قال ابن عباس : الباقيات الصالحات هي الصلوات الخمس وعنه أيضاً أنها كل عمل صالحٍ من قول أو فعلٍ يبقى للآخرة[1] وفي الحديث (سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا

(١) هذا ما رجحه الطبري قال القرطبي : وهو الصحيح إن شاء الله .

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ

الله ، والله أكبر ، هنَّ الباقيات الصالحات) **﴿ويوم نسيّر الجبال﴾** لما ذكر الدنيا ومآلها ذكر القيامة وأهوالها أي واذكر يوم نزيل الجبال من أماكنها ونسيّرها كما نسيّر السحاب فنجعلها هباءً منبثاً **﴿وترى الأرض بارزة﴾** أي وترى الأرض ظاهرة للعيان ليس عليها ما يسترها من جبل ولا شجر ولا بنيان ، قد قلعت جبالها وهُدم بنيانها فهي بارزة ظاهرة **﴿وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً﴾** أي جمعنا الأولين والآخرين لموقف الحساب فلم نترك أحداً منهم **﴿وعُرضوا على ربك صفاً﴾** أي عُرضوا على رب العالمين مصطفّين ، لا يحجبُ أحدٌ أحداً وفي الحديث (يجمع الله الأولين والآخرين في صعيدٍ واحدٍ صفوفاً) قال مقاتل : يُعرضون صفاً بعد صف كالصفوف في الصلاة كل أمةٍ وزمرةٍ صفاً[1] **﴿لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة﴾** أي يقال للكفار على وجه التوبيخ والتقريع : لقد جئتمونا حفاةً عراةً لا شيء معكم من المال والولد كهيئتكم حين خلقناكم أول مرة **﴿بل زعمتم ألّن نجعل لكم موعداً﴾** أي زعمتم أن لا بعث ولا جزاء ، ولا حساب ولا عقاب **﴿ووُضع الكتاب﴾** أي وضعت صحائف أعمال البشر وعُرضت عليهم **﴿فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾** أي فترى المجرمين خائفين مما فيه من الجرائم والذنوب **﴿ويقولون يا ويلتنا﴾** أي يا حسرتنا ويا هلاكنا على ما فرطنا في حياتنا الدنيا **﴿ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها﴾** أي ما شأن هذا الكتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ضبطها وأحاط بها ؟ قال تعالى **﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾** أي مكتوباً مثبتاً في الكتاب **﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾** أي لا يعاقب إنساناً بغير جرم ، ولا يُنقص من ثواب المحسن **﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾** أي اذكر حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة **﴿فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾** أي سجد جميع الملائكة لكن إبليس الذي هو من الجن خرج عن طاعة ربه ، والآية صريحة في أن إبليس من الجن لا من الملائكة[2] **﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدوٌّ﴾** أي أفتتخذونه يا بني آدم هو وأولاده الشياطين أولياء من دون الله وهم لكم

---

(١) القرطبي ١٠/٤١٧ .

(٢) انظر التحقيق الذي ذكرناه في كتابنا « النبوة والأنبياء » على أن ابليس لم يكن من الملائكة ص ١٢٨ .

لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

أعداء ﴿**بئس للظالمين بدلاً**﴾ أي بئست عبادة الشيطان بدلاً عن عبادة الرحمن ﴿**ما أشهدتهم خلق السموات والأرض**﴾ أي ما أشهدت هؤلاء الشياطين الذين عبدتموهم من دوني خلق السموات والأرض ﴿**ولا خلق أنفسهم**﴾ أي ولا أشهدت بعضهم خلق بعض فهم عبيد أمثالكم لا يملكون شيئاً ﴿**وما كنتُ متخذَ المضلين عضُداً**﴾ أي وما كنت متخذ الشياطين أعواناً في الخلق فكيف تطيعونهم من دوني ؟ ﴿**ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم**﴾ أي ويوم يقول الله للمشركين : أُدعوا شركائي ليمنعوكم من عذابي ويشفعوا لكم كما كنتم تزعمون ﴿**فدعوهم فلم يستجيبوا لهم**﴾ أي فاستغاثوا بهم فلم يغيثوهم ﴿**وجعلنا بينهم موبقاً**﴾ أي جعلنا بين العابدين والمعبودين مهلكةً لا يجتازها هؤلاء وهي النار ﴿**ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها**﴾ أي عاينوها وهي تتغيظ حنقاً عليهم فأيقنوا أنهم داخلوها ﴿**ولم يجدوا عنها مصرفاً**﴾ أي لم يجدوا عنها معدلاً وذلك لأنها أحاطت بهم من كل جانب فلم يقدروا على الهرب منها .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين ﴿الغداة . . والعشي﴾ وبين ﴿فليؤمن . . فليكفر﴾ .

٢ ـ المقابلة البديعة بين الجنة ﴿نعم الثواب وحسنت مرتفقاً﴾ والنار ﴿بئس الشراب وساءت مرتفقاً﴾ .

٣ ـ التشبيه ﴿بماءٍ كالمهل يشوي الوجوه﴾ ويسمى مرسلاً مفصلاً لذكر الأداة ووجه الشبه .

٤ ـ التشبيه التمثيلي ﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد وكذلك يوجد التشبيه التمثيلي في ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه﴾ .

٥ ـ المبالغة بإطلاق المصدر على اسم الفاعل ﴿أو يصبح ماؤها غوراً﴾ أي غائراً .

٦ ـ الكناية ﴿يقلِّب كفيه﴾ كناية عن التحسر والندم لأن النادم يضرب بيمينه على شماله .

٧ ـ الإنكار والتعجيب ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء﴾ ؟ .

تنبيه : الجمهور على أن الباقيات الصالحات هن الكلمات المأثور فضلها « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » وقد ورد بذلك حديث تقدم ذكره وفي الترمذي أن رسول الله ﷺ قال : لقيتُ إبراهيم ليلةَ أُسري بي فقال يا محمد :

أقرىءْ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » رواه الترمذي .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل . . إلى . . ما لم تسطِع عليه صبراً﴾ من آية (٥٤) إلى نهاية آية (٨٢) .

المنَاسَبَة : لما ضرب تعالى المثل في قصة صاحب الجنتين ، وضرب المثل للحياة الدنيا وما فيها من نعيم خادع ومتاع زائل ، نبَّه تعالى إلى الغاية من ذكر هذه الأمثال وهي « العظةُ والاعتبار » ثم ذكر القصة الثالثة « قصة موسى مع الخضر » وما فيها من أمور غيبيَّة عجيبة .

اللغَة : ﴿قبُلاً﴾ مقابلةً وعياناً ﴿موئلاً﴾ ملجأ ومنجى قال ابن قتيبة : وأل فلان إلى كذا لجأ إليه وألاً ووءولاً والموئل : الملجأ قال الأعشى :

وقد أُخالِسُ ربَّ البيت غفلتَه ... وقد يحاذِرُ مني ثم لا يئلُ[1]

﴿حُقُباً﴾ جمع حقبة وهي السنة والمراد بالحُقُب هنا الزمان الطويل ﴿سرَباً﴾ السَّرب : المسلك في جوف الأرض ﴿نَصباً﴾ النَّصب : التعب والمشقة ﴿إمْراً﴾ أمراً عظيماً يقال : أمِر الأمر إذا عظم ﴿نُكراً﴾ منكراً فظيعاً جداً .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟

التفسِير : ﴿ولقد صرَّفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل﴾ أي بيّنا في هذا القرآن الأمثال وكرَّرنا الحجج والمواعظ ﴿وكان الإنسان أكثرَ شيءٍ جدلاً﴾ أي وطبيعة الإنسان الجدلُ والخصومة لا ينيب لحق ولا ينزجر لموعظة ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذْ جاءهم الهُدى﴾ أي ما منع الناسَ من الايمان حين جاءهم الهُدى من الله ﴿ويستغفروا ربَّهم﴾ أي ومن الاستغفار من الذنوب والآثام ﴿إلاّ أن تأتيهم سنةُ الأولين﴾ أي إلا انتظارهم أن تأتيهم سنة الأولين وهي الإهلاك ﴿أو يأتيهم العذابُ قُبُلاً﴾ أي يأتيهم عذاب الله عياناً ومقابلة ومعنى الآية أنه ما منعهم من الايمان والاستغفار إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وُعدوا به عياناً ومواجهة كقولهم ﴿فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليم﴾[2] ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين﴾ أي ما نرسل الرسل إلا لغرض التبشير والإنذار لا للإهلاك والدمار ، مبشرين لأهل الايمان ومنذرين لأهل العصيان ﴿ويجادلُ الذين كفروا بالباطل

---

(١) البحر المحيط ١٣٢/٦ . (٢) هذا خلاصة المعنى الذي اختاره ابن كثير ، كذا في المختصر ٢/ ٤٢٥ .

هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا

ليُدْحضوا به الحق﴾ أي ومع وضوح الحق يجادل الكفار بالباطل ليغلبوا به الحق ويبطلوه فهم حين يطلبون الخوارق ويستعجلون العذاب لا يريدون الايمان وإنما يستهزئون ويسخرون **﴿واتخذوا آياتي وما أُنْذِروا هُزُواً﴾** أي اتخذوا القرآن وما خوّفوا به من العذاب سخرية واستهزاءً **﴿ومنْ أظلمُ ممّنْ ذُكر بآياتِ ربهِ فأعرض عنها﴾** أي لا أحد أظلمُ ممن وُعظ بآيات الله البينة ، وحججه الساطعة ، فتعامى عنها وتناساها ولم يُلقِ لها بالاً **﴿ونسي ما قدمت يداه﴾** أي نسي ما عمله من الجرائم الشنيعة ، والأفعال القبيحة ، ولم يتفكر في عاقبتها **﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكنَّةً أن يفقهوه﴾** أي جعلنا على قلوبهم أغطية تحول دون فقه هذا القرآن وإدراك أسراره ، والانتفاع بما فيه من المواعظ والأحكام **﴿وفي آذانهم وقراً﴾** أي وفي آذانهم صمماً معنوياً يمنعهم أن يسمعوه سماع تفهم وانتفاع **﴿وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً﴾** أي وإن دعوتهم إلى الايمان والقرآن فلن يستجيبوا لك أبداً لأنهم لا يفقهون ولا يسمعون ، فللهدى قلوبٌ متفتحة مستعدة لقبول الايمان وهؤلاء كالأنعام **﴿وربُّك الغفورُ ذو الرحمة﴾** أي وربك يا محمد واسع المغفرة عظيم الرحمة بالعباد مع تقصيرهم وعصيانهم **﴿لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجَّل لهم العذاب﴾** أي لو يعاقبهم بما اقترفوا من المعاصي والإجرام لعجَّل لهم عذاب الدنيا ، ولكنه تعالى يمهلهم ويؤخر عنهم العذاب الذي يستعجلونه به رحمةً بهم ، وقد جرت سنته بأن يمهل الظالم ولكن لا يهمله **﴿بل لهم موعدٌ لن يجدوا من دونه موئلاً﴾** أي لهم موعد آخر في القيامة يرون فيه الأهوال لن يجدوا لهم فيه ملجأ ولا منجى **﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا﴾** أي تلك هي أخبار الأمم السالفة والقرون الخالية كقوم هود وصالح ولوط وشعيب أهلكناهم حين ظلموا **﴿وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾** أي جعلنا لهلاكهم وقتاً محدَّداً معلوماً ، أفلا يعتبر هؤلاء المكذبون المعاندون ؟ والآية وعيد وتهديد لكفار قريش **قال ابن كثير** : والمعنى احذروا أيها المشركون أن يصيبكم ما أصابهم فقد كذبتم أعظم نبيٍّ وأشرف رسول ، ولستم بأعزَّ علينا منهم فخافوا عذابي ونُذري[1] **﴿وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين﴾** هذه هي القصة الثالثة في هذه السورة الكريمة والمعنى اذكر حين قال

(١) مختصر ابن كثير ٢/ ٤٢٦ .

قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

موسى الكليم لفتاه « يوشع بن نون » لا أزال أسير وأتابع السير حتى أصل الى ملتقى بحر فارس وبحر الروم مما يلي جهة المشرق وهو مجمع البحرين[1] ﴿أو أمضي حُقُباً﴾ أي أسير زماناً إلى أن أبلغ ذلك المكان ﴿فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما﴾ أي فلما بلغ موسى وفتاه مجمع البحرين نسي « يوشع » أن يخبر موسى بأمر الحوت وما شاهده منه من الأمر العجيب ، روي أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن يأخذ معه حوتاً فيجعله في مِكْتل فحيثما فقد الحوت فهناك الرجل الصالح ﴿فاتخذ سبيله في البحر سرَباً﴾ أي اتخذ الحوت سبيله في البحر مسلكاً قال المفسرون : كان الحوت مشوياً فخرج من المِكْتل ودخل في البحر وأمسك الله جرية الماء على الحوت فصار كالطاق عليه وجمد الماء حوله وكان ذلك آيةً من آيات الله الباهرة لموسى عليه السلام ﴿فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا﴾ أي فلما قطعا ذلك المكان وهومجمع البحرين الذي جُعل موعداً للملاقاة قال موسى لفتاه أعطنا طعام الغداء ﴿لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾ أي لقينا في هذا السفر العناء والتعب ، وكان قد سار ليلة وجزءاً من النهار بعد أن جاوز الصخرة ﴿قال أرأيتَ إذْ أوينا إلى الصخرة فإني نسيتُ الحوت﴾ أي قال الفتى « يوشع بن نون » حين طلب موسى منه الحوت للغداء أرأيت حين التجأنا إلى الصخرة التي نمت عندها ماذا حدث من الأمر العجيب ؟ لقد خرج الحوتُ من المكتل ودخل البحر وأصبح عليه مثل الكوة وقد نسيتُ أن أذكر لك ذلك حين استيقظتَ ﴿وما أنسانيه إلا الشيطانُ أن أذكره﴾ أي وقد أنساني الشيطان أن أخبرك عن قصته الغريبة ﴿واتخذ سبيله في البحر عجباً﴾ أي واتخذ الحوتُ طريقه في البحر وكان أمره عجباً ، يتعجب الفتى من أمره لأنه كان حوتاً مشوياً فدبَّت فيه الحياة ودخل البحر ﴿قال ذلك ما كنا نبغ﴾ أي قال موسى هذا الذي نطلبه ونريده لأنه علامة على غرضنا وهو لُقْيا الرجل الصالح فارتدا على آثارهما قَصَصاً أي رجعا في طريقهما الذي جاءا منه يتتبعان أثرهما الأول لئلا يخرجا عن الطريق ﴿فوجَدَا عبداً من عبادنا﴾ أي وجدا الخضر عليه السلام عند الصخرة التي فقد عندها الحوت ، وفي الحديث أن موسى وجد الخضر مسجّى بثوبه مستلقياً على الأرض فقال له : السلام عليك فرفع رأسه وقال : وأنّى بأرضك السلام[2] ؟ ﴿آتيناه رحمةً من عندنا﴾ أي وهبناه نعمة عظيمة وفضلاً كبيراً وهي الكرامات التي أظهرها الله على يديه[3] ﴿وعلمناه من لدنَّا علماً﴾ أي علماً خاصاً بنا لا يُعلم إلا بتوفيقنا وهو علم الغيوب قال العلماء :

(١) هكذا نقل الطبري عن قتادة ١٥/ ٢٧١ . (٢) الحديث سيأتي مفصلاً إن شاء الله . (٣) الصحيح أن الخضر عليه السلام ليس بنبي وإنما هو من عباد الله الصالحين وأوليائه المقربين وقد أظهر الله على يديه هذه الكرامات والأمور الغيبية تعليماً للخلق فضل العبودية .

قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ

هذا العلم الرباني ثمرة الإخلاص والتقوى ويسمى « العلم اللدُنِّي » يورثه الله لمن أخلص العبودية له ، ولا ينال بالكسب والمشقة وإنما هو هبة الرحمن لمن خصَّه الله بالقرب والولاية والكرامة **﴿قال له موسى هل أتَّبعك على أنْ تُعلمن ممّا عُلمتَ رُشْداً﴾** أي هل تأذن لي في مرافقتك لأقتبس من علمك ما يرشدني في حياتي ؟ قال المفسرون : هذه مخاطبة فيها ملاطفة وتواضع من نبي الله الكريم وكذلك ينبغي أن يكون الإنسان مع من يريد أن يتعلم منه **﴿قال إنك لن تستطيع معي صبراً﴾** أي قال الخضر : إنك لا تستطيع الصبر على ما ترى قال ابن عباس : لن تصبر على صنعي لأني علمتُ من غيب علم ربي **﴿وكيف تصبرُ على ما لم تُحِطْ به خُبْراً﴾** أي كيف تصبر على أمرٍ ظاهره منكرٌ وأنت لا تعلم باطنه ؟ **﴿قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾** أي قال موسى ستراني صابراً ولا أعصي أمرك إن شاء الله **﴿قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحدثَ لك منه ذكراً﴾** شرط عليه قبل بدء الرحلة ألا يسأله ولا يستفسر عن شيء من تصرفاته حتى يكشف له سرها ، فقبل موسى شرطه رعايةً لأدب المتعلم مع العالم ، والمعنى لا تسألني عن شيء مما أفعله حتى أبيّنه لك بنفسي **﴿فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها﴾** أي انطلق موسى والخضر يمشيان على ساحل البحر حتى مرت بهما سفينة فعرفوا الخضر فحملوهما بدون أجر فلما ركبا السفينة عمد الخضر إلى فأس فقلع لوحاً من ألواح السفينة بعد أن أصبحت في لجة البحر **﴿قال أخرقتها لتغرق أهلها﴾** أي قال له موسى مستنكراً : أخرقت السفينة لتغرق الركاب ؟ **﴿لقد جئت شيئاً إمْراً﴾** أي فعلت شيئاً عظيماً هائلاً ، يروى أن موسى لما رأى ذلك أخذ ثوبه فجعله مكان الخرق ثم قال للخضر : قومٌ حملونا بغير أجرٍ عمدتَ إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهل السفينة لقد فعلت أمراً منكراً عظيماً ! ! **﴿قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً﴾** أي ألم أخبرك من أول الأمر أنك لا تصبر على ما ترى من صنيعي ؟ ذكَّره بلطفٍ في مخالفته الشرط **﴿قال لا تؤاخذني بما نسيتُ﴾** أي لا تؤاخذني بمخالفتي الشرط ونسياني العهد **﴿ولا تُرهقني من أمري عُسراً﴾** أي لا تكلفني مشقةً في صحبتي إياك وعاملني باليُسر لا بالعُسر **﴿فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله﴾** أي فقبل عذره وانطلقا بعد نزولهما من السفينة يمشيان فمرَّا بغلمانٍ يلعبون وفيهم غلام وضيء الوجه جميل

قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

الصورة فأمسكه الخضر واقتلع رأسه بيده ثم رماه في الأرض ﴿قال أقتلت نفساً زكيَّةً بغير نفس﴾ أي قال موسى : أقتلت نفساً طاهرةً لم ترتكب جرماً ولم تقتل نفساً حتى تقتل به ﴿لقد جئتَ شيئاً نُكراً﴾ أي فعلت شيئاً منكراً عظيماً لا يمكن السكوت عنه . . لم يكن موسى ناسياً في هذه المرة ولا غافلاً ولكنه قاصدٌ أن يُنكر المنكر الذي لا يصبر على وقوعه بالرغم من تذكره لوعده ، وقال هنا ﴿نُكراً﴾ أي منكراً فظيعاً وهو أبلغ من قوله ﴿إمْراً﴾ في الآية السابقة ، ذكر القرطبي أن موسى عليه السلام لما قال للخضر ﴿أقتلتَ نفساً زكيَّة﴾ غضب واقتلع كتف الصبي الأيسر وقشر اللحم عنه فإذا مكتوب في عظم كتفه كافرٌ لا يؤمن بالله أبداً[1] ﴿قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ أي ألم أقل لك أنتَ على التعيين والتحديد لن تستطيع الصبر على ما ترى مني ؟ قال المفسرون : وقَّره في الأول فلم يواجهه بكاف الخطاب فلما خالف في الثاني واجهه بقوله ﴿لك﴾ لعدم العذر هنا ، ويعود موسى لنفسه ويجد أنه خالف وعده مرتين ، فيندفع ويقطع على نفسه الطريق ويجعلها آخر فرصةٍ أمامه ﴿قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني﴾ أي إن أنكرت عليك بعد هذه المرة واعترضتُ على ما يصدر منك فلا تصحبني معك ﴿قد بلغتَ من لدنّي عُذراً﴾ أي قد أعذرت إليَّ في ترك مصاحبتي فأنت معذورٌ عندي لمخالفتي لك ثلاث مرات ﴿فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيِّفوهما﴾ أي مشيا حتى وصلا إلى قرية قال ابن عباس : هي انطاكية فطلبا طعاماً وكان أهلها لئاماً لا يطعمون جائعاً ، ولا يستضيفون ضيفاً ، فامتنعوا عن إضافتهما أو إطعامهما ﴿فوجَدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ﴾ أي وجدا في القرية حائطاً مائلاً يوشك أن يسقط ويقع ﴿فأقامه﴾ أي مسحه الخضر بيده فاستقام ، وقيل إنه هدمه ثم بناه وكلاهما مرويٌ عن ابن عباس ﴿قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً﴾ أي قال له موسى لو أخذت منهم أجراً نستعين به على شراء الطعام ! ! أنكر عليه موسى صنيع المعروف مع غير أهله ، روي أن موسى قال للخضر : قومٌ استطعمناهم فلم يطعمونا ، وضِفناهم فلم يضيِّفونا ثم قعدت تبني لهم الجدار لو شئتَ لاتخذت عليه أجراً ! ﴿قال هذا فراقُ بيني وبينك﴾ أي قال الخضر : هذا وقت الفراق بيننا حسب قولك ﴿سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾ أي سأخبرك بحكمة هذه المسائل الثلاث التي أنكرتها عليَّ ولم تستطع عليها وفي الحديث (رحم الله

(١) القرطبي ١١/ ٢٢

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

أخي موسى لوددت أنه صبر حتى يقص الله علينا من أمرهما ولو لبث مع صاحبه لأبصر العجب)[1] ﴿أمَّا السفينة فكانتْ لمساكين يعملون في البحر﴾ هذا بيانٌ وتفصيل للأحداث العجيبة التي رآها موسى ولم يطق لها صبراً والمعنى أما السفينة التي خرقتها فكانت لأناس ضعفاء لا يقدرون على مدافعة الظَّلَمة يشتغلون بها في البحر بقصد التكسب ﴿فأردتُ أنْ أعيبها﴾ أي أردتُ بخرقها أن أجعلها مغيبة لئلا يغتصبها الملك الظالم ﴿وكان وراءهم ملك﴾ أي كان أمامهم ملك كافر ظالمٌ ﴿يأخذ كل سفينةٍ غصباً﴾ أي يغتصب كل سفينة صالحة لا عيب فيها ﴿وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين﴾ أي وأما الغلام الذي قتلتُه فكان كافراً فاجراً وكان أبواه مؤمنين وفي الحديث (إن الغلام الذي قتله الخضر طُبع كافراً ، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً)[2] ﴿فخشينا أن يُرهقهما طغياناً وكفراً﴾ أي فخفنا أن يحملهما حبُّه على اتّباعه في الكفر والضلال ﴿فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاةً وأقربَ رُحماً﴾ أي فأردنا بقتله أن يرزقهما الله ولداً صالحاً خيراً من ذلك الكافر وأقربَ براً ورحمة بوالديه ﴿وأمّا الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنزٌ لهما﴾ أي وأما الجدار الذي بنيتُه دون أجر والذي كان يوشك أن يسقط فقد خبيء تحته كنزٌ من ذهب وفضة لغلامين يتيمين ﴿وكان أبوهما صالحاً﴾ أي وكان والدهما صالحاً تقياً فحفظ الله لهما الكنز لصلاح[3] الوالد قال المفسرون : إن صلاح الآباء ينفع الأبناء ، وتقوى الأصول تنفع الفروع ﴿فأراد ربك أن يبلغا أشدّهما ويستخرجا كنزهما﴾ أي فأراد الله بهذا الصنيع أن يكبرا ويشتد عودهما ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار ﴿رحمةً من ربك﴾ أي رحمةً من الله بهما لصلاح أبيهما ﴿وما فعلته عن أمري﴾ أي ما فعلتُ ما رأيتَ من خرْقِ السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار عن رأيي واجتهادي ، بل فعلته بأمر الله وإلهامه ﴿ذلك تأويلُ ما لم تسْطِع عليه صبراً﴾ أي ذلك تفسير الأمور التي لم تستطع الصبر عليها وعارضت فيها قبل أن أخبرك عنها .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ الطباق بين ﴿مبشرين . . ومنذرين﴾ وبين ﴿نسيت . . وأذكر﴾ .

---

(١) هذا جزء من حديث أخرجه الشيخان . (٢) رواه مسلم . (٣) قيل إنه الأب السابع ، وظاهر اللفظ أنه أبوهما مباشرةً وهو الأرجح .

٢ ـ اللف والنشر المرتَّب ﴿أما السفينةُ﴾ ﴿وأما الغلام﴾ ﴿وأما الجدار﴾ فقد جاء بها مرتبة بعد ذكر ركوب السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار بطريق اللف والنشر المرتب وهو من المحسنات البديعية.

٣ ـ الحذف بالإيجاز ﴿كل سفينة﴾ أي صالحةٍ حذف لدلالة لفظ « أعيبها » وكذلك حذف لفظ كافر من ﴿وأما الغلام﴾ لدلالة قوله تعالى ﴿فكان أبواه مؤمنين﴾ .

٤ ـ التغليب ﴿أبواه﴾ المراد باللفظ أبوه وأمه .

٥ ـ الاستعارة ﴿يريد أن ينقضَّ﴾ لأن الإرادة من صفات العقلاء وإسنادها إلى الجدار من لطيف الاستعارة وبليغ المجاز كقول الشاعر :

يريد الرمحُ صدر أبي براءٍ ... ويرغب عن دماء بني عقيل[١]

٦ ـ التنكير للتفخيم والإضافة للتشريف ﴿عبداً من عبادنا﴾ .

٧ ـ السجع مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿نصبَاً ، سرباً ، عَجباً﴾ .

٨ ـ تعليم الأدب ﴿فأردتُ أن أعيبها﴾ وهناك قال ﴿فأراد ربك﴾ حيث أسند ما ظاهره شر لنفسه وأسند الخير إلى الله تعالى ، وذلك لتعليم العباد الأدب مع الله جل وعلا .

« قصة موسى والخضر كما في الصحيحين »

عن أبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم ؟ فقال : أنا، فعتب الله عز وجل عليه إذْ لم يردَّ العلم إليه ، فأوحى الله إليه أنَّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك ، قال موسى يا رب فكيف لي به ؟ قال : تأخذ حوتاً فتجعله في مِكْتَل فحيثما فقدتَ الحوتَ فهو ثمَّ ، فانطلق موسى : ومعه فتاه « يوشع بن نون » حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت في المِكْتَل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرَباً ، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ـ قال ولم يجد موسى النَّصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به ـ فقال فتاه ﴿ أرأيتَ إذْ أوينا إلى الصخرة فإني نسيتُ الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً ﴾ قال فكان للحوت سَرَباً ولموسى وفتاه عجَباً فقال موسى ﴿ ذلك ما كنّا نبغِ فارتدا على آثارهما قَصصاً ﴾ قال رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا هو مسجًّى بثوب فسلَّم عليه موسى فقال الخضر : وأنَّى بأرضك السلام[٢] ! من أنت ؟ قال : أنا موسى ، قال موسى بني إسرائيل ؟ قال نعم أتيتك لتعلمني مما عُلمت رُشداً ﴿ قال إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ . يا موسى إني على علم من علم الله لا تعلمه علَّمنيه ،

(١) الطبري ١٥/ ٢٨٩ . (٢) يعني من أين السلام في هذه الأرض التي لا يعرف فيها السلام ؟

وأنت على علمٍ من علم الله علَّمكه لا أعلمه ، فقال موسى﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً ﴾فقال له الخضر﴿ فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحدث لك منه ذكراً ﴾فانطلقا يمشيان على الساحل فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نوْل ـ أي بدون أجر ـ فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى : قومٌ قد حملونا بغير نوْل عمدت إلى سفينتهم فخرقتها﴿ لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمْراً ﴾وقال رسول الله ﷺ : وكانت الأولى من موسى نسياناً ، وجاء عصفورٌ فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر : ما علمي وعلمكَ من علم الله تعالى إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ، ثم خرجا من السفينة فبينا هما يمشيان على الساحل إذْ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه فقتله ، فقال له موسى ﴿أقتلتَ نفساً زكيَّةً بغير نفس لقد جئت شيئاً نُكراً﴾ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً قال سفُيان : وهذه أشدُّ من الأولى ﴿ قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغتَ من لدُني عذراً ﴾فانطلقا﴿ حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيّفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضَّ﴾فقال الخضر بيده هكذا ـ أي أشار بيده ـ فأقامه فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ، ولم يضيفونا ﴿لو شئت لاتخذت عليه أجراً﴾ قال الخضر : ﴿هذا فِراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾قال رسول الله ﷺ : يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص الله علينا من أخبارهما » ! ! أخرجه الشيخان .

تنبيه : قال العلامة القرطبي : « كرامات الأنبياء ثابتة على ما دلت عليه الأخبار والآيات المتواترة ، ولا ينكرها إلا المبتدع الجاحد أو الفاسق الحائد ، فالآيات ما أخبر الله تعالى في حق مريم من ظهور الفواكه الشتوية في الصيف ، والصيفية في الشتاء ، وما ظهر على يدها حيث هزَّت النخلة وكانت يابسة فأثمرت ، وهي ليست بنبية ، ويدل أيضاً ما ظهر على يد الخضر من خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار » أ هـ . القرطبي ١١/٢٨ .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ويسألونك عن ذي القرنين . . إلى . . فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾
من آية (٨٣) إلى آية (١١٠) نهاية السورة .

المناسبة : لما ذكر تعالى قصة الخضر أعقبها بقصة ذي القرنين ورحلاته الثلاث إلى الغرب ، والشرق ، وإلى السَّدين ، وبناؤه للسدّ في وجه «يأجوج ومأجوج » وهي القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة ، وجميعها ترتبط بالعقيدة والإيمان ، وهو الهدف الأصيل للسورة الكريمة .

اللغة : ﴿ذو القرنين﴾ هو الاسكندر المقدوني[1] وهو ملِكٌ صالح أعطي العلم والحكمة ، سمي بذي القرنين لأنه ملك مشارق الأرض ومغاربها وكان مسلماً عادلاً قال الشاعر :

قد كان ذو القرنين قبلي مسلماً ... ملكاً علا في الأرض غير مفنَّد

(١) الراجح أن ذا القرنين ملك مسلم من ملوك اليمن .

بلـغ المشـارق والمغـارب يبتغي أسبـاب مُلكٍ مـن كريمٍ سيد[١]

﴿حمِئة﴾ كثيرة الحمأة وهي الطينة السوداء ﴿سداً﴾ السدُّ: الحاجز والحائل بين الشيئين ﴿ردْماً﴾ الردم. السدُّ المنيع وهو أكبر من السدّ لأن الرَّدم ما جعل بعضه على بعض حتى يصبح كالحجاب المنيع فالردم الحاجز الحصين المتين ﴿زُبَـر الحديد﴾ قطع الحديد مفرده زُبرة وهي القطعة ﴿الصدفين﴾ جانبا الجبل قال أبو عبيدة: الصَّدف كل بناء عظيم مرتفع ﴿قِطراً﴾ القِطر: النحـاس المذاب ﴿نقبـاً﴾ خرقـاً وثقبـاً ﴿دكاء﴾ مدكوكاً مسـوًّى بالأرض قال الأزهـري: دككتـه أي دققتـه ﴿يمـوج﴾ يختلـط ويضطـرب ﴿الفردوس﴾ قال الفراء: البستان الذي فيه العنب وقال ثعلب: كل بستان يحوَّط عليه فهو فردوس[٢].

سَبَبُ النّزول: أ ـ قال قتادة: إن اليهود سألوا النبيﷺ عن ذي القرنين فأنزل الله ﴿ويسألونك عن ذي القرنين . .﴾ الآية[٣].

ب ـ قال مجاهد: جاء رجل إلى النبيﷺ فقال يا رسول الله: إني أتصدق، وأصلُ الرحم، ولا أصنع ذلك إلا لله تعالى، فيُذكر ذلك مني وأحمد عليه فيسرني ذلك وأُعجب به، فسكت رسول اللهﷺ ولم يقل شيئاً فأنزل الله ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحـاً ولا يُشرك بعبادة ربه أحداً﴾[٤].

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ

التَفسِير: ﴿ويسألونـك عن ذي القرنيـن﴾ أي يسألك اليهود يا محمد عن ذي القرنين ما شأنه؟ وما قصته؟ ﴿قـل سأتلوا عليكـم منـه ذكـراً﴾ أي قل لهم سأقص عليكم من نبأه وخبره قرآناً ووحياً ﴿إنـا مكنّـا لـه في الأرض وآتيناه مـن كل شيءٍ سببـاً﴾ أي يسرنا له أسباب الملك والسلطان والفتح والعمران، وأعطيناه كل ما يحتاج إليه للوصول إلى غرضه من أسباب العلم والقدرة والتصرف قال المفسرون: ذو القرنين هو «الاسكندر اليوناني» ملكَ المشرق والمغرب فسمي ذا القرنين، وكان ملكاً مؤمناً مكّن الله له في الأرض فعدل في حكمه وأصلح، وكان في الفترة بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما روي أن الذين ملكوا الأرض أربعة: مؤمنان وكافران، أما المؤمنان فسليمان وذو القرنـين، وأمـا الكافـران فنمـرود وبختنصر[٥] ﴿فأتْبـع سببـاً﴾ أي سلك طريقه الذي يسره الله له وسار جهة المغرب ﴿حتـى إذا بلـغ مغـرب الشمـس﴾ أي وصل المغرب ﴿وجدهـا تغـرب فـي عينٍ حمِئـة﴾ أي وجد الشمس تغرب في ماء وطين ـ حسب ما شاهد لا حسب الحقيقة ـ فإن الشمس أعظم من أن تدخل في عين من عيون الأرض قال الرازي: إن ذا القرنين لما بلغ أقصى المغرب ولم يبق بعده شيء من العمارات وجد الشمس كأنها تغرب في عين وهدة مظلمة وإن لم تكن كذلك في الحقيقة كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر إذا

(١) التفسير الكبير للرازي ٢١/ ١٦٤. (٢) البحر ٦/ ١٥٧. (٣) أسباب النزول ١٧٢.
(٤) القرطبي ١١/ ٧٠. (٥) البحر ٦/ ١٥٧.

﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۝٨٦ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨٧ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۝٨٨ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٩ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۝٩٠ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۝٩١ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٩٢ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾

لم ير الشطَّ وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر[1] ﴿**ووجد عندها قوماً**﴾ أي وجد عند تلك العين الحارة ذات الطين قوماً من الأقوام ﴿**قلنا يا ذا القرنين إمَّا أن تُعذِّب وإما أن تتخذ فيهم حسناً**﴾ أي قلنا له بطريق الإلهام: إما أن تقتلهم أو تدعوهم بالحسنى إلى الهداية والإيمان قال المفسرون: كانوا كفاراً فخيَّره الله بين أن يعذبهم بالقتل، أو يدعوهم إلى الإسلام فيُحسن إليهم ﴿**قال أمَّا من ظلم فسوفَ نعذِّبه**﴾ أي من أصرَّ على الكفر فسوف نقتله ﴿**ثم يُردُّ إلى ربه فيعذِّبهُ عذاباً نُكراً**﴾ أي ثم يرجع إلى ربه فيعذبه عذاباً منكراً فظيعاً في نار جهنم ﴿**وأمَّا من آمن وعمل صالحاً فله جزاءً الحسنى**﴾ أي وأمَّا من آمن بالله وأحسن العمل في الدنيا وقدَّم الصالحات فجزاؤه الجنة يتنعَّم فيها ﴿**وسنقول له من أمرنا يُسْراً**﴾ أي نيسر عليه في الدنيا فلا نكلفه بما هو شاق بل بالسهل الميسَّر. اختار الملك العادل دعوتهم بالحسنى فمن آمن فله الجنة، والمعاملة الطيبة، والمعونة والتيسير، ومن بقي على الكفر فله العذاب والنكال في الدنيا والآخرة ﴿**ثم أتبع سبَباً**﴾ أي سلك طريقاً بجنده نحو المشرق ﴿**حتى إذا بلغ مطْلِعَ الشمس**﴾ أي حتى إذا وصل أقصى المعمورة من جهة الشرق حيث مطلع الشمس في عين الرائي ﴿**وجدها تطلُعُ على قومٍ لم نجعلْ لهمْ من دونها سِتراً**﴾ أي وجد الشمس تشرقُ على أقوامٍ ليس لهم من اللباس والبناء ما يسترهم من حر الشمس فإذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب تحت الأرض، وإذا غربتْ خرجوا لمكاسبهم قال قتادة: مضى ذو القرنين يفتح المدائن ويجمع الكنوز ويقتل الرجال إلاّ من آمن حتى أتى مطلع الشمس فأصاب قوماً في أسراب عراة، ليس لهم طعام إلا ما أنضجته الشمس إذا طلعت، حتى إذا زالت عنهم الشمس خرجوا من أسرابهم في طلب معايشهم، وذُكر لنا أنهم كانوا في مكان لا يثبت عليه بنيان ويقال إنهم الزنج[2] ﴿**كذلك وقد أحطنا بما لديه خُبراً**﴾ أي كذلك فعل بأهل المشرق من آمن تركه ومن كفر قتله كما فعل بأهل المغرب وقد أحطنا علماً بأحواله وأخباره، وعتاده وجنوده، فأمرُه من العظمة وكثرة الرجال بحيث لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير ﴿**ثم أتبع سبَباً**﴾ أي سلك طريقاً ثالثاً بين المشرق والمغرب يوصله جهة الشمال حيث الجبال الشاهقة ﴿**حتى إذا بلغ بين السَّدين**﴾ أي حتى إذا وصل إلى منطقة بين حاجزين عظيمين، بمنقطع أرض بلاد الترك مما يلي أرمينية وأذربيجان قال الطبري: والسَّدُّ: الحاجز بين الشيئين وهما هنا

(١) التفسير الكبير ٢١/١٦٦. (٢) زاد المسير ٥/١٨٧ والطبري ١٦/١٤.

قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾

جبلان سُدٌّ ما بينهما ، فردَم ذو القرنين حاجزاً بين يأجوج ومأجوج من ورائهم ليقطع مادة غوائلهم وشرهم عنهم[1] ﴿وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً﴾ أي وجد من وراء السدين قوماً متخلفين لا يكادون يعرفون لساناً غير لسانهم إلا بمشقة وعُسر **قال المفسرون** : إنما كانوا لا يفقهون القول لغرابة لغتهم ، وبطء فهمهم ، وبعدهم عن مخالطة غيرهم ، وما فهم كلامهم إلا بواسطة ترجمان ﴿قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض﴾ أي قال القوم لذي القرنين : إن يأجوج ومأجوج - قبيلتان من بني آدم في خلقهم تشويهٌ ، منهم مفرطٌ في الطول ، ومنهم مفرطٌ في القِصر[2] - قومٌ مفسدون بالقتل والسلب والنهب وسائر وجوه الشر **قال المفسرون** : كانوا من أكلة لحوم البشر ، يخرجون في الربيع فلا يتركون أخضر إلا أكلوه ، ولا يابساً إلا احتملوه ﴿فهل نجعل لك خرْجاً﴾ أي هل نفرض لك جزءاً من أموالنا كضريبة وخراج ﴿على أن تجعل بيننا وبينهم سداً﴾ أي لتجعل سداً يحمينا من شر يأجوج ومأجوج **قال في البحر** : هذا استدعاءٌ منهم لقبول ما يبذلونه على جهة حسن الأدب[3] ﴿قال ما مكّنّي فيه ربي خيرٌ﴾ أي ما بسطه الله عليَّ من القُدرة والمُلك خيرٌ مما تبذلونه لي من المال ﴿فأعينوني بقوة﴾ أي لا حاجة لي إلى المال فأعينوني بالأيدي والرجال ﴿أجعلْ بينكمْ وبينهم ردْماً﴾ أي أجعل بينكم وبينهم سداً منيعاً ، وحاجزاً حصيناً ، وهذه شهامة منه حيث رفض قبول المال وتطوَّع ببناء السد واكتفى بعون الرجال ﴿آتوني زُبر الحديد﴾ أي أعطوني قطع الحديد واجعلوها لي في ذلك المكان ﴿حتى إذا ساوى بين الصَّدَفين﴾ أي حتى إذا ساوى البناء بين جانبي الجبلين ﴿قال انفخوا﴾ أي انفخوا بالمنافيخ عليه ﴿حتى إذا جعله ناراً﴾ أي جعل ذلك الحديد المتراكم كالنار بشدة الإحماء ﴿قال آتوني أُفرِغْ عليه قِطراً﴾ أي أعطوني أصبُّ عليه النحاس المذاب **قال الرازي** : لما أتوه بقطع الحديد وضع بعضها على بعض حتى صارت بحيث تسدُّ ما بين الجبلين إلى أعلاهما ثم وضع المنافخ عليها حتى إذا صارت كالنار صبَّ النحاس المذاب على الحديد المحمي فالتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلداً[4] ﴿فما اسْطاعوا أن يَظْهروه﴾ أي فما استطاع المفسدون أن يعلوه ويتسوروه لعلوه وملاسته ﴿وما استطاعوا له نقْباً﴾ أي وما استطاعوا نقبه من أسفل لصلابته وثخانته ، وبهذا السد المنيع أغلق ذو

(١) الطبري ١٦/ ١٥ . (٢) روى ذلك عن علي وابن عباس . (٣) البحر ٦/ ١٦٤ . (٤) التفسير الكبير ٢١/ ١٧٢ .

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾

القرنين الطريق على يأجوج ومأجوج ﴿قال هذا رحمةٌ من ربي﴾ أي قال ذو القرنين : هذا السدُّ نعمةٌ من الله ورحمة على عباده ﴿فإذا جاء وعد ربي﴾ أي فإذا جاء وعد الله بخروج يأجوج ومأجوج وذلك قرب قيام الساعة ﴿جعله دكاء﴾ أي جعله الله مستوياً بالأرض وعاد متهدماً كأن لم يكن بالأمس ﴿وكان وعد ربي حقاً﴾ أي كان وعده تعالى بخراب السدِّ وقيام الساعة كائناً لا محالة . . وههنا تنتهي قصة ذي القرنين ثم يأتي الحديث عن أهوال الساعة وشدائد القيامة قال تعالى ﴿وتركنا بعضهم يومئذٍ يموج في بعض﴾ أي تركنا الناس يوم قيام الساعة يضطرب بعضهم ببعض - لكثرتهم - كاضطراب موج البحر ﴿ونُفخ في الصور فجمعناهم جمعاً﴾ أي ونفخ في الصور النفخة الثانية فجمعناهم للحساب والجزاء في صعيد واحدٍ جمعاً لم يتخلف منهم أحد ﴿وعرضنا جهنم يومئذٍ للكافرين عرضاً﴾ أي أبرزنا جهنم وأظهرناها للكافرين يوم جمع الخلائق حتى شاهدوها بأهوالها عرضاً مخيفاً مفزعاً ﴿الذين كانت أعينهم في غطاءٍ عن ذكري﴾ أي هم الذين كانوا في الدنيا عُمياً عن دلائل قدرة الله ووحدانيته فلا ينظرون ولا يتفكرون ﴿وكانوا لا يستطيعون سمعاً﴾ أي لا يطيقون أن يسمعوا كلام الله تعالى لظلمة قلوبهم قال أبو السعود : وهذا تمثيلٌ لإعراضهم عن الأدلة السمعية ، وتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار فكأنهم عميٌ صم[1] ﴿أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ أي أفظنَّ الكافرون أن يتخذوا بعض عبادي آلهة يعبدونهم دوني كالملائكة وعزير والمسيح ابن مريم ، وأن ذلك ينفعهم أو يدفع عنهم عذابي ؟ قال القرطبي : جواب الاستفهام محذوف تقديره أفحسبوا أن ذلك ينفعهم ، أو لا أعاقبهم[2] ﴿إنا أعتدنا جهنم للكافرين نُزُلاً﴾ أي هيأنا جهنم وجعلناها ضيافةً لهم كالنُّزُل المعد للضيف قال البيضاوي : وفيه تهكمٌ بهم وتنبيهٌ على أن لهم وراءها من العذاب ما تستحقر جهنم دونه[3] ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكافرين هل نخبركم بأخسر الناس عند الله ؟ ﴿الذين ضلَّ سعيُهم في الحياة الدنيا﴾ أي بطل عملهم وضاع في هذه الحياة الدنيا لأن الكفر لا تنفع معه طاعة قال الضحاك : هم القسّيسون والرهبان يتعبدون ويظنون أن عبادتهم تنفعهم وهي لا تقبل منهم ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾ أي يظنون أنهم محسنون

(١) أبو السعود ٣/ ٢٦٧ . (٢) القرطبي ١١/ ٦٥ . (٣) البيضاوي ٢/ ١٣ .

أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

بأفعالهم ﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم﴾ أي كفروا بالقرآن وبالبعث والنشور فبطلت أعمالهم ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾ أي ليس لهم عند الله قيمةٌ ولا وزن ، ولا قدرٌ ولا منزلة وفي الحديث (يُؤتى بالرجل الطويل الأكول الشروب فلا يزن جناح بعوضة)[1] ﴿ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هُزُواً﴾ أي ذلك جزاؤهم وعقوبتهم نارُ جهنم بسبب كفرهم واستهزائهم بآيات الله ورسله ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي آمنوا بالله وعملوا بما يرضيه ﴿كانت لهم جنات الفِردوس نُزُلاً﴾ أي لهم أعلى درجات الجنة وهي الفردوس منزلاً ومستقراً ﴿خالدين فيها لا يبغون عنها حِولاً﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يطلبون عنها تحولاً قال ابن رواحة : في جنانِ الفِردوس ليسَ يخافون : خُروجاً عنها ولا تحويلاً ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي﴾ هذا تمثيلٌ لسعة علم الله والمعنى لو كانت بحار الدنيا حبراً ومداداً وكتبت به كلمات الله وحكمه وعجائبه ﴿لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي﴾ أي لفني ماء البحر على كثرته وانتهى ، وكلامُ الله لا ينفد لأنه غير متناهٍ كعلمه جل وعلا ﴿ولو جئنا بمثله مدَداً﴾ أي ولو أتينا بمثل ماء البحر وزدناه به حتى يكثر فإن كلام الله لا يتناهى ﴿قل إنما أنا بشرٌ مثلكم يُوحى إليَّ أنما إلهكم إلهٌ واحد﴾ أي قل لهم يا محمد إنما أنا إنسان مثلكم أكرمني الله بالوحي،وأمرني أن أخبركم أنه واحدٌ أحد لا شريك له ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ أي فمن كان يرجو ثواب الله ويخاف عقابه ﴿فليعمل عملاً صالحاً﴾ أي فليخلص له العبادة ﴿ولا يُشرك بعبادة ربه أحداً﴾ أي لا يرائي بعمله ولا يبتغي بما يعمل غير وجه الله ، فإن الله لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين ﴿مطلع .. ومغرب﴾ .

(١) ذكره الحافظ في الفتح ٨/ ٣٢٤ .

٢ ـ التشبيه البليغ ﴿جعله ناراً﴾ أي كالنار في الحرارة وشدة الإحمرار حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً .

٣ ـ الاستعارة ﴿يموج في بعض﴾ شبّههم لكثرتهم وتداخل بعضهم في بعضٍ بموج البحر المتلاطم واستعار لفظ يموج لذلك ففيه استعارة تبعية .

٤ ـ الاستعارة أيضاً ﴿كانت أعينهم في غطاءٍ عن ذكرى﴾ أي كانوا ينظرون فلا يعتبرون وتُعرض عليهم الآيات الكونية فلا يؤمنون، ولم تكن أعينهم حقيقةً في غطاء وحجاب وإنما هو بطريق التمثيل.

٥ ـ الجناس الناقص ﴿يحسبون أنهم يُحسنون﴾ لتغير الشكل وبعض الحروف، ويسمى أيضاً جناس التصحيف .

٧ ـ الاستفهام الذي يراد به التوبيخ والتقريع ﴿أفحسب الذين كفروا﴾ ؟

٨ ـ المقابلة اللطيفة ﴿وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاءً الحسنى﴾ مقابل ﴿أمّا من ظلم فسوف نعذبه . .﴾ الآية .

لطيفة : كثيراً ما يرد في القرآن لفظ « حبط » وأصل الحبوط هو انتفاخ بطن الدابة حين تأكل نوعاً ساماً من الكلأ ثم تَلْقى حتفها ، وهذا اللفظ أنسب شيء لوصف الأعمال فإنها تنتفخ وأصحابها يظنونها صالحة ناجحة رابحة ثم تنتهي إلى البوار .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الكهف »

* * *



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة مريم مكية ، وغرضها تقرير التوحيد ، وتنزيه الله جل وعلا عما لا يليق به ، وتثبيت عقيدة الإيمان بالبعث والجزاء ، ومحورُ هذه السورة يدور حول التوحيد ، والإيمان بوجود الله ووحدانيته ، وبيان منهج المهتدين ، ومنهج الضالين .

* عرضت السورة الكريمة لقصص بعض الأنبياء مبتدئةً بقصة نبي الله « زكريا » وولده « يحيى » الذي وهبه على الكبر من امرأةٍ عاقر لا تلد ، ولكنَّ الله قادرٌ على كل شيء ، يسمع دعاء المكروب ، ويستجيب لنداء الملهوف ، ولذلك استجاب الله دعاءه ورزقه الغلام النبيه .

* وعرضت السورة لقصة أعجب وأغرب ، تلك هي قصة « مريم العذراء » وإنجابها لطفلٍ من غير أب ، وقد شاءت الحكمة الإلهية أن تبرز تلك المعجزة الخارقة بميلاد عيسى من أم بلا أب ، لتظل آثار القدرة الربانية ماثلةً أمام الأبصار ، بعظمة الواحد القهار .

* وتحدثت كذلك عن قصة إبراهيم مع أبيه ، ثم ذكرت بالثناء والتبجيل رسل الله الكرام : « إسحاق ، يعقوب ، موسى ، هارون ، إسماعيل ، إدريس ، نوحا » وقد استغرق الحديث عن هؤلاء الرسل الكرام حوالي ثلثي السورة ، والهدفُ من ذلك إثبات « وحدة الرسالة » وأن الرسل جميعاً جاءوا لدعوة الناس إلى توحيد الله ، ونبذ الشرك والأوثان .

* وتحدثت السورة عن بعض مشاهد القيامة ، وعن أهوال ذلك اليوم الرهيب ، حيث يجثو فيه الكفرة المجرمون حول جهنم ليقذفوا فيها ، ويكونوا وقوداً لها .

* وختمت السورة الكريمة بتنزيه الله عن الولد ، والشريك ، والنظير ، وردَّت على ضلالات المشركين بأنصع بيان ، وأقوى برهان .

التسمية : سميت « سورة مريم » تخليداً لتلك المعجزة الباهرة ، في خلق إنسانٍ بلا أب ، ثم إنطاق الله للوليد وهو طفل في المهد ، وما جرى من أحداث غريبة رافقت ميلاد عيسى عليه السلام .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾

اللغـــة : ﴿وهَنَ﴾ ضعف يقال وَهَن يهِنُ فهو واهِنٌ والوهنُ ضعفُ القوة ﴿اشتعل﴾ الاشتعال انتشار شعاع النار ﴿عاقراً﴾ العاقر : التي لا تلد لكبر سنها ﴿عِتياً﴾ العِتيُّ : النهاية في الكبر واليبس والجفاف يقال : عتا الشيخ كبر وولّى قال الشاعر :

إنما يُعذر الـوليـدُ ولا يُعـذر ... من كـان في الزّمـان عِتيّاً[1]

﴿حناناً﴾ الحنان : الشفقة والرحمةُ والمحبةُ ، وأصله من حنين الناقة على ولدها وحنانيْك تريد رحمتك قال طرفة :

أبـا منذر أفنيـت فاسْـتبق بعضَنـا ... حنانَيْك بعضُ الشر أهـونُ مـن بعض[2]

﴿انتبذت﴾ ابتعدت وتنحَّتْ ﴿سوياً﴾ مستوي الخلقة ﴿المخاض﴾ اشتداد وجع الولادة والطلق ﴿سرياً﴾ السريُّ : النهر والجدول لأن الماء يسري فيه ﴿فريّاً﴾ الفريُّ : العظيم من الأمر .

التفسـير : ﴿كهيعـص﴾ حروفٌ مقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن[3] وتقرأ : « كافْ ، هَا ، يَا ، عَيـنْ ، صَـادْ » ﴿ذكـرُ رحمـةِ ربـِّك عبْـدَه زكريـا﴾ أي هذا ذكرُ رحمةِ ربِّك لعبدِهِ زكريا نقصُّه عليك يا محمد ﴿إذ نـادى ربـه نـداءً خفيـاً﴾ أي حين ناجى ربـه ودعـاه بصوتٍ خفي لا يكاد يسمع قال المفسرون : لأن الإخفاء في الدعاء أدخلُ في الإخلاص وأبعدُ من الرياء ﴿قـال ربِّ إنـي وهَـنَ العظم منـي﴾ أي دعا في ضراعة فقال يا رب : لقد ضعف عظمي ،وذهبتْ قوتي من الكِبر ﴿واشْتَعـل الرأسُ شيبـاً﴾ أي انتشر الشيب في رأسي انتشار النار في الهشيم ﴿ولـم أكـنْ بدعائـكَ ربِّ شقيـاً﴾ أي لم تخيّب دعائي في وقت من الأوقات بل عودتني الإحسان والجميل فاستجب دعائي الآن كما كنت تستجيبه فيما مضى قال البيضاوي : هذا توسلٌ بما سلف له من الاستجابة ، وأنه تعالى عوَّده بالإجابة وأطمعه فيها ، ومن حقِّ الكريم أن لا يخيِّب من أطمعه[4] ﴿وإنـي خِفـتُ الموالي مـن ورائـي﴾ أي خفت بني العم والعشيرة من بعد موتي أن يضيّعوا الدين ولا يحُسنوا وراثة العلم والنبوة ﴿وكانـت امرأتـي عاقـراً﴾ أي لا تلد لكبر سنها أو لم تلدْ قطُّ ﴿فهـبْ لـي مـن لدنك وليـاً﴾ أي فارزقني من محض فضلك ولداً صالحاً

(١) القرطبي ١١/ ٨٣ . (٢) البحر ٦/ ١٧٧ . (٣) انظر ما كتبناه في أول سورة البقرة . (٤) البيضاوي ٢/ ١٤ .

يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً

يتولاني ﴿يرثني ويرث من آل يعقوب﴾ أي يرثني ويرث أجداده في العلم والنبوة قال **البيضاوي** : المراد وراثة الشرع والعلم فإن الأنبياء لا يورِّثون المال[1] ﴿واجعله ربّ رضياً﴾ أي اجعله يا رب مرضياً عندك قال **الرازي** : قدَّم زكريا عليه السلام على طلب الولد أموراً ثلاثة : **أحدها** : كونه ضعيفاً، **والثاني** : أن الله ما ردَّ دعاءه البتة، **والثالث** : كون المطلوب بالدعاء سبباً للمنفعة في الدين ثم صرَّح بسؤال الولد وذلك مما يزيد الدعاء توكيداً لما فيه من الاعتماد على حول الله وقوته والتبري عن الأسباب الظاهرة[2] ﴿يا زكريا إنّا نبشرك بغلامٍ اسمه يحيى﴾ أي نبشرك بواسطة الملائكة بغلامٍ يسمى يحيى كما في آل عمران ﴿فنادته الملائكة وهو قائمٌ يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى﴾ ﴿لم نجعلْ له من قبلُ سمياً﴾ أي لم يسمَّ أحدٌ قبله بيحيى فهو اسم فذٌّ غير مسبوق سمّاه تعالى به ولم يترك تسميته لوالديه وقال **مجاهد** : ليس له شبيه في الفضل والكمال ﴿قال ربِّ أنّى يكون لي غلام﴾ أي كيف يكون لي غلام ؟ وهو استفهام تعجب وسرور بالأمر العجيب ﴿وكانت امرأتي عاقراً﴾ أي والحال أن امرأتي كبيرة السن لم تلد في شبابها فكيف وهي الآن عجوز ! ! ﴿وقد بلغتُ من الكبر عِتِياً﴾ أي بلغتُ في الكبر والشيخوخة نهاية العمر قال **المفسرون** : كان قد بلغ مائةً وعشرين سنة ، وامرأتُه ثمانٍ وتسعين سنة ، فأراد أن يطمئنَّ ويعرف الوسيلة التي يرزقه بها هذا الغلام ﴿قال كذلك قال ربك هو عليَّ هيِّنٌ﴾ أي قال الله لزكريا : هكذا الأمر أخلقه من شيخين كبيرين ، وخلقه وإيجادُه سهلٌ يسيرٌ عليَّ ﴿وقد خلقتك من قبلُ ولم تك شيئاً﴾ أي كما خلقتُك من العدم ولم تكُ شيئاً مذكوراً فأنا قادر على خلق يحيى منكما قال **المفسرون** : ليس في الخلق هينٌ وصعبٌ على الله ، فوسيلة الخلق للصغير والكبير ، والجليل والحقير واحدةٌ ﴿كن فيكون﴾ وإنما هو أهونُ في اعتبار الناس ، فإن القادر على الخلق من العدم قادرٌ على الخلق من شيخين هرمين ﴿قال ربِّ اجعلْ لي آية﴾ أي اجعل لي علامة تدل على حمل امرأتي ﴿قال آيتك ألاّ تكلم الناس ثلاث ليالٍ سوياً﴾ أي علامتك ألا تستطيع تكليم الناس ثلاثة أيام بلياليهن وأنت سويُّ الخلق ليس بك خرسٌ ولا علة قال **ابن عباس** : اعتُقِل لسانه من غير مرض وقال **ابن زيد** : حُبس لسانه فكان لا يستطيع أن يكلم أحداً وهو مع ذلك يسبح ويقرأ التوراة لم يكن الإنجيل ظهر بعد لأن هذا قبل ولادة عيسى عليه السلام فإذا أراد كلام الناس لم يستطع أن يكلمهم[3] ﴿فخرج على قومه من المحراب﴾ أي أشرف عليهم من المصلّى وهو بتلك

(١) البيضاوي ٢/ ١٤ . (٢) التفسير الكبير ٢١/ ١٨١ . (٣) الطبري ١٦/ ٥٢ .

وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾

الصفة ﴿فأوحى إليهم أنْ سبّحوا بكرة وأصيلاً﴾ أي أشار إلى قومه بأن سبّحوا الله في أوائل النهار وأواخره ، وكان كلامه مع الناس بالإشارة لقوله تعالى في آل عمران ﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً﴾ ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾ في الكلام حذفٌ والتقدير فلما ولد يحيى وكبر وبلغ السنَّ الذي يؤمر فيه قال الله له : يا يحيى خذ التوراة بجدٍ واجتهاد ﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾ أي أعطيناه الحكمة ورجاحة العقل منذ الصغر ، روي أن الصبيان قالوا ليحيى : اذهب بنا نلعبْ فقال لهم : ما للَّعب خُلقت ، وقيل : أعطي النبوة منذ الصغر والأول أظهر قال الطبري : المعنى أعطيناه الفهم لكتاب الله في حال صباه قبل بلوغه سن الرجال[1] ﴿وحنَاناً من لدنَّا وزكاةً﴾ أي فعلنا ذلك رحمةً منا بأبويه وعطفاً عليه وتزكيةً له من الخصال الذميمة ﴿وكان تقياً﴾ أي عبداً صالحاً متقياً لله ، لم يهمَّ بمعصيةٍ قط قال ابن عباس : طاهراً لم يعمل بذنب ﴿وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً﴾ أي جعلناه باراً بأبيه وأُمه محسناً إليهما ولم يكن متكبراً عاصياً لربه ﴿وسلامٌ عليه يوم وُلد ويوم يموتُ ويوم يُبعثُ حياً﴾ أي سلام عليه من الله من حين مولده إلى حين مبعثه ، في يوم ولادته وفي يوم موته ويوم يُبعث من قبره قال ابن عطية : حيَّاه في المواطن التي يكون الإنسان فيها في غاية الضعف ، والحاجة ، والافتقار إلى الله[2] ﴿واذكرْ في الكتاب مريم﴾ هذه هي القصة الثانية في هذه السورة وهي أعجب من قصة «ميلاد يحيى» لأنها ولادة عذراء من غير بعل ، وهي أغرب من ولادة عاقرٍ من بعلها الكبير في السن والمعنى اذكر يا محمد قصة مريم العجيبة الغريبة الدالة على كمال قدرة الله ﴿إذِ انتبذتْ من أهلها مكاناً شرقياً﴾ أي حين تنحَّتْ واعتزلت أهلها في مكان شرقيّ بيت المقدس لتتفرغ لعبادة الله ﴿فاتخذتْ من دونهم حجاباً﴾ أي جعلت بينها وبين قومها ستراً وحاجزاً ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾ أي أرسلنا إليها جبريل عليه السلام ﴿فتمثَّل لها بشراً سوياً﴾ أي تصوَّر لها في صورة البشر التام الخلقة قال ابن عباس : جاءها في صورة شاب أبيض الوجه جعْدَ الشعر مستوى الخلقة[3] قال المفسرون : إنما تمثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه ، ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرتْ ولم تقدر على السماع لكلامه ، ودلَّ على عفافها وورعها أنها تعوذت بالله من تلك الصورة الجميلة الفائقة في الحسن[4] ﴿قالت إني أعوذُ بالرحمن منك إن كنتَ تقياً﴾ أي فلما رأته فزعت وخشيتْ أن يكون إنما أرادها بسوء فقالت :إني أحتمي

(١) الطبري ١٦/ ٥٥ . (٢) القرطبي ١١/ ٨٨ . (٣) زاد المسير ٥/ ٢١٧ . (٤) البحر ٦/ ١٨٠ .

قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ * فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾

والتجيء إلى الله منك ، وجواب الشرط محذوفٌ تقديره إن كنت تقياً فاتركني ولا تؤذني **﴿قال إنما أنا رسولُ ربِّك لأهبَ لكِ غلاماً زكياً﴾** أي قال لها جبريل مزيلاً لما حصل عندها من الخوف : ما أنا إلا ملكٌ مرسلٌ من عند الله إليك ليهبَ لك غلاماً طاهراً من الذنوب **﴿قالت أنَّى يكون لي غلام﴾** أي كيف يكون لي غلام ؟ وعلى أيِّ صفةٍ يوجد هذا الغلام مني ؟ **﴿ولم يمسسْني بشرٌ ولم أكُ بغياً﴾** أي ولستُ بذاتِ زوج حتى يأتيني ولد ولستُ بزانية **﴿قال كذلك قال ربُّك هو عليَّ هيّن﴾** أي كذلك الأمر حكم ربُّك بمجيء الغلام منك وإن لم يكن لك زوج ، فإنَّ ذلك على الله سهل يسير **﴿ولنجعله آية للناس ورحمةً منا﴾** أي وليكون مجيئه دلالةً للناس على قدرتنا العجيبة ورحمة لهم ببعثته نبياً يهتدون بإرشاده **﴿وكان أمراً مقضياً﴾** أي وكان وجوده أمراً مفروغاً منه لا يتغيّر ولا يتبدل لأنه في سابق علم الله الأزلي **﴿فحملته فانتبذتْ به مكاناً قصياً﴾** انتهى الحوار بين الروح الأمين ومريم العذراء قال المفسرون : إن جبريل نفخ في جيب درعها فدخلت النفخة في جوفها فحملت به وتنحت إلى مكان بعيد ومعنى الآية أنها حملت بالجنين فاعتزلت ـ وهو في بطنها ـ مكاناً بعيداً عن أهلها خشية أن يعيرّوها بالولادة من غير زوج **﴿فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة﴾** أي فألجأها ألم الطَّلق وشدة الولادة إلى ساق نخلةٍ يابسة لتعتمد عليه عند الولادة **﴿قالت يا ليتني مِتُّ قبل هذا وكنتُ نسْياً منسياً﴾** أي قالت يا ليتني كنت قد مِتُّ قبل هذا اليوم وكنت شيئاً تافهاً لا يُعرف ولا يُذكر[1] قال ابن كثير : عرفت أنها ستُبتلى وتُمتحن بهذا المولود فتمنت الموت لأنها عرفت أن الناس لا يصدقونها في خبرها ، وبعدما كانت عندهم عابدةً ناسكة تصبح عاهرة زانية ولذلك قالت ما قالت[2] **﴿فناداها مِنْ تحتها ألاَّ تحزني﴾** أي فناداها الملك من تحت النخلة قائلاً لها : لا تحزني لهذا الأمر **﴿قد جعل ربُّك تحتكِ سريّاً﴾** أي جعل لك جدولاً صغيراً يجري أمامك قال ابن عباس : ضرب جبريل برجله الأرض فظهرت عين ماءٍ عذب فجرى جدولاً **﴿وهزي إليك بجذع النخلة﴾** أي حركي جذع النخلة اليابسة **﴿تُساقط عليك رُطباً جنياً﴾** أي يتساقط عليك الرُّطب الشهيُّ الطريُّ قال المفسرون : أمرها بهز الجذع اليابس لترى آية أخرى في إحياء موات الجذع بعد رؤيتها عين الماء العذب الذي جرى جدولاً ، وذلك ليسكن ألمها وتعلم أن ذلك كرامةً

(١) هذا قول قتادة وقال ابن عباس ﴿وكنت نسياً منسياً﴾ أي لم أُخلق ولم أك شيئاً . (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ٤٤٨ .

فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾

من الله لها ﴿فكلي واشربي﴾ أي كلي من هذا الرطب الشهي ، واشربي من هذا الماء العذب السلسبيل ﴿وقرّي عيناً﴾ أي طيبي نفساً بهذا المولود ولا تحزني ﴿فإمّا ترينَّ من البشر أحداً﴾ أي فإن رأيتِ أحداً من الناس وسألكِ عن شأن المولود ﴿فقولي إني نذرتُ للرحمن صوماً﴾ أي نذرت السكوتَ والصمت لله تعالى ﴿فلن أكلّم اليوم إنسياً﴾ أي لن أكلّم أحداً من الناس .. أُمِرت بالكفّ عن الكلام ليكفيها ولدها ذلك فتكون آية باهرة ﴿فأتَتْ به قومها تحملُه﴾ أي أتتْ قومها بعد أن طهرت من النفاس تحمل ولدها عيسى على يديها ﴿قالوا يا مريمُ لقد جئتِ شيئاً فرياً﴾ أي فلما رأوها وابنها أعظموا أمرها واستنكروه وقالوا لها : لقد جئتِ شيئاً عظيماً مُنكراً ﴿يا أخت هارونَ ما كان أبوك امرء سوء﴾ أي يا شبيهة هارون في الصلاح والعبادة ما كان أبوكِ رجلاً فاجراً ﴿وما كانت أمُّكِ بغياً﴾ أي وما كانت أُمكِ زانية فكيف صدر هذا منك وأنت من بيتٍ طاهر معروفٍ بالصلاح والعبادة ؟ قال قتادة : كان هارون رجلاً صالحاً في بني إسرائيل مشهوراً بالصلاح فشبهوها[1] به ، وليس بهارون أخي موسى لأن بينهما ما يزيد على ألف عام وقال السهيلي : هارون رجل من عُباد بني إسرائيل المجتهدين كانت مريم تُشبَّه به في اجتهادها وليس بهارون أخي موسى بن عمران فإن بينهما دهراً طويلاً[2] ﴿فأشارت إليه﴾ أي لم تجبهم وأشارت إلى عيسى ليكلموه ويسألوه ﴿قالوا كيف نكلّم من كان في المهد صبياً﴾ أي قالوا متعجبين : كيف نكلم طفلاً رضيعاً لا يزال في السرير يغتذي بلبان أُمه ؟ قال الرازي : روي أنه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه وكلمهم ، ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان[3] ﴿قال إني عبدُ الله﴾ أي قال عيسى في كلامه حين كلمهم : أنا عبدٌ لله خلقني بقدرته من دون أب ، قدّم ذكر العبودية ،ليُبطل قول من ادّعى فيه الربوبية ﴿آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ أي قضى ربي أن يؤتيني الإنجيل ويجعلني نبياً ، وإنما جاء بلفظ الماضي لإفادة تحققه فإن ما حكم به الله أزلاً لا بدَّ إلا أن يقع ﴿وجعلني مباركاً أين ما كنتُ﴾ أي جعل فيَّ البركة والخير والنفع للعباد حيثما كنت وأينما حللت ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمتُ حياً﴾ أي أوصاني بالمحافظة على الصلاة والزكاة مدة حياتي ﴿وبراً بوالدتي﴾ أي وجعلني باراً بوالدتي محسناً لها ﴿ولم يجعلني جباراً شقياً﴾ أي ولم يجعلني

(١) الطبري ١٦/ ٧٧ . (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ٤٥٠ . (٣) التفسيرالكبير ٢١/ ٢٠٨ .

وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٣٦﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٩﴾

متعظماً متكبراً على أحد شقياً في حياتي **﴿والسلام عليَّ يومَ ولدتُ ويوم أموتُ ويوم أُبعث حياً﴾** أي سلام الله عليَّ في يوم ولادتي ، وفي يوم مماتي ، وفي يوم خروجي حياً من قبري ، هذا ما نطق به المسيح عليه السلام وهو طفل رضيع في المهد . . وهكذا يعلن عيسى عبوديته لله ، فليس هو إلهاً ، ولا ابن إله ، ولا ثالث ثلاثة كما يزعم النصارى ، إنما عبدٌ ورسول ، يحيا ويموت كسائر البشر ، خلقه الله من أم دون أب ليكون آية على قدرة الله الباهرة ، ولهذا جاء التعقيب المباشر **﴿ذلك عيسى ابن مريمَ قولَ الحقِّ الذي فيه يمترون﴾** أي ذلك هو القول الحقُّ في عيسى بن مريم لا ما يصفه النصارى من أنه ابن الله ، أو اليهود من أنه ابن زنى ويشكّون في أمره ويمترون **﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد﴾** أي ما ينبغي لله ولا يجوز له أن يتخذ ولداً **﴿سبحانه﴾** أي تنزَّه الله عن الولد والشريك **﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾** أي إذا أراد شيئاً وحكم به قال له كنْ فكان ، ولا يحتاج إلى معاناةٍ أو تعب ، ومن كان هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد ؟ **قال المفسرون** : وهذا كالدليل لما سبق كأنه قال : إن اتخاذ الولد شأن العاجز الضعيف المحتاج الذي لا يقدر على شيء ، وأما القادر الغني الذي يقول للشيء **﴿كن فيكون﴾** فلا يحتاج في اتخاذ الولد إلى إحبال الأنثى وحيث أوجده بقوله **﴿كنْ﴾** لا يسمى ابناً له بل هو عبده ، فهو تبكيتٌ وإلزام لهم بالحجج الباهرة **﴿وإنَّ الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراطٌ مستقيم﴾** أي ومما أمرَ به عيسى قومَه وهو في المهد أن أخبرهم أن الله ربه وربهم فليفردوه بالعبادة هذا هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه **﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾** أي اختلفت الفرق من أهل الكتاب في أمر عيسى وصاروا أحزاباً متفرقين ، فمنهم من يزعم أنه ابن الله ، ومنهم من يزعم أنه ابن زنى **﴿فويلٌ للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾** أي ويلٌ لهم من المشهد الهائل ومن شهود هول الحساب والجزاء **﴿أسْمِعْ بهم وأبصرْ يومَ يأتوننا﴾** أي ما أسمعهم وأبصرهم في ذلك اليوم الرهيب **﴿لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين﴾** أي لكنْ الظالمون في هذه الدنيا في بعدٍ وغفلة عن الحق واضح جلي **﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾** أي أنذر الخلائق وخوّفهم يوم القيامة يوم يتحسر المسيء إذ لم يُحسن، والمقصر إذ لم يزدد من الخير **﴿إذْ قُضي الأمر﴾** أي قُضي أمرُ الله في الناس ، فريقٌ في الجنة وفريق في السعير **﴿وهم في غفلة﴾** أي وهم اليوم في غفلةٍ سادرون **﴿وهم لا يؤمنون﴾** أي لا يصدقون بالبعث والنشور **﴿إنا نحن

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾

نرث الأرض ومـن عليهـا﴾ أي نحن الوارثون للأرض وما عليها من الكنوز والبشر **﴿وإلينـا يُرجعـون﴾** أي مرجع الخلائق ومصيرهم إلينا للحساب والجزاء .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ الكناية **﴿وهـن العظم مني﴾** كناية عن ذهاب القوة وضعف الجسم .

٢ ـ الاستعارة **﴿اشتعل الرأس شيباً﴾** شبّه انتشار الشيب وكثرته باشتعال النار في الحطب واستعير الاشتعال للانتشار واشتق منه اشتعل بمعنى انتشر ففيه استعارة تبعية .

٣ ـ الطباق بين **﴿ولـد . . ويموت﴾** .

٤ ـ جناس الاشتقاق **﴿نادى . . نداءً﴾** .

٥ ـ الكناية اللطيفة **﴿ولم يمسسْني بشر﴾** كناية عن المعاشرة الزوجية بالجماع .

٦ ـ صيغة التعجب **﴿أسمعْ . . وأبصرْ﴾** .

٧ ـ السجع **﴿سريّاً ، بغياً ، صبياً ، نبياً﴾** وهو من المحسنات البديعة .

تـنبيـه : في يوم القيامة تشتد الحسرات حتى لكأن اليوم ممحض للحسرة لا شيء فيه سواها ، وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري أن الرسول ﷺ قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال يا أهل الجنة : هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون ـ أي يمدون أعناقهم ـ وينظرون ويقولون نعم هذا الموت ، ثم يقال يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت ، فيؤمر به فيذبح ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ثم قرأ **﴿وأنذرهم يوم الحسرة . .﴾** الآية) .

* * *

قال الله تعالى : ﴿واذكر في الكتاب إبراهيـم إنه كان صدّيقاً نبياً . . إلى . . هـل تعلـم له سمياً﴾ من آية (٤١) إلى نهاية آية (٦٥) .

المُنَاسَبَة : لما ذكر تعالى « قصة مريم » واختلاف النصارى في شأن عيسى حتى عبدوه من دون الله ، أعقبها بذكر « قصة إبراهيم » وتحطيمه الأصنام لتذكير الناس بما كان عليه خليل الرحمن من توحيد

الربّ الديّان ، وسواء في الضلال من عبد بشراً أو عبد حجراً ، فالنصارى عبدوا المسيح ، ومشركو العرب عبدوا الأوثان .

اللغــة : ﴿صدّيقاً﴾ من أبنية المبالغة ومعناه كثير الصدق ﴿ملياً﴾ دهراً طويلاً من قولهم أمليتُ لفلان في الأمر إذا أطلت له قال الشاعر :

فتصدَّعت شُمُّ الجبال لموته وبكتْ عليه المُرْمِلاتُ مليّاً[1]

﴿حفياً﴾ الحفيُّ : المبالغ في البر واللطف به ﴿خلفٌ﴾ الخلف : بسكون اللام الذي يخلف سلفه بالشر وبفتحها الذي يخلفه بالخير يقال جعلك الله خير خلفٍ لخير سلف وقال الشاعر :

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم وبقيتُ في خَلْف كجلد الأجرب[2]

﴿غياً﴾ : شراً وضلالاً قال أهل اللغة : كل شر عند العرب فهو غي ، وكل خير فهو رشاد .

سَبَبُ النّزول : عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر ممّا تزورنا ؟ فنزلت الآية ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك . .﴾ الآية[3] .

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾

التفسِير : ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم﴾ أي اذكر يا محمد في الكتاب العزيز خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ﴿إنه كان صدِّيقاً نبياً﴾ أي ملازماً للصدق مبالغاً فيه ، جامعاً بين الصّديقية والنبوة والغرضُ تنبيه العرب إلى فضل إبراهيم الذي يزعمون الانتساب إليه ثم يعبدون الأوثان مع أنه إمام الحنفاء وقد جاء بالتوحيد الصافي الذي دعاهم إليه خاتم المرسلين ﴿إذ قال لأبيه يا أبتِ لم تعبدُ ما لا يسمعُ ولا يبصرُ ولا يغني عنك شيئاً﴾ أي ناداه متلطفاً بخطابه ، مستميلاً له نحو الهداية والإيمان ، يا أبتِ لم تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر ، ولا يجلب لك نفعاً أو يدفع عنك ضراً ؟ ﴿يا أبتِ إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك﴾ كرَّر النصح باللطف ولم يصف أباه بالجهل الشنيع في عبادته للأصنام وإنما ترفق وتلطف في كلامه أي جاءني من العلم بالله ومعرفة صفاته القدسية ما لا تعلمه أنت ﴿فاتبعْني أهدك صراطاً سوياً﴾ أي اقبل نصيحتي وأطعني أرشدك إلى طريق مستقيم فيه النجاة من المهالك وهو دين الله الذي لا عوج فيه ﴿يا أبتِ لا تعبد الشيطان﴾ أي لا تطع أمر الشيطان في الكفر وعبادة الأوثان ﴿إن الشيطان كان للرحمن عصياً﴾ أي إن الشيطان عاصٍ للرحمن ، مستكبر على عبادة ربه ، فمن

---

(١) البحر ٦/ ١٩٥ . (٢) البيت للبيد كذا في الرازي ٢١/ ٢٣٥ . (٣) أخرجه البخاري .

يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا

أطاعه أغواه ، قال القرطبي : وإنما عبَّر بالعبادة عن الطاعة لأن من أطاع شيئاً في معصية الله فقد عبده[1] ﴿يا أبتِ إني أخاف أن يمسَّك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً﴾ تحذيرٌ من سوء العاقبة والمعنى أخاف أن تموت على كفرك فيحل بك عذاب الله الأليم وتكون قريناً للشيطان بالخلود في النيران قال الإمام الفخر : وإيراد الكلام بلفظ ﴿يا أبتِ﴾ في كل خطاب دليل على شدة الحب والرغبة في صونه عن العقاب ، وإرشاده إلى الصواب ، وقد رتَّب إبراهيم الكلام في غاية الحسن ، لأنه نبَّهه أولاً إلى بطلان عبادة الأوثان ، ثم أمره باتباعه في الاستدلال وترك التقليد الأعمى ، ثم ذكَّره بأن طاعة الشيطان غير جائزة في العقول ، ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام مع رعاية الأدب والرفق ، وقوله ﴿إني أخاف﴾ دليلٌ على شدة تعلق قلبه بمصالحه قضاءً لحق الأبوَّة[2] ﴿قال أراغبٌ أنتَ عن آلهتي يا إبراهيم﴾ أي قال له أبوه آزر : أتارك يا إبراهيم عبادة آلهتي ومنصرفٌ عنها ؟ استفهامٌ فيه معنى التعجب والإنكار لإعراضه عن عبادة الأوثان كأن ترك عبادتها لا يصدر عن عاقل قال البيضاوي : قابل أبوه استعطافه ولطفه في الإرشاد بالفظاظة وغلظة العناد ، فناداه باسمه ولم يقابل قوله ﴿يا أبتِ﴾ بـ « يا ابني » وقدَّم الخبر وصدَّره بالهمزة لإنكار نفس الرغبة كأنها مما لا يرغب عنها عاقل[3] ، ثم هدَّده بقوله ﴿لئن لم تنتهِ لأرجمنَّك﴾ أي لئن لم تترك شتم وعيب آلهتي لأرجمنك بالحجارة ﴿واهجرني ملياً﴾ أي اهجرني دهراً طويلاً قال السديُّ : أبداً . . بهذه الجهالة تلقى « آزر » الدعوة إلى الهدى ، وبهذه القسوة قابل القول المؤدَّب المهذَّب ،وكذلك شأن الكفر مع الإيمان ، وشأن القلب الذي هذَّبه الإيمان ، والقلب الذي أفسده الطغيان ﴿قال سلامٌ عليكَ سأستغفر لك ربي﴾ أي قال إبراهيم في جوابه : أمَّا أنا فلا ينالك مني أذى ولا مكروه ، ولا أقول لك بعدُ ما يؤذيك لحرمة الأبوَّة ، وسأسأل الله أن يهديك ويغفر لك ذنبك ﴿إنه كان بي حفياً﴾ أي مبالغاً في اللطف بي والاعتناء بشأني ﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾ أي أترككم وما تعبدون من الأوثان وأرتحل عن دياركم ﴿وأدعو ربي﴾ أي وأعبد ربي وحده مخلصاً له العبادة ﴿عسى ألاّ أكون بدعاء ربي شقياً﴾ أي راجياً بسبب إخلاصي العبادة له ألاَّ يجعلني شقياً ، وفيه تعريضٌ بشقاوتهم بدعاء آلهتهم . . وهكذا اعتزل إبراهيم أباه وقومه وعبادتهم للأوثان ، وهجر الأهلَ والأوطان ، فلم يتركه الله وحيداً بل وهب له ذريةً وعوَّضه خيراً ﴿فلما اعتزلهم

(١) القرطبي ١١/ ١١١ . (٢) التفسير الكبير ٢١/ ٢٢٦ . (٣) البيضاوي ٢/ ١٧ .

وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ۚ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ

وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب﴾ قال المفسرون : لما هاجر إبراهيم إلى أرض الشام ، واعتزل أباه وقومه في الله ، أبدله الله من هو خيرٌ منهم ، فوهب له إسحق ويعقوب أولاداً أنبياء ، فأنس الله بهما وحشته عن فراق قومه بأولئك الأولاد الأطهار ، ويعقوبُ ابن اسحق ، وهما شجرتا الأنبياء فقد جاء من نسلهما أنبياء بني إسرائيل **قال ابن كثير** : المعنى جعلنا له نسلاً وعقباً أنبياء ، أقرَّ الله بهم عينه في حياته بالنبوة[1] ولهذا قال **﴿وكلاً جعلنا نبياً﴾** أي كل واحدٍ منهما جعلناه نبياً **﴿ووهبنا لهم من رحمتنا﴾** أي أعطينا الجميعَ - إبراهيم وإسحق ويعقوب - كل الخير الديني والدنيوي ، من المال والولد والعلم والعمل **﴿وجعلنا لهم لسان صدقٍ علياً﴾** أي جعلنا لهم ذكراً حسناً في الناس ، لأن جميع أهل الملل والأديان يثنون عليهم لما لهم من الخصال المرضية ، ويُصلون على إبراهيم وعلى آله إلى قيام الساعة ، **قال الطبري** : أي رزقناهم الثناء الحسن ، والذكر الجميل في الناس[2] **﴿واذكر في الكتاب موسى﴾** أي اذكر يا محمد لقومك في القرآن العظيم خبر موسى الكليم **﴿إنه كان مُخلَصاً﴾** أي استخلصه الله لنفسه ، واصطفاه من بين الخلق لكلامه **﴿وكان رسولاً نبياً﴾** أي من الرسل الكبار ، والأنبياء الأطهار ، جمع الله له بين الوصفين الجليلين ، وإنما أعاد لفظ « كان » لتفخيم شأن النبي المذكور **﴿وناديناه من جانب الطور الأيمن﴾** أي نادينا موسى من جهة جبل الطور من ناحية اليمين حين كلمناه بلا واسطة **﴿وقربناه نجياً﴾** أي أدْنيناه للمناجاة حين كلمناه **قال ابن عباس** : أُدني موسى من الملكوت ورُفعت له الحُجُب حتى سمع صريف الأقلام[3] **قال الزمخشري** : شبّهه بمن قرَّبه بعض العظماء للمناجاة حيث كلَّمه بغير واسطة ملك **﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾** أي وهبنا له من نعمتنا عليه أخاه هارون فجعلناه نبياً إجابة لدعائه حين قال ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي ﴾ جعلناه له عضُداً وناصراً ومعيناً **﴿واذكر في الكتاب اسماعيل﴾** أي اذكر يا محمد في القرآن العظيم خبر جدّك « إسماعيل » الذبيح ابن إبراهيم ، وهو أبو العرب جميعاً **﴿إنه كان صادق الوعد﴾** أي كان صادقاً في وعده ، لا يعد بوعدٍ إلا وفى به **قال المفسرون** : وذُكر بصدق الوعد وإن كان موجوداً في غيره من الأنبياء تشريفاً وإكراماً ، ولأنه عانى في الوفاء بالوعد ما لم يعانه غيره من الأنبياء ، فمن مواعيده الصبر وتسليم نفسه للذبح فلذلك أثنى الله عليه **﴿وكان رسولاً نبياً﴾** أي جمع الله له بين الرسالة والنبوة **قال ابن كثير** : وفي الآية دليل على شرف إسماعيل على أخيه إسحق لأنه إنما وُصف بالنبوة فقط ، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة[4] ، ومن إسماعيل جاء خاتم المرسلين محمد ﷺ **﴿وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة﴾** أي كان

(١) المختصر ٢/٤٥٤ . (٢) الطبري ١٦/٩٣ . (٣) البحر ٦/١٩٩ . (٤) المختصر ٢/٤٥٦ .

رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾

يحث أهله على طاعة الله ، وبخاصة الصلاة التي هي عماد الدين ، والزكاة التي بها تتحقق سعادة المجتمع ﴿وكان عند ربه مرضياً﴾ أي نال رضى الله قال الرازي : وهذا نهاية المدح لأن المرضيَّ عند الله هو الفائز في كل طاعاته بأعلى الدرجات[١] ﴿واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صدّيقاً نبياً﴾ أي اذكر يا محمد في الكتاب الجليل خبر إدريس إنه كان ملازماً للصدق في جميع أحواله ، موحىً إليه من الله **قال المفسرون** : إدريس هو جدُّ نوح ، وأول مرسل بعد آدم ، وأول من خطَّ بالقلم ولبس المخيط ، وكانوا من قبل يلبسون الجلود ، وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ أي رفعنا ذكره وأعلينا قدره ، بشرف النبوة والزلفى عند الله[٢] ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين﴾ أي أولئك المذكورون هم أنبياء الله ورسله الكرام ، الذين قصصنا عليك خبرهم في هذه السورة - وهم عشرة أولهم زكريا وآخرهم إدريس - وهم الذين أنعم الله عليهم بشرف النبوة ﴿من ذرية آدم﴾ أي من نسل آدم كإدريس ﴿وممن حملنا مع نوح﴾ كإبراهيم فإنه من ذرية سام بن نوح ﴿ومن ذرية إبراهيم﴾ كإسماعيل وإسحق ويعقوب ﴿وإسرائيل﴾ أي ومن ذرية إسرائيل وهو « يعقوب » كموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ﴿وممن هدينا واجتبينا﴾ أي وممن هديناهم للإيمان واصطفيناهم لرسالتنا ووحينا ﴿إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرُّوا سُجَّداً وبكياً﴾ أي إذا سمعوا كلام الله سجدوا وبكوا من خشية الله مع ما لهم من علو الرتبة ، وسموِّ النفس ، والزلفى من الله تعالى ،**قال القرطبي** : وفي الآية دلالة على أن لآياتِ الرحمن تأثيراً في القلوب[٣] ﴿فخلف من بعدهم خلفٌ أضاعوا الصلاة واتَّبعوا الشهوات﴾ أي جاء من بعد هؤلاء الأتقياء قومٌ أشقياء ، تركوا الصلوات وسلكوا طريق الشهوات ﴿فسوف يلقون غياً﴾ أي سوف يلقون كل شرٍّ وخسارٍ ودمار ، **قال ابن عباس** : غيٌّ وادٍ في جهنم ، وإن أودية جهنم لتستعيذ بالله من حره[٤] ﴿إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً﴾ أي إلا من تاب وأناب وأصلح عمله ﴿فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمون شيئاً﴾ أي فأولئك يُسعدون في الجنة ولا يُنقصون من جزاء أعمالهم شيئاً ﴿جناتِ عدنٍ التي وعد الرحمن عباده بالغيب﴾ أي هي جنات إقامة التي وعدهم بها

(١) الفخر الرازي ٢١/ ٢٣٢ . (٢) وقيل المراد رفعه إلى السماء الرابعة .
(٣) القرطبي ١١/ ١٢٠ . (٤) القرطبي ١١/ ١٢٥ .

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾

ربهم فآمنوا بها بالغيب قبل أن يروها تصديقاً بوعده تعالى ﴿إنه كان وعده مأتياً﴾ أي إن وعده تعالى بالجنة آتٍ وحاصلٌ لا يُخلف ﴿لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً﴾ أي لا يسمعون في الجنة شيئاً من فضول الكلام ، لكنْ يسمعون تسليم الملائكة عليهم على وجه التحية والإكرام ، والاستثناء منقطع ﴿ولهم رزقُهم فيها بكرةً وعشياً﴾ أي ولهم ما يشتهون في الجنة من أنواع المطاعم والمشارب بدون كدٍّ ولا تعب ، ولا تنغصٍ ولا انقطاع ﴿تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً﴾ أي هذه الجنة التي وصفنا أحوال أهلها هي التي نورثها لعبادنا المتقين ﴿وما نتنزّل إلا بأمر ربك﴾ هذا من كلام جبريل لرسول الله ﷺ حين احتبس عنه فترةً من الزمن والمعنى : ما نتنزَّل إلى الدنيا إلا بأمر الله وإذنه ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك﴾ أي لله جل وعلا جميع الأمر ، أمر الدنيا والآخرة ، وهو المحيط بكل شيء لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة ، فكيف نقدم على فعل شيء إلا بأمره وإذنه ؟ ﴿وما كان ربك نسياً﴾ أي لا ينسى شيئاً من أعمال العباد ﴿ربُّ السموات والأرض وما بينهما فاعبدْه﴾ أي هو ربُّ العوالم علويها وسفليها فاعبده وحده ﴿واصطبرْ لعبادته﴾ أي اصبر على تكاليف العبادة ﴿هل تعلم له سمياً﴾ أي هل تعلم له شبيهاً ونظيراً ؟

البَلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الكناية اللطيفة ﴿وجعلنا لهم لسان صدقٍ علياً﴾ كنَّى عن الذكر الحسن والثناء الجميل باللسان لأن الثناء يكون باللسان فلذلك قال ﴿لسان صدق﴾ كما يكنى عن العطاء باليد .

٢ ـ الاستعارة ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ شبَّه المكانة العظيمة والمنزلة السامية بالمكان العالي بطريق الاستعارة .

٣ ـ المبالغة ﴿صدّيقاً نبياً﴾ أي مبالغاً في الصدق .

٤ ـ الإشارة بالبعيد لعلو الرتبة ﴿أولئك الذين أنعم﴾ فما فيه من معنى البعد للإشادة بعلو رتبهم وبُعد منزلتهم في الفضل .

٥ ـ الجناس الناقص ﴿خَلَف من بعدهم خلْفٌ﴾ لتغير الحركات والشكل .

٦ ـ الطباق ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا﴾ وبين ﴿بكرةً .. وعشياً﴾ .

٧ ـ السجع الحسن الرصين ﴿علياً ، حفياً ، نبياً﴾ .

فَائِدَة : في قول إبراهيم عليه السلام « يا أبتِ » تلطفٌ واستدعاء ، والتاء عوضٌ عن ياء الإضافة لأن أصله « يا أبي » ولهذا لا يُجمع بينهما .

تنبيه : ذكر السيوطي في التحبير أن إبراهيم عليه السلام عاش من العمر مائة وخمساً وسبعين سنة ، وبينه وبين آدم ألفا سنة ، وبينه وبين نوح ألف سنة ، ومنه تفرعت شجرة الأنبياء .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ويقول الإنسان أئذا ما متُّ لسوف أُخرج حياً .. إلى .. أو تسمع لهم ركزاً﴾ من آية (٦٦) إلى آية (٩٨) نهاية السورة .

المَنَاسَبَة : لما ذكر تعالى طائفةً من قصص الأنبياء للعظة والاعتبار ، وكان الغرضُ الأساسي للسورة الكريمة إثبات قدرة الله على الإحياء والإفناء ، وإثباتُ يوم المعاد ، ذكر تعالى هنا بعض شبهات المكذبين للبعث والنشور وردَّ عليها بالحجج القاطعة ، والبراهين الساطعة ، وختم السورة الكريمة ببيان مآل السعداء والأشقياء .

اللغَة : ﴿جثيّاً﴾ جمع جاثٍ يقال : جثا إذا قعد على ركبتيه من شدة الهول وهي قعدة الخائف الذليل قال الكُميت :

هُمُو تركوا سراتُهم جثيّاً وهم دُونَ السَّراة مقرَّنينا[1]

﴿عِتيّاً﴾ عصياناً وتمرداً عن الحق ﴿ندياً﴾ النديُّ والنادي : الذي يجتمع فيه القوم للتحدث والمشورة قال الجوهري : النديُّ مجلس القوم ومتحدثهم وكذلك الندوة والنادي فإن تفرقوا فليس بندي[2] ﴿أثاثاً﴾ الأثاث : متاع البيت ﴿رئياً﴾ منظراً حسناً ﴿تؤزهم﴾ الأزُّ : التهييجُ والإغراء ، قال أهل اللغة : الأزُّ والهزُّ والاستفزاز متقاربة ومعناها التهييج وشدة الإزعاج ومنه أزيز المِرجل وهو غليانه وحركته ﴿وفداً﴾ جمع وافد وهو الذي يقدم على سبيل التكرمة معزَّزاً مكرَّماً ﴿ورداً﴾ مشاةً عطاشاً قال الرازي : والورد اسم للعطاش لأن من يرد الماء لا يرده إلا للعطش[3] ﴿إدّاً﴾ منكراً عظيماً قال الجوهري : الإدُّ : الداهية والأمر الفظيع ﴿ركزاً﴾ الركز : الصوت الخفي .

سَبَبُ النّزول : عن خباب بن الأرت قال : كنتُ رجلاً قيناً ـ أي حداداً ـ وكان لي على العاص بن وائل دينٌ فأتيتُه أتقاضاه فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد

(١) القرطبي ١١/١٣٣ . (٢) الصحاح للجوهري . (٣) التفسير الكبير ٢١/٢٥٢ .

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾

حتى تموت ثم تبعث ـ أي تموت الآن وتبعث أمامي وهذا من باب المستحيل ـ قال : فإني إذا متُّ ثم بُعثتُ جئتني ولي ثمَّ مالٌ فأعطيتك فأنزل الله ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأُوتينَّ مالاً وولداً﴾[1] .

التفسير : **﴿ويقول الإنسان أئذا ما مِتُّ لسوف أُخرج حياً﴾** أي يقول الكافر الذي لا يصدق بالبعث بعد الموت على وجه الإنكار والاستبعاد : أئذا متُّ وأصبحتُ تراباً ورفاتاً فسوف أُخرج من القبر حياً ؟ قال ابن كثير : يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته[2] ، واللام « لسوف » للمبالغة في الإنكار ، وهو إنكار منشؤه غفلة الإنسان عن نشأته الأولى ، أين كان ؟ وكيف كان ؟ ولو تذكّر لعلم أن الأمر أيسر مما يتصور **﴿أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبلُ ولم يك شيئاً﴾** أي أَولاَ يتذكر هذا المكذّب الجاحد أول خلقه فيستدل بالبداءة على الإعادة ؟ ويعلم أن الله الذي خلقه من العدم قادرٌ على أن يعيده بعد الفناء وتشتت الأجزاء ؟ قال بعضُ العلماء : لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حجةٍ في البعث على هذا الاختصار لما قدروا عليها ، إذْ لا شكَّ أنَّ الإعادة ثانياً أهونُ من الإيجاد أولاً[3] ، ونظيره قوله **﴿قل يُحييها الذي أنشأها أول مرة﴾** **﴿فوربك لنحشرنَّهم والشياطين﴾** أي فوربك يا محمد لنحشرنَّ هؤلاء المكذبين بالبعث مع الشياطين الذين أغووهم قال المفسرون : يُحشر كل كافر مع شيطان في سلسلة **﴿ثم لنحضرنهم حول جهنَّم جثيّاً﴾** أي نحضر هؤلاء المجرمين حول جهنم قعوداً على الركب من شدة الهول والفزع ، لا يطيقون القيام على أرجلهم لما يدهمهم من شدة الأمر **﴿ثم لننزعنَّ من كل شيعة﴾** أي لنأخذنَّ ولننتزعنَّ من كل فرقةٍ وجماعة ارتبطت بمذهب **﴿أيُّهم أشدُّ على الرحمن عتياً﴾** أي من منهم أعصى لله وأشد تمرداً ، والمراد أنه يؤخذ من هؤلاء المجرمين ليقذف في جهنم الأعتى فالأعتى قال ابن مسعود : يُبدأ بالأكابر جرماً **﴿ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً﴾** أي نحن أعلم بمن هم أحق بدخول النار والاصطلاء بحرها وبمن يستحق تضعيف العذاب فنبدأ بهم **﴿وإن منكم إلا واردها﴾** أي ما منكم أحدٌ من برٍ أو فاجر ألاّ وسيرد على النار ، المؤمن للعبور والكافر للقرار **﴿كان على ربك حتماً مقضياً﴾** أي كان ذلك الورود[4] قضاءً لازماً لا يمكن خُلفه **﴿ثم نُنجّي الذين اتَّقوا﴾** أي ننجّي

---

(١) البخاري ومسلم وانظر سبب النزول ص ١٧٣ . (٢) المختصر ٢/ ٤٦٠ . (٣) الفخر الرازي ٢١/ ٢٤١ .

(٤) اختلف علماء السلف في معنى الورود فقال ابن عباس : الورود الدخول ، لا يبقى برٌّ ولا فاجر إلاَّ دخلها فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم ، وقال ابن مسعود وقتادة : الورود : المرور عليها حين اجتياز الصراط ، ولعل هذا القول أصح أجارنا الله من جهنم .

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (٧٤) قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ۗ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧)﴾

من جهنم المتقين بعد مرور الجميع عليها ﴿**ونذر الظالمين فيها جثياً**﴾ أي ونترك الظالمين في جهنم قعوداً على الركب قال **البيضاوي** : والآية دليلٌ على أن المراد بالورود الجثوُّ حواليها ، وأن المؤمنين يفارقون الفجرة إلى الجنة بعد نجاتهم ، ويبقى الفجرة فيها على هيئاتهم[١] ﴿**وإذا تُتلى عليهم آياتنا بينات**﴾ أي وإذا قرئت على المشركين آيات القرآن المبين ، واضحات الإعجاز ، بينات المعاني ﴿**قال الذين كفروا للذين آمنوا أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسنُ ندياً**﴾ أي قال الكفرة المترفون لفقراء المؤمنين أيُّ الفريقين : ـ نحن أو أنتم ـ أحسنُ مسكناً ، وأطيب عيشاً ، وأكرم منتدى ومجلساً ؟ قال **البيضاوي** : إن المشركين لما سمعوا الآيات الواضحات وعجزوا عن معارضتها ، أخذوا في الافتخار بما لهم من حظوظ الدنيا ، والاستدلال بزيادة حظهم فيها على فضلهم وحسن حالهم لقصور نظرهم[٢] ، فردَّ الله عليهم بقوله ﴿**وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورئياً**﴾ أي وكثير من الأمم المكذبين بآياتنا أهلكناهم بكفرهم كانوا أكثر من هؤلاء متاعاً ، وأجمل صورةً ومنظراً ، فكما أهلكنا السابقين نهلك اللاحقين ، فلا يغترَّ هؤلاء بما لديهم من النعيم والمتاع ﴿**قلْ من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً**﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أنهم على حق : من كان في الضلالة منا ومنكم فليمهله الرحمن فيما هو فيه ، وليدعْه في طغيانه ، حتى يلقى ربه وينقضي أجله قال **القرطبي** : وهذا غايةٌ في التهديد والوعيد[٣] ﴿**حتى إذا رأوا ما يُوعدون**﴾ أي حتى يروا ما يحلُّ بهم من وعد الله ﴿**إمَّا العذاب وإمَّا الساعة**﴾ أي إمَّا عذاب الدنيا بالقتل والأسر ، أو عذاب الآخرة بما ينالهم يوم القيامة من الشدائد والأهوال ﴿**فسيعلمون من هو شرٌّ مكاناً وأضعفُ جنداً**﴾ أي فسيعلمون عندئذ حين تنكشف الحقائق أي الفريقين شرٌّ منزلة عند الله ، وأقل فئة وأنصاراً ، هل هم الكفار أم المؤمنون ؟ وهذا في مقابلة قولهم ﴿خير مقاماً وأحسن ندياً﴾ ﴿**ويزيد اللهُ الذين اهتدوا هُدىً**﴾ أي ويزيد الله المؤمنين المهتدين ، بصيرةً وإيماناً وهداية ﴿**والباقيات الصالحاتُ خيرٌ عند ربك ثواباً**﴾ أي والأعمال الصالحة التي تبقى لصاحبها ذخراً في الآخرة خير عند الله من كل ما يتباهى به أهل الأرض من حيث الأجر والثواب ﴿**وخيرٌ مرداً**﴾ أي وخير رجوعاً وعاقبة ، فإن نعيم الدنيا زائل ونعيم الآخرة باقٍ دائم ﴿**أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأُوتينَّ**

(١) البيضاوي ٢/ ١٩ . (٢) البيضاوي ٢/ ٢٠ . (٣) القرطبي ١١/ ١٤٤ .

أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

مالاً وولداً﴾ نزلت في العاص بن وائل[1] ، والاستفهام للتعجب أي تعجَّب يا محمد من قصة هذا الكافر الذي جحد بآيات الله وزعم أن الله سيعطيه في الآخرة المال والبنين **﴿اطَّلع الغيب﴾** أي هل اطَّلع على الغيب الذي تفرَّد به علاّم الغيوب ؟ **﴿أم اتَّخذ عند الرحمن عهداً﴾** أي أم أعطاه الله عهداً بذلك فهو يتكلم عن ثقةٍ ويقين ؟ **﴿كلاَّ سنكتب ما يقول﴾** ردٌّ عليه ، ولفظةُ « كلاَّ » للردع والزجر أي ليرتدع ذلك الفاجر عن تلك المقالة الشنيعة فسنكتب ما يقول عليه **﴿ونمُدُّ له من العذاب مدّاً﴾** أي سنزيد له في العذاب ونطيله عليه جزاء طغيانه واستهزائه ، ونضاعف له مدد العذاب مكان الإمداد بالمال والولد **﴿ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً﴾** أي ونرثه ما يخلفه من المال والولد بعد إهلاكه ، ويأتينا وحيداً لا مال معه ولا ولد ، ولا نصير له ولا سند **﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً﴾** أي واتخذ المشركون أصناماً عبدوها من دون الله لينالوا بها العزَّ والشرف **﴿كلاَّ سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾** أي ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا فإن الآلهة التي عبدوها ستبرأ من عبادتهم ويكونون لهم أعداء يوم القيامة **﴿ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزُّهم أزّاً﴾** أي ألم تر يا محمد أنَّا سلَّطنا الشياطين على الكافرين تُغريهم إغراءً بالشر ، وتهيّجُهم تهييجاً حتى يركبوا المعاصي قال الرازي : أي تغريهم على المعاصي وتحثُّهم وتهيّجهم لها بالوساوس والتسويلات[2] **﴿فلا تعجلْ عليهم إنما نعُدُّ لهم عداً﴾** أي لا تتعجل يا محمد في طلب هلاكهم فإنه لم يبق لهم إلا أيام وأنفاس نعدُّها عليهم عداً ثم يصيرون إلى عذاب شديد قال ابن عباس : نعدُّ أنفاسهم في الدنيا كما نعدُّ عليهم سنيَّهم[3] **﴿يوم نحشرُ المتقينَ إلى الرحمن وفداً﴾** أي يوم نحشر المتقين إلى ربهم معزَّزين مكرَّمين ، راكبين على النوق كما يفد الوفود على الملوك منتظرين لكرامتهم وإنعامهم **﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾** أي ونسوق المجرمين كما تُساق البهائم مشاةً عطاشاً كأنهم إبلٌ عطاش تُساق إلى الماء وفي الحديث (يُحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق : راغبين ، وراهبين ، واثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير ، وتُحشر بقيتهم إلى النار ، تقيل معهم حيث قالوا ، وتبيت معهم حيث باتوا)[4] **﴿لا يملكون الشفاعة﴾** أي لا يشفعون ولا يُشفع لهم **﴿إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾** الاستثناء منقطع أي لكنْ من تحلَّى بالإيمان

(١) انظر سبب النزول المتقدم . (٢) التفسير الكبير ٢١/٢٥٢ . (٣) القرطبي ١١/١٥٠ . (٤) أخرجه الشيخان .

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾

والعمل الصالح فإنه يملك الشفاعة قال ابن عباس : العهدُ « شهادة أن لا إله إلا الله » **﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً﴾** أي اليهود والنصارى ومن زعم أن الملائكة بنات الله **﴿لقد جئتم شيئاً إدّاً﴾** أي لقد أتيتم أيها المشركون بقولٍ منكر عظيم تناهى في القبح والشناعة **﴿تكاد السموات يتفطَّرن منه﴾** أي تكاد السموات تتشقّق من هول هذا القول **﴿وتنشقُّ الأرض وتخرُّ الجبالُ هدّاً﴾** أي وتنشقُّ كذلك الأرض وتندكُّ الجبال وتُهدُّ هداً استعظاماً للكلمة الشنيعة **﴿أن دعوا للرحمن ولداً﴾** أي ما يليق به سبحانه اتخاذ الولد ، لأن الولد يقتضي المجانسة ويكون عن حاجة ، وهو المنزّه عن الشبيه والنظير ، والغني عن المعين والنصير **﴿إنْ كلُّ من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً﴾** أي ما من مخلوقٍ في العالم العلوي والسفلي إلا وهو عبدٌ لله ، ذليلٌ خاضعٌ بين يديه ، منقادٌ مطيع له كما يفعل العبيد **﴿لقد أحصاهم وعدَّهم عدّاً﴾** أي علم عددهم وأحاط علمه بهم فلا يخفى عليه شيء من أمورهم **﴿وكلُّهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾** أي وكل فردٍ يأتي يوم القيامة وحيداً فريداً ، بلا مالٍ ولا نصير ، ولا معين ولا خفير **﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدّاً﴾** لما ذكر أحوال المجرمين ذكر أحوال المؤمنين والمعنى سيحدث لهم في قلوب عباده الصالحين محبةً ومودة قال الربيع : يحبُّهم ويحببهم إلى الناس **﴿فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتُنذر به قوماً لُدّاً﴾** أي فإنما يسرنا يا محمد هذا القرآن بلسانك العربي تقرأه ، وجعلناه سهلاً يسيراً لمن تدبره ، لتبشّر به المؤمنين المتقين ، وتخوّف به قوماً معاندين شديدي الخصومة والجدال **﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾** أي كم من الأمم الماضية أهلكناهم بتكذيبهم الرسل ، و« كم » للتكثير **﴿هل تُحسُّ منهم من أحد﴾** أي هل ترى منهم أحداً ؟ **﴿أو تسمع لهم ركزاً﴾** أي أو تسمع لهم صوتاً خفياً ؟ والمعنى أنهم بادوا وهلكوا وخلت منهم الديار ، وأوحشت منهم المنازل ، فكما أهلكنا أولئك نهلك هؤلاء .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ ذكر العام وإرادة الخاص **﴿ويقول الإنسان﴾** المراد به الكافر لأنه هو المنكر للبعث .

٢ ـ الطباق بين **﴿متُّ . وحياً﴾** وبين **﴿تبشر . . وتنذر﴾** .

٣ ـ الاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿أو لا يذكر الإنسان﴾ .

٤ ـ المقابلة اللطيفة بين المتقين والمجرمين وبين حال الأبرار والأشرار ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾ .

٥ ـ الجناس غير التام ﴿وفداً . . ورداً﴾ لتغير الحرف الثاني .

٦ ـ اللف والنشر المرتب في ﴿شرٌّ مكاناً وأضعف جنداً﴾ حيث رجع الأول إلى ﴿خيرٌ مقاماً﴾ والثاني إلى ﴿وأحسن ندياً﴾ كما يوجد بين ﴿خيرٌ . . وشرٌّ﴾ طباق .

٧ ـ المجاز العقلي ﴿سنكتب ما يقول﴾ أي نأمر الملائكة بالكتابة فهو من إسناد الشيء إلى سببه .

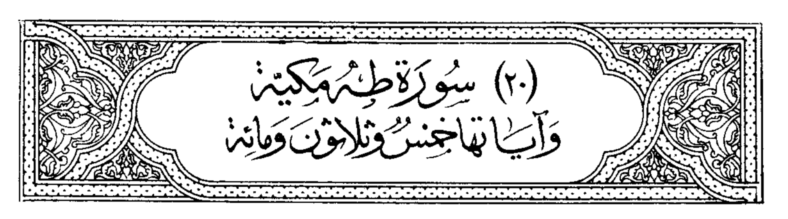
٨ ـ السجع الرصين مثل ﴿عبداً . عدّاً، فرداً، وُدّاً﴾ وهو من المحسنات البديعية .

فـائـدة : أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله تعالى إذا أحبَّ عبداً دعا جبريل فقال : إني أحبُ فلاناً فأحبَّه فيحبُّه جبريل ، ثم ينادي في السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء . .) الحديث وهو مصداق قوله تعالى ﴿سيجعل لهم الرحمن وُدّاً﴾ .

لطيفـة : روي أن المأمون قرأ هذه الآية ﴿فلا تعجل عليهم إنما نعدُّ لهم عداً﴾ وعنده جماعة من الفقهاء فيهم ابن السماك فأشار إليه المأمون أن يعظه فقال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ، ولم يكن لها مدد ، فما أسرع ما تنفد قال الشاعر :

حياتكَ أنفاسٌ تُعدُّ فكلما ... مضى نفس منك انتقصت به جزءاً

« تم بعونه تعالى تفسير سورة مريم »



بين يدي السورة

سورة طه مكية ، وهي تبحث عن نفس الأهداف للسور المكية ، وغرضُها تركيز أصول الدين « التوحيد ، والنبوة ، والبعث والنشور » .

* في هذه السورة الكريمة تظهر شخصية الرسول ﷺ ، في شدّ أزره ، وتقوية روحه ، حتى لا يتأثر بما يُلقى إليه من الكيد والعناد ، والاستهزاء والتكذيب ، ولإرشاده إلى وظيفته الاساسية ، وهي التبليغ والتذكير ، والإنذار والتبشير ، وليس عليه أن يجبر الناس على الإيمان .

* عرضت السورة لقصص الأنبياء ، تسلية لرسول الله ﷺ وتطميناً لقلبه الشريف ، فذكرت بالتفصيل قصة « موسى وهارون » مع فرعون الطاغية الجبار ويكاد يكون معظم السورة في الحديث عنها وبالأخص موقف المناجاة بين موسى وربه ، وموقف تكليفه بالرسالة ، وموقف الجدال بين موسى وفرعون ، وموقف المبارزة بينه وبين السحرة ، وتتجلى في ثنايا تلك القصة رعايةُ الله لموسى ، نبيّه وكليمه ، وإهلاك الله لأعدائه الكفرة المجرمين .

* وعرضت السورة لقصة آدم بشكل سريع خاطف ، برزت فيه رحمة الله لآدم بعد الخطيئة ، وهدايته لذريته بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين ، ثم ترك الخيار لهم لاختيار طريق الخير أو الشر .

* وفي ثنايا السورة الكريمة تبرز بعض مشاهد القيامة ، في عبارات يرتجف لها الكون ، وتهتز لها القلوب هَلَعاً وجزعاً ، ويعتري الناس الذهولُ والسكون ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ﴾.

* وعرضت السورة ليوم الحشر الأكبر ، حيث يتم الحساب العادل ، ويعود الطائعون إلى الجنة ، ويذهب العصاة إلى النار ، تصديقاً لوعد الله الذي لا يتخلف ، بإثابة المؤمنين وعقاب المجرمين .

* وختمت ببعض التوجيهات الربانية للرسول ﷺ في الصبر وتحمل الأذى في سبيل الله حتى يأتي نصر الله .

التسمية : سميت « سورة طه » وهو اسم من أسمائه الشريفة عليه الصلاة والسلام ، تطييباً لقلبه ،

وتسليةً لفؤاده عما يلقاه من صدود وعناد ، ولهذا ابتدأت السورة بملاطفته بالنداء ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ .

اللغــة : ﴿بقبس﴾ القَبَسُ : شعلةٌ من نار ﴿المقدَّس﴾ المطهَّر والمبارك ﴿طُوى﴾ اسم للوادي ﴿فتردى﴾ تهلك والردى : الهلاك ﴿أهشُّ﴾ أخبط بها الشجر ليسقط الورق ﴿مآرب﴾ جمع مأربة وهي الحاجة ﴿جناحك﴾ الجناح : الجَنب وجناحا الإنسان جنباه لأن يدي الإنسان يشبهان جناحي الطائر ﴿أزْري﴾ الأزر : القوة يقال : آزره أي قوّاه ومنه﴿ فآزره فاستغلظ﴾قال الشاعر :

أليس أبونا هاشمٌ شدَّ أَزْره وأوصى بَنيه بالطِّعان وبالضرب[١]

﴿اليمُّ﴾ البحر ﴿تقرَّ عينها﴾ تُسرَّ بلقائك .

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ

التفسير : ﴿**طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى**﴾ الحروف المقطعة للتنبيه إلى إعجاز القرآن[٢] وقال ابن عباس : معناها يا رجل ، ومعنى الآية : ما أنزلنا عليك يا محمد القرآن لتشقى به إنما أنزلناه رحمة وسعادة ، رُوي أن رسول الله ﷺ لما نزل عليه القرآن صلّى هو وأصحابه فأطال القيام فقالت قريش : ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى فنزلت هذه الآية[٣] ﴿**إلا تذكرةً لمن يخشى**﴾ أي ما أنزلناه إلا عظة وتذكيراً لمن يخشى الله ويخاف عقابه ، وهو المؤمنُ المستنير بنور القرآن ﴿**تنزيلاً ممّن خلق الأرضَ والسمواتِ العُلى**﴾ أي أنزله خالقُ الأرض ، ومبدعُ الكون ، ورافع السموات الواسعة العالية ، والآية إخبارٌ عن عظمته وجبروته وجلاله قال في البحر : ووصفُ السموات بالعُلى دليلٌ على عظمة قدرة من اخترعها إذ لا يمكن وجود مثلها في علوِّها من غيره تعالى[٤] ﴿**الرحمنُ على العرْش استوى**﴾ أي ذلك الربُّ الموصوف بصفات الكمال والجمال هو الرحمن الذي استوى على عرشه استواءً يليق بجلاله من غير تجسيمٍ ، ولاتشبيه ،ولا تعطيل ، ولا تمثيل كما هو مذهب السلف[٥] ﴿**له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى**﴾ أي له سبحانه ما في الوجود كلّه : السمواتُ السبعُ ، والأرضون وما بينهما من المخلوقات وما تحت التراب من معادن ومكنونات ، الكلُّ ملكُه وتحت تصرفه وقهره وسلطانه أي وإن تجهرْ يا محمد بالقول أو ﴿**وإن تجهرْ بالقولِ فإنه يعلم السرَّ وأخفى**﴾

(١) البيت لأبي طالب وانظر القرطبي ١١/١٩٣ . (٢) انظر أول سورة البقرة . (٣) هذا قول الضحاك وانظر زاد المسير ٥/٢٦٨ .
(٤) البحر ٦/٢٢٦ . (٥) انظر أقوال السلف الصالح في سورة الأعراف والرعد .

حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾

تخفه في نفسك فسواءٌ عند ربك ، فإنه يعلم السرَّ وما هو أخفى منه كالوسوسة والهاجس والخاطر . . والغرضُ من الآية طمأنينة قلبه عليه السلام بأن ربه معه يسمعه ، ولن يتركه وحيداً يواجه الكافرين بلا سند فإذا كان يدعوه جهراً فإنه يعلم السرَّ وما هو أخفى ، والقلب حين يستشعر قرب الله منه ، وعلمه بسرِّه ونجواه يطمئن ويرضى ويأنس بهذا القرب الكريم ﴿**اللهُ لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى**﴾ أي ربكم هو الله المتفرد بالوحدانية ، لا معبود بحق سواه ، ذو الأسماء الحسنة التي هي في غاية الحُسن وفي الحديث (إن للّهِ تسعةً وتسعين اسماً ، من أحصاها دخل الجنة)[1] ﴿**وهل أتاك حديث موسى**﴾ الاستفهام للتقرير وغرضه التشويق لما يُلقى إليه أي هل بلغك يا محمد خبر موسى وقصته العجيبة الغريبة ؟ ﴿**إذْ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنستُ ناراً**﴾ أي حين رأى ناراً فقال لامرأته أقيمي مكانك فإني أبصرتُ ناراً قال ابن عباس : هذا حين قضى الأجل وسار بأهله من مدين يريد مصر ، وكان قد أخطأ الطريق وكانت ليلة مظلمة شاتية فجعل يقدح بالزناد فلا يخرج منها شررٌ فبينما هو كذلك إذْ بصر بنارٍ من بعيد على يسار الطريق ، فلما رآها ظنها ناراً وكانت من نور الله ﴿**لعلي آتيكم منها بقَبس**﴾ أي لعلي آتيكم بشعلة من النار تستدفئون بها ﴿**أو أجد على النار هدى**﴾ أي أجد هادياً يدلني على الطريق ﴿**فلما أتاها نُودي يا موسى إني أنا ربُّك فاخلع نعليْك**﴾ أي فلما أتى النار وجدها ناراً بيضاء تتّقد في شجرة خضراء وناداه ربُّه يا موسى[2] : إني أنا ربُّك الذي أكلمك فاخلع النعلين من قدميك رعايةً للأدب وأقبل ﴿**إنك بالواد المقدَّس طوى**﴾ أي فإنك بالوادي المطهَّر المبارك المسمّى طوى ﴿**وأنا اخترتك فاستمعْ لما يُوحى**﴾ أي اصطفيتك للنبوة فاستمع لما أُوحيه إليك قال الرازي : فيه نهايةُ الهيبة والجلالة فكأنه قال : لقد جاءك أمر عظيم هائل فتأهبْ له واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفاً إليه[3] ﴿**إنني أنا اللهُ لا إله إلا أنا فاعبدني**﴾ أي أنا الله المستحق للعبادة لا إله غيري فأفردني بالعبادة والتوحيد ﴿**وأقم الصلاة لذكري**﴾ أي أقم الصلاة لتذكرني فيها قال مجاهد : إذا صلّى ذكر ربه لاشتمالها على الأذكار[4] وقال الصاوي : خصَّ الصلاة بالذكر وإن كانت داخلةً في جملة العبادات لعظم شأنها ، واحتوائها على الذكر ، وشغل القلب واللسان والجوارح ، فهي أفضل أركان الدين بعد التوحيد[5] ﴿**إن الساعة آتيةٌ أكاد أخفيها**﴾ أي إن الساعة قادمة وحاصلةٌ لا محالة أكاد أخفيها عن نفسي فكيف

(١) أخرجه الترمذي . (٢) قال سيد قطب تغمده الله بالرحمة ، وجمَّل قاتليه باللعنة : إن القلب ليجفُ ، وإن الكيان ليرتجف ، وهو يتصور ذلك المشهد . . موسى فريد في تلك الفلاة ، والليل دامسٌ ، والظلام شامل ، والصمت مخيم ، وهو ذاهب يلتمس النار التي آنسها من جانب الطور ، ثم إذا الوجود كله من حوله يتجاوب بذلك النداء العلوي ﴿إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى﴾ الظلال ٥/٦٨ . (٣) الرازي ٢٢/ ١٩ . (٤) الرازي ٢٢/ ١٩ . (٥) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٥٠ .

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا

أطلعكم عليها[١] ؟ قال المبرِّد : وهذا على عادة العرب فإنهم يقولون إذا بالغوا في كتمان الشيء : كتمته حتى من نفسي أي لم أطلع عليه أحداً ﴿لتُجْزى كلُّ نفسٍ بما تَسْعى﴾ أي لتنال كلُّ نفسٍ جزاء ما عملت من خير أو شر قال المفسرون : والحكمة من إخفائها وإخفاء وقت الموت أن الله تعالى حكم بعدم قبول التوبة عند قيام الساعة وعند الاحتضار ، فلو عرف الناس وقت الساعة أو وقت الموت ، لاشتغلوا بالمعاصي ثم تابوا قبل ذلك ، فيتخلصون من العقاب ، ولكنَّ الله عمَّى الأمر ، ليظلَّ الناس على حذر دائم ، وعلى استعداد دائم ، من أن تبغتهم الساعة أو يفاجئهم الموت ﴿فلا يَصُدَّنَّك عنها من لا يؤمن بها﴾ أي لا يصرفنَّك يا موسى عن التأهب للساعة والتصديق بها من لا يوقن بها ﴿واتَّبع هواه﴾ أي مالَ مع الهوى وأقبل على اللذائذ والشهوات ولم يحسب حساباً لآخرته ﴿فتَرْدى﴾ أي فتهلك فإن الغفلة عن الآخرة مستلزمة للهلاك ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ أي وما هذه التي بيمينك يا موسى ؟ أليست عصا ؟ والغرضُ من الاستفهام التقريرُ والإيقاظُ والتنبيهُ إلى ما سيبدو من عجائب صنع الله في الخشبة اليابسة بانقلابها إلى حية ، لتظهر لموسى القدرة الباهرة ، والمعجزة القاهرة قال ابن كثير : إنما قال له ذلك على وجه التقرير ، أي أمَا هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها ؟ فسترى ما نصنع بها الآن[٢] ؟ ﴿قال هي عصاي أتوكأ عليها﴾ أي أعتمد عليها في حال المشي ﴿وأَهُشُّ بها على غنمي﴾ أي أهزُّ بها الشجرة وأضرب بها على الأغصان ليتساقط ورقها فترعاه غنمي ﴿ولي فيها مآربُ أُخرى﴾ أي ولي فيها مصالح ومنافع وحاجات أُخَر غير ذلك قال المفسرون : كان يكفي أن يقول هي عصاي ولكنه زاد في الجواب لأن المقام مقام مباسطة وقد كان ربه يكلمه بلا واسطة ، فأراد أن يزيد في الجواب ليزداد تلذذاً بالخطاب ، وكلام الحبيب مريحٌ للنفس ومُذْهبٌ للعَناء ﴿قال أَلْقِها يا موسى﴾ أي اطرح هذه العصا التي بيدك يا موسى لترى من شأنها ما ترى ! ﴿فألقاها فإذا هي حيةٌ تسعى﴾ أي فلما ألقاها صارت في الحال حية عظيمة تنتقل وتتحرك في غاية السرعة قال ابن عباس : انقلبت ثعباناً ذكراً يبتلع الصخر والشجر ، فلما رآه يبتلع كل شيءٍ خافه ونفر منه وولّى هارباً[٣] قال المفسرون : لما رأى هذا الأمر العجيب الهائل ، لحقه ما يلحق البشر عند رؤية الأهوال والمخاوف ، لا سيما هذا الأمر الذي يذهب بالعقول، وإنما أظهر له هذه الآية وقت المناجاة تأنيساً له بهذه المعجزة الهائلة حتى لا يفزع إذا ألقاها عند فرعون لأنه يكون قد تدرَّب وتعوَّد ﴿قالَ خذْها ولا تخَف﴾ أي قال له ربه : خذْها يا موسى ولا تخفْ منها ﴿سنعيدها سيرتها الأولى﴾ أي سنعيدها إلى حالتها الأولى كما كانت عصا لا حيَّة ، فأمسكها

(١) هذا خلاصة قول مجاهد وابن عباس واختاره الطبري وهو الأرجح في تفسير الآية وهناك أقوال أخرى لا تخلو من ضعف وانظر البحر المحيط ٦/ ٢٣٢ . (٢) المختصر ٢/ ٤٧٢ . (٣) القرطبي ١١/ ١٩٠ .

سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾

فعادت عصا ﴿واضمُمْ يدكَ إلى جناحِك تخْرُجْ بيضاء من غير سُوءٍ﴾ أي أدخل يدك تحت إبطك ثم أخرجها تخرج نيِّرة مضيئة كضوء الشمس والقمر من غير عيب ولا برص قال ابن كثير : كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها تخرج تتلألأ كأنها فلقة قمر من غير برصٍ ولا أذى[1] ﴿آيةً أخرى﴾ أي معجزة ثانية غير العصا ﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾ أي لنريك بذلك بعض آياتنا العظيمة . . أراه الله معجزتين « العصا ، واليد » وهي بعض ما أيَّده الله به من المعجزات الباهرة ، ثم أمره أن يتوجه إلى فرعون رأس الكفر والطغيان ﴿إذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ أي إذهب بما معك من الآيات إلى فرعون إنه تكبَّر وتجبَّر وجاوز الحدَّ في الطغيان حتى ادَّعى الألوهية ﴿قال ربِّ اشرحْ لي صدري﴾ أي وسِّعْه ونوِّره بالإيمان والنبوّة ﴿ويسِّرْ لي أمري﴾ أي سهِّلْ عليَّ القيام بما كلفتني من أعباء الرسالة والدعوة ﴿واحلُلْ عُقْدةً من لساني يفقَهوا قولي﴾ أي حلَّ هذه اللُّكْنة الحاصلة في لساني حتى يفهموا كلامي قال المفسرون : عاش موسى في بيت فرعون فوضعه فرعون مرة في حِجْرِهِ وهو صغير فجرَّ لحية فرعون بيده فهمَّ بقتله ، فقالت له آسية : إنه لا يعقل وسأريك بيان ذلك ، قدِّمْ إليه جمرتين ولؤلؤتين ، فإن أخذ اللؤلؤة عرفت أنه يعقل ، وإن أخذ الجمرة عرفت أنه طفل لا يعقل ، فقدَّم إليه فأخذ الجمرة فجعلها في فيه فكان في لسانه حُبْسة[2] ﴿واجعلْ لي وزيراً من أهلي هارونَ أخي﴾ أي اجعل لي معيناً يساعدني ويكون من أهلي وهو أخي هارون ﴿أشدُدْ به أزري﴾ أي لتقوَّي به يا رب ظهري ﴿وأشركه في أمري﴾ أي اجعله شريكاً لي في النبوة وتبليغ الرسالة ﴿كي نسبحك كثيراً * ونذكرك كثيراً﴾ أي كي نتعاون على تنزيهك عما لا يليق بك ونذكرك بالدعاء والثناء عليك ﴿إنك كنتَ بنا بصيراً﴾ أي عالماً بأحوالنا لا يخفى عليك شيء من أفعالنا ، طلب موسى من ربه أن يعينه بأخيه يشدُّ به أزره ، لما يعلم منه من فصاحة اللسان ، وثبات الجنَان ، وأن يشركه معه في المهمة لما يعلم من طغيان فرعون وتكبره وجبروته ﴿قال قد أُوتيتَ سُؤْلك يا موسى﴾ أي أُعطيت ما سألتَ وما طلبتَ ، ثم ذكّره تعالى بالمنن العظام عليه ﴿ولقد مننّا عليك مرةً أخرى﴾ أي أنعمنا عليك يا موسى بمنَّة أخرى غير هذه المنة ﴿إذْ أوحينا إلى أُمِّك ما يُوحى﴾ أي ألهمناها ما يُلهم ممّا كان سبباً في نجاتك ﴿أنِ اقذفيه في التابوت

(١) المختصر ٢/ ٤٧٣ . (٢) انظر الطبري ١٦/ ١٥٩ وقيل كان ذلك خلقة فسأل الله تعالى إزالته .

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

فاقذفيه في اليمّ﴾ أي ألهمناها أن ألْقِ هذا الطفل في الصندوق ثم اطرحيه في نهر النيل ، ثم ماذا ؟ ومن يتسلمه ؟ ﴿فلْيلقه اليمُّ بالساحل يأخذْه عدوٌّ لي وعدوٌّ له﴾ أي يلقيه النهر على شاطئه ويأخذه فرعون عدوي وعدوُّه قال في البحر : ﴿فلْيلْقه﴾ أمرٌ معناه الخبر جاء بصيغة الأمر مبالغة إذْ الأمر أقطع الأفعال وأوجبها[1] ﴿وألقيتُ عليك محبةً مني﴾ أي زرعتُ في القلوب محبتك بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك حتى أحبَّك فرعون قال ابن عباس : أحبَّه الله وحبَّبه إلى خلقه ﴿ولتُصنع على عيني﴾ أي ولتربّى بعين الله بحفظي ورعايتي ﴿إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله﴾ أي حين تمشي أختك وتتّبع أثرك فتقول لآل فرعون حين طلبوا لك المراضع :هل أدلكم على من يضمن لكم حضانته ورضاعته ؟ قال المفسرون : لمّا التقطه آل فرعون جعل لا يقبل ثدي امرأة لأن الله حرَّم عليه المراضع وبقيت أُمه بعد قذفه في اليم مغمومة فأمرت أخته أن تتّبع خبره ، فلما وصلت إلى بيت فرعون ورأته قالت: هل أدلكم على امرأة أمينة فاضلة تتعهد لكم رضاع هذا الطفل ؟ فطلبوا منها إحضارها فأتت بأم موسى فلما أخرجت ثديها التقمه ففرحت زوجة فرعون فرحاً شديداً وقالت لها : كوني معي في القصر فقالت : لا أستطيع أن أترك بيتي وأولادي ولكنْ آخذه معي وآتي لك به كل حين فقالت نعم وأحسنت إليها غاية الإحسان فذلك قوله تعالى ﴿فرجعناك إلى أمك كيْ تقرَّ عينها ولا تحزن﴾ أي رددناك إلى أمك لكي تُسرَّ بلقائك ، وتطمئن بسلامتك ونجاتك ، ولكيلا تحزن على فراقك ﴿وقتلت نفساً فنجيناك من الغمّ﴾ أي قتلت القبطي حين أصبحت شاباً فنجيناك من غمّ القتل وصرفنا عنك شرَّ فرعون وزبانيته ، وفي صحيح مسلم : وكان قتله خطأً ﴿وفتنَّاك فتوناً﴾ أي ابتليناك ابتلاءً عظيماً بأنواعٍ من المِحن ﴿فلبثت سنينَ في أهل مَدْين﴾ أي مكثت سنين عديدة عند شعيب في أرض مدين ﴿ثم جئتَ على قَدرٍ يا موسى﴾ أي جئت على موعدٍ ووقت مقدر للرسالة والنبوة .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ التشويق والحث على الإصغاء ﴿وهل أتاك حديث موسى﴾ ؟

٢ ـ الإطناب ﴿قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهشُّ بها على غنمي﴾ وكان يكفي أن يقول : هي عصاي ولكنه توسَّع في الجواب تلذذاً بالخطاب .

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٤١ .

٣ ـ الاستعارة التصريحية ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ أصل الجناح للطائر ثم استعير لجنب الإنسان لأن كل جنب في موضع الجناح للطائر فسميت الجهتان جناحين بطريق الاستعارة .

٤ ـ الاحتراس وهو عند علماء البيان أن يؤتى بشيء يرفع توهم غير المراد مثل قوله ﴿بيضاء من غير سوء﴾ فلو اقتصر على قوله ﴿بيضاء﴾لأوهم أن ذلك من بَرص أو بهَق ولذلك احترس بقوله ﴿من غير سوء﴾ .

٥ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿ولتُصنع على عيني﴾ تمثيل لشدة الرعاية وفرط الحفظ والكلاءة بمن يصنع بمرأى من الناظر لأن الحافظ للشيء في الغالب يديم النظر إليه فمثَّل لذلك بمن يصنع على عين الآخر .

٦ ـ السجع الحسن الذي يزيد الكلام جمالاً وبهاءً في أواخر الآيات ﴿فتشقى ، يخشى ، أخفى ، تسعى﴾ الخ .

فَائِدَة : قال العلماء : ما نفع أخ أخاه كما نفع موسى هرون فقد طلب له من ربه أن يجعله وزيراً له ويكرمه بالرسالة فاستجاب الله دعاءه وجعله نبياً مرسلاً .

تنبيه : ذكر تعالى بعض المنن على موسى وعدَّد منها ستاً :

المنة الأولى : إلهام أُمه صنع الصندوق وإلقاءه في النيل ليربّى في بيت فرعون ﴿إذْ أوحينا إلى أمك ما يوحى أنِ اقذفيه في التابوت﴾ .

الثانية : إلقاء المحبة عليه من الله تعالى بحيث لا يراه أحد إلا أحبه ﴿وألقيت عليك محبةً مني﴾ .

الثالثة : حفظ الله ورعايته له بالكلاءة والعناية ﴿ولتُصْنع على عيني﴾ .

الرابعة : ردُّه إلى أمه مع الإنعام والإكرام ﴿فرجعناك إلى أُمك كي تقرَّ عينها﴾ .

الخامسة : إنجاء موسى من القتل بعد قتله القبطي ﴿ونجيناك من الغمّ﴾ .

السادسة : تكليم الله له بعد عودته من أرض مدين وتكليفه بالرسالة﴿ثم جئتَ على قدرٍ يا موسى﴾

* * *

قال الله تعالى : ﴿ واصطنعتك لنفسي . . إلى . . وذلك جزاء من تزكى﴾
من آية (٤١) إلى نهاية آية (٧٦) .

المنَاسَبَة : لمّا ذكر تعالى نعمته على موسى باستجابة دعائه وإعطائه سؤْله ، ذكر هنا ما خصَّه به من الاصطفاء والاجتباء ، وأمره بالذهاب إلى فرعون مع أخيه هارون لتبليغه دعوة الله ، ثم ذكر ما دار من الحوار بين موسى وفرعون وما كان من أمر السحرة وسجودهم لله رب العالمين .

اللغَــة : ﴿اصطنعتك﴾ اصطفيتك واخترتك ، وأصل الاصطناع : اتخاذ الصَّنيعة وهو الخير تُسْديه إلى إنسان ﴿تنيا﴾ الونى : الضَّعف والفتور قال العجَّاج :

فما وَنى محمدٌ مُذْ أنْ غفرْ له الإلهُ ما مضَى وما غَبَر[1]

﴿يفرُط﴾ يتعجل ويبادر إلى عقوبتنا ، ومنه الفارط الذي يتقدم القوم إلى الماء ﴿يُسْحتكم﴾ يستأصلكم ويبيدكم وأصله استقصاء الحلق للشَّعْر قال الفرزدق :

وعضٌّ زمانٍ يا ابن مروانَ لم يَدعْ من المال إلا مُسْحتٌ أو مجُلَّف[2]

ثم استعمل في الإهلاك والإذهاب ، والسُّحت : المال الحرام لأنه يهلك الإنسان ويدمّره ﴿النجوى﴾ التناجي وهو الإسرار بالكلام ﴿أوجس﴾ أضمر واستشعر الخوف في نفسه .

وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ

التفسِير : ﴿واصطنعتكَ لنفسي﴾ أي اخترتك لرسالتي ووحيي ﴿إذهب أنتَ وأخوك بآياتي﴾ أي اذهب مع هارون بحججي وبراهيني ومعجزاتي قال المفسرون : المراد بالآيات هنا اليد والعصا التي أيّد الله بها موسى ﴿ولا تنيا في ذكري﴾ أي لا تفترا وتقصِّرا في ذكر الله وتسبيحه قال ابن كثير : والمراد ألاّ يفترا عن ذكر الله بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون ، ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه ، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له[3] ﴿إذهبا إلى فرعون إنه طغى﴾ أي تجبَّر وتكبَّر وبلغ النهاية في العتُو والطغيان ﴿فقولا له قولاً ليناً﴾ أي قولا لفرعون قولاً لطيفاً رفيقاً ﴿لعلّه يتذكر أو يخشى﴾ أي لعله يتذكر عظمة الله أو يخاف عقابه فيرتدع عن طغيانه ﴿قالا ربَّنا إننا نخافُ أن يفرط علينا أو أن يطغى﴾ أي قال موسى وهارون : يا ربنا إننا نخاف إن دعوناه إلى الإيمان أن يعجِّل علينا العقوبة ، أو يجاوز الحدَّ في الإساءة إلينا ﴿قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى﴾ أي لا تخافا من سطوته إنني معكما بالنصرة والعون أسمع جوابه لكما ، وأرى ما يفعل بكما ﴿فأتياه فقولا إنا رسولا ربك﴾ أي إنا رسولان من عند ربك أرسلنا إليك ، وتخصيصُ الذكر بلفظ ﴿ربّك﴾ لإعلامه أنه مربوبٌ وعبدٌ مملوك لله إذْ كان يدَّعي الربوبية ﴿فأرسلْ معنا بني إسرائيل ولا تعذّبهم﴾ أي أطلقْ سراح بني إسرائيل ولا تعذبهم بتكليفهم بالأعمال الشاقة ﴿قد جئناك بآية من ربك﴾ أي قد جئناك بمعجزة تدل على صدقنا ﴿والسلام على من اتَّبع الهدى﴾ أي والسلامة من عذاب الله لمن اهتدى وآمن بالله قال المفسرون : لم يقصد به التحية لأنه ليس بابتداء الخطاب وإنما قصد به السلام من عذاب

(١) الطبري ١٦/١٦٨ . (٢) القرطبي ١١/ ٢١٥ . (٣) المختصر ٢/ ٤٨٢ .

﴿قَدْ جِئْنَـٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ * مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً﴾

الله وسخطه ﴿إنَّا قد أُوحي إلينا أنَّ العذاب على من كذَّب وتولَّى﴾ أي قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا أن العذاب الأليم على من كذَّب أنبياء الله وأعرض عن الايمان ﴿قال فمن ربكما يا موسى﴾ أي قال فرعون : ومنْ هذا الربُّ الذي تدعوني إليه يا موسى ؟ فإني لا أعرفه ؟ ولم يقل : من ربِّي لغاية عتوّه ونهاية طغيانه بل أضافه إلى موسى وهارون ﴿من ربكما﴾ ﴿قال ربُّنا الذي أعطى كل شيءٍ خلْقه ثم هدى﴾ أي ربُّنا هو الذي أبدع كل شيءٍ خَلقه ثم هداه لمنافعه ومصالحه ، وهذا جوابٌ في غاية البلاغة والبيان لاختصاره ودلالته على جميع الموجودات بأسرها ، فقد أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار ، والأُذن الشكل الذي يوافق الاستماع ، وكذلك اليد والرجل والأنف واللسان قال الزمخشري : ولله درٌ هذا الجواب ما أخصره وأجمعه وأبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف ﴿قال فما بال القرون الأولى﴾ أي ما حال من هلك من القرون الماضية ؟ لِم لَمْ يُبعثوا ولم يحُاسبوا إن كان ما تقول حقاً ؟ قال ابن كثير : لما أخبر موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق ، وقدَّر فهدى ، شرع فرعون يحتج بالقرون الأولى كأنه يقول : ما بالهم إذْ كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربَّك بل عبدوا غيره ؟[1] ﴿قال علمها عند ربي في كتاب﴾ أي قال موسى : علم أحوالها وأعمالها عند ربي مسطرٌ في اللوح المحفوظ ﴿لا يضلُّ ربي ولا ينسى﴾ أي لا يخطىء ربي ولا يغيب عن علمه شيء منها . . ثم شرع موسى يبيِّن له الدلائل على وجود الله وآثار قدرته الباهرة فقال ﴿الذي جعل لكم الأرض مهْداً﴾ أي جعل الأرض كالمهد تمتهدونها وتستقرون عليها رحمة بكم ﴿وسلَك لكم فيها سُبُلاً﴾ أي جعل لكم طُرقاً تسلكونها فيها لقضاء مصالحكم ﴿وأنزَل من السماء ماءً﴾ أي أنزل لكم من السحاب المطرَ عذباً فراتاً ﴿فأخرجنا به أزواجاً من نباتٍ شتَّى﴾ أي فأخرج بذلك الماء أنواعاً من النباتات المختلفة الطعم والشكل والرائحة كلُّ صنف منها زوج ، وفيه التفاتٌ من الغيبة إلى المتكلم تنبيهاً على عظمة الله ﴿كلوا وارْعوا أنعامكم﴾ أي كلوا من هذه النباتات والثمار واتركوا أنعامكم تسرح وترعى من الكلأ الذي أخرجه الله ، والأمر للإباحة تذكيراً لهم بالنِّعم ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لأولي النُّهى﴾ أي إنَّ فيما ذُكر لعلامات واضحة لأصحاب العقول السليمة على وجود الله ووحدانيته ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم﴾ أي من الأرض

(١) المختصر ٢/٤٨٣ .

أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾
فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ
يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟
عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾
قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾

خلقناكم أيها الناس وإليها تعودون بعد مماتكم فتصيرون تراباً ﴿**ومنها نُخرجكم تارةً أُخرى**﴾ أي ومن الأرض نخرجكم مرة أخرى للبعث والحساب . . ثم أخبر تعالى عن عتوّ فرعون وعناده فقال ﴿**ولقد أريناه آياتنا كلَّها**﴾ أي والله لقد بصَّرْنا فرعون بالمعجزات الدالة على نبوّة موسى من العصا ، واليد ، والطوفان ، والجراد ، وسائر الآيات التسع ﴿**فكذَّب وأبى**﴾ أي كذَّب بها مع وضوحها وزعم أنها سحر ، وأبى الإيمان والطاعة لعتوِّه واستكباره ﴿**قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى**﴾ أي قال فرعون : أجئتنا يا موسى بهذا السحر لتخرجنا من أرض مصر ؟ ﴿**فلنأتينَّك بسحرٍ مثله**﴾ أي فلنعارضنَّك بسحرٍ مثل الذي جئت به ليظهر للناس أنك ساحر ولستَ برسول ﴿**فاجعل بيننا وبينك موعداً**﴾ أي عيِّنْ لنا وقت اجتماع ﴿**لا نُخلفه نحنُ ولا أنتَ مكاناً سُوَى**﴾ أي لا نخلف ذلك الوعد لا من جهتنا ولا من جهتك ويكون بمكان معيَّن ووقت معيَّن[1] ﴿**قال موعدكم يومُ الزينة وأن يُحْشر الناسُ ضُحى**﴾ أي قال موسى : موعدنا للاجتماع يوم العيد ـ يومٌ من أيام أعيادهم ـ وأن يجتمع الناس في ضحى ذلك النهار قال المفسرون : وإنما عيَّن ذلك اليوم للمبارزة ليظهر الحق ويزهق الباطل على رءوس الأشهاد ، ويشيع ذلك في الأقطار بظهور معجزته للناس ﴿**فتولَّى فرعونُ فجمع كيده ثم أتى**﴾ أي انصرف فرعون فجمع السَّحرة ثم أتى الموعد ومعه السَّحرة وأدواتهم وما جمعه من كيد ليطفىء نور الله قال ابن عباس : كانوا اثنين وسبعين ساحراً مع كل ساحر منهم حبال وعصيّ[2] ﴿**قال لهم موسى ويلكمْ لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب**﴾ أي قال موسى للسحرة لما جاء بهم فرعون : ويلكم لا تختلقوا على الله الكذب فيهلككم ويستأصلكم بعذاب هائل ﴿**وقد خاب من افترى**﴾ أي خسر وهلك من كذب على الله . . قدَّم لهم النصح والإنذار لعلَّهم يثوبون إلى الهُدى ، ولما سمع السَّحرة منه هذه المقالة هالهم ذلك ووقعتْ في نفوسهم مهابته ولذلك تنازعوا في أمره ﴿**فتنازعوا أمرهم بينَهم وأسرُّوا النجوى**﴾ أي اختلفوا في أمر موسى فقال بعضهم : ما هذا بقول ساحر وأخفوا ذلك عن الناس وأخذوا يتناجون سرّاً ﴿**قالوا إنْ هذانِ لساحرانِ يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما**﴾ أي قالوا بعد التناظر والتشاور ما هذان إلاّ ساحران يريدان الاستيلاء على أرض مصر وإخراجكم منها بهذا السحر

(١) هذا ما اختاره ابن كثير في تفسير ﴿مكاناً سُوى﴾ واختار الطبري أن المراد مكاناً تستوي مسافته على الفريقين . (٢) القرطبي ١١/ ٢١٤ .

فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا

﴿ويذهبا بطريقتكم المُثْلى﴾ أي غرضُهما إفسادُ دينكم الذي أنتم عليه والذي هو أفضل المذاهب والأديان قال الزمخشري : والظاهر أنهم تشاوروا في السرِّ وتجاذبوا أهداب القول ثم قالوا ﴿إنْ هذان لساحران﴾ فكانت نجواهم في تلفيق هذا الكلام وتزويره خوفاً من غلبة موسى وهارون لهما وتثبيطاً للناس من اتباعهما[1] ﴿فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً﴾ أي أحكموا أمركم واعزموا عليه ولا تتنازعوا وارموا عن قوسٍ واحدة ، ثم ائتوا إلى الميدان مصطفين ليكون أهيب في صدور الناظرين ﴿وقد أفلح اليوم من استعلى﴾ أي فاز اليوم من علا وغلب قال المفسرون : أرادوا بالفلاح ما وعدهم به فرعون من الإنعامات العظيمة والهدايا الجزيلة مع التقريب والتكريم كما قال تعالى ﴿قالوا أئنَّ لنا لأجراً إن كنّا نحن الغالبين ؟ قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين﴾ ﴿قالوا يا موسى إمَّا أن تُلْقي وإمَّا أنْ نكون أولَ من ألقى﴾ أي قال السحرة لموسى : إمَّا أن تبدأ أنتَ بالإلقاء أو نبدأ نحنُ ؟ خيَّروه ثقةً منهم بالغلبة لموسى لأنهم كانوا يعتقدون أنَّ أحداً لا يقاومهم في هذا الميدان ﴿قال بل ألقوا﴾ أي قال لهم موسى : بل ابدءوا أنتم بالإلقاء قال أبو السعود : قال ذلك مقابلةً للأدب بأحسنَ من أدبهم حيث بتَّ القول بإلقائهم أولاً ، وإظهاراً لعدم المبالاة بسحرهم ليُبرزوا ما معهم ، ويستفرغوا أقصى جهدهم وقصارى وسعهم ، ثم يُظهر الله سلطانه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه[2] ﴿فإذا حبالُهم وعصيُّهم يُخيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ في الكلام حذفٌ دلَّ عليه المعنى أي فألقوا فإذا تلك الحبال والعصيُّ التي ألقوها يتخيلها موسى ويظنُّها ـ من عظمة السحر ـ أنها حياتٌ تتحرك وتسعى على بطونها ، والتعبيرُ يوحي بعظمة السحر حتى إن موسى فزع منها واضطرب ﴿فأوجس في نفسه خيفةً موسى﴾ أي أحسَّ موسى الخوف في نفسه بمقتضى الطبيعة البشرية لأنه رأى شيئاً هائلاً ﴿قلنا لا تخف إنَّك أنت الأعلى﴾ أي قلنا لموسى لا تخفْ ممّا توهمت[3] فإنك أنت الغالب المنتصر ﴿وألقِ ما في يمينك تلقفْ ما صنعوا﴾ أي ألقِ عصاك التي بيمينك تبتلعْ بفمها ما صنعوه من السحر ﴿إنما صنعوا كيدُ ساحر﴾ أي إنَّ الذي اخترعوه وافتعلوه هو من باب الشعوذة والسحر ﴿ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ أي لا يسعد الساحر حيث كان ولا يفوز بمطلوبه لأنه كاذب مضلِّل ﴿فأُلقي السحرة سُجَّداً قالوا آمنا بربِّ هارون وموسى﴾ أي فألقى موسى عصاه فابتلعت ما صنعوا فخرَّ السحرة حينئذٍ سجداً لله ربِّ العالمين لما رأوا من الآية الباهرة قال ابن كثير : لما ألقى موسى العصا صارت ثعباناً عظيماً هائلاً ، ذا قوائم وعُنق ورأس

(١) الكشاف ٣ . (٢) أبو السعود ٣/ ٣١٣ . (٣) أوحى الله تعالى له في تلك الساعة الراهنة بهذا القول .

﴿بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ﴾

وأضراس ، فجعلت تتَّبع تلك الحبال والعصي حتى لم تبق شيئاً إلا ابتلعته ، والناس ينظرون إلى ذلك عياناً نهاراً ، فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه علموا علم اليقين أن هذا ليس من قبيل السحر والحيل وأنه حقٌّ لا مرية فيه ، فعند ذلك وقعوا سجداً لله ، فقامت المعجزة واتضح البرهان ، ووقع الحق وبطل السحر ، قال ابن عباس : كانوا أول النهار سحرة ، وفي آخر النهار شهداء بررة[1] **﴿قال آمنتم له قبل أنْ آذن لكم﴾** أي قال فرعون للسحرة : آمنتم بموسى وصدقتموه بما جاء به قبل أن أسمح لكم بذلك وقبل أن تستأذنوني ؟ **﴿إنه لكبيركم الذي علَّمكم السحر﴾** أي إنه رئيسكم الذي علَّمكم السحر فاتفقتم معه لتذهبوا بملكي قال القرطبي : وإنما أراد فرعون بقوله هذا أن يُلبِّس على الناس حتى لا يتبعوهم فيؤمنوا كإيمانهم[2] ، ثم توعَّدهم وهدَّدهم بالقتل والتعذيب فقال **﴿فلأُقطعنَّ أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾** أي فوالله لأقطعنَّ الأيدي والأرجل منكم مختلفات بقطع اليد اليمنى ، والرجل اليسرى أو بالعكس **﴿ولأُصلبنكم في جذوع النخل﴾** أي لأعلقنكم على جذوع النخل وأقتلنكم شرَّ قِتْلة **﴿ولتعلمُنَّ أينا أشد عذاباً وأبقى﴾** أي ولتعلمُنَّ أيها السحرة من هو أشدُّ منا عذاباً وأدوم، هل أنا أم ربُّ موسى الذي صدقتم به وآمنتم **﴿قالوا لن نُؤثِرك على ما جاءنا من البينات﴾** أي قال السحرة: لن نختارك ونفضّلك على الهدى والإيمان الذي جاءنا من الله على يد موسى ولو كان في ذلك هلاكنا **﴿والذي فطرنا﴾** قسمٌ بالله أي مقسمين بالله الذي خلقنا **﴿فاقضِ ما أنتَ قاض﴾** أي فاصنع ما أنت صانع **﴿إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾** أي إنما ينفذ أمرك في هذه الحياة الدنيا وهي فانية زائلة ورغبتنا في النعيم الخالد قال عكرمة : لما سجدوا أراهم الله في سجودهم منازلهم في الجنة فلذلك قالوا ما قالوا[3] **﴿إنّا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا﴾** أي آمنا بالله ليغفر لنا الذنوب التي اقترفناها وما صدر منا من الكفر والمعاصي **﴿وما أكرهتنا عليه من السحر﴾** أي ويغفر لنا السحر الذي عملناه لإطفاء نور الله **﴿والله خيرٌ وأبقى﴾** أي والله خيرٌ منك ثواباً وأبقى عذاباً ، وهذا جوابُ قوله **﴿ولتعلمُنَّ أيُّنا أشدُّ عذاباً وأبقى﴾** **﴿إنه من يأتِ ربه مجرماً فإنَّ له جهنم﴾** هذا من تتمة كلام السحرة عظةً لفرعون أي من يلقى ربه يوم القيامة وهو مجرمٌ باقترافه المعاصي وموته على الكفر ، فإن له نار جهنم **﴿لا يموتُ فيها ولا يحيا﴾** أي لا يموت في جهنم فينقضي عذابه ، ولا يحيا حياة طيبة هنيئة[4] **﴿ومن يأته مؤمناً قد عمل**

---

(١) المختصر ٢/ ٤٨٦ . (٢) القرطبي ١١/ ٢٢٤ . (٣) القرطبي ١١/ ٢٢٥ .

(٤) أنشد ابن الأنباري في هذا المعنى : ألاَ مَنْ لنفسٍ لا تَموتُ فينقضي شقاها ولا تحيا حياةً لها

مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

الصالحات﴾ أي ومن يلقى ربه مؤمناً موحّداً وقد عمل الطاعات وترك المنهيات ﴿فأولئك لهم الدرجاتُ العُلى﴾ أي فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات لهم المنازل الرفيعة عند الله ﴿جناتُ عدن﴾ بيانٌ للدرجات العُلى أي جناتُ إقامة ذات الدرجات العاليات ، والغُرف الآمنات ، والمساكن الطيبات ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تجري من تحت غرفها وسُرُرها أنهار الجنة من الخمر والعسل ، واللّبن، والماء ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي ماكثين في الجنة دوماً لا يخرجون منها أبداً ﴿وذلك جزاء من تزكّى﴾ أي وذلك ثواب من تطهَّر من دنس الكفر والمعاصي ، وفي الحديث (الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلاها درجة فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس)[1] .

البَلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستعارة ﴿واصطنعتك لنفسي﴾ شبَّه ما خوله به من القرب والاصطفاء بحال من يراه الملك أهلاً للكرامة وقرب المنزلة لما فيه من الخلال الحميدة فيصطنعه لنفسه ، ويختاره لخلّته ، ويصطفيه لأموره الجليلة واستعار لفظ اصطنع لذلك ، ففيه استعارةٌ تبعية .

٢ ـ المقابلة اللطيفة ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم﴾ حيث قابل بين ﴿منها﴾ و﴿فيها﴾ وبين الخلق والإعادة وهذا من المحسنات البديعية .

٣ ـ إيجاز حذف ﴿بل ألقوا فإذا حبالهُم﴾ أي فألقوا فإذا حبالهم حذف لدلالة المعنى عليه ومثله ﴿فألقي السحرة سجداً﴾ بعد قوله ﴿وألْق ما في يمينك﴾ حذف منه كلام طويل وهو فألقى موسى عصاه فتلقفت ما صنعوا من السحر فألقي السحرة سجداً ، وإنما حسن الحذف لدلالة المعنى عليه ويسمى إيجاز حذف .

٤ ـ الطباق بين ﴿يموت . . ويحيا﴾ وبين ﴿نعيد . . ونخرج﴾ .

٥ ـ المقابلة بين ﴿إنه من يأت ربه مجرماً﴾ وبين ﴿ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات﴾ الخ والمقابلة هي أن يؤتى بمعنيين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابل ذلك .

٦ ـ السجع الحسن غير المتكلف في مثل ﴿سُوى ، ضُحى ، افترى ، يحيا ، تزكّى﴾ الخ .

٧ ـ المؤكدات ﴿إنك أنت الأعلى﴾ أكّد الخبر بعدة مؤكدات وهي ﴿إنّ﴾ المفيدة للتأكيد ، وتكرير الضمير﴿أنت﴾وتعريف الخبر﴿الأعلى﴾ولفظ العلو الدال على الغلبة،وصيغة التفضيل﴿الأعلى﴾ولله

(١) رواه أحمد والترمذي .

در التنزيل ما أبلغه وأروعه ، وهذا من خصائص علم المعاني .

تـنبيـه : لم تذكر الآيات الكريمة أن فرعون فعل بالسحرة ما هدَّدهم به ، وقد ذكر المفسرون أنه أنفذ فيهم وعيده فقطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم فماتوا على الإيمان ولهذا قال ابن عباس : كانوا في أول النهار سحرة ، وفي آخر النهار شهداء بَرَرة .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولقد أوحينا إلى موسى . . إلى . . إلا هو وسع كل شيء علماً﴾
من آية (٧٧) إلى نهاية آية (٩٨) .

المنَاسَبَة : لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن قصة موسى وفرعون ، وتشير الآيات هنا إلى عناية الله تعالى بموسى وقومه ، وإنجائهم وإهلاك عدوهم ، وتذكّرهم بنعم الله العظمى ومننه الكبرى على بني إسرائيل ، وما وصّاهم به من المحافظة على شكرها وتحذيرهم من التعرض لغضب الله بكفرها ، ثم تذكر الآيات انتكاس بني إسرائيل بعبادتهم العجل ، وقد طوى هنا ما فصَّل في آيات أخر .

اللغـــة : ﴿دَركاً﴾ لحَاقاً مصدر أدركه إذا لحقه ﴿تَطغوا﴾ الطغيان : مجاوزة الحدِّ إلى ما لا ينبغي ﴿هوى﴾ صار إلى الهاوية وهي قعر النار من هوى يهوي إذا سقط من علوٍ إلى سفل ﴿بمِلْكنا﴾ الملك : بفتح الميم وسكون اللام : الطاقةُ والقدرة ومعناه بأمرٍ كنا نملكه من جهتنا ﴿أوزاراً﴾ أثقالاً ومنه سمي الذنب وزراً لأنه يثقل الإنسان ﴿خوار﴾ الخُوار : صوت البقر ﴿يا ابن أمَّ﴾ أي يا ابن أمي واللفظة تدل على الاستعطاف ﴿سولّت﴾ حسنَّت وزيَّنت .

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

التفسيـر : ﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسْر بعبادي﴾ أي أوحينا إلى موسى بعد أن تمادى فرعون في الطغيان أنْ سرْ ببني إسرائيل ليلاً من أرض مصر ﴿فاضربْ لهم طريقاً في البحر يَبساً﴾ أي اضرب البحر بعصاك ليصبح لهم طريقاً يابساً يمرون عليه ﴿لا تخاف دركاً ولا تخشى﴾ أي لا تخاف لحاقاً من فرعون وجنوده ، ولا تخشى الغرق في البحر ﴿فأتْبعهم فرعونُ بجنوده فغشيهم من اليمِّ ما غشيهم﴾ أي فلحقهم فرعون مع جنوده ليقتلهم فأصابهم من البحر ما أصابهم ، وغشيهم من الأهوال ما لا يعلم كُنهه إلا الله ، والتعبير يفيد التهويل لما دهاهم عند الغرَق ﴿وأضلَّ فرعونُ قومه وما هدى﴾ أي أضلهم عن الرشد وما هداهم إلى خيرٍ ولا نجاة ، وفيه تهكم بفرعون في قوله ﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ ﴿يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم﴾ خطابٌ لبني إسرائيل بعد خروجهم من البحر وإغراق فرعون وجنوده والمعنى اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي العظيمة عليكم حين نجيتكم من فرعون وقومه الذين كانوا يسومونكم سوء العذاب ﴿وواعدناكم جانب الطور الأيمن﴾ أي وعدنا موسى للمناجاة وإنزال التوراة عليه جانب طور سيناء الأيمن ، وإنما نسبت المواعدة إليهم لكون

قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ

منفعتها راجعة إليهم إذْ في نزول التوراة صلاحُ دينهم ودنياهم ﴿ونزّلنا عليكم المنَّ والسلوى﴾ أي رزقناكم وأنتم في أرض التيه بالمنِّ وهو يشبه العسل ، والسلوى وهو من أجود الطيور لحماً تفضلاً منا عليكم . . وفي هذا الترتيب غايةُ الحسن حيث بدأ بتذكيرهم بنعمة الإنجاء ، ثم بالنعمة الدينية ، ثم بالنعمة الدنيوية ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ أي وقلنا لكم كلوا من الحلال اللذيذ الذي أنعمتُ به عليكم ﴿ولا تطْغوا فيه فيحلَّ عليكم غضبي﴾ أي لا تحملنكم السعة والعافية على العصيان لأمري فينزل بكم عذابي ﴿ومن يحلِلْ عليه غضبي فقد هوى﴾ أي ومن ينزل عليه غضبي وعقابي فقد هلك وشقي ﴿وإني لغفَّار لمن تابَ وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ أي وإني لعظيم المغفرة لمن تاب من الشرك وحسُن إيمانه وعمله ، ثم استقام على الهدى والإيمان ، وفي الآية ترغيب لمن وقع في وهدة العصيان ببيان المخرج كيلا ييأس ﴿وما أعجلكَ عن قومك يا موسى﴾ أيْ أيُّ شيءٍ عجَّل بك عن قومك يا موسى ؟ قال الزمخشري : كان موسى قد مضى مع النقباء الذين اختارهم من قومه إلى الطور على الموعد المضروب ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه[1] ﴿قال هم أولاء على أثري﴾ أي قومي قريبون مني لم أتقدمهم إلا بشيء يسير وهم يأتون بعدي ﴿وعجلتُ إليكَ ربّ لترضى﴾ أي وعجلتُ إلى الموضع الذي أمرتني بالمجيء إليه لتزداد رضىً عني . . اعتذر موسى أولاً ثم بيَّن السبب في إسراعه قبل قومه وهو الشوق إلى مناجاة الله ابتغاءً لرضى الله ﴿قال فإنّا قد فتنَّا قومك من بعدك﴾ أي ابتليناهم بعبادة العجل من بعد ذهابك من بينهم ﴿وأضلَّهم السامري﴾ أي وأوقعهم السامريُّ في الضلالة بسبب تزيينه لهم عبادة العجل ، وكان السامري ساحراً منافقاً من قومٍ يعبدون البقر قال المفسرون : كان موسى حين جاء لمناجاة ربه قد استخلف على بني إسرائيل أخاه هارون ، وأمره أن يتعهدهم بالإقامة على طاعة الله ، وفي أثناء غيبة موسى جمع السامريُّ الحليَّ ثم صنع منها عجلاً ودعاهم إلى عبادته فعكفوا عليه وكانت تلك الفتنة وقعت لهم بعد خروج موسى من عندهم بعشرين يوماً ﴿فرجع موسى إلى قومه غضبان أسِفاً﴾ أي رجع موسى من الطور بعدما استوفى الأربعين وأخذ التوراة غضبان شديد الحزن على ما صنع قومه من عبادة العجل ﴿قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً﴾

(١) الكشاف ٣/ ٨٩ .

مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا

أي ألم يعدكم بإنزال التوراة فيها الهدى والنور ؟ والاستفهام للتوبيخ ﴿**أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحلَّ عليكم غضبٌ من ربكم فأخلفتم موعدي**﴾ أي هل طال عليكم الزمن حتى نسيتم العهد أم أردتم بصنيعكم هذا أن ينزل عليكم سخط الله وغضبه فأخلفتم وعدي ؟ قال أبو حيان : وكانوا وعدوه بأن يتمسكوا بدين الله وسنّة موسى عليه السلام ، ولا يخالفوا أمر الله أبداً ، فأخلفوا موعده بعبادتهم العجل[١] ﴿**قالوا ما أخْلفنا موْعدك بملْكِنا**﴾ أي ما أخلفنا العهد بطاقتنا وإرادتنا واختيارنا بل كنا مكرهين ﴿**ولكنَّا حُمِّلْنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها**﴾ أي حملنا أثقالاً وأحمالاً من حُليِّ آل فرعون فطرحناها في النار بأمر السامري قال مجاهد : أوزاراً : أثقالاً وهي الحلي التي استعاروها من آل فرعون ﴿**فكذلك ألقى السامري**﴾ أي كذلك فعل السامري ألقى ما كان معه من حلي القوم في النار قال المفسرون : كان بنو إسرائيل قد استعاروا من القبط الحُليّ قبل خروجهم من مصر ، فلما أبطأ موسى في العودة إليهم قال لهم السامري : إنما احتُبس عليكم لأجل ما عندكم من الحلي فجمعوه ودفعوه إلى السامري ، فرمى به في النار وصاغ لهم منه عجلاً ، ثم ألقى عليه قبضةً من أثر فرس جبريل عليه السلام فجعل يخور[٢] فذلك قوله تعالى ﴿**فأخرج لهم عجلاً جسَداً له خوار**﴾ أي صاغ لهم السامري من تلك الحليّ المذابة عجلاً جسداً بلا روح له خوارٌ وهو صوت البقر[٣] ﴿**فقالوا هذا إلهكُم وإلهُ موسى فنَسي**﴾ أي هذا العجل إلهكم وإله موسى فنسي موسى إلهه هنا وذهب يطلبه في الطور ، قال قتادة : نسي موسى ربه عندكم ، فعكفوا عليه يعبدونه ، قال تعالى رداً عليهم وبياناً لسخافة عقولهم في عبادة العجل ﴿**أفلا يرون ألاّ يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً**﴾ أي أفلا يعلمون أن العجل الذي زعموا أنه إلههم لا يردُّ لهم جواباً ، ولا يقدر أن يدفع عنهم ضراً أو يجلب لهم نفعاً فكيف يكون إلهاً ؟ والاستفهام للتوبيخ والتقريع ﴿**ولقد قال لهم هارونُ من قبلُ يا قوم إنما فُتِنْتُم به**﴾ أي قال لهم هارون ناصحاً ومذكراً من قبل رجوع موسى إليهم : إنما ابْتُليتُم وأُضللتم بهذا العجل ﴿**وإنَّ ربَّكم الرحمنُ فاتَّبعوني وأطيعوا أمري**﴾ أي وإنَّ ربكم المستحقّ للعبادة هو الرحمن لا العجل ، فاقتدوا بي فيما أدعوكم إليه من عبادة الله ، وأطيعوا أمري بترك عبادة العجل ﴿**قالوا لن نبرحَ عليه عاكفين حتى يرجع إلينا**

---

(١) البحر ٦/٢٦٨ . (٢) هذا خلاصة قول ابن عباس وقتادة ومجاهد كذا في الطبري ١٦/ ٢٠٠ . (٣) قال الرازي : قيل إنه صار حياً وخار ، وقيل : لم تحله الحياة وإنما جعل فيه منافذ تدخل فيه الريح فيخرج له صوت يشبه صوت العجل . الرازي ٢٢/ ١٠٣ .

مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ

موسى﴾ أي قالوا لن نزال مقيمين على عبادة العجل حتى يعود إلينا موسى فننظر في الأمر[1] **﴿قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا ألاّ تتّبِعنِ﴾** ؟ في الكلام حذفٌ أي فلما رجع موسى ووجدهم عاكفين على عبادة العجل امتلأ غضباً لله وأخذ برأس أخيه هارون يجره إليه وقال له : أيُّ شيء منعك حين رأيتهم كفروا بالله أن لا تتبعني في الغضب لله والإنكار عليهم والزجر لهم عن ذلك الضلال ؟ **﴿أفعصيتَ أمري﴾** أي أخالفتني وتركت أمري ووصيتي ؟ قال المفسرون : وأمرهُ هو ما كان أوصاه به فيما حكاه تعالى عنه ﴿وقال موسى لأخيه هرون اخلُفني في قومي وأصلحْ ولا تتّبع سبيل المفسدين﴾ **﴿قال يا ابنَ أُمَّ لا تأخذْ بلحيتي ولا برأسي﴾** أي قال له هارون استعطافاً وترقيقاً : يا ابن أمي - أي يا أخي - لا تأخذ بلحيتي ولا بشعر رأسي قال ابن عباس : أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله من شدة غيظه وفرط غضبه لأن الغيْرة في الله ملكتْه **﴿إنـي خشيتُ أن تقولَ فرّقتَ بين بنـي إسرائيل﴾** أي إني خفت إن زجرتُهم بالقوة أن يقع قتالٌ بينهم فتلومني على ذلك وتقول لي : لقد أشعلتَ الفتنة بينهم **﴿ولم ترقُبْ قولي﴾** أي لم تنتظرْ أمري فيهم ، فمن أجل ذلك رأيتُ ألاّ أفعل شيئاً حتى ترجع إليهم لتتدارك الأمر بنفسك قال ابن عباس : وكان هارون هائباً مطيعاً له **﴿قال فما خطبُك يا سامري﴾** أي ما شأنك فيما صنعت ؟ وما الذي حملك عليه يا سامري ؟ **﴿قال بَصرْتُ بما لم يبْصُروا به﴾** أي قال السامريُّ : رأيتُ ما لم يروه وهو أن جبريل جاءك على فرس الحياة فأُلقي في نفسي أن أقبض من أثره قبضة فما ألقيتُه على شيءٍ إلا دبَّت فيه الحياة **﴿فقبضتُ قبضةً من أثر الرسول فنبذتُها﴾** أي قبضت شيئاً من أثر فرس جبريل فطرحتها على العجل فكان له خوار **﴿وكذلك سوّلتْ لي نفسي﴾** أي وكذلك حسّنتْ وزيّنتْ لي نفسي **﴿قال فاذهبْ فإن لك في الحياة أن تقول لا مِساس﴾** أي قال موسى للسامريّ : عقوبتك في الدنيا ألاّ تمسَّ أحداً ولا يمسَّك أحد قال الحسن : جعل الله عقوبة السامري ألا يماسَّ الناسَ ولا يمسّوه عقوبة له في الدنيا وكأنَّ الله عز وجل شدَّد عليه المحنة **﴿وإنَّ لك موعداً لن تُخْلفه﴾** أي وإنَّ لك

(١) قال سيد قطب عليه الرحمة في تفسير الظلال « ما كاد بنو إسرائيل يرون عجلاً من ذهب يخور حتى نسوا ربهم الذي أنقذهم من أرض الذل وعكفوا على عجل الذهب ، وفي بلاهة فكر ، وبلادة روح قالوا ﴿هذا إلهكم وإله موسى﴾ راح يبحث عنه على الجبل وهو هنا معنا وقد نسي موسى الطريق الى ربه وضل عنه ، وهي قولة تضيف الى معنى البلادة والتفاهة اتهامهم لنبيهم بأنه غير موصول بربه حتى ليضل الطريق إليه فلا هو يهتدي ولا ربه يهديه ، وهذا العجل لم يكن حياً يسمع قولهم ويستجيب نداءهم لأنه جسد لا حياة فيه فهو في درجة أقل من درجة الحيوانية ، ولقد نصحهم هارون ولكنهم بدلاً من الاستجابة التووا وتملصوا من نصحه».

﴿ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾

موعداً للعذاب في الآخرة لن يتخلَّف ﴿وانظـر إلى إلهـك الذي ظلت عليـه عاكفـاً﴾ أي انظر إلى هذا العجل الذي أقمت ملازماً على عبادته ﴿لنحرّقنَّه ثم لننْسفنَّـه في اليـمّ نسفـاً﴾ أي لنحرقنَّه بالنـار ثم لنطيرنَّه رماداً في البحر لا يبقى منه عين ولا أثر ﴿إنما إلهكـم الله الـذي لا إلـه إلا هـو﴾ أي يقول موسى لبني إسرائيل : إنما معبودكم المستحق للعبادة هو الله الذي لا ربَّ سواه ﴿وسـع كـلَّ شيءٍ علمـاً﴾ أي وسع علمه كلَّ شيء فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ التهويل ﴿فغشيهم من اليمِّ ما غشيهم﴾ .

٢ ـ الطباق بين ﴿وأضـلَّ . . وما هدى﴾ .

٣ ـ الاستعارة ﴿فقد هوى﴾ استعار لفظ الهوي وهو السقوط من عُلوٍ إلى سُفل للهلاك والدمار .

٤ ـ صيغة المبالغة ﴿وإني لغفَّار﴾ أي كثير المغفرة للذنوب .

٥ ـ الطباق ﴿ضراً ولا نفعاً﴾ .

٦ ـ الايجاز بالحذف في مواطن عديدة بيناها في التفسير .

٧ ـ السجع الحسن غير المتكلف مثل ﴿أمري ، قولي ، نفسي﴾ و ﴿نفعاً ، علماً ، نسفاً﴾ الخ .

تَـنْبِيـه : إنما عبد بنو إسرائيل العجل بسبب فتنة السامريّ وقد كانت بذور الوثنية راسخة في قلوبهم ولذلك لما نجَّاهم الله من طغيان فرعون طلبوا من موسى أن يصنع لهم تمثالاً ليعبدوه كما قال تعالى ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنامٍ لهم قالوا يا موسى اجعلْ لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قومٌ تجهلون﴾ فلا عجب إذاً أن يعكفوا على عبادة عجل من ذهب له خوار ! !

* * *

قال الله تعالى : ﴿كذلك نقـص عليـك من أنباء ما قـد سبق . . إلى . . من أصحاب الصراط السـوي ومن اهتدى﴾ من آية (٩٩) إلى نهاية السورة .

المُنَاسَبَة : لما ذكر تعالى قصة موسى بالتفصيل ، أعقبها بذكر أنَّ هذا القصص وحيٌ من الله ، وأن محمداً ﷺ ما كان له علم بهذه الأخبار والأنباء العجيبة لولا أن الله تعالى أوحى إليه ، وذلك من أكبر الدلائل والبراهين على صدق الرسالة .

اللغة : ﴿قاعاً﴾ القاع : الأرض الملساء التي لا نبات فيها ولا بناء ﴿صفصفاً﴾ الصَّفصفُ : المستوي من الأرض كأنه على صفٍّ واحد في استوائه ﴿أمتاً﴾ الأمْت : المكان المرتفع كالتلّ والهضبة ﴿همْساً﴾ صوتاً خفياً ﴿عَنتْ﴾ ذلَّت وخضعت قال أميّة : «لعزَّته تعنو الوجوه وتسجد» قال الجوهري : عنا يعنو خضع وذلَّ وأعناه غيره ومنه الآية ﴿وعنت الوجوه﴾ ﴿هضماً﴾ الهضم : النقص يقال : هضمه حقه إذا أنقصه والفرق بين الظلم والهضم أن الظلم المنع من الحق كله ، والهضمُ المنع من بعضه[1] ﴿تضْحى﴾ ضحى للشمس برز لها حتى يصيبه حرُّها قال ابن أبي ربيعة :

رأتْ رجلاً أيماً إذا الشمسُ عارضتْ فيَضْحـى وأمَّا بالعشيِّ فينحصر[2]

﴿ضنكاً﴾ الضّنْك : الضيق والشدة يقال : منزلٌ ضنْك وعيشٌ ضنْك إذا كان شديداً ضيقاً ﴿سوآتهما﴾ عوراتهما ﴿فتربصوا﴾ انتظروا ﴿الصراط السويّ﴾ الطريق المستقيم .

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ

التفسير : ﴿كذلك نقُصُّ عليك من أنباء ما قد سبق﴾ أي كما قصصنا عليك يا محمد خبر موسى مع فرعون وما فيه من الأنباء الغريبة كذلك نقص عليك أخبار الأمم المتقدمين ﴿وقد آتيناك من لدنّا ذكراً﴾ أي أعطيناك من عندنا قرآناً يتلى منطوياً على المعجزات الباهرة قال في البحر : امتن تعالى عليه بإيتائه الذكر المشتمل على القصص والأخبار ، الدال على معجزات أُوتيها عليه السلام[3] ﴿من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً﴾ أي من أعرض عن هذا القرآن فلم يؤ من به ولم يتَّبع ما فيه ، فإنه يحمل يوم القيامة حملاً ثقيلاً ، وذنباً عظيماً يثقله في جهنم ﴿خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملاً﴾ أي مقيمين في ذلك العذاب بأوزارهم ، وبئس ذلك الحمل الثقيل حملاً لهم ، شُبِّه الوزرُ بالحمل لثقله ﴿يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذٍ زُرقاً﴾ أي يوم ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية، ونحشر المجرمين إلى أرض المحشر زُرق العيون سود الوجوه قال القرطبي: تُشوه خلقتُهم بزرقة العيون وسواد الوجوه[4] ﴿يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً﴾ أي يتهامسون بينهم ويسرُّ بعضهم إلى بعض قائلين : ما مكثتم في الدنيا إلا عشر ليال قال أبو السعود : استقصروا مدة لبثهم فيها لما عاينوا الشدائد والأهوال[5] ﴿نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلُهم طريقةً إن لبثتم إلا يوماً﴾ أي نحن أعلم بما يتناجون بينهم إذ يقول أعقلهم وأعدلهم قولاً ما لبثتم إلا يوماً واحداً

(١) القرطبي ١١/ ٢٤٩ . (٢) البحر ٦/ ٢٧١ . (٣) البحر المحيط ٦/ ٢٧٨ . (٤) القرطبي ١١/ ٢٤٤ . (٥) أبو السعود ٣/ ٣٢٤ .

أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ * وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى

﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً﴾ أي ويسألونك عن حال الجبال يوم القيامة فقل لهم: إن ربي يفتِّتها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فيطيّرها ﴿فيذرها قاعاً صفصفاً﴾ أي فيتركها أرضاً ملساء مستوية لا نبات فيها ولا بناء ﴿لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً﴾ أي لا ترى فيها انخفاضاً ولا ارتفاعاً ﴿يومئذٍ يتَّبعون الداعي لا عوج له﴾ أي في ذلك اليوم العصيب يتّبع الناس داعي الله الذي يدعوهم لأرض المحشر يأتونه سراعاً لا يزيغون عنه ولا ينحرفون ﴿وخشعت الأصواتُ للرحمن﴾ أي ذلَّت وسكنت أصوات الخلائق هيبةً من الرحمن جل وعلا ﴿فلا تسمعُ إلا همساً﴾ أي لا تسمع إلا صوتاً خفياً لا يكاد يُسمع وعن ابن عباس: هو همسُ الأقدام في مشيها نحو المحشر[١] ﴿يومئذٍ لا تنفع الشفاعة إلاّ من أذن له الرحمن ورضي له قولاً﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب لا تنفع الشفاعة أحداً إلاّ لمن أذن له الرحمن في أن يشفع له، ورضي لأجله شفاعة الشافع، وهو الذي كان في الدنيا من أهل لا إله إلا الله، قاله ابن عباس ﴿يعلمُ ما بينَ أيديهم وما خلفهم﴾ أي يعلم تعالى أحوال الخلائق فلا تخفى عليه خافية من أمور الدنيا وأمور الآخرة ﴿ولا يُحيطون به علماً﴾ أي لا تحيط علومهم بمعلوماته جل وعلا[٢] ﴿وعنَت الوجوه للحيّ القيوم﴾ أي ذلت وخضعتْ وجوه الخلائق للواحد القهار جبار السموات والأرض الذي لا يموت قال الزمخشري: المراد بالوجوه وجوهُ العصاة وأنهم إذا عاينوا يوم القيامة الخيبة والشقوة وسوء الحساب، صارت وجوهُهم عانيةً أي ذليلة خاضعة مثل وجوه العُنَاة وهم الأسارى كقوله ﴿سيئت وجوه الذين كفروا﴾[٣] ﴿وقد خاب من حمل ظُلماً﴾ أي خسر من أشرك بالله، ولم ينجح ولا ظفر بمطلوبه ﴿ومن يعملْ من الصالحات وهو مؤمنٌ﴾ أي من قدَّم الأعمال الصالحة بشرط الإيمان ﴿فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾ أي فلا يخاف ظلماً بزيادة سيئاته، ولا بخساً ونقصاً لحسناته ﴿وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً﴾ أي مثل إنزال الآيات المشتملة على القصص العجيبة أنزلنا هذا الكتاب عليك يا

---

(١) الطبري ١٦/ ٢١٤. (٢) وقيل المراد: لا يحيطون بمعرفة ذاته إذ لا يعرف الله على الحقيقة إلا الله واختاره في التسهيل.
(٣) الكشاف ٣/ ٩٢.

﴿ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ﴾

محمد بلغة العرب ليعرفوا أنه في الفصاحة والبلاغة خارج عن طوق البشر ﴿وصرَّفنا فيه من الوعيد﴾ أي كررنا فيه الإنذار والوعيد ﴿لعلهم يتقون أو يُحدثُ لهم ذكراً﴾ أي كي يتقوا الكفر والمعاصي أو يحدث لهم موعظة في القلوب ينشأ عنها امتثال الأوامر واجتناب النواهي ﴿فتعالى اللهُ الملِكُ الحقُّ﴾ أي جلَّ الله وتقدَّس الملك الحق الذي قهر سلطانه كل جبار عمّا يصفه به المشركون من خلقه ﴿ولا تعْجل بالقرآنِ من قبل أنْ يُقضى إليك وحيه﴾ أي إذا أقرأك جبريل القرآن فلا تتعجل بالقراءة معه ، بل استمعْ إليهِ واصبر حتى يفرغَ من تلاوته وحينئذٍ تقرأه أنت قال ابن عباس : كان عليه السلام يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصاً على حفظ القرآن ومخافة النسيان فنهاه الله عن ذلك قال القرطبي : وهذا كقوله تعالى ﴿لا تحرِّكْ به لسانك لتعجلَ به﴾[1] ﴿وقل ربِّ زدني علماً﴾ أي سلْ الله عز وجل زيادة العلم النافع قال الطبري : أمره بمسألته من فوائد العلم ما لا يعلم[2] ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبلُ﴾ أي وصيناه أن لا يأكل من الشجرة من القديم ﴿فنسي ولم نجدْ له عزماً﴾ أي نسي أمرنا ولم نجد له حزماً وصبراً عمّا نهيناه عنه ﴿وإذْ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى﴾ يذكر تعالى تشريف آدم وتكريمه وما فضّله به على كثير من الخلق أي واذكر يا محمد حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحيةٍ وتكريم فامتثلوا الأمر إلا إبليس فإنه أبى السجود وعصى أمر ربه قال الصاوي : كررت هذه القصة في سبع سور من القرآن تعليماً للعباد امتثال الأوامر ، واجتناب النواهي وتذكيراً لهم بعداوة إبليس لأبيهم آدم[3] ﴿فقلنا يا آدمُ إنَّ هذا عدوٌّ لك ولزوجك﴾ أي ونبهنا آدم فقلنا له إن إبليس شديد العداوة لك ولحواء ﴿فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى﴾ أي لا تطيعاه فيكون سبباً لإخراجكما من الجنة فتشقيان ، وإنما اقتصر على شقائه مراعاةً للفواصل ولاستلزام شقائهْ لشقائها قال ابن كثير : المعنى إيّاك أن تسعى في إخراجك من الجنة فتتعب وتشقى في طلب رزقك ، فإنك ههنا في عيشٍ رغيد ، بلا كلفةٍ ولا مشقة[4] ﴿إنَّ لكَ ألاَّ تجوع فيها ولا تعْرى﴾ أي إنَّ لك يا آدم ألاَّ ينالك في الجنة الجوعُ ولا العريُ ﴿وأنَّك لا تظمأ فيها ولا تضْحى﴾ أي ولك أيضاً ألاّ يصيبك العطش فيها ولا حر الشمس ، لأن الجنة دار السرور والحبور ، لا تعب فيها ولا نصب ، ولا حر ولا ظمأ بخلاف دار الدنيا ﴿فوسوس إليه الشيطان﴾ أي حدَّثه خفيةً بطريق

(١) القرطبي ١١/ ٢٥٠ . (٢) الطبري ١٦/ ٢٢٠ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٦٦ . (٤) المختصر ٢/ ٤٩٦ .

هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ

الوسوسة ﴿**قال يا آدمُ هلْ أدلُّك على شجرة الخُلْد ومُلْكٍ لا يَبْلى**﴾ أي قال له إبليس اللعين : هل أدلك يا آدم على شجرةٍ من أكل منها خُلّد ولم يمت أصلاً ، ونال المُلك الدائم الذي لا يزول أبداً ؟ وهذه مكيدة ظاهرها النصيحة ومتى كان اللعين ناصحاً ؟ ﴿**فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما**﴾ أي أكل آدم وحواء من الشجرة التي نهاهما الله عنها فظهرت لهما عوراتهما قال ابن عباس : عريا عن النور الذي كان الله تعالى قد ألبسهما إياه حتى بدت فروجهما[1] ﴿**وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة**﴾ أي شرعا يأخذان من أوراق الجنة ويغطيان بها عوراتهما ليستترا بها ﴿**وعصى آدمُ ربه فغوى**﴾ أي خالف آدم أمر ربه بالأكل من الشجرة فضلَّ عن المطلوب الذي هو الخلود في الجنة حيث اغتر بقول العدوّ قال أبو السعود : وفي وصفه بالعصيان والغواية ـ مع صغر زلته ـ تعظيمٌ لها وزجرٌ بليغ لأولاده عن أمثالها[2] ﴿**ثم اجتباه ربُّه فتاب عليه وهدى**﴾ أي ثم اصطفاه ربه فقرَّبه إليه وقبل توبته وهداه إلى الثبات على التوبة والتمسك بأسباب الطاعة ﴿**قال اهبطا منها جميعاً بعضُكم لبعضٍ عدوٌّ**﴾ أي قال الله لآدم وحواء : إنزلا من الجنة إلى الأرض مجتمعين بعضُ ذريتكما لبعض عدوٌّ بسبب الكسب والمعاش واختلاف الطبائع والرغبات قال الزمخشري : لما كان آدم وحواء أصلي البشر جُعلا كأنهما البشر في أنفسهما فخوطبا مخاطبتهم[3] ﴿**فإمَّا يأتينَّكم مني هدىً**﴾ أي فإن جاءكم من جهتي الكتب والرسل لهدايتكم ﴿**فمن اتَّبع هُدايَ فلا يضلُّ ولا يَشْقى**﴾ أي فمن تمسَّك بشريعتي واتَّبع رسلي فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة قال ابن عباس : ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألاّ يضلَّ في الدنيا ، ولا يشقى في الآخرة وتلا الآية[4] ﴿**ومَن أعرض عن ذكري فإنَّ له معيشةً ضنكاً**﴾ أي ومن أعرض عن أمري وما أنزلته على رسلي من الشرائع والأحكام فإن له في الدنيا معيشة قاسيةً شديدة وإن تنعَّم ظاهره ﴿**ونحشره يوم القيامة أعمى**﴾ أي ونحشره في الآخرة أعمى البصر قال ابن كثير : من أعرض عن أمر الله وتناساه فإن له حياة ضنكاً في الدنيا ، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره ، بل صدره ضيِّقٌ حرج لضلاله وإن تنعَّم ظاهره ولبس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء ، فإن قلبه في قلقٍ وحيرة وشك ، وقيل : يُضيَّق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه فيه[5] ﴿**قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنتُ بصيراً**﴾ أي قال الكافر : يا رب بأي ذنبٍ عاقبتني بالعمى وقد كنت في الدنيا بصيراً ؟ ﴿**قال كذلك أتتك آياتُنا فنسيتها**

(١) أبو السعود ٣/ ٣٢٧ . (٢) نفس المرجع السابق والصفحة . (٣) الكشاف ٣/ ٩٣ . (٤) القرطبي ١١/ ٢٥٨ . (٥) المختصر ٢/ ٤٩٧ .

بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ

وكذلك اليوم تُنسى﴾ أي قال الله تعالى له : لقد أتتك آياتنا واضحة جلية فتعاميتَ عنها وتركتها ، وكذلك تُترك اليوم في العذاب جزاءً وفاقاً ﴿وكذلك نجزي من أسرف ولم يُؤمن بآيات ربه﴾ أي ومثل ذلك الجزاء الموافق للخيانة والتكذيب بآيات الله نعاقب من أسرف بالانهماك في الشهوات، ولم يصدّق بكلام ربه وآياته البينات ﴿ولعذابُ الآخرة أشدُّ وأبقى﴾ أي عذاب جهنم أشدُّ من عذاب الدنيا لأنَّ عذابها أدوم وأثبت لأنه لا ينقطع ولا ينقضي ﴿أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون﴾ أي أفلم يتبيَّن لكفار مكة الذين كذبوك كم أهلكنا قبلهم من الأمم الخالية المكذبين لرسلهم ﴿يمشون في مساكنهم﴾ أي يرون مساكن عاد وثمود ويعاينون آثار هلاكهم أفلا يتعظون ويعتبرون ؟ ﴿إنَّ في ذلك لآيات لأولي النُّهى﴾ أي إنَّ في آثار هذه الأمم البائدة لدلالات وعِبراً لذوي العقول السليمة ﴿ولولا كلمةٌ سبقتْ من ربك لكان لزاماً وأجلٌ مسمًّى﴾ أي لولا قضاءُ الله بتأخير العذاب عنهم ووقتٌ مسمًّى لهلاكهم لكان العذاب واقعاً بهم قال الفراء : في الآية تقديم وتأخيرٌ والمعنى ولولا كلمةٌ وأجلٌ مسمًّى لكان لزاماً أي لكان العذاب لازماً لهم ، وإنما أخَّره لتعتدل رءوس الآي[1] ﴿فاصبر على ما يقولون﴾ أي فاصبر يا محمد على ما يقول هؤلاء المكذبون من قومك ﴿وسبِّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها﴾ أي صلِّ وأنت حامد لربك قبل طلوع الشمس صلاة الصبح ، وقبل غروبها صلاة العصر ﴿ومن آناءِ الليلِ فسبّح وأطراف النهار﴾ أي وصلِّ لربك في ساعات الليل وفي أول النهار وآخره ﴿لعلَّك ترضى﴾ أي لعلَّك تُعطى ما يرضيك قال القرطبي : أكثر المفسرين أن هذه الآية إشارة إلى الصلوات الخمس ﴿قبلَ طلوع الشمس﴾ صلاة الصبح ﴿وقبل غروبها﴾ صلاة العصر ﴿ومن آناءِ الليل﴾ صلاة العشاء ﴿وأطراف النهار﴾ صلاة المغرب والظهر ، لأن الظهر في آخر طرف النهار الأول ، وغروب الشمس آخر طرف النهار الأخير[2] ﴿ولا تمُدَّنَّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ أي لا تنظر إلى ما متعنا به أصنافاً من الكفار من نعيم الدنيا وبهرجها الخادع ﴿زهرة الحياة الدنيا﴾ أي زينة الحياة الدنيا ﴿لنفتنهم فيه﴾ أي لنبتليهم ونختبرهم بهذا النعيم حتى يستوجبوا العذاب بكفرهم ﴿ورزقُ

(١) زاد المسير ٥/ ٣٣٣ . (٢) القرطبي ١١/ ٢٦١ .

ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

﴿ربك خيرٌ وأبقى﴾ أي ثواب الله خير من هذا النعيم الفاني وأدوم قال المفسرون : الخطاب للرسول ﷺ والمراد به أُمته لأنه عليه السلام كان أزهد الناس في الدنيا وأشدَّ رغبة فيما عند الله ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾ أي وأْمر يا محمد أهلك وأمتك بالصلاة واصبر أنت على أدائها بخشوعها وآدابها ﴿لا نسألك رزقاً نحن نرزقك﴾ أي لا نكلفك أن ترزق نفسك وأهلك بل نحن نتكفل برزقك وإياهم ﴿والعاقبة للتقوى﴾ أي العاقبة الحميدة لأهل التقوى قال ابن كثير : أي حسن العاقبة وهي الجنة لمن اتقى الله[1] ﴿وقالوا لولا يأتينا بآيةٍ من ربه﴾ أي قال المشركون هلاّ يأتينا بمعجزة تدل على صدقه ؟ ﴿أولم تأتهم بيّنةُ ما في الصحف الأولى﴾ أي أولم يكتفوا بالقرآن المعجزة الكبرى لمحمد عليه السلام المحتوي على أخبار الأمم الماضية ؟ والاستفهام للتوبيخ والتقريع قال في البحر : اقترح المشركون ما يختارون على ديدنهم في التعنت فأجيبوا بأن هذا القرآن الذي سبق التبشير به في الكتب الإلهية السابقة أعظم الآيات في الإعجاز وهو الآية الباقية إلى يوم القيامة[2] ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذابٍ من قبله﴾ أي لو أنا أهلكنا كفار مكة من قبل نزول القرآن وبعثة محمد عليه السلام ﴿لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً﴾ أي لقالوا يا ربنا هلاّ أرسلت إلينا رسولاً حتى نؤمن به ونتّبعه ﴿فنتّبع آياتك من قبل أنْ نذلّ ونخزى﴾ أي فنتمسك بآياتك من قبل أن نذلّ بالعذاب ونفتضح على رءوس الأشهاد قال المفسرون : أراد تعالى أن يبيّن أنه لا حجة لأحد على الله بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب فلم يترك لهم حجة ولا عذراً ﴿قل كلٌّ متربصٌ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المكذبين كلٌّ منا ومنكم منتظر دوائر الزمان ولمن يكون النصر ﴿فتربصوا﴾ أمر تهديد أي فانتظروا العاقبة والنتيجة ﴿فستعلمون مَنْ أصحاب الصراط السويّ﴾ أي فستعلمون عن قريب من هم أصحاب الطريق المستقيم هل نحن أم أنتم ؟ ﴿ومن اهتدى﴾ أي اهتدى إلى الحق وسبيل الرشاد ومن بقي على الضلال قال القرطبي : وفي هذا ضربٌ من الوعيد والتخويف والتهديد ختمت به السورة الكريمة[3] .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه الفصاحة والبيان والبديع ما يلي :

١ ـ التشبيه ﴿كذلك نقص عليك﴾ وهو تشبيه مرسل مجمل .

(١) المختصر ٢/٥٠٠ . (٢) البحر المحيط ٦/ ٢٩٢ . (٣) القرطبي ١١/ ٢٦٥ .

٢ ـ الاستعارة ﴿وساء لهم يوم القيامة حملاً﴾ شبَّه الوزر بالحمل الثقيل بطريق الاستعارة التصريحية .

٣ ـ الكناية ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ كناية عن أمر الدنيا وأمر الآخرة .

٤ ـ الطباق بين ﴿أعمى . . وبصيراً﴾ .

٥ ـ التشبيه التمثيلي ﴿زهرة الحياة الدنيا﴾ مثَّل لنعم الدنيا بالزهر وهو النوار لأن الزهر له منظر حسن ثم يذبل ويضمحل وكذلك نعيم الدنيا .

٦ ـ الوعيد والتهديد ﴿فتربصوا﴾ .

٧ ـ جناس الاشتقاق ﴿أرسلت إلينا رسولاً﴾ .

٨ ـ السجع اللطيف غير المتكلف مثل ﴿ظلماً ، هضماً ، علماً﴾ ومثل ﴿تشقى ، تعرى ، ترضى﴾ الخ . . .

لطيفة : قال الناصر : في الآية سرٌ بديع من البلاغة يسمى قطع النظير عن النظير ، وذلك أنه قطع الظمأ عن الجوع ، والضحو عن الكسوة مع ما بينهما من التناسب ، والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها ، ولو قرن كلاً بشكله لتوهم أن المعدودات نعمة واحدة ، على أن في الآية سراً آخر وهو قصد تناسب الفواصل ، ولو قرن الظمأ بالجوع لانتثر سلك رءوس الآي[١] .

فائدة : قال الشهاب : ليس المراد بحكاية قول من قال ﴿عشراً﴾ أو ﴿يوماً﴾ أو ﴿ساعة﴾ حقيقة اختلافهم في مدة اللبث ، ولا الشك في تعيينه ، بل المراد أنه لسرعة زواله عبَّر عن قلته بما ذكر ، فتفنن في الحكاية وأتى في كل مقام بما يليق به[٢] .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة طه » .

* * *

(١) حاشية الكشاف ٣/ ٩٤ . (٢) حاشية الشهاب على البيضاوي .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

هذه السورة مكية وهي تعالج موضوع العقيدة الإسلامية في ميادينها الكبيرة « الرسالة ، الوحدانية ، البعث والجزاء » وتتحدث عن الساعة وشدائدها ، والقيامة وأهوالها ، وعن قصص الأنبياء المرسلين .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن غفلة الناس عن الآخرة ، وعن الحساب والجزاء ، بينما القيامة تلوح لهم وهم في غفلةٍ عن ذلك اليوم الرهيب ، وقد شغلتهم مغريات الحياة عن الحساب المرقوب .

* ثم انتقلت إلى الحديث عن المكذبين ، وهم يشهدون مصارع الغابرين ، ولكنهم لا يعتبرون ولا يتعظون ، حتى إذا ما فاجأهم العذاب ، رفعوا أصواتهم بالتضرع والاستغاثة ولكن هيهات .

* وتناولت السورة دلائل القدرة في الأنفس والآفاق ، لتنبه على عظمة الخالق المدبر الحكيم ، فيما خلق وأبدع ، ولتربط بين وحدة الكون ، ووحدة الإِلَه الكبير .

* وبعد عرض الأدلة والبراهين ، الشاهدة على وحدانية رب العالمين ، تذكر السورة حال المشركين وهم يتلقون الرسول عليه السلام بالاستهزاء والسخرية والتكذيب ، وتعقّب على ذلك بسنة الله الكونية في إهلاك الطغاة المجرمين .

* ثم تتناول السورة الكريمة قصص بعض الرسل ، وتتحدث بالإسهاب عن قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه الوثنيّين ، في أسلوب مشوّق ، فيه من نصاعة البيان ، وقوة الحجة والبرهان ما يجعل الخصم يقر بالهزيمة في خنوعٍ واستسلام ، وفي قصته عبر وعظات .

* وتتابع السورة الحديث عن الرسل الكرام فتتحدث عن « إسحاق ، ويعقوب ، ولوط ، ونوح ، وداود ، وسليمان ، وأيوب ، وإسماعيل ، وإدريس ، وذي الكفل ، وذي النون ، وزكريا ، وعيسى » بإيجاز مع بيان الأهوال والشدائد التي تعرضوا لها ، وتختم ببيان رسالة سيد المرسلين محمد بن عبد الله المرسل رحمة للعالمين .

التسمية : سميت «سورة الأنبياء» لأن الله تعالى ذكر فيها جملةً من الأنبياء الكرام في استعراضٍ

سريع ، يطول أحياناً ويقصر أحياناً ، وذكر جهادهم وصبرهم وتضحيتهم في سبيل الله ، وتفانيهم في تبليغ الدعوة لإسعاد البشرية .

اللغــة : ﴿أضغاث﴾ أخلاط جمع ضغث وهي الأهاويل التي يراها الإنسان في منامه ﴿قصمنا﴾ القصْم : كسر الشيء الصلب يقال : قصمتُ ظهره وانقصمت سنُّه إذا انكسرت ﴿يركضون﴾ الركضُ : العدو بشدَّة والركض ضرب الدابة بالرِّجل حثاً على العدو ﴿خـامدين﴾ خمدت النار طفئت والخمود الهمود ويراد به الموت تشبيهاً بخمود النار ﴿فيدمغه﴾ دمَغَه : أصاب دماغه نحو كَبَده ورأسَه أصاب كبده ورأسه ﴿يستحسرون﴾ يعيون مأخوذ من الحسير وهو البعير المنقطع بالإعياء والتعب .

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَٰلَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ﴾

التفسيـر : ﴿اقتـرب للنـاس حسابهـم﴾ أي قرب ودنا وقت حساب الناس على أعمالهم ﴿وهـم في غفلةٍ مُعرضـون﴾ أي وهم مستغرقون في الشهوات ، غافلون عن ذلك اليوم الرهيب ، لا يعملون للآخرة ولا يستعدون لها كقول القائل : الناس في غفلاتهم : ورحَى المنيَّة تطحـن[1] ، وإنما وصف الآخرة بالاقتراب لأن كل ما هو آتٍ قريب ﴿مـا يأتيهـم من ذكـرٍ من ربِّهـم محْدث﴾ أي ما يأتيهم شيءٌ من الوحي والقرآن من عند الله متجدّد في النزول فيه عظةٌ لهم وتـذكير ﴿إلاّ استمعـوه وهـم يلعبـون﴾ أي إلاّ استمعوا القرآن مستهزئين قال الحسن : كلما جُدِّد لهم الذكرُ استمروا على الجهـل[2] ﴿لاهيـةً قلوبهـم﴾ أي ساهيةً قلوبهم عن كلام الله ، غافلةً عن تدبر معناه ﴿وأسرُّوا النجوى الذيـن ظلمـوا﴾ أي تناجى المشركون فيما بينهم سراً ﴿هـل هذا إلا بشـرٌ مثلكُـم﴾ أي قالوا فيما بينهم خفيةً هل محمد الذي يدّعي الرسالة إلا شخص مثلكم يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟ ﴿أفتأتـون السحـر وأنتم تُبصـرون﴾ أي أفتقبلون السحر وأنتم تعلمون أنه سحر ؟ قال الألوسي : أرادوا أن ما أتى به محمد عليه السلام من قبيل السحر ، وذلك بناءً على ما ارتكز في اعتقادهم أن الرسول لا يكون إلا ملكاً وأن كل ما جاء به من الخوارق من قبيل السحر وعنوا بالسحر القرآن[3] ﴿قـال ربـي يعلـم القـول في السمـاء والأرض﴾ أي قال محمد ﷺ إنَّ ربي لا يخفى عليه شيء مما يقال في السماء والأرض ﴿وهـو السميـع العليـم﴾ أي السميع بأقوالكم ، العليم بأحوالكم ، وفي هذا تهديدٌ لهم ووعيد ﴿بـل قالوا أضغاثُ

(١) البيت لأبي العتاهية كذا في ابن كثير ٢/ ٥٠١ . (٢) القرطبي ١١/ ٢٦٨ . (٣) الألوسي ١٧/ ٩ .

ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَـٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ

أحلام﴾ هذا إضرابٌ من جهته تعالى وانتقال إلى ما هو أشنع وأقبح حيث قالوا عن القرآن إنه أخلاط منامات ﴿بل افتراه﴾ أي اختلقه محمد من تلقاء نفسه ﴿بل هو شاعر﴾ أي بل محمد شاعر وما أتى به شعر يخيل للسامع أنه كلام رائع مجيد قال في التسهيل : حكى عنهم هذه الأقوال الكثيرة ليظهر اضطراب أمرهم وبطلان أقوالهم فهم متحيرون لا يستقرون على شيء[1] ﴿فليأتنا بآيةٍ كما أُرسل الأولون﴾ أي فليأتنا محمدٌ بمعجزةٍ خارقة تدل على صدقه كما أُرسل موسى بالعصا وصالح بالناقة ﴿ما آمنتْ قبلهم من قريةٍ أهلكناها أفهم يؤمنون﴾ أي ما صدَّق قبل مشركي مكة أهل القرى الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات بل كذبوا فأهلكهم الله أفيصدّق هؤلاء بالآيات لو رأوها ؟ كلا قال أبو حيان : وهذا استبعادٌ وإنكار أي هؤلاء أعتى من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات فلو أعطيناهم ما اقترحوا لكانوا أضلَّ من أولئك واستحقوا عذاب الاستئصال ولكنَّ الله تعالى حكم بإبقائهم لعلمه أنه سيخرج منهم مؤمنون[2] ﴿وما أرسلنا قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم﴾ أي وما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رسلاً من البشر لا ملائكة فكيف ينكر هؤلاء المشركون رسالتك ويقولون : ما هذا إلا بشر مثلكم ؟ ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ أي فاسألوا يا أهل مكة العلماء بالتوراة والإنجيل هل كان الرسل الذين جاءوهم بشراً أم ملائكة ؟ إن كنتم لا تعلمون ذلك ﴿وما جعلناهم جسَداً لا يأكلون الطعام﴾ أي ما جعلنا الأنبياء أجساداً لا يأكلون ولا يشربون كالملائكة بل هم كسائر البشر يأكلون ويشربون ، وينامون ويموتون ﴿وما كانوا خالدين﴾ أي ما كانوا مخلَّدين في الدنيا لا يموتون ﴿ثم صدقناهم الوعدَ فأنجيناهم ومن نشاء﴾ أي ثم صدقنا الأنبياء ما وعدناهم به من نصرهم وإهلاك مكذبيهم وإنجائهم مع أتباعهم المؤمنين ﴿وأهلكنا المسرفين﴾ أي وأهلكنا المكذبين للرسل ، المجاوزين الحدَّ في الكفر والضلال ، وهذا تخويفٌ لأهل مكة ﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكرُكُمْ﴾ اللام للقسم أي والله لقد أنزلنا إليكم يا معشر العرب كتاباً عظيماً مجيداً لا يماثله كتاب فيه شرفُكم وعزُّكم لأنه بلغتكم ﴿أفلا تعقلون﴾ أي أفلا تعقلون هذه النعمة فتؤمنون بما جاءكم به محمد عليه السلام ؟ ﴿وكم قصمنا من قريةٍ كانت ظالمة﴾ أي وكثيراً أهلكنا من أهل القرى الذين كفروا بآيات الله وكذبوا رسله ﴿وأنشأنا بعدهم قوماً آخرين﴾

(١) التسهيل ٣/٢٣ . (٢) البحر ٦/٢٩٨ .

﴿وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

أي وخلقنا أمة أخرى بعدهم ﴿فلما أحسّوا بأسنا إذا هم منها يركضون﴾ أي فلما رأوا عذابنا بحاسة البصر وتيقنوا نزوله إذا هم يهربون فارين منهزمين قال أبو حيان : لما أدركتهم مقدمة العذاب ركبوا دوابّهم يركضونها هاربين منهزمين[1] ﴿لا تركضوا وارجعوا إلى ما أُترفتم فيه﴾ أي تقول لهم الملائكة استهزاءً : لا تركضوا هاربين من نزول العذاب وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور ولين العيش ﴿ومساكنكم﴾ أي ارجعوا إلى مساكنكم الطيبة ﴿لعلكم تُسألون﴾ أي لعلكم تُسألون عما جرى عليكم ، وهذا كله من باب الاستهزاء والتوبيخ ﴿قالوا يا ويلنا إنّا كنا ظالمين﴾ أي قالوا يا هلاكنا ودمارنا إنا كنا ظالمين بالإشراك وتكذيب الرسل ، اعترفوا وندموا حين لا ينفعهم الندم ﴿فما زالت تلك دعواهم﴾ أي فما زالت تلك الكلمات التي قالوها يكررونها ويردّدونها ﴿حتى جعلناهم حصيداً خامدين﴾ أي حتى أهلكناهم بالعذاب وتركناهم مثل الحصيد موتى كالزرع المحصود بالمناجل ﴿وما خلقنا السماءَ والأرضَ وما بينهما لاعبين﴾ أي لم نخلق ذلك عبثاً وباطلاً وإنما خلقناهما دلالةً على قدرتنا ووحدانيتنا ليعتبر الناس ويستدلوا بالخلق على وجود الخالق المدبّر الحكيم ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً﴾ قال ابن عباس : هذا ردٌّ على من قال اتخذ الله ولداً والمعنى لو أردنا أن نتخذ ما يُتلهى به من زوجةٍ أو ولد ﴿لاتخذناه من لَدُنَّا﴾ أي لاتخذناه من عندنا من الحور العين أو الملائكة ﴿إن كنا فاعلين﴾ أي لو أردنا فعل ذلك لاتخذنا من لدنا ولكنه منافٍ للحكمة فلم نفعله ﴿بل نقذف بالحقِّ على الباطل فيدمغه﴾ أي بل نرمي بالحق المبين على الباطل المتزعزع فيقمعه ويُبطله ﴿فإذا هو زاهق﴾ أي هالك تالف ﴿ولكم الويل مما تصفون﴾ أي ولكم يا معشر الكفار العذاب والدمارمن وصفكم الله تعالى بما لا يجوز من الزوجة والولد ﴿وله من في السموات والأرض﴾ أي وله جلَّ وعلا جميع المخلوقات ملكاً وخلقاً وتصرفاً فكيف يجوز أن يشرك به ما هو عبدٌ ومخلوق له ؟ ﴿ومنْ عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون﴾ أي والملائكة الذين عبدتموهم من دون الله لا يتكبرون عن عبادة مولاهم ولا يَعْيَون ولا يملُّون ﴿يُسبّحون الليلَ والنهار لا يفتُرون﴾ أي هم في عبادة دائمة ينزّهون الله عما لا يليق به

(١) البحر ٦/٣٠٢ .

أَمِ اتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَـٰنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

ويصلّون ويذكرون الله ليل نهارَ لا يضعفون ولا يسأمون **﴿أم اتخذوا آلهةً من الأرض هم يُنشرون﴾** لما ذكر الدلائل على وحدانيته وأن من في السموات والأرض ملكٌ له وأن الملائكة المقربين في طاعته وخدمته عاد إلى ما كان عليه من توبيخ المشركين وذمهم وتسفيه أحلامهم ، و**﴿أمْ﴾** منقطعة بمعنى بل والهمزة فيها استفهام معناه التعجب والإنكار والمعنى هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهةً من الأرض قادرين على إحياء الموتى ؟ كلا بل اتخذوا آلهة جماداً لا تتصف بالقدرة على شيء فهي ليست بآلهة على الحقيقة لأن من صفة الإلّه القدرةُ على الإحياء والإماتة **﴿لو كان فيهما آلهةٌ إلاّ الله لفسدتا﴾** هذا برهان على وحدانيته تعالى أي لو كان في الوجود آلهة غير الله لفسد نظام الكون كله لما يحدث بين الآلهة من الاختلاف والتنازع[1] في الخلق والتدبير وقصد المغالبة ، ألا ترى أنه لا يوجد ملِكان في مدينة واحدة ، ولا رئيسان في دائرة واحدة ؟ **﴿فسبحان الله ربِّ العرش عما يصفون﴾** أي تنزّه الله الواحد الأحد خالق العرش العظيم عما يصفه به أهل الجهل من الشريك والزوجة والولد **﴿لا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسألون﴾** أي لا يسأل تعالى عمّا يفعل لأنه مالك كل شيء والمالك يفعل في ملكه ما يشاء ، ولأنه حكيم فأفعاله كلُّها جارية على الحكمة ، وهم يُسألون عن أعمالهم لأنهم عبيد **﴿أم اتخذوا من دونه آلهة﴾** كرّر هذا الإنكار استعظاماً للشرك ومبالغة في التوبيخ أي هل اتخذوا آلهة من دون الله تصلح للعبادة والتعظيم ؟ **﴿قل هاتوا برهانكم﴾** أي قل يا محمد لأولئك المشركين ائتوني بالحجة والبرهان على ما تقولون **﴿هذا ذكرُ من معي وذكرُ من قبلي﴾** أي هذا الكتاب الذي معي والكتب التي من قبلي كالتوراة والإنجيل ليس فيها ما يقتضي الإشراك بالله ، ففي أي كتابٍ نزل هذا ؟ في القرآن أم في الكتب المنزّلة على سائر الأنبياء ؟ ! فما زعمتموه من وجود الآلهة لا تقوم عليه حجة لا من جهة العقل ولا النقل ، بل كتب الله السابقة شاهدة بتنزيهه عن الشركاء والأنداد **﴿بل أكثرهم لا يعلمون الحقَّ فهم معرضون﴾** أي بل أكثر المشركين لا يعلمون التوحيد فهم معرضون عن النظر والتأمل في دلائل الايمان .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ التنكير في غفلة للتعظيم والتفخيم **﴿وهم في غفلة﴾** .

(١) قال المفسرون : في الآية دليل على التمانع الذي أورده الأصوليون وذلك أنا لو فرضنا إلّهين فأراد أحدهما شيئاً وأراد الآخر نقيضه ، فإما أن تنفذ إرادة كل منهما وذلك محال لاستحالة اجتماع النقيضين ، وإما أن تنفذ إرادة واحد منهما دون الآخر فيكون الأول الذي تنفذ إرادته هو الإله ، والثاني عاجزٌ فلا يصلح أن يكون إلّهاً .

٢ ـ صيغة المبالغة ﴿السميع العليم﴾ .

٣ ـ الإضراب الترقي ﴿بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر﴾ وهذا الاضطراب في وصف القرآن يدل على التردُّد والتحير في تزويرهم للحق الساطع المنير فقولهم الثاني أفسد من الأول ، والثالث أفسد من الثاني .

٤ ـ الإنكار التوبيخي ﴿أفلا تعقلون﴾؟

٥ ـ التشبيه البليغ ﴿حصيداً خامدين﴾ أي جعلناهم كالزرع المحصود وكالنار الخامدة .

٦ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه﴾ شُبِّه الحق بشيء صَلب والباطل بشيء رخو واستعير لفظ القذف والدمغ لغلبة الحق على الباطل بطريق التمثيل فكأنه رمي بجرم صلب على رأس دماغ الباطل فشقّه وفي هذا التعبير مبالغة بديعة في إزهاق الباطل .

٧ ـ طباق السلب ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾ .

٨ ـ التبكيت وإلقام الحجر للخصم ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ .

فـائـدة : سئل كعب عن الملائكة كيف يسبّحون الليل والنهار لا يفترون ؟ أما يشغلهم شأن ، أما تشغلهم حاجة ؟ فقال للسائل : يا ابن أخي جعل لهم التسبيح كما جعل لكم النَّفس ، ألست تأكل وتشرب ، وتقوم وتجلس ، وتجيء وتذهب وأنت تتنفس ؟ فكذلك جُعل لهم التسبيح[1] .

* * *

قال الله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي . . إلى . . أفأنتم له منكرون﴾ من آية (٢٥) إلى نهاية آية (٥٠) .

المناسبة : لما بيَّن تعالى أحوال المشركين وأقام الأدلة والبراهين على وحدانية الله وبطلان تعدد الآلهة ، ذكر هنا أن دعوة الرسل جميعاً إنما جاءت لبيان التوحيد ثم ذكر بقية الأدلة على قدرة الله ووحدانيته في هذا الكون العجيب .

اللغة : ﴿رتْقاً﴾ الرتق : الضمُّ والالتحام وهو ضد الفتق يقال رتقتُ الشيء فأرتق أي التأم ومنه الرتقاء للمنضمة الفرج ﴿تميد﴾ تتحرك وتضطرب ﴿فجاجاً﴾ جمع فجّ وهو المسلك والطريق الواسع ﴿يسْبحُون﴾ يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء ﴿فتبهتهم﴾ تدهشهم وتحيرهم قال الجوهري : بهته بهتاً أخذه بغتة وقال الفراء : بهتَه إذا واجهه بشيء يحيِّره[2] ﴿يكلأكم﴾ يحرسكم ويحفظكم والكلاءة : الحراسة والحفظ .

(١) زاد المسير ٥/ ٣٤٥ . (٢) القرطبي ١١/ ٢٩٠ .

سَبَبُ النّزول : مرَّ النبي ﷺ على أبي سفيان وأبي جهل وهما يتحدثان ، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبي سفيان : هذا نبيٌ بني عبد مناف ! ! فغضب أبو سفيان وقال : ما تنكر أن يكون لبني عبد منافٍ نبيٌّ ؟ فرجع رسول الله ﷺ إلى أبي جهل وقال له : ما أراك منتهياً حتى يصيبك ما أصاب عمَّك الوليد بن المغيرة فنزلت ﴿وإذا رآك الذين كفروا إنْ يتخذونك إلا هُزُواً . .﴾[1] الآية .

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا

التفسِير : ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول﴾ أي وما بعثنا قبلك يا محمد رسولاً من الرسل ﴿إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا﴾ أي إلا أوحينا إليه أنه لا ربَّ ولا معبود بحق سوى الله ﴿فاعبدون﴾ أي فاعبدوني وحدي وخصوني بالعبادة ولا تشركوا معي أحداً ﴿وقالوا اتَّخذ الرحمنُ ولداً﴾ أي قال المشركون اتخذ الله من الملائكة ولداً قال المفسرون : هم حيٌّ من خزاعة قالوا : الملائكة بنات الله ﴿سبحانه﴾ أي تنزّه الله وتقدّس عما يقول الظالمون ﴿بل عبادٌ مُكرمون﴾ أي بل هم عبادٌ مبجّلون اصطفاهم الله فهم مكرمون عنده في منازل عالية ، ومقاماتٍ سامية وهم في غاية الطاعة والخضوع ﴿لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾ أي لا يقولون شيئاً حتى يقوله شأنهُم شأن العبيد المؤدبين وهم بطاعته وأوامره يعملون لا يخالفون ربهم في أمرٍ من الأوامر ﴿يعْلم ما بين أيديهم وما خَلفهم﴾ أي علمه تعالى محيط بهم لا يخفى عليه منهم خافية ﴿ولا يشفعون إلاّ لمن ارتضى﴾ أي لا يشفعون يوم القيامة إلا لمن رضي الله عنه وهم أهل الإيمان كما قال ابن عباس : هم أهل شهادة لا إلّه إلا الله ﴿وهم من خشيته مشفقون﴾ أي وهم من خوف الله ورهبته خائفون حذرون لأنهم يعرفون عظمة الله قال الحسن: يرتعدون من خشية الله ﴿ومنْ يقُل منهم إني إلهٌ من دونه﴾ أي ومن يقل من الملائكة إني إلّهٌ ومعبودٌ مع الله ﴿فذلك نجزيه جهنم﴾ أي فعقوبته جهنم قال المفسرون : هذا على وجه التهديد وعلى سبيل الفرض والتقدير لأن هذا شرط والشرطُ لا يلزم وقوعه والملائكة معصومون ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾ أي مثل ذلك الجزاء الشديد نجزي من ظلم وتعدى حدود الله ﴿أو لم يـر الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾ استفهام توبيخ لمن ادعى مع الله آلهة وردٌّ على عبدة الأوثان أي أولم يعلم هؤلاء الجاحدون أن السموات والأرض كانتا

(١) روح المعاني ١٧/٤٨ .

رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾

شيئاً واحداً ملتصقتين ففصل الله بينهما ورفع السماء إلى حيث هي وأقرَّ الأرض كما هي ؟ قال الحسن وقتادة : كانت السموات والأرض ملتزقتين ففصل الله بينهما بالهواء[1] وقال ابن عباس : كانت السموات رتقاً لا تمطر ، وكانت الأرض رتقاً لا تُنبت ففتق هذه بالمطر ، وهذه بالنبات[2] ﴿وجعلنا من الماء كل شيءٍ حي﴾ أي جعلنا الماء أصل كل الأحياء وسبباً للحياة فلا يعيش بدونه إنسان ولا حيوان ولا نبات ﴿أفلا يؤمنون﴾ أي أفلا يصدّقون بقدرة الله ؟ ﴿وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم﴾ أي جعلنا في الأرض جبالاً ثوابت لئلا تتحرك وتضطرب فلا يستقر لهم عليها قرار ﴿وجعلنا فيها فجاجاً سُبُلاً لعلهم يهتدون﴾ أي وجعلنا في هذه الجبال مسالك وطرقاً واسعة كي يهتدوا إلى مقاصدهم في الأسفار قال ابن كثير : جعل في الجبال ثُغراً يسلكون فيها طرقاً من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ، كما هو المشاهد في الأرض يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه فيجعل الله فيها فجوةً ليسلك الناس فيها من ههنا إلى ههنا[3] ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً﴾ أي جعلنا السماء كالسقف للأرض محفوظة من الوقوع والسقوط وقال ابن عباس : حفظت بالنجوم من الشياطين ﴿وهم عن آياتها معرضون﴾ أي والكفار عن الآيات الدالة على وجود الصانع وقدرته من الشمس والقمر والنجوم وسائر الأدلة والعبر معرضون لا يتفكرون فيما ابدعته يد القدرة من الخلق العجيب والتنظيم الفريد الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة قال القرطبي : بيَّن تعالى أن المشركين غفلوا عن النظر في السموات وآياتها ، من ليلها ونهارها ، وشمسها وقمرها ، وأفلاكها ورياحها ، وما فيها من القدرة الباهرة إذ لو نظروا واعتبروا لعلموا أن لها صانعاً قادراً واحداً يستحيل أن يكون له شريك[4] ﴿وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر﴾ أي وهو تعالى بقدرته نوَّع الحياة فجعل فيها ليلاً ونهاراً هذا في ظلامه وسكونه ، وهذا بضيائه وأنسه ، يطول هذا تارة ثم يقصر أُخرى وبالعكس ، وخلق الشمس والقمر آيتين عظيمتين دالتين على وحدانيته ﴿كلٌّ في فلك يَسْبَحون﴾ أي كلٌّ من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء ﴿وما جعلنا لبشرٍ من قبلك الخُلد﴾ أي وما جعلنا لأحدٍ من البشر قبلك يا محمد البقاء الدائم والخلود في الدنيا ﴿أفئن مِتَّ فهم الخالدون﴾ أي فهل إذا متَّ يا محمد سيخلَّدون بعدك في هذه الحياة ؟ لا لن يكون لهم ذلك بل كلٌّ إلى الفناء قال المفسرون : هذا ردٌّ لقول

(١) القرطبي ١١/ ٢٨٣ . (٢) زاد المسير ٥/ ٣٤٨ . (٣) المختصر ٢/ ٥٠٧ . (٤) القرطبي ١١/ ٢٨٥ .

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾

المشركين ﴿شاعرٌ نتربص به ريب المنون﴾ فأعلم تعالى بأن الأنبياء قبله ماتوا وتولى الله دينه بالنصر والحياطة ، فهكذا نحفظ دينك وشرعك ﴿كلُّ نفسٍ ذائقة الموت﴾ أي كل مخلوق إلى الفناء ولا يدوم إلا الحيُّ القيوم ﴿ونبلوكم بالشرِّ والخير فتنةً﴾ أي ونختبركم بالمصائب والنِّعم لنرى الشاكر من الكافر ، والصابر من القانط قال ابن عباس : نبتليكم بالشدة والرخاء ، والصحة والسَّقم ، والغنى والفقر ، والحلال والحرام ، والطاعة والمعصية ، والهدى والضلال[١] وقال ابن زيد : نختبركم بما تحبون لنرى كيف شكركم ، وبما تكرهون لنرى كيف صبركم[٢] ! ! ﴿وإلينا تُرجعون﴾ أي وإلينا مرجعكم فنجازيكم بأعمالكم ﴿وإذا رآك الذين كفروا إنْ يتخذونك إلاّ هُزُواً﴾ أي إذا رآك كفار قريش كأبي جهل وأشياعه ما يتخذونك إلاّ مهْزُوءاً به يقولون ﴿أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾ استفهام فيه إنكار وتعجيب أي هذا الذي يسب آلهتكم ويُسفّه أحلامكم ؟ ﴿وهم بذكر الرحمن هم كافرون﴾ أي وهم كافرون بالله ومع ذلك يستهزئون برسول الله قال القرطبي : كان المشركون يعيبون من جحد إلهية أصنامهم وهم جاحدون لإلهية الرحمن ، وهذا غاية الجهل[٣] ﴿خلق الإنسان من عَجَل﴾ أي رُكّب الإنسان على العَجلة فخُلق عجولاً يستعجل كثيراً من الأشياء وإن كانت مضرَّة قال ابن كثير : والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ههنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول ﷺ وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلوا ذلك[٤] ولهذا قال ﴿سأوريكم آياتي فلا تستعجلون﴾ أي سأوريكم انتقامي واقتداري على من عصاني فلا تتعجلوا الأمر قبل أوانه ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ أي ويقول المشركون على سبيل الاستهزاء والسخرية : متى هذا العذاب الذي يعدنا به محمد إن كنتم يا معشر المؤمنين صادقين فيما أخبرتمونا به قال تعالى ﴿لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفُّون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم﴾ أي لو عرف الكافرون فظاعة العذاب حين لا يستطيعون دفع العذاب عن وجوههم وظهورهم لأنه محيط بهم من جميع جهاتهم لما استعجلوا الوعيد قال في البحر : وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف لأنه أبلغ في الوعيد وأهيب وقدَّره الزمخشري بقوله : لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكنَّ جهلهم هو الذي هوَّنه عندهم[٥] ﴿ولا هم يُنصرون﴾ أي لا ناصر لهم من عذاب الله ﴿بل تأتيهم بغتةً فتبهتُهم﴾ أي بل تأتيهم الساعة فجأة فتدهشهم وتحيرهم ﴿فلا يستطيعون ردَّها ولا هم يُنْظرون﴾

(١) المختصر ٢/٥٠٨ . (٢) ابن الجوزي ٥/ ٣٥٠ . (٣) القرطبي ١١/ ٢٨٨ . (٤) المختصر ٢/٥٠٨ . (٥) البحر ٦/ ٣١٣ .

﴿فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾

أي فلا يقدرون على صرفها عنهم ولا يُمهلون ويؤخرون لتوبةٍ واعتذار ﴿ولقد استهزىء برسلٍ من قبلك﴾ تسلية لرسول الله ﷺ عن استهزاء المشركين أي والله لقد استهزىء برسلٍ أولي شأن خطير وذوي عدد كثير من قبلك يا محمد ﴿فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون﴾ أي فنزل وحلَّ بالساخرين من الرسل العذاب الذي كانوا يستهزئون به قال أبو حيان : سلاّه تعالى بأنَّ من تقدَّمه من الرسل وقع من أممهم الاستهزاء بهم ، وأن ثمرة استهزائهم جَنَوْها هلاكاً وعقاباً في الدنيا والآخرة فكذلك حال هؤلاء المستهزئين[1] ﴿قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين من يحفظكم من بأس الرحمن في أوقاتكم ؟ ومن يدفع عنكم عذابه وانتقامه إن أراد إنزاله بكم ؟ وهو سؤال تقريع وتنبيه كيلا يغترُّوا بما نالهم من نعم الله ﴿بل هم عن ذكر ربهم معرضون﴾ أي بل هؤلاء الظالمون معرضون عن كلام الله ومواعظه لا يتفكرون ولا يعتبرون ﴿أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا﴾ أي ألهم آلهة تمنعهم من العذاب غيرنا ؟ ﴿لا يستطيعون نصر أنفسهم﴾ أي لا يقدرون على نصر أنفسهم ، فكيف ينصرون عابديهم ؟ ﴿ولا هم منا يُصحبون﴾ أي وليست هذه الآلهة تستطيع أن تجير نفسها من عذاب الله لأنها في غاية العجز والضعف قال ابن عباس : يُصحبون : يُجارون أي لا يُجيرهم منا أحد لأن المجير صاحب لجاره[2] ﴿بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العُمُر﴾ أي متعنا هؤلاء المشركين وآباءهم من قبلهم بما رزقناهم من حطام الدنيا حتى طالت أعمارهم في رخاء ونعمة وحسبوا أن ذلك يدوم فاغتروا بذلك ﴿أفلا يرون أنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ أي أفلا ينظرون فيعتْبرون بأننا نأتي أرضهم فننقصها من أطرافها بالفتح على النبي وتسليط المسلمين عليها؟ ﴿أفهم الغالبون﴾ استفهام بمعنى التقريع والإنكار أي أفهم الغالبون والحالة هذه أم المغلوبون ؟ بل هم المغلوبون الأخسرون الأرذلون ﴿قل إنما أنذركم بالوحي﴾ أي قل لهم يا محمد إنما أخوفكم وأحذركم بوحيٍ من الله لا من تلقاء نفسي ، فأنا مبلِّغٌ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال ﴿ولا يسمع الصُمُّ الدعاء إذا ما يُنْذرون﴾ أي ولكنكم أيها المشركون لشدة جهلكم وعنادكم كالصُمِّ الذين لا يسمعون الكلام والإنذار فلا يتعظون ولا ينزجرون ﴿ولئن مسَّتْهم نفحةٌ من عذاب ربك﴾ أي

(١) البحر ٦/٣١٤ . (٢) زاد المسير ٥/٣٥٣ .

﴿لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

ولئن أصابهم شيء خفيف مما أُنذروا به من عذاب الله ولو كان يسيراً ﴿ليقولُنّ يا ويلنا إنّا كنا ظالمين﴾ أي ليعترفنَّ بجريمتهم ويقولون : يا هلاكنا لقد كنا ظالمين لأنفسنا بتكذيبنا رسل الله ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾ أي ونقيم الموازين العادلة التي توزن بها الأعمال في يوم القيامة ﴿فلا تُظلم نفسٌ شيئاً﴾ أي فلا يُنقص محسنٌ من إحسانه ، ولا يُزاد مسيءٌ على إساءته ﴿وإن كان مثقال حبةٍ من خردل أتينا بها﴾ أي وإن كان العمل الذي عملته زنة حبةٍ من خردل جئنا بها وأحضرناها قال أبو السعود : أي وإن كان في غاية القلة والحقارة ، فإن حبة الخردل مثلٌ في الصغر[1] ﴿وكفى بنا حاسبين﴾ أي كفى بربك أن يكون محصياً لأعمال العباد مجازياً عليها قال الخازن : والغرضُ منه التحذير فإن المحاسب إذا كان في العلم بحيث لا يمكن أن يشتبه عليه شيء ، وفي القدرة بحيث لا يعجز عن شيء فحقيق بالعاقل أن يكون على أشدّ الخوف منه[2] ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكراً للمتقين﴾ أي ولقد أعطينا موسى وهارون التوراة الفارقة بين الحق والباطل والهدى والضلال نوراً وضياءً وتذكيراً للمؤمنين المتقين ﴿الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ أي هم الذين يخافون الله ولم يروه لأنهم عرفوا بالنظر والاستدلال أن لهم رباً عظيماً قادراً يجازي على الأعمال فهم يخشونه وإن لم يروه ﴿وهم من الساعة مشفقون﴾ أي وهم من أهوال القيامة وشدائدها خائفون وجلون ﴿وهذا ذكرٌ مباركٌ أنزلناه﴾ أي وهذا القرآن العظيم كتاب عظيم الشأن فيه ذكرٌ لمن تذكّر ، وعظة لمن اتعظ، كثير الخير أنزلناه عليكم بلغتكم ﴿أفأنتم له منكرون﴾ أي أفأنتم يا معشر العرب منكرون له وهو في غاية الجلاء والظهور ؟ قال الكرخي : الاستفهام للتوبيخ والخطابُ لأهل مكة فإنهم من أهل اللسان يدركون مزايا الكلام ولطائفه ، ويفهمون من بلاغة القرآن ما لا يدركه غيرهم مع أن فيه شرفهم وصيتَهم فلو أنكره غيرهم لكان لهم مناصبته وعداوته[3] .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ جناس الاشتقاق ﴿أرسلنا . . رسول﴾ .

٢ ـ الاستفهام الذي معناه التعجب والإنكار ﴿أولم ير الذين كفروا﴾ .

(١) أبو السعود ٣/ ١٢٤ . (٢) حاشية الجمل ٣/ ١٣١ . (٣) انظر البحر المحيط ٦/ ٣١٢ .

٣ ـ الطباق بين الرتق والفتق في قوله ﴿كانتا رتقاً ففتقناهما﴾ .

٤ ـ التنكير للتعميم ﴿وجعلنا من الماء كل شيءٍ حي﴾ ﴿وما جعلنا لبشر﴾ .

٥ ـ الالتفات من المتكلم إلى الغائب ﴿وهو الذي خلق الليل والنهار﴾ بعد قوله ﴿وجعلنا من الماء﴾ وذلك لتأكيد الاعتناء بالنعم الجليلة التي أنعم بها على العباد .

٦ ـ الطباق بين الشر والخير ﴿ونبلوكم بالشر والخير﴾ .

٧ ـ المبالغة ﴿خُلق الإنسانُ من عجل﴾ جعل لفرط استعجاله كأنه مخلوق من نفس العجل كقول العرب لمن لازم اللعب : هو من لعب وكوصف بعضهم قوماً بقوله «نساؤ هم لُعُب ورجالهم طرب» .

٨ ـ الاستعارة ﴿ولا يسمع الصُمُّ الدعاء﴾ استعار الصُمَّ للكفار لأنهم كالبهائم التي لا تسمع الدعاء ولا تفقه النداء .

٩ ـ الكناية ﴿حبة من خردل﴾ كناية عن العمل ولو كان في غاية القلة والحقارة .

١٠ ـ السجع اللطيف ﴿يهتدون ، يسبحون ، يُنصرون﴾ الخ .

تنبيه : سئل ابن عباس : هل الليل كان قبل أو النهار ؟ فقال : أرأيتم الى السموات والأرض حين كانتا رتقاً هل كان بينهما إلا ظلمة ؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار[١] .

لطيفة : عن ابن عمر أن رجلاً أتاه يسأله عن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما فقال له : إذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله ثم تعال فأخبرني بما قال لك ـ يريد ابن عباس ـ فذهب إليه فسأله فقال ابن عباس : كانت السموات رتقاً لا تُمطر ، وكانت الأرض رتقاً لا تُنبت ، فلما خلق للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر ، وفتق هذه بالنبات ، فرجع الرجل الى ابن عمر فأخبره فقال ابن عمر : قد كنت أقول : ما يعجبني جراءة ابن عباس في تفسير القرآن ، فالآن علمتُ بأنه قد أُوتي في القرآن علماً[٢] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولقد آتينـا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين. . إلى . .وكنا لهم حافظين﴾
من آية (٥١) إلى نهاية آية (٨٢) .

المناسبة : لمّا ذكر تعالى الدلائل على التوحيد والنبوة والمعاد أتبع ذلك بذكر قصص الأنبياء ، وما نال كثيراً منهم من الابتلاء تسليةً للرسول الأعظم ﷺ ليتأسّى بهم في الصبر واحتمال الأذى في سبيل الله تعالى ، وتوطين النفس على مجابهة المشركين أعداء الله .

(١) مختصر ابن كثير ٢/ ٥٠٦ . (٢) نفس المرجع السابق والصفحة .

اللغــــة : ﴿رشده﴾ هداه إلى وجوه الصلاح ﴿التماثيل﴾ جمع تمثال وهو الصورة المصنوعة مشبهة بمخلوق من مخلوقات الله تعالى يقال : مثَّلت الشيء بالشيء أي شبهته به واسم ذلك الممثَّل تمثال ﴿جُذاذاً﴾ فتاتاً والجذُّ : الكسر والقطع قال الشاعر :

بنو المهلَّب جذَّ الله دابرهم ... أمْسوا رماداً فلا أصلٌ ولا طرف[1]

﴿نُكسوا﴾ النَّكْسُ : قلب الشيء بحيث يصير أعلاه أسفل ﴿نافلة﴾ زيادة ومنه النفل لأنه زيادة على ما فرض الله ويقال لولد الولد نافلة لأنه زيادة على الولد ﴿الكرب﴾ الغم الشديد ﴿نفشت﴾ النَّفْش : الرعيُ بالليل بلا راع يقال : نفشت بالليل ، وهملت بالنهار إذا رعت بلا راع .

* وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا

التفسيـــر : ﴿**ولقد آتينا إبراهيم رُشده**﴾ أي والله لقد أعطينا إبراهيم هُداه وصلاحه إلى وجوه الخير في الدين والدنيا ﴿**من قبلُ**﴾ أي من صغره حيث وفقناه للنظر والاستدلال إلى وحدانية ذي الجلال ﴿**وكنا به عالمين**﴾ أي عالمين أنه أهلٌ لما آتيناه من الفضل والنبوة ﴿**إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون**﴾ هذا بيانٌ للرشد الذي أُوتيه إبراهيم من صغره أي حين قال لأبيه آزر وقومه المشركين ما هذه الأصنام التي أنتم مقيمون على عبادتها ؟ وفي قوله ﴿**ما هذه التماثيل**﴾ تحقيرٌ لها وتصغيرٌ لشأنها وتجاهل بها مع علمه بتعظيمهم لها ﴿**قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين**﴾ أي نعبدها تقليداً لأسلافنا قال ابن كثير : لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال[2] ﴿**قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلالٍ مبين**﴾ أي لقد كنتم وأسلافكم الذين عبدوا هذه الأصنام في خطأٍ بيّن بعبادتكم إياها إذ هي جمادات لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ﴿**قالوا أجئتنا بالحقِّ أم أنت من اللاعبين**﴾ أي هل أنت جادٌّ فيما تقول أم لاعب ؟ وهل قولك حقٌّ أم مزاح ؟ استعظموا إنكاره عليهم ، واستبعدوا أن يكون ما هم عليه ضلالاً ، وجوَّزوا أن ما قاله على سبيل المزاح لا الجد فأضرب عن قولهم وأخبر أنه جادٌّ فيما قال غير لاعب ﴿**قال بل ربكم ربُّ السموات والأرض الذي فطرهُنَّ**﴾ أي ربكم الجدير بالعبادة هو ربُّ السموات والأرض الذي خلقهنَّ وأبدعهنَّ لا هذه الأصنام المزعومة ﴿**وأنا على ذلكم من الشاهدين**﴾ أي وأنا شاهد للهِ بالوحدانية بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة كالشاهد الذي تقطع به الدَّعاوى ﴿**وتاللهِ لأكيدنَّ أصنامكم بعد أن تولُّوا مدبرين**﴾ أي وأقسمُ بالله لأمكرنَّ بآلهتكم وأحتالنَّ في وصول الضر

(١) البحر ٦/٣١٨ . (٢) المختصر ٢/٥١١ .

إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾

إليها بعد ذهابكم عنها إلى عيدكم قال المفسرون : كان لهم عيد يخرجون إليه في كل سنة ويجتمعون فيه فقال آزر لإبراهيم : لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا ! ! فخرج معهم إبراهيم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض وقال إني سقيم أشتكي رجلي فتركوه ومضوا ثم نادى في آخرهم ﴿وتاللهِ لأكيدنَّ أصنامكم﴾ فسمعها رجلٌ فحفظها[1] ﴿فجعلهم جُذاذاً﴾ أي كسَّر الأصنام حتى جعلها فتاتاً وحُطاماً ﴿إلا كبيراً لهم﴾ أي إلا الصنم الكبير فإنه لم يكسره قال مجاهد : ترك الصنم الأكبر وعلَّق الفأس الذي كسر به الأصنام في عنقه ليحتجَّ به عليهم[2] ﴿لعلهم إليه يرجعون﴾ أي لعلَّهم يرجعون إلى الصنم فيسألونه عمن كسَّر الأصنام فيتبين لهم عجزه وتقوم الحجة عليهم ﴿قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين﴾ في الكلام محذوفٌ تقديره : فلما رجعوا من عيدهم ونظروا إلى آلهتهم ورأوا ما فُعل بها قالوا على جهة البحث والإنكار والتشنيع والتوبيخ : إنَّ من حطَّم هذه الآلهة لشديد الظلم عظيم الجرم لجراءته على الآلهة المستحقة للتعظيم والتوقير ﴿قالوا سمعنا فتىً يذكرهم يقال له إبراهيم﴾ أي قال من سمع إبراهيم يقول ﴿وتاللهِ لأكيدنَّ أصنامكم﴾ سمعنا فتى يذكرهم بالذم ويسبُّهم ويعيبهم يسمى إبراهيم فلعله هو الذي حطَّم الآلهة ! ﴿قالوا فأتوا به على أعين الناس﴾ أي قال نمرود وأشراف قومه أحضروا إبراهيم بمرأى من الناس حتى يروه ، والغرضُ أن تكون محاكمته على رءوس الأشهاد بحضرة الناس كلهم ليكون عقابه عبرة لمن يعتبر ﴿لعلهم يشهدون﴾ أي لعلهم يحضرون عقابه ويرون ما يصنع به ﴿قالوا أأنتَ فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم﴾ أي هل أنتَ الذي حطَّمت هذه الآلهة يا إبراهيم ؟ ﴿قال بل فعله كبيرهم هذا﴾ أي قال إبراهيم بل حطَّمها الصنم الكبير لأنه غضب أن تعبدوا معه هذه الصغار فكسرها ، والغرض تبكيتُهم وإقامة الحجة عليهم ولهذا قال ﴿فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ أي اسألوا هذه الأصنام من كسرها؟إن كانوا يقدرون على النطق قال القرطبي : والكلام خرج مخرج التعريض وذلك أنهم كانوا يعبدونهم ويتخذونهم آلهة من دون الله كما قال إبراهيم لأبيه ﴿لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾ فقال إبراهيم ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ ليقولوا إنهم لا ينطقون ولا ينفعون ولا يضرون فيقول لهم فلم تعبدونهم ؟ فتقوم عليهم الحجة منهم كما يجوز فرض الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق من نفسه فإنه أقرب في الحجة وأقطع للشبهة[3] ﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾ أي رجعوا إلى عقولهم وتفكروا بقلوبهم ﴿فقالوا إنكم أنتم الظالمون﴾ أي

(١) تفسير الخازن ٣/ ٢٤١ . (٢) القرطبي ١١/ ٢٩٨ . (٣) القرطبي ١١/ ٣٠٠ .

ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾

أنتم الظالمون في عبادة ما لا ينطق ﴿ثم نُكسوا على رءوسهم﴾ أي انقلبوا من الإذعان إلى المكابرة والطغيان ﴿لقد علمتَ ما هؤلاء ينطقون﴾ أي قالوا في لجاجهم وعنادهم : لقد علمتَ يا إبراهيم أن هذه الأصنام لا تتكلم ولا تجيب فكيف تأمرنا بسؤالها ؟ وهذا إقرار منهم بعجز الآلهة ، وحينئذٍ توجهت لإبراهيم الحجة عليهم فأخذ يوبخهم ويعنّفهم ﴿قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم﴾ أي أتعبدون جمادات لا تضر ولا تنفع ؟ ﴿أفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله﴾ أي قبحاً لكم ونتناً لكم وللأصنام التي عبدتموها من دون الله ﴿أفلا تعقلون﴾ أي أفلا تعقلون قبح صنيعكم ؟ ﴿قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم﴾ لمّا لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب عدلوا إلى البطش والتنكيل فقالوا : احرقوا إبراهيم بالنار انتقاماً لآلهتكم ونصرةً لها ﴿إن كنتم فاعلين﴾ أي إن كنتم ناصريها حقاً ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ أي ذات بردٍ وسلامة وجاءت العبارةُ هكذا للمبالغة قال المفسرون : لما أرادوا إحراق إبراهيم جمعوا له حطباً مدة شهر حتى كانت المرأة تمرض فتنذر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحرق إبراهيم ، ثم جعلوه في حفرة من الأرض وأضرموها ناراً فكان لها لهب عظيم حتى إن الطائر ليمرُّ من فوقها فيحترق من شدة وهجها وحرها ، ثم أوثقوا إبراهيم وجعلوه في منجنيق ورموه في النار ، فجاء إليه جبريل فقال : ألك حاجة ؟ قال أمّا إليك فلا ، فقال جبريل : فاسأل ربك ، فقال : «حسبي من سؤالي علمه بحالي» فقال الله : يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم[١] ، ولم تحرق النار منه سوى وثاقه وقال ابن عباس : لو لم يقل الله ﴿وسلاماً﴾ لآذى إبراهيم بردها[٢] ﴿وأرادوا به كيداً﴾ أي أرادوا تحريقه بالنار ﴿فجعلناهم الأخسرين﴾ أي أخسر الناس وأخسر من كل خاسر حيث كادوا لنبيّ اللهِ فردَّ الله كيدهم في نحورهم ﴿ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾ أي ونجينا إبراهيم مع ابن أخيه لوط حيث هاجرا من العراق إلى الشام التي بارك الله فيها بالخِصب وكثرة الأنبياء ووفرة الأنهار والأشجار قال ابن الجوزي : وبركتُها أن الله عزَّ وجل بعث أكثر الأنبياء منها وأكثر فيها الخِصب والأنهار[٣] ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلةً﴾ أي أعطينا إبراهيم - بعدما سأل ربه الولد - إسحاق وأعطيناه كذلك يعقوب نافلةً أي زيادة وفضلاً من غير سؤال قال المفسرون : سأل إبراهيم ربه ولداً فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة زيادة على ما سأل لأنَّ ولد الولد كالولد ﴿وكلاً جعلنا

(١) القرطبي ١١/٣٠٣ . (٢) المختصر ٢/ ٥١٤ . (٣) زاد المسير ٥/٣٦٨ .

وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ

صالحين﴾ أي وكلاً من إبراهيم وإسحاق ويعقوب جعلناه من أهل الخير والصلاح ﴿وجعلناهم أئمةً يهدون بأمرنا﴾ أي جعلناهم قدوةً ورؤساء لغيرهم يرشدون الناس إلى الدين بأمر الله ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات﴾ أي أوحينا إليهم أن يفعلوا الخيرات ليجمعوا بين العلم والعمل ﴿وإقام الصلاةِ وإيتاء الزكاة﴾ أي وأمرناهم بطريق الوحي بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وإنما خصهما بالذكر لأن الصلاة أفضلُ العبادات البدنية ، والزكاة أفضلُ العبادات المالية ﴿وكانوا لنا عابدين﴾ أي موحدين مخلصين في العبادة ﴿ولوطاً آتيناه حُكماً وعلماً﴾ أي وأعطينا لوطاً النبوة والعلم والفهم السديد قال ابن كثير : كان لوط قد آمن بإبراهيم عليه السلام واتَّبعه وهاجر معه كما قال تعالى ﴿فآمن له لوطٌ وقال إني مهاجرٌ إلى ربي﴾ فآتاه الله حُكماً وعلماً وأوحى إليه وجعله نبياً وبعثه إلى « سدوم » فكذبوه فأهلكهم الله ودمَّر عليهم كما قصَّ خبرهم في غير موضع من كتابه العزيز[1] ﴿ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث﴾ أي خلَّصناه من أهل قرية سدوم الذين كانوا يعملون الأعمال الخبيثة كاللواط وقطع السبيل وغير ذلك ﴿إنهم كانوا قوم سَوْءٍ فاسقين﴾ أي كانوا أشراراً خارجين عن طاعة الله ﴿وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين﴾ أي أدخلناه في أهل رحمتنا لأنه من عبادنا الصالحين ﴿ونوحاً إذْ نادى من قبلُ﴾ أي واذكر قصة نوح حين دعا على قومه من قبل هؤلاء الأنبياء المذكورين ، دعا عليهم بالهلاك حين كذبوه بقوله ﴿ربِّ لا تذرْ على الأرض من الكافرين ديَّاراً﴾ ﴿فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾ أي استجبنا دعاءه فأنقذناه ومن معه من المؤمنين - ركاب السفينة - من الطوفان والغرق الذي كان كرباً وغماً شديداً يكاد يأخذ بالأنفاس ﴿ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ أي منعناه من شر قومه المكذبين فنجيناه وأهلكناهم ﴿إنهم كانوا قوم سَوْءٍ فأغرقناهم أجمعين﴾ أي كانوا منهمكين في الشرّ فأغرقناهم جميعاً ولم نُبْقِ منهم أحداً ﴿وداودَ وسليمانَ إذْ يحكمان في الحرث﴾ أي واذكر قصة داود وسليمان حين يحكمان في شأن الزرع ﴿إذ نفشتْ فيه غنم القوم﴾ أي وقت رعت فيه غنم القوم ليلاً فأفسدته ﴿وكنا لحكمهم شاهدين﴾ أي كنا مطَّلعين على حكم كلٍ منهما عالمين به ﴿ففهمناها سليمان﴾ أي

(١) المختصر ٢/ ٥١٥ .

شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾

علمنا وألهمنا سليمان الحكم في القضية ﴿وكلاً آتينا حكماً وعلماً﴾ أي وكلاً من داود وسليمان أعطيناه الحكمة والعلم الواسع مع النبوة قال المفسرون : تخاصم إلى داود رجلان دخلت غنم أحدهما على زرع الآخر بالليل فأفسدته فلم تُبق منه شيئاً ، فقضى بأن يأخذ صاحب الزرع الغنم ، فخرج الرجلان على سليمان وهو بالباب فأخبراه بما حكم به أبوه فدخل عليه فقال : يا نبيَّ الله لو حكمتَ بغير هذا كان أرفق للجميع ! قال : وما هو؟ قال : يأخذ صاحب الغنم الأرض فيصلحها ويبذرها حتى يعود زرعها كما كان ، ويأخذ صاحب الزرع الغنم وينتفع بألبانها وصوفها ونسلها ، فإذا خرج الزرع رُدَّت الغنم إلى صاحبها والأرض إلى ربها فقال له داود : وُفِّقت يا بُنيَّ وقضى بينهما بذلك فذلك قوله تعالى ﴿ففهمناها سليمان﴾ ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبّحن والطير﴾ أي جعلنا الجبال والطير تسبّح مع داود إذا سبّح قال ابن كثير : وذلك لطيب صوته بتلاوة الزبور فكان إذا ترنَّم بها تقف الطير في الهواء فتجاوبه وتردُّ عليه الجبال تأويباً[1] وإنما قدَّم ذكر الجبال على الطير لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأغرب وأدخل في الإعجاز لأنها جماد ﴿وكنا فاعلين﴾ أي وكنا قادرين على فعل ذلك ﴿وعلمناه صنْعةَ لبوس لكم﴾ أي علمنا داود صنع الدروع بإلانةِ الحديد له قال قتادة : أول من صنع الدروع داود وكانت صفائح فهو أول من سردها وحلَّقها[2] ﴿لتُحْصنكم من بأسكم﴾ أي لتقيكم في القتال شرَّ الأعداء ﴿فهل أنتم شاكرون﴾ استفهامٌ يراد به الأمر أي اشكروا الله على ما أنعم به عليكم ، ولما ذكر تعالى ما خصَّ به نبيه داود عليه السلام ذكر ما خصَّ به ابنه سليمان فقال ﴿ولسليمان الريح عاصفة﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح عاصفةً أي شديدة الهبوب ﴿تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها﴾ أي تسير بمشيئته وإرادته إلى أرض الشام المباركة بكثرة الأشجار والأنهار والثمار ، وكانت مسكنه ومقر ملكه ﴿وكنا بكل شيءٍ عالمين﴾ أي وكنا عالمين بجميع الأمور فما أعطيناه تلك المكانة إلا لما نعلمه من الحكمة ﴿ومن الشياطين من يغوصون له﴾ أي وسخرنا لسليمان بعض الشياطين يغوصون في الماء ويدخلون أعماق البحار ليستخرجوا له الجواهر واللآلىء ﴿ويعملون عملاً دون ذلك﴾ أي ويعملون أعمالاً أخرى سوى الغوص كبناء المدن والقصور الشاهقة والأمور التي يعجز عنها البشر ﴿وكنا لهم حافظين﴾ أي نحفظهم عن الزيغ عن أمره أو الخروج عن طاعته .

(١) المختصر ٢/ ٥١٦ . (٢) القرطبي ١١/ ٣٢٠ .

البَـلاغَـة : تضمنت الآيات من وجوه الفصاحة والبديع ما يلي :

١ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿ثم نُكسوا على رءوسهم﴾ شبه رجوعهم عن الحق إلى الباطل بانقلاب الشخص حتى يصبح أسفله أعلاه بطريق الاستعارة .

٢ ـ الطباق بين ﴿ينفعكم ويضركم﴾ .

٣ ـ المبالغة ﴿كوني برداً﴾ أطلق المصدر وأراد اسم الفاعل أي باردة أو ذات برد .

٤ ـ عطف الخاص على العام ﴿فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ لأن الصلاة والزكاة من فعل الخيرات وإنما خصهما بالذكر تنبيهاً لعلو شأنهما وفضلهما .

٥ ـ الاحتراس ﴿وكلاً آتينا حكماً وعلماً﴾ دفعاً لتوهم انتقاص مقام داود عليه السلام .

٦ ـ المجاز المرسل ﴿وأدخلناه في رحمتنا﴾ أي في الجنة لأنها مكان تنزل الرحمة فالعلاقة المحلية .

٧ ـ السجع غير المتكلف ﴿العابدين الصابرين ، الصالحين﴾ الخ .

تـنبيـه : وصف تعالى الريح ههنا بقوله ﴿عاصفة﴾ ووصفها في مكان آخر بقوله ﴿رخاء﴾ والعاصفة هي الشديدة ، والرخاء هي اللّينة ، ولا تعارض بين الوصفين لأن الريح كانت ليّنة طيبة وكانت تسرع في جريها كالعاصف فجمعت الوصفين فتدبر .

* * *

قال الله تعالى :﴿وأيوب إذ نادى ربَّه أني مسني الضر . .إلى . .وربُّنا الرحمنُ المستعانُ على ما تصفون﴾ من آية (٨٣) إلى نهاية السورة الكريمة .

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى جملةً من الأنبياء « ابراهيم ، نوح ، لوط ، داود ، سليمان » وما نال كثيراً منهم من الابتلاء ، ذكر هنا قصة أيوب وابتلاء الله له بأنواع المحن ثم أعقبها بذكر محنة يونس وزكريا وعيسى وكلٌّ ذلك بقصد التسلية للرسول ﷺ ليتأسى بهم .

اللغَـة : ﴿ذا النون﴾ النون : الحوت وذا النون لقب ليونس بن متّى لابتلاع النون له ﴿أحصنت﴾ الإحصان : العفة يقال : رجل محصنٌ وامرأة محصنة أي عفيفة ﴿رغباً ورهباً﴾ الرغب : الرجاء ، والرهب : الخوف ﴿كفران﴾ الكفر والكفران : الجحود وأصله الستر لأن الكافر يستر نعمة الله ويجحدها ﴿حَدَب﴾ الحدب : ما ارتفع من الأرض مأخوذ من حدبة الظهر قال عنترة :

فما رعِشتْ يداي ولا ازدهاني ... تواترهم إليَّ من الحِداب[1]

﴿ينسلون﴾ يسرعون يقال : نسل الذئب ينسل نسلاناً أي أسرع ﴿حصب﴾ الحصب : ما توقد به النار

(١) القرطبي ١١/ ٣٤١ .

كالحطب وغيره ﴿زفير﴾ أنين وتنفس شديد ﴿حسيسها﴾ الحسيس : الصوتُ والحسُّ والحركة الذي يُحس به من حركة الأجرام ﴿السجلّ﴾ الصحيفة لأن بها يُسجل المطلوب .

سَبَبُ النّزول : عن ابن عباس قال : لما نزل قوله تعالى ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصبُ جهنم﴾ شقَّ ذلك على كفار قريش وقالوا : شتم آلهتنا وأتوا ابن الزّبعري وأخبروه فقال : لو حضرتُه لرددتُ عليه قالوا : وما كنت تقول له ؟ قال أقول له : هذا المسيح تعبده النصارى ، وهذا عزير تعبده اليهود ؛ أفهما من حصب جهنم ؟ فعجبت قريش من مقالته ورأوا أنَّ محمداً قد خصم فأنزل الله ﴿إن الذين سبقتْ لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾[1] .

* وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾

التفسير : ﴿وأيوبَ إذ نادى ربه﴾ أي واذكر قصة نبيّ الله أيوب حين دعا ربَّه بتضرع وخشوع ﴿أني مسني الضرُّ﴾ أي نالني البلاء والكرب والشدة قال المفسرون : كان أيوب نبياً من الروم ، وكان له أولاد ومال كثير ، فأذهب الله ماله فصبر ، ثم أهلك الأولاد فصبر ، ثم سلَّط البلاء والمرض على جسمه فصبر فمر عليه ملأ من قومه فقالوا : ما أصابه هذا إلا بذنب عظيم فعند ذلك تضرَّع إلى الله فكشف عنه ضره ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾ أي أكثرهم رحمة فارحمني ، ولم يصرّح بالدعاء ولكنه وصف نفسه بالعجز والضعف ، ووصف ربه بغاية الرحمة ليرحمه ، فكان فيه من حسن التلطف ما ليس في التصريح بالطلب ﴿فاستجبنا له﴾ أي أجبنا دعاءه وتضرعه ﴿فكشفنا ما به من ضُرٍّ﴾ أي أزلنا ما أصابه من ضر وبلاء ﴿وآتيناه أهله ومثلهم معهم﴾ قال ابن مسعود : مات أولاده وهم سبعة من الذكور وسبعة من الإناث فلما عوفي أُحيوا له وولدت له امرأته سبعة بنين وسبع بنات[2] . والمعنى أعطيناه أهله في الدنيا ورزقناه من زوجته مثل ما كان له من الأولاد والأتباع ﴿رحمةً من عندنا﴾ أي من أجل رحمتنا إيّاه ﴿وذكرى للعابدين﴾ أي وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر قال القرطبي : أي وتذكيراً للعُبَّاد لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب ومحنته وصبره وطّنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا مثل ما فعل أيوب وهو أفضل أهل زمانه[3] ، يُروى أنَّ أيوب مكث في البلاء ثمان عشرة سنة فقالت له امرأته يوماً : لو دعوتَ الله عز وجل فقال لها : كم لبثنا في الرخاء ؟ فقالت : ثمانين سنة فقال : إني أستحيي من الله أن أدعوه وما مكثت في بلائي المدة التي مكثتها في رخائي[4] ﴿وإسماعيل وإدريسَ وذا الكفل﴾ أي

(١) القرطبي ١١/ ٣٢٧ . (٢) هذا الأثر عن ابن مسعود أن الله أحيا أولاده بعد موتهم فيه نظر ، لأنه لا يرجع أحد إلى الدنيا بعد انتقاله منها إلا ما كان من معجزة المسيح عليه السلام والصحيح أن الله عوَّضه من زوجته أولاداً مثل من فقدهم . (٣) القرطبي ١١/ ٣٢٧ . (٤) النسفي ٣/ ٨٧ .

﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾

واذكر لقومك قصة إسماعيل بن إبراهيم وإدريس بن شيث وذا الكفل ﴿**كلٌّ من الصابرين**﴾ أي كل من هؤلاء الأنبياء من أهل الإحسان والصبر ، جاهدوا في الله وصبروا على ما نالهم من الأذى ﴿**وأدخلناهم في رحمتنا**﴾ أي أدخلناهم بصبرهم وصلاحهم الجنة دار الرحمة والنعيم ﴿**إنهم من الصالحين**﴾ أي لأنهم من أهل الفضل والصلاح ﴿**وذا النون**﴾ أي واذكر لقومك قصة يونس الذي ابتلعه الحوت ، والنونُ هو الحوتُ نُسب إليه لأنه التقمه ﴿**إذ ذهب مغاضباً**﴾ أي حين خرج من بلده مغاضباً لقومه إذ كان يدعوهم إلى الإيمان فيكفرون حتى أصابه ضجر منهم فخرج عنهم ولذلك قال الله تعالى ﴿**ولا تكن كصاحب الحوت**﴾ ولا يصح قول من قال : مغاضباً لربه قال أبو حيان : وقولُ من قال مغاضباً لربه يجب طرحه إذ لا يناسب منصب النبوة[1] وقال الرازي : لا يجوز صرف المغاضبة إلى الله تعالى لأن ذلك صفة من يجهل كون الله مالكاً للأمر والنهي ، والجاهلُ بالله لا يكون مؤمناً فضلاً عن أن يكون نبياً ، ومغاضبتُه لقومه كانت غضباً لله ، وأنفةً لدينه ، وبغضاً للكفر وأهله[2] ﴿**فظنَّ أنْ لن نقْدر عليه**﴾ أي ظنَّ يونس أنْ لن نضيّق عليه بالعقوبة كقوله ﴿**ومن قُدر عليه رزقُه**﴾ أي ضُيّق عليه فيه فهو من القدر لا من القُدرة قال الإمام الفخر : من ظنَّ عجز الله فهو كافر ، ولا خلاف أنه لا يجوز نسبة ذلك إلى آحاد المؤمنين فكيف إلى الأنبياء عليهم السلام ! روي أنه دخل ابن عباس على معاوية فقال له معاوية : لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة فغرقتُ فيها فلم أجدْ لي خلاصاً إلا بك ، فقال : وما هي ؟ قال : يظنُّ نبيُّ الله يونس أن لن يقدر الله عليه ؟ فقال ابن عباس : هذا من القدْر لا من القُدرة[3] ﴿**فنادى في الظلمات**﴾ أي نادى ربه في ظلمة الليل وهو في بطن الحوت قال ابن عباس : جمعت الظلمات لأنها ظلمة الليل ، وظلمةُ البحر ، وظلمةُ بطن الحوت ﴿**أن لا إله إلا أنت**﴾ أي نادى بأن لا إله إلا أنت يا رب ﴿**سبحانك إني كنت من الظالمين**﴾ أي تنزَّهت يا ربّ عن النقص والظلم ، وقد كنتُ من الظالمين لنفسي وأنا الآن من التائبين النادمين فاكشفْ عني المحنة وفي الحديث (ما من مكروبٍ يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له)[4] ﴿**فاستجبنا له ونجّيْناه من الغمِّ**﴾ أي استجبنا لتضرعه واستغاثته ونجيناه من الضيق والكرب الذي ناله حين التقمه الحوت ﴿**وكذلك نُنْجي المؤمنين**﴾ أي كما نجينا يونس من تلك المحنة ننجي المؤمنين من الشدائد والأهوال إذا استغاثوا بنا ﴿**وزكريا إذ نادى ربَّه ربِّ لا تذرني فرداً**﴾ أي واذكر يا محمد خبر رسولنا زكريا حين دعا ربه دعاء مخلص منيب قائلاً : ربّ لا تتركني وحيداً بلا ولد ولا وارث قال ابن عباس : كان سنُّه مائة وسنُّ زوجته تسعاً وتسعين[5] ﴿**وأنت خير الوارثين**﴾

(١) البحر ٦/ ٣٣٥ . (٢) تفسير الفخر الرازي ٢٢/ ٢١٤ . (٣) الفخر الرازي ٢٢/ ٢١٥ . (٤) أصل الحديث في سنن أبي داود .
(٥) الرازي ٢٢/ ٢١٧ .

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾

أي وأنت يا رب خير من يبقى بعد كل من يموت قال الألوسي : وفيه مدحٌ له تعالى بالبقاء ، وإشارة إلى فناء من سواه من الأحياء ، واستمطارٌ لسحائب لطفه عز وجل[1] ﴿فاستجبنا له﴾ أي أجبنا دعاءه ﴿ووهبنا له يحيى﴾ أي رزقناه ولداً اسمه يحيى على شيخوخته ﴿وأصلحنا له زوجه﴾ أي جعلناها ولوداً بعد أن كانت عاقراً وقال ابن عباس : كانت سيئة الخُلُق طويلة اللسان فأصلحها الله تعالى فجعلها حسنة الخُلُق[2] ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات﴾ أي إنما استجبنا دعاء من ذُكر من الأنبياء لأنهم كانوا صالحين يجدّون في طاعة الله ويتسابقون في فعل الطاعات وعمل الصالحات ﴿ويدعوننا رغباً ورَهباً﴾ أي طمعاً ورجاءً في رحمتنا وخوفاً وفزعاً من عذابنا ﴿وكانوا لنا خاشعين﴾ أي كانوا متذللين خاضعين لله يخافونه في السر والعلن ﴿والتي أحصنتْ فرْجها﴾ أي واذكر مريم البتول التي أعفت نفسها عن الفاحشة وعن الحلال والحرام كقوله ﴿لم يمْسسني بشرٌ ولم أكُ بغياً﴾ قال ابن كثير : ذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى لأن تلك مربوطة بهذه فإنها إيجاد ولدٍ من شيخ كبير قد طعن في السن وامرأة عجوز لم تكن تلد في حال شبابها ، وهذه أعجب فإنها إيجاد ولدٍ من أنثى بلا ذكر ولذلك ذكر قصة مريم بعدها[3] ﴿فنفخنا فيها من روحنا﴾ أي أمرنا جبريل فنفخ في فتحة درعها - قميصها - فدخلت النفخة إلى جوفها فحملت بعيسى ، وأضاف الروح إليه تعالى على جهة التشريف ﴿وجعلناها وابنها آيةً للعالمين﴾ أي وجعلنا مريم مع ولدها عيسى علامةً وأعجوبة للخلق تدل على قدرتنا الباهرة ليعتبر بها الناس ﴿إنَّ هذه أمتكم أمةً واحدة﴾ أي دينكم وملتكم التي يجب ان تكونوا عليها أيها الناس ملةٌ واحدة غير مختلفة وهي ملة الإسلام ، والأنبياء كلهم جاءوا برسالة التوحيد قال ابن عباس : معناه دينكم دينٌ واحد[4] ﴿وأنا ربكم فاعبدون﴾ أي وأنا إلهكم لا ربَّ سواي فأفردوني بالعبادة ﴿وتقطّعوا أمرهم بينهم﴾ أي اختلفوا في الدين وأصبحوا فيه شيعاً وأحزاباً فمن موحّد ، ومن يهودي ، ونصراني ومجوسّي ﴿كلٌّ إلينا راجعون﴾ أي رجوعهم إلينا وحسابهم علينا قال الرازي : معنى الآية جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قِطعاً كما تتوزع الجماعة الشيء ويقتسمونه تمثيلاً لاختلافهم في الدين وصيرورتهم فرقاً وأحزاباً شتى[5] ﴿فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن﴾ أي من يعمل شيئاً من الطاعات وأعمال البرّ والخير بشرط الإيمان ﴿فلا كُفْران لسَعيه﴾ أي لا بُطلان لثواب عمله ولا يضيع

(١) روح المعاني ١٧/ ٨٧ . (٢) القول الأول قول قتادة وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين كذا في القرطبي ١١/ ٣٣٦ .
(٣) المختصر ٢/ ٥٢٠ . (٤) نفس المرجع السابق والصفحة . (٥) تفسير الرازي ٢٢/ ٢١٩ .

﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

شيء من جزائه ﴿وإنا له كاتبون﴾ أي نكتب عمله في صحيفته والمراد أمر الملائكة بكتابة أعمال الخلق ﴿وحرامٌ على قريةٍ أهلكناها أنَّهم لا يرجعون﴾ قال ابن عباس : أي ممتنعٌ على أهل قرية أهلكناهم أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا مرة ثانية وفي رواية عنه ﴿أنهم لا يرجعون﴾ أي لا يتوبون قال ابن كثير : والأول أظهر[١] وقال في البحر : المعنى وممتنع على أهل قرية قدرنا إهلاكهم لكفرهم رجوعهم في الدنيا إلى الإيمان إلى أن تقوم الساعة فحينئذٍ يرجعون[٢] ﴿حتى إذا فُتحت يأجوج ومأجوج﴾ أي حتى إذا فتح سدٌّ يأجوج ومأجوج ﴿وهم من كل حَدَبٍ ينْسلون﴾ أي وهم لكثرتهم من كل مرتفع من الأرض ومن كل أكمة وناحية يسرعون النزول والمرادُ أن يأجوج ومأجوج لكثرتهم يخرجون من كل طريق للفساد في الأرض ﴿واقترب الوعدُ الحقُّ﴾ أي اقترب وقت القيامة قال المفسرون : جعل الله خروج يأجوج ومأجوج علماً على قرب الساعة قال ابن مسعود : الساعةُ من الناس بعد يأجوج ومأجوج كالحامل المتمّم لا يدري أهلُها متى تفْجؤهم بولدها ليلاً أو نهاراً[٣] ﴿فإذا هي شاخصةٌ أبصار الذين كفروا﴾ الضمير للقصة والشأن أي فإذا شأن الكافرين أنَّ أبصارهم شاخصة من هول ذلك اليوم لا تكاد تطرف من الحيرة وشدة الفزع ﴿يا ويلنا قد كنا في غفلة﴾ أي ويقولون يا ويلنا أي يا حسرتنا وهلاكنا قد كنا في الدنيا في غفلةٍ تامة عن هذا المصير المشئوم واليوم الرهيب ﴿بل كنا ظالمين﴾ أضربوا عن القول السابق وأخبروا بالحقيقة المؤلمة والمعنى لم نكن في غفلةٍ حيث ذكَّرتنا الرسلُ ونبَّهتنا الآيات بل كنا ظالمين لأنفسنا بالتكذيب وعدم الإيمان ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله﴾ أي إنكم أيها المشركون وما تعبدونه من الأوثان والأصنام ﴿حَصَبُ جهنم﴾ أي حطب جهنم ووقودها قال أبو حيان : الحَصب ما يحصب به أي يُرمى به في نار جهنم ، وقبل أن يُرمى به لا يُطلق عليه حصبٌ إلا مجازاً[٤] ﴿أنتم لها واردون﴾ أي أنتم داخلوها مع الأصنام ، وإنما جمع الله الكفار مع معبوداتهم في النار لزيادة غمّهم وحسرتهم برؤيتهم الآلهة التي عبدوها معهم في عذاب الجحيم ﴿لو كان هؤلاء آلهةً ما وردوها﴾ أي لو كانت هذه الأصنام التي عبدتموها آلهةً ما دخلوا جهنم ﴿وكلٌّ فيها خالدون﴾ أي العابدون والمعبدون كلهم في جهنم مخلَّدون ﴿لهم فيها زفير﴾ أي لهؤلاء الكفرة في النار زفير وهو صوت النَّفس الذي يخرج من قلب المغموم وهو يشبه أنين المحزون والمكلوم ﴿وهم فيها لا يسمعون﴾ أي لا يسمعون في

(١) المختصر ٢/ ٥٢١ . (٢) البحر ٦/ ٣٣٨ . (٣) زاد المسير ٥/ ٣٨٩ . (٤) البحر ٦/ ٣٤٠ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

جهنم شيئاً لأنهم يُحشرون صُماً كما قال تعالى ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عُمياً وبُكماً وصُماً﴾ قال القرطبي : وسماعُ الأشياء فيها روح وأُنس ، فمنع الله الكفار ذلك في النار[١] وقال ابن مسعود : إذا بقي مِن يُخلَّد في نار جهنم جعلوا في توابيت من نار ، فيها مسامير من نار فلا يسمعون شيئاً ، ولا يرى أحد منهم أنه يُعذَّب في النار غيره ثم تلا الآية[٢] ﴿إنَّ الذين سبقت لهم منا الحُسنى﴾ أي سبقت لهم السعادة ﴿أولئك عنها مبعدون﴾ أي هم عن النار مبعدون لا يصلون حرَّها ولا يذوقون عذابها قال ابن عباس : أولئك أولياء الله يمرون على الصراط مرّاً أسرع من البرق ويبقى الكفار فيها جثياً[٣] ﴿لا يسمعون حسيسها﴾ أي لا يسمعون حسَّ النار ولا حركة لهبها وصوتها ﴿وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون﴾ أي وهم في الجنة دائمون ، لهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿لا يحزنهم الفزعُ الأكبرُ﴾ أي لا تصيبهم أهوال يوم القيامة والبعث لأنهم في مأمنٍ منها ﴿وتتلقاهم الملائكة﴾ أي تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم قائلين ﴿هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ أي هذا يوم الكرامة والنعيم الذي وعدكم الله به فأبشروا بالهناء والسرور ﴿يوم نطوي السماءَ كطيِّ السجلِّ للكتب﴾ أي اذكر يوم نطوي السماء طياً مثل طيّ الصحيفة على ما كتب فيها قال ابن عباس : كطيِّ الصحيفة على ما فيها ، فاللام بمعنى « على » ﴿كما بدأنا أولَ خلقٍ نُعيده﴾ أي نحشرهم حفاةً عُراةً غُرْلاً على الصورة التي بدأنا خلقهم فيها وفي الحديث (إنكم محشورون إلى الله حفاةً عُراةً غُرلاً ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾ ألاَ وإنَّ أول الخلائق يُكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام[٤] . .) الحديث ﴿وعداً علينا﴾ أي وعداً مؤكداً لا يُخلف ولا يبدّل لازم علينا إنجازه والوفاء به ﴿إنا كنا فاعلين﴾ أي قادرين على ما نشاء ، وهو تأكيد لوقوع البعث ﴿ولقد كتبنا في الزبور﴾ أي سجلنا وسطرنا في الزبور المنزل على داود ﴿من بعد الذكر﴾ أي من بعد ما سطرنا في اللوح المحفوظ أزلاً ﴿أن الأرض يرثها عباديَ الصالحون﴾ أي أن الجنة يرثها المؤمنون الصالحون قال ابن كثير : أخبر سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض أن يورث أمة محمد ﷺ الأرض ويُدخلهم الجنة وهم الصالحون[٥] وقال القرطبي : أحسن ما قيل فيها أنه يراد بها أرض

---

(١) القرطبي ١١/ ٣٤٥ . (٢) القرطبي ١١/ ٣٤٥ . (٣) مختصر ابن كثير ٢/ ٥٢٣ . (٤) رواه مسلم عن ابن عباس .
(٥) مختصر ابن كثير ٢/ ٥٢٤ .

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٨ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ١١٠ وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ١١١ قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾

الجنة لأن الأرض في الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم وهو قول ابن عباس ومجاهد ويدل عليه قوله تعالى ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعْده وأورثنا الأرض﴾ وأكثر المفسرين على أن المراد بالعباد الصالحين أمة محمد ﷺ [١] ، وقال مجاهد : الزبور : الكتب المنزلة ، والذكرُ أمُّ الكتاب عند الله[٢] ﴿إنَّ في هذا لبلاغاً لقومٍ عابدين﴾ أي إنَّ في هذا المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة لكفايةً لقوم خاضعين متذللين لله جل وعلا ، المؤثرين لطاعة الله على طاعة الشيطان ﴿وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين﴾ أي وما أرسلناك يا محمد إلا رحمة للخلق أجمعين وفي الحديث ﴿إنما أنا رحمةٌ مهداة﴾ [٣] فمن قَبِلَ هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة[٤] ﴿قل إنما يُوحى إليَّ أنما إلهكُم إله واحد﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين : إنما أوحى إليَّ ربي أنَّ إلهكم المستحق للعبادة إله واحد أحد فرد صمد ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ استفهام ومعناه الأمر أي فأسلموا له وانقادوا لحكمه وأمره ﴿فإن تولَّوا﴾ أي فإن أعرضوا عن الإسلام ﴿فقل آذنتكُم على سواء﴾ أي فقل لهم أعلمتكم بالحق على استواءٍ في الإعلام لم أخصَّ أحداً دون أحد ﴿وإنْ أدري أقريبٌ أم بعيد ما توعدون﴾ أي وما أدري متى يكون ذلك العذاب ؟ ولا متى يكون أجل الساعة ؟ فهو واقع لا محالة ولكنْ لا علم لي بقربه ولا ببعده ﴿إنه يعلم الجهرَ من القول ويعلم ما تكتمون﴾ أي اللّهُ هو العالم الذي لا يخفى عليه شيء ، يعلم الظواهر والضمائر ، ويعلم السرَّ وأخفى ، وسيجازي كلاً بعمله ﴿وإن أدري لعله فتنةٌ لكم﴾ أي وما أدري لعل هذا الإمهال وتأخير عقوبتكم امتحانٌ لكم لنرى كيف صنيعكم ﴿ومتاعٌ إلى حين﴾ أي ولعلَّ هذا التأخير لتستمتعوا إلى زمنٍ معين ثم يأتيكم عذاب الله الأليم ﴿قال ربِّ احكم بالحق﴾ أي احكم بيني وبين هؤلاء المكذبين وافصل بيننا بالحق ﴿وربُّنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾ أي أستعين بالله على الصبر على ما تصفونه من الكفر والتكذيب . ختم السورة الكريمة بأمر النبي ﷺ بتفويض الأمر إليه وتوقع الفرج من عنده ، فهو نعم الناصر ونعم المعين .

---

(١) القرطبي ١١/ ٣٤٩ . (٢) اختار هذا القول ابن جرير الطبري وهو قريب مما ذكرناه . (٣) أخرجه الحافظ ابن عساكر .

(٤) لم يقل الله تعالى : رحمةً للمؤمنين وإنما قال ﴿رحمةً للعالمين﴾ فإن الله سبحانه وتعالى رحم الخلق بإرسال سيد المرسلين ﷺ لأنه جاءهم بالسعادة الكبرى ، والنجاة من الشقاوة العظمى ، ونالوا على يديه الخيرات الكثيرة في الآخرة والأولى ، وعلمهم بعد الجهالة ، وهداهم بعد الضلالة فكان رحمةً للعالمين ، حتى الكفار رُحموا به حيث أخر عقوبتهم ولم يستأصلهم بالعذاب كالمسخ والخسف والغرق .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ التعرض للرحمة بطريق التلطف ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾ ولم يقل : ارحمني .

٢ ـ جناس الاشتقاق ﴿أرحم الراحمين﴾ .

٣ ـ الجناس الناقص ﴿الصابرين . . والصالحين﴾ .

٤ ـ الطباق بين ﴿رغباً . . ورهباً﴾ وبين ﴿بدأنا . . ونعيده﴾ وبين ﴿قريب أم بعيد﴾ .

٥ ـ التشريف ﴿فنفخنا فيها من روحنا﴾ أضاف الروح إليه تعالى على جهة التشريف كقوله ﴿ناقة اللـه﴾ .

٦ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿وتقطَّعوا أمرهم بينهم﴾ مثَّل اختلافهم في الدين وتفرقهم فيه إلى شيع وأحزاب بالجماعة تتوزع الشيء لهذا نصيب ولهذا نصيب ، وهذا من لطيف الاستعارة .

٧ ـ الإيجاز بالحذف ﴿يا ويلنا﴾ أي ويقولون يا ويلنا ، ومثلُه قوله ﴿وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم﴾ أي تقول لهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون .

٨ ـ التشبيه المرسل المفصل ﴿نطوي السماءَ كطيِّ السجِلِّ للكُتُب﴾ أي طياً مثل طيِّ الصحيفة على ما كتب فيها .

٩ ـ الاستفهام الذي يراد به الأمر ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ أي أسلموا .

١٠ ـ السجع ﴿فاعبدون ، راجعون ، كاتبون﴾ الخ وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الأنبياء »

* * *



بين يدي السورة

* سورة الحج مدنية وهي تتناول جوانب التشريع ، شأنها شأن سائر السور المدنية التي تُعنى بأمور التشريع ، ومع أن السورة مدنية إلا أنه يغلب عليها جو السور المكية ، فموضوع الإيمان ، والتوحيد ، والإنذار والتخويف ، وموضوع البعث والجزاء ، ومشاهد القيامة وأهوالها ، هو البارز في السورة الكريمة ، حتى ليكاد يُخيل للقارىء أنها من السور المكية ، هذا إلى جانب الموضوعات التشريعية من الإذن بالقتال ، وأحكام الحج والهَدي ، والأمر بالجهاد في سبيل الله ، وغير ذلك من المواضيع التي هي من خصائص السور المدنية ، حتى لقد عدَّها بعض العلماء من السور المشتركة بين المدني والمكي .

* **ابتدأت** السورة الكريمة بمطلع عنيف مخيف ، ترتجف له القلوبُ ، وتطيش لهوله العقول ، ذلكم هو الزلزال العنيف الذي يكون بين يدي الساعة ، ويزيد في الهول على خيال الإنسان ، لأنه لا يدك الدور والقصور فحسب ، بل يصل هولُه إلى المرضعات الذاهلات عن أطفالهن ، والحوامل المسقطات حملهن ، والناس الذين يترنحون كأنهم سكرى من الخمر ، وما بهم شيء من السكر والشراب ، ولكنه الموقف المرهوب ، الذي تتزلزل له القلوب ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إنَّ زلزلة الساعة شيء عظيم . .﴾ الآيات .

* **ومن أهوال** الساعة إلى أدلة البعث والنشور ، تنتقل السورة لتقيم الأدلة والبراهين على البعث بعد الفناء ، ثم الانتقال إلى دار الجزاء ، لينال الإنسان جزاءه إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

* **وتحدثت** السورة عن بعض مشاهد القيامة ، حيث يكون الأبرار في دار النعيم ، والفجار في دار الجحيم .

* **ثم انتقلت** للحديث عن الحكمة من الإذن بقتال الكفار ، وتناولت الحديث عن القرى المدمرة بسبب ظلمها وطغيانها ، وذلك لبيان سنة الله في الدعوات ، وتطميناً للمسلمين بالعاقبة التي تنتظر الصابرين .

* **وفي ختام** السورة ضربت مثلاً لعبادة المشركين للأصنام ، وبيَّنت أن هذه المعبودات أعجز وأحقر

من ان تخلق ذبابة فضلاً عن أن تخلق إنساناً سميعاً بصيراً ، ودعت إلى اتباع ملة الخليل إبراهيم كهف الإيمان ، وركن التوحيد .

التسمية : سميت « سورة الحج » تخليداً لدعوة الخليل إبراهيم عليه السلام ، حين انتهى من بناء البيت العتيق ونادى الناس لحج بيت الله الحرام ، فتواضعت الجبال حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض ، وأسمع نداؤه من في الأصلاب والأرحام وأجابوا النداء «لبيك اللهم لبيك» .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن

اللغة : ﴿زلزلة﴾ الزلزلة : شدة الحركة وأصل الكلمة من زلَّ عن الموضع أي زال عنه وتحرك ، وزلزل الله قدمه أي حركها ، وهذه اللفظة تستعمل في تهويل الشيء ﴿تذهل﴾ ذهل عن الشيء اشتغل عنه بشاغل من هم أو وجع أو غيره ﴿مضغة﴾ المضغة : اللحمة الصغيرة قدر ما يُمضغ ﴿مخلَّقة﴾ تامة الخِلْقة ﴿بهيج﴾ حسن سار للناظر ﴿عِطْفه﴾ العطف : الجانب ومنه قولهم : فلان ينظر في أعطافه أي في جوانبه ويسمى الرداء العِطاف والمعطف لأنه يوضع على الجانبين ﴿العشير﴾ الصاحب والخليل .

التفسير : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾ خطاب لجميع البشر أي خافوا عذاب الله وأطيعوه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وجماع القول في التقوى هو : طاعةُ الله واجتناب محارمه ولهذا قال بعض العلماء : التقوى أن لا يراك حيث نهاك ، وأن لا يفقدك حيث أمرك ﴿إنَّ زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ تعليلٌ للأمر بالتقوى أي إن الزلزال الذي يكون بين يدي الساعة أمر عظيم وخطب جسيم لا يكاد يتصور لهوله ﴿يوم ترونها﴾ أي في ذلك اليوم العصيب الذي تشاهدون فيه تلك الزلزلة وترون هول مطلعها ﴿تذهل كلُّ مرضعة عما أرضعت﴾ أي تغفل وتذهل - مع الدهشة وشدة الفزع - كل أنثى مرضعة عن رضيعها ، إذ تنزع ثديها من فم طفلها وتنشغل - لهول ما ترى - عن أحب الناس إليها وهو طفلها الرضيع ﴿وترى الناس سكارى﴾ أي تراهم كأنهم سكارى يترنحون ترنح السكران من هول ما يدركهم من الخوف والفزع ﴿وما هم بسكارى﴾ أي وما هم على الحقيقة بسكارى من الخمر ﴿ولكن عذاب الله شديد﴾ استدراك لما دهاهم أي ليسوا بسكارى ولكن أهوال الساعة وشدائدها أطارت عقولهم وسلبت أفكارهم فهم من خوف عذاب الله مشفقون ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم﴾ أي وبعضٌ من الناس من يخاصم وينازع في قدرة الله وصفاته بغير دليل ولا برهان ويقول ما لا خير فيه من الأباطيل قال المفسرون : نزلت في النضر بن الحارث وكان جدلاً يقول الملائكة بناتُ الله ، والقرآن أساطير الأولين ، ولا بعث بعد الموت قال أبو السعود : والآية عامة له ولأضرابه من العُتاة المتمردين[1] ﴿ويتبع كل شيطان

(١) إرشاد العقل السليم ٣/٤ .

﴿يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ﴾

مريد﴾ أي يطيع ويقتدي بكل عاتٍ متمرد كرؤ ساء الكفر الصادّين عن الحق **﴿كُتب عليه أنـه من تولاه﴾** أي حكم الله وقضى أنه من تولى الشيطان واتخذه ولياً **﴿فأنه يُضله ويهديـه إلى عذاب السعير﴾** أي فأن الشيطان يغويه ويسوقه إلى عذاب جهنم المستعرة ، وعبر بلفظ **﴿ويهديـه﴾** على سبيل التهكم ، ولما ذكر تعالى المجادلين في قدرة الله ، المنكرين للبعث والنشور ذكر دليلين واضحين على إمكان البعث أحدهما في الإنسان ، والثاني في النبات فقال **﴿يا أيهـا الناس إن كنتم في ريب من البعـث فإنّا خلقناكم من تـراب﴾** أي إن شككتم في قدرتنا على إحيائكم بعد موتكم فانظروا في أصل خلقكم ليزول ريبكم فقد خلقنا أصلكم « آدم » من التراب ، ومن قدر على خلقكم أول مرة قادر على أن يعيدكم ثاني مرة ، والذي قدر على إخراج النبات من الأرض ، بعد موتها قادر على أن يخرجكم من قبوركم **﴿ثم من نُطفـة﴾** أي ثم جعلنا نسله من المني الذي ينطف من صلب الرجل قال القرطبي : والنطف : القطر سمي نطفة لقلته[1] **﴿ثم من علقـة﴾** وهو الدم الجامد الذي يشبه العلقة التي تظهر حول الأحواض والمياه **﴿ثم من مضغـة﴾** أي من قطعة من لحم مقدار ما يمضغ **﴿مخلقـة وغير مخلقة﴾** أي مستبينة الخلق مصورة وغير مصورة قال ابن زيد : المخلقة التي خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين ، وغير مخلقة التي لم يخلق فيها شيء **﴿لنبـين لكـم﴾** أي خلقناكم على هذا النموذج البديع لنبين لكم أسرار قدرتنا وحكمتنا قال الزمخشري : أي لنبين لكم بهذا التدريج قدرتنا ، وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولا ، ثم من نطفة ثانياً ، ولا تناسب بين التراب والماء ، وقدر على أن يجعل النطفة علقة وبينهما تباين ظاهر ، ثم يجعل العلقة مضغة والمضغة عظاماً ، قادر على إعادة ما بـدأه ، بل هذا أدخل في القدرة وأهون في القياس[2] **﴿ونقر في الأرحـام ما نشـاء﴾** أي ونثبت من الحمل في أرحام الأمهات من أردنا أن نُقرَّه فيها حتى يتكامل خلقه **﴿إلى أجل مسمى﴾** أي إلى زمن معين هو وقت الوضع **﴿ثم نخرجكم طفـلاً﴾** أي ثم نخرج هذا الجنين طفلاً ضعيفاً في بدنـه وسمعـه وبصره وحواسه ، ثم نعطيه القوة شيئاً فشيئاً **﴿ثم لتبلغـوا أشـدكم﴾** أي كمال قوتـكم وعقلـكم **﴿ومنكـم من يتوفـى﴾** أي ومنكم من يموت في ريعان شبابه **﴿ومنكم من يرد إلى أرذل العمـر﴾** أي ومنكم من يعمر حتى يصل إلى الشيخوخة والهرم وضعف القوة والخرف **﴿لكيلا يعلم من بعـد علم شيئـاً﴾** أي ليعود إلى ما كان عليه في أوان الطفولة من ضعف البنية ، وسخافة العقل ، وقلة الفهم ، فينسى ما علمه وينكر ما عرفه

(١) القرطبي ١٢/ ٦ . (٢) الكشاف ٣/ ١٤٢ .

هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ

ويعجز عما قدر عليه كما قال تعالى ﴿ومن نعمره ننكسه في الخلق﴾ **﴿وترى الأرض هامدة﴾** هذه هي الحجة الثانية على إمكان البعث أي وترى أيها المخاطب أو أيها المجادل الأرض يابسةً ميتة لا نبات فيها **﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾** أي فإذا أنزلنا عليها المطر تحركت بالنبات وانتفخت وزادت وحييت بعد موتها **﴿وأنبتت من كل زوج بهيج﴾** أي وأخرجت من كل صنفٍ عجيب ما يسر الناظر ببهائه ورونقه **﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾** أي ذلك المذكور من خلق الإنسان والنبات لتعلموا أن الله هو الخالق المدبر وأن ما في الكون من آثار قدرته وشاهد بأن الله هو الحق **﴿وأنه يحيي الموتى﴾** أي وبأنه القادر على إحياء الموتى كما أحيا الأرض الميتة بالنبات **﴿وأنه على كل شيء قدير﴾** أي وبأنه قادر على ما أراد **﴿وأن الساعة آتية لا ريب فيها﴾** أي وليعلموا أن الساعة كائنة لا شك فيها ولا مرية **﴿وأنَّ الله يبعث من في القبور﴾** أي يحيي الأموات ويعيدهم بعدما صاروا رمماً ، ويبعثهم أحياء إلى موقف الحساب **﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾** أي يجادل في شأنه تعالى من غير تمسك بعلمٍ صحيح يهدي إلى المعرفة ولا كتابٍ نير بيّن الحجة بل بمجرد الرأي والهوى قال ابن عطية : كرر هذه على وجه التوبيخ فكأنه يقول : هذه الأمثال في غاية الوضوح والبيان ومن الناس مع ذلك من يجادل في الله بغير دليل ولا برهان[1] **﴿ثاني عطفه﴾** أي معرضاً عن الحق لاوياً عنقه كفراً قال ابن عباس: مستكبراً عن الحق إذا دُعي إليه قال الزمخشري: وثنيُ العطف عبارة عن الكبر والخيلاء فهو كتصعير الخد[2] **﴿ليضل عن سبيل الله﴾** أي ليصُدَّ الناس عن دين الله وشرعه **﴿له في الدنيا خزيٌ﴾** أي له هوان وذل في الحياة الدنيا **﴿ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق﴾** أي ونذيقه في الآخرة النار المحرقة **﴿ذلك بما قدمت يداك﴾** أي ذلك الخزي والعذاب بسبب ما اقترفته من الكفر والضلال **﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾** أي وأن الله عادل لا يظلم أحداً من خلقه **﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾** أي ومن الناس من يعبد الله على جانب وطرفٍ من الدين ، وهذا تمثيلٌ للمذبذبين الذين لا يعبدون الله عن ثقة ويقين بل عن قلق واضطراب كالذي يكون على طرف من الجيش فان أحسَّ بظفر أو غنيمة استقر وإلا فرّ قال الحسن : هو المنافق يعبده بلسانه دون قلبه وقال ابن عباس : كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً وأنتجت خيله قال : هذا دين صالح ،

(١) البحر ٦/ ٣٥٤ . (٢) الكشاف ٣/ ١٤٤ .

عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال : هذا دين سوء[1] **﴿فإن أصابه خيرٌ اطمأن بـه﴾** أي فإن ناله خير في حياته من صحةٍ ورخاء أقام على دينه **﴿وإن أصابتـه فتنة انقلـب على وجهه﴾** أي وإن ناله شيء يفتتن به من مكروه وبلاء ارتد فرجع إلى ما كان عليه من الكفر **﴿خسـر الدنيا والآخـرة﴾** أي أضاع دنياه وآخرته فشقي الشقاوة الأبدية **﴿ذلك هو الخسـران المبين﴾** أي ذلك هو الخسران الواضح الذي لا خسران مثله **﴿يدعو من دون الله ما لا يضـره وما لا ينفعـه﴾** أي يعبد الصنم الذي لا ينفع ولا يضر **﴿ذلك هو الضـلال البعيـد﴾** أي ذلك هو نهاية الضلال الذي لا ضلال بعده ، شبه حالهم بحال من أبعد في التيه ضالاً عن الطريق **﴿يدعو لمن ضـره أقرب من نفعـه﴾** أي يعبد وثناً أو صنماً ضره في الدنيا بالخزي والذل أسرع من نفعه الذي يتوقعه بعبادته وهو الشفاعة له يوم القيامة ،وقيل: الآية على الفرض والتقدير :أي لو سلمنا نفعه أو ضره لكان ضره أكثر من نفعه[2] ، والآية سيقت تسفيهاً وتجهيلاً لمن يعتقد أنه ينتفع بعبادة غير الله حين يستشفع بها **﴿لبئـس المولى ولبئس العشـير﴾** أي بئس الناصر وبئس القريب والصاحب **﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار﴾** لما ذكر حال المشركين وحال المنافقين المذبذبين ذكر حال المؤمنين في الآخرة والمعنى إن الله يدخل المؤمنين الصادقين جنات تجري من تحت قصورها وغرفها أنهار اللبن والخمر والعسل وهم في روضات الجنات يحبرون **﴿إن الله يفعـل ما يريـد﴾** أي يثيب من يشاء ويعذب من يشاء لا معقب لحكمه ، فللمؤمنين الجنة بفضله ، وللكافرين النار بعدله **﴿من كان يظن أن لن ينصـره الله في الدنيـا والآخرة﴾** أي من كان يظن أن لن ينصر الله رسوله ﷺ في الـدنيا والآخـرة[3] **﴿فليمدد بسبب إلى السمـاء ثم ليقطـع﴾** أي فليمدد بحبل إلى السقف ثم ليقطع عنقه وليختنق به **﴿فلينظر هل يذهبـن كيده ما يغيـظ﴾** أي فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ ؟ قال ابن كثير : وهذا القول قول ابن عباس وهو أظهر في المعنى وأبلغ في التهكم فإن المعنى : من كان يظنُّ أنَّ الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه فإن الله ناصره لا محالة **﴿وكذلك أنزلناه آياتٍ بينـات﴾** أي ومثل ذلك الإنزال البديع المنطوي على الحكم البالغة أنزلنا القرآن الكريم كله آيات واضحات

(١) القرطبي ١٢/ ١٧. (٢) البحر ٦/ ٣٥٦.

(٣) للمفسرين في معنى الآية قولان : الأول أن الضمير في « ينصره » للرسول ﷺ والمعنى على هذا : من كان من الكفار يظن أن لن ينصر الله محمداً فليختنق بحبل فإن الله ناصره لا بد ، وهذا ما رجحه ابن كثير ، والثاني أن الضمير يعود على الإنسان نفسه والمعنى : من ظن بسبب ضيق صدره وكثرة غمه أن لن ينصره الله فليختنق وليمت بغيظه ، وهذا ما رجحه صاحب التسهيل .

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾

الدلالة على معانيها الرائقة ﴿وأنَّ اللهَ يهدي من يريد﴾ أي وأن الله هو الهادي لا هادي سواه يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم ﴿إن الذين آمنوا﴾ أي صدقوا الله ورسوله وهم أتباع محمد عليه السلام ﴿والذين هادوا﴾ أي اليهود وهم المنتسبون إلى موسى عليه السلام ﴿والصابئين﴾ هم قوم يعبدون النجوم ﴿والنصارى﴾ هم المنتسبون إلى ملة عيسى عليه السلام ﴿والمجوس﴾ هم عبدة النيران ﴿والذين أشركوا﴾ هم العرب عبدة الأوثان ﴿إن الله يفصل بينهم يوم القيامة﴾ أي يقضي بين المؤمنين وبين الفرق الخمسة الضالة فيدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار ﴿إن الله على كل شيء شهيد﴾ أي شاهد على أعمال خلقه عالم بكل ما يعملون ﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض﴾ أي يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً ، الملائكة في أقطار السموات ، والإنس والجن وسائر المخلوقات في العالم الأرضي ﴿والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوابُّ﴾ أي وهذه الأجرام العظمى مع سائر الجبال والأشجار والحيوانات تسجد لعظمته سجود انقياد وخضوع ، قال ابن كثير : وخص الشمس والقمر والنجوم بالذكر لأنها قد عبدت من دون الله ، فبيّن أنها تسجد لخالقها وأنها مربوبة مسخرة[1]. والغرض من الآية : بيان عظمته تعالى وانفراده بألوهيته وربوبيته بانقياد هذه العوالم العظمى له وجريها على وفق أمره وتدبيره ﴿وكثير من الناس﴾ أي ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة ﴿وكثير حق عليه العذاب﴾ أي وكثير من الناس وجب له العذاب بكفره واستعصائه ﴿ومن يُهِن اللَّهُ فما له من مكرم﴾ أي من أهانه الله بالشقاء والكفر فلا يقدر أحد على دفع الهوان عنه ﴿إن الله يفعَل ما يشاء﴾ أي يعذب ويرحم ، ويعز ويذل ، ويُغني ويُفقِر ، ولا اعتراض لأحد عليه .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - التشبيه البليغ المؤكد ﴿وترى الناس سكارى﴾ أي كالسكارى من شدة الهول ، حذفت أداة التشبيه والشبه .
٢ - الاستعارة ﴿شيطان مريد﴾ استعار لفظ الشيطان لكل طاغية متمرد على أمر الله .
٣ - الطباق بين ﴿يُضله . . . ويهديه﴾ .

(١) مختصر ابن كثير ٢/ ٥٣٤ .

٤ ـ أسلوب التهكم ﴿ويهديه إلى عذاب السعير﴾ .

٥ ـ طباق السلب ﴿مخلقة وغير مخلقة﴾ .

٦ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾ شبه الأرض بنائم لا حركة له ثم يتحرك وينتعش وتدب فيه الحياة بنزول المطر عليه ففيها استعارة تبعية .

٧ ـ الكناية ﴿ثاني عطفه﴾ كناية عن التكبر والخيلاء .

٨ ـ المجاز المرسل ﴿بما قدمت يداك﴾ علاقته السببية لأن اليد هي التي تفعل الخير أو الشر .

٩ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿من يعبد الله على حرف﴾ مثل للمنافقين وما هم فيه من قلق واضطراب في دينهم بمن يقف على شفا الهاوية يريد العبادة والصلاة ، ويا له من تمثيل رائع !

١٠ ـ المقابلة البديعة بين ﴿فإن أصابه خير اطمأن به . . وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه﴾ .

١١ ـ الطباق بين ﴿يضره . . . وينفعه﴾ وبين ﴿يهن . . فما له من مكرم﴾ .

١٢ ـ السجع اللطيف بين كثير من الآيات .

فَائِدَة : المُرضع التي شأنها أن ترضع ، والمرضعة هي التي في حال الإرضاع ملقمة ثديها لطفلها ولهذا قال ﴿تذهل كل مرضعة﴾ ولم يقل : مرضع ليكون ذلك أعظم في الذهول إذ تنزع ثديها من فم الصبي ـ أحب الناس إليها ـ وذلك غاية في شدة الهول والفزع .

تَنْبِيه : روى ابن أبي حاتم أنه قيل لعلي : « إن ههنا رجلاً يتكلم في المشيئة فاستدعاه فقال له ، يا عبد الله : خلقك كما يشاء أو كما تشاء ؟ قال بل كما شاء ، قال : فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت ، قل : بل إذا شاء ، قال : فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء ، قال : فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء ؟ قال : بل حيث يشاء ، قال والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي بين عينيك بالسيف »[1] .

* * *

قال الله تعالى :﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم. . إلى . .لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين﴾ من آية (١٩) إلى نهاية آية (٣٧) .

المُنَاسَبَة : لما ذكر تعالى أهل السعادة وأهل الشقاوة ، ذكر هنا ما دار بينهم من الخصومة في دينه وعبادته ، ثم ذكر عظم حرمة البيت العتيق وبناء الخليل له ، وعظم كفر هؤلاء المشركين الذين يصدون الناس عن سبيل الله والمسجد الحرام .

---

(١) مختصر ابن كثير ٢/ ٥٣٥.

اللغة : ﴿يُصهر﴾ الصهر : الإذابة صهرت الشيء فانصهر أي أذبته فذاب ﴿مقامع﴾ المقامع : السياط جمع مقمعة سميت بذلك لأنها تقمع الفاجر ﴿العاكف﴾ المقيم الملازم ﴿الباد﴾ القادم من البادية ﴿بوأنا﴾ أنزلنا وهيأنا وأرشدنا ﴿رجالاً﴾ جمع راجل وهو الماشي على قدميه ﴿ضامر﴾ الضامر : البعير المهزول الذي أتعبه السفر ﴿تفثهم﴾ التفث في اللغة : الوسخ والقذر قال الشاعر[١] :

حفـوا رءوسهـم لم يحلقـوا تفثاً ولـم يسلُّـوا لهـم قمـلاً وصئباناً

قال الثعلبي : أصل التفث في اللغة الوسخ ، تقول العرب للرجل تستقذره : ما أتفثك أي ما أوسخك وأقذرك[٢] ﴿المخبتين﴾ المخبت : المتواضع الخاشع لله .

* ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ﴾

التفسير : ﴿هذان خصمان﴾ أي هذان فريقان مختصمان فريق المؤمنين المتقين ، وفريق الكفرة المجرمين ﴿اختصموا في ربهم﴾ أي اختلفوا وتنازعوا من أجل الله ودينه قال مجاهد : هم المؤمنون والكافرون ، فالمؤمنون يريدون نصرة دين الله ، والكافرون يريدون إطفاء نور الله ﴿فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار﴾ أي فصلت لهم ثيابٌ من نار على قدر أجسادهم ليلبسوها إذا صاروا إلى النار قال القرطبي : شبهت النار بالثياب لأنها لباس لهم كالثياب ومعنى ﴿قطعت﴾ خيطت وسويت ، وذكر بلفظ الماضي لأن الموعود منه كالواقع المحقق[٣] ﴿يصب من فوق رءوسهم الحميم﴾ أي يصب على رءوسهم الماء الحار المغلي بنار جهنم ﴿يصهر به ما في بطونهم والجلود﴾ أي يذاب به ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء مع الجلود قال ابن عباس : لو سقطت منه قطرة على جبال الدنيا لأذابتها وفي الحديث (إن الحميم ليصب على رءوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه ، فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ، ثم يعاد كما كان)[٤] قال الإمام الفخر : والغرض أن الحميم إذا صب على رءوسهم كان تأثيره في الباطن مثل تأثيره في الظاهر ، فيذيب أمعاءهم وأحشاءهم كما يذيب جلودهم وهو أبلغ من قوله ﴿وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم﴾[٥] ﴿ولهم مقامع من حديد﴾ أي ولهم مطارق وسياط من الحديد يضربون بها ويدفعون وفي الحديث (لو وضعت مقمعة منها في الأرض فاجتمع عليها الثقلان ما أقلوها)[٦] ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها﴾ أي كلما أراد اهل النار الخروج من النار من شدة غمها ردوا إلى أماكنهم فيها قال الحسن : إن النار تضربهم بلهبها فترفعهم حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفاً[٧] ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾ أي يقال لهم : ذوقوا عذاب جهنم المحرق الذي

---

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت كذا في القرطبي ١٢/ ٥٠ . (٢) القرطبي ١٢/ ٥٠ . (٣) القرطبي ١٢/ ٢٦ . (٤) أخرجه الترمذي وقال : حسن صحيح غريب . (٥) تفسير الرازي ٢٣/ ٢٢ . (٦) أخرجه أحمد . (٧) تفسير الرازي ٢٣/ ٢٢ .

﴿مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٥﴾ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ﴾

كنتم به تكذبون ، ولما ذكر تعالى ما أعد للكفار من العذاب والدمار ، ذكر ما أعده للمؤمنين من الثواب والنعيم فقال **﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾** أي يدخل المؤمنين الصالحين في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار العظيمة المتنوعة **﴿يحلون فيها من أساور من ذهب﴾** أي تلبسهم الملائكة في الجنة الأساور الذهبية كحلية وزينة يتزينون بها **﴿ولؤلؤاً﴾** أي ويحلون باللؤلؤ كذلك إكراماً من الله لهم **﴿ولباسهم فيها حرير﴾** أي ولباسهم في الجنة الحرير ، ولكنه أعلى وأرفع مما في الدنيا بكثير **﴿وهدوا إلى الطيب من القول﴾** أي أرشدوا إلى الكلام الطيب والقول النافع إذ ليس في الجنة لغوٌ ولا كذب **﴿وهدوا إلى صراط الحميد﴾** أي إلى صراط الله وهو الجنة دار المتقين ، ثم عدد تعالى بعض جرائم المشركين فقال **﴿إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام﴾** أي جحدوا بما جاء به محمد عليه السلام ويمنعون المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام لأداء المناسك فيه قال القرطبي : وذلك حين صدوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام عام الحديبية[١]، وإنما قال **﴿ويصدون﴾** بصيغة المضارع ليدل على الاستمرار فكأن المعنى : إن الذين كفروا من شأنهم الصد عن سبيل الله ونظيره قوله ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ **﴿الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد﴾** أي الذي جعلناه منسكاً ومتعبداً للناس جميعاً سواء فيه المقيم الحاضر ، والذي يأتيه من خارج البلاد **﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم﴾** أي ومن يرد فيه سوءاً أو ميلاً عن القصد أو يهم فيه بمعصية **﴿نذقه من عذابٍ أليم﴾** أي نذقه أشد أنواع العذاب الموجع قال ابن مسعود : لو أن رجلاً بِعدَنَ همَّ بأن يعمل سيئة عند البيت أذاقه الله عذاباً أليماً وقال مجاهد : تُضاعف السيئات فيه كما تضاعف الحسنات[٢] **﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت﴾** أي واذكر حين أرشدنا إبراهيم وألهمناه مكان البيت **﴿أن لا تشرك بي شيئاً﴾** أي أمرناه ببناء البيت العتيق خالصاً لله قال ابن كثير : أي ابنه على اسمي وحدي[٣] **﴿وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود﴾** أي طهر بيتي من الأوثان والأقذار لمن يعبد الله فيه بالطواف والصلاة قال القرطبي : والقائمون هم المصلون ، ذكر تعالى من أركان الصلاة أعظمها وهو القيام والركوع والسجود[٤] **﴿وأذِّنْ في الناس بالحج﴾** أي ونادِ في الناس داعياً لهم لحج بيت الله العتيق قال ابن عباس : لما فرغ إبراهيم

(١) القرطبي ١٢/ ٣١ . (٢) تفسير الرازي ٢٣/ ٢٥ . (٣) المختصر ٢/ ٥٣٩ . (٤) القرطبي ١٢/ ٣٧ .

﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ﴾

من بناء البيت قيل له : أذن في الناس بالحج ، قال يا رب : وما يبلغ صوتي ؟ قال : أذن وعلي الإبلاغ فصعد إبراهيم على جبل أبي قبيس وصاح : يا أيها الناس إن الله قد أمركم بحج هذا البيت ليثيبكم به الجنة ، ويجيركم من عذاب النار فحجوا ، فأجابه من كان في أصلاب الرجال ، وأرحام النساء : لبيك اللهم لبيك[1] ﴿يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر﴾ أي يأتوك مشاة على أقدامهم أو ركباناً على كل جمل هزيل قد أتعبه وأنهكه بعد المسافة ﴿يأتين من كل فج عميق﴾ أي تأتي الإبل الضامرة من كل طريق بعيد قال القرطبي : ورد الضمير إلى الإبل ﴿يأتين﴾ تكرمةً لها لقصدها الحج مع أربابها كما قال ﴿والعاديات ضبحاً﴾ في خيل الجهاد تكرمةً لها حين سعت في سبيل الله[2] ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ أي ليحضروا منافع لهم كثيرة دينية ودنيوية قال الفخر الرازي : وانما نكَّر المنافع لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات[3] ﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ أي ويذكروا عند ذبح الهدايا والضحايا اسم الله في أيام النحر شكراً لله على نعمائه وعلى ما رزقهم وملكهم من الأنعام وهي : الإبل والبقر والغنم والمعز قال الرازي : وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي ذكر اسمه تعالى عند الذبح وأن يخالف المشركين في ذلك فإنهم كانوا يذبحونها للنصب والأوثان[4] ﴿فكلوا منها﴾ أي كلوا من لحوم الأضاحي ﴿وأطعموا البائس الفقير﴾ أي أطعموا منها البائس الذي أصابه بؤس وشدة ، والفقير الذي أضعفه الإعسار قال ابن عباس : البائس الذي ظهر بؤسه في ثيابه وفي وجهه ، والفقير الذي لا يكون كذلك ، ثيابه نقية ووجهه وجه غني ﴿ثم ليقضوا تفثهم﴾ أي ثم بعد الذبح ليزيلوا وسخهم الذي أصابهم بالإحرام وذلك بالحلق والتقصير وإزالة الشعث وقص الشارب والأظافر ﴿وليوفوا نذورهم﴾ أي ما أوجبوه على أنفسهم بالنذر طاعةً لله ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ أي ليطوفوا حول البيت العتيق طواف الإفاضة وهو طواف الزيارة الذي به تمام التحلل ، والعتيق : القديم سمي به لأنه أول بيت وضع للناس ﴿ذلك﴾ أي الأمر والشأن ذلك قال الزمخشري : كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال : هذا وقد كان كذا[5] ﴿ومن يعظم حرمات الله﴾ أي من يعظم ما شرعه الله من أحكام الدين ويجتنب المعاصي والمحارم ﴿فهو خير له عند ربه﴾ أي ذلك التعظيم خير له ثواباً في الآخرة ﴿وأُحِلَّت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم﴾ أي أحللنا لكم جميع الأنعام إلا ما استثني في الكتاب المجيد كالميتة والمنخنقة وما ذبح لغير الله وغير ذلك ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ أي اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان كما تجتنب الأنجاس ، وهو غاية المبالغة في النهي عن عبادتها وتعظيمها

(١) الرازي ٢٣/ ٢٧ . (٢) القرطبي ١٢/ ٣٩ . (٣) تفسير الرازي ٢٣/ ٢٩ . (٤) الرازي ٢٣/ ٢٩ . (٥) الكشاف ٣

إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا

﴿**واجتنبوا قول الزور**﴾ أي واجتنبوا شهادة الزور ﴿**حنفاء لله غير مشركين به**﴾ أي مائلين إلى الحق مسلمين لله غير مشركين به أحداً ﴿**ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير**﴾ تمثيل للمشرك في ضلاله وهلاكه أي ومن أشرك بالله فكأنما سقط من السماء فتخطفه الطير وتمزقه كل ممزق ﴿**أو تهوي به الريح في مكانٍ سحيق**﴾ أي أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المهالك البعيدة ﴿**ذلك ومن يعظم شعائر الله**﴾ أي ذلك ما وضحه الله لكم من الأحكام والأمثال ومن يعظم أمور الدين ومنها أعمالُ الحج والأضاحي والهدايا ﴿**فإنها من تقوى القلوب**﴾ أي فإن تعظيمها من أفعال المتقين لله قال القرطبي : أضاف التقوى الى القلوب لأن حقيقة التقوى في القلب وفي الحديث (التقوى ههنا) وأشار إلى صدره[1] ﴿**لكم فيها منافع إلى أجل مسمى**﴾ أي لكم في الهدايا منافع كثيرة من الدر والنسل والركوب إلى وقت نحرها ﴿**ثم محلها إلى البيت العتيق**﴾ أي ثم مكان ذبحها في الحرم بمكة أو منى ، وخص البيت بالذكر لأنه أشرف الحرم كقوله تعالى ﴿**هدياً بالغ الكعبة**﴾ ﴿**ولكل أمةٍ جعلنا منسكاً**﴾ أي شرعنا لكل أُمة من الأمم السابقة من عهد إبراهيم مكاناً للذبح تقرباً لله قال ابن كثير : يخبر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل ﴿**ليذكروا اسم الله**﴾ أي أمرناهم عند الذبح أن يذكروا اسم الله وأن يذبحوا لوجهه تعالى ﴿**على ما رزقهم من بهيمة الأنعام**﴾ أي شكراً لله على ما أنعم به عليهم من بهيمة الأنعام من الإبل والبقر والغنم ، بين تعالى أنه يجب أن يكون الذبح لوجهه تعالى وعلى اسمه لأنه هو الخالق الرازق لا كما كان المشركون يذبحون للأوثان ﴿**فإلهكم إلهٌ واحد**﴾ أي فربكم أيها الناس ومعبودكم إله واحد لا شريك له ﴿**فله أسلموا**﴾ أي فأخلصوا له العبادة واستسلموا لحكمه وطاعته ﴿**وبشر المخبتين**﴾ أي بشر المطيعين المتواضعين الخاشعين بجنات النعيم ، ثم وصف تعالى المخبتين بأربع صفات فقال ﴿**الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم**﴾ أي إذا ذكر الله خافت وارتعشت لذكره قلوبهم لإشراق أشعة جلاله عليها فكأنهم بين يديه واقفون ، ولجلاله وعظمته مشاهدون ﴿**والصابرين على ما أصابهم**﴾ أي يصبرون في السراء والضراء على الأمراض والمصائب والمحن وسائر المكاره ﴿**والمقيمي الصلاة**﴾ أي الذين يؤدونها في أوقاتها مستقيمةً كاملة مع الخشوع والخضوع ﴿**وممّا رزقناهم ينفقون**﴾ أي ومن بعض الذي رزقناهم من

(١) القرطبي ١٢/ ٥٦ .

رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

فضلنا ينفقون في وجوه الخيرات ﴿**والبدن جعلناها لكم من شعائر الله**﴾ أي والإِبل السمينة ـ سميت بدناً لبدانتها وضخامة أجسامها ـ جعلناها من أعلام الشريعة التي شرعها الله لعباده قال ابن كثير : وكونها من شعائر الدين أنها تُهدى إلى بيته الحرام بل هي أفضل ما يهدى[1] ﴿**لكم فيها خيرٌ**﴾ قال ابن عباس : نفعٌ في الدنيا وأجرٌ في الآخرة ﴿**فاذكروا اسم الله عليها صواف**﴾ أي اذكروا عند ذبحها اسم الله الجليل عليها حال كونها صواف أي قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن ﴿**فإذا وجبت جنُوبُها**﴾ أي فإذا سقطت على الأرض بعد نحرها ، وهو كنايةٌ عن الموت ﴿**فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر**﴾ أي كلوا من هذه الهدايا وأطعموا القانع أي المتعفف والمعتر أي السائل قاله ابن عباس[2] ، وقال الرازي : الأقرب أن القانع هو الراضي بما يدفع إليه من غير سؤ ال وإلحاح ، والمعتر هو الذي يتعرض ويطلب ويعتريهم حالاً بعد حال[3] ﴿**كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون**﴾ أي مثل ذلك التسخير البديع جعلناها منقادة لكم مع ضخامة أجسامها لكي تشكروا الله على إنعامه ﴿**لن ينال الله لحومها ولا دماؤُها**﴾ أي لن يصل إليه تعالى شيء من لحومها ولا دمائها ﴿**ولكن يناله التقوى منكم**﴾ أي ولكن يصل إليه التقوى منكم بامتثالكم أوامره وطلبكم رضوانه ﴿**كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم**﴾ أي كرره للتأكيد أي كذلك ذللها لكم وجعلها منقادة لرغبتكم لتكبروا الله على ما أرشدكم إليه من أحكام دينه ﴿**وبشر المحسنين**﴾ أي بشر المحسنين في أعمالهم بالسعادة والفوز بدار النعيم .

البَـلاغَـة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الإِيجاز ﴿اختصموا في ربهم﴾ أي في دين ربهم فهو على حذف مضاف .

٢ ـ الاستعارة ﴿قطعت لهم ثياب من نار﴾ استعارة عن إحاطة النار بهم كما يحيط الثوب بلابسه .

٣ ـ الطباق بين ﴿العاكف . . والباد﴾ لأن العاكف المقيم في المدينة والباد القادم من البادية .

٤ ـ التأكيد بإعادة الفصل ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾ للعناية بشأن كل استقلالاً ، ويسمى في علم البديع الإِطناب .

---

(١) المختصر ٢/ ٥٤٤. (٢) وهو قول قتادة والنخعي ومجاهد وكثير من السلف. (٣) الرازي ٢٣/ ٠٣٦.

٥ ـ التشبيه التمثيلي ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير﴾ لأن وجه الشبه منتزعٌ من متعدد .

٦ ـ الجناس الناقص ﴿وجبت جنوبها﴾ .

٧ ـ الطباق بين ﴿القانع والمعتر﴾ لأنه القانع المتعفف والمعتر السائل .

٨ ـ السجع اللطيف مثل ﴿عميق ، سحيق ، العتيق﴾ ومثل ﴿المحسنين ، المخبتين﴾ .

تنبيه : لم يؤاخذ الله تعالى أحداً من خلقه على الهم بالمعصية إلا في المسجد الحرام ﴿ومن يرد فيه بإلحادٍ بظلم نذقه من عذاب اليم﴾ لأنه المكان المقدس الذي يجب أن يكون فيه الإِنسان نقي القلب ، طاهر النفس ، صافي السريرة ، خالصاً بكليته لله ، فمن ينتهك حرمة الملك في حماه جدير بالجحيم والعذاب الأليم .

* * *

قال الله تعالى : ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا . . إلى . . وإن الله هو العلي الكبير﴾ من آية (٣٨) إلى نهاية آية (٦٢) .

المناسبة : لما بيَّن تعالى مناسك الحج وما فيه من منافع الدنيا والآخرة ، وذكر أن الكفار صدوا المؤمنين عن دين الله وعن دخول مكة ، بيَّن هنا أنه يدافع عن المؤمنين وذكر الحكمة من مشروعية القتال ومنها الدفاع عن المقدسات ، وحماية المستضعفين ، وتمكين المؤمنين من عبادة الله تعالى .

اللغة : ﴿صوامع﴾ جمع صومعة وهي البناء المرتفع وهي مختصة بالرهبان ﴿بيع﴾ جمع بيعة وهي كنيسة النصارى ﴿وصلوات﴾ كنائس اليهود وقال الزجاج : وهي بالعبرانية صلُوتا ﴿نكير﴾ مصدر بمعنى الإِنكار قال الجوهري : النكيرُ والإِنكارُ تغيير المنكر ﴿معطلة﴾ متروكة وتعطيل الشيء إبطال منافعه ﴿مشيد﴾ مرفوع البنيان .

* إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ

التفسير : ﴿إنَّ الله يدافع عن الذين آمنوا﴾ أي ينصر المؤمنين ويدفع عنهم بأس المشركين ، وهذه بشارة للمؤمنين بإعلائهم على الكفار وكفُّ كيدهم عنهم ﴿إنَّ الله لا يحبُّ كل خوان كفور﴾ أي إنه تعالى يبغض كل خائنٍ للأمانة جاحدٍ نعمة الله ﴿أُذِنَ للذين يُقاتلون بأنهم ظلموا﴾ فيه محذوف تقديره : أُذن لهم في القتال بسبب أنهم ظُلموا قال ابن عباس : هذه أول آيةٍ نزلت في الجهاد قال المفسرون : هم أصحابُ رسول الله ﷺ كان مشركو مكة يؤذونهم أذى شديداً وكانوا يأتون رسول الله ﷺ بين مضروب ومشجوح ويتظلمون إليه فيقول لهم : اصبروا فاني لم أومر بقتالهم حتى هاجروا فأُنزلت هذه الآية وهي أول آيةٍ أُذن فيها بالقتال بعدما نهي عنه في أكثر من سبعين آية ﴿وإن الله على نصرهم لقدير﴾ أي هو تعالى قادر على نصر عباده من غير قتال ولكنه يريد منهم أن يبذلوا جهدهم في طاعته لينالوا أجر الشهداء ﴿الذين

ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ﴿٤٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ

أخرجوا من ديارهم بغير حق﴾ أي أُخرجوا من أوطانهم ظلماً وعدواناً بغير سبب موجب للإخراج قال ابن عباس : يعني محمداً وأصحابه أُخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق **﴿إلاّ أن يقولوا ربنا اللهُ﴾** أي ما كان لهم إساءة ولا ذنب إلا أنهم وحدوا الله ولم يشركوا به أحداً **﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾** أي لولا ما شرعه الله من الجهاد وقتال الأعداء لاستولى أهل الشرك على أهل الأديان وتعطلت الشعائر ولكنه تعالى دفع شرهم بأن أمر بقتالهم **﴿لهدمت صوامعُ وبيعٌ﴾** أي لتهدمت معابد الرهبان وكنائس النصارى **﴿وصلواتٌ﴾** أي كنائس اليهود **﴿ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾** أي ومساجد المسلمين التي يعبد فيها الله بكرة وأصيلاً ، ومعنى الآية أنه لولا كفُّه تعالى المشركين بالمسلمين ، وإذنه بمجاهدة المسلمين للكافرين لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمانهم فهدموا موضع عباداتهم ، ولم يتركوا للنصارى بيعاً ، ولا لرهبانهم صوامع ، ولا لليهود كنائس ، ولا للمسلمين مساجد ، ولغلب المشركون أهل الأديان ، وإنما خص المساجد بهذا الوصف **﴿يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾** تعظيماً لها وتشريفاً لأنها أماكن العبادة الحقة **﴿ولينصرن الله من ينصره﴾** قسمٌ أي والله سينصر الله من ينصر دينه ورسوله **﴿ إنَّ الله لقويٌ عزيز﴾** أي إنه تعالى قادر لا يعجزه شيء ، عزيزٌ لا يُقهر ولا يغلب قال ابن كثير : وصف نفسه بالقوة والعزة ، فبقوته خلق كل شيء ، وبعزته لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب[1] **﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾** قال ابن عباس : هم المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان ، والمعنى : هؤلاء الذين يستحقون نصرة الله هم الذين إن جعلنا لهم سلطاناً في الأرض وتملكاً واستعلاء عبدوا الله وحافظوا على الصلاة وأداء الزكاة **﴿وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾** أي دعوا إلى الخير ونهوا عن الشر **﴿ولله عاقبة الأمور﴾** أي مرجع الأمور إلى حكمه تعالى وتقديره **﴿وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود﴾** تسلية للرسول ﷺ ووعيد للمشركين أي إن كذبك أهل مكة فاعلم أنك لست أول رسول يكذبه قومه فقد كان قبلك أنبياء كُذبوا فصبروا إلى أن أهلك الله المكذبين ، فاقتد بهم واصبر **﴿وقوم إبراهيم وقومُ لوطٍ وأصحاب مدين﴾** أي وكذب كذلك قوم إبراهيم وقوم لوط وقوم شعيب **﴿وكُذب موسى﴾** أي وكذب موسى أيضاً مع وضوح آياته ، وعظم معجزاته فما ظنك بغيره ؟ **﴿فأمليتُ**

(١) المختصر ٢/٥٤٨.

فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ

للكافرين ثم أخذتهم﴾ أي أمهلتهم ثم أخذتهم بالعقوبة **﴿فكيف كان نكير﴾** استفهام تقريري أي فكيف كان إنكاري عليهم بالعذاب ألم يكن أليماً ؟ ألم أبدلهم بالنعمة نقمة ، وبالكثرة قلة ، وبالعمارة خراباً ؟ فكذلك أفعل بالمكذبين من أهل مكة **﴿فكأين من قرية أهلكناها﴾** أي كم من قرية أهلكنا أهلها بالعذاب الشامل **﴿وهي ظالمة﴾** أي وهي مشركة كافرة **﴿فهي خاويةٌ على عروشها﴾** أي خرت سقوفها على الأرض ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف فهي مخربة مهدمة **﴿وبئر معطلة﴾** أي وكم من بئر عطلت فتركت لا يستقى منها لهلاك أهلها **﴿وقصر مشيد﴾** أي وكم من قصر مرفوع البنيان أصبح خالياً بلا ساكن ، أليس في ذلك عبرة للمعتبر ؟ **﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكونَ لهم قلوبٌ يعقلون بها﴾** أي أفلم يسافر أهل مكة ليشاهدوا مصارع الكفار فيعتبروا بما حل بهم من النكال والدمار !! وهلاّ عقلوا ما يجب ان يُعقل من الإيمان والتوحيد ! **﴿أو آذان يسمعون بها﴾** أي أو تكون لهم آذانٌ يسمعون بها المواعظ والزواجر **﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾** أي ليس العمى على الحقيقة عمى البصر ، وإنما العمى عمى البصيرة فمن كان أعمى القلب لا يعتبر ولا يتدبر ، وذِكرُ الصدور للتأكيد ونفي توهم المجاز **﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده﴾** أي ويستعجلك يا محمد هؤلاء المشركون بالعذاب استهزاءً ، وإن ذلك واقع لا محالة ، لكن لوقوعه أجل لا يتعداه لأنه تعالى لا يخلف الميعاد **﴿وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾** أي هو تعالى حليم لا يعجل فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حلمه فلِم إذاً يستبعدونه ويستعجلون العذاب ؟ ولهذا قال بعد ذلك **﴿وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة﴾** أي وكثير من أهل قرية أخرت إهلاكهم وأمهلتهم مع استمرارهم على الظلم فاغتروا بذلك التأخير **﴿ثم أخذتها وإلي المصير﴾** أي ثم أخذتهم بالعذاب بعد طول الإمهال وإليَّ المرجع والمآب قال في البحر : لما كان تعالى قد أمهل قريشاً حتى استعجلت بالعذاب ذكر الآية تنبيهاً على أن السابقين أُمهلوا ثم أُهلكوا وأن قريشاً وإن أملى تعالى لهم وأمهلهم فإنه لا بد من عذابهم فلا يفرحوا بتأخير العذاب عنهم[1] **﴿قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين﴾** أي قل يا محمد لهؤلاء المستعجلين للعذاب إنما أنا منذر لكم أخوفكم عذاب الله وأنذركم إنذاراً بيناً من غير أن يكون لي دخلٌ في تعجيل العذاب أو

(١) البحر ٦/ ٣٧٩.

﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٥٠ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝٥١ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾

تأخيره ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزقٌ كريم﴾ أي فالمؤمنون الصادقون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح لهم عند ربهم مغفرة لذنوبهم ورزق كريم في جنان النعيم قال الرازي : بين سبحانه أن من جمع بينهما فالله تعالى يجمع له بين المغفرة والرزق الكريم[1] وقال القرطبي : إذا سمعت الله تعالى يقول ﴿ورزقٌ كريم﴾ فاعلم أنه الجنة[2] ﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين﴾ أي كذبوا بآياتنا وسعوا في إبطالها مغالبين مشاقين يريدون إطفاء نور الله ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾ أي فأولئك هم أصحاب النار الحارة الموجعة ، الشديد عذابها ونكالها ، شبههم من حيث الدوام بالصاحب قال الرازي : فإن قيل : إنه عليه السلام بشر المؤمنين أولاً ، وأنذر الكافرين ثانياً في هذه الآية فكان القياس أن يقال ﴿إنما أنا لكم بشير ونذير﴾ والجواب أن الكلام مسوق إلى المشركين وهم الذين استعجلوا العذاب و ﴿أيها الناس﴾ نداءٌ لهم ، وإنما ذكر المؤمنين وثوابهم زيادة لغيظهم وإيذائهم[3] ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبيّ﴾ أي وما أرسلنا قبلك يا محمداً رسولاً ولا نبياً ﴿إلا إذا تمنَّى﴾ أي إلا إذا أحبَّ شيئاً وهويته نفسه ﴿ألقى الشيطان في أمنيته﴾ أي ألقى الشيطان فيما يشتهيه ويتمناه بعض الوساوس التي توجب اشتغاله بالدنيا كما قال عليه السلام (إنه ليُغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة) قال الفراء : تمنى إذا حدَّث نفسه وفي البخاري : قال ابن عباس : «إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته» إلا إذا حدَّث ألقى الشيطان في حديثه فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته ، ويقال : أمنيته : قراءته[4] قال النحاس : وهذا من أحسن ما قيل في الآية وأجله ، ومعنى الآية : وما أرسلنا رسولاً ولا نبياً فحدث نفسه بشيء وتمنى لأمته الهداية والإيمان إلا ألقى الشيطان الوساوس والعقبات في طريقه بتزيين الكفر لقومه وإلقائه في نفوسهم مخالفةً لأمر الرسول وكأنَّ الآية تسلية للرسول ﷺ تقول له : لا تحزن يا محمد على معاداة قومك لك فهذه سنة المرسلين[5] ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان﴾ أي يزيل ويبطل الله ما يلقيه الشيطان من الوساوس والأوهام ﴿ثم يحْكم الله آياته﴾ أي يثبت في نفس الرسول آياته الدالة على

---

(١) الرازي ٢٣/ ٤٧ . (٢) المختصر ٢/ ٥٥٠ . (٣) الرازي ٢٣/ ٤٧ . (٤) انظر صحيح البخاري كتاب التفسير . (٥) هذا أصح ما قيل في تفسير الآية وهو اختيار المحققين من المفسرين ، وأما قصة الغرانيق التي أولع بذكرها بعض المفسرين فهي باطلة مردودة ، وهي أن الرسول عليه السلام قرأ سورة ﴿والنجم إذا هوى﴾ بمحضر من المشركين والمسلمين فلما بلغ ﴿أفرأيتم اللات والعزى ۝ ومناة الثالثة الأخرى﴾ ألقى الشيطان على لسانه « تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى » ففرح بذلك المشركون ولما انتهى من السورة سجد وسجد معه المشركون الخ قال ابن العربي : إن جميع ما ورد في هذه القصة باطل لا أصل له وقال ابن إسحاق : هي من وضع الزنادقة وقال البيهقي : رواتها مطعون فيهم وقال ابن كثير : ذكر كثير من المفسرين قصة الغرانيق وهي روايات مرسلات ومنقطعات لا تصح وقال القاضي عياض : هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه أحد بسند متصل سليم ، وإنما أُولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون ، المولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم . أقول : مما يدل على بطلان القصة قوله تعالى في نفس السورة ﴿وما ينطق عن الهوى ۝ إن هو إلا وحي يوحى﴾ فكيف نطق المعصوم بمثل هذا الذي يزعمونه ! سبحانك هذا بهتان عظيم وانظر الرد القاطع في تفسير الفخر الرازي .

حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟

الوحدانية والرسالة ﴿**والله عليم حكيم**﴾ أي مبالغٌ في العلم حكيم يضع الأشياء في مواضعها قال أبو السعود : وفي الآية دلالة على جواز السهو من الأنبياء عليهم السلام، وتطرق الوسوسة إليهم[1] ﴿**ليجعل ما يلقي الشيطان**﴾ أي ليجعل تلك الشبه والوساوس التي يلقيها الشيطان ﴿**فتنةً للذين في قلوبهم مرضٌ**﴾ أي فتنة للمنافقين الذين في قلوبهم شك وارتياب ﴿**والقاسية قلوبهم**﴾ أي وفتنةً للكافرين الذين لا تلين قلوبهم لذكر الله ، وهم خواص من الكفار عتاةٌ كأبي جهل ، والنضر ، وعتبة ﴿**وإن الظالمين لفي شقاق بعيد**﴾ أي وإن هؤلاء المذكورين من المنافقين والمشركين لفي عداوة شديدة لله ولرسوله ، ووصف الشقاق بلفظ ﴿**بعيد**﴾ لأنه في غاية الضلال والبعدِ عن الخير ﴿**وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك**﴾ أي وليعلم أهل العلم أن القرآن هو الحق النازل من عند الله تعالى ﴿**فيؤمنوا به**﴾ أي يؤمنوا بهذا القرآن ﴿**فتخبت له قلوبهم**﴾ أي تخشع وتسكن له قلوبهم بخلاف من في قلبه مرض ﴿**وإنَّ الله لهادي الذين آمنوا إلى صراطٍ مستقيم**﴾ أي مرشد المؤمنين إلى الصراط المستقيم ومنقذهم من الضلالة والغواية ﴿**ولا يزال الذين كفروا في مِرْيةٍ منه**﴾ أي ولا يزال هؤلاء المشركون في شك وريب من هذا القرآن ﴿**حتى تأتيهم الساعة بغتة**﴾ أي حتى تأتيهم الساعة فجأة دون أن يشعروا قال قتادة : ما أخذ الله قوماً قطُّ إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم فلا تغتروا بالله إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون ﴿**أو يأتيهم عذاب يوم عقيم**﴾ أي أو يأتيهم عذاب يوم القيامة وسمي عقيماً لأنه لا يوم بعده قال أبو السعود : كأنَّ كل يوم يلد ما بعده من الأيام ، فما لا يوم بعده يكون عقيماً ، والمراد به الساعة أيضاً كأنه قيل : أو يأتيهم عذابها ، ووضع ذلك موضع الضمير لمزيد التهويل[2] ﴿**المُلك يومئذ لله**﴾ أي الملك يوم القيامة لله وحده لا منازع له فيه ولا مدافع ﴿**يحكم بينهم**﴾ أي يفصل بين عباده بالعدل ، فيدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار ولهذا قال ﴿**فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم**﴾ أي فالذين صدقوا الله ورسوله وفعلوا صالح الأعمال لهم النعيم المقيم في جنات الخلد ﴿**والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذابٌ مهين**﴾ أي والذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسله لهم العذاب المخزي مع الإهانة والتحقير في دار الجحيم ﴿**والذين هاجروا في سبيل الله**﴾ أي تركوا الأوطان والديار ابتغاء مرضاة الله وجاهدوا لإعلاء كلمة الله ﴿**ثم قُتلوا أو**

(١) أبو السعود ٤/ ١٨ . (٢) أبو السعود ٤/ ١٩ .

لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ * ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾

ماتـوا﴾ أي قتلوا في الجهاد أو ماتوا على فرشهم ﴿ليرزقنهم الله رزقاً حسنـاً﴾ أي ليعطينهم نعيماً خالداً لا ينقطع أبداً وهو نعيـم الجنة ﴿وإنَّ الله لهو خيـر الرازقين﴾ أي هو تعالى خير من أعطى فإنه يرزق بغـير حساب ﴿ليدخلنهم مدخلاً يرضونـه﴾ أي ليدخلنهم مكاناً يرضونه وهو الجنة التي فيها ما لا عينٌ رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿وإن الله لعليـم حليـم﴾ أي عليم بدرجات العاملين حليم عن عقابهم ﴿ذلك ومن عاقب بمثـل ما عوقب بـه﴾ أي جازى الظالم بمثل ما ظلمه ﴿ثم بُغِيَ عليه لينصرنه الله﴾ أي ثم اعتدى الظالم عليه ثانياً لينصرن الله ذلك المظلوم ﴿إن الله لعفـوٌّ غفور﴾ أي مبالـغ في العفـو والغفران ، وفيه تعريض بالحث على العفو والصفح ، فإنه تعالى مع كمال قدرته على الانتقام يعفو ويغفر فغيره أولى بذلك ﴿ذلك بأن الله يولج الليل في النهـار ويولج النهار في الليـل﴾ أي ذلك النصر بسبب أن الله قادر ، ومن آيات قدرته إيلاج الليل في النهار أي أنه يدخل كلاً منهما في الآخر . بأن ينقص من الليل فيزيد في النهار وبالعكس وهذا مشاهد ملموس في الصيف والشتاء ﴿وأن الله سميـعٌ بصير﴾ أي سميع لأقوال عباده بصير بأحوالهم لا تخفى عليه خافية ﴿ذلك بأن الله هو الحـق﴾ أي ذلك بأن الله هو الإِله الحق ﴿وأن ما يدعون من دونه الباطـل﴾ أي وأن الذي يدعوه المشركون من الأصنام والأوثان هو الباطل الذي لا يقدر على شيء ﴿وأنَّ الله هو العلـي الكبير﴾ أي هو العالي على كل شيء ذو العظمة والكبرياء فلا أعلى منه ولا أكبر .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيـات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ صيغة المبالغة ﴿خوَّان كفـور﴾ لأن فعال وفعول من صيغ المبالغة .

٢ ـ الحذف لدلالة السياق عليه ﴿أُذن للذيـن يقاتلون﴾ أي أُذن بالقتال للذين يقاتلون .

٣ ـ تأكيد المدح بما يشبه الذم ﴿إلا أن يقولـوا ربنا اللـه﴾ أي لا ذنب لهم إلا هذا .

٤ ـ المقابلة اللطيفة بين ﴿فالذين آمنـوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريـم﴾ وبين ﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحـاب الجحيم﴾ .

٥ ـ جناس الاشتقاق ﴿وما أرسلنا من رسـول﴾ .

٦ ـ الطباق بين ﴿ينسخ . . ثم يحكم﴾ .

٧ ـ الاستعارة البديعة ﴿أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾ وهذا من أحسن الاستعارات لأن العقيم المرأة التي لا تلد ، فكأنه سبحانه وصف ذلك اليوم بأنه لا ليل بعده ولا نهار لأن الزمان قد مضى ، والتكليف قد انقضى ، فجعلت الأيام بمنزلة الولدان لليالي ، وجعل ذلك اليوم من بينها عقيماً على طريق الاستعارة .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً . . إلى . . فنعم المولى ونعم النصير﴾

من آية (٦٣) إلى آية (٧٨) نهاية السورة الكريمة .

المناسبة : لمّا ذكر تعالى ما دلَّ على قدرته الباهرة من إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل ونبه به على نعمه ، أتبعه هنا بأنواع أخر من الدلائل على قدرته وحكمته ، وجعلها كالمقدمة لإثبات البعث والمعاد ، وختم السورة بدعوة المؤمنين إلى عبادة الله الواحد الأحد .

اللغة : ﴿سلطاناً﴾ حجة وبرهاناً ﴿يسطون﴾ يبطشون ، والسطوة : القهر وشدة البطش يقال : سطا يسطو إذا بطش به ﴿يسلبهم﴾ سلب الشيء : اختطفه بسرعة ﴿قدروا﴾ عظموا ﴿يصطفي﴾ يجتبي ويختار ﴿حرج﴾ ضيق ﴿ملة﴾ الملة : الدين .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ

التفسير : ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً﴾ استفهام تقريري أي ألم تعلم أيها السامع أن الله بقدرته أنزل من السحاب المطر ؟ ﴿فتصبح الأرض مخضرة﴾ أي فأصبحت الأرض منتعشة خضراء بعد يبسها ومحولها ، وجاء بصيغة المضارع ﴿فتصبح﴾ لاستحضار الصورة وإفادة بقائها كذلك مدة من الزمن ﴿إن الله لطيفٌ خبير﴾ قال ابن عباس : لطيف بأرزاق عباده خبير بما في قلوبهم من القنوط ، والغرض من الآية إقامة الدليل على كمال قدرته وعلى البعث والنشور فمن قدر على هذا قدر على إعادة الحياة بعد الموت ولهذا قال ﴿وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾ ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ أي جميع ما في الكون ملكه جل وعلا ، خلقاً وملكاً وتصرفاً ، والكل محتاج إلى تدبيره وإتقانه ﴿وإنَّ الله لهو الغني الحميد﴾ أي هو تعالى غني عن الأشياء كلها لا يحتاج لأحد ، وهو المحمود في كل حال ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض﴾ تذكير بنعمة أُخرى أي ألم تر أيها العاقل أن الله سخر لعباده جميع ما يحتاجون إليه من الحيوانات والأشجار والأنهار والمعادن ﴿والفُلك تجري في البحر بأمره﴾ أي وسخر السفن العظيمة المثقلة بالأحمال والرجال تسير في البحر لمصالحكم بقدرته ومشيئته ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض﴾ أي ويمسك

ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ

بقدرته السماء كي لا تقع على الأرض فيهلك من فيها ﴿إلاّ بإذنه﴾ أي إلا إذا شاء وذلك عند قيام الساعة ﴿إنَّ الله بالناس لرءوف رحيم﴾ أي وذلك من لطفه بكم ورحمته لكم حيث هيأ لكم أسباب المعاش فاشكروا آلاءه ﴿وهو الذي أحياكم﴾ أي أحياكم بعد أن كنتم عدماً ﴿ثم يميتكم﴾أي يميتكم عند انتهاء آجالكم﴿ثم يحييكم﴾ أي بعد موتكم للحساب والثواب والعقاب ﴿إنَّ الإنسان لكفور﴾ أي مبالغ في الجحود لنعم الله قال ابن عباس : المراد بالإنسان الكافر والغرض من الآيات توبيخ المشركين كأنه يقول : كيف تجعلون لله أنداداً وتعبدون معه غيره وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف !! ﴿لكل أمةٍ جعلنا منسكاً﴾ أي لكل نبي من الأنبياء وأمةٍ من الأمم السابقين وضعنا لهم شريعة ومتعبداً ومنهاجاً[1] كقوله ﴿لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً﴾ ﴿هم ناسكوه﴾ أي هم عاملون به أي بذلك الشرع ﴿فلا ينازعنك في الأمر﴾ أي لا ينازعك أحدٌ من المشركين فيما شرعتُ لك ولأمتك فقد كانت الشرائع في كل عصر وزمان ، وهو نهيٌ يراد به النفي أي لا ينبغي منازعةُ النبي ﷺ لأن الحق قد ظهر بحيث لا يسع النزاع فيه ﴿وادعُ إلى ربك﴾ أي أدعُ الناس إلى عبادة ربك وإلى شريعته السمحة المطهرة ﴿إنك لعلى هدى مستقيم﴾ أي فإنك على طريق واضحٍ مستقيم، موصل إلى جنات النعيم ﴿وإن جادلوك فقل اللهُ أعلم بما تعملون﴾ أي وإن خاصموك بعد ظهور الحق وقيام الحجة عليهم فقل لهم: الله أعلم بأعمالكم القبيحة وبما تستحقون عليها من الجزاء، وهذا وعيد وإنذار ﴿الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون﴾ أي الله يفصل في الآخرة بين المؤمنين والكافرين فيما كانوا فيه يختلفون من أمر الدين ، فيعرفون حينئذٍ الحق من الباطل ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض﴾ الاستفهام تقريري أي لقد علمت يا محمد أنَّ الله أحاط علمه بما في السماء والأرض فلا تخفى عليه أعمالهم ﴿إنَّ ذلك في كتاب﴾ أي إن ذلك كله مسطر في اللوح المحفوظ﴿إنَّ ذلك على الله يسير﴾أي إن حصر المخلوقات تحت علمه وإحاطته سهلٌ عليه يسيرٌ لديه ثم بيَّن سبحانه ما يقدم عليه الكفار مع عظيم نعمه ، ووضوح دلائله فقال ﴿ويعبدون من دون الله﴾ أي ويعبد كفار قريش غير الله تعالى أصناماً لا تنفع ولا تسمع ﴿ما لم ينزل به سلطاناً﴾ أي ما لم يرد به حجة ولا برهان من جهة الوحي والشرع ﴿وما ليس لهم به علم﴾ أي وما ليس عندهم به علم من جهة العقل وإنما هو مجرد التقليد الأعمى للآباء ﴿وما للظالمين من نصير﴾ أي ليس لهم ناصر يدفع عنهم عذاب الله

(١) قال ابن عباس : المَنْسك : الشريعةُ والمنهاج ، قال الرازي : وهو الأقرب هنا .

لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ

﴿وإذا تُتْلى عليهم آياتنا بينات﴾ أي وإذا تليت على هؤلاء المشركين آيات القرآن الواضحة الساطعة وما فيها من الحجج القاطعة على وحدانية الله ﴿تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر﴾ أي ترى في وجوه الكفار الإنكار بالعبوس والكراهة ﴿يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا﴾ أي يكادون يبطشون بالمؤمنين الذين يتلون عليهم القرآن ﴿قل أفأنبئكم بشرٍ من ذلكم النارُ﴾ أي قل لهم : هل أخبركم بما هو أسوأ أو أشنع من تخويفكم للمؤمنين وبطشكم بهم ؟ إنه نار جهنم وعذابها ونكالها ﴿وعدها الله الذين كفروا﴾ أي وعدها الله للكافرين المكذبين بآياته ﴿وبئس المصير﴾ أي بئس الموضع الذي يصيرون إليه ﴿يا أيها الناس ضرب مثلٌ فاستمعوا له﴾ أي يا معشر المشركين ضرب الله مثلاً لما يعبد من دون الله من الأوثان والأصنام فتدبروه حق التدبر واعقلوا ما يقال لكم ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له﴾ أي إنَّ هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها وإن اجتمعت على ذلك ، فكيف يليق بالعاقل جعلها آلهة وعبادتها من دون الله ! قال القرطبي : وخص الذباب لأربعة أمور : لمهانته ، وضعفه ، ولاستقذاره ، وكثرته ، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوهم من دون الله على خلق مثله ودفع أذيته ، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين ، وأرباباً مطاعين ؟ وهذا من أقوى الحجة وأوضح البرهان[1] ﴿وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه﴾ أي لو اختطف الذباب وسلب شيئاً من الطيب الذي كانوا يضمخون به الأصنام لما استطاعت تلك الآلهة استرجاعه منه رغم ضعفه وحقارته ﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾ أي ضعف العابد الذي يطلب الخير من الصنم ، والمطلوب الذي هو الصنم ، فكل منهما حقير ضعيف[2] ﴿ما قدروا الله حق قدره﴾ أي ما عظموه حق تعظيمه حيث جعلوا الأصنام - على حقارتها - شركاء للقوي العزيز ولهذا قال ﴿إن الله لقوي عزيز﴾ أي هو تعالى قادر لا يعجزه شيء ، غالب لا يغلب ، فكيف يسوون بين القوي العزيز والعاجز الحقير ؟ ! ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾ أي الله يختار رسلاً من الملائكة ليكونوا وسطاء لتبليغ الوحي إلى أنبيائه ، ويختار رسلاً من البشر لتبليغ شرائع الدين لعباده ، والآية ردٌّ على من أنكر أن يكون الرسول

(١) القرطبي ١٢/ ٩٧ . (٢) قال ابن عباس : الطالب الصنمُ ، والمطلوبُ الذباب ، وقال السديُّ : الطالب العابد ، والمطلوب الصنم نفسه وهذا هو الراجح وهو الذي اخترناه .

بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

من البشر ﴿إنَّ الله سميع بصير﴾ أي يسمع ما يقولون ويرى ما يفعلون ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أي يعلم ما قدموا وما أخَّروا من الأفعال والأقوال والأعمال ﴿وإلى الله تُرجع الأمور﴾ أي إليه وحده جل وعلا ترد أمور العباد فيجازيهم عليها ﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا﴾ أي صلوا لربكم خاشعين ، وإنما عبر عن الصلاة بالركوع والسجود لأنهما أشرف أركان الصلاة ﴿واعبدوا ربكم﴾ أي أفردوه بالعبادة ولا تعبدوا غيره ﴿وافعلوا الخير﴾ أي افعلوا ما يقربكم من الله من أنواع الخيرات والمبرات كصلة الأرحام ، ومواساة الأيتام ، والصلاة بالليل والناس نيام ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي لتفوزوا وتظفروا بنعيم الآخرة ﴿وجاهدوا في الله حقَّ جهاده﴾ أي جاهدوا بأموالكم وأنفسكم لإعلاء كلمة الله حقَّ الجهاد باستفراغ الوسع والطاقة ﴿هو اجتباكم﴾ أي هو اختاركم من بين الأمم لنصرة دينه ، وخصكم بأكمل شرع وأكرم رسول ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ أي وما جعل عليكم في هذا الدين من ضيق ولا مشقة ، ولا كلفكم مالا تطيقون بل هي الحنيفية السمحة ولهذا قال ﴿ملَّة أبيكم إبراهيم﴾ أي دينكم الذي لا حرج فيه هو دين ابراهيم فالزموه لأنه الدين القيم كقوله ﴿ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً﴾ ﴿هو سمَّاكم المسلمين من قبل وفي هذا﴾ أي الله[1] سماكم المسلمين في الكتب المتقدمة وفي هذا القرآن ، ورضي لكم الإسلام ديناً قال الإمام الفخر : المعنى أنه سبحانه في سائر الكتب المتقدمة على القرآن ، وفي القرآن أيضاً بيَّن فضلكم على الأمم وسمَّاكم بهذا الاسم الأكرم ، لأجل الشهادة المذكورة ، فلما خصكم بهذه الكرامة فاعبدوه ولا تردوا تكاليفه ﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾ أي ليشهد عليكم الرسول بتبليغه الرسالة لكم وتشهدوا أنتم على الخلائق أنَّ رسلهم قد بلَّغتهم ﴿فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي وإذْ قد اختاركم الله لهذه المرتبة الجليلة فاشكروا الله على نعمته بأداء الصلاة ودفع الزكاة ﴿واعتصموا بالله﴾ أي استمسكوا بحبله المتين وثقوا واستعينوا بالله في جميع أموركم ﴿فنعم المولى ونعم النصير﴾ أي نعم هو تعالى الناصر والمعين .

البَلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

(١) هذا قول ابن عباس ومجاهد وهو الظاهر ، وقال الحسن : الضمير يعود على إبراهيم ، وهذا قولٌ مرجوح والله أعلم .

١ ـ الامتنان بتعداد النعم ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض ، والفلك تجري . .﴾ الخ وكذلك الاستفهام الذي يفيد التقرير .

٢ ـ الطباق ﴿يُمِيتكم ثم يحييكم﴾ .

٣ ـ صيغة المبالغة ﴿إنَّ الانسان لكفور﴾ أي مبالغ في الجحود .

٤ ـ النهي الذي يراد منه نفي الشيء ﴿فلا ينازعنك﴾ أي لا ينبغي لهم منازعتك فقد ظهر الحق وبان .

٥ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر﴾ أي تستدل من وجوههم على المكروه وإرادة الفعل القبيح مثل قولهم : عرفت في وجه فلان الشر .

٦ ـ التمثيل الرائع ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً﴾ أي مثل الكفار في عبادتهم لغير الله كمثل الأصنام التي لا تستطيع أن تخلق ذبابة واحدة قال الزمخشري : سميت القصة الرائقة المتلقاة بالاستحسان مثلاً تشبيهاً لها ببعض الأمثال .

٧ ـ المجاز المرسل ﴿اركعوا واسجدوا﴾ من إطلاق الجزء على الكل أي صلوا لأن الركوع والسجود من أركان الصلاة .

٨ ـ ذكر العام بعد الخاص لإفادة العموم مع العناية بشأن الخاص ﴿اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير﴾ بدأ بخاص ، ثم بعام ، ثم بأعم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الحج » .

* * *



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة « المؤمنون » من السور المكية التي تعالج أصول الدين من « التوحيد والرسالة ، والبعث » سميت بهذا الاسم الجليل « المؤمنون » تخليداً لهم وإشادةً بمآثرهم وفضائلهم الكريمة التي استحقوا بها ميراث الفردوس الأعلى في جنات النعيم .

* عرضت السورة الكريمة لدلائل القدرة والوحدانية مصورة في هذا الكون العجيب ، في الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، ثم في خلق السموات البديعة ذات الطرائق ، وفي الآيات الكونية المنبثة فيما يشاهده الناس في العالم المنظور من أنواع النخيل والأعناب ، والزيتون والرمان ، والفواكه والثمار ، والسفن الكبيرة التي تمخر عباب البحار ، وغير ذلك من الآيات الكونية الدالة على وجود الله جل وعلا .

* وقد عرضت السورة لقصص بعض الأنبياء تسلية لرسول الله ﷺ عمّا يلقاه من أذى المشركين ، فذكرت قصة نوح ، ثم قصة هود ، ثم قصة موسى ، ثم قصة مريم البتول وولدها عيسى ، ثم عرضت لكفار مكة وعنادهم ومكابرتهم للحق بعدما سطع سطوع الشمس في رابعة النهار ، وأقامت الحجج والبراهين على البعث والنشور ، وهو المحور الذي تدور عليه السورة ، وأهم ما يجادل فيه المبطلون ، فقصمت ببيانها الساطع ظهر الباطل .

* وتحدثت السورة عن الأهوال والشدائد التي يلقاها الكفار وقت الاحتضار وهم في سكرات الموت ، وقد تمنوا العودة الى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم من صالح العمل ، ولكن هيهات فقد انتهى الأجل ، وضاع الأمل . وختمت السورة بالحديث عن يوم القيامة حيث ينقسم الناس الى فريقين : سعداء ، وأشقياء ، وينقطع الحسب والنسب فلا ينفع إلا الايمان والعمل الصالح ، وسجلت المحاورة بين الملك الجبار وبين أهل النار وهم يصطرخون فيها فلا يغاثون ولا يجابون ! !

* * *

قال الله تعالى : ﴿قد أفلح المؤمنون . . إلى . . وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٢) .

اللغــة : ﴿سلالة﴾ السُّلالة : الخلاصة مشتقة من السَّل وهو استخراج الشيء من الشيء ، تقول : سللت الشَّعر من العجين ، والسيف من الغمد قال أمية :

خلـق البـريَّة من سلالـة منتـن   وإلى السُّلالـة كلُّهـا ستعود[1]

ويقال : الولد سلالة أبيه لأنه انسلَّ من ظهر أبيه ﴿مكين﴾ ثابت راسخ تقول : هذا شيء مكين أي متمكن في الثبوت والرسوخ ﴿طرائق﴾ جمع طريقة والمراد بالطرائق السموات السبع سميت بذلك لكون بعضها فوق بعض ، ومنه قولهم : طارق النعل إذا جعل إحداهما على الأخرى ﴿صبغ﴾ الصبغ : الإدام وأصله الصباغ وهو الذي يلون به الثوب قال الهروي : كل إدامٍ يؤ تدم به فهو صبغ ﴿الأنعام﴾ الحيوانات المأكولة « الإبل ، والبقر ، والغنم » .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾

التفسير : ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ أي فاز وسعد وحصل على البغية والمطلوب المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف الجليلة ، و﴿قد﴾ للتأكيد والتحقيق فكأنه يقول لقد تحقَّق ظفرهم ونجاحهم بسبب الإيمان والعمل الصالح ، ثم عدَّد تعالى مناقبهم فقال ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ قال ابن عباس : خاشعون : خائفون ساكنون أي هم خائفون متذللون في صلاتهم لجلال الله وعظمته لاستيلاء الهيبة على قلوبهم ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾ أي عن الكذب والشتم والهزل قال ابن كثير: اللغو: الباطل وهو يشمل الشرك، والمعاصي، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال[2] ﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾ أي يؤ دون زكاة أموالهم للفقراء والمساكين، طيبة بها نفوسهم طلباً لرضى الله ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ هذا هو الوصف الرابع أي عفُّوا عن الحرام وصانوا فروجهم عمَّا لا يحل من الزنا واللواط وكشف العورات ﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾ أي هم حافظون لفروجهم في جميع الأحوال إلا من زوجاتهم وإمائهم المملوكات ﴿فإنهم غير ملومين﴾ أي فإنهم غير مؤ اخذين ﴿فمن ابتغى وراء ذلك﴾ أي فمن طلب غير الزوجات والمملوكات ﴿فأولئك هم العادون﴾ أي هم المعتدون المجاوزون الحدَّ في البغي والفساد ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ أي قائمون عليها بحفظها وإصلاحها ، لا يخونون إذا ائتمنوا ، ولا ينقضون عهدهم إذا عاهدوا قال أبو حيان : والظاهر عموم الأمانات فيدخل فيها ما ائتمن الله تعالى عليه العبد من قولٍ وفعلٍ واعتقاد ، وما ائتمنه الإنسان من الودائع والأمانات[3] ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ هذا هو الوصف السادس أي يواظبون على الصلوات الخمس

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٩٣ . (٢) ابن كثير المختصر ٢/ ٥٥٩ . (٣) البحر ٦/ ٣٩٧ .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ

ويؤ دونها في أوقاتها قال في التسهيل : فإن قيل كيف كرّر ذكر الصلوات أولاً وآخراً ؟ فالجواب أنه ليس بتكرار ، لأنه قد ذكر أولاً الخشوع فيها ، وذكر هنا المحافظة عليها فهما مختلفان[١] ﴿أولئك هم الوارثون﴾ أي أولئك الجامعون لهذه الأوصاف الجليلة هم الجديرون بوراثة جنة النعيم ﴿الذين يرثون الفردوس﴾ أي الذين يرثون أعالي الجنة التي تتفجر منها أنهار الجنة وفي الحديث (إذا سألتم الله فسلوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة)[٢] ﴿هم فيها خالدون﴾ أي هم دائمون فيها لا يخرجون منها أبداً ، ولا يبغون عنها حولاً . . ثم ذكر تعالى الأدلة والبراهين على قدرته ووحدانيته فقال ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سُلالة من طين﴾ اللام جواب قسم أي والله لقد خلقنا جنس الإنسان من صفوة وخلاصة استلت من الطين قال ابن عباس : هو آدم لأنه انسلَّ من الطين ﴿ثم جعلناه نطفة﴾ أي ثم جعلنا ذرية آدم وبنيه منياً ينطف من أصلاب الرجال ﴿في قرار مكين﴾ أي في مستقر متمكن هو الرحم ﴿ثم خلقنا النُّطفة علقةً﴾ أي ثم صيَّرنا هذه النطفة ـ وهي الماء الدافق ـ دماً جامداً يشبه العلقة ﴿فخلقنا العلقة مُضغة﴾ أي جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة أي قطعة لحم لا شكل فيها ولا تخطيط ﴿فخلقنا المُضغة عظاماً﴾ أي صيَّرنا قطعة اللحم عظاماً صلبة لتكون عموداً للبدن ﴿فكسونا العظام لحماً﴾ أي سترنا تلك العظام باللحم وجعلناه كالكسوة لها ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ أي ثم بعد تلك الأطوار نفخنا فيه الروح فصيرناه خلقاً آخر في أحسن تقويم قال الرازي : أي جعلناه خلقاً مبايناً للخلق الأول حيث صار إنساناً وكان جماداً ، وناطقاً وكان أبكم ، وسميعاً وكان أصم ، وبصيراً وكان أكمه ، وأودع كل عضو من أعضائه عجائب فطرة ، وغرائب حكمة لا يحيط بها وصف الواصفين[٣]. ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ أي فتعالى الله في قدرته وحكمته أحسن الصانعين صنعاً ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميّتون﴾ أي ثم إنكم أيها الناس بعد تلك النشأة والحياة لصائرون الى الموت ﴿ثم إنكم يوم القيامة تُبعثون﴾ أي تبعثون من قبوركم للحساب والمجازاة ، ولما ذكر تعالى الأطوار في خلق الإنسان وبدايته ونهايته ذكر خلق السموات والأرض وكلها أدلة ساطعة على وجود الله فقال ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق﴾ أي والله لقد خلقنا فوقكم سبع سموات ، سميت طرائق لأن بعضها فوق بعض ﴿وما كنا عن الخلق غافلين﴾ أي وما كنا مهملين أمر الخلق بل نحفظهم وندبر أمرهم ﴿وأنزلنا من السماء

(١) التسهيل ٣/ ٤٩ . (٢) أخرجه مسلم . (٣) الفخر الرازي ٢٣/ ٨٥ .

غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

ماءً بقدر﴾ أي أنزلنا من السحاب القطر والمطر بحسب الحاجة ، لا كثيراً فيفسد الأرض ، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار ﴿فأسكنَّاه في الأرض﴾ أي جعلناه ثابتاً مستقراً في الأرض لتنتفعوا به وقت الحاجة ﴿وإنَّا على ذهابٍ به لقادرون﴾ وعيدٌ وتهديدٌ أي ونحن قادرون على إذهابه بالتغوير في الأرض فتهلكون عطشاً أنتم ومواشيكم قال ابن كثير : لو شئنا لجعلناه إذا نزل يغور في الأرض إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا ، ولكن بلطفه تعالى ورحمته ينزل عليكم المطر من السحاب عذباً فراتاً ، فيسكنه في الأرض ، ويسلكه ينابيع فيها فيفتح العيون والأنهار ، ويسقى الزروع والثمار ، فتشربون منه أنتم ودوابكم وأنعامكم[1] ﴿فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب﴾ أي فأخرجنا لكم بذلك الماء حدائق وبساتين فيها النخيل والأعناب ﴿لكم فيها فواكه كثيرة﴾ أي لكم في هذه البساتين أنواع الفواكه والثمار تتفكهون بها ﴿ومنها تأكلون﴾ أي ومن ثمر الجنات تأكلون صيفاً وشتاءً كالرطب والعنب والتمر والزبيب ، وإنما خصَّ النخيل والأعناب بالذكر لكثرة منافعهما فإنهما يقومان مقام الطعام ، ومقام الإدام ، ومقام الفواكه رطباً ويابساً وهما أكثر فواكه العرب ﴿وشجرةً تخرج من طور سيناء﴾ أي وممَّا أنشأنا لكم بالماء أيضاً شجرة الزيتون التي تخرج حول جبل الطور وهو الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى ﴿تنبُتُ بالدهن﴾ أي تُنبت الدهن أي الزيت الذي فيه منافع عظيمة ﴿وصبغ للآكلين﴾ أي وإدام للآكلين سمي صبغاً لأنه يلون الخبز اذا غُمس فيه ، جمع الله في هذه الشجرة بين الأُدم والدهن ، وفي الحديث (كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرةٍ مباركة)[2] ﴿وإن لكم في الأنعام لعِبرة﴾ أي وإن لكم أيها الناس فيما خلق لكم ربكم من الأنعام وهي « الإبل والبقر والغنم » لعظةً بالغةً تعتبرون بها ﴿نسقيكم مما في بطونها﴾ أي نسقيكم من ألبانها من بين فرثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴿ولكم فيها منافع كثيرة﴾ أي ولكم في هذه الأنعام منافع عديدة : تشربون من ألبانها ، وتلبسون من أصوافها وتركبون ظهورها ، وتحملون عليها الأحمال الثقال ﴿ومنها تأكلون﴾ أي وتأكلون لحومها كذلك ﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ أي وتحملون على الإبل في البر كما تحملون على السُّفن في البحر ، فإنَّ الإبل سفائن البر كما أن الفلك سفائن البحر .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

(١) مختصر ابن كثير ٢/٥٦٣ . (٢) أخرجه أحمد .

١ ـ الإخبار بصيغة الماضي لإفادة الثبوت والتحقق ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ كما أنَّ ﴿قد﴾ لإفادة التحقيق ايضاً .

٢ ـ التفصيل بعد الإجمال ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون . . ﴾ الخ .

٣ ـ إنزال غير المنكر منزلة المنكر ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾ الناس لا ينكرون الموت ولكنَّ غفلتهم عنه وعدم استعدادهم له بالعمل الصالح يعدَّان من علامات الإنكار ولذلك نزلوا منزلة المنكرين وأُلقي الخبر مُؤكداً بمؤكدين « إنَّ واللام » .

٤ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿سبع طرائق﴾ شبهت السموات السبع بطرائق النعل التي يجعل بعضها فوق بعض بطريق الاستعارة .

٥ ـ التهديد ﴿وإنا على ذهاب به لقادرون﴾ .

٦ ـ السجع غير المتكلف ﴿خاشعون ، حافظون ، عادون﴾ وكذلك ﴿طين ، مكين ، الخالقين﴾ وهو من المحسنات البديعية .

تنبيه : ذكر تعالى في هذه الآيات من قوله ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾ إلى قوله ﴿وعلى الفلك تحملون﴾ أربعة أنواع من دلائل قدرته تعالى ، **الأول** : تقلب الإنسان في أطوار الخلق وهي تسعة آخرها البعث بعد الموت ، **الثاني** : خلق السموات السبع ، **الثالث** : إنزال الماء من السماء ، **الرابع** : منافع الحيوانات وذكر منها أربعة أنواع « الانتفاع بالألبان ، وبالصوف ، وباللحوم ، وبالركوب » .

فائدة : روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل ، فلبثنا ذات يوم ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال (اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تُؤثر علينا ، وأرضنا وارض عنا) ثم قال : لقد أُنزل عليَّ عشر آيات من أقامهنَّ دخل الجنة ثم قرأ ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ حتى ختم العشر[1] » .

* * *

قال الله تعالى : ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه . . إلى . . وأنا ربكم فاتقون﴾ من آية (٢٣) إلى نهاية آية (٥٢) .

المناسبة : لما ذكر تعالى دلائل التوحيد في خلق الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، وفي خلق السموات والأرض ، وعدَّد نعمه على عباده ، ذكر هنا أمثالاً لكفار مكة من المكذبين من الأمم السابقة وما

(١) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي .

نالهم من العذاب ، فابتدأ بقصة نوح ، ثم بقصة هود ، ثم بقصة موسى وفرعون ، ثم بقصة عيسى بن مريم ، وكلُّها عبر وعظات للمكذبين بالرسل والآيات .

اللغــة : ﴿جِنة﴾ بكسر الجيم أي جنون ﴿فتربصوا﴾ فانتظروا والتربص : الانتظار ﴿مبتلين﴾ مختبرين ﴿هيهات﴾ اسم فعل ماض بمعنى بَعُدَ قال الشاعر :

تذكرت أياماً مضين من الصبا ... وهيهات هيهاتاً إليك رجوعها[1]

﴿غثاء﴾ الغثاء : العشب إذا يبس ، وغُثاء السيل : ما يحمله من الحشيش والقصب اليابس ونحوه ﴿بعداً﴾ هلاكاً قال الرازي : بعداً وسُحقاً ودماراً ونحوها مصادر موضوعةمواضع أفعالها قال سيبويه وهي منصوبة بأفعال لا يستعمل إظهارها ومعنى ﴿بعداً﴾ بعدوا بعداً أي هلكوا[2] ﴿قروناً﴾ أمماً ﴿تترى﴾ تتابع يأتي بعضهم إثر بعض ﴿أحاديث﴾ جمع أُحدوثة كأُعجوبة وهي ما يتحدث به عجباً وتسلية ﴿معين﴾ ماء جار ظاهر للعيون ﴿ربوة﴾ الربوة : المكان المرتفع من الأرض .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾

التفسير : ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ أي والله لقد أرسلنا رسولنا نوحاً إلى قومه داعياً لهم إلى الله قال المفسرون : هذه تعزية لرسول الله ﷺ بذكر هذا الرسول ، ليتأسى به في صبره ، وليعلم أنَّ الرسل قبله قد كُذبوا ﴿فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره﴾ أي اعبدوه وحده فليس لكم ربٌّ سواه ﴿أفلا تتقون﴾ زجرٌ ووعيد أي أفلا تخافون عقوبته بعبادتكم غيره ؟ ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ أي فقال أشراف قومه ورؤساؤهم الممعنون في الكفر والضلال ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم﴾ أي ما هذا الذي يزعم أنه رسول إلا رجلٌ من البشر يريد أن يطلب الرياسةوالشرف عليكم بدعواه النبوة لتكونوا له أتباعاً . واعجبْ بضلال هؤلاء استبعدوا أن تكون النبوة لبشر ، وأثبتوا الربوبية لحجر ﴿ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾ أي لو أراد الله أن يبعث رسولاً لبعث ملكاً ولم يكن بشراً ﴿ ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾ أي ما سمعنا بمثل هذا الكلام في الأمم الماضية ، والدهور الخالية ﴿إن هو إلا رجلٌ به جِنة﴾ أي ما هو إلا رجلٌ به جنون ﴿فتربصوا به حتى حين﴾ أي انتظروا واصبروا عليه مدة حتى يموت ﴿قال رب انصرني بما كذبون﴾ أي قال نوح بعد ما يئس من

(١) القرطبي ١٢/ ١٢٢ . (٢) التفسير الكبير ٢٣/ ٩٩ .

فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ

إيمانهم : ربِّ انصرني عليهم بإهلاكهم عامةً بسبب تكذيبهم إياي ﴿فأوحينا إليه أن آصنع الفلك بأعيننا﴾ أي فأوحينا إليه عند ذلك ان اصنع السفينة بمرأى منا وحفظنا ﴿ووحينا﴾ أي بأمرنا وتعليمنا ﴿فإذا جاء أمرنا﴾ أي فإذا جاء أمرنا بإنزال العذاب ﴿وفار التنور﴾ أي فار الماء في التنور الذي يخبز فيه قال المفسرون : جعل الله ذلك علامة لنوح على هلاك قومه ﴿فاسلك فيها من كل زوجين اثنين﴾ أي فأدخل في السفينة من كل صنفٍ من الحيوان زوجين «ذكر وأنثى» لئلا ينقطع نسل ذلك الحيوان ﴿وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم﴾ أي واحمل أهلك أيضاً إلاّ من سبق عليه القول بالهلاك ممن لم يؤمن كزوجته وابنه ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مُغرقون﴾ أي ولا تسألني الشفاعة للظالمين عند مشاهدة هلاكهم فقد قضيت أنهم مغرقون محكوم عليهم بالغرق ﴿فإذا استويت أنتَ ومن معكَ على الفلك﴾ أي فإذا علوت أنت ومن معك من المؤمنين على السفينة ﴿فقل الحمد لله الذي نجَّانا من القوم الظالمين﴾ أي احمدوا الله على تخليصه إياكم من الغرق وإنما قال ﴿فقل﴾ ولم يقل فقولوا لأن نوحاً كان نبياً لهم وإماماً فخطابه خطابٌ لهم ﴿وقل ربِّ أنزلني مُنزلاً مباركاً﴾ أي أنزلني إنزالاً مباركاً يحفظني من كل سوء وشر قال ابن عباس : هذا حين خرج من السفينة ﴿وأنت خير المُنزلين﴾ أي أنت يا رب خير المنزلين لأوليائك والحافظين لعبادك ﴿إنَّ في ذلك لآيات﴾ أي إنَّ فيما جرى على أمة نوح لدلائل وعبر يستدل بها أولوا الأبصار ﴿وإن كنا لمبتلين﴾ أي وإنَّ الحال والشأن كنا مختبرين للعباد بإرسال المرسلين ﴿ثم انشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ أي ثم أوجدنا من بعد قوم نوح قوماً آخرين يخلفونهم وهم قوم عاد ﴿فأرسلنا فيهم رسولاً منهم﴾ أي أرسلنا إليهم رسولاً من عشيرتهم هو هود عليه السلام ﴿أنِ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أي اعبدوه وحده ولا تشركوا به أحداً لأنه ليس لكم ربٌّ سواه ﴿أفلا تتقون﴾ أي أفلا تخافون عذابه وانتقامه إن كفرتم ؟ ﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة﴾ أي قال أشراف قومه الكفرة المكذبون بالآخرة وما فيها من الثواب والعقاب ﴿وأترفناهم في الحياة الدنيا﴾ أي وسَّعنا عليهم نعم الدنيا حتى بطروا ونعمناهم في هذه الحياة ﴿ما هذا إلا بشرٌ مثلكم﴾ أي قالوا لأتباعهم مضلين لهم : ما هذا الذي يزعم أنه رسول إلا إنسان مثلكم ﴿يأكل مما

وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾

تأكلون منه ويشرب مما تشربون﴾ أي يأكل مثلكم ويشرب مثلكم فلا فضل له عليكم لأنه محتاج إلى الطعام والشراب ﴿ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون﴾ أي ولئن أطعتموه وصدقتموه فإنكم لخاسرون حقاً حيث أذللتم أنفسكم باتّباعه قال أبو السعود : انظر كيف جعلوا اتباع الرسول الحق الذي يوصلهم الى سعادة الدارين خسراناً دون عبادة الأصنام التي لا خسران وراءها ؟ قاتلهم الله أنّى يؤ فكون[1] ﴿أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً﴾ استفهام على وجه الاستهزاء والاستبعاد أي أيعدكم بالحياة بعد الموت بعد أن تصبحوا رفاتاً وعظاماً بالية ؟ ﴿أنّكم مخرجون﴾ أي أنكم ستخرجون أحياء من قبوركم وكرّر لفظ ﴿أنّكم﴾ تأكيداً لأنه لمّا طال الكلام حسن التكرار ﴿هيهات هيهات لما توعدون﴾ أي بعد بعُد هذا الذي توعدونه من الإخراج من القبور ، وغرضهم بهذا الاستبعاد أنه لا يكون أبداً ﴿إنْ هي إلا حياتنا الدنيا﴾ أي لا حياة إلا هذه الحياة الدنيا ﴿نموت ونحيا﴾ أي يموتُ بعضنا ويُولد بعضنا إلى انقراض العصر ﴿وما نحن بمبعوثين﴾ أي لا بعث ولا نشور ﴿إن هو إلاّ رجلٌ افترى على الله كذباً﴾ أي ما هو إلا رجل كاذب يكذب على الله فيما جاءكم به من الرسالة ، والإخبار بالمعاد ﴿وما نحن له بمؤمنين﴾ أي ولسنا له بمصدقين فيما يقوله ﴿قال ربِّ انصرني بما كذّبون﴾ لما يئس نبيُّهم من إيمانهم ورأى إصرارهم على الكفر دعا عليهم بالهلاك والمعنى ربّ انصرني عليهم بسبب تكذيبهم إياي ﴿قال عمّا قليلٍ ليصبحنّ نادمين﴾ أي عن قريب من الزمان سيصيرون نادمين على كفرهم ﴿فأخذتهم الصيحةُ بالحق﴾ أي أخذتهم صيحة العذاب المدمر عدلاً من الله لا ظلماً ﴿فجعلناهم غثاءً﴾ أي هلكى كغثاء السيل قال المفسرون : صاح بهم جبريل صيحة رجفت لها الأرض من تحتهم فصاروا لشدتها غثاءً كغثاء السيل وهو الشيء التافه الحقير الذي لا ينتفع منه بشيء ﴿فبعداً للقوم الظالمين﴾ أي فسحقاً وهلاكاً لهم بكفرهم وظلمهم ، وهي جملة دعائية كأنه قال : بعداً لهم من رحمة الله وهلاكاً ودماراً لهم ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين﴾ أي أوجدنا من بعد هلاك هؤلاء أمماً وخلائق آخرين كقوم صالح وإبراهيم وقوم لوط وشعيب قال ابن عباس : هم بنو إسرائيل ، وفي الكلام حذفٌ تقديره : فكذبوا أنبياءهم فأهلكناهم دلَّ عليه قوله ﴿ما تسبق من أمةٍ أجلها وما يستأخرون﴾ أي ما

(١) إرشاد العقل السليم ٤/ ٣١ .

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

تتقدم أمةٌ من الأمم المهلكة عن الوقت الذي عُيِّن لهلاكهم ولا تتأخر عنه ﴿ثم أرسلنا رسلنا تترا﴾ أي بعثنا الرسل متتالين واحداً بعد واحد قال ابن عباس : يتبع بعضهم بعضاً ﴿كلما جاء أمةً رسولها كذبوه﴾ تشنيع عليهم بكمال ضلالهم أي أنهم سلكوا في تكذيب أنبيائهم مسلك من سبقهم من الضالين المكذبين ولهذا قال ﴿فأتبعنا بعضهم بعضاً﴾ أي ألحقنا بعضهم في إثر بعض بالهلاك والدمار ﴿وجعلناهم أحاديث﴾ أي أخباراً تُروى وأحاديث تُذكر ، يتحدث الناس بما جرى عليهم تعجباً وتسلية ﴿فبعداً لقوم لا يؤمنون﴾ أي فهلاكاً ودماراً لقومٍ لا يصدّقون الله ورسله ﴿ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا﴾ أي أرسلناهما بآياتنا البينات قال ابن عباس : هي الآيات التسع « العصا ، اليد ، الجراد » الخ ﴿وسلطان مبين﴾ أي وحجة واضحة ملزمة للخصم ﴿إلى فرعون وملئه﴾ أي أرسلناهما الى فرعون الطاغية وأشراف قومه المتكبرين ﴿فاستكبروا﴾ أي عن الايمان بالله وعبادته ﴿وكانوا قوماً عالين﴾ أي متكبرين متمردين ، قاهرين لغيرهم بالظلم ﴿فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا﴾ أي أنصدق رجلين مثلنا ونتَّبعهما ؟ ﴿وقومهما لنا عابدون﴾ أي والحال أن قوم موسى وهارون منقادون لنا كالخدم والعبيد ؟ ﴿فكذبوهما فكانوا من المهلكين﴾ أي فكذبوا رسولينا فكانوا من المغرقين في البحر ﴿ولقد آتينا موسى الكتابَ لعلهم يهتدون﴾ أي أعطينا موسى التوراة بعد غرق فرعون وملائه ليهتدي بها بنو إسرائيل ﴿وجعلنا ابن مريم وأمَّه آيةً﴾ أي وجعلنا قصة مريم وابنها عيسى معجزةً عظيمة تدل على كمال قدرتنا ﴿وآويناهما إلى ربوةٍ﴾ أي وجعلنا منزلهما ومأواهما إلى مكانٍ مرتفع من أرض بيت المقدس قال ابن عباس : الربوة المكان المرتفع من الأرض ، وهو أحسن ما يكون فيه النبات ﴿ذات قرارٍ ومعين﴾ أي مستوية يستقر عليها وماءٍ جارٍ ظاهر للعيون قال الرازي : القرار : المستقر كل أرض مستوية مبسوطة ، والمعين : الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض ، وعن قتادة : ذات ثمارٍ وماء ، يعني أنه لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها[1] ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾ أي قلنا يا أيها الرسل كلوا من الحلال وتقربوا إلى الله بالأعمال الصالحة ، والنداء لكل رسولٍ في زمانه وصي به كل رسول إرشاداً لأمته كما تقول تخاطب تاجراً : يا تجار اتقوا الربا ﴿إني بما تعملون عليم﴾ وعيدٌ وتحذير أي إني عالم بما

(١) التفسير الكبير ٢٣/ ١٠٣ .

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾

تعملون لا يخفى عليَّ شيء من أمركم ، قال القرطبي : شمل الكل في الوعيد وإذا كان هذا مع الرسل والأنبياء ، فما ظنُّ كل الناس بأنفسهم[1] ؟ ﴿وإنَّ هذه أمتكم أمة واحدة﴾ أي دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد ، وملتكم ملة واحدة وهي دين الإسلام ﴿وأنا ربكم فاتقون﴾ أي وأنا ربكم لا شريك لي فخافوا عذابي وعقابي .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستعارة البديعة ﴿اصنع الفلك بأعيننا﴾ عبَّر عن المبالغة في الحفظ والرعاية بالصنع على الأعين لأن الحافظ للشيء في الأغلب يديم مراعاته بعينه فلذلك جاء بذكر الأعين بدلاً من ذكر الحفظ والحراسة على طريق الاستعارة .

٢ ـ الكناية ﴿وفار التنور﴾ كناية عن الشدة كقولهم حمي الوطيس ، وأطلق بعض العلماء التنور على وجه الأرض مجازاً .

٣ ـ جناس الاشتقاق ﴿أنزلني منزلاً﴾ و﴿تعملون عليم﴾ .

٤ ـ الطباق بين ﴿نموت ونحيا﴾ وكذلك بين ﴿تسبق . . ويستأخرون﴾ .

٥ ـ الجناس الناقص ﴿أرسلنا رُسلنا﴾ لتغير بعض الحروف مع الشكل .

٦ ـ التشبيه البليغ ﴿فجعلناهم غثاء﴾ أي كالغثاء في سرعة زواله ومهانة حاله ، حذف وجه الشبه وأداة التشبيه فصار بليغاً .

٧ ـ أسلوب الإطناب ﴿الذين كفروا ، وكذبوا بلقاء الآخرة ، وأترفناهم في الحياة الدنيا﴾ ذماً لهم وتسجيلاً عليهم القبائح والشناعات .

٨ ـ السجع اللطيف مثل ﴿تتقون ، تشربون ، مخرجون﴾ ومثل ﴿عالين ، المهلكين ، قرار ومعين﴾ .

فَائِدَة : لفظ البشر يطلق على الواحد والجمع ، فمن إطلاقه على الواحد ﴿فتمثَّل لها بشراً سوياً﴾ ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا﴾ ؟ ومن إطلاقه على الجمع ﴿فإما ترين من البشر أحداً﴾ ﴿وما هي إلا ذكرى للبشر﴾ أفاده صاحب الكشاف .

* * *

قال الله تعالى : ﴿فتقطعوا أمرهم بينهم زُبُراً . . إلى . . وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾ من آية (٥٣) إلى نهاية آية (٧٤) .

---

(١) القرطبي ١٢/١٢٨ .

المناسبة : لما ذكر تعالى قصص الأنبياء والمرسلين ، أتبعه بذكر أخبار الكفرة المتمردين من أقوامهم واختلافهم وتفرقهم في الدين حتى أصبحوا فرقاً وأحزاباً ، ليجتنب الإنسان طرق أهل الضلال .

اللغة : ﴿زُبراً﴾ قطعاً جمع زبور وهي القطعة من الفضة أو الحديد ﴿غمرتهم﴾ الغمرة : الحيرة والضلالة وأصله في اللغة : الماء الذي يغمر القامة ﴿يجأرون﴾ يضجون ويستغيثون وأصل الجؤار رفع الصوت بالتضرع كما يفعل الثور ﴿تنكصون﴾ النكوص : الرجوع الى الوراء ﴿ناكبون﴾ نكب عن الطريق نكوباً إذا عدل عنه ومال الى غيره .

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ﴾

التفسير : ﴿فتقطَّعوا أمرهم بينهم زُبراً﴾ أي تفرقت الأمم في أمر دينهم فرقاً عديدة وأدياناً مختلفة هذا مجوسي ، وهذا يهودي ، وهذا نصراني بعدما أُمروا بالاجتماع ﴿كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون﴾ أي كل فريق منهم مغتبط بما اتخذه ديناً لنفسه معجب به ، يرى أنه المحقُّ الرابح ، وأنَّ غيره المبطل الخاسر ﴿فذرهم في غمرتهم﴾ الخطاب للرسول ﷺ والضمير لكفار مكة أي فاتركهم يا محمد هؤلاء المشركين في غفلتهم وجهلهم وضلالهم ﴿حتى حين﴾ أي إلى حين موتهم ، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ ووعيدٌ للمشركين ﴿أيحسبون أنَّما نمدُّهم به من مال وبنين﴾ أي أيظن هؤلاء الكفار أنَّ الذي نعطيهم في الدنيا من الأموال والأولاد ﴿نسارع لهم في الخيرات﴾ أي هو تعجيل ومسارعة لهم في الإحسان ؟ كلاَّ ليس الأمر كما يظنون بل هو استدراجٌ لهم ، واستجرارٌ الى زيادة الإثم ولهذا قال ﴿بل لا يشعرون﴾ أي بل هم أشباه البهائم ، لا فطنة لهم ولا شعور حتى يتفكروا في الأمر ، أهو استدراج أم مسارعة في الخير؟ والآية ردٌّ على المشركين في زعمهم أن أموالهم وأولادهم دليلُ رضى الله عنهم كما حكى الله عنهم ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾ وفي الحديث (إن الله يعطي الدنيا لمن يحُبُّ ولمن لا يحب ، ولا يعطي الدين إلا لمن أحبَّ)[1] ، ولمّا ذمَّ المشركين وتوعَّدهم عقَّب ذلك بمدح المؤمنين وذكرهم بأبلغ صفاتهم فقال ﴿إنَّ الذين هم من خشية ربِّهم مشفقون﴾ أي هم من جلال الله وعظمته خائفون ، ومن خوف عذابه حذرون ﴿والذين هم بآياتِ ربهم يؤمنون﴾ أي يصدِّقون بآيات الله القرآنية ، وآياته الكونية وهي الدلائل والبراهين الدالة على وجوده سبحانه

وفي كل شيءٍ له آيةٌ ... تدلُّ على أنه واحد

﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾ أي لا يعبدون معه غيره ، بل يوحدونه ويخلصون العمل لوجهه قال

(١) جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد .

﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا﴾

الإمام الفخر : وليس المراد منه الإِيمان بالتوحيد ونفي الشريك لله فإن ذلك داخل في الآية السابقة ، بل المراد منه نفيُ الشرك الخفي وذلك بأن يخلص في العبادة لوجه الله وطلباً لرضوانه[1] ﴿والذين يُؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾ هذه هي الصفة الرابعة من أوصاف المؤمنين أي يعطون العطاء من زكاةٍ وصدقة ، ويتقربون بأنواع القربات من أفعال الخير والبر وهم يخافون أن لا تقبل منهم أعمالهم قال الحسن : إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة ، وإن المنافق جمع إساءةً وأمناً ﴿أنَّهم إلى ربهم راجعون﴾ أي لخوفهم أن يكونوا قد قصَّروا في القيام بشروط الطاعات والأعمال الصالحة ولاعتقادهم أنهم سيرجعون إلى ربهم للحساب ، روي أن عائشة سألت رسول الله ﷺ عن الآية الكريمة فقالت ﴿والذين يُؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾ أهو الذي يزني ، ويسرق ، ويشرب الخمر وهو يخاف الله عزَّ وجل ؟ فقال لها :(لا يا بنت الصِّديق ! ولكنه الذي يصلي ، ويصوم ، ويتصدق وهو مع ذلك يخاف الله عز وجل)[2] ﴿أولئك يسارعون في الخيرات﴾ أي أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة هم الذين يسابقون في الطاعات لنيل أعلى الدرجات لا أولئك الكفرة المجرمون ﴿وهم لها سابقون﴾ أي هم الجديرون بها والسابقون إليها قال الإمام الفخر : واعلم أن ترتيب هذه الصفات في نهاية الحسن ، فالصفة الأولى دلت على حصول الخوف الشديد ، الموجب للاحتراز عما لا ينبغي ،والثانية :دلت على التصديق بوحدانية الله ،والثالثة :دلت على ترك الرياء في الطاعات ، والرابعة :دلت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاثة يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير ، وذلك هو نهاية مقامات الصدّيقين رزقنا الله الوصول إليها[3] ﴿ولا نُكلِّف نفساً إلا وُسعها﴾ أي لا نكلّف أحداً من العباد ما لا يطيق تفضلاً منّا ولطفاً . أتى بهذه الآية عقب أوصاف المؤمنين إشارةً إلى أن أولئك المخلصين لم يُكلفوا بما ليس في قدرتهم وأن جميع التكاليف في طاقة الإنسان ﴿ولدينا كتابٌ ينطق بالحق﴾ أي وعندنا صحائف أعمال العباد التي سطر فيها ما عملوا من خير أو شر نجازيهم في الآخرة عليها ولهذا قال ﴿وهم لا يُظلمون﴾ أي لا يظلمون من أعمالهم شيئاً بنقص الثواب أو زيادة العقاب قال القرطبي : والآية تهديد وتأمين من الحيف والظلم[4] ﴿بل قلوبهم في غمرةٍ من هذا﴾ أي بل قلوب الكفرة المجرمين في غطاءٍ وغفلةٍ وعماية عن هذا القرآن ﴿ولهم أعمالٌ من دون ذلك﴾ أي ولهم أعمال سيئة كثيرة غير الكفر والإشراك ﴿هم لها عاملون﴾ أي سيعملونها في المستقبل لتحقَّ عليهم الشقاوة فقد جمعوا بين الكفر وسوء الأعمال فحقت عليهم كلمة العذاب ﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب﴾ أي حتى إذا أخذنا أغنياءهم وكبراءهم المتنعمين في هذه الحياة بالعذاب العاجل

(١) التفسير الكبير ٢٣/ ١٠٧ . (٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد . (٣) التفسير الكبير ٢٣/ ١٠٧ . (٤) القرطبي ١٢/ ١٣٤ .

﴿هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾

كالجوع والقتل والأسر ﴿إذا هم يجأرون﴾ أي إذا هم يصيحون ويرفعون أصواتهم بالاستغاثة قال ابن عباس : هو الجوع الذي عذبوا به سبع سنين ﴿لا تجأروا اليوم﴾ أي لا تستغيثوا اليوم من العذاب ﴿إنكم منا لا تُنصرون﴾ أي لا تمنعون من عذابنا فلا ينفعكم صراخ ولا استغاثة ﴿قد كانت آياتي تُتلى عليكم﴾ أي لقد كنتم تسمعون آيات القرآن تقرأ عليكم ﴿فكنتم على أعقابكم تنكصون﴾ أي كنتم تنفرون عن تلك الآيات كما يذهب الناكص على عقبيه بالرجوع إلى ورائه ، وهذا تمثيلٌ لإعراضهم عن الحق بالراجع الى الخلف ﴿مستكبرين به﴾ أي مستكبرين بسبب القرآن عن الايمان قال ابن كثير : الضمير للقرآن كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهُجْر من الكلام يقولون إنه سحر ، شعر ، كهانة إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة[1] وقال ابن الجوزي : الضمير عائد الى البيت الحرام وهي كناية عن غير مذكور لشهرة الأمر والمعنى : إنكم تستكبرون وتفتخرون بالبيت والحرم لأمنكم فيه مع خوف سائر الناس في مواطنهم ، تقولون : نحن أهل الحرم فلا نخاف أحداً ، ونحن أهل بيت الله وولاته ، هذا مذهب ابن عباس وغيره[2] ﴿سامراً تهجرون﴾ أي متحدثين ليلاً تسمرون تقولون في سمركم الهجر وهو القول الفاحش من الطعن في القرآن ، وسبّ النبي عليه السلام ﴿أفلم يدَّبَّروا القول﴾ أي أفلم يتدبروا هذا القرآن العظيم ليعرفوا بما فيه من إعجاز النظم أنه كلام الله فيصدقوا به ؟ ﴿أم جاءهم ما لم يأتِ آباءهم الأولين﴾ أي أم جاءهم من الله بشيء مبتدع لم يأت مثله في آبائهم السابقين ؟ قال أبو السعود : يعني أن مجيء الكتب من جهته تعالى الى الرسل سنة قديمة لا يكاد يتسنى إنكاره ، وأن مجيء القرآن على طريقته فمن أين ينكرونه[3] ؟ ﴿أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون﴾ توبيخ آخر لهم أي أم لم يعرفوا محمداً ﷺ بالأمانة والصدق وحسن الأخلاق؟ وبّخهم أولاً بترك الانتفاع بالقرآن ، وثانياً بأن ماجاءهم قد جاء مثله لآبائهم الأولين وثالثاً بأنهم يعرفون محمداً ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته ورابعاً اتهامهم له بالجنون وقد علموا أنه عليه السلام أرجحهم عقلاً وأثقبهم ذهناً ولهذا قال بعده ﴿أم يقولون به جِنة﴾ أي أم يقولون إن محمداً مجنون ، وهذا توبيخ آخر وتعجيبٌ من تفننهم في العناد ، وتلونهم في الجحود ﴿بل جاءهم بالحق﴾ ﴿بل﴾ للإضراب أي ليس الأمر كما زعموا بل جاءهم محمد بالحقّ الساطع الذي لا مدخل فيه للباطل بوجه من الوجوه ، وبالقرآن المشتمل على التوحيد وشرائع الإسلام ﴿وأكثرهم للحقّ كارهون﴾ أي ومع

(١) مختصر ابن كثير ٢/ ٥٦٩ . (٢) زاد المسير ٥/ ٤٨٢ . (٣) أبو السعود ٤/ ٣٨ .

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾

وضوح الدعوة فإنَّ أكثر المشركين يكرهون الحقَّ لما في قلوبهم من الزيغ والانحراف ﴿ولو اتَّبع الحقُّ أهواءهم﴾ أي لو كان ما كرهوه من الحقّ - الذي هو التوحيد والعدل - موافقاً لأهوائهم الفاسدة ، ومتمشياً مع رغباتهم الزائغة ﴿لفسدت السموات والأرض ومن فيهنَّ﴾ أي لفسد نظام العالم أجمع علويُّه وسفليُّه ، وفسد من فيه من المخلوقات لفساد أهوائهم واختلافهم قال ابن كثير : وفي هذا كله تبيين عجز العباد ، واختلاف آرائهم وأهوائهم ، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وتدبيره لخلقه[1] ﴿بل أتيناهم بذكرهم﴾ أي بل أتيناهم بما فيه فخرهم وشرفهم ، وهو هذا القرآن العظيم الذي أكرمهم الله تعالى به ﴿فهم عن ذكرهم معرضون﴾ أي فهم معرضون عن هذا القرآن وكان اللائق بهم الانقياد له وتعظيمه لأنه شرفهم وعزُّهم ، وأعاد لفظ « الذكر » تعظيماً للقرآن ﴿أم تسألهم خرجاً﴾ أي أم تسألهم يا محمد أجراً على تبليغ الرسالة فلأجل ذلك لا يؤمنون ، وفي هذا تشنيعٌ عليهم لعدم الايمان فمحمد لا يطلب منهم أجراً فلماذا إذاً يكذبونه ويعادونه؟ ﴿فخراج ربك خير﴾ أي رزق الله وعطاؤه خيرٌ لك يا محمد ﴿وهو خير الرازقين﴾ أي هو تعالى أفضلُ من أعطى ورزق لأنه يعطي لا لحاجة ، وغيره يعطي لحاجة ﴿وإنك لتدعوهم إلى صراطٍ مستقيم﴾ أي وإنك يا محمد لتدعوهم إلى الطريق المستقيم وهو الإسلام الموصل الى جنات النعيم ﴿وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾ أي وإنَّ الذين لا يصدقون بالبعث والثواب والعقاب لعادلون عن الطريق المستقيم منحرفون عنه .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الاستعارة اللطيفة ﴿فذرهم في غمرتهم﴾ أصل الغمرة الماء الذي يغمر القامة ، شبَّه ما هم فيه من الجهالة والضلالة بالماء الذي يغمر الإنسان من فرقه الى قدمه على سبيل الاستعارة .

٢ - الاستفهام الإنكاري ﴿أيحسبون أنما نمدهم﴾ ؟

٣ - حذف الرابط في ﴿نسارع لهم في الخيرات﴾ حذف « بـه » أي نسارع لهم به في الخيرات ، وحسن حذفه لاستطالة الكلام مع أمن اللبس .

٤ - الطباق بين ﴿يؤمنون . . ويشركون﴾ .

---

(١) مختصر ابن كثير ٢/ ٥٧٠ .

٥ ـ الاستعارة البديعة ﴿ولدينا كتابٌ ينطق بالحق﴾ النطق لا يكون إلا ممن يتكلم بلسانه ، والكتاب ليس له لسان،فوصف سبحانه الكتاب بالنطق مبالغة في وصفه بإظهار البيان وإعلان البرهان ، وتشبيهاً باللسان الناطق بطريق الاستعارة .

٦ ـ جناس الاشتقاق ﴿يؤ تون ما آتـوا﴾ ﴿أعمال هم لها عاملـون﴾ .

٧ ـ الاستعارة الفائقة ﴿فكنتم على أعقابكم تنكصون﴾ شبّه إعراضهم عن الحق بالراجع القهقرى الى الخلف وهو من قبيل الاستعارة التمثيلية .

٨ ـ السجع الرصين ﴿مشفقون ، يؤ منون ، يشركون ، سابقون﴾ الخ .

* * *

قال الله تعالى: ﴿ولو رحمناهم وكشفنا مـا بهم من ضر . . إلى. . اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾

من آية (٧٥) إلى نهاية آية (١١٨) .

المناسبة : لما ذكر تعالى إعراض المشركين عن دعوة الايمان ، ذكر هنا سبب الإعراض وهو العناد والطغيان ، ثم أردفه بإقامة الأدلة على التوحيد ، ثم ذكر أحـوال الآخـرة وانقسـام النـاس إلى سعـداء وأشقياء ، وختم السورة ببيان الحكمة من حشر الناس إلى دار الجزاء وأنه لولا القيامة لما تميز المطيع من العاصي ولا البرُّ من الفاجر .

اللغة : ﴿مبلسون﴾ يائسون متحيرون ، والإبـلاس : اليأس من كل خـير ﴿يجـير﴾ يمنـع ويحمي من استغاث به يقال : أجرت فلاناً على فلان إذا أغثته ومنعته منه ﴿همـزات﴾ جمع همزة وهي الدفع والتحريك الشديد وهو كالهز والأزّ ، وهمزات الشيطان : كيده بالوسوسة ﴿برزخ﴾ حاجز ومانع قال الجوهري : البرزخ : الحاجز بين الشيئين[1] ﴿كالحون﴾ الكلوح : أن تتقلّص الشفتان وتتباعد عن الأسنان ، وذلك نهاية القبح لوجه الإنسان .

سبب النزول : عن ابن عباس قال : نزلت في قصة « ثمامة بن أُثال » لما أسرته السرية وأسلم وخلى رسول الله ﷺ سبيله ، حال بين مكة وبين الميرة وقال : والله لا يأتيكم من اليمامة حبَّة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ ، وأخذ اللهُ قريشاً بالقحط والجوع حتى أكلوا الميتة والكلاب والعلهز قيل وما العلهز ؟ قال كانوا يأخذون الصوف والوبر فيبلونه بالدم ثم يشوونه ويأكلونه فقال أبو سفيان : أنشدك الله والرَّحم ، أليس تزعم أنَّ الله بعثك رحمة للعالمين ؟ قال : بلى ، قال فوالله ما أراك إلا قتلت الآباء بالسيف ، وقتلت الأبناء بالجوع فنزل قوله تعالى ﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهـم من ضُـرٍّ للجوا في طغيانهم يعمهون﴾[2] الآيات .

(١) القرطبي ١٢/ ١٥٠ . (٢) البحر ٦/ ٤١٥ .

* ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ﴾

التفسير : ﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضُرٍّ﴾ أي لو رحمنا هؤلاء المشركين الذين كذبوك وعاندوك ورفعنا عنهم ما أصابهم من قحطٍ وجدب وكشفنا عنهم البلاء ﴿للجُّوا في طغيانهم يعمهون﴾ أي لاستمروا وتمادوا في ضلالتهم وتجاوزهم الحدَّ يتردَّدون ويتخبطون حيارى ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب﴾ أي ابتليناهم بالمصائب والشدائد ، وبالقحط والجوع ﴿فما استكانوا لربهم﴾ أي ما خضعوا لله ولا تواضعوا لجلاله ﴿وما يتضرعون﴾ أي وما دعوا ربهم لكشف البلاء بل استمروا على العتوّ والاستكبار ، والغرضُ أنه لم يحصل منهم تواضع ورجوع إلى الله في الماضي ، ولا التجاءٌ إلى الله في المستقبل لشدة جبروتهم وطغيانهم ﴿حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذابٍ شديد﴾ أي حتى إذا جاءتهم أهوال الآخرة وأتاهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴿إذا هم فيه مُبلسون﴾ أي إذا هم آيسون من كل خير قال أبو السعود : المراد بالعذاب عذاب الآخرة كما ينبيء عنه التهويل والوصف بالشدة والمعنى أنا محناهم بكل محنة من القتل ، والأسر ، والجوع وغير ذلك فما رؤي منهم لين ولا توجهٌ إلى الإسلام الى أن يروا عذاب الآخرة فحينئذٍ يبلسون وتخضع رقابهم[1] ثم ذكَّرهم تعالى بنعمه ودلائل وحدانيته فقال ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ أي خلق لكم هذه الحواس لتسمعوا وتبصروا وتفقهوا ، وفيه توبيخٌ للمشركين حيث لم يصرفوا النعم في مصارفها ، لأن السمع خلق ليسمع به ما يرشده ، والبصر ليشاهد به الآيات على كمال أوصاف الله ، والعقل ليتأمل به في مصنوعات الله وباهر قدرته فمن لم يصرف تلك النعم في مصارفها فهو بمنزلة عادمها كما قال تعالى ﴿فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء﴾ وخصَّ هذه الثلاثة بالذكر لعظم المنافع التي فيها ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ أي قليلاً تشكرون ربكم ، و﴿ما﴾ لتأكيد القلة أي ما أقل شكركم لله على كثرة إفضاله وإنعامه عليكم ؟ ﴿وهو الذي ذرأكم في الأرض﴾ أي خلقكم وبثكم في الأرض بطريق التناسل ﴿وإليه تُحشرون﴾ أي وإليه وحده تجمعون للجزاء والحساب ﴿وهو الذي يُحيي ويُميت﴾ أي يُحيي الرِّمم[2] ويميت الخلائق والأمم ﴿وله اختلاف الليل والنهار﴾ أي إن اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان بفعله سبحانه وحده ليقيم الدليل على وجوده وقدرته ﴿أفلا تعقلون﴾ أي أفليس لكم عقول تدركون بها دلائل قدرته ، وآثار قهره ، فتعلمون أن من قدر على ذلك ابتداءً ، قادرٌ على إعادة الخلق بعد الفناء ؟ ﴿بل قالوا مثل ما قال الأولون﴾ ﴿بل﴾ للإضراب أي ليس لهم عقل ولا نظر في هذه الآيات والعبر ، بل قال هؤلاء

(١) أبو السعود ٤/ ٤٠ . (٢) إشارة الى قوله تعالى ﴿قال من يحيي العظام وهي رميم﴾ ؟

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

المشركون - من كفار مكة - مثل ما قال الأمم المتقدمون ﴿قالوا أئذا مِتنا وكنَّا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون﴾ ؟ أي أئذا بلينا وصرنا ذرات ناعمة ، وعظاماً نخرة أئنا لمخلوقون ثانية ؟ هذا لا يتصور ولا يكون أبداً ﴿لقد وُعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل﴾ أي لقد وعدنا بهذا نحن ومن سبقنا فلم نر له حقيقة ﴿إنْ هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي ما هذا إلا أكاذيب وأباطيل المتقدمين ولما أنكروا البعث والنشور أمر تعالى رسوله أن يفحمهم بالحجة الدامغة التي تقصم ظهر الباطل فقال ﴿قل لمن الأرض ومن فيها﴾ ؟ أي قل يا محمد جواباً لهم عما قالوه : لمن الأرض ومن فيها من المخلوقات ؟ ومن مالكها والمتصرف فيها بالإيجاد والإفناء ؟ ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أي إن كان عندكم علمٌ فأخبروني بذلك ، وفيه استهانةٌ بهم وتقريرٌ لجهلهم قال القرطبي : يخبر تعالى في الآية بربوبيته ووحدانيته ، وملكه الذي لا يزول ، وقدرته التي لا تحول ، ودلت هذه الآيات - وما بعدها - على جواز جدال الكفار وإقامة الحجة عليهم ، ونبَّهت على أنَّ من ابتدأ بالخلق والإيجاد ، والإبداع ، هو المستحقُّ للألوهية والعبادة[1] ﴿سيقولون للّه﴾ أي فسيقولون الله خالقها وموجدها ولا بدَّ لهم من الاعتراف بذلك ﴿قل أفلا تذكرون﴾ ؟ أي أفلا تعتبرون فتعلمون أن من ابتدأ ذلك قادر على إعادته ؟ ﴿قل من ربُّ السموات السبع وربُّ العرش العظيم﴾ ؟ أي من هو خالق السموات الطباق بما فيها الشموس ، والكواكب والأقمار ، ومن هو خالق العرش الكبير الذي تحمله الملائكة الأطهار ؟ ﴿سيقولون للّه﴾ أي سيقولون : اللهُ خالقه وهو للّه ﴿قل أفلا تتقون﴾ أي أفلا تخافون من عذابه فتوحّدونه وتتركون عبادة غيره من الأوثان والأصنام ﴿قلْ من بيده ملكوت كلِّ شيء﴾ الملكُوت من صفات المبالغة أي من بيده الملك الواسع التام ؟ ومن بيده خزائن كل شيء ؟ ومن هو المتصرف في هذه الأكوان بالخلق والإيجاد والتدبير ؟ ﴿وهو يُجير ولا يُجار عليه﴾ أي يحمي من استجار به والتجأ إليه ، ولا يغيث أحدٌ منه أحداً ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أي إن كنتم تعلمون فأخبروني عن ذلك ﴿سيقولون للّه﴾ أي سيقولون : الملك كله والتدبيرُ للّه جلَّ وعلا ﴿قل فأنَّى تُسحرون﴾ أي قل لهم : فكيف تُخدعون وتُصرفون عن طاعته وتوحيده مع اعترافكم وعلمكم بأنه وحده المتصرف المالك ؟ قال أبو حيان : والسحر هنا مستعار وهو تشبيه لما يقع منهم من التخليط ، ووضع الأفعال والأقوال غير مواضعها بما يقع للمسحور من التخبط والتخليط[2] رتَّب

(١) القرطبي ١٢/١٤٥ ، ٤٦ . (٢) البحر المحيط ٦/٤١٨ .

بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾

هذه التوبيخات الثلاثة بالتدريج فقال أولاً ﴿أفلا تذكرون﴾ ؟ ثم قال ثانياً ﴿أفلا تتقون﴾ ؟ وذلك أبلغ لأن فيه زيادة تخويف ، ثم قال ثالثاً ﴿فأنى تُسحرون﴾ وفيه من التوبيخ ما ليس في غيره[1] ﴿بل أتيناهم بالحق﴾ أي بل جئناهم بالقول الصدق في أمر التوحيد والبعث والجزاء ﴿وإنهم لكاذبون﴾ أي كاذبون فيما ينسبون لله من الشركاء والأولاد . لمَّا بالغ في الحِجاج عليهم بالآيات السابقة أعقبها بهذه الآية كالوعيد والتهديد ، ثم بيَّن بطلان الشريك والولد بالبرهان القاطع فقال ﴿ما اتَّخذ اللهُ من ولد﴾ أي ما اتخذ الله ولداً مطلقاً لا من الملائكة ولا من البشر ﴿وما كان معه من إلهٍ﴾ أي وليس معه من يشاركه في الألوهية والربوبية ﴿إذاً لذهب كل إلهٍ بما خلق﴾ أي لو كان معه إله ـ كما زعم عبدة الأوثان ـ لانفرد كل إلهٍ بخلقه الذي خلق واستبدَّ به ، وتميَّز ملك كلٍّ واحد عن ملك الآخر ﴿ولعلا بعضهم على بعض﴾ أي ولغلب بعضهم على بعض كحال ملوك الدنيا قال ابن كثير : المعنى لو قدر تعدُّد الآلهة لا نفرد كلٌّ منهم بما خلق ، ثم لكان كلٌّ منهم يطلب قهر الآخر وخلافه فيعلو بعضهم على بعض وما كان ينتظم الوجود ، والمشاهد أن الوجود منتظمٌ متَّسقٌ غاية الكمال فدل على تنزه الله عن الولد والشريك[2] ولهذا قال ﴿سبحان الله عمّا يصفون﴾ أي تنزّه الله وتقدَّس عما يصفه به الظالمون ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي هو تعالى العالم بما غاب عن الأنظار ، وبما تدركه الأبصار ، لا تخفى عليه خافية من شؤون الخلق ﴿فتعالى عمّا يشركون﴾ أي تقدَّس وتنزَّه عن الشريك والولد ﴿قلْ ربِّ إمَّا تُرِيَنِّي ما يُوعدون﴾ أي قل يا ربِّ إن كان ولا بدَّ من أن تُرِيَني ما تعدهم من العذاب في الدنيا ﴿ربِّ فلا تجعلني في القوم الظالمين﴾ هذا جواب الشرط ﴿إمّا﴾ وكرَّر قوله ﴿ربِّ﴾ مبالغةً في الدعاء والتضرع أي ربِّ فلا تجعلني في جملة الظالمين فأهلك بهلاكهم قال أبو حيان : ومعلوم أنه عليه السلام معصومٌ مما يكون سبباً لجعله مع الظالمين ولكنه أُمر أن يدعو بذلك إظهاراً للعبودية وتواضعاً لله[3] ﴿وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون﴾ أي ونحن قادرون على أن نريك العذاب الذي وعدناهم به ولكن نؤخره لحكمة ﴿إدفعْ بالتي هي أحسن السيئة﴾ أي ادفع إساءتهم بالصفح عنهم وتجمَّل بمكارم الأخلاق قال ابن كثير : أرشده الى الترياق النافع في مخالطة الناس وهو الإحسان الى من يسيء إليه ليستجلب خاطره ، فتعود عداوته صداقةً ، وبغضه محبة[4] ﴿نحن أعلم بما يصفون﴾ أي نحن أعلم بحالهم وبما يكون منهم

(١) نقلاً عن التسهيل ٣/ ٥٥ . (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ٥٧٣ . (٣) البحر ٦/ ٤٢٠ . (٤) ابن كثير المختصر ٢/ ٥٧٤ .

وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

من التكذيب والاستهزاء وسنجازيهم عليه ﴿وقل ربِّ أعوذُ بك من همزات الشياطين﴾ أي أعتصم بك من نزغات الشياطين ووساوسهم المغرية على الباطل والمعاصي ﴿وأعوذُ بك ربِّ أن يحضرون﴾ أي وأعتصم وأحتمي بك يا رب من أن يصيبوني بسوء أو يكونوا معي في أموري ، كرَّر ذلك للمبالغة والاعتناء بشأن الاستعاذة ﴿حتى إذا جاء أحَدهم الموت﴾ عاد الكلام عن المشركين أي حتى إذا حضر الموتُ أحدهم وعاين أهواله وشدائده ﴿قال ربِّ ارجعون﴾ أي قال تحسراً على ما فرط منه : ربِّ ردَّني الى الدنيا ، وصيغة الجمع للتعظيم ﴿لعلي أعمل صالحاً فيما تركت﴾ أي لكي أعمل صالحاً فيا ضيَّعت من عمري ﴿كلاَّ إنها كلمةٌ هو قائلها﴾ ﴿كلاَّ﴾ كلمةُ ردع وزجر أي لا رجوع إلى الدنيا فليرتدع عن ذلك فإن طلبه للرجعة كلام لا فائدة فيه ولا جدوى منه وهو ذاهبٌ أدراج الرياح ﴿ومن ورائهم برزخٌ إلى يوم يُبعثون﴾ أي وأمامهم حاجزٌ يمنعهم عن الرجوع إلى الدنيا ـ هو عالم البرزخ ـ الذي يحول بينهم وبين الرجعة يلبثون فيه إلى يوم القيامة قال مجاهد : البرزخُ : الحاجز ما بين الدنيا والآخرة ﴿فإذا نُفخ في الصور﴾ أي فإذا نفخ في الصور النفخة الثانية وهي نفخة البعث والنشور ﴿فلا أنساب بينهم يومئذٍ﴾ أي فلا قرابة ولا نسب ينفعهم يوم القيامة لزوال التراحم والتعاطف من شدة الهول والدهشة بحيث يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ﴿ولا يتساءلون﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً عن شأنه لاشتغال كل واحد بنفسه ، ولا تنافي بينها وبين قوله ﴿وأقبل بعضُهم على بعض يتساءلون﴾ لأن يوم القيامة طويل وفيه مواقف ومواطن ، ففي بعضها يتكلمون وفي بعضها لا ينطقون ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ أي فمن رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ أي فهم السعداء الذين فازوا فنجوا من النار وأُدخلوا الجنة ﴿ومن خفَّت موازينه﴾ أي زادت سيئاته على حسناته ﴿فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ أي فهم الأشقياء الذين خسروا سعادتهم الأبدية بتضييع أنفسهم وتدنيسها بالكفر والمعاصي ﴿في جهنم خالدون﴾ أي هم مقيمون في جهنم لا يخرجون منها أبداً ﴿تلفح وجوههم النار﴾ أي تحرقها بشدة حرِّها ، وتخصيص الوجوه بالذكر لأنها أشرف الأعضاء ﴿وهم فيها كالحون﴾ أي وهم في جهنم عابسون مشوَّهو المنظر قال ابن مسعود : قد بدتْ أسنانهم وتقلَّصت شفاههم كالرأس المُشيَّط بالنار ، وفي الحديث (تشويه النارُ فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخي

أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا

شفته السفلى حتى تبلغ سُرَّته)[1] ﴿ألم تكن آياتي تُتلى عليكم﴾ أي يقال لهم تعنيفاً وتوبيخاً: ألم تكن آيات القرآن الساطع تقرأ عليكم في الدنيا؟ ﴿فكنتم بها تكذبون﴾ أي فكنتم لا تصدّقون بها مع وضوحها ﴿قالوا ربنا غلبت علينا شِقوتنا﴾ أي غلبت علينا شقاوتنا ﴿وكنَّا قوماً ضالين﴾ أي وكنّا ضالين عن الهدى بسبب اتباعنا للملذّات والأهواء ﴿ربَّنا أخرجنا منها﴾ أي أخرجنا من النار ورُدَّنا الى الدنيا ﴿فإن عُدنا فإنا ظالمون﴾ أي فإن رجعنا الى الكفر والمعاصي بعد ذلك نكون قد تجاوزنا الحدَّ في الظلم والعدوان. أقروا أولاً بالإجرام ثم تدرجوا من الإقرار الى الرغبة والتضرع فجاء الجواب بالتيئيس والزجر ﴿قال اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ أي ذلوا في النار وانزجروا كما تُزجر الكلاب ولا تكلموني في رفع العذاب قال في التسهيل: اخسئوا: كلمة تستعمل في زجر الكلاب ففيها إهانةٌ وإبعاد[2] ﴿إنه كان فريقٌ من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين﴾ قال مجاهد: هم بلال، وخباب، وصهيب وغيرهم من ضعفاء المسلمين كان أبو جهل وأصحابه يهزءون بهم[3] ﴿فاتخذتموهم سخرياً﴾ أي فسخرتم منهم واستهزأتم بهم ﴿حتى أنسوكم ذكري﴾ أي حتى نسيتم بتشاغلكم بهم واستهزائكم عليهم عن طاعتي وعبادتي ﴿وكنتم منهم تضحكون﴾ أي وكنتم تضحكون عليهم في الدنيا ﴿إني جزيتُهم اليوم بما صبروا﴾ أي جزيتهم بسبب صبرهم على أذاكم أحسن الجزاء ﴿أنّهم هم الفائزون﴾ أي أنهم هم الفائزون بالنعيم المقيم ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين﴾ أي قال تعالى للكفار على سبيل التبكيت والتوبيخ: كم مكثتم في الدنيا وعمَّرتم فيها من السنين؟ ﴿قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾ أي مكثنا يوماً أو أقل من يوم ﴿فاسأل العادّين﴾ أي الحاسبين المتمكنين من العدِّ قال ابن عباس: أنساهم ما كانوا فيه من العذاب المدة التي لبثوها ﴿قال إن لبثتم إلا قليلاً﴾ أي ما أقمتم حقاً في الدنيا إلا قليلاً قال الرازي: كأنه قيل لهم: صدقتم ما لبثتم فيها إلا قليلاً فقد انقضت ومضت، والغرضُ تعريفهم قلة أيام الدنيا في مقابلة أيام الآخرة[4] ﴿لو أنكم كنتم تعلمون﴾ أي لو كان لكم علمٌ وفهم لعرفتم حقارة الدنيا ومتاعها الزائل ﴿أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً﴾ أي أظننتم - أيها الناس - أنما

(١) أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب. (٢) التسهيل ٣/ ٥٧. (٣) القرطبي ١٢/ ١٥٤. (٤) التفسير الكبير ٢٣/ ١٢٧.

خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

خلقناكم باطلاً وهملاً بلا ثواب ولا عقاب كما خلقت البهائم ﴿وأنكم إلينا لا تُرجعون﴾ أي وأنه لا رجوع لكم إلينا للجزاء ؟ لا ليس الأمر كما تظنون وإنما خلقناكم للتكليف والعبادة ثم الرجوع إلى دار الجزاء ﴿فتعالى الله﴾ أي فتنزَّه وتقدَّس الله الكبير الجليل ﴿الملكُ الحق﴾ أي صاحب السلطان ، المتصرف في ملكه بالإيجاد والإعدام ، والإحياء والإفناء ، تنزَّه عن العبث والنقائص وعن أن يخلق شيئاً سفهاً لأنه حكيم ﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا ربَّ سواه ولا خالق غيره ﴿ربُّ العرش الكريم﴾ أي خالق العرش العظيم وصفه بالكريم لأن الرحمة والخير والبركة تنزل منه ، ولنسبته الى أكرم الأكرمين ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر﴾ أي ومن يجعل لله شريكاً ويعبد معه سواه ﴿لا برهان له به﴾ أي لا حجة له به ولا دليل ﴿فإنما حسابه عند ربه﴾ أي جزاؤه وعقابه عند الله ﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾ أي لا يفوز ولا ينجح من جحد وكذب بالله ورسله ، افتتح السورة بقوله ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ وختمها بقوله ﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾ ليظهر التفاوت بين الفريقين فشتان ما بين البدء والختام . ﴿وقل ربِّ اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾ أمر رسوله بالاستغفار والاسترحام تعليماً للأمة طريق الثناء والدعاء ، اللهم اغفر لنا وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء ، يا أرحم الراحمين ، اللهم آمين .

البـلاغـة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الامتنان ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ .

٢ ـ التفنن ﴿السمع والأبصار﴾ أفرد السمع وجمع الأبصار تفنناً .

٣ ـ التنكير للتقليل ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ و﴿ما﴾ تأكيد للقلة المستفادة من التنكير والمعنى شكراً قليلاً وهو كناية عن عدم الشكر .

٤ ـ الاستفهام الذي غرضه الإنكار والتوبيخ ﴿أفلا تعقلون﴾ ؟ ﴿أفلا تذكرون﴾ ؟ ﴿أفلا تتقون﴾ ؟

٥ ـ الطباق بين ﴿يُحْيي ويميت﴾ .

٦ ـ حذف جواب الشرط ثقةً بدلالة اللفظ عليه ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أي إن كنتم تعلمون ذلك فأخبروني عنه

٧ ـ طباق السلب ﴿وهو يُجير ولا يُجار عليه﴾ .

٨ ـ تأكيد الكلام بذكر حرف الجر الزائد ﴿ما اتخذ الله من ولد﴾ أي ما اتخذ ولداً وكذلك ﴿وما كان معه من إله﴾ ذكر ﴿مـن﴾ في الجملتين تأكيداً وتثبيتاً للنفي .

٩ ـ الطباق في ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ .

١٠ ـ التأكيد بإنَّ واللام ﴿وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون﴾ لإنكار المخاطبين لذلك .

١١ ـ الطباق المعنوي ﴿ادفعْ بالتي هي أحسن السيئة﴾ لأن المعنى ادفع بالحسنة السيئة فهو طباق بالمعنى لا باللفظ .

١٢ ـ واو الجمع للتعظيم ﴿ربِّ ارجعون﴾ ولم يقل ارجعني تعظيماً لله جل وعلا .

١٣ ـ المجاز المرسل ﴿إنها كلمة هو قائلها﴾ أطلق الكلمة على الجملة وهو من إطلاق الجزء وإرادة الكل .

١٤ ـ المقابلة اللطيفة بين ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ وبين ﴿ومن خفَّت موازينه . .﴾ الآيتان .

١٥ ـ القصر ﴿أنهم هم الفائزون﴾ .

١٦ ـ جناس الاشتقاق ﴿اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾ .

١٧ ـ السجع الموزون الخالي من التكلف وهو كثير مشهور .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة المؤمنون »

* * *



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* ســـورة النور من السور المدنية ، التي تتناول الأحكام التشريعية ، وتُعنـى بأمـور التشريع ، والتوجيه والأخلاق ،وتهتم بالقضايا العامة والخاصة التي ينبغي ان يُربى عليها المسلمون أفراداً وجماعات ، وقد اشتملت هذه السورة على أحكام هامة وتوجيهات عامة تتعلق بالأسرة ، التي هي النواة الأولى لبناء المجتمع الأكبر .

* وضَّحت السورة الآداب الاجتماعية التي يجـب أن يتمسـك بهـا المؤمنـون في حياتهـم الخاصـة والعامة ، كالاستئذان عند دخول البيوت ، وغض الأبصار ، وحفظ الفروج ، وحرمة اختلاط الرجـال بالنساء الأجنبيات ، وما ينبغي أن تكون عليه الأسرة المسلمة و« البيت المسلم » من العَفاف والستـر ، والنزاهة والطهر ، والاستقامة على شريعة الله ، صيانةً لحرمتها ، وحفاظاً عليهـا من عوامـل التفـكك الداخلي ، والانهيار الخلقي ، الذي يهدم الأمم والشعوب .

* وقد ذكرت في هذه السورة الكريمة بعض الحدود الشرعية التي فرضها الله كحد الزنى ، وحد القذف ، وحد اللعان ، وكل هذه الحدود إنما شرعت تطهيراً للمجتمع من الفساد والفوضى ، واختلاط الأنساب ، والانحلال الخلقي ، وحفظاً للأمة من عوامل التردي في بؤرة الإباحية والفساد ، التي تُسبب ضياع الأنساب ، وذهاب العرض والشرف .

* وباختصار فإن هذه السورة الكريمة عالجت ناحية من أخطر النواحـي الاجتماعية هي « مسألـة الأسرة » وما يحفها من مخاطر ، وما يعترض طريقها من عقبات ومشاكل ، تودي بها إلى الانهيار ثم الدمار ، هذا عدا عما فيهـا من آداب سامية ، وحـكم عالية ، وتوجيهـات رشيدة ، إلى أسس الحياة الفاضلـة الكريمة ، ولهذا كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أهل الكوفة يقول لهم : علّموا نسـاءكم سورة النور .

التَسمِيَــة : سُميت سورة النور لما فيها من إشعاعات النور الرباني ، بتشريع الأحكام والآداب ، والفضائل الإنسانية التي هي قبسٌ من نور الله على عباده ، وفيضٌ من فيوضات رحمته وجوده ﴿الله نور السمـوات والأرض﴾ اللهم نور قلوبنا بنور كتابك المبين يا رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ

اللغة : ﴿سورة﴾ السورة في اللغة : المنزلة السامية والمكانة الرفيعة قال النابغة :

ألم ترَ أن الله أعطاك سورة ... ترى كل ملك دونها يتذبذب

وسميت المجموعة من الآيات لها بدءٌ ونهاية سورة لشرفها وارتفاعها كما يسمى السور للمرتفع من الجدار ﴿الزاني﴾ الزنى : الوطء المحرم ويسمى الفاحشة لتناهي قبحه وهو مقصور وقد يمد على لغة أهل نجد فيقال الزناء قال الفرزدق :

أبا طاهر من يزن يعرف زناؤه ... ومن يشرب الخرطوم يصبح مسكراً

﴿رأفة﴾ شفقة وعطف مأخوذ من رؤف إذا رق ورحم ﴿المحصنات﴾ العفيفات وأصل الإحصان المنع سميت العفيفة محصنة لأنها منعت نفسها عن القبيح ، ومنه الحصن لأنه يمنع من الأعداء ﴿يدرأ﴾ يدفع والدرء : الدفع ﴿تشيع﴾ شاع الأمر شيوعاً إذا فشا وظهر وانتشر ﴿عصبة﴾ العصبة : الجماعة الذين يتعصب بعضهم لبعض .

سبب النزول : أ ـ روي أن امرأةً تُدعى « أم مهزول » كانت من البغايا فكانت تُسافح الرجل وتشرط أن تنفق عليه ، فأراد رجل من المسلمين أن يتزوجها فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿الزانيةُ لا ينكحها الا زانٍ أو مشرك﴾[1] الآية .

ب ـ عن ابن عباس أن « هلال بن أُمية » قذف امرأته عند النبي ﷺ بـ « شريك بن سحماء » فقال النبي ﷺ : (البينةُ أوحدٌّ في ظهرك) فقال يا رسول الله : إذا رأى أحدنا مع امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة ؟ والذي بعثك بالحق إني لصادقٌ ، ولينزلن الله ما يبرىء ظهري من الحد فنزلت ﴿والذين يرمون أزواجهم[2] . . .﴾ الآية .

التفسير : ﴿سورة أنزلناها﴾ أي هذه سورة عظيمة الشأن من جوامع سور القرآن أوحينا بها إليك يا محمد ﴿وفرضناها﴾ أي أوجبنا ما فيها من الأحكام إيجاباً قطعياً ﴿وأنزلنا فيها آيات بينات﴾ أي أنزلنا فيها آياتٍ تشريعية ، واضحات الدلالة على أحكامها ، لتكون لكم ـ أيها المؤمنون ـ قبساً ونبراساً ، وتكريرُ لفظ الإنزال لإبراز كمال العناية بشأنها فكأنه يقول : ما أنزلتها عليكم لمجرد التلاوة وإنما أنزلتها للعمل والتطبيق ﴿لعلكم تذكرون﴾ أي لكي تعتبروا وتتعظوا بهذه الأحكام وتعملوا بموجبها ، ثم شرع تعالى بذكر الأحكام وبدأ بحد الزنى فقال ﴿والزانيةُ والزاني فاجلدوا كل واحدٍ منهما مائة جلدة﴾ أي فيما

(١) رواه أحمد والنسائي . (٢) رواه البخاري وانظر تتمة القصة في كتابنا روائع البيان ٢/ ٨٠ .

﴿مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾

شرعت لكم وفرضت عليكم أن تجلدوا كل واحدٍ من الزانيين ـ غير المحصنين ـ مائة ضربة بالسوط عقوبة لهما على هذه الجريمة الشنيعة **﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾** أي لا تأخذكم بهما رقة ورحمة في حكم الله تعالى فتخففوا الضرب أو تنقصوا العدد بل أوجعوهما ضرباً قال مجاهد : لا تعطلوا حدود الله ولا تتركوا إقامتها شفقة ورحمة[١] **﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾** هذا من باب الإلهاب والتهييج أي إن كنتم مؤمنين حقاً تصدقون بالله وباليوم الآخر ، فلا تعطلوا الحدود ولا تأخذكم شفقة بالزناة ، فإن جريمة الزنى أكبر من أن تستدر العطف أو تدفع إلى الرحمة **﴿وليشهد عذابهما طائفةٌ من المؤمنين﴾** أي وليحضر عقوبة الزانيين جماعةٌ من المؤمنين ، ليكون أبلغ في زجرهما ، وأنجع في ردعهما ، فإنَّ الفضيحة قد تنكل أكثر مما ينكل التعذيب **﴿الزاني لا ينكح إلا زانيةً أو مشركة﴾** أي الزاني لا يليق به أن يتزوج العفيفة الشريفة ، إنما ينكح مثله أو أخسَّ منه كالبغيّ الفاجر ، أو المشركة الوثنية **﴿والزانيةُ لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك﴾** أي والزانية لا يليق أن يتزوج بها المؤمن العفيف ، إنما يتزوجها من هو مثلها أو أخسُّ منها ، كالزاني الخبيث أو المشرك الكافر ، فإن النفوس الطاهرة تأبى الزواج بالفواجر الفاسقات ، قال الإمام الفخر : «من أحسن ما قيل في تفسير هذه الآية : أنَّ الفاسقَ الخبيث ـ الذي من شأنه الزنى والفِسق ـ لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء ، وإنما يرغب في فاسقةٍ خبيثةٍ مثله أو في مشركة ، والفاسقة الخبيثة لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها ، وإنما يرغب فيها من هو من جنسها من الفسقة والمشركين ، وهذا على الأعم الأغلب كما يقال : لا يفعل الخير إلا الرجل التقي ، وقد يفعل بعض الخير من ليس بتقيٍّ فكذا هنا[٢]» **﴿وحُرم ذلك على المؤمنين﴾** أي وحرم الزنى على المؤمنين لشناعته وقبحه ، أو حرم نكاح الزواني على المؤمنين لما فيه من الأضرار الجسيمة[٣] . . ثم شرع تعالى في بيان حد القذف فقال **﴿والذين يرمون المحصنات﴾** أي يقذفون بالزنى العفيفات الشريفات **﴿ثم لم يأتوا بأربعة شهداء﴾** أي ثم لم يأتوا على دعواهم بأربعة شهود عدول يشهدون عليهن بما نسبوا إليهن من الفاحشة **﴿فاجلدوهم ثمانين جلدة﴾** أي اضربوا كل واحدٍ من الرامين ثمانين ضربةً بالسوط ونحوه ، لأنهم كذبة يتهمون البريئات ، ويخوضون في أعراض الناس **﴿ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً﴾** أي وزيدوا لهم في العقوبة بإهدار كرامتهم الإنسانية فلا تقبلوا شهادة أي واحدٍ منهم ما دام مصراً على كذبه وبهتانه **﴿وأولئك هم الفاسقون﴾**

---

(١) التفسير الكبير ٢٣/١٤٨ . (٢) التفسير الكبير للرازي ٢٣/ ١٥٠ . (٣) قولان للمفسرين اختار الأول صاحب التسهيل واختار الثاني أبو السعود والقرطبي .

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾

أي هم الخارجون عن طاعة الله عز وجل لإتيانهم بالذنب الكبير ، والجرم الشنيع قال ابن كثير : أوجب تعالى على القاذف إذا لم يُقم البينة على صحة ما قال ثلاثة أحكام : أحدها أن يجلد ثمانين جلدة الثاني : أن ترد شهادته أبداً الثالث : أن يكون فاسقاً ليس بعدل لا عند الله ولا عند الناس[1] **﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك﴾** أي إلا الذين تابوا وأنابوا وندموا على ما فعلوا من بعد ما اقترفوا ذلك الذنب العظيم **﴿وأصلحوا﴾** أي أصلحوا أعمالهم فلم يعودوا إلى قذف المحصنات قال ابن عباس : أي أظهروا التوبة **﴿فإن الله غفور رحيم﴾** أي فاعفوا عنهم واصفحوا وردُّوا إليهم اعتبارهم بقبول شهادتهم ، فإن الله غفور رحيم يقبل توبة عبده إذا تاب وأناب وأصلح سيرته وحاله . . ثم ذكر تعالى حكم من قذف زوجته وهو المعروف باللعان فقال **﴿والذين يرمون أزواجهم﴾** أي يقذفون زوجاتهم بالزنى **﴿ولم يكن لهم شهداءُ إلا أنفسهم﴾** أي وليس لهم شهود يشهدون بما رموهنَّ به من الزنى سوى شهادة أنفسهم **﴿فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله﴾** أي فشهادة أحدهم التي تزيل عنه حدَّ القذف أربع شهادات بالله تقوم مقام الشهداء الأربعة **﴿إنه لمن الصادقين﴾** أي إنه صادقٌ فيما رمى به زوجته من الزنى **﴿والخامسةُ أن لعنة الله عليه﴾** أي وعليه أيضاً أن يحلف في المرة الخامسة بأن لعنة الله عليه **﴿إن كان من الكاذبين﴾** أي إن كان كاذباً في قذفه لها بالزنى **﴿ويدرأ عنها العذاب﴾** أي ويدفع عن الزوجة المقذوفة حدَّ الزنى الذي ثبت بشهادة الزوج **﴿أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين﴾** أي أن تحلف أربع مرات إنه لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنى **﴿والخامسة أنَّ غضب الله عليها إن كان من الصادقين﴾** أي وتحلف في المرة الخامسة بأنَّ غضب الله وسخطه عليها إن كان زوجها صادقاً في اتهامه لها بالزنى **﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾** أي ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم بالستر في ذلك ، وجوابُ **﴿لولا﴾** محذوف لتهويل الأمر تقديره : لهلكتم أو لفضحكم أو عاجلكم بالعقوبة ، ورب مسكوتٍ عنه أبلغ من المنطوق **﴿وأنَّ الله توابٌ حكيم﴾** أي وأنه تعالى مبالغ في قبول التوبة ، حكيم في ما شرع من الأحكام ومن جملتها حكم اللعان قال أبو السعود : وجواب لولا محذوف لتهويله كأنه قيل : ولولا تفضله تعالى عليكم ورحمته بكم لكان ما كان ممّا لا يحيط به نطاق البيان ومن جملته أنه تعالى لو لم يشرع لهم ذلك لوجب على الزوج حدُّ القذف مع أن الظاهر صدقه

---

(١) المختصر ٢/٥٨٣ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾

لاشتراكه في الفضيحة ، ولو جعل شهاداته موجبةً لحد الزنى عليها لفات النظر لها ، ولو جعل شهاداتها موجبة لحد القذف عليه لفات النظر له ، فسبحانه ما أعظم شأنه ، وأوسع رحمته ، وأدقَّ حكمته[1] . . ثم بيَّن تعالى « **قصة الإفك** »[2] التي اتهمت فيها العفيفة البريئة الطاهرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالكذب والبهتان فقال ﴿**إن الذين جاءوا بالإفك**﴾ أي جاءوا بأسوء الكذب وأشنع صور البهتان وهو قذف عائشة بالفاحشة **قال الإمام الفخر** : الإفك أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء ، وقد أجمع المسلمون على أن المراد ما أُفك به على عائشة وهي زوجة الرسول المعصوم[3] ﴿**عُصبةٌ منكم**﴾ أي جماعة منكم أيها المؤمنون وعلى رأسهم « ابن سلول » رأس النفاق ﴿**لا تحسبوه شراً لكم**﴾ أي لا تظنوا هذا القذف والاتهام شراً لكم يا آل أبي بكر ﴿**بل هو خيرٌ لكم**﴾ لما فيه من الشرف العظيم بنزول الوحي ببراءة أم المؤمنين ، وهذا غاية الشرف والفضل **قال المفسرون** : والخير في ذلك من خمسة أوجه : تبرئة أم المؤمنين ، وكرامة الله لها بإنزال الوحي في شأنها ، والأجر الجزيل لها في الفِرية عليها ، وموعظة المؤمنين ، والانتقام من المفترين[4] ﴿**لكل امرىءٍ منهم ما اكتسب من الإثم**﴾ أي لكل فردٍ من العُصبة الكاذبة جزاء ما اجترح من الذنب على قدر خوضه فيه ﴿**والذي تولى كبره منهم**﴾ أي والذي تولى معظمه وأشاع هذا البهتان وهو « ابن سلول » رأس النفاق ﴿**له عذابٌ عظيم**﴾ أي له في الآخرة عذاب شديد في نار جهنم ﴿**لولا إذْ سمعتموه**﴾ أي هلاَّ حين سمعتم يا معشر المؤمنين هذا الافتراء وقذف الصديقة عائشة ﴿**ظنَّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً**﴾ أي هلاَّ ظنوا الخير ولم يسرعوا إلى التهمة فيمن عرفوا فيها النزاهة والطهارة ؟ فإن مقتضى الإيمان ألاَّ يصدق مؤمنٌ على أخيه قولة عائب ولا طاعن قال ابن كثير : هذا تأديبٌ من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السُّوء ، وهلا قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم فإن كان لا يليق بهم فأمُّ المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى ، روي أن امرأة « أبي أيوب » قالت له : أما تسمع ما يقول الناسُ في عائشة ! قال : نعم وذلك الكذب ، أكنت فاعلةً ذلك يا أم ايوب ؟ قالت : لا والله قال فعائشة والله خيرمنك[5] ، ﴿**وقالوا هذا إفكٌ مبين**﴾ أي قالوا في ذلك الحين هذا كذبٌ ظاهر مبين ﴿**لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء**﴾ أي هلاَّ جاء أولئك المفترون بأربعة شهود يشهدون على ما قالوا ﴿**فإذْ لم يأتوا بالشهداء**﴾ أي فإن عجزوا ولم يأتوا على دعواهم بالشهود ﴿**فأولئك عند الله هم الكاذبون**﴾ أي فأولئك هم

---

(١) إرشاد العقل السليم ٤/ ٤٨ . (٢) انظر القصة مفصلة في كتابنا « روائع البيان » ٢/ ١١٧ . (٣) التفسير الكبير ٢٣/ ١٧٢ .
(٤) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ٦١ . (٥) مختصر ابن كثير ٢/ ٥٩١ .

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ

المفسدون الكاذبون في حكم الله وشرعه ، وفيه توبيخٌ وتعنيف للذين سمعوا الإفك ولم ينكروه أول وهلة ﴿ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة﴾ أي لولا فضله تعالى عليكم - أيها الخائضون في شأن عائشة - ورحمته بكم في الدنيا والآخرة حيث أمهلكم ولم يعاجلكم بالعقوبة ﴿لمسَّكم فيما أفضتم فيه﴾ أي لأصابكم ونالكم بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك ﴿عذاب عظيم﴾ أي عذاب شديد هائل يُستحقر دونه الجلد والتعنيف قال القرطبي : هذا عتابٌ من الله بليغٌ لمن خاضوا في الإفك ، ولكنه برحمته ستر عليكم في الدنيا ، ويرحم في الآخرة من أتاه تائباً[1] ﴿إذْ تلقونه بألسنتكم﴾ أي وذلك حين تتلقونه ويأخذه بعضكم من بعض بالسؤال عنه **قال مجاهد** : أي يرويه بعضُكم عن بعض ، يقول هذا سمعته من فلان ، وقال فلانٌ كذا[2] ﴿وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علمٌ﴾ أي تقولون ما ليس له حقيقة في الواقع ، وإنما هو محض كذبٍ وبهتان ﴿وتحسبونه هيناً﴾ أي وتظنونه ذنباً صغيراً لا يلحقكم فيه إثم ﴿وهو عند الله عظيم﴾ أي والحال أنه عند الله من أعظم الموبقات والجرائم لأنه وقوع في أعراض المسلمين **قال في التسهيل** : عاتبهم تعالى على ثلاثة أشياء : الأول : تلقيه بالألسنة أي السؤال عنه والثاني : التكلم به والثالث : استصغاره حيث حسبوه هيناً وهو عند الله عظيم ، وفائدة قوله بألسنتكم وبأفواهكم الإشارة إلى أنَّ ذلك الحديث كان باللسان دون القلب لأنهم لم يعلموا حقيقته بقلوبهم[3] ﴿ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا﴾ عتابٌ لجميع المؤمنين أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه أول سماعكم له وتقولوا لا ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد ﴿سبحانك هذا بهتانٌ عظيم﴾ أي سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسول الله الطاهرة البريئة فإن هذا الافتراء كذبٌ واضح ، عظيم الجرم **قال الزمخشري** : هو بمعنى التعجب من عظيم الأمر والاستبعاد له ، والأصل في ذلك أن يُسبِّح الله عند رؤية العجائب[4] ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً﴾ أي يذكركم الله ويعظكم بالمواعظ الشافية لكي لا تعودوا إلى مثل هذا العمل أبداً ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي إن كنتم حقاً مؤمنين فإن الإيمان وازع عن مثل هذا البهتان ، وفيه حثٌ لهم على الاتعاظ وتهييج ﴿ويبيِّنُ الله لكم الآيات﴾ أي ويوضح لكم الآيات الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب ، لتتعظوا وتتأدبوا بها ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عالم بما يصلح العباد ، حكيم في تدبيره وتشريعه ﴿إنَّ الذين يُحبون أن تشيع الفاحشة﴾ أي يريدون أن ينتشر الفعل القبيح المفرط في القبح

---

(١) القرطبي ١٢/ ٢٠٣ . (٢) المختصر ٢/ ٥٩١ . (٣) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ٦٢ . (٤) الكشاف ٣/ ٢٢٥ .

﴿فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾

كإشاعة الرذيلة والزنى وغير ذلك من المنكرات ﴿في الذين آمنوا﴾ أي في المؤمنين الأطهار ﴿لهم عذابٌ أليمٌ في الدنيا والآخرة﴾ أي لهم عذاب موجع مؤلم في الدنيا بإقامة الحدِّ ، وفي الآخرة بعذاب جهنم **قال الحسن** : عنى بهذا الوعيد واللعن المنافقين فإنهم أحبوا وقصدوا إذاية الرسول ﷺ وذلك كفرٌ وملعون صاحبه[1] ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أي هو تعالى عالمٌ بالخفايا والنوايا وأنتم لا تعلمون ذلك **قال الإمام الفخر** : وهذه الجملة فيها حسنُ الموقع بهذا الموضع ، لأن محبة القلب كامنةٌ ونحن لا نعلمها إلاّ بالأمارات أما الله سبحانه فهو لا يخفى عليه شيء ، فصار هذا الذكر نهايةً في الزجر لأن من أحبَّ إشاعة الفاحشة وإن بالغَ في إخفاء تلك المحبة فهو يعلم أن الله تعالى يعلم ذلك منه ويعلم قدر الجزاء عليه[2] ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمتُه وأنَّ الله رءوفٌ رحيم﴾ جواب ﴿لولا﴾ محذوف لتهويل الأمر أي لولا فضله تعالى على عباده ورحمته بهم لأهلكهم وعذَّبهم ، وكان ما كان مما لا يكاد يتصوره الإنسان لأنه فوق الوصف والبيان .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ التنكير للتفخيم ﴿سورةٌ أنزلناها﴾ أي هذه سورة عظيمة الشأن ، جليلة القدر أنزلها الله .

٢ ـ الإطناب بتكرير لفظ ﴿أنزلنا﴾ في قوله ﴿وأنزلنا فيها آيات بينات﴾ لإبراز كمال العناية بشأنها ، وهو من باب ذكر الخاص بعد العام للعناية والاهتمام .

٣ ـ الاستعارة ﴿يرمون المحصنات﴾ أصل الرمي القذفُ بالحجارة أو بشيء صلب ثم استعير للقذف باللسان لأنه يشبه الأذى الحسّي ففيه استعارة لطيفة .

٤ ـ التهييج والإلهاب ﴿إن كنتم تؤمنون بالله﴾ كقولهم إن كنت رجلاً فأقدم .

٥ ـ صيغة المبالغة ﴿غفور رحيم﴾ و ﴿توّاب حكيم﴾ فإن « فعول ، وفعّال ، وفعيل » من صيغ المبالغة وكلها تفيد بلوغ النهاية في هذه الصفات .

٦ ـ الطباق بين ﴿الصادقين﴾ و ﴿الكاذبين﴾ .

٧ ـ حذف جواب ﴿لولا﴾ للتهويل في ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ وذلك حتى يذهب الوهم في تقديره كل مذهب فيكون أبلغ في البيان وأبعد في التهويل والزجر .

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٤٣٩ . (٢) التفسير الكبير ٢٣/ ١٨٣ .

٨ ـ الطباق ﴿لا تحسبوه شراً لكم بل هو خيرٌ لكم﴾ وكذلك ﴿وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم﴾ فقد طابق بين الشر والخير ، وبين الهيّن والعظيم .

٩ ـ الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿لولا إذ سمعتموه ظنَّ المؤمنون﴾ والأصل أن يقال ظننتم وإنما عدل عنه مبالغة في التوبيخ وإشعاراً بأن الإيمان يقتضي ظنَّ الخير بالمؤمنين .

١٠ ـ التحضيض ﴿لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء﴾ أي هلاَّ جاءوا وغرضُه التوبيخ واللوم .

١١ ـ التعجب ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾ ففيه تعجب ممن يقول ذلك والأصل في ذكر هذه الكلمة ﴿سبحانك﴾ أن يُسبح الله تعالى عند رؤية العجيب من صنائعه ، تنزيهاً له من أن يخرج مثله عن قدرته ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه[1] .

فَائِدَة : لماذا بدأ الله في الزنى بالمرأة ، وفي السرقة بالرجل ؟ والجواب أن الزنى من المرأة أقبح ، وجرمه أشنع فبدأ بها ، وأما السرقة فالرجل عليها أجرأ وهو عليها أقدر ولذلك بدأ به ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ .

تَنْبِيه : في التعبير بالإحصان ﴿والذين يرمون المحصنات﴾ إشارة دقيقة إلى أنَّ قذف العفيف من الرجال أو النساء موجب لحدِّ القذف ، وأما إذا كان الشخص معروفاً بفجوره أو اشتهر بالاستهتار والمجون فلا حدَّ على قاذفه ، لأنه لا كرامة للفاسق الماجن . فتدبر السر الدقيق .

لَطِيفَة : لماذا عدل عن قوله ﴿تواب رحيم﴾ إلى قوله ﴿تواب حكيم﴾ مع أن الرحمة تناسب التوبة ؟ والجواب أن الله عز وجل أراد الستر على العباد بتشريع اللعان بين الزوجين ، فلو لم يكن اللعان مشروعاً لوجب على الزوج حدُّ القذف مع أن الظاهر صدقه ، ولو اكتفى بلعانه لوجب على الزوجة حدُّ الزنى ، فكان من الحكمة وحسن النظر لهما جميعاً أن شرع هذا الحكم ، ودرأ عنهما العذاب بتلك الشهادات ، فسبحانه ما أوسع رحمته ، وأجل حكمته !![2] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطواتِ الشيطان . . إلى . . وموعظةً للمتقين﴾ من آية (٢١) إلى نهاية آية (٣٤) .

المُنَاسَبَة : لما ذكر تعالى حادثة الإفك ، أتبعها بالتحذير من سلوك طريق الشيطان المتربص بالإنسان الذي يدعو إلى السوء والشر والفساد ، ثم ذكر تعالى آداب الاستئذان والزيارة لأن أهل الإفك إنما وجدوا السبيل إلى بهتانهم من حيث اتفقت الخلوة فصارت طريقاً للتهمة ، فأوجب تعالى ألا يدخل إنسان بيت غيره إلا بعد الاستئذان والسلام ، ثم أتبعها بآيات غضِّ البصر .

---

(١) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٤١٩ .

(٢) انظر الحكمة التشريعية في الحدود الإسلامية بالتفصيل في كتابنا « تفسير آيات الأحكام » ٢/ ٥٢ .

اللغَـــة : ﴿يأتل﴾ يحلف والألِيَّةُ : اليمـين ومنـه ﴿يؤلـون من نسـائهـم﴾ أي يحلفـون ﴿المحصنات﴾ العفائف الشريفات الطاهرات جمع محصنة وهي العفيفة ﴿مبرءون﴾ منزهون والبراءة : النزاهة مما نسب للإنسان من تهمة ﴿تستأنسوا﴾ تستأذنوا وأصله في اللغـة : طلـبُ الأنس بالشيء قال الشاعر :

عوى الذئب فاستأنستُ للذئـب إذْ عـوى وصوَّت إنسانٌ فكـدت أطيـر

﴿يغضُّوا﴾ غضَّ بصره :خفضه ونكَّسه وأصله إطباق الجفن على الجفن قال جرير :

فغُضَّ الطَّـرف إنـك من نمير فـلا كعبـاً بلغـت ولا كلابا

﴿خُمُرهن﴾ جمع خمار وهو ما تغطي به المرأة رأسها ، وخمّروا الآنية أي غطوها ﴿جيوبهن﴾ جمع جيب وهو الصدر ﴿الإربة﴾ الحاجة إلى النساء .

سَبَبُ النّزول : أ ـ كان أبو بكر الصدّيق ينفق على « مسطح بن أُثاثة » لمسكنته وقرابته ، فلما وقع أمر الإفك وقال فيه مسطحٌ ما قال ، حلف أبو بكر ألا ينفق عليه ولا ينفعه بنافعةٍ أبداً فأنزل الله ﴿ولا يأتـل أولوا الفضل منكم والسعـة . .﴾ الآية فقال أبو بكر : واللهِ إني لأحبُ أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال : والله لا أنزعها منه أبداً[1] .

ب ـ عن علي كرم الله وجهه قال : مرَّ رجل على عهد رسول الله ﷺ في طريقٍ من طرقات المدينة ، فنظر إلى امرأةٍ ونظرت إليه ، فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجاباً به ، فبينما الرجل يمشي إلى جانب حائط ينظر إليها إذ استقبله الحائط « أي صدمه الحائط » فشقَّ أنفه فقال : والله لا أغسل الدم حتى آتي رسول الله ﷺ فأُعلمه أمري ، فأتاه فقصَّ عليه قصته فقال النبي ﷺ : هذا عقوبة ذنبك فأنزل الله ﴿قل للمؤ منين يغضـوا من أبصارهـم . .﴾[2] الآيات .

* يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ

التَفسِـير :﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خُطُوات الشيطان﴾ أي يا من صدَّقتم بالله ورسوله لا تتبعوا آثار الشيطان ولا تسلكوا مسالكه بإشاعة الفاحشة ،والإصغاء إلى الإفك والقول به ﴿ومن يتَّبع خطوات الشيطان﴾ أي ومن يتبع سيرة الشيطان وطريقته ﴿فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر﴾ أي فإن الشيطان يضل الإنسان ويغويه لأنه يأمر بالفحشاء وهيما أفرط قبحه،والمنكر وهو ماينكره الشرع وتنفر منه العقول السليمة ﴿ولولا فضـل الله عليكم ورحمتـه﴾ أي لولا فضل الله عليكم أيهـا المؤ منـون بالتـوفيق للتوبـة الماحية للذنوب ، وبشرع الحدود المكفرة للخطايا ﴿ما زكى منكـم من أحدٍ أبداً﴾ أي ما تطهر أحـدٌ منـكم من الأوزار أبد الدهر ﴿ولكنَّ اللهُ يزكي من يشـاء﴾ أي ولكن الله بفضله ورحمته يطهر من يشاء بتوفيقه للتوبة

(١) القرطبي ١٢/ ٢٠٧ (٢) الدر المنثور للسيوطي ٥/ ٤٠

عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ

النصوح وقبولها منه **قال القرطبي** : والغرض أن تزكيته لكم ، وتطهيره وهدايته إنما هي بفضله لا بأعمالكم[1] ﴿**والله سميعٌ عليم**﴾ أي سميع لأقوالكم عليم بنياتكم وضمائركم ﴿**ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة**﴾ أي لا يحلف أهل الفضل في الدين وأصحاب الغنى واليسار ﴿**أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله**﴾ أي أن لا يؤتوا أقاربهم من الفقراء والمهاجرين ما كانوا يعطونهم إيَّاه من الإحسان لذنب فعلوه ﴿**ولْيعفُوا وليصفحوا**﴾ أي وليعفوا عمّا كان منهم من جرم ، وليصفحوا عما بدر منهم من إساءة،وليعودوا إلى ما كانوا عليه من الإنعام والإحسان ﴿**ألا تحبون أن يغفر الله لكم**﴾ أي ألا تحبون أيها المؤمنون أن يغفر الله لكم على عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم ؟ روي أن أبا بكر لما سمع الآية قال : بلى أحب أن يغفر الله لي وأعاد النفقة إلى مسطح وكفَّر عن يمينه وقال : والله لا أنزعها منه أبداً !! **قال المفسرون** : والآية دالة على فضل أبي بكر فإن الله تعالى امتدحه بقوله ﴿**ولا يأتل أولوا الفضل**﴾ وكفى به دليلاً على فضل الصدّيق رضي الله عنه وأرضاه﴿**والله غفور رحيم**﴾ أي مبالغ في المغفرة والرحمة مع كمال قدرته على العقاب ، ثم توعَّد تعالى الذين يرمون العفائف الطاهرات فقال ﴿**إن الذين يرمون المحصنات الغافلات**﴾ أي يقذفون بالزنى العفيفات ، السليمات الصدور ، النقيات القلوب عن كل سوء وفاحشة ﴿**المؤمنات**﴾ أي المتصفات بالإيمان مع طهارة القلب ﴿**لعنوا في الدنيا والآخرة**﴾ أي طردوا وأُبعدوا من رحمة الله في الدنيا والآخرة **قال ابن عباس** : هذا اللعن فيمن قذف زوجات النبي ﷺ إذْ ليس له توبة ، ومن قذف مؤمنة جعل الله له توبة[2] **وقال أبو حمزة** : نزلت في مشركي مكة ، كانت المرأة إذا خرجت إلى المدينة مهاجرة قذفوها وقالوا خرجت لتفجر[3] ﴿**ولهم عذاب عظيم**﴾ أي ولهم مع اللعنة عذاب هائل لا يكاد يوصف بسبب ما ارتكبوا من إثم وجريمة ﴿**يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون**﴾ أي وذلك العذاب الشديد في ذلك اليوم الرهيب ـ يوم القيامة ـ حين تشهد على الإنسان جوارحه فتنطق الألسنة والأيدي والأرجل بما اقترف من سيء الأعمال ﴿**يومئذٍ يوفيهم الله دينهم الحق**﴾ أي يوم القيامة ينالهم حسابهم وجزاؤهم العادل من أحكم الحاكمين ﴿**ويعلمون أنَّ الله هو الحقُّ المبين**﴾ أي ويعلمون حينئذٍ أن الله هو العادل الذي لا يظلم أحداً ، الظاهر عدله في تشريعه وحكمه . . ثم ذكر تعالى بالدليل القاطع ، والبرهان الساطع براءة عائشة ونزاهتها ، فهي زوجة رسول الله الطيب الطاهر وقد

---

(١) القرطبي ١٢/ ٢٠٧ (٢) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٤٣٠ (٣) البحر ٦/ ٤٤٠

ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾

جرت سنة الله أن يسوق الجنس إلى جنسه ، فلو لم تكن عائشة طيبة لما كانت زوجة لأفضل الخلق ﷺ ولهذا قال ﴿**الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ، والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات**﴾ أي الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء ، وكذلك الطيبات من النساء للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من النساء[1] ، وهذا كالدليل على براءة عائشة لأنها زوجة أشرف رسول وأكرم مخلوق على الله ، وما كان الله ليجعلها زوجة لأحبِّ عباده لو لم تكن عفيفة طاهرة شريفة ﴿**أولئك مبرءون مما يقولون**﴾ أي أولئك الفضلاء منزهون ممَّا تقوَّله أهل الإفك في حقهم من الكذب والبهتان ﴿**لهم مغفرة ورزق كريم**﴾ أي لهم على ما نالهم من الأذى مغفرة لذنوبهم ، ورزقٌ كريم في جنات النعيم **قال ابن كثير** : وفيه وعدٌ بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنة ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم**﴾ لما حذَّر تعالى من قذف المحصنات وشدد العقاب فيه ، وكان طريق هذا الاتهام مخالطة الرجال للنساء ، ودخولهم عليهن في أوقات الخلوات أرشد تعالى إلى الآداب الشرعية في دخول البيوت فأمر بالاستئذان قبل الدخول وبالتسليم بعده ﴿**حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها**﴾ أي لا تدخلوا بيوت الغير حتى تستأذنوا وتسلموا على أهل المنزل ﴿**ذلكم خيرٌ لكم**﴾ أي ذلك الاستئذان والتسليم خير لكم من الدخول بغتة ﴿**لعلكم تذكرون**﴾ أي لتتعظوا وتعملوا بموجب هذه الآداب الرشيدة **قال القرطبي** : المعنى إن الاستئذان والتسليم خير لكم من الهجوم بغير إذن ومن الدخول على الناس بغتة أو من تحية الجاهلية فقد كان الرجل منهم إذا دخل بيتاً غير بيته قال : حُيِّيتم صباحاً ، وحُيِّيتم مساءً ودخل فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحافٍ ، وروي أن رجلاً قال للنبي ﷺ أأستأذن على أمي ؟ قال نعم ، قال ليس لها خادمٌ غيري ، أأستأذن عليها كلما دخلتُ ؟ قال : أتحب أن تراها عريانة ؟ قال لا ، قال فاستأذن عليها[2] ﴿**فإن لم تجدوا فيها أحداً**﴾ أي فإن لم تجدوا في البيوت أحداً يأذن لكم بالدخول إليها ﴿**فلا تدخلوها حتى يُؤذن لكم**﴾ أي فاصبروا ولا تدخلوها حتى يسمح لكم بالدخول ، لأن للبيوت حرمة ولا يحل دخولها إلا بإذن أصحابها ﴿**وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا**﴾ أي وإن لم يؤذن لكم وطلب منكم الرجوع فارجعوا ولا تلحُّوا ﴿**هو أزكى لكم**﴾ أي الرجوع أطهر وأكرم لنفوسكم وهو خير لكم من اللجاج والانتظار على الأبواب ﴿**والله بما تعملون عليم**﴾ أي هو تعالى عالم

(١) هذا قول ابن زيد وهو الأظهر وقال مجاهد : الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال وبالعكس ومراده أن كل كلام إنما يحسن في حق أهله فسيء الكلام إنما يليق بالأشرار والفجار الخ وما ذكرناه أوضح بياناً ، وأقرب منالاً . (٢) البيضاوي ٢/ ٥٧

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ﴾

بالخفايا والنوايا وبجميع أعمالكم فيجازيكم عليها **قال القرطبي** : وفيه توعدٌ لأهل التجسس على البيوت ، ثم إنه تعالى لما ذكر حكم الدور المسكونة ذكر بعده حكم الدور غير المسكونة فقال **﴿ليس عليكم جناح﴾** أي ليس عليكم إثمٌ وحرج **﴿أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة﴾** أي أن تدخلوا بغير استئذان بيوتاً لا تختص بسكنى أحد كالرباطات والفنادق والخانات **قال مجاهد** : هي الفنادق التي في طرق السابلة لا يسكنها أحد بل هي موقوفة ليأوي إليها كل ابن سبيل[١] **﴿فيها متاعٌ لكم﴾** أي فيها منفعة لكم أو حاجة من الحاجات كالاستظلال من الحر ، وإيواء الأمتعة والرحال **﴿والله يعلم ما تُبدون وما تكتمون﴾** أي يعلم ما تظهرون وما تُسرون في نفوسكم فيجازيكم عليه قال ابو السعود : وهذا وعيدٌ لمن يدخل مدخلاً لفسادٍ أو اطلاع على عورات[٢] ، ثم أرشد تعالى إلى الآداب الرفيعة من غض البصر ، وحفظ الفروج فقال **﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾** أي قل يا محمد لأتباعك المؤمنين يكفوا أبصارهم عن النظر إلى الأجنبيات من غير المحارم ، فإن النظرة تزرع في القلب الشهوة ، ورُبَّ شهوة أورثت حزناً طويلاً

كم نظرةٍ فتكت في قلب صاحبها   فتك السهام بلا قوس ولا وتر

﴿ويحفظوا فروجهم﴾ أي يصونوا فروجهم عن الزنى وعن الإبداء والكشف **﴿ذلك أزكى لهم﴾** أي ذلك الغضُّ والحفظ أطهرُ للقلوب ، وأتقى للدين ، وأحفظ من الوقوع في الفجور **﴿إنَّ الله خبير بما يصنعون﴾** أي هو تعالى رقيبٌ عليهم ، مطلعٌ على أعمالهم ، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم ، فعليهم أن يتقوا الله في السر والعلن **قال الإمام الفخر** : فإن قيل فلم قدم غضَّ الأبصار على حفظ الفروج ؟ قلنا : لأن النظر بريد الزنى ، ورائد الفجور ، والبلوى فيه أشدُّ وأكثر ، ولا يكاد يُحترس منه[٣] **﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن﴾** أي وقل أيضاً للمؤمنات يكففن أبصارهن عن النظر إلى ما لا يحل لهن النظر اليه ، ويحفظن فروجهن عن الزنى وعن كشف العورات ، قال المفسرون : أكد تعالى الأمر للمؤمنات بغض البصر وحفظ الفروج ، وزادهن في التكليف على الرجال بالنهي عن إبداء الزينة إلا للمحارم والأقرباء فقال **﴿ولا يبدين زينتهن إلاّ ما ظهر منها﴾** أي ولا يكشفن زينتهن للأجانب إلا ما ظهر منها بدون قصدٍ ولا نية سيئة **قال ابن كثير** : أي لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه ، كما **قال ابن مسعود**: الزينة زينتان : فزينةٌ لا يراها إلا الزوج : الخاتم والسوار ، وزينةٌ يراها الأجانب وهي الظاهر من الثياب[٤] ، وقيل : المراد به الوجه والكفان فإنهما ليسا بعورة **قال البيضاوي** : والأظهر أن هذا في الصلاة لا في النظر ، فإن كل بدن الحرة عورة لا يحل لغير الزوج والمحرم النظر إلى شيء

(١) القرطبي ١٢/٢٢١ .(٢) أبو السعود ٤/٥٥ .(٣) التفسير الكبير ٢٣/ ٢٠٥ (٤) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٠٠

بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

منها إلا لضرورة كالمعالجة وتحمل الشهادة[1] ﴿**وليضربن بخمرهن على جيوبهن**﴾ أي وليلقين الخمار وهو غطاء الرأس على صدورهن لئلا يبدو شيء من النحر والصدر ، وفي لفظ الضرب مبالغة في الصيانة والتستر ، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : يرحم الله النساء المهاجرات الأُول لما أنزل الله ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها[2] قال المفسرون : كانت المرأة في الجاهلية ـ كما هي اليوم في الجاهلية الحديثة ـ تمر بين الرجال مكشوفة الصدر ، بادية النحر ، حاسرة الذراعين ، وربما أظهرت مفاتن جسمها وذوائب شعرها لتغري الرجال ، وكنَّ يسدلن الخُمُر من ورائهن فتبقى صدورهن مكشوفة عارية ، فأمرت المؤمنات بأن يلقينها من قدامهن حتى يغطينها ويدفعن عنهن شر الأشرار ﴿**ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن**﴾ أي ولا يظهرن زينتهن الخفية التي حرم الله كشفها إلا لأزواجهن ﴿**أو آبائهن أو آباء بعولتهنَّ**﴾ أي أو لآبائهن أو آباء أزواجهن وهو العم أبو الزوج فإنهما من المحارم ، فإن الأب يصون عرض ابنته ، ووالد الزوج يحفظ على ابنه ما يسوءه ، ثم عدد بقية المحارم فقال ﴿**أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن ، أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن**﴾ فذكر تعالى الأبناء ، وأبناء الأزواج ، والإخوة ، وأبناء الإخوة ، وأبناء الأخوات وكلهم من المحارم الذين يحرم الزواج بهم لما جبل الله في الطباع من النفرة من مماسة القريبات ونكاحهن ﴿**أو نسائهن**﴾ أي المسلمات وخرج بذلك النساء الكافرات **قال مجاهد**: المراد نساؤ هن المسلمات ، ليس المشركات من نسائهن ، وليس يحل للمرأة المسلمة أن تنكشف بين يدي مشركة **وقال ابن عباس** : هن المسلمات ولا تبدي زينتها أمام يهودية أو نصرانية[4] ﴿**أو ما ملكت أيمانهن**﴾ أي من الإماء المشركات **قال ابن جرير** : يعني من نساء المشركين فيجوز لها أن تظهر زينتها لها وإن كانت مشركة لأنها أمتها ﴿**أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال**﴾ أي الخدام غير أولي الميل والشهوة والحاجة إلى النساء كالبُلْهِ والحمقى والمغفلين الذين لا يدركون من أمور الجنس شيئاً **قال مجاهد** : هو الأبله الذي يريد الطعام ولا يريد النساء ولا يهمه إلا بطنه ﴿**أو الطفل الذي لم يظهروا على عورات النساء**﴾ أي الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا حدَّ الشهوة ، ولا يعرفون أمور الجماع لصغرهم فلا حرج أن تظهر المرأة زينتها أمامهم ﴿**ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن**﴾ أي ولا يضربن بأرجلهن الأرض لئلا يسمع الرجال صوت الخلخال فيطمع الذي في قلبه مرض **قال ابن عباس** : كانت المرأة تمر

---

(١) البيضاوي ٢/ ٥٨ (٢) أخرجه البخاري . (٣) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٠١ وهذا قول أكثر السلف أن المراد بالنساء المؤمنات **قال الفخر الرازي** : وقيل المراد بالنساء جميع النساء فإنهن سواء في حل نظر بعضهن إلى بعض ، وقول السلف محمول على الاستحباب .

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ﴾

بالناس وتضرب برجلها ليسمع صوت خلخالها ، فنهى الله تعالى عن ذلك لأنه من عمل الشيطان **﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾** أي ارجعوا أيها المؤمنون إلى ربكم بامتثال الطاعات ، والكفّ عن الشهوات ، لتنالوا رضاه وتفوزوا بسعادة الدارين **﴿وأَنْكحوا الأيامي منكم﴾** أي زوجوا أيها المؤمنون من لا زوج له من الرجال والنساء من أحرار رجالكم ونسائكم **قال الطبري** : الأيامي جمع أيِّم ، يوصف به الذكر والأنثى يقال : رجل أيِّم وامرأة أيِّمة إذا لم يكن لها زوج[1] **﴿والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾** أي وأنكحوا كذلك أهل التقى والصلاح من عبيدكم وجواريكم **قال البيضاوي**: وتخصيص الصالحين لأن إحصان دينهم والاهتمام بشأنهم أهم[2] ، وفيه إشارة إلى مكانة التقى والصلاح في الإنسان **﴿إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾** أي إن يكن هؤلاء الذين تزوجونهم أهل فاقةٍ وفقر فلا يمنعكم فقرهم من إنكاحهم ، ففي فضل الله ما يغنيهم **﴿والله واسعٌ عليم﴾** أي واسع الفضل ، جواد كريم ، يعطي الرزق من يشاء وهو عليم بمصالح العباد **قال القرطبي** : وهذا وعدٌ بالغنى للمتزوجين طلباً لرضى الله ، واعتصاماً من معاصيه **وقال ابن مسعود** : التمسوا الغنى في النكاح وتلا هذه الآية[3] وفي الحديث (ثلاثة حقٌّ على الله عونهم : الناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء ، والغازي في سبيل الله)[4] **﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً﴾** أي وليجتهد في العفة وقمع الشهوة الذين لا تتيسر لهم سبل الزواج لأسباب مادية **﴿حتى يغنيهم اللهُ من فضله﴾** أي حتى يوسع الله عليهم ويسهل لهم أمر الزواج ، فإن العبد إذا اتقى الله جعل له من أمره فرجاً ومخرجاً **﴿والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم﴾** أي والذين يريدون أن يتحرروا من رقِّ العبودية بمكاتبة أسيادهم من العبيد والأرقاء **﴿فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً﴾** أي فكاتبوهم على قدر من المال إن عرفتم منهم الأمانة والرشد ليصيروا أحراراً **﴿وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾** أي أعطوهم مما أعطاكم الله من الرزق ليكون لهم عوناً على فكاك أنفسهم **﴿ولا تُكرهوا فتياتكم على البغاء﴾** أي لا تجبروا إماءكم على الزنى **﴿إن أردن تحصناً﴾** أي إن أردن التعفف عن مقارفة الفاحشة ، وليس هذا للقيد أو الشرط وإنما هو لبيان فظاعة الأمر وشناعته ، فالأصل في المملوكة أن يُحصنها سيدها أمّا أن يأمرها بالزنى وتمتنع وتريد العفة فذلك منتهى الخسة والدناءة منه **قال المفسرون**: نزلت في « عبد الله بن سلول » المنافق كان له جاريتان إحداهما تسمى « مُسَيْكة » والثانية تسمى « أميمة » فكان يأمرهما بالزنى للكسب ويضربهما على ذلك فشكتا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت الآية **﴿لتبتغوا عرض**

(١) الطبري ١٨/ ٩٨ (٢) البيضاوي ٢/ ٥٨ (٣) القرطبي ١٢/ ٢٤١ (٤) أخرجه أحمد والترمذي

إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

الحياة الدنيا﴾ أي لأجل أن تنالوا حطام هذه الحياة الزائل ، وتحصلوا على المال بطريق الفاحشة والرذيلة **﴿ومن يكرههُنَّ فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم﴾** أي ومن يجبرهن على الزنى فإن الله غفور لهن رحيم بهن لا يؤاخذهن بالزنى لأنهن أُكرهن عليه وسينتقم ممن أكرههن شر انتقام **﴿ولقد أنزلنا إليكم آياتٍ مبينات﴾** أي والله لقد أنزلنا إليكم أيها المؤمنون آيات واضحات وأحكاماً مفصلات **﴿ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم﴾** وضربنا لكم الأمثال بمن سبقكم من الأمم لتتعظوا وتعتبروا **﴿وموعظة للمتقين﴾** أي وعظة وذكرى للمتقين .

البَلَاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ شبَّه سلوك طريق الشيطان والسير في ركابه بمن يتتبع خطوات الآخر خطوة خطوة بطريق الاستعارة .

٢ ـ الإِيجاز بالحذف ﴿أن يؤتوا﴾ أي أن لا يؤتوا حذفت منه ﴿لا﴾ لدلالة المعنى وهو كثير في اللغة .

٣ ـ صيغة الجمع للتعظيم ﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾ والمراد به أبو بكر الصدّيق .

٤ ـ الجناس الناقص بين ﴿يعملون﴾ و﴿يعلمون﴾ .

٥ ـ المقابلة اللطيفة بين ﴿الخبيثات للخبيثين . . والطيبات للطيبين﴾ .

٦ ـ الطباق بين ﴿تبدون . . وتكتمون﴾ .

٧ ـ الإِيجاز بالحذف ﴿يغُضُّوا من أبصارهم﴾ لأن المراد غض البصر عما حرَّم الله لا عن كل شيء فحذف ذلك اكتفاءً بفهم المخاطبين .

٨ ـ المجاز المرسل ﴿ولا يبدين زينتهن﴾ المراد مواقع الزينة وهو من باب إطلاق اسم الحال على المحل **قال الزمخشري** : وذكرُ الزينة دون مواقعها للمبالغة في الأمر بالتستر والتصون .

فَائِدَة : **قال بعض المحققين** : إن يوسف لما رُمي بالفاحشة برّأه الله على لسان صبيٍ في المهد ، وإن مريم لما رُميت بالفاحشة برأها الله على لسان ابنها عيسى عليه السلام ، وإن عائشة لما رُميت بالفاحشة برأها الله في كتابه العزيز ، فما رضي الله لها ببراءة صبيٍّ ولا نبيٍّ حتى برّأها الله في القرآن من القذف والبهتان[1] .

---

(١) القرطبي ١٢/٢١٢

تنبيه : السرُّ في تقديم غضّ البصر على حفظ الفروج ﴿يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾ هو أن النظر بريد الزنى ورائد الفجور ، وهو مقدمة للوقوع في الخطر كما قال الشاعر :

وكنتَ إذا أَرسلتَ طرفك رائداً ... لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيتَ الذي لا كلَّه أنت قادرٌ ... عليه وعلى عن بعضه أنت صابر

لطيفة : ذكر أن قسيِّساً أراد أن ينال من المسلمين بالطعن في أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها ، فقال : إن الناس رموها بالإفك ولا ندري أهي بريئة أم متهمة ؟ فأجابه بعض الحاضرين بقوله : إسمعْ يا هذا ، هناك امرأتان اتهمتا بالزنى وقد برأهما القرآن الكريم ، إحداهما ليس لها زوج وقد جاءت بولد ، والأخرى لها زوج ولم يأتها ولد ـ يقصد مريم وعائشة ـ فأيتهما أحرى بالتهمة ؟ فخرس القسيس .

* * *

قال الله تعالى: ﴿اللهُ نورُ السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح . . إلى . . فأولئك هم الفائزون﴾ من آية (٣٥) إلى نهاية آية (٥٢) .

المناسبة : لما وصف تعالى نفسه بأنه أنزل آيات مبينات ، وأقام دلائل واضحات على وحدانيته ، واختصاصه بتشريع الأحكام التي بها سعادة المجتمع ، عقَّبه بذكر مثلين : أحدهما في بيان أنَّ دلائل الوحدانية والإيمان في غاية الظهور والثاني : في بيان أن أديان الكفرة في نهاية الظلمة والخفاء ، وبالمقارنة بين المثلين يتضح الصبح لذي عينين .

اللغة : ﴿مشكاة﴾ المشكاة : الكُوَّة في الحائط غير النافذة ، وأصلها الوعاء يجعل فيه الشيء ﴿دُرّي﴾ متلألىء وقّاد يشبه الدر في صفائه ولمعانه ﴿سراب﴾ السرابُ : ما يتراءى للعين وسط النهار عند اشتداد الحر يشبه الماء الجاري وليس بماء ، سمي سراباً لأنه يسرب أي يجري كالماء قال الشاعر :

فلما كففنا الحرب كانت عهودكم ... كلمع سراب بالفلا متألق[1]

﴿قيعة﴾قال الفراء :هو جمع قاع مثل جار وجيرة ، والقاعُ المنبسط المستوي من الأرض وقال الزمخشري : القيعةُ بمعنى القاع وليس جمعاً[2] ، وهكذا قال أبو عبيدة ﴿لجّي﴾ اللُّجيٌّ : الذي لا يدرك قعره لعمقه ، واللُّجةُ معظم الماء ، والجمع لُجَج ، والتجَّ البحر : تلاطمت أمواجه ﴿يزجي﴾ الإزجاء : سوقُ الشيء برفقٍ وسهولة ﴿ركاماً﴾ مجتمعاً يركب بعضه بعضاً﴿الودق﴾ : المطر قال الليث : الودقُ المطر كله شديده وهينه[3] ﴿سنا ﴾: السنا الضوء واللمعان قال الشماخ :

وما كادت إذا رفعت سناها ... ليبصر ضوءها إلاّ البصير[4]

﴿مذعنين﴾ خاضعين منقادين ، أذعن للأمر خضع له ﴿يحيف﴾ يجور ويظلم .

(١) القرطبي ٢٨٢/١٢ .(٢) الفخر الرازي ٧/٢٤ .(٣) زاد المسير ٥٢/٥ .(٤) القرطبي ١٢/ ٢٩٠

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ

التفسير : ﴿الله نور السموات والأرض﴾ أي الله جلَّ وعلا منور السموات والأرض ، أنار السمواتِ بالكواكب المضيئة ، والأرض بالشرائع والأحكام وبعثة الرسل الكرام **قال الطبري** : أي هادي أهل السموات والأرض فهم بنوره إلى الحق يهتدون ، وبهداه من حيرة الضلالة يعتصمون[١] **وقال القرطبي** : النور عند العرب : الضوء المدرك بالبصر واستعمل مجازاً في المعاني فيقال كلامٌ له نور قال الشاعر :

نسبٌ كأن عليه من شمس الضحى ... نوراً ومن فلق الصباح عمودا

وقال جرير « وأنتَ لنا نورٌ وغيثٌ وعصمة » والناس يقولون : فلانٌ نور البلد ، وشمسُ العصر وقمره ، فيجوز أن يقال : الله نور على جهة المدح لأن جميع الأشياء منه ابتداؤ ها ، وعنه صدورها ، وبقدرته استقامت أمورها[٢] ، **وقال ابن عطاء الله**: « الكون كله ظلمة أناره ظهور الحق فيه ، إذ لولا وجود الله ما وجد شيء من العالم »[٣] وفي الحديث (اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن) **وقال ابن مسعود** : «ليس عند ربكم ليلٌ ولا نهار ، نور السموات والأرض نور وجهه » **وقال ابن القيم** : سمَّى الله سبحانه نفسه نوراً ، وجعل كتابه نوراً ، ورسوله نوراً ، واحتجب عن خلقه بالنور ، وقد فسرت الآية بأنه منور السموات والأرض ، وهادي أهل السموات والأرض ، وما قاله ابن مسعود أقرب إلى تفسير الآية من قول من فسرها بأنه هادي أهل السموات والأرض ، وأما من فسرها بأنه منور السموات والأرض فلا تنافي بينه وبين قول ابن مسعود[٤] ﴿مَثَل نوره﴾ أي مثل نور الله سبحانه في قلب عبده المؤمن ﴿كمشكاة فيها مصباح﴾ أي ككوة في الحائط لا منفذ لها ليكون أجمع للضوء وضع فيها سراج ثاقب ساطع **قال في التسهيل** : المعنى صفةُ نور الله في وضوحه كصفة مشكاةٍ فيها مصباح على أعظم ما يتصوره البشر من الإضاءة والإنارة ، وإنما شبه بالمشكاة ـ وإن كان نورُ الله أعظم ـ لأن ذلك هو ما يدركه الناس من الأنوار ضرب لهم به المثل[٥] ﴿المصباح في زجاجة﴾ أي في قنديل من الزجاج الصافي ﴿الزجاجة كأنها كوكبٌ درّيٌ﴾ أي تشبه الكوكب الدري في صفائها وحسنها ﴿يوقد من شجرة مباركة﴾ أي يشعل ذلك المصباح من زيت شجرة مباركة ﴿زيتونة﴾ أي هي من شجر الزيتون الذي خصه الله بمنافع عديدة ﴿لا شرقيةٍ ولا غربية﴾ أي ليست في جهة الشرق ولا في جهة الغرب ، وإنما هي في صحراء منكشفة تصيبها الشمس طول النهار لتكون ثمرتها أنضج ، وزيتُها أصفى **قال ابن عباس** : هي شجرة بالصحراء لا يظلها شجر ، ولا جبلٌ ، ولا كهف ، ولا يواريها شيء وهو أجود لزيتها[٦] ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾ مبالغة في وصف صفاء الزيت وحسنه وجودته أي يكاد زيتُ هذه الزيتونة يضيء من صفائه

---

(١) الطبري ١٨/ ١٠٥ وهذا قول ابن عباس ومجاهد واختاره الطبري . (٢) القرطبي ١٢/ ٢٥٦ . (٣) الحكم لابن عطاء الله السكندري.
(٤) نقلاً عن محاسن التأويل . (٥) التسهيل ٣/ ٦٧ . (٦) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٠٦

﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾

وحسن ضيائه ولو لم تمسَّه نار ، فكيف إذا مسته النار ؟ ﴿نورٌ على نور﴾ أي نور فوق نور فقد اجتمع نور السراج ، وحسن الزجاجة ، وصفاء الزيت ، فاكتمل النور الممثل به ﴿يهدي الله لنوره من يشاء﴾ أي يوفق الله لاتباع نوره ـ وهو القرآن ـ من يشاء من عباده ﴿ويضرب الله الأمثال للناس﴾ أي يبين لهم الأمثال تقريباً لأفهامهم ليعتبروا ويتعظوا بما فيها من الأسرار والحكم ﴿والله بكل شيء عليم﴾ أي هو سبحانه واسع العلم لا يخفى عليه شيء من أمر الخلق ، وفيه وعدٌ ووعيد **قال الطبري**: ذلك مثلٌ ضربه الله للقرآن في قلب أهل الإِيمان به فقال : مثل نور الله الذي أنار به لعباده سبيل الرشاد مثل كوة في الحائط لا منفذ لها فيها مصباح أي سراج ، وجعل السراج مثلاً لما في قلب المؤمن من القرآن والآيات البينات ثم قال ﴿المصباح في زجاجة﴾ وذلك مثلٌ للقرآن في قلب المؤمن الذي أنار الله صدره فخلص من الكفر والشك ، ثم قال ﴿الزجاجةُ كأنها كوكبٌ دري﴾ أي كأن الزجاجة في صفائها وضيائها كوكب يشبه الدر في الصفاء والضياء والحسن ﴿يوقد من شجرة مباركة لا شرقية ولا غربية﴾ أي تَوَقَّد هذا المصباح من دهن شجرة مباركة هي شجرة الزيتون ، ليست شرقية تطلع عليها الشمس بالعشي دون الغداة ، ولكن الشمس تشرق عليها وتغرب فيكون زيتها أجود وأصفى وأضوأ ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾ أي يكاد زيت هذه الزيتونة يضيء من صفائه وحسن ضيائه وعني بها أن حجج الله على خلقه تكاد من بيانها ووضوحها تضيء لمن فكر فيها ونظر ولو لم يزدها الله بياناً ووضوحاً بنزول هذا القرآن ، فكيف وقد نبههم به وذكرهم بآياته فزادهم به حجة ! وذلك بيانٌ من الله ونور على البيان[1] . ثم لما ذكر تعالى هدايته لمن يشاء من عباده ، ذكر مواطن هذه العبادة وهي المساجد أحبُّ البقاع إلى الله فقال ﴿في بيوت أذِنَ اللهُ أن تُرفع﴾ أي أمر تعالى أن تبنى وتشاد على اسمه خاصة ، وان تعظَّم ويرفع شأنها لتكون منارات للهدى ومراكز للإِشعاع الروحي **قال ابن عباس** : المساجد بيوتُ الله في الأرض ، تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض[2] ﴿ويذكر فيها اسمه﴾ أي يعبد فيها الله بتوحيده ، وذكره ، وتلاوة آياته ﴿يسبِّح له فيها بالغدوّ والآصال﴾ أي يصلي لله تعالى في هذه المساجد في الصباح والمساء المؤمنون **قال ابن عباس** : كلُّ تسبيح في القرآن فهو صلاة[3] ﴿رجالٌ لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله﴾ أي لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها عن ذكر ربهم ، ولا يلهيهم البيع والشراء عن طاعة الله **قال المفسرون** : نزلت هذه الآية في أهل الأسواق من الصحابة رضوان الله عليهم ، كانوا إذا سمعوا النداء تركوا كل شغل وبادروا لطاعة الله ﴿وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ أي ولا تشغلهم الدنيا عن إقامة الصلاة في أوقاتها ، ودفع الزكاة للفقراء

(١) الطبري ١٨/ ١١٠ بشيء من الاختصار . (٢) التفسير الكبير ٢٤/ ٣ . (٣) الطبري ١٨/ ١١٣

لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

والمستحقين بحدودها وشروطها ﴿**يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار**﴾ أي يخافون يوماً رهيباً تضطرب من شدة هوله وفزعه قلوب الناس وأبصارهم ﴿**ليجْزيهم الله أحسن ما عملوا**﴾ أي ليكافئهم على أعمالهم في الدنيا بأحسن الجزاء ، ويجزيهم على الإحسان إحساناً ، وعلى الإساءة عفواً وغفراناً ﴿**ويزيدهم من فضله**﴾ أي يتفضل عليهم فوق ذلك الجزاء بما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿**والله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾ أي يعطي من شاء من خلقه عطاءً واسعاً بدون حدٍّ ولا عدٍّ يقال فلان ينفق بغير حساب أي يوسع كأنه لا يحسب ما ينفقه **قال الإمام الفخر** : نبه به على كمال قدرته ، وكمال جوده ، وسعة إحسانه ، فإنه سبحانه يعطيهم الثواب العظيم على طاعاتهم ، ويزيدهم الفضل الذي لا حد له في مقابلة خوفهم[1] ، ولما ذكر تعالى حال المؤمن وسعادته ، ذكر حال الكافر وخسارته ، وضرب لذلك مثلين : الأول لعمله والثاني لاعتقاده وتخبطه في الظلمات فقال ﴿**والذين كفروا أعمالهم كسرابٍ بقيعة**﴾ أي إن أعمال الكفار التي عملوها في الدنيا وظنوها أعمالاً صالحة نافعة لهم في الآخرة كالسراب الذي يرى في القيعان وهو ما يرى في الفَلَوات من ضوء الشمس في الهجيرة حتى يظهر كأنه ماء يجري على وجه الأرض ﴿**يحسبه الظمآن ماء**﴾ أي يظنه العطشان من بعيد ماءً جارياً ﴿**حتى إذا جاءه**﴾ أي حتى إذا وصل إليه ﴿**لم يجده شيئاً**﴾ أي لم ير ماءً ولا شراباً ، وإنما رآى سراباً فعظمت حسرته ﴿**ووجد الله عنده فوفّاه حسابه**﴾ أي وجدَ الله له بالمرصاد فوفّاه جزاء عمله ، فكذلك الكافر يحسب أن عمله ينفعه حتى إذا مات وقدم على ربه لم يجد شيئاً من الأعمال لأنها ذهبت هباءً منثوراً ﴿**والله سريع الحساب**﴾ أي يعجل الحساب لأنه لا يشغله محاسبة واحد عن آخر ﴿**أو كظلمات في بحرٍ لجيٍّ**﴾ هذا المثل الثاني لضلال الكفار والمعنى أو مثلهم كظلماتٍ متكاثفة في بحرٍ عميقٍ لا يدرك قعره ﴿**يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ**﴾ أي يغطي ذلك البحر ويعلوه موجٌ متلاطمٌ بعضه فوق بعض ﴿**من فوقه سحاب**﴾ أي من فوق ذلك الموج الثاني سحاب كثيف ﴿**ظلمات بعضها فوق بعض**﴾ أي هي ظلمات متكاثفة متراكمة بعضها فوق بعض **قال قتادة** : الكافر يتقلب في خمسٍ من الظلم : فكلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة إلى النار[2] ﴿**إذا أخرج يده لم يكد يراها**﴾ هذا من تتمة التمثيل أي إذا أخرج ذلك الإنسان الواقع في هذه الظلمات يده لم يقارب رؤيتها فإن ظلمة البحر ، وظلمة الموج ، وظلمة السحاب

(١) التفسير الكبير ٢٤/٦ (٢) الطبري ١٨/١١٦

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾﴾

قد تكاثفت حتى حجبت عنه رؤية أقرب شيء إليه من شدة الظلمة فكذلك شأن الكافر يتخبط في ظلمات الكفر والضلال ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ أي ومن لم يهده الله للإيمان وينور قلبه بنور الإسلام لم يهتد أبد الدهر ، ذكر تعالى لعمل الكافر مثالين : الأول لعمله الصالح ومثَّل له بالسراب الخادع ، والثاني لاعتقاده السيء ومثَّل له بالظلمات المتراكم بعضُها فوق بعض ثم ختم الآية الكريمة ذلك الختام الرائع ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ مقابل قوله في المؤمن ﴿نور على نور﴾ فكان هذا التمثيل والبيان في غاية الحسن والجمال، فللّه ما أروع تعبير القرآن !! ولما وصف سبحانه أنوار قلوب وظلمات قلوب الجاهلين أتبع ذلك بدلائل التوحيد فقال ﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض﴾ أي ألم تعلم يا محمد علماً يقيناً أنَّ الله العظيم الكبير يسبح له كل من في الكون من ملك ، وإنس ، وجن ، ينزهه ويقدسه ساكنوها ؟ ﴿والطير صافات﴾ أي والطير باسطاتٍ أجنحتهن حال الطيران تسبح ربها وتعبده كذلك بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه تعالى ﴿كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه﴾ أي كلٌّ من الملائكة والإنس والجن والطير قد أُرشد وهدي إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله ، وما كلف به من الصلاة والتسبيح ﴿والله عليم بما يفعلون﴾ أي لا تخفى عليه طاعتهم ولا تسبيحهم ﴿ولله ملك السموات والأرض﴾ أي هو المالك والمتصرف في الكون ، وجميعُ المخلوقات تحت ملكه يتصرف فيهم تصرف القاهر الغالب ﴿وإلى الله المصير﴾ أي وإليه مرجع الخلائق فيجازيهم على أعمالهم وهو تذكير يتضمن الوعيد ، ثم أشار تعالى إلى ظاهرة كونية تدل على قدرته ووحدانيته فقال ﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً﴾ أي يسوق بقدرته السحاب إلى حيث يشاء ﴿ثم يؤلف بينه﴾ أي يجمعه بعد تفرقه ﴿ثم يجعله ركاماً﴾ أي يجعله كثيفاً متراكماً بعضه فوق بعض ﴿فترى الودق يخرج من خلاله﴾ أي فترى المطر يخرج من بين السحاب الكثيف ﴿وينزل من السماء من جبالٍ فيها من برد﴾ أي وينزل من السحاب الذي هو كأمثال الجبال برداً ﴿فيصيب به من يشاء﴾ أي فيصيب بذلك البرد من شاء من العباد فيضره في زرعه وثمرته وماشيته ﴿ويصرفه عمن يشاء﴾ أي ويدفعه عمن يشاء فلا يضره قال الصاوي : كما ينزل المطر من السماء وهو نفعٌ للعباد كذلك ينزل منها البرد وهو ضرر للعباد ، فسبحان من جعل السماء منشأً للخير والشر[1] ﴿يكاد سنا برقه﴾ أي يقرب ضوء برق السحاب ﴿يَذهب بالأبصار﴾ أي يخطف أبصار الناظرين من شدة

---

(١) الصاوي على الجلالين ٣/ ١٣٤

يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ

إضاءته وقوة لمعانه **﴿يقلب الله الليل والنهار﴾** أي يتصرف فيهما بالطول والقصر ، والظلمة والنور ، والحر والبرد **﴿إن في ذلك لعبرة﴾** أي إن فيما تقدم ذكره لدلالة واضحة ، وعظة بليغة على وجود الصانع المبدع **﴿لأولي الأبصار﴾** أي لذوي البصائر المستنيرة ، وخصهم بالذكر لأنهم المنتفعون حيث يتأملون فيجدون الماء والبرد ، والظلمة والنور تخرج من شيء واحد ، فسبحان القادر على كل شيء **﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾** استدل على وحدانيته بتسبيح أهل السماء والأرض ، ثم بتصريف السحاب وإنزال المطر ، ثم بأحوال الحيوانات **قال ابن كثير** : يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها وحركاتها وسكناتها من ماء واحد [١] **﴿فمنهم من يمشي على بطنه﴾** أي فمنهم من يزحف على بطنه كالحية والزواحف **﴿ومنهم من يمشي على رجلين﴾** كالإنسان والطير **﴿ومنهم من يمشي على أربع﴾** كالأنعام وسائر الدواب **قال أبو حيان** : قدم ما هو أظهر في القدرة وأعجب وهو الماشي بغير آلة من رجل وقوائم ، ثم الماشي على رجلين ، ثم الماشي على أربع [٢] **﴿يخلق الله ما يشاء﴾** أي يخلق تعالى بقدرته ما يشاء من المخلوقات **﴿إن الله على كل شيء قدير﴾** أي هو قادر على ما يشاء لا يمنعه مانع ، ولا يدفعه دافع **قال الفخر** :واعلم أنَّ العقول قاصرة عن الإحاطة بأحوال أصغر الحيوانات على الكمال ، والاستدلال بها على الصانع ظاهرٌ ، لأنه لو كان الأمر بتركيب الطبائع الأربع لكان في الكل على السويّة ، فاختصاص كل واحدٍ من هذه الحيوانات بأعضائها وأعمارها ومقادير أبدانها لا بدَّ وأن يكون بتدبير قاهرٍ حكيم ، سبحانه وتعالى عما يقول الجاحدون [٣] **﴿لقد أنزلنا آيات بينات﴾** أي لقد أنزلنا إليكم أيها الناس آياتٍ واضحاتٍ ، دالات على طريق الحق والرشاد **﴿والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم﴾** أي يرشد من يشاء من خلقه إلى الدين الحق وهو الإسلام ، ولما ذكر دلائل التوحيد حذَّر من النفاق والمنافقين فقال **﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا﴾** أي يقول المنافقون صدقنا بالله وبالرسول وأطعنا الله ورسوله **﴿ثم يتولى فريق منهم﴾** أي ثم يعرض جماعة منهم عن قبول حكمه **﴿من بعد ذلك﴾** أي من بعدما صدر منهم ما صدر من دعوى الإيمان **﴿وما أُولئك بالمؤمنين﴾** أي وليس أولئك الذين يدعون الإيمان والطاعة بمؤمنين على الحقيقة **قال الحسن** : نزلت هذه الآية في المنافقين الذين كانوا يظهرون الإيمان ويسرون الكفر **﴿وإذا دُعوا إلى الله**

---

(١) المختصر ٢/ ٦١٣ (٢) البحر ٦/ ٤٦٦ (٣) التفسير الكبير ٢٤/ ١٩

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾

ورسوله ليحكم بينهم﴾ أي وإذا دعوا إلى حكم الله أو حكم رسوله **﴿إذا فريق منهم معرضون﴾** أي استنكفوا وأعرضوا عن الحضور إلى مجلس الرسول **﴿وإن يكن لهم الحقُّ يأتوا إليه مذعنين﴾** أي وإن كان الحقُّ بجانبهم جاءوا إلى رسول الله طائعين منقادين لعلمهم أنه عليه السلام يحكم بالحقِّ **قال الفخر** : نبّه تعالى على أنهم إنما يعرضون متى عرفوا أن الحقَّ لغيرهم ؛ أما إذا عرفوه لأنفسهم عدلوا عن الإعراض وأذعنوا ببذل الرضا[1] **﴿أفي قلوبهم مرضٌ أم ارتابوا﴾** أي هل في قلوبهم نفاقٌ ؟ أم شكوا في نبوته عليه السلام ؟ **﴿أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله﴾** أي أم يخافون أن يظلمهم رسول الله في الحكم ، والاستفهام للمبالغة في التوبيخ والذم كقول الشاعر :

ألستَ من القوم الذين تعاهدوا ... على اللؤم والفحشاء في سالف الدهر

﴿بل أولئك هم الظالمون﴾ أي بل هم الكاملون في الظلم والعناد لإعراضهم عن حكم رسول الله **﴿إنما كان قولَ المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾** أي كان الواجب عليهم عندما يُدعون إلى رسول الله للفصل بينهم وبين خصومهم أن يسرعوا ويقولوا سمعاً وطاعة ، فلو كان هؤلاء مؤمنين لفعلوا ذلك **قال الطبري** : ولم يقصد به الخبر ولكنه تأنيبٌ من الله للمنافقين وتأديب منه لآخرين[2] **﴿وأولئك هم المفلحون﴾** أي وأولئك المسارعون إلى مرضاة الله هم الفائزون بسعادة الدارين **﴿ومن يطع الله ورسوله﴾** أي ومن يطع أمر الله وأمر رسوله في كل فعلٍ وعمل **﴿ويخشى الله ويتقْه﴾** أي ويخاف الله تعالى لما فرط منه من الذنوب ، ويمتثل أوامره ويجتنب زواجره **﴿فأولئك هم الفائزون﴾** أي هم السعداء الناجون من عذاب الله الفائزون برضوانه . ذكر أن بعض بطارقة الروم سمع هذه الآية فأسلم وقال : إنها جمعت كل ما في التوراة والإنجيل .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ إطلاق المصدر على إسم الفاعل للمبالغة **﴿الله نور السموات﴾** بمعنى منوِّر لكل شيء بحيث كأنه عين نوره قال الشريف الرضي : وفي الآية إستعارة ـ على تفسير بعض العلماء ـ والمراد عندهم أنه هادي أهل السموات والأرض بصوادع برهانه ، ونواصع بيانه كما يهتدى بالأنوار الثاقبة والشهب اللامعة .

---

(١) التفسير الكبير ٢٤/ ٢١ . (٢) الطبري ١٨/ ١٢٠

٢ ـ التشبيه التمثيلي ﴿مثل نوره كمشكاةٍ فيها مصباح﴾ شبَّه نور الله الذي وضعه في قلب عبده المؤ من بالمصباح الوهّاج في كوة داخل زجاجة تشبه الكوكب الدري في الصفاء والحسن الخ سمي تمثيلياً لأن وجه الشبه منتزع من متعدد ، وهو من روائع التشبيه .

٣ ـ الإطناب بذكر الخاص بعد العام تنويهاً بشأنه ﴿عن ذكر الله وإقام الصلاة﴾ لأن الصلاة من ذكر الله .

٤ ـ جناس الاشتقاق ﴿تتقلب فيه القلوب﴾ .

٥ ـ التشبيه التمثيلي الرائع ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب﴾ الخ وكذلك في قوله ﴿أو كظلماتٍ في بحر لجي﴾ وهذا من روائع التشبيه وبدائع التمثيل .

٦ ـ الطباق بين ﴿يصيب به . . ويصرفه﴾ .

٧ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿يقلّب الله الليل والنهار﴾ إذ ليس المراد التقليب المادي للأشياء الذاتية وإنما استعير لتعاقب الليل والنهار .

٨ ـ الجناس التام ﴿يذهب بالأبصار﴾ ﴿لأولي الأبصار﴾ المراد بالأولى العيون وبالثانية الألباب .

لطيفة : سمع بعض علماء الطبيعة من غير المسلمين هذه الآية ﴿أو كظلماتٍ في بحر لجيّ يغشاه موج . . .﴾ الآية فسأل هل ركب محمد البحر ؟ فقالوا : لا فقال أشهد أنه رسول الله قالوا : وكيف عرفت ؟ فقال : إنَّ هذا الوصف للبحر لا يعرفه الا من عاش عمره في البحار ، ورأى الأهوال والأخطار ، فلما أخبرت أنه لم يركب البحر عرفت أنه كلام الله تعالى .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجنَّ . . إلى . . والله بكل شيء عليم﴾ من آية (٥٣) إلى آية (٦٤) نهاية السورة الكريمة .

المناسبة : لما ذكر تعالى المنافقين وما هم عليه من صفاتٍ قبيحة ، أعقبه بذكر ما انطوت عليه نفوسهم من المكر والإحتيال والحلف الكاذب بأغلظ الأيمان ، وختم السورة الكريمة بالتحذير من سلوك طريق المنافقين .

اللغة : ﴿الحُلم﴾ : الاحتلام في المنام **قال في القاموس** : الحلم : الرؤيا جمعه أحلام ، والحُلم والاحتلام : الجماع في النوم[1] **وقال الراغب** : هو زمان البلوغ سمي به لكون صاحبه جديراً بالحلم أي الأناة وضبط النفس[2] ﴿القواعد﴾ جمع قاعد بغير تاء لأنه خاصٌ بالنساء كحائض وطامث وهي المرأة التي قعدت عن الزواج وعن الولد ﴿أشتاتاً﴾ متفرقين جمع شتّ وهو الافتراق ، والشتاتُ : الفرقة

(١) القاموس المحيط . (٢) المفردات للراغب الأصفهاني

﴿يتسللون﴾ التسلل : الخروج خفية يقال : انسلَّ وتسلل إذا خرج مستتراً بطريق الخفية ﴿لواذاً﴾ اللواذ : أن يستتر بشيء مخافة من يراه .

سَبَبُ النّزول : روي أن رسول الله ﷺ بعث غلاماً من الأنصار يقال له : مُدْلج إلى عمر بن الخطاب وقت الظهيرة ليدعوه فوجده نائماً ، فدقَّ عليه الغلام الباب ودخل ، فاستيقظ عمر وجلس فانكشف منه شيء فقال : وددت أنَّ الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا عن الدخول في هذه الساعات إلا بإذن ، ثم انطلق إلى رسول الله ﷺ فوجد الآية قد أنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم . .﴾ فخرَّ ساجداً شكراً لله تعالى(٣)

* وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ

التفسير : ﴿**وأقسموا بالله جهد أيمانهم**﴾ أي حلف المنافقون بغاية الأيمان المغلَّظة ﴿**لئن أمرتهم ليخرجنَّ**﴾ أي لئن أمرتهم بالخروج إلى الجهاد ليخرجن معك قال مقاتل : لما بيَّن الله إعراض المنافقين وامتناعهم عن قبول حكمه عليه السلام أتوه فقالوا : لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا وأموالنا ونسائنا لخرجنا ، وإن أمرتنا بالجهاد لجاهدنا فنزلت(١) ﴿**قل لا تقسموا**﴾ أي لا تحلفوا فإن أيمانكم كاذبة ﴿**طاعةٌ معروفة**﴾ أي طاعتُكم لله ورسوله معروفة فإنها باللسان دون القلب ، وبالقول دون العمل ﴿**إنَّ الله خبيرٌ بما تعملون**﴾ أي بصير لا يخفى عليه شيء من خفاياكم ونواياكم﴿**قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول**﴾ أي أطيعوا الله بإخلاص النية وترك النفاق ، وأطيعوا الرسول بالاستجابة لأمره والتمسّك بهديه ﴿**فإن تولَّوا**﴾ أي فإن تتولَّوْا وتعرضوا عن طاعته ﴿**فإنما عليه ما حُمِّل**﴾ أي على الرسول ما كلف به من تبليغ الرسالة ﴿**وعليكم ما حمِّلتم**﴾ أي وعليكم ما كلفتم به من السمع والطاعة واتباع أمره عليه السلام ﴿**وإن تطيعوه تهتدوا**﴾ أي وإن أطعتم أمره فقد اهتديتم إلى طريق السعادة والفلاح ﴿**وما على الرسول إلا البلاغ المبين**﴾ أي ليس عليه إلا التبليغ الواضح للأمة ، ولا ضرر عليه إن خالفتم وعصيتم فإنه قد بلَّغ الرسالة وأدى الأمانة ﴿**وعدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات**﴾ أي وعد الله المؤمنين المخلصين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿**ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم**﴾ أي وعدهم بميراث الأرض وأن يجعلهم فيها خلفاء متصرفين فيها تصرف الملوك في ممالكهم ، كما استخلف المؤمنين قبلهم فملكهم ديار الكفار قال المفسرون : لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة رمتهم العرب عن قوسٍ واحدة ، فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح ، ولا يصبحون إلاّ في لأمتهم ـ أي سلاحهم ـ فقالوا أترون أنّا نعيش حتى نبيت

(١) تفسير الألوسي ١٨/ ٢٠٩ . (٢) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٤٣٥

﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ۚ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾

آمنين مطمئنين لا نخاف إلاّ الله عز وجل !! فنزلت الآية[١] ، وهذا وعدٌ ظهر صدقُه بفتح مشارق الأرض ومغاربها لهذه الأمة وفي الحديث بشارة كذلك فقد قال ﷺ : (إنَّ الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوي لي منها)[٢] **﴿وليمكننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم﴾** أي وليجعلنَّ دينهم ـ الإسلام ـ الذي ارتضاه لهم عزيزاً مكيناً عالياً على كل الأديان **﴿وليبدِّلنَّهم من بعد خوفهم أمناً﴾** أي وليغيرن حالهم التي كانوا عليها من الخوف والفزع إلى الأمن والاستقرار كقوله **﴿وآمنهم من خوف﴾** **﴿يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾** استئنافٌ بطريق الثناء عليهم كالتعليل للاستخلاف في الأرض أي يوحدونني ويخلصون لي العبادة ، لا يعبدون إلهاً غيري **﴿ومن كفر بعد ذلك﴾** أي فمن جحد شكر هذه النعم **﴿فأولئك هم الفاسقون﴾** هم الخارجون عن طاعة الله ، العاصون أمر الله **قال أبو العالية** : أي من كفر بهذه النعمة وليس يعني الكفرَ بالله **قال الطبري** : وهو أشبه بتأويل الآية لأن اللهَ وعد الإنعام على هذه الأمة بما أخبر في هذه الآية بأنه منعم به عليهم ثم قال **﴿ومن كفر﴾** أي كفر هذه النعمة **﴿فأولئك هم الفاسقون﴾**[٣] **﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾** أي أقيموا أيها المؤمنون الصلاة وأدوا الزكاة على الوجه الأكمل الذي يُرضي الله **﴿وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون﴾** أي أطيعوا الرسول في سائر ما أمركم به رجاء الرحمة **﴿لا تحسبنَّ الذين كفروا معجزين في الأرض﴾** تسليةٌ للنبي ﷺ ووعدٌ له بالنُّصرة أي لا تظننَّ يا محمد الكافرين الذين عاندوك وكذبوك معجزين لله في هذه الحياة بل الله قادرٌ عليهم في كل حين وأن **﴿ومأواهم النار﴾** أي مرجعهم نار جهنم **﴿ولبئس المصير﴾** أي بئس المرجع والمآل الذي يصيرون إليه **﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكتْ أيمانكم﴾** أي يا أيها المؤمنون الذين صدَّقوا الله ورسوله وأيقنوا بشريعة الإسلام نظاماً وحكماً ومنهاجاً ليستأذنكم في الدخول عليكم العبيدُ والإماء الذين تملكونهم ملك اليمين **﴿والذين لم يبلغوا الحلُم منكم﴾** أي والأطفال الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال الأحرار ليستأذنوا أيضاً **﴿ثلاث مرات﴾** أي في ثلاثة أوقات **﴿من قبل صلاة الفجر﴾** أي في الليل وقت نومكم وخلودكم إلى الراحة **﴿وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة﴾** أي وقت الظهر حين تخلعون ثيابكم للقيلولة **﴿ومن بعد صلاة العشاء﴾** أي ووقت إرادتكم النوم واستعدادكم له **﴿ثلاث عورات لكم﴾** أي هي ثلاثة أوقات يختل فيها

(١) زاد المسير ٦/ ٥٧ . (٢) رواه مسلم . (٣) الطبري ١٨/ ١٤٢

﴿وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ﴾

تستركم ، العوراتُ فيها بادية والتكشف فيها غالب ، فعلِّموا عبيدكم وخدمكم وصبيانكم ألاّ يدخلوا عليكم في هذه الأوقات إلا بعد الاستئذان ﴿ليس عليكم ولا عليهم جناحٌ بعدهن﴾ أي ليس عليكم ولا على المماليك والصبيان حرجٌ في الدخول عليكم بغير استئذان بعد هذه الأوقات الثلاثة ﴿طوَّافون عليكم بعضكم على بعض﴾ أي لأنهم خدمكم يطوفون عليكم للخدمة وغير ذلك قال أبو حيان : أي يمضون ويجيئون ويدخلون عليكم في المنازل غدوةً وعشية بغير إذن إلا في تلك الأوقات[1] ﴿كذلك يبيّن الله لكم الآيات﴾ أي مثل ذلك التوضيح والبيان يبيّن الله لكم الأحكام الشرعية لتتأدبوا بها ﴿والله عليمٌ حكيم﴾ أي عالمٌ بأمور خلقه ، حكيمٌ في تدبيره لهم ﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم﴾ أي وإذا بلغ هؤلاء الأطفال الصغار مبلغ الرجال وأصبحوا في سنّ التكليف ﴿فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم﴾ أي فعلموهم الأدب السامي أن يستأذنوا في كل الأوقات كما يستأذن الرجال البالغون ﴿كذلك يبيّن الله لكم آياته﴾ أي يفصّل لكم أمور الشريعة والدين ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بخلقه حكيم في تشريعه قال البيضاوي : كرره تأكيداً ومبالغة في الأمر بالاستئذان[2] ﴿والقواعدُ من النساء﴾ أي والنساء العجائز اللواتي قعدن عن التصرف وطلب الزواج لكبر سنهن ﴿اللاتي لا يرجون نكاحاً﴾ أي لا يطمعن في الزواج ولا يرغبن فيه لانعدام دوافع الشهوة فيهن ﴿فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن﴾ أي لا حرج ولا إثم عليهنَّ في أن يضعن بعض ثيابهن كالرداء والجلباب ، ويظهرن أمام الرجال بملابسهن المعتادة التي لا تلفت انتباهاً ، ولا تثير شهوة ﴿غير متبرجاتٍ بزينة﴾ أي غير متظاهرات بالزينة لينظر إليهن قال أبو حيان : وحقيقة التبرج إظهار ما يجب إخفاؤه ، وربَّ عجوزٍ شمطاء يبدو منها الحرصُ على أن يظهر بها جمال[3] ﴿وأنْ يستعففن خيرٌ لهن﴾ أي وأن يستترن بارتداء الجلباب ولبس الثياب كما تلبسه الشابات من النساء ، مبالغةً في التستر والتعفف خيرٌ لهنَّ وأكرم ، وأزكى عند الله وأطهر ﴿والله سميعٌ عليم﴾ أي يعلم خفايا النفوس ويجازي كل إنسان بعمله ، وفيه وعدٌ وتحذير ﴿ليس على الأعمى حرجٌ ولا على الأعرج حرجٌ ولا على المريض حرج﴾ أي ليس على أهل الأعذار « الأعمى ، والأعرج ، والمريض » حرج ولا إثم في القعود عن الغزو لضعفهم وعجزهم[4] ﴿ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم﴾ أي وليس عليكم أيها الناس إثم أن تأكلوا من بيوت

(١) البحر ٦/ ٤٧٢ . (٢) البيضاوي ٢/ ٦٢ . (٣) البحر ٦/ ٤٧٣ . (٤) هذا قول الحسن وابن زيد وهو الظاهر واختاره صاحب البحر والكشاف وقيل المراد نفي الحرج عن أهل الأعذار أن يأكلوا مع الأصحاء واختاره الطبري والرازي .

بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ

أزواجكم وعيالكم **قال البيضاوي** : فيدخل فيها بيوت الأولاد لأن بيت الولد كبيته لقوله عليه السلام : إن أطيبَ ما يأكل المرءُ من كسبه ، وإنَّ ولده من كسبه[١] ﴿**أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم ، أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم ، أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم ، أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم**﴾ أي لا حرج في الأكل من بيوت هؤلاء الأقارب **قال الرازي** : والظاهر أن إباحة الأكل لا تتوقف على الاستئذان لأن العادة أن هؤلاء القوم تطيب أنفسهم بأكل الأقارب[٢] ﴿**أو ما ملكتم مفاتحه**﴾ أي البيوت التي توكّلون عليها وتملكون مفاتيحها في غياب أهلها قالت عائشة : كان المسلمون يذهبون مع رسول الله في الغزو ويدفعون مفاتحهم إلى ضمنائهم ويقولون : قد أحللنا لكم الأكل منها فكانوا يقولون : إنه لا يحل لنا أن نأكل ، إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم وإنما نحن أمناء فأنزل الله ﴿أو ما ملكتم مفاتحه﴾[٣] ﴿**أو صديقكم**﴾ أي أو بيوت أصدقائكم وأصحابكم قال قتادة : إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه ﴿**ليس عليكم جناحٌ أن تأكلوا جميعاً وأشتاتاً**﴾ أي ليس عليكم إثم أو حرج أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين **قال المفسرون** : نزلت في حيٍ من كنانة كان الرجل منهم لا يأكل وحده ، يمكث يومه فإن لم يجد من يؤ اكله لم يأكل شيئاً : وربما كانت معه الإبل الحُفَّل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه فأخبرهم تعالى بأن الرجل إذا أكل وحده لا حرج عليه ﴿**فإذا دخلتم بيوتاً فسلّموا على أنفسكم**﴾ أي إذا دخلتم بيوتاً مسكونة فسلموا على من فيها من الناس ﴿**تحيةً من عند الله مباركة طيبةً**﴾ أي حيُّوهم بتحية الإسلام « السلام عليكم » وهي التحية المباركة الطيبة التي شرعها الله لعباده المؤمنين **قال القرطبي** : وصفها بالبركة لأن فيها الدعاء واستجلاب المودة ، ووصفها بالطيب لأن سامعها يستطيبها[٤] ﴿**كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلكم تعقلون**﴾ **قال ابن كثير** : لما ذكر تعالى في هذه السورة الكريمة من الأحكام المحكمة ، والشرائع المُبْرمة ، نبَّه عباده على أنه يبين لهم الآيات بياناً شافياً ليتدبروها ويتعقلوها لعلهم يعقلون[٥] ﴿**إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله**﴾ أي إنما المؤمنون الكاملون في الإيمان الذين صدقوا الله ورسوله تصديقاً جازماً لا يخالجه شك ﴿**وإذا كانوا معه على أمرٍ جامع**﴾ أي وإذا كانوا مع الرسول في أمرٍ هام فيه مصلحة للمسلمين ﴿**لم يذهبوا حتى يستأذنوه**﴾ أي لم يتركوا مجلسه حتى يستأذنوه فيأذن لهم قال

(١) البيضاوي ٢/ ٦٣ . (٢) التفسير الكبير ٢٤/ ٣٦. (٣) ابن كثير ٢/ ٦١٩ المختصر
(٤) القرطبي ١٢/ ٣١٩. (٥) ابن كثير ٢/ ٦٢٠ المختصر

يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

المفسرون : نزلت هذه الآية في وقت حفر الخندق ، فإن بعض المؤمنين كانوا يستأذنون في الانصراف لضرورة ، وكان المنافقون يذهبون بغير استئذان فنزلت تمدح المؤمنين الخالصين ، وتُعرِّض بذم المنافقين **﴿إن الذين يستأذنونك أُولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله﴾** هذا توكيدٌ لما تقدم ذكره تفخيماً وتعظيماً لشأن الرسول ﷺ أي إن الذين يستأذنونك يا محمد أولئك هم المؤمنون حقاً **قال البيضاوي** : أعاده مؤكداً على أسلوب أبلغ فإن جعل المستأذنين هم المؤمنين عكس الأسلوب الأول وفيه تأكيد للأول بذكر لفظ الله ورسوله فيكون مصداقاً ودليلاً على صحة الإيمان[1] **﴿فإذا استأذنوك لبعض شأنهم﴾** أي فإذا استأذنك هؤلاء المؤمنون لبعض شئونهم ومهامهم[2] **﴿فأذن لمن شئت منهم﴾** أي فاسمح لمن أحببت بالانصراف إن كان فيه حكمة ومصلحة **﴿واستغفر لهم الله﴾** أي وادع الله لهم بالعفو والمغفرة فإن الاستئذان ولو لعذرٍ قصورٌ لأنه تقديم لأمر الدنيا على أمر الدين **﴿إن الله غفور رحيم﴾** أي عظيم العفو واسع الرحمة **﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾** أي لا تنادوا الرسول باسمه كما ينادي بعضكم بعضاً باسمه بل قولوا : يا نبيَّ الله ويا رسول الله تفخيماً لمقامه وتعظيماً لشأنه **قال أبو حيان** : لمّا كان التداعي بالأسماء على عادة البداوة أُمروا بتوقير رسول الله ﷺ ودعائه بأحسن ما يدعى به نحو يا رسول الله ، يا نبيَّ الله ، ألا ترى إلى بعض جفاةٍ من أسلم كان يقول يا محمد فنهوا عن ذلك[3] **قال قتادة** : أمرهم تعالى أن يفخموه ويشرّفوه **﴿قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً﴾** أي قد علم الله الذين ينسلُّون قليلاً قليلاً ويخرجون من الجماعة في خفية يستتر بعضهم ببعض **قال الطبري** : واللواذ هو أن يلوذ القوم بعضُهم ببعض ، يستتر هذا بهذا وهذا بهذا[4] **﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾** أي فليخف الذين يخالفون أمر الرسول ويتركون سبيله ومنهجه وسنته **﴿أن تصيبهم فتنةٌ أو يصيبهم عذاب أليم﴾** أي تنزل بهم محنة عظيمة في الدنيا أو ينالهم عذاب شديد في الآخرة **﴿ألا إنَّ لله ما في السموات والأرض﴾** أي له جل وعلا ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبيداً **﴿قد يعلم ما أنتم عليه﴾** أي قد علم ما في نفوسكم من الإيمان أو النفاق ،

---

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٤٠

(٢) قال ابن عباس : « إن عمر استأذن النبي ﷺ في العمرة فأذن له ثم قال :(يا أبا حفص لا تنسنا من صالح دعائك)»

(٣) البحر ٦/ ٤٧٦ (٤) الطبري ١٨/ ١٣٥

والإخلاص أو الرياء ﴿ويومَ يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا﴾ أي ويوم القيامة يرجعون إليه فيخبرهم بما فعلوا في الدنيا من صغيرٍ وكبير ، وجليل وحقير ويجازي كلا بعمله ﴿والله بكل شيءٍ عليم﴾ أي لا يخفى عليه خافية لأن الكل خلقه وملكه .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبيان نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿جَهْد أيمانهم﴾ شبَّه الأيمان التي يحلف بها المنافقون بالغين فيها أقصى المراتب في الشدة والتوكيد بمن يجهد نفسه في أمر شاقّ لا يستطيعه ويبذل أقصى وسعه وطاقته بطريق الاستعارة .

٢ ـ المشاكلة ﴿عليه ما حُمِّل وعليكم ما حمّلتم﴾ أي عليه أمرُ التبليغ وعليكم وزر التكذيب .

٣ ـ الطباق بين الخوف والأمن ﴿من بعد خوفهم أمناً﴾ وكذلك بين الجميع والأشتات ﴿جميعاً أو أشتاتاً﴾ لأن المعنى مجتمعين ومتفرقين .

٤ ـ الإطناب بتكرير لفظ الحرج لترسيخ الحكم في الأذهان ﴿ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج﴾ .

٥ ـ صيغة المبالغة ﴿غفور رحيم﴾ .

فَائِدَة : قال بعض السلف : من أمَّر السُنَّة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة لقوله تعالى ﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾[1] .

لطيفَة : قيل لبعضهم : من أحبُّ إليك أخوك أم صديقك ؟ فقال : لا أحب أخي إذا لم يكن صديقي . وقال ابن عباس : « الصديق أوكد من القريب ألا ترى استغاثة الجهنميّين حين قالوا ﴿فما لنا من شافعين * ولا صديقٍ حميم﴾ ولم يستغيثوا بالآباء والأمهات »[2] .

تَنْبِيه : كان بعض العرب يرى أحدهم أن عاراً وخزياً عليه أن يأكل وحده ويبقى جائعاً حتى يجد من يؤ اكله ويشاربه واشتهر هذا عن حاتم فكان يقول :

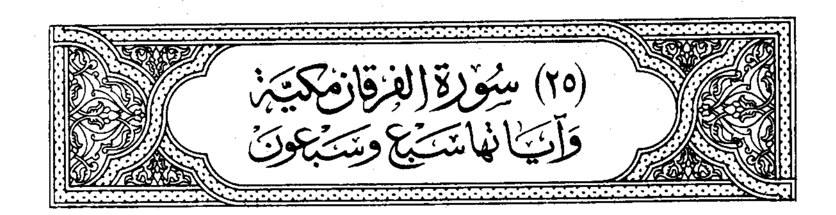
إذا ما صنعتِ الزاد فالتمسي له أكيلاً فإني لست آكله وحدي

وهذا من مآثر العرب ومفاخرهم ، فقد اشتهروا بالجود والكرم ، وقرى الضيف .

« تم بحمد الله تفسير سورة النور »

* * *

(١) زاد المسير ٦/ ٥٧ (٢) البحر المحيط ٦/ ٤٧٤



بين يدي السورة

* سورة الفرقان مكية وهي تعنى بشئون العقيدة ، وتعالج شبهات المشركين حول رسالة محمد ﷺ وحول القرآن العظيم ، ومحور السورة يدور حول إثبات صدق القرآن ، وصحة الرسالة المحمدية ، وحول عقيدة الإيمان بالبعث والجزاء ، وفيها بعض القصص للعظة والاعتبار .

* **ابتدأت** السورة الكريمة بالحديث عن القرآن الذي تفنَّن المشركون بالطعن فيه ، والتكذيب بآياته ، فتارة زعموا أنه أساطير الأولين ، وأُخرى زعموا أنه من اختلاق محمد أعانه عليه بعض أهل الكتاب ، وثالثة زعموا أنه سحرٌ مبين ، فردَّ الله تعالى عليهم هذه المزاعم الكاذبة ، والأوهام الباطلة ، وأقام الأدلة والبراهين على أنه تنزيل رب العالمين ، ثم تحدثت عن موضوع الرسالة التي طالما خاض فيها المشركون المعاندون ، واقترحوا أن يكون الرسول ملكاً لا بشراً ، وأن تكون الرسالة ـ على فرض تسليم الرسول من البشر ـ خاصة بذوي الجاه والثراء ، فتكون لإنسان غني عظيم ، لا لفقير يتيم ، وقد ردَّ الله تعالى شبهتهم بالبرهان القاطع ، والحجة الدامغة ، التي تقصم ظهر الباطل .

* **ثم ذكرت** الآيات فريقاً من المشركين عرفوا الحقَّ وأقرّوا به ، ثم انتكسوا إلى جحيم الضلال ، وذكرت منهم « عقبة بن أبي معيط » الذي أسلم ثم ارتد عن الدين بسبب صديقه الشقي « أُبي بن خلف » وقد سماه القرآن الكريم بالظالم ﴿ويوم يعضُّ الظالم على يديه﴾ الآية وسمَّى صديقه بالشيطان .

* **وفي ثنايا** السورة الكريمة جاء ذكر بعض الأنبياء إجمالاً وجاء الحديث عن أقوامهم المكذبين ، وما حلَّ بهم من النكال والدمار نتيجة لطغيانهم وتكذيبهم لرسل الله كقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وأصحاب الرسّ وقوم لوط، وغيرهم من الكافرين الجاحدين، كما تحدثت السورة عن دلائل قدرة الله ووحدانيته، وعن عجائب صنعه وآثار خلقه في هذا الكون البديع ، الذي هو أثر من آثار قدرة الله ، وشاهد من شواهد العظمة والجلال .

* **وختمت** السورة ببيان صفات عباد الرحمن ، وما أكرمهم الله به من الأخلاق الحميدة التي استحقوا بها الأجر العظيم في جنات النعيم .

التسمية : سميت السورة الكريمة «سورة الفرقان» لأن الله تعالى ذكر فيها هذا الكتاب المجيد الذي أنزله على عبده محمد ﷺ ، وكان النعمة الكبرى على الإنسانية لأنه النور الساطع والضياء المبين ، الذي فرق الله به بين الحق والباطل ، والنور والظلام ، والكفر والإيمان ، ولهذا كان جديراً بأن يسمى الفرقان .

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ

اللغة : ﴿تبارك﴾ من البركة وهي كثرة الخير وزيادته ويأتي بمعنى التمجيد والتعظيم قال الشاعر :

تباركت لا معطٍ لشيء منعته وليس لما أعطيت يا رب مانع[1]

﴿نذيراً﴾ النذير : المحذِّر من الهلاك ﴿نشوراً﴾ النشور : الإحياء بعد الموت ﴿مقرنين﴾ مربوطين بالسلاسل قال عمرو بن كلثوم :

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأُبنا بالملوك مقرَّنينا[2]

﴿ثبوراً﴾ هلاكاً ودماراً ﴿بوراً﴾ مأخوذ من البوار وهو الهلاك قال أبو عبيدة : يقال رجلٌ بور ورجال بور ومعناه هالك ، والبوار الهلاك[3] .

التفسير : ﴿**تبارك الذي نزَّل الفرقان على عبده**﴾ أي تمجَّد وتعظَّم وتكاثر خير الله الذي نزَّل القرآن العظيم الفارق بين الحق والباطل على عبده محمد ﷺ ﴿**ليكون للعالمين نذيراً**﴾ أي ليكون محمد نبياً للخلق أجمعين مخوفاً لهم من عذاب الله ﴿**الذي له ملكُ السموات والأرض**﴾ أي هو تعالى المالك لجميع ما في السموات والأرض خلقاً وملكاً وعبيداً ﴿**ولم يتخذ ولداً**﴾ أي وليس له ولدٌ كما زعم اليهود والنصارى ﴿**ولم يكن له شريكٌ في الملك**﴾ أي وليس معه إله كما قال عبدة الأوثان ﴿**وخلق كل شيء فقدَّرة تقديراً**﴾ أي أوجد كل شيء بقدرته مع الإتقان والإحكام قال في التسهيل : الخلق عبارة عن الإيجاد بعد العدم ، والتقدير عبارةٌ عن اتقان الصنعة وتخصيص كل مخلوقٍ بمقداره وصنعته ، وزمانه ومكانه ، ومصلحته وأجله وغير ذلك[4] وقال الرازي : وصف سبحانه ذاته بأربع أنواع من صفات الكبرياء : **الأول** : أنه المالك للسموات والأرض وهذا كالتنبيه على وجوده **والثاني** : أنه هو المعبود أبداً **والثالث** : أنه المنفرد بالألوهية **والرابع** : أنه الخالق لجميع الأشياء مع الحكمة والتدبير[5] ﴿**واتخذوا من دونه آلهة**﴾ أي

---

(١) البيت للطرماح وانظر البحر ٦/ ٤٨٠ . (٢) القرطبي ١٣/ ٨ . (٣) التفسير الكبير ٢٤/ ٦٣ . (٤) التسهيل ٣/ ٧٤ . (٥) التفسير الكبير ٢٤/ ٤٦ .

شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ افْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾

عبد المشركون غير الله من الأوثان والأصنام ﴿لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون﴾ أي لا يقدرون على خلق شيء أصلاً بل هم مصنوعون بالنحت والتصوير فكيف يكونون آلهة مع الله ؟ ﴿ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً﴾ أي لا يستطيعون دفع ضر عنهم ولا جلب نفع لهم ﴿ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً﴾ أي لا تملك أن تُميت أحداً ، ولا أن تُحيي أحداً ولا أن تبعث أحداً من الأموات قال الزمخشري : المعنى أنهم آثروا على عبادة الله عبادة آلهة لا يقدرون على شيء ، وإذا عجزوا عن دفع الضرر وجلب النفع الذي يقدر عليه العباد كانوا عن الموت والحياة والنشور الذي لا يقدر عليها إلا الله أعجز[1] ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفكٌ افتراه﴾ أي وقال كفار قريش ما هذا القرآن إلا كذب اختلقه محمد من تلقاء نفسه ﴿وأعانه عليه قومٌ آخرون﴾ أي وساعده على هذا الاختلاق قومٌ من أهل الكتاب ﴿فقد جاءوا ظلماً وزوراً﴾ أي جاءوا بالظلم والبهتان حيث جعلوا العربي يتلقَّنُ من العجمي كلاماً عربياً أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب فكان كلامهم فيه محض الكذب والزور ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها﴾ أي وقالوا في حق القرآن أيضاً إنه خرافات الأمم السابقين أمر أن تُكتب له ﴿فهي تُملى عليه بكرةً وأصيلاً﴾ أي فهي تُلقى وتُقرأ عليه ليحفظها صباحاً ومساءً قال ابن عباس : والقائل هو « النضر بن الحارث » وأتباعه والإفكُ أسوأ الكذب[2] ﴿قل أنزله الذي يعلم السرَّ في السموات والأرض﴾ هذا ردٌّ عليهم في تلك المزاعم أي قل لهم يا محمد أنزله الله العليم القدير الذي لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض ﴿إنه كان غفوراً رحيماً﴾ أي إنه تعالى لم يعجّل لكم العقوبة بل أمهلكم رحمة بكم لأنه واسع المغفرة رحيم بالعباد ﴿وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ أي وقال المشركون ما لهذا الذي يزعم الرسالة يأكل الطعام كما نأكل ، ويمشي في الأسواق لطلب المعاش كما نمشي ؟ إنه ليس بمَلَك ولا مَلِك ، لأن الملائكة لا تأكل ، والملوك لا تتبذّل في الأسواق ، وفي قولهم ﴿ما لهذا الرسول﴾ مع إنكارهم لرسالته تهكم واستهزاء ﴿لولا أُنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً﴾ أي هلاَّ بعث الله معه ملكاً ليكون له شاهداً على صدق ما يدعيه! ﴿أو يُلقى إليه كنز﴾ أي يأتيه كنزٌ من السماء فيستعين به ويستغني عن طلب المعاش ﴿أو تكون له جنةٌ يأكل منها﴾ أي يكون له بستان يأكل من ثماره ﴿وقال الظالمون إن

(١) الكشاف ٣/ ١١٥ . (٢) البحر ٦/ ٤٨١ .

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾

تتّبعـون إلا رجـلاً مسحـوراً﴾ أي وقال الكافرون ما تتبعون أيها المؤمنون إلا إنساناً سحر فغلب على عقله فهو يزعم أنه رسول الله ﴿انظـر كيـف ضربـوا لك الأمثـال فضلُّوا﴾ أي انظر كيف قالوا في حقك يا محمد تلك الأقاويل العجيبة ، الجارية لغرابتها مجرى الأمثال ! وكيف اخترعوا تلك الصفات والأحوال الشاذة فضلُّوا بذلك عن الهدى ! ﴿فـلا يستطيعـون سبيـلاً﴾ أي فـلا يجدون طريقاً الى الحق بعد أن ضلوا عنه بتكذيبك وإنكار رسالتك ، ذكروا له عليه الصلاة والسلام خمس صفات وزعموا أنها تُخلُّ بالرسالة زعماً منهم أنَّ فضيلة الرسول على غيره تكون بأمورٍ جسمانية وهي غاية الجهالـة والسفاهـة فردَّ الله عليهـم بأمرين : الأول : تعجيب الرسول ﷺ من تناقضهم فتارة يقولون عنه شاعر ، وتارة ساحر ، وأُخـرى يقولون إنه مجنون حتى أصبحت تلك الأقوال الغريبة الشاذة ، والأمور العجيبـة جارية مجـرى الأمثـال والثاني : أن الله تعالى لو أراد لأعطى نبيَّه خيراً مما اقترحوا وأفضل مما يتصورون وهو المراد بقوله ﴿تبارك الـذي إن شاء جعـل لك خيـراً من ذلـك﴾ أي تمجَّد وتعظَّم الله الكبير الجليل الذي لو أراد لجعل لك خيراً من ذلك الذي ذكروه من نعيم الدنيا ﴿جنـاتٍ تجـري من تحتهـا الأنهـار﴾ أي لو شاء لأعطاك بساتـين وحدائق تسير فيها الأنهار لا جنةً واحدة كما قالوا ﴿ويجعل لك قصـوراً﴾ أي ويجعل لك مع الحدائق القصور الرفيعة المشيدة كما هو حال الملوك قال الضحاك : لما عيَّر المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة حزن عليه السلام فنزل جبريل معزياً له فبينما النبي وجبريل يتحدثان إذ فُتح باب من السماء فقال جبريل : أبشرْ يا محمد هذا رضوان خازن الجنة قد أتاك بالرضى من ربك فسلَّم عليه وقال : ربك يخيّرك بين أن تكون نبياً ملكاً، وبين أن تكون نبياً عبداً ـ ومعه سفط من نور يتلألأ ـ ثم قال : هذه مفاتيح خزائن الأرض فنظر رسول الله ﷺ إلى جبريل كالمستشير فأومأ بيده أن تواضع فقال رسول الله ﷺ «بل نبياً عبداً» فكان عليه السلام بعد ذلك لا يأكل متكأ حتى فارق الدنيا[1] ﴿بل كذبوا بالساعة﴾ أي بل كذبوا بالقيامة ﴿واعتدنا لمن كذّب بالساعة سعيـراً﴾ أي وهيأنا لمن كذَّب بالآخرة ناراً شديدة الاستعار قال الطبري : المعنى ما كذب هؤلاء المشركون بالله وأنكروا ما جئتهم به من الحق من أجل أنك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق ولكنْ من أجل أنهم لا يوقنون بالمعاد تكذيباً منهم بالقيامة وأعددنا لمن كذَّب بالبعث ناراً تُسعَّر عليهم وتتّقد[2] ﴿إذا رأتهـم مـن مكـانٍ بعيـد﴾ أي إذا رأت جهنم هؤلاء المشركين من مسافة بعيدة وهي خمسمائة عام ﴿سمعـوا لها تغيظـاً وزفيـراً﴾ أي سمعوا صوت لهيبها وغليانها كالغضبان إذا غلا صدره من الغيظ وسمعوا لها صوتاً كصوت الحمار وهو الزفير قال ابن عباس : إن الرجل ليجرُّ إلى النار فتشهق إليه النار شهوق البغلة الى الشعير ،

---

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٤٤ . (٢) الطبري ١٨/ ١٤٠ .

وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ

وتزفر زفرةً لا يبقى أحدٌ إلاّ خاف[1] ، وتقييد الرؤية بالبعد ﴿من مكان بعيد﴾ فيه مزيد تهويل لأمرها ﴿**وإذا أُلقوا منها مكاناً ضيقاً**﴾ أي وإذا أُلقوا في جهنم في مكانٍ ضيّق قال ابن عباس : تضيق عليهم ضيق الزُّج في الرُّمح[2] - الزُّج : الحديدة التي في أسفل الرمح - ﴿**مقرَّنين**﴾ أي مصفَّدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل ﴿**دعوا هنالك ثبوراً**﴾ أي دعوا في ذلك المكان على أنفسهم بالويل والهلاك يقولون : يا هلاكنا ، نادوه نداء المتمني للهلاك ليسلموا مما هو أشدُّ منه كما قيل : أشدُّ من الموت ما يتمنى معه الموت ﴿**لا تدعوا اليوم ثُبُوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً**﴾ أي يقال لهم : لا تدعوا اليوم بالهلاك على أنفسكم مرةً واحدة بل ادعوا مراتٍ ومراتٍ ، فإن ما أنتم فيه من العذاب الشديد يستوجب تكرير الدعاء في كل حين وآن ، وفيه إقناطٌ لهم من استجابة الدعاء وتخفيف العذاب ﴿**قل أذلك خيرٌ أم جنة الخلد التي وعد المتقون**﴾؟ أي قل لهم يا محمد على سبيل التقريع والتهكم أذلك السعير خيرٌ أم جنة الخلود التي وعدها المتقون ؟ قال ابن كثير : يقول الله تعالى يا محمد : هذا الذي وصفناه لك من حال الأشقياء الذين تتلقاهم جهنم بوجهٍ عبوسٍ وتغيظٍ وزفير ، ويلقون في أماكنها الضيقة مقرّنين لا يستطيعون حراكاً ولا فكاكاً مما هم فيه ، أهذا خيرٌ أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده[3]؟ قال الإمام الفخر : فإن قيل كيف يقال العذاب خيرٌ أم جنة الخلد ؟ وهل يجوز أن يقول العاقل : السُكر أحلى أم الصبر ؟ قلنا : هذا يحسن في معرض التقريع كما إذا أعطى السيد عبده مالاً فتمرَّد وأبى واستكبر فيضربه ضرباً وجيعاً ويقول على سبيل التوبيخ : أهذا أطيب أم ذاك[4] ؟ ﴿**كانت لهم جزاءً ومصيراً**﴾ أي كانت لهم ثواباً ومرجعاً ﴿**لهم فيها ما يشاءون**﴾ أي لهم في الجنة ما يشاءون من النعيم ﴿**خالدين**﴾ أي ماكثين فيها أبداً سرمداً بلا زوال ولا انقضاء ﴿**كان على ربك وعداً مسؤولاً**﴾ أي كان ذلك الجزاء وعداً على ذي الجلال حقيقاً بأن يُسأل ويُطلب لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون ، وهو وعدٌ واجب ﴿**ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله**﴾ أي واذكر ذلك اليوم الرهيب - يوم القيامة - حين يجمع الله الكفار والأصنام وكل من عُبد من دون الله كالملائكة والمسيح قال مجاهد : هو عيسى وعزير والملائكة ﴿**فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء**﴾ أي فيقول تعالى للمعبودين تقريعاً لعبدتهم : أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم ؟ ﴿**أم هم ضلُّوا السبيل**﴾ أي أم هم ضلوا الطريق فعبدوكم من تلقاء أنفسهم ؟ ﴿**قالوا سبحانك**﴾ أي قال

(١) ابن كثير ٢/ ٦٢٦ المختصر . (٢) البحر ٦/ ٤٨٥ . (٣) ابن كثير ٢/ ٦٢٦ . (٤) التفسير الكبير ٢٤/ ٥٧ .

نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

المعبودون تعجباً مما قيل لهم : تنزَّهت يا ٱلله عن الأنداد ﴿**ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء**﴾ أي ما يحقُّ لنا ولا لأحدٍ من الخلق أن يعبد غيرك ، ولا أن يشرك معك سواك ﴿**ولكنْ متَّعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر**﴾ أي ولكن أكثرت عليهم وعلى آبائهم النعمة ـ وكان يجب عليهم شكرها والإِيمان بما جاءت به الرسل ـ فكان ذلك سبباً للإِعراض عن ذكرك وشكرك ﴿**وكانوا قوماً بوراً**﴾ أي وكانوا قوماً هالكين ، قال تعالى توبيخاً للكفرة ﴿**فقد كذبوكم بما تقولون**﴾ أي فقد كذبكم هؤلاء المعبودون في قولكم إنهم آلهة ﴿**فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً**﴾ أي فما تستطيعون أيها الكفار دفعاً للعذاب عنكم ولا نصراً لأنفسكم من هذا البلاء ﴿**ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً**﴾ أي ومن يشرك منكم بالله فيظلم نفسه نذقه عذاباً شديداً في الآخرة ﴿**وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق**﴾ أي وما أرسلنا قبلك يا محمد أحداً من الرسل إلا وهم يأكلون ويشربون ويتجولون في الأسواق للتكسب والتجارة ، فتلك هي سنة المرسلين من قبلك فلم ينكرون ذلك عليك ؟ وهو جواب عن قولهم ﴿ما لهٰذا الرسول يأكل الطعام﴾ ؟ ﴿**وجعلنا بعضكم لبعضٍ فتنة أتصبرون**﴾ أي جعلنا بعض الناس بلاءً لبعض ومحنة ، ابتلى الله الغنيَّ بالفقير ، والشريف بالوضيع ، والصحيح بالمريض ليختبر صبركم وإِيمانكم أتشكرون أم تكفرون ؟ قال الحسن : يقول الأعمى لو شاء الله لجعلني بصيراً مثل فلان ، ويقول الفقير لو شاء الله لجعلني غنياً مثل فلان ، ويقول السقيم : لو شاء الله لجعلني صحيحاً مثل فلان[1] ﴿**وكان ربك بصيراً**﴾ أي عالماً بمن يصبر أو يجزع ، وبمن يشكر أو يكفر .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الإِضافة للتشريف ﴿على عبده﴾ ولم يذكره باسمه تشريفاً له وتكريماً .

٢ ـ الاكتفاء بأحد الوصفين ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ أي ليكون بشيراً ونذيراً واكتفى بالإِنذار لمناسبته للكفار .

٣ ـ الجناس الناقص ﴿يُخْلَقون . . ويَخْلقون﴾ سمي ناقصاً لتغايره في الشكل .

٤ ـ الطباق بين ﴿ضراً . . ونفعاً﴾ وبين ﴿موتاً . . وحياةً﴾ .

٥ ـ الاستفهام للتهكم والتحقير ﴿ما لهٰذا الرسول يأكل الطعام﴾ ؟

٦ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ شبَّه صوت غليانها بصوت المغتاظ وزفيره وهو صوت يسمع من جوفه وهو تمثيل وصف النار بالاهتياج والاضطرام على عادة المغيظ والغضبان.

---

(١) الطبري ١٨/ ١٤٤ .

٧ ـ جناس الاشتقاق ﴿أرسلنا . . المرسلين﴾ .

٨ ـ الجناس غير التام ﴿تصبرون . . بصيراً﴾ لتقديم بعض الحروف وتأخير البعض .

لطيفة : نبّه تعالى بقوله ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك﴾ على أنه تعالى يعطي العباد على حسب المصالح ، فيفتح على واحد أبواب المعارف والعلوم ويسد عليه أبواب الدنيا ، ويفتح على آخر أبواب الرزق ويحرمه لذة الفهم والعلم ، ولا اعتراض عليه لأنه فعال لما يريده .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا . . إلى . . بل كانوا لا يرجون نشوراً﴾ من آية (٢١) إلى نهاية آية (٤٠) .

المناسبة : لما حكى تعالى إنكار المشركين لنبوة محمد عليه السلام وتكذيبهم للقرآن ، أعقبه بذكر بعض جرائمهم الأخرى ، ثم ذكر قصص بعض الأنبياء وما حلَّ بأقوامهم المكذبين تسلية لرسول الله عليه الصلاة والسلام .

اللغة : ﴿حجراً﴾ بكسر الحاء حراماً من حَجره إذا منعه قال الشاعر :

« ألا أصبحت أسماء حجراً محرَّماً »

أي حراماً محرماً ﴿هباء﴾ قال أبو عبيدة : الهباء مثل الغبار يدخل من الكوة مع ضوء الشمس ﴿منثوراً﴾ المنثور : المتفرق ﴿مقيلاً﴾ المقيل : زمان القيلولة وهي الاستراحة نصف النهار إذا اشتدَّ الحر ﴿تبرنا﴾ التتبير : التدمير والتكسير قال الزجاج : كلُّ شيء كسّرته وفتّته فقد تبرته .

سبب النزول : روي أن « عقبة بن أبي معيط » وكان صديقاً لأُبي بن خلف صنع وليمة فدعا إليها قريشاً ودعا رسول الله ﷺ فلما قُدم الطعام قال رسول الله ﷺ ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أني رسول الله ففعل فأكل رسول الله من طعامه فلما بلغ « أُبي بن خلف » ذلك قال لصديقه عقبة صبأت قال : لا ولكن دخل عليَّ رجل عظيم فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد له بالرسالة فقال له أبي : وجهي من وجهك حرام إن رأيت محمداً حتى تبزق في وجهه وتطأ على عنقه وتقول كيت وكيت ، ففعل عدوُّ الله ما أمره به خليله فأنزل الله ﴿ويوم يعض الظالم على يديه . .﴾ الآية[1] .

* وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا

التفسير : ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أي قال المشركون الذين لا يرجون لقاء الله ، ولا يخشون عقابه لتكذيبهم بالبعث والنشور ﴿لولا أنزل علينا الملائكة﴾ أي هلاَّ نزلت الملائكة علينا فأخبرونا بصدق محمد ﴿أو نرى ربنا﴾ أي أو نرى الله عياناً فيخبرنا أنك رسوله قال أبو حيان : وهذا

(١) التفسير الكبير ٢٤/ ٧٥ .

كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ

كله على سبيل التعنت وإلا فما جاءهم به من المعجزات كافٍ لو وُفّقوا[1] ﴿**لقد استكبروا في أنفسهم**﴾ أي تكبروا في شأن أنفسهم حين تفوهوا بمثل هذه العظيمة ، وطلبوا ما لا ينبغي ﴿**وعتوا عُتواً كبيراً**﴾ أي تجاوزوا الحدَّ في الظلم والطغيان ، حتى بلغوا أقصى العتو وغاية الاستكبار ﴿**يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذٍ للمجرمين**﴾ أي يوم يرى المشركون الملائكة حين تنزل لقبض أرواحهم وقت الاحتضار لن يكون للمجرمين يومئذٍ بشارة تسرهم بل لهم الخيبة والخسران ﴿**ويقولون حِجراً محجوراً**﴾ أي تقول الملائكة لهم : حرام ومحرم عليكم الجنة والبُشرى والغفران قال ابن كثير : وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار ، فتقول للكافر عند خروج روحه : أُخرجي أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث ، أُخرجي إلى سمومٍ وحميم وظلٍ من يحموم فتأبى الخروج وتتفرق في البدن فيضربونه بمقامع الحديد ، بخلاف المؤمنين حال احتضارهم فإنهم يُبشرون بالخيرات وحصول المسرات ﴿تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾[2] ﴿**وقدمنا إلى ما عملوا من عمل**﴾ أي عمدنا إلى أعمال الكفار التي يعتقدونها براً كإطعام المساكين وصلة الأرحام ويظنون أنها تقربهم إلى الله ﴿**فجعلناه هباءً منثوراً**﴾ أي جعلناه مثل الغبار المنثور في الجو ، لأنه لا يعتمد على أساس ولا يستند على إيمان قال الطبري : أي جعلناه باطلاً لأنهم لم يعملوه لله ، وإنما عملوه للشيطان ، والهباء هو الذي يُرى كهيئة الغبار إذا دخل ضوء الشمس من كوة ، والمنثور المتفرق[3] وقال القرطبي : إن الله أحبط أعمالهم بسبب الكفر حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور[4] ﴿**أصحابُ الجنة يومئذٍ خير مستقراً**﴾ لما بيَّن تعالى حال الكفار وأنهم في الخسران الكلي والخيبة التامة ، شرح وصف أهل الجنة وأنهم في غاية السرور والحبور ، تنبيهاً على أن السعادة كل السعادة في طاعة الله عز وجل ، ومعنى الآية : أصحابُ الجنة يوم القيامة خيرٌ من الكفار مستقراً ومنزلاً ومأوى[5] ﴿**وأحسن مقيلاً**﴾ أي وأحسنُ منهم مكاناً للتمتع وقت القيلولة وهي الاستراحة نصف النهار ، فالمؤمنون في الآخرة في الفردوس والنعيم المقيم ، والكفار في دركات الجحيم قال ابن مسعود : «لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار» ﴿**ويوم تشقق السَّماء بالغمام**﴾ أي واذكر ذلك اليوم الرهيب يوم تتشقّق السماء وتنفطر عن الغمام الذي يُسود الجو ويُظلمه ويغم القلوب مرآه لكثرته وشدة ظلمته ﴿ **ونُزِّل الملائكة تنزيلاً**﴾ أي ونزلت الملائكة فأحاطت بالخلائق في المحشر ﴿**الملك يومئذٍ الحق للرحمن**﴾ أي الملك في

(١) البحر المحيط ٦/ ٤٩١ . (٢) ابن كثير ٢/ ٦٢٨ المختصر .
(٣) الطبري ١٩/ ٣ . (٤) القرطبي ١٣/ ٢٢ . (٥) كلمة « خير » ليست على بابها للمفاضلة وإنما هي لبيان حال أهل الجنة وأنهم في أحسن حال وخير مكان ، ولا ضرورة للتأويل بأنهم خير من الكافرين المترفين في الدنيا .

عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ

ذلك اليوم للّه الواحد القهار ، الذي تخضع له الملوك ، وتعنو له الوجوه ، وتذل له الجبابرة ، لا مالك يومئذٍ سواه كقوله ﴿لمن الملك اليوم ؟ للهِ الواحد القهار﴾ ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ أي وكان ذلك اليوم صعباً شديداً على الكفار قال أبو حيان : ودل قوله ﴿على الكافرين﴾ على تيسيره على المؤمنين ففي الحديث (إنه يهون حتى يكون على المؤمن أخف عليه من صلاةٍ مكتوبة صلاها في الدنيا)[1] ﴿ويوم يعضُّ الظالم على يديه﴾ أي واذكر يوم يندم ويتحسر الظالم على نفسه لما فرَّط في جنب الله ، وعضُّ اليدين كنايةٌ عن الندم والحسرة ، والمراد بالظالم «عُقبة بن أبي معيط» كما في سبب النزول ، وهي تعمُّ كل ظالم قال ابن كثير : يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ﷺ وسلك سبيلاً غير سبيل الرسول ، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم ، وعضَّ على يديه حسرةً وأسفاً ، وسواءٌ كان نزولها في «عقبة بن معيط» أو غيره من الأشقياء فإنها عامةٌ في كل ظالم[2] ﴿يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾ أي يقول الظالم يا ليتني اتبعتُ الرسول فاتخذت معه طريقاً إلى الهدى ينجيني من العذاب ﴿يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً﴾ أي يا هلاكي وحسرتي يا ليتني لم أصاحب فلاناً واجعله صديقاً لي ، ولفظ ﴿فلان﴾ كناية عن الشخص الذي أضلَّه وهو «أُبي بن خلف» قال القرطبي : وكنى عنه ولم يصرِّح باسمه ليتناول جميع من فعل مثل فعله[3] ﴿لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني﴾ أي لقد أضلني عن الهدى والإِيمان بعد أن اهتديت وآمنت ثم قال تعالى ﴿وكان الشيطان للإِنسان خذولاً﴾ أي يُضله ويُغويه ثم يتبرأ منه وقت البلاء فلا ينقذه ولا ينصره ﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾ لما أكثر المشركون الطعن في القرآن ضاق صدر الرسول ﷺ وشكاهم إلى الله والمعنى : قال محمد يا رب إنَّ قريشاً كذبت بالقرآن ولم تؤمن به وجعلته وراء ظهورها متروكاً وأعرضوا عن استماعه قال المفسرون : وليس المقصود من حكاية هذا القول الإخبار بما قال المشركون بل المقصود منها تعظيم شكايته ، وتخويف قومه ، لأن الانبياء إذا التجأوا إلى الله وشكوا قومهم حل بهم العذاب ولم يمهلوا[4] ﴿وكذلك جعلنا لكل نبيٍّ عدواً من المجرمين﴾ أي كما جعلنا لك أعداء من مشركي قومك جعلنا لكل نبي عدواً من كفار قومه ، والمراد تسلية النبي ﷺ بالتأسي بغيره من الأنبياء ﴿وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾ أي وكفى أن يكون ربك يا محمد هادياً لك وناصراً لك على أعدائك فلا تبال بمن عاداك ﴿وقال

(١) البحر ٦/ ٤٩٥ والحديث أخرجه أحمد بلفظ « والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن » الحديث . (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٣٠ .
(٣) القرطبي ١٢/ ٢٦ . (٤) نقلاً عن حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٥١ .

بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾

الذين كفروا﴾ أي وقال كفار مكة ﴿لولا أُنزل عليه القرآن جملةً واحدة﴾ أي هلاَّ نزل هذا القرآن على محمد دفعة واحدة كما نزلت التوراة والإِنجيل ؟ قال تعالى ردّاً على شبهتهم التافهة ﴿كذلك لنثبت به فؤادك﴾ أي كذلك أنزلناه مفرقاً لنقوي قلبك على تحمله فتحفظه وتعمل بمقتضى ما فيه ﴿ورتلناه ترتيلاً﴾ أي فصَّلنا تفصيلاً بديعاً قال قتادة : أي بينّاه وقال الرازي : الترتيلُ في الكلام أن يأتي بعضه على إثر بعض على تُؤدة وتمهل ، وأصل الترتيل في الأسنان وهو تفلجها[١] وقال الطبري : الترتيلُ في القراءة الترسُّلُ والتثبتُ يقول : علمناكه شيئاً بعد شيء حتى تحفظه[٢] ﴿ولا يأتونك بمثلٍ إلا جئناك بالحق﴾ أي ولا يأتيك هؤلاء الكفار بحجةٍ أو شبهةٍ للقدح فيك أو في القرآن إلا أتيناك يا محمد بالحق الواضح ، والنور الساطع لندمغ به باطلهم ﴿وأحسن تفسيراً﴾ أي أحسن بياناً وتفصيلاً ، ثم ذكر تعالى حال هؤلاء المشركين المكذبين للقرآن فقال ﴿الذين يُحشرون على وجوههم إلى جهنم﴾ أي يُسْحبون ويجُرُّون إلى النار على وجوههم ﴿أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً﴾ أي هم شر منزلاً ومصيراً ، وأخْطأ ديناً وطريقاً وفي الحديث « قيل يا رسول الله : كيف يُحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ فقال : إن الذي أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة[٣] »، ثم ذكر تعالى قصص الأنبياء تسلية لرسول الله ﷺ وإرهاباً للمكذبين فقال ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ أي والله لقد أعطينا موسى التوراة ﴿وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً﴾ أي وأعنَّاه بأخيه هارون فجعلناه وزيراً له يناصره ويؤازره ﴿فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذّبوا بآياتنا﴾ أي اذهبا الى فرعون وقومه بالآيات الباهرات ، والمعجزات الساطعات ﴿فدمرناهم تدميراً﴾ أي فأهلكناهم إهلاكاً لما كذبوا رسلنا ﴿وقومَ نوحٍ لما كذَّبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية﴾ أي وأغرقنا قوم نوح بالطوفان لمّا كذبوا رسولهم نوحاً وجعلناهم عبرةً لمن يعتبر قال أبو السعود : وإنما قال الرسل بالجمع مع أنهم كذَّبوا نوحاً وحده لأن تكذيبه تكذيبٌ للجميع لاتفاقهم على التوحيد والإِسلام[٤] ﴿وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً﴾ أي وأعددنا لهم في الآخرة عذاباً شديداً مؤلماً سوى ما حلَّ بهم في الدنيا ﴿وعاداً وثمود وأصحاب الرَّس﴾ أي وأهلكنا عاداً وثمود وأصحاب البئر الذين انهارت بهم قال البيضاوي : وأصحابُ الرس قومٌ كانوا يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم شعيباً فكذبوه فبينما هم حول الرس - وهي البئر غير المطوية - انهارت فخسفت بهم وبديارهم[٥] ﴿وقروناً بين ذلك كثيراً﴾ أي وأمماً

(١) التفسير الكبير ٢٤/ ٧٩ . (٢) الطبري ١٩/ ٨ . (٣) أخرجه أصحاب السنن . (٤) أبو السعود ٤/ ٩ . (٥) البيضاوي ٢/ ٦٨ .

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾

وخلائق كثيرين لا يعلمهم إلا الله بين أولئك المكذبين أهلكناهم أيضاً ﴿وكلاًضربنا له الأمثال﴾ أي وكلاً من هؤلاء بيّنا لهم الحجج ، ووضحنا لهم الأدلة إعذاراً وإنذاراً ﴿وكلاً تبرنا تتبيراً﴾ أي أهلكناه إهلاكاً ، ودمرناه تدميراً ، لمّا لم تنجع فيهم المواعظ ﴿ولقد أتوا على القرية التي أُمطرت مطر السَّوء﴾ أي ولقد مرَّت قريش مراراً في متاجرهم إلى الشام على تلك القرية التي أُهلكت بالحجارة من السماء وهي قرية « سدوم » عُظمى قرى قوم لوط ﴿أفلم يكونوا يرونها﴾ ؟ توبيخٌ لهم على تركهم الاتعاظ والاعتبار أي أفلم يكونوا في أسفارهم يرونها فيعتبروا بما حلَّ بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم لرسولهم ومخالفتهم لأوامر الله ؟ قال ابن عباس : كانت قريشٌ في تجارتها الى الشام تمر بمدائن قوم لوط كقوله تعالى ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين﴾ ﴿بل كانوا لا يرجون نشوراً﴾ أي إنهم لا يعتبرون لأنهم لا يرجون معاداً يوم القيامة .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الترجي ﴿لولا أنزل علينا الملائكة﴾ لأن لولا بمعنى هلاّ للترجي .

٢ ـ جناس الاشتقاق ﴿عتوا عتواً﴾ و﴿حجراً محجوراً﴾ .

٣ ـ المبالغة بنفي الجنس ﴿لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾ ومعناها لا يبشر يومئذٍ المجرمون وإنما عدل عنه للمبالغة .

٤ ـ التشبيه البليغ ﴿فجعلناه هباءً منثوراً﴾ أي كالغبار المنثور في الجو في حقارته وعدم نفعه ، حذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً .

٥ ـ الكناية اللطيفة ﴿يعض الظالم على يديه﴾ كناية عن الندم والحسرة ، كما أن لفظة ﴿فلان﴾ كناية عن الصديق الذي أضله .

٦ ـ الإسناد المجازي ﴿شر مكاناً﴾ لأن الضلال لا ينسب الى المكان ولكن الى أهله .

لطيفَة : قال ابن القيم رحمه الله : هجر القرآن أنواع :

أحدها : هجر سماعه والإيمان به . والثاني : هجر العمل به وإن قرأه وآمن به . والثالث : هجر تحكيمه والتحاكم إليه . والرابع : هجر تدبره وتفهم معانيه . والخامس : هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وكلٌّ هذا داخل في قوله تعالى ﴿إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾ وإن كان بعض الهجر أهونُ من بعض[1] .

* * *

قال الله تعالى: ﴿وإذا رأوك إن يتخذونك إلاهزواً . . إلى . . أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً﴾ من آية (٤١) إلى نهاية آية (٦٠) .

(١) نقلاً عن تفسير محاسن التأويل ١٢/ ٥٧٥ .

المناسبة : لما ذكر تعالى شبهات المشركين حول القرآن والرسول ، وردَّ عليهم بالحجج الدامغة ، والبراهين القاطعة ، ذكر هنا طرفاً من استهزائهم وسخريتهم بالرسول فلم يقتصروا على تكذيبه بل زادوا عليه بالاستهزاء والاحتقار ، ثم ذكر الأدلة على وحدانيته تعالى وقدرته .

اللغة : ﴿سُباتاً﴾ السُّبات : الراحة جعل النوم سُباتاً لأنه راحة للأبدان وأصل السبت : القطع ومنه السبت لليهود لانقطاعهم فيه عن الأعمال ﴿نشوراً﴾ النشور : الانتشار والحركة ، والنهار سببٌ للانتشار من أجل طلب المعاش ﴿أناسي﴾ جمع إنسي مثل كراسي وكرسي قال الفراء : الإنسي والأناسي اسم للبشر وأصله انسان ثم أُبدلت من النون ياء فصار إنسي ﴿مرج﴾ خلَّى وأرسل وخلط يقال مرجته إذا خلطته ﴿وأمرٌ مريج﴾ أي مضطرب مختلط ﴿فرات﴾ شديد العذوبة ﴿أجاج﴾ شديد الملوحة ﴿برزخاً﴾ حاجزاً .

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

التفسير : ﴿وإذا رأوكَ إنْ يتخذونك إلاّ هُزُواً﴾ أي وإذا رآك المشركون يا محمد ما يتخذونك إلا موضع هزء وسخرية ﴿أهذا الذي بعث اللهُ رسولاً﴾ أي قائلين بطريق التهكم والاستهزاء : أهذا الذي بعثه الله إلينا رسولاً ؟ ﴿إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها﴾ أي إن كاد ليصرفنا عن عبادة آلهتنا لولا أن ثبتنا عليها واستمسكنا بعبادتها قال تعالى رداً عليهم ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضلُّ سبيلاً﴾ وعيد وتهديد أي سوف يعلمون في الآخرة عند مشاهدة العذاب من أخطأ طريقاً وأضل ديناً أهم أم محمد؟ ﴿أرأيت من اتخذ إلٰهه هواه﴾ تعجيبٌ من ضلال المشركين أي أرأيت من جعل هواه إلهاً كيف يكون حاله ؟ قال ابن عباس : كان الرجل من المشركين يعبد حجراً فإذا رأى حجراً أحسن منه رماه وأخذ الثاني فعبده ﴿أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾ أي حافظاً تحفظه من اتباع هواه ؟ ليس الأمر لك قال أبو حيان : وهذا تيئيسٌ من إيمانهم ، وإشارةٌ للرسول عليه السلام ألا يتأسف عليهم ، وإعلامٌ أنهم في الجهل بالمنافع وقلة النظر في العواقب مثل البهائم[1] ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون﴾ ؟ أي أتظن أن هؤلاء المشركين يسمعون ما تقول لهم سماع قبول ؟ أو يعقلون ما تورده عليهم من الحجج والبراهين الدالة على الوحدانية فتهتم بشأنهم وتطمع في إيمانهم ؟ ﴿إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً﴾ أي ما هم إلا كالبهائم بل هم أبشع حالاً ، وأسوأ مآلاً من الأنعام السارحة ، لأن البهائم تهتدي لمراعيها ، وتنقاد لأربابها وتعرف من يحسن إليها ، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون

(١) البحر ٦/ ٥٠١ .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا﴾

إحسانه إليهم ، ثم ذكر تعالى أنواعاً من الدلائل الدالة على وحدانيته وكمال قدرته فقال ﴿ألم تر إلى ربك كيف مدَّ الظل﴾ أي ألم تنظر إلى بديع صنع الله وقدرته كيف بسط تعالى الظلَّ ومدَّه وقت النهار حتى يستروح الإنسان بظل الأشياء من حرارة الشمس المتوهجة ؟ إذ لولا الظلُّ لأحرقت الشمس الإنسان وكدَّرت حياته ﴿ولو شاء لجعله ساكناً﴾ أي لو أراد سبحانه لجعله دائماً ثابتاً في مكانٍ لا يزول ولا يتحول عنه ، ولكنه بقدرته ينقله من مكان إلى مكان ، ومن جهةٍ الى جهة ، فتارة يكون جهة المشرق ، وتارة جهة المغرب ، وأُخرى من أمام أو خلف ﴿ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً﴾ أي جعلنا طلوع الشمس دليلاً على وجود الظل ، فلولا وقوع ضوئها على الأجرام لما عرف أن للظل وجوداً ، ولما ظهرت آثار هذه النعمة الجليلة للعباد ، والأشياء إنما تُعرف بأضدادها فلولا الظلمة ما عُرف النور ، ولولا الشمسُ ما عرف الظل «وبضدها تتميز الأشياء» ﴿ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً﴾ أي أزلنا هذا الظلَّ شيئاً فشيئاً ، وقليلاً قليلاً لا دفعة واحدة لئلا تختل المصالح قال ابن عباس : الظلُّ من وقت طلوع الفجر إلى وقت طلوع الشمس[1] قال المفسرون : الظلُّ هو الأمر المتوسط بين الضوء الخالص والظلمة الخالصة ، وهو يحدث على وجه الأرض منبسطاً فيما بين ظهور الفجر الى طلوع الشمس ، ثم إن الشمس تنسخه وتزيله شيئاً فشيئاً ، الى الزوال ، ثم هو ينسخ ضوء الشمس من وقت الزوال الى الغروب ويسمى فَيْئاً ، ووجه الاستدلال به على وجود الصانع الحكيم أن وجوده بعد العدم ، وعدمه بعد الوجود ، وتغير أحواله بالزيادة والنقصان ، والانبساط والتقلص ، على الوجه النافع للعباد لا بدَّ له من صانع قادر ، مدبر حكيم ، يقدر على تحريك الأجرام العلوية ، وتدبير الأجسام الفلكية وترتيبها على الوصف الأحسن ، والترتيب الأكمل وما هو إلا الله رب العالمين[2] . ثم أشار تعالى إلى آثار قدرته ، وجليل نعمته الفائضة على الخلق فقال ﴿وهو الذي جعل لكم الليل لباساً﴾ أي هو سبحانه الذي جعل لكم الليل كاللباس يستركم بظلامه كما يستركم اللباس بزينته قال الطبري : وصف الليل باللباس تشبيهاً من حيث يستر الأشياء فصار لهم ستراً يستترون به كما يستترون بالثياب التي يكسونها[3] ﴿والنوم سُباتاً﴾ أي وجعل النوم راحةً لأبدانكم بانقطاعكم عن أعمالكم ﴿وجعل النَّهار نُشوراً﴾ أي وقتاً لانتشار الناس فيه لمعايشهم ، ومكاسبهم ، وأسباب رزقهم ﴿وهو الذي أرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته﴾ أي أرسل الرياح مبشرة بنزول الغيث والمطر

---

(١) الطبري ١٩/ ١٢ هذا القول منقول عن مجاهد وإليه ذهب كثير من المفسرين وقالوا إنه أطيب الأحوال ولذلك وصف به الجنة ﴿وظل ممدود﴾ وما أثبتناه هو الراجح لأنه الظل المعروف ولفظ الشمس يرجحه وهو اختيار العلامة أبي السعود . (٢) انظر تفسير الرازي ٢٤/ ٨٨ ففيه كلام جيد نفيس . (٣) الطبري ١٩/ ١٤ .

وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ

﴿وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً﴾ أي أنزلنا من السحاب الذي ساقته الرياح ماءً طاهراً مطهّراً تشربون وتتطهرون به قال القرطبي : وصيغة ﴿طهور﴾ بناء مبالغة في «طاهر» فاقتضى أن يكون طاهراً مطهّراً[١] ﴿لنحيي به بلدةً ميتاً﴾ أي لنحيي بهذا المطر أرضاً ميتةً لا زرع فيها ولا نبات ﴿ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسيَّ كثيراً﴾ أي وليشرب منه الحيوان والإنسان لأن الماء حياة كل حيّ ، والناس محتاجون إليه غاية الحاجة لشربهم وزروعهم وسقي مواشيهم قال الإمام الفخر : وتنكير الأنعام والأناسي لأن حياة البشر بحياة أرضهم وأنعامهم ، وأكثر الناس يجتمعون في البلاد القريبة من الأودية والأنهار ، فهم في غنية عن شرب مياه المطر ، وكثيرٌ منهم نازلون في البوادي فلا يجدون المياه للشرب إلا عند نزول المطر ولهذا قال ﴿أنعاماً وأناسي كثيراً﴾ أي بشراً كثيرين لأن «فعيل» يراد به الكثرة[٢] ﴿ولقد صرفناه بينهم ليذكروا﴾ أي ضربنا الأمثال في هذا القرآن[٣] للناس وبيَّنا فيه الحجج والبراهين ليتفكروا ويتدبروا ﴿فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ أي أبى الكثير من البشر إلا الجحود والتكذيب ﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قريةٍ نذيراً﴾ أي لو أردنا لخففنا عنك أعباء النبوة فبعثنا في كل أهل قرية نبياً ينذرهم ، ولكننا خصصناك بالبعثة الى جميع أهل الأرض إجلالاً لك ، وتعظيماً لشأنك ، فقابل هذا الإجلال بالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهار الحق ﴿فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾ أي فلا تطع الكفار فيما يدعونك إليه من الكفّ عن آلهتهم ، وجاهدهم بالقرآن جهاداً كبيراً بالغاً نهايته لا يصاحبه فتور ﴿وهو الذي مرج البحرين﴾ أي هو تعالى بقدرته خلى وأرسل البحرين متجاورين متلاصقين بحيث لا يتمازجان ﴿هذا عذبٌ فرات﴾ أي شديد العذوبة قاطع للعطش من فرط عذوبته ﴿وهذا ملحٌ أجاج﴾ أي بليغ الملوحة ، مرٌّ شديد المرارة ﴿وجعل بينهما برزخاً﴾ أي جعل بينهما حاجزاً من قدرته لا يغلب أحدهما على الآخر ﴿وحِجراً محجوراً﴾ أي ومنعاً من وصول أثر أحدهما إلى الآخر وامتزاجه به قال ابن كثير : معنى الآية انه تعالى خلق الماءين : الحلو والمالح ، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار، والمالح كالبحار الكبار التي لا تجري ، وجعل بين العذب والمالح حاجزاً وهو اليابس من الأرض ، ومانعاً من أن يصل أحدهما إلى الآخر ، وهذا اختيار ابن جرير[٤] وقال الرازي : ووجه الاستدلال ههنا بيّن لأن الحلاوة والملوحة إن كانت بسبب طبيعة الارض أو الماء فلا بدَّ من الاستواء ، وإن لم يكن كذلك فلا بدَّ من قادر حكيم يخص كل واحد بصفة معينة[٥] ﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً﴾ أي خلق من النطفة إنساناً سميعاً بصيراً

(١) القرطبي ١٣/ ٣٩ . (٢) التفسير الكبير ٢٤/ ٩١ . (٣) الضمير في ﴿صرفناه﴾ عائد على القرآن وإن لم يتقدم له ذكر لوضوح الأمر ويؤيده قوله ﴿وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾ وقيل إنه عائد على المطر وهو كما قال في التسهيل بعيد . (٤) ابن كثير ٢/ ٦٣٥ المختصر .
(٥) التفسير الكبير ٢٤/ ١٠١ .

نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾

﴿**فجعله نسباً وصهراً**﴾ أي قسمهم من نطفةٍ واحدة قسمين : ذوي نسب أي ذكوراً ينسب اليهم لأن النسب إلى الآباء كما قال الشاعر :

فإنما أمهاتُ الناس أوعيةٌ مستودعات وللآباء أبناء

وإناثاً يُصاهر بهن، فبالنسب يتعارفون ويتواصلون ، وبالمصاهرة تكون المحبة والمودة واجتماع الغريب بالقريب ﴿**وكان ربك قديراً**﴾ أي مبالغاً في القدرة حيث خلق من النطفة الواحدة ذكراً وأنثى . . ولما شرح دلائل التوحيد عاد إلى تهجين سيرة المشركين في عبادة الأوثان فقال ﴿**ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم**﴾ أي يعبدون الأصنام التي لا تنفع ولا تضر لأنها جمادات لا تُحسُّ ولا تُبصر ولا تعقل ﴿**وكان الكافر على ربه ظهيراً**﴾ أي معيناً للشيطان على معصية الرحمن ، لأنَّ عبادته للأصنام معاونة للشيطان قال مجاهد : يظاهر الشيطان على معصية الله ويُعينه[1] ﴿**وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً**﴾ أي مبشراً للمؤمنين بجنات النعيم ، ومنذراً للكافرين بعذاب الجحيم ﴿**قل ما أسألكم عليه من أجر**﴾ أي قل لهم يا محمد لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً ﴿**إلاّ من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً**﴾ أي لكن من شاء أن يتخذ طريقاً يقربه إلى الله بالإيمان والعمل الصالح فليفعل كأنه يقول : لا أسألكم مالاً ولا أجراً وإنما أسألكم الإيمان بالله وطاعته وأجري على الله ﴿**وتوكل على الحي الذي لا يموت**﴾ أي اعتمد في جميع أمورك على الواحد الأحد ، الدائم الباقي الذي لا يموت أبداً ، فإنه كافيك وناصرك ومظهر دينك على سائر الأديان ﴿**وسبّح بحمده**﴾ أي نزّه الله تعالى عمّا يصفه هؤلاء الكفار مما لا يليق به من الشركاء والأولاد ﴿**وكفى به بذنوب عباده خبيراً**﴾ أي حسبك أن الله مطّلع على أعمال العباد لا يخفى عليه شيء منها قال الإمام الفخر : وهذه الكلمة يراد بها المبالغة كقولهم : كفى بالعلم جمالاً ، وكفى بالأدب مالاً ، وهي بمعنى حسبك أي لا تحتاج معه إلى غيره لأنه خبيرٌ بأحوالهم ، قادر على مجازاتهم ، وذلك وعيدٌ شديد[2] ﴿**الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام**﴾ أي هذا الإله العظيم الذي ينبغي أن تتوكل عليه هو القادر على كل شيء ، الذي خلق السموات السبع في ارتفاعها واتساعها ، والأرضين في كثافتها وامتدادها في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا قال ابن جبير : الله قادر على أن يخلقها في لحظة ولكن علّم خلقه الرفق والتثبت[3] ﴿**ثم استوى على العرش**﴾ استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تعطيل ﴿**الرحمن**﴾ أي هو

(١) الطبري ١٩/ ١٧ . (٢) التفسير الكبير ٢٤/ ١٠٣ . (٣) التفسير الكبير ٢٤/ ١٠٤

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ (٦٠)

الرحمن ذو الجود والإحسان ﴿فاسأل به خبيراً﴾ أي فسلْ عنه من هو خبيرٌ عارف بجلاله ورحمته ، وقيل : الضمير يعود إلى الله أي فاسأل اللهَ الخبيرَ بالأشياء ، العالم بحقائقها يطلعك على جليَّة الأمر[1] ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن﴾ أي وإذا قيل للمشركين اسجدوا لربكم الرحمن الذي وسعت رحمته الأكوان ﴿قالوا وما الرحمن﴾ ؟ أي من هو الرحمن ؟ استفهموا عنه استفهام من يجهله وهم عالمون به ﴿أنسجد لما تأمرنا﴾ أي أنسجد لما تأمرنا بالسجود له من غير أن نعرفه ؟ ﴿وزادهم نفوراً﴾ أي وزادهم هذا القول بعداً عن الدين ونفوراً منه .

البلاغة : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستفهام للتهكم والاستهزاء ﴿أهذا الذي بعث الله رسولاً﴾ ؟

٢ ـ التعجيب ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ وفيه تقديم المفعول الثاني على الأول اعتناءً بالأمر المتعجب منه والأصل « اتخذ هواه إلهاً له » .

٣ ـ التشبيه البليغ ﴿جعل الليل لباساً﴾ أي كاللباس الذي يغطي البدن ويستره حذف منه الأداة ووجه الشبه فأصبح بليغاً .

٤ ـ المقابلة اللطيفة بين الليل والنهار والنوم والانتشار ﴿جعل الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً﴾ .

٥ ـ الاستعارة البديعة ﴿بين يدي رحمته﴾ استعار اليدين لما يكون أمام الشيء وقدَّامه كما تقول : بين يدي الموضوع او السورة .

٦ ـ الالتفات من الغيبة الى التكلم للتعظيم ﴿وأنزلنا من السماء﴾ بعد قوله ﴿أرسل الرياح﴾ .

٧ ـ المقابلة اللطيفة ﴿هذا عذبٌ فرات ، وهذا ملح أجاج﴾ أي نهاية في الحلاوة ونهاية في الملوحة .

تنبيه : الفرق بين ﴿ميت﴾ بالتخفيف و﴿ميت﴾ بالتشديد أن الأول لمن مات حقيقة والثاني لمن سيموت قال الشاعر :

أيا سائلي تفسير مَيْتٍ ومَيِّتٍ ... فدونَك قد فسرتُ ما عنه تسأل
فما كان ذا روحٍ فذلك مَيِّتٌ ... وما المَيْتُ إلا من إلى القبر يُحمل[2]

* * *

قال الله تعالى : ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً . . إلى . . فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً﴾ من آية (٦١) إلى آية (٧٧) نهاية السورة الكريمة .

(١) القول الأول أظهر ، والثاني روي عن مجاهد . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ١٦١ .

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ

المناسبة : لما ذكر إعراض المشركين عن عبادة الرحمن أعقبها بذكر آياته الكونية الدالة على الوحدانية ، ثم ختم السورة الكريمة بذكر صفات عباد الرحمن التي استحقوا بها دخول الجنان .

اللغة : ﴿بروجاً﴾ البروج : منازل الكواكب السيارة سميت بالبروج لأنها تشبه القصور العالية وهي للكواكب كالمنازل للسكان وقيل : هي الكواكب العظيمة ﴿غراماً﴾ لازماً دائماً غير مفارق ومنه الغريم لملازمته ﴿الغُرفة﴾ الدرجة الرفيعة في الجنة وهي في اللغة العلية ، وكل بناءٍ عالٍ فهو غرفة ﴿يعبأ﴾ يبالي ويهتمُّ قال أبو عبيدة : ما أعبأ به أي وجودُه وعدمه عندي سواء ، والعبء في اللغة الثقل ﴿لزاماً﴾ ملازماً لكم .

التفسير : ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً﴾ أي تمجَّد وتعظَّم الله الذي جعل في السماء تلك الكواكب العِظام المنيرة[١] ﴿وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾ أي وجعل فيها الشمس المتوهجة في النهار ، والقمر المضيء بالليل ﴿وهو الذي جعل الليلَ والنهار خِلْفةً﴾ أي يخلف كلٌّ منهما الآخر ويتعاقبان ، فيأتي النهار بضيائه ثم يعقبه الليل بظلامه ﴿لمن أراد أن يذكَّر﴾ أي لمن أراد أن يتذكَّر آلاء الله ، ويتفكر في بدائع صنعه ﴿أو أراد شكوراً﴾ أي أراد شكر الله على إفضاله ونعمائه قال الطبري : جعل الله الليل والنهار يخلف كل واحدٍ منهما الآخر ، فمن فاته شيء من الليل أدركه بالنهار ، ومن فاته شيء من النهار أدركه بالليل[٢] ﴿وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هوْناً﴾ الإِضافة للتشريف أي العباد الذين يحبهم الله وهم جديرون بالانتساب إليه هم الذين يمشون على الأرض في لين وسكينة ووقار ، لا يضربون بأقدامهم أشراً ولا بطراً ، ولا يتبخترون في مشيتهم ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ أي وإذا خاطبهم السفهاء بغلظةٍ وجفاءٍ قالوا قولاً يسْلمون من الإِثم قال الحسن : لا يجهلون على أحد ، وإن جُهِل عليهم حَلُموا ﴿والذين يبيتون لربهم سُجَّداً وقياماً﴾ أي يُحْيون الليل بالصلاة ساجدين لله على جباههم ، أو قائمين على أقدامهم كقوله ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾ قال الرازي : لما ذكر سيرتهم في النهار من وجهين : ترك الإِيذاء ، وتحمل الأذى بيَّن هنا سيرتهم في الليالي وهو اشتغالهم بخدمة الخالق[٣] ﴿والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم﴾ أي يدعون ربهم أن ينجيهم من عذاب النار ، ويبتهلون إليه أن يدفع عنهم عذابها ﴿إن عذابها كان غراماً﴾ أي لازماً دائماً

(١) قال مجاهد والحسن : البروج هي الكواكب العظام وقال ابن عباس وعلي : هي منازل الكواكب ، قال ابن كثير : والقول الأول أظهر .
(٢) الطبري ١٩/ ٢٠ . (٣) التفسير الكبير ٢٤/ ١٠٨ .

عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ

غير مفارق ﴿إنهـا ساءتْ مستقـراً ومُقامـاً﴾ أي بئست جهنم منزلاً ومكان إقامة قال القرطبي : المعنى بئس المستقر وبئس المقام ، فهم مع طاعتهم مشفقون خائفون من عذاب الله [١] ، وقال الحسن : خشعوا بالنهار وتعبوا بالليل فرَقاً من عذاب جهنم ﴿والـذيـن إذا أنْفقـوا لم يُسْـرفـوا ولـم يقْتـروا﴾ هذا هو الـوصف الخامس من أوصاف عباد الرحمن والمعنى : ليسوا مبذرين في إنفاقهم في المطاعم والمشارب والملابس ، ولا مقصِّرين ومضيّقين بحيث يصبحون بخلاء ﴿وكـان بيـن ذلـك قَـواماً﴾ أي وكان إنفاقُهم وسطاً معتدلاً بين الإسراف والتقتير كقوله تعالى ﴿ولا تجعـلْ يدك مغلولـةً إلى عنقك ولا تبسطها كـلَّ البسط﴾ الآية وقال مجاهد : « لو أنفقت مثل جبل أبي قُبيس ذهباً في طاعة الله ما كان سرَفاً ، ولو أنفقت صاعاً في معصية الله كان سرَفاً » [٢] ﴿والذيـن لا يدعـون مع اللـهِ إلهـاً آخـر﴾ أي لا يعبدون معه تعالى إلهاً آخر ، بل يوحّدونه مخلصين له الدين ﴿ولا يقتلون النفس التـي حـرَّم اللـهُ إلا بالحـقّ﴾ أي لا يقتلون النفس التي حرَّم الله قتلها إلا بما يحقُّ أن تُقتل به النفوس من كفرٍ بعد إيمان ، أو زنىً بعد إحصان ، أو القتل قِصاصاً ﴿ولا يـزنـون﴾ أي لا يرتكبون جريمة الزنى التي هي من أفحش الجرائم ﴿ومـن يفعـلْ ذلـك يـلقَ أثامـاً﴾ أي ومن يقترف تلك الموبقات العظيمة من الشرك والقتل والزنى يجد في الآخرة النكال والعقوبة ثم فسَّرها بقوله ﴿يُضاعـفْ لـه العـذاب يـوم القيامـة﴾ أي يُضاعف عقابُه ويُغلَّـظ بسبب الشرك وبسبب المعاصي ﴿ويخلُـد فيـه مُهانـاً﴾ أي يُخلـد في ذلك العذاب حقيراً ذليلاً أبد الآبدين ﴿إلاّ مـن تاب وآمـن وعمـل عمـلاً صالحاً﴾ أي إلاّ مـن تاب في الدنيا التوبة النصوح وأحسن عمله ﴿فأولـئـك يبـدل اللـه سيئـاتهـم حسنـات﴾ أي يكرمهم الله في الآخرة فيجعل مكان السيئات حسنات وفي الحديث (إنـي لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة ، وآخر أهل النار خروجاً منها ، رجلٌ يُؤْتـى به يوم القيامة فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها ، فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال : عملتَ يوم كذا وكذا كذا وكذا فيقول نعم لا يستطيع أن ينكر وهو مشفقٌ من كبار ذنوبه فيقال له : فإنَّ لك مكانَ كل سيئةٍ حسنة فيقول يا رب : قد عملتُ أشياء لا أراها ههنا ، قال فضحك رسول الله ﷺ حتى بدتْ نواجذه) [٣] ﴿وكـان اللـه غفـوراً رحيمـاً﴾ أي واسع المغفرة كثير الرحمة ﴿ومـن تابَ وعمـلَ صالحـاً فإنه يتوب إلـى الله متابـاً﴾ أي ومن تاب عن المعاصي وأصلح سيرته فإن الله يتقبل توبته ويكون مرضياً عند الله تعالى ﴿والذيـن لا يشهـدون

---

(١) القرطبي ١٣/ ٧٢ . (٢) الطبري ١٩/ ٢٣ وهذا على قول من فسرَّ الإسراف بأنه الإنفاق في معصية الله ، وإليه ذهب بعض المفسرين وهو منقول عن ابن عباس أيضاً والقول الأول أظهر . (٣) أخرجه مسلم .

﴿وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧)﴾

الـزور﴾ هذا هو الوصف السابع من أوصاف عباد الرحمن أي لا يشهدون الشهادة الباطلة ـ شهادة الزور ـ التي فيها تضييعٌ لحقوق الناس ﴿وإذا مـرُّوا باللغـو مـرّوا كراماً﴾ أي وإذا مـرُّوا بمجالس اللغو ـ وهـي الأماكن التي يكون فيها العمل القبيح كمجـالس اللهـو ، والسينما ، والقمار ، والغنـاء المحـرَّم ـ مـرُّوا معرضين مكرمين أنفسهم عن أمثال تلك المجالس قال الطبري : واللغو كـلُّ كلامٍ أو فعلٍ باطل وكلُّ ما يُستقبح كسبِّ الإنسان ، وذكر النكاح باسمه في بعض الأماكن ، وسماعِ الغناءِ مما هو قبيح ، كلُّ ذلك يدخل في معنى اللغو الذي يجب أن يجتنبه المؤمن[1] ﴿والذيـن إذا ذُكّـروا بآياتِ ربهـم﴾ أي إذا وُعظوا بآيات القرآن وخـوّفوا بها ﴿لـم يخـروا عليهـا صُمّـاً وعُمْيانـاً﴾ أي لم يُعرضوا عنها بل سمعوها بآذانٍ واعية وقلوبٍ وجلة ﴿والذيـن يقولـون ربَّنـا هـبْ لنـا مـن أزواجنـا وذرياتنـا قرة أعيـن﴾ أي اجعـل لنـا في الأزواجِ والبنين مسرةً وفرحاً بالتمسك بطاعتك ، والعمـل بمرضاتـك ﴿واجعلنـا للمتقيـن إمـامـاً﴾ أي اجعلنا قُدوة يقتدي بنا المتقون ، دعاةً إلى الخير هُداة مهتدين قال ابن عباس : أي أئمة يقتدى بنا في الخير[2] ﴿أولـئك يُجْزون الغُرفـة بما صبـروا﴾ أي أولـئك المتصفون بالأوصاف الجليلة السامية ينالون الدرجات العالية ، بصبرهم على أمر الله وطاعتهم له سبحانه ﴿ويُلـقَّـون فيهـا تحيـةً وسلامـاً﴾ أي ويُتلقَّون بالتحية والسلام من الملائكة الكرام كقوله تعالى ﴿والملائكةُ يدخلـون عليهـم من كل باب سلام عليكم﴾ الآية ﴿خالديـن فيهـا﴾ أي مقيمين في ذلك النعيم لا يموتون ولا يُخرجون من الجنَّة لأنها دار الخلود ﴿حسُنتْ مستقراً ومُقامـاً﴾ أي ما أحسنها مقـراً وأطيبها منزلاً لمن اتقى الله ﴿قـل ما يعبـأ بكـم ربـي لولا دعاؤكـم﴾ أي قل لهم يا محمد : لا يكترثُ ولا يحفلُ بكم ربي لولا تضرعكم إليه واستغاثتكم إيّاه في الشدائد ﴿فقد كذبتـم فـسوف يكون لِزامـاً﴾ أي فقد كذبتم أيها الكافرون بالرسول والقرآن فسوف يكون العذاب ملازماً لكم في الآخرة .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الإضافة للتشريف والتكريم ﴿وعباد الرحمن﴾ .

(١) الطبري ١٩/٣٢ . (٢) ابن كثير ٢/٦٤٢ المختصر .

٢ ـ الطباق بين السجود والقيام ﴿سُجَّداً وقياماً﴾ وكذلك بين الإسراف والتقتير ﴿لم يُسرفوا ولم يقتروا﴾ .

٣ ـ المقابلة اللطيفة بين نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار ﴿حَسُنَت مستقراً ومُقاماً﴾ مقابل قوله عن أهل النار ﴿ساءت مستقراً ومقاماً﴾ .

٤ ـ الاستعارة البديعة ﴿لم يخروا عليها صُمّاً وعمياناً﴾ أي لم يتغافلوا عن قوارع النذر حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع ولا يبصر وهذا من أحسن الاستعارات .

٥ ـ الكناية ﴿قرة أعين﴾ كناية عن الفرحة والمسرَّة كما أن ﴿الغُرفة﴾ كناية عن الدرجات العالية في الجنة .

تـنبيـه : قال القرطبي : وصف تعالى « عباد الرحمن » بإحدى عشرة خصلة هي أوصافهم الحميدة من التحلّي ، والتخلّي وهي « التواضع ، والحلم ، والتهجد ، والخوف ، وترك الإسراف والإقتار ، والبعد عن الشرك ، والنزاهة عن الزنى والقتل ، والتوبة ، وتجنب الكذب ، وقبول المواعظ ، والابتهال إلى الله » ثم بين جزاءهم الكريم وهو نيل الغرفة أي الدرجة الرفيعة وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الفرقان »

* * *



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة الشعراء مكية وقد عالجت أصول الدين من « التوحيد ، والرسالة ، والبعث » شأنها شأن سائر السور المكية ، التي تهتم بجانب العقيدة وأصول الإِيمان .

* ابتدأت السورة الكريمة بموضوع القرآن العظيم الذي أنزله الله هدايةً للخلق ، وبلْسماً شافياً لأمراض الإِنسانية ، وذكرت موقف المشركين منه ، فقد كذبوا به مع وضوح آياته ، وسطوع براهينه ، وطلبوا معجزة أُخرى غير القرآن الكريم عناداً واستكباراً .

* ثم تحدثت السورة عن طائفةٍ من الرسل الكرام ، الذين بعثهم الله لهداية البشرية ، فبدأت بقصة الكليم « موسى » مع فرعون الطاغية الجبار ، وما جرى من المحاورة والمداورة بينهما في شأن الإِله جلَّ وعلا ، وما أيَّد الله به موسى من الحجة الدامغة التي تقصم ظهر الباطل ، وقد ذكرت في القصة حلقات جديدة ، انتهت ببيان العظة والعبرة من الفارق الهائل ، بين الإِيمان والطغيان .

* ثم تناولت قصة الخليل إبراهيم عليه السلام ، وموقفه من قومه وأبيه في عبادتهم للأوثان والأصنام ، وقد أظهر لهم بقوة حجته ، ونصاعة بيانه ، بطلان ما هم عليه من عبادة ما لا يسمع ولا ينفع ، وأقام لهم الأدلة القاطعة على وحدانية رب العالمين ، الذي بيده النفع والضر ، والإِحياء والإِماتة .

* ثم تحدثت السورة عن المتقين والغاوين ، والسعداء والأشقياء ، ومصير كلٍ من الفريقين يوم الدين .

* وبعد أن تابعت السورة في ذكر قصص الأنبياء « نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب » عليهم الصلاة والسلام ، وبيَّنت سنة الله في معاملة المكذبين لرسله ، عادت للتنويه بشأن الكتاب العزيز ، تفخيماً لشأنه ، وبياناً لمصدره ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسانٍ عربي مبين﴾ .

* ثم ختمت السورة بالرد على افتراء المشركين ، في زعمهم أن القرآن من تنزل الشياطين ، ليتناسق البدء مع الختام في أروع تناسق والتئام ! .

التسمية : سميت « سورة الشعراء » لأن الله تعالى ذكر فيها أخبار الشعراء ، وذلك للرد على المشركين في زعمهم أن محمداً كان شاعراً ، وأن ما جاء به من قبيل الشعر ، فردَّ الله عليهم ذلك الكذب والبهتان بقوله ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون* ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون* وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ ؟ وبذلك ظهر الحق وبان .

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ

اللغة : ﴿باخع﴾ مهلك وقاتل وأصل البخع : أن يبلغ بالمذبوح البخاع وهو الخرم النافذ في ثقب الفقرات وهو أقصى حدِّ الذبح ﴿فعلتك﴾ الفَعْلة بفتح الفاء المرة من الفعل ﴿تلقف﴾ تبتلع ﴿يأفكون﴾ من الإفك وهو الكذب ﴿لا ضير﴾ لا ضرر ، والضرُّ والضير بمعنى واحد قال الجوهري : ضاره يضوره ضَيْراً أي ضرَّه قال الشاعر :

فإنك لا يضورك بعد حولٍ أظبيٌ كان أمك أم حمار[1]

﴿منقلبون﴾ راجعون ﴿من خلاف﴾ أي يخالف بين الأعضاء فيقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى .

التفسير : ﴿طسٓمٓ﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم وأنه مركب من أمثال هذه الحروف الهجائية[2] ﴿تلك آياتُ الكتاب المبين﴾ أي هذه آيات القرآن الواضح الجلي ، الظاهر إعجازه لمن تأمله ﴿لعلك باخعٌ نفسَك ألاّ يكونوا مؤمنين﴾ أي لعلك يا محمد مهلكٌ نفسك لعدم إيمان هؤلاء الكفار ، فيه تسلية للرسول عليه السلام حتى لا يحزن ولا يتأثر على عدم إيمانهم ﴿إنْ نشأْ ننزِّل عليهم من السماء آية﴾ أي لو شئنا لأنزلنا آية من السماء تضطرهم إلى الإيمان قهراً ﴿فظلَّتْ أعناقهم لها خاضعين﴾ أي فتظل أعناقهم منقادةً خاضعة للإيمان قسراً وقهراً ، ولكنْ لا نفعل لأنا نريد أن يكون الإيمان اختياراً لا اضطراراً قال الصاوي : المعنى لا تحزن على عدم إيمانهم فلو شئنا إيمانهم لأنزلنا معجزة تأخذ بقلوبهم فيؤمنون قهراً عليهم ، ولكنْ سبق في علمنا شقاؤهم فأرحْ نفسك من التعب[3] ﴿وما يأتيهم من ذكرٍ من الرحمن﴾ أي ما يأتي هؤلاء الكفار شيء من القرآن أو الوحي منزلٍ من عند الرحمن ﴿مُحْدَث﴾ أي جديد في النزول[4] ، ينزل وقتاً بعد وقت ﴿إلاّ كانوا عنه معرضين﴾ أي إلاّ كذبوا به

---

(١) البيت لخداش بن زهير ضرب مثلاً لمن ينتسب إليه الإنسان من شريف أو وضيع . (٢) انظر ما كتبناه في أول سورة البقرة حول الحروف المقطعة ففيه الغنية والكفاية .

(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ١٦٧ . (٤) معنى « محْدث » أي محْدث في نزوله وإلا فكلام الله قديم لا يوصف بالحدوث كما لا يوصف بأنه مخلوق .

مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُاْ مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾

واستهزءوا ولم يتأملوا بما فيه من المواعظ والعِبَر ﴿فقد كذبوا فسيأتيهم أنباءُ ما كانوا به يستهزئون﴾ أي فقد بلغوا النهاية في الإِعراض والتكذيب فسوف يأتيهم عاقبة ما كذبوا واستهزءوا به ، ثم نبّه تعالى على عظمة سلطانه ، وجلالة قدره في مخلوقاته ومصنوعاته ، الدالة على وحدانيته وكمال قدرته فقال ﴿أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوجٍ كريم﴾ أي أولم ينظروا إلى عجائب الأرض كم أخرجنا فيها من كل صنفٍ حسنٍ محمود ، كثير الخيرِ والمنفعة ؟ والاستفهام للتوبيخ على تركهم الاعتبار ﴿إنَّ في ذلك لآية﴾ أي إنَّ في ذلك الإِنبات لآيةً باهرة تدل على وحدانية الله وقدرته ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أي وما كان أكثرهم يؤمن في علم الله تعالى ، فمع ظهور الدلائل الساطعة يستمر أكثرهم على كفرهم ﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ أي هو سبحانه الغالب القاهر ، القادر على الانتقام ممن عصاه ، الرحيم بخلقه حيث أمهلهم ولم يعجّل لهم العقوبة مع قدرته عليهم قال أبو العالية : العزيز في نقمته ممن خالف أمره وعبَد غيره ، الرحيم بمن تاب إليه وأناب وقال الفخر الرازي : إنما قدم ذكر ﴿العزيز﴾ على ﴿الرحيم﴾ لأنه ربما قيل : إنه رحمهم لعجزه عن عقوبتهم ، فأزال هذا الوهم بذكر العزيز وهو الغالب القاهر ، ومع ذلك فإنه رحيم بعباده ، فإن الرحمة إذا كانت مع القدرة الكاملة كانت أعظم وقعاً[1] ﴿وإذ نادى ربك موسى﴾ أي واذكر يا محمد لأولئك المعرضين المكذبين من قومك حين نادى ربك نبيَّه موسى من جانب الطور الأيمن آمراً له أن يذهب إلى فرعون وملئه ﴿أنْ ائتِ القوم الظالمين﴾ أي بأن ائت هؤلاء الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي ، واستعباد الضعفاء من بني إسرائيل ﴿قوم فرعون﴾ أي هم قوم فرعون ، وهو عطف بيان كأن القوم الظالمين وقوم فرعون شيء واحد ﴿ألاَ يتقون﴾ ؟ أي ألا يخافون عقاب الله ؟ وفيه تعجيب من غلوهم في الظلم وإفراطهم في العدوان ﴿قال ربّ إني أخاف أن يكذبون﴾ أي قال موسى يا ربّ إني أخاف أن يكذبوني في أمر الرسالة ﴿ويضيقُ صدري﴾ أي ويضيق صدري من تكذيبهم أياي ﴿ولا ينطلق لساني﴾ أي ولا ينطلق لساني بأداء الرسالة على الوجه الكامل ﴿فأرسل إلى هارون﴾ أي فأرسلْ إلى هارون ليعينني على تبليغ رسالتك قال المفسرون : التمس موسى العذر بطلب المعين بثلاثة أعذار كلٌّ واحدٍ منها مرتب على ما قبله وهي : خوف التكذيب ، وضيق الصدر ، وعدم انطلاق اللسان ، فالتكذيبُ سببٌ لضيق القلب ، وضيقُ القلب سببٌ لتعسر الكلام ، وبالأخص على من كان في لسانه حُبْسة كما في قوله

(١) التفسير الكبير ٢٤/ ١٢٠ .

وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ

﴿واحللْ عُقدةً من لساني يفقهوا قولي﴾ ثم زاد اعتذاراً آخر بقوله ﴿ولهم عليَّ ذنبٌ فأخاف أنْ يقتلون﴾ أي ولفرعون وقومه عليَّ دعوى ذنب وهو أني قتلت منهم قبطياً فأخاف أن يقتلوني به ﴿قال كلاَّ﴾ أي قال الله تعالى له : كلاّ لن يقتلوك قال القرطبي : وهو ردعٌ وزجر عن هذا الظن ، وأمرٌ بالثقة بالله تعالى أي ثقْ بالله وانزجر عن خوفك منهم فإنهم لا يقدرون على قتلك[1] ﴿فاذهبا بآياتنا﴾ أي اذهب أنت وهارون بالبراهين والمعجزات الباهرة ﴿إنَّا معكم مستمعون﴾ أي فأنا معكما بالعون والنصرة أسمع ما تقولان وما يجيبكما به ، وصيغةُ الجمع « معكم » أريد به التثنية فكأنهما لشرفهما عند الله عاملهما في الخطاب معاملة الجمع تشريفاً لهما وتعظيماً[2] ﴿فأْتيا فرعونَ فقولا إنَّا رسولُ رب العالمين﴾ أي فائتيا فرعون الطاغية وقولا له : إنا مرسلان من عند رب العالمين إليك لندعوك إلى الهدى ﴿أنْ أرسلْ معنا بني إسرائيل﴾ أي أطلقْ بني إسرائيل من إسارك واستعبادك وخلِّ سبيلهم حتى يذهبوا معنا إلى الشام ﴿قال ألم نربك فينا وليداً﴾ في الكلام حذف يدل عليه المعنى تقديره : فأتياه فبلغاه الرسالة فقال فرعون لموسى عندئذٍ : ألم نربك في منازلنا صبياً صغيراً ؟ قصد فرعون بهذا الكلام المنَّ على موسى والاحتقار له كأنه يقول : ألست أنت الذي ربيناك صغيراً وأحسنّا إليك فمتى كان هذا الأمر الذي تدّعيه ؟ ﴿ولبثت فينا من عمرك سنين﴾ أي ومكثت بين ظهرانينا سنين عديدة نحسن إليك ونرعاك ؟ قال مقاتل : ثلاثين سنة ﴿وفعلتَ فعلتَكَ التي فعلتَ﴾ أي فجازيتنا على أن ربيناك أن كفرت نعمتنا وقتلتَ منا نفساً ؟ والتعبيرُ بالفعلة لتهويل الواقعة وتعظيم الأمر ، ومرادُه قتل القبطي ﴿وأنت من الكافرين﴾ أي وأنت من الجاحدين لإنعامنا الكافرين بإحساننا قال ابن عباس : من الكافرين لنعمتي إذ لم يكن فرعون يعلم ما الكفر[2] ﴿قال فعلتُها إذاً وأنا من الضالين﴾ أي قال موسى : فعلتُ تلك الفعلة وأنا من المخطئين لأنني لم أتعمد قتله ولكنْ أردت تأديبه ، ولم يقصد عليه السلام الضلال عن الهدى لأنه معصوم منذ الصغر وقال ابن عباس : ﴿وأنا من الضالين﴾ أي الجاهلين ﴿ففررتُ منكم لمَّا خفتكم﴾ أي فهربتُ إلى أرض مدين حين خفت على نفسي أن تقتلوني وتؤاخذوني بما لا أستحقه ﴿فوهب لي ربي حُكماً﴾ أي فأعطاني الله النبوة والحكمة ﴿وجعلني من المرسلين﴾ أي واختارني رسولاً إليك ، فإن آمنتَ سلمتَ ، وإن جحدتَ هلكتَ ﴿وتلك نعمةٌ تَمُنُّها عليَّ أنْ عبَّدتَ بني

(١) القرطبي ١٣/٩٢ . (٢) هذا ما خرَّج به سيبويه رحمه الله الآية نقلاً عن البحر المحيط ٧/٨ .

(٢) وقال الحسن : يريد إنك من الكافرين بألوهيتي ورجح الطبري قول ابن عباس وهو الأظهر .

بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾

إسرائيل﴾ أي كيف تمنُّ عليَّ بإحسانك إليَّ وقد استعبدتَ قومي[1] ؟ فما تعدُّه نعمة ما هو إلاّ نقمة قال ابن كثير : المعنى ما أحسنتَ إلـيَّ وربيتني مقابل ما أسأتَ إلى بنـي إسرائيل فجعلتهم عبيداً وخدماً ، أفيفي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم[2] ؟ وقـال الطبـري : أي أتمـنُّ علـيَّ أن اتخـذت بني إسرائيل عبيداً[3] ؟ **﴿قـال فرعـونُ وما ربُّ العالميـن﴾** أي قال فرعون متعالياً متكبراً : من هو هذا الذي تزعم أنه ربُّ العالمين ؟ هل هناك إلـهٌ غيري ؟ لأنه كان يجحد الصانع ويقول لقومه **﴿مـا علمتُ لكـم من إلـهٍ غيـري﴾** **﴿قـال ربُّ السمـواتِ والأرض ومـا بينهـما﴾** أي قال موسى : هو خالق السمواتِ والأرض ، والمتصرف فيهما بالإحياء والإعدام ، وهو الذي خلق الأشياء كلها من بحار وقفار ، وجبالٍ وأشجار ، ونباتٍ وثمار ، وغير ذلك من المخلوقات البديعة **﴿إن كنتـم موقنيـن﴾** أي إن كانت لكم قلوب موقنة ، وأبصارٌ نافذة ، فهذا أمر ظاهر جلي **﴿قـال لمـن حولـه ألاَ تستمعـو ن﴾** أي قال فرعون لمن حوله من أشراف قومه على سبيل التهكم والاستهزاء : ألا تسمعون جوابه وتعجبون من أمره ؟ أسأله عن حقيقة الله فيجيبني عن صفاته ، فأجاب موسى وزاد في البيان والحجة **﴿قـال ربكـم وربُّ آبائكـم الأوليـن﴾** أي هو خالقكم وخالق آبائكم الذين كانوا قبلكم ، فوجودكم دليل على وجود القادر الحكيم ، عدلَ عن التعريف العام إلى التعريف الخاص لأنَّ دليل الأنفس أقرب من دليل الآفاق ، وأوضح عند التأمل **﴿وفـي أنفسكـم أفـلا تبصـرو ن﴾** فعند ذلك غضب فرعون ونسب موسى إلى الجنون **﴿قـال إن رسولكـم الـذي أُرسـل إليكم لمجنـو ن﴾** سمَّاه رسولاً استهزاءً وأضافه إلى المخاطبين استنكافاً من نسبته له أي إن هذا الرسول لمجنون لا عقل له ، أسأله عن شيء فيجيبني عن شيء ، فلم يحفل موسى بسخرية فرعون وعاد إلى تأكيد الحجة بتعريفٍ ثالث أوضح من الثاني **﴿قـال ربُّ المشـرق والمغـرب وما بينهمـا إن كنتـم تعقلـو ن﴾** أي هو تعالى الذي يطلع الشمس من المشرق ويجعلها تغرب من المغرب ، وهذا مشاهد كل يوم يبصره العاقل والجاهل ولهذا قال **﴿إن كنتـم تعقلـون﴾** أي إن كان لكم عقول أدركتم أن هذا لا يقدر عليه إلا ربُّ العالمين ، وهذا من أبلغ الحجج التي تقصم ظهر الباطل كقول إبراهيم في مناظرة النمروذ **﴿قال إبراهيم فإنَّ الله يأتي بالشمس من المشرق فائتِ بها من المغرب فبهت الذي كفر﴾** ولما انقطع فرعون وأُبلس في الحجة رجع إلى الاستعلاء متوعداً بالبطش والعنف **﴿قـال لئـن اتخذت إلهاً غيـري لأجعلنـك مـن المسجونيـن﴾** أي لئن اتخذت رباً غيري لألقينـك في غياهب السجن قال المفسرون : وكان

(١) هذا معنى ما قاله مقاتل . (٢) ابن كثير المختصر ٢/ ٦٤٥ . (٣) الطبري ١٩/ ٤٣ .

قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾

سجنه شديداً يحبس الشخص في مكان تحت الأرض وحده لا يبصر ولا يسمع فيه أحداً حتى يموت ولهذا لم يقل « لأسجننَّك » وإنما قال لأجعلنك من المسجونين لأن سجنه كان أشدَّ من القتل قال في **التسهيل** : لما أظهر فرعونُ الجهل بالله فقال ﴿وما ربُّ العالمين﴾ أجابه موسى بقوله ﴿ربُّ السموات والأرض﴾ فقال ﴿ألاَ تستمعون﴾ ؟ تعجباً من جوابه ، فزاد موسى في إقامة الحجة بقوله ﴿ربكم وربُّ آبائكم الأولين﴾ لأن وجود الإنسان وآبائه أظهرُ الأدلة عند العقلاء ، وأعظم البراهين ، فإن أنفسهم أقرب الأشياء إليهم فيستدلون بها على وجود خالقهم ، فلما ظهرت هذه الحجة حاد فرعون عنها ونسب موسى إلى الجنون مغالطةً منه ، وأيّده بالازدراء والتهكم في قوله ﴿إن رسولكم الذي أُرسل إليكم لمجنون﴾ فزاد موسى في إقامة الحجة بقوله ﴿ربُّ المشرقِ والمغرب﴾ لأن طلوع الشمس وغروبها آية ظاهرة لا يمكن أحداً جحدها ولا أن يدعيها لغير الله ، فلما انقطع فرعون بالحجة رجع إلى الاستعلاء والتغلب فهدَّده بالسجن ، فأقام موسى عليه الحجة بالمعجزة وذكرها له بتلطف طمعاً في إيمانه[1] **﴿قال أو لو جئتك بشيء مبين﴾** أي أتسجنني ولو جئتك بأمرٍ ظاهرٍ ، وبرهان قاطع تعرف به صدقي ؟ **﴿قال فائتِ به إن كنت من الصادقين﴾** أي فائت بما تقول إن كنت صادقاً في دعواك **﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾** أي رمى موسى عصاه فإذا هي حية عظيمة في غاية الجلاء والوضوح ، ذات قوائم وفم كبير وشكل هائل مزعج **﴿ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾** أي وأخرج يده من جيبه فإذا هي تتلألأ كالشمس الساطعة ، لها شعاع يكادُ يعشي الأبصار ويسدُّ الأفق **﴿قال للملأ حوله إنَّ هذا لساحرٌ مبين﴾** أي قال فرعون لأشراف قومه الذين كانوا حوله : إن هذا لساحرٌ عظيم بارعٌ في فنِّ السحر . أراد أن يُعمِّي على قومه تلك المعجزة برميه بالسحر خشية أن يتأثروا بما رأوا **﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره﴾** أي يريد أن يستولي على بلادكم بسحره العظيم **﴿فماذا تأمرون﴾** أي فبأي شيء تأمروني وبما تشيرون عليَّ أن أصنع به ؟ لما رأى فرعون تلك الآيات الباهرة خاف على قومه أن يتبعوه ، فتنزَّل إلى مشاورتهم بعد أن كان مستبداً بالرأي والتدبير **﴿قالوا أرجهْ وأخاه﴾** أي أخِّرْ أمرهما **﴿وابعثْ في المدائن حاشرين﴾** أي وأرسل في أطراف مملكتك من يجمع لك السحرة من كل مكان **﴿يأتوك بكل سحّار عليم﴾** أي يجيئوك بكل ساحر ماهرٍ ، عليم بضروب السحر قال **ابن كثير** : وكان هذا من تسخير الله تعالى ليجتمع الناس في صعيد واحد ، وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة[2]

(١) ابن كثير ٢/ ٦٤٦ المختصر . (١) الطبري ١٩/ ٤٦ . (٢) ابن كثير ٢/ ٦٤٧ المختصر .

فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ

﴿**فجمع السحرة لميقات يوم معلوم**﴾ أي فاجتمع السحرة للموعد المحدَّد وهو وقت الضحى من يوم الزينة ، وهو الوقت الذي حدَّده موسى ، ليظهر الحق ويزهق الباطل على رءوس الأشهاد كما قال تعالى ﴿**قال موعدكم يوم الزينة وأن يُحْشر الناس ضحى**﴾ ﴿**وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلّنا نتّبعُ السحرة إن كانوا هم الغالبين**﴾ أي قيل للناس : بادروا إلى الإجتماع لكي نتبع السحرة في دينهم إن غلبوا موسى ﴿**فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئنَّ لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين**﴾ أي إن غلبنا بسحرنا موسى فهل تكرمنا بالمال والأجر الجزيل ؟ ﴿**قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين**﴾ أي قال لهم فرعون : نعم أعطيكم ما تريدون وأجعلكم من المقربين عندي ومن خاصة جلسائي ﴿**قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون**﴾ في الكلام إيجاز دلَّ عليه السياق تقديره : فقالوا لموسى عند ذلك إمَّا أن تُلقي وإما أن نكون نحن الملقين كما ذكر في الأعراف فأجابهم موسى بقوله ﴿**ألقوا ما أنتم ملقون**﴾ أي ابدءوا بإلقاء ما تريدون فأنا لا أخشاكم ، قاله ثقةً بنصرة الله له وتوسلاً لإظهار الحقّ ﴿**فألقوا حبالهم وعصيَّهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون**﴾ أي فألقوا ما بأيديهم من الحبال والعصي وقالوا عند الإلقاء نقسم بعظمة فرعون وسلطانه إنّا نحن الغالبون لموسى ﴿**فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون**﴾ أي فألقى موسى العصى فانقلبت حية عظيمة فإذا هي تبتلع وتزدرد الحبال والعصيّ التي اختلقوها باسم السحر حيث خيلوها للناس حيات تسعى ، وسمّى تلك الأشياء إفكاً مبالغةً ﴿**فأُلقي السحرةُ ساجدين**﴾ أي سجدوا للهِ رب العالمين ، بعدما شاهدوا البرهان الساطع ، والمعجزة الباهرة ﴿**قالوا آمنا بربّ العالمين * ربِّ موسى وهارون**﴾ أي وقالوا عند سجودهم آمنا بالله العزيز الكبير الذي يدعونا إليه موسى وهارون **قال الطبري** : لما تبيّن للسحرة أن الذي جاءهم به موسى حقٌّ لا سحر ، وأنه مما لا يقدر عليه غيرُ الله الذي فطر السموات والأرض ، خرّوا لوجوههم سجداً لله مذعنين له بالطاعة قائلين : آمنا برب العالمين الذي دعانا موسى لعبادته ، دون فرعون وملئه[1] ﴿**قال آمنتم له قبل أن آذن لكم**﴾ أي قال فرعون للسحرة : آمنتم لموسى قبل أن تستأذنوني ؟ ﴿**إنه لكبيركم الذي علّمكم السحر**﴾ أي إنه

(١) الطبري ١٩/ ٤٦ .

ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥١﴾

رئيسكم الذي تعلمتم منه السحر وتواطأتم معه ليظهر أمره ، أراد فرعون بهذا الكلام التلبيس على قومه لئلا يعتقدوا أن السحرة آمنوا عن بصيرة وظهور حق قال ابن كثير : وهذه مكابرة يعلم كل أحدٍ بطلانها ، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم ، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر ؟ هذا لا يقوله عاقل[1] ، ثم توعَّدهم بقوله ﴿فلسوف تعلمون﴾ أي سوف تعلمون عند عقابي وبال ما صنعتم من الإِيمان به ﴿لأُقطِّعنَّ أيديكم وأرجلكُم من خلاف﴾ أي لأقطعنَّ يد كل واحد منكم اليمنى ورجله اليسرى ﴿ولأُصلِّبنَّكم أجمعين﴾ أي ولأصلبنَّ كل واحد منكم على جذع شجرة وأتركه حتى الموت ﴿قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون﴾ أي لا ضرر علينا في وقوع ما أوعدتنا به ، ولا نبالي به لأننا نرجع إلى ربنا مؤملين غفرانه ﴿إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا﴾ أي إنا نرجو أن يغفر لنا الله ذنوبنا التي سلفت منا قبل إيماننا به فلا يعاقبنا بها ﴿أنْ كنا أول المؤمنين﴾ أي بسبب أن بادرنا قومنا إلى الإِيمان وكنا أول من آمن بموسى .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الكناية اللطيفة ﴿فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ كنّى به عن الذل والهوان الذي يلحقهم بعد العز والكبرياء .

٢ ـ الوعيد والتهديد ﴿فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾ .

٣ ـ التوبيخ ﴿أولم يروا إلى الأرض﴾ الاستفهام للتوبيخ على تركهم النظر بعين الاعتبار .

٤ ـ المقابلة اللطيفة بين ﴿ويضيق صدري﴾ ﴿ولا ينطلق لساني﴾ .

٥ ـ جناس الاشتقاق ﴿رسول . . وأرسل﴾ .

٦ ـ الجناس الناقص ﴿وفعلتَ فعْلتك﴾ فقد اتفقت الحروف بين ﴿فعلتَ وبين فعْلة﴾ واختلف الشكل فأصبح جناساً غير تام .

٧ ـ الإِيجاز بالحذف ﴿قال ألم نربك فينا وليداً﴾ دلَّ على هذا الحذف السياق تقديره فأتيا فرعون فقالا له ذلك فقال لموسى ﴿ألم نربّك﴾ وكذلك هناك إيجاز في ﴿فأرسل إلى هارون﴾ قال الزمخشري : أصلُه أرسلْ جبريل إلى هارون واجعله نبياً وآزرني به واشدد به عضدي فأحسن في الاختصار غاية الإِحسان[1] .

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٣٨ .

٨ ـ صيغة التعجيب ﴿ألا تستمعون﴾ .

٩ ـ التأكيد بإنَّ واللام لأن السامع متشكك ومتردد ﴿إنَّ رسولكم الذي أُرسل إليكم لمجنون﴾ ومثله قول السحرة في بدء المناظرة ﴿إنّا لنحن الغالبون﴾ وهذا من خصائص علم البيان .

١٠ ـ الطباق بين ﴿المشرق . . والمغرب﴾ ثم توافق الفواصل وهو من السجع البديع .

لطيفة : إن قيل كيف قال موسى في بدء مناظرته لفرعون وقومه ﴿إن كنتم موقنين﴾ ثم قال آخراً ﴿إن كنتم تعقلون﴾ فالجواب أنه تلطَّف ولاين أولاً طمعاً في إيمانهم ، فلما رأى منهم العناد والمغالطة وبخهم بقوله ﴿إن كنتم تعقلون﴾ وجعل ذلك في مقابلة قول فرعون ﴿إن رسولكم لمجنون﴾ فسلك موسى طريق الحكمة .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي . . إلى . . وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ من آية (٥٢) إلى نهاية آية (١٠٤) .

المناسبة : ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه السورة سبع قصص : أولها قصة موسى وهارون ، وثانيها قصة إبراهيم ، وثالثها قصة نوح ، ورابعها قصة هود ، وخامسها قصة صالح وسادسها قصة لوط وسابعها قصة شعيب ، وكل تلك القصص لتسلية الرسول ﷺ عما يلقاه من المشركين ، ولا تزال الآيات تتحدث عن قصة موسى عليه السلام .

اللغة : ﴿أسر﴾ من الإسراء وهو السير ليلاً فلا يقال لمن سار نهاراً أسرى وإنما هو خاصٌ بالليل ﴿شرذمة﴾ الشرذمة : الجمع القليل الحقير والجمع شراذم قال الجوهري : الشرذمة الطائفةُ من الناس ، والقطعةُ من الشيء ، وثوبٌ شراذم أي قطع[1] ﴿أزلفنا﴾ قرَّبنا ومنه ﴿وأُزلفت الجنةُ للمتقين﴾ أي قُرِّبت قال الشاعر :

وكلٌّ يوم مضى أو ليلةٍ سلفَتْ ... فيها النفوسُ إلى الآجال تزْدلفُ[2]

﴿فكُبْكِبوا﴾ كَبْكَبَ الشيء : قلبَ بعضه على بعض قال ابن عطية : وهو مضاعف من كبٍّ وهذا قول الجمهور مثل صرّ ، وصَرْصَر ، وقال الزمخشري : الكبكبة : تكرير الكبِّ جُعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى كأنه إذا أُلقي في جهنم ينكبُّ مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها[3] ﴿حميم﴾ الحميم : الصديق الخالص الذي يهمه ما أهمَّك ﴿كرَّة﴾ الكرة : العودة والرجوع مرة أُخرى .

* ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾

التفسير : ﴿وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي﴾ أي أمرنا موسى بطريق الوحي أن يسير ليلاً إلى جهة البحر ببني إسرائيل قال القرطبي : أمر الله موسى أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً ، وسمّاهم عباده لأنهم آمنوا بموسى[4] ﴿إنكم متَّبعون﴾ أي يتبعكم فرعون وقومه ليردُّوكم إلى أرض مصر ويقتلوكم

(١) القرطبي ١٣/١٠١ . (٢) التفسير الكبير ٢٤/١٤٠ . (٣) الكشاف ٣/٢٥٣ . (٤) القرطبي ١٣/١٠٠ .

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿**فأرسل فرعونُ في المدائن حاشرين**﴾ أي أرسل فرعون في طلبهم حين أخبر بمسيرهم وأمر أن يُجمع له الجيش من كل المُدُن قائلاً لهم ﴿**إنَّ هؤلاء لشرذمةٌ قليلون**﴾ أي طائفة قليلة قال **الطبري** : كان بنو إسرائيل ستمائة وسبعين ألفاً[١] ولكنه قلَّلهم بالنسبة إلى كثرة جيشه ﴿**وإنهم لنا لغائظون**﴾ أي وإنهم يفعلون أفعالاً تغيظنا وتضيق صدورنا ﴿**وإنا لجميعٌ حاذرون**﴾ أي ونحن قوم متيقظون منتبهون ، من عادتنا التيقظ والحذر ، واستعمالُ الحزم في الأمور قال **الزمخشري** : وهذه معاذير اعتذر بها إلى قومه لئلا يُظنَّ به ما يكسر من قهره وسلطانه[٢] ، قال تعالى ﴿**فأخرجناهم من جناتٍ وعيون**﴾ أي أخرجنا فرعون وقومه من بساتين كانت لهم وأنهار جارية ﴿**وكنوز ومقامٍ كريم**﴾ أي وأخرجناهم من الأموال التي كنزوها من الذهب والفضة ، ومن المنازل الحسنة والمجالس البهية ﴿**كذلك وأورثناها بني إسرائيل**﴾ أي مثل ذلك الإخراج الذي وضعناه فعلنا بهم ، وأورثنا بني إسرائيل ديارهم وأموالهم بعد إغراق فرعون وقومه ﴿**فأتبعوهم مشرقين**﴾ أي فلحقوهم وقت شروق الشمس ﴿**فلما تراءى الجمعان**﴾ أي فلما رأى كلٌّ منهما الآخر ، والمراد جمعُ موسى وجمع فرعون ﴿**قال أصحابُ موسى إنّا لُمدركون**﴾ أي مُلحقون يلحقنا فرعون وجنوده فيقتلوننا ، قالوا ذلك حين رأوا فرعون الجبار وجنوده وراءهم ، والبحر أمامهم ، وساءت ظنُونهم ﴿**قال كلاّ**﴾ أي قال موسى كلاً لن يدركوكم فارتدعوا عن مثل هذا الكلام وانزجروا ﴿**إنَّ معي ربي سيهدين**﴾ إنَّ ربي معي بالحفظ والنصرة ، وسيهديني إلى طريق النجاة والخلاص قال **الرازي** : قوّى نفوسهم بأمرين : أحدهما أن ربه معه وهذا دلالة النصرة والتكفل بالمعونة والثاني قوله ﴿**سيهدين**﴾ أي إلى طريق النجاة والخلاص ، وإذا دلَّه على طريق نجاته وهلاك أعدائه فقد بلغ النهاية في النصرة[٣] ﴿**فأوحينا إلى موسى أن اضربْ بعصاك البحر**﴾ أي أمرنا موسى بطريق الوحي أن يضرب البحر بعصاه ﴿**فانفلق**﴾ أي فضربه فانشق وانفلق ﴿**فكان كل فِرقٍ كالطود العظيم**﴾ أي فكان كل جزء منه كالجبل الشامخ الثابت قال **ابن عباس** : صار فيه اثنا عشر طريقاً لكل سبطٍ منهم طريق[٤] ﴿**وأزلفنا ثَمَّ الآخرين**﴾ أي وقربنا هناك فرعون وجماعته حتى دخلوا البحر على إثر دخول بني إسرائيل ﴿**وأنجينا موسى ومن معه أجمعين**﴾ أي أنجينا موسى والمؤمنين معه جميعاً ﴿ثم

(١) الطبري ١٩/ ٤٦ . (٢) الكشاف ٣/ ٢٤٨ . (٣) التفسير الكبير ٢٤/ ١٣٨ . (٤) ابن كثير المختصر ٢/ ٦٤٩ .

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨) وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨)﴾

﴿أغرقنا الآخرين﴾ أي أغرقنا فرعون وقومه قال المفسرون : لما انفلق البحر جعله الله يبَساً لموسى وقومه ، وصار فيه اثنا عشر طريقاً ووقف الماء بينها كالطود العظيم ، فلما خرج أصحاب موسى وتكامل دخول أصحاب فرعون أمر الله البحر أن يطبق عليهم فغرقوا فيه ، فقال بعض أصحاب موسى : ما غرق فرعون ! فنبذ على ساحل البحر حتى نظروا إليه ﴿إنَّ في ذلك لآية﴾ أي إنَّ في إغراق فرعون وقومه لعبرة عظيمة على إنجاء الله لأوليائه ، وإهلاكه لأعدائه ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أي ومع مشاهدة هذه الآية العظمى لم يؤمن أكثر البشر ، وفيه تسلية للنبي ﷺ ووعيدٌ لمن عصاه ﴿وإنَّ ربك لهو العزيز الرحيم﴾ أي المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه ﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم﴾ هذه بداية قصة إبراهيم أي اقصص عليهم يا محمد خبر إبراهيم الهام وشأنه العظيم[1] ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون﴾ أي حين قال لأبيه وعشيرته أيَّ شيءٍ تعبدون ؟ سألهم مع علمه بأنهم يعبدون الأصنام ليبيّن لهم سفاهة عقولهم في عبادة ما لا ينفع ، ويقيم عليهم الحجة ﴿قالوا نعبد أصناماً فنظلُّ لها عاكفين﴾ أي نعبد أصناماً فنبقى مقيمين على عبادتها لا نتركها ، قالوا ذلك على سبيل الابتهاج والافتخار ، وكان يكفيهم أن يقولوا : نعبد الأصنام ولكنهم زادوا في الوصف كالمفتخر بما يصنع ﴿قال هل يسمعونكم إذ تدعون﴾ أي قال لهم إبراهيم على سبيل التبكيت والتوبيخ : هل يسمعون دعاءكم حين تلجأون إليهم بالدعاء ؟ ﴿أو ينفعونكم أو يضرون﴾ أي وهل يبذلون لكم منفعة ، أو يدفعون عنكم مضرة ؟ ﴿قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ أي وجدنا آباءنا يعبدونهم ففعلنا مثلهم قال أبو السعود : اعترفوا بأنها لا تنفع ولا تضر بالمرَّة ، واضطروا إلى إظهار الحقيقة وهي أنه لا سند لهم سوى التقليد[2] ، وهذا من علامات انقطاع الحجة ﴿قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون﴾ أي قال إبراهيم : أفرأيتم هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله أنتم وآباؤكم الأولون ؟ ﴿فإنهم عدوٌّ لي إلاّ ربَّ العالمين﴾ أي فإن هذه الأصنام أعداء لي لا أعبدهم ، ولكن أعبد الله ربَّ العالمين فهو وليي في الدنيا والآخرة ، أسند العداوة لنفسه تعريضاً بهم وهو أبلغ في النصيحة من التصريح ﴿الذي خلقني فهو يهدين﴾ أي اللهُ

(١) قال الفخر الرازي : ذكر تعالى في أول السورة حزن النبي ﷺ بسبب كفر قومه ، ثم ذكر قصة موسى ليعرف محمد أن مثل تلك المحنة كانت حاصلة لموسى ، ثم ذكر عقبها قصة إبراهيم ليعرف محمد أيضاً أن حزن إبراهيم بهذا السبب كان أشد من حزنه ، لأن من عظيم المحنة على إبراهيم أن يرى أباه وقومه في النار وهو لا يتمكن من إنقاذهم إلا بالدعاء والتنبيه. التفسير الكبير ١٤٢/٢٤ (٢) أبو السعود ٤/ ١٠٩ .

﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾

الذي خلقني هو الذي يهديني إلى طريق الرشاد لا هذه الأصنام ﴿**والـذي هـو يطعمـني ويسقيـن**﴾ أي هو تعالى الذي يرزقني الطعام والشراب فهو الخالق الرازق الذي ساق المُزْن ، وأنزل المطر ، وأخرج به أنواع الثمرات رزقاً للعباد ﴿**وإذا مرضتُ فهـو يشفيـن**﴾ أي وإذا أصابني المرض فإنه لا يقدر على شفائي أحدٌ غيره ، وإنما أسند المرض إلى نفسه ﴿**مرضتُ**﴾ وأسند الشفاء إلى الله رعايةً للأدب ، وإلاّ فالمرض والشفاء من الله جل وعلا فاستعمل في كلامه حسن الأدب ﴿**والـذي يميتنـي ثم يحيين**﴾ أي وهو تعالى المحيي المميت لا يقدر على ذلك أحد سواه ، يميتني إذا شاء ثم يحييني إذا أراد بعد مماتي ﴿**والـذي أطمـع أن يغفـر لـي خطيئتـي يـوم الديـن**﴾ أي أرجو من واسع رحمته أن يغفر لي ذنبي يوم الحساب والجزاء حيث يُجازى العباد بأعمالهم ، وفيه تعليم للأمة أن يستغفروا من ذنوبهم ويقرُّوا بخطاياهم ﴿**رب هب لي حُكماً وألحقني بالصالحين**﴾ أي هب لي الفهم والعلم وألحقني في زمرة عبادك الصالحين ﴿**واجعـلْ لـي لسانَ صـدقٍ**﴾ أي اجعـلْ لي ذكراً حسناً وثناءً عاطراً ﴿**فـي الآخريـن**﴾ أي فيمن يأتي بعـدي إلى يوم القيامة ، أُذكر به ويُقتدى بي[1] قال ابن عباس : هو اجتماعُ الأمم عليه ، فكلٌّ أمةٍ تتمسك به وتُعظّمـه ﴿**واجعلنـي من ورثـة جنـة النعيـم**﴾ أي من السعداء في الآخـرة الذين يستحقون ميراث جنات الخُلـد ﴿**واغفـر لأبـي**﴾ أي اصفح عنه واهده إلى الإيمان ﴿**إنـه كـان مـن الضاليـن**﴾ أي ممن ضلَّ عن سبيل الهدى قال الصاوي : وقد أجابه الله تعالى في جميع دعواته سوى الدعاء بالغفران لأبيه[2] وقال القرطبي : كان أبوه وعده أن يؤمن به فلذلك استغفر له ، فلما بان له أنه لا يفي تبرأ منه[3] ﴿**ولا تـخْـزنـي يـومَ يُبعـثـون**﴾ أي لا تُذلَّـني ولا تُهنِّـي يومَ تبعث الخلائق للحساب ، وهذا تواضعٌ منه أمام عظمة الله وجلاله وإلا فقد أثنى الله عليه بقوله ﴿**إنَّ إبراهيـم كـان أُمَّـةً**﴾ الآية ﴿**يـومَ لا يَنْفَـعُ مـالٌ ولا بنـون**﴾ أي في ذلك اليوم العصيب لا ينفع أحداً فيه مالٌ ولا ولد ﴿**إلاَّ مـن أتـى اللـهَ**﴾ أي إلا من جاء ربَّـه في الآخرة ﴿**بقلب سليـم**﴾ أي بقلب نقيٍّ طاهر ، سليم من الشرك والنفاق ، والحسد والبغضاء ، وإلى هنا تنتهي دعوات الخليل إبراهيم ثم قال تعالى ﴿**وأزْلفت الجنـةُ للمتقيـن**﴾ أي قُـرِّبـت الجنـةُ للمتقين لربهم ليدخلوها قال الطبري : وهم الذين اتقوا عقابَ الله بطاعتهم إيّـاه في الـدنيا[4] ﴿**وبُـرِّزتِ الجحيـمُ للغـاويـن**﴾ أي

(١) قال بعض العلماء : في الآية دليل على استحباب كسب الذكر الجميل إذ هو الحياة الثانية وأنشدوا « قد مات قومٌ وهم في الناس أحياء » .
(٢) الصاوي على الجلالين ٣/ ١٧٥ . (٣) القرطبي ١٣/ ١١٤ . (٤) الطبري ١٩/ ٥٥ .

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

وأُظهِرت النارُ للمجرمين الضالين حتى رأوها بارزة أمامهم مكشوفة للعيان ، فالمؤمنون يرون الجنة فتحصل لهم البهجة والسرور ، والغاوون يرون جهنم فتحصل لهم المساءة والأحزان ﴿وقيل لهم﴾ أي قيل للمجرمين على سبيل التقريع والتوبيخ ﴿أين ما كنتم تعبدون من دون الله﴾ أي أين آلهتكم الذين عبدتموهم من الأصنام والأنداد ؟ ﴿هل ينصرونكم أو ينتصرون﴾ أي هل ينقذونكم من عذاب الله ، أو يستطيعون أن يدفعوه عن أنفسهم ؟ وهذا كله توبيخ ﴿فكُبْكبوا فيها﴾ أي أُلقوا على رءوسهم في جهنم قال مجاهد : دُهوروا في جهنم وقال الطبري : رُمي بعضُهم على بعض ، وطُرح بعضُهم على بعض منكبين على وجوههم[1] ﴿هم والغاوون﴾ أي الأصنامُ والمشركون والعابدون والمعبودون كقوله ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصَبُ جهنَّم﴾ ﴿وجنودُ إبليس أجمعون﴾ أي وأتباعُ إبليس قاطبة من الإنس والجن ﴿قالوا وهم فيها يختصمون﴾ أي قال العابدون لمعبوديهم وهم في الجحيم يتنازعون ويتخاصمون ﴿تاللهِ إن كنَّا لفي ضلالٍ مبين﴾ أي نقسم بالله لقد كنا في ضلالٍ واضح وبعدٍ عن الحق ظاهر ﴿إذْ نسويكم بربّ العالمين﴾ أي حين عبدناكم مع ربّ العالمين وجعلناكم مثله في استحقاق العبادة ﴿وما أضلنا إلا المجرمون﴾ أي وما أضلنا عن الهدى إلاّ الرؤساء والكبراء الذين زينوا لنا الكفر والمعاصي ﴿فما لنا من شافعين﴾ أي ليس لنا من يشفع لنا من هول هذا اليوم ﴿ولا صديقٍ حميم﴾ أي ولا صديقٍ خالص الود ينقذنا من عذاب الله ﴿فلو أنَّ لنا كرَّة﴾ أي لو أن لنا رجعةً إلى الدنيا ﴿فنكون من المؤمنين﴾ أي فنؤمن بالله ونحسن عملنا ونطيع ربنا ﴿إنَّ في ذلك لآية﴾ أي إن فيما ذكر من نبأ إبراهيم وقومه لعبرةً يعتبر بها أولو الأبصار ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أي وما كان أكثر هؤلاء المشركين الذين تدعوهم إلى الإسلام بمؤمنين ﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ أي المنتقم من أعدائه ، الرحيم بأوليائه .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الإيجاز بالحذفِ ﴿فانفلق﴾ أي فضرب البحر فانفلق .

---

(١) الطبري ١٩/ ٥٥ .

٢ ـ التشبيه المرسل المجمل ﴿كالطود العظيم﴾ أي كالجبل في رسوخه وثباته ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه .

٣ ـ الطباق بين ﴿ينفعونكم أو يضرون﴾ وكذلك بين ﴿يميتني ثم يُحْيين﴾ .

٤ ـ مراعاة الأدب ﴿وإذا مرضتُ فهو يشفين﴾ لم يقل : وإذا أمرضني بل أسند المرض لنفسه تأدباً مع الله لأنَّ الشرَّ لا يُنسب إليه تعالى أدباً ، وإن كان المرضُ والشفاء كلاهما من الله .

٥ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿واجعل لي لسان صدقٍ﴾ استعار اللسان للذكر الجميل والثناء الحسن وهو من ألطف الاستعارات .

٦ ـ المقابلة البديعة ﴿وبُرِّزت الجحيم للغاوين﴾ مقابل قوله عن السعداء ﴿وأُزلفت الجنةُ للمتقين﴾ .

٧ ـ مراعاة الفواصل في أواخر الآيات مثل ﴿المتقين ، والغاوين ، وضلال مبين﴾ وهو من السجع الحسن الذي يزيد في جمال البيان .

تنبيه : « روي أن إبراهيم يلقى أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قترةٌ وغبرةٌ فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصني ! فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم يا رب : إنك وعدتني ألاَّ تخزني يوم يُبعثون ، فأي خزيٍ أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقول يا إبراهيم : انظر تحت رجلك فينظر فإذا هو بذيخ ـ ذكر من الضباع ـ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار » رواه البخاري .

* * *

قال الله تعالى : ﴿كذبت قوم نوحٍ المرسلين . . إلى . . وإنَّ ربك لهو العزيز الرحيم﴾ من آية (١٠٥) إلى نهاية آية (١٩١) .

المناسبة : لما قصَّ تعالى على نبيه محمدﷺ خبر موسى وإبراهيم أتبعه بذكرقصة نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وكلٌ ذلك تسليةٌ لرسول الله ﷺ فيما يلقاه من قومه ، وبيانٌ لسنة الله في عقاب المكذبين .

اللغة : ﴿المشحون﴾ المملوء يقال : شحنَ السفينةَ أي ملأها بالناس والدواب والطعام ﴿ريع﴾ الرِّيع : ما ارتفع من الأرض ، والرِّيعُ : الطريق ﴿مصانع﴾ المراد بها الحصون المشيَّدة وهو قول ابن عباس قال الشاعر :

تركنا ديارهم منهم قِفاراً وهدَّمنا المصانع والبروجا[1]

(١) القرطبي ١٣/١٢٣ .

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ * قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾

﴿بطشتم﴾ البطش : السطوةُ والأخذ بالعنف يقال : بطَش يبطِشُ إذا أخذه بشدة وعنف ﴿الجبلَّة﴾ الخليقة قال الهروي : الجبلَّة والجِبلُّ : الجمع ذو العدد الكثير من الناس ومنه قوله ﴿ولقد أضل منكم جبِلاً كثيراً﴾ أي ناساً كثيرين ويقال : جُبل فلانٌ على كذا أي خُلق ﴿كِسَفاً﴾ جمع كِسْفة وهي القطعة من الشيء .

التفسير : ﴿كذبت قوم نوحٍ المرسلين﴾ أي كذَّب قوم نوح رسولهم نوحاً ، وإنما قال ﴿المرسلين﴾ لأن من كذَّب رسولاً فقد كذب الرسل ﴿إذ قال لهم أخوهم نوح﴾ أي أخوهم في النسب لا في الدين لأنه كان منهم قال الزمخشري : وهذا من قول العرب : يا أخا بني تميم يريدون يا واحداً منهم ومنه بيت الحماسة « لا يسألون أخاهم حين يندبهم »[1] ﴿ألا تتقون﴾ أي ألا تخافون عقاب الله في عبادة الأصنام ؟ ﴿إني لكم رسول أمين﴾ أي إني لكم ناصح ، أمينٌ في نصحي لا أخون ولا أكذب ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ أي خافوا عذاب الله وأطيعوا أمري ﴿وما أسألكم عليه من أجر﴾ أي لا أطلب منكم جزاءً على نصحي لكم ﴿إن أجريَ إلاّ على ربِّ العالمين﴾ أي ما أطلب ثوابي وأجري إلا من الله تعالى ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ كرره تأكيداً وتنبيهاً على أهمية الأمر الذي دعاهم إليه ﴿قالوا أنؤمن لك﴾ أي أنصدِّقك يا نوح فيما تقول ﴿واتبعك الأرذلون﴾ أي والحال أن أتباعك هم السفلة والفقراء والضعفاء ؟ قال البيضاوي : وهذا من سخافة عقلهم ، وقصور رأيهم فقد قصروا الأمر على حطام الدنيا حتى جعلوا اتّباع الفقراء له مانعاً عن اتباعهم وإيمانهم بدعوة نوح[2] ﴿قال وما علمي بما كانوا يعملون﴾ أي ليس عليَّ أن أبحث عن خفايا ضمائرهم ، وأن أُنقّب عن أعمالهم هل اتبعوني إخلاصاً أو طمعاً ؟ قال القرطبي : كأنهم قالوا : إنما اتبعك هؤلاء الضعفاء طمعاً في العزة والمال فقال في جوابهم : إني لم أقف على باطن أمرهم وإنما إليَّ ظاهرهم[3] ﴿إن حسابهم إلاّ على ربي لو تشعرون﴾ أي ما حسابهم وجزاؤهم إلا على الله فإنه المطّلع على السرائر والضمائر لو تعلمون ذلك ﴿وما أنا بطارد المؤمنين﴾ أي لست بمبعد هؤلاء المؤمنين الضعفاء عني ، ولا بطاردهم عن مجلسي قال أبو حيان : وهذا مشعرٌ بأنهم طلبوا منه ذلك كما طلب رؤساء قريش من رسول الله ﷺ أن يطرد من آمن من الضعفاء[4] ﴿إنْ أنا إلا نذيرٌ مبينٌ﴾ أي ما أنا إلا نذير لكم من عذاب الله ، أخوفكم بأسه وسطوته

(١) الكشاف ٣/ ٢٥٤ . (٢) البيضاوي ٢/ ٧٦ . (٣) القرطبي ١٣/ ١٢٠ . (٤) البحر ٧/ ٣٢ .

قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾

فمن أطاعني نجا سواءً كان شريفاً أو وضيعاً ، أو جليلاً أو حقيراً ﴿قالوا لئن لم تنته يا نوحُ لتكونن من المرجومين﴾ أي لئن لم تنته عن دعوى الرسالة وتقبيح ما نحن عليه لتكونَنَّ من المرجومين بالحجارة ، خوفوه بالقتل بالحجارة فعند ذلك حصل اليأس لنوحٍ من فلاحهم فدعا عليهم ﴿قال ربِّ إن قومي كذَّبون﴾ أي قال نوح يا ربِّ إن قومي كذّبوني ولم يؤمنوا بي ﴿فافتحْ بيني وبينهم فتحاً﴾ أي فاحكم بيني وبينهم بما تشاء ، واقض بيننا بحكمك العادل ﴿ونجّني ومن معي من المؤمنين﴾ أي أنقذني والمؤمنين معي من مكرهم وكيدهم ﴿فأنجيناه ومن معه في الفُلْك المشحون﴾ أي فأنجينا نوحاً ومن معه من المؤمنين في السفينة المملوءة بالرجال والنساء والحيوان ﴿ثم أغرقنا بعدُ الباقين﴾ أي أغرقنا بعد إنجائهم الباقين من قومه ﴿إن في ذلك لآية﴾ أي لعبرة عظيمة لمن تفكر وتدبَّر ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أي وما أكثر الناس بمؤمنين ﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ أي وإن ربك يا محمد لهو الغالب الذي لا يُقهر ، الرحيم بالعباد حيث لا يعاجلهم بالعقوبة ، ثم شرع تعالى في ذكر قصة « هود » فقال ﴿كذبت عادٌ المرسلين﴾ أي كذبت قبيلة عاد رسولهم هوداً ، ومن كذَّب رسولاً فقد كذب جميع المرسلين ﴿إذ قال لهم أخوهم هودٌ ألا تتقون﴾ أي ألا تخافون عذاب الله وانتقامه في عبادتكم لغيره ! ﴿إني لكم رسولٌ أمين﴾ أي أمينٌ على الوحي ناصح لكم في الدين ﴿فاتقوا اللهَ وأطيعون﴾ أي فخافوا عذاب الله وأطيعوا أمري ﴿وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجري إلا على ربِّ العالمين﴾ أي لا أطلب منكم على تبليغ الدعوة شيئاً من المال إنما أطلب أجري من الله ، كررت الآيات للتنبيه إلى أنَّ دعوةَ الرسل واحدة ﴿أتبنون بكل ريعٍ آيةً تعبثون﴾ ؟ استفهامٌ إنكاري أي أتبنون بكل موضع مرتفع من الطريق بناءً شامخاً كالعَلَم لمجرد اللهو والعبث ؟ قال ابن كثير : الرِّيعْ المكان المرتفع كانوا يبنون عند الطرق المشهورة بنياناً محكماً هائلاً باهراً لمجرد اللهو واللعب وإظهار القوة ، ولهذا أنكر عليهم نبيُهم عليه السلام ذلك لأنه تضييعٌ للزمان ، وإتعابٌ للأبدان ، واشتغالٌ بما لا يُجدي في الدنيا ولا في الآخرة[1] ﴿وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون﴾ أي وتتخذون قصوراً مشيَّدة محكمة

(١) ابن كثير ٢/٦٥٣ المختصر .

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

ترجون الخلود في الدنيا كأنكم لا تموتون ؟ ﴿وإذا بطَشْتُم بَطَشْتُم جبّارين﴾ أي وإذا اعتديتم على أحد فعلتم فعل الجبارين من البطش دون رأفةٍ أو رحمة ، وإنما أنكر عليهم ذلك لأنه صادر عن ظلم عادة الجبابرة المتسلطين قال الفخر : وصفهم بثلاثة أمور : اتخاذ الأبنية العالية وهو يدل على السرف وحب العلو ، واتخاذ المصانع ـ القصور المشيَّدة والحصون ـ وهو يدل على حب البقاء والخلود ، والجبارية وهي تدل على حب التفرد بالعلو ، وكلُّ ذلك يشير على أن حبَّ الدنيا قد استولى عليهم بحيث استغرقوا فيه حتى خرجوا عن حد العبودية ، وحاموا حول دعاء الربوبية ، وحبُّ الدنيا رأسُ كلِ خطيئة[1] ﴿فاتقوا اللهَ وأطيعون﴾ أي خافوا الله واتركوا هذه الأفعال وأطيعوا أمري ، ثم شرع يذكّرهم نعم الله فقال ﴿واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون﴾ أي أنعم عليكم بأنواع النعم والخيرات ﴿أمدكم بأنعامٍ وبنين * وجناتٍ وعيون﴾ أي أعطاكم أصول الخيرات من المواشي ، والبنين ، والبساتين ، والأنهار ، وأغدق عليكم النعم فهو الذي يجب أن يُعْبد ويُشْكر ولا يُكفر ﴿إني أخاف عليكم عذاب يومٍ عظيم﴾ أي أخشى عليكم إن لم تشكروا هذه النعم وأشركتم وكفرتم عذاب يومٍ هائل تشيب لهوله الولدان . . دعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب ، وبلغ في دعائهم بالوعظِ والتخويفِ النهاية القصوى في البيان فكان جوابهم ﴿قالوا سواءٌ علينا أوَعظْتَ أم لم تكن من الواعظين﴾ أي يستوي عندنا تذكيرك لنا وعدمُه ، فلا نبالي بما تقول ، ولا نرعوي عمّا نحن عليه قال أبو حيان : جعلوا قوله وعْظاً على سبيل الاستخفاف وعدم المبالاة بما خوّفهم به إذ لم يعتقدوا صحة ما جاء به ، وأنه كاذبٌ فيما ادَّعاه[2] ﴿إنْ هذا إلا خُلُق الأولين﴾ أي ما هذا الذي جئتنا به إلا كذبُ وخرافاتُ الأولين ﴿وما نحن بمعذبين﴾ أي لا بعث ولا جزاء ولا حساب ولا عذاب ﴿فكذبوه فأهلكناهم﴾ أي فكذبوا رسولهم هوداً فأهلكناهم بريحٍ صرصرٍ عاتية قال ابن كثير : وكان إهلاكهم بالريح الشديدة الهبوب ، ذاتِ البرد الشديد وهي الريح الصرصر العاتية ، وكان سبب إهلاكهم من جنسهم ، فإنهم كانوا أعتى شيءٍ وأجبره ، فسلَّط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشدُّ ، فحصبت الريح كل شيء حتى كانت تأتي الرجل منهم فتقتلعه ، وترفعه في الهواء ثم تنكّسه على أم رأسه ، فتشدخ رأسه ودماغه[3] ﴿إن في ذلك لآية﴾ أي إن في إهلاكهم لعظة وعبرة ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أي وما آمن أكثر الناس مع رؤيتهم للآيات الباهرة ﴿وإنَّ ربك لهو العزيز الرحيم﴾ أي وإن ربك يا محمد لهو العزيزُ في انتقامه من أعدائه ، الرحيمُ

(١) التفسير الكبير بشيء من الاختصار ٢٤/ ١٥٧ . (٢) البحر ٧/ ٣٣ . (٣) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٥٤ بشيء من الإيجاز .

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

بعباده المؤمنين ، ثم شرع تعالى في ذكر قصة « صالح » فقال **﴿كذبت ثمودُ المرسلين﴾** أي كذبت قبيلة ثمود نبيَّهم « صالحاً » ومن كذَّب رسولاً فقد كذب جميع المرسلين **﴿إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون﴾** ؟ ألا تخافون عذاب الله وانتقامه في عبادتكم غيره ! **﴿إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجريَ إلا على ربِّ العالمين﴾** كررت الآيات للتنبيه على أن دعوة الرسل واحدة ، فكل رسولٍ يذكِّر قومه بالغاية من بعثته ورسالته ، وأنها لصالح البشر **﴿أتتركون فيما ههنا آمنين﴾** أي أيترككم ربكم في هذه الدنيا آمنين ، مخلَّدين في النعيم ، كأنكم باقون في الدنيا بلا موت ؟ قال ابن عباس : كانوا معمَّرين لا يبقى البنيان مع أعمارهم ، قال **القرطبي** : ودل على هذا قولُه تعالى **﴿واستعمركم فيها﴾** فقرَّعهم صالح ووبَّخهم وقال : أتظنون أنكم باقون في الدنيا بلا موت[1] **﴿في جناتٍ وعيون﴾** أي في بساتين وأنهار جاريات **﴿وزروعٍ ونخلٍ طلعُها هضيم﴾** أي وسهولٍ فسيحة فيها من أنواع الزروع والنخيل الرطب اللين ؟ أتتركون في كل ذلك النعيم دون حساب ولا جزاء **قال المفسرون** : كانت أرض ثمود كثيرة البساتين والماء والنخل فذكَّرهم صالحٌ بنعم الله الجليلة من إنبات البساتين والجنات ، وتفجير العيون الجاريات ، وإخراج الزروع والثمرات ، ومعنى « الهضيم » اللطيف الدقيق وهو قول عكرمة ، وقال ابن عباس معناه : اليانع النضيج[2] **﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين﴾** أي وتبنون بيوتاً في الجبال أشرين بطرين من غير حاجةٍ لسكناها **قال الرازي** : وظاهر هذه الآيات يدل على أنَّ الغالب على قوم « هود » هو اللذاتُ الخيالية وهي الاستعلاء ، والبقاء ، والتجبر ، والغالب على قوم « صالح » هو اللذاتُ الحسية وهي طلب المأكول ، والمشروب ، والمساكن الطيبة[3] **وقال الصاوي** : كانت أعمارهم طويلة فإن السقوف والأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم ، لأن الواحد منهم كان يعيش ثلاثمائة سنة إلى ألف[4] **﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾** أي فاتقوا عقاب الله وأطيعوني في نصيحتي لكم **﴿ولا تطيعوا أمر المسرفين﴾** أي ولا تطيعوا أمر الكبراء المجرمين **﴿الذين يُفسدون في الأرض ولا يُصلحون﴾** أي الذين عادتهم الفساد في الأرض لا الإصلاح **قال الطبري** : وهم الرهط التسعة الذين وصفهم الله بقوله **﴿وكان في المدينة تسعةُ رهطٍ**

---

(١) القرطبي ١٣/ ١٢٧ . (٢) حكى القرطبي في معنى « الهضيم » اثني عشر قولاً كذا في تفسيره ١٣/ ١٢٨ . (٣) التفسير الكبير ٢٤/ ١٥٩ . (٤) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ١٧٩ .

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٥٤ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ١٥٥ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥٦ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ١٥٧ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٥٩ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٦٠ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٦١ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٦٢ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٦٣ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٤﴾

يُفسدون في الأرض ولا يُصلحون﴾[1] **﴿قالوا إنما أنتَ من المُسحَّرين﴾** أي من المسحورين سُحرت حتى غُلب على عقلك قال المفسرون : والمُسحَّر مبالغةً من المسحور **﴿ما أنتَ إلا بشر مثلنا﴾** أي لستَ يا صالح إلا رجلاً مثلنا ، فكيف تزعم أنك رسول الله ؟ **﴿فائتِ بآيةٍ إن كنت من الصادقين﴾** أي فائتنا بمعجزة تدل على صدقك **﴿قال هذه ناقة﴾** أي هذه معجزتي إليكم وهي الناقة التي تخرج من الصخر الأصم بقدرة الله قال المفسرون : روي أنهم اقترحوا عليه ناقة عُشراء - حامل - تخرج من صخرة معينة وتلد أمامهم ، فقعد صالح عليه السلام يتفكر فجاءه جبريل فقال :صلِّ ركعتين وسلْ ربك الناقة ففعل ، فخرجت الناقة وولدت أمامهم وبركت بين أيديهم فقال لهم هذه ناقة يا قوم[2] **﴿لها شربٌ ولكم شربُ يوم معلوم﴾** أي تشرب ماءكم يوماً ، ويوماً تشربون أنتم الماء قال قتادة : إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كلَّه ، وشربهُم في اليوم الذي لا تشرب هي فيه ، وتلك آيةٌ أخرى **﴿ولا تمسُّوها بسوء﴾** أي لا تنالوها بأيِّ ضرر بالعقر أو بالضرب **﴿فيأخذكم عذاب يومٍ عظيم﴾** أي فيصيبكم عذاب من الله هائل لا يكاد يوصف قال ابن كثير : حذَّرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء ، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ، تردُ الماء وتأكل الورق والمرعى ، وينتفعون بلبنها يحلبون منها ما يكفيهم شرباً وريّاً ، فلما طال عليهم الأمد وحضر أشقاهم تمالئوا على قتلها وعقرها[3] **﴿فعقروها فأصبحوا نادمين﴾** أي فقتلوها رمياً بالسهام ، رماها أشقاهم - قُدار بن سالف - بأمرهم ورضاهم فأصبحوا نادمين على قتلها خوف العذاب قال الفخر : لم يكن ندمهم ندم التائبين ، لكن ندم الخائفين من العذاب العاجل[4] **﴿فأخذهم العذاب﴾** أي العذاب الموعود ، وكان صيحةً خمدت لها أبدانهم ، وانشقت لها قلوبهم ، وزُلزلت الأرض تحتهم زلزالاً شديداً ، وصبَّت عليهم حجارة من السماء فماتوا عن آخرهم **﴿إن في ذلك لآية﴾** أي لعظةً وعبرة لمن عقل وتدبَّر **﴿وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾** تقدم تفسيرها فيما سبق ، ثم شرع تعالى في ذكر قصة « لوط » فقال **﴿كذبت قوم لوطٍ المرسلين﴾** أي كذبوا رسولهم لوطاً **﴿إذ قال لهم أخوهم لوطٌ ألا تتقون﴾** أي ألا تخافون عقاب الله وانتقامه في عبادتكم غيره ! **﴿إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه**

(١) الطبري ١٩/ ٦٣ . (٢) انظر حاشية زادة على البيضاوي ٣/ ٤٧٧ . (٣) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٥٦ . (٤) تفسير الرازي ٢٤/ ٦٠

أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

من أجر إن أجري إلا على ربِّ العالمين﴾ نفسُ الكلمات والألفاظ التي قالها من قبلُ صالحٌ ، وهودٌ ، ونوح مما يؤكد أن دعوة الرسل واحدة ، وغايتها واحدة ، وأن منشأها هو الوحي السماوي ، ثم قال لهم لوط ﴿أتأتون الذُكران من العالمين﴾ استفهامُ إنكارٍ وتوبيخٍ وتقريعٍ أي أتنْكحون الذكور في أدبارهم ، وتنفردون بهذا الفعل الشنيع من بين سائر الخلق ؟ ﴿وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم﴾ أي وتتركون ما أباح لكم ربكم من الاستمتاع بالإناث ؟ قال مجاهد : تركتم فروج النساء إلى أدبار الرجال[١] ﴿بل أنتم قوم عادون﴾ أي بل أنتم قوم مجاوزون الحدَّ في الإجرام والفساد ، وبَّخهم على إتيانهم الذكور ، ثم أضرب عنه إلى ما هو أبلغ في التوبيخ كأنه يقول خرجتم عن حدود الإنسانية إلى مرتبة البهيمية بعدوانكم وارتكابكم هذه الجريمة الشنيعة ، فالذكر من الحيوان يأنف عن إتيان الذكر ، وأنتم فعلتم ما يتورع عنه الحيوان ﴿قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونَنَّ من المُخْرجين﴾ أي لئن لم تترك تقبيح ما نحن عليه لنخرجنك من بين أظهرنا وننفيك من بلدنا كما فعلنا بمن قبلك ، توعدوه بالنفي والطرد ﴿قال إني لعملكم من القالين﴾ أي إني لعملكم القبيح من المبغضين غاية البغض وأنا بريء منكم ﴿ربِّ نجني وأهلي مما يعملون﴾ أي نجني من العذاب الذي يستحقونه بعملهم القبيح أنا وأهلي قال تعالى ﴿فنجيناه وأهله أجمعين * إلا عجوزاً في الغابرين﴾ أي نجيناه مع أهله جميعاً إلا امرأته كانت من الهالكين ، الباقين في العذاب قال ابن كثير : والمراد بالعجوز امرأته فقد كانت عجوز سوء ، بقيت فهلكت مع من بقي من قومها حين أمره الله أن يسريَ بأهله إلا امرأته[٢] ﴿ثم دمَّرنا الآخرين﴾ أي أهلكناهم أشد إهلاكٍ وأفظعه بالخسف والحَصْب ﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ أي أمطرنا عليهم حجارة من السماء كالمطر الزاخر ﴿فساء مطرُ المُنْذرين﴾ أي بئس هذا المطر مطر القوم المُنْذرين الذين أنذرهم نبيهم فكذبوه ﴿إن في ذلك لآية﴾ أي إنَّ في ذلك لعبرة وعظة لأولي البصائر ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ تقدم تفسيره ، ثم شرع تعالى في ذكر قصة « شعيب » فقال : ﴿كذَّب أصحاب الأيْكة المرسلين﴾ أي كذَّب أصحاب مدين نبيهم شعيباً قال الطبري : والأيكةُ : الشجرُ الملتف وهم أهل مدين[٣] ﴿إذ قال لهم شعيب ألا تتقون * إني لكم رسولٌ أمين * فاتقوا

(١) زاد المسير ٦/ ١٤٠ . (٢) ابن كثير ٢/ ٦٥٧ . (٣) الطبري ١٩/ ٦٥ .

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾

اللهَ وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجريَ إلا على رب العالمين﴾ سبق تفسيره **﴿أوفوا الكيل﴾** أي أوفوا الناس حقوقهم في الكيل والوزن **﴿ولا تكونوا من المخسرين﴾** أي من المُنْقِصين المُطَفِّفين في المكيال والميزان **﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾** أي زنوا بالميزان العدل السويّ **﴿ولا تبخسوا الناسَ أشياءهم﴾** أي لا تُنقصوا حقوق الناس بأي طريق كان بالهضم أو الغبن أو الغصب ونحو ذلك **﴿ولا تعْثَوْا في الأرض مفسدين﴾** أي ولا تُفسدوا في الأرض بأنواع الفساد من قطع الطريق ، والغارة ، والسلب والنهب **﴿واتقوا الذي خلقكم والجِبِلَّة الأولين﴾** أي خافوا الله الذي خلقكم وخلق الخليقة المتقدمين قال **مجاهد** : الجِبِلَّة : الخليقة ويعني بها الأمم السابقين[1] **﴿قالوا إنما أنتَ من المسحَّرين﴾** أي ما أنت إلا من المسحورين ، سُحِرت كثيراً حتى غُلب على عقلك **﴿وما أنت إلا بشر مثلُنا﴾** أي أنت إنسانٌ مثلنا ولست برسول **﴿وإن نظنك لمن الكاذبين﴾** أي ما نظنك يا شعيب إلاّ كاذباً ، تكذب علينا فتقول أنا رسول الله **﴿فأسقِطْ علينا كِسَفاً من السماء﴾** أي أنزلْ علينا العذاب قِطَعاً من السماء ، وهو مبالغة في التكذيب **﴿إن كنتَ من الصادقين﴾** أي إن كنت صادقاً فيما تقول قال **الرازي** : وإنما طلبوا ذلك لاستبعادهم وقوعه ، فظنوا أنه إذا لم يقع ظهر كذبه[2] فعندها أجابهم شعيب **﴿قال ربي أعلمُ بما تعملون﴾** أي الله أعلم بأعمالكم ، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به وهو غير ظالم لكم ، وإن كنتم تستحقون عقاباً آخر فإليه الحكم والمشيئة ، قال تعالى **﴿فكذبوه فأخذهم عذابُ يوم الظلة﴾** أي فكذبوا شعيباً فأخذهم ذلك العذاب الرهيب عذابُ يوم الظُلَّة وهي السحابة التي أظلتهم قال **المفسرون** : بعث الله عليهم حراً شديداً فأخذ بأنفاسهم ، فخرجوا من البيوت هرباً إلى البرية ، فبعث الله عليهم سحابةً أظلَّتهم من الشمس ، فوجدوا لها برداً ونادى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسل الله عليهم ناراً فاحترقوا جميعاً ، وكان ذلك من أعظم العذاب ولهذا قال **﴿إنه كان عذابَ يومٍ عظيم﴾** أي كان عذاب يوم هائل ، عظيم في الشدة والهَول **﴿إن في ذلك لآية وما كان**

---

(١) الطبري ١٩/ ٦٦ . (٢) التفسير الكبير ٢٤/ ١٦٤ .

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

أكثرهم مؤمنين * وإنَّ ربك لهو العزيز الرحيم﴾ وإلى هنا ينتهي آخر القصص السبع التي أوحيت لرسول الله ﷺ لصرفه عن الحرص على إسلام قومه ، وقطع رجائه ودفع تحسره عليهم كما قال في أول السورة ﴿لعلك باخعٌ نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾ ففيها تسلية لرسول الله وتخفيفٌ عن أحزانه وآلامه ، وإنما كرر في نهاية كل قصة قوله ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين* وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ ليكون ذلك أبلغ في الاعتبار ، وأشدَّ تنبيهاً لذوي القلوب والأبصار .

البلاغة : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ إطلاق الكل وإرادة البعض ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ أراد بالمرسلين نوحاً وإنما ذكره بصيغة الجمع تعظيماً له وتنبيهاً على أن من كذب رسولاً فقد كذب جميع المرسلين .

٢ ـ الاستفهام الإنكاري ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾ ؟

٣ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿فافتح بيني وبينهم فتحاً﴾ أي احكم بيننا وبينهم بحكمك العادل ، استعار الفتاح للحاكم والفتح للحكم لأنه يفتح المنغلق من الأمر ففيه استعارة تبعية .

٤ ـ الطباق ﴿يفسدون . . ولا يصلحون﴾ .

٥ ـ الجناس غير التام ﴿قال . . القالين﴾ الأول من القول والثاني من قلى إذا أبغض .

٦ ـ الإطناب ﴿أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين﴾ لأن وفاء الكيل هو في نفسه نهي عن الخسران ، وفائدته زيادة التحذير من العدوان .

٧ ـ المبالغة ﴿إنما أنت من المسحَّرين﴾ والمسحَّر مبالغة عن المسحور .

٨ ـ توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿يفسدون ، يصلحون ، الأرذلون﴾ .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين . . إلى . . وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ من آية (١٩٢) إلى آية (٢٢٧) نهاية السورة الكريمة .

المناسَبَة : لما ذكر تعالى قصص الأنبياء لرسوله ﷺ أتبعه بذكر ما يدل على نبوته من تنزيل هذا القرآن المعجز على قلب خاتم الأنبياء والمرسلين .

اللغة : ﴿زُبُر﴾ الزُّبُر : الكتُب جمع زَبور كرسول ورُسُل ﴿الأعجمين﴾ جمع أعجمي وهو الذي لا يُحسن العربية ، يقال : رجل أعجمي إذا كان غير فصيح وإن كان عربياً ، ورجلٌ عجمي أي غير عربي وإن كان فصيح اللسان ﴿بغتةً﴾ فجأة ﴿مُنظرون﴾ مؤخرون وممهلون يقال : أنْظره أي أمهله ﴿أفّاك﴾ كذَّاب ﴿منقلب﴾ مصير .

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾

التفسير : ﴿**وإنه لتنزيلُ ربِّ العالمين**﴾ أي وإن هذا القرآن المعجز لتنزيلُ ربِّ الأرباب ﴿**نزلَ به الروحُ الأمين**﴾ أي نزل به أمين السماء جبريل عليه السلام ﴿**على قلبكَ لتكون من المُنذرين**﴾ أي أنزله على قلبك يا محمد لتحفظه وتُنذر بآياته المكذبين ﴿**بلسانٍ عربي مبين**﴾ أي بلسانٍ عربي فصيح هو لسان قريش ، لئلا يبقى لهم عذر فيقولوا : ما فائدة كلامٍ لا نفهمه ؟ قال ابن كثير : أنزلناه باللسان العربي الفصيح ، الكامل الشامل ، ليكون بيناً واضحاً ، قاطعاً للعذر مقيماً للحجة ، دليلاً إلى المحجة[1] ﴿**وإنه لفي زُبُرِ الأولين**﴾ أي وإن ذكر القرآن وخبره لموجودٌ في كتب الأنبياء السابقين ﴿**أولم يكنْ لهم آية**﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع أي أولم يكن لكفار مكة علامة على صحة القرآن ﴿**أن يعلمه علماء بني إسرائيل**﴾ أي أن يعلم ذلك علماء بني إسرائيل الذين يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم كعبد الله بن سلام وأمثاله ﴿**ولو نزلناه على بعض الأعجمين**﴾ أي لو نزلنا هذا القرآن بنظمه الرائق المعجز على بعض الأعجمين الذين لا يقدرون على التكلم بالعربية ﴿**فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين**﴾ أي فقرأه على كفار مكة قراءة صحيحة فصيحة ، وانضم إعجاز القراءة إلى إعجاز المقروء ما آمنوا بالقرآن لفرط عنادهم واستكبارهم[2] ﴿**كذلك سلكناه في قلوب المجرمين**﴾ أي كذلك أدخلنا القرآن في قلوب المجرمين ، فسمعوا به وفهموه ، وعرفوا فصاحته وبلاغته ، وتحققوا من إعجازه ثم لم يؤمنوا به وجحدوه ﴿**لا يؤمنون به**﴾ أي لا يصدّقون بالقرآن مع ظهور إعجازه ﴿**حتى يروا العذاب الأليم**﴾ أي حتى يشاهدوا عذاب الله المؤلم فيؤمنوا حيث لا ينفع الإيمان ﴿**فيأتيهم بغتةً**﴾ أي فيأتيهم عذاب الله فجأة ﴿**وهم لا يشعرون**﴾ أي وهم لا يعلمون بمجيئه ولا يدرون ﴿**فيقولوا هل نحن منظرون**﴾ أي فيقولوا حين يفجأهم العذاب ـ تحسراً على ما فاتهم من الإيمان وتمنياً للإمهال ـ هل نحن مؤخرون لنؤمن ونصدّق ﴿**أفبعذابنا يستعجلون**﴾ إنكارٌ وتوبيخ أي كيف يستعجل العذاب هؤلاء المشركون ويقولون ﴿**أئتنا بعذاب أليم**﴾ ؟ وحالُهم عند نزول العذاب أنهم يطلبون الإمهال والنظرة ؟ ﴿**أفرأيتَ إن متعناهم سنين**﴾ أي أخبرني يا محمد إن متعناهم سنين طويلة ، مع وفور

---

(١) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٥٩ . (٢) قال في التسهيل ومعنى الآية : أن القرآن لو نزل على من لا يتكلم ، ثم قرأه عليهم لم يؤمنوا لفرط عنادهم ، ففي ذلك تسلية للنبيﷺ على كفرهم به مع وضوح برهانه أ. هـ التسهيل ٣/ ٩٠ .

﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾

الصحة ورغد العيش ﴿ثم جاءهم ما كانوا يُوعدون﴾ أي ثم جاءهم العذاب الذي وُعدوا به ﴿ما أغنى عنهم ما كانوا يُمَتَّعون﴾ ؟ أي ماذا ينفعهم حينئذٍ ما مضى من طول أعمارهم ، وطيب معاشهم ؟ هل ينفعهم ذلك النعيم في تخفيف الحزن ، أو دفع العذاب ؟ ﴿وما أهلكنا من قرية﴾ أي وما أهلكنا أهل قرية من القرى ، ولا أمةً من الأمم ﴿إلاّ لها منذرون﴾ أي إلاّ بعدما ألزمناهم الحجة بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين ﴿ذكرى﴾ أي ليكون إهلاكهم تذكرةً وعبرة لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم ﴿وما كنا ظالمين﴾ أي وما كنا ظالمين في تعذيبهم ، لأننا أقمنا الحجة عليهم وأعذرنا إليهم . . ثم إنه تعالى بعد أن نبّه على إعجاز القرآن وصدق نبوة محمد عليه السلام ردّاً على قول من زعم من الكفار أن القرآن من إلقاء الجن والشياطين كسائر ما ينزل على الكهنة فقال ﴿وما تنزَّلت به الشياطين﴾ أي وما تنزَّلت بهذا القرآن الشياطين ، بل نزل به الروح الأمين ﴿وما ينبغي لهم وما يستطيعون﴾ أي وما يصح ولا يستقيم أن يتنزل بهذا القرآن الشياطين ، ولا يستطيعون ذلك أصلاً ﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾ أي لأنهم منعوا من استراق السمع منذ بعث محمد عليه السلام ، وحيل بينهم وبين السمع بالملائكة والشهب ، فكيف يستطيعون أن يتنزلوا به ؟ **قال ابن كثير** : ذكر تعالى أنه يمتنع ذلك عليهم من ثلاثة أوجه : أحدها أنه ما ينبغي لهم لأن سجاياهم الفساد ، وإضلال العباد ، وهذا فيه نورٌ وهدى وبرهان عظيم ، **الثاني** : أنه لو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك ، وهذا من حفظ الله لكتابه وتأييده لشرعه **الثالث** : أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته لما وصلوا إلى ذلك لأنهم بمعزلٍ عن استماع القرآن ، لأن السماء مُلئت حرساً شديداً وشهباً ، فلم يخلص أحد من الشياطين لاستماع حرفٍ واحد منه لئلا يشتبه الأمر[1] ﴿فلا تدعُ مع الله إلهاً آخر﴾ الخطاب للرسول ﷺ والمراد غيره أي لا تعبد يا محمد مع الله معبوداً آخر ﴿فتكون من المعذَّبين﴾ أي فيعذبك الله بنار جهنم **قال ابن عباس** : يُحَذِّر به غيره يقول : أنتَ أكرمُ الخلق عليَّ ، ولو اتخذت من دوني إلهاً لعذبتك[2] ، ثم أمر تعالى رسوله بتبليغ الرسالة فقال ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ أي خوِّف أقاربك الأقرب منهم فالأقرب من عذاب الله إن لم يؤمنوا ، روي أنه ﷺ قام حين نزلت عليه ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ فقال : « يا معشر قريشٍ اشتروا أنفسكم من اللّهِ لا أُغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباسُ بنَ عبدِ المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا صفيةُ عمةَ رسول الله لا أُغني عنك من الله شيئاً ، يا فاطمةُ بنتَ محمد سليني ما شئتِ لا أُغني عنك من الله شيئاً »[3] **قال المفسرون** : وإنما أمر ﷺ بإنذار

---

(١) ابن كثير ٢/ ٦٦٠ المختصر . (٢) زاد المسير ٦/ ١٤٧ . (٣) أخرجه الشيخان .

وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٢٢٢﴾ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا

أقاربه أولاً لئلا يظن أحدٌ به المحاباة واللطف معهم فإذا تشدَّد على نفسه وعلى أقاربه كان قوله أنفع ، وكلامه أنجع ﴿واخفضْ جنَاحَك لمن اتَّبعك من المؤمنين﴾ أي تواضعْ وأَلِنْ جانبك لأتباعك المؤمنين ﴿فإن عصَوْكَ فقلْ إني بريءٌ ممَّا تعملون﴾ أي فإن لم يطيعوك وخالفوا أمرك فتبرأ منهم ومن أعمالهم قال أبو حيان : لما كان الإنذار يترتب عليه الطاعة أو العصيان جاء التقسيم عليهما فكأن المعنى : من اتبعك مؤمناً فتواضع له ، ومن عصاك فتبرأ منهم ومن أعمالهم[1] ﴿وتوكَّلْ على العزيز الرحيم﴾ أي فوِّض جميع أمورك إلى الله العزيز ، الذي يقهر أعداءك بعزته ، وينصرك عليهم برحمته ﴿الذي يراك حين تقوم﴾ أي يراك حين تكون وحدك تقوم من فراشك أو مجلسك وقال ابن عباس : حين تقوم إلى الصلاة ﴿وتقلُّبك في الساجدين﴾ أي ويرى تقلُّبك مع المصلين في الركوع والسجود والقيام[2] ، والمعنى يراك وحدك ويراك في الجماعة ﴿إنه هو السميع العليم﴾ أي إنه تعالى السميع لما تقوله ، العليم بما تخفيه ﴿هل أنبئكم على من تنزَّل الشياطين﴾ ؟ أي قل يا محمد لكفار مكة : هل أخبركم على من تتنزَّل الشياطين ؟ وهذا ردٌّ عليهم حين قالوا إنما يأتيه بالقرآن الشياطين ﴿تنَزَّل على كل أفَّاكٍ أثيم﴾ أي تتنزَّل على كل كذَّابٍ فاجر ، مبالغٍ في الكذب والعدوان ، لا على سيِّد ولد عدنان ﴿يُلقون السَّمعَ وأكثرهم كاذبون﴾ أي تُلقي الشياطين ما استرقوه من السمع إلى أوليائهم الكهنة ، وأكثرهم يكذبون فيما يوحون به إليهم وفي الحديث (تلك الكلمةُ من الحقِّ يَخْطفها الجنيُّ فيقرقرها - أي يلقيها - في أذن وليِّه كقرقرة الدجاج ، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة)[3] قال الزمخشري : ﴿يُلقون السَّمع﴾ هم الشياطين كانوا قبل أن يُحجبوا بالرجم يسمَّعون إلى الملأ الأعلى ، فيختطفون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب ، ثم يوحون به إلى أوليائهم من الكهنة والمتنبئة « وأكثرهم كاذبون» فيما يوحون به إليهم ، لأنهم يُسمعونهم ما لم يسمعوا[4] ، ثم ردَّ تعالى على من زعم أن محمداً شاعر فقال ﴿والشعراء يتَّبِعُهُم الغاوون﴾ أي يتبعهم الضالون لا أهل البصيرة والرشاد ﴿ألم تر أنهم في كلِّ وادٍ يهيمون﴾ أي ألم تر أيها السامع العاقل أنهم يسلكون في المديح والهجاء كل طريق ، يمدحون الشيء بعد أن ذمّوه ، ويعظِّمون الشخص بعد أن احتقروه قال الطبري : وهذا مثلٌ ضربه الله لهم في افتتانهم في الوجوه التي يُفتنون فيها بغير حق ، فيمدحون بالباطل قوماً ويهجون آخرين[5] ﴿وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾

(١) البحر ٧/ ٤٦ . (٢) وهذا اختيار ابن جرير الطبري وقيل المراد تقلبه في أصلاب الأنبياء .
(٣) رواه البخاري . (٤) الكشاف ٣/ ٢٦٩ . (٥) الطبري ١٩/ ٧٨ .

يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

أي يكذبون فينسبون لأنفسهم ما لم يعملوه قال أبو حيان : أخبر تعالى عن الشعراء بالأحوال التي تخالف حال النبوة ، إذْ أمرهُم كما ذُكر من اتّباع الغُواة لهم ، وسلوكهم أفانين الكلام من مدح الشيء وذمّه ، ونسبة ما لا يقع منهم إليهم ، وهذا مخالف لحال النبوة فإنها طريقة واحدة لا يتبعها إلا الراشدون[1] ، ثم استثنى تعالى فقال ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي صدقوا في إيمانهم وأخلصوا في أعمالهم ﴿وذكروا الله كثيراً﴾ أي لم يشغلهم الشعرُ عن ذكر الله ولم يجعلوه همَّهم وديدنهم ﴿وانتصروا من بعد ما ظُلموا﴾ أي هجوا المشركين دفاعاً عن الحق ونصرةً للإسلام ﴿وسيعلم الذين ظلموا﴾ وعيدٌ عام في كل ظالم ، تتفتت له القلوب وتتصدع لهوله الأكباد أي وسيعلم الظالمون المعادون لدعوة الله ومعهم الشعراء الغاوون ﴿أيَّ منقلبٍ ينقلبون﴾ ؟ أي أيَّ مرجع يرجعون إليه ، وأي مصيرٍ يصيرون إليه ؟ فإنَّ مرجعهم إلى العقاب وهو شرُّ مرجع ، ومصيرهم إلى النار وهو أقبح مصير .

البَــلاَغَـــة : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ التأكيد بإنَّ واللام ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ لأن الكلام مع المتشككين في صحة القرآن فناسب تأكيده بأنواع من المؤكدات .

٢ ـ الاستفهام للتوبيخ والتبكيت ﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾ ؟

٣ ـ جناس الاشتقاق ﴿يعلمه علماء﴾ .

٤ ـ المجاز المرسل ﴿وما أهلكنا من قرية﴾ المراد به أهلها .

٥ ـ أسلوب التهييج والإلهاب ﴿فلا تدعُ مع اللهِ إلهاً آخر﴾ الخطابُ للرسول بطريق التهييج لزيادة إخلاصه وتقواه .

٦ ـ الاستعارة التصريحية ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾ شبه التواضع ولين الجانب بخفض الطائر جناحه عند إرادة الانحطاط فأطلق على المشبّه اسم الخفض بطريق الاستعارة المكنيَّة .

٧ ـ صيغتا المبالغة ﴿أفّاك أثيم﴾ لأن فعّال وفعيل من صيغ المبالغة أي كثير الكذب كثير الفجور .

٨ ـ الطباق بين ﴿يقولون . . ويفعلون﴾ وبين ﴿انتصروا . . وظُلموا﴾ .

٩ ـ الاستعارة التمثيلية البديعة ﴿في كل وادٍ يهيمون﴾ مثّل لذهابهم عن سنن الهدى وإفراطهم في

(١) البحر ٧/ ٤٩ .

المديح والهجاء بالتائه في الصحراء الذي هام على وجه فهو لا يدري أين يسير ، وهذا من ألطف الاستعارات ، ومن أرشقها وأبدعها .

١٠ ـ جناس الاشتقاق ﴿منقلب ينقلبون﴾ .

١١ ـ مراعاة الفواصل مما يزيد في جمال الكلام ورونقه مثل ﴿يهيمون ، ينقلبون ، يقولون ما لا يفعلون﴾ الخ .

لطيفة : ذُكر أن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته ثم قرأ قوله تعالى ﴿أفرأيت إن متّعناهم سنين* ثم جاءهم ما كانوا يُوعدون* ما أغنى عنهم ما كانوا يُمتّعون﴾ ؟ ثم يبكي وينشد :

نهارُك يا مغرور سهْوٌ وغفلة ... وليلُك نومٌ والرَّدى لك لازم
تُسرُّ بما يَفنى وتفرح بالمُنى ... كما سُرَّ باللَّذات في النوم حالمُ
وتسْعى إلى ما سوف تكره غبَّه ... كذلك في الدنيا تعيشُ البهائم[1]

تنبيه : الشعر بابٌ من الكلام حسنُه حسنٌ ، وقبيحُه قبيحٌ ، وإنما ذمَّ تعالى الشعر لما فيه من المغالاة والإفراط في المديح أو الهجاء ، ومجاوزة حدِّ القصد فيه حتى يفضّلوا أجبن الناس على عنترة ، وأشحَّهم على حاتم ، ويبهتوا البريء ويفسّقوا التقي ، وربما رفعوا شخصاً إلى الأوج ثم إذا غضبوا عليه أنزلوه إلى الحضيض ، وهذا مشاهد ملموس في أكثر الشعراء إلا من استثناهم الله عز وجل ، والشاعر قد يمدح الشيء ويذمه بحلاوة لسانه وقوة بيانه ، ومن ألطف ما سمعتُ من بعض شيوخي ما قاله بعض الشعراء في العسل :

تقولُ : هذا مُجاجُ النَّحل تمدحُه ... وإنْ تعب قلت : ذا قيءُ الزنابير
مدحاً وذماً وما جاوزت وصفهما ... سحرُ البيان يرى الظلماء كالنور

لطيفة : ذُكر أن الفرزدق أنشد أبياتاً عند « سليمان بن عبد الملك » وكان في ضمنها قوله في النساء العذارى :

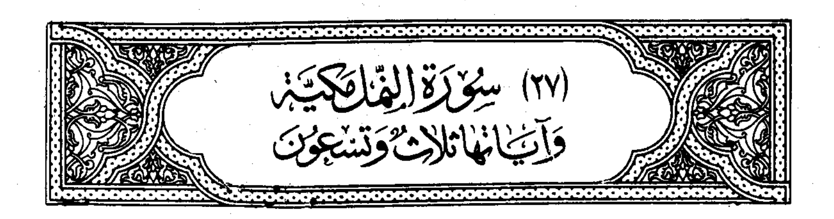
فبتْن كأنهنَّ مُصرَّعاتٌ ... وبتُّ أَفُضُّ أغلاقَ الخِتام

فقال له سليمان : قد وجب عليك الحد ، فقال يا أمير المؤمنين إن الله قد درأ عني الحدَّ بقوله ﴿ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون* وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ فعفا عنه[1] .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الشعراء »

* * *

(١) الكشاف ٣/ ٢٧١ .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة النمل من السور المكية التي تهتم بالحديث عن أصول العقيدة « التوحيد ، والرسالة ، والبعث » وهي إحدى سور ثلاث نزلت متتالية ، ووضعت في المصحف متتالية وهي « الشعراء ، والنمل ، والقصص » ويكاد يكون منهاجها واحداً ، في سلوك مسلك العظة والعبرة ، عن طريق قصص الغابرين .

* تناولت السورة الكريمة القرآن العظيم ، معجزة محمد الكبرى ، وحجته البالغة إلى يوم الدين ، فوضحت أنه تنزيل من حكيم عليم ، ثم تحدثت عن قصص الأنبياء بإيجاز في البعض ، وإسهابٍ في البعض ، فذكرت بالإجمال قصة « موسى » وقصة « صالح » وقصة « لوط » وما نال أقوامهم من العذاب والنكال ، بسبب إعراضهم عن دعوة الله ، وتكذيبهم لرسله الكرام .

* وتحدثت بالتفصيل عن قصة « داود » وولده « سليمان » وما أنعم الله عليهما من النعم الجليلة ، وما خصهما به من الفضل الكبير بالجمع بين النبوة والمُلْك الواسع ، ثم ذكرت قصة « سليمان مع بلقيس » ملكة سبأ .

* وفي هذه القصة مغزى دقيق لأصحاب الجاه والسلطان ، والعظماء والملوك ، فقد اتخذ سليمان المُلْك وسيلةً للدعوة إلى الله ، فلم يترك حاكماً جائراً ولا ملكاً كافراً إلا دعاه إلى الله ، وهكذا كان شأنه مع « بلقيس » حتى تركت عبادة الأوثان ، وأتت مع جندها خاضعةً مسلمةً ، مستجيبةً لدعوة الرحمن .

* وتناولت السورة الكريمة الدلائل والبراهين على وجود الله ووحدانيته ، من آثار مخلوقاته وبدائع صنعه ، وساقت بعض الأهوال والمشاهد الرهيبة ، التي يراها الناس يوم الحشر الأكبر ، حيث يفزعون ويرهبون ، وينقسمون إلى قسمين : السعداء الأبرار ، والذين يكبون على وجوههم في النار .

التسمِيَة : سميت سورة النمل ، لأن الله تعالى ذكر فيها قصة النملة ، التي وعظت بني جنسها وذكَّرت ثم اعتذرت عن سليمان وجنوده ، ففهم نبيُّ الله كلامها وتبسم من قولها ، وشكر الله على ما منحه من الفضل والإنعام ، وفي ذلك أعظم الدلالة على علم الحيوان ، وأنَّ ذلك من إلهام الواحد الديان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾

اللغَة : ﴿يعمهون﴾ يترددون ويتحيرون ، والعَمَهُ : التحير والتردُّد كما هو حال الضال عن الطريق قال الراجز : « أعمى الهُدى بالحائرين العُمَّه » ﴿قَبس﴾ القَبس : النار المقبوسة من جمر وغيره ﴿تصطلون﴾ اصطلى يصطلي إذا استدفأ من البرد قال الشاعر :

النارُ فاكهةُ الشتاءِ فمن يُرد ... أكْلَ الفواكه شاتياً فلْيصْطَلِ[1]

﴿بورك﴾ من البركة وهي زيادة الخير والنماء قال الثعلبي : العرب تقول : باركك الله ، وبارك فيك ، وبارك عليك ، وبارك لك ، أربعُ لغات قال الشاعر :

فبوركتَ مولوداً وبوركت ناشئاً ... وبوركتَ عند الشيب إذْ أنت أشيب[2]

﴿يُوزعون﴾ أصل الوزع الكفُّ والمنع يقال : وزَعه يزعه إذا كفَّه عن الشيء ومنعه ومنه قول عثمان « إن الله ليزَع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » قال النابغة :

على حين عاتبتُ المشيبَ على الصِّبا ... وقلتُ ألمَّا أصْحُ والشيبُ وازع

التفسِير : ﴿طسٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن وقد تقدم الكلام عليها[3] ﴿تلك آياتُ القرآنِ﴾ أي هذه الآيات المنزَّلة عليك يا محمد هي آياتُ القرآن المعجز في بيانه ، الساطع في برهانه ﴿وكتابٍ مبين﴾ أي وآياتُ كتابٍ واضحٍ مبين لمن تفكر فيه وتدبَّر ، أبان اللهُ فيه الأحكام ، وهدى به الأنام ﴿هدى وبشرى للمؤمنين﴾ أي تلك آيات القرآن الهادي للمؤمنين إلى صراطٍ مستقيم ، والمبشر لهم بجنات النعيم ، خصَّ المؤمنين بالذكر لانتفاعهم به ﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ أي يؤدونها على الوجه الأكمل بخشوعها ، وآدابها ، وأركانها ﴿ويؤتون الزكاة﴾ أي يدفعون زكاة أموالهم طيبةً بها نفوسهم ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ أي يصدِّقون بالآخرة تصديقاً جازماً لا يخالجه شك أو ارتياب قال الإمام الفخر : والجملة اعتراضية كأنه قيل وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة ، فما يوقن بالآخرة حقَّ الإيقان إلاّ هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح ، لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق[4] وقال أبو حيان : ولما كان ﴿يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة﴾ مما يتجدَّد ولا يستغرق الأزمان جاءت الصلة فعلاً ، ولما كان الإيمان بالآخرة بما هو ثابت ومستقر جاءت الجملة إسمية وأُكدت بتكرار الضمير ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ وجاء خبر المبتدأ فعلاً ليدل على

(١) القرطبي ١٣/١٥٧ . (٢) البحر ٧/ ٥٥ . (٣) انظر تفصيل القول والتحقيق الدقيق في اول سورة البقرة . (٤) التفسير الكبير ٢٤/١٧٨

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾

الديمومة[1] ، ولما ذكر تعالى المؤمنين الموقنين بالبعث ، ذكر بعدها المنكرين المكذبين بالآخرة فقال ﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ أي لا يصدّقون بالبعث ﴿زيَّنا لهم أعمالهم﴾ أي زينا لهم أعمالهم القبيحة حتى رأوها حسنة قال الرازي : والمراد من التزيين هو أن يخلق في قلبه العلم بما فيها من المنافع واللذات ، ولا يخلق في قلبه العلم بما فيها من المضار والآفات[2] ﴿فهم يعمهون﴾ أي فهم في ضلال أعمالهم القبيحة يترددون حيارى لا يميزون بين الحسن والقبيح ﴿أولئك الذين لهم سوء العذاب﴾ أي لهم أشد العذاب في الدنيا بالقتل والأسر والتشريد ﴿وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ أي وخسارتهم في الآخرة أشد من خسارتهم في الدنيا لمصيرهم إلى النار المؤبدة والجحيم والأغلال ﴿وإنك لتُلقَّى القرآن﴾ أي وإنك يا محمد لتتلقى هذا القرآن العظيم وتُعطاه ﴿من لدن حكيمٍ عليم﴾ أي من عند الله الحكيم بتدبير خلقه ، العليم بما فيه صلاحهم وسعادتهم قال الزمخشري : وهذه الآية بسطٌ وتمهيد لما يريد أن يسوق بعدها من الأقاصيص ، وما في ذلك من لطائف حكمته ، ودقائق علمه[3] ﴿إذْ قال موسى لأهله إني آنستُ ناراً﴾ أي اذكر يا محمد حين قال موسى لأهله - أي زوجته - إني أبصرتُ ورأيت ناراً قال المفسرون : وهذا عندما سار من مدين إلى مصر ، وكان في ليلة مظلمة باردة ، وقد ضلَّ عن الطريق وأخذ زوجته الطَّلْقُ ﴿سآتيكم منها بخبر﴾ أي سآتيكم بخبرٍ عن الطريق إذا وصلتُ إليها ﴿أو آتيكم بشهابٍ قبسٍ﴾ أي أو آتيكم بشعلةٍ مقتبسة من النار ﴿لعلكم تصطلون﴾ أي لكي تستدفئوا بها ﴿فلمّا جاءها﴾ أي فلما وصل إلى مكان النار رأى منظراً هائلاً عظيماً ، حيث رأى النار تضطرم في شجرة خضراء ، لا تزداد النار إلا توقداً ولا تزداد الشجرةُ إلا خضرةً ونُضْرة ، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصلٌ بعنان السماء قال ابن عباس : لم تكن ناراً وإنما كانت نوراً يتوهج[4] فوقف موسى متعجباً ممّا رأى وجاءه النداء العلوي ﴿نُودي أن بُورك مَنْ في النار ومن حولَها﴾ أي نودي من جانب الطور بأن بوركتَ يا موسى وبورك من حولك وهم الملائكة قال ابن عباس : معنى ﴿بورك﴾ تقدَّس ﴿ومن حولها﴾ الملائكةُ قال أبو حيان : وبدؤه بالنداء تبشيرٌ لموسى وتأنيسٌ له ومقدمةٌ لمناجاته ، وجديرٌ أن يبارك من في النار ومن حواليها إذ قد حدث أمرٌ عظيم.وهو تكليم الله لموسى وتنبيئه[5] ﴿وسبحان اللهِ ربِّ العالمين﴾ أي تقدَّس وتنزَّه ربُّ العزة ، العليُّ الشأن ، الذي لا يشبهه شيء من مخلوقاته لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ﴿يا موسى إنه أنا الله العزيزُ الحكيم﴾ أي أنا الله القويُّ القادر ، العزيز الذي لا

---

(١) البحر ٧/ ٥٣ .(٢) التفسير الكبير ٢٤/ ١٧٩ . (٣) الكشاف ٣/ ٢٧٥ .(٤) ابن كثير ٢/ ٦٦٦ المختصر (٥) البحر المحيط ٧/ ٥٦

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ﴾

يُقهر ، الحكيم الذي يفعل كل شيء بحكمةٍ وتدبير ﴿وألقِ عصاك﴾ عطفٌ على السابق أي ونودي أن ألق عصاك لترى معجزتك بنفسك فتأنس بها ﴿فلما رآها تهتز كأنها جانٌ﴾ أي فلما رآها تتحرك حركة سريعة كأنها ثعبان خفيف سريع الجري ﴿ولّى مدبراً ولم يُعقّب﴾ أي ولّى الأدبار منهزماً ولم يرجع لما دهاه من الخوف والفزع قال مجاهد : « لم يُعقّب » لم يرجع ، وقال قتادة : لم يلتفت ، لحقه ما لحق طبع البشر إذ رأى أمراً هائلاً جداً وهو انقلاب العصا حيةً تسعى ولهذا ناداه ربه ﴿يا موسى لا تخف﴾ أي أقبل ولا تخف لأنك بحضرتي ومن كان فيها فهو آمنٌ ﴿إنه لا يخاف لديَّ المرسلون﴾ أي فأنت رسولي ورسلي الذين اصطفيتهم للنبوة لا يخافون غيري قال ابن الجوزي : نبَّهه على أن من آمنَه الله بالنبوة من عذابه لا ينبغي أن يخاف من حيَّة[1] ﴿إلا من ظلم ثم بدَّل حُسْناً بعد سوء﴾ الاستثناء منقطع أي لكنْ من ظلم من سائر الناس لا من المرسلين فإنه يخاف إلا إذا تاب وبدَّل عمله السيء إلى العمل الحسن ﴿فإني غفور رحيم﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة قال ابن كثير : وفيه بشارة عظيمةٌ للبشر وذلك أن من كان على عمل سيء ، ثم أقلع ورجع وتاب وأناب فإن الله يتوب عليه كقوله ﴿وإني لغفَّارٌ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾[2] ﴿وأدْخل يدكَ في جيبك تخرجْ بيضاء من غير سوء﴾ هذه معجزةٌ أُخرى لموسى تدل على باهر قدرة الله والمعنى أدخل يا موسى يدك في فتحة ثوبك ثم أخرجها تخرج مضيئة ساطعة بيضاء تتلألأ كالبرق الخاطف دون مرضٍ أو برص ﴿في تسع آياتٍ إلى فرعون وقومه﴾ أي هاتان المعجزتان « العصا واليد » ضمن تسعِ معجزاتٍ أيدتك بها وجعلتُها برهاناً على صدقك لتذهب بها إلى فرعون وقومه ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ أي خارجين عن طاعتنا ، ممعنين في الكفر والضلال ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرةً﴾ أي فلما رأوا تلك المعجزات الباهرة ، واضحةً بينةً ظاهرة ﴿قالوا هذا سحرٌ مبين﴾ أي أنكروها وزعموا أنها سحرٌ واضح ﴿وجحدوا بها﴾ أي كفروا وكذبوا بتلك الخوارق ﴿واستيقنتها أنفسُهم﴾ أي وقد أيقنوا بقلوبهم أنها من عند الله وليست من قبيل السحر ﴿ظلماً وعلواً﴾ أي جحدوا بها ظلماً من أنفسهم ، واستكباراً عن اتباع الحق ، وأيُّ ظلمٍ أفحش ممن يعتقد ويستيقن أنها آيات بينة واضحة جاءت من عند الله ، ثم يكابر بتسميتها سحراً ؟ ولهذا قال ﴿فانظرْ كيف كان عاقبةُ المفسدين﴾ أي انظر أيها السامع وتدبر بعين الفكر والبصيرة ماذا كان مآلُ أمر الطاغين ، من الإغراق في الدنيا ، والإحراق في الآخرة ؟ قال ابن كثير : وفحوى الخطاب كأنه يقول :

---

(١) زاد المسير ٦/ ١٥٦ . (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٦٧ .

ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾

احذروا أيها المكذبون لمحمد ، الجاحدون لما جاء به من ربه ، أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم بطريق الأولى والأحرى ، فإن محمداً ﷺ أشرفُ وأعظمُ من موسى ، وبرهانُه أدلُّ وأقوى من برهان موسى ، عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم[١] ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً﴾ هذه هي القصة الثانية في السورة الكريمة وهي قصة « داود وسليمان » والمعنى واللهِ لقد أعطينا داود وابنه سليمان علماً واسعاً من علوم الدنيا والدين ، وجمعنا لهما بين سعادة الدنيا والآخرة قال الطبري : وذلك علم كلام الطير والدواب وغير ذلك مما خصَّهم الله بعلمه[٢] ﴿وقالا الحمدُ لله الذي فضَّلنا على كثيرٍ من عباده المؤمنين﴾ أي وقالا شكراً للّه الحمد لله الذي فضلنا بما آتانا من النبوة ، والعلم ، وتسخير الإِنس والجن والشياطين ، على كثيرٍ من عباده المؤمنين ﴿وورثَ سليمانُ داودَ﴾ أي ورث سليمانُ أباه في النبوة ، والعلم ، والمُلْك دون سائر أولاده قال الكلبي : كان لداود تسعة عشر ولداً فورث سليمانُ من بينهم نبوته وملكه ، ولو كانت وراثة مال لكان جميع أولاده فيه سواء[٣] ﴿وقال يا أيها النَّاسُ عُلِّمنا منطق الطير﴾ أي وقال تحدثاً بنعمة الله : يا أيها الناسُ لقد أكرمنا اللهُ فعلَّمنا منطق الطير وأصوات جميع الحيوانات ﴿وأوتينا من كل شيء﴾ أي وأعطانا الله من كل شيء من خيرات الدنيا يعطاها العظماء والملوك ﴿إنَّ هذا لهو الفضلُ المبين﴾ أي إن ما أُعطيناه وما خصَّنا الله به من أنواع النعم لهو الفضل الواضح الجلي ، قاله على سبيل الشكر والمحمدة لا على سبيل العلوّ والكبرياء ﴿وحُشر لسليمانَ جنوده من الجنِّ والإِنسِ والطير﴾ أي جمعت له جيوشه وعساكره وأُحضرت له في مسيرةٍ كبيرة فيها طوائف الجن والإِنس والطير ، يتقدمهم سليمان في أُبَّهة وعظمةٍ كبيرة ﴿فهم يوزعون﴾ أي فهم يُكَفُّون ويمنعون عن التقدم بين يديه قال ابن عباس : جعل على كل صنفٍ من يردُّ أولاها على أُخراها لئلا يتقدموا في المسير كما تصنع الملوك[٤] ﴿حتى إذا أتَوْا على وادي النمل﴾ أي حتى إذا وصلوا إلى وادٍ بالشام كثير النمل ﴿قالت نملةٌ يا أيُّها النمل ادخلوا مساكنكم﴾ أي قالت إحدى النملات لرفيقاتها ادخلوا بيوتكم ، خاطبتهم مخاطبة العقلاء لأنها أمرتهم بما يؤمر به العقلاء ﴿لا يحطمنكم سليمان وجنوده﴾ أي لا يكسرنَّكم سليمانُ وجيوشه بأقدامهم ﴿وهم لا يشعرون﴾ أي وهم لا يشعرون بكم ولا يريدون حطمكم عن عمد حذَّرت ثم اعتذرت لأنها علمت أنه

(١) مختصر ابن كثير ٢/٦٦٧ . (٢) الطبري ١٩/٨٧ . (٣) القرطبي ١٣/١٦٤ . (٤) الطبري ١٩/٨٨ .

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

نبيٌّ رحيم ، فسمع سليمان كلامها وفهم مرامها ﴿فتبسَّم ضاحكاً من قولها﴾ أي فتبسَّم سروراً بما سمع من ثناء النملة عليه وعلى جنوده ، فإن قولها ﴿وهم لا يشعرون﴾ وصفٌ لهم بالتقوى والتحفظ من مضرة الحيوان ﴿وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمتَ عليَّ وعلى والديَّ﴾ أي ألهمني ووفقني لشكر نعمائك وأفضالك التي أنعمت بها عليَّ وعلى أبويَّ ﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾ أي ووفقني لعمل الخير الذي يقربني منك والذي تحبه وترضاه ﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ أي وأدخلني الجنة دار الرحمة مع عبادك الصالحين .

البـلاغـة : تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الإشارة بالبعيد عن القريب ﴿تلك آياتُ القرآن﴾ للإيذان ببعد منزلته في الفضل والشرف .

٢ ـ التنكير للتفخيم والتعظيم ﴿وكتابٍ مبين﴾ أي كتابٍ عظيم الشأن رفيع القدر .

٣ ـ ذكر المصدر بدل اسم الفاعل للمبالغة ﴿هدى وبشرى﴾ أي هادياً ومبشراً .

٤ ـ تكرير الضمير لإفادة الحصر والاختصاص ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ ومثله ﴿وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ وفيه المقابلة اللطيفة بين الجملتين .

٥ ـ التأكيد بإنَّ واللام ﴿وإنك لتُلقَّى القرآن﴾ لوجود المتشككين في القرآن .

٦ ـ إيجاز الحذف ﴿وألق عصاك فلما رآها تهتز﴾ حذفت جملة فألقاها فانقلبت الى حية الخ وذلك لدلالة السياق عليه .

٧ ـ الطباق ﴿حُسناً بعد سوء﴾ .وبين ﴿ولَّى مدبراً . . ولم يُعقّب﴾ .

٨ ـ الاستعارة ﴿آياتنا مبصرة﴾ استعار لفظ الإبصار للوضوح والبيان لأن بالعينين يبصر الإنسان الأشياء .

٩ ـ التشبيه المرسل المجمل ﴿كأنها جانٌّ﴾ ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه فصار مرسلاً مجملاً .

١٠ ـ حسن الاعتذار ﴿وهم لا يشعرون﴾ .

لطيفـة : قال بعض العلماء هذه الآية ﴿قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم . .﴾ من

عجائب القرآن لأنها بلفظة « يـا » نادت « أيها »نبَّهت« النمل » عيَّنـت « ادخلوا » أمرت « مساكنكم » نصَّت « لا يحطمنكم » حذَّرت « سليمان » خصت « وجنوده » عمَّـت « وهم لا يشعرون »اعتـذرت ، فيا لها من نملة ذكية ! !

* *

قال الله تعالى : ﴿وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد . . إلى . . وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ من آية (٢٠) إلى نهاية آية (٤٤) .

المناسبة : لا تزال الآيات تتحدث عن« سليمان بن داود »الذي جمع الله له بين« النبوة والمُلْك » فكان نبياً ملكاً ، وسخر له الإنس والجن وعلمه منطق الطير ، وتذكر الآيات هنا قصته مع « بلقيس » ملكة سبأ وما كان من الأمور العجيبة التي حدثت في زمانه .

اللغة : ﴿تفقَّد﴾ التفقد : طلب ما غاب عن الإنسان ﴿الخبء﴾ : الشيءُ المخبوء من خبأتُ الشيء أخبؤه خبأً إذا سترته ﴿صاغرون﴾ أذلاء مهانون من الصَّغار وهو الذل ﴿عفريتٌ﴾ العفريت : القويُ المارد من الشياطين ومن الإنس،والخبيث الماكر ﴿الصَّرح﴾ القصر ، وكلُّ بناءٍ عال مرتفع يسمى صرحاً ومنه قول فرعون « يا هامان ابن لي صَرْحاً » ﴿ممرَّد﴾ الممرَّد : المملَّس ، والأمرد الذي لم تخرج لحيته بعد إدراكه ، وشجرةٌ مرداء :لا ورقَ عليها ﴿قوارير﴾ جمع قارورة وهي الزجاجة .

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

التفسير : ﴿وتفقَّد الطير﴾ أي بحث سليمان وفتَّش عن جماعة الطير ﴿فقال ما لي لا أرى الهُدهد﴾ أي لم لا أرى الهُدهد ههنا ؟ قال المفسرون : كانت الطير تصحبه في سفره وتظله بأجنحتها ، فلما فصل سليمان عن وادي النمل ونزل في قفرٍ من الأرض،عطش الجيش فسألوه الماء ،وكان الهدهد يدله، على الماء فإذا قال : ههنا الماء شقت الشياطين وفجَّرت العيون ، فطلبه في ذلك اليوم فلم يجده فقال مالي لا أراه ﴿أم كان من الغائبين﴾ أمْ منقطعة بمعنى « بل » أي بل هو غائب ، ذهب دون إذنٍ مني ﴿لأعذبنَّه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتينّي بسلطانٍ مبين﴾ أي لأعاقبنه عقاباً أليماً بالسجن أو نتف الريش أو الذبح أو ليأتيني بحجة واضحة تبيّن عذره ﴿فمكث غير بعيد﴾ أي فأقام الهدهد زماناً يسيراً ثم جاء إلى سليمان ﴿فقال أحطتُ بما لم تُحط به﴾ أي اطلعت على ما لم تطّلع عليه وعرفت ما لم تعرفه ﴿وجئتُك من سبأٍ بنبأٍ يقين﴾ أي وأتيتكَ من مدينة سبأ - باليمن - بخبرٍ هامٍ ، وأمر صادقٍ خطير ﴿إني وجدتُ امرأةً تملكُهم﴾ أي من عجائب ما رأيت أن امرأة - تسمى بلقيس - هي ملكة لهم، وهم

وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾

يدينون بالطاعة لها[1] ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ أي وأعطيت من كل شيء من الأشياء التي يحتاج إليها الملوك من أسباب الدنيا من سعة المال وكثرة الرجال ووفرة السلاح والعتاد ﴿ولها عرش عظيم﴾ أي ولها سرير كبير مكلَّل بالدر والياقوت قال قتادة : كان عرشُها من ذهب ، قوائمُه من جوهر ، مكلَّل باللؤلؤ قال الطبري : وعنى بالعظيم في هذا الموضع العظيم في قدره وخطره ، لا عِظمه في الكبر والسعة ، ولهذا قال ابن عباس : ﴿عرش عظيم﴾ أي سرير كريم حسن الصنعة ، وعرشُها سريرٌ من ذهب قوائمُه من جوهرٍ ولؤلؤ[2] ، ثم أخذ يحدثه عما هو أعظم وأخطر فقال ﴿وجدتُها وقومَها يسجدون للشمس من دون الله﴾ أي وجدتهم جميعاً مجوساً يعبدون الشمس ويتركون عبادة الواحد الأحد ﴿وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم﴾ أي حسَّن لهم إبليس عبادتهم الشمس وسجودهم لها من دون الله ﴿فصدّهم عن السبيل﴾ أي منعهم بسبب هذا الضلال عن طريق الحق والصواب ﴿فهم لا يهتدون﴾ أي فهم بسبب إغواء الشيطان لا يهتدون إلى الله وتوحيده ، ثم قال الهدهد متعجباً ﴿ألاّ يسجدوا لله الذي يُخرج الخَبْءَ في السموات والأرض﴾ أي أيسجدون للشمس ولا يسجدون للّـهِ الخالق العظيم ، الذي يعلم الخفايا ويعلم كل مخبوء في العالم العلوي والسفلي[3] ؟ قال ابن عباس : يعلم كل خبيئةٍ في السماء والأرض ﴿ويعلمُ ما تُخْفون وما تعلنون﴾ أي ويعلم السرَّ والعلن ، ما ظهر وما بطن ﴿اللهُ لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾ أي هو تعالى المتفرد بالعظمة والجلال ، ربُّ العرش الكريم المستحق للعبادة والسجود ، وخصَّ العرش بالذكر لأنه أعظم المخلوقات ، وإلى هنا انتهى كلام الهُدهد ﴿قال سننظر أصدقتَ أم كنتَ من الكاذبين﴾ أي قال سليمان : سننظر في قولك ونتثبت هل أنت صادقٌ أم كاذب فيه ؟ قال ابن الجوزي : وإنما شكَّ في خبره لأنه أنكر أن يكون لغيره سلطان ، ثم كتب كتاباً وختمه بخاتمه ودفعه إلى الهُدهد وقال ﴿إذهبْ بكتابي هذا فألقهْ إليهم﴾ أي اذهب بهذا الكتاب وأوصلْه إلى ملكة سبأ وجندها ﴿ثم تولَّ عنهم﴾ أي تنحَّ إلى مكان قريب مستتراً عنهم ﴿فانظر ماذا يرجعون﴾ أي فانظر ماذا يردون من الجواب ؟ قال المفسرون : أخذ الهدهد الكتاب وذهب إلى بلقيس وقومها ، فرفرف فوق رأسها ثم

---

(١) وجه العجب أن الملوك عادة من الرجال وأن النساء لا يصلحن لإدارة الممالك ويؤيده حديث (لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة) هذا هو منطق الفطرة . (٢) الطبري ١٩/٩٢ . (٣) هذا ما انقدح في ذهني من معنى الآية الكريمه ، ولعله هو الأقرب إلى فهم روح النص القرآني فإن المجال مجال تعجب وإنكار ، لا مجال حديث وإخبار ، فما ذهب إليه بعض المفسرين من أن « لا » زائدة وأن المعنى فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله أو أن المعنى ألا يا هؤلاء فاسجدوا . . الخ غير ظاهر والله أعلم .

قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ

ألقى الكتاب في حجرها ﴿قالتْ يا أيها الملأ إني ألقي إليَّ كتاب كريم﴾ أي قالت لأشراف قومها إنه أتاني كتاب عظيم جليل ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾ أي إن هذا الكتاب مرسل من سليان ثم فتحته فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم وهو استفتاح شريفٌ بارع فيه إعلان الربوبية للّه ثم الدعوة إلى توحيد الله والانقياد لأمره ﴿ألاَّ تعْلوا عليَّ وأْتوني مسلمين﴾ أي لا تتكبروا عليَّ كما يفعل الملوك وجيئوني مؤمنين قال ابن عباس : أي موحدين ، وقال سفيان : طائعين ﴿قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري﴾ أي أشيروا عليَّ في الأمر ﴿ما كنتُ قاطعةً أمراً حتى تشهدون﴾ أي ما كنتُ لأقضي أمراً بدون حضوركم ومشورتكم ﴿قالوا نحن أولوا قوةٍ وأولوا بأسٍ شديد﴾ أي نحن أصحابُ كثرةٍ في الرجال والعتاد ، وأصحابُ شدةٍ في الحرب ﴿والأمرُ إليك فانظري ماذا تأمُرينَ﴾ ؟ أي وأمرنا إليكِ فمرينا بما شئتِ نمتثل أمرك ، وقولهم هذا دليلٌ على الطاعة المفرطة قال القرطبي : أخذتْ في حسن الأدب مع قومها ومشاورتهم في أمرها في كل ما يعرض لها ، فراجعها الملأ بما يُقر عينها من إعلامهم إياها بالقوة والبأس ، ثم سلّموا الأمر إلى نظرها ، وهذه محاورة حسنة من الجميع[1] قال الحسن البصري : فوَّضوا أمرهم إلى عِلجةٍ يضطرب ثدياها ، فلما قالوا لها ما قالوا كانت هي أحزم منهم رأياً وأعلم[2] ﴿قالت إن الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها﴾ أي إن عادة الملوك أنهم إذا استولوا على بلدةٍ عنوةً وقهراً خربوها ﴿وجعلوا أعزةَ أهلِها أذلةً﴾ أي أهانوا أشرافها وأذلوهم بالقتل والأسر والتشريد ﴿وكذلك يفعلون﴾ أي وهذه عادتهم وطريقتهم في كل بلدٍ يدخلونها قهراً ، ثم عدلت إلى المهادنة والمسالمة فقالت ﴿وإني مرسلةٌ إليهم بهديةٍ فناظرةٌ بم يرْجع المُرْسلون﴾ أي وإني سأبعث إليه بهدية عظيمة تليق بمثله ،فأنظر هل يقبلها أم يردُّها ؟ قال قتادة : ما كان أعقلها في إسلامها وشركها ! ! علمتْ أن الهدية تقع موقعاً من الناس ، وقال ابن عباس : قالت لقومها إن قبِلَ الهدية فهو ملك يريد الدنيا فقاتلوه ، وإن لم يقبلها فهو نبيٌ صادق فاتبعوه[3] ﴿فلما جاء سليمانَ قال أتمدونن بمال﴾ ؟ أي فلما جاء رسل بلقيس إلى سليان بالهدية العظيمة قال منكراً عليهم : أتصانعونني بالمال والهدايا لأترككم على كفركم وملككم ؟ ﴿فما آتاني الله خيرٌ مما آتاكم﴾ أي فما أعطاني الله من النبوة والمُلك الواسع خيرٌ مما أعطاكم من زينة الحياة

(١) القرطبي ١٣/ ١٩٤ . (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٧١ . (٣) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٧١ . (٤) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٧١ .

تَفۡرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾

فلا حاجة لي بهديتكم ﴿بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾ أي أنتم تفرحون بالهدايا لأنكم أهل مفاخرةٍ ومكاثرة في الدنيا ، ثم قال لرئيس الوفد ﴿إرجع إليهم فلنأتينَّهم بجنودٍ لا قِبَل لهم بها﴾ أي ارجع إليهم بهديتهم فواللهِ لنأتينَّهم بجنودٍ لا طاقة لهم بمقابلتها ، ولا قدرة لهم على مقاتلتها ﴿ولنخرجنهم منها أذلةً وهم صاغرون﴾ أي ولنخرجنهم من أرضهم ومملكتهم أذلاء حقيرين إن لم يأتوني مسلمين قال ابن عباس : لما رجعت رسلُ بلقيس إليها من عند سليمان وأخبروها الخبر قالت قد عرفت ما هذا بملك ، وما لنا به من طاقة ، وبعثت إلى سليمان إني قادمة إليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك ، وما تدعو إليه من دينك ثم ارتحلت إلى سليمان في اثني عشر ألف قائد[1] ﴿قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين﴾ ؟ أي قال سليمان لأشراف من حضره من جنده : أيكم يأتيني بسريرها المرصَّع بالجواهر قبل أن تصل إليَّ مع قومها مسلمين ؟ قال البيضاوي : أراد بذلك أن يريها بعض ما خصه الله به من العجائب ، الدالة على عظيم القدرة ، وصدقه في دعوى النبوة ، ويختبر عقلها بأن ينكّر عرشها فينظر أتعرفه أم تنكره[2] ؟ ﴿قال عفريتٌ من الجنِّ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾ أي قال ماردٌ من مردة الجنِّ : أنا أحضره إليك قبل أن تقوم من مجلس الحكم - وكان يجلس من الصبح إلى الظهر في كل يوم - وغرضُه أنه يأتيه به في أقل من نصف نهار ﴿وإني عليه لقويٌ أمين﴾ أي وإني على حمله لقادرٌ ، وأمينٌ على ما فيه من الجواهر والدُّر وغير ذلك ﴿قال الذي عنده عِلْمٌ من الكتابِ أنا آتيك به قبل أن يرتدَّ إليك طرفك﴾ قال المفسرون : هو « آصف بن برخيا » كان من الصِّديقين يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب ، وهو الذي أتى بعرش بلقيس وقال لسليمان : أنا آتيك به قبل أن يرتدَّ إليك طرفك أي آتيك به بلمح البصر فدعا الله فحضر العرشُ حالاً ﴿فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي﴾ أي فلما نظر سليمان ورأى العرش - السرير - حاضراً لديه قال : هذا من فضل الله عليَّ ، وإحسانه إليَّ ﴿ليبلوني أأشكر أم أكفر﴾ ؟ أي ليختبرني أأشكر إنعامه ، أم أجحد فضله وإحسانه ؟ ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه﴾ أي ومن شكر فمنفعة الشكر لنفسه ، لأنه يستزيد من فضل الله ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ ﴿ومن كفر فإن ربي غنيٌ كريم﴾ أي ومن لم يشكر وجحد فضل الله

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٣/٤٩٣ . (٢) البيضاوي ٢/٨٣ .

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

فإن الله مستغنٍ عنه وعن شكره ، كريمٌ بالإنعام على من كفر نعمته . . ولما قرُب وصولُ ملكة سبأ إلى بلاده أمر بأن تُغيَّر بعضُ معالم عرشها امتحاناً لها ﴿قال نكّروا لها عرشها﴾ أي غيّروا بعض أوصافه وهيئته كما يتنكر الإنسان حتى لا يُعرف ﴿نَنظُر أتهتدي أم تكونُ من الذين لا يهتدون﴾ أي لننظر إذا رأته هل تهتدي إلى أنه عرشها وتعرفه أم لا ؟ أراد بذلك اختبار ذكائها وعقلها ﴿فلما جاءت قيل أهكذا عرشك﴾ ؟ أي أمثل هذا العرش الذي رأيتيه عرشك ؟ ولم يقل : أهذا عرشك ؟ لئلا يكون تلقيناً لها ﴿قالت كأنه هو﴾ أي يشبهه ويقاربه ولم تقل : نعم هو ، ولا ليس هو قال ابن كثير : وهذا غاية في الذكاء والحزم[1] ﴿وأُوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾ هذا من قول سليمان أي قال سليمان تحدثاً بنعمة الله : لقد أوتينا العلم من قبل هذه المرأة بالله وبقدرته وكنا مسلمين لله من قبلها ، فنحن أسبقُ منها علماً وإسلاماً ﴿وصدَّها ما كانت تعبد من دون الله﴾ أي منعها عن الإيمان بالله عبادتُها القديمة للشمس والقمر ﴿إنها كانت من قومٍ كافرين﴾ أي بسبب كفرها ونشوئها بين قوم مشركين ﴿قيل لها ادخلي الصرح﴾ أي ادخلي القصر العظيم الفخم ﴿فلما رأته حسبته لُجَّةً وكشفت عن ساقيها﴾ أي فلما رأت ذلك الصرح الشامخ ظنته لجة ماء ـ أي ماءً غمراً كثيراً ـ وكشفت عن ساقيها لتخوض فيه ﴿قال إنه صرحٌ مُمَرَّدٌ من قوارير﴾ أي قال سليمان : إنه قصر مملَّس من الزجاج الصافي ﴿قالت ربِّ إني ظلمتُ نفسي﴾ أي قالت بلقيس حينئذٍ: ربِّ إني ظلمت نفسي بالشرك وعبادة الشمس ﴿وأسلمتُ مع سليمانَ لله رب العالمين﴾ أي وتابعتُ سليمان على دينه فدخلت في الإسلام مؤمنةً برب العالمين ، قال ابن كثير : والغرضُ أن سليمان عليه السلام اتخذ قصراً عظيماً منيفاً من زجاج لهذه الملكة ، ليريها عظمة سلطانه وتمكنه ،فلما رأت ما آتاه الله وجلالة ما هو فيه وتبصرت في أمره ، انقادت لأمر الله تعالى وعرفت أنه نبيٌّ كريم ، وملِكٌ عظيم ، وأسلمت لله عز وجل[2] .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ أسلوب التعجب ﴿مالي لا أرى الهدهد﴾ ؟

٢ ـ التأكيد المكرر ﴿لأعذبنّه . . أو لأذبحنّه . . أو ليأتيني﴾ لتأكيد الأمر .

(١) ابن كثير ٢/ ٦٧٣ . (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٧٤ . (٣) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٧١ .

٣ ـ طباق السلب ﴿أحطتُ بما لم تُحَط به﴾ وكذلك ﴿تهتدي . . لا يهتدون﴾ .

٤ ـ الجناس اللطيف ﴿وجئتك من سبأ بنبأٍ﴾ ويسمى الجناس الناقص لتبدل بعض الحروف[1] .

٥ ـ الطباق في اللفظ ﴿تُخْفون . . وتعلنون﴾ وكذلك ﴿أأشكر أم أكفر﴾ .

٦ ـ الطباق في المعنى ﴿أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾ .

قال علماء البيان : والمطابقة هنا بالمعنى أبلغ من اللفظ لأنه عدول عن الفعل إلى الإسم فيفيد الثبات فلو قال « أصدقت أم كذبت » لما أدَّى هذا المعنى لأنه قد يكذب في هذا الأمر ولا يكذب في غيره ، وأما قوله ﴿أم كنت من الكاذبين﴾ فإنه يفيد أنه إذا كان معروفاً بالانخراط في سلك الكاذبين كان كاذباً لا محالة فلا يوثق به أبداً .

٧ ـ جناس الاشتقاق ﴿تقوم من مقامك﴾ وكذلك ﴿أسلمتُ مع سليمان﴾ .

٨ ـ التشبيه ﴿كأنه هو﴾ أي كأنه عرشي في الشكل والوصف ويسمى « مرسلاً مجملاً » .

٩ ـ الاستعارة البديعة ﴿قبل أن يرتدَّ إليك طرفك﴾ شبَّه سرعة مجيئه بالعرش برجوع الطرف للإنسان ، وارتدادُ الطرف معناه التقاء الجفنين وهو أبلغ ما يمكن أن يوصف به في السرعة ومثله « وما أمرُ الساعةِ إلا كلمح البصر أو هو أقرب » فاستعار للسرعة الفائقة ارتداد الطرف[2] .

١٠ ـ توافق الفواصل في كثير من الآيات ، ولها وقعٌ في النفس رائع مثل ﴿أم كان من الغائبين﴾ ﴿أو ليأتيني بسلطانٍ مبين﴾ ﴿وجئتك من سبأٍ بنبأٍ يقين﴾ إلى آخر ما هنالك .

لطيفة : أخذ بعض العلماء من قوله تعالى ﴿وتفقَّد الطير﴾ استحباب تفقد الملك لأحوال الرعية ، وكذلك تفقد الأصدقاء ، والإخوان ، والخلان وأنشد بعضهم :

سنَّ سُليمانُ لنا سُنَّةً ... وكان فيما سنَّه مُقْتدى
تفقَّد الطيرَ على مُلْكه ... فقال : مالِيَ لا أرى الهُدْهُدا ؟

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً . . إلى . . بل هم منها عمون﴾ من آية (٤٥) إلى نهاية آية (٦٦) .

المناسبة : لما ذكر تعالى في أول السورة قصة موسى ، ثم أعقبها بقصة داوُد وسليمان وما فيها من العجائب والغرائب ، ذكر هنا قصة « صالح » ثم قصة « لوط » وكلٌّ هذه القصص غرضُها التذكير

(١) قال صاحب الكشاف : وهذا من محاسن الكلام بشرط أن يجيء مطبوعاً غير متكلف أو يصنعه عالم بجوهر الكلام ، ولقد حسن في الآية وبدع لفظاً ومعنى ، ألا ترى أنه لو وضع مكان « بنبأ » لفظة « بخبر » لكان المعنى صحيحاً ولكن يفوت ما في النبأ من الزيادة التي معناها الخبر الهام والتي يطابقها وصف الحال . (٢) انظر تلخيص البيان ص ٢٦١ .

والاعتبار ، وبيانُ سنة الله في إهلاك المكذبين ، ثم أتبعها بذكر البراهين الدالة على الوحدانية ، والعلم ، والقدرة .

اللغــة : ﴿اطَّيرنـا﴾ من التطير وهو التشاؤم قال الزجاج : أصلُها تطيَّرنا فأُدغمت التـاء في الطاء واجتُلبت الألف لسكون الطاء ﴿خاوية﴾ خالية من خوى البطنُ إذا خلى ، وخوى النجم إذا سقط ﴿الفاحشة﴾ الفعلة القبيحة الشنيعة ﴿حدائق﴾ جمع حديقة وهي البستان الذي عليه سور قال الفراء : الحديقةُ البستانُ الذي عليه حائط ، فإن لم يكن عليه حائط فهو البستان[1] ﴿قراراً﴾ مستقراً يثبت عليه الشيء ﴿حاجزاً﴾ الحاجز : الفاصل بين الشيئين .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾

التفسـير : ﴿ولقـد أرْسلنـا إلـى ثمـودَ أخاهُـم صالحـاً أن اعبُـدوا اللّـه﴾ الـلام جواب قسم محذوف أي والله لقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم ـ في النسب لا في الدين ـ صالحاً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته ﴿فإذا هـم فريقـان يختصمـون﴾ أي فإذا هـم جماعتـان : مؤمنـون وكافـرون يتنازعون في شأن الدين قال مجاهد : « فريقان : مؤمنٌ ، وكافر » واختصامُهـم : اختلافهم وجدالهم في الدين ، وجاء الفعل بالجمع ﴿يختصمـون﴾ حملاً على المعنى ﴿قـال يـا قـوم لـم تستعجلون بالسيئةِ قبلَ الحسنة﴾ أي قال لهم صالح بطريق التلطف والرفق : يا قومِ لم تطلبون العذاب قبل الرحمة ؟ ولأي شيء تستعجلون بالعذاب ولا تطلبون الرحمة ؟ ﴿لـولا تستغفـرون اللـهَ لعلكـم تُرْحَـمـون﴾ أي هلاّ تتوبون إلى الله من الشرك لكي يتوب الله عليكم ويرحمكم ؟ قال المفسرون : كان الكفار يقولون لفرط الإنكار : يا صالح ائتنـا بعذاب الله فقال لهم : هـلاّ تستغفرون الله قبل نزول العذاب ، فإن استعجال الخير أولى من استعجال الشر ! ! ﴿قالـوا اطَّيرنـا بـكَ وبمـن معـك﴾ أي تشاءمنا بك يا صالح وبأتباعك المؤمنين فإنكم سبب ما حلَّ بنا من بلاء ، وكانوا قد أصابهم القحط وجاعوا ﴿قال طائركـم عنـد اللـه﴾ أي حظكم في الحقيقة من خيرٍ أو شر هو عند الله وبقضائه ، إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم . . لمّا لاطفهـم في الخطاب أغلظوا له في الجواب وقالوا تشاءَمنـا بك وبمن معك ، فأخبرهم أن شؤمهم بسبب عملهم لا بسبب صالح والمؤمنين ﴿بـل أنتـم قـومٌ تُفْتنـون﴾ أي بل الحقيقةُ أنكم جماعة يفتنكم الشيطان بوسوسته وإغوائه ولذلك تقولون ما تقولون ﴿وكـان فـي المدينـة تسعـةُ رهـطٍ﴾ أي وكان في مدينة صالح ـ وهي الحِجْـر ـ تسعةُ رجالٍ من أبناء أشرافهم قال الضحاك : كان هؤلاء التسعة عظماء أهل المدينة ﴿يُفسـدون فـي الأرض ولا يُصلحـون﴾ أي شأنهـم الإفساد ، وإيذاء العباد بكل طريق ووسيلة قال ابن عباس :

(١) القرطبي ١٣/ ٢٢١ .

﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

وهم الذين عقروا الناقة ﴿قالوا تقاسموا بالله﴾ أي قال بعضُهم لبعض : احلفوا بالله ﴿لنُبيتَنَّه وأهله﴾ أي لنقتلنَّ صالحاً وأهله ليلاً ﴿ثم لنقولنَّ لوليّه ما شهدنا مهْلِك أهله﴾ أي ثم نقول لوليّ دمه ما حضرنا مكان هلاكه ولا عرفنا قاتله ولا قاتل أهله ﴿وإنا لصادقون﴾ أي ونحلف لهم إنا لصادقون قال ابن عباس : أتوا دار صالح شاهرين سيوفهم ، فرمتهم الملائكة بالحجارة فقتلتهم[1] قال تعالى ﴿ومكروا مكراً﴾ أي دبَّروا مكيدةً لقتل صالح ﴿ومكرنا مكراً﴾ أي جازيناهم على مكرهم بتعجيل هلاكهم ، سمَّاه مكراً بطريق المشاكلة[2] ﴿وهم لا يشعرون﴾ أي من حيث لا يدرون ولا يعلمون قال أبو حيان : ومكرُهم ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح وأهله ، ومكرُ الله إهلاكُهم من حيث لا يشعرون[3] ﴿فانظرْ كيف كان عاقبةُ مكرهم أنَّا دمَّرناهم وقومَهم أجمعين﴾ أي فتأملْ وتفكرْ في عاقبة أمرهم ونتيجة كيدهم ،كيف أنَّا أهلكناهم أجمعين وكان مآلهم الخراب والدمار ! ﴿فتلك بيوتُهم خاويةً بما ظلموا﴾ أي فتلك مساكنهم ودورهم خاليةً بسبب ظلمهم وكفرهم لأن أهلها هلكوا ﴿إنَّ في ذلك لآيةً لقوم يعلمون﴾ أي إن في هذا التدمير العجيب لعبرة عظيمة لقوم يعلمون قدرة الله فيتعظون ﴿وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ أي وأنجينا من العذاب المؤمنين المتقين الذين آمنوا مع صالح ﴿ولوطاً إذ قال لقومه﴾ أي واذكر رسولنا « لوطاً » حين قال لقومه أهل سدوم ﴿أتأتون الفاحشة﴾ أي أتفعلون الفعلة القبيحة الشنيعة وهي اللواطة ﴿وأنتم تُبصرون﴾ أي وأنتم تعلمون علماً يقيناً أنها فاحشة وأنها عملٌ قبيح ؟ ﴿أئنكم لتأتون الرجال شهوةً من دون النساء﴾ تكريرٌ للتوبيخ أي أئنكم أيها القوم لفرط سفهكم تشتهون الرجال وتتركون النساء ؟ ويكتفي الرجال بالرجال بطريق الفاحشة القبيحة ﴿بل أنتم قومٌ تجْهلون﴾ أي بل أنتم قوم سفهاء ماجنون ولذلك تفضلون العمل الشنيع على ما أباح الله لكم من النساء ﴿فما كانَ جوابَ قومه إلاَّ أن قالوا أخرجوا آلَ لوطٍ من قريتكم﴾ أي فما كان جواب أولئك المجرمين إلا أن قالوا أخرجوا لوطاً وأهله من بلدتكم ﴿إنَّهم أناسٌ يتطهَّرون﴾ أي إنهم

(١) زاد المسير ٦/ ١٨٢ . (٢) المشاكلة هي الاتفاق في اللفظ دون المعنى . (٣) البحر ٧/ ٨٥ .

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٥٧ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٥٨ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾

قوم يتنزهون عن القاذورات ويعدّون فعلنا قذراً ، وهو تعليلٌ لوجوب الطرد والإخراج قال قتادة : عابوهم والله بغير عيب بأنهم يتطهرون من أعمال السوء وقال ابن عباس : هو استهزاء يستهزئون بهم بأنهم يتطهرون عن أدبار الرجال[1] ﴿فأنجيناه وأهلَه إلا امرأته﴾ أي فخلصناه هو وأهله من العذاب الواقع بالقوم إلا زوجته ﴿قدَّرْناها من الغابرين﴾ أي جعلناها بقضائنا وتقديرنا من المهلكين ، الباقين في العذاب ﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ أي أنزلنا عليهم حجارة من السماء كالمطر فأهلكتْهُم ﴿فسَاءَ مطرُ المُنذرين﴾ أي بئس هذا العذاب الذي أُمطروا به وهو الحجارة من سجيلٍ منضود ، ولما ذكر تعالى قصص الأنبياء أتبعه بذكر دلائل القدرة والوحدانية فقال ﴿قلْ الحمدُ للّهِ وسلامٌ على عبادهِ الّذين اصْطفى﴾ أي قل يا محمد الحمدُ للهِ على إفضاله وإنعامه ، وسلامٌ على عباده المرسلين الذين اصطفاهم لرسالته ، واختارهم لتبليغ دعوته قال الزمخشري : أمر الله رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الدالة على وحدانيته ، الناطقة بالبراهين على قدرته وحكمته ، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه ، وفيه تعليمٌ حسن ، وتوقيفٌ على أدبٍ جميل ، وهو حمد الله والصلاة على رسله ، ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابراً عن كابر هذا الأدب ، فحمدوا الله وصلوا على رسوله أمام كل علم ، وقبل كل عظة وتذكرة[2] ﴿ءآللّه خيرٌ أمَّا يُشركون﴾ تبكيتٌ للمشركين وتهكمٌ بهم أي هل الخالق المبدع الحكيم خيرٌ أم الأصنام التي عبدوها وهي لا تسمع ولا تستجيب ؟ ﴿أمَّن خلق السموات والأرض﴾ برهان آخر على وحدانية الله أي أمَّن أبدع الكائنات فخلق تلك السمواتِ في ارتفاعها وصفائها ، وجعل فيها الكواكب المنيرة ، وخلق الأرض وما فيها من الجبال والسهول والأنهار والبحار ، خيرٌ أمَّا يشركون ؟ ﴿وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذاتَ بهجة﴾ أي وأنزل لكم بقدرته المطر من السحاب فأخرج به الحدائق والبساتين ، ذات الجمال والخضرة والنضرة ، والمنظر الحسنِ البهيج ﴿ما كانَ لكم أن تُنْبتُوا شجرَها﴾ أي ما كان للبشر ولا يتهيأ لهم ، وليس بمقدورهم ومستطاعهم أن يُنبتوا شجرها فضلاً عن ثمرها ﴿أإلهٌ مع الله﴾ استفهام إنكار أي هل معه معبود سواه حتى تسوّوا بينهما وهو المتفرد بالخلق والتكوين ؟ ﴿بل هم قومٌ يعدلون﴾ أي بل هم قوم يشركون بالله فيجعلون له عديلاً ومثيلاً ، ويسوّون بين الخالق الرازق والوثن ﴿أمَّن جعل الأرض قراراً﴾ برهان آخر أي جعل الأرض مستقَراً للإنسان والحيوان ، بحيث

---

(١) القرطبي ١٣/ ٢١٩ . (٢) الكشاف ٣/ ٢٩٥ .

حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾

يمكنكم الإقامة بها والاستقرار عليها **﴿وجعل خلالها أنهاراً﴾** أي وجعل في شعابها وأوديتها الأنهار العذبة الطيبة ، تسير خلالها شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً **﴿وجعل لها رواسي﴾** أي وجعل جبالاً شامخة ترسي الأرض وتثبتها لئلا تميد وتضطرب بكم **﴿وجعل بين البحرين حاجزاً﴾** أي وجعل بين المياه العذبة والمالحة فاصلاً ومانعاً يمنعها من الاختلاط ، لئلا يُفسد ماء البحار المياهَ العذبة[1] **﴿أإلهٌ مع الله﴾** أي أمع الله معبودٌ سواه ؟ **﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾** أي أكثر المشركين لا يعلمون الحق فيشركون مع الله غيره **﴿ أمَّنْ يجيبُ المُضْطَرَّ إذا دعاه﴾** برهانٌ ثالث أي أمَّن يجيب المكروب المجهود الذي مسَّه الضر فيستجيب دعاءه ويلبي نداءه ؟ **﴿ويكشف السوء﴾** أي ويكشف عنه الضُرَّ والبأساء ؟ **﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾** أي ويجعلكم سكان الأرض تعمرونها جيلاً بعد جيل ، وأُمةً بعد أُمة **﴿أإلهٌ مع الله﴾** ؟ أي أإله مع الله يفعل ذلك حتى تعبدوه ؟ **﴿قليلاً ما تذكَّرون﴾** أي ما أقلَّ تذكركم واعتباركم فيما تشاهدون ؟ **﴿أمْ من يهديكم في ظلمات البر والبحر﴾** ؟ برهان رابع أي أم من يرشدكم إلى مقاصدكم في أسفاركم في الظلام الدامس ، في البراري ، والقفار ، والبحار ؟ والبلاد التي تتوجهون إليها بالليل والنهار ؟ **﴿ومنْ يرسلُ الرياح بُشْراً بين يدي رحمته﴾** ؟ أي ومن الذي يسوق الرياح مبشرةً بنزول المطر الذي هو رحمة للبلاد والعباد ؟ **﴿أإله مع الله﴾** ؟ أي أإلهٌ مع الله يقدر على شيءٍ من ذلك ؟ **﴿تعالى الله عمّا يشركون﴾** أي تعظَّم وتمجَّد الله القادر الخالق عن مشاركة العاجز المخلوق **﴿ أمَّن يبدأ الخلق ثم يُعيده﴾** برهانٌ خامس أي أمَّنْ يبدأ خلق الإنسان ثم يعيده بعد فنائه ؟ **قال الزمخشري** : كيف قال لهم ذلك وهم منكرون للإعادة ؟ والجواب أنه قد أُزيحت علَّتُهم بالتمكين من المعرفة والإقرار ، فلم يبق لهم عذرٌ في الإنكار[2] **﴿ومن يرزقكم من السماء والأرض﴾** أي ومن يُنزل عليكم من مطر السماء ، ويُنبتُ لكم من بركات الأرض الزروع والثمار ؟ **قال أبو حيان** : لما كان إيجاد بني آدم إنعاماً إليهم وإحساناً عليهم ، ولا تتم النعمة إلا بالرزق قال **﴿ومن يرزقكم من السماء﴾** أي بالمطر **﴿والأرض﴾** أي بالنبات[3] **﴿أإله مع الله﴾** ؟ أي أإله مع الله يفعل ذلك ؟ **﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾** أي أحضروا حجتكم ودليلكم على ما تزعمون إن كنتم صادقين في أنَّ مع

---

(١) هذا قول الحسن واختاره ابن كثير وهو الأظهر وقيل : المراد بحر فارس والروم .

(٢) الكشاف ٣/ ٢٩٧ . (٣) البحر ٧/ ٩٠ .

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

الله إلهاً آخر[١] ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾ أي هو سبحانه وحده المختص بعلم الغيب ، فلا يعلم أحدٌ من ملك أو بشر الغيب إلا اللهُ علامُ الغيوب قال القرطبي : نزلت في المشركين حين سألوا النبي ﷺ عن قيام الساعة ﴿وما يشعرون أيّان يُبعثون﴾ ؟ أي وما يدري ولا يشعر الخلائق متى يُبعثون بعد موتهم؟ ﴿بل ادَّارك عِلْمُهُم في الآخرة﴾ أي هل تتابع وتلاحق علمُ المشركين بالآخرة وأحوالها حتى يسألوا عن الساعة وقيامها ؟ إنهم لا يصدقون بالآخرة فلماذا يسألون عن قيام الساعة ؟ ﴿بل هم في شكٍ منها﴾ إضراب عن السابق أي هم شاكون في الآخرة لا يصدّقون بها ولذلك يعاندون ويكابرون ﴿بل هم منها عمون﴾ أي بل هم في عمَىً عنها ، ليس لهم بصيرةٌ يدركون بها دلائل وقوعها لأن اشتغالهم باللذات النفسانية من شهوة البطن والفرج صيّرهم كالبهائم والأنعام لا يتدبرون ولا يبصرون قال ابن كثير : هم شاكون في وقوعها ووجودها ، بل هم في عماية وجهلٍ كبير في أمرها .

البـلاغـة : تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق ﴿يفسدون . . ولا يصلحون﴾ .

٢ ـ التحضيض ﴿لولا تستغفرون الله﴾ أي هلاّ تستغفرون الله .

٣ ـ جناس الاشتقاق ﴿اطيَّرنا . . طائركم﴾ .

٤ ـ المشاكلة ﴿ومكروا . . ومكرنا﴾ سمَّى تعالى إهلاكهم وتدميرهم مكراً على سبيل المشاكلة .

٥ ـ الطباق ﴿لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة﴾ ؟

٦ ـ الاستفهام التوبيخي ﴿أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون﴾ ؟

٧ ـ أسلوب التبكيت والتهكم ﴿آللهُ خيرٌ أمَّا يشركون﴾ ؟

٨ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿بين يدي رحمته﴾ أي أمام نزول المطر فاستعار اليدين للأمام .

---

(١) قال في البحر : وناسب ختم كل استفهام بما تقدمه ، فلما ذكر خلق العالم العلوي والسفلي وما امتنَّ به من إنزال المطر ختمه بقوله ﴿بل هم قوم يعدلون﴾ أي يعدلون به غيره مما هو مخلوق ، ولما ذكر جعل الأرض مستقراً وتفجير الأنهار ، وكان فيه التنبيه على الكفر والتعقل ختمه بقوله ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ ولما ذكر إجابة المضطر وكشف السوء ختمه بقوله ﴿قليلاً ما تذكرون﴾ لأن الإنسان يتوالى عليه النسيان عندما يزول عنه اضطراره ، ولما ذكر الهداية في الظلمات وإرسال الرياح مبشرات ، ومعبوداتهم لا تهدي ولا تسعف وهم يشركون بها ختمه بقوله ﴿تعالى الله عما يشركون﴾ البحر ٧/ ٩١ .

٩ ـ الطباق ﴿يبدأ الخلق ثم يُعيده﴾ .

١٠ـ الاستعارة ﴿بل هم منها عمون﴾ استعار العمى للتعامي عن الحق وعدم التفكر والتدبر في آلاء الله .

١١ـ مراعاة الفواصل مما يزيد في رونق الكلام وجماله ، وله على السمع وقع خاص مثل ﴿وما يشعرون أيان يُبعثون﴾ ﴿ أمَّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً﴾ ومثل ﴿إن في ذلك لآية لقوم يعلمون* وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ . وأمثاله كثير ، وفي القرآن روائع بيانية يعجز عن التعبير عنها اللسان ،فسبحان من خصَّ نبيَّه الأمي بهذا الكتاب المعجز ! !

* * *

قال الله تعالى : ﴿وقال الذين كفروا أئذا كنا تراباً وآباؤنا . . إلى . . وما ربك بغافل عما تعملون﴾ من آية (٦٧) إلى آية (٩٣) نهاية السورة .

المناسبة : لما ذكر تعالى الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين ، ذكر هنا شبهات المشركين في الإيمان بالآخرة والبعث والنشور ، وأردفها بذكر الدلائل القاطعة ، وذكر بعض الأهوال التي تكون بين يدي الساعة .

اللغة : ﴿رَدِفَ﴾ اقترب ودنا ﴿تكنُّ﴾ تُسِرُّ وتخفي ﴿داخرين﴾ ذليلين صاغرين ﴿فوجاً﴾ الفوج : الجماعة ﴿جامدة﴾ الجمود : سكون الشيء وعدم حركته ﴿أتقن﴾ الإتقان : الإتيانُ بالشيء على أحسن حالاته من التمام والكمال والإحكام ﴿كُبَّت﴾ الكَبُّ : الطرح والإلقاء يقال : كببتُ الرجل ألقيتُه على وجهه ، وكببتُ الإناء قلبتُه .

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۝٦٧ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٦٩﴾

التفسير : ﴿وقال الذين كفروا أئذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون﴾ أي قال مشركو مكة المنكرون للبعث : أئذا متنا وأصبحنا رفاتاً وعظاماًبالية ،فهل سنخرج من قبورنا ونحيا مرة ثانية ؟ ﴿لقد وُعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل﴾ أي لقد وَعدنا محمدٌ بالبعث كما وعَدَ من قبله آباءنا الأولين ، فلو كان حقاً لحصل ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي ما هذا إلا خرافات وأباطيل السابقين .ينكرون البعث وينسون أنهم خُلقوا من العدم ، وأن الذي خلقهم أولاً قادر على أن يعيدهم ثانياً ! ﴿قل سيروا في الأرض﴾ أي قل لهؤلاء الكفار : سيروا في أرجاء الأرض ﴿فانظروا كيف كان عاقبةُ المجرمين﴾ أي فانظروا ـ نظر اعتبار ـ كيف كان مآل المكذبين للرسل ؟ ألم يهلكهم الله ويدمّرهم ؟ فما حدث للمجرمين

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾

من قبل ، يحدث للمجرمين من بعد ، والآيةُ وعيدٌ وتهديد ﴿ولا تحزن عليهم ولا تكنْ في ضيْق ممّا يمكرون﴾ تسلية للرسول عليه السلام أي لا تحزن يا محمد ولا تأسف على هؤلاء المكذبين إنْ لم يؤمنوا ، ولا يضقْ صدرك من مكرهم فإن الله يعصمك منهم ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ أي يقولون استهزاءً : متى يجيئنا العذاب إن كنتم صادقين فيما تقولون ؟ والخطابُ للنبي ﷺ والمؤمنين ﴿قل عسى أن يكون ردِف لكم بعضُ الذي تستعجلون﴾ أي لعلَّ الذي تستعجلون به من العذاب قد دنا وقرُب منكم بعضه قال المفسرون : هو ما أصابهم من القتل والأسر يوم بدر ﴿وإن ربَّك لذو فضلٍ على الناس﴾ أي لذو إفضالٍ وإنعامٍ على الناس بترك تعجيل عقوبتهم على معاصيهم وكفرهم ﴿ولكنَّ أكثرهم لا يشكرون﴾ أي ولكنَّ أكثرهم لا يعرفون حقَّ النعمة ، ولا يشكرون ربهم ﴿وإنَّ ربك ليعلم ما تُكنُّ صدورهم وما يعلنون﴾ أي وإنه تعالى ليعلم مايُخْفون وما يعلنون من عداوة الرسول وكيدهم له وسيجازيهم عليه ﴿وما من غائبةٍ في السماء والأرض إلا في كتابٍ مبين﴾ أي ليس من شيء في غاية الخفاء على الناس والغيبوبة عنهم إلا وقد علمه الله وأحاط به ، وأثبته في اللوح المحفوظ عنده ، فلا تخفى عليه سبحانه خافية قال ابن عباس : معناه ما من شيءٍ سرٍّ في السموات والأرض أو علانية إلا وعند الله علمه[1] ﴿إنَّ هذا القرآن يقصُّ على بني إسرائيل أكثرَ الذي هم فيه يختلفون﴾ لما ذكر تعالى أمر المبدأ والمعاد والنبوة ، وكان القرآن من أعظم الدلائل والبراهين على صدق محمد وصدق ما جاء به ، أعقبه هنا بذكر القرآن المجيد وذكر أوصافه والمعنى : إن هذا القرآن المنزَّل على خاتم الرسل لهو الكتاب الحق الذي يبين لأهل الكتاب ما اختلفوا فيه من أمر الدين ، ومن جملته اختلافهم في أمر المسيح وتفرقُهم فيه فرقاً كثيرة حتى لعن بعضهم بعضاً، فلوكانوا منصفين لأسلموا،لأن القرآن جاءهم بالرأي الساطع ، والخبر القاطع ﴿وإنه لهدىً ورحمةٌ للمؤمنين﴾ أي وإنه لهداية لقلوب المؤمنين من الضلالة ، ورحمة لهم من العذاب ، قال القرطبي : وإنما خصَّ المؤمنين بالذكر لأنهم المنتفعون به[2] ﴿إنَّ ربَّك يقضي بينهم بحكمه﴾ أي إن ربك يا محمد يفصل بين بني إسرائيل يوم القيامة بحكمه العادل ، وقضائه المبرم ، فيجازي المحقَّ والمبطل ﴿وهو العزيز﴾ أي المنيع الغالب الذي لا يُردُّ أمره ﴿العليم﴾ أي العليم

(١) البحر ٧/ ٩٥ . (٢) القرطبي ١٣/ ٢٣١ .

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾

بأفعال العباد فلا يخفى عليه شيء منهم ﴿فتوكَّلْ على الله﴾ أي فوِّضْ إليه أمرك ، واعتمد عليه في جميع شئونك فإنه ناصرك ﴿إنك على الحق المبين﴾ أي إنك يا محمد على الدين الحق ، الواضح المنير ، فالعاقبة لك بالنصر على الكفار ﴿إنك لا تُسمع الموتى﴾ أي لا تُسمع الكفار لتركهم التدبر والاعتبار ، فهم كالموتى لا حسٌ لهم ولا عقل ﴿ولا تُسْمع الصُّمَّ الدعاء إذا ولَّوا مدبرين﴾ أي ولا تُسمعهم دعاءك ونداءك إذا ذكَّرتهم بالله أو دعوتهم إلى الإيمان ، لأنهم كالصُّم الذين في آذانهم وقرٌ ، فلا يستجيبون الدعاء ، لا سيما إذا تولَّوا عنك معرضين ، فإن الأصمَّ إذا تولى مدبراً ثم ناديته كان أبعد عن السماع حيث انضم إلى صَمَمه بعدُ المسافة ﴿وما أنتَ بهادي العُمْي عن ضلالتهم﴾ أي وليس بوسعك يا محمد أن تصرف عُمي القلوب عن كفرهم وضلالهم ﴿إنْ تُسمعُ إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ أي ما تُسمع - سماع تدبر وإفهام - إلا المؤمنين ، ولا يستجيب لدعوتك إلاّ أهل الإيمان ، وهم الذين انقادوا وأسلموا وجوههم للرحمن . .شبَّه من لا يسمع ولا يعقل بالموتى في أنهم لا يسمعون وإن كانوا أحياء ، ثم شبههم ثانياً بالصم وبالعُمي وإن كانوا سليمي الحواس ، وأكَّد عدم سماعهم بقوله ﴿إذا ولَّوْا مدبرين﴾ لأن الأصمَّ إذا أدبر زاد صممُه أو عُدم سماعُه بالكلية ، والغرضُ من الآية أنَّ هؤلاء الكفار كالموتى ، وكالصُّمّ ، وكالعُمي ، لا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون ، ولا يلتفتون إلى شيء من الدلائل الكونية ، أو الآيات القرآنية ﴿وإذا وقَع القوْلُ عليهم﴾ هذا بيان لما يكون بين يدي الساعة أي وإذا قَرُبَ نزولُ العذاب وقيام الساعة ، وحان وقت عذاب الكفار ﴿أخرجنا لهم دابةً من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾ أي أخرجنا للكفار هذه الآية الكبيرة «دابة الأرض» تكلم الناس وتناظرهم وتقول من جملة كلامها : ألا لعنةُ الله على الظالمين ،الذين لا يصدِّقون ولا يؤمنون بآيات الله ، وخروجُ الدابة من أشراط الساعة وفي الحديث (لا تقوم الساعةُ حتى تروا عشر آياتٍ . . وعدَّ منها طلوع الشمس من مغربها ، وخروجَ الدابة . .)[1] الحديث قال ابن كثير : هذه الدابة تخرج في آخر الزمان ، عند فساد الناس وتركهم أوامر الله ، وتبديلهم الدين الحق ، فتكلم الناس وتخاطبهم مخاطبة قال ابن عباس وعطاء : تكلمهم كلاماً فتقول لهم : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون[2] ، وروي أن خروجها حين ينقطع الخير ، ولا يُؤمر بمعروف ولا يُنهى عن منكر ، ولا يبقى منيبٌ ولا تائب ، وهي آية خاصة

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ، وفي صحيح مسلم (إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريباً) .
(٢) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٨٢ .

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾

خارقة للعادة ، ثم ذكر تعالى بعض مشاهد القيامة فقال ﴿ويـوم نحشـر من كـل أمـةٍ فوجـاً﴾ أي واذكر يوم نجمع للحساب والعقاب من كل أمةٍ من الأمم جماعة وزمرة ﴿ممـن يكذِّب بآياتنـا﴾ أي من الجاحدين المكذبين بآياتنا ورسلنا ﴿فهـم يُوزعـون﴾ أي فهم يجْمعون ثم يُساقـون بعنف ﴿حتـى إذا جاءوا قـال أكذَّبتـم بآياتـي ولم تُحيطـوا بهـا علماً﴾ أي حتى إذا حضروا موقف الحساب والسؤ ال قال لهم تعـالى مُوبِـخاً ومُقرِّعاً : أكذبتم بآياتي المنزلة على رسلي من غير فكر ولا نظر يؤ دي إلى إحاطة العلم بكنهها ، أو معرفة صدقها ؟ ﴿أمَّـاذا كنتـم تعملـون﴾ تقريع وتوبيخ آخر أيْ أيَّ شيء كنتم تعملـون في الـدنيا ؟ وبَّخهم أولاً بقوله ﴿أكذبتـم بآياتـي﴾ ثم اضرب عنه إلى استفهام تقرير وتبكيت كأنه قيل : دَعُوا ما نسبتُه إليكم من التكذيب وقولوا لي : أيَّ شيءٍ كنتم تعملونه في الدنيا غير التكذيب ؟ ﴿ووقـعَ القـوْلُ عليهـم بما ظلمـوا﴾ أي بُهِتوا فلم يكن لهم جواب ، وقامت عليهم الحجة وحقَّ عليهم العذاب ، بسبب ظلمهم وهو تكذيبهم بآيات الله ﴿فهـم لا ينطقـون﴾ أي فهم لا يتكلمون لأنه ليس لهم عذر ولا حجة ، وقد شُغلوا بالعذاب عن الجواب . . ثم لما ذكر تعالى أهوال القيامة ذكر الأدلة والبراهين على التوحيد والحشر والنشر مبالغةً في الإِرشاد إلى الإِيمان فقال : ﴿ألـم يَـروْا أنَّـا جعلنا الليلَ ليسكنوا فيـه والنهـار مبصراً﴾ ؟ أي ألم يروا قدرة الله فيعتبروا أنه تعالى جعل الليل مظلماً ليناموا ويستريحوا من تعب الحياة ، وجعل النهار منيراً مشرقاً ليتصرفوا فيه في طلب المعاش والرزق ؟ ﴿إن فـي ذلـك لآياتٍ لقـومٍ يؤمـنـون﴾ أي إن في تقليب الليل والنهار من نور إلى ظلمة ، ومن ظلمةٍ إلى نور لآيات باهرة ، ودلائل قاطعة على قدرة الله لقومٍ يصدّقون فيعتبرون ، ثم أشار تعالى إلى أحوال الناس في الآخرة فقال ﴿ويـوم يُنفـخ فـي الصور ففـزع مـن في السمواتِ والأرض إلاّ مـن شاء اللـه﴾ أي واذكر يوم ينفخ إسرافيل في الصـور « نفخـة الفزع » فلا يبقى أحدٌ من أهل السمواتِ والأرض إلا خاف وفزع إلا من شاء الله من الملائكة والأنبياء والشهداء قال المفسرون : هذه نفخة الفزع ، ثم تتلوها نفخة الصَّعق ـ وهو الموت ـ ثم بعد ذلك نفخة النشور من القبور وهـي نفخـة القيام لرب العـالمين ، قال أبـو هريرة : إن الملك له في الصـور ثلاثُ نفخات : نفخةُ الفزع ـ وهو فزع الحياة الدنيا ـ وليس بالفزع الأكبر ، ونفخة الصَّعْـق ، ونفخة القيام من القبور[1] ﴿وكـلٌّ أتـوْه داخريـن﴾ أي وكلٌّ من الأموات الذين أُحيوا أتَـوْا ربَّهـم صاغرين مطيعين لم

(١) البحر ٧/ ٩٩ .

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾

يتخلف منهم أحد ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة﴾ أي وترى أيها المخاطب الجبال وقت النفخة الأولى تظنها ثابتة في مكانها وواقفة ﴿وهي تمرُّ مرَّ السحاب﴾ أي وهي تسير سيراً سريعاً كالسحاب قال الإمام الفخر : ووجه حسبانهم أنها جامدة أن الأجسام الكبار إذا تحركت حركة سريعة على نهجٍ واحد ظنَّ الناظر إليها أنها واقفة مع أنها تمر مراً سريعاً[1] ﴿صُنعَ اللّهِ الذي أتقنَ كل شيء﴾ أي ذلك صنعُ الله البديع ، الذي أحكم كل شيء خلقه ، وأودع فيه من الحكمة ما أودع ﴿إنه خبيرٌ بما تفعلون﴾ أي هو عليم بما يفعل العباد من خير وشر ، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء . . ثم بيَّن تعالى حال السعداء والأشقياء في ذلك اليوم الرهيب فقال ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ أي من جاء يوم القيامة بحسنةٍ من الحسنات ، فإن الله يضاعفها له إلى عشر حسنات ، ويعطيه بالعمل القليل الثواب الأبدي ﴿وهم من فزعٍ يومئذٍ آمنون﴾ أي وهم من خوف ذلك اليوم العصيب آمنون كما قال تعالى ﴿لا يحزنهم الفزعُ الأكبر﴾ ﴿ومن جاء بالسيئة فكُبَّتْ وجوههم في النار﴾ قال ابن عباس : السيئة : الإشراك بالله أي ومن جاء يوم القيامة مسيئاً لا حسنة له أو مشركاً بالله فإنه يكبُّ في جهنم على وجهه منكوساً ، ويُلقى فيها مقلوباً ﴿هل تُجزون إلا ماكنتم تعملون﴾ أي يقال لهم توبيخاً : هل تُجزون إلا جزاء ماكنتم تعملون في الدنيا من سيء الأعمال ؟ ﴿إنما أُمرتُ أن أعبد ربَّ هذه البلدة الذي حرَّمها﴾ أي قل لهم يا محمد : لقد أُمرت أن أخصَّ الله وحده بالعبادة ربَّ البلد الأمين الذي جعل مكة حرماً آمناً لا يُسفك فيها دم ، ولا يُظلم فيها أحد ، ولا يصاد صيدها ولا يُختلى خلاها[2] كما جاء في الحديث الصحيح ﴿وله كل شيء﴾ أي هو تعالى الخالق والمالك لكل شيء فهو رب كل شيء ومليكه ﴿وأُمرتُ أن أكون من المسلمين﴾ أي وأُمرت أن أكون من المخلصين لله بالتوحيد ، المنقادين لأمره ، المستسلمين لحكمه ﴿وأن أتلوا القرآن﴾ أي وأُمرتُ أيضاً بتلاوة القرآن لتنكشف لي حقائقه الرائعة ، وأن أقرأه على الناس ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾ أي فمن اهتدى بالقرآن ، واستنار قلبه بالإيمان ، فإن ثمرة هدايته راجعة إليه ﴿ومن ضلَّ فقل إنما أنا من المُنذرين﴾ أي ومن ضلَّ عن طريق الهدى ،فوبالُ ضلاله مختص به ، إذْ ما على الرسول إلا البلاغ وقد بلغتكم رسالة الله ﴿وقل الحمد لله﴾ أي قل يا محمد : الحمد لله على ما خصني

---

(١) التفسير الكبير ٢٤/ ٣٤ . (٢) لا يُختلى خلاها : أي لا يقطع حشيشها الرطب .

﴿فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

به من شرف النبوة والرسالة ، وما أكرمني من رفيع المنزلة والمقام ﴿سيريكم آياتِه فتعرفونها﴾ تهديد ووعيد أي سيريكم آياته الباهرة الدالة على عظيم قدرته وسلطانه في الأنفس والآفاق فتعرفونها حين لا تنفعكم المعرفة ﴿وما ربك بغافلٍ عما تعملون﴾ أي وما ربك بغافل عن أعمال العباد بل هو على كل شيء شهيد ، وفيه وعدٌ ووعيد .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستفهام الإنكاري ﴿أئذا كنا تراباً أئنا لمخرجون﴾ وتكرير الهمزة ﴿أئنا﴾ للمبالغة في التعجب والإنكار .

٢ ـ الوعيد والتهديد ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾ .

٣ ـ التأكيد بإن واللام ﴿وإن ربك لذو فضل﴾ ﴿وإن ربك ليعلم﴾ ﴿وإنه لهدى﴾ .

٤ ـ الطباق ﴿ما تُكنُّ صدورهم وما يعلنون﴾ لأن معنى ﴿تُكنُّ﴾ تخفي .

٥ ـ الاستعارة البديعة ﴿إن هذا القرآن يقصُّ﴾ لأن القصص لا يوصف به إلا الناطق المميز ، ولكنَّ القرآن لما تضمَّن نبأ الأولين، كان كالشخص الذي يقصُّ على الناس الأخبار ففيه استعارةٌ تبعية.

٦ ـ المبالغة ﴿العزيز العليم﴾ لأن صيغة فعيل من صيغ المبالغة .

٧ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ التعبير بالموتى ، والصم ، والعمي ، جاء كله بطريق الاستعارة ، وهو تمثيل لأحوال الكفار في عدم انتفاعهم بالإيمان بأنهم كالموتى والصم والعمي .

٨ ـ أسلوب التوبيخ والتأنيب ﴿أمَّاذا كنتم تعملون﴾ ؟

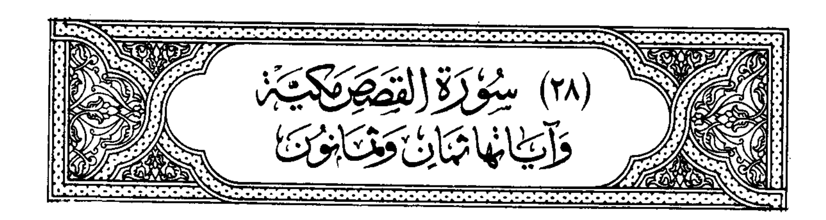
٩ ـ الطباق ﴿من جاء بالحسنة . . ومن جاء بالسيئة﴾ .

١٠ ـ التشبيه البليغ ﴿وهي تمر مرَّ السحاب﴾ أي تمرُّ كمرِّ السحاب في السرعة ، حذفت الأداة ووجه الشبه فأصبح تشبيهاً بليغاً مثل محمد قمر .

١١ ـ الإحتباك ﴿ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً﴾ حُذف من أوله ما أُثبت في آخره وبالعكس ،أصله جعلنا الليل مظلماً لتسكنوا فيه ، والنهار مبصراً لتتصرفوا فيه فحذف « مظلماً » لدلالة « مبصراً » عليه ، وحذف « لتتصرفوا فيه » لدلالة ﴿ليسكنوا فيه﴾ وهذا النوع يسمى الإحتباك وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة النمل »

* * *



(٢٨) سُورَةُ القَصَصِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا ثَمَانٍ وَثَمَانُونَ

بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة القصص من السور المكية التي تهتم بجانب العقيدة « التوحيد ، والرسالة ، والبعث » وهي تتفق في منهجها وهدفها مع سورتي « النمل ، والشعراء » كما اتفقت في جو النزول ، فهي تكمِّل أو تُفصِّل ما أجمل في السورتين قبلها .

* محور السورة الكريمة يدور حول فكرة الحق والباطل ، ومنطق الإذعان والطغيان ، وتصور قصة الصراع بين جند الرحمن ، وجند الشيطان ، وقد ساقت في سبيل ذلك قصتين : أولاهما قصة الطغيان بالحكم والسلطان ، ممثلة في قصة فرعون الطاغية المتجبر الذي أذاق بني إسرائيل سوء العذاب ، فذبح الأبناء ، واستحيا النساء ، وتعالى على الله حتى تجرأ على ادعاء الربوبية ﴿ما علمتُ لكم من إلهٍ غيري﴾ والثانية : قصة الاستعلاء والطغيان بالثروة والمال ممثلة في « قارون مع قومه » وكلا القصتين رمزٌ إلى طغيان الإنسان في هذه الحياة ، سواءً بالمال ، أو الجاه ، أو السلطان .

* ابتدأت السورة بالحديث عن طغيان فرعون وعلوه وفساده في الأرض ، ومنطق الطغيان في كل زمان ومكان .

* ثم انتقلت إلى الحديث عن ولادة موسى وخوف أُمه عليه من بطش فرعون ، وإلهام الله تعالى لها بإلقائه في البحر ليعيش معززاً مكرماً في حجر فرعون كريحانةٍ زكية تنبتُ وسط الأشواك والأوحال .

* ثم تحدثت عن بلوغ موسى سن الرشد ، وعن قتله للقبطي ، وعن هجرته إلى أرض مدين وتزوجه بابنة شعيب ، وتكليف الله له بالعودة إلى مصر لدعوة فرعون الطاغية إلى الله ، وما كان من أمر موسى مع فرعون بالتفصيل إلى أن أغرقه الله ، وتحدثت عن كفار مكة ووقوفهم في وجه الرسالة المحمدية ، وبيَّنت أن مسلك أهل الضلال واحد .

* ثم انتقلت إلى الحديث عن قصة قارون ، وبينت الفارق العظيم بين منطق الإيمان ، ومنطق الطغيان .

* وختمت السورة الكريمة بالإرشاد إلى طريق السعادة وهو طريق الإيمان الذي دعى إليه الرسل الكرام .

التسميـــة : سميت سورة « القصص » لأن الله تعالى ذكر فيها قصة موسى مفصلة موضحة من

حين ولادته الى حين رسالته ، وفيها من غرائب الأحداث العجيبة ما يتجلى فيه بوضوح عناية الله بأوليائه وخذلانه لأعدائه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ

اللغَة : ﴿شيعاً﴾ فِرقاً وأصنافاً ﴿يستحيي﴾ يتركه حيّاً ولا يقتله ﴿نمن﴾ نتفضل وننعم ﴿اليمّ﴾ البحر ﴿فارغاً﴾ خالياً ﴿المراضع﴾ جمع مُرضِع ، وأما المرضعة فجمعها مرضعات وهي التي ترضِع الطفل اللبن ﴿عن جُنُب﴾ عن بعد ومنه الأجنبي للبعيد غير القريب ﴿وكزه﴾ الوكز : الضرب بجُمْع الكف أي بكفه مجموعةً قال أهل اللغة : الوكزُ واللكز كلاهما بمعنى واحد وهو الضرب بجمع الكفّ على الصدر ، وقيل : الوكز في الصدر ، واللكزُ في الظهر ، وجمع الكف : الكف المقبوضةُ الأصابع[1] ﴿ظهيراً﴾ عوناً ﴿يستصرخه﴾ يستغيثه والاستصراخ الاستغاثة وهو من الصراخ لأن المستغيث يصرخ ويرفع صوته طلباً للغوث قال الشاعر :

كنا إذا ما أتانا صارخ فزعٌ ... كان الصراخ له قرع الظنابيب[2]

﴿يبطش﴾ البطش : الأخذ بالشدة والعنف ، بطش ويبطش ويبطش بالكسر والضم .

التفسِير : ﴿طسم﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم ، والإشارة إلى أن هذا الكتاب المعجز في فصاحته وبيانه مركبٌ من أمثال هذه الحروف الهجائية[3] ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ أي هذه آيات القرآن الواضح الجلي ، الظاهر في إعجازه ، الواضح في تشريعه وأحكامه ﴿نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحقّ﴾ أي نقرأ عليك يا محمد بواسطة الروح الأمين من الأخبار الهامة عن موسى وفرعون من الحق الذي لا يأتيه الباطل، والصدق الذي لا ريب فيه ولا كذب ﴿لقومٍ يؤمنون﴾ أي لقومٍ يصدقون بالقرآن فينتفعون . . ثم بدأ بذكر قصة فرعون الطاغية فقال ﴿إنّ فرعون علا في الأرض﴾ أي استكبر وتجبَّر ، وجاوز الحد في الطغيان في أرض مصر ﴿وجعل أهلها شيعاً﴾ أي جعل أهلها فرقاً وأصنافاً في استخدامه وطاعته ﴿يستضعف طائفةً منهم﴾ أي يستعبد ويستذل فريقاً منهم وهم بنو إسرائيل فيسومهم سوء العذاب ﴿يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم﴾ أي يقتّل أبناءهم الذكور ويترك الإناث على قيد الحياة لخدمته وخدمة الأقباط قال المفسرون : سبب تقتيله الذكور أن فرعون رأى في منامه أن ناراً عظيمةً أقبلت من بيت المقدس وجاءت إلى أرض مصر فأحرقت القبط دون بني إسرائيل ، فسأل عن ذلك المنجّمين والكهنة، فقالوا له: إن مولوداً يولد في بني إسرائيل، يذهب ملكك على يديه، ويكون هلاكك بسببه فأمر أن يقتل كل ذكر من أولاد بني اسرائيل ﴿إنه كان من المفسدين﴾ أي من الراسخين في

(١) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٥٠٧. (٢) القرطبي ١٣/ ٢٦٤. (٣) انظر ما كتبناه في أول سورة البقرة حول أوائل السور .

مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾

الفساد ، المتجبرين في الأرض ، ولذلك ادعى الربوبية وأمعن في القتل وإذلال العباد ﴿ونريد أن نمنَّ على الذين استُضعِفوا في الأرض﴾ أي ونريد برحمتنا أن نتفضل وننعم على المستضعفين من بني إسرائيل فننجيهم من بأس فرعون وطغيانه ﴿ونجعلهم أئمة﴾ أي ونجعلهم أئمة يقتدى بهم في الخير بعد أن كانوا أذلاء مسخرين قال ابن عباس : ﴿أئمة﴾ قادة في الخير ، وقال قتادة : ولاةً وملوكاً ﴿ونجعلهم الوارثين﴾ أي ونجعل هؤلاء الضعفاء وارثين لملك فرعون وقومه ، يرثون ملكهم ويسكنون مساكنهم بعد أن كان القبط أسياد مصر وأعزتها ﴿ونمكن لهم في الأرض﴾ أي ونملكهم بلاد مصر والشام يتصرفون فيها كيف يشاءون قال البيضاوي : أصل التمكين أن تجعل للشيء مكاناً يتمكن فيه ثم استعيد للتسليط وإطلاق الأمر[1] ﴿ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ أي ونري فرعون الطاغية ، ووزيره « هامان » والأقباط من أولئك المستضعفين ما كانوا يخافونه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولودٍ من بني إسرائيل ﴿وأوحينا إلى أمِّ موسى أن أرضعيه﴾ أي قذفنا في قلبها بواسطة الإلهام قال ابن عباس : هو وحيُ إلهام وقال مقاتل : أخبرها جبريل بذلك قال القرطبي : فعلى قول مقاتل هو وحيُ إعلام لا إلهام ، وأجمع الكل على أنها لم تكن نبية ، وإنما إرسال الملك إليها على نحو تكليم الملك للأقرع والأبرص والأعمى كما في الحديث المشهور ، وكذلك تكليم الملائكة للناس من غير نبوة ، وقد سلَّمت على « عمران بن حصين » فلم يكن نبياً[2] ﴿فإذا خفت عليه فألقيه في اليم﴾ أي فإذا خفت عليه من فرعون فاجعليه في صندوق وألقيه في البحر - بحر النيل - ﴿ولا تخافي ولا تحزني﴾ أي لا تخافي عليه الهلاك ولا تحزني لفراقه ﴿إنّا رادُّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ أي فإنا سنرده إليك ونجعله رسولاً نرسله إلى هذا الطاغية لننجّي بني إسرائيل على يديه ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ أي فأخذه وأصابه أعوان فرعون لتكون عاقبة الأمر أن يصبح لهم عدواً ومصدر حزن وبلاءٍ وهلاك قال القرطبي : اللام في « ليكون » لام العاقبة ولام الصيرورة ، لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قرة عين ، فكان عاقبة ذلك أن صار لهم عدواً وحزناً ، فذكر الحال بالمآل كما قال الشاعر :

وللمنايا تُربِّي كلُّ مرضعةٍ ودورُنا لخراب الدهر نبْنيها[3]

﴿إنَّ فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾ أي كانوا عاصين مشركين آثمين ، قال العلماء : الخاطىء

(١) البيضاوي ٢/٨٨ . (٢) القرطبي ١٣/ ٢٥٠ . (٣) القرطبي ١٣/ ٢٥٢ .

وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾

من تعمد الذنب والإثم ، والمخطىء من فعل الذنب عن غير تعمد **﴿وقالت امرأة فرعون قرة عينٍ لي ولـك﴾** أي قالت زوجة فرعون لفرعون: هذا الغلام فرحة ومسرة لي ولك لعلنا نسر به فيكون قرة عين لنا قال الطبري : ذكر أن المرأة لما قالت هذا القول لفرعون قال لها : أمَّا لك فنعم ، وأما لي فليس بقرة عين[1] ، وقال ابن عباس : لو قال قرة عين لي لهداه الله به ولآمن ولكنه أبى **﴿لا تقتلوه﴾** أي لا تقتله يا فرعون ، خاطبته بلفظ الجمع كما يُخاطب الجبارون تعظيماً له ليساعدها فيما تريد **﴿عسى أن ينفعنـا أو نتَّخذه ولداً﴾** عسى أن ينفعنا في الكبر، أو نتبناه فنجعله لنا ولداً تقرُّ به عيوننا قال المفسرون : وكانت لا تلد فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها قال تعالى **﴿وهم لا يشعـرون﴾** أي وهم لا يشعرون أن هلاك فرعون وزبانيته سيكون على يديه وبسببه **﴿وأصبح فؤاد أمّ موسـى فارغاً﴾** أي صار قلبها خالياً من ذكر كل شيء في الدنيا إلا من ذكر موسى[2] ، وقيل المعنى : طار عقلها من فرط الجزع والغم حين سمعت بوقوعه في يد فرعون **﴿إن كادت لتبـدي به﴾** أي إنها كادت أن تكشف أمره وتظهر أنه ابنها من شدة الوجد والحزن قال ابن عباس : كادت تصيح واإبناه ، وذلك حين سمعت بوقوعه في يد فرعون **﴿لولا أن ربطنـا على قلبها﴾** أي لولا أن ثبتناها وألهمناها الصبر **﴿لتكون من المؤمنيـن﴾** أي لتكون من المصدقين بوعد اللـه برده عليهـا **﴿وقالت لأخته قصّيـه﴾** أي قالت أم موسى لأخت موسى : إتبعي أثره حتى تعلمي خبره قال مجاهد : قصي أثره وانظري ماذا يفعلون به ؟ **﴿فبصـرت به عن جنب وهم لا يشعـرون﴾** أي فأبصرته عن بعد وهم لا يشعرون أنها أخته ، لأنها كانت تمشي على ساحل البحر حتى وصل الصندوق إلى بيت فرعون وهي ترقبه مستخفيةً عنهم **﴿وحرمنا عليه المراضـع من قبل﴾** أي ومنعنا موسى أن يقبل ثدي أي مرضعة من المرضعات اللاتي أحضروهن لإرضاعه من قبل مجيء أُمه قال المفسرون : بقي أياماً كلما أُتي بمرضع لم يقبل ثديها ، فأهمهم ذلك واشتد عليهم الأمر فخرجوا به يبحثون له عن مرضعة خارج القصر فرأوا أخته **﴿فقالت هـل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكـم﴾** أي هل أدلكم على مرضعة له تكفله وترعاه ؟ **﴿وهم له ناصحـون﴾** أي لا يقصرون في إرضاعه وتربيته قال السدي : فدلتهم على أم موسى فانطلقت إليها بأمرهم فجاءتٍ بها ، والصبي على يد فرعون يعلله شفقة عليه وهو يبكي يطلب الرضاع ، فدفعه إليها فلما وجد ريح أُمه قبل ثديها ، فقال فرعون : من أنت منه فقد أبى كل ثديٍ إلا ثديك ؟ فقالت : إني امرأة طيبة الريح ، طيبة

---

(١) الطبري ٢٠ / ٢٢.

(٢) هذا قول ابن عباس ومجاهد والضحاك وجمهور المفسرين ، والقول الثاني ذكره القرطبي عن ابن القاسم عن مالك ، ولعله الأظهر .

فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

اللبن ، لا أكاد أوتى بصبي إلا قبلني فدفعه إليها ، فرجعت إلى بيتها من يومها ولم يبق أحدٌ من آل فرعون إلا أهدى إليها وأتحفها بالهدايا والجواهر فذلك قوله تعالى ﴿فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن﴾ أي أعدناه إليها تحقيقا للوعد كي تسعد وتهنأ بلقائه ولا تحزن على فراقه ﴿ولتعلم أنَّ وعد الله حق﴾ أي ولتتحقق من صدق وعد الله برده عليها وحفظه من شر فرعون ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي ولكن أكثر الناس يرتابون ويشكون في وعد الله القاطع ﴿ولما بلغ أشده واستوى﴾ أي ولما بلغ كمال الرشد ، ونهاية القوة ، وتمام العقل والاعتدال قال مجاهد : هو سنُّ الأربعين ﴿آتيناه حكماً وعلماً﴾ أي أعطيناه الفهم والعلم والتفقه في الدين مع النبُوَّة ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ أي ومثل هذا الجزاء الكريم نجازي المحسنين على إحسانهم ﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها﴾ أي دخل مصر وقت الظهيرة والناس يخلدون للراحة عند القيلولة ﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه﴾ أي فوجد شخصين يتقاتلان : أحدهما من بني إسرائيل من جماعة موسى ، والآخر قبطي من جماعة فرعون ﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه﴾ أي فاستنجد الإسرائيلي بموسى وطلب غوثه ليدفع عنه شر القبطي ﴿فوكزه موسى فقضى عليه﴾ أي ضربه موسى بجمع كفه فقتله ، قال القرطبي : فعل موسى ذلك وهو لا يريد قتله إنما قصد دفعه فكانت فيه نفسه وكانت القاضية[1] ﴿قال هذا من عمل الشيطان﴾ أي هذا من إغواء الشيطان فهو الذي هيَّج غضبي حتى ضربت هذا ﴿إنه عدوٌ مضل مبين﴾ أي إن الشيطان عدوٌ لابن آدم ، مضلٌ له عن سبيل الرشاد ، ظاهر العداوة قال الصاوي : نسبه إلى الشيطان من حيث إنه لم يؤمر بقتل القبطي ، وظهر له أن قتله خلاف الأولى لما يترتب عليه من الفتن ، والشيطان تفرحه الفتن ولذلك ندم على فعله[2] ﴿قال ربِّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي﴾ أي إني ظلمت نفسي بقتل النفس فاعف عني ولا تؤاخذني بخطيئتي ﴿فغفر له إنه هو الغفور الرحيم﴾ أي إنه تعالى المبالغ في المغفرة للعباد ، الواسع الرحمة لهم ﴿قال ربِّ بما أنعمت عليَّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾ أي بسبب إنعامك عليَّ بالقوة وبحق ما أكرمتني به من الجاه والعز ، فلن أكون عوناً لأحد من المجرمين[3] ، وهذه معاهدة عاهد موسى ربه عليها وقيل : هو

(١) القرطبي ١٣/ ٢٦١. (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ١١٢

(٣) قال الرازي : وفي الآية دلالة على أنه لا يجوز معاونة الظلمة والفسقة .

﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

قسم وهو ضعيف ﴿فأصبح في المدينة خائفاً يترقب﴾ أي فأصبح موسى في المدينة التي قتل فيها القبطي خائفاً على نفسه يتوقع وينتظر المكروه ، ويخاف أن يؤ خذ بجريرته ﴿فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه﴾ أي فإذا صاحبه الإسرائيلي الذي خلَّصه بالأمس يقاتل قبطياً آخر فلما رأى موسى أخذ يصيح به مستغيثاً لينصره من عدوه ﴿قال له موسى إنك لغويٌ مبين﴾ أي قال موسى للإسرائيلي : إنك لبيِّنُ الغواية والضلال ، فإني وقعت بالأمس فيما وقعت فيه من قتل رجلٍ بسببك وتريد أن توقعني اليوم في ورطةٍ أخرى ؟ ﴿فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدوٌ لهما﴾ أي فحين أراد موسى أن يبطش بذلك القبطي الذي هو عدوٌ له وللإسرائيلي ﴿قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس﴾ أي قال القبطي : أتريد قتلي كما قتلت غيري بالأمس[1] ؟ ﴿إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض﴾ أي ما تريد يا موسى إلا أن تكون من الجبابرة المفسدين في الأرض ﴿وما تريد أن تكون من المصلحين﴾ أي وما تريد أن تكون من الذين يصلحون بين الناس .

البلاغة : تضمنت الآيات من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ ـ الإشارة بالبعيد عن القريب لبعد مرتبته في الكمال ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ .

٢ ـ حكاية الحالة الماضية ﴿ونريد أن نمُنّ﴾ لاستحضار تلك الصورة في الذهن .

٣ ـ إيثار الجملة الإسمية على الفعلية ﴿إنا رادُّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ ولم يقل سنرده ونجعله رسولاً وذلك للاعتناء بالبشارة لأن الجملة الإسمية تفيد الثبوت والإستمرار .

٤ ـ الاستعارة ﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾ شبه ما قذف الله في قلبها من الصبر بربط الشيء المنفلت خشية الضياع واستعار لفظ الربط للصبر .

٥ ـ صيغة التعظيم ﴿لا تقتلوه﴾ تخاطب فرعون ولم تقل لا تقتله تعظيماً له .

٦ ـ صيغة المبالغة ﴿جبَّار ، غوي ، مبين﴾ لأن فعال وفعيل من صيغ المبالغة .

٧ ـ الطباق المعنوي ﴿جباراً . . وما تريد أن تكون من المصلحين﴾ لأن الجبار المفسد المخرِّب ، المكثر للقتل وسفك الدماء ففيه طباق في المعنى .

---

(١) هذا هو الظاهر أن القائل هو القبطي لا الإسرائيلي لأن قوله ﴿إن تريد إلا أن تكون جباراً﴾ لا يصدر من المؤمن وإنما من الكافر .

٨ ـ الاستعطاف ﴿ربٍّ بما أنعمت عليَّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾ .

٩ ـ توافق الفواصل في كثير من الآيات مثل ﴿وهم لا يشعرون﴾ ﴿وهم له ناصحون﴾ ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ وهو من المحسنات البديعية .

لطيفة : «حكى العلاَّمة القرطبي عن الأصمعي أنه قال سمعت جارية أعرابية تنشد :

أستغفر الله لذنبي كله قتلتُ إنساناً بغير حلِّه
مثل الغزال ناعماً في دله انتصف الليل ولم أُصلِّه

فقلت : قاتلك الله ما أفصحك ؟ فقالت : ويحك أويعد هذا فصاحة مع قول الله عز وجل ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ، ولا تخافي ولا تحزني ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ فقد جمع في آية واحدة بين أمرين ، ونهيين ، وخبرين وبشارتين»[1] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وجاء رجلٌ من أقصى المدينة يسعى . . إلى . . ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ من آية (٢٠) إلى نهاية آية (٤٢) .

المناسبة : لا تزال الآيات تتحدث عن قصة موسى ، وقد تناولت الآيات السابقة قصة ولادته وإرضاعه ، وتربيته في بيت فرعون إلى أن شبَّ وبلغ سنَّ الرشد والكمال ، ثم قتله للفرعوني ، وتتحدث الآيات هنا عن هجرته إلى أرض مدين وتزوجه بابنة شعيب ، ثم عودته إلى مصر ، ونزول النبوة عليه ، وهلاك فرعون على يديه .

اللغة : ﴿يأتمرون﴾ يتشاورون قال الأزهري : ائتمر القوم وتآمروا أي أمر بعضهم بعضاً ﴿تذودان﴾ ذاد يذود إذا حبس ومنع ، وذاد طرد قال الشاعر :

لقد سلبت عصاك بنو تميم فما تدري بأي عصى تذود[2]

﴿خطبكما﴾ الخطب : الشأن قال رؤبة : «يا عجباً ما خطبه وخطبي» ﴿الرعاء﴾ جمع راعٍ مثل صاحب وصحاب وهو الذي يرعى الغنم ﴿حجج﴾ جمع حجة بكسر الحاء وهي السنة ﴿جذوة﴾ الجذوة : الجمرة الملتهبة ﴿ردءاً﴾ عوناً قال الجوهري : أردأتُه أعنته ، وكنتُ له ردءاً أي عوناً ﴿المقبوحين﴾ الهالكين المبعدين أو القبيحين في الصورة يقال : قَبَحه الله وقبَّحه إذا جعله قبيحاً .

(١) تفسير القرطبي ١٣/ ٢٥٢ . (٢) البيت لجرير يهجو الفرزدق كذا في القرطبي ١٣/ ٢٦٨ .

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

التفسير : ﴿وجاء رجلٌ من أقصى المدينة يسعى﴾ أي وجاء رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه من أبعد أطراف المدينة يشتد ويسرع في مشيه قال ابن عباس : هذا الرجل هو مؤمن من آل فرعون ﴿قال يا موسى إنَّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك﴾ أي قال له يا موسى : إن أشراف فرعون ، ووجوه دولته يتشاورون فيك بقصد قتلك ﴿فاخرج إني لك من الناصحين﴾ أي فاخرج قبل أن يدركوك فأنا ناصحٌ لك من الناصحين ﴿فخرج منها خائفاً يترقَّب﴾ أي فخرج من مصر خائفاً على نفسه يترقب وينتظر الطلب أن يدركه فيأخذه ، ثم التجأ إلى الله سبحانه بالدعاء لعلمه بأنه لا ملجأ سواه ﴿قال ربِّ نجني من القوم الظالمين﴾ أي خلصني من الكافرين واحفظني من شرهم ـ والمراد بهم فرعون وملؤه ـ ﴿ولما توجَّه تلقاء مدين﴾ أي قصد بوجهه ناحية مدين وهي بلدة شعيب عليه السلام ﴿قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾ أي لعل الله يرشدني إلى الطريق السوي الذي يوصلني إلى مقصودي قال المفسرون : خرج خائفاً بغير زاد ولا ظهر ـ مركب ـ وكان بين مصر ومدين مسيرةُ ثمانية أيام ، ولم يكن له علمٌ بالطريق سوى حسن ظنه بربه ، فبعث الله إليه ملكاً فأرشده إلى الطريق ، ويروى أنه لما وصل مدين كانت خضرةُ البقل تتراءى من بطنه من الهزال ، لأنه كان في الطريق يتقوت ورق الشجر ﴿ولمَّا ورد ماء مدين وجد عليه أُمةً من الناس يسقون﴾ أي ولما وصل إلى مدين بلدة شعيب وجد على البئر الذي يستقي منه الرعاة جمعاً كثيفاً من الناس يسقون مواشيهم ﴿ووجد من دونهم امرأتين تذودان﴾ أي ووجد سوى الجماعة الرعاة امرأتين تكفَّان غنمهما عن الماء ﴿قال ما خطبكما﴾ ؟ أي ما شأنكما تمنعان الغنم عن ورود الماء ؟ ولم لا تسقيان مع السقاة ؟ ﴿قالتا لا نسقي حتى يصدر الرِّعاءُ وأبونا شيخ كبير﴾ أي من عادتنا التأني حتى ينصرف الرعاةُ مع أغنامهم عن الماء ، ولا طاقة لنا على مزاحمة الأقوياء ، ولا نريد مخالطة الرجال ، وأبونا رجل مُسنٌّ لا يستطيع لضعفه أن يباشر سقاية الغنم ، ولذلك اضطررنا إلى أن نسقي بأنفسنا قال أبو حيان : فيه اعتذار لموسى عن مباشرتها السقي بأنفسهما ، وتنبيهٌ على أن أباهما لا يقدر على السقي لشيخوخته وكبره، واستعطافٌ لموسى في إعانتهما[1] ﴿فسقى لهما ثم تولَّى إلى الظل﴾ أي فسقى لهما غنمهما رحمة بهما ، ثم تنحى جانباً فجلس تحت ظل شجرة ﴿فقال ربِّ إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير﴾ أي إني يا ربِّ محتاجٌ إلى فضلك

---

(١) البحر ١١٣/٧.

فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

وإحسانك ، وإلى الطعام الذي أسدُّ به جوعي ، طلب من الله ما يأكله وكان قد اشتد عليه الجوع قال الضحاك : مكث سبعة أيام لم يذق فيها طعاماً إلا بقل الأرض[١] وقال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى « مدين » ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافياً فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه ، وجلس في الظل ـ وهو صفوة الله من خلقه ـ وإن بطنه للاصقٌ بظهره من الجوع ، وإن خضرة البقل لتُرى من داخل جوفه ، وإنه لمحتاجٌ إلى شق تمرة[٢] **﴿فجاءته إحداهما تمشي على استحياء﴾** في الكلام اختصار تقديره : فذهبتا إلى أبيهما سريعتين ، وكان من عادتهما الإبطاء فحدثتاه بما كان من أمر الرجل ، فأمر إحداهما أن تدعوه له فجاءته تمشي . . الخ أي جاءته حال كونها تمشي مشية الحرائر بحياء وخجل قد سترت وجهها بثوبها قال عمر : لم تكن بسلفع من النساء خرَّاجة ولأجة[٣] **﴿قالت إنَّ أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾** أي إنَّ أبي يطلبك ليعوضك عن أجر السقاية لغنمنا قال ابن كثير : وهذا تأدبٌ في العبارة لم تطلبه طلباً مطلقاً لئلا يوهم ريبة[٤] **﴿فلما جاءه وقصَّ عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾** أي فلما جاءه موسى وذكر له ما كان من أمره وسبب هربه من مصر قال له شعيب : لا تخف فأنت في بلدٍ آمن لا سلطان لفرعون عليه وقد نجاك الله من كيد المجرمين **﴿قالت إحداهما يا أبت استأجره﴾** أي استأجره لرعي أغنامنا وسقايتها **﴿إنَّ خير من استأجرت القويُّ الأمين﴾** أي إنَّ أفضل من تستأجره من كان قوياً أميناً قال أبو حيان : وقولها كلام حكيم جامع لأنه إذا اجتمعت الكفاية والأمانة في القائم بأمرٍ من الأمور فقد تمَّ المقصود[٥] ، روي أن شعيباً قال لها : وما أعلمك بقوته وأمانته ؟ فقالت : إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال ، وإني لما جئتُ معه تقدمتُ أمامه فقال لي : كوني من ورائي ودليني على الطريق ، ولما أتيته خفض بصره فلم ينظر إليَّ ، فرغب شعيب في مصاهرته وتزويجه بإحدى بناته **﴿قال إني أريد أن أُنكحك إحدى ابنتيَّ هاتين﴾** أي إني أريد أن أزوجك إحدى بنتيَّ هاتين الصغرى أو الكبرى **﴿على أنْ تأجرني ثماني حجج﴾** أي بشرط أن تكون أجيراً لي ثماني سنين ترعى فيها غنمي **﴿فإن أتممت عشراً فمن عندك﴾** أي فإن أكملتها عشر سنين فذلك تفضل منك ، وليس بواجب عليك **﴿وما أُريد أن أشقَّ عليك﴾** أي وما أُريد أن أوقعك في المشقة باشتراط العشر **﴿ستجدني إن شاء الله**

---

(١) الرازي ٢٤/ ٢٤٠. (٢) ابن كثير المختصر ٣/ ١٠ (٣) الطبري ٢٠/ ٣٩ والسلفع : الجريئة السليطةُ الجَسُور أفاده الجوهري .
(٤) ابن كثير ٣/ ١١ . (٥) البحر ٧/ ١١٤ .

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ * فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾

من الصالحين﴾ أي ستجدني إن شاء الله حسن المعاملة ، لينّ الجانب ، وفياً بالعهد قال القرطبي : في الآية عرضُ الوليّ ابنته على الرجل ، وهذه سُنة قائمة ، عرض شعيب ابنته على موسى ، وعرض عمر ابنته حفصة على أبي بكر وعثمان ، وعرضت الموهوبة نفسها على النبي ﷺ، فمن الحُسْن عرض الرجل وليته على الرجل الصالح ، اقتداءً بالسلف الصالح[1] ﴿قال ذلك بيني وبينك أيّما الأجلين قضيتُ فلا عدوان عليّ﴾ أي قال موسى : إنَّ ما قلته وعاهدتني عليه قائم بيننا جميعاً لا نخرج عنه ، وأيَّ المدتين الثماني أو العشر أديتها لك فلا إثم ولا حرج عليَّ ﴿والله على ما نقول وكيل﴾ أي والله شاهد على ما تعاهدنا وتواثقنا عليه ﴿فلما قضى موسى الأجل﴾ أي فلما أتم موسى المدة التي اتفقا عليها قال ابن عباس : قضى أتم الأجلين وأكملها وأوفاهما وهو عشر سنين ﴿وسار بأهله﴾ أي ومشى بزوجته مسافراً بها إلى مصر ﴿آنس من جانب الطور ناراً﴾ أي أبصر من بعيد ناراً تتوهج من جانب جبل الطور ﴿قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً﴾ أي قال لزوجته امكثي هنا فقد أبصرت ناراً عن بعد قال المفسرون : كانت ليلةً باردة وقد أضلوا الطريق ، وهبَّت ريح شديدة فرقت ماشيته ، وأخذ أهله الطلق فعند ذلك أبصر ناراً بعيدة فسار إليها لعله يجد من يدله على الطريق فذلك قوله تعالى ﴿لعلّي آتيكم منها بخبر﴾ أي لعلي آتيكم بخبر الطريق وأرى من يدلني عليه ﴿أو جذوةٍ من النار لعلكم تصطلون﴾ أي أو آتيكم بشعلة من النار لعلكم تستدفئون بها ﴿فلما أتاها نُودي من شاطىء الوادِ الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة﴾ أي فلما وصل إلى مكان النار لم يجدها ناراً وإنما وجدها نوراً ، وجاءه النداء من جانب الوادي الأيمن في ذلك المكان المبارك من ناحية الشجرة ﴿أنْ يا موسى إني أنا الله ربُّ العالمين﴾ أي نودي يا موسى إن الذي يخاطبك ويكلمك هو أنا الله العظيم الكبير ، المنزه عن صفات النقص ، ربُّ الإنس والجن والخلائق أجمعين ﴿وأنْ ألق عصاك﴾ أي ونودي بأن اطرح عصاك التي في يدك ﴿فلما رآها تهتز كأنها جانٌ ولّى مدبراً ولم يعقب﴾ أي فألقاها فانقلبت إلى حيّة فلما رآها تتحرك كأنها ثعبان خفيف سريع الحركة انهزم هارباً منها ولم يلتفت إليها قال ابن كثير : انقلبت العصى إلى حية وكانت كأنها جانٌ في حركتها السَّريعة مع عِظَم خلقتها ، واتساع فمها ، واصطكاك أنيابها بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتها تنحدر في فمها تتقعقع كأنها حادرة في واد ، فعند ذلك ولّى مدبراً ولم

(١) القرطبي ١٣/ ٢٧١ .

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ﴾

يلتفت ، لأن طبع البشرية ينفر من ذلك[1] ﴿يا موسى أقْبل ولا تخف إنك من الآمنين﴾ أي فنودي يا موسى : إرجع إلى حيث كنت ولا تخف فأنت آمنٌ من المخاوف ، فرجع وأدخل يده في فم الحية فعادت عصا ﴿أُسْلُكْ يدك في جيبك تخرجْ بيضاء من غير سوء﴾ أي أدخل يدك في جيب قميصك ـ وهو فتحة الثوب مكان دخول الرأس ـ ثم أخرجها تخرج مضيئةً منيرة تتلألأ كأنها قطعة قمر في لمعان البرق من غير أذى ولا برص ﴿واضممْ إليك جناحك من الرهب﴾ قال ابن عباس : اضمم يدك إلى صدرك من الخوف يذهب عنك الرعب قال المفسرون : المراد بالجناح اليد لأن يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر ، وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى فقد ضم جناحه إليه وبذلك يذهب عنه الخوف من الحيةومن كل شيء ﴿فذلك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه﴾ أي فهذان ـ العصا واليد ـ دليلان قاطعان ، وحجتان نيرتان واضحتان من الله تعالى تدلان على صدقك ، وهما آيتان إلى فرعون وأشراف قومه الطُغاة المتجبرين ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ أي خارجين عن طاعتنا ، مخالفين لأمرنا ﴿قال ربِّ إني قتلتُ منهم نفساً فأخاف أن يقتلون﴾ أي قال موسى يا رب إني قتلت قبطياً من آل فرعون وأخشى إن أتيتهم أن يقتلوني به قال المفسرون : هو القبطي الذي وكزه فمات ، فطلب من ربه ما يزداد به قوة على مجابهة فرعون بإرسال أخيه هارون معه فقال ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً﴾ أي هو أوضح بياناً ، وأطلق لساناً ، لأن موسى كان في لسانه حُبْسة من أثر الجمرة التي تناولها في صغره ﴿فأرسله معي ردْءاً يُصدِّقني﴾ أي فأرسلْهُ معي معيناً يبيِّن لهم عني ما أكلمهم به بتوضيح الحجج والبراهين ﴿إني أخاف أن يكذبون﴾ أي أخاف إن لم يكن لي وزير ولا معين أن يكذبوني لأنهم لا يكادون يفقهون عني ، قال الرازي : والمعنى أرسل معي أخي هارون حتى يعاضدني على إظهار الحجة والبيان ، وليس الغرض بتصديق هارون أن يقول له : صدقتَ ، أو يقول للناس : صدقَ موسى ، وإنما هو أن يُلخّص بلسانه الفصيح وجوه الدلائل ، ويجيب عن الشبهات ، ويجادل به الكفار[2] ﴿قال سنشدُّ عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً﴾ أي أجابه تعالى إلى طلبه وقال له : سنقوّيك

(١) يقول سيد قطب عليه الرحمة والرضوان «وألقى موسى عصاه إطاعةً لأمر مولاه ، ولكن ماذا حدث ؟ إنها لم تعد عصاه التي صاحبها طويلاً والتي يعرفها معرفة اليقين ، ولكنها حية تدب في سرعةٍ ، وتتحرك في خفةٍ ، وتتلوى كصغار الحيات وهي حية كبرى ، إنها المفاجأة التي لم يستعد لها ولذلك ولّى مدبراً ولم يعقب ، لم يفكر في العودة إليها ليتبين ماذا بها ، وليتأمل هذه العجيبة الضخمة ، ثم يستمع إلى ربه الأعلى ﴿يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين﴾ وكيف لا يأمن من ترعاه عين الله ؟ ثم يأتيه النداء مرة اخرى ﴿أسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾ وأطاع موسى الأمر ، وأدخل يده في فتحة ثوبه عند صدره ثم أخرجها ، فإذا هي المفاجأة الثانية في اللحظة الواحدة ، إنها بيضاء لامعة مشعة من غير مرض ، وقد عهدها أدماء تضرب إلى السمرة ، إنها إشارة الى إشراق الحق ، ووضوح الآية ، ونصاعة الدليل» من الظلال . (٢) التفسير الكبير للرازي ٢٤/ ٣٤٩ .

عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾

بأخيك ونعينك به ، ونجعل لكما غلبةً وتسلطاً على فرعون وقومه ﴿فلا يصلون إليكما بآياتنا﴾ أي لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب ما أيدتكما به من المعجزات الباهرات ﴿أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾ أي العاقبة لكما ولأتباعكما في الدنيا والآخرة ، وأنتم الغالبون على القوم المجرمين كقوله تعالى ﴿كَتَبَ الله لأغلبنَّ أنا ورسلي إنَّ الله قوي عزيز﴾ ﴿فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات﴾ أي فلما جاءهم موسى بالبراهين الساطعة ، والمعجزات القاطعة ، الدالة على صدقه وأنه رسولٌ من عند الله ﴿قالوا ما هذا إلاّ سحرٌ مفترى﴾ أي ما هذا الذي جئتنا به من العصا واليد إلا سحرٌ مكذوب مختلق ، افتريته من قِبل نفسك وتنسبه إلى الله ﴿وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾ أي وما سمعنا بمثل هذه الدعوى - دعوى التوحيد - في آبائنا وأجدادنا السابقين ﴿وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبةُ الدار﴾ أجمل موسى في جوابهم تلطفاً في الخطاب ، وإيثاراً لأحسن الوجوه في المجادلة معهم والمعنى : إن ما جئتكم به حقٌ وهدى وليس بسحر ، وربي عالمٌ بذلك يعلم أني محقٌ وأنتم مبطلون ، ويعلم من تكون له العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ أي لا يسعد ولا ينجح من كان ظالماً فاجراً ، كاذباً على الله ﴿وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمتُ لكم من إلهٍ غيري﴾ أي قال فرعون لأشراف قومه وسادتهم : ما علمتُ لكم إلهاً غيري قال ابن عباس : كان بين هذه القولة الفاجرة وبين قوله ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ أربعون سنة ، وكذب عدوُّ الله بل علم أن له رباً هو خالقه وخالق قومه[1] ﴿فأوقدْ لي يا هامانُ على الطين فاجعل لي صرحاً﴾ أي فاطبخ لي يا هامان الآجر فاجعل لي منه قصراً شامخاً رفيعاً ﴿لعلي اطلعُ إلى إله موسى﴾ أي لعلي أرى وأشاهد إله موسى الذي زعم أنه أرسله ، قال ذلك على سبيل التهكم ولهذا قال بعده ﴿وإني لأظنه من الكاذبين﴾ أي وإني لأظن موسى كاذباً في ادعائه أن في السماء رباً قال تعالى ﴿واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق﴾ أي وتكبر وتعظم فرعون وقومه عن الإيمان بموسى في أرض مصر بالباطل والظلم ﴿وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون﴾ أي واعتقدوا أن لا بعث ولا نشور ، ولا

(١) القرطبي ١٣/ ٢٨٨.

﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾

حساب ولا جزاء ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليمّ﴾ أي فأخذناه مع جنوده فطرحناهم في البحر، وأغرقناهم فلم يبق منهم أحد ﴿فانظر كيف كان عاقبةُ الظالمين﴾ أي فانظر يا محمد بعين قلبك نظر اعتبار كيف كان مآل هؤلاء الظالمين الذين بلغوا من الكفر والطغيان أقصى الغايات؟ ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾ أي وجعلناهم في الدنيا قادة وزعماء في الكفر يقتدي بهم أهلُ الضلال ﴿ويوم القيامة لا ينصرون﴾ أي ويوم القيامة ليس لهم ناصر يدفع عنهم العذاب ﴿وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة﴾ أي جعلنا اللعنة تلحقهم في هذه الحياة الدنيا من الله والملائكة والمؤمنين ﴿ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ أي وفي الآخرة هم من المبعدين المطرودين من رحمة الله عز وجل.

البَـلاَغَـة: تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ ـ التأكيد بإنَّ واللام ﴿إنَّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك﴾ مناسبةً لمقتضى الحال.

٢ ـ الاستعطاف والترحم ﴿ربِّ إني لما أنزلت إليَّ من خيرٍ فقير﴾.

٣ ـ جناس الاشتقاق ﴿وقصَّ عليه القصص﴾.

٤ ـ التشبيه المرسل المجمل ﴿تهتز كأنها جانٌ﴾ حذف وجه الشبه فأصبح مجملاً.

٥ ـ الطباق بين ﴿يصدقني.. ويكذبون﴾.

٦ ـ الكناية ﴿واضمم إليك جناحك﴾ كنى عن اليد بالجناح، لأنها للإنسان كالجناح للطائر.

٧ ـ المجاز المرسل ﴿سنشد عضدك بأخيك﴾ من إطلاق السبب وإرادة المسبب لأن شد العضد يستلزم شد اليد، وشد اليد مستلزم للقوة، قال الشهاب: ويمكن أن يكون من باب الاستعارة التمثيلية، شبه حال موسى في تقويته بأخيه بحال اليد في تقويتها بيد شديدة.

لطيفَـة: قال الزمخشري: إنما قال ﴿فأوقد لي يا هامان على الطين﴾ أي أوقد لي النار فأتخذ منه آجراً ولم يقل «أطبخ لي الآجر» لأن هذه العبارة أحسن طباقاً لفصاحة القرآن وعلو طبقته، وأشبه بكلام الجبابرة، وهامان وزيره ومدبِّر رعيته.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى.. إلى.. وله الحكم وإليه ترجعون﴾ من آية (٤٣) إلى نهاية آية (٧٠).

المناسبة : بعد أن ذكر تعالى نعمته على بني إسرائيل بإهلاك فرعون رأس الطغيان وتخليصهم من شره ، ذكر هنا ما أنعم به عليهم من إنزال التوراة التي فيها الهدى والنور ، كما ذكر نعمته على العرب بإنزال القرآن العظيم خاتمة الكتب السماوية .

اللغة : ﴿ثاوياً﴾ مقيماً وثوى بالمكان أقام به قال الشاعر :

« لقد كان في حولٍ ثواءٌ ثويته »[1]

﴿يدرءون﴾ يدفعون ، والدرءُ : الدفع وفي الحديث (إدرءوا الحدود بالشبهات) ﴿يجبى﴾ يجمع ، جبى الماء في الحوض جمعه ، والجابية : الحوض العظيم ﴿بطرت﴾ البطر : الطغيان في النعمة ﴿الأنباء﴾ الأخبار جمع نبأ وهو الخبر الهام .

سبب النزول : لما حضرت أبا طالبٍ الوفاة قال له رسول الله ﷺ : يا عم قل « لا إله إلا الله » أشهد لك بها يوم القيامة فقال أبو طالب : لولا أن تعيرني قريش يقولون : إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك فأنزل الله عز وجل ﴿إنَّك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين﴾[2] .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ

التفسير : ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ماأهلكنا القرون الأولى﴾ اللام موطئة للقسم أي والله لقد أعطينا موسى التوراة من بعد ما أهلكنا الأمم التي كانت قبله كقوم نوحٍ وعادٍ وثمود وقوم لوطٍ وغيرهم من المكذبين لرسلهم ﴿بصائر للناس﴾ أي ضياءً لبني إسرائيل ونوراً لقلوبهم يتبصرون بها الحقائق ، ويميزون بها بين الحق والباطل ﴿وهدى ورحمةً لعلهم يتذكرون﴾ أي وهدى من الضلالة ، ورحمة لمن آمن بها ليتعظوا بما فيها من المواعظ والإرشادات الإلهية ﴿وما كنت بجانب الغربي﴾ أي وما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي ، وهو المكان الذي كلّم الله تعالى به موسى ﴿إذْ قضينا إلى موسى الأمر﴾ أي حين أوحينا إلى موسى بالنبوة وأرسلناه إلى فرعون وقومه ﴿وما كنتَ من الشاهدين﴾ أي وما كنت من الحاضرين في ذلك المكان ، ولكن الله أوحى إليك ذلك ليكون حجة وبرهاناً على صدقك قال ابن كثير : يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد ﷺ حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كأنَّ سامعه شاهد وراء لما تقدَّم ، وهو رجل أميٌّ لا يقرأ شيئاً من الكتب ، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك ، والمعنى ما كنتَ حاضراً لذلك ولكنَّ الله أوحاه إليك لتخبرهم بتلك المغيبات[3] ﴿ولكنَّا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر﴾ أي ولكنَّنا خلقنا أمماً وأجيالاً

(١) البحر المحيط ٧/١٠٣. (٢) أخرجه مسلم وانظر زاد المسير ٦/ ٢٣١. (٣) ابن كثير ٣/ ١٥ المختصر .

أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ

من بعد موسى ، فتطاول عليهم الزمان ، وطالت الفترة فنسوا ذكر الله ، وبدَّلوا وحرفوا الشرائع فأرسلناك يا محمد لتجدِّد أمر الدين قال أبو السعود : المعنى ولكنا خلقنا بين زمانك وزمان موسى قروناً كثيرة ، فتمادى عليهم الأمر ، فتغيرت الشرائع والأحكام ، وعميت عليهم الأنباء فأوحينا إليك ، فحذف المستدرك اكتفاءً بذكر الموجب[1] ﴿وما كنتَ ثاوياً في أهل مدين يتلـوا عليهم آياتنا﴾ أي وما كنتَ يا محمد مقيماً في أهل مدين فتعلم خبر موسى وشعيب وابنتيه فتتلو ذلك على أهل مكة ﴿ولكنا كنّا مرسلين﴾ أي ولكنا أرسلناك في أهل مكة وأخبرناك بتلك الأخبار ، ولولا ذلك لما علمتها ﴿وما كنتَ بجانب الطُّو ر إذْ نادينا﴾ أي وما كنتَ أيضاً بجانب جبل الطور وقت ندائنا لموسى وتكليمنا إياه ﴿ولكن رحمةً من ربِّـك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلـك﴾ أي لم تشاهد شيئاً من أخبار وقصَص الأنبياء ، ولكنّا أوحيناها إليك ، وقصصناها عليك ، رحمةً من ربك لتخوِّف قوماً ما جاءهم رسول قبلك يا محمد ﴿لعلهم يتذكّرون﴾ أي لعلهم يتعظون بما جئتهم به من الآيات البينات ، فيدخلوا في دينك قال المفسرون : المراد بالقوم الذين كانـوا في زمـن الفترة بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما وهي نحوٌ من ستمائة سنة ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبةٌ بما قدمـت أيديهم﴾ أي ولولا قولهم إذا أصابتهم عقوبة بسبب كفرهم ومعاصيهم ﴿فيقولوا ربَّنا لولا أرسلـتَ إلينـا رسولاً فنتَّبع آيـاتـك ونكو ن من المؤمنين﴾ أي فيقولوا عند ذلك ربنا هلاّ أرسلت إلينا رسولاً يبلغنا آياتك فنتبعها ونكون من المصدقين بها !! قال القرطبي : وجواب ﴿لولا﴾ محذوف تقديره لما بعثنا الرسل[2] ، وقال في التسهيل : ﴿لولا﴾ الأولى حرف امتناع ، و ﴿لولا﴾ الثانية عرضٌ وتحضيض ، والمعنى : لولا أن تصيبهم مصيبة بكفرهم لم نرسل الرسل ، وإنما أرسلناهم على وجه الإعذار وإقامة الحجة عليهم لئلا يقولوا ربَّنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتَّبع آياتك ونكون من المؤ منين[3] ، ثم أخبر تعالى عن عناد المشركين وتعنتهم في ردِّ الحق فقال ﴿فلما جاءهم الحقُّ من عندنا قالوا لولا أُوتي مثل ما أُوتي موسـى﴾ أي فلما جاء أهل مكة الحقُّ المبين وهو محمد بالقرآن المعجز من عندنا قالوا ـ على وجه التعنت والعناد ـ هلاّ أُعطي محمد من الآيات الباهرة ، والحجج القاهرة مثل ما أُعطي موسى من العصا واليد !! قال تعالى رداً عليهم ﴿أو لم يكفروا بما أُوتي موسـى من قبلُ ؟﴾ أي أو لم يكفر البشر بما أُوتي موسى من تلك الآيات الباهرة ؟ ! قال مجاهد : أمرت اليهود قريشاً أن يقولوا لمحمد : ائتنا بمثل ما جاء به موسى من المعجزات ، فردَّ الله عليهم

(١) تفسير أبو السعود ٤/ ١٥٥. (٢) القرطبي ١٣/ ٢٩٣. (٣) التسهيل ٣/ ١٠٧.

يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

بأنهم كفروا بآيات موسى[١] ، فالضمير في ﴿أو لم يكفروا﴾ لليهود ، وهذا اختيار ابن جرير وقال أبو حيان : ويظهر عندي أن الضمير عائد على قريش الذين قالوا لولا أُوتي محمد مثل ما أُوتي موسى ، وذلك أن تكذيبهم لمحمد ﷺ تكذيبٌ لموسى ، ونسبتهم السحر للرسول نسبة السحر لموسى ، إذ الأنبياء من وادٍ واحدٍ فمن نسب إلى أحدٍ من الأنبياء ما لا يليق كان ناسباً ذلك إلى جميع الأنبياء ، وتتناسق حينئذٍ الضمائر كلُّها[٢] ﴿قالوا سحران تظاهرا﴾ أي وقال المشركون ما التوراة والقرآن إلا من قبيل السحر ، فهما سحران تعاونا بتصديق كل واحدٍ منهما الآخر قال السُدّي : صدَّق كل واحدٍ منهما الآخر ﴿وقالوا إنّا بكلٍ كافرون﴾ أي إنّا بكل من الكتابين كافرون قال أبو السعود : وهذا تصريحٌ بكفرهم بهما وذلك لغاية عتوهم وتماديهم في الكفر والطغيان[٣] ﴿قل فأتوا بكتابٍ من عند الله هو أهدى منهما أتبعه﴾ أمرٌ على وجه التعجيز أي قل لهم يا محمد إنكم إذْ كفرتم بهذين الكتابين مع ما تضمنا من الشرائع والأحكام ومكارم الأخلاق فائتوني بكتاب منزلٍ من عند الله أهدى منهما وأصلح أتمسك به ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي في أنهما سحران قال ابن كثير : وقد عُلم بالضرورة لذوي الألباب أن الله تعالى لم ينزل كتاباً من السماء أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم من الكتاب الذي أنزله على محمد ﷺ وهو القرآن ، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى ، وهو الكتاب الذي قال فيه ﴿إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ والإِنجيلُ إنما أُنزل متمماً للتوراة ومحُلاً لبعض ما حُرم على بني إسرائيل[٤] ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلمْ أنَّما يتبعون أهواءهم﴾ أي فإن لم يجيبوك إلى ما طلبته منهم فاعلم أن كفرهم عنادٌ واتباع للأهواء لا بحجةٍ وبرهان ﴿ومَنْ أضل ممَّن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾ أي لا أحد أضلُ ممن اتبع هواه بغير رشادٍ ولا بيانٍ من الله ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي لا يوفق للحق من كان معانداً ظالماً ، بالانهماك في اتباع الهوى ، والإِعراض عن سبيل الهدى ﴿ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون﴾ أي ولقد تابعنا وواليناً لقريش القرآن يتبع بعضُه بعضاً ، وعداً ووعيداً ، وقصصاً وعبراً ، ونصائح ومواعظ ليتعظوا ويتذكروا بما فيه قال ابن الجوزي : المعنى أنزلنا القرآن يتبع بعضُه بعضاً ، ويخبر عن الأمم الخالية كيف عُذبوا لعلهم يتعظون[٥] ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون﴾ أي الذين أعطيناهم التوراة والإِنجيل من قبل هذا القرآن ـ من مسلمي أهل الكتاب ـ هم بهذا القرآن يصدقون قال ابن عباس : يعني من آمن بمحمد ﷺ

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ١٧ . (٢) البحر ٧/ ١٢٣ . (٣) تفسير أبو السعود ٤/ ١٥٦ . (٤) مختصر ابن كثير ٣/ ١٧ . (٥) زاد المسير ٦/ ٢٨٨ .

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

من أهل الكتاب[1] ﴿وإذا يُتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحقُّ من ربنا﴾ أي وإذا قرىء عليهم القرآن قالوا صدقنا بما فيه ﴿إنا كنا من قبله مسلمين﴾ أي كنا من قبل نزوله موحدين لله ، مستسلمين لأمره ، مؤمنين بأنه سيبعث محمد وينزل عليه القرآن قال تعالى ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾ أي أولئك الموصوفون بالصفات الجميلة يعطون ثوابهم مضاعفاً ، مرة على إيمانهم بكتابهم ، ومرةً على إيمانهم بالقرآن وفي الحديث (ثلاثة يُؤْتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيِّه ثم آمن بي . .)[2] الحديث ﴿بما صبروا﴾ أي بسبب صبرهم على اتباع الحقِّ ، وتحملهم الأذى في سبيل الله قال قتادة : نزلت في أناسٍ من أهل الكتاب ، كانوا على شريعةٍ من الحق يأخذون بهاوينتهون إليها ، حتى بعث الله محمداً ﷺ فآمنوا به وصدَّقوه ، فأعطاهم الله أجرهم مرتين بما صبروا ، وذُكر أن منهم سلمان وعبد الله بن سلام[3] ﴿ويدرءون بالحسنة السيئة﴾ أي ويدفعون الكلام القبيح كالسب والشتم بالحسنة أي الكلمة الطيبة الجميلة قال ابن كثير : لا يقابلون السيء بمثله ولكن يعفون ويصفحون[4] ﴿وممَّا رزقناهم ينفقون﴾ أي ومن الذي رزقناهم من الحلال ينفقون في سبيل الخير ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه﴾ أي وإذا سمعوا الشتم والأذى من الكفار وسمعوا ساقط الكلام ، لم يلتفتوا إليه ولم يردُّوا على أصحابه ﴿وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالُكم﴾ أي لنا طريقنا ولكم طريقكم ﴿سلامٌ عليكم﴾ أي سلام متاركة ومباعدة قال الزجاج : لم يريدوا التحية وإنما أرادوا بيننا وبينكم المتاركة ﴿لا نبتغي الجاهلين﴾ أي لا نطلب صحبتهم ولا نريد مخالطتهم قال الصاوي : كان المشركون يسبون مؤمني أهل الكتاب ويقولون : تباً لكم أعرضتم عن دينكم وتركتموه ! فيعرضون عنهم ويقولون لنا أعمالنا ولكم أعمالكم[5] . مدحهم تعالى بالإيمان ، ثم مدحهم بالإحسان ، ثم مدحهم بالعفو والصفح عن أهل العدوان ، ثم قال تعالى مخاطباً رسوله ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ أي إنك يا محمد لا تقدر على هداية أحد ، مهما بذلت فيه من مجهود ، وجاوزت في السعي كل حدٍّ معهود ﴿ولكنَّ الله يهدي من يشاء﴾ أي ولكنه تعالى بقدرته يهدي من قدر له الهداية ، فسلم أمرك إليه فإنه أعلم بأهل السعادة والشقاوة ﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾ أي هو تعالى العالم بمن فيه استعداد للهداية والايمان فيهديه قال المفسرون : نزلت في عمه « أبي طالب » حين عرض عليه الإسلام عند موته فأبى قال أبو حيان : ومعنى ﴿إنَّك لا تهدي من أَحببت﴾ أي لا تقدر على خلق الهداية فيه ، ثم قال : ولا تنافي بين هذا وبين

---

(١) الطبري ٢٠/ ٥٦ . (٢) أخرجه مسلم . (٣) الطبري ٢٠/ ٥٦ . (٤) مختصر ابن كثير ٣/ ١٨ . (٥) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٢٢١ .

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

قوله ﴿وإنَّك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم﴾ لأن معنى هذا : وإنك لترشد ، وقد أجمع المسلمون على أنها نزلت في «أبي طالب» [١] ثم ذكر تعالى شبهةً من شبهات المشركين وردَّ عليها بالبيان الواضح فقال ﴿وقالوا إنْ نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾ أي وقال كفار قريش : إن اتبعناك يا محمد على دينك وتركنا ديننا نخاف أن تتخطفنا العرب فيجتمعون على محاربتنا ، ويخرجوننا من أرضنا ، قال المبرد : والتخطُّف الانتزاع بسرعة، قال تعالى رداً عليهم ﴿أولم نمكِّن لهم حرماً آمناً﴾ أي أولم نعصمْ دماءهم ونجعل مكانهم حرماً ذا أمن ، بحرمة البيت العتيق ؟ فكيف يكون الحرم آمناً لهم في حال كفرهم ، ولا يكون آمناً لهم في حال إسلامهم ؟ ﴿يجبى إليه ثمرات كل شيءٍ رزقاً من لدنَّا﴾ أي تُجْلب إليه الأرزاق من كل مكان مع أنه بوادٍ غير ذي زرع رزقاً لهم من عندنا ﴿ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون﴾ أي ولكن أكثرهم جهلة لا يتفكرون في ذلك ولا يتفطنون قال أبو حيان : قطع الله حجتهم بهذا البيان الناصع إذْ كانوا وهم كفارٌ بالله ، عباد أصنام قد أمِنوا في حرمهم ، والناسُ في غيره يتقاتلون وهم مقيمون في بلدٍ غير ذي زرع ، يجيء إليهم ما يحتاجون من الأقوات، فكيف إذا آمنوا واهتدوا؟ [٢] ﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها﴾ أي وكثير من أهل قريةٍ طغت وأَشرت وكفرت نعمة الله فدمَّر الله عليهم وخرب ديارهم ﴿فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلاَّ قليلاً﴾ أي فتلك مساكنهم خاوية بما ظلموا لم تسكن من بعد تدميرهم إلاَّ زماناً قليلاً إذْ لا يسكنها إلا المارَّةُ والمسافرون يوماً أو بعض يومٍ ﴿وكنَّا نحن الوارثين﴾ أي وكنا نحن الوارثين لأملاكهم وديارهم قال في البحر : والآية تخويف لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم ، من إنعام الله عليهم بالرقود في ظلال الأمن ، وخفض العيش، فكفروا النعمة وقابلوها بالاشر والبطر فدمرهم الله وخرب ديارهم [٣] ﴿وما كان ربك مهلك القرى﴾ أي ما جرت عادة الله جل شأنه أن يهلك أهل القرى الكافرة ﴿حتَّى يبعث في أُمها رسولاً يتلوا عليهم آياتنا﴾ أي حتى يبعث في أصلها وعاصمتها رسولاً يبلغهم رسالة الله لقطع الحجج والمعاذير ﴿وما كنَّا مهلكي القرى إلاَّ وأهلها ظالمون﴾ أي وما كنا لنهلك القرى إلا وقد استحق أهلها الإهلاك ، لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم ببعثة المرسلين قال القرطبي : أخبر تعالى أنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا الإهلاك بظلمهم ، وفي هذا بيانٌ لعدله وتقدّسه عن الظلم ، ولا يهلكهم - مع كونهم ظالمين - إلاَّ بعد تأكيد الحجة والإلزام ببعثة الرسل ، ولا

(١) البحر المحيط ٧/ ١٢٦ وانظر سبب النزول الذي ذكرناه سابقاً . (٢) البحر المحيط ٧/ ١٢٦ . (٣) نفس المرجع السابق والصفحة .

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟﴾

يجعل علمه تعالى بأحوالهم حجة عليهم[1] ﴿وما أُوتيتُم من شيءٍ فمتاعُ الحيـاة الدنيا وزينتُهـا﴾ أي وما أعطيتم أيها الناس من مالٍ وخيرٍ فهو متاعٌ قليل تتمتعون به في حياتكم ثم ينقضي ويفنى قال ابن كثير : يخبر تعالى عن حقارة الدنيا وما فيها من الزينة الدنيئة ، والزهرة الفانية ، بالنسبـة إلى ما أعـده اللـه لعباده الصالحين في الدار الآخرة ، من النعيم العظيم المقيم[2] ﴿وما عند الله خـيرٌ وأبقى﴾ أي وما عنده من الأجر والثواب ، والنعيم الدائم الباقي خير وأفضل من هذا النعيم الزائل ﴿أفلا تعقلـون﴾ ؟ توبيخٌ لهم أي أفلا تعقلون أن الباقي أفضل من الفاني ؟ قال الإمام الفخر : بيَّن تعالى أن منافع الدنيا مشوبةٌ بالمضارٌ ، بل المضارٌ فيها أكثر ، ومنافع الآخرة غير منقطعة ، بينما منافع الدنيا منقطعة ، ومتى قوبل المتناهي بغير المتناهي كان عدماً ، فكيف ونصيب كل أحدٍ من الدنيا كالذرة بالقياس إلى البحر ، فمن لم يرجِّح منافع الآخرة على منافع الدنيا يكون كأنه خارجٌ عن حدّ العقل[3] ﴿أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيـه﴾ أي أفمـن وعدناه وعداً قاطعاً بالجنة وما فيها من النعيم المقيم الخالد ، فهو لا محالة مدركه لأن وعد الله لا يتخلف ﴿كمن متعناه متـاع الحياة الدنيـا﴾ ؟ أي كمن متعناه بمتاع زائل ، مشوب بالأكدار ، مملوءٍ بالمتاعـب ، مستتبع للحسرة على انقطاعه؟ ﴿ثم هو يومَ القيامة من المحضرين﴾ أي ثم هو في الآخرة من المحضرين للعذاب ، فهل يساوي العاقل بينهما ؟ قال ابن جزي : والآية ايضاحٌ لما قبلها من البون الشاسع بين الدنيا والآخرة ، والمراد بمن وعدناه المؤمنين ، وبمن متعناه الكافرين[4] ﴿ويوم يناديهـم فيقول أين شركائي الذين كنتم تـزعمـون﴾ أي واذكر حال المشركين يوم يناديهم الله فيقول لهم على سبيل التوبيخ والتقريع : أين هؤلاء الشركاء والآلهة من الأصنام والأنداد الـذين عبدتموهـم من دونـي ، وزعمتـم أنهم ينصرونـكم ويشفعون لكم ؟ ﴿قال الذيـن حقَّ عليهـم القول﴾ أي قال رؤساؤهم وكبراؤهم الذين وجب عليهـم العذاب لضلالهم وطغيانهم ﴿ربَّنا هؤلاء الذيـن أغوينا﴾ أي هؤلاء أتباعنا الذين أضللناهم عن سبيلك ﴿أغويناهـم كما غوينـا﴾ أي أضللناهم كما ضللنا ، لا بالقسر والإكراه ولكن بطريق الوسوسة وتزيين القبيح فضلّوا كما ضللنا نحن ﴿تبرأنا إليـك ما كانوا إيّانـا يعبدون﴾ أي تبرأنا إليك يا ألله من عبادتهم إيانا ، فما كانوا يعبدوننا وإنما كانوا يعبـدون أهواءهـم وشهواتهـم ﴿وقيل ادعـوا شركاءكـم﴾ أي وقيل للكفار استغيثوا بآلهتكم التي عبدتموها في الدنيا لتنصركم وتدفع عنكم عذاب اللـه ، وهـذا على سبيل التهكم بهم ﴿فدعوهـم فلم يستجيبوا لهـم﴾ أي فاستغاثوا بهم فلم يجيبوهم ولم ينتفعوا بهم ، وهذا من

(١) القرطبي ١٣/٣٠٢ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٠ . (٣) التفسير الكبير ٢٥/ ٢٦ . (٤) التسهيل ٣/ ١٠٩ .

لَهُمْ وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

سخافة عقولهم ﴿**ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون**﴾ أي وتمنَّوا حين شاهدوا العذاب لو كانوا مهتدين قال الطبري : أي فودُّوا حين رأوا العذاب لو أنهم كانوا في الدنيا مهتدين للحق[1] ﴿**ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين**﴾ توبيخٌ آخر للمشركين أي ويوم يناديهم الله ويسألهم : ماذا أجبتم رسلي ؟ هل صدقتموهم أم كذبتموهم ؟ ﴿**فعميت عليهم الأنباء يومئذٍ فهم لا يتساءلون**﴾ أي فخفيت عليهم الحجج ، وأظلمت عليهم الأمور ، فلم يعرفوا ما يقولون ، فهم حيارى واجمون ، لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب لفرط الدهشة والحيرة ﴿**فأمّا من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين**﴾ أي فأمّا من تاب من الشرك ، وجمع بين الإِيمان والعمل الصالح فعسى أن يكون من الفائزين بجنات النعيم قال الصاوي : والترجي في القرآن بمنزلة التحقق ، لأنه وعد كريم من ربٍّ رحيم ، ومن شأنه تعالى أنه لا يخلف وعده[2] ﴿**وربُّك يخلق ما يشاء ويختار**﴾ أي هو تعالى الخالق المتصرف ، يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد ، فلا اعتراض لأحدٍ على حكمه قال مقاتل : نزلت في « الوليد بن المغيرة » حين قال ﴿لولا نُزّل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم﴾ ﴿**ما كان لهم الخيرةُ**﴾ أي ما كان لأحدٍ من العباد اختيار ، إنما الاختيار والإِرادة لله وحده ﴿**سبحان الله وتعالى عما يشركون**﴾ أي تنزَّه الله العظيم الجليل وتقدس أن ينازعه أحدٌ في ملكه ، أو يشاركه في اختياره وحكمته قال القرطبي : المعنى وربك يخلق ما يشاء من خلقه ، ويختار من يشاء لنبوته ، والخيرة له تعالى في أفعاله ، وهو أعلم بوجوه الحكمة ، فليس لأحدٍ من خلقه أن يختار عليه[3] ﴿**وربُّك يعلم ما تكنُّ صدورهم وما يعلنون**﴾ أي هو تعالى العالم بما تخفيه قلوبهم من الكفر والعداوة للرسول والمؤمنين ، وما يظهرونه على ألسنتهم من الطعن في شخص رسوله الكريم حيث يقولون : ما أنزل الله الوحي إلا على يتيم أبي طالب ! ﴿**وهو الله لا إله إلا هو**﴾ أي هو جل وعلا اللهُ المستحقُ للعبادة ، لا أحد يستحقها إلا هو ﴿**له الحمدُ في الأولى والآخرة**﴾ أي له الثناء الكامل في الدنيا والآخرة ، لأنه تعالى المتفضل على العباد بالنعم كلها في الدارين ﴿**وله الحكم**﴾ أي وله القضاء النافذ والفصل بين العباد ﴿**وإليه ترجعون**﴾ أي إليه وحده مرجع الخلائق يوم القيامة ، فيجازي كل عاملٍ بعمله .

---

(١) الطبري ٢٠/ ٦٣ وهذا على أن ﴿لو﴾ للتمني ، وهو الذي أثبتناه وهو اختيار الطبري ، وقال الزجاج : جواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره : لو كانوا يهتدون لما اتبعوهم ولما رأوا العذاب . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٢٢٣. (٣) القرطبي ١٣/ ٣٠٥ بشيء من الاختصار .

البَــلَاغَــة : تضمنت الآياتُ الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ التشبيه البليغ ﴿بصائر للنـاس﴾ أي أعطيناه التوراة كأنها أنوار لقلوب النـاس ، حذف أداة الشبه ووجه الشبه فأصبح بليغاً قال في حاشية البيضاوي : أي مشبهاً بأنوار القلوب من حيث إن القلوب لو كانت خالية عن أنوار التوراة وعلومها لكانت عمياء لا تستبصر ، ولا تعرف حقاً من باطل[1] .

٢ ـ المجاز العقلي ﴿أنشأنا قرونـاً﴾ المراد به الأمم لأنهم يخلقون في تلك الأزمنة فنسب إلى القرون بطريق المجاز العقلي .

٣ ـ جناس الاشتقاق ﴿تصيبهم مصيبـة﴾ .

٤ ـ المجاز المرسل ﴿بما قدمـت أيديهم﴾ والمراد بما كسبوا وهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل قال الزمخشري : ولما كانت أكثر الأعمال تزاول بالأيدي جعل كل عمل معبراً عنه باجتراح الأيدي[2] .

٥ ـ حذف الجواب لدلالة السياق ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبـة﴾ حذف منه الجواب وتقديره : ما أرسلناك يا محمد رسولاً إليهم وهو من باب الإيجاز بالحذف .

٦ ـ التحضيض ﴿لولا أوتي مثل ما أُوتي موسـى﴾ أي هلاَّ أُوتي فهي للتحضيض وليسـت حرف امتناع لوجود .

٧ ـ التعجيز ﴿قل فائتوا بكتـاب﴾ فالأمر خرج عن حقيقته إلى معنى التعجيز .

٨ ـ طباقُ السلب ﴿إنك لا تهـدي . . ولكنَّ الله يهدي﴾ .

٩ ـ المجاز العقلي ﴿حَرماً آمنـاً﴾ نسب الأمن إلى الحرم وهو لأهله .

١٠ ـ أسلوب السخرية والتهكم ﴿أين شركائي الذين كنتـم تزعمون﴾ ؟ .

١١ ـ التشبيه المرسل ﴿أغويناهـم كما غوينـا﴾ .

١٢ ـ الاستعارة التصريحية التبعية ﴿فعميت عليهـم الأنباء﴾ قال الشهاب : استعير العمى لعدم الاهتداء ، فهم لا يهتدون للأنباء ، ثم قلب للمبالغة فجعل الأنباء لا تهتدي إليهم وأصله «فعموا عن الأنبـاء» وضُمِّـن معنـى الخفـاء فعـدي بـ ﴿على﴾ ففيه أنـواعٌ من البلاغـة : الاستعـارة ، والقلـب ، والتضمين[3] .

١٣ ـ الطباق بين ﴿تكنُّ . . ويعلنون﴾ وبين ﴿الأولى . . والآخرة﴾ وهو من المحسنات البديعية .

---

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٥١٥ . (٢) الكشاف ٣/ ٣٢٠ . (٣) نقلاً عن محاسن التأويل للقاسمي .

تنبيه : ما ذُكر أن « أبا طالب» مات على غير الإيمان هو الصحيح الذي دلّ عليه الكتاب والسنة ، ونقل عن بعض شيوخ الصوفية أنه أسلم قبل موته ، وهو معارضٌ للنصوص الكريمة ولعلهم أخذوه من بعض أشعار أبي طالب حيث يقول :

ولقد علمتُ بأنَّ دين محمدٍ ... من خير أديان البرية ديناً
والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أُوسَّد في التراب دفيناً

أقول : ماذا يعني هذا الكلام بعد امتناعه عن الدخول في الإسلام والنطق بالشهادة ؟

* * *

قال الله تعالى : ﴿قل أرأيتم ان جعل الله عليكم سرمداً . . إلى . . له الحكم وإليه تُرجعون﴾ من آية (٧١) إلى آية (٨٨) نهاية السورة .

المناسبة : لما ذكر تعالى أنه هو الخالق المختار ، وسفَّه المشركين في عبادتهم لغير الله ، عقَّبه بذكر بعض الأدلة والبراهين الدالة على عظمته وسلطانه ، تذكيراً للعباد بوجوب شكر المنعم ، ثم ذكر قصة « قارون » وهي قصة الطغيان بالمال ، وما كان من نهايته المشئومة حيث خسف الله به وبكنوزه الأرض ، وهذه هي نتيجة الاستعلاء والغرور والطغيان .

اللغة : ﴿سرمداً﴾ السرمد : الدائم الذي لا ينقطع ومنه قول طرفة :

لعمرك ما أمري عليَّ بغمةٍ ... نهاري ولا ليلي عليَّ بسرمد[1]

﴿مفاتحه﴾ جمع مفتح بالكسر وهو ما يفتح به ، وأما المفتاح فجمعه مفاتيح . ﴿تنوء﴾ ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله قال ذو الرمَّة :

تنوء بأخراها فلأياً قيامها ... وتمشي الهُوينى عن قريبٍ فتبهر[2]

﴿العصبة﴾ الجماعة الكثيرة ومثلها العصابة ومنه قوله تعالى ﴿ونحن عصبة﴾ سميت الجماعة عُصبة لأن بعضهم يتعصب لبعض ويتقوى به ﴿ويكأنَّ﴾ قال الجوهري : « ويْ » كلمةُ تعجب وقد تدخل على « كأن » فتقول : ويكأنَّ ، وقيل إنها كلمة تستعمل عند التنبه للخطأ وإظهار الندم قال الخليل ، إن القوم تنبهوا وقالوا نادمين على ما سلف منهم وَيْ[3] ﴿ظهيراً﴾ معيناً ومساعداً .

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾

التفسير : ﴿قلْ أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الجاحدين من كفار مكة : أخبروني لو جعل الله عليكم الليل دائماً مستمراً بلا انقطاع إلى يوم القيامة ﴿منْ إلهٌ غير اللهِ يأتيكم بضياءٍ﴾ ؟ أي من هو الإله الذي يقدر على أن يأتيكم بالنور الذي تستضيئون به في حياتكم غيرُ الله تعالى ؟ ﴿أفلا تسمعون﴾ أي أفلا تسمعون سماع فهمٍ وقبول فتستدلوا

---

(١) القرطبي ١٣/ ٣٠٨.(٢) البحر المحيط ٧/ ١٣٢.(٣) التفسير الكبير للرازي ٢٥/ ١٩.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ * إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾

بذلك على وحدانية الله تعالى ؟ ﴿قل أرأيتم إن جعل اللهُ عليكم النهارَ سرمداً إلى يوم القيامة﴾ أي أخبروني لو جعل الله عليكم النهار دائماً مستمراً بلا انقطاع ﴿من إلـهٌ غيرُ الله يأتيكم بليلٍ تسكنون فيه﴾ أي من هو الإله القادر على أن يأتيكم بليلٍ تستريحون فيه من الحركة والنصب غير الله تعالى ؟ ﴿أفلا تبصرون﴾ أي أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ والضلال ؟ ثم نبه تعالى إلى كمال رحمته بالعباد فقال ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار﴾ أي ومن آثار قدرته ، ومظاهر رحمته أن خلق لكم الليل والنهار يتعاقبان بدقةٍ وإحكام ﴿لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله﴾ أي لتستريحوا بالليل من نصب الحياة وهمومها وأكدارها ، ولتلتمسوا من رزقه بالمعاش والكسب في النهار ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي ولتشكروا ربكم على نعمه الجليلة التي لا تُحصى ، ومنها نعمةُ الليل والنهار قال الإمام الفخر : نبه تعالى بهذه الآية على أن الليل والنهار نعمتان يتعاقبان على الزمان ، لأن المرء في الدنيا مضطر إلى أن يتعب لتحصيل ما يحتاج إليه ، ولا يتم له ذلك لولا ضوء النهار ، ولولا الراحة والسكون بالليل ، فلا بدَّ منهما في الدنيا ، وأما في الجنة فلا نصب ولا تعب فلا حاجة بهم إلى الليل ، فلذلك يدوم لهم الضياء واللذات[١] ﴿ويوم يناديهم أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ قال ابن كثير : هذا نداءٌ ثانٍ على سبيل التوبيخ والتقريع لمن عبد مع الله إلهاً آخر ، يناديهم الرب على رءوس الأشهاد : أين شركائي الذين زعمتموهم في الدنيا[٢] ؟ ﴿ونزعنا من كل أمة شهيداً﴾ أي أخرجنا من كل أمةٍ شهيداً منهم يشهد عليهم بأعمالهم وهو نبيُّهم ﴿فقلنا هاتوا برهانكم﴾ أي هاتوا حجتكم على ما كنتم عليه من الكفر ، وهذا إعذار لهم وتوبيخٌ وتعجيز ﴿فعلموا أنَّ الحقَّ لله﴾ أي فعلموا حينئذٍ أن الحقَّ لله ولرسله ، وأنه لا إله إلا هو ﴿وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع ما كانوا يتخرصونه في الدنيا من الشركاء والأنداد ، ثم ذكر تعالى قصة « قارون » ونتيجة الغرور والطغيان فقال ﴿إن قارون كانَ من قومِ موسى﴾ أي من عشيرته وجماعته قال ابن عباس : كان ابن عم موسى ﴿فبغى عليهم﴾ أي تجبر وتكبر على قومه ، واستعلى عليهم بسبب ما منحه الله من الكنوز والأموال قال الطبري : أي تجاوز حدَّه في الكبر والتجبر عليهم[٣] ﴿وآتيناه من الكُنوز ما إنَّ مفاتحه لتنوءُ بالعصبةِ أُولي القوة﴾ أي أعطيناه من الأموال الوفيرة ، والكنوز الكثيرة ما يثقل على الجماعة أصحاب القوة حمل مفاتيح

(١) التفسير الكبير ٢٥/ ١١.(٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٢.(٣) الطبري ٢٠/ ٦٨.

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾

خزائنه لكثرتها وثقلها فضلاً عن حمل الخزائن والأموال والآية تصويرٌ لما كان عليه قارون من كثرة المال والغنى والثراء ﴿إذ قال له قومه لا تفرح﴾ أي لا تأشر ولا تبطر ﴿إنَّ الله لا يحبُ الفرحين﴾ أي لا يحب البطرين الذين لا يشكرون الله على إنعامه ، ويتكبرون بأموالهم على عباد الله ﴿ وابتغ فيما آتاك اللهُ الدار الآخرة﴾ أي اطلب فيما أعطاك الله من الأموال رضى الله ، وذلك بفعل الحسنات والصدقات والإنفاق من الطاعات ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ قال الحسن : أي لا تضيّع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال وطلبك إيّاه[١] ﴿وأحسِنْ كما أحسن الله إليك﴾ أي أحسن إلى عبادِ الله كما أحسن الله إليك ﴿ولا تبغ الفساد في الأرض﴾ أي لا تطلب بهذا المال البغي والتطاول على الناس ، والإفساد في الأرض بالمعاصي ﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾ أي لا يحب من كان مجرماً باغياً مفسداً في الأرض ﴿قال إنّما أوتيتُه على علمٍ عندي﴾ لمّا وعظه قومه أجابهم بهذا على وجه الرد عليهم والتكبر عن قبول الموعظة والمعنى : إنما أُعطيت هذا المال على علمٍ عندي بوجوه المكاسب ، ولولا رضى الله عني ومعرفته بفضلي واستحقاقي له ما أعطاني هذا المال ! قال تعالى رداً عليه ﴿أولم يعلم أنَّ الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشدُّ منه قوةً وأكثر جمعاً﴾ أي أولم يعلم هذا الأحمق المغرور أنَّ الله قد أهلك من قبله من الأمم الخالية من هو أقوى منه بدناً وأكثر مالاً ؟ ! قال البيضاوي : والآية تعجبٌ وتوبيخ على اغتراره بقوته وكثرة ماله ، مع علمه بذلك لأنه قرأه في التوراة ، وسمعه من حفاظ التواريخ[٢] ﴿ولا يُسأل عن ذُنوبهم المجرمون﴾ أي لا حاجة أن يسألهم الله عن كيفية ذنوبهم وكميتها لأنه عالمٌ بكل شيء ، ولا يتوقف إهلاكه إياهم على سؤالهم بل متى حقَّ عليهم العذاب أهلكهم بغتة ، ثم أشار تعالى إلى أن قارون لم يعتبر بنصيحة قومه ، بل تمادى في غطرسته وغيِّه فقال تعالى ﴿فخرج على قومه في زينته﴾ أي فخرج قارون على قومه في أظهر زينةٍ وأكملها قال المفسرون : خرج ذات يوم في زينةٍ عظيمة بأتباعه الكثيرين ، ركباناً متحلين بملابس الذهب والحرير ، على خيولٍ موشحةٍ بالذهب ، ومعه الجواري والغلمان في موكبٍ حافلٍ باهر ﴿قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أُوتي قارون﴾ أي فلما رآه ضعفاء الإيمان ممن تخدعهم الدنيا ببريقها وزخرفها وزينتها قالوا : يا ليت لنا مثل هذا الثراء والغنى الذي أُعطيه قارون ﴿إنه لذو حظٍ عظيم﴾ أي ذو نصيب وافرٍ من الدنيا

(١) وقيل معناه : لا تضيع عمرك بترك الأعمال الصالحات وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد ، وما قاله الحسن وقتادة أظهر وهو اختيار ابن كثير . (٢) البيضاوي ٣/ ٩٥ .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ

﴿وقال الذين أوتوا العلم﴾ أي وقال لهم العقلاء من أهل العلم والفهم والاستقامة ﴿ويلكم ثوابُ الله خيرٌ لمن آمنَ وعمل صالحاً﴾ أي ارتدعوا وانزجروا عن مثل هذا الكلام فإن جزاء الله لعباده المؤ منين الصالحين خيرٌ مما ترون وتتمنَّون من حال قارون قال الزمخشري : أصل ﴿ويلك﴾ الدعاء بالهلاك ثم استعمل في الزجر والردع ، والبعث على ترك ما لا يرتضى[1] ﴿ولا يُلقَّاها إلا الصابرون﴾ أي ولا يُعطى هذه المرتبة والمنزلة في الآخرة إلا الصابرون على أمر الله قال تعالى تنبيهاً لنهايته المشئومة ﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾ أي جعلنا الأرض تغور به وبكنوزه ، جزاءً على عتوه وبطره ﴿فما كان له من فئةٍ ينصرونه من دون الله﴾ أي ما كان له أحد من الأنصار والأعوان يدفعون عنه عذاب الله ﴿وما كان من المنتصرين﴾ أي وما كان من المنتصرين بنفسه بل كان من الهالكين ﴿وأصبح الذين تمنَّوْا مكانه بالأمس﴾ أي وصار الذين تمنوا منزلته وغناه بالأمس القريب بعد أن شاهدوا ما نزل به من الخسف ﴿يقولون ويكأنَّ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر﴾ أي يقولون ندماً وأسفاً على ما صدر منهم من التمني : اعجبوا أيها القوم من صنع الله ، كيف أن الله يوسّع الرزق لمن يشاء من عباده ـ بحسب مشيئته وحكمته ـ لا لكرامته عليه ، ويضيّق الرزق على من يشاء ـ لحكمته وقضائه ابتلاءً ـ لا لهوانه عليه !! قال الزمخشري : ﴿وَيكأن﴾ كلمتان « وَيْ » مفصولة عن « كأنَّ » وهي كلمة تنبيه على الخطأ وتندم ، ومعناه أن القوم تنبهوا على خطئهم في تمنيهم منزلة قارون وتندموا[2] وقالوا ﴿لولا أن مَنَّ الله علينا﴾ أي لولا أنَّ الله لطف بنا ، وتفضَّل علينا بالإِيمان والرحمة ، ولم يعطنا ما تمنيناه ﴿لخسفَ بنا﴾ أي لكان مصيرنا مصير قارون ، وخسف بنا الأرض كما خسفها به ﴿ويكأنه لا يفلح الكافرون﴾ أي أعجبُ من فعل الله حيث لا ينجح ولا يفوز بالسعادة الكافرون لا في الدنيا ، ولا في الآخرة . . وإلى هنا تنتهي « قصة قارون » وهي قصة الطغيان بالمال ، بعد أن ذكر تعالى قصة الطغيان بالجاه والسلطان في قصة فرعون وموسى ، ثم يأتي التعقيب المباشر في قوله تعالى ﴿تلك الدارُ الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلُواً في الأرض ولا فساداً﴾ الإِشارة للتفخيم والتعظيم أي تلك الدار العالية الرفيعة التي سمعت خبرها ، وبلغك وصفها هي دار النعيم الخالد السرمدي ، التي فيها ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أُذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، نجعلها للمتقين الذين لا يريدون التكبر

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٤١ . (٢) الكشاف ٣/ ٢٤٢ وهذا الذي قاله الزمخشري هو مذهب الخليل وسيبويه واختاره الجمهور ، قال في الجلالين « ويْ » اسم فعل بمعنى عجب أنا ، والكاف بمعنى اللام والمعنى أعجب لأن الله يبسط ونقل الطبري عن قتادة أن معنى « ويكأن » ألم ترأنَّ ، وأنها كلمة واحدة ، وهو اختيار الطبري ، والله أعلم .

وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

والطغيان ، ولا الظلم والعدوان في هذه الحياة الدنيا ﴿**والعاقبةُ للمتقين**﴾ أي العاقبة المحمودة للذين يخشون الله ويراقبونه ، ويبتغون رضوانه ويحذرون عقابه ﴿**من جاء بالحسنة فله خيرٌ منها**﴾ أي من جاء يوم القيامة بحسنةٍ من الحسنات فإن الله يضاعفها له أضعافاً كثيرة ﴿**ومنْ جاءَ بالسيئة فلا يُجْزى الذين عملوا السيئات إلاّ ما كانوا يعملون**﴾ أي ومن جاء يوم القيامة بالسيئات فلا يجزى إلا بمثلها ، وهذا من فضل الله على عباده أنه يضاعف لهم الحسنات ولا يضاعف لهم السيئات ﴿**إنَّ الذي فرض عليك القرآن**﴾ أي إن الذي أنزل عليك يا محمد القرآن وفرض عليك العمل به ﴿**لرادُّك إلى مَعَاد**﴾ أي لرادُّك إلى مكة كما أخرجك منها ، وهذا وعدٌ من الله بفتح مكة ورجوعه عليه السلام إليها بعد أن هاجر منها قال ابن عباس : معناه لرادك إلى مكة ، وقال الضحاك : لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجُحْفة اشتاق إلى مكة ، فأنزل الله عليه هذه الآية[1] ﴿**قلْ ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين**﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين : ربي أعلم بالمهتدي والضال هل أنا أو أنتم؟ فهو جلَّ وعلا الذي يعلم المحسن من المسيء ، ويجازي كلاً بعمله ، وهو جواب لقول كفار مكة : إنك يا محمد في ضلالٍ مبين ﴿**وما كنتَ ترجو أن يُلقى إليكَ الكتاب إلاّ رحمةً من ربك**﴾ أي وما كنت تطمع أن تنال النبوة ، ولا أن ينزل عليك الكتابُ ولكن رحمك الله بذلك ورحم العباد ببعثتك قال الفراء: وهذا استثناء منقطع والمعنى إلا أنّ ربك رحمك فأنزله عليك ﴿**فلا تكوننَّ ظهيراً للكافرين**﴾ أي لا تكن عوناً لهم على دينهم ، ومساعداً لهم على ضلالهم ، بالمداراة والمجاملة ولكن نابذهم وخالفهم قال المفسرون : دعا المشركون الرسول إلى دين آبائه ، فأُمر بالتحرز منهم وأن يصدع بالحق ، والخطابُ بهذا وأمثاله له عليه السلام ، والمراد أمته لئلا يظاهروا الكفار ولا يوافقوهم ﴿**ولا يصدُّنَّك عن آياتِ الله بعد إذْ أُنزلت إليك**﴾ أي ولا تلتفت إلى هؤلاء المشركين ، ولا تركن إلى قولهم فيصدوك عن اتباع ما أنزل الله إليك من الآيات البينات ﴿**وادْعُ إلى ربِّك**﴾ أي وادع الناس إلى توحيد ربك وعبادته ﴿**ولا تكوننَّ من المشركين**﴾ أي بمسايرتهم على أهوائهم ، فإن من رضي بطريقتهم كان منهم ﴿**ولا تدع مع الله**

(١) تفسير ابن الجوزي ٦/ ٢٤٩ ومختصر ابن كثير ٣/ ٢٦.

﴿إلهاً آخـر﴾ أي لا تعبد إلهاً سوى الله ﴿لا إلـه إلا هو﴾ أي لا معبود بحق إلا الله تعالى قال البيضاوي : وهذا وما قبله للتهييج وقطع أطماع المشركين عن مساعدته لهم[1] ﴿كلُّ شيءٍ هالـكٌ إلا وجهه﴾ أي كل شيء يفنى وتبقى ذاتُه المقدسة ، أطلق الوجه وأراد ذات الله جلَّ وعلا قال ابن كثير : وهذا إخبار بأنه تعالى الدائم الباقي ، الحيُّ القيوم ، الذي تموت الخلائق ولا يموت ، فعبَّر بالوجه عن الذات كقوله ﴿كلُّ من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكـرام﴾ ﴿له الحكـم وإليه تُرجعـون﴾ أي له القضاء النافذ في الخلق ، وإليه مرجعهم جميعاً يوم المعاد لا إلى أحدٍ سواه .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ التبكيت والتوبيخ ﴿مَنْ إلهٌ غير الله يأتيكم بضيـاء﴾ ؟ ومثله ﴿يأتيكم بليل﴾ ؟ .

٢ ـ اللَّف والنشر المرتـب ﴿ومـن رحمتـه جعـل لكم الليل والنهـار﴾ جمـع الليل والنهـار ثم قال ﴿لتسكنوا فيه ولتبتغـوا من فضله﴾ فأعاد السكن إلى الليل،والابتغاء لطلب الرزق إلى النهار ، ويسمى هذا عند علماء البديع اللف والنشر المرتب ، لأن الأول عاد على الأول ، والثاني عاد على الثاني وهو من المحسنات البديعية .

٣ جناس الاشتقاق ﴿لا تفرح . . الفرحين﴾ ومثله ﴿الفساد . . والمفسدين﴾ .

٤ ـ تأكيد الجملة بـ ﴿إنَّ﴾ و ﴿اللام﴾ ﴿إنه لذو حظٍ عظيـم﴾ لأن السامع شاك ومتردّد .

٥ ـ الكناية ﴿تمنـوا مكانه بالأمس﴾ كنَّى عن الزمن الماضي القريب بلفظ الأمس .

٦ ـ الطباق ﴿يبسط الرزق . . ويقدر﴾ .

٧ ـ المقابلة اللطيفة ﴿من جاء بالحسنـة فله خير منهـا﴾ ﴿ومن جاء بالسيئة فلا يُجْزى . .﴾ الآية .

٨ ـ المجاز المرسل ﴿إلا وجهـه﴾ أطلق الجزء وأراد الكل أي ذاته المقدسة ففيه مجاز مرسل .

لطيفَـة : قال بعض العلماء : من لم تشبعه القناعة لم يكفه ملك قارون وأنشدوا :

هي القناعـة لا تبغـي بهـا بدلاً ... فيهـا النعيم وفيهـا راحـةُ البدن
انظـر لمن ملك الـدنيا بأجمعها ... هل راح منها بغير القطـن والكفن ؟

« تم بعونه تعالى تفسير سورة القصص » .

* * *

(١) البيضاوي ٢/ ٩٦.



بين يدي السورة

* سورة العنكبوت مكية وموضوعها العقيدة في أصولها الكبرى « الوحدانية ، الرسالة ، البعث والجزاء » ومحور السورة الكريمة يدور حول الإيمان و« سنة الابتلاء » في هذه الحياة لأن المسلمين في مكة كانوا في أقسى أنواع المحنة والشدَّة ، ولهذا جاء الحديث عن موضوع الفتنة والإبتلاء في هذه السورة مطوَّلاً مفصلاً وبوجه خاص عند ذكر قصص الأنبياء .

* تبتدىء السورة الكريمة بهذا البدء الصريح ﴿الم * أحسب الناسُ أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون﴾ ؟ وتمضي السورة تتحدث عن فريق من الناس يحسبون الإيمان كلمةً تقال باللسان ، فإذا نزلت بهم المحنة والشدة انتكسوا إلى جحيم الضلال ، وارتدوا عن الإسلام تخلصاً من عذاب الدنيا ، كأن عذاب الآخرة أهون من عذاب الدنيا ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله ، فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله . .﴾ الآيات .

* وتمضي السورة تتحدث عن « محنة الأنبياء » وما لاقوه من شدائد وأهوال في سبيل تبليغ رسالة الله ، بدءاً بقصة نوح ، ثم إبراهيم ، ثم لوط ، ثم شعيب ، وتتحدث عن بعض الأمم الطغاة المتجبرين كعاد ، وثمود ، وقارون ، وهامان وغيرهم وتذكر ما حلَّ بهم من الهلاك والدمار ﴿فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ الآيات .

* وفي قصص الأنبياء دروسٌ من المحن والابتلاء ، تتمثل في ضخامة الجهد وضآلة الحصيلة ، فهذا نوح عليه السلام يمكث في قومه تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم إلى الله فما يؤمن معه إلا قليل ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾ وهذا أبو الأنبياء إبراهيم الخليل يحاول هداية قومه بكل وسيلة ، ويجادلهم بالحجة والبرهان فما تكون النتيجة إلا العلو والطغيان ﴿قالوا اقتلوه أو حرِّقوه فأنجاه الله من النار . .﴾ الآيات .

* وفي قصة لوط يظهر التبجح بالرذيلة دون خجل أو حياء ﴿ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ الآيات وبعد ذلك الاستعراض السريع لمحنة الأنبياء ، تمضي

السورة الكريمة تبيّن صدق رسالة محمد ﷺ فهو رجل أميٌّ لم يقرأ ولم يكتب ثم جاءهم بهذا الكتاب المعجز ، وهذا من أعظم البراهين على أنه كلام رب العالمين ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطُّه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون﴾ وتنتقل السورة للحديث عن الأدلة والبراهين على القدرة والوحدانية منبثقة من هذا الكون الفسيح ، ثم تختم ببيان جزاء الذين صبروا أمام المحن والشدائد وجاهدوا بأنواع الجهاد النفسي والمالي ، ووقفوا في وجه المحنة والابتلاء ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين﴾ .

التسمية : سميت « سورة العنكبوت » لأن الله ضرب العنكبوت فيها مثلاً للأصنام المنحوتة ، والآلهة المزعومة ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً . .﴾ الآيات .

اللغة : ﴿فتنة﴾ الفتنة : الابتلاء والاختبار ﴿أثقالهم﴾ جمع ثقل وهو الحمل الثقيل الذي ينوء به الإنسان ، والمراد بالأثقال هنا الذنوب والأوزار ﴿لبث﴾ أقام ومكث ﴿إفكاً﴾ كذباً وزوراً ﴿تُقْلبون﴾ تُرجعون وتُردون .

سبب النزول : عن سعد بن أبي وقاص قال : « كنت رجلاً باراً بأمي فلما أسلمتُ ، قالت : ما هذا الدين الذي أحدثت يا سعد ؟ لتدَعن دينك هذا أو لا آكلُ ولا أشربُ حتى أموت فتعيَّر بي فيقال : يا قاتل أمه ، قلتُ : لا تفعلي يا أماه ، فإني لا أدع ديني هذا لشيءٍ أبداً ، قال : فمكثتْ يوماً وليلةً لا تأكل ، فأصبحت قد جُهدت ، ثم مكثت يوماً آخر وليلةً لا تأكل ، فلما رأيتُ ذلك قلت : تعلمين واللهِ يا أُمَّاه لو كانت لكِ مائةُ نفسٍ فخرجت نفساً نفْساً ما تركتُ ديني هذا لشيء أبداً ، فإن شئت فكلي ، وإن شئتِ فَدعي ، فلما رأتْ ذلك أكلت فأنزل الله هذه الآية ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حُسناً وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علمٌ فلا تطعهما . .﴾ الآية[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

التفسير : ﴿الـم﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن[2] ﴿أحسبَ الناسُ أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفْتنون﴾ ؟ الهمزة للاستفهام الإنكاري أي أظنَّ الناسُ أن يُتركوا من غير افتتان لمجرد قولهم باللسان آمنا ؟ لا ليس كما ظنوا بل لا بدَّ من امتحانهم ليتميز الصادق من المنافق قال ابن جزي : نزلت في قومٍ من المؤمنين كانوا بمكة مستضعفين ، منهم « عمار بن ياسر » وغيره ، وكان كفار قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام ، فضاقت صدورهم بذلك فآنسهم الله بهذه الآية ووعظهم وأخبرهم أن ذلك اختبار ، ليوطنوا أنفسهم على الصبر على الأذى ، والثبات على الايمان ، وأعلمهم أن تلك سيرته في

(١) أسباب النزول للواحدي ١٩٥ وفي بعض الروايات كان أولادها إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها أي ادخلوا فيه عوداً ليفتحوه .
(٢) انظر ما كتبناه حول الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .

فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ

عباده يسلّط الكفار على المؤمنين ليمحصهم بذلك ، ويظهر الصادق في إيمانه من الكاذب[1] ﴿ولقد فتنّا الذين من قبلهم﴾ أي ولقد اختبرنا وامتحنا من سبقهم بأنواع التكاليف والمصائب والمحن قال البيضاوي : والمعنى أن ذلك سنة قديمة ، جارية في الأمم كلها ، فلا ينبغي أن يتوقع خلافه[2] ﴿فليعلمنَّ اللهُ الذين صدقوا وليعلمنَّ الكاذبين﴾ أي فليميزنَّ الله بين الصادقين في دعوى الإيمان ، وبين الكاذبين فيه ، وعبَّر عن الصادقين بلفظ الفعل ﴿الذين صدقوا﴾ وعن الكاذبين باسم الفاعل ﴿الكاذبين﴾ للإشارة إلى أن الكاذبين وصفهم مستمر وأن الكذب راسخ فيهم بخلاف الصادقين فإن الفعل يفيد التجدد ، قال الإمام الفخر : إن اسم الفاعل يدل في كثير من المواضع على ثبوت المصدر ورسوخه فيه ، والفعل الماضي لا يدل عليه كما يقال : فلانٌ شرب الخمر ، وفلانٌ شاربُ الخمر ، فإنه لا يفهم من صيغة الفعل الثبوتُ والرسوخ[3] ﴿أم حسب الَّذين يعملون السَّيئات أنْ يسبقونا﴾ أي أيظن المجرمون الذين يرتكبون المعاصي والموبقات أنهم يفوتون من عقابنا ويعجزوننا ؟ ﴿ساءَ ما يحكمون﴾ أي بئس ما يظنون قال الصاوي : والآية انتقال من توبيخ الى توبيخ أشد ، فالأول توبيخ للناس على ظنهم أنهم يفوتون عذاب الله ويفرون منه مع دوامهم على كفرهم[4] ﴿من كان يرجوا لقاء اللّه فإن أجل الله لآت﴾ لما بيَّن تعالى أن العبد لا يترك في الدنيا سُدى ، بيَّن هنا أن من اعترف بالآخرة وعمل لها لا يضيع عمله ، ولا يخيب أمله والمعنى من كان يرجو ثواب الله فليصبر في الدنيا على المجاهدة في طاعة الله حتى يلقى الله فيجازيه ، فإن لقاء الله قريب الإتيان ، وكلٌّ ما هو آتٍ قريب ، والآية تسلية للمؤمنين ووعدٌ لهم بالخير في دار النعيم ﴿وهو السميع العليم﴾ أي هو تعالى السميع لأقوال العباد ، العليم بأحوالهم الظاهرة والباطنة ﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه﴾ أي ومن جاهد نفسه بالصبر على الطاعات ، والكف عن الشهوات ، فمنفعة جهاده إنما هي لنفسه ﴿إنَّ اللهَ لغنيٌ عن العالمين﴾ أي مستغنٍ عن العباد ، لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿لنكفرنَّ عنهم سيئاتهم﴾ أي لنمحونَّ عنهم سيئاتهم التي سلفت منهم بسبب إيمانهم وعملهم الصالح ﴿ولنجزينَّهم أحسن الذي كانوا يعملون﴾ أي ونجزيهم بأحسن أعمالهم الصالحة وهي الطاعات﴿ووصينا الإنسان بوالديه حُسناً﴾ أي أمرناه أمراً مؤكداً بالإحسان إلى والديه غاية الإحسان ، لأنهما سبب وجوده ولهما عليه غاية الفضل والإحسان ، الوالد

(١) التسهيل ٣/ ١١٣ . (٢) البيضاوي ٢/ ٩٧ . (٣) التفسير الكبير ٢٥/ ٢٩ . (٤) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٢٣٠ .

عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

بالإنفاق والوالدة بالإشفاق قال الصاوي : وإنما أمر الله الأولاد ببر الوالدين دون العكس ، لأن الأولاد جُبلوا على القسوة وعدم طاعة الوالدين ، فكلفهم الله بما يخالف طبعهم ، والآباء مجبولون على الرحمة والشفقة بالأولاد فوكلهم لما جُبلوا عليه[1] **﴿وإن جاهداك لتُشرك بي ما ليس لك به علمٌ فلا تُطعهما﴾** أي وإن بذلا كلَّ ما في وسعهما ، وحرصا كلَّ الحرص على أن تكفر بالله وتشرك به شيئاً لا يصح أن يكون إلهاً ولا يستقيم ، فلا تطعهما في ذلك لأنه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الله **﴿إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾** أي إليَّ مرجع الخلائق جميعاً ، مؤمنهم وكافرهم ، برهم وفاجرهم ، فأجازي كلاً بما عمل ، وفيه وعدٌ حسن لمن برَّ والديه واتبع الهدى ، ووعيدٌ لمن عقَّ والديه واتبع سبيل الرَّدى **﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنَّهم في الصالحين﴾** أي لندخلنَّهم في زمرة الصالحين في الجنة قال القرطبي : كرَّر تعالى التمثيل بحالة المؤمنين العاملين لتحريك النفوس الى نيل مراتبهم ، وفي **﴿الصالحين﴾** مبالغة أي الذين هم في نهاية الصلاح وأبعد غاياته[2] ، ولما ذكر تعالى ما أعده للمؤمنين الخلَّص ذكر حال المنافقين المذبذبين فقال **﴿ومن النَّاس من يقول آمنَّا بالله ، فإذا أُوذي في اللهِ جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾** أي ومن الناس فريقٌ يقولون بألسنتهم آمنا بالله ، فإذا أُوذي أحدهم بسبب إيمانه ارتد عن الدين وجعل ما يصيبه من أذى الناس سبباً صارفاً له عن الايمان كعذاب الله الشديد الذي يصرف الإنسان عن الكفر قال المفسرون : والتشبيه **﴿كعذاب الله﴾** من حيث إن عذاب الله مانع للمؤمنين من الكفر ، فكذلك المنافقون جعلوا أذاهم مانعاً لهم من الايمان ، وكان مقتضى إيمانهم أن يصبروا ويتشجعوا ، ويروا في العذاب عذوبة ، وفي المحنة منحة ، فإن العاقبة للمتقين قال الامام الفخر : أقسام المكلفين ثلاثة : مؤمنٌ ظاهر بحسن اعتقاده ، وكافرٌ مجاهر بكفره وعناده ، ومذبذبٌ بينهما يظهر الايمان بلسانه ويضمر الكفر في فؤاده ، فلما ذكر تعالى القسمين بقوله **﴿فليعلمنَّ الله الذين صدقوا وليعلمنَّ الكاذبين﴾** ذكر القسم الثالث هنا **﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله﴾** واللطيفة في الآية أن الله أراد بيان شرف المؤمن الصابر ، وخسَّة المنافق الكافر ، فقال هناك : أُوذي المؤمن في سبيل الله ليترك سبيله ولم يتركه ، وأوذي المنافق الكافر فترك الله بنفسه ، وكان يمكنه أن يظهر موافقتهم ويكون قلبه مطمئناً بالايمان ، ومع هذا لم يفعله بل ترك الله بالكلية[3] **﴿ولئن جاء نصرٌ من ربك ليقولُنَّ إنا كنا معكم﴾** أي ولئن جاء نصرٌ قريب للمؤمنين ، وفتح ومغانم قال أولئك المذبذبون : إنا كنا معكم ننصركم على أعدائكم ، فقاسمونا فيما حصل لكم من الغنائم قال تعالى رداً عليهم **﴿أوَليس اللهُ بأعلم بما في**

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٢٣١ . (٢) القرطبي ١٣/ ٣٢٩ . (٣) التفسير الكبير ٢٥/ ٣٧ .

﴿ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

صدور العالمين﴾ ؟ استفهام تقرير أي أوليس الله هو العالم بما انطوت عليه الضمائر من خير وشر ، وبما في قلوب الناس من إيمان ونفاق ؟ بلى إنه بكل شيء عليم ، ثم أكد تعالى ذلك بقوله **﴿وليعْلمنَّ اللهُ الذين آمنوا وليعلمنَّ المنافقين﴾** أي وليُظهرنَّ الله لعباده حال المؤمنين وحال المنافقين حتى يتميزوا فيفتضح المنافق ، ويظهر شرف المؤمن الصادق قال المفسرون : والمراد **﴿وليعلمنَّ الله﴾** إظهار علمه للناس حتى يصبح معلوماً لديهم ، وإلا فالله عالم بما كان ، وما يكون ، وما هو كائن لا تخفى عليه خافية ، فهو إذاً علمُ إظهار وإبداء ، لا علمُ غيبٍ وخفاء بالنسبة للّه تعالى ، وقد فسَّر ابن عباس العلم بمعنى الرؤية[١] **﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم﴾** أي قال الكفار للمؤمنين اكفروا كما كفرنا ، واتَّبعوا ديننا ونحن نحمل عنكم الإثم والعقاب ، إن كان هناك عقاب قال ابن كثير : كما يقول القائل : افعلْ هذا وخطيئتك في عنقي[٢] ، فإن قيل **﴿ولْنحملْ﴾** صيغة أمر ، فكيف يصح أمر النفس من الشخص ؟ فنقول : الصيغةُ أمرٌ والمعنى شرطٌ وجزاء أي إن اتبعتمونا حملنا خطاياكم **﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾** أي وما هم حاملين شيئاً من خطاياهم ، لأنه لا يحمل أحدٌ وزر أحد **﴿إنهم لكاذبون﴾** أي وإنهم لكاذبون في ذلك ، ثم قال تعالى **﴿وليحملنَّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾** أي وليحملُنَّ أوزارهم وأوزار من أضلوهم دون أن ينقص من أوزار أولئك شيء كما في الحديث (ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتَّبعه من غير أن يَنْقص من آثامهم شيءٌ)[٣] **﴿وليُسألنَّ يوم القيامة﴾** أي وليسألنَّ سؤال توبيخ وتقريع **﴿عما كانوا يفترون﴾** أي عما كانوا يختلقونه من الكذب على الله عز وجل ، ثم ذكر تعالى لرسوله ﷺ قصة نوح تسليةً له عما يلقاه من أذى المشركين فقال **﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً﴾** أي ولقد بعثنا نوحاً الى قومه فمكث فيهم تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم الى توحيد الله جلَّ وعلا ، وكانوا عبدة أصنام فكذبوه **﴿فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾** أي فأهلكهم الله بالطوفان وهم مصرّون على الكفر والضلال قال أبو السعود : والطوفان : كل ما يطوف بالشيء على كثرة وشدة ، من السيل والريح والظلام ، وقد غلب على طوفان الماء[٤] قال الرازي : وفي قوله **﴿وهم ظالمون﴾** إشارة الى لطيفة ، وهي أن الله لا يعذب على مجرد وجود الظلم ، وإنما يعذب على الإصرار على الظلم ولهذا قال **﴿وهم ظالمون﴾** يعني أهلكهم وهم على

---

(١) انظر ما كتبه العلامة ابن كثير في هذا الشأن ٣/٢٨ من المختصر . (٢) ابن كثير المختصر ٣/ ٣٠ . (٣) الحديث في الصحيحين .
(٤) أبو السعود ٤/ ١٦٦ .

فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ

ظلمهم[1] ﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة﴾ أي فأنجينا نوحاً من الغرق ومن ركب معه في السفينة من أهله وأولاده وأتباعه المؤمنين ﴿وجعلناها آيةً للعالمين﴾ أي وجعلنا تلك الحادثة الهائلة عظة وعبرة للناس بعدهم يتعظون بها ﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه﴾ قال ابن كثير : يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله « إبراهيم » إمام الحنفاء ، أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والإخلاص له في التقوى ، وطلب الرزق منه وحده ، وتوحيده في الشكر فإنه المشكور على النعم لا مُسدي لها غيره[2] ﴿ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي عبادة الله وتقواه خير لكم من عبادة الأوثان إن كنتم تعلمون الخير من الشر وتفرقون بينهما ﴿إنما تعبدون من دون الله أوثاناً﴾ أي أنتم لا تعبدون شيئاً ينفع أو يضر ، وإنما تعبدون أصناماً من حجارة صنعتموها بأيديكم ﴿وتخلقون إفكاً﴾ أي وتصنعون كذباً وباطلاً قال ابن عباس : تنحتون وتصورون إفكاً[3] ﴿إنَّ الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً﴾ أي إن هؤلاء الذين تعبدونهم لا يقدرون على أن يرزقوكم ﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾ أي فاطلبوا الرزق من الله وحده ، فإنه القادر على ذلك ﴿واعبدوه واشكروا له﴾ أي وخصوه وحده بالعبادة واخشعوا واخضعوا له ، واشكروه على نعمه التي أنعم بها عليكم ﴿إليه تُرجعون﴾ أي إليه لا إلى غيره مرجعكم يوم القيامة فيجازي كل عاملٍ بعمله ﴿وإن تُكذبوا فقد كذب أممٌ من قبلكم﴾ لما فرغ من بيان التوحيد أتى بعده بالتهديد أي وإن تكذبوني فلن تضروني بتكذيبكم وإنما تضرون بأنفسكم فقد سبق قبلكم أمم كذبوا رسلهم فحلَّ بهم عذاب الله ، وسيحل بكم ما حلَّ بهم[4] ﴿وما على الرَّسول إلا البلاغُ المُبين﴾ أي وليس على الرسول إلا تبليغ أوامر الله ، وليس عليه هداية الناس قال الطبري : ومعنى ﴿البلاغ المبين﴾ أي الذي يبينُ لمن سمعه ما يُراد به ، ويفهم منه ما يعني به[5] ﴿أولم يروا كيف يُبدىءُ الله الخلق ثمَّ يُعيده﴾ الاستفهام للتوبيخ لمنكري الحشر أي أولم ير المكذبون بالدلائل الساطعة كيف خلق تعالى الخلق ابتداءً من العدم ، فيستدلون بالخلقة الأولى على الإعادة في الحشر ؟ قال قتادة : المعنى أولم يروا بالدلائل والنظر كيف يجوز أن يعيد الله الأجسام بعد الموت ؟ ﴿إنَّ ذلك على الله

(١) التفسير الكبير ٢٥/ ٤٢ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٢ . (٣) هذا هو الظاهر أنها من الخلق وهو قول مجاهد والحسن واختاره ابن جرير ، وقيل أنه من الاختلاق أي تختلقون وتقولون الكذب . (٤) قال ابن كثير : والظاهر من السياق ان كل هذا من كلام إبراهيم الخليل عليه السلام ، يحتج به عليهم لإثبات المعاد ، لقوله بعد هذا كله ﴿فما كان جواب قومه﴾ وذهب الإمام الطبري إلى أن هذا من كلام الله تعالى لكفار مكة ويراد به تسلية النبي ﷺ وليس من كلام إبراهيم ، وما ذهب إليه ابن كثير أظهر والله أعلم . (٥) الطبري ٢٠/ ٨٩ .

يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾

يسيـر﴾ أي سهل عليه تعالى فكيف ينكرون البعث والنشور ؟ فإن من قدر على البدء قدر على الإعادة ، قال القرطبي : ومعنى الآية على ما قاله البعض : أولم يروا كيف يبدىء الله الثمار فتحيا ثم تفنى ثم يعيدها أبداً ، وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولداً ، وخلق من الولد ولداً ، وكذلك سائر الحيوان ، فإذا رأيتم قدرته على الإبداء والإيجاد ، فهو القادر على الإعادة لأنه إذا أراد أمراً قال له كن فيكون[1] ﴿قـل سيروا في الأرض فانظـروا كيـف بـدأ الخلـق﴾ أي قل لهؤلاء المنكرين للبعث سيروا في أرجاء الأرض فانظروا كيف أن الله العظيم القدير خلق الخلق على كثرتهم وتفاوت هيئاتهم ، واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم ، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف أهلكهم الله ، لتعلموا بذلك كمال قدرة الله عز وجل ! ﴿ثـمَّ اللَّـه يُنشـىء النشـأة الآخـرة﴾ أي ثم هو تعالى ينشئهم عند البعث نشأةً أخرى ﴿إن اللـه على كـل شيء قديـر﴾ أي لا يعجزه تعالى شيء ومنه البـدء والإعـادة ﴿يعـذِّب من يشـاءُ ويرحـم من يشاء﴾ أي هو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، فله الخلق والأمر ، لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون ﴿وإليـه تُقلبـون﴾ أي وإليه تُرجعون يوم القيامة ﴿ومـا أنتـم بمعجزيـن فـي الأرضِ ولا فـي السَّماء﴾ أي لا تفوتون من عذاب الله ، وليس لكم مهربٌ في الأرض ولا في السماء قال القرطبي : والمعنى لو كنتم في السماء ما أعجزتم الله كقوله ﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾[2] ﴿ومـا لكـم من دون اللـهِ من ولـي ولا نصيـر﴾ أي ليس لكم غـير اللـه وليٌّ يحميكم من بلائه ، ولا نصير ينصركم من عذابه ﴿والذيـن كفـروا بآياتِ الـله ولقائـه﴾ أي كفروا بالقرآن والبعث ﴿أولئـك يئسـوا من رحمتـي﴾ أي أولئك المنكرون الجاحدون قنطوا من رحمتي قال ابن جرير : وذلك في الآخرة عند رؤية العذاب[3] ﴿وأولئـك لهـم عـذاب أليـم﴾ أي لهم عذاب موجع مؤلـم ﴿فما كـان جـواب قومـه إلاّ أن قالـوا اقتلـوه أو حرّقـوه﴾ أي فما كان ردُّ قومه عليه حين دعاهم إلى الله ونهاهم عن الأصنام إلا أن قال كبراؤ هم المجرمون : اقتلوه لتستريحوا منه أو حرّقوه بالنار ﴿فأنجاه اللـه مـن النـار﴾ أي فألقوه في النـار فجعلها برداً وسلاماً عليه ﴿إنَّ في ذلـك لآياتٍ لقـومٍ يؤمنـون﴾ أي إنَّ في إنجائنـا لإبراهيم من النار لدلائل وبراهين ساطعة على قدرة الله لقوم يصدقون بوجود الله وكمال قدرته وجلاله

(١) القرطبي ١٣/ ٣٣٦ . (٢) نفس المرجع السابق ١٣/ ٣٣٧ . (٣) الطبري ٢٠/ ٩٠ .

وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

﴿وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً﴾ أي قال ابراهيم لقومه توبيخاً لهم وتقريعاً : إنما عبدتم هذه الأوثان والاصنام وجعلتموها آلهة مع الله **﴿مودة بينكم في الحياة الدنيا﴾** أي من أجل أن تدوم المحبة والألفة بينكم في هذه الحياة باجتماعكم على عبادتها **﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾** أي ثم في الآخرة ينقلب الحال فتصبح هذه الصداقة والمودة عداوةً وبغضاء حيث يقع التناكر ويتبرأ القادة من الأتباع ويلعن الأتباع القادة ، لأن صداقتهم في الدنيا لم تكن من أجل الله **﴿ومأواكم النار ومالكم من ناصرين﴾** أي ومصيركم جميعاً جهنم وليس لكم ناصر أو معين يخلصكم منها **﴿فآمن له لوطٌ﴾** أي فآمن معه لوط وصدَّقه وهو ابن أخيه وأول من آمن به لما رأى من الآيات الباهرة **﴿وقال إني مهاجرٌ إلى ربي﴾** أي وقال الخليل إبراهيم ، إني تاركٌ وطني ومهاجر من بلدي رغبة في رضى الله قال المفسرون : هاجر من سواد العراق الى فلسطين والشام ابتغاء إظهار الدين والتمكن من نشره **﴿إنه هو العزيز الحكيم﴾** أي هو العزيز الذي لا يذل من اعتمد عليه ، الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها **﴿ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾** أي وهبنا لإبراهيم ـ لما فارق قومه في الله ـ ولداً صالحاً هو إسحق وولد ولدٍ وهو يعقوب بن اسحاق **﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾** أي خصصناه بهذا الفضل العظيم حيث جعلنا كل الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته ، وجعلنا الكتب السماوية نازلةً على الأنبياء من بنيه قال ابن كثير : وهذه خصلة سنية عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلاً ، وجعله إماماً للناس ، أن جعل الله في ذريته النبوة والكتاب ، فلم يوجد نبيٌّ بعد إبراهيم إلا وهو من سلالته ، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة ولده « يعقوب » ولم يوجد نبي من سلالة « إسماعيل » سوى النبي العربي عليه أفضل الصلاة والتسليم **﴿وآتيناه أجره في الدنيا﴾** أي وتركنا له الثناء الحسن في جميع الأديان **﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾** أي وهو في الآخرة في عداد الكاملين في الصلاح ، وهذا ثناءٌ عظيم على أب الأنبياء إبراهيم عليه السلام .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستفهام للتقريع والتوبيخ والإنكار ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا﴾ .

٢ ـ الطباق بين ﴿صدقوا . . والكاذبين﴾ وبين ﴿آمنوا . . والمنافقين﴾ وبين ﴿يعذب . . ويرحم﴾ وبين ﴿يبدىء ويعيد﴾ .

٣ ـ التأكيد بإنَّ واللام ﴿فإن أجل الله لآتٍ﴾ لأن المخاطب منكر .
٤ ـ صيغة المبالغة ﴿السميع العليم﴾ .
٥ ـ الجناس غير التام ﴿يسير . . وسيروا﴾ .
٦ ـ التشبيه المرسل المجمل ﴿فتنة الناس كعذاب الله﴾ حذف منه وجه الشبه فهو مجمل .
٧ ـ التفنن في التعبير ﴿ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾ لم يقل إلا خمسين سنة تفنناً لأن التكرار في الكلام الواحد مخالف للبلاغة إلا إذا كان لغرضٍ من تفخيم او تهويل مثل ﴿القارعة ما القارعة﴾ .
٨ ـ أسلوب الإطناب ﴿إنما تعبدون من دون الله أوثاناً . . إن الذين تعبدون من دون الله﴾ لغرض التشنيع عليهم في عبادة الاوثان .
٩ ـ أسلوب الإيجاز ﴿اقتلوه أو حرقوه﴾ أي حرقوه في النار ثم قال ﴿فأنجاه الله﴾ أي ففعلوا فأنجاه الله من النار .
١٠ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿وليحملن أثقالهم﴾ شبّه الذنوب بالأثقال لأنها تثقل كاهل الانسان .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة . . إلى . . والله يعلم ما تصنعون﴾ من آية (٢٨) إلى نهاية آية (٤٥) .

المناسَبَة : لما ذكر تعالى قصة نوح وإبراهيم ، وما فيهما من مواطن العظة والعبرة ، ذكر هنا قصص الأنبياء « لوط ، شعيب ، هود ، صالح » على سبيل الاختصار لبيان عاقبة الله في المكذبين . . وكلٌّ ذلك لتأكيد ما ورد في صدر السورة الكريمة من أن الابتلاء سنة الحياة ، وأنه من السنن الكونية على مر العصور والدهور .

اللغَة : ﴿الفاحشة﴾ الفعلة المتناهية في القبح قال أهل اللغة : الفاحشةُ : القبيح الظاهر قبحه ، وكل فعلٍ زاد في القبح والشناعة فهو فاحشة ﴿ناديكم﴾ النادي : المجلس الذي يجتمع فيه القوم للسَّمر أو المشورة أو غيرهما ﴿تعثوا﴾ العُثُوُّ والعُثيُّ أشدُّ الفساد يقال : عثي يعثى ، وعثا يعثو بمعنى واحد[1] ﴿رجزاً﴾ عذاباً ﴿جاثمين﴾ جثم : إذا قعد على ركبتيه ﴿سابقين﴾ فائتين من عذابنا ﴿أوهن﴾ أضعف ، والوهنُ : الضعف .

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ

التفسِير : ﴿ولوطاً إذ قال لقومه﴾ أي واذكر رسولنا لوطاً عليه السلام حين قال لقومه ﴿إنكم لتأتون الفاحشة﴾ أي إنكم يا معشر القوم لترتكبون الفعلة المتناهية في القبح ﴿ما سبقكم بها من أحدٍ من العالمين﴾ أي لم يسبقكم بهذه الشنيعة ، والفعلة القبيحة ـ وهي اللواطة ـ أحدٌ من الخلق ، ثم فسر تلك الشنيعة فقال ﴿إنكم لتأتون الرجال﴾ أي إنكم لتأتون الذكور في الأدبار وذلك منتهى القذارة والخسَّة قال المفسرون : لم يقدم أحد قبلهم عليها اشمئزازاً منها في طباعهم لإفراط قبحها حتى أقدم عليها

(١) القرطبي ١٣/٣٤٣ .

وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا

قوم لوط ، ولم ينز ذكرٌ على ذكر قبل قوم لوط[1] ﴿وتقطعون السبيل﴾ أي وتقطعون الطريق على المارة بالقتل وأخذ المال ، وكانوا قطاع الطريق قال ابن كثير : كانوا يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم[2] ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ أي وتفعلون في مجلسكم ومنتداكم ما لا يليق من أنواع المنكرات علناً وجهاراً ، أما كفاكم قبحُ فعلكم حتى ضممتم إليه قبح الإظهار ! ؟ قال مجاهد : كانوا يأتون الذكور أمام الملأ يرى بعضهم بعضاً ، وقال ابن عباس : كانوا يحذفون بالحصى من مرَّ بهم مع الفحش في المزاح ، وحل الإزار ، والصفير وغير ذلك من القبائح ﴿فما كان جوابَ قومه﴾ أي فما كان ردُّ قومه عليه حين نصحهم وذكّرهم وحذّرهم ﴿إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله﴾ أي إلا أن قالوا على سبيل الاستهزاء : ائتنا يا لوط بالعذاب الذي تعدنا به ﴿إن كنت من الصادقين﴾ أي إن كنت صادقاً فيما تهددنا به من نزول العذاب قال الإمام الفخر : فإن قيل إن الله تعالى قال ههنا ﴿إلا أن قالوا ائتنا﴾ وقال في موضع آخر ﴿إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم﴾ فكيف وجه الجمع بينهما ؟ فنقول : إن لوطاً كان ثابتاً على الإرشاد ، مكرراً عليهم النهي والوعيد ، فقالوا أولاً : ائتنا بعذاب الله ، ثم لما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا أخرجوا آل لوط[3] ، ثم إن لوطاً لما يئس منهم طلب النصرة من الله ﴿قال ربِّ انصرني على القوم المفسدين﴾ أي قال لوط ربِّ أهلكهم وانصرني عليهم فإنهم سفهاء مفسدون لا يُرجى منهم صلاح وقد أغرقوا في الغيِّ والفساد قال الرازي : واعلم أن نبياً من الأنبياء ما طلب هلاك قوم إلا إذا علم أن عدمهم خير من وجودهم كما قال نوح ﴿إنك إن تذرهم يضلوا عبادك﴾ فكذلك لوط لما رأى أنهم يفسدون في الحال ، ولا يرجى منهم صلاح في المآل طلب لهم العذاب[4] ﴿ولما جاءتْ رسُلنا إبراهيم بالبُشرى﴾ المراد بالرسل هنا « الملائكة » والبشرى هي تبشير ابراهيم بالولد ، أي لما جاءت الملائكة تبشّر إبراهيم بغلام حليم ﴿قالوا إنّا مهلكوا أهل هذه القرية﴾ أي جئنا لنهلك قرية قوم لوط ﴿إنّ أهلها كانوا ظالمين﴾ أي لأنَّ أهلها ممعنون في الظلم والفساد ، طبيعتهم البغيُ والعناد قال المفسرون : لما دعا لوط على قومه ، استجاب الله دعاءه ، وأرسل ملائكته لإهلاكهم ، فمرّوا بطريقهم على إبراهيم أولاً فبشروه بغلامٍ وذرية صالحة ، ثم أخبروه بما أُرسلوا من أجله ، فجادلهم بشأن ابن أخيه لوط ﴿قال إنَّ فيها لوطاً﴾ أي كيف تهلكون أهل القرية وفيهم هذا النبي الصالح « لوط » ؟ ﴿قالوا نحن أعلمُ بمن فيها﴾ أي نحن أعلم به وبمن فيها من المؤمنين قال الصاوي : وهذا بعد المجادلة التي تقدمت في سورة هود ﴿يجادلنا في قوم لوط﴾ حيث قال لهم : أتهلكون قريةً فيها ثلاثمائة مؤمن ؟ قالوا لا ، إلى أن

(١) نقلاً عن البحر المحيط ٧/ ١٤٩ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٥ . (٣) التفسير الكبير ٢٥/ ٥٩ . (٤) التفسير الكبير ٢٥/ ٥٩ .

﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾

قال : أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد ؟ قالوا لا فقال لهم ﴿إن فيها لوطاً﴾ فأجابوه بقولهم ﴿نحن أعلم بمن فيها﴾[1] ثم بشروه بإنجاء لوط والمؤمنين ﴿لننجينَّه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾ أي سوف ننجيه مع أهله من العذاب ، إلا امرأته فستكون من الهالكين لأنها كانت تمالئهم على الكفر ، ثم ساروا من عنده فدخلوا على « لوط» في صورة شبان حسان ﴿ولمّا أن جاءت رسُلنا لوطاً سيء بهم وضاقَ بهم ذرعاً﴾ أي ولما دخلوا على لوط حزن بسببهم ، وضاق صدره من مجيئهم لأنهم حسان الوجوه في صورة أضياف ، فخاف عليهم من قومه ، فأعلموه أنهم رسل ربه ﴿وقالوا لا تخف ولا تحزن﴾ أي لا تخف علينا ولا تحزن بسببنا ، فلن يصل هؤلاء المجرمون إلينا ﴿إنّا منجوك وأهلك إلا امرأتكَ كانت من الغابرين﴾ أي كانت من الهالكين الباقين في العذاب ﴿إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السَّماء بما كانوا يفسقون﴾ أي منزلون عليهم عذاباً من السماء بسبب فسقهم المستمر قال ابن كثير : وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها الى عنان السماء ثم قلبها عليهم ، وأرسل عليهم حجارة من سجيل منضود ، وجعل الله مكانها بحيرةً خبيثةً منتنة ، وجعلهم عبرةً الى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد[2] ﴿ولقد تركنا منها آيةً بينة﴾ أي ولقد تركنا من هذه القرية علامةً بينةً واضحة ، هي آثار منازلهم الخربة ﴿لقوم يعقلون﴾ أي لقومٍ يتفكرون ويتدبرون ويستعملون عقولهم في الاستبصار والاعتبار ، ثم أخبر تعالى عن قصة شعيب فقال ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾ أي وأرسلنا الى قوم مدين أخاهم شعيباً ﴿فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخِر﴾ أي فقال لقومه ناصحاً ومذكراً : يا قوم وحّدوا الله وخافوا عقابه الشديد في اليوم الآخر ﴿ولا تعثوا في الأرضِ مفسدين﴾ أي لا تسعوا بالإفساد في الأرض بأنواع البغي والعدوان ﴿فكذبوه فأخذتهم الرجفة﴾ أي فكذبوا رسولهم شعيباً فأهلكهم الله برجفةٍ عظيمة مدمرة زلزلت عليهم بلادهم ، وصيحة هائلة أخرجت القلوب من حناجرها ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ أي فأصبحوا هلكى باركين على الركب ميتين ﴿وعاداً وثمود وقد تبيَّن لكم من مساكنهم﴾ أي وأهلكنا عاداً وثمود ، وقد ظهر لكم يا أهل مكة من منازلهم بالحجاز واليمن آيتنا في هلاكهم أفلا تعتبرون ؟ ﴿وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم﴾

(١) حاشية الصاوي ٣/ ٢٣٦ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٦ .

أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ

أي وحسَّن لهم الشيطان أعمالهم القبيحة من الكفر والمعاصي حتى رأوها حسنة **﴿فصدَّهم عن السبيل وكانوا مستبصرين﴾** أي فمنعهم عن طريق الحق ، وكانوا عقلاء متمكنين من النظر والاستدلال ، لكنهم لم يفعلوا تكبراً وعناداً **﴿وقارون وفرعون وهامان﴾** أي وأهلكنا كذلك الجبابرة الظالمين ، **﴿قارون﴾** صاحب الكنوز الكثيرة **﴿وفرعون﴾** صاحب الملك والسلطان ، ووزيره **﴿هامان﴾** الذي كان يُعينُه على الظلم والطغيان **﴿ولقد جاءهم موسى بالبينات﴾** أي ولقد جاءهم موسى بالحجج الباهرة ، والآيات الظاهرة **﴿فاستكبروا في الأرض﴾** أي فاستكبروا عن عبادة الله وطاعة رسوله **﴿وما كانوا سابقين﴾** أي وما كانوا ليفلتوا من عذابنا قال الطبري : أي ما كانوا ليفوتونا بل كنا مقتدرين عليهم[1] **﴿فكلاً أخذنا بذنبه﴾** أي فكلاً من هؤلاء المجرمين أهلكناه بسبب ذنبه وعاقبناه بجنايته قال ابن كثير : أي وكانت عقوبته بما يناسبه[2] **﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾** أي ريحاً عاصفة مدمرة فيها حصباء « حجارة » كقوم لوط **﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾** أي ومنهم من أخذته صيحةُ العذاب مع الرجفة كثمود **﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾** أي خسفنا به وبأملاكه الأرض حتى غاب فيها كقارون وأصحابه **﴿ومنهم من أغرقنا﴾** أي أهلكناه بالغرق كقوم نوح وفرعون وجنده **﴿وما كان الله ليظلمهم﴾** أي وما كان الله ليعذبهم من غير ذنب فيكون لهم ظالماً **﴿ولكن كانوا أنفسم يظلمون﴾** أي ولكن ظلموا أنفسهم فاستحقوا العذاب والدمار ، ثم ضرب تعالى مثلاً للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله فقال **﴿مثلُ الذين اتخذوا من دونِ الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً﴾** أي مثل الذين اتخذوا من دون الله أصناماً يعبدونها في اعتمادهم عليها ورجائهم نفعها كمثل العنكبوت في اتخاذها بيتاً لا يغني عنها في حر ولا برد ، ولا مطر ولا أذى قال القرطبي : هذا مثل ضربه الله سبحانه لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره ، كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حراً ولا برداً[3] **﴿وإن أوهن البيوت لبيتُ العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾** أي وإن أضعف البيوت لبيتُ العنكبوت لتفاهته وحقارته ، لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم ما عبدوها **﴿إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء﴾** أي هو تعالى عالم بما عبدوه من دونه لا يخفى عليه ذلك ، وسيجازيهم على كفرهم **﴿وهو العزيز الحكيم﴾** أي وهو جل وعلا العزيز في ملكه ، الحكيم في

---

(١) الطبري ٢٠/ ٩٦ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٧ . (٣) القرطبي ١٣/ ٣٤٥ نقلاً عن الفراء .

ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

صنعه ﴿وتلك الأمثالُ نضربها للناس﴾ أي وتلك الأمثال نبينها للناس في القرآن لتقريبها الى أذهانهم ﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾ أي وما يدركها ويفهمها إلا العالمون الراسخون ، الذين يعقلون عن الله عز وجل مراده ﴿خلق الله السموات والأرض بالحق﴾ أي خلقهما بالحق الثابت لا على وجه العبث واللعب ﴿إن في ذلك لآيةً للمؤمنين﴾ أي إن في خلقهما بذلك الشكل البديع ، والصنع المحكم لعلامة ودلالة للمصدقين بوجود الله ووحدانيته ﴿ أتْلُ ما أوحي إليك من الكتاب﴾ أي اقرأ يا محمد هذا القرآن المجيد الذي أوحاه إليك ربك ، وتقرَّب إليه بتلاوته وترداده ، لأن فيه محاسن الآداب ومكارم الأخلاق ﴿وأقم الصلاة﴾ أي دم على إقامتها بأركانها وشروطها وآدابها فإنها عماد الدين ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ أي إنَّ الصلاة الجامعة لشروطها وآدابها ، المستوفية لخشوعها وأحكامها ، إذا أداها المصلي كما ينبغي ، وكان خاشعاً في صلاته ، متذكراً لعظمة ربه ، متدبراً لما يتلو ، نهته عن الفواحش والمنكرات ﴿ولذكر الله أكبر﴾ أي ولذكر الله أكبر من كل شيء في الدنيا ، وهو أن تتذكر عظمته وجلاله ، وتذكره في صلاتك وفي بيعك وشرائك ، وفي أمور حياتك ولا تغفل عنه في جميع شؤونك ﴿والله يعلم ما تصنعون﴾ أي يعلم جميع أعمالكم وأفعالكم فيجازيكم عليها أحسن المجازاة ، قال أبو العالية : إن الصلاة فيها ثلاث خصال : الإخلاص ، والخشية ، وذكر الله ؛ فالإخلاص يأمره بالمعروف ، والخشية تنهاه عن المنكر ، وذكر الله ـ القرآن ـ يأمره وينهاه فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة[1] .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ التأكيد بعدة مؤكدات والاطناب بتكرار الفعل تهجيناً لعملهم القبيح وتوبيخاً ﴿إنكم لتأتون الفاحشة . . أئنكم لتأتون الرجال﴾ الاية .

٢ ـ الاستهزاء والسخرية ﴿ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾ وجواب الشرط محذوف دل عليه السابق أي إن كنت صادقاً فائتنا به .

٣ ـ التنكير لإفادة التهويل ﴿رجزاً من السماء﴾ أي رجزاً عظيماً هائلاً .

٤ ـ تقديم المفعول للعناية والاهتمام ، والإجمال ثم التفصيل ﴿فكلاً أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة﴾ الخ .

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/٢٨ .

٥ ـ التشبيه التمثيلي ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً﴾ شبَّه الله الكافرين في عبادتهم للأصنام بالعنكبوت في بنائها بيتاً ضعيفاً واهياً يتهاوى من هبة نسيم أو من نفخة فم ، وسمي تمثيلياً لأن وجه الشبه صورة منتزعة من متعدد .

٦ ـ توافق الفواصل في الحرف الاخير وما فيه من جرس عذب بديع مثل ﴿انصرني على القوم المفسدين . . إن أهلها كانوا ظالمين﴾ ومثل ﴿وإن أوهن البيوت لبيتُ العنكبوت﴾ ومثل ﴿بما كانوا يفسقون . . وآية بينة لقوم يعقلون﴾ الخ وهو من خصائص القرآن .

تنبيه : أفادت الآية أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وقد ثبت ان رسول الله ﷺ لما قيل له : إن فلاناً يصلي الليل فاذا أصبح سرق فقال : (ستمنعه صلاته) رواه البزار ، يريد عليه السلام أن الصلاة إذا كانت على الوجه الأكمل ، تنهى صاحبها عن الفحشاء ، ولا تزيده بعداً بل تزيده قرباً .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن . . . إلى . . وإن الله لمع المحسنين﴾ . من آية (٤٦) إلى آية (٦٩) نهاية السورة الكريمة

المناسبة : لما بيَّن تعالى ضلال من اتخذ أولياء من دون الله ، وضرب المثل ببيت العنكبوت ، أمر هنا بالتلطف في دعوة أهل الكتاب إلى الايمان ، ثم ذكر البراهين القاطعة على صدق محمد ﷺ وصحة القرآن ، وختم السورة الكريمة ببيان المانع من التوحيد وهو اغترار الناس بالحياة الدنيا الفانية ، وبيَّن أن المشركين يوحدون الله وقت الشدة ، وينسونه وقت الرخاء .

اللغة : ﴿بغتة﴾ فجأة يقال : بَغَتَه إذا دهمه على حين غفلة ﴿يغشاهم﴾ يجللهم ويغطيهم من فوقهم ، والغشاء : الغطاء ﴿لنبوئنهم﴾ بوأه : أنزله في المكان على وجه الإقامة ﴿غرفاً﴾ منازل رفيعة عالية في الجنة ﴿يؤفكون﴾ يُصرفون عن الحق إلى الباطل ﴿يبسط﴾ يوسّع ﴿يقدر﴾ يضيق ﴿مثوى﴾ المكان الذي يقيم فيه الإنسان .

سبب النزول : عن ابن عباس أن النبي ﷺ أمر المؤمنين بالهجرة حين آذاهم المشركون فقال لهم : اخرجوا إلى المدينة وهاجروا ، ولا تجاوروا الظلمة ، قالوا : ليس لنا بها دار ولا عقار ، ولا من يطعمنا ولا من يسقينا فنزلت ﴿وكأيِّن من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم . .﴾[1] الآية .

* وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ

التفسير : ﴿ولا تُجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾ أي لا تدعو أهل الكتاب إلى الإسلام وتناقشوهم في أمر الدين إلا بالطريقة الحسنى كالدعاء إلى الله بآياته ، والتنبيه على حججه وبيناته ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ أي إلا من كان ظالماً ، محارباً لكم ، مجاهداً في عداوتكم ، فجادلوهم بالغلظة

(١) القرطبي ١٣/ ٣٦٠ .

﴿إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟﴾

والشدة قال الإمام الفخر : إن المشرك لما جاء بالمنكر الفظيع كان اللائق أن يُجادل بالأخشن ، ويُبالغ في توهين شبهه وتهجين مذهبه ، وأما أهل الكتاب فإنهم آمنوا بإنزال الكتب وإرسال الرسل إلا الاعتراف بالنبي عليه السلام ، فلمقابلة إحسانهم يُجادلون بالأحسن إلا الذين ظلموا منهم بإثبات الولد لله ، والقول بثالث ثلاثة فإنهم يُجادلون بالأخشن من تهجين مقالتهم ، وتبيين جهالتهم[1] ﴿وقولوا آمنا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم﴾ أي وقولوا لهم : آمنا بالقرآن الذي أُنزل إلينا وبالتوراة والإنجيل التي أنزلت إليكم ، قال أبو هريرة : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم﴾[2] ﴿وإلهنا وإلهكم واحدٌ ونحن له مسلمون﴾ أي ربنا وربكم واحد لا شريك له في الألوهية ، ونحن له مطيعون ، مستسلمون لحكمه وأمره ﴿وكذلك أنزلنا إليك الكتاب﴾ أي وكما أنزلنا الكتاب على من قبلك يا محمد أنزلناه عليك ﴿فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به﴾ أي فالذين أعطيناهم الكتاب كعبد الله ابن سلام وأمثاله ممن أسلم من اليهود والنصارى يؤ منون بالقرآن ﴿ومن هؤلاء من يؤمنُ به﴾ أي ومن أهل مكة من يؤ من بالقرآن كذلك ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون﴾ أي وما يكذب بآياتنا وينكرها مع ظهورها وقيام الحجة عليها إلا المتوغلون في الكفر ، المصرّون على العناد قال قتادة : وإنما يكون الجحود بعد المعرفة[3] ﴿وما كنتَ تتلوا من قبله من كتابٍ ولا تخُطه بيمينك﴾ أي وما كنتَ يا محمد تعرف القراءة ولا الكتابة قبل نزول هذا القرآن لأنك أميٌ قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ أمياً لا يقرأ شيئاً ولا يكتب[4] ﴿إذاً لارتاب المبطلون﴾ أي لو كنت تقرأ أو تكتب إذاً لشك الكفار في القرآن وقالوا ؛ لعله التقطه من كتب الأوائل ونسبه إلى الله ، والآيةُ احتجاجٌ على أن القرآن من عند الله ، لأن النبي أميٌ وجاءهم بهذا الكتاب المعجز ، المتضمن لأخبار الأمم السابقة ، والأمور الغيبية ، وذلك أكبر برهان على صدقه ﷺ قال ابن كثير : المعنى قد لبثت في قومك يا محمد ـ من قبل أن تأتي بهذا القرآن ـ عمراً لا تقرأ كتاباً ، ولا تحسن الكتابة ، بل كل أحد من قومك يعرف أنك أميٌ لا تقرأ ولا تكتب ، وهكذا كان رسول الله ﷺ دائماً إلى يوم الدين لا يحسن الكتابة ، ولا يخط حرفاً ولا سطراً بيده ، بل كان له كتَّاب يكتبون له الوحي[5] ﴿بل هو آياتٌ بيناتٌ في صدور الذين أُوتوا العلم﴾ ﴿بل﴾ للإضراب أي ليس الأمر كما حسب الظالمون والمبطلون بل هو آياتٌ واضحاتُ الإعجاز ، ساطعات الدلالة على أنها من عند الله ، محفوظة في صدور العلماء ، قال

(١) التفسير الكبير ٢٥/ ٧٥ . (٢) أخرجه البخاري كذا في القرطبي ١٣/ ٣٥١ . (٣) الطبري ٢١/ ٤ . (٤) نفس المرجع السابق والصفحة . (٥) مختصر ابن كثير ٣/ ٤٠ .

﴿ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾

المفسرون : من خصائص القرآن العظيم أنَّ الله حفظه من التبديل والتغيير بطريقين : الأول : الحفظُ في السطور ، والثاني : الحفظُ في الصدور ، بخلاف غيره من الكتب فإنها مسطّرة لديهم غير محفوظة في صدورهم ولهذا دخلها التحريف ، وقد جاء في صفة هذه الأمة « أنا جيلُهم في صدورهم » وقال الحسن : أُعطيت هذه الأمة الحفظ ، وكان من قبلها لا يقرءون كتابهم إلا نظراً ، فإذا أطبقوه لم يحفظ ما فيه إلا النبيّون[1] ﴿وما يجحدُ بآياتنا إلا الظالمون﴾ أي وما يكذب بها إلا المتجاوزون الحد في الكفر والعناد ﴿وقالوا لولا أُنزل عليه آياتٌ من ربه﴾ أي وقال كفار مكة : هلاَّ أُنزل على محمد آيات خارقة من ربه تدل على صدقه مثل ناقة صالح ، وعصا موسى ، ومائدة عيسى !! ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ أي قل لهم يا محمد : إنما أمر هذه الخوارق والمعجزات لله وليست بيدي ، إن شاء أرسلها ، وإن شاء منعها ، وليس لأحدٍ دخلٌ فيها ﴿وإنما أنا نذيرٌ مبين﴾ أي وإنما أنا منذر أخوفكم عذاب الله ، وليس من شأني أن آتي بالآيات ﴿أولم يكفِهمْ أنَّا أنزلنا عليك الكتابَ يُتلى عليهم﴾ ؟ الاستفهام للتوبيخ أي أولم يكف المشركين من الآيات هذا الكتاب المعجز الذي لا يزال يقرع أسماعهم ؟ وكيف يطلبون آيةً والقرآن أعظم الآيات وأوضحها دلالة على صحة نبوتك ؟ قال ابن كثير : بيَّن تعالى كثرة جهلهم ، وسخافة عقلهم ، حيث طلبوا آياتٍ تدل على صدق محمد ﷺ ، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، الذي هو أعظم من كل معجزة ، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته ، بل عن معارضة سورة منه ، أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم وأنت رجلٌ أميٌ لا تقرأ ولا تكتب ، وجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى[2] ؟ ولهذا قال بعده ﴿إنَّ في ذلك لرحمةً وذكرى لقوم يؤمنون﴾ أي إن في إنزال هذا القرآن لنعمةً عظيمة على العباد بإنقاذهم من الضلالة ، وتذكرة بليغة لقوم غرضهم الإيمان لا التعنت ﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً﴾ أي قل لهم : كفى أن يكون الله جلَّ وعلا شاهداً على صدقي ، يشهد لي أني رسولُه ﴿يعلم ما في السموات والأرض﴾ أي لا تخفى عليه خافية من أمر العباد ، فلو كنتُ كاذباً عليه لانتقم مني ﴿والذينَ آمنوا بالباطل وكفروا بالله أُولئك هم الخاسرُون﴾ أي والذين آمنوا بالأوثان وكفروا بالرحمن ، أولئك هم الكاملون في الخسران حيث اشتروا الكفر بالإيمان ﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾ أي يستعجلك يا محمد المشركون بالعذاب يقولون ﴿أمطرْ علينا حجارة من السماء﴾ وهو

(١) القرطبي ١٣/ ٣٥٤ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٤١ .

وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

استعجال على جهة التكذيب والاستهزاء **﴿ولولا أجلٌ مسمًّى لجاءهم العذاب﴾** أي لولا أن الله قدَّر لعذابهم وهلاكهم وقتاً محدوداً لجاءهم العذاب حين طلبوه **﴿وليأتينَّهم بغتةً وهم لا يشعرون﴾** أي وليأتينهم فجأةً وهم ساهون لاهون لا يشعرون بوقت مجيئه **﴿يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطةٌ بالكافرين﴾** تعجبٌ من قلة فطنتهم ومن تعنتهم وعنادهم والمعنى : كيف يستعجلون العذاب والحال أن جهنم محيطةٌ بهم يوم القيامة كإحاطة السوار بالمعصم ، لا مفرَّ لهم منها ؟ ثم ذكر كيفية إحاطة جهنم بهم فقال **﴿يوم يغشاهم العذابُ من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾** أي يوم يجللهم العذاب ويحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم ، ومن جميع جهاتهم **﴿ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون﴾** أي ويقول الله عز وجل لهم : ذوقوا جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا من الاستهزاء والإجرام ، وسيء الأعمال ، ثم لما بيَّن تعالى حال المكذبين الجاحدين ، أعقبه بذكر حال الأبرار المتقين فقال **﴿يا عبادي الذين آمنوا إنَّ أرضي واسعة﴾** خطابُ تشريفٍ للتحريض على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام أي يا من شرفكم الله بالعبودية له هاجروا من مكة إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان فيها ، ولا تجاوروا الظلمة فأرضُ الله واسعة قال مقاتل : نزلت في ضعفاء مسلمي مكة[1] **﴿فإيايَ فاعبدون﴾** أي فخصوني بالعبادة ولا تعبدوا أحداً سواي **﴿كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ ثم إلينا ترجعون﴾** أي أينما كنتم يدرككم الموتُ ، فكونوا دائماً وأبداً في طاعة الله ، وحيث أُمرتم فهاجروا فإن الموت لا بدَّ منه ولا محيد عنه ، ثم إلى الله المرجع والمآب **﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾** أي جمعوا بين إخلاص العقيدة وإخلاص العمل **﴿لنبوئنَّهم من الجنة غُرفاً﴾** أي لننزلنَّهم أعالي الجنة ولنسكننهم منازل رفيعة فيها **﴿تجري من تحتها الأنهار﴾** أي تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنة **﴿خالدين فيها﴾** أي ماكثين فيها إلى غير نهاية لا يخرجون منها أبداً **﴿نعم أجرُ العاملين﴾** أي نعمت تلك المساكن العالية في جناتِ النعيم أجراً للعاملين **﴿الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾** هذا بيانٌ للعاملين أي هم الذين صبروا على تحمل المشاقّ من الهجرة والأذى في سبيل الله ، وعلى ربهم يعتمدون في جميع أمورهم قال في البحر : وهذان جماع الخير كله : الصبر ، وتفويض الأمر إليه تعالى[2] **﴿وكأين من دابةٍ لا تحملُ رزقها﴾** أي كم من دابة ضعيفة لا تقدر على كسب رزقها ولكنَّ الله يرزقها مع ضعفها **﴿الله يرزقُها**

---

(١) زاد المسير ٦/ ٢٨١ . (٢) البحر ٧/ ١٥٧ .

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ

وإياكم﴾ أي الله تعالى يرزقها كما يرزقكم ، وقد تكفل برزق جميع الخلق ، فلا تخافوا الفقر إن هاجرتم ، فالرازق هو الله قال في التسهيل : والقصدُ بالآية التقوية لقلوب المؤمنين إذا خافوا الفقر والجوع في الهجرة من أوطانهم ، فكما يرزق الله الحيوانات الضعيفة كذلك يرزقكم إذا هاجرتم من بلدكم[1] **﴿وهو السميعُ العليم﴾** أي هو السميع لأقوالكم ، العليمُ بأحوالكم ، ثم عاد الحديث إلى توبيخ المشركين في عبادة غير الله فقال **﴿ولئن سألتهم من خلق السمواتِ والأرضَ وسخَّر الشمس والقمر ليقولُنَّ الله﴾** أي ولئن سألت المشركين من خلق العالم العلوي والسفلي وما فيهما من العجائب والغرائب ؟ ومن ذلَّل الشمس والقمر وسخرهما لمصالح العباد يجريان بنظام دقيق ؟ ليقولون : الله خالق ذلك **﴿فأنَّى يؤفكون﴾** أي فكيف يُصرفون عن توحيده بعد إقرارهم بذلك ؟ **﴿اللهُ يبسط الرزق لمن يشاءُ من عباده ويقدر له﴾** أي هو جلَّ وعلا الخالق وهو الرازق ، يوسّع الرزق لمن يشاء من عباده امتحاناً ، ويضيّق الرزق على من يشاء ابتلاءً ، ليظهر الشاكر والصابر **﴿إن الله بكل شيء عليم﴾** أي إنه تعالى واسع العلم يفعل ما تقتضيه الحكمة والمصلحة **﴿ولئن سألتهم من نزَّل من السماء ماءً فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولُنَّ الله﴾** توبيخٌ آخر وإقامة حجة أخرى عليهم أي ولئن سألت المشركين من الذي أنزل المطر من السماء فأخرج به أنواع الزروع والثمار بعد جدب الأرض ويبسها ؟ ليقولون : الله فاعلُ ذلك **﴿قل الحمدُ لله بل أكثرهم لا يعقلون﴾** أي قل يا محمد : حمداً لله على ظهور الحجة ، بل أكثرهم لا يعقلون ، حيث يقرون بأن الله هو الخالق الرازق ويعبدون غيره **﴿وما هذه الحياةُ الدنيا إلا لهوٌ ولعبٌ﴾** أي وما الحياة في هذه الدنيا إلا غرور ينقضي سريعاً ويزول ، كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون **﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان﴾** أي وإن الآخرة لهي دار الحياة الحقيقية التي لا موت فيها ولا تنغيص **﴿لو كانوا يعلمون﴾** أي لو كان عندهم علم لم يُؤْثروا دار الفناء على دار البقاء ، لأن الدنيا حقيرة لا تزن عند الله جناح بعوضة[2] ، ولقد أحسن من قال :

تأمَّلْ في الوجود بعين فكر ... ترى الدنيا الدنيَّة كالخيال
ومَنْ فيها جميعاً سوف يفنى ... ويبقى وجهُ ربك ذو الجلال

﴿فإذا ركبوا في الفُلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾ إقامة حجة ثالثة على المشركين في دعائهم الله عند

---

(١) التسهيل ٣/ ١١٩ . (٢) في الحديث الشريف (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً جرعة ماء) .

﴿الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

الشدائد ، ثم يشركون به في حال الرخاء والمعنى إذا ركبوا في السفن وخافوا الغرق دعوا الله مخلصين له الدعاء، لعلمهم أنه لا يكشف الشدائد عنهم إلاّ هو ، وفي لفظ ﴿مخلصين﴾ ضربٌ من التهكم **﴿فلما نجَّاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾** أي فلما خلَّصهم من أهوال البحر ، ونجاهم إلى جانب البر إذا هم يعودون إلى كفرهم وإشراكهم ، ناسين ربهم الذي أنقذهم من الشدائد والأهوال **﴿ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون﴾** أمرٌ على وجه التهديد أي فليكفروا بما أعطيناهم من نعمة الإنجاء من البحر ، وليتمتعوا في هذه الحياة الدنيا بباقي أعمارهم ، فسوف يعلمون عاقبة أمرهم **﴿أولم يروا أنّا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم﴾** أي أولم ير هؤلاء الكفار ، رؤية تفكر واعتبار ، أنا جعلنا بلدهم « مكة » حرماً مصوناً عن السلب والنهب ، آمناً أهله من القتل والسبي ، والناسُ حولهم يُسبون ويقتلون ؟ قال الضحاك : **﴿ويتخطف الناس من حولهم﴾** أي يقتل بعضُهم بعضاً ، ويسبي بعضهم بعضاً[1] **﴿أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾** أي أفبعد هذه النعم الجليلة يؤمنون بالأوثان ويكفرون بالرحمن ؟ **﴿ومن أظلمُ ممن افترى على الله كذباً أو كذَّب بالحقِّ لما جاءه﴾** أي لا أحد أظلم ممن عبد غير الله وكذَّب بالقرآن حين جاءه **﴿أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾** ؟ أي أليس في جهنم مأوى وموضع إقامة للكافرين بآيات الله جزاء افترائهم وكفرهم ؟ **﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبلنا﴾** أي والذين جاهدوا النفس والشيطان والهوى والكفرة أعداء الدين ابتغاء مرضاتنا لنهدينهم طريق السير إلينا **﴿وإن الله لمع المحسنين﴾** أي مع المؤمنين بالنصر والعون .

البَلاغَة : تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ التحضيض ﴿لولا أُنزل عليه آياتٌ من ربه﴾ .

٢ ـ الطباق ﴿آمنوا بالباطل وكفروا بالله﴾ .

٣ ـ إفادة القصر ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ أي لا غيرهم .

٤ ـ الإطناب بذكر العذاب مراتٍ للتشنيع على المشركين ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل

(١) القرطبي ١٣/ ٣٦٣ .

مسمى﴾ ﴿يستعجلونك بالعـذاب وإن جهنم﴾ ﴿يوم يغشاهم العـذاب﴾ الخ .

٥ ـ الإضافة للتشريف والتكريم ﴿يا عبادي الذين آمنوا﴾ .

٦ ـ الطباق ﴿يبسط الرزق . . ويقدر﴾ ومثله ﴿أفبالباطل يؤ منـون وبنعمة الله يكفـرون﴾ .

٧ ـ المجاز العقلي ﴿حرماً آمنـاً﴾ أي آمناً أهله .

٨ ـ التشبيه البليغ ﴿وما هذه الحياة الدنيـا إلا لهوٌ ولعبٌ﴾ أي كاللهو وكاللعب حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً على حد قولهم : « زيدٌ أسد » .

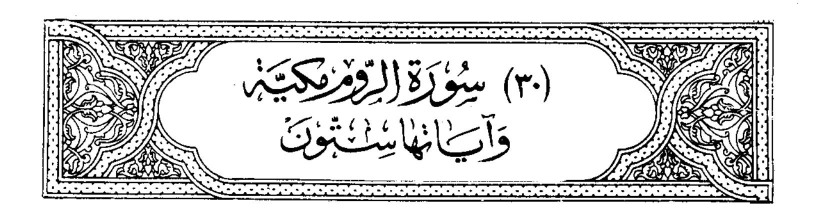
٩ ـ الإيجاز بحذف جواب الشرط لدلالة السياق عليه ﴿لو كانوا يعلمـون﴾ أي لو كانوا يعلمون لما آثروا الدنيـا على الآخرة ، ولا الفانية على الباقية .

١٠ ـ مراعاة الفواصل لما لها من وقع عظيم على السمع يزيد الكلام رونقاً وجمالاً مثل ﴿أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفـرون﴾ ﴿بل أكثرهم لا يعلمـون﴾ ﴿إذا هم يشـركون﴾ الخ .

تـنبيـه : لا ينبغي لمسلمٍ أن يبقى بأرض لا يتيسر له فيها عبادة الله ، فأرض الله واسعة ، وقد أشارت الآيات إلى وجوب الهجرة إلى دار الإسلام وكما قيل « وكل مكان يُنبت العزَّ طيّب » .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة العنكبوت »

* * *



بين يدي السورة

* سورة الروم مكية ، وأهدافها نفس أهداف السور المكية ، التي تعالج قضايا العقيدة الإسلامية في إطارها العام وميدانها الفسيح « الايمان بالوحدانية ، وبالرسالة ، وبالبعث والجزاء » .

* ابتدأت السورة الكريمة بالتنبؤ عن حدثٍ غيبي هام ، أخبر عنه القرآن الكريم قبل حدوثه ، ألا وهو انتصار الروم على الفرس في الحرب التي ستقع قريباً بينهما ، وقد حدث كما أخبر عنه القرآن ، وبذلك تحققت النبوءة ، وذلك من أظهر الدلائل على صدق محمد ﷺ فيما جاء به من الوحي ، ومن أعظم معجزات القرآن .

* ثم تحدثت السورة عن حقيقة المعركة بين حزب الرحمن ، وحزب الشيطان ، وأنها معركة قديمة قدم هذه الحياة ، فالحرب لا تهدأ ما دام هناك حقٌّ وباطل ، وخير وشرٌّ ، وما دام الشيطان يحشد أعوانه وأنصاره لإطفاء نور الله ، ومحاربة دعوة الرسل الكرام ، وقد ساقت الآيات دلائل وشواهد على انتصار الحق على الباطل ، في شتَّى العصور والدهور ، وتلك هي سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

* ثم تناولت السورة الحديث عن الساعة والقيامة ، وعن المصير المشئوم لأهل الكفر والضلال في ذلك اليوم العصيب ، حيث يكون المؤمنون في روضاتٍ يُحبرون ، ويكون المجرمون في العذاب محضرين ، وتلك نهاية المطاف للأبرار والفجار ، والعاقبة المؤكدة للمحسنين والمجرمين .

* وتناولت السورة بعد ذلك بعض المشاهد الكونية ، والدلائل الغيبية ، الناطقة بقدرة الله ووحدانيته لإقامة البرهان على عظمة الواحد الديان ، الذي تخضع له الرقاب ، وتعنو له الوجوه ، وضربت بعض الأمثلة للتفريق والتمييز بين من يعبد الرحمن ، وبين من يعبد الأوثان .

* وختمت السورة بالحديث عن كفار قريش ، إذ لم تنفعهم الآيات والنُّذر ومهما رأوا من الآيات الباهرة ، والبراهين الساطعة ، لا يعتبرون ولا يتعظون ، لأنهم كالموتى لا يسمعون ولا يبصرون ، وكلٌّ ذلك بقصد التسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من أذى المشركين ، والصبر حتى يأتي النصر .

التسمية : سميت « سورة الروم » لذكر تلك المعجزة الباهرة ، التي تدل على صدق أنباء

القرآن العظيم ﴿الٓمٓ * غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾ وتلك هي بعض معجزات القرآن .

قال الله تعالى : ﴿آلـم . غلبت الروم في أدنـى الأرض . . إلى . .وكذلك تُخرجون﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (١٩) .

اللغــة : ﴿يُغلبـون﴾ يهزمـون ويُقهـرون ﴿أثـاروا الأرض﴾ حرثوهـا وقلبوهـا للزراعـة ﴿السُّوءى﴾ تأنيث الأسوء وهو الأقبح كما أن الحُسنى تأنيث الأحسن ، والسُّوءى : العقوبة المتناهية في السوء﴿يُحبرون﴾ يُسرون يقال : حبره إذا سرَّه سروراً تهلَّل له وجهه وظهر عليه أثره قال الجوهري : الحبـور : السرور ، ويحُبـرون : يُنعمـون ويُسرون ﴿عشياً﴾ العشي : من صلاة المغـرب إلى العتمـة ﴿تُظهرون﴾ تدخلون وقت الظهيرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾

التفسير : ﴿الـم﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن[١] ﴿غلبـت الـروم فـي أدنـى الأرض﴾ أي هُزم جيش الروم في أقرب أرضهم إلى فارس ﴿وهم من بعد غَلَبهم سيغلبون﴾ أي وهم من بعد انهزامهم وغلبة فارس لهم سيغلبون الفرس وينتصرون عليهم ﴿في بضع سنين﴾ أي في فترة لا تتجاوز بضعة أعوام ، والبضع: ما بين الثلاث إلى التسع قال المفسرون: كان بين فارس والروم حربٌ، فغلبت فارس الروم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه فشقَّ ذلك عليهم، وفرح المشركون بذلك لأن أهل فارس كانوا مجوساً ولم يكن لهم كتاب ، والرومُ أصحاب كتاب فقال المشركون لأصحاب رسول الله ﷺ إنكم أهل كتاب ، والروم أهل كتاب ، ونحن أُميون ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم ، فلنظهرنَّ عليكم فقال أبو بكر : لا يقرُّ الله أعينكم فأنزل الله ﴿وهـم من بعـد غلبهـم سيغلبـون في بضع سنيـن﴾ وقد التقى الجيشان في السنة السابعة من الحرب ، وغلبت الرومُ فارس وهزمتهم ، وفرح المسلمون بذلك قال أبو السعود : وهذه الآياتُ من البينات الباهرة ، الشاهدة بصحة النبوة ، وكون القرآن من عند الله عز وجل حيث أخبر عن الغيب الذي لا يعلمه إلا العليم الخبير ، ووقع كما أخبر[٢] ، وقال البيضاوي : والآية من دلائل النبوة لأنها إخبارٌ عن الغيب[٣] ﴿للـه الأمـر من قبـل ومن بعـد﴾ أي للّـه عز وجل الأمر أولاً وآخراً ، من قبل الغلبة ومن بعد الغلبة ، فكل ذلك بأمر الله وإرادته ، ليس شيء منهما إلا بقضائه قال ابن الجوزي : المعنى إن غلبة الغالب ، وخذلان المغلوب ، بأمر الله وقضائه[٤] ﴿ويومئـذٍ يفـرح المؤمنون

(١) انظر ما كتبناه حول الحروف المقطعة في أول سورة البقرة من كتابنا هذا . (٢) أبو السعود ٤/ ١٧٦ . (٣) البيضاوي ٢/ ١٠٣ .
(٤) زاد المسير ٦/ ٢٨٨ .

بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ

بنصر الله﴾ أي ويوم يهزم الروم الفرس ويتغلبون عليهم ، ويحل ما وعده الله من غلبتهم يفرح المؤمنون بنصر الله لأهل الكتاب على المجوس ، لأن أهل الكتاب أقرب الى المؤمنين من المجوس ، وقد صادف ذلك اليوم يوم غزوة بدر قال ابن عباس : كان يوم بدر هزيمة عبدة الأوثان ، وعبدة النيران ﴿ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾ أي ينصر من يشاء من عباده ، وهو العزيز بانتقامه من أعدائه ، الرحيمُ بأوليائه وأحبابه ﴿وعْد الله لا يخلف الله وعده﴾ أي ذلك وعدٌ مؤكد وعد الله به فلا يمكن أن يتخلف ، لأن وعده حق وكلامه صدق ﴿ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي لا يعلمون ذلك لجهلهم وعدم تفكرهم ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا﴾ أي يعلمون أمور الدنيا ومصالحها وما يحتاجون إليه فيها من أمور الحياة كالزراعة والتجارة والبناء ونحو ذلك قال ابن عباس : يعلمون أمر معايشهم متى يزرعون ، ومتى يحصدون ، وكيف يغرسون ، وكيف يبنون[1] ﴿وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ أي وهم عميٌ عن أمر الآخرة ، ساهون غافلون عن التفكر فيها والعمل لها قال الإمام الفخر : ومعنى الآية أن علمهم منحصرٌ في الدنيا ، وهم مع ذلك لا يعلمون الدنيا كما هي وإنما يعلمون ظاهرها ، وهي ملاذها وملاعبها ، ولا يعلمون باطنها وهي مضارُّها ومتاعبها ، ويعلمون وجودها الظاهر ولا يعلمون فناءها وهم عن الآخرة غافلون[2] ، ولعل في التعبير بقوله ﴿ظاهراً﴾ إشارة الى أنهم عرفوا القشور ، ولم يعرفوا اللباب فكأن علومهم إنما هي علوم البهائم ﴿أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق اللهُ السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجلٍ مسمًّى﴾ أي أولم يتفكروا بعقولهم فيعلموا أن الله العظيم الجليل ما خلق السموات والأرض عبثاً ، وإنما خلقهما بالحكمة البالغة لإقامة الحق لوقتٍ ينتهيان إليه وهو يوم القيامة ؟ قال القرطبي : وفي هذا تنبيه على الفناء ، وعلى أن لكل مخلوقٍ أجلاً ، وعلى ثواب المحسن وعقاب المسيء[3] ﴿وإنَّ كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون﴾ أي وأكثر الناس منكرون جاحدون للبعث والجزاء ﴿أولم يسيروا في الأرضِ فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم﴾ أي أولم يسافروا فينظروا مصارع الأمم قبلهم كيف أُهلكوا بتكذيبهم رسلهم فيعتبروا ! ! ﴿كانوا أشدَّ منهم قوة﴾ أي كانوا أقوى منهم أجساداً ، وأكثر أموالاً وأولاداً ﴿وأثاروا الأرض وعمروها أكثر ممَّا عمروها﴾ أي وحرثوا الأرضَ للزراعة ، وحفروها لاستخراج المعادن ، وعمروها بالأبنية المشيدة ، والصناعات الفريدة أكثر مما

---

(١) القرطبي ١٤/٧ . (٢) التفسير الكبير ٢٥/٩٧ . (٣) القرطبي ١٤/٩ .

أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَانَ

عمرها هؤلاء قال البيضاوي : وفي الآية تهكم بأهل مكة من حيث إنهم مغترون بالدنيا ، مفتخرون بها ، وهم أضعف حالاً فيها ، إذ مدار أمرها على السعة في البلاد ، والتسلط على العباد ، والتصرف في أقطار الأرض بأنواع العمارة ، وهم ضعفاء ملجئون الى دار لا نفع فيها[1] ﴿وجاءتهم رسلهم بالبيِّنات﴾ أي وجاءتهم الرسل بالمعجزات الواضحات والآيات البينات فكذبوهم ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾ أي فما كان الله ليهلكهم بغير جُرم ﴿ولكنْ كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر والتكذيب فاستحقوا الهلاك والدمار ﴿ثم كان عاقبةَ الذين أساءوا السُّوأى﴾ أي ثم كان عاقبة المجرمين العقوبة التي هي أسوأ العقوبات وهي نار جهنم ﴿أن كذَّبوا بآيات اللهِ وكانوا بها يستهزئون﴾ أي لأجل أنهم كذبوا بآياتنا المنزلة على رسلنا واستهزءوا بها ﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أي الله جل وعلا بقدرته ينشىء خلق الناس ثم يعيد خلقهم بعد موتهم ﴿ثم إليه تُرجعون﴾ أي ثم إليه مرجعكم للحساب والجزاء ﴿ويوم تقوم السَّاعةُ يبلس المجرمون﴾ أي ويوم تقوم القيامةويُحْشر الناس للحساب يسكت المجرمون وتنقطع حجتهم ، فلا يستطيعون أن ينبسوا ببنت شفة قال ابن عباس : ﴿يبلس المجرمون﴾ ييأس المجرمون ، وقال مجاهد : يفتضح المجرمون قال القرطبي : والمعروف في اللغة : أبلس الرجل إذا سكت وانقطعت حجته[2] ﴿ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء﴾ أي ولم يكن لهم من الأصنام التي عبدوها شفعاء يشفعون لهم ﴿وكانوا بشركائهم كافرين﴾ أي تبرءوا منها وتبرأت منهم ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذٍ يتفرقون﴾ كرر لفظ قيام الساعة للتهويل والتخويف لأن قيام الساعة أمر هائل أي ويوم تقوم القيامة يومئذٍ يتفرق المؤمنون والكافرون ، ويصبحون فريقين : فريقٌ في الجنة ، وفريقٌ في السعير ، ولهذا قال ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي فأما المؤمنون المتقون الذين جمعوا بين الإِيمان والعمل الصالح ﴿فهم في روضةٍ يُحبرون﴾ أي فهم في رياض الجنة يُسرون وينعمون ﴿وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولِقاء الآخرة﴾ أي وأما الذين جحدوا بالقرآن وكذبوا بالبعث بعد الموت ﴿فأولئك في العذاب محضرون﴾ أي فأولئك في عذاب جهنم مقيمون على الدوام ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾ أي سبحوا الله ونزّهوه عما لا يليق به من صفات النقص ، حين تدخلون

(١) البيضاوي ٢/ ١٠٣ . (٢) القرطبي ١٤/ ١٠ .

﴿ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١٩﴾

في المساء ، وحين تدخلون في الصباح ﴿وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تُظهرون﴾ أي وهو جل وعلا المحمود في السموات والأرض قال ابن عباس : يحمده أهل السموات وأهلُ الأرض ويُصلون له[1] ، قال المفسرون : ﴿وله الحمد في السموات والأرض﴾ جملة اعتراضية وأصل الكلام : ﴿فسبحان الله حين تُمسون وحين تصبحون * وعشياً وحين تُظهرون﴾ والحكمة في ذلك الإشارة الى أن التوفيق للعبادة نعمةٌ ينبغي أن يحمد عليها ، والعشي : من صلاة المغرب الى العتمة ، ﴿وتظهرون﴾ أي تدخلون وقت الظهر ﴿يُخرج الحيَّ من الميت ، ويُخْرج الميت من الحي﴾ أي يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، والنبات من الحب ، والحبَّ من النبات ، والحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ﴿ويُحْيي الأرض بعد موتها﴾ أي ويحيي الأرض بالنبات بعد يبسها وجدبها ﴿وكذلك تُخْرجون﴾ أي كما يخرج الله النبات من الأرض كذلك يخرجكم من قبوركم للبعث يوم القيامة ، قال القرطبي : بيَّن تعالى كمال قدرته ، فكما يحيي الأرض بإخراج النبات بعد همودها كذلك يحييكم بالبعث[2] .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين ﴿غُلبت . . ويَغْلبون﴾ وبين ﴿قبل . . وبعد﴾ .

٢ ـ طباق السلب ﴿لا يعلمون . . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا﴾ .

٣ ـ صيغة المبالغة ﴿وهو العزيز الرحيم﴾ أي المبالغ في العزة ، والمبالغ في الرحمة .

٤ ـ تكرير الضمير لإفادة الحصر ﴿وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ وورودها اسمية للدلالة على استمرار غفلتهم ودوامها .

٥ ـ الإنكار والتوبيخ ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا﴾ الآية .

٦ ـ جناس الاشتقاق ﴿أساءوا السُّوءى﴾ .

٧ ـ الطباق بين ﴿يبدىء . . ويعيد﴾ وبين ﴿تُمسون . . وتصبحون﴾ .

٨ ـ المقابلة بين حال السعداءوالأشقياء ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضةٍ يُحبرون. وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون﴾ .

٩ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿يخرج الحيَّ من الميّت﴾ استعار الحيَّ للمؤمن ، والميت للكافر ، وهي استعارة في غاية الحسن والإبداع والجمال .

---

(١) زاد المسير ٦/ ٢٩٤ . (٢) القرطبي ١٤/ ١٦ .

١٠ ـ مراعاة الفواصل في الحرف الأخير لما له من أجمل الوقع على السمع مثل ﴿ثم إليه ترجعون﴾ ﴿في روضةٍ يحبرون﴾ ﴿في العذاب محضرون﴾ .

لطيفـــة : قال الزمخشري : دلَّ قوله تعالى ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الـدنيا﴾ على أن للـدنيا ظاهراً وباطناً ، فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها ، والتنعم بملاذها ، وباطنها وحقيقتها أنها معبرٌ للآخرة ، يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة[1] . ولقد أحسن من قال :

أبنـيَّ إن من الرجـال بهيمةً ... في صورة الرجـل السـميع المبصر
فطِـنٌ بكـل مصيبـةٍ في ماله ... فـإذا أُصيب بدينـه لم يشعر

* * *

قال الله تعالى : ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب . . إلى . . سبحانه وتعالى عما يُشركون﴾ من آية (٢٠) إلى نهاية آية (٤٠) .

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى أحوال الناس في الآخرة ، وقدرته على البدء والإعادة ، ذكر هنا الأدلة على الربوبية والوحدانية ، في خلق البشر ، واختلاف الألسنة والصور ، وإحياء الأرض بالمطر ، وفي قيام الناس ومنامهم ، ثم ضرب الأمثال للمشركين في عبادتهم لغير الله مع أنه وحده الخالق الرازق .

اللغَــة : ﴿آياته﴾ جمع آية وهي العلامة على الربوبية والوحدانية ﴿تنتشرون﴾ تتصرفـون في شؤون معايشكم ﴿لتسكنوا إليها﴾ لتميلوا إليها وتألفوها ﴿قانتون﴾ مطيعون منقادون لإرادتـه ﴿المثل الأعلى﴾ الوصف الأعلى في الكمال والجلال ﴿القيم﴾ المستقيم الـذي لا عوج فيه ﴿منيبـين﴾ الإنابـة : الرجوع بالتوبة والإخلاص .

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ

التفسِــير : ﴿ومـن آياتـه أن خلقكـم مـن تـراب﴾ أي ومن آياته الباهرة الدالة على عظمته وكمال قدرته أن خلق أصلكم « آدم » من تراب ، وإنما أضاف الخلق إلى الناس ﴿خلقكـم﴾ لأن آدم أصل البشر ﴿ثـم إذا أنتـم بشـرٌ تنتشــرون﴾ أي ثم أنتم تتطورون من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى بشر عقلاء ، تتصرفون فيما هو قوام معايشكم قال ابن كثير : فسبحان من خلقهم وسيَّرهم وسخّرهم وصرّفهم في فنون المعايش والمكاسب ، وفاوت بينهم في العلوم والفكر ، والحسن والقبـح ، والغنـى والفقـر ، والسعـادة والشقاوة[2] ! ! ﴿ومـن آياتـه أن خلـق لكم من أنفسكم أزواجـاً﴾ أي من آياته الدالة على عظمته وكمال قدرته أن خلق لكم من صنفكم وجنسكم نساءً آدميات مثلكم ، ولم يجعلهن من جنسٍ آخر قال ابـن كثير : ولو أنه تعالى جعل الإناث من جنسٍ آخر ، من جان أو حيوان ، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين

(١) الكشاف ٣/ ٣٦٨ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٥١ .

أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ

الأزواج ، بل كانت تحصل النفرة ، وذلك من تمام رحمته ببني آدم[١] ﴿لتسكنوا إليها﴾ أي لتميلوا إليهن وتألفوهن ﴿وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ أي وجعل بين الأزواج والزوجات محبة وشفقة قال ابن عباس : المودة : حب الرجل امرأته ، والرحمةُ شفقته عليها أن يصيبها بسوء ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون﴾ أي إنَّ فيما ذكر لعبراً عظيمة لقوم يتفكرون في قدرة الله وعظمته ، فيدركون حكمته العلية ﴿ومن آياته خلقُ السموات والأرضِ واختلافُ ألسنتكم وألوانكم﴾ أي ومن آياته العظيمة الدالة على كمال قدرته خلق السموات في ارتفاعها واتساعها ، وخلق الأرض في كثافتها وانخفاضها ، واختلاف اللغات من عربيةٍ وعجمية ، وتركية ، ورومية ، واختلاف الألوان من أبيض وأسود وأحمر ، حتى لا يشتبه شخص بشخص ، ولا إنسان بإنسان ، مع أنهم جميعاً من ذرية آدم ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ للعالمين﴾ أي لمن كان من ذوي العلم والفهم والبصيرة ﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار﴾ أي ومن آياته الدالة على كمال قدرته نومكم في ظلمة الليل ، ووقت الظهيرة بالنهار راحةً لأبدانكم ﴿وابتغاؤكم من فضله﴾ أي وطلبكم للرزق بالنهار ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يسمعون﴾ أي يسمعون سماع تفهم واستبصار ﴿ومن آياته يُريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾ أي ومن آياته العظيمة الدالة على قدرته ووحدانيته أنه يريكم البرق خوفاً من الصواعق ، وطمعاً في الغيث والمطر قال قتادة : خوفاً للمسافر ، وطمعاً للمقيم[٢] ﴿ويُنزّل من السماء ماءً فيُحيي به الأرض بعد موتها﴾ أي وينزل المطر من السماء فينبت به الأرض بعد أن كانت هامدة جامدة لا نبات فيها ولا زرع ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون﴾ أي إن في ذلك المذكور لعبراً وعظاتٍ لقومٍ يتدبرون بعقولهم آلاء الله ﴿ومن آياته أن تقوم السماءُ والأرضُ بأمره﴾ أي ومن آياته الباهرة الدالة على عظمته أن تستمسك السمواتُ بقدرته بلا عمد ، وأن تثبت الأرض بتدبيره وحكمته فلا تنكفىء بسكانها ولا تنقلب بأهلها ﴿ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾ أي ثم إذا دعيتم إلى الخروج من القبور ، إذا أنتم فوراً تخرجون للجزاء والحساب ، لا يتأخر خروجكم طرفة عين قال المفسرون : وذلك حين ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية ويقول : يا أهل القبور قوموا ، فلا تبقى نسمةٌ من الأولين والآخرين ، إلا قامت تنظر[٣] ﴿وله من في السموات والأرض﴾ أي وله جل

(١) نفس المرجع السابق والجزء والصفحة . (٢) الطبري ٢١/ ٢٢ . (٣) البحر المحيط ٧/ ١٦٨

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

وعلا كل من في السموات والأرض من الملائكة والإِنس والجن ملكاً وخلقاً وتصرفاً لا يشاركه فيها أحد ﴿كلٌّ له قانتون﴾ أي جميعهم خاشعون خاضعون منقادون لأمره تعالى ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يُعيده﴾ أي وهو تعالى يُنشيء الخلق من العدم ، ثم يعيدهم بعد موتهم للحساب والجزاء ﴿وهو أهون عليه﴾ أي إعادة الخلق أهونُ عليه من بدئه قال ابن عباس : يعني أيسر عليه ، وقال مجاهد : الإِعادة أهون عليه من البداءة ، والبداءة عليه هيّنة[1] قال المفسرون : خاطب تعالى العباد بما يعقلون ، فإِذا كانت الإِعادة أسهل من الابتداء في تقديركم وحكمكم ، فإِن من قدر على الإِنشاء كان البعث أهون عليه حسب منطقكم وأصولكم[2] ﴿وله المثل الأعلى﴾ أي له الوصف الأعلى الذي ليس لغيره ما يدانيه فيه من الجلال والكمال ، والعظمة والسلطان ﴿في السموات والأرض﴾ أي يصفه به من فيهما وهو أنه الذي ليس كمثله شيء ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي القاهر لكل شيء الحكيم الذي كل أفعاله على مقتضى الحكمة والمصلحة ، ثم وضّح تعالى بطلان عبادتهم للأوثان بمثل فقال : ﴿ضرب لكم مثلاً من أنفسكم﴾ أي ضرب لكم أيها القوم ربكم مثلاً واقعياً من أنفسكم ﴿هل لكم ممَّا ملكتْ أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم﴾ أي هل يرضى أحدكم أن يكون عبده ومملوكه شريكاً له في ماله الذي رزقه الله تعالى ؟ فإِذا لم يرضَ أحدكم لنفسه ذلك فكيف ترضون لله شريكاً له وهو في الأصل مخلوق وعبدٌ لله ؟ ﴿فأنتم فيه سواءٌ تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾ هذا من تتمة المثل أي لستم وعبيدكم سواءً في أموالكم ، ولستم تخافونهم كما تخافون الأحرار مثلكم ، وأنتم لا ترضون أن يكون عبيدكم شركاء لكم في أموالكم ، فكيف رضيتم لله شريكاً في خلقه وملكه ؟ ﴿كذلك نفصّل الآيات لقومٍ يعقلون﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح نبيّن الآيات لقومٍ يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال ﴿بل اتَّبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم﴾ بلْ للإِضراب أي ليس لهم حجة ولا معذرة في إشراكهم بالله بل ذلك بمجرد هوى النفس بغير علم ولا برهان قال القرطبي : لما قامت عليهم الحجة ذكر أنهم يعبدون الأصنام باتباع أهوائهم في عبادتها ، وتقليد الأسلاف في ذلك[3] ﴿فمن يهدي من أضلَّ الله﴾ أي لا أحد يستطيع أن يهدي من أزاد الله إضلاله ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أي ليس لهم من عذاب الله منقذٌ ولا ناصر ﴿فأقمْ وجهك

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٥٢ . (٢) هذا قول،وذهب بعض المفسرين الى أن افعل التفضيل ليس على بابه فيكون معنى« أهون» أي وهو هيّن عليه . (٣) القرطبي ١٤/ ٢٣ .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ

للدين﴾ أي أخلص دينك لله وأقبل على الإسلام بهمة ونشاط ﴿حنيفاً﴾ أي مائلاً عن كل دين باطل الى الدين الحق وهو الإسلام ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ أي هذا الدين الحق الذي أمرناك بالاستقامة عليه هو خلقة الله التي خلق الناس عليها وهو فطرة التوحيد كما في الحديث (كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه)[1] الحديث ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ أي لا تغيير لتلك الفطرة السليمة من جهته تعالى قال ابن الجوزي : لفظه لفظ النفي ومعناه النهي أي لا تبدلوا خلق الله فتغيّروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها[2] ﴿ذلك الدِّين القيم﴾ أي ذلك هو الدين المستقيم ﴿ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي أكثر الناس جهلة لا يتفكرون فيعلمون أن لهم خالقاً معبوداً ﴿منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة﴾ أي أقيموا وجوهكم أيها الناس على الدين الحق حال كونكم منيبين إلى ربكم أي راجعين إليه بالتوبة وإخلاص العمل ، وخافوه وراقبوه في أقوالكم وأفعالكم ، وأقيموا الصلاة على الوجه الذي يُرضي الله ﴿ولا تكونوا من المشركين﴾ أي ولا تكونوا ممن أشرك بالله وعبد غيره ثم فسَّرهم بقوله ﴿من الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شيعاً﴾ أي من الذين اختلفوا في دينهم وغيّروه وبدَّلوه فأصبحوا شيعاً وأحزاباً ، كلٌ يتعصب لدينه ، وكلٌ يعبد هواه ﴿كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون﴾ أي كل جماعة وفرقة متمسكون بما أحدثوه ، مسرورون بما هم عليه من الدين المعوج ، يحسبون باطلهم حقاً قال ابن كثير : أي لا تكونوا من المشركين الذين فرقوا دينهم أي بدلوه وغيروه ، وآمنوا ببعض وكفروا ببعض ، كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان ، وسائر أهل الأديان الباطلة ـ مما عدا أهل الإسلام ـ فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومذاهب باطلة ، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء[3] ﴿وإذا مسَّ الناسَ ضرٌّ﴾ أي وإذا أصاب الناس شدةٌ وفقر ومرض وغير ذلك من أنواع البلاء ﴿دعوا ربَّهم منيبين إليه﴾ أي أفردوه تعالى بالتضرع والدعاء لينجوا من ذلك الضر ، وتركوا أصنامهم لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا الله تعالى ، فلهم في ذلك الوقت إنابة وخضوع ﴿ثم إذا أذاقهم منه رحمةً إذا فريقٌ منهم بربهم يشركون﴾ أي ثم إذا أعطاهم السعة والرخاء والصحة وخلّصهم من ذلك الضر والشدة ، إذا جماعة منهم يشركون بالله ويعبدون معه غيره ، والغرض من الآية التشنيعُ على المشركين ، فإنهم يدعون الله في الشدائد ، ويشركون به في الرخاء ﴿ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ أمرٌ على وجه التهديد أي ليكفروا بنعم الله ، وليتمتعوا في هذه الدنيا فسوف تعلمون أيها المشركون عاقبة

(١) الحديث أخرجه الشيخان . (٢) زاد المسير ٦/ ٣٠٢ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٥٥ .

تَعۡلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ

تمتعكم بزينة الحياة ونعيمها الفاني ﴿أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والمعنى : هل أنزلنا على هؤلاء المشركين حجة واضحة قاهرة على شركهم ، أو كتاباً من السماء فهو ينطق ويشهد بشركهم وبصحة ما هم عليه ؟ ليس الأمر كما يتصورون ، والمراد ليس لهم حجة بذلك ﴿وإذا أذقنا الناس رحمةً فرحوا بها﴾ أي وإذا أنعمنا على الناس بالخصب والسعة والعافية استبشروا وسروا بها ﴿وإن تصبهم سيئةٌ بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون﴾ أي وإن أصابهم بلاءٌ وعقوبة بسبب معاصيهم إذا هم ييأسون من الرحمة والفرج قال ابن كثير : وهذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله ، إذا أصابته نعمة بطر ، وإذا أصابته شدة قنط وأيس[1] ﴿أولم يروا أنَّ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي أولم يروا قدرة الله في البسط والقبض ، وأنه تعالى يوسّع الخير في الدنيا لمن يشاء ويضيّق على من يشاء ؟ فلا يجب أن يدعوهم الفقر إلى القنوط من رحمته تعالى.﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمنون﴾ أي إن في المذكور لدلالة واضحة على قدرة الله لقومٍ يصدقون بحكمة الخالق الرازق ﴿فآت ذا القربى حقَّه والمسكين وابن السبيل﴾ أي فأعط القريب حقَّه من البر والصلة وكذلك المسكين والمسافر الذي انقطع في سفره اعطه من الصَّدقة والإحسان قال القرطبي : لما تقدم أنه سبحانه يبسط الرزق ويقدر ، أمر من وسَّع عليه الرزق أن يعطي الفقير كفايته ، ليمتحن شكر الغني ، والخطاب للنبي عليه السلام والمراد هو وأُمته[2] ﴿ذلك خيرٌ للذين يريدون وجه الله﴾ أي ذلك الإيتاء والإحسان خيرٌ للذين يبتغون بعملهم وجه الله ويريدون ثوابه ﴿وأُولئك هم المفلحون﴾ أي وأولئك هم الفائزون بالدرجات العالية ﴿وما آتيتم من رباً ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله﴾ أي وما أعطيتم من أموالكم يا معشر الأغنياء على وجه الربا ليزيد مالكم ويكثر به ، فلا يزيد ولا يزكو ولا يضاعف عند الله لأنه كسبٌ خبيثٌ لا يبارك الله فيه قال الزمخشري : هذه الآية كقوله تعالى ﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات﴾ سواءً بسواء[3] ﴿وما آتيتم من زكاةٍ تريدون وجه الله﴾ أي وما أعطيتم من صدقةٍ أو إحسان خالصاً لوجه الله الكريم ﴿فأولئك هم المضعفون﴾ أي فأولئك هم الذين لهم الضعف من الأجر والثواب ، الذين تضاعف لهم الحسنات ﴿اللهُ الذي خلقكم ثم رزقكم﴾ أي الله جل وعلا هو الخالق الرازق

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٥٥ (٢) القرطبي ١٤/ ٣٥ . (٣) الكشاف ٣/ ٣٧٩ .

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾

للعباد ، يخرج الإنسان من بطن أمه عُرياناً لا علم له ولا سمع ولا بصر ، ثم يرزقه بعد ذلك المال والمتاع والأملاك ﴿ثمَّ يُميتكم ثم يُحييكم﴾ أي ثم يميتكم بعد هذه الحياة ، ثم يحييكم يوم القيامة ، ليجازيكم على أعمالكم ﴿هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء﴾ ؟ أي هل يستطيع أحد ممن تعبدونهم من دون الله أن يفعل شيئاً من ذلك ؟ بل الله تعالى هو المستقل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة ﴿سبحانه وتعالى عمَّا يُشركون﴾ أي تنزَّه جل وعلا وتقدس عن أن يكون له شريك أو مثيل ، أو ولد أو والد ، وتعالى عما يقول المشركون علواً كبيراً .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الطباق بين قوله ﴿خوفاً . . وطمعاً﴾ وبين ﴿يبسط . . ويقدر﴾ وبين ﴿يميتكم . . ويحييكم﴾ وبين ﴿يبدء . . ويعيد﴾ .

٢ - جناس الاشتقاق ﴿دعاكم دعوةً﴾ ﴿فطرة الله التي فطر﴾ .

٣ - المقابلة بين قوله ﴿وإذا أذقنا الناس رحمةً فرحوا بها﴾ وبين ﴿وإن تُصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون﴾ .

٤ - المجاز المرسل ﴿فأقم وجهك﴾ أطلق الجزء وأراد الكل أي توجه إلى الله بكلتيك .

٥ - السجع المرصَّع كأنه الدرُّ المنظوم مثل ﴿الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم . .﴾ الخ .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس . . إلى . . . ولا يستخفنك الذين لا يوقنون﴾ من آية (٤١) إلى نهاية آية (٦٠) .

المناسبة : لما شنَّع على المشركين في عبادتهم لغير الله ، ذكر في هذه الآيات الأسباب الموجبة للمحنة والابتلاء وهي الكفر ، وانتشار المعاصي ، وكثرة الفجور والموبقات ، التي بسببها تقل الخيرات وترتفع البركات ، وضرب الأمثال بهلاك الأمم السابقة ، تنبيهاً لقريش وأمراً لهم بالاعتبار بمن سبقهم من المشركين المكذبين كيف أهلكهم الله بسبب طغيانهم وإجرامهم .

اللغة : ﴿يصدَّعون﴾ يتفرقون يقال : تصدَّع القوم إذا تفرقوا ومنه الصداع لأنه يُفرِّق شعب الرأس ﴿يمهدون﴾ يجعلون لهم مهداً ويوطئون لهم مسكناً ، والمهاد : الفراش ﴿كسفاً﴾ جمع كسفة وهي القطعة ﴿الودق﴾ المطر ﴿مبلسين﴾ يائسين مكتئبين قد ظهر الحزن عليهم من شدة اليأس ﴿يؤفكون﴾ يصرفون ، والإفك : الكذب ﴿يستعتبون﴾ يقال : استعتبته فأعتبني أي استرضيته فأرضاني .

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ

التفسير : ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾ أي ظهرت البلايا والنكبات في بر الأرض وبحرها بسبب معاصي الناس وذنوبهم قال البيضاوي : المراد بالفساد الجدب وكثرة الحرق والغرق ، ومحق البركات ، وكثرةُ المضار بشؤم معاصي الناس أو بكسبهم إياه[1] وقال ابن كثير : أي انَ النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة[2] ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا﴾ أي ليذيقهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بها جميعاً في الآخرة ﴿لعلَّهم يرجعون﴾ أي لعلهم يتوبون ويرجعون عمّا هم عليه من المعاصي والآثام ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبل﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين : سيروا في البلاد فانظروا الى مساكن الذين ظلموا كيف كان آخر أمرهم وعاقبة تكذيبهم للرسل ، ألم يخرب الله ديارهم ويجعلهم عبرةً لمن يعتبر ﴿كان أكثرهم مشركين﴾ أي كانوا كافرين بالله فأُهلكوا ﴿فأقم وجهك للدين القيم﴾ أي فتوجَّه بكليتك الى الدين المستقيم دين الإسلام ، واستقم عليه في حياتك قال القرطبي : أي أقم قصدك واجعلْ جهتك اتباع الدين القيم يعني الإسلام[3] ﴿من قبلِ أن يأتي يومٌ لا مردَّ له من الله﴾ أي من قبل أن يأتي ذلك اليوم الرهيب ، الذي لا يقدر أحدٌ على ردِّه ، لأن الله قضى به وهو يوم القيامة ﴿يومئذٍ يصدعون﴾ أي يومئذٍ يتفرقون ، فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير ﴿من كفر فعليه كفره﴾ أي من كفر بالله فعليه أوزار كفره مع خلوده في النار المؤبدة ﴿ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون﴾ أي ومن فعل خيراً وأطاع الله فلأنفسهم يقدّمون الخير ويلقون ما تقربه أعينهم في دار النعيم قال القرطبي : أي يوطئون لأنفسهم في الآخرة فراشاً ومسكناً وقراراً بالعمل الصالح ، ومهَّدت الفراش أي بسطته ووطأته[4] ﴿ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله﴾ أي يمهدون لأنفسهم ليجزيهم الله من فضله الذي وعد به عباده المتقين ﴿إنه لا يحب الكافرين﴾ أي لا يحب الكافرين بل يمقتهم ويبغضهم ، يجازي المؤمنين بفضله ، والكافرين بعدله ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مُبشرات﴾ أي ومن آياته الدالة على كمال قدرته أن يرسل الرياح تسوق السحاب مبشرة بنزول المطر والإنبات والرزق ﴿وليذيقكم من رحمته﴾ أي ولينزل عليكم من رحمته الغيث الذي يحيي به البلاد والعباد ﴿ولتجري

(١) البيضاوي ٢/ ١٠٦ . (٢) مختصر ابن كثير ٥٧ . (٣) القرطبي ١٤/ ٤٢ . (٤) نفس المرجع السابق والصفحة .

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

﴿الفلك بأمره﴾ أي ولتسير السفن في البحر عند هبوب الرياح بإذنه وإرادته **﴿ولتبتغوا من فضله﴾** أي ولتطلبوا الرزق بالتجارة في البحر **﴿ولعلكم تشكرون﴾** أي ولتشكروا نعم الله الجليلة عليكم **﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً الى قومهم﴾** تسلية للرسول وتأنيس له بقرب النصر أي ولقد أرسلنا من قبلك يا محمد رسلاً كثيرين إلى قومهم المكذبين كما أرسلناك رسولاً الى قومك **﴿فجاءوهم بالبينات﴾** أي جاءوهم بالمعجزات الواضحات والحجج الساطعات الدالة على صدقهم **﴿فانتقمنا من الذين أجرموا﴾** أي فكذبوهم فانتقمنا من الكفرة المجرمين **﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾** أي كان حقاً واجباً علينا أن ننصر المؤمنين على الكافرين ، والآية اعتراضية جاءت بين الآيات المفصّلة لأحكام الرياح تسليةً للنبي عليه السلام قال أبو حيان: والآية اعتراضٌ بين قوله **﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات﴾** وبين قوله **﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً﴾** جاءت تأنيساً للرسول ﷺ وتسلية له ، ووعداً له بالنصر ، ووعيداً لأهل الكفر[1] ثم ذكر تعالى الحكمة من هبوب الرياح وهي إثارة السحب وإخراج الماء منه فقال **﴿الله الذي يرسل الرياح فتثيرُ سحاباً﴾** أي يبعث الرياح فتحرك السحاب وتسوقه أمامها **﴿فيبسطه في السماء كيف يشاء﴾** أي فينشره في أعالي الجو كيف يشاء خفيفاً أو كثيفاً ، مطبقاً أو غير مطبق **﴿ويجعله كسفاً﴾** أي ويجعله أحياناً قطعاً متفرقة **﴿فترى الودق يخرج من خلاله﴾** أي فترى المطر يخرج من بين السحاب **﴿فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾** أي فإذا أنزل ذلك الغيث على من يشاء من خلقه إذا هم يسرون ويفرحون بالمطر **﴿وإن كانوا من قبل أن يُنزل عليهم من قبله لمبلسين﴾** أي وإن كانوا قبل نزول المطر عليهم يائسين قانطين ، قال البيضاوي : والتكرير للتأكيد والدلالة على تطاول عهدهم بالمطر واستحكام يأسهم[2] **﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها﴾** أي فانظر أيها العاقل نظر تدبر واستبصار الى ما ينشأ عن آثار نعمة الله بالمطر من خضرة الأشجار ، وتفتح الأزهار ، وكثرة الثمار ، وكيف أن الله يجعل الأرض تنبت بعد أن كانت هامدة جامدة ؟ **﴿إنَّ ذلك لمحيي الموتى﴾** أي إنَّ ذلك القادر على إحياء الأرض بعد موتها هو الذي يحيي الناس بعد موتهم **﴿وهو على كل شيء قدير﴾** أي مبالغ في القدرة على جميع الأشياء ، لا يعجزه شيء **﴿ولئن**

(١) البحر ١٧٨/٧ . (٢) البيضاوي ١٠٧/٢

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ

أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً﴾ أي ولئن أرسلنا على الزرع بعد خضرته ونموه ريحاً ضارة مفسدة فرأوا الزرع مصفراً من أثر تلك الريح **﴿لظلوا من بعده يكفرون﴾** أي لمكثوا بعد اصفراره يجحدون النعمة ، فشأنهم أنهم يفرحون عند الخصب ، فإذا جاءتهم مصيبة في زرعهم جحدوا سابق نعمة الله عليهم ، ثم نبه تعالى إلى أن هؤلاء الكفار كالأموات لا ينفع معهم نصح ولا تذكير فقال **﴿فإنك لا تُسمع الموتى ولا تُسمع الصم الدعاء إذا ولَّوا مدبرين﴾** أي فإنك يا محمد لا تسمع الأموات ولا تسمع من كان في أذنيه صممٌ تلك المواعظ المؤثرة ، ولو أن أصمَّ ولّى عنك مدبراً ثم ناديته لم يسمع فكذلك الكافر لا يسمع ، ولا ينتفع بما يسمع قال المفسرون : هذا مثلٌ ضربه الله للكفار فشبههم بالموتى وبالصم والعمي **﴿وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم﴾** أي ولست بمرشد من أعماه الله عن الهدى **﴿إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾** أي ما تسمع إلا من يصدق بآياتنا فهم الذين ينتفعون بالموعظة لخضوعهم وانقيادهم لطاعة الله **﴿الله الذي خلقكم من ضعف﴾** أي الله الذي خلقكم أيها الناس من أصل ضعيف وهو النطفة ، وجعلكم تتقلبون في أطوار « الجنين ، الوليد ، الرضيع ، المفطوم » وهي أحوال في غاية الضعف ، فصار كأن الضعف مادة خلقتكم **﴿ثم جعل من بعد ضعفٍ قوة﴾** أي ثم جعل من بعد ضعف الطفولة قوة الشباب **﴿ثم جعل من بعد قوةٍ ضعفاً وشيبةً﴾** أي ثم جعل من بعد قوة الشباب ضعف الهرم والشيخوخة ، **﴿يخلق ما يشاء﴾** أي يخلق ما يشاء من ضعف وقوة ، وشبابٍ وشيب **﴿وهو العليم القدير﴾** أي وهو العليم بتدبير الخلق ، القدير على ما يشاء قال أبو حيان : وجعل الخلق من ضعف لكثرة ضعف الإنسان أول نشأته وطفولته ، ثم حال الشيخوخة والهرم ، والترداد في هذه الهيئات شاهد بقدرة الصانع وعلمه[1] **﴿ويوم تقوم الساعةُ يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾** أي ويوم تقوم القيامة ويُبعث الناس للحساب يحلف الكافرون المجرمون بأنهم ما مكثوا في الدنيا غير ساعة قال البيضاوي : وإنما استقلوا مدة لبثهم في الدنيا بالنسبة الى مدة عذابهم في الآخرة أو نسياناً منهم[2] **﴿كذلك كانوا يُؤفكون﴾** أي كذلك كانوا في الدنيا يصرفون من الحق الى الباطل ، ومن الصدق الى الكذب **﴿وقال الذين أُوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث﴾** أي وقال العقلاء من أهل الإيمان

(١) البحر ٧/ ١٨٠ . (٢) البيضاوي ٢/ ٨ ١٠ .

لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

والعلم رداً عليهم وتكذيباً لهم : لقد مكثتم فيما كتبه الله في سابق علمه إلى يوم البعث الموعود ﴿فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾ أي فهذا يوم البعث الذي كنتم تنكرونه ، ولكنكم لم تصدقوا به لتفريطكم في طلب الحق واتباعه ، قال تعالى ﴿فيومئذٍ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم﴾ أي ففي ذلك اليوم لا ينفع الظالمين اعتذارهم ﴿ولا هم يستعتبون﴾ أي لا يقال لهم أرضوا ربكم بتوبة أو طاعة ، لأنه قد ذهب أوان التوبة ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ أي ولقد بينا في هذا القرآن العظيم ما يحتاج الناس إليه من المواعظ والأمثال والأخبار والعبر مما يوضّح الحقَّ ويزيل اللبس ﴿ولئن جئتهم بآية ليقولنَّ الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون﴾ أي ووالله لئن جئتهم يا محمد بما اقترحوا من الآيات كالعصا والناقة واليد ليقولنَّ المشركون من قومك لفرط عنادهم ما أنت وأصحابك إلا قوم مبطلون ، تُدجلون علينا وتكذبون ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون﴾ أي مثل ذلك الطبع على قلوب الجهلة المجرمين ، يختم الله على قلوب الكفرة الذين لا يعلمون توحيد الله ولا صفاته ﴿فاصبر إنَّ وعد الله حق﴾ أي فاصبر يا محمد على تكذيبهم وأذاهم فإن وعد الله بنصرتك وإظهار دينك حقٌ لا بدَّ من إنجازه ﴿ولا يستخفنَّك الذين لا يوقنون﴾ أي لا يحملنك على الخفة والقلق جزعاً مما يقوله أولئك الضالون الشاكون ، ولا تترك الصبر بسبب تكذيبهم وإيذائهم .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين ﴿البر . . والبحر﴾ .

٢ ـ المجاز المرسل باطلاق الجزء وإرادة الكل ﴿بما كسبت أيدي الناس﴾ .

٣ ـ جناس الاشتقاق ﴿فأقم وجهك للدين القيم﴾ .

٤ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿فلأنفسهم يمهدون﴾ شبَّه من قدَّم الأعمال الصالحة بمن يمهد فراشه ويوطئه للنوم عليه لئلا يصيبه في مضجعه ما يؤذيه وينغص عليه مرقده .

٥ ـ أسلوب الإطناب ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ، وليذيقكم من رحمته . .﴾ الآية وذلك لتعداد النعم الكثيرة وكان يكفي أن يقول: ﴿لتبتغوا من فضله﴾ ولكنه أسهب تذكيراً للعباد بالنعم

٦ ـ جناس الاشتقاق ﴿أرسلنا من قبلك رسلاً﴾ .

٧ ـ الإيجاز بالحذف ﴿فجاءوهم بالبينات فانتقمنا﴾ حذف منه فكذبوهم واستهزءوا بهم .

٨ ـ الاستعارة التصريحية ﴿فإنك لا تسمع الموتى﴾ شبه الكفار بالموتى وبالصم في عدم إحساسهم وسماعهم للمواعظ والبراهين بطريق الاستعارة التصريحية .

٩ ـ الطباق بين ﴿ضعف . . وقوة﴾ .

١٠ ـ صيغة المبالغة ﴿العليم القدير﴾ لأن معناه المبالغ في العلم والقدرة .

١١ ـ الجناس التام ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾ المراد بالساعة أولاً القيامة وبالثانية المدة الزمنية فبينهما جناس كامل ، وهذا من المحسنات البديعية .

تنبيه : الصحيح أن الميت يسمع لقوله ﷺ (ما أنتم بأسمع منهم) وقوله (وإن الميت ليسمع قرع نعالهم) وأما قوله تعالى ﴿فإنك لا تسمع الموتى﴾ المراد منه سماع التدبر والاتعاظ ، والله أعلم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الروم »

***



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* هذه السورة الكريمة «سورة لقمان» من السور المكية ، التي تعالج موضوع العقيدة ، وتعنى بالتركيز على الأصول الثلاثة لعقيدة الايمان وهي « الوحدانية ، والنبوة ، والبعث والنشور » كما هو الحال في السور المكية .

* ابتدأت السورة الكريمة بذكر الكتاب الحكيم ، معجزة محمد الخالدة ، الباقية الدائمة على مدى الزمان ، وأقامت الحجج والبراهين على وحدانية ربّ العالمين ، وذكرت دلائل القدرة الباهرة ، والإبداع العجيب ، في هذا الكون الفسيح ، المحكم النظام المتناسق في التكوين، في سمائه وأرضه ، وشمسه وقمره ، ونهاره وليله ، وفي جباله وبحاره ، وأمواجه وأمطاره ، ونباته وأشجاره ، وفي سائر ما يشاهده المرء من دلائل القدرة والوحدانية ، مما يأخذ بالقلب ، ويبهر العقل ، ويواجه الإنسان مواجهةً جاهرة لا يملك معها إلا التسليم بقدرة الخالق العظيم .

* كما لفتت أنظار المشركين إلى دلائل القدرة والوحدانية منبثة في هذا الكون البديع ، وهزت كيانهم هزاً ﴿هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ؟ بل الظالمون في ضلال مبين﴾ .

* وختمت السورة الكريمة بالتحذير من ذلك اليوم الرهيب الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون﴿ يا أيها الناسُ اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ، ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً . .﴾ الآية .

التسمية : سميت سورة لقمان لاشتمالها على قصة « لقمان الحكيم » التي تضمنت فضيلة الحكمة وسرَّ معرفة الله تعالى وصفاته ، وذم الشرك ، والأمر بمكارم الأخلاق ، والنهي عن القبائح والمنكرات وما تضمنته كذلك من الوصايا الثمينة التي أنطقه الله بها ، وكانت من الحكمة والرشاد بمكان ! .

اللغة : ﴿الحكيم﴾ المحكم الذي لا خلل فيه ولا تناقض ﴿يوقنون﴾ اليقين : التصديق الجازم ﴿لهوَ الحديث﴾ الباطل الملهي عن الخير والعبادة ﴿وقراً﴾ ثِقلاً وصمماً يمنع من السماع ﴿عَمد﴾ جمع عِماد وهو الدعامة التي يرتكز عليها الشيء ﴿رواسي﴾ جبالاً ثوابت ، ورست السفينة : إذا ثبتت واستقرت ﴿تميد﴾ تتحرك وتضطرب ﴿بثَّ﴾ نشر وفرَّق .

سَبَبُ النّزول : روي أن « النضر بن الحارث » كان يشتري المغنِّيات ، فلا يظفر بأحدٍ يريد الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾

إلا انطلق به إلى قينته « المغنية » فيقول لها : أطعميه ، واسقيه الخمر ، وغنّيه ، ويقول : هذا خيرٌ مما يدعوك إليه محمد ، من الصلاة والصيام ، وأن تقاتل بين يديه فأنزل الله ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله . .﴾[1] الآية .

التفسير : ﴿الٓمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن ، وللإشارة إلى أن هذا الكتاب المعجز الذي أفحم العلماء والأدباء والفصحاء والبلغاء منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية« ألف، لام، ميم » وهي في متناول أيدي الناطقين بالعربية ، وهم عاجزون أن يؤلفوا منها كتاباً مثل هذا الكتاب بعد التحدي والإفحام ، وهذا من أظهر الدلائل وأوضح البراهين على أنه تنزيل الحكيم العليم ﴿تلك آياتُ الكتاب﴾ أي هذه آيات الكتاب البديع ، الذي فاق كل كتاب في بيانه ، وتشريعه ، وأحكامه ﴿الحكيم﴾ أي ذي الحكمة الفائقة ، والعجائب الرائقة ، الناطق بالحكمة والبيان ، والإشارة بالبعيد عن القريب « تلك » للإيذان ببعد منزلته في الفضل والشرف ﴿هدى ورحمةً للمحسنين﴾ أي هداية ورحمة للمحسنين الذين أحسنوا العمل في الدنيا ، وإنما خُصوا بالذكر لأنهم هم المنتفعون بما فيه ، ثم وضح تعالى صفاتهم فقال ﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ أي يؤدونها على الوجه الأكمل بأركانها وخشوعها وآدابها ﴿ويؤتون الزكاة﴾ أي يدفعونها الى مستحقيها طيبةً بها نفوسهم ابتغاء مرضاة الله ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ أي يصدّقون بالدار الآخرة ويعتقدون بها اعتقاداً جازماً لا يخالطه شك ولا ارتياب ، وكرَّر الضمير « هم » للتأكيد وإفادة الحصر ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ أي أولئك الموصوفون بتلك الصفات الجليلة على نور وبصيرة ، ومنهج واضح سديد ، من الله العزيز الحميد ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي هم الفائزون السعداء في الدنيا والآخرة قال أبو حيان : وكرر الإشارة ﴿وأُولئك﴾ تنبيهاً على عظم قدرهم وفضلهم[2] ، ولما ذكر تعالى حال السعداء ، الذين اهتدوا بكتاب الله وانتفعوا بسماعه ، عطف عليهم بذكر حال الأشقياء ، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله ، وأقبلوا على استماع الغناء والمزامير فقال ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾ أي ومن الناس من يشتري ما يُلهي عن طاعة الله ، ويَصُد عن سبيله ، مما لا خير ولا فائدة فيه قال الزمخشري : واللهو كل باطلٍ ألهى عن الخير ، نحو

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ، وتفسير القرطبي والبحر المحيط . (٢) البحر ٧/ ١٨٣ .

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا﴾

السمر بالأساطير ، والتحدث بالخرافات المضحكة ، وفضول الكلام وما لا ينبغي[١] ، وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه سئل عن الآية فقال : والله الذي لا إله إلا هو ـ يكررها ثلاثاً ـ إنما هو الغناء[٢] ، وقال الحسن البصري : نزلت هذه الآية في الغناء والمزامير[٣] ﴿ليُضل عن سبيل الله بغير علم﴾ أي ليُضل الناس عن طريق الهدى ، ويُبعدهم عن دينه القويم ، بغير حجة ولا برهان ﴿ويتخذها هُزواً﴾ أي ويتخذ آيات الكتاب المجيد سخرية واستهزاءً ، وهذا أدخل في القبح ، وأعرقُ في الضلال ﴿أولئك لهم عذابٌ مهين﴾ أي لهم عذاب شديد مع الذلة والهوان ﴿وإذا تتلى عليه آياتنا﴾ أي وإذا قرئت عليه آيات القرآن ﴿ولّى مستكبراً كأن لم يسمعها﴾ أي أعرض وأدبر متكبراً عنها كأنه لم يسمعها ، شأن المتكبر الذي لا يلتفت إلى الكلام ، ويجعل نفسه كأنها غافلة ﴿كأنَّ في أذنيه وقراً﴾ أي كأن في أذنيه ثقلاً وصمماً يمنعانه عن استماع آيات الله ﴿فبشره بعذابٍ أليم﴾ أي أنذره يا محمد بعذاب مؤلم ، مفرطٍ في الشدة والإيلام ، ووضع البشارة مكان الإنذار تهكم وسخرية قال في البحر : تضمنت هذه الآية ذمَّ المشتري من وجوه : التولية عن الحكمة ، ثم الاستكبار عن الحق ، ثم عدم الالتفات إلى سماع الآيات ، ثم الإيغال في الإعراض مشبهاً حال من لم يسمعها ، لكونه لا يلقي لها بالاً ولا يلتفت إليها ، ثم التهكم به بالبشارة بأشد العذاب[٤] . . ولما ذكر ما وعد به الكفار من العذاب الأليم ، ذكر ما وعد به المؤمنين من جنات النعيم فقال ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، وبين حسن النيّة وإخلاص العمل ﴿لهم جنات النعيم﴾ أي لهم على إيمانهم واستقامتهم على شريعة الله جناتُ الخلد يتنعمون فيها بأنواع الملاذّ ، من المآكل والمشارب والملابس ، والنساء والحور العين ، وسائر ما أكرمهم الله به من الفضل والإنعام ، مما لا عينٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿خالدين فيها﴾ أي دائمين في تلك الجنات ، لا يخرجون منها أبداً ، ولا يبغون عنها حولاً ﴿وعْدَ الله حقاً﴾ أي وعداً من الله قاطعاً ، كائناً لا محالة ، لا خلف فيه لأن الله لا يخلف الميعاد ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي هو تعالى العزيز الذي لا يغلبه شيء ليمنعه عن إنجاز وعده ، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة . . ثم نبّه تعالى إلى دلائل قدرته ، وآثار عظمته وجلاله لإقامة البراهين على وحدانيته فقال ﴿خلق السموات بغير عمدٍ ترونها﴾ أي خلق السموات في سعتها وعظمتها وإحكامها بدون دعائم ترتكز عليها ، حال كونكم تشاهدونها كذلك واقفة من غير أن

(١) الكشاف (٢) الطبري ٢١/ ٣٩ . (٣) ابن كثير ٣/ ١٦٣ المختصر وانظر أسباب النزول في بدء السورة الكريمة .
(٤) البحر المحيط ٧/ ١٨٤ .

﴿فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١١﴾

تستند على شيء ، ولا تمسكها إلا قدرة الله العليّ الكبير ﴿وألقى في الأرض رواسي أنْ تميد بكم﴾ أي جعل فيها جبالاً ثوابت لئلا تتحرك وتضطرب بكم فتهلككم بأن تقلبكم عن ظهرها ، أو تهدم بيوتكم بتزلزلها قال الإمام الفخر : واعلم أن الأرض ثباتُها بسبب ثقلها ، وإلا كانت تزول عن موضعها بسبب المياه والرياح ، ولو خلقها تعالى مثل الرمل لما كانت تثبتُ للزراعة ، كما نرى الأراضي الرملية ينتقل الرمل الذي فيها من موضع الى موضع ، فهذه هي حكمة إرسائها بالجبال[1] ، فسبحان الكبير المتعال ﴿وبثَّ فيها من كل دابة﴾ أي ونشر وفرّق في أرجاء الأرض من كل أنواع الحيوانات والدواب من مأكول ومركوب ، مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها ﴿وأنزلنا من السماء ماء﴾ أي وأنزلنا لحفظكم وحفظ دوابكم المطر من السحاب ﴿فأنبتنا فيها من كل زوجٍ كريم﴾ أي فأنبتنا في الأرض من كل نوعٍ من النبات ، ومن كل صنفٍ من الأغذية والأدوية ﴿كريم﴾ أي كثير المنافع ، بديع الخلق والتكوين[2] ﴿هذا خلقُ الله﴾ أي هذا الذي تشاهدونه وتعاينونه أيها المشركون هو من مخلوقات الله ، فانظروا في السموات والأرض ، والإنسان ، والنبات ، والحيوان ، وسائر ما خلق الله ثم تفكروا في آثار قدرته ، وبديع صنعته ، ثم أخبروني ﴿ماذا خلق الذين من دونه﴾ ؟ أي أيَّ شيءٍ خلقته آلهتكم التي عبدتموها من دون الله من الأوثان والأصنام ؟ وهو سؤال على جهة التهكم والسخرية بهم وبآلهتهم المزعومة ، ثم أضرب عن تبكيتهم الى التسجيل عليهم بالضلال الواضح فقال ﴿بل الظالمون في ضلالٍ مبين﴾ أي بل المشركون في خسران ظاهر ، وضلالٍ واضح ما بعده ضلال ، لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها ، وعَبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر ، فهم أضل من الحيوان الأعجم ، لأن من عبد صنماً جامداً ، وترك خالقاً عظيماً مدبراً ، يكون أحطَّ شأناً من الحيوان .

البَلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ وضع المصدر للمبالغة ﴿هدى ورحمة للمحسنين﴾

٢ ـ الإشارة بالبعيد ﴿تلك آيات﴾ عن القريب ﴿هذه﴾ لبيان علو الرتبة ورفعة القدر والشأن .

٣ ـ الإطناب بتكرار الضمير واسم الإشارة ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون ۔ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم﴾ لزيادة الثناء عليهم والتكريم لهم ، كما أن الجملة تفيد الحصر أي هم المفلحون لا غيرهم .

٤ ـ الاستعارة التصريحية ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾ شبّه حالهم بحال من يشتري سلعة

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٥/ ١٤٣ . (٢) يقول سيد قطب تغمده الله برحمته في تفسيره الظلال : « والنص القرآني يقرر أن الله أنبت النبات أزواجاً ﴿من كل زوج كريم﴾ وهي حقيقة ضخمة اهتدى اليها العلم قريباً جداً ، فكل نبات له خلايا تذكير، وخلايا تأنيث ، إما مجتمعة في زهرة واحدة ، أو في زهرتين في العود الواحد ، وإما منفصلة في عودين أو شجرتين ولا توجد الثمرة إلا بعد التقاء وتلقيح بين زوج النبات ، كما هو الشأن في الإنسان والحيوان على السواء » .

وهو خاسر فيها ، واستعار لفظ يشتري لمعنى يستبدل بطريق الاستعارة التصريحية .

٥ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كأنَّ في أذنيه وقراً﴾ ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه فهو تشبيه « مرسل مجمل » .

٦ - أسلوب التهكم ﴿فبشره بعذاب أليم﴾ لأن البشارة إنما تكون في الخير ، واستعمالها في الشر سخرية وتهكم .

٧ - الالتفات من الغيبة إلى التكلم ﴿وأنزلنا من السماء﴾ بعد قوله ﴿خلق ، وألقى ، وبثَّ﴾ وكلها بضمير الغائب ، ثم التفت فقال ﴿وأنزلنا﴾ تعظيماً لشأن الرحمن ، وتوفيةً لمقام الامتنان ، وهذا من المحسنات البديعية[1] .

٨ - إطلاق المصدر على اسم المفعول مبالغة ﴿هذا خلق الله﴾ أي مخلوقه .

٩ - الاستفهام للتوبيخ والتبكيت ﴿ماذا خلق الذين من دونه﴾ ؟

١٠ - وضع الظاهر موضع الضمير لزيادة التوبيخ ، وللتسجيل عليهم بغاية الظلم والجهل ﴿بل الظالمون في ضلال مبين﴾ وكان الأصل أن يقال : بل هم في ضلالٍ مبين .

١١ - مراعاة الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿عذاب أليم ، جنات النعيم ، زوج كريم ، الكتاب الحكيم﴾ ويسمى هذا النوع في علم البديع « سجعاً » وأفضله ما تساوت فقره ، وكان سليماً من التكلف ، خالياً من التكرار ، وهو كثير في القرآن الكريم في نهاية الآيات الكريمة .

فـائـدة : وصفُ الكتاب بالحكمة في هذه السورة ﴿الكتاب الحكيم﴾ مناسبٌ لجو السورة الكريمة لأن موضوع الحكمة قد تكرر فيها ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ فناسب أن يختار هذا الوصف من أوصاف الكتاب المجيد ، على طريقة القرآن في التنسيق بين الألفاظ والمواضيع .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة . . إلى . . إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾

من آية (١٢) إلى نهاية آية (١٩) .

المنـاسـبة : لمَّا بيَّن تعالى فساد اعتقاد المشركين ، بسبب عنادهم وإشراكهم من لا يخلق شيئاً بمن هو خالق كل شيء ، ذكر هنا وصايا « لقمان » الحكيم ، وهي وصايا ثمينة في غاية الحكمة والدعوة إلى طريق الرشاد ، وقد جاءت هذه الوصايا مبدوءةً بالتحذير من الشرك الذي هو أقبح الذنوب ، وأعظم الجرائم عند الله .

اللغـة : ﴿الحكمة﴾ الإصابة في القول والعمل ، وأصلها وضع الشيء في موضعه قال في **اللسان** : أحكم الأمر أتقنه ويُقال للرجل إذا كان حكيماً : قد أحكمته التجارب ، والحكيم : المتقن

---

(١) قال الفخر الرازي : وفي هذا الالتفات فصاحة وحكمة ، أما الفصاحة فهي أن السامع إذا سمع كلاماً طويلاً من نمط واحد ، ثم ورد عليه نمط آخر يستطيبه ، ألا ترى أنك إذا قلت : قال زيدٌ كذا ، وقال خالد كذا ، وقال عمرو كذا ، ثم إن بكراً قال قولاً حسناً . . يستطاب لما قد تكرر القول مراراً ، وأما الحكمة فهو أن إنزال الماء نعمة ظاهرة متكررة في كل زمان ومكان ، فأسند الإنزال الى نفسه صريحاً ليتنبه الإنسان لشكر النعمة ، فيزيد له في الرحمة . التفسير الكبير ٢٥/ ١٤٤ .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ

للأمور[1] ﴿يعظه﴾ ينصحه ويذكره ، والعظةُ والموعظة : النصح والإرشاد ﴿وهناً﴾ الوهن : الضعف ومنه﴿ وهن العظم مني﴾ أي ضعف ﴿فصاله﴾ الفصال : الفطام وهو لفظ يستعمل في الرضاع خاصة ، وأما الفصل فهو أعم ، وفصلت المرأة ولدها أي فطمته وتركت إرضاعه ﴿أناب﴾ رجع ، والمنيب الراجع إلى ربه بالتوبة والاستغفار ﴿تُصعِّر﴾ الصَّعَر : بفتحتين في الأصل داءٌ يصيب البعير فيلوي منه عنقه ثم استعمل في ميل العنق كبراً وافتخاراً قال عمرو التغلبي :

وكنَّا إذا الجبَّار صعَّر خدَّه ... أقمنا له من ميله فتقوَّم[2]

﴿مرحاً﴾ فرحاً وبطراً وخيلاء ﴿مختال﴾ متبختر في مشيته ﴿اقصد﴾ توسَّط ، والقصد : التوسط بين الإسراع والبطء ﴿اغضض﴾ غضَّ الصوت خفضه قال جرير :

فغُضَّ الطرف إنك من نمير ... فلا كعباً بلغت ولا كلابا

التفسير : ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ أي والله لقد أعطينا لقمان الحكمة وهي الإصابة في القول ، والسَّداد في الرأي ، والنطق بما يوافق الحق ، **قال مجاهد** : الحكمة : الفقه والعقل ، والإصابة في القول ، ولم يكن نبياً إنما كان حكيماً[3] ﴿أنْ اشكر للّه﴾ أي وقلنا له : اشكر الله على إنعامه وإفضاله عليك حيث خصَّك بالحكمة وجعلها على لسانك **قال القرطبي** : والصحيح الذي عليه الجمهور أن « لقمان » كان حكيماً ولم يكن نبياً وفي الحديث (لم يكن لقمان نبياً ، ولكن كان عبداً كثير التفكر،حسن اليقين ، أحبَّ الله تعالى فأحبَّه ، فمنَّ عليه بالحكمة)[4] ﴿ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه﴾ أي ومن يشكر ربه فثواب شكره راجع لنفسه ، وفائدته إنما تعود عليه ، لأن الله تعالى لا ينفعه شكر من شكر ، ولا يضره كفر من كفر ولهذا قال بعده ﴿ومن كفر فإنَّ الله غنيٌ حميد﴾ أي ومن جحد نعمة الله فإنما أساء الى نفسه ، لأن الله مستغنٍ عن العباد ، محمودٌ على كل حال ، مستحقٌ للحمد لذاته وصفاته **قال الرازي** : المعنى أن الله غير محتاج إلى شكر حتى يتضرَّر بكفر الكافر ، فهو في نفسه محمود سواء شكره الناس أم لم يشكروه[5] ، ثم ذكر تعالى بعض نصائح لقمان لابنه وبدأ بالتحذير له من الشرك ، الذي هو نهاية القبح والشناعة فقال ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بُنيَّ لا تشرك بالله﴾ أي واذكر لقومك موعظة لقمان الحكيم لولده ، حين قال له واعظاً ناصحاً مرشداً : يا بني كن عاقلاً ولا تشرك بالله أحداً ، بشراً أو صنماً أو ولداً ﴿إنَّ الشرك لظلمٌ عظيم﴾ أي إن الشرك قبيح ، وظلم صارخ لأنه وضعٌ للشيء في غير موضعه ، فمن سوَّى بين الخالق والمخلوق ، وبين الإله والصنم فهو ـ بلا شك ـ أحمق الناس ، وأبعدهم عن منطق العقل والحكمة ، وحري به أن يوصف بالظلم ويجعل في عداد البهائم ﴿ووصينا الإنسان بوالديه﴾ أي

(١) لسان العرب مادة حكم . (٢) القرطبي ١٤/ ٦٩ . (٣) الطبري ٢١/ ٤٣ . (٤) القرطبي ١٤/ ٥٩ . (٥) التفسير الكبير ٢٥/ ١٤٥ .

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾

أمرناه بالإِحسان إليهما لا سيما الوالدة ﴿حملته أُمه وهناً على وهن﴾ أي حملته جنيناً في بطنها وهي تزداد كل يوم ضعفاً على ضعف ، من حين الحمل إلى حين الولادة ، لأن الحمل كلما ازداد وعظم ، إزدادت به ثقلاً وضعفاً ﴿وفصاله في عامين﴾ أي وفطامه في تمام عامين ﴿أن اشكر لي ولوالديك﴾ أي وقلنا له : اشكر ربك على نعمة الايمان والإِحسان ، واشكر والديك على نعمة التربية ﴿إليَّ المصير﴾ أي إليَّ المرجع والمآب فأجازي المحسن على إحسانه ، والمسيء على إساءته قال ابن جزي : وقوله ﴿أن اشكر﴾ تفسيرٌ للوصية ، واعترض بينها وبين تفسيرها بقوله ﴿حملته أُمه وهناً على وهنٍ وفصاله في عامين﴾ ليبيّن ما تكابده الأم بالولد مما يوجب عظيم حقها ، ولذلك كان حقها أعظم من حق الأب[1] ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علمٌ فلا تطعهما﴾ أي وإن بذلا جهدهما ، وأقصى ما في وسعهما ، ليحملاك على الكفر والإِشراك بالله فلا تطعهما ، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ﴿وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾ أي وصاحبهما في الحياة الدنيا بالمعروف والإِحسان إليهما ـ ولو كانا مشركين ـ لأن كفرهما بالله لا يستدعي ضياع المتاعب التي تحمَّلاها في تربية الولد ، ولا التنكر بالجميل ﴿واتَّبع سبيلَ منْ أناب إليّ﴾ أي واسلك طريق من رجع الى الله بالتوحيد والطاعة والعمل الصالح ﴿ثمَّ إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي مرجع الخلق إلى الله فيجازيهم على أعمالهم ، والحكمةُ من ذكر الوصية بالوالدين ـ ضمن وصايا لقمان ـ تأكيد ما أفادته الآية الأولى من تقبيح أمر الشرك ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ فكأنه تعالى يقول : مع أننا وصينا الإِنسان بوالديه ، وأمرناه بالإِحسان إليهما والعطف عليهما ، وألزمناه طاعتهما بسبب حقهما العظيم عليه ، مع كل هذا فقد نهيناه عن طاعتهما في حالة الشرك والعصيان ، لأن الإِشراك بالله من أعظم الذنوب ، وهو في نهاية القبح والشناعة . . ثم رجع الكلام إلى وصايا لقمان فقال تعالى ﴿يا بُنيَّ إنها إن تك مثقال حبةٍ من خردل﴾ أي يا ولدي إن الخطيئة والمعصية مهما كانت صغيرة حتى ولو كانت وزن حبة الخردل في الصغر ﴿فتكن في صخرة أو في السمواتِ أو في الأرض يأتِ بها الله﴾ أي فتكن تلك السيئة ـ مع كونها في أقصى غايات الصغر ـ في أخفى مكان وأحرزه ، كجوف الصخرة الصماء ، أو في أعلى مكان في السماء أو في الأرض يحضرها الله سبحانه ويحاسب عليها ، والغرض التمثيلُ بأن الله لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد ﴿إن الله لطيف خبير﴾ أي هو سبحانه لطيف بالعباد خبير

(١) التسهيل ٣/ ١٢٦ .

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

أي عالم ببواطن الأمور ﴿يا بُنيَّ أقم الصلاة﴾ أي حافظ على الصلاة في أوقاتها وبخشوعها وآدابها ﴿وأمر بالمعروف وانه عن المنكر﴾ أي وأمر الناس بكل خير وفضيلة ، وانههم عن كل شر ورذيلة ﴿واصبر على ما أصابك﴾ أي اصبر على المحن والبلايا ، لأنَّ الداعي إلى الحق معرَّض لإيصال الأذى إليه قال أبو حيان : لما نهاه أولاً عن الشرك ، وأخبره ثانياً بعلمه تعالى وباهر قدرته ، أمره بما يتوسل به إلى الله من الطاعات ، فبدأ بأشرفها وهي الصلاة ، ثم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثم بالصبر على ما يصيبه من المحن بسبب الأمر بالمعروف ، فكثيراً ما يُؤذى فاعل ذلك[1] ﴿إن ذلك من عزم الأمور﴾ أي إن ذلك المذكور مما عزمه الله وأمر به قال ابن عباس : من حقيقة الإِيمان الصبر على المكاره وقال الرازي : معناه إن ذلك من الأمور الواجبة المعزومة أي المقطوعة ، فالمصدر بمعنى المفعول[2] ﴿ولا تُصعِّر خدك للناس﴾ أي لا تمل وجهك عنهم تكبراً عليهم قال القرطبي : أي لا تمل خدك للناس كبراً عليهم وإعجاباً ، وتحقيراً لهم ، وهو قول ابن عباس[3] ﴿ولا تمش في الأرض مرَحاً﴾ أي لا تمش متبختراً متكبراً ﴿إن الله لا يحب كل مختال فخور﴾ تعليلٌ للنهي أي لأن الله يكره المتكبر الذي يرى العظمة لنفسه ، ويتكبر على عباد الله ، المتبختر في مشيته ، والفخور الذي يفتخر على غيره ، ثم لما نهاه عن الخُلُق الذميم ، أمره بالخُلُق الكريم فقال ﴿واقصد في مشيك﴾ أي توسَّط في مشيتك واعتدل فيها بين الإِسراع والبطء ﴿واغضض من صوتك﴾ أي اخفض من صوتك فلا ترفعه عالياً فإنه قبيح لا يجمل بالعاقل ﴿إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ أي إن أوحش الأصوات صوتُ الحمير فمن رفع صوته كان مماثلاً لهم ، وأتى بالمنكر القبيح قال الحسن : كان المشركون يتفاخرون برفع الأصوات فرد عليهم بأنه لو كان خيراً لفضلتهم به الحمير ، وقال قتادة : أقبح الأصوات صوت الحمير ، أوله زفير وآخره شهيق .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين ﴿شكر . . وكفر﴾ .

٢ ـ صيغة المبالغة ﴿غني حميد﴾ وكذلك ﴿لطيف خبير﴾ و﴿فخور﴾ لأن فعيل وفعول من صيغ المبالغة ومعناه كثير الحمد وكثير الفخر .

٣ ـ ذكر الخاص بعد العام ﴿بوالديه حملته أمه﴾ وذلك لزيادة العناية والاهتمام بالخاص .

٤ ـ تقديم ما حقه التأخير لإفادة الحصر مثل ﴿إليَّ المصير﴾ ﴿إليَّ مرجعكم﴾ أي لا إلى غيري .

(١) البحر المحيط ٧/ ١٨٨ . (٢) التفسير الكبير ٢٥/ ١٤٩ . (٣) القرطبي ١٤/ ٧٠ .

٥ ـ التمثيل ﴿إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة﴾ مثَّل ذلك لسعة علم الله وإحاطته بجميع الأشياء صغيرها وكبيرها ، جليلها وحقيرها فإنه تعالى يعلم أصغر الأشياء في أخفى الأمكنة .

٦ ـ التتميم ﴿فتكن في صخرة﴾ تمَّم خفاءها في نفسها بخفاء مكانها وهذا من البديع .

٧ ـ المقابلة ﴿وأمر بالمعروف﴾ ثم قال ﴿وأنه عن المنكر﴾ فقابل بين اللفظين .

٨ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿إن أنكر الأصوات لصوتُ الحمير﴾ شبَّه الرافعين أصواتهم بالحمير ، وأصواتهم بالنهيق ، ولم يذكر أداة التشبيه بل أخرجه مخرج الاستعارة للمبالغة في الذم ، والتنفير عن رفع الصوت .

تنبيه : حين أمر تعالى بشكر الوالدين قدَّم شكره تعالى على شكرهما فقال ﴿أن اشكر لي﴾ ثم أردفه بقوله ﴿ولوالديك﴾ وذلك لإشعارنا بأن حق الله أعظم من حق الوالدين ، لأنه سبحانه هو السبب الحقيقي في خلق الإنسان ، والوالدان سبب في الصورة والظاهر ، ولهذا حرَّم تعالى طاعتهما على الإنسان إذا أرادا إجباره على الكفر .

قال الله تعالى : ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات . . إلى . . إن الله عليم خبير﴾ من آية (٢٠) إلى آية (٣٤) نهاية السورة الكريمة

* * *

المناسبة : لما حذَّر تعالى من الشرك ، وأكده بوصايا لقمان الحكيم في الإيمان ومكارم الأخلاق ، ذكر هنا الأدلة الساطعة ، والبراهين القاطعة على وحدانيته تعالى ، ونبَّه بالصنعة على الصانع ، وما له من نعمٍ لا تُحصى من تسخير السموات بما فيها من الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والسحاب ، وتسخير الأرض وما فيها من الحيوان ، والنبات ، والمعادن ، والبحار ، وغير ذلك من الأدلة الشاهدة بوحدانيته ، وختم السورة الكريمة ببيان « المغيبات الخمس » .

اللغة : ﴿أسبغ﴾ أتم وأكمل يقال : سبغت النعمة سبوغاً إذا تمت ﴿استمسك﴾ تمسك وتعلق واعتصم ﴿نفدت﴾ فنيت وفرغت ﴿يولج﴾ يدخل والإيلاج : الإدخال ومنه ﴿حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ ﴿الفلك﴾ السفن ﴿كالظلل﴾ الظلل : جمع ظلَّة وهي كل ما أظلَّك من جبل أو سحاب ﴿ختَّار﴾ الختَّار : الغدار ، والختر : أسوء الغدر قال الشاعر :

فإنك لو رأيت أبا عمير ... ملأت يديك من غدر وختر[1]

﴿الغرور﴾ ما يغرُّ ويخدع من شيطان وغيره ، وغرَّه الأمل : خدعه .

أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ

التفسير : ﴿ألم تروا أن الله سخَّر لكم ما في السموات وما في الأرض﴾ أي ألم تعلموا أيها الناس أن الله العظيم الجليل سخر لكم ما في السموات من شمس وقمر ونجوم لتنتفعوا بها ، وسخَّر لكم ما في الأرض من جبالٍ وأشجار وثمارٍ وأنهار وغير ذلك مما لا تُحصى ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرةً

---

(١) القرطبي ١٤/ ٨٠ .

﴿مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٢١ ۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٢٢ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٣﴾

وباطنة﴾ أي وأتمَّ عليكم أيها الناس نعمه العديدة ، الظاهرة المرئية كنعمة السمع والبصر والصحة والإسلام ، والباطنة الخفية كالقلب والعقل والفهم والمعرفة وما أشبه ذلك قال **البيضاوي** : أي أسبغ عليكم نعمه المحسوسة والمعقولة ، ما تعرفونه وما لا تعرفونه[1] **﴿ومن النَّاس من يجادل في اللَّه بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾** أي ومن الناس فريق جاحدون يخاصمون ويجادلون في توحيد الله وصفاته بغير علم ولا فهم ، ولا حجة ولا برهان ، ولا كتاب منزل من عند الله قال **القرطبي** : نزلت في يهودي جاء إلى النبي ﷺ فقال يا محمد : أخبرني عن ربك من أيِّ شيء هو؟ فجاءت صاعقةٌ فأخذته[2] ، والمنيرُ : الواضح البيِّن المنقذ من ظلمة الجهل والضلال **﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله﴾** أي وإذا قيل لهؤلاء المجادلين بالباطل اتبعوا ما أنزل الله على رسوله ، وصدّقوا به فإنه يفرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال **﴿قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا﴾** أي قالوا نسير على طريقة آبائنا ونقتدي بهم في عبادة الأوثان والأصنام **﴿أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير﴾** الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أيتبعونهم ولو كانوا ضالين ، حتى ولو كان الشيطان يدعوهم الى النار المستعرة ذات العذاب الشديد ؟ **﴿ومن يسلم وجهه إلى الله﴾** أي ومن يقبل على طاعة الله وينقاد لأوامره ، ويخلص قصده وعبادته لله **﴿وهو محسن﴾** أي وهو مؤمن موحد قال **القرطبي** : لأن العبادة من غير احسانٍ ولا معرفة القلب لا تنفع[3] ، ونظير الآية ﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن﴾ فلا بدَّ من الإيمان والإحسان **﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾** أي تمسك بحبلٍ لا انقطاع له ، وتعلق بأوثق ما يتعلق به من الأسباب قال **صاحب الكشاف** : هذا من باب التمثيل ، مثلت حال المتوكل بحال من تدلى من شاهق فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة ، من حبلٍ متين مأمونٍ انقطاعه[4] وقال الرازي : أوثق العرى جانب الله ، لأن كل ما عداه هالك منقطع ، وهو باقٍ لا انقطاع له[5] **﴿وإلى الله عاقبة الأمور﴾** أي إلى الله وحده ـ لا إلى أحدٍ سواه ـ مرجع ومصير الأمور كلها فيجازي العامل عليها أحسن الجزاء **﴿ومن كفر فلا يحزنك كفره﴾** تسلية للرسول ﷺ أي لا يهمنك يا محمد كفر من كفر ، ولا ضلال من ضلَّ ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فإنا سننتقم منهم إن عاجلاً أو آجلاً **﴿إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا﴾** أي إلينا

---

(١) البيضاوي ٢/ ١٠٩ (٢) القرطبي ١٤/ ٧٤ وقيل : نزلت في « النضر بن الحارث » و« أبي بن خلف » وأشباههما الذين كانوا يجادلون النبي ﷺ في وحدانيته تعالى وصفاته ، من غير علم عقلي ولا دليل شرعي .

(٣) القرطبي ١٤/ ٧٤ . (٤) الكشاف ٣/ ٣٩٥ . (٥) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٥/ ١٥٤ .

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾

رجوعهم ، فنخبرهم بأعمالهم التي عملوها في الدنيا ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي عليم بما في قلوبهم من المكر والكفر والتكذيب فيجازيهم عليها ﴿نمتعهم قليلاً﴾ أي نبقيهم في الدنيا مدة قليلة يتمتعون بها ﴿ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾ أي ثم نلجئهم في الآخرة إلى عذاب شديد هو عذاب النار ، الفظيع الشاق على النفس ، ثم لما بيَّن تعالى استحقاقهم للعذاب ، بيَّن تناقضهم في الدنيا وهو اعترافهم بأن الله خالق السموات والأرض ، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها ملك له وأنها مخلوقاته فقال ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنَّ الله﴾ أي ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين من كفار مكة من خلق السموات والأرض ؟ ليقولنَّ ـ لغاية وضوح الأمر ـ الله خلقهن فقد اضطروا إلى الاعتراف به ﴿قل الحمد لله﴾ أي قل لهم : الحمد لله على ظهور الحجة عليكم ، وعلى أن دلائل الايمان ظاهرة للعيان ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي بل أكثر هؤلاء المشركين لا يفكّرون ولا يتدبرون فلذلك لا يعلمون ، ثم قال تعالى ﴿لله ما في السموات والأرض﴾ أي له جلَّ وعلا ما في الكائنات ملكاً وخلقاً وتدبيراً ﴿إنَّ الله هو الغنيُّ الحميد﴾ أي المستغني عن خلقه وعن عبادتهم ، المحمود في صنعه وآلائه ﴿ولو أنَّ ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ أي ولو أنَّ جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً ﴿والبحر يمده من بعده سبعة أبحر﴾ أي وجعل البحر بسعته حبراً ومداداً وأمده سبعة أبحر معه فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله ﴿ما نفدت كلمات الله﴾ أي لانتهت وفنيت تلك الأقلام والبحار وما انتهت كلمات الله ، لأن الأشجار والبحار متناهية ، وكلمات الله غير متناهية قال **القرطبي** : لما ذكر تعالى أنه سخر لهم ما في السموات وما في الأرض ، وأنه أسبغ النعم ، نبّه على أن الأشجار لو كانت أقلاماً ، والبحار لو كانت مداداً ، فكتب بها عجائب صنع الله ، الدالة على قدرته ووحدانيته لم تنفد تلك العجائب[1] وقال **ابن الجوزي** : وفي الكلام محذوف تقديره : فكتب بهذه الأقلام وهذه البحور كلمات الله ، لتكسرت الأقلام ونفدت البحور ولم تنفد كلمات الله أي لم تنقطع[2] ﴿إن الله عزيز حكيم﴾ أي غالب لا يعجزه شيء ، حكيم لا يخرج عن علمه وحكمته أمر ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ أي ما خلقكم أيها الناس ابتداءً ، ولا بعثكم بعد الموت انتهاءً إلا كخلق نفس واحدة وبعثها ، لأنه إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون ، قال **الصاوي** : المعنى أن الله لا يصعب عليه شيء ، بل

(١) القرطبي ١٤/ ٧٦ . (٢) زاد المسير ٦/ ٣٢٦ .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ

خلق العالم وبعثه برُمته كخلق نفس ٍ واحدةٍ وبعثها[1] ﴿إنَّ الله سميع بصير﴾ أي سميع لأقوال العباد ، بصير بأعمالهم ، ثم أشار تعالى الى دلائل قدرته في الآفاق فقال ﴿ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ أي ألم تعلم أيها المخاطب علماً قوياً جارياً مجرى الرؤية ، أن الله العظيم الجليل يدخل ظلمة الليل على ضوء النهار ، ويدخل ضوء النهار على ظلمة الليل ، ويزيد في هذا ويُنقص من هذا حسب الحكمة الأزلية ﴿وسخَّر الشمس والقمر كلٌ يجري إلى أجل مسمى﴾ أي ذلّلهما بالطلوع والأفول تقديراً للآجال ، وإتماماً للمنافع ، كلٌ منهما يسير في فلكه إلى غاية محدودة هي يوم القيامة ﴿وأنَّ الله بما تعملون خبير﴾ أي وأنه تعالى عالم بأحوالكم وأعمالكم لا تخفى عليه خافية ، فإن من شاهد مثل ذلك الصنع الرائق ، والتدبير الفائق ، لا يكاد يغفل عن كون صانعه جل وعلا محيطاً بكل أعماله ﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾ أي ذلك الذي شاهدتموه من عجائب الصنع وباهر القدرة ، لتتأكدوا أن الله هو الإِله الحق الذي يجب أن يعبد وحده ﴿وأنَّ ما يدعون من دونه الباطل﴾ أي وأن كل ما يعبدون من دون الله من الأوثان والأصنام باطل لا حقيقة له كما قال لبيد « ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطل » فالجميع خلقه وعبيده ، ولا يملك أحدٌ منهم تحريك ذرةٍ إلا بإذنه ﴿وأنَّ الله هو العلي الكبير﴾ أي وأنه تعالى هو العليُّ في صفاته ، الكبير في ذاته ﴿ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله﴾ تذكيرٌ بنعمة أُخرى أي ألم تر أيها العاقل أن السفن العظيمة تسير في البحر بقدرة الله ، وبتسخيره ولطفه بالناس وإحسانه إليهم ، لتهيئة أسباب الحياة قال ابن كثير : يخبر تعالى أنه هو الذي سخَّر البحر لتجري فيه الفلك بأمره أي بلطفه وتسخيره ، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوةٍ يحمل بها السفن ما جرت[2] ، ولهذا قال بعده ﴿ليريكم من آياته﴾ أي ليريكم عجائب صنعه ، ودلائل قدرته ووحدانيته ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبَّار شكور﴾ أي إن في تسخير هذه السفن وما تحمله من الطعام والأرزاق والتجارات ، لآيات باهرة ، وعبراً جليلة لكل عبد منيب ، صبَّار في الضراء ، شكور في الرخاء . ولفظة « صبَّار » و«شكور» مبالغة في الصبر والشكر ﴿وإذا غشيهم موجٌ كالظلل﴾ أي وإذا علا المشركين وغطَّاهم وهم في البحر موج كثيف كالجبال ﴿دعوا الله مُخلصين له الدِّين﴾ أي أخلصوا دعاءهم لله حين علموا أنه لا منجي لهم غيره فلا يدعون لخلاصهم سواه ﴿فلما نجَّاهم إلى البر﴾ أي فلما أنقذهم من شدائد البحر ، وأخرجهم إلى شاطىء النجاة

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٢٥٩ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٦٩ .

خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

في البر ﴿فمنهم مقتصد﴾ في الآية حذف تقديره فمنهم مقتصد ، ومنهم جاحد ، ودلَّ عليه قوله ﴿وما يجحد بآياتنا﴾ والمقتصد : المتوسط في العمل قال ابن كثير : وهذا من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال ، والأمور العظام ، ورأى الآيات الباهرة في البحر ، ثم بعدما أنعم الله عليه بالخلاص كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام ، والمبادرة إلى الخيرات ، والدؤوب في العبادات ، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصّراً[١] ﴿وما يجحد بآياتنا إلا كلُّ ختَّار كفور﴾ أي وما يكذب بآياتنا إلا كل غدَّار،مبالغ في كفران نعم الله تعالى ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾ أي اتقوا ربكم بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ﴿واخشوا يوماً لا يجزي والدٌ عن ولده﴾ أي وخافوا يوماً رهيباً عصيباً لا ينفع والد فيه ولده ، ولا يدفع عنه مضرةً ، أو يقضي عنه شيئاً مما تحمَّله ﴿ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئاً﴾ أي ولا ولدٌ يغني أو يدفع عن والده شيئاً ، أو يقضي عنه شيئاً من جنايته ومظالمه قال الطبري : المعنى لا يغني ولا تنفع عنده الشفاعة والوسائل ، إلا وسيلة من صالح الأعمال التي أسلفها في الدنيا[٢] ﴿إن وعد الله حقٌّ﴾ أي وعده بالثواب والعقاب ، والبعث والجزاء حقٌّ لا يتخلف ﴿فلا تغرنكم الحياةُ الدنيا﴾ أي لا تخدعكم الحياة الدنيا بمفاتنها ولذاتها فتركنوا إليها ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ أي ولا يخدعنكم الشيطان الماكر الذي يغر الخلق ويمنيهم بأباطيله ويلهيهم عن الآخرة ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ هذه هي مفاتح الغيب التي اختص الله بعلمها وهي خمس كما جاء في الحديث الصحيح (مفاتح الغيب خمسٌ لا يعلمهن إلا الله وتلا الآية)[٣] أي عنده تعالى معرفة وقت قيام الساعة التي تقوم فيها القيامة ﴿ويُنزِّل الغيث﴾ أي وعنده معرفة وقت نزول المطر ومحل نزوله ﴿ويعلم ما في الأرحام﴾ أي من ذكرٍ أو أنثى ، شقي أو سعيد ﴿وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً﴾ أي ما يدري أحد ماذا يحدث له في غد ، وماذا يفعل من خير أو شر ﴿وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾ أي كما لا يدري أحدٌ أين يموت ، ولا في أي مكانٍ يُقبر ﴿إن الله عليم خبير﴾ أي مبالغ في العلم ، يعلم كل الأمور ، خبير بظواهر الأشياء وبواطنها .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين قوله ﴿ظاهرة . . وباطنة﴾ وكذلك بين لفظ ﴿الحق . . والباطل﴾ .

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٧٠ . (٢) الطبري ٢١/ ٥٥ . (٣) أخرجه البخاري .

٢ ـ الإنكار والتوبيخ مع الحذف ﴿أولـو كان الشيطان يدعوهم﴾ أي أيتبعونهم ولو كان الشيطان الخ .

٣ ـ المجاز المرسل ﴿ومن يسلم وجهه﴾ أطلق الجزء وأراد الكل ففيه مجاز مرسل .

٤ ـ التشبيه التمثيلي ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ شبه من تمسك بالإسلام بمن أراد أن يرقى إلى شاهق جبل فتمسك بأوثق حبل ، وحذف أداة التشبيه للمبالغة .

٥ ـ المقابلة بين ﴿ومن يُسلم وجهه إلى الله وهو محسن﴾ وبين ﴿ومن كفر فلا يحزنك كفره﴾ الآية .

٦ ـ الاستعارة ﴿عذابٍ غليظ﴾ استعار الغلظ للشدة لأنه إنما يكون للاجرام فاستعير للمعنى .

٧ ـ تقديم ما حقه التأخير لإفادة الحصر ﴿وإلى الله عاقبة الأمور﴾ أي إليه لا إلى أحدٍ غيره .

٨ ـ صيغ المبالغة في التالي﴿صبَّار شكور﴾ و﴿ختار كفور﴾ و﴿عليم خبير﴾ و﴿سميع بصير﴾ كما أنَّ فيها توافق الفواصل وهو من المحسنات البديعية ويسمى بالسجع .

« تم تفسير سورة لقمان ولله الحمد والمنة »

* * *



بين يدي السورة

سورة السجدة مكية ، وهي كسائر السور المكية تعالج أصول العقيدة الإسلامية « الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والكتب والرسل ، والبعث والجزاء » والمحور الذي تدور عليه السور الكريمة هو موضوع « البعث بعد الفناء » الذي طالما جادل المشركون حوله ، واتخذوه ذريعةً لتكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام .

* تبتدىء السورة الكريمةُ بدفع الشك والارتياب عن القرآن العظيم ، المعجزة الكبرى لرسول الله ﷺ ، الذي لا تحوم حول ساحته الشبهات والأباطيل ، ومع وضوح إعجازه ، وسطوع آياته ، وإشراقة بيانه ، وسموّ أحكامه ، اتهم المشركون الرسول بأنه افترى هذا القرآن ، واختلقه من تلقاء نفسه ، فجاءت السورة الكريمة تردُّ هذا البهتان ، بروائع الحجة والبرهان .

* ثم تحدثت السورة عن دلائل القدرة والوحدانية ، ببيان آثار قدرة الله في الكائنات العلوية والسفلية ، على طريقة القرآن في لفت الأنظار إلى إبداع الواحد القهار .

* ثم ذكر القرآن شبهة المشركين السخيفة في إنكارهم للبعث والنشور ، وردَّ عليها بالحجج القاطعة ، والأدلة الساطعة ، التي تنتزع الحجة من الخصم الجاحد العنيد ، فلا يلبث أن يقر على نفسه بالهزيمة أمام قوارع القرآن ، وروائع الحجة والبيان .

* وختمت السورة بالحديث عن يوم الحساب ، وما أعدَّ الله فيه للمؤمنين المتقين من النعيم الدائم في جنات الخلد ، وما أعده للمجرمين من العذاب والنكال في دار الجحيم .

التسمية : سميت « سورة السجدة » لما ذكر تعالى فيها من أوصاف المؤمنين الأبرار ، الذين إذا سمعوا آيات القرآن العظيم ﴿خرّوا سجداً وسبَّحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون﴾ .

* * *

قال الله تعالى :﴿آلم * تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين. . . إلى. . .جزاءً بما كانوايعملون﴾
(من آية ١ إلى آية ١٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾

اللغة : ﴿افتراه﴾ اختلق القرآن من تلقاء نفسه ﴿يعرج﴾ يصعد ويرتفع إليه ﴿يدبّر﴾ التدبير : رعايةُ شئون الغير ﴿سُلالة﴾ خلاصة[1] ﴿مهين﴾ ضعيف حقير ﴿سوَّاه﴾ قوَّمه بتصوير أعضائه وتكميلها ﴿ضللنا﴾ ضعنا وهلكنا وأصله من قول العرب : ضلَّ اللبن في الماء إذا ذهب وضاع ﴿ناكسوا﴾ مطرقوا يقال : نكس رأسه إذا أطرقه ﴿الجنَّة﴾ الجن .

التفسير : ﴿الٓم﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن[2] ﴿تنزيل الكتاب لا ريب فيه من ربِّ العالمين﴾ أي هذا الكتاب الموحى به إليك يا محمد هو القرآن الذي لا شك أنه من عند الله عز وجل ، تنزيلٌ من رب العالمين ﴿أم يقولون افتراه﴾ الضمير يعود لكفار قريش و﴿أم﴾ بمعنى بل والهمزة أي بل أيقول المشركون اختلق محمد القرآن وافتراه من تلقاء نفسه ؟ لا ليس الأمر كما يدَّعون ﴿بل هو الحقُّ من ربك﴾ أي بل هو القول الحق ، والكلام الصدق المنزل من ربك قال البيضاوي : أشار أولاً إلى إعجازه ، ثم رتَّب عليه أنه تنزيلٌ من رب العالمين ، وقرر ذلك بنفي الريب عنه ، ثم أضرب عن ذلك إلى ما يقولون فيه على خلاف ذلك ، إنكاراً له وتعجباً منه ، ثم بين المقصود من إنزاله[3] بقوله ﴿لتنذر قوماً ما أتاهم من نذيرٍ من قبلك﴾ أي أنزله إليك لتنذر به قوماً ما جاءهم رسول قبلك يا محمد ، قال المفسرون : هم أهل الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام ، وقد جاء الرسل قبل ذلك كإبراهيم وهود وصالح ، ولكنْ لما طالت الفترة على هؤلاء أرسل الله إليهم محمداً ﷺ لينذرهم عذاب الله ، ويقيم عليهم الحجة بذلك ﴿لعلَّهم يهتدون﴾ أي كي يهتدوا إلى الحق ويؤمنوا بالله العزيز الحميد ، ثم شرع تعالى في ذكر أدلة التوحيد فقال ﴿اللهُ الذي خلق السموات والأرضَ وما بينهما في ستةِ أيام﴾ أي الله جلَّ وعلا هو الذي خلق السموات في ارتفاعها وإحكامها ، والأرض في عجائبها وإبداعها ، وما بينهما من المخلوقات في مقدار ستة أيام قال الحسن : من أيام الدنيا ولو شاء لخلقها بلمح البصر ولكن أراد أن يعلّم عباده التأني في الأمور قال القرطبي : عرَّفهم تعالى كمال قدرته ليسمعوا القرآن ويتأملوه ، ومعنى ﴿خلق﴾ أبدع وأوجد بعد العدم ، وبعد أن لم تكن شيئاً[4] ﴿ثم استوى على العرش﴾ استواءً يليق

---

(١) انظر معنى السلالة بالتوضيح في سورة المؤمنون . (٢) انظر ما كتبناه حول الحروف المقطعة في أول سورة البقرة ففيه غنية وكفاية .
(٣) البيضاوي ٢/ ١١١ . (٤) القرطبي ١٤/ ٨٦ .

يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل[١] ﴿ما لكم من دونه من وليّ ولا شفيع﴾ أي ليس لكم أيها الناسُ من غير الله ناصرٌ يمنعكم من عذابه ، ولا شفيع يشفع لكم عنده إلا بإذنه ، بل هو الذي يتولى مصالحكم ويدبر أموركم ﴿أفلا تتذكرون﴾ ؟ أي أفلا تتدبرون هذا فتؤمنون ؟ ﴿يُدبّر الأمر من السماء إلى الأرض﴾ أي يدبّر أمر الخلائق جميعاً في العالم العلوي والسفلي ، لا يُهمل شأن أحد قال ابن عباس : أي ينزل القضاء والقدر من السماء إلى الأرض ، ويُنزل ما دبره وقضاه ﴿ثم يعرج إليه﴾ أي ثم يصعد إليه ذلك الأمر كله يوم القيامة ليفصل فيه ﴿في يومٍ كان مقداره ألف سنةٍ ممَّا تعدون﴾ أي في يومٍ عظيم - هو يوم القيامة - طوله ألف سنة من أيام الدنيا لشدة أهواله ﴿ذلك عالمُ الغيب والشهادة﴾ أي ذلك المدبر لأمور الخلق هو العالم بكل شيء ، يعلم ما هو غائب عن المخلوقين ، وما هو مشاهد لهم قال القرطبي : وفي الآية معنى التهديد والوعيد ، كأنه يقول : أخلصوا أعمالكم وأقوالكم فإني مجازيكم عليها ، ومعنى « الغيب والشهادة » ما غاب عن الخلق وما حضرهم[٢] ﴿العزيز الرحيم﴾ أي الغالب على أمره ، الرحيم بعباده في تدبيره لشئونهم ﴿الذي أحسنَ كلَّ شيء خلقه﴾ أي أتقن وأحكم كل شيءٍ أوجده وخلقه قال أبو حيان : وهذا أبلغ في الامتنان ومعناه أنه وضع كل شيء في موضعه ، ولهذا قال ابن عباس : ليست القردة بحسنة ، ولكنها متقنةٌ محكمة[٣] قال بعض العلماء : لو تصورتَ مثلاً أن للفيل مثل رأس الجمل ، وأنَّ للأرنب مثل رأس الأسد ، وأنَّ للإنسان مثل رأسِ الحمار ، لوجدت في ذلك نقصاً كبيراً ، وعدم تناسب وانسجام ، ولكنك إذا علمت أن طول عنق الجمل ، وشقَّ شفته ليسهل تناوله الكلأ عليه أثناء السير ، وأن الفيل لولا خرطومه الطويل لما استطاع أن يبرك بجسمه الكبير لتناول طعامه وشرابه ، لو علمتَ كل هذا لتيقنتَ أنه صنع الله الذي أتقن كل شيء ، ولقلت : تبارك الله أحسن الخالقين[٤] . ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين﴾ أي خلق أبا البشر آدم من طين ﴿ثم جعل نسله من سُلالة من ماءٍ مهين﴾ أي جعل ذريته يتناسلون من خلاصة من ماءٍ ضعيف حقير هو المنيُّ ﴿ثم سوَّاه ونفخ فيه من روحه﴾ أي قوَّم أعضاءه ، وعدَّل خلقته في رحم أُمه ، ونفخ بعد ذلك فيه الروح ، فإذا هو في أكمل صورةٍ وأحسن تقويم قال أبو السعود : وأضاف الروح إليه تعالى تشريفاً للإنسان ، وإيذاناً بأنه خلقٌ عجيب ، وصنعٌ بديع ، وأن له شأناً جليلةً مناسبةً إلى حضرة الربوبية[٥] ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ أي

(١) انظر تفصيل معنى الاستواء وأقوال السلف في سورة الأعراف . (٢) القرطبي ١٤/ ٨٩ . (٣) البحر ٧/ ١٩٩ .
(٤) نقلاً عن أوضح التفاسير . (٥) أبو السعود ٤/ ١٩٦ .

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾

وخلق لكم هذه الحواس : السمع لتسمعوا به الأصوات ، والبصر لتبصروا به الأشخاص ، والعقل لتدركوا به الحق والهدى ﴿**قليلاً ما تشكرون**﴾ أي قليلاً شكركم لربكم و﴿**ما**﴾ لتأكيد القلة ﴿**وقالوا أئذا ضللنا في الأرض**﴾ أي وقال كفار مكة المنكرون للبعث والنشور : أئذا هلكنا وصارت عظامنا ولحومنا تراباً مختلطاً بتراب الأرض حتى غابت فيه ولم تتميز عنه ﴿**أئنا لفي خلقٍ جديد**﴾ أي سوف نخلق بعد ذلك خلقاً جديداً ، ونعود إلى الحياة مرةً ثانية ؟ وهو استبعادٌ للبعث مع الاستهزاء ولهذا قال تعالى ﴿**بل هم بلقاء ربهم كافرون**﴾ أي بل هناك ما هو أبلغ وأشنع من الاستهزاء ، وهو كفرهم وجحودهم بلقاء الله في دار الجزاء ﴿**قل يتوفاكم ملكُ الموتِ الذي وُكّل بكم**﴾ أي قل لهم رداً على مزاعمهم الباطلة : يتوفاكم ملك الموت الذي وكّل بقبض أرواحكم هو وأعوانه ﴿**ثم إلى ربكم ترجعون**﴾ أي ثم مرجعكم إلى الله يوم القيامة للحساب والجزاء قال ابن كثير : والظاهر أنَّ ملك الموت شخص معين ، وقد سُمي في بعض الآثار بـ « عزرائيل » وهو المشهور ، وله أعوان ـ كما ورد في الحديث ـ ينتزعون الأرواح من سائر الجسد ، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت[1] وقال مجاهد :جُمِعت له الأرض فجعلت مثل الطست يتناول منها حيث يشاء[2] ، ثم أخبر تعالى بحال المجرمين يوم القيامة وما هم فيه من الذل والهوان فقال ﴿**ولو ترى إذِ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم**﴾ أي ولو ترى أيها المخاطب حال المجرمين يوم القيامة وهم مطرقو رءوسهم أمام ربهم من الخجل والحياء لرأيت العجب العجاب قال أبو السعود : وجواب ﴿**لو**﴾ محذوفٌ تقديره لرأيت أمراً فظيعاً لا يُقادر قدره من هوله وفظاعته[3] ﴿**ربَّنا أبصرنا وسمعنا**﴾ أي يقولون ربنا أبصرنا حقيقة الأمر وسمعنا ما كنا ننكر من أمر الرسل ، وكنا عُمياً وصُماً ﴿**فارجعنا نعمل صالحاً**﴾ أي فردنا إلى دار الدنيا لنعمل صالحاً ﴿**إنّا موقنون**﴾ أي فنحن الآن مصدّقون تصديقاً جازماً ، وموقنون أن وعدك حق ، ولقاءك حق قال الطبري : أي أيقنا الآن بوحدانيتك ، وأنه لا يصلح أن يُعبد سواك ، ولا ينبغي أن يكون رب سواك ، وأنك تحيي وتميت وتفعل ما تشاء[4] ، قال تعالى رداً عليهم ﴿**ولو شئنا لآتينا كلَّ نفسٍ هُداها**﴾ أي لو أردنا هداية جميع الخلق لفعلنا ولكنَّ ذلك ينافي حكمتنا ، لأنا نريد منهم الإيمان بطريق الاختيار ، لا بطريق الإكراه والإجبار ﴿**ولكن حقَّ القول مني**﴾ أي ولكن ثبت ووجب قولي بعذاب المجرمين ، وتقرر وعيدي ﴿**لأملأنَّ جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين**﴾ أي لاملأنَّ جهنم بالعصاة من الجِنّ والإنس جميعاً ﴿**فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم**

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٧٣ . (٢) الطبري ٢١/ ٦٢ . (٣) أبو السعود ٤/ ١٩٧ . (٤) الطبري ٢١/ ٦٢ .

﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾

هـذا﴾ أي يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ : ذوقوا ـ بسبب نسيانكم الدار الآخرة وانهماككم في الشهوات ـ هذا العذاب المخزي الأليم ﴿إنـا نسيناكـم﴾ أي نترككم اليوم في العذاب كما تركتم العمل بآياتنـا ﴿وذوقوا عـذاب الخُلد بما كنتـم تعملـون﴾ أي وذوقوا العذاب الدائم الخالد في جهنم بسبب كفركم وتكذيبكم ، ثم لما ذكر حال الأشقياء وعاقبتهم الوخيمة ، أتبعه بذكر حال السعداء وما أعدَّه لهم من النعيم المقيم في دار الجزاء ، ليظل العبد بين الرهبة والرغبة فقال ﴿إنما يؤمـن بآياتنـا الذين إذا ذكـروا بها خَـرُّوا سجـداً﴾ أي إنما يصدّق بآياتنا المؤمنون المتقون الذين إذا وعظوا بآياتنا سقطوا على وجوههم ساجدين لله تعظيماً لآياته ﴿وسبحـوا بحمد ربهـم وهـم لا يستكبـرون﴾ أي وسبحوا ربهم على نعمائه وهم لا يستكبرون عن طاعته وعبادته ﴿تتجافـى جنوبهُـم عن المضاجع﴾ أي تتنحى وتتباعد أطرافهم عن الفرش ومواضع النوم ، والغرض أن نومهم بالليل قليل لانقطاعهم للعبادة كقوله ﴿كانـوا قليلاً من الليل ما يهجعـون﴾ وبالأسحار هـم يستغفـرون﴾ قال مجاهد : يعني بذلك قيام الليل ﴿يدعـون ربهـم خوفـاً وطمعـاً﴾ أي يدعون ربهم خوفاً من عذابه وطمعاً في رحمته وثوابه ﴿وممَّـا رزقناهم ينفقـون﴾ أي ومما أعطيناهـم من الرزق ينفقون في وجوه البر والحسنات ﴿فـلا تعلم نفـسٌ ما أُخفـيَ لهـم من قُـرَّة أعيـن﴾ أي فلا يعلم أحد من الخلق مقدار ما يعطيهم الله من النعيم ، مما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿جـزاءً بمـا كانوا يعملـون﴾ أي ثواباً لما قدموه في الدنيا من صالح الأعمال .

* * *

قال الله تعالى :﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون. . .إلى . . . وانتظر إنهم منتظرون﴾ من آية (١٨) إلى آية (٣٠) نهاية السورة .

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى حال المجرمين في الآخرة ، وحال المؤمنين المتقين ، وما أعدَّه لهـم من الكرامة في دار النعيم ، ذكر هنا أنه لا يتساوى الفريقان : فريق الأبرار ، وفريق الفجار لأن عدالة الله تقتضي التمييز بين المؤمن الصالح ، والفاسق الفاجر .

اللغـَـة : ﴿فاسقاً﴾ الفاسقُ : الخارج عن طاعة الله ﴿نُزلاً﴾ ضيافةً وعطاءً ، والنُّزل ما يهيأ للنازل والضيف قال الشاعر :

وكنـا إذا الجبـار بالجيش ضافنا جعلنـا القنـا والمرهفـات له نزلاً

﴿الجرز﴾ اليابسة الجرداء التي لا نبات فيها ، والجرزُ : القطع قال الزمخشري : الجرُز : الأرضُ التي جرز

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ۝١٨ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٩ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝٢٠ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾

نباتها أي قطع ، إمّا لعدم الماء أو لأنه رُعي وأزيل ، ولا يقال للتي لا تنبتُ كالسباخ جُرز[1] ﴿الفتح﴾ الحكم ويقال للحاكم : فاتح وفتاح لأنه يفصل بين الناس بحكمه ﴿يُنظرون﴾ يمهلون ويؤخرون .

سَبَبُ النّزول : روي أنه كان بين « علي بن أبي طالب » و« عُقبة بن أبي مُعيط » تنازع وخصومة ، فقال الوليد بن عُقبة لعلي : أُسكت فإنك صبيٌ ، وأنا والله أبسط منك لساناً ، وأشجع منك جناناً ، وأملأ منك حشواً في الكتيبة ، فقال له علي : اسكتْ فإنك فاسق فنزلت ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون﴾[2] .

التّفسِير : ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً﴾ ؟ أي أفمن كان في الحياة الدنيا مؤمناً متقياً لله ، كمن كان فاسقاً خارجاً عن طاعة الله ؟ ﴿لا يستوون﴾ أي لا يستوون في الآخرة بالثواب والكرامة ، كما لم يستووا في الدنيا بالطاعة والعبادة ، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾ ؟ قال ابن كثير : يخبر تعالى عن عدله وكرمه ، أنه لا يساوي في حكمه يوم القيامة ، من كان مؤمناً بآياته متبعاً لرسله ، بمن كان فاسقاً أي خارجاً عن طاعة ربه ، مكذباً رسل الله[3] ، ثم فصَّل تعالى جزاء الفريقين فقال ﴿أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي أما المتقون الذين جمعوا بين الإِيمان والعمل الصالح ﴿فلهم جناتُ المأوى﴾ أي لهم الجنات التي فيها المساكن والدور والغرف العالية يأوون إليها ويستمتعون بها قال البيضاوي : فالجنة هي المأوى الحقيقي ، والدنيا منزل مرتحلٌ عنه لا محالة[4] ﴿نُزُلاً بما كانوا يعملون﴾ أي ضيافةً مهيأةً ومعدةً لإِكرامهم كما تهيأ التُحف للضيف وذلك بسبب ما قدموه من صالح الأعمال ﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار﴾ أي وأمّا الذين خرجوا عن طاعة الله فملجؤهم ومنزلهم نار جهنم ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أُعيدوا فيها﴾ أي إذا دفعهم لهب النار إلى أعلاها ردُّوا إلى موضعهم فيها قال الفُضيل بن عياض : والله إن الأيدي لموثقة ، وإنَّ الأرجل لمقيَّدة ، وإنَّ اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم[5] ﴿وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾ أي وتقول لهم خزنة جهنم تقريعاً وتوبيخاً : ذوقوا عذاب النار المخزي الذي كنتم تكذبون به في الدنيا وتهزءون منه ، ثم توعدهم بعذاب عاجلٍ في الدنيا فقال ﴿ولنذيقنَّهم من العذاب الأدنى﴾ أي ولنذيقنّهم من العذاب الأقرب وهو عذاب الدنيا من القتل والأسر والبلايا والمحن قال الحسن : العذاب الأدنى : مصائب الدنيا وأسقامها مما يُبتلى به العبيد حتى يتوبوا وقال أبو مجاهد : القتل والجوع[6] ﴿دون العذاب الأكبر﴾

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٠٨ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٢٦٥ وانظر القرطبي ١٤/ ١٠٥ وزاد المسير ٦/ ٣٤٠ .

(٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٧٦ . (٤) البيضاوي ٢/ ١١٢ . (٥) المختصر ٣/ ٧٦ .

(٦) قال المفسرون : أصاب أهل مكة القحط والجدب سبع سنين حتى أكلوا فيها الجيف والعظام والكلاب .

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾

أي قبل العذاب الأكبر الذي ينتظرهم وهو عذاب الآخرة ﴿**لعلهم يرجعون**﴾ أي لعلهم يتوبون عن الكفر والمعاصي ، ثم بعد أن توعدهم وهددهم بيَّن استحقاقهم للعذاب فقال ﴿**ومن أظلمُ ممَّن ذكِّر بآيات ربِّه ثُم أعرض عنها**﴾ أي لا أحد أظلم لنفسه ممَّن وعظ وذكر بآيات الرحمن ، ثم ترك الإِيمان وتناساها ؟ ﴿**إنَّا من المجرمين منتقمون**﴾ أي سأنتقم ممن كذَّب بآياتي أشدَّ الانتقام ، ووضع الاسم الظاهر مكان الضمير لتسجيل الإِجرام عليهم ﴿**ولقد آتينا موسى الكتاب**﴾ أي أعطينا موسى التوراة ﴿**فلا تكنْ في مريةٍ من لقائه**﴾ أي فلا تكن يا محمد في شكٍ من تلقي القرآن[1] كما تلقَّى موسى التوراة ، والمقصود تقرير رسالته عليه السلام ، وتحقيق أن ما معه من الكتاب وحيٌ سماويٌ وكتابٌ إلهي ﴿**وجعلناه هدى لبني إسرائيل**﴾ أي جعلنا التوراة هدايةً لبني إسرائيل من الضلالة ﴿**وجعلنا منهم أئمة**﴾ أي جعلنا منهم قادةً وقدوة يقتدى بهم في الخير ﴿**يهدون بأمرنا**﴾ أي يدعون الخلق إلى طاعتنا ويرشدونهم إلى الدين بأمرنا وتكليفنا ﴿**لَمَّا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون**﴾ أي حين صبروا على تحمل المشاقّ في سبيل الله ، وكانوا يصدقون بآياتنا أشد التصديق وأبلغه قال **ابن الجوزي** : وفي هذا تنبيه لقريش أنكم إن أطعتم وآمنتم جعلت منكم أئمة[2] ﴿**إنَّ ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون**﴾ أي إن ربك يا محمد يقضي ويحكم بين المؤمنين والكفار ، فيميز بين المحقِّ والمبطل يوم القيامة ، ويجازي كلاً بما يستحق ، فيما اختلفوا فيه من أمور الدين قال **الطبري** : فيما كانوا فيه يختلفون من أمور الدين ، والبعث ، والثواب والعقاب[3] ، ثم نبه تعالى على آثار قدرته في مخلوقاته ، وأقام الحجة على الكفار بالأمم السالفة الذين كفروا فأُهلكوا فقال ﴿**أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون**﴾ أي أغفل هؤلاء المشركون ولم يتبيَّن لهم كثرة من أهلكناهم من الأمم الماضية الذين كذبوا رسل الله ؟ ﴿**يمشون في مساكنهم**﴾ أي حال كون أهل مكة يسيرون في دورهم ، ويشاهدون في أسفارهم منازل هؤلاء المهلكين أفلا يعتبرون ؟ قال **ابن كثير** : أي وهؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك الظالمين ، فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها[4] ﴿**إنَّ في ذلك لآياتٍ أفلا يسمعون**﴾ أي إن في إهلاكهم لدلالات عظيمة على قدرتنا ،

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أن الضمير يعود إلى موسى أي فلا تكن في شك من لقاء موسى ، وما ذكرناه أرجح وهو اختيار البيضاوي وأبو السعود . (٢) زاد المسير ٦/ ٣٤٤ . (٣) الطبري ٢١/ ٧١ . (٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٧٧ .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

أفلا يسمعون سماع تدبر واتعاظ ؟ ثم ذكر تعالى دلائل الوحدانية فقال ﴿أولم يروا أنَّا نسوقُ الماء إلى الأرض الجُرُز﴾ أي أولم يشاهدوا كمال قدرتنا في سوقنا الماء إلى الأرض اليابسة التي لا نبات فيها من شدة العطش لنحييها ؟ ﴿فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم﴾ أي فنخرج بذلك الماء أنواع الزروع والثمار ، تأكل منه دوابهم من الكلأ والحشيش ، وأنفسهم من الحب والخضر والفواكه والبقول ﴿أفلا يبصرون﴾ أي أفلا يبصرون ذلك فيستدلون به على كمال قدرته تعالى وفضله ، ويعلمون أن الذي أحيا الأرض الميتة قادر على إعادتهم بعد وفاتهم ؟ ﴿ويقولون متى هذا الفتحُ إن كنتم صادقين﴾ أي ويقول كفار مكة للمسلمين على سبيل السخرية والتهكم : متى ستنصرون علينا ويكون لكم الغلبة والفتح علينا ؟ إن كنتم صادقين في دعواكم قال الصاوي : كان المسلمون يقولون إن الله سيفتح لنا على المشركين ، ويفصل بيننا وبينهم ، وكان أهل مكة إذا سمعوهم يقولون بطريق الاستعجال تكذيباً واستهزاءً : متى هذا الفتح فنزلت[1] ﴿قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانُهم﴾ أي قل لهم يا محمد توبيخاً وتبكيتاً : إن يوم القيامة هو يوم الفتح الحقيقي الذي يفصل تعالى فيه بيننا وبينكم ، ولا ينفع فيه الإيمان ولا الاعتذار فلماذا تستعجلون ؟ ﴿ولا هم يُنظرون﴾ أي ولا هم يؤخرون ويمهلون للتوبة قال البيضاوي : ويوم الفتح هو يوم القيامة فإنه يوم نصر المؤمنين على الكافرين والفصل بينهم ، وقيل هو يوم بدر[2] ﴿فأعرضْ عنهم﴾ أي فأعرضْ يا محمد عن هؤلاء الكفار ولا تبالِ بهم ﴿وانتظرْ إنهم منتظرون﴾ أي وانتظر ما يحل بهم من عذاب الله ، إنهم منتظرون كذلك ما يحل بكم قال القرطبي : أي ينتظرون بكم حوادث الزمان[3] .

* * *

البَلاَغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ جناس الاشتقاق مثل ﴿تُنذر .. ونذير﴾ وكذلك مثل ﴿انتظر .. إنهم منتظرون﴾ .

٢ ـ الطباق بين ﴿الغيب .. والشهادة﴾ وبين ﴿خوفاً .. وطمعاً﴾ .

٣ ـ الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿وجعل لكم﴾ والأصل « وجعل له » والنكتة أن الخطاب إنما يكون مع الحيّ فلما نفخ تعالى الروح فيه حسن خطابه مع ذريته .

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٢٢٦ . (٢) البيضاوي ٢/ ١١٣ . (٣) القرطبي ١٤/ ١١٢ .

٤ ـ الاستفهام الإنكاري وغرضه الاستهزاء ﴿أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلقٍ جديد﴾ ؟

٥ ـ الإضمار ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا﴾ أي يقولون ربنا أبصرنا وسمعنا .

٦ ـ الاختصاص ﴿ثـم إلى ربكم ترجعون﴾ أي إليه لا إلى غيره مرجعكم يوم القيامة .

٧ ـ حذف جواب لو للتهويل ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم﴾ أي لرأيت أمراً مهولاً .

٨ ـ المشاكلة وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى ﴿نسيتم لقاء يومكم . . إنا نسيناكم﴾ فإن الله تعالى لا ينسى وإنما المراد نترككم في العذاب ترك الشيء المنسي .

٩ ـ المقابلة اللطيفة بين جزاء الأبرار وجزاء الفجار ﴿أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى . .﴾ ﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار﴾ وهو من المحسنات البديعية .

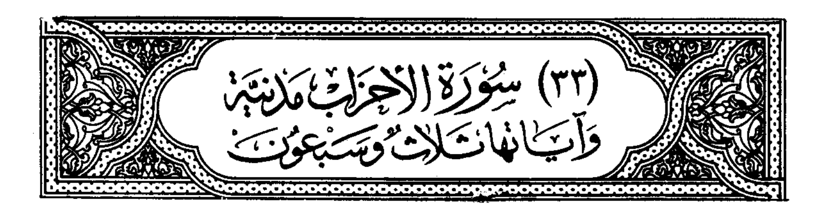
١٠ ـ الكناية عن كثرة العبادة والتبتل ليلاً ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ .

١١ ـ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ﴿أولم يهد لهـم﴾ ؟ ﴿أولـم يروا أنـا نسـوق الماء﴾ ؟ ﴿أفـلا يسمعون﴾ ؟ ﴿أفلا يبصرون﴾ وكلها بقصد الزجر والتوبيخ .

١٢ ـ السجع مراعاةً للفواصل ورءوس الآيات مثل ﴿إنا موقنون* وهـم لا يستكبـرون* لعلهـم يرجعون* أفلا يسمعون﴾ وهذا من المحسنات البديعية وهو كثير في القرآن الكريم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة السجدة »

* * *



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة الأحزاب من السور المدنية ، التي تتناول الجانب التشريعي لحياة الأمة الإسلامية ، شأن سائر السور المدنية ، وقد تناولت حياة المسلمين الخاصة والعامة ، وبالأخص أمر الأسرة فشرعت الأحكام بما يكفل للمجتمع السعادة والهناء ، وأبطلت بعض التقاليد والعادات الموروثة مثل « التبني ، والظهار ، واعتقاد وجود قلبين لإنسان » وطهرت من رواسب المجتمع الجاهلي ، ومن تلك الخرافات والأساطير الموهومة التي كانت متفشية في ذلك الزمان .

* ويمكن أن نلخص المواضيع الكبرى لهذه السورة الكريمة في نقاط ثلاث :

أولاً : التوجيهات والآداب الإسلامية .

ثانياً : الأحكام والتشريعات الإلهية .

ثالثاً . الحديث عن غزوتي « الأحزاب ، وبني قريظة » .

* **أما الأولى** : فقد جاء الحديث عن بعض الآداب الاجتماعية كآداب الوليمة ، وآداب الستر والحجاب وعدم التبرج ، وآداب معاملة الرسول ﷺ واحترامه إلى آخر ما هنالك من آداب اجتماعية .

* **وأما الثانية** : فقد جاء الحديث عنها في بعض الأحكام التشريعية مثل حكم الظهار والتبني ، والإرث ، وزواج مطلقة الابن من التبني ، وتعدد زوجات الرسول الطاهرات والحكمة منه ، وحكم الصلاة على الرسول ﷺ وحكم الحجاب الشرعي ، والأحكام المتعلقة بأمور الدعوة إلى الوليمة إلى غير ما هنالك من أحكام تشريعية .

* **وأما الثالثة** : فقد تحدثت السورة بالتفصيل عن غزوة الخندق التي تسمى « غزوة الأحزاب » وصوَّرتها تصويراً دقيقاً بتألب قوى البغي والشر على المؤمنين ، وكشفت عن خفايا المنافقين ، وحذرت من طرقهم في الكيد والتخذيل والتثبيط ، وأطالت الحديث عنهم في بدء السورة وفي ختمها ، حتى لم تُبق لهم

ستراً ، ولم تخف لهم مكراً ، وذكرت المؤمنين بنعمة الله العظمى عليهم في ردّ كيد أعدائهم بإرسال الملائكة والريح ، كما تحدثت عن غزوة بني قريظة ونقض اليهود عهدهم مع الرسولﷺ .

التسمية : سميت سورة الأحزاب لأن المشركين تحزبوا على المسلمين من كل جهة ، فاجتمع كفار مكة مع غطفان وبني قريظة وأوباش العرب على حرب المسلمين ، ولكن الله ردَّهم مدحورين وكفى المؤمنين القتال بتلك المعجزة الباهرة .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين . . إلى . . ما قاتلوا إلا قليلاً﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٠) .

اللغة : ﴿أدعياءكم﴾ جمع دعيٍّ وهو الولد المتبنَّى من أبناء الغير قال في اللسان : والدَّعيُّ : المنسوب إلى غير أبيه قال الشاعر :

دعيُّ القوم ينصرُ مدَّعيهِ ليُلْحقه بذي النَّسب الصَّميم
أبي الإسلامُ لا أبَ لي سِواه إذا افتخروا بقيسٍ أو تميم

﴿أقسطُ﴾ أعدلُ يقال : أقسطَ الرجلُ إذا عدل ، وقسطَ إذا ظلم ، والقسطُ : العدلُ ﴿مسطوراً﴾ أي مسطَّراً مكتوباً لا يُمحى﴿ميثاقهم﴾ الميثاقُ : العهد المؤكد بيمين أو نحوه ﴿الحناجر﴾ جمع حَنْجرة وهي نهاية الحلقوم مدخل الطعام والشراب ﴿يثرب﴾ اسم المدينة المنورة وسمَّاها رسول اللهﷺ طيبة ﴿عورة﴾ خالية من الرجال غير محصَّنة يقال : دارٌ مُعْوِرة إذا كان يسهل دخولُها قال الجوهري : العَوْرة كلُّ خلل يُتخوف منه في ثَغر أو حرب[١] ﴿أقطارها﴾ جمع قُطْر وهو الناحية والجانب ﴿يعصمكم﴾ يمنعكم ﴿المعوِّقين﴾ المثبطين مشتق من عاقه إذا صرفه .

سَبَبُ النّزول : أ ـ روي أن رجلاً من قريش يُدعى (جميل بن مَعْمر) كان لبيباً حافظاً لما يسمع فقالت قريش : ما حفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان في جوفه فأنزل الله ﴿ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه . .﴾[٢] الآية .

ب ـ وروي أن النبيﷺ لما أراد غزوة تبوك أمر الناس بالتجهز والخروج لها ، فقال أناس : نستأذن آباءنا وأمهاتنا فأنزل الله ﴿النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم . .﴾[٣] الآية .

(١) الصحاح مادة عور . (٢) زاد المسير ٦/ ٣٤٩ . (٣) الألوسي ٢١/ ١٥١ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟

التفسير : ﴿يا أيها النبيُّ اتقِ اللهَ﴾ النداء على سبيل التشريف والتكرمة لأن لفظ النبوة مشعر بالتعظيم والتكريم أي اثبتْ على تقوى الله ودُمْ عليها **قال أبو السعود** : في ندائه ﷺ بعنوان النبوة تنويهٌ بشأنه ، وتنبيهٌ على سمو مكانه ، والمراد بالتقوى المأمور به الثباتُ عليه والازديادُ منه ، فإنَّ له باباً واسعاً ومكاناً عريضاً لا يُنال مداه[1] ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ أي ولا تطع أهل الكفر والنفاق فيما يدعونك إليه من اللين والتساهل ، وعدم التعرض لآلهتهم بسوء ، ولا تقبل أقوالهم وإن أظهروا أنها نصيحة **قال المفسرون** : دعا المشركون رسول الله ﷺ أن يرفض ذكر آلهتهم بسوء ، وأن يقول إن لها شفاعة فكره ﷺ ذلك ونزلت الآية[2] ﴿إنَّ اللهَ كان عليماً حكيماً﴾ أي إنه تعالى عالم بأعمال العباد وما يضمرونه في نفوسهم ، حكيم في تدبير شئونهم ﴿واتَّبعْ ما يُوحى إليك من ربك﴾ أي واعمل بما يوحيه إليك ربك من الشرع القويم ، والدين الحكيم ، واستمسك بالقرآن المنزل عليك ﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ أي خبيرٌ بأعمالكم لا تخفى عليه خافية من شئونكم ، وهو مجازيكم عليها ﴿وتوكَّلْ على اللهِ﴾ أي اعتمد عليه ، والجأ في جميع أمورك إليه ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ أي وحسبك أن يكون الله حافظاً وناصراً لك ولأصحابك ، ثم ردَّ تعالى مزاعم الجاهليين ببيان الحق الساطع فقال ﴿ما جعل اللهُ لرجلٍ من قلبين في جوفه﴾ أي ما خلق الله لأحدٍ من الناس أياً كان قلبين في صدره ، **قال مجاهد** : نزلت في رجلٍ من قريش كان يُدعى « ذا القلبين » من دهائه ، وكان يقول : إنَّ في جوفي قلبين أعقل بكلٍ واحدٍ منهما أفضل من عقل محمد[3] ﴿وما جعل أزواجكمُ اللَّائي تُظاهرون مِنهنَّ أمهاتكم﴾ أي وما جعل زوجاتكم اللواتي تظاهرون منهنَّ أمهاتكم **قال ابن الجوزي** : أعلمَ تعالى أن الزوجة لا تكونُ أُماً ، وكانت الجاهلية تُطلّق بهذا الكلام وهو أن يقول لها : أنتِ عليَّ كظهر أمي[4] ﴿وما جعلَ أدعياءكم أبناءكم﴾ أي وما جعل الأبناء من التبني الذين ليسوا من أصلابكم أبناءً لكم حقيقةً ﴿ذلكم قولُكم بأفواهكم﴾ أي دعاؤهم أبناء مجرد قول بالفم لا حقيقة له من الواقع ﴿والله يقول الحقَّ﴾ أي والله تعالى يقول الحقَّ الموافق للواقع ،

(١) أبو السعود ٤/ ٢٠١ . (٢) انظر القرطبي ١٤/ ١١٥ وزاد المسير ٦/ ٣٤٧ . (٣) القرطبي ١٤/ ١١٦ . (٤) زاد المسير ٦/ ٣٥٠ .

﴿ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ۝٥ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي﴾

والمطابق له من كل الوجوه ﴿وهو يهدي السبيل﴾ أي يرشد إلى الصراط المستقيم ، والغرضُ من الآية التنبيهُ على بطلان مزاعم الجاهلية ، فكما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه ، فكذلك لا يمكن أن تصبح الزوجة المظاهر منها أماً ، ولا الولد المتبنَّى ابناً ، لأن الأم الحقيقية هي التي ولدته ، والابن الحقيقي هو الذي وُلِد من صلب الرجل ، فكيف يجعلون الزوجات المظاهر منهن أمهات ؟ وكيف يجعلون أبناء الآخرين أبناءً لهم مع أنهم ليسوا من أصلابهم ؟ ثم أمر تعالى بردّ نسب هؤلاء إلى آبائهم فقال ﴿**أُدعوهم لآبائهم هو أقسطُ عند الله**﴾ أي انسبوا هؤلاء الذين جعلتموهم لكم أبناء لآبائهم الأصلاء ﴿**هو أقسطُ عند الله**﴾ أي هو أعدلُ وأقسط في حكم الله وشرعه[1] **قال ابن جرير** : أي دعاؤكم إياهم لآبائهم هو أعدل عند الله وأصدقُ وأصوب من دعائكم إياهم لغير آبائهم[2] ﴿**فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين**﴾ أي فإن لم تعرفوا آباءهم الأصلاء فتنسبوهم إليهم فهم إخوانكم في الإسلام ﴿**ومواليكم**﴾ أي أولياؤكم في الدين ، فليقل أحدكم : يا أخي ويا مولاي يقصد أخوَّة الدين وولايته **قال ابن كثير** : أمر تعالى بردّ أنساب الأدعياء إلى آبائهم إن عُرِفوا ، فإن لم يُعرفوا فهم إخوانهم في الدين ومواليهم ، عوضاً عما فاتهم من النسب ، ولهذا قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : « أنت أخونا ومولانا »[3] وقال ابن عمر : ما كنا ندعو « زيد بن حارثة » إلا زيد بن محمد حتى نزلت ﴿أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾[4] ﴿**وليس عليكم جناحٌ فيما أخطأتم به**﴾ أي وليس عليكم أيها المؤمنون ذنبٌ أو إثم فيمن نسبتموهم إلى غير آبائهم خطأً ﴿**ولكنْ ما تعمَّدتْ قلوبُكم**﴾ أي ولكنَّ الإثم فيما تقصدتم وتعمدتم نسبته إلى غير أبيه ﴿**وكان الله غفوراً رحيماً**﴾ أي واسع المغفرة عظيم الرحمة ، يعفو عن المخطىء ويرحم المؤمن التائب ، ثم بيَّن تعالى شفقة الرسول ﷺ على أمته ونصحه لهم فقال ﴿**النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم**﴾ أي هو عليه السلام أرأف بهم وأعطف عليهم ، وأحقُّ بهم من أنفسهم في كل شيء من أمور الدين والدنيا ، وحكمه أنفذ وطاعته أوجب ﴿**وأزواجُه أُمهاتُهم**﴾ أي وزوجاتُه الطاهرات أمهات للمؤمنين في وجوب تعظيمهن واحترامهن ، وتحريم نكاحهنَّ **قال أبو السعود** : أي منزّلات منزلة الأمهات ، في التحريم واستحقاق التعظيم ، وأما فيما عدا ذلك فهنَّ كالأجنبيات[5] ﴿**وأولوا الأرحام**﴾ أي أهل القرابات ﴿**بعضُهم أولى ببعضٍ في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين**﴾ أي أحقُّ بالإرث من المهاجرين والأنصار في شرع الله ودينه

---

(١) نقلاً عن كتابنا تفسير آيات الأحكام ٢/ ٢٥٤ . (٢) الطبري ٢١/ ٧٦ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٧٩ ابن كثير ٣/ ٨١ . (٤) أخرجه البخاري . (٥) أبو السعود ٤/ ٢٠٣ .

ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ

﴿**إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً**﴾ أي إلاّ أن تحسنوا إلى إخوانكم المؤمنين والمهاجرين في حياتكم ، أو توصوا إليهم عند الموت فإن ذلك جائز ، وبسط اليد بالمعروف مما حثَّ الله عباده عليه **قال المفسرون** : وهذا نسخٌ لما كان في صدر الإسلام من توارث المسلمين من بعضهم بالأخوة الإيمانية وبالهجرة ونحوها[1] ﴿**كان ذلك في الكتاب مسطوراً**﴾ أي كان حكم التوارث بين ذوي الأرحام مكتوباً مسطراً في الكتاب العزيز لا يبدل ولا يُغير **قال قتادة** : أي مكتوباً عند الله عز وجل ألا يرث كافر مسلماً[2] ﴿**وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم**﴾ أي اذكر وقت أخذنا من النبيين عهدهم المؤكد باليمين ، أن يفوا بما التزموا ، وأن يصدِّق بعضهم بعضاً ، وأن يؤمنوا برسالة محمد ﷺ ورسالاتهم ﴿**ومنكَ ومن نوحٍ وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم**﴾ أي وأخذنا منك يا محمد الميثاق ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، وهؤلاء هم أولو العزم ومشاهير الرسل ، وإنما قدَّمه ﷺ في الذكر لبيان مزيد شرفه وتعظيمه **قال البيضاوي** : خصَّهم بالذكر لأنهم مشاهير أرباب الشرائع ، وقدَّم نبينا عليه الصلاة والسلام تعظيماً له وتكريماً لشأنه[3] **وقال ابن كثير** : بدأ بالخاتم لشرفه صلوات الله عليه ، وبياناً لعظم مكانته ، ثم رتبهم بحسب وجودهم في الزمان[4] ﴿**وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً**﴾ أي وأخذنا من الأنبياء عهداً وثيقاً عظيماً على الوفاء بما التزموا به من تبليغ الرسالة ﴿**ليسأل الصادقين عن صدقهم**﴾ أي ليسأل الله يوم القيامة الأنبياء الصادقين عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم **قال الصاوي** : والحكمة في سؤال الرسل مع علمه تعالى بصدقهم هو التقبيح على الكفار يوم القيامة وتبكيتهم[5] **وقال القرطبي** : وفي الآية تنبيه على أن الأنبياء إذا كانوا يُسألون يوم القيامة فكيف بمن سواهم ؟ وفائدة سؤالهم توبيخ الكفار كما قال تعالى لعيسى ﴿**أأنت قلت للناسِ اتخذوني وأمي إلهين**﴾[6] ؟ ﴿**وأعدَّ للكافرين عذاباً أليماً**﴾ أي وأعد الله للكافرين عذاباً مؤلماً موجعاً ، بسبب كفرهم وإعراضهم عن قبول الحق ، ثم شرع تعالى في ذكر « غزوة الأحزاب » وما فيها من نِعَمٍ فائضة ، وآيات باهرة للمؤمنين فقال ﴿**يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمةَ الله عليكم**﴾ أي اذكروا فضله وإنعامه عليكم ﴿**إذ جاءتكم جنودٌ**﴾ أي وقت مجيء جنود الأحزاب وتألبهم عليكم **قال أبو السعود** : والمراد بالجنود الأحزاب وهم قريش ، وغطفان ، ويهود قريظة وبني النضير ، وكانوا زهاء اثني عشر ألفاً ، فلما سمع رسول الله ﷺ بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة بإشارة «سلمان الفارسي » ثم خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين ، فضرب معسكره والخندقُ بينه وبين المشركين ، واشتد الخوف وظنَّ المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق في المنافقين

---

(١) انظر زاد المسير لابن الجوزي ٦/ ٣٥٤ . (٢) القرطبي ١٤/ ١٢٦ . (٣) البيضاوي ١/ ١١٤ . (٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٨٣ .
(٥) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٢٦٩ . (٦) القرطبي ١٤/ ١٢٨ .

﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾

حتى قال « معتب بن قشير » يعدنا محمد كنوز كسرى وقيصر ولا نقدر أن نذهب إلى الغائط[١] ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها﴾ أي فأرسلنا على الأحزاب ريحاً شديدة وجنوداً من الملائكة لم تروهم وكانوا قرابة ألف قال المفسرون : بعث الله عليهم ريحاً عاصفاً وهي ريح الصبا في ليلة شديدة البرد والظلمة ، فقلعت بيوتهم ، وكفأت قدورهم ، وصارت تلقي الرجل على الأرض ، وأرسل الله الملائكة فزلزلتهم ـ ولم تقاتل ـ بل ألقت في قلوبهم الرعب[٢] ﴿وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ أي وهو تعالى مطلع على ما تعملون من حفر الخندق ، والثبات على معاونة النبي ﷺ في ذلك الوقت ﴿إذ جاءوكم من فوقكم﴾ أي حين جاءتكم الأحزاب من فوق الوادي يعني من أعلاه قبل المشرق ، ومنه جاءت أسد وغطفان ﴿ومن أسفلَ منكم﴾ أي ومن أسفل الوادي يعني أدناه قِبل المغرب ، ومنه جاءت قريش وكنانة وأوباش العرب ، والغرضُ أن المشركين جاءوهم من جهة المشرق والمغرب ، وأحاطوا بالمسلمين إحاطة السوار بالمعصم ، وأعانهم يهود بني قريظة فنقضوا العهد مع الرسول وانضموا إلى المشركين ، فاشتد الخوف ، وعظُم البلاء ولهذا قال تعالى ﴿وإذْ زَاغَتْ الأبصار﴾ أي وحين مالت الأبصار عن سننها ومستوى نظرها حيرةً وشخوصاً لشدة الهول والرعب[٣] ﴿وبلغت القلوبُ الحناجر﴾ أي زالت عن أماكنها من الصدور حتى كادت تبلغ الحناجر ، وهذا تمثيلٌ لشدة الرعب والفزع الذي دهاهم ، حتى كأن أحدهم قد وصل قلبه إلى حنجرته من شدة ما يلاقي من الهول[٤] ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ أي وكنتم في تلك الحالة الشديدة تظنون الظنون المختلفة قال الحسن البصري : ظن المنافقون أن المسلمين يُستأصلون ، وظنَّ المؤمنون أنهم يُنصرون[٥] ، فالمؤمنون ظنوا خيراً ، والمنافقون ظنوا شراً وقال ابن عطية : كاد المؤمنون يضطربون ويقولون : ما هذا الخُلف للوعد ؟ وهذه عبارة عن خواطر خطرت للمؤمنين لا يمكن للبشر دفعها ، وأما المنافقون فتعجلوا ونطقوا وقالوا : ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً[٦] ﴿هنالك ابتلي المؤمنون﴾ أي في ذلك الزمان والمكان امتحن المؤمنون واختبروا ، ليتميز المخلص الصادق من المنافق قال القرطبي : وكان هذا الابتلاءُ بالخوف والقتال ، والجوع والحصر والنزال[٧] ﴿وزُلْزِلوا زِلْزالاً شديداً﴾ أي وحركوا تحريكاً عنيفاً من شدة ما دهاهم ، حتى لكأن الأرض تتزلزل بهم وتضطرب تحت أقدامهم قال ابن جزي : وأصل الزلزلة شدةُ التحريك وهو هنا عبارة عن اضطراب القلوب وتزعزعها[٨] ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾ أي واذكر حين يقول المنافقون ، والذين في قلوبهم مرض النفاق ،

(١) أبو السعود ٤/ ٣٠٤ . (٢) الصاوي على الجلالين ٣/ ٢٧١ . (٣) تفسير الكشاف ٣/ ٤٢٦ . (٤) قال القرطبي : وهذا القول منقول معناه عن عكرمة ، والأظهر أنه أراد اضطراب القلب وضرباته حتى كأنه لشدة اضطرابه بلغ الحنجرة . اهـ . (٥) القرطبي ١٤/ ١٤٥ .
(٦) نقلاً عن البحر المحيط ٧/ ٢١٧ . (٧) القرطبي ١٤/ ١٤٦ . (٨) التسهيل ٣/ ١٣٤ .

﴿يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾

لأن الايمان لم يخالط قلوبهم ﴿ما وعدنا الله ورسولُه إلا غروراً﴾ أي ما وعدنا الله ورسوله إلا باطلاً وخداعاً **قال الصاوي** : والقائل هو « معتب بن قشير » الذي قال : يعدنا محمدٌ بفتح فارس والروم ، وأحدُنا لا يقدر أن يتبرز فرقاً ، ما هذا إلا وعد غرور[1] ، يغرنا به محمد ﴿وإذْ قالت طائفةٌ منهم﴾ أي واذكر حين قالت جماعة من المنافقين وهم : أوس بن قيظي وأتباعه ، وأُبيُّ بن سلول وأشياعه ﴿يا أهل يثرب لا مُقام لكم﴾ أي يا أهل المدينة لا قرار لكم ههنا ولا إقامة ﴿فارجعوا﴾ أي فارجعوا إلى منازلكم واتركوا محمداً وأصحابه ﴿ويستأذن فريقٌ منهم النبيَّ﴾ ويستأذن جماعة من المنافقين النبيﷺ في الإنصراف متعللين بعلل واهية ﴿يقولون إنَّ بيوتنا عورة﴾ أي غير حصينة فنخاف عليها العدوَّ والسُّراق ﴿وما هي بعورة﴾ تكذيب من الله تعالى لهم أي ليس الأمر كما يزعمون ﴿إنْ يريدون إلا فراراً﴾ أي ما يريدون بما طلبوا من الرسولﷺ إلا الهرب من القتال ، والفرار من الجهاد ، والتعبيرُ بالمضارع ﴿ويستأذن﴾ لاستحضار الصورة في النفس ، فكأن السامع يبصرهم الآن وهم يستأذنون ، ثم فضحهم تعالى وبيَّن كذبهم ونفاقهم فقال ﴿ولو دُخلت عليهم من أقطارها﴾ أي ولو دخل الأعداء على هؤلاء المنافقين من جميع نواحي المدينة وجوانبها ﴿ثم سُئلوا الفتنةَ لآتوها﴾ أي ثم طلب إليهم أن يكفروا وأن يقاتلوا المسلمين لأعطوها من أنفسهم ﴿وما تلبثوا بها إلا يسيراً﴾ أي لفعلوا ذلك مسرعين ، ولم يتأخروا عنه لشدة فسادهم ، وذهاب الحق من نفوسهم ، فهم لا يحافظون على الايمان ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع[2] ، وهذا ذمٌّ لهم في غاية الذم ﴿ولقد كانوا عاهدوا اللَّهَ من قبلُ لا يولون الأدبار﴾ أي ولقد كان هؤلاء المنافقون أعطوا ربهم العهود والمواثيق من قبل غزوة الخندق وبعد بدر ألا يفروا من القتال ﴿وكان عهدُ الله مسئولاً﴾ أي وكان هذا العهد منهم جديراً بالوفاء لأنهم سيسألون عنه ، وفيه تهديدٌ ووعيد **قال قتادة** : لما غاب المنافقون عن بدر ، ورأوا ما أعطى الله أهل بدرٍ من الكرامة والنصر ، قالوا لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن[3] ﴿قل لن ينفعكم الفرارُ إن فررتم من الموتِ أو القتل﴾ أي قل يا أيها النبي لهؤلاء المنافقين ، الذين يفرون من القتال طمعاً في البقاء وحرصاً على الحياة ، إن فراركم لن يطوّل أعماركم ولن

---

(١) حاشية الصاوي ٣/ ٢٧٢ . (٢) هذا قول قتادة وابن زيد واختيار ابن جرير قال القرطبي : وقال السدي والحسن والفراء المعنى : ما لبثوا بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلاً حتى يهلكوا ، والأول قول أكثر المفسرين ، وذلك لضعف نياتهم وفرط نفاقهم ، فلو اختلط بهم الأعداء لأظهروا الكفر . ا هـ « القرطبي ١٤/ ١٥٠ » . (٣) القرطبي ١٤/ ١٥٠ .

﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ * قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾

يؤخر آجالكم ، ولن يدفع الموت عنكم أبداً ﴿وإذاً لا تُمتَّعون إلا قليلاً﴾ أي ولئن هربتم وفررتم فإذاً لا تمتعون بعده إلا زمناً يسيراً ، لأن الموت مآل كل حي ، ومن لم يمت بالسيفِ مات بغيره ﴿قل من ذا الذي يعصمكم من الله﴾ أي من يستطيع أن يمنعكم منه تعالى ﴿إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة﴾ أي إن قدَّر هلاككم ودماركم ، أو قدَّر بقاءكم ونصركم ؟ ﴿ولا يجدون لهم من دون اللهِ ولياً ولا نصيراً﴾ أي وليس لهم من دون الله مجير ولا مغيث ، فلا قريب ينفعهم ولا ناصر ينصرهم ﴿قد يعلم اللهُ المعوّقين منكم﴾ أي لقد علم الله تعالى ما كان من أمر أولئك المنافقين ، المثبطين للعزائم ، الذين يعوّقون الناس عن الجهاد ، ويصدونهم عن القتال ﴿والقائلين لإخوانهم هلُمَّ إلينا﴾ أي والذين يقولون لإخوانهم في الكفر والنفاق : تعالوا إلينا واتركوا محمداً وصحبه يهلكوا ولا تقاتلوا معهم ، قال تعالى ﴿ولا يأتون البأس إلا قليلاً﴾ أي ولا يحضرون القتال إلا قليلاً منهم رياءً وسمعة ، قال الصاوي : لأن شأن من يثبّط غيره عن الحرب ألاّ يفعله إلا قليلاً لغرضٍ خبيث[1] وقال في البحر : المعنى : لا يأتون القتال إلا إتياناً قليلاً ، يخرجون مع المؤمنين يوهمونهم أنهم معهم ، ولا تراهم يقاتلون إلا شيئاً قليلاً إذا اضطروا إليه ، فقتالُهم رياء ليس بحقيقة[2] ﴿أشحةً عليكم﴾ أي بخلاء عليكم بالمودة والشفقة والنصح لأنهم لا يريدون لكم الخير ﴿فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يُغْشَى عليه من الموت﴾ أي فإذا حضر القتال رأيت أولئك المنافقين في شدة رعب لا مثيل لها ، حتى إنهم لتدور أعينهم في أحداقهم كحال المغشي عليه من معالجة سكرات الموت حَذراً وخَوراً قال القرطبي : وصفهم بالجبن ، وكذا سبيل الجبان ينظر يميناً وشمالاً محدّداً بصره ، وربما غُشي عليه من شدة الخوف[3] ﴿فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنةٍ حِداد﴾ أي فإذا ذهب الخوف عنهم وانجلت المعركة آذوكم بالكلام بألسنة سليطة ، وبالغوا فيكم طعناً وذماً قال قتادة : إذا كان وقت قسمة الغنيمة بسطوا ألسنتهم فيكم يقولون : أعطونا أعطونا فإنا قد شهدنا معكم ، ولستم أحقَّ بها منا ، فأما عند البأس فأجبن قومٍ وأخذلهم للحق ، وأمّا عند الغنيمة فأشح قوم وأبسطهم لساناً[4] ﴿أشحةً على الخير﴾ أي خاطبوكم بما خاطبوكم به حال كونهم أشحة أي بخلاء على المال والغنيمة ﴿أولئك لم يؤمنوا﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من صفات السوء ، لم يؤمنوا حقيقةً بقلوبهم وإن

(١) حاشية الصاوي ٣/ ٢٧٣ . (٢) البحر ٧/ ٢٢٠

(٣) تفسير القرطبي ١٤/ ١٥٣ . (٤) زاد المسير ٦/ ٣٦٦ والقرطبي ١٤/ ١٥٤ .

يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾

أسلموا ظاهراً ﴿فأحبط الله أعمالهم﴾ أي أبطلها بسبب كفرهم ونفاقهم ، لأن الإيمان شرط في قبول الأعمال ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ أي وكان ذلك الإحباط سهلاً هيناً على الله ، ثم أخبر تعالى عنهم بما يدل على جبنهم فقال ﴿يحسبون الأحزاب لم يذهبوا﴾ أي يحسب المنافقون من شدة خوفهم وجبنهم أن الأحزاب ـ وهم كفار قريش ومن تحزب معهم ـ بعد انهزامهم لم ينصرفوا عن المدينة وهم قد انصرفوا ﴿وإن يأتِ الأحزاب يودُّوا لو أنهم بادون في الأعراب﴾ أي وإن يرجع إليهم الكفار كرة ثانية للقتال يتمنوا لشدة جزعهم أن يكونوا في البادية مع الأعراب ـ لا في المدينة معكم ـ حذراً من القتل وتربصاً للدوائر ﴿يسألون عن أنبائكم﴾ أي يسألون عن أخباركم وما وقع لكم فيقولون : أهلك المؤمنون ؟ أغلب أبو سفيان ؟ ليعرفوا حالكم بالاستخبار لا بالمشاهدة ﴿ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً﴾ أي ولو أنهم كانوا بينكم وقت القتال واحتدام المعركة ما قاتلوا معكم إلا قتالاً قليلاً لجبنهم وذلتهم وحرصهم على الحياة .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ التنكير لإفادة الاستغراق والشمول ﴿ما جعل الله لرجلٍ من قلبين﴾ وإدخال حرف الجر الزائد لتأكيد الاستغراق ، وذكر الجوف ﴿في جوفه﴾ لزيادة التصوير في الإنكار .

٢ ـ جناس الاشتقاق ﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا﴾ .

٣ ـ الطباق بين ﴿أخطأتم . . وتعمدت قلوبكم﴾ وبين ﴿سوءً . . ورحمة﴾ لأن المراد بالسوء الشر ، وبالرحمة الخير .

٤ ـ التشبيه البليغ ﴿وأزواجه أُمهاتُهم﴾ حُذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه فصار بليغاً ، وأصل الكلام وأزواجه مثل أمهاتهم في وجوب الاحترام والتعظيم ، والإجلال والتكريم .

٥ ـ المجاز بالحذف ﴿أولى ببعض﴾ أي أولى بميراث بعض .

٦ ـ ذكر الخاص بعد العام للتشريف ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح﴾ فقد دخل هؤلاء المذكورون في جملة النبيين ولكنه خصهم بالذكر تنويهاً بشأنهم وتشريفاً لهم .

٧ ـ الاستعارة ﴿ميثاقاً غليظاً﴾ استعار الشيء الحسي ـ وهو الغلظُ الخاص بالأجسام ـ للشيء المعنوي وهو بيان حرمة الميثاق وعظمه وثقل حمله .

٨ ـ الالتفات ﴿ليسأل الصادقين﴾ وغرضه التبكيت والتقبيح للمشركين .

٩ ـ الطباق بين ﴿من فوقكم . . وأسفل منكم﴾ .

١٠ ـ التشبيه التمثيلي ﴿تدور أعينهم كالذي يُغشى عليه من الموت﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد .

١١ ـ المبالغة في التمثيل ﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾ صوَّر القلوب في خفقانها واضطرابها كأنها وصلت إلى الحلقوم .

١٢ ـ الكناية ﴿لا يولون الأدبار﴾ كناية عن الفرار من الزحف .

١٣ ـ الاستعارة المكنية ﴿سلقوكم بألسنةٍ حداد﴾ شبَّه اللسان بالسيف المصلت وحذف ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو السلق بمعنى الضرب على طريق الاستعارة المكنية ، ولفظ ﴿حداد﴾ ترشيح .

١٤ ـ توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿كان ذلك في الكتاب مسطوراً . . ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾ ونحوه وهو يزيد في رونق الكلام وجماله ، لما له من وقع رائع ، وجرْس عذب[1] .

تنبيه : خاطب الله تعالى الأنبياء بأسمائهم فقال ﴿يا نوح اهبط بسلامٍ منا﴾ ﴿يا إبراهيم قد صدَّقت الرؤيا﴾ ﴿يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾ ولم يخاطب الرسول إلا بلفظ النبوة والرسالة ﴿يا أيها النبي حسبُك الله﴾ ﴿يا أيها الرسول بلّغْ ما أُنزل إليك﴾ الخ ولا نجد في القرآن العظيم كله نداءً له باسمه ، وإنما النداء بلفظ النبوة والرسالة ، وفي هذا تفخيم لشأنه ، وتعظيم لمقامه ، وإشارة إلى أنه سيد الأولين والآخرين ، وإمام الأنبياء والمرسلين ، وتعليم لنا الأدب معه ﷺ ، فلا نذكره إلا مع الإجلال والإكرام ، ولا نصفه إلا بالوصف الأكمل ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً . .﴾ ﴿إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى . .﴾[2] الآية .

لطيفة : إن قيل : ما الفائدة بأمر اللهِ رسوله بالتقوى وهو سيد المتقين ؟ فالجواب أنه أمرٌ بالثبات والاستدامة على التقوى كقوله ﴿يا أيها الذين آمنوا آمِنُوا﴾ أي اثبتوا على الإيمان وكقول المسلم ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ وهو مهتد إليه وغرضه ثبتنا على الصراط المستقيم ، أو نقول : الخطاب للرسول والمراد أمته .

* * *

---

(١) ذكرنا الأمثلة البلاغية بإيجاز على سبيل المثال لا الحصر ، ليتذوق القارىء بعض الروائع البيانية وإلا فكلام الله معجز وفيه من الصور البلاغية والأسرار البيانية ما يتذوقها الإنسان ويعجز عن وصفها اللسان . (٢) انظر ما كتبه أبو حيان في البحر المحيط ٧/ ٢١٠ وما كتبه القاضي عياض في كتابه الشفاء فقد أجاد كل منهما وأفاد .

قال الله تعالى : ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة . . إلى . .أعدَّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾ من آية (٢١) إلى نهاية آية (٣٥) .

المناسبة : لما ذكر تعالى غزوة الأحزاب ، وموقف المنافقين المذبذبين منها ، بالقعود عن الجهاد ، وتثبيط العزائم ، أمر المؤمنين في هذه الآيات بالاقتداء بالرسول الكريم في صبره وثباته ، وتضحيته وجهاده ، ثم جاء الحديث عن زوجات رسول الله الطاهرات ، وأمرهنَّ بالاقتداء برسول الله ﷺ في زهده ، وعدم التطلع إلى زهرة الدنيا لأنهن قدوة لسائر نساء المؤمنين .

اللغة : ﴿أُسوة﴾ الأُسوة : القُدوة وفيها لغتان كسر الهمزة وضمها يقال ائتسى فلان بفلان أي اقتدى به ﴿نَحْبه﴾ النَّحب : النذرُ والعهد يقال : نَحَبَ ينحب من باب قتل نذر ، ومن باب ضرب بكى قال لبيد :

ألا تسْألانِ المـرءَ ماذا يُـحاول أنحْـبٌ فيُقضـى أم ضلال وباطـل[١] ؟

ويقال : قضى نحبه إذا مات ، وعبَّر به عن الموت لأن كل حي لا بدَّ أن يموت ، فكأنه نذر لازم في رقبته فإذا مات فقد قضى نحبه أي نذره[٢] ﴿صياصيهم﴾ حصونهم جمع صيصية وهو ما يتحصن به قال الشاعر :

فأصبحـت الثيـرانُ صَـرْعى وأصبحت نساءُ تميم يبْتـدرنَ الصيَّاصيا[٢]

﴿أُمتعكنَّ﴾ متعة الطلاق ، وأصل المتاع ما يُتبلَّغ به من الزاد ، ومنه متعة المطلقة لأنها تنتفع وتتمتع به[٤] ﴿وأُسرحكـنَّ﴾ أطلقكنَّ ، وأصل التسريح في اللغة : الإرسال والإطلاق[٥] ﴿تبرَّجْـنَ﴾ تبرجت المرأة : أظهرت زينتها ومحاسنها للأجانب[٦] ، وأصله من الظهور ومنه سمي البرج لسعته وظهوره ﴿وقـرْنَ﴾ إلزمن بيوتكن من قولهم : قررتُ بالمكان أقرُّ به إذا بقيت فيه ولزمته ، والقرار : مصدر ، وأصل « قرنْ » اقررن حذفت الراء وألقيت فتحتها على ما قبلها ، واستغني عن ألف الوصل لتحرك القاف[٧] ﴿الرجس﴾ في اللغة : القذر والنجاسة ، وعُبّر به هنا عن الآثام لأن عرض المقترف للقبائح يتلوث بها ويتدنس ، كما يتلوث بدنه بالنجاسات[٨] .

سَبَبُ النّزول : أ ـ أخرج ابن جرير الطبري عن أنس بن مالك قال : غاب عمي « أنس بن النضر » عن قتال يوم بدر ، فقال : غبتُ عن أول قتالٍ مع رسول الله ﷺ ؟ لئن أشهدني الله قتالاً ليرينَّ الله ما أصنع ؟ فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون ـ انهزموا ـ فقال : اللهم إني أبرأ إليك مما فعل هؤلاء ـ يعني المشركين ـ وأعتذر إليك ممَّا صنع هؤلاء ـ يعني المسلمين ـ ثم مشى بسيفه فلقيه « سعد بن معاذ » فقال : أي سعد والله إني لأجد ريح الجنة دون أحد ! ثم قاتل حتى قتل ، فقال سعد يا رسول الله : ما استطعت أن أصنع ما صنع ، قال أنس بن مالك : فوجدناه بين القتلى وبه بضع وثمانون جراحة بين ضربةٍ بسيف ،

---

(١) تفسير القرطبي ١٤/١٥٨ . (٢) تفسير الكشاف ٣/٤٢١ . (٣) القرطبي ١٤/ ١٦١ . (٤) المصباح المنير ٢/ ٢٢٦ . (٥) المعجم الوسيط ١/ ٤٢٧ .(٦) المصباح المنير ١/ ٤٨ . (٧) القرطبي ١٤/ ١٧٨ . (٨) الكشاف ٣/ ٤٢٥ .

أو طعنةٍ برمح ، أو رمية بسهم ، فما عرفناه حتى جاءت أخته فعرفته ببنانه ـ رءوس الأصابع ـ قال أنس : فكنا نتحدث أن هذه الآية ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحْبه ومنهم من ينتظر . .﴾ نزلت فيه وفي أصحابه[١] .

ب ـ وروى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه قال : أقبل أبو بكر رضي الله عنه يستأذن رسول الله ﷺ ـ والناسُ ببابه جلوس ـ فلم يُؤذن له ، ثم أقبل عمر رضي الله عنه فاستأذن فلم يُؤذن له ، ثم أُذن لأبي بكرٍ وعمر فدخلا والنبي ﷺ جالسٌ وحوله نساؤه وهو ساكت ، فقال عمر : لأكلمنَّ النبي ﷺ لعله يضحك ! فقال يا رسول الله : لو رأيت ابنة زيد ـ امرأة عمر ـ سألتني النفقة آنفاً فوجأت عنقها ، فضحك النبي ﷺ حتى بدتْ نواجذه وقال : « هُنَّ حولي يسألنني النفقة » ! فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر إلى حفصة كلاهما يقولان : تسألانِ رسول الله ما ليس عنده ؟ فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن : واللهِ لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده ، وأنزل الله آية الخيار ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتُنَّ تُردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أُمتعكنَّ وأُسرحكن سراحاً جميلاً﴾ فبدأ بعائشة رضي الله عنها فقال لها : إني أذكر لكِ أمراً ما أحبُّ أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك ، قالت : وما هو يا رسول الله ؟ فتلا عليها الآية فقالت : أفيك أستأمرُ أبوي ؟ بل أختار اللهَ ورسوله والدار الآخرة ، وأسألك ألاّ تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت ، فقال : إن الله لم يبعثني معنفاً ولكن بعثني معلماً وميسراً ، لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها[١] .

ج ـ عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ يا نبيَّ الله : مالي أسمع الرجال يذكرون في القرآن ، والنساء لا يُذكرن ! ؟ فأنزل الله تعالى ﴿إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات . .﴾[٢] الآية .

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾

التفسير : ﴿لقد كان لكم في رسولِ اللهِ أُسْوةٌ حسنة﴾ أي لقد كان لكم أيها المؤمنون في هذا الرسول العظيم قدوةٌ حسنة ، تقتدون به ﷺ في إخلاصه ، وجهاده ، وصبره ، فهو المثل الأعلى الذي يجب أن يُقتدى به ، في جميع أقواله وأفعاله وأحواله ، لأنه لا ينطق ولا يفعل عن هوى ، بل عن وحيٍ وتنزيل ، فلذلك وجب عليكم تتبع نهجه ، وسلوك طريقه ﴿لمن كان **يرجوا اللهَ واليوم الآخر**﴾ أي لمن كان مؤمناً مخلصاً يرجو ثواب الله ، ويخاف عقابه ﴿وذكر اللهَ كثيراً﴾ أي وأكثر من ذكر ربه ، بلسانه وقلبه قال **ابن كثير** : أمر تبارك وتعالى الناسَ بالتأسي بالنبي ﷺ في صبره ومصابرته ، ومجاهدته ومرابطته ، ولهذا قال للذين تضجروا وتزلزلوا ، واضطربوا يوم الأحزاب ﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة﴾

(١) تفسير ابن جرير الطبري ٢٠/ ٨٥ وأسباب النزول للواحدي ٢٣٧ . (٢) أخرجه الإمام أحمد كذا في ابن كثير ٣/ ٩٢ . (٣) رواه النسائي في سننه عن أم سلمة .

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾

والمعنى : هـلاّ اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ[1] !! ثم حكى تعالى موقف المؤمنين الصادقين في غزوة الأحزاب أثناء رؤيتهم جنود قريش ومن تحزَّب معهم ، وما صدر عن المؤمنين من إخلاص ويقين ، تُظهر بوضوح روح الإيمان والتضحية فقال ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزابَ قالوا هـذا ما وعدنا اللهُ ورسولُه﴾ أي ولمَّا رأى المؤمنون الكفار قادمين نحوهم ، وقد أحاطوا بهم من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم ، قالوا : هذا ما وعدنا به الله ورسولُه ، من المحنة والابتلاء ، ثم النصر على الأعداء ﴿وصدَق الله ورسولُه﴾ أي صدق الله في وعده ، ورسولُه فيما بشرنا به قال المفسرون : لما كان المسلمون يحفرون الخندق اعترضتهم صخرة عظيمة عجزوا عن تكسيرها ، فأخبروا الرسول ﷺ بها فجاء وأخذ المعول وضربها ثلاث ضربات أضاءت له منها مدائن كسرى ، وقصور الروم ، فقال أبشروا بالنصر ، فلما أقبلت جموع المشركين ورأوهم قالوا ﴿هذا ما وعدنا اللهُ ورسولُه وصدق اللهُ ورسوله﴾[2] ﴿وما زادهم إلاّ إيماناً وتسليماً﴾ أي وما زادهم ما رأوه من كثرة جند الأحزاب ، ومن شدة الضيق والحصار ، إلا إيماناً قوياً عميقاً بالله ، واستسلاماً وانقياداً لأوامره ﴿من المؤمنينَ رجالٌ صدقوا ما عاهـدوا اللهَ عليه﴾ أي ولقد كان من أولئك المؤمنين رجالٌ صادقون ، نذروا أنهم إذا أدركوا حرباً مع رسول الله ﷺ ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا ﴿فمنهم من قضى نحبه﴾ أي فمنهم من وفىّ بنذره وعهده حتى استشهد في سبيل الله كأنس ابن النضر وحمزة ﴿ومنهم من ينتظر﴾ أي ومنهم من ينتظر الشهادة في سبيل الله ﴿وما بدّلوا تبديلاً﴾ أي وما غيَّروا عهدهم الذي عاهدوا عليه ربهم أبداً ﴿ليجزي اللهُ الصادقين بصدقهم﴾ أي ليجزي الله الصادقين بسبب صدقهم وحسن صنيعهم أحسن الجزاء في الآخرة ﴿ويُعذِّب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم﴾ أي ويعذّب المنافقين الناقضين للعهود بأن يميتهم على النفاق فيعذبهم ، أو يتوب عليهم فيرحمهم ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ أي واسع المغفرة رحيماً بالعباد قال ابن كثير : ولما كانت رحمته ورأفته تبارك وتعالى هي الغالبة لغضبه ختم بها الآية الكريمة[3] ﴿وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم﴾ أي وردَّ الله الأحزاب الذين تألبوا على غزو المدينة خائبين خاسرين ، مغيظين محنقين ، لم يشف صدورهم بنيل ما أرادوا ﴿لم ينالوا خيراً﴾ أي حال كونهم لم ينالوا أيَّ خير لا في الدنيا ولا في الآخرة ، بل قد اكتسبوا الآثام في مبارزة الرسول عليه السلام وهمّهم بقتله ﴿وكفى اللهُ المؤمنين القتال﴾ أي كفاهم شرَّ أعدائهم بأن أرسل عليهم الريح والملائكة حتى ولّوا الأدبار منهزمين ﴿وكان اللهُ قوياً عزيزاً﴾ أي قادراً على

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٨٨ . (٢) انظر حاشية الصاوي ٣/ ٢٧٠ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٨٩ .

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

الانتقام من أعدائه ، عزيزاً غالباً لا يُقهر ، ولهذا كان عليه السلام يقول : (لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعزَّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده)[1] **﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم﴾** أي وأنزل اليهود ـ وهم بنو قريظة ـ الذين أعانوا المشركين ونقضوا عهدهم وانقلبوا على النبي وأصحابه ، أنزلهم من حصونهم وقلاعهم التي كانوا يتحصنون فيها **﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾** أي ألقى الله في قلوبهم الخوف الشديد حتى فتحوا الحصون واستسلموا **قال ابن جزي** : نزلت الآية في يهود « بني قريظة » وذلك أنهم كانوا معاهدين لرسول الله ﷺ فنقضوا عهده وصاروا مع قريش ، فلما انهزم المشركون وانصرفت قريش عن المدينة حاصر رسول الله ﷺ بني قريظة حتى نزلوا على حكم « سعد بن معاذ » فحكم بأن يُقتل رجالهم ، ويُسبى نساؤ هم وذريتهم[2] فذلك قوله تعالى **﴿فريقاً تقتلون﴾** يعني الرجال وقتل منهم يومئذٍ ما بين الثمانمائة والتسعمائة **﴿وتأسرون فريقاً﴾** يعني النساء والذرية **﴿وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم﴾** أي وأورثكم يا معشر المؤمنين أرض بني قريظة وعقارهم وخيلهم ومنازلهم وأموالهم التي تركوها **﴿وأرضاً لم تطؤوها﴾** أي وأرضاً أخرى لم تطؤوها بعدُ بأقدامكم ، وهي خيبر لأنها أخذت بعد قريظة ، وكل أرض فتحها المسلمون بعد ذلك **﴿وكان الله على كل شيء قديراً﴾** أي قادراً على كل ما أراد ، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء **قال أبو حيان** : ختم تعالى هذه الآية ببيان قدرته على كل شيء ، وكأن في ذلك إشارة إلى فتحه على المسلمين الفتوح الكثيرة ، فكما ملَّكهم هذه الأراضي فكذلك هو قادر على أن يملكهم غيرها من البلاد[3] **﴿يا أيها النبيُّ قل لأزواجك﴾** أي قل لزوجاتك اللاتي تأذيتَ منهن بسبب سؤ الهن إياك الزيادة في النفقة **﴿إن كنتُنَّ تُرِدْنَ الحياة الدنيا وزينتها﴾** أي إن رغبتُنَّ في سعة الدنيا ونعيمها ، وبهرجها الزائل **﴿فتعالَيْنَ أمتِّعْكُنَّ﴾** أي فتعالينَ حتى أدفع لكنَّ متعة الطلاق **﴿وأسرحكُنَّ سراحاً جميلاً﴾** أي وأطلقكُنَّ طلاقاً من غير ضرار **﴿وإن كنتُنَّ تُردن اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة﴾** أي وإن كنتُنَّ ترغبن في رضوان الله ورسوله ، والفوز بالنعيم الوافر في الدار الآخرة **﴿فإنَّ الله أعدَّ للمحسناتِ منكنَّ أجراً عظيماً﴾** جواب الشرط أي فإن الله تعالى قد هيأ للمحسنات منكنَّ بمقابلة إحسانهن ثواباً كبيراً لا يوصف ، وهو الجنة التي فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر **قال في البحر** : لما نصر الله نبيه ، وفرَّق عنه الأحزاب ، وفتح عليه قريظة والنضير ، ظنَّ أزواجه

---

(١) أخرجه الشيخان . (٢) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٣٦ وانظر تفصيل القصة في زاد المسير ٦/ ٣٧٣ .
(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٢٥ .

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا

أنه اختصَّ بنفائس اليهود وذخائرهم ، فقعدن حوله وقلن يا رسول الله : بناتُ كسرى وقيصر في الحُلِيِّ والحُلَل ، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق !! وآلمن قلبه بمطالبتهن له بتوسعة الحال ، وأن يعاملهنَّ بما يعامل به الملوك والأكابر أزواجهم ، فأمره الله أن يتلو عليهن ما نزل في أمرهنَّ ، وأزواجه إذ ذاك تسع زوجات[1] ﴿يا نساء النبي من يأتِ منكنَّ بفاحشة مبينة﴾ أي من تفعل منكن كبيرةً من الكبائر ، أو ذنباً تجاوز الحدَّ في القبح ، قال ابن عباس : يعني النشوز وسوء الخلق[2] ﴿يُضاعف لها العذاب ضعفين﴾ أي يكون جزاؤها ضعف جزاء غيرها من النساء ، لأن زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل والمرتبة[3] ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ أي كان ذلك العقاب سهلاً يسيراً على الله ، لا يمنعه منه كونهنَّ أزواج ونساء النبي ﷺ ، وفي الآية تلوينٌ للخطاب ، فبعد أن كانت المخاطبة لهن على لسان رسول الله ﷺ وجَّه الخطاب إليهنَّ هنا مباشرةً لإظهار الاعتناء بأمرهن ونصحهن قال الصَّاوي : وهذه الآيات خطاب من الله لأزواج النبي ﷺ إظهاراً لفضلهن ، وعظم قدرهن عند الله تعالى ، لأن العتاب والتشديد في الخطاب مشعر برفعة رتبتهن ، لشدة قربهن من رسول الله ﷺ ولأنهن أزواجه في الجنة ، فبقدر القرب من رسول الله يكون القرب من الله[4] ﴿ومن يقنتْ منكنَّ لله ورسوله﴾ أي ومن تواظب منكنَّ على طاعة الله وطاعة رسوله ﴿وتعملْ صالحاً﴾ أي وتتقرب إلى الله بفعل الخير وعمل الصالحات ﴿نُؤْتها أجرها مرتين﴾ أي نعطها الثواب مضاعفاً ونثيبها مرتين : مرة على الطاعة والتقوى ، وأخرى على طلبهنَّ رضاء رسول الله ﷺ بالقناعة وحسن المعاشرة ﴿وأعتدنا لها رزقاً كريماً﴾ أي وهيأنا لها في الجنة - زيادة على ما لها من أجر - رزقاً حسناً مرضياً لا ينقطع ، ثم أظهر فضيلتهنَّ على النساء فقال ﴿يا نساء النبي لستُنَّ كأحدٍ من النساء﴾ أي أنتن تختلفن عن سائر النساء من جهة أنكنَّ أفضل وأشرف من غيركن ، لكونكن زوجات خاتم الرسل ، وأفضل الخلق محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم ، فليست الواحدة منكنَّ كالواحدة من آحاد النساء ﴿إنْ اتقيتُنَّ﴾ شرطٌ حذف جوابه لدلالة ما قبله أي إن اتقيتنَّ اللهَ فأنتُنَّ بأعلى المراتب قال القرطبي : بيَّن تعالى أن الفضيلة إنما تتم لهن بشرط التقوى ، لما منحهنَّ الله من صحبة رسوله سيد الأولين والآخرين[5] ، وقال ابن عباس : يريد في هذه الآية : ليس قدركنَّ عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات ، أنتُنَّ أكرمُ عليَّ وثوابكنَّ أعظم إن اتقيتُن ، فشرط عليهن التقوى بياناً أن فضيلتهن إنما تكون بالتقوى ، لا بنفس اتصالهن برسول الله ﷺ[6] ﴿فلا تخضعْنَ بالقول﴾ أي فلا ترققن الكلام عند

(١) نفس المرجع السابق ٧/ ٢٢٧ . (٢) زاد المسير ٦/ ٣٧٨ . (٣) الكشاف ٣/ ٤٢٤ . (٤) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٢٧٦ .
(٥) القرطبي ١٤/ ١٧٧ . (٦) زاد المسير ٦/ ٣٧٨ .

مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ

مخاطبة الرجال ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ أي فيطمع من كان في قلبه فجور وريبة ، وحبٌ لمحادثة النساء ﴿وقلن قولاً معروفاً﴾ أي وقلن قولاً حسناً عفيفاً لا ريبة فيه ، ولا لين ولا تكسر عند مخاطبتكنَّ للرجال[1] قال ابن كثير : ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم ، ولا تخاطب الأجنبيَّ كما تخاطب زوجها ﴿وقَرْن في بيوتكن﴾ أي الزَمْنَ بيوتكنَّ ولا تخرجن لغير حاجة ، ولا تفعلن كما تفعل الغافلات ، المتسكعات في الطرقات لغير ضرورة ﴿ولا تبرَّجْنَ تبرج الجاهلية الأولى﴾ أي لا تظهرن زينتكن ومحاسنكنَّ للأجانب مثل ما كان نساء الجاهلية يفعلن ، حيث كانت تخرج المرأة إلى الأسواق مظهرةً لمحاسنها ، كاشفة ما لا يليق كشفه من بدنها قال قتادة : كانت لهن مشية فيها تكسُّرٌ وتغنج فنهى الله تعالى عن ذلك ﴿وأقمن الصلاة وآتين الزكاة﴾ أي حافظن على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة قال ابن كثير : نهاهنَّ أولاً عن الشر ، ثم أمرهن بالخير ، من إقامة الصلاة وهي عبادة الله وحده ، وإيتاء الزكاة وهي الإحسان إلى المخلوقين[2] ﴿وأطعنَ اللّهَ ورسُولَه﴾ أي أطعن الله ورسوله في جميع الأوامر والنواهي لتنلن مرتبة المتقيات ﴿إنما يريد الله ليُذهب عنكم الرجس﴾ أي إنما يريد الله أن يخلصكنَّ من دنس المعاصي ، ويطهركنَّ من الآثام ، التي يتدنس بها عرض الإنسان كما يتلوث بدنه بالنجاسات ﴿أهل البيت﴾ أي يا أهل بيت النبوة ﴿ويطهركم تطهيراً﴾ أي ويطهركم من أوضار الذنوب والمعاصي تطهيراً بليغاً ﴿واذكرن ما يُتْلى في بيوتكنَّ من آياتِ اللهِ والحكمة﴾ أي واقرأن آيات القرآن ، وسنة النبي عليه الصلاة والسلام ، فإن فيهما الفلاح والنجاح قال الزمخشري : ذكّرهن أن بيوتهن مهابط الوحي ، وأمرهنَّ ألا ينسين ما يُتلى فيها من الكتاب الجامع بين أمرين : آيات بينات تدل على صدق النبوة ، وحكمة وعلوم وشرائع سماوية[3] ﴿إن الله كان لطيفاً خبيراً﴾ أي عالماً بما يصلح لأمر العباد ، خبيراً بمصالحهم ولذلك شرع للناس ما يسعدهم في دنياهم وآخرتهم ، ثم أخبر تعالى أن المرأة والرجل في الجزاء والثواب سواء فقال ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ هم المتمسكون بأوامر الإسلام المتخلقون بأخلاقه رجالاً ونساءً ﴿والمؤمنين والمؤمنات﴾ أي المصدِّقين بالله وآياته ، وما أنزل على رسله وأنبيائه ﴿والقانتين والقانتات﴾ أي العابدين الطائعين ،

(١) أقول: إذا كان القرآن يمنع المرأة أن تتلاين في كلامها مع الرجال الأجانب لئلا يطمع بها الفساق والفجار، فكيف بمن تثير الكوامن والشجون بالغناء الماجن الذي كله ميوعة وانحلال، وتختلط فيه أصوات المغنين مع المغنيات في الحفلات الساهرة الداعرة وتنقله الإذاعات، ثم نسمع بعض أدعياء العلم يحبذون هذا بحجة أن صوت المرأة ليس بعورة؟ اللهم إنا نعوذ بك من شر هذا الزمان الذي فسق فيه الشبان، وطغت فيه النساء وأصبح المنكر معروفاً. والمعروفُ منكراً، ولا حول ولا قوة إلا بالله!! (٢) ابن كثير ٣/ ٩٤ المختصر ر. (٣) الكشاف ٣/ ٤٢٥ .

وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

المداومين على الطاعة ﴿والصادقين والصادقات﴾ أي الصادقين في إيمانهم ، ونياتهم ، وأقوالهم ، وأعمالهم ﴿والصابرين والصابرات﴾ أي الصابرين على الطاعات وعن الشهوات في المكره والمنشط ﴿والخاشعين والخاشعات﴾ أي الخاضعين الخائفين من الله جل وعلا ، المتواضعين له بقلوبهم وجوارحهم ﴿والمتصدقين والمتصدقات﴾ أي المتصدقين بأموالهم على الفقراء ، بالإحسان وأداء الزكوات ﴿والصائمين والصائمات﴾ أي الصائمين لوجه الله شهر رمضان وغيره من الأيام ، فالصوم زكاة البدن يزكيه ويطهّره ﴿والحافظين فروجهم والحافظات﴾ أي عن المحارم والآثام ، وعما لا يحل من الزنى وكشف العورات ﴿والذاكرين اللهَ كثيراً والذاكرات﴾ أي المديمين ذكر الله بألسنتهم وقلوبهم في كل الأوقات والأمكنة ﴿أعدَّ الله لهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾ أي أعدَّ لهؤلاء المتقين الأبرار ، المتصفين بالصفات الجليلة أعظم الأجر والثواب وهو الجنة ، مع تكفير الذنوب بسبب ما فعلوه من الأعمال الحسنة .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الإطناب بتكرار الاسم الظاهر ﴿هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله﴾ كرر الإسم الكريم للتشريف والتعظيم .

٢ ـ الاستعارة ﴿قضى نحبه﴾ النحبُ : النذر ، واستعير للموت لأنه نهاية كل حي ، فكأنه نذر لازم في رقبة الإنسان(١) .

٣ ـ الجملة الاعتراضية ﴿ويعذب المنافقين ـ إن شاء ـ أو يتوب عليهم﴾ للتنبيه على أن أمر العذاب أو الرحمة موكول لمشيئته تعالى .

٤ ـ المقابلة بين ﴿إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها﴾ وبين ﴿وإن كنتُنَّ تردن الله ورسوله والدار الآخرة﴾ .

٥ ـ التشبيه البليغ ﴿ولا تبرجن تبرج الجاهلية﴾ أي كتبرج أهل الجاهلية حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فصار بليغاً .

٦ ـ عطف العام على الخاص ﴿وأطعن الله ورسوله﴾ بعد قوله ﴿أقمن الصلاة وآتين الزكاة﴾ فإن

---

(١) انظر البيضاوي ٢/ ١١٦ والكشاف ٣/ ٤٢١ .

إطاعة الله ورسوله تشمل كل ما تقدم من الأوامر والنواهي .

٧ ـ الاستعارة ﴿يذهب عنكم الرجس ويطهركم تطهيراً﴾ استعار الرجس للذنوب ، والطهر للتقوى لأن عرض المرتكب للمعاصي يتدنس ، وأما الطاعة فالعرض معها نقي مصون كالثوب الطاهر .

٨ ـ الإيجاز بالحذف ﴿والحافظات﴾ حذف المفعول لدلالة السابق عليه أي والحافظات فروجهن .

٩ ـ التغليب ﴿أعد الله لهم﴾ غلَّب الذكور وجمع الإناث معهم ثم أدرجهم في الضمير .

١٠ ـ توافق الفواصل مثل ﴿يسيراً ، قديراً ، كثيراً﴾ وهو من المحسنات البديعية .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله ورسوله أمراً . . إلى . . وكان الله على كل شيء رقيباً﴾ من آية (٣٦) إلى نهاية آية (٥٢) .

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى صفات المؤمنين وما نالوه من الدرجات الرفيعة ، أعقبها ببيان أن طاعة الرسول من طاعة الله ، وأمر الرسول من أمر الله ، ثم ذكّرهم تعالى بالنعمة العظمى وهي بعثة السراج المنير ، المبعوث رحمة للعالمين ﷺ .

اللغَة : ﴿الخِيَرة﴾ مصدر بمعنى الاختيار من تخيَّر على غير قياس مثل الطيرة من تطيَّر[1] ﴿مبديه﴾ أبدى الشيء : أظهره ﴿وَطراً﴾ الوطر : الحاجة التي هي في النفس قال الزجاج : الوطر الحاجةُ التي لك فيها هِمَّة فإذا بلغها الإنسان يقال : قضى وطره ، وقال المبرّد : الوطرُ : الشهوةُ يقال : ما قضيتُ من لقائك وَطَراً أي ما استمتعتُ بك كما تشتهي نفسي وأنشد :

وكيفَ ثَوائي بالمدينةِ بعدما قَضَى وطراً منها جميل بن معمر[2]

﴿حرج﴾ ضيق وإثم ﴿خَلَوا﴾ مضوا وذهبوا ﴿قدراً مقدوراً﴾ قضاءً مقضياً في الأزل ﴿بكرة﴾ البُكرة : هي أول النهار ﴿أصيلاً﴾ الأصيل : آخر النهار ﴿تُرجي﴾ تؤخر يقال أرجيتُ الأمر وأرجأته إذا أخرته[3] ﴿تؤوي﴾ تضم ومنه « آوى إليه أخاه » .

سَبَبُ النّزول : عن ابن عباس قال : خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لمولاه « زيد بن حارثة » فاستنكفت منه وكرهت وأبت فنزلت الآية ﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرةُ من أمرهم . .﴾ الآية فأذعنت زينب حينئذٍ وتزوجته . . وفي رواية « فامتنعت وامتنع أخوها عبد الله لنسبها من قريش فلما نزلت الآية جاء أخوها فقال يا رسول الله مرني بما شئت قال : فزوِّجها من زيد ، فرضي وزوَّجها[1] .

(١) البحر المحيط ٧/٢٣٣ . (٢) نفس المرجع ٧/٢٠٩ . (٣) القرطبي ١٤/٢١٤ . (٤) القرطبي ١٤/١٨٧ .

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾

التفسير : ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة﴾ أي لا ينبغي ولا يصح ولا يليق بأي واحدٍ من المؤمنين والمؤمنات ﴿إذا قضى الله ورسوله أمراً﴾ أي إذا أمر الله عز وجل وأمر رسوله بشيءٍ من الأشياء قال الصاوي : ذكرُ اسم الله للتعظيم وللإشارة إلى أن قضاء رسول الله هو قضاء الله لكونه لا ينطق عن الهوى[1] ﴿أن يكون لهم الخِيَرَة من أمرهم﴾ أي أن يكون لهم رأيٌ أو اختيار ، بل عليهم الانقياد والتسليم قال ابن كثير : وهذه الآية عامة في جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسولُه بشيءٍ فليس لأحدٍ مخالفته ، ولا اختيار لأحدٍ ولا رأي ولا قول[2] ، ولهذا شدَّد النكير فقال ﴿ومن يَعْصِ اللهَ ورسولَه فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً﴾ أي ومن يخالف أمر الله وأمر رسوله فقد حاد عن الطريق السوي ، وأخطأ طريق الصواب ، وضلَّ ضلالاً بيناً واضحاً ﴿وإذْ تقول للذي أنعم الله عليه﴾ أي اذكر أيها الرسول وقت قولك للذي أنعم الله عليه بالهداية للإسلام ﴿وأنعمتَ عليه﴾ بالتحرير من العبودية والإعتاق قال المفسرون : هو « زيد بن حارثة » كان من سبي الجاهلية اشترته « خديجة » ووهبته لرسول الله ﷺ فكان مملوكاً عنده ثم أعتقه وتبنَّاه[3] ، وزوَّجه ابنة عمته « زينب بنت جحش » رضي الله عنها ﴿أمْسِكْ عليكَ زَوْجَكَ واتَّقِ اللَّهَ﴾ أي أمسكْ زوجتك زينب في عصمتك ولا تطلّقها ، واتّقِ الله في أمرها ﴿وتُخْفي في نفسك ما اللهُ مبديه﴾ أي وتضمر يا محمد في نفسك ما سيظهره الله وهو إرادة الزواج بها[4] قال في التسهيل : الذي أخفاه رسول الله ﷺ أمر جائزٌ مباح لا إثم فيه ولا عتب ، ولكنه خاف أن

---

(١) حاشية الصاوي ٣/ ٢٧٨ . (٢) ابن كثير ٣/ ٩٧ من المختصر (٣) انظر قصة زيد في كتابنا روائع البيان ٢/ ٣٣٤ .

(٤) يتشبث بعض أعداء الإسلام بروايات ضعيفة واهية ، لا زمام لها خطام، للطعن في الرسول الكريم والنيل من مقامه العظيم ، وجدت في بعض كتب التفسير !! من هذه الروايات الباطلة التي تلقفها « المستشرقون » وخبّوا فيها وأوضعوا ، أن الرسول ﷺ رأى « زينب » وهي متزوجة بزيد بن حارثة فأحبَّها ووقعت في قلبه فقال « سبحان مقلب القلوب » فسمعتها زينب فأخبرت بها زيداً ، فأراد أن يطلقها فقال له الرسول ﴿أمسكْ عليك زوجك﴾ حتى نزل القرآن يعاتبه على إخفائه ذلك . . الخ وهذه رواياتٌ باطلة لم يصح فيها شيء كما قال العلامة « أبو بكر بن العربي » رحمه الله ، والآية صريحة في الردَّ على هذا البهتان ، فإن الله سبحانه أخبر بأنه سيظهر ما أخفاه الرسول ﴿وتخفي في نفسك ما اللهُ مبديه﴾ فماذا أظهر الله تعالى ؟ هل أظهر حب الرسول وعشقه لزينب ، أم أن الذي أظهره هو أمره عليه السلام بالزواج بها لحكمة عظيمة جليلة هي إبطال « حكم التبني » الذي كان شائعاً في الجاهلية ولهذا صرح تعالى بذلك وأبداه علناً وجهاراً ﴿فلما قضى زيدٌ منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم﴾ يا قوم اعقلوا وفكروا ، وتفهموا الحق لوجه الحق بلا تلبيس ولا تشويش وتبصروا فيما تقولون فمن غير المعقول أن يعاتب الشخص لأنه لم يجاهر بحبه لزوجة جاره ؟ وحاشا الرسول الطاهر الكريم أن يتعلق قلبه بامرأةٍ هي في عصمة رجل ، وأن يخفي هذا الحب حتى ينزل القرآن يعاتبه على إخفائه ، فإن مثل هذا لا يليق بأي رجل عادي ، فضلاً عن أشرف الخلق عليه أفضل الصلاة والتسليم ، وغاية ما في الأمر - كما نقل في البحر - عن علي بن الحسين أنه قال : « أعلم الله نبيه ﷺ أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد يشكوها إليه وقال له : اتق الله وأمسك عليك زوجك ، عاتبه الله وقال له : أخبرتك أني مزوجكها وتخفي في نفسك ما اللهُ مبديه» !!! انظر رد الفرية في كتابنا النبوة والأنبياء ص ٩٩ .

﴿زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾

يقول الناس تزوج امرأة ابنه إذ كان قد تبناه ، فأخفاه حياءً وحشمة وصيانة لعرضه من ألسنتهم ، فالذي أخفاه ﷺ هو إرادة تزوجها ليبطل حكم التبني فأبدى الله ذلك بأن قضى له بتزوجها ﴿وتخشى الناسَ واللهُ أحقُّ أن تخشاه﴾ أي تهاب أن يقول الناسُ تزوج محمد حليلة ابنه ، واللهُ أحقُّ أن تخشاه وحده ، وأن تجهر بما أوحاه إليك من أنك ستتزوج بها بعد أن يطلقها زيدٌ قال ابن عباس : خشي أن يقول المنافقون : تزوج محمد امرأة ابنه ﴿فلما قضى زيدٌ منها وطراً زوجناكها﴾ أي فلما قضى زيدٌ حاجته من نكاحها وطلَّقها زوجناك إياها يا محمد ، وهذا نصٌ قاطع صريح على أن الذي أخفاه رسول الله ﷺ هو إرادة الزواج بها بعد تطليق زيدٍ لها تنفيذاً لأمر الوحي ، لا حبُّه لها كما زعم الأفَّاكون ، ومعنى ﴿زوجناكها﴾ جعلناها زوجةً لك قال المفسرون : إنَّ الذي تولَّى تزويجها هو الله جل وعلا ، فلما انقضت عدتها دخل عليها رسول الله ﷺ بلا إذنٍ ولا عقدٍ ولا مهرٍ ولا شهود ، وكان ذلك خصوصية للرسول ﷺ روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « كانت زينبُ تفخَر على أزواج النبي ﷺ وتقول : زوَّجكُنَّ أهاليكُنَّ ، وزوَّجني ربي من فوقِ سبع سموات » ثم ذكر تعالى الحكمة من هذا الزواج فقال ﴿لكيلا يكون على المؤمنين حرجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قضَوْا منهنَّ وطَراً﴾ أي لئلا يكون في تشريع الله على المؤمنين ضيق ومشقة وتأثم في حق تزوج مطلقات الأبناء من التبني ، إذا لم يبق لأزواجهن حاجة فيهن قال ابن الجوزي : المعنى زوجناك زينب - وهي امرأة زيد الذي تبنَّيته - لكيلا يُظنَّ أن امرأة المتبنَّى لا يحل نكاحها ﴿وكانَ أمرُ اللَّهِ مفعولاً﴾ أي وكان أمر الله لك ، ووحيه إليك بتزوج زينب مقدَّراً محتماً كائناً لا محالة ، ولما نفى الحرج عن المؤمنين ، نفى الحرج عن سيد المرسلين بخصوصه على سبيل التكريم والتشريف فقال ﴿ما كان على النبي من حرجٍ فيما فرض اللهُ له﴾ أي لا حرج ولا إثم ولا عتاب على النبي فيما أباح الله له وقسم من الزوجات قال الضحاك : كان اليهود عابوه بكثرة النكاح ، فردَّ الله عليهم بقوله ﴿سُنَّةَ اللَّهِ في الذين خلوا من قبلُ﴾ أي هذه سنة الله في جميع الأنبياء السابقين حيث وسَّع عليهم فيما أباح لهم ، قال القرطبي : أي سنَّ لمحمد ﷺ في التوسعة عليه في النكاح ، سنة الأنبياء الماضية كداود وسليمان ، فكان لداود مائة امرأة ولسليمان ثلاثمائة امرأة ، عدا السُّريات[1] ﴿وكان أمرُ الله قدَراً مقدوراً﴾ أي قضاءً مقضياً ، وحكماً مقطوعاً به من الأزل ، لا يتغيَّر ولا يتبدَّل ، ثم أثنى تعالى على جميع الأنبياء والمرسلين بقوله ﴿الذين يبلِّغون رسالاتِ اللَّهِ﴾ أي هؤلاء الذين أخبرتك عنهم يا محمد ، وجعلتُ لك قدوة بهم ،

(١) القرطبي ١٤/ ١٩٥ .

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾

هم الذين يبلّغون رسالاتِ الله إلى من أُرسلوا إليه ﴿ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله﴾ أي يخافون الله وحده ولا يخافون أحداً سواه ، فاقتد يا محمد بهم ﴿وكفى بالله حسيباً﴾ أي يكفي أن يكون الله محاسباً على جميع الأعمال والأفعال ، فينبغي أن لا يُخْشى غيره ، ثم أبطل تعالى حكم التبني الذي كان شائعاً في الجاهلية فقال ﴿ما كان محمد أبا أحدٍ من رجالكم﴾ قالَ المفسرون : لما تزوج رسول الله ﷺ زينب قال الناس : إن محمداً قد تزوج امرأة ابنه فنزلت هذه الآية[1] قال الزمخشري : أي لم يكن أبا رجلٍ منكم على الحقيقة ، حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح[2] ﴿ولكنْ رسولَ الله وخاتم النبيين﴾ أي ولكنّه عليه السلام آخر الأنبياء والمرسلين ، ختم الله به الرسالات السماوية ، فلا نبيَّ بعده قال ابن عباس : يريد : لو لم أختم به النبيّين لجعلتُ له ولداً يكون بعده نبياً[3] ﴿وكان الله بكل شيء عليماً﴾ أي هو العالم بأقوالكم وأفعالكم ، لا تخفى عليه خافية من أحوالكم ﴿يا أيها الذينَ آمنوا اذكروا اللهَ ذكراً كثيراً﴾ أي اذكروا الله بالتهليل والتحميد ، والتمجيد والتقديس ذكراً كثيراً ، بالليل والنهار ، والسفر والحضر ﴿وسبحوه بُكرةً وأصيلاً﴾ أي وسبحوا ربكم في الصباح والمساء قال العلماء : خصهما بالذكر لأنهما أفضل الأوقات بسبب تنزل الملائكة فيهما[4] ﴿هو الذي يصلي عليكم﴾ أي هو جل وعلا يرحمكم على الدوام ، ويعتني بأمركم ، وبكل ما فيه صلاحكم وفلاحكم ﴿وملائكته﴾ أي وملائكتُه يصلون عليكم أيضاً بالدعاء والاستغفار وطلب الرحمة قال ابن كثير : والصلاةُ من الله سبحانه ثناؤه على العبد عند الملائكة ، وقيل : الصلاة من الله الرحمةُ ، ومن الملائكة : الدعاءُ والاستغفار[5] ﴿ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ أي لينقذكم من الضلالة إلى الهدى ، ومن ظلمات العصيان إلى نور الطاعة والإيمان ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ أي واسع الرحمة بالمؤمنين ، حيث يقبل القليل من أعمالهم ، ويعفو عن الكثير من ذنوبهم ، لإخلاصهم في إيمانهم ﴿تحيتُهم يومَ يلقونه سلامٌ﴾ أي تحية هؤلاء المؤمنين يوم يلقون ربهم السلامُ والإكرام في الجنة من الملك العلاّم كقوله تعالى ﴿سلامٌ قولاً من ربٍ رحيم﴾ ﴿وأعدَّ لهم أجراً كريماً﴾ أي وهيأ لهم أجراً حسناً وهو الجنة وما فيها من النعيم المقيم قال ابن كثير : والمراد بالأجر الكريم الجنةُ وما فيها من المآكل والمشارب ، والملابس والمساكن ، والملاذّ والمناظر ، مما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر[1] ، ثم لما بيَّن تعالى أنه أخرج المؤمنين من ظلمات

---

(١) رواه الترمذي عن عائشة . (٢) الكشاف ٣/ ٤٣٠ . (٣) زاد المسير ٦/ ٣٩٣ . (٤) حاشية الصاوي ٣/ ٢٨١ . (٥) ابن كثير المختصر ٣/ ١٠١ .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

الكفر والضلال إلى أنوار الهداية والإيمان ، عقَّبه بذكر أوصاف السراج المنير الذي أضاء الله به الأكوان فقال ﴿يا أيها النبيُّ إنا أرسلناك شاهداً﴾ أي شاهداً على أمتك وعلى جميع الأمم بأن أنبياءهم قد بلغوهم رسالة ربهم ﴿ومبشراً﴾ أي مبشراً للمؤمنين بجنات النعيم ﴿ونذيراً﴾ أي ومنذراً للكافرين من عذاب الجحيم ﴿وداعياً إلى الله بإذنه﴾ أي وداعياً للخلق إلى توحيد الله وطاعته وعبادته ، بأمره جل وعلا لا من تلقاء نفسك ﴿وسراجاً منيراً﴾ أي وأنت يا محمد كالسراج الوهَّاج المضيء للناس ، يُهْتدى بك في الدهماء ، كما يُهْتدى بالشهاب في الظلماء قال ابن كثير : أي أنت يا محمد كالشمس في إشراقها وإضاءتها لا يجحدها إلا معاند[٢] وقال الزمخشري : شبَّهه بالسراج المنير لأن الله جلى به ظلمات الشركِ ، واهتدى به الضالون ، كما يُجلي ظلامُ الليل بالسراج المنير ويُهْتدى به[٣] ، وصفه تعالى بخمسة أوصاف كلُّها كمالٌ وجمال ، وثناءٌ وجلال ، وختمها بأنه صلوات الله عليه هو السراج الوضاء الذي بدَّد الله به ظلمات الضلال ، فصلواتُ ربي وسلامه عليه في كل حين وآن ﴿وبشر المؤمنين بأنَّ لهم من الله فضلاً كبيراً﴾ أي وبشر يا محمد المؤمنين خاصة بأنَّ لهم من الله العطاء الواسع الكبير في جنات النعيم ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ أي لا تطعهم فيما يطلبونه منك من المساهلة والملاينة في أمر الدين، بل اثبت على ما أُوحي إليك ﴿وَدَعْ أذاهم﴾ أي ولا تكترث بإذايتهم لك ، وصدّهم الناسَ عنك ﴿وتوكل على الله﴾ أي واعتمد في جميع أمورك وأحوالك على الله ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ أي إن الله يكفي من توكل عليه في أمور الدنيا والآخرة قال الصاوي : وفي الآية إشارة إلى أن التوكل أمره عظيم ، فمن توكل على الله كفاه ما أهمَّه من أمور الدنيا والدين[٤] ، ولما كان الحديث عن نساء النبي ﷺ وقصة زيد وتطليقه لزينب ، جاء الحديث عن نساء المؤمنين والطريقة المثلى في تطليقهن فقال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات﴾ أي يا أيها المؤمنون الذين صدَّقوا بالله ورسوله إذا عقدتم عقد الزواج على المؤمنات وتزوجتموهن ﴿ثم طلقتموهن من قبل أن تمسّوهن﴾ أي ثم طلقتموهنَّ من قبل أن تجامعوهنَّ ، وإنما خصَّ المؤمنات بالذكر مع أن الكتابيات يدخلن في الحكم ، للتنبيه على أن الأليق بالمسلم أن يتخيَّر لنطفته ، وألاّ ينكح إلا مؤمنة عفيفة[٥] ﴿فما لكم عليهن من عدة تعتدونها﴾ أي فليس لكم عليهم حق

(١) ابن كثير ٣/ ١٠٢ المختصر . (٢) نفس المرجع السابق ٣/ ١٠٣ . (٣) الكشاف ٣/ ٤٣٢ . (٤) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٢٨٢ . (٥) انظر الكشاف ٣/ ٤٣٣ .

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠)﴾

في العدة تستوفون عددها عليهن ، لأنكم لم تعاشروهن فليس هناك احتمال للحمل حتى تحتبسوا المرأة من أجل صيانة نسبكم ﴿فمتعوهنَّ﴾ أي فالواجب عليكم إكرامهن بدفع المتعة بما تطيب نفوسكم به من مالٍ أو كسوةٍ ، تطييباً لخاطرهن ، وتخفيفاً لشدة وقع الطلاق عليهن ﴿وسرّحوهنَّ سراحاً جميلاً﴾ أي وخلّوا سبيلهنَّ تخليةً بالمعروف[1] ، من غير إضرار ولا إيذاء ، ولا هضمٍ لحقوقهن قال أبو حيان : والسراحُ الجميلُ هو كلمة طيبة دون أذى ولا منع واجب[2] ، ثم ذكر تعالى ما يتعلق بأحوال زوجات الرسول ﷺ فقال ﴿يا أيها النبيُّ إنا أحللنا لك أزواجك اللاَّتي آتيتَ أجورهُنَّ﴾ أي إنا قد أبحنا لك يا محمد أنواعاً من النساء ، توسعة عليك وتيسيراً لك في تبليغ الدعوة ، فمن ذلك أننا أبحنا لك زوجاتك اللاتي تزوجتهن بصداقٍ مُسمًّى ، وهُنَّ في عصمتك[3] ﴿وما ملكتْ يمينُكَ ممَّا أفاء اللهُ عليك﴾ أي وأبحنا لك أيضاً النساء اللاتي تملكهن في الحرب بطريق الانتصار على الكفار ، وإنما قيَّدهن بطريق الغنائم لأنهن أفضلُ من اللائي يُمْلكن بالشراء ، فقد بدل في إحرازهنَّ جهدٌ ومشقة لم يكن في الصنف الثاني ﴿وبناتِ عمِّك وبنات عمَّاتِكَ وبناتِ خالك وبنَاتِ خالاتكَ اللاَّتي هاجرنَ معك﴾ أي وأبحنا لك قريباتك من بنات الأعمام والعمات ، والأخوال والخالات بشرط الهجرة معك ﴿وامرأةً مؤمنةً إنْ وهبَتْ نفسها للنبي﴾ أي وأحللنا لك النساء المؤمناتِ الصالحات اللواتي وهبن أنفسهن لك ، حباً في الله ورسوله وتقرباً لك ﴿إن أراد النبي أن يستنكحها﴾ أي إن أردت يا محمد أن تتزوج من شئت منهن بدون مهر ﴿خالصةً لك من دون المؤمنين﴾ أي خاصة لك يا محمد دون سائر المؤمنين ، فإنه لا يحل لهم التزوج بدون مهر ، ولا تصح الهبة ، بل يجب مهر المثل ﴿قدْ علِمْنا ما فرضْنا عليهم في أزْواجهم وما ملكَتْ أيْمانهُم﴾ أي قد علمنا ما أوجبنا على المؤمنين من نفقةٍ ، ومهر ، وشهود في العقد ، وعدم تجاوز أربع من النساء ، وما أبحنا لهم من ملك اليمين عدا الحرائر ، وأما أنت فقد خصصناك بخصائص تيسيراً لك ﴿لكيلا يكون عليك حرج﴾ أي لئلا يكون عليك مشقة أو ضيق ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿تُرجي

(١) الطبري ٢٢/ ١٤ . (٢) البحر المحيط ٧/ ٢٤٠ . (٣) هذا أحد قولين للمفسرين ، والآخر أن المراد جميع النساء فقد أباح الله لرسوله ﷺ أن يتزوج كل امرأة يعطيها مهرها ، وهذا أوسع من الأول واختاره القرطبي واستدل بحديث عائشة « ما مات رسول الله ﷺ حتى أحلَّ الله له النساء » انظر القرطبي ١٤/ ٢٠٧ .

﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ۖ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا (٥٢) ﴾

مـن تشاء منهـنَّ وتُؤوي إليـك من تشاء﴾ أي ولك ـ أيها النبي ـ الخيار في أن تطلق من تشاء من زوجاتك ، وتمسك من تشاء منهن[1] **﴿ومـن ابتغيـتَ ممـن عزلت فلا جُنـاح عليـك﴾** أي وإذا أحببتَ أن تؤوي إليك امرأة ممن عزلتَ من القسمة فلا إثم عليك ولا عتب **﴿ذلك أدنـى أن تقـرَّ أعينُهُـنَّ ولا يحْزنَّ ويرْضين بما آتيتهُـنَّ كُلُّهُـنَّ﴾** أي ذلك التخيير الذي خيرناك في أمرهنَّ أقرب أن ترتاح قلوبهن فلا يحزنَّ ، ويرضين بصنيعك ، لأنهن إذا علمن أن هذا أمرٌ من الله ، كان أطيب لأنفسهن فلايشعرن بالحزن والألم **﴿واللهُ يعلـم ما فـي قلوبكـم﴾** خطابٌ للنبي على جهة التعظيم أي يعلم ما في قلبك يا محمد وما في قلب كل إنسان ، من عدل أو ميل ، ومن حب أو كراهية ، وإنما خيرناك فيهن تيسيراً عليك فيما أردت **﴿وكـان الله عليمـاً حليمـاً﴾** أي واسع العلم يعلم جميع ما تظهرون وما تخفون ، حليماً يضع الأمور في نصابها ولا يعاجل بالعقوبة ، بل يُؤخر ويمهل لكنه لا يُهْمل ، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت « كنتُ أغار من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وأقول : أتهبُ المرأة نفسها ؟ فلما نزلت **﴿تُرجي من تشاء منهـنَّ وتُؤْوي إليكَ من تشاءُ ، ومن ابتغيتَ ممن عزلتَ فلا جُناح عليـك﴾** قلت : ما أرى ربك إلاّ يسارع في هواك » ثم قال تعالى **﴿لا يحـلُّ لكَ النساء مـن بعدُ﴾** أي لا يحل لك أيها النبي النساء من بعد هؤلاء التسع اللاتي في عصمتك **﴿ولا أنْ تبدَّل بهـنَّ من أزواج﴾** أي ولا يحل لك أن تطلّق واحدة منهن وتنكح مكانها أُخرى **﴿ولـو أعجبـك حسنهـنَّ﴾** أي ولو أعجبك جمال غيرهن من النساء **﴿إلا ما ملكـت يمينك﴾** أي إلا ما كان من الجواري والإماء فلا بأس في ذلك لأنهن لسن زوجات **﴿وكـان الله علـى كل شيء رقيبـاً﴾** أي مطلعاً على أعمالكم شاهـداً عليهـا ، وفيه تحـذير من مجاوزة حدوده ، وتخطي حلالـه وحرامـه . قال المفسرون : أباح الله لرسوله أصنافاً أربعة « الممهورات ، المملوكات ، المهاجرات ، الواهبات أنفسهن » توسعة عليه ﷺ وتيسيراً له في نشر الرسالة وتبليغ الدعوة ، ولما نزلت آية التخيير **﴿قـل لأزواجك إن كنتُنَّ تُردن الحياة الدنيا . .﴾** الآية وخيَّرهن عليه السلام ، واخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، أكرمهن الله تعالى بأن قصره عليهن ، وحرَّم عليه أن يتزوج بغيرهن .

البَـلاغَـة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

(١) هذا قول ابن عباس ، وقال مجاهد والضحاك تقسم لمن شئت وتؤخر عنك من شئت ، وتقلل لمن شئت وتكثر لمن شئت ، لا حرج عليك في ذلك ، كذا في البحر ٢٤٧/٧ .

١ ـ التنكير لإفادة العموم ﴿وما كان لمؤ من ٍ ولا مؤ منة﴾ لأن النكرة في سياق النفي تفيد العموم ، أي ليس لواحدٍ منهم أن يريد غير ما أراده الله ورسوله .

٢ ـ الطباق بين ﴿تخفى . . ومبديه﴾ وبين ﴿الظلمات . . والنور﴾ وبين ﴿مبشراً . . ونذيراً﴾ وهو من المحسنات البديعية .

٣ ـ جناس الاشتقاق ﴿قَدَراً مقدوراً﴾ .

٤ ـ طباق السلب ﴿ويخشونه ولا يخشون أحداً﴾ .

٥ ـ التشبيه البليغ ﴿وسراجاً منيراً﴾ أصل التشبيه : أنت يا محمد كالسراج الوضاء في الهداية والإرشاد، حذفت منه أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً على حد قولهم : علي أسدٌ ، ومحمدٌ قمر .

٦ ـ الكناية ﴿من قبل أن تمسوهن﴾ كنّى عن الجماع بالمسِّ وهي من الكنايات المشهورة ، ومن الآداب القرآنية الحميدة لأن القرآن يتحاشى الألفاظ البذيئة .

٧ ـ الطباق بين ﴿بكرةً . . وأصيلاً﴾ وبين ﴿تُرجي . . وتؤوي﴾ وبين ﴿ابتغيت . . وعزلت﴾ .

٨ ـ توافق الفواصل ممّا يزيد في الجمال والإيقاع على السمع مثل ﴿مبشراً ونذيراً . . وسراجاً منيراً﴾ ومثل ﴿سراحاً جميلاً . . عليماً حليماً . . غفوراً رحيماً﴾ وهذا من خصائص القرآن العظيم ، وهو من المحسنات البديعية .

* * *

قال الله تعالى :﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي . . إلى. . وكان الله غفوراً رحيماً﴾ من آية (٥٣) إلى آية (٧٣) نهاية السورة .

المناسبة : لمّا ذكر تعالى أحوال النبيﷺ مع أزواجه ، ذكر هنا الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمنون عند دخلوهم بيوت النبيﷺ من الاستئذان وعدم الإثقال ، ثم بيَّن شرف الرسول بصلاة الله والملائكة عليه ، وختم السورة الكريمة بالحديث عن الساعة وما يعقبها من أهوالٍ لأهل الكفر والضلال ، وحال الأشقياء والسعداء في دار البقاء .

اللغة : ﴿إناه﴾ نضجه قال في اللسان : إنَى الشيء بلوغه وإدراكُه والإِنى بكسر الهمزة والقصر : النضجُ[1] ﴿مستأنسين﴾ الاستئناس : طلبُ الأنس بالحديث ، تقول استأنست بحديثه أي طلبت الأنس والسرور به ، وما بالدار من أنيس أي ليس بها أحد يؤ انسك أو يسليك ﴿متاعاً﴾ المتاعُ : الغرض والحاجة كالماعون وغيره ﴿بهتاناً﴾ البهتانُ : الافتراء والكذب الواضح ، وأصله من البهت وهو

(١) انظر لسان العرب .

القذف بالباطل[1] ﴿جلابيبهن﴾ جمع جلباب وهو الثوب الذي يستر جميع البدن وهو يشبه الملاءة « الملحفة » في زماننا، قال الشاعر :

تمشي النسورُ إليه وهي لاهيةٌ مشيَ العَذارى عليهنَّ الجلابيب[2]

﴿المرجفون﴾ جمع مرجف وهو الذي يشيع الكذب والباطل لإخافة الناس به قال الشاعر :

وإنّا وإن عيرتمونا بقتله وأرجف بالإسلام باغٍ وحاسد[3]

﴿نغرينَّك﴾ أغراه به : حثه وسلّطه عليه ﴿سعيراً﴾ ناراً شديدة الاستعار .

سَبَبُ النّزول : أ ـ روي عن أنس أن النبي ﷺ لما تزوَّج « زينب بنت جحش » أولمَ عليها ، فدعا الناس فلما طعموا جلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ وزوجتُه مولّيةٌ وجهها إلى الحائط ، فثقُلوا على رسول الله ﷺ قال أنس : فما أدري أأنا أخبرت النبي ﷺ أن القوم قد خرجوا أو أخبرني ، قال فانطلق حتى دخل البيتَ فذهبتُ أدخلُ معه فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجابُ ، ووُعظ الناسُ بما وُعظوا به وأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم . .﴾[4] .

ب ـ وقال ابن عباس : كان ناسٌ من المؤمنين يتحيَّنون طعام النبي ﷺ فيدخلون قبل أن يُدرك الطعام ، ويقعدون إلى أن يُدرك ، ثم يأكلون ولا يخرجون فنزلت[5] .

ج ـ وعن عائشة أنَّ عمر رضي الله عنه قال يا رسول الله : إنَّ نساءكَ يدخلُ عليهنَّ البرُّ والفاجرُ ، فلو أمرتهنَّ أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب ﴿وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن . .﴾[6] الآية .

د ـ عن السُّدّي أن الفُسَّاق كانوا يؤذون النساء إذا خرجن بالليل ، فإذا رأوا المرأة عليها قناع تركوها وقالوا : هذه حرة ، وإذا رأوها بغير قناع قالوا : أمةٌ فآذوها فأنزل الله ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن . .﴾[7] الآية .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ

التفسير : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يُؤذن لكم﴾ الإضافة للتشريف والتكريم ، والآية توجيه للمؤمنين لهذا الأدب السامي العظيم والمعنى لا تدخلوا بيوت النبي في حالٍ من الأحوال إلا في حال الإذن لكم منه عليه السلام ، مراعاةً لحقوق نسائه ، وحرصاً على عدم إيذائه والإثقال

(١) المصباح المنير ١/ ٧١ . (٢) لسان العرب لابن منظور . (٣) القرطبي ١٤/ ٢٤٦ . (٤) القرطبي ١٤/ ٢٢٤ وانظر كمال القصة في الصحيحين ، وفيها معجزة لرسول الله ﷺ باهرة . (٥) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٤٢ قال ابن جزي : والقول الأول المنقول عن أنس أشهر ، وقول ابن عباس بما في الآية من النهي عن الدخول حتى يؤذن لهم . (٦) أخرجه البخاري . (٧) زاد المسير لابن الجوزي ٦/ ٤٢٢ .

فَادْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ

عليه ﴿**إلى طعام غيرَ ناظرينَ إناهُ**﴾ أي إلاّ حين يدعوكم إلى طعام غير منتظرين نُضْجه ﴿**ولكن إذا دُعيتم فادخلوا**﴾ أي ولكنْ إذا دُعيتم وأُذن لكم في الدخول فادخلوا ﴿**فإذا طعِمْتُم فانتشروا**﴾ أي فإذا انتهيتم من الطعام فتفرقوا إلى دوركم ولا تمكثوا ﴿**ولا مستأنسين لحديث**﴾ معطوف على « غير ناظرين » أي لا تدخلوا بيوته منتظرين للطعام ، ولا مستأنسين لحديث بعضكم بعضاً قال **أبو حيان** : نهُوا أن يطيلوا الجلوسَ يستأنس بعضهم ببعض لحديثٍ يحدثه به[1] ﴿**إنَّ ذلكُم كان يُؤذِي النبيَّ**﴾ أي إنّ صنيعكم هذا يؤذي الرسول ، ويضايقه ويثقل عليه ، ويمنعه من قضاءِ كثيرٍ من مصالحه وأموره ﴿**فيَسْتَحْيي منكم**﴾ أي فيستحيي من إخراجكم ، ويمنعه حياؤه أن يأمركم بالانصراف ، لخُلقه الرفيع ، وقلبه الرحيم ﴿**والله لا يَسْتَحْيي من الحقّ**﴾ أي واللهُ جل وعلا لا يترك بيان الحق ، ولا يمنعه مانع من إظهار الحق وتبيانه لكم قال **القرطبي** : هذا أدبٌ أدَّب الله به الثقلاء ، وفي كتاب الثعلبي : حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم[2] ﴿**وإذا سألتموهُنَّ مَتاعاً فاسألوهنَّ من وراء حجاب**﴾ أي وإذا أردتم حاجةً من أزواجه الطاهرات فاطلبوه من وراء حاجزٍ وحجاب ﴿**ذلكم أطهرُ لقلوبكم وقلوبهنّ**﴾ أي سؤ الكم إياهنَّ المتاع من وراء حجاب أزكى لقلوبكم وقلوبهن وأطهر ، وأنفى للريبة وسوء الظن ﴿**وما كان لكم أن تؤذوا رسولَ اللّهِ**﴾ أي وما ينبغي لكم ولا يليق بكم أن تؤذوا رسولكم الذي هداكم الله به في حياته ﴿**ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً**﴾ أي ولا أن تتزوجوا زوجاته من بعد وفاته أبداً ، لأنهن كالأمهات لكم ، وهو كالوالد فهل يليق بكم أن تؤذوه في نفسه أو أهله ؟ ﴿**إن ذلكم كان عند الله عظيماً**﴾ أي إن إيذاءه ونكاح أزواجه من بعده أمر عظيم ، وذنب كبير لا يغفره الله لكم قال **أبو السعود** : وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله ﷺ وإيجاب حرمته حياً وميتاً ما لا يخفى[3] ثم قال تعالى ﴿**إن تُبدوا شيئاً أوتُخْفوه**﴾ أي إن تظهروا أمراً من الأمور أو تخفوه في صدوركم ﴿**فإنَّ اللهَ كان به عليماً**﴾ أي فإن الله عالم به وسيجازيكم عليه قال **البيضاوي** : وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيد تهويلٍ ومبالغة في الوعيد[4] ، ثم لما أنزل تعالى الحجاب استثنى المحارم فقال ﴿**لا جُناح عليهنَّ في آبائهنَّ ولا أبنائِهنَّ ولا إخوانهنَّ ولا أبناء**

(١) البحر المحيط ٧/٢٤٧ . (٢) تفسير القرطبي ١٤/٢٢٤ . (٣) أبو السعود ٤/٢١٨ . (٤) البيضاوي ٢/١٢٠ .

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾

إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهنَّ ولا ما ملكتْ أيمانهُنَّ﴾ أي لا حرج ولا إثم على النساء في ترك الحجاب أمام المحارم من الرجال قال القرطبي : لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء لرسول الله ﷺ : ونحنُ أيضاً نكلمهنَّ من وراء حجاب ؟ فنزلت هذه الآية[١] ، والمراد بـ ﴿نسائهن﴾ نساءُ المؤمنين قال ابن عباس ، لأن نساء اليهود والنصارى يصفن لأزواجهن النساء المسلمات ، فلا يحل للمسلمة أن تُبدي شيئاً منها لئلا تصفها لزوجها الكافر[٢] ﴿واتقينَ اللَّهَ﴾ أي اتَّقين يا معشر النساء اللَّهَ ، واخشينه في الخلوة والعلانية ﴿إن اللهَ كان على كل شيء شهيداً﴾ أي لا تخفى عليه خافية من أموركن ، يعلم خطرات القلوب كما يعلم حركات الجوارح قال الرازي : وهذا في غاية الحسن في هذا الموضع ، لأن ما سبق إشارة إلى جواز الخلوة بهم والتكشف لهم ، فختمها بأن الله شاهد عند اختلاء بعضهم ببعض ، فالخلوة عنده مثل الجلوة فعليهم أن يتقوا الله[٣] ، ثم بيَّن تعالى قدر الرسول العظيم فقال ﴿إنَّ اللهَ وملائكته يصلُّون على النبي﴾ أي إن الله جل وعلا يرحم نبيَّه ، ويعظّم شأنه ، ويرفع مقامه ، وملائكتُه الأبرار يدعون للنبي ويستغفرون له ، ويطلبون من الله أن يمجّد عبده ورسوله ويُنيله أعلى المراتب قال القرطبي : والصلاةُ من الله رحمتُه ورضوانه ، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار ، ومن الأمة الدعاءُ والتعظيمُ لأمره[٤] وقال الصاوي : وهذه الآية فيها أعظم الدليل على أنه ﷺ مهبط الرحمات ، وأفضل الأولين والآخرين على الإطلاق ، إذ الصلاة من الله على نبيه رحمتُه المقرونة بالتعظيم ، ومن اللَّهِ على غير النبي مطلقُ الرحمة كقوله ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكتُه﴾ فانظر الفرق بين الصلاتين ، والفضل بين المقامين ، وبذلك صار منبع الرحمات ، ومنبعَ التجليات[٥] ﴿يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلّموا تسليماً﴾ أي فأنتم أيها المؤمنون أكثروا من الصلاة عليه والتسليم ، فحقه عليكم عظيم ، فقد كان المنقذ لكم من الضلالة إلى الهدى ، والمخرج لكم من الظلمات إلى النور ، فقولوا كلما ذُكر اسمه الشريف « اللهم صلّ على محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً» عن كعب بن عُجرة قلنا يا رسول الله : قد عرفنا التسليم عليك فكيف الصلاة عليك؟ فقال : قولوا اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم . . »[٦] الحديث قال الصاوي : وحكمةُ صلاةِ الملائكةِ والمؤمنين على النبي ﷺ تشريفُهم بذلك ، حيث اقتدوا بالله جل وعلا في الصلاة عليه وتعظيمه ، ومكافأةٌ لبعض حقوقه على الخلق ، لأنه الواسطة العظمى في كل نعمةٍ وصلت لهم ، وحقٌ على من وصل له نعمة من شخص أن يكافئه ، ولما كان الخلق عاجزين عن مكافأته ﷺ طلبوا من القادر الملك أن يكافئه ، وهذا هو السر في قولهم « اللهم صل على محمد »[٧] ﴿إن الذين يُؤذون اللَّهَ ورسوله﴾ أي يؤذون الله بالكفر ونسبة الصاحبة والولد له ، ووصفه بما لا يليق به جل وعلا كقول اليهود ﴿يدُ اللهِ

---

(١) القرطبي ١٤/ ٢٣١ . (٢) انظر حاشية الصاوي ٣/ ٢٨٧ . (٣) التفسير الكبير ٢٥/ ٢٢٧ . (٤) القرطبي ١٤/ ٢٣٢ .

(٥) حاشية الصاوي ٣/ ٢٨٧ . (٦) و(٧) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٢٨٧ .

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾ * لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ﴾

مغلولة﴾ وقول النصارى « المسيحُ بنُ الله » ويؤذون الرسول بالتكذيب برسالته ، والطعن في شريعته ، والاستهزاء بدعوته قال ابن عباس : نزلت في الذين طعنوا على الرسول ﷺ حين اتخذ صفية بنت حُيي[1] ﴿لعنهم الله في الدنيا والآخرة﴾ أي طردهم من رحمته ، وأحل عليهم سخطه وغضبه في الدنيا بالهوان والصغار ، وفي الآخرة بالخلود في عذاب النار ﴿وأعدَّ لهم عذاباً مهيناً﴾ أي وهيأ لهم عذاباً شديداً ، بالغ الغاية في الإهانة والتحقير ﴿والذين يؤذونَ المؤمنينَ والمؤمناتِ بغيرِ ما اكتسبوا﴾ أي يؤذون أهل الإيمان بغير ما فعلوه ، وبغير جنايةٍ واستحقاقٍ للأذى ﴿فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ أي فقد حمَّلوا أنفسهم البهتان والكذب ، والزور ، والذنب الواضح الجلي قال القرطبي : أطلق إيذاء الله ورسوله ، وقيَّد إيذاء المؤمنين والمؤمنات ، لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون إلا بغير حق أبداً ، وأما إيذاء المؤمنين والمؤمنات فمنه ومنه[2] ولما حرَّم تعالى الإيذاء ، أمر نبيه الكريم أن يوجه النداء إلى الأمة جمعاء ، للتمسك بالإسلام وتعاليمه الرشيدة ، وبالأخص في أمرٍ اجتماعي خطير وهو « الحجاب » الذي يصون للمرأة كرامتها ، ويحفظ عليها عفافها ، ويحميها من النظرات الجارحة ، والكلمات اللاذعة ، والنوايا الخبيثة لئلا تتعرض لأذى الفساق فقال ﴿يا أيها النبيُ قُلْ لأزواجِكَ وبناتِكَ ونساءِ المؤمنين يُدْنِينَ عليهنَّ من جلابيبهنَّ﴾ أي قل يا محمد لزوجاتك الطاهرات - أمهات المؤمنين - وبناتك الفضليات الكريمات ، وسائر نساء المؤمنين ، قل لهنَّ يلبسن الجلباب الواسع ، الذي يستر محاسنهن وزينتهن ، ويدفع عنهن ألسنة السوء ، ويميزهن عن صفاتِ نساء الجاهلية ، روى الطبري : عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية : أمر اللهُ نساءَ المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب ويبدين عيناً واحدة[3] ، وروى ابن كثير عن محمد بن سيرين قال : سألت عبيدة السلماني عن قول الله عز وجل ﴿يُدنين عليهنَّ من جلابيبهنَّ﴾ فغطّى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى[4] ﴿ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يُؤذين﴾ أي ذلك التستر أقرب بأن يُعْرفن بالعفة والتستر والصيانة ، فلا يطمع فيهن أهل السوء والفساد ، وقيل : أقرب بأن يُعرفن أنهن حرائر ، ويتميزن عن الإماء ، ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي إنه تعالى غفور لما سلف منهن من تفريط ، رحيم بالعباد حيث راعى مصالحهم وشئونهم تلك الجزئيات . . ثم هدَّد المولى جل وعلا كل المؤذين من جميع الأصناف بأنواع العقاب فقال ﴿لئن لم ينته المنافقون والذينَ في قلوبهم مرض﴾ أي لئن

(١) زاد المسير ٦/ ٤٢٠ . (٢) القرطبي ١٤/ ٢٣٨ . (٣) هذا النص عن ابن عباس صريح في وجوب ستر الوجه ، وكذا رواية ابن كثير عن محمد ابن سيرين ، وغيرهما من الروايات الصحيحة والصريحة بوجوب ستر المرأة للوجه ، فأين أقوال السلف الصالح وأئمة علماء التفسير الأجلاء ، من أقوال أدعياء العلم في هذا العصر والزمان ، الذين يبيحون للمرأة أن تكشف وجهها أمام الأجانب !! وانظر أقوال المفسرين في كتابنا « روائع البيان » ٢/ ٣٨٢ . (٤) ابن كثير ٣/ ١١٤ .

﴿لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾﴾

لم يترك هؤلاء المنافقون -الذين يُظهرون الإيمان ويبطنون الكفر- نفاقهم، والزناةُ -الذين في قلوبهم مرض فجور- فجورهم **﴿والمرجفون في المدينة﴾** أي الذين ينشرون الأراجيف والأكاذيب لبلبلة الأفكار، وخلخلة الصفوف، ونشر أخبار السوء **﴿لنغرينَّك بهم﴾** أي لنسلطنك عليهم يا محمد **﴿ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً﴾** أي ثم يخرجون من المدينة فلا يعودون إلى مجاورتك فيها إلا زمناً قليلاً، ريثما يتأهبوا للخروج قال الرازي: وعد الله نبيه أن يخرج أعداءه من المدينة وينفيهم على يده، إظهاراً لشوكته[١] **﴿ملعونين﴾** أي مبعدين عن رحمته تعالى **﴿أينما ثُقفوا أُخذوا وقُتلوا تقتيلاً﴾** أي أينما وجدوا وأدركوا أُخذوا على وجه الغلبة والقهر ثم قُتِّلوا لكفرهم بالله تقتيلاً **﴿سُنَّةَ اللَّهِ في الذينَ خلوا من قبْلُ﴾** أي هذه سنة الله في المنافقين وعادتُه فيمن سبق منهم أن يُفعل بهم ذلك قال القرطبي: أي سنَّ الله عز وجل فيمن أرجف بالأنبياء وأظهر نفاقه أن يؤخذ ويُقتل[٢] **﴿ولنْ تجد لسُنَّة اللهِ تبديلاً﴾** أي ولن تتغير أو تتبدل سنة الله، لكونها بُنيت على أساسٍ متين، قال الصاوي: وفي الآية تسلية للنبي ﷺ أي فلا تحزن على وجود المنافقين يا محمد، فإن ذلك سنة قديمة لم يخل منهم زمن من الأزمان[٣] ثم ذكر تعالى الساعة وأهوالها فقال **﴿يسألك الناسُ عن الساعةِ﴾** أي يسألك يا محمد المشركون على سبيل الاستهزاء والسخرية عن وقت قيام الساعة **﴿قل إنما علمها عندَ اللَّهِ﴾** أي قل لهم: لست أعرف وقتها وإنما يعلم ذلك علاّم الغيوب، فإن الله أخفاها لحكمة ولم يُطلع عليها مَلَكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً **﴿وما يُدريك لعل الساعةَ تكون قريباً﴾** أي وما يُعلمك أن الساعة تكون في وقت قريب؟ قال أبو السعود: وفيه تهديدٌ للمستعجلين، وتبكيتٌ للمتعنّتين، والإظهارُ في موضع الإضمار للتهويل وزيادة التقرير[٤] **﴿إنَّ الله لعن الكافرين﴾** أي طرد الكافرين وأبعدهم عن رحمته **﴿وأعدَّ لهم سعيراً﴾** أي وهيأ لهم ناراً شديدة مستعرة **﴿خالدين فيها أبداً﴾** أي مقيمين في السعير أبد الآبدين **﴿لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾** أي لا يجدون لهم من ينجيهم وينقذهم من عذاب الله **﴿يومَ تُقلَّبُ وجوههم في النار﴾** أي يوم تتقلب وجوههم من جهة إلى جهة كاللحم يُشوى بالنار **﴿يقولون يا ليتنا أطعنا اللهَ وأطعنا الرسولا﴾** أي يقولون متحسرين على ما فاتهم:

---

(١) التفسير الكبير ٢٥/ ٢٣١. (٢) القرطبي ١٤/ ٢٤٧. (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٢٨٨.
(٤) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٢٠.

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾

يا ليتنا أطعنا الله ورسوله حتى لا نبتلى بهذا العذاب المهين **﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا﴾** أي أطعنا القادة والأشراف فينا فأضلونا طريق الهدى والإيمان **﴿ربنا آتهم ضعفين من العذاب﴾** أي اجعل عذابهم ضعفي عذابنا ، لأنهم كانوا سبب ضلالنا **﴿والعنهم لعناً كبيراً﴾** أي والعنهم أشد أنواع اللعن وأعظمه ، ثم حذر تعالى من إيذاء الرسول كما آذى اليهود نبيهم فقال **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا﴾** أي لا تكونوا أمثال بني إسرائيل الذين آذوا نبيهم موسى واتهموه ببرصٍ في جسمه أو أُدْرةٍ لفرط تستره وحيائه ، فأظهر الله براءته وأكذبهم فيما اتهموه به روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (إنَّ موسى كان رجلاً حيياً ستِّيراً ، لا يُرى من جلده شيء استحياء منه ، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا : ما يتستر هذا التستر إلا من عيبٍ بجلده ، إمّا برص وإما أُدرة - انتفاخ الخصية - وإما آفة ، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى ، فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها وإن الحجَر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول : ثوبي حجر ، ثوبي حجر ، حتى مرَّ على ملأٍ من بني إسرائيل فرأوه أحسنَ ما خلق الله عرياناً ، وأبرأه مما يقولون) الحديث[1] **﴿وكان عند الله وجيهاً﴾** أي وكان موسى ذا وجاهة ورفعة ومكانة عند ربه قال ابن كثير : أي له وجاهة وجاه عند ربه ، لم يسأل شيئاً إلا أعطاه[2] **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ وقولوا قولاً سديداً﴾** أي راقبوا الله في جميع أقوالكم وأفعالكم ، وقولوا قولاً مستقيماً مرضياً لله قال الطبري : أي قولاً قاصداً غير جائر ، حقاً غير باطل[3] **﴿يُصلحْ لكم أعمالكم﴾** أي يوفقكم لصالح الأعمال ويتقبلها منكم قال ابن عباس : يتقبل حسناتكم **﴿ويغفر لكم ذنوبكم﴾** أي يمحو عنكم الذنوب والأوزار **﴿ومن يطع اللّهَ ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾** أي ومن أطاع الله والرسول فقد نال غاية مطلوبه ، ثم لما أرشدهم إلى مكارم الأخلاق ، نبّههم على قدر التكاليف الشرعية التي كلّف الله بها البشرية فقال **﴿إنّا عَرَضْنا الأَمانة على السَّموات والأرض والجبالِ فأَبيْنَ أنْ يحمِلْنها وأشفَقْنَ منها﴾** أي عرضنا الفرائض والتكاليف الشرعية على السموات والأرض والجبال الراسيات فأعرضن عن حملها وخفن من ثقلها وشدتها ، والغرض تصوير عظم الأمانة وثقل حملها قال أبو السعود : والمعنى أن

---

(١) البخاري ٦/٣١٢ وانظر ابن كثير ٣/١١٦ من المختصر . (٢) مختصر ابن كثير ٣/١١٦ . (٣) الطبري ٢٢/٣٨ .

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

تلك الأمانة في عظم الشأن بحيث لو كلفت هاتيك الأجرام العظام ـ التي هي مثل في القوة والشدة ـ وكانت ذا شعور وإدراك على مراعاتها لأبين قبولها وأشفقن منها[1] وقال ابن جزي : الأمانةُ هي التكاليف الشرعية من التزام الطاعات ، وترك المعاصي ، وقيل : هي الأمانةُ في الأموال ، والصحيحُ العموم في التكاليف ، وعرضُها يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون اللهُ خلق لها إدراكاً فعرضت عليها الأمانة حقيقةً فأشفقت منها وامتنعت من حملها ، والثاني : أن يكون المراد تعظيم شأن الأمانة وأنها من الثقل بحيث لو عُرضت على السموات والأرضِ والجبال ، لأبين من حملها وأشفقن منها ، فهذا ضربٌ من المجاز كقولك : عرضتُ الحملَ العظيم على الدابة فأبتْ أن تحمله ، والمراد أنها لا تقدر على حمله[2] ﴿**وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً**﴾ أي وتحمَّلها الإنسان إنه كان شديد الظلم لنفسه ، مبالغاً في الجهل بعواقب الأمور **قال ابن الجوزي** : لم يرد بقوله ﴿أبين﴾ المخالفة ، وإنما أبين للخشية والمخافة ، لأن العَرض كان تخييراً لا إلزاماً[3] ﴿**ليعذب الله المنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركات**﴾ قال ابن كثير : أي إنما حمَّل بني آدم الأمانة وهي التكاليف ليعذب الله المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ، والمشركين الذين ظاهرهم وباطنهم على الكفر ﴿**ويتوبَ اللهُ على المؤمنين والمؤمنات**﴾ أي ويرحم أهل الإيمان ، ويعود عليهم بالتوبة والمغفرة والرضوان ﴿**وكان الله غفوراً رحيماً**﴾ أي واسع المغفرة للمؤمنين حيث عفا عما سلف منهم ، رحيماً بهم حيث أثابهم وأكرمهم بأنواع الكرامات .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الإضافة للتشريف ﴿لا تدخلوا بيوت النبي﴾ لأنها لما نسبت للنبي تشرفت .

٢ ـ الطباق بين ﴿ادخلوا . . وانتشروا﴾ وبين ﴿تبدوا . . وتخفوا﴾ وبين ﴿ثُقفوا . . وأخذوا﴾ .

٣ ـ طباق السلب ﴿فيستحيي منكم ، واللهُ لا يستحي من الحق﴾ .

٤ ـ ذكر الخاص بعد العام ﴿لئن لم ينته المنافقون . . والمرجفون﴾ والمرجفون هم من المنافقين ، فعمَّم ثم خصَّص زيادة في التقبيح والتشنيع عليهم .

٥ ـ ذكر اللفظ بصيغة « فعول » و « فعيل » للمبالغة مثل ﴿إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ ﴿بكل شيء عليماً﴾ ﴿على كل شيء شهيداً﴾ الخ .

٦ ـ الإتيان بالمصدر مع الفعل للتأكيد ﴿وقُتلوا تقتيلاً﴾ ﴿وسلّموا تسليماً﴾ .

---

(١) أبو السعود ٤/ ٢٢١ . (٢) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٤٥ . (٣) زادالمسير ٦/ ٤٢٨ .

٧ ـ التحسر والتفجع بطريق التمني ﴿يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا﴾ .

٨ ـ التشبيه ﴿لا تكونوا كالذين آذوا موسى﴾ ويسمى التشبيه المرسل المجمل .

٩ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال﴾ مثَّل للأمانة في ضخامتها وعظمها وتفخيم شأنها بأنها من الثقل بحيث لو عرضت على السموات والأرض والجبال وهي من القوة والشدة بأعلى المنازل لأبت عن حملها وأشفقت منها ، وهو تمثيل رائع لتهويل شأن الأمانة .

١٠ ـ المقابلة اللطيفة بين ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات﴾ وبين ﴿ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات﴾ وفي ختم السورة بهذه الآية من البدائع ما يسميه علماء البديع « رد العجز على الصدر » لأن بدء السورة كان في ذم المنافقين ، وختامها كان في بيان سوء عاقبة المنافقين ، فحسن الكلام في البدء والختام .

١١ ـ الثناء على الرسول ﴿إنَّ الله وملائكته يصلون﴾ ورد بهذه الصيغة وفيه دقائق بيانية :

أ ـ جاء الخبر مؤكداً بـ « إنَّ » اهتماماً به .

ب ـ وجيء بالجملة إسمية لإفادة الدوام .

ج ـ وكانت الجملة إسمية في صدرها « إن الله » فعلية في عجزها « يصلون » للإشارة إلى أن هذا الثناء من الله تعالى على رسوله يتجدد وقتاً فوقتاً على الدوام ، فتدبر هذا السر الدقيق .

١٢ ـ مراعاة الفواصل لما له من الوقع الحسن على السمع مثل ﴿أعدَّ لهم سعيراً . . لا يجدون لهم ولياً ولا نصيراً . . والعنهم لعناً كبيراً﴾ الخ وهو من المحسنات البديعية .

لطيفة : أشارت الآية الكريمة ﴿قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين﴾ إلى لطيفة وهي أن الدعوة لا تثمر إلا إذا بدأ الداعي بها في نفسه وأهله ، وهذا هو السر في البدء بالحجاب الشرعي بنساء الرسول وبناته .

« الردُّ على من أباح كشف الوجه ، وطائفة من أقوال المفسرين في وجوب ستره »

١ ـ **قال ابن كثير** : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن لحاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب .

٢ ـ **وقال ابن الجوزي** : في قوله تعالى ﴿يدنين عليهن من جلابيبهن﴾ أي يغطين رءوسهن ووجوههن ليعلم أنهن حرائر .

٣ ـ وقال أبو السعـود : ومعنـى الآية أي يغطـين بهـا وجوههـن وأبدانهـن إذا برزن لداعية من الدواعي .

٤ ـ وقال الطبري : أي لا تتشبهن بالإماء في لباسهن إذا خرجـن لحاجتهـن فكشفـن شعورهـن ووجوههن لئلا يعرض لهن فاسق .

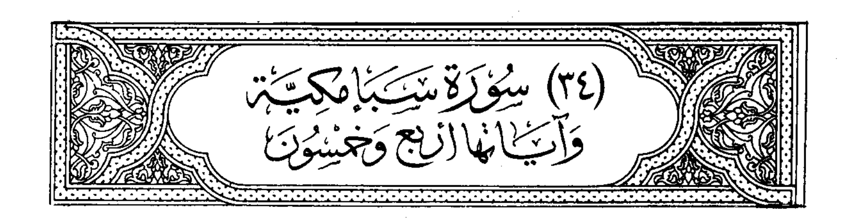
٥ ـ وقال في البحر : والمراد بقوله ﴿عليهن﴾ أي على وجوههن ، لأن الـذي كان يبـدو منهـن في الجاهلية هو الوجه .

٦ ـ وقال الجصاص : وفي الآية دلالة على أن المرأة الشابة مأمورة بستر وجهها عن الأجانب لئلا يطمع فيها أهل الريب . فهذه جملة من أقوال أئمة التفسير في وجوب ستر وجه المرأة ، والله يقول الحق ويهدي السبيل[1] .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الأحزاب »

***

(١) انظر شروط الحجاب الشرعي وكيفيته والحكمة التشريعية منه في كتابنا « روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن » ٢/ ٣٨٧ .



بين يدي السورة

* سورة سبأ من السور المكية ، التي تهتم بموضوع العقيدة الإسلامية ، وتتناول أصول الدين ، من إثبات الوحدانية ، والنبوة ، والبعث والنشور .

* ابتدأت السورة الكريمة بتمجيد الله جل وعلا ، الذي أبدع الخلق ، وأحكم شئون العالم ، ودبَّر الكون بحكمته ، فهو الخالق المبدع الحكيم ، الذي لا يغيب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، وهذا من أعظم البراهين على وحدانية رب العالمين .

* وتحدثت السورة عن قضيةٍ هامة ، هي إنكار المشركين للآخرة ، وتكذيبهم بالبعث بعد الموت ، فأمرت الرسول ﷺ أن يقسم بربه العظيم ، على وقوع المعاد ، بعد فناء الأجساد ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم . .﴾ الآية .

* وتناولت السورة قصص بعض الرسل ، فذكرت « داود » وولده « سليمان » عليهما السلام ، وما سخَّر الله لهما من أنواع النعم ، كتسخير الريح لسليمان ، وتسخير الطير والجبال تسبّح مع « داود » إظهاراً لفضل الله عليهما في ذلك العطاء الواسع .

* وتناولت السورة بعض شبهات المشركين ، حول رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين ، ففندتها بالحجة الدامغة والبرهان الساطع ، كما أقامت الأدلة والبراهين على وجود الله ووحدانيته .

* وختمت السورة بدعوة المشركين إلى الإيمان بالواحد القهار ، الذي بيده تدبير أمور الخلق أجمعين .

التسمية : سميت سورة « سبأ » لأن الله تعالى ذكر فيها قصة سبأ ، وهم ملوك اليمن ، وقد كان أهلها في نعمة ورخاء ، وسرور وهناء ، وكانت مساكنهم حدائق وجنات ، فلما كفروا النعمة دمَّرهم الله بالسيل العرم ، وجعلهم عبرة لمن يعتبر .

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾

اللغــة : ﴿يلـج﴾ يدخل والولوج الدخول ومنه « حتّى يلج الجمل في سم الخياط » ﴿يعرج﴾ يصعد ومنه المعراج لأنه صعودٌ إلى السموات ﴿يـعزُب﴾ يغيب يقال : عزب عن عينه أي غاب عنهـا ﴿مثقـال﴾ وزن ومقدار ﴿جِنَّة﴾ بكسر النون بمعنى الجنون وبضمها بمعنى الوقاية والحجاب ﴿كسفـاً﴾ قطعاً ﴿أوبي﴾ سبحي والتأويب : التسبيح ﴿سابغات﴾ واسعات كاملات يقال : سبغ الدرعُ والثوبُ إذا غطّى كل البدن وفضل منه شيء قال أبو حيان : السابغات : الدروع وأصله الوصف بالسبوغ وهو التام والكمال ، وغلب على الدروع فصار كالأبطح قال الشاعر :

عليهـا أُسـودٌ ضاريـاتٌ لبُوسُهم ... سوابـغُ بيضٌ لا يخرقهـا النَّبل[1]

﴿السَّـرد﴾ النسج ، وهو نسج حلق الدروع قال القرطبي : وأصله من الإحكام قال لبيد :

صنـع الحـديد مضاعفـاً أسراده ... لينـال طول العيش غـير مروم[2]

﴿القطر﴾ النحاس المذاب ﴿جفان﴾ جمع جفنة وهي القصعة الكبيرة ﴿الجوابي﴾ جمع جابية وهي الحوض الكبير يجمع فيه الماء قال الأعشى :

نفـى الـذم عن آل المحلّـق جفنـةٌ ... كجـابية الشيخ العراقـي تفهق[3]

﴿منسأته﴾ المنسأة : العصا سميت بذلك لأنه يُنسأ بها أي يُطرد ويزجر قال الشاعر :

إذا دببـتَ على المنْسـاة من كبر ... فقـد تباعـد عنك اللهـو والغزل[4]

التفسـير : ﴿الحمـد لله الـذي له مـا في السموات ومـا فـي الأرض﴾ أي الثناء الكامل على جهة التعظيم والتبجيل لله الذي له كل ما في الكون خلقاً وملكاً وتصرفاً ، الجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وتصرفه ، فله الحمد في الدنيا لكمال قدرته ، وفي الآخرة لواسع رحمته ﴿ولـه الحمـد في الآخـرة﴾ أي وله الحمد بأجمعه لا يستحقه أحد سواه ، لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة ﴿وهـو الحكيـم الخبيـر﴾ أي الحكيم في صنعه ، الخبير بخلقه ، فلا اعتراض عليه في فعلٍ من أفعاله ﴿يعلـم ما يلـج في الأرضِ ومـا يخرج منهـا﴾ تفصيل لبعض معلوماته جلَّ وعلا أي يعلم ما يدخل في جوف الأرض من المطر والكنوز

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٥٥ . (٢) القرطبي ١٤/ ٢٦٩ . (٣) القرطبي ١٤/ ٢٧٥ . (٤) البحر ٧/ ٢٥٥ .

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ﴾

والأموات ، وما يخرج من الأرض من الزروع والنباتات وماء العيون والآبار ﴿**وما ينزل من السماء وما يعرج فيها**﴾ أي وما ينزل من السماء من المطر والملائكة والرحمة ، وما يصعد إليها من الأعمال الصالحات ، والدعوات الزاكيات ﴿**وهو الرحيم الغفور**﴾ أي الرحيم بعباده ، الغفور عن ذنوب التائبين حيث لا يعاجلهم بالعقوبة ، ثم حكى تعالى مقالة المنكرين للبعث والقيامة فقال ﴿**وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعةُ**﴾ أي وقال المشركون من قومك لا قيامة أبداً ولا بعث ولا نشور قال البيضاوي : وهو إنكار لمجيئها أو استبطاء استهزاءً بالوعد به[1] ﴿**قل بلى وربي لتأتينكم**﴾ أي قل لهم يا محمد : أقسم بالله العظيم لتأتينكم الساعة ، فإنها واقعة لا محالة قال ابن كثير : هذه إحدى الآيات الثلاث التي أمر الله رسوله أن يقسم بربه العظيم على وقوعها ، والثانية في يونس ﴿قل إي وربّي إنه لحقٌ﴾ والثالثة في التغابن ﴿قل بلى وربّي لتُبعثن﴾[2] ﴿**عالم الغيب لا يعزُب عنه مثقالُ ذرةٍ في السموات ولا في الأرض**﴾ أي هو جل وعلا العالمُ بما خفي عن الأبصار ، وغاب عن الأنظار ، لا يغيب عنه مقدار وزن الذرة في العالم العلوي أو السفلي ﴿**ولا أصغر من ذلك ولا أكبر**﴾ أي ولا أصغر من الذرة ولا أكبر منها ﴿**إلا في كتاب مبين**﴾ أي إلا ويعلمه الله تعالى وهو في اللوح المحفوظ ، والغرضُ أن الله تعالى لا تخفى عليه ذرة في الكون فكيف يخفى عليه البشر وأحوالهم ؟ فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت ، فهو تعالى عالمٌ أين ذهبت وتفرقت ، ثم يعيدها يوم القيامة ﴿**ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ أي أثبت ذلك في الكتاب المبين لكي يثيب المؤمنين الذين أحسنوا في الدار الدنيا بأحسن الجزاء ﴿**أولئك لهم مغفرةٌ ورزق كريم**﴾ أي لهم مغفرة لذنوبهم ، ورزق حسن كريم في دار النعيم ﴿**والذين سعو في آياتنا معاجزين**﴾ أي وأما الذين بذلوا جهدهم وجدّوا لإِبطال القرآن مغالبين لرسولنا ، يظنون أنهم يعجزونه بما يثيرونه من شبهات حول رسالته والقرآن ﴿**أولئك لهم عذابٌ من رجزٍ أليم**﴾ أي فهؤلاء المجرمون لهم عذاب من أسوأ العذاب ، شديد الإِيلام قال قتادة : الرجزُ : سوء العذاب ﴿**ويرى الذين أوتوا العلم**﴾ أي ويعلم أولوا العلم من أصحاب النبي عليه السلام ومن جاء بعدهم من العلماء العاملين ﴿**الذي أُنزل إليك من ربك هو الحقّ**﴾ أي يعلمون أن هذا القرآن الذي أُنزل عليك يا محمد هو الحق

(١) تفسير البيضاوي ٢/١٢٢ . (٢) ابن كثير المختصر ٣/١٢١ .

ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾

الذي لا يأتيه الباطل ﴿ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾ أي ويرشد من تمسك به إلى طريق الله الغالب الذي لا يُقهر ، الحميد أي المحمود في ذاته وصفاته وأفعاله ، ثم ذكر تعالى أساليب المشركين في الصدِّ عن دين الله ، والسخرية برسول الله فقال ﴿وقال الذين كفروا﴾ أي وقال الكافرون من مشركي مكة المنكرون للبعث والجزاء ﴿هل ندلكم على رجلٍ ينبئكم﴾ أي هل نرشدكم إلى رجلٍ يحدثكم بأعجب الأعاجيب ؟ - يعنون محمداً ﷺ - ﴿إذا مُزّقتم كلَّ ممزَّق﴾ أي إذا بليتم في القبور ، وتفرقت أجسادكم في الأرض ، وذهبت كل مذهب بحيث صرتم تراباً ورفاتاً ﴿إنكم لفي خلق جديد﴾ ؟ أي إنكم ستخلقون خلقاً جديداً بعد ذلك التمزيق والتفريق ؟ والغرضُ من هذا المقال هو السخرية والاستهزاء قال أبو حيان : والقائلون هم كفار قريش قالوه على جهة التعجب والاستهزاء ، كما يقول الرجل لمن يريد أن يعجبه : هل أدلك على قصة غريبة نادرة ؟ ولما كان البعث عندهم من المحال جعلوا من يخبر عن وقوعه في حيز من يتعجب منه ، ونكّروا اسمه عليه ﴿هل ندلكم على رجل﴾ مع أن اسمه أشهر علم في قريش بطريق الاستهزاء[1] ﴿أفترى على الله أم به جِنَّة﴾ أي هل اختلق الكذب على الله ، أم به جنون فهو يتكلم بما لا يدري ؟ قال تعالى رداً عليهم ﴿بل الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ ﴿بل﴾ للإضراب أي ليس الأمر كما يزعمون من الكذب والجنون ، بل الذين يجحدون البعث ولا يصدّقون بالآخرة ﴿في العذاب والضلال البعيد﴾ أي بل هؤلاء الكفار في ضلالٍ وحيرةٍ عن الحق توجب لهم عذاب النار ، فهم واقعون في الضلال وهم لا يشعرون وذلك غاية الجنون والحماقة ، ولما ذكر تعالى ما يدل على إثبات الساعة ، ذكر دليلاً آخر يتضمن التوحيد مع التهديد فقال ﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾ أي ألم يشاهدوا ما هو محيط بهم من جميع جوانبهم من السماء والأرض ؟ فإن الإنسان أينما توجه وحيثما نظر رأى السماء والأرض أمامه وخلفه ، وعن يمينه وشماله ، وهما يدلان على وحدانية الصانع ، أفلا يتدبرون ذلك فيعلمون أن الذي خلقهما قادر على بعث الناس بعد موتهم ؟ ثم هددهم بقوله ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نُسقط عليهم كسفاً من السَّماء﴾ أي لو شئنا لخسفنا بهم الأرض كما فعلنا بقارون ، أو أسقطنا عليهم قطعاً من السماء كما فعلنا بأصحاب الأيكة ، فمن أين لهم المهرب ؟ قال ابن الجوزي : المعنى أنهم أين كانوا فأرضي وسمائي محيطة بهم ، وأنا

(١) تفسير البحر المحيط ٧/ ٢٥٩ .

* وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ

القادر عليهم ، إن شئتُ خسفتُ بهم الأرض ، وإن شئتُ أسقطت عليهم قطعة من السماء[1] ﴿إنَّ في ذلك لآيةً لكل عبدٍ منيب﴾ أي إن فيما يشاهدون منآثار القدرة والوحدانية لدلالة وعبرة لكل عبد تائب رجّاع إلى الله ، متأمل فيما يرى قال ابن كثير : يريد أن من قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها ، وهذه الأرضين في انخفاضها وأطوالها وأعراضها ، قادر على إعادة الأجسام ، ونشر الرميم من العظام[2] ، ثم ذكر تعالى قصة داود وما خصَّه الله به من الفضل العظيم فقال ﴿ولقد آتينا داودَ منا فضلاً﴾ اللام موطئة لقسم محذوف تقديره وعزة الله وجلاله لقد أعطينا داود منا فضلاً عظيماً واسعاً لا يُقدر قال المفسرون : الفضل هو النبوة ، والزبور ، وتسخير الجبال ، والطير ، والإلانة الحديد ، وتعليمه صنع الدروع إلى غير ذلك ﴿يا جبال أوِّبي معه والطير﴾ أي وقلنا يا جبال سبحي معه ورجّعي التسبيح إذا سبَّح وكذلك أنت يا طيور قال ابن عباس : كانت الطير تسبح معه إذا سبَّح ، وكان إذا قرأ لم تبق دابةٌ إلا استمعت لقراءته وبكت لبكائه[3] ﴿وألنَّا له الحديد﴾ أي جعلنا الحديد ليناً بين يديه حتى كان كالعجين ، قال قتادة : سخر الله الحديد فكان لا يحتاج أن يدخله ناراً ، ولا يضربه بمطرقة ، وكان بين يديه كالشمع والعجين ﴿أنِ اعمل سابغات﴾ أي اعمل منه الدروع السابغة التي تقي الإنسان شر الحرب قال المفسرون : كان يأخذ الحديد بيده فيصير كأنه عجين يعمل به ما يشاء ، ويصنع الدرع في بعض يوم يساوي ألف درهم فيأكل ويتصدق[4] ، والسابغات صفة لموصوف محذوف تقديره دروعاً سابغات ، وهي الدروع الكوامل التي تغطي لابسها حتى تفضل عنه فيجرها على الأرض ﴿وقدِّر في السَّرد﴾ أي وقدر في نسج الدروع بحيث تتناسب حلقاتها قال الصاوي : أي اجعل كل حلقة مساوية لأختها ضيقة لا ينفذ منها السهم لغلظها ، ولا تثقل حاملها واجعل الكل بنسبةٍ واحدة[5] ﴿واعملوا صالحاً﴾ أي واعملوا يا آل داود عملاً صالحاً ولا تتكلوا على عز أبيكم وجاهه ﴿إني بما تعملون بصير﴾ أي إني مطلع على أعمالكم مراقب لها وسأجازيكم بها قال الامام الفخر : ألان الله لداود الحديد حتى كان في يده كالشمع وهو في قدرة الله يسير ، فإنه يَلين بالنار حتى يصبح كالمداد الذي يكتب به ، فأي عاقلٍ يستبعد ذلك على قدرة الله[6] ؟ وهو أول من صنع الدروع حلقاً وكانت قبل ذلك صفائح ثقالاً كما قال تعالى ﴿وعلَّمناه صنعة لبوسٍ لكم لتحصنكم من بأسكم﴾ ، ثم ذكر تعالى ما أنعم به على ولده « سليمان » من النبوة والملك والجاه العظيم فقال ﴿ولسليمان الريح غدوُّها شهر ورواحُها شهر﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح تسير بأمره ، وسيرها من الصباح إلى الظهر مسيرة شهر للسائر المجد ، ومن الظهر إلى الغروب مسيرة شهر قال المفسرون : سخّر

---

(١) زاد المسير ٦/ ٤٣٥ . (٢) ابن كثير ٣/ ١٢٢ . (٣) زاد المسير ٦/ ٤٣٦ . (٤) القرطبي ١٤/ ٢٦٦ . (٥) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٢٩٤ . (٦) التفسير الكبير ٢٥/ ٢٤٥ .

عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

الله له الريح تقطع به المسافات الشاسعة في ساعات معدودات ، تحمله مع جنده فتنتقل به من بلدٍ الى بلد ، تغدو به مسيرة شهر إلى نصف النهار ، وترجع به مسيرة شهر إلى آخر النهار ، فتقطع به مسيرة شهرين في نهار واحد ﴿وأسلنا له عين القطر﴾ أي وأذبنا له النحاس حتى كان يجري كأنه عين ماء متدفقة من الأرض قال المفسرون : أجرى الله لسليمان النحاس ، كما ألان لداود الحديد ، آية باهرة ، ومعجزة ظاهرة ﴿ومن الجِنّ من يعمل بين يديه بإذن ربه﴾ أي وسخرنا له الجن تعمل بأمره وإرادته ما شاء مما يعجز عنه البشر ، وكل ذلك بأمر الله وتسخيره ﴿ومن يزغ منهم عن أمرنا﴾ أي ومن يعدل منهم عمّا أمرناه به من طاعة سليمان ﴿نذقه من عذاب السعير﴾ أي نذقه النار المستعرة في الآخرة ، ثم أخبر تعالى عما كلف به الجنُّ من الأعمال فقال ﴿يعملون له ما يشاء من محاريب﴾ أي يعمل هؤلاء الجن لسليمان ما يريد من القصور الشامخة ﴿وتماثيل﴾ أي والتماثيل العجيبة من النحاس والزجاج قال **الحسن** : ولم تكن يومئذٍ محرمة ، وقد حرمت في شريعتنا سداً للذريعة لئلا تُعبد من دون الله ﴿وجفانٍ كالجواب﴾ أي وقصاعٍ ضخمة تشبه الأحواض قال ابن عباس : « كالجواب » أي كالحياض ﴿وقدورٍ راسيات﴾ أي وقدورٍ كبيرة ثابتات لا تتحرك لكبرها وضخامتها قال ابن كثير : والقدور الراسياتُ أي الثابتات في أماكنها لا تتحرك ولا تتحول عن أماكنها لعظمها[1] ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾ أي وقلنا لهم اشكروا يا آل داود ربكم على هذه النعم الجليلة ، فقد خصكم بالفضل العظيم والجاه العريض ، واعملوا بطاعة الله شكراً له جل وعلا ﴿وقليلٌ من عبادي الشكور﴾ أي وقليل من العباد من يشكر الله على نعمه قال ابن عطية : وفيه تنبيه وتحريض على شكر الله[2] ، ثم أخبر تعالى عن كيفية موت سليمان فقال ﴿فلما قضينا عليه الموت﴾ أي حكمنا على سليمان بالموت ونزل به الموت ﴿ما دلَّهم على موته إلا دابةُ الأرض تأكل منسأته﴾ أي ما دلَّ الجنَّ على موته إلا تلك الحشرة وهي الأرضة ـ السوسة التي تأكل الخشب ـ تأكل عصا سليمان ﴿فلما خرَّ تبينت الجنُّ أن لو كانوا يعلمون الغيب﴾ أي فلما سقط سليمان عن عصاه ظهر للجن واتضح لهم أنهم لو كانوا يعرفون الغيب كما زعموا ﴿ما لبثوا في العذاب المهين﴾ أي ما مكثوا في الأعمال الشاقة تلك المدة الطويلة ، قال المفسرون : كانت الإنس تقول : إن الجن يعلمون الغيب الذي يكون في المستقبل ، فوقف سليمان في محرابه يصلي متوكئاً على عصاه ، فمات ومكث على ذلك سنةً والجنُّ

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ١٢٤ . (٢) القرطبي ١٤/ ٢٧٧ .

تعمل تلك الأعمال الشاقة ولا تعلم بموته ، حتى أكلت الأَرَضةُ عصا سليمان فسقط على الأرض فعلموا موته ، وعلم الإنس أن الجنَّ لا تعلم الغيب لأنهم لو علموه لما أقاموا هذه المدة الطويلة في الأعمال الشاقة وهم يظنون أنه حي وهو عليه السلام ميت .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان نوجزها فيما يلي :

١ - تعريف الطرفين لإفادة الحصر ﴿الحمد لله﴾ ومعناه لا يستحق الحمد الكامل إلا الله .

٢ - الطباق بين ﴿يلج . . ويخرج﴾ وبين ﴿ينزل . . ويعرج﴾ وبين ﴿أصغر . . وأكبر﴾ .

٣ - صيغة فعيل وفعول للمبالغة ﴿وهو الحكيم الخبير﴾ ﴿وهو الرحيم الغفور﴾ ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ .

٤ - المقابلة بين ﴿ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات . .﴾ الآية وبين ﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين﴾ فقد جعل المغفرة والرزق الكريم جزاء المحسنين ، وجعل العذاب والرجز الأليم جزاء المجرمين .

٥ - الاستفهام للسخرية والاستهزاء ﴿هل ندلكم على رجلٍ ينبئكم﴾ وغرضهم الاستهزاء بالرسول ولم يذكروا اسمه إمعاناً في التجهيل كأنه إنسان مجهول .

٦ - التنكير للتفخيم ﴿آتينا داود منا فضلاً﴾ أي فضلاً عظيماً ، وتقديم داود على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر .

٧ - الإيجاز بالحذف ﴿غدوها شهرٌ ورواحها شهر﴾ أي غدوها مسيرة شهر ورواحها مسيرة شهر .

٨ - التشبيه ﴿وجفان كالجواب﴾ ويسمى التشبيه المرسل المجمل لذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه .

* * *

قال الله تعالى : ﴿لقد كان لسبأٍ في مسكنهم آية . . إلى . . هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾

من آية (١٥) إلى نهاية آية (٣٣) .

المُنَاسَبَة : لما بيَّن تعالى حال الشاكرين لنعمه بذكر « داود » و « سليمان » بيَّن حال الكافرين لأنعمه بقصة سبأ ، موعظةً لقريش وتحذيراً وتنبيهاً على ما جرى من المصائب والنكبات على من كفر بأنعم الله ، ثم ذكَّر كفار مكة بنعمه ليعبدوه ويشكروه .

اللغَـة : ﴿سبأ﴾ قبيلة من العرب سكنت اليمن سميت باسم جدهم « سبأ بن يشجب بن قحطان » ﴿العرم﴾ الحاجز بين الشيئين قال النحاس : وما يجتمع من مطر بين جبلين وفي وجهه مُسنَّاة - أي

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾

حاجز ـ فهو العرم[١] ﴿خمط﴾ الخمط : المرُّ البشع قال الزجاج : كل نبتٍ فيه مرارةٌ لا يمكن أكله فهو خمط وقال المبرد : هو كل ما تغيَّر الى ما لا يشتهى ، واللبنُ إذا حمض فهو خمط ﴿أثـل﴾ الأثل : شجر لا ثمر له قال الفراء : وهو شبيه بالطرفاء إلا أنه أعظم منه طولاً ومنه اتخذ منبر رسول الله ﷺ والواحدة أثلة ﴿سدر﴾ قال الفراء : هو السِّـرو ، وقال الأزهري : السدر نوعان : سدر لا ينتفع به ولا يصلح ورقه للغسول وله ثمرة عصفة لا تؤكل ، وسدر ينبت على الماء وثمره النبق وورقه غسول[٢] ﴿ظهير﴾ معين ﴿الفتـاح﴾ القاضي والحاكم بالحق .

التفسير : ﴿لقد كـان لسبأٍ في مسكنهـم آيـة﴾ اللام موطئة للقسم أي والله لقد كان لقوم سبأ في موضع سكناهم باليمن آية عظيمة دالة على الله جل وعلا وعلى قدرته على مجازاة المحسـن بإحسانـه ، والمسيء بإساءته ، فإن قوم سبأ لما كفروا نعمة الله خرَّب الله ملكهم ، وشتَّت شملهـم ، ومزَّقهـم شرَّ ممزَّق ، وجعلهم عبرةً لمن يعتبر ، ثم بيَّـن تعالى وجه تلك النعمة فقال ﴿جنتـان عـن يميـنٍ وشمـال﴾ أي حديقتان عظيمتان فيهما من كل أنـواع الفواكه والثمار عن يمين الوادي بساتين ناضرة ، وعن شماله كذلك قال قتادة : كانت بساتينهم ذات أشجار وثمار ، تسرُّ الناس بظلالها ، وكانت المرأة تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أوزنبيل ، فيتساقط من الأشجار ما يملؤه من غير كلفةٍ ولا قطاف لكثرته ونضجه[٣] وقال البيضاوي : ولم يرد بستانين اثنين فحسب ، بل أراد جماعتين من البساتين ، جماعة عن يمين بلدهـم ، وجماعة عن شماله سميت كل جماعة منها جنة لكونها في تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة[٤] ﴿كـلوا مـن رزق ربكـم واشكـروا لـه﴾ أي وقلنا لهم على لسان الرسل : كلوا من فضل الله وإنعامه واشكروا ربكم على هذه النعـم ﴿بلـدة طيبـة وربٌ غفـور﴾ أي هذه بلدتكم التي تسكنونها بلدةٌ طيبة ، كريمة التربة ، حسنة الهواء ، كثيرة الخيرات ، وربكم الذي رزقكم وأمركم بشكره ربٌ غفـورٌ لمن شكره ﴿فأعْرضـوا فأرسلنـا عليهـم سيـل العرم﴾ أي فأعرضوا عن طاعة الله وشكره ، واتباع أوامر رسله ، فأرسلنا عليهم السيل المدمِّر المخرب الذي لا يطاق لشدته وكثرته ، فغـرَّق بساتينهم ودورهـم قال الطبـري : وحيـن أعرضوا عن تصديق الرسل ، ثقب ذلك السدُّ الذي كان يحبس عنهم السيول ، ثم فاض الماء على جناتهم فغرَّقها ، وخرَّب أرضهم وديارهم[١] ﴿وبدلناهـم بجنَّتيْهـم جنّتيـن ذواتي أُكـل خـمـط﴾ أي وأبدلناهم بتلك البساتين الغناء ، بساتين قاحلة جرداء ، ذات أُكل مـرٍّ بشع ﴿وأثـلٍ وشـيء مـن سـدرٍ قليـل﴾

---

(١) القرطبي ١٤/ ٢٨٦ . (٢) البحر المحيط ٢٥٦ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ١٢٦ . (٤) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٨٥ والكشاف ٣/ ٤٥٤ .

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾

وشيء من الأشجار التي لا ينتفع بثمرها كشجر الأثل والسِّدر قال الرازي : أرسل الله عليهم سيلاً غرَّق أموالهم ، وخرَّب دورهم ، والخمطُ كلُّ شجرة لها شوك وثمرتها مرة ، والأثلُ نوع من الطرفاء ولا يكون عليه ثمرة إلا في بعض الأوقات ، يكون عليه شيء كالعفص أو أصغر منه في طعمه وطبعه ، والسدر معروف وقال فيه ﴿قليل﴾ لأنه كان أحسن أشجارهم ، وقد بيَّن تعالى بالآية طريقة الخراب ، وذلك لأن البساتين التي فيها الناس تكون فيها الفواكه الطيبة بسبب العمارة ، فإذا تركت سنين تصبح كالغيضة والأجمة تلتفُّ الأشجار بعضها ببعض وتنبتُ المفسدات فيها ، فتقل الثمار وتكثر الأشجار[1] قال المفسرون : وتسمية البدل«جنتين»فيه ضربٌ من التهكم ، لأن الأثل والسدر وما كان فيه خمط لا يسمى جنة ، لأنها أشجار لا يكاد ينتفع بها ، وإنما جاء التعبير على سبيل المشاكلة ﴿ذلك جزيناهم بما كفروا﴾ أي ذلك الجزاء الفظيع الذي عاقبناهم به إنما كان بسبب كفرهم ﴿وهل نجازي إلا الكفور﴾ ؟ أي وما نجازي بمثل هذا الجزاء الشديد إلا الكافر المبالغ في كفره قال مجاهد : أي ولا يعاقب إلا الكفور ، لأن المؤمن يكفِّر الله عنه سيئاته ، والكافر يُجازي بكل سوءٍ عمله[2] ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قُرى ظاهرة﴾ هذا من تتمة ذكر ما أنعم الله به عليهم أي وجعلنا بين بلاد سبأ وبين القرى الشامية التي باركنا فيها للعالمين قرى متواصلة من اليمن إلى الشام ، يُرى بعضها من بعض لتقاربها ، ظاهرة لأبناء السبيل ﴿وقدرنا فيها السَّير﴾ أي جعلنا السير بين قراهم وبين قرى الشام سيراً مقدراً من منزل إلى منزل ، ومن قرية إلى قرية ﴿سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين﴾ أي وقلنا لهم سيروا بين هذه القرى متى شئتم لا تخافون في ليل ولا في نهار قال الزمخشري : كان الغادي منهم يقيل في قرية ، والرائح يبيت في قرية الى أن يبلغ الشام ، لا يخاف جوعاً ولا عطشاً ولا عدواً ، ولا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ، وكانوا يسيرون آمنين لا يخافون شيئاً[2] ﴿فقالوا ربَّنا باعدْ بين أسفارنا﴾ إخبارٌ بما قابلوا به النعم من الكفران أي أنهم حين بطروا النعمة ، وملوا العافية ، وسئموا الراحة طلبوا من الله أن يباعد بين قراهم المتصلة ليمشوا في المفاوز ويتزودوا للأسفار ، فعجَّل الله إجابتهم بتخريب تلك القرى وجعلها مفاوز قفاراً ﴿وظلموا أنفسهم﴾ أي وظلموا أنفسهم بكفرهم وجحودهم النعمة ﴿فجعلناهم أحاديث﴾ أي جعلناهم أخباراً تُروى للناس بعدهم ﴿ومزقناهم كلَّ ممزَّق﴾ أي وفرقناهم في البلاد شذر مذر ﴿إن في ذلك لآياتٍ لكل صبَّار شكور﴾ أي إن فيما ذكر من قصتهم لعبراً وعظات لكل عبد صابرٍ على البلاء ، شاكر في النعماء ، والمقصود من ذكر قصة سبأ تحذير الناس من كفران النعمة لئلا يحل بهم ما حل بمن قبلهم ، ولهذا

---

(١)القرطبي ١٤/ ٢٨٨ . (٢) تفسير الكشاف ٣/ ٤٥٥ .

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

أصبحت قصتهم يضرب بها المثل فيقال: « ذهبوا أيدي سبأ » ثم ذكر تعالى سبب ضلال المشركين فقال ﴿ولقد صدَّق عليهم إبليس ظنَّه﴾ أي تحقق ظن إبليس اللعين في هؤلاء الضالين ، حيث ظنَّ أنه يستطيع أن يغويهم بتزيين الباطل لهم ، وأقسم بقوله ﴿لأغوينهم أجمعين﴾ فتحقق ما كان يظنه قال **مجاهد** : ظنَّ ظناً فكان كما ظن فصدَّق ظنَّه[1] ﴿فاتَّبعوه إلا فريقاً من المؤمنين﴾ أي فاتبعه الناس فيما دعاهم إليه من الضلالة إلا فريقاً هم المؤمنون فإنهم لم يتبعوه قال **القرطبي** : أي ما سلم من المؤمنين إلا فريق ، وعن ابن عباس أنهم المؤمنون كلُّهم فتكون ﴿من﴾ على هذا للتبيين لا للتبعيض ، وإنما علم إبليس صدق ظنه وهو لا يعلم الغيب ، لأنه لمَّا نفذ له في آدم ما نفذ ، غلب على ظنه أنه ينفذ له مثل ذلك في ذريته وقد وقع له تحقيق ما ظنَّ[2] ﴿وما كان له عليهم من سلطان﴾ أي وما كان لإبليس تسلط واستيلاء عليهم بالوسوسة والإغواء ﴿إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك﴾ أي إلا لحكمة جليلة وهي أن نظهر علمنا للعباد بمن هو مؤمن مصدِّق بالآخرة ، ومن هو شاك مرتاب في أمرها ، فنجازي كلاً بعمله قال **القرطبي** : أي لم يقهرهم إبليس على الكفر ، وإنما كان منه الدعاء والتزيين[3] وقال **الحسن** : واللهِ ما ضربهم بعصا ، ولا أكرههم على شيء ، وما كان إلا غروراً وأماني دعاهم إليها فأجابوه[4] ﴿وربك على كل شيء حفيظ﴾ أي وربك يا محمد على كل شيء رقيب ، لا تخفى عليه خافية من أفعال العباد ، فهو الذي يحفظ عليهم أعمالهم ، ويعلم نياتهم وأحوالهم قال **الصاوي** : الشيطان سبب الإغواء لا خالق الإغواء ، فمن أراد الله حفظه منع الشيطان عنه ، ومن أراد إغواءه سلَّط عليه الشيطان ، والكل فعل الله تعالى[5] ، وإنما سبقت حكمته بتسليط الشيطان على الإنسان ابتلاءً وامتحاناً ليميز الله الخبيث من الطيب ، والمراد بقوله ﴿لنعلم﴾ أي لنظهر للخلق علمنا ، وإلا فالله تعالى عالم بما كان وما يكون ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين أُدعوا شركاءكم الذين عبدتموهم من الأصنام ، وزعمتم أنهم آلهة من دون الله ، أُدعوهم ليجلبوا لكم الخير ، ويدفعوا عنكم الضر قال **أبو حيان** : والأمر بدعاء الآلهة للتعجيز وإقامة الحجة عليهم[6] ﴿لا يملكون مثقال ذرة﴾ أي لا يملكون وزن ذرة من خيرٍ أو نفعٍ أو ضر ﴿في السموات ولا في الأرض﴾ أي في العالم العلوي أو السفلي ، وليسوا بقادرين على أمرٍ من الأمور في الكون بأجمعه ﴿وما لهم فيهما من شرك﴾ أي وليس لتلك الآلهة شركة مع الله لا خلقاً ولا ملكاً ولا تصرفاً ﴿وما له منهم من ظهير﴾ أي وليس له تعالى من الآلهة معينٌ يُعينه في

(١) الطبري ٢٢/ ٦٠ . (٢) القرطبي ١٤/ ٢٩٢ .
(٣) القرطبي ١٣/ ٢٩٣ (٤) مختصر ابن كثير ٣/ ١٢٨ .
(٥) حاشية الصاوي ٣/ ٢٩٨ . (٦) البحر المحيط ٧/ ٢٧٥ .

وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ * قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾

تدبير أمرهما ، بل هو وحده الخالق لكل شيء ، المنفرد بالإيجاد والإعدام ، ثم لما نفى عنها الخلق والملك ، نفى عنها الشفاعة أيضاً فقال ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ أي لا تكون الشفاعة لأحدٍ عند الله من ملكٍ أو نبي ، حتى يؤذن له في الشفاعة ، فكيف يزعمون أن آلهتهم يشفعون لهم ؟ **قال ابن كثير** : أي أنه تعالى لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترىء أحدٌ أن يشفع عنده في شيءٍ إلا بعد إذنه له في الشفاعة كقوله ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ وقوله ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ وإنما كانت الشفاعة لسيد ولد آدم إظهاراً لمقامه الشريف ، فهو أكبر شفيع عند الله ، وذلك حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم[1] ﴿حتى إذا فُزع عن قلوبهم﴾ أي حتى إذا زال الفزع والخوف عن قلوب الشفعاء ، من الملائكة والأنبياء ﴿قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحقّ﴾ أي قال بعضهم لبعض : ماذا قال ربكم في أمر الشفاعة ؟ فأجابوهم بقولهم : قد أذن فيها للمؤمنين **قال القرطبي** : إن الله تعالى يأذن للأنبياء والملائكة في الشفاعة ، وهم على غاية الفزع من الله ، لما يقترن بتلك الحال من الأمر الهائل ، والخوف الشديد أن يقع منهم تقصير ، فاذا سُرِّي عنهم قالوا للملائكة فوقهم : ماذا قال ربكم ؟ أي بماذا أمر الله ؟ قالوا الحقَّ أي إنه أذن لكم في الشفاعة للمؤمنين[2] ﴿وهو العليُّ الكبير﴾ أي هو تعالى المتفرد بالعلو والكبرياء ، العظيم في سلطانه وجلاله **قال أبو السعود** : وهذا من تمام كلام الشفعاء ، قالوه اعترافاً بغاية عظمة جناب الله عز وجل ، فليس لأحدٍ أن يتكلم إلا بإذنه[3] ، ثم وبَّخ تعالى المشركين في عبادتهم غير الخالق الرازق فقال ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض﴾ أي قل لهم يا محمد من الذي يرزقكم من السموات بإنزال المطر ، ومن الأرض بإخراج النبات والثمرات ؟ ﴿قل اللهُ﴾ أي قل لهم : اللهُ الرازق لا آلهتكم **قال ابن الجوزي** : وإنما أُمر عليه السلام أن يسأل الكفار عن هذا احتجاجاً عليهم بأن الذي يرزق هو المستحق للعبادة ، وهم لا يثبتون رازقاً سواه ، ولهذا جاء الجواب ﴿قل اللهُ﴾ لأنهم لا يجيبون بغير هذا[4] ﴿وإنّا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلالٍ مبين﴾ أي وأحد الفريقين منا أو منكم لعلى هدى أو ضلالٍ بيِّن ، وهذا نهاية الإنصاف مع الخصم **قال أبو حيان** : أخرج الكلام مخرج الشك ، ومعلوم أن من عبد الله وحده كان مهتدياً ، ومن عبد غيره من جماد كان ضالاً ، وفي هذا إنصافٌ وتلطفٌ في الدعوى ، وفيه تعريضٌ بضلالهم وهو أبلغ من الردّ بالتصريح ، ونحوه قول العرب : أخزى الله الكاذب مني ومنك ، مع تيقن أن صاحبه هو الكاذب[5] ﴿قل لا تُسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون﴾ أي لا

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ١٢٩ . (٢) القرطبي ١٤/ ٢٩٥ . (٣) أبو السعود ٤/ ٢٣١ .

(٤) تفسير ابن الجوزي ٦/ ٤٥٤ . (٥) البحر المحيط ٧/ ٢٧٩ .

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ﴾

تؤ اخذون على ما ارتكبنا من إجرام ، ولا نؤ اخذ نحن بما اقترفتم ، وإنما يعاقب كل إنسانٍ بجريرته ، وهذه ملاطفة وتنـزُّلٌ في المجادلة إلى غاية الإنصاف قال الزمخشري : وهذا أدخل في الإنصاف وأبلغ من الأول ، حيث أسند الإجرام لأنفسهم والعمل إلى المخاطبين[١] ﴿**قـل يجمع بيننـا ربنـا ثم يفتـح بيننا بالحقِّ**﴾ أي يجمع الله بيننا وبينكم يوم القيامة ثم يحكم بيننا ويفصل بالحقِّ ﴿**وهـو الفتـاح العلـيم**﴾ أي وهـو الحاكم العادل الذي لا يظلم أحداً ، العالم بأحوال الخلق ، فيدخل المحقَّ الجنة ، والمبطل النار ﴿**قـل أروني الذيـن ألحقتـم به شركاء**﴾ توبيخٌ آخر على إشراكهم وإظهارٌ لخطئهم العظيم أي أروني هذه الأصنام التي ألحقتموها بالله وجعلتموها شركاء معه في الألوهية ، لأنظر بأي صفةٍ استحقت العبادة مع الذي ليس كمثله شيء ؟ قال أبو السعود : وفيه مزيد تبكيتٍ لهم بعد إلزام الحجة عليهم[٢] ﴿**كـلاَّ بـل هـو الله العزيـز الحكيـم**﴾ ردعٌ لهم وزجر أي ليس الأمر كما زعمتم من اعتقاد شريك له ، بل هو الإله الواحد الأحد ، الغالب على أمره ، الحكيم في تدبيره لخلقه ، فلا يكون له شريك في ملكه أبداً ﴿**ومـا أرسلنـاك إلا كافـةً للناس بشيـراً ونذيـراً**﴾ أي وما أرسلناك يا محمد للعرب خاصة وإنما أرسلناك لعموم الخلق ، مبشراً للمؤمنين بجنات النعيم ، ومنذراً للكافرين من عذاب الجحيم ﴿**ولكـنَّ أكثـر النـاس لا يعلـمون**﴾ أي ولكنَّ هؤلاء الكافرين لا يعلمون ذلك فيحملهم جهلهم على ما هم عليه من الغيّ والضلال ﴿**ويقولـون متـى هـذا الوعد إن كنتـم صادقيـن**﴾ أي ويقول المشركون على سبيل الاستهزاء والسخرية : متى هذا العذاب الذي تخوفوننا به إن كنتم صادقين فيما تقولون ؟ والخطاب للنبي والمؤمنين ﴿**قـل لكـم ميعـاد يـوم لا تستأخـرون عنه ساعـةً ولا تستقدمـون**﴾ أي لكم زمان معيَّن للعذاب يجيء في أجله الذي قدَّره الله له ، لا يستأخر لرغبة أحد ، ولا يتقدم لرجاء أحد ، فلا تستعجلوا عذاب الله فهو آتٍ لا محالة ، ثم أخبر تعالى عن تمادي المشركين في العناد والتكذيب فقال ﴿**وقـال الذيـن كفـروا لـن نؤمن بهذا القرآن ولا بالـذي بين يديـه**﴾ أي لن نصدِّق بالقرآن ولا بما سبقه من الكتب السماوية الدالة على البعث والنشور ﴿**ولـو تـرى إذِ الظالمـون موقوفـون عنـد ربهـم**﴾ أي ولو شاهدت يا محمـد حال الظـالمين المنكرين للبعـث في موقف الحساب ﴿**يرجـع بعضهـم إلى بعـضٍ القـول**﴾ أي يلوم بعضهم بعضاً ويؤ نب بعضهم بعضاً ، وجواب

(١) الكشاف ٣ . (٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٣١ .

لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

﴿لـو﴾ محذوف للتهويل تقديره لرأيت أمراً فظيعاً مهولاً ﴿**يقـول الذيـن استضعفـوا للذيـن استـكبـروا لـولا أنتـم لكنـا مؤمنيـن**﴾ أي يقول الأتباع للرؤساء : لولا إضلالكم لنا لكنا مؤمنين مهتدين ﴿**قـال الذيـن استكبـروا للذيـن استُضعفـوا أنحـن صددناكم عـن الهدى بعد إذ جاءكـم**﴾ ؟ أي قال الرؤساء جواباً للمستضعفين : أنحن منعناكم عن الإيمان بعد أن جاءكم ؟ لا ، ليس الأمر كما تقولون ﴿**بـل كنتـم مجرميـن**﴾ أي بل أنتم كفرتم من ذات أنفسكم ، بسبب أنكم كنتم مجرمين راسخين في الإجرام ﴿**وقـال الذيـن استُضعِفوا للذيـن استكبروا بـل مكـر الليل والنهـار**﴾ أي وقال الأتباع للرؤساء : بل مكركم بنا في الليل والنهار هو الذي صدَّنا عن الإيمان ﴿**إذ تأمروننـا أن نكـفربالله ونجعـل له أنـداداً**﴾ أي وقت دعوتكم لنا إلى الكفر بالله ، وأن نجعل له شركاء ، ولولا تزيينكم لنا الباطل ما كفرنا ﴿**وأسـرُّوا الندامة لما رأوا العـذاب**﴾ أي أخفى كل من الفريقين الندامة على ترك الإيمان حين رأوا العذاب ، أخفوها مخافة التعيير ﴿**وجعلنـا الأغلال فـي أعنـاق الذيـن كفـروا**﴾ أي وجعلنا السلاسل في رقاب الكفار زيادةً على تعذيبهم بالنار ﴿**هــل يُجـز ون إلا ما كانوا يعملـون**﴾ أي لا يجزون إلا بأعمالهم التي عملوها ولا يعاقبون إلا بكفرهم وإجرامهم .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين لفظ ﴿يمين . . وشمال﴾ وبين ﴿بشير . . ونذير﴾ وبين ﴿تستقدمون . . وتستأخرون﴾ وبين ﴿استضعفوا . . واستكبروا﴾ وهو من المحسنات البديعية .

٢ ـ جناس الاشتقاق ﴿وقدرنا فيها السير سيروا﴾ فإن كلمة ﴿سيروا﴾ مشتقة من السير .

٣ ـ التعجيز بدعاء الجماد الذي لا يسمع ولا يحس ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله﴾ .

٤ ـ التوبيخ والتبكيت ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض﴾ ؟

٥ ـ حذف الخبر لدلالة السياق عليه ﴿قل الله﴾ أي قل الله الخالق الرازق للعباد ودل على المحذوف سياق الآية .

٦ ـ المبالغة بذكر صيغ المبالغة ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبَّار شكور﴾ فإن فعَّال وفعيل وفعول من

صيغ المبالغة ومثلها ﴿وهو الفتاح العليم﴾ .

٧ ـ حذف الجواب للتهويل والتفزيع ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم﴾ حذف الجواب للتهويل أي لو ترى حالهم لرأيت أمراً فظيعاً مهولاً .

٨ ـ المجاز العقلي ﴿بل مكر الليل والنهار﴾ أسند المكر إلى الليل والمراد مكر المشركين بهم في الليل ففيه مجاز عقلي .

٩ ـ الاستعارة ﴿لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه﴾ ليس للقرآن يدان ولكنه استعارة لما سبقه من الكتب السماوية المنزلة من عند الله .

١٠ ـ مراعاة الفواصل لما لها من وقع حسن على السمع مثل ﴿وهل نجازي إلا الكفور ؟ . . إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ الخ .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وما أرسلنا في قريةٍ . . إلى . . إنهم كانوا في شكٍ مريب﴾

من آية (٣٤) إلى آية (٥٤) نهاية السورة .

المناسبة : لمّا ذكر تعالى قصة أهل سبأ وكفرهم بنعم الله ، وما أعقب ذلك من تبديل النعمة الى النقمة ، ذكر هنا اغترار المشركين بالمال والبنين ، وتكذيبهم لرسول الله عليه السلام ، وختم السورة الكريمة ببيان مصرع الغابرين ، تسليةً لرسول الله ﷺ وتخويفاً وتحذيراً للمشركين .

اللغة : ﴿مترفوها﴾ المترف : المنعَّم المتقلب في الغنى والعز والجاه ﴿يبسط﴾ يوسّع ﴿يقدر﴾ يقتّر ﴿زُلفى﴾ قربى ﴿إفك﴾ كذب مختلق ﴿معشار﴾ المعشار : العُشر قال الجوهري : ومعشار الشيء عشره[1] ، فهما لغتان ﴿نكير﴾ أصلها نكيري حذفت الياء لمراعاة الفواصل قال الزجاج : النكير : اسم بمعنى الإنكار ﴿جنة﴾ بكسر الجيم أي جنون (فوت﴾ نجاة ومهرب ﴿التناوش﴾ التناول قال الزمخشري : والتناوش والتناول أخوان ، إلا أن التناوش تناولٌ سهلٌ لشيء قريب[2] ، ومنه المناوشة في القتال وذلك عند تداني الفريقين ، قال ابن السكيت : يقال للرجل إذا تناول رجلاً ليأخذه ناشَه .

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا

التفسير : ﴿وما أرسلنا في قريةٍ من نذير﴾ أي لم نبعث في أهل قريةٍ رسولاً من الرسل ينذرهم عذابنا ﴿إلا قال مترفوها﴾ أي إلا قال أهل الغنى والتنعم في الدنيا ﴿إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ أي لا نؤمن برسالتكم ولا نصدقكم بما جئتم به قال قتادة : المترفون هم جبابرتهم وقادتهم ورؤساؤهم في الشر[3] ، وهم الذين يبادرون إلى تكذيب الأنبياء ، والقصد بالآية تسلية النبي ﷺ على تكذيب أكابر قريش له ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً﴾ أي وقال مشركو مكة : نحن أكثر أموالاً

(١) القرطبي ١٤/ ٣١٠ . (٢) الكشاف ٣/ ٤٦٨ . (٣) القرطبي ١٤/ ٣٠٥ .

وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن

وأولاداً من هؤلاء الضعفاء المؤمنين **﴿وما نحن بمعذبين﴾** أي إن الله لا يعذبنا لأنه راضٍ عنا ، ولو لم يكن راضياً عنا لما بسط لنا في الرزق ، قاسوا أمر الدنيا على الآخرة ، وظنوا أن الله كما أعطاهم الأموال والأولاد في الدنيا لا يعذبهم في الآخرة قال **أبو حيان** : نصَّ تعالى على المترفين لأنهم أول المكذبين للرسل ، لما شُغلوا به من زخرف الدنيا ، وما غلب على عقولهم منها ، فقلوبهم أبداً مشغولة منهمكة ، بخلاف الفقراء فإنهم خالون من مستلذات الدنيا ، فقلوبهُم أقبل للخير ولذلك كانوا أكثر أتباع الأنبياء[1] **﴿قل إنَّ ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾** أي قل لهم يا محمد : إن توسعة الرزق وتضييقه ليس دليلاً على رضى الله ، فقد يوسّع الله على الكافر والعاصي ، ويضيق على المؤمن والمطيع ابتلاءً وامتحاناً ، فلا تظنوا أن كثرة الأموال والأولاد دليل المحبة والسعادة ، بل هي تابعة للحكمة والمشيئة **﴿ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾** أي ولكنَّ أكثر هؤلاء الكفرة لا يعلمون الحقيقة ، فيظنون أن كثرة الأموال والأولاد للشرف والكرامة ، وكثيراً ما يكون للاستدراج[2] كما قال تعالى **﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾** ولهذا أكَّد ذلك بقوله **﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زُلفى﴾** أي ليست أموالكم ولا أولادكم التي تفتخرون بها وتكاثرون هي التي تقربكم من الله قربى ، وإنما يقرِّب الإيمان والعمل الصالح قال **الطبري** : الزلفى : القربى ، ولا يعتبر الناس بكثرة المال والولد[3] ، ولهذا قال تعالى بعده **﴿إلاَّ من آمن وعمل صالحاً﴾** أي إلا المؤمن الصالح الذي ينفق ماله في سبيل الله ، ويعلّم ولده الخير ويربيه على الصلاح فإن هذا الذي يقرِّب من الله[4] **﴿فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا﴾** أي تضاعف حسناتهم ، الحسنة بعشر أمثالها وبأكثر إلى سبعمائة ضعف **﴿وهم في الغرفات آمنون﴾** أي وهم في منازل الجنة العالية آمنون من كل عذاب ومكروه ، ولما ذكر جزاء المؤمنين ، ذكر عقاب الكافرين ، ليظهر التباين بين الجزاءين فقال **﴿والذين يسعون في آياتنا معاجزين﴾** أي يسعون في الصدِّ عن سبيل الله ، واتباع آياته ورسله ، معاندين لنا يظنون أنهم يفوتوننا بأنفسهم **﴿أولئك في العذاب محضرون﴾** أي فهم مقيمون في العذاب ، محضرون يوم القيامة للحساب **﴿قل إنَّ ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له﴾** أي قل يا محمد : إن ربي يوسّع الرزق لمن يشاء من خلقه ، ويقتّر على من يشاء ، فلا تغتروا بالأموال التي رزقكم الله إيَّاها قال في **التسهيل** : كررت الآية لاختلاف القصد ، فإنَّ القصد بالأول

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٨٥ . (٢) البيضاوي ٢/ ١٢٦ . (٣) تفسير الطبري ٢٢/ ٦٨ . (٤) البيضاوي ٢/ ١٢٦ .

شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

الكفار ، والقصد هنا ترغيب المؤمنين بالإِنفاق[١] ﴿**وما أنفقتم من شيءٍ فهو يُخلفه**﴾ أي وما أنفقتم في سبيل الله قليلاً أو كثيراً فإن الله تعالى يعوّضه عليكم إما عاجلاً أو آجلاً ﴿**وهو خيرُ الرازقين**﴾ أي هو تعالى خير المعطين[٢] ، فإنَّ عطاء غيره بحساب ، وعطاؤه تعالى بغير حساب قال **المفسرون** : لما بيَّن أنَّ الإِيمان والعمل الصالح هو الذي يقرب العبد إلى ربه ، ويكون مؤدياً إلى تضعيف حسناته ، بيَّن أن نعيم الآخرة لا ينافي سعة الرزق في الدنيا ، بل الصالحون قد يبسط لهم الرزق في الدنيا ، مع ما لهم في الآخرة من الجزاء الأوفى والمثوبة الحسنى بمقتضى الوعد الإِلهي[٣] ﴿**ويوم يحشرهم جميعاً**﴾ أي واذكر يوم يحشر الله المشركين جميعاً من تقدم ومن تأخر للحساب والجزاء ﴿**ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون**﴾ ؟ الاستفهام للتقريع والتوبيخ للمشركين أي أهؤلاء عبدوكم من دوني وأنتم أمرتموهم بذلك ؟ قال **الزمخشري** : هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار ، وارد على المثل السائر « إيَّاكِ أعني واسمعي يا جارة » ونحوه قوله تعالى ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلٰهين من دون الله﴾ ؟ وقد علم سبحانه أن الملائكة وعيسى منزهون عما نُسب اليهم ، والغرض من السؤال والجواب أن يكون تقريع المشركين أشد ، وخجلهم أعظم[٤] ﴿**قالوا سبحانك أنت وليُّنا من دونهم**﴾ أي تعاليت وتقدست يا ربنا عن أن يكون معك إله ، أنت ربنا ومعبودنا الذي نتولاه ونعبده ونخلص له العبادة ، ونحن نتبرأ إليك منهم ﴿**بل كانوا يعبدون الجن**﴾ أي بل كانوا يعبدون الشياطين لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة غير الله فأطاعوهم ﴿**أكثرهم بهم مؤمنون**﴾ قال **الطبري** : أي أكثرهم بالجنّ مصدقون يزعمون أنهم بنات الله ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً[٥] قال تعالى رداً على مزاعم المشركين ﴿**فاليوم لا يملك بعضكم لبعضٍ نفعاً ولا ضراً**﴾ أي ففي هذا اليوم ـ يوم الحساب ـ لا ينفع العابدون ولا المعبودون بعضهم لبعضٍ ، لا بشفاعة ونجاة ، ولا بدفع عذاب وهلاك ، قال **أبو السعود** : يخاطبون بذلك على رءوس الأشهاد إظهاراً لعجزهم وقصورهم عن نفع عابديهم ، وإظهاراً لخيبة رجائهم بالكلية ، ونسبة عدم النفع والضر إلى البعض للمبالغة في المقصود ، كأن نفع الملائكة لعبدتهم في الاستحالة كنفع العبدة لهم[٦] ﴿**ونقول للذين ظلموا**﴾ أي ونقول للظالمين الذين عبدوا غير الله ﴿**ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون**﴾ أي ذوقوا عذاب جهنم التي كذبتم بها في الدنيا فها قد وردتموها ، ثم بيَّن تعالى لوناً آخر من

(١) التسهيل ٣/ ١٥٢ . (٢) زاد المسير ٦/ ٤٤٢ . (٣) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٩٣ .
(٤) الكشاف ٣/ ٤٦٣ . (٥) الطبري ٢٢/ ٦٩ . (٦) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٣٤ .

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا

كفرهم وضلالهم فقال: ﴿وإذا تُتلى عليهم آياتنا بينات﴾ أي وإذا تُليت على هؤلاء المشركين آيات القرآن واضحات المعاني، بينات الإعجاز، وسمعوها غضة طرية من لسان رسولنا محمد ﷺ ﴿قالوا ما هذا إلا رجلٌ يريدُ أن يصدَّكم عما كان يعبد آباؤكم﴾ أي ما هذا الذي يزعم الرسالة إلا رجلٌ مثلكم يريد أن يمنعكم عمَّا كان يعبد أسلافكم من الأوثان والأصنام ﴿وقالوا ما هذا إلاّ إفكٌ مفترى﴾ أي ما هذا القرآن إلا كذبٌ مختلق على الله ﴿وقال الذين كفروا للحقِّ لما جاءهم إنْ هذا إلا سحرٌ مبين﴾ أي وقال أولئك الكفرة المتمردون بجراءتهم على الله ومكابرتهم للحقِّ النيِّر: ما هذا القرآن إلا سحرٌ واضح ظاهر لا يخفى على لبيب قال الزمخشري: وفيه تعجيب من أمرهم بليغ، حيث بتّوا القضاء على أنه سحر، ثم بتّوه على أنه بيِّن ظاهر، كل عاقلٍ تأمله سمَّاه سحراً وفي قوله ﴿لما جاءهم﴾ المبادهة بالكفر من غير تأمل[1]، ثم بيَّن تعالى أنهم لم يقولوا ذلك عن بينة، ولم يكذبوا محمداً عن يقين، بل عن ظنٍّ وتخمين فقال ﴿وما آتيناهم من كتُبٍ يدرسونها﴾ أي وما أنزلنا على أهل مكة كتاباً قبل القرآن يقرءون فيه ويتدارسونه ﴿وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾ أي وما بعثنا إليهم قبلك يا محمد رسولاً ينذرهم عذاب الله، فمن أين كذبوك؟ قال الطبري: أي ما أنزل الله على العرب كتاباً قبل القرآن، ولا بعث إليهم نبياً قبل محمد ﷺ[2] ﴿وكذّب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم﴾ أي وكذَّب قبلهم أقوام من الأمم السابقين وما بلغ كفار مكة عشر ما آتينا الأمم التي كانت قبلهم من القوة والمال وطول العمر قال ابن عباس: ﴿معشار ما آتيناهم﴾ أي من القوة في الدنيا[3] ﴿فكذبوا رسلي فكيف كان نكير﴾ أي وحيث كذبوا رسلي جاءهم إنكاري بالتدمير والاستئصال، ولم يغن عنهم ما كانوا فيه من القوة، فكيف حال هؤلاء إذا جاءهم العذاب والهلاك؟ وفيه تهديدٌ لقريش ﴿قل إنما أعظكم بواحدة﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين إنما أنصحكم وأوصيكم بخصلةٍ واحدة ثم فسرها بقوله ﴿أن تقوموا لله مثنى وفرادى﴾ أي هي أن تتحرَّوا الحق لوجه الله والتقرب له مجتمعين ووحداناً، أو اثنين اثنين وواحداً واحداً قال القرطبي: وهذا القيام معناه القيام إلى طلب الحق، لا القيام الذي هو ضدُّ القعود[4] ﴿ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جِنَّة﴾ أي ثم تتفكروا في أمر محمد لتعلموا أن من ظهر على يديه هذا الكتاب المعجز لا يمكن

(١) الكشاف ٣/ ٤٦٤. (٢) الطبري ٢٢/ ٧٠ وهذه رواية قتادة (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ١٣٥. (٤) القرطبي ١٤/ ٣١١.

سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟

أن يكون به مسٌّ من الجنون أو يكون مجنوناً قال أبو حيان : ومعنى الآية : إنما أعظكم بواحدة فيها إصابتكم الحقَّ وهي أن تقوموا لوجه الله متفرقين اثنين اثنين ، وواحداً واحداً ، ثم تتفكروا في أمر محمد وما جاء به ، وإنما قال ﴿مثنى وفرادى﴾ لأن الجماعة يكون مع اجتماعهم تشويش الخاطر والمنع من التفكر ، كما يكون في الدروس التي يجتمع بها الجماعة ، وأما الاثنان إذا نظرا نظر إنصاف وعرض كل واحدٍ منهما على صاحبه ما ظهر له فلا يكاد الحقُّ أن يعدوهما ، وإذا كان الواحد جيّد الفكر عرف الحق ، فإذا تفكروا عرفوا أن نسبته عليه السلام للجنون لا يمكن ، ولا يذهب الى ذلك عاقل[1] ﴿إن هو إلاّ نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد﴾ أي ما هو إلا رسول منذر لكم إن كفرتم من عذاب شديدٍ في الآخرة ﴿قل ما سألتكم من أجرٍ فهو لكم﴾ أي لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً قال الطبري : المعنى إني لم أسألكم على ذلك جعلاً فتتهموني وتظنوا أني إنما دعوتكم إلى اتباعي لمالٍ آخذه منكم[2] ﴿إنْ أجري إلا على الله﴾ أي ما أجري وثوابي إلا على الله رب العالمين ﴿وهو على كل شيءٍ شهيد﴾ أي هو تعالى رقيب وحاضر على أعمالي وأعمالكم ، لا يخفى عليه شيء وسيجازي الجميع قال أبو السعود : أي هو مطلع يعلم صدقي وخلوص نيتي[3] ﴿قل إنَّ ربي يقذف بالحقّ﴾ أي يبيِّن الحجة ويظهرها قال ابن عباس : يقذف الباطل بالحق كقوله ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهقٌ﴾ ﴿علام الغيوب﴾ أي هو تعالى الذي أحاط علماً بجميع الغيوب التي غابت وخفيت عن الخلق ﴿قل جاء الحقُّ﴾ أي جاء نور الحق وسطع ضياؤه وهو الإسلام ﴿وما يُبدىء الباطل وما يعيد﴾ أي ذهب الباطل بالمرَّة فليس له بدءٌ ولا عودٌ قال الزمخشري : إذا هلك الإنسان لم يبق له إبداءٌ ولا إعادة ، فجعلوا قولهم ﴿لا يبدىء ولا يعيد﴾ مثلاً في الهلاك والمعنى : جاء الحق وهلك الباطل كقوله تعالى ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل﴾[4] ﴿قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين إن حصل لي ضلالٌ - كما زعمتم - فإن إثم ضلالي على نفسي لا يضر غيري ﴿وإن اهتديتُ فبما يوحي إليَّ ربي﴾ أي وإن اهتديتُ إلى الحق فبهداية الله وتوفيقه ﴿إنه سميع قريب﴾ أي سميعٌ لمن دعاه ، قريب الإجابة لمن رجاه قال أبو السعود : يعلم قول كلٍ من المهتدي والضال وفعله وإن بالغ في إخفائهما[5] ﴿ولو ترى إذ فزعوا﴾ أي ولو ترى يا محمد حال المشركين عند فزعهم إذا خرجوا من قبورهم ﴿فلا فوت﴾ أي فلا مخلص لهم ولا مهرب

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٠١ بشيء من الاختصار. (٢) الطبري ٢٢/ ٧١ . (٣) أبو السعود ٤/ ٢٣٥ .
(٤) الكشاف ٣/ ٤٦٧ . (٥) أبو السعود ٤/ ٢٣٥ .

مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾

﴿وأُخذوا من مكان قريب﴾ أي أخذوا من الموقف ـ أرض المحشر ـ إلى النار ، وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره : لرأيت أمراً عظيماً وخطباً جسيماً ترتعد له الفرائص ﴿وقالوا آمنا به﴾ أي وقالوا عندما عاينوا العذاب آمنا بالقرآن وبالرسول ﴿وأنَّى لهم التناوش من مكانٍ بعيد﴾ أي ومن أين لهم تناول الإِيمان وهم الآن في الآخرة ومحل الإيمان في الدنيا ، وقد ذهبت الدنيا فصارت منهم بمكان بعيد ؟ قال أبو حيان : مثَّل حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من بعدٍ كما يتناوله الآخر من قرب[1] ﴿وقد كفروا به من قبلُ﴾ أي والحال أنهم قد كفروا بالقرآن وبالرسول من قبل ذلك في الدنيا ، فكيف يحصل لهم الإِيمان بهما في الآخرة ! ﴿ويقذفون بالغيب من مكانٍ بعيد﴾ أي يرمون بظنونهم في الأمور المغيبة فيقولون : لا بعث ولا حساب ، ولا جنة ولا نار قال القرطبي : والعربُ تقول لكل من تكلم بما لا يعرف هو يقذف ويرجم بالغيب ، على جهة التمثيل لمن يرمي ولا يصيب[2] ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ أي وحيل بينهم وبين الإِيمان ودخول الجنان ﴿كما فُعل بأشياعهم من قبل﴾ أي كما فعل بأشباههم في الكفر من الأمم السابقة ﴿إنهم كانوا في شكٍ مريب﴾ أي كانوا في الدنيا في شك وارتياب من أمر الحساب والعذاب ، وقوله ﴿مريب﴾ من باب التأكيد كقولهم عجبٌ عجيب .

البَلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين ﴿يبسط . . ويقدر﴾ وبين ﴿نفعاً . . وضراً﴾ وبين ﴿مثنى . . وفرادى﴾ .

٢ ـ المقابلة بين عاقبة الأبرار والفجار ﴿إلا من آمن وعمل صالحاً . . والذين يسعون في آياتنا معاجزين﴾ .

٣ ـ الالتفات من الغائب الى المخاطب ﴿وما أموالكم ولا أولادكم﴾ والغرض المبالغة في تحقيق الحق .

٤ ـ أسلوب التقريع والتوبيخ ﴿أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ ؟ الخطاب للملائكة تقريعاً للمشركين .

٥ ـ وضع الظاهر موضع الضمير لتسجيل جريمة الكفر عليهم ﴿وقال الذين كفروا للحق﴾ والأصل وقالوا .

---

(١) و(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٩٣ .

٦ ـ الإيجاز بالحذف لدلالة السياق عليه ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى﴾ حذف خبر الأول لدلالة الثاني عليه أي ما أموالكم بالتي تقربكم ولا أولادكم بالذين يقربونكم عندنا .

٧ ـ الاستعارة ﴿بين يدي عذابٍ شديد﴾ استعار لفظ اليدين لما يكون من الأهوال والشدائد أمام الإنسان .

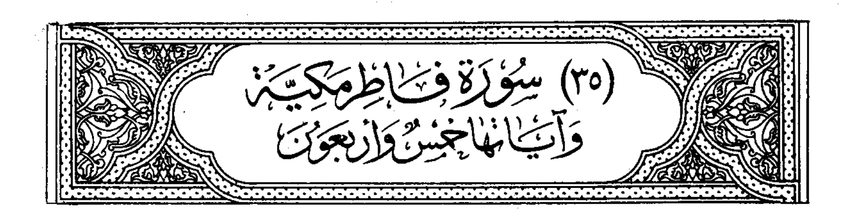
٨ ـ الكناية اللطيفة ﴿وما يبدىء الباطل وما يعيد﴾ كناية عن زهوق الباطل ومحو أثره .

٩ ـ الاستعارة التصريحية ﴿ويقذفون بالغيب من مكان بعيد﴾ شبّه الذي يقول بغير علم ، ويظن ولا يتحقق ، بالإنسان يرمي غرضاً وبينه وبينه مسافة بعيدة فلا يكون سهمه صائباً واستعار لفظ القذف للقول .

١٠ ـ توافق الفواصل لما له من جميل الوقع على السمع مثل ﴿إنا بما أرسلتم به كافرون * أكثر الناس لا يعلمون * وهم في الغرفات آمنون﴾ .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة سبأ »

* * *



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة فاطر مكية نزلت قبل هجرة رسول الله ﷺ ، فهي تسير في الغرض العام الذي نزلت من أجله الآيات المكية ، والتي يرجع أغلبها إلى المقصد الأول من رسالة كل رسول ، وهو قضايا العقيدة الكبرى « الدعوة إلى توحيد الله ، وإقامة البراهين على وجوده ، وهدم قواعد الشرك ، والحثّ على تطهير القلوب من الرذائل ، والتحلي بمكارم الأخلاق » .

* تحدثت السورة الكريمة في البدء عن الخالق المبدع ، الذي فطر الأكوان ، وخلق الملائكة والإنس والجان ، وأقامت الأدلة والبراهين على البعث والنشور ، في صفحات هذا الكون المنظور ، بالأرض تحيا بعد موتها،بنزول الغيث ، وبخروج الزروع والفواكه والثمار ، وبتعاقب الليل والنهار ، وفي خلق الإنسان في أطوار ، وفي إيلاج الليل في النهار ، وغير ذلك من دلائل القدرة والوحدانية .

* وتحدثت عن الفارق الكبير بين المؤمن والكافر ، وضربت لهما الأمثال بالأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، والظل والحرور .

* ثم تحدثت عن دلائل القدرة في اختلاف أنواع الثمار ، وفي سائر المخلوقات من البشر والدواب والأنعام ، وفي اختلاف أشكال الجبال والأحجار ، وتنوعها ما بين أبيض وأسود وأحمر ، وكلها ناطقة بعظمة الواحد القهار .

* وتحدثت بعد ذلك عن ميراث هذه الأمة المحمدية لأشرف الرسالات السماوية ، بإنزال هذا الكتاب المجيد الجامع لفضائل كتب الله ، ثم انقسام الأمة إلى ثلاثة أنواع : « المقصِّر ، والمحسن ، والسابق بالخيرات » .

* وختمت السورة بتقريع المشركين في عبادتهم للأوثان والأصنام والأحجار .

التسمية : سميت « سورة فاطر » لذكر هذا الاسم الجليل ، والنعت الجميل في طليعتها ، لما في هذا الوصف من الدلالة على الإبداع والاختراع والإيجاد لا على مثالٍ سابق ، ولما فيه من التصوير الدقيق ،

المشير إلى عظمة ذي الجلال ، وباهر قدرته ، وعجيب صنعه ، فهو الذي خلق الملائكة وأبدع تكوينهم بهذا الخلق العجيب .

* * *

اللغــــة : ﴿فاطر﴾ الفاطر : الخالق ، وأصل الفطر الشَّق يقال : فطره فانفطر أي انشق ومنه « السماء منفطر به » وفطر اللهُ الخلق : خلقهم وبرأهم ﴿تؤفكون﴾ تُصرفون من الإفك بمعنى الكذب سمي إفكاً لأنه مصروف عن الحق والصواب ﴿حسرات﴾ جمع حسرة وهي الغم الذي يلحق النفس على فوات الأمر ، وفي المختار : الحسرةُ أشدُّ التلهف على الشيء الفاقد[1] ﴿النشور﴾ مصدر نشر الميت إذا حيي قال الأعشى :

حتى يقول الناس ممَّا رأوا ... يا عجباً للميّت الناشر

﴿يبور﴾ يهلك يقال : بار يبور أي هلك وبطل ، والبوار : الهلاك ﴿فرات﴾ حلو شديد الحلاوة ﴿أجاج﴾ شديد الملوحة قال في القاموس : أجَّ الماء أُجوجاً إذا اشتدت ملوحته[2] ﴿قطمير﴾ القطمير : القشرة الرقيقة البيضاء التي بين التمرة والنواة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ

التفسيــر : ﴿الحمد لله فاطر السموات والأرض﴾ أي الثناء الكامل ، والذكر الحسن ، مع التعظيم والتبجيل لله جلَّ وعلا ، خالق السموات والأرض ومنشئها ومخترعها من غير مثالٍ سبق قال البيضاوي : ﴿فاطر السموات والأرض﴾ أي مبدعهما وموجدهما على غير مثال[3] ﴿جاعل الملائكة رسلاً﴾ أي جاعل الملائكة وسائط بين الله وأنبيائه لتبليغهم أوامر الله قال ابن الجوزي : يرسلهم إلى الأنبياء وإلى ما شاء من الأمور[4] ﴿أولي أجنحةٍ مثْنى وثلاثَ ورُباع﴾ أي أصحاب أجنحة قال قتادة : بعضهم له جناحان ، وبعضهم له ثلاثة ، وبعضهم له أربعة ، ينزلون بها من السماء إلى الأرض ، ويعرجون بها إلى السماء[5] ﴿يزيد في الخلق ما يشاءُ﴾ أي يزيد في خلق الملائكة كيف يشاء ، من ضخامة الأجسام ، وتفاوت الأشكال ، وتعدد الأجنحة ، وقد رأى رسول الله ﷺ جبريل ليلة الإسراء وله ستمائة جناح ، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب[6] وقال قتادة : ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ : الملاحةُ

(١) مختار الصحاح مادة حسر . (٢) القاموس المحيط مادة أجج . (٣) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٩٨ . (٤) زاد المسير ٦/ ٤٧٣ .
(٥) القرطبي ١٤/ ٣١٩ . (٦) الحديث أخرجه مسلم عن ابن مسعود قال الزمخشري : « رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته له ستمائة جناح » .

مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ

في العينين ، والحسنُ في الأنف ، والحلاوة في الفم[1] ﴿إن اللهَ على كل شيء قدير﴾ أي هو تعالى قادر على ما يريد ، له الأمر والقوة والسلطان ، لا يمتنع عليه فعل شيءٍ أراده ، ولا يتأبى عليه خلق شيء أراده ، وصف تعالى نفسه في هذه الآيات بصفتين جليلتين تحمل كل منهما صفة القدرة وكمال الإنعام الأولى : أنه فاطر السموات والأرض أي خالقهما ومبدعهما من غير مثالٍ يحتذيه ، ولا قانون ينتحيه ، وفي ذلك دلالة على كمال قدرته ، وشمول نعمته ، فهو الذي رفع السماء بغير عمد ، وجعلها مستويةً من غير أوَد ، وزينها بالكواكب والنجوم ، وهو الذي بسط الأرض ، وأودعها الأرزاق والأقوات ، وبثَّ فيها البحار والأنهار ، وفجَّر فيها العيون والآبار ، إلى غير ما هنالك من آثار قدرته العظيمة ، وآثار صنعته البديعة ، وعبَّر عن ذلك كله بقوله ﴿فاطر السموات والأرض﴾ والثانية : اختيار الملائكة ليكونوا رسلاً بينه وبين أنبيائه ، وقد أشار إلى طرفٍ من عظمته وكمال قدرته جل وعلا بأن خلق الملائكة بأشكال عجيبة ، وصور غريبة ، وأجنحة عديدة ، فمنهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له ستمائة جناح ، ما بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ، كما هو وصف جبريل عليه السلام ، ومنهم من لا يعلم حقيقة خلقته وضخامة صورته إلا الله جل وعلا ، فقد روى الزهري أن جبريل قال للنبي ﷺ : (يا محمد كيف لو رأيت إسرافيل! إنَّ له لاثنيْ عشر ألف جناح، منها جناح بالمشرق وجناح بالمغرب، وإن العرش لعلى كاهله)[2] ولو كشف لنا الحجاب لرأينا العجب العجاب ، فسبحان الله ما أعظم خلقه ، وما أبدع صنعه !! ثم بيَّن تعالى نفاذ مشيئته ، ونفوذ أمره في هذا العالم الذي فطره ومن فيه ، وأخضعه لإرادته وتصرفه فقال : ﴿ما يفتح اللهُ للناسِ من رحمةٍ فلا مُمسكَ لها﴾ أيْ أيُّ شيء يمنحه الله لعباده ويتفضل به عليهم من خزائن رحمته ، من نعمةٍ ، وصحةٍ ، وأمنٍ ، وعلمٍ ، وحكمةٍ ، ورزقٍ ، وإرسال رسلٍ لهداية الخلق ، وغير ذلك من صنوف نعمائه التي لا يحيط بها عدٌّ ، فلا يقدر أحدٌ على إمساكه وحرمان خلق الله منه ، فهو الملك الوهاب الذي لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ﴿وما يُمْسك فلا مرسل له من بعده﴾ أيْ وأيُّ شيء يمسكه ويحبسه عن خلقه من خيري الدنيا والآخرة ، فلا أحد يقدر على منحه للعباد بعد أن أمسكه جل وعلا ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي هو تعالى الغالب على كل شيء ، الحكيم في صنعه ، الذي يفعل ما يريد على مقتضى الحكمة والمصلحة قال المفسرون : والفتحُ والإمساك عبارة عن العطاء والمنع ، فهو الذي يضر وينفع ، ويعطي ويمنع ، وفي الحديث « أحقُّ ما قال العبد وكلُّنا لك عبد : اللهم لا مانع لما أعطيتَ ، ولا معطي لما منعتَ ، ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدّ »[3] ثم ذكَّرهم تعالى بنعمه الجليلة عليهم فقال ﴿يا أيها الناسُ اذكروا نعمة الله عليكم﴾ أي اشكروا ربكم على

(١) القرطبي ١٤/ ٣٢٠ ، والآية عامة تتناول كل زيادة في الخلق ، من طول قامة ، واعتدال صورة ، وحصافة في العقل ، وذلاقة في اللسان ، وما أشبه ذلك مما لا يحيط به وصف . (٢) الكشاف ٣/ ٤٧٠ . (٣) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه .

يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾

نعمه التي لا تُعدُّ ولا تُحْصى التي أنعم بها عليكم قال **الزمخشري** : ليس المراد بذكر النعمة ذكرها باللسان فقط ، ولكن المراد حفظها من الكفران ، وشكرها بمعرفة حقها ، والاعتراف بها ، وإطاعة موليها ، ومنه قول الرجل لمن أنعم عليه : أذكرْ أياديَّ عندك[1] **﴿هل من خالقٍ غير الله﴾** استفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا خالق غيره تعالى ، لا ما تعبدون من الأصنام **﴿يرزقكم من السماء والأرض﴾** أي حال كونه تعالى هو المنعم على العباد بالرزق والعطاء ، فهو الذي ينزل المطر من السماء ، ويخرج النبات من الأرض ، فكيف تشركون معه ما لا يخلق ولا يرزق من الأوثان والأصنام ؟ ولهذا قال تعالى بعده **﴿لا إله إلا هو﴾** أي لا ربَّ ولا معبود إلا اللهُ الواحد الأحد **﴿فأنى تُؤفكون﴾** أي فكيف تُصرفون بعد هذا البيان ، ووضوح البرهان ، إلى عبادة الأوثان ؟ **والغرض** : تذكير الناس بنعم الله ، وإقامة الحجة على المشركين قال **ابن كثير** : نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى الاستدلال على توحيده ، بوجوب إفراد العبادة له ، فكما أنه المستقل بالخلق والرزق ، فكذلك يجب أن يُفرد بالعبادة ، ولا يُشرك به غيره من الأصنام والأوثان[2] **﴿وإن يكذبوك فقد كُذبت رسلٌ من قبلك﴾** تسلية للنبي ﷺ على تكذيب قومه له **والمعنى** : وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون فلا تحزن لتكذيبهم ، فهذه سنة الله في الأنبياء من قبلك ، فقد كُذّبوا وأُوذوا حتى أتاهم نصرنا ، فلك بهم أسوة ، ولا بدَّ أن ينصركَ الله عليهم **﴿وإلى الله تُرجع الأمور﴾** أي إلى الله تعالى وحده مرجع أمرك وأمرهم ، وسيجازي كلاً بعمله ، وفيه وعيد وتهديد للمكذبين . ثم ذكَّرهم تعالى بذلك الموعد المحقَّق فقال **﴿يا أيها الناسُ إنَّ وعد اللهِ حقٌ﴾** أي إن وعده لكم بالبعث والجزاء حقٌّ ثابتٌ لا محالة لا خُلف فيه **﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾** أي فلا تلهكم الحياة الدنيا بزخرفها ونعيمها عن الحياة الآخرة قال **ابن كثير** : أي لا تتلهَّوا عن تلك الحياة الباقية ، بهذه الزهرة الفانية[3] **﴿ولا يغرنَّكمْ باللهِ الغَرُور﴾** أي ولا يخدعنكم الشيطان المبالغ في الغرور فيطمعكم في عفو الله وكرمه ، ويمنيكم بالمغفرة مع الإصرار على المعاصي . ثم بيَّن تعالى عداوة الشيطان للإنسان فقال: **﴿إنَّ الشيطانَ لكم عدوٌ فاتخذوه عدُوّاً﴾** أي إن الشيطان لكم أيها الناس عدوٌ لدود ، وعداوته قديمة لا تكاد تزول فعادوه كما عاداكم ولا تطيعوه ، وكونوا على حذرٍ منه قال **بعض العارفين** : يا عجباً لمن عصى المحسن بعد معرفته بإحسانه ، وأطاع اللعين بعد معرفته بعداوته **﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾** أي إنما غرضه أن

(١) الكشاف ٣/ ٤٧١ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ١٣٩ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ١٣٩ .

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾

يقذف بأتباعه في نار جهنم المستعرة التي تشوي الوجوه والجلود ، لا غرض له إلا هذا ، فهل يليق بالعاقل أن يستجيب لنداء الشيطان اللعين ؟ قال الطبري : أي إنما يدعو شيعته ليكونوا من المخلدين في نار جهنم التي تتوقد على أهلها[١] ﴿الذين كفروا لهم عذاب شديد﴾ أي الذين جحدوا بالله ورسله لهم عذاب دائم شديد لا يُقادر قدره ، ولا يوصف هوله ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿لهم مغفرةٌ وأجر كبير﴾ أي لهم عند ربهم مغفرةٌ لذنوبهم ، وأجر كبير وهو الجنة ، وإنما قرن الإيمان بالعمل الصالح ليشير إلى أنهما لا يفترقان ، فالإيمان تصديقٌ ، وقول ، وعمل ﴿أفمنْ زُيّن له سوء عمله فرآه حسناً﴾ الاستفهام للإنكار وجوابه محذوف والتقدير أفمن زيَّن له الشيطان عمله السيء حتى رآه حسناً[٢] واستحسن ما هو عليه من الكفر والضلال ، كمن استقبحه واجتنبه واختار طريق الإيمان ؟ ودلَّ على هذا الحذف قوله تعالى ﴿فإنَّ الله يضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء﴾ أي الكلُّ بمشيئة الله ، فهو تعالى الذي يصرف من يشاء عن طريق الهدى ، ويهدي من يشاء بتوفيقه للعمل الصالح والإيمان ﴿فلا تذهبْ نفسك عليهم حسرات﴾ أي فلا تغتمَّ يا محمد ولا تُهلك نفسك حسرةً على تركهم الإيمان ﴿إن الله عليمٌ بما يصنعون﴾ أي هو جل وعلا العالم بما يصنع هؤلاء من القبائح ومجازيهم عليها ، وفيه وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم ﴿واللهُ الذي أرسلَ الرياح﴾ أي والله تعالى بقدرته هو الذي أرسل الرياح مبشرة بنزول المطر ﴿فتثير سحاباً﴾ أي فحركت السحاب وأهاجته ، والتعبيرُ بالمضارع عن الماضي ﴿فتثيرُ﴾ لاستحضار تلك الصورة البديعة ، الدالة على كمال القدرة والحكمة[٣] ﴿فسقناه إلى بلدٍ ميّتٍ﴾ أي فسقنا السحاب الذي يحمل الغيث إلى بلدٍ مجدب قاحل ﴿فأحيينا به الأرض بعد موتها﴾ فيه حذفٌ تقديره فأنزلنا به الماء فأحيينا به الأرض بعد جدبها ويبسها ﴿كذلك النشور﴾ أي كما أحيا الله الأرض الميتة بالماء ، كذلك يحيي الموتى من قبورهم ، روى الإمام أحمد عن أبي رُزين العقيلي قال قلت يا رسول الله : كيف يُحْيي اللهُ الموتى ؟ وما آيةُ ذلك في خلقه ؟ فقال : (أما مررتَ بوادي أهلك مُمْحلاً ، ثم مررتَ به يهتز خضراً ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، قال : فكذلك يُحْيي اللهُ الموتى ، وتلك آيته في خلقه)[٤] قال ابن كثير : كثيراً ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها ، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها ، فإذا أرسل الله إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها

(١) تفسير الطبري ٢٢/ ٧٨ . (٢) انظر الكشاف ٣/ ٤٧٤ . (٣) أبو السعود ٤/ ٢٣٩ . (٤) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه .

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ

﴿اهتزَّتْ وربتْ وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ كذلك الأجساد إذا أراد الله بعثها ونشورها[١] ، ثمَّ نبَّه تعالى عباده إلى السبيل الذي تُنال به العزة فقال ﴿من كان يريدُ العزة فللهِ العزةُ جميعاً﴾ أي من كان يطلب العزة الكاملة ، والسعادة الشاملة ، فليطلبها من الله تعالى وحده ، فإن العزة كلَّها لله جل وعلا قال بعض العارفين : من أراد عزَّ الدارين فليطع العزيز[٢] ﴿إليه يَصعَد الكَلِمُ الطيِّب﴾ أي إليه جلَّ وعلا يرتفع كل كلام طيب من ذكر ، ودعاءٍ ، وتلاوة قرآن ، وتسبيح وتمجيد ونحوه قال الطبري : إلى الله يصعد ذكرُ العبد إيَّاه وثناؤه عليه ﴿والعملُ الصالح يرفعه﴾ أي والعمل الصالح يتقبله الله تعالى ويثيب صاحبه عليه قال قتادة : لا يقبل الله قولاً إلاَّ بعمل ، من قال وأحسن العمل قبل الله منه ، نقله الطبري ﴿والذين يمكرون السيئاتِ لهم عذابٌ شديد﴾ هذا بيانٌ للكلم الخبيث بعد بيان حال الكلام الطيب أي والذين يحتالون بالمكر والخديعة لإطفاء نور الله ، والكيد للإسلام والمسلمين ، لهم في الآخرة عذاب شديد في نار جهنم ﴿ومكر أُولئك هو يبور﴾ أي ومكر أولئك المجرمين هالكٌ وباطل ، لأنه ما أسرَّ أحد سوءاً ودبَّره إلا أبداه الله وأظهره ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾ قال المفسرون : والإشارة هنا إلى مكر قريشٍ برسول الله ﷺ حين اجتمعوا في دار الندوة وأرادوا أن يقتلوه ، أو يحبسوه ، أو يخرجوه كما حكى القرآن الكريم ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يُخْرجوك﴾[٣] ثم ذكَّرهم تعالى بدلائل التوحيد والبعث ، بعد أن ذكَّرهم بآيات قدرته وعزته فقال ﴿والله خلقكم من تراب﴾ أي خلق أصلكم وهو آدم من تراب ﴿ثم من نطفة﴾ أي ثم خلق ذريته من ماءٍ مهين وهو المنيُّ الذي يُصبُّ في الرحم ﴿ثم جعلكم أزواجاً﴾ أي خلقكم ذكوراً وإناثاً ، وزوَّج بعضكم من بعضٍ ليتم البقاء في الدنيا إلى انقضائها[٤] قال الطبري : أي زوَّج منهم الأنثى من الذكر[٥] ﴿وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه﴾ أي وما تحمل أنثى في بطنها من جنين ، ولا تلد إلاَّ بعلمه تعالى ، يعلم أذكر هو أو أُنثى ، ويعلم أطوار هذا الجنين في بطن أمه ، لا يخفى عليه شيء من أحواله ﴿وما يُعمَّر من مُعَمَّر ولا يُنقصُ من عُمره إلا في كتاب﴾ أي وما يطول عُمر أحدٍ من الخلق فيصبح هرماً ، ولا يُنقص من عُمر أحد فيموت وهو صغير أو شاب إلا وهو مسجَّل في اللوح المحفوظ ، لا يُزاد فيما كتب الله ولا يُنقص ﴿إن ذلك على الله يسير﴾ أي سهلٌ هيِّن ، لأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ، ثم ضرب تعالى مثلاً للمؤمن والكافر

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ١٤٠ . (٢) القرطبي ١٤/ ٣٢٩ . (٣) انظر الكشاف ٣/ ٤٧٦ . (٤) القرطبي ١٤/ ٣٣٢ . (٥) الطبري ٢٢/ ٨١ .

عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ

فقال: ﴿وما يستوي البحران﴾ أي وما يستوي ماء البحر وماء النهر[1] ﴿هذا عذبٌ فراتٌ سائغ شرابُه﴾ أي هذا ماء حلوٌ شديد الحلاوة يكسر وهج العطش، ويسهل انحداره في الحلق لعذوبته ﴿وهذا ملح أجاج﴾ أي وهذا ماءٌ شديد الملوحة، يُحرق حلق الشارب لمرارته وشدة ملوحته، فكما لا يتساوى البحران: العذبُ، والملح، فكذلك لا يتساوى المؤمن مع الكافر، ولا البرُّ مع الفاجر قال أبو السعود: هذا مثلٌ ضرب للمؤمن والكافر، والفراتُ الذي يكسر العطش، والسائغ الذي يسهل انحداره لعذوبته، والأُجاج الذي يُحرق بملوحته[2] ﴿ومن كلٍ تأكلون منه لحماً طرياً﴾ أي ومن كل واحدٍ منهما تأكلون سمكاً غضاً طرياً، مختلف الأنواع والطعوم والأشكال ﴿وتستخرجون حليةً تلبسونها﴾ أي وتستخرجون منهما اللؤلؤ والمرجان للزينة والتحلي ﴿وترى الفُلك مواخر فيه﴾ أي وترى أيها المخاطب السفن العظيمة، تمخرُ عُباب البحر مقبلة ومدبرة، تحمل على ظهرها الأثقال والبضائع والرجال، وهي لا تغرق فيه لأنها بتسخير الله جل وعلا[3] ﴿لتبتغوا من فضله﴾ أي لتطلبوا بركوبكم هذه السفن العظيمة من فضل الله بأنواع التجارات، والسفر إلى البلدان البعيدة في مدة قريبة ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي ولكي تشكروا ربكم على إنعامه وإفضاله في تسخيره ذلك لكم، ثم انتقل إلى آية أخرى من آيات قدرته وسلطانه في الآفاق فقال ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ أي يدخل الليلَ في النهار، ويدخل النهار في الليل، فيضيف من هذا إلى هذا وبالعكس، فيتفاوت بذلك طول الليل والنهار بالزيادة والنقصان، حسب الفصول والأمصار، حتى يصل النهار صيفاً - في بعض البلدان - إلى ست عشرة ساعة، وينقص الليل حتى يصل الى ثماني ساعات ــ آيةٌ من آيات الله تُشاهد لا يستطيع إنكارها جاحد أو مؤمن، ويحس بآثارها الأعمى والبصير.. آيةٌ شاهدة على قدرة الله، ودقة تصرفه في خلقه، وهذه الظاهرة الكونية دستور لا يتغيَّر، ونظام محكم لا يأتي بطريق الصدفة، وإنما هو من صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه، فسبحان المدبر الحكيم العليم!! ﴿وسخَّر الشمس والقمر كلٌ يجري لأجلٍ مسمّى﴾ أي ذلَّلهما لمصالح العباد، كل منهما يسير ويدور في مداره الذي قدَّره الله له لا يتعداه، إلى أجلٍ معلوم هو يوم القيامة[4] ﴿ذلكم اللهُ ربكم له المُلك﴾ أي ذلكم الفاعل لهذه الأمور

(١) سمي النهر بحراً من باب التغليب. (٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٤١. (٣) راجع نظرية طفو الأجسام والإعجاز العلمي للقرآن الكريم. (٤) كان المظنون أن الشمس ثابتة في موضعها ولكن أثبت العلم الحديث أنها تجري في اتجاه واحد في الفضاء الكوني الهائل بسرعة حسبها الفلكيون باثني عشر ميلاً في الثانية، والله الخبير العليم يخبر بسيرها وجريانها «والشمس تجري لمستقر لها». وحين نتصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف حجم أرضنا هذه، وأن هذه الكتلة الهائلة تتحرك وتجري في الفضاء لا يسندها شيء إلا هو، ندرك طرفاً من صفة القدرة التى تصرِّف هذا الوجود عن قوة وعن علم. تفسير الجوهري.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾

البديعة ، هو ربكم العظيم الشأن ، الذي له المُلك والسلطان والتصرف الكامل في الخلق ﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير﴾ أي والذين تعبدون من دون الله من الأوثان والأصنام لا يملكون شيئاً ولو بمقدار القطمير ، وهو القشرة الرقيقة التي بين التمرة والنواة قال المفسرون : وهو مثلٌ يضرب في القلة والحقارة ، والأصنامُ لضعفها،وهَوان شأنها وعجزها عن أي تصرف صارت مضرب المثل في حقارتها بأنها لا تملك فتيلاً ولا قطميراً ، ثم أكد تعالى ذلك بقوله ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم﴾ أي إن دعوتم هذه الأصنام لم يسمعوا دعاءكم ولم يستجيبوا لندائكم ، لأنها جمادات لا تسمع ولا تفهم ﴿ولو سمعوا ما استجابوا لكم﴾ أي ولو سمعوا لدعائكم ـ على الفرض والتسليم ـ ما استجابوا لكم لأنها ليست ناطقة فتجيب ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ أي وفي الآخرة حين ينطقهم الله يتبرءون منكم ومن عبادتكم إياهم ﴿ولا ينبئك مثلُ خبير﴾ أي ولا يخبرك يا محمد على وجه اليقين أحدٌ إلا أنا ـ الله ـ الخالق العليم الخبير قال قتادة : يعني نفسه عز وجل .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿ما يفتح الله للناس من رحمةٍ فلا ممسك لها﴾ شبَّه فيه إرسال النعم بفتح الخزائن للإعطاء وكذلك حبس النعم بالإمساك ، واستعير الفتح للإطلاق والإمساك للمنع .

٢ ـ الطباق بين ﴿يفتح . . ويمسك﴾ وكذلك بين ﴿يضل . . ويهدي﴾ وبين ﴿تحمل . . وتضع﴾ وبين ﴿يُعمَّر . . وينقص من عمره﴾ .

٣ ـ المقابلة بين جزاء الأبرار والفجار ﴿الذين كفروا لهم عذاب شديد . . والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير﴾ وكذلك بين قوله ﴿هذا عذب فرات . . وهذا ملح أجاج﴾ وكل من الطباق والمقابلة من المحسنات البديعية إلا أن الأول يكون بين شيئين والثاني بين أكثر .

٤ ـ حذف الجواب لدلالة اللفظ عليه ﴿أفمن زُين له سوء عمله فرآه حسناً﴾ ؟ حذف منه ما يقابله أي كمن لم يُزين له سوء عمله ؟ ودل على هذا المحذوف قوله ﴿فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ .

٥ ـ الإطناب بتكرار الفعل ﴿فلا تغرنكم الحياةالدنيا . .ثم قال. .ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ .

٦ ـ الكناية ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ كناية عن الهلاك لأن النفس إذا ذهبت هلك الإنسان .

٧ ـ الالتفات من الغيبة إلى التكلم للإشعار بالعظمة ﴿أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه﴾ .

٨ ـ السجع لماله من وقع حسن على السمع مثل ﴿ليكونوا منْ أصحاب السعير﴾ ﴿لهم مغفرة وأجر كبير﴾ وأمثال ذلك وهو من المحسنات البديعية .

* * *

المناسبة : لمَّا عدَّد تعالى نعمه على العباد ، وأقام الأدلة والبراهين على قدرته وعزته وسلطانه ، ذكَّرهم هنا بحاجتهم إليه ، واستغنائه جل وعلا عن جميع الخلق ، وضرب الأمثال للتفريق بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، بالأعمى والبصير ، والظلام والنور ، « فبضدّها تتميز الأشياء » .

اللغة : ﴿وزر﴾ الوزرُ : الجبل المنيع الذي يعتصم به ومنه « كلا لا وَزَر » ثم قيل للثقيل وِزْرٌ تشبيهاً له بالجبل ، ثم استعير للذنب لما فيه من إثقال كاهل الإنسان ﴿تنذر﴾ تخوف ، والإنذار التخويف ﴿الغيب﴾ ما غاب عن الإنسان ولم تدركه حواسه قال الشاعر :

وبالغيب آمنا وقد كان قومنا يُصلُّون للأوثان قبل محمد

﴿الحَرور﴾ شدة حر الشمس قال في المصباح : الحرُّ خلاف البرد والاسم الحرارة ، وحرَّت النار : توقَّدت واستعرت ، والحَرور : الريح الحارة[1] ﴿جُدد﴾ جمع جدَّة بالضم وهي الطريقة والعلامة قال الجوهري : والجُدَّة : الخُطَّة التي في ظهر الحمار تخالف لونه ، والجُدة الطريقة والجمع جدد وهي الطرائق المختلفة الألوان[2] ، قال القرطبي : قال الأخفش : لو كان جمع جديد لقال « جُدُد » بضم الجيم والدال نحو سرُر ﴿غرابيب﴾ جمع غربيب وهو الشديد السواد ، يقال : أسود غربيب أي شديد السواد قال امرؤ القيس :

العينُ طامحةٌ ، واليدُ سابحةٌ والرجلُ لافحةٌ ، والوجه غربيب[3]

* ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ﴾

التفسير : ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله﴾ الخطاب لجميع البشر لتذكيرهم بنعم الله الجليلة عليهم أي أنتم المحتاجون إليه تعالى في بقائكم وكل أحوالكم ، وفي الحركات والسكنات ﴿والله هو الغني الحميد﴾ أي وهو جل وعلا الغنيُّ عن العالم على الإطلاق ، المحمودُ على نعمه التي لا تُحصى قال أبو حيان : هذه آيةُ موعظةٍ وتذكير ، وأن جميع الناس محتاجون إلى إحسان الله تعالى وإنعامه ، في جميع أحوالهم ، لا يستغني أحدٌ عنه طرفة عين ، وهو الغنيُّ عن العالم على الإطلاق ، المحمود على ما يسديه من النعم ، المستحق للحمد والثناء[4] ، ثم قرر استغناءه عن الخلق بقوله ﴿إن يشأ يُذهبْكم ويأتِ بخلقٍ جديد﴾ أي لو شاء تعالى لأهلككم وأفناكم وأتى بقومٍ آخرين غيركم ، وفي هذا وعيدٌ وتهديد

(١) المصباح المنير . (٢) الصحاح للجوهري . (٣) تفسير القرطبي ١٤/٣٤٣ . (٤) البحر المحيط ٧/٣٠٧ .

جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾

﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾ أي وليس ذلك بصعبٍ أو ممتنع على الله ، بل هو سهل يسير عليه سبحانه ، لأنه يقول للشيء كنْ فيكون ﴿ولا تزر وازرةٌ وِزْرَ أُخرى﴾ أي لا تحمل نفسٌ آثمةٌ إثم نفسٍ أخرى ، ولا تعاقب بذنبٍ غيرها كما يفعل جبابرة الدنيا من أخذ الجار بالجار ، والقريب بالقريب[١] ﴿وإن تدْعُ مُثقلةٌ إلى حِمْلِها لا يُحمل منه شيءٌ ولو كان ذا قُربى﴾ أي وإن تدع نفس مثقلةٌ بالأوزار أحداً ليحمل عنها بعض أوزارها لا يتحمل عنها ولو كان المدعو قريباً لها كالأب والابن ، فلا غياث يومئذٍ لمن استغاث ، وهو تأكيد لما سبق في أن الإنسان لا يتحمل ذنب غيره قال الزمخشري : فإن قلت فما الفرق بين الآيتين ؟ قلت : الأول في الدلالة على عدل الله تعالى في حكمه ، وأنه تعالى لا يؤاخذ نفساً بغير ذنبها ، والثاني في أنه لا غياث يومئذٍ لمن استغاث[٢] ﴿إنما تُنذر الذين يَخْشون ربَّهُم بالغيب﴾ أي إنما تنذر يا محمد بهذا القرآن الذين يخافون عقاب ربهم يوم القيامة ﴿وأقاموا الصلاة﴾ أي وأدوا الصلاة على الوجه الأكمل ، فضموا إلى طهارة نفوسهم طهارة أبدانهم بالصلاة المفروضة في أوقاتها ﴿ومن تزكّى فإنما يتزكّى لنفسه﴾ أي ومن طهَّر نفسه من أدناس المعاصي فإنما ثمرة ذلك التطهر عائدة عليه ، فصلاحه وتقواه مختص به ولنفسه ﴿وإلى اللهِ المصير﴾ أي إليه تعالى وحده مرجع الخلائق يوم القيامة فيجازي كلاً بعمله ، وهو إخبار متضمنٌ معنى الوعيد ﴿وما يستوى الأعمى والبصير﴾ هذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر[٣] أي كما لا يتساوى الأعمى مع البصير فكذلك لا يتساوى المؤمن المستنير بنور القرآن ، والكافر الذي يتخبط في الظلام ، ﴿ولا الظلماتُ ولا النور﴾ أي لا يتساوى كذلك الكفر والإيمان ، كما لا يتساوى النور والظلام ﴿ولا الظلُّ ولا الحرور﴾ أي وكذلك لا يستوي الحقُّ والباطل ، والهدى والضلال كما لا يستوي الظل الظليل مع شدة حر الشمس المتوهجة قال المفسرون : ضرب الله الظل مثلاً للجنة وظلها الظليل ، وأشجارها اليانعة تجري من تحتها الأنهار ، كما جعل الحرور مثلاً للنار وسعيرها ، وشدة أوارها وحرها ، وجعل الجنة مستقراً للأبرار ، والنار مستقراً للفجار كما قال تعالى ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾ ثم أكد ذلك فقال ﴿وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾ أي كما لا يستوي العقلاء والجهلاء قال أبو حيان : وترتيب هذه الأشياء في بيان عدم الاستواء جاء في غاية الفصاحة ، فقد ذكر الأعمى والبصير مثلاً للمؤمن والكافر ، فذكر ما عليه الكافر من ظلمة الكفر ، وما عليه المؤمن من نور الإيمان ، ثم ذكر مآلهما وهو الظلُّ والحرور ، فالمؤمن بإيمانه في ظل وراحة ، والكافر

(١) نفس المرجع السابق والصفحة . (٢) الكشاف ٣/ ٤٧٩ . (٣) البحر المحيط ٧/ ٣٠٨ .

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

بكفره في حر وتعب ، ثم ذكر مثلاً آخر على أبلغ وجه وهو الحيُّ والميت ، فالأعمى قد يكون فيه بعض النفع بخلاف الميت ، وجمع الظلمات لأن طرق الكفر متعددة ، وأفرد النور لأن التوحيد والحق واحدٌ لا يتعدد ، وقدَّم الأشرف في المثلين الأخيرين وهما « الظل ، والحيُّ » وقدَّم الأوضح في المثلين الأولين وهما « الأعمى ، والظلمات » ليظهر الفرق جلياً ، ولا يقال ذلك لأجل السجع لأن معجزة القرآن ليست في مجرد اللفظ ، بل في المعنى أيضاً ، فلله سرُّ القرآن[1] ، ثم زاد في الإِيضاح والبيان فقال ﴿إنَّ اللهَ يُسمع من يشاءُ وما أنت بمسمعٍ من في القبور﴾ أي إن الله يسمع من يشاء إسماعه دعوة الحق ، فيحبِّبه بالإِيمان ويشرح صدره للإِسلام ، وما أنت يا محمد بمسمع هؤلاء الكفار ، لأنهم أموات القلوب لا يدركون ولا يفقهون قال ابن الجوزي : أراد بمن في القبور الكفار ، وشبههم بالموتى[2] ، أي فكما لا يقدر أن يسمع من في القبور كتاب الله وينتفع بمواعظه ، فكذلك من كان ميّت القلب لا ينتفع بما يسمع[3] ﴿إن أنتَ إلا نذير﴾ أي ما أنتَ إلا رسول منذر ، تخوّف هؤلاء الكفار من عذاب النار ﴿إنّا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً﴾ أي بعثناك بالهدى ودين الحق ، بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين ﴿وإنْ من أُمةٍ إلا خلا فيها نذير﴾ أي ما من أمةٍ من الأمم في العصور والأزمنة الخالية إلا وقد جاءها رسول ﴿وإن يُكذبوك فقد كذَّب الذين من قبلهم﴾ تسلية للنبي ﷺ للتأسي بالأنبياء في الصبر على تحمل الأذى والبلاء قال الطبري : أي وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون من قومك فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم السابقة رسلهم ﴿جاءتهم رسلُهم بالبينات﴾ أي جاءتهم الرسل بالمعجزات البينات ، والحجج الواضحات فكذبوهم وأنكروا ما جاءوا به من عند الله[4] ﴿وبالزُّبر وبالكتاب المنير﴾ أي وجاءوهم بالزُّبُر أي الصحف المنزلة على الأنبياء ، وبالكتب السماوية المقدسة المنيرة الموضحة وهي أربعة « التوراة ، والإِنجيل ، والزبور ، والفرقان » ومع ذلك كذبوهم وردّوا عليهم رسالتهم فاصبر كما صبروا ﴿ثم أخذتُ الذين كفروا﴾ أي ثم بعد إمهالهم أخذتُ هؤلاء الكفار بالهلاك والدمار ﴿فكيف كان نكير﴾ أي فكيف كانت عقوبتي لهم وإنكاري عليهم ؟ ألم آخذهم أخذ عزيز مقتدر ؟ ألم أبدِّل نعمتهم نقمة ، وسعادتهم شقاوة ، وعمارتهم خراباً ؟ وهكذا أفعل بمن كذَّب رسلي ، ثم عاد إلى تقرير وحدانية الله بالأدلة السماوية والأرضية فقال ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً﴾ أي ألم تر أيها

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٠٩ بشيء من الإيجاز والتصرف . (٢) تفسير ابن الجوزي ٦/ ٤٨٤ . (٣) تفسير الطبري ٢٢/ ٨٥ .
(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٨٦ .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾

المخاطب أن الله العظيم الكبير الجليل أنزل من السحاب المطر بقدرته[١] ؟ ﴿فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانُها﴾ أي فأخرجنا بذلك الماء أنواع النباتات والفواكه والثمار ، المختلفات الأشكال والألوان والطعوم قال الزمخشري : أي مختلف أجناسها من الرمان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما لا يُحصر، أو هيئاتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها[٢] ﴿ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحمرٌ مختلف ألوانُها﴾ أي وخلق الجبال كذلك فيها الطرائق المختلفة الألوان ـ وإن كان الجميع حجراً أو تراباً ـ فمن الجبال جُدَد ـ أي طرائق ـ مختلفة الألوان ، بيضٌ مختلفةُ البياض ، وحمر مختلفة في حمرتها ﴿وغرابيبُ سودٌ﴾ أي وجبال سودٌ غرابيب أي شديدة السواد ، قال ابن جزي : قدَّم الوصف الأبلغ وكان حقه أن يتأخر ، وذلك لقصد التأكيد وكثيراً ما يأتي مثلُ هذا في كلام العرب[٣] ، والغرضُ بيان قدرته تعالى ، فليس اختلاف الألوان قاصراً على الفواكه والثمار بل إن في طبقات الأرض وفي الجبال الصلبة ما هو أيضاً مختلف الألوان[٤] ، حتى لتجد الجبل الواحد ذا ألوانٍ عجيبة ، وفيه عروق تشبه المرجان ، ولا سيما في صخور « المرمر » فسبحان القادر على كل شيء ﴿ومن الناسِ والدوابِّ والأنعام مختلفٌ ألوانُه كذلك﴾ أي وخلق من الناس ، والدواب ، والأنعام ، خلقاً مختلفاً ألوانه كاختلاف الثمار والجبال ، فهذا أبيض ، وهذا أحمر ، وهذا أسود ، والكلُّ خلق الله فتبارك الله أحسن الخالقين . . ثم لما عدَّد آياتِ الله ، وأعلام قدرته ، وآثار صنعه ، وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس أتبع ذلك بقوله ﴿إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾ أي إنما يخشاه تعالى العلماء لأنهم عرفوه حقَّ معرفته ، قال ابن كثير : أي إنما يخشاه حقَّ خشيته العلماء العارفون به ، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير أتم ، والعلم به أكمل ، كانت الخشية له أعظم وأكثر[٥] ﴿إن الله عزيزٌ غفور﴾ أي غالب على كل شيء بعظمته ، غفور لمن تاب وأناب من عباده ، ثم أخبر عن صفات هؤلاء الذين يخافون الله ويرجون رحمته فقال ﴿إن الذين يتلون كتاب الله﴾ أي

---

(١) الآية سيقت للحث والتحريض على النظر في عجائب صنعه تعالى ، وآثار قدرته ليؤدي ذلك إلى العلم بعظمة الله وجلاله ، ويؤدي العلم إلى خشيته ولذلك ختمها بقوله ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ فتدبر سرّ القرآن . (٢) تفسير الكشاف ٣/ ٤٨١ . (٣) التسهيل ٣/ ١٥٨ . (٤) يقول شهيد الإسلام في تفسيره الظلال : هذه لفتة كونية عجيبة من اللفتات الدالة على مصدر هذا الكتاب ، تبدأ بإنزال الماء من السماء ، وإخراج الثمرات المختلفات الألوان ، ثم تنتقل إلى ألوان الجبال ، ففي ألوان الصخور شبه عجيب بألوان الثمار وتنوعها وتعددها ، واللفتة إلى ألوان الصخور وتنوعها داخل اللون الواحد ، تهز القلب هزاً ، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي بما يستحق النظر والالتفات ، ثم ألوان الناس ـ وهي لا تقف عند حد ـ وكذلك ألوان الدواب والأنعام ، والدابة كل حيوان ، والأنعام هي الإبل والبقر والغنم والماعز ، ذات الألوان والأصباغ العجيبة ، كلها معروضة للأنظار في هذا الكتاب الكوني ، الجميل الصفحات ، العجيب في التكوين والتلوين . (٥) مختصر ابن كثير ٣/ ١٤٦ .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾

يداومون على تلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النهار ﴿وأقاموا الصلاة﴾ أي أدوها عى الوجه الأكمل في أوقاتها ، بخشوعها وآدابها ، وشروطها وأركانها ﴿وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية﴾ أي وأنفقوا بعض أموالهم في سبيل الله وابتغاء رضوانه في السر والعلن ﴿يرجون تجارة لن تبور﴾ أي يرجون بعملهم هذا تجارة رابحة ، لن تكسد ولن تهلك بالخسران أبداً ﴿ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ أي ليوفيهم الله جزاء أعمالهم ، وثواب ما فعلوا من صالح الأعمال ، ويزيدهم ـ فوق أجورهم ـ من فضله وإنعامه وإحسانه قال في التسهيل : توفية الأجور هو ما يستحقه المطيع من الثواب ، والزيادة : التضعيف فوق ذلك أو النظر إلى وجه الله[1] ﴿إنه غفور شكور﴾ أي مبالغ في الغفران لأهل القرآن ، شاكر لطاعتهم قال ابن كثير : كان مطرف إذا قرأ هذه الآية قال : هذه آية القراء[2] ﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحقُّ﴾ أي والذي أوحيناه إليك يا محمد من الكتاب المنزَّل ـ القرآن العظيم ـ هو الحق الذي لا شك فيه ، ولا ريب في صدقه ﴿مصدِّقاً لما بين يديه﴾ أي حال كونه مصدقاً لما سبقه من الكتب الإلهية المنزلة كالتوراة والإنجيل والزبور قال أبو حيان : وفي الآية إشارة إلى كونه وحياً ، لأنه عليه السلام لم يكن قارئاً ولا كاتباً وأتى ببيان ما في كتب الله ، ولا يكون ذلك إلا من الله[3] ﴿إنَّ اللهَ بعباده لخبير بصير﴾ أي هو جل وعلا خبير بعباده محيط ببواطن أمورهم وظواهرها ، بصيرٌ بهم لا تخفى عليه خافية من شئونهم .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين ﴿يُذهب . . ويأت﴾ وبين ﴿الأعمى . . والبصير﴾ و﴿الظلمات . . والنور﴾ و﴿الظل . . والحرور﴾ و﴿الأحياء . . والأموات﴾ وبين ﴿نذيراً . . وبشيراً﴾ وبين ﴿سراً . . وعلانية﴾ .

٢ ـ جناس الاشتقاق ﴿ولا تزر وازرة﴾ ﴿حملها لا يحمل منه شيء﴾ .

٣ ـ الاستعارة التصريحية ﴿وما يستوي الأعمى والبصير . .﴾ الآية شبه الكافر بالأعمى ، والمؤمن بالبصير بجامع ظلام الطريق وعدم الاهتداء على الكافر ، ووضوح الرؤية والاهتداء للمؤمن ، ثم استعار المشبه به ﴿الأعمى﴾ للكافر ، واستعار ﴿البصير﴾ للمؤمن بطريق الاستعارة التصريحية .

---

(١) التسهيل ٣/ ١٥٨ . (٢) المختصر ٣/ ١٤٦ . (٣) البحر المحيط ٧/ ٣١٣ .

٤ ـ الالتفات من الغيبة إلى التكلم ﴿أنزل من السماء ماءً فأخرجنا﴾ بدل فأخرج لما في ذلك من الفخامة ولبيان كمال العناية بالفعل ، لما فيه من الصنع البديع ، المنبيء عن كمال قدرة الله وحكمته .

٥ ـ قصر صفة على موصوف ﴿إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾ فقد قصر الخشية على العلماء .

٦ ـ الاستفهام التقريري وفيه معنى التعجب ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً . .﴾ الآية .

٧ ـ الاستعارة ﴿يرجون تجارة لن تبور﴾ استعار التجارة للمعاملة مع الله تعالى لنيل ثوابه ، وشبهها بالتجارة الدنيوية وهي معاملة الخلق بالبيع والشراء لنيل الربح ثم رشحها بقوله ﴿لن تبور﴾ .

٨ ـ توافق الفواصل مما يزيد في جمال الكلام ورونقه ووقعه في النفس مثل ﴿يرجون تجارة لن تبور﴾ ﴿إنه غفور شكور﴾ ومثل ﴿وبالكتاب المنير﴾ ﴿فكيف كان نكير﴾ وهكذا .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ثم أورثنا الكتاب الذي اصطفينا . . إلى فإن الله كان بعباده بصيراً﴾

من آية (٣٢) إلى آية (٤٥) نهاية السورة

المناسَبَة : لما أثنى تعالى على الذين يتلون كتاب الله ، ذكر هنا انقسام الأمة الإسلامية أمام هذا الكنز الثمين إلى ثلاثة أقسام : الظالم لنفسه ، والمقتصد ، والسابق بالخيرات ، ثم ذكر مآل الأبرار والفجار ، ليظل العبد بين الخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة .

اللغَة : ﴿نَصَب﴾ تعب ومشقة جسمانية ﴿لُغُوب﴾ اللُّغُوب : الإعياء والضعف والفتور ومنه ﴿وما مسَّنا من لُغُوب﴾ ﴿يصطرخون﴾ من الصراخ وهو الصياح بصوت عال ، والصارخ : المستغيث ، والمُصْرِخ : المغيث قال سلامة بن جندب :

كنَّا إذا ما أتانا صارخٌ فزعٌ ... كان الصُّراخ له قرعُ الظَّنابيب[1]

﴿النذير﴾ المنذر الذي يخوّف الناس من عذاب الله ﴿خلائف﴾ جمع خليفة وهو الذي يخلف غيره في أمرٍ من الأمور ﴿مقتاً﴾ المقت : أشد البغض والغضب ﴿خساراً﴾ هلاكاً وضلالاً ﴿يحيق﴾ حاق به الشيء : نزل وأحاط .

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾

التفسِير : ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ أي ثم أورثنا هذا القرآن العظيم لأفضل الأمم ـ وهم أمة محمد عليه السلام ـ الذين اخترناهم على سائر الأمم ، وخصصناهم بهذا الفضل العظيم ، القرآن المعجز خاتمة الكتب السماوية قال الزمخشري : والذين اصطفاهم الله هم أمة محمد من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى يوم القيامة[2] . . ثم قسمهم إلى ثلاثة أصناف فقال ﴿فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابقٌ بالخيرات بإذنِ الله﴾ أي فمن هؤلاء الذين أورثناهم الكتاب من هو مقصِّر في عمل الخير ، يتلو القرآن ولا يعمل به وهو الظالم لنفسه ، ومنهم من هو متوسط

(١) القرطبي ١٤/ ٣٥٢ . (٢) الكشاف ٣/ ٤٨٤ .

بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾

في فعل الخيرات والصالحات ، يعمل بالقرآن في أغلب الأوقات ، ويقصِّر في بعض الفترات وهو المقتصد ، ومنهم من هو سبَّاق في العمل بكتاب الله ، يستبق الخيرات وقد أحرز قصب السبق في فعل الطاعات بتوفيق الله وتيسيره وهو السابق بالخيرات بإذن الله قال ابن جزي : وأكثر المفسرين أن هذه الأصناف الثلاثة في أمة محمد ﷺ فالظالم لنفسه : العاصي ، والسابق : التقيُّ ، والمقتصد : بينهما[1] وقال الحسن البصري : السابقُ من رجحت حسناته على سيئاته ، والظالم لنفسه من رجحت سيئاته ، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته ، وجميعهم يدخلون الجنة[2] ﴿ذلك هو الفضل الكبير﴾ أي ذلك الإرث والاصطفاء لأمة محمد عليه السلام لحمل أشرف الرسالات والكتب السماوية هو الفضل العظيم الذي لا يدانيه فضل ولا شرف ، فقد تفضل الله عليهم بهذا القرآن المجيد ، الباقي مدى الدهر ، وأنعم به من فضل ! ثم أخبر تعالى عما أعده للمؤمنين في جنات النعيم فقال ﴿جناتُ عدنٍ يدخلونها﴾ أي جنات إقامة ينعَّمون فيها بأنواع النعيم ، وهي مراتب ودرجات متفاوتة حسب تفاوت الأعمال ، وإنما جمع ﴿الجنات﴾ لأنها جنات كثيرة وليست جنة واحدة ، فهناك جنة الفردوس ، وجنة عدن ، وجنة النعيم ، وجنة المأوى ، وجنة الخلد ، وجنة السلام ، وجنة عليين ، وفي كل جنة مراتبُ ونُزلٌ بحسب مراتب العاملين ﴿يُحلَّون فيها من أساور من ذهبٍ ولؤلؤاً﴾ أي يزينون في الجنة بأساور من ذهب مرصَّعة باللؤلؤ ﴿ولباسُهم فيها حرير﴾ أي وجميع ما يلبسونه في الجنة من الحرير ، بل فرشهم وستورهم كذلك قال القرطبي : لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتيجان ، جعل الله ذلك لأهل الجنة ، وليس أحد من أهل الجنة إلا في يده ثلاثة أسورة : سوارٌ من ذهب ، وسوار من فضة ، وسوار من لؤلؤ[3] ﴿وقالوا الحمدُ للَّهِ الذي أذهب عنا الحزن﴾ أي وقالوا عند دخولهم الجنة الحمدُ لله الذي أذهب عنا جميع الهموم والأكدار والأحزان قال المفسرون : عبَّر بالماضي ﴿وقالوا﴾ لتحقق وقوعه ، والحزن يعمُّ كل ما يكدِّر صفو الإنسان من خوف المرض ، والفقر ، والموت ، وأهوال القيامة ، وعذاب النار وغير ذلك[4] ﴿إنَّ ربنا لغفور شكور﴾ أي واسع المغفرة للمذنبين ، شكور لطاعة المطيعين ، وكلا اللفظتين للمبالغة أي واسع الغفران عظيم الشكر والإحسان ﴿الذي أحلَّنا دار المُقامةِ من فضلِه﴾ أي أنزلنا الجنة وأسكننا فيها ، وجعلها مقراً لنا وسكناً ، لا نتحول عنها أبداً ، وكل ذلك من إنعامه وتفضله علينا ﴿لا يَمَسُّنا فيها نصَبٌ﴾ أي لا يصيبنا فيها تعب ولا مشقة ﴿ولا يمسُّنا فيها

(١) التسهيل في علوم التنزيل ٣/١٥٨ . (٢) زاد المسير ٦/ ٤٩ . والقول بأن هذه الأصناف الثلاثة من أمة محمد ﷺ هو الراجح وهو اختيار ابن جرير وقد أورد العلامة ابن كثير أحاديث تدل على ذلك . (٣) القرطبي ١٢/٥٢ . (٤) انظر تفسير أبي السعود ٤/ ٢٤٥ والطبري ٢٢/٩١ .

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾

لغوب﴾ أي ولا يصيبنا فيها إعياءٌ ولا فتور قال ابن جزي : وإنما سميت الجنة ﴿دار المُقامة﴾ لأنهم يقومون فيها ويمكثون ولا يُخرجون منها ، والنَّصبُ تعبُ البدن ، واللغوبُ تعب النفس الناشيء عن تعب البدن[١] . . ولما ذكر تعالى حال السعداء الأبرار ، ذكر حال الأشقياء الفجار فقال ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم﴾ أي والذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسله فإنَّ لهم نار جهنم المستعرة جزاءً وفاقاً على كفرهم ﴿لا يُقضى عليهم فيموتوا﴾ أي لا يحكم عليهم بالموت فيها حتى يستريحوا من عذاب النار ﴿ولا يُخفَّف عنهم من عذابها﴾ أي ولا يخفف عنهم شيء من العذاب ، بل هم في عذاب دائم مستمر لا ينقطع كقوله ﴿كلما خبتْ زدناهم سعيراً﴾ ﴿كذلك نجزي كل كفور﴾ أي مثل ذلك العذاب الشديد الفظيع ، نجازي ونعاقب كل مبالغ في الكفر والعصيان ﴿وهم يصطرخون فيها ربَّنا أخرجْنا نعْمل صالحاً غيرَ الذي كنا نعمل﴾ أي وهم يتصارخون في جهنم ويستغيثون برفع أصواتهم قائلين : ربنا أخرجنا من النار وردنا إلى الدنيا لنعمل عملاً صالحاً يقربنا منك ، غير الذي كنا نعمله قال القرطبي : أي نؤمن بدل الكفر ، ونطيع بدل المعصية ، ونمتثل أمر الرسل[٢] . . وفي قولهم ﴿غير الذي كنا نعمل﴾ اعترافٌ بسوء عملهم ، وتندُّمٌ عليه وتحسر[٣] ، قال تعالى رداً عليهم وموبخاً لهم ﴿أولم نُعمِّرْكُم ما يتَذكَّر فيه منْ تذكَّر﴾ أي أولم نترككم ونمهلكم في الدنيا عمراً مديداً يكفي لأن يتذكر فيه من يريد التذكر والتفكر ؟ فماذا صنعتم في هذه المدة التي عشتموها ؟ وما لكم تطلبون عُمراً آخر ؟ وفي الحديث « أعذر الله إلى امرىءٍ أخَّر أجله حتى بلغ ستين سنة »[٤] ومعنى « أعذر » أي بلغ به أقصى العذر ﴿وجاءكم النذير﴾ أي وجاءكم الرسول المنذر وهو محمد عليه السلام الذي بعث بين يدي الساعة ، وقيل : ﴿النذير﴾ هو الشيبُ ، والأول أظهر[٥] ﴿فذوقوا فما للظالمين منْ نصير﴾ أي فذوقوا العذاب يا معشر الكافرين ، فليس لكم اليوم ناصر ولا معين يدفع عنكم عذاب الله قال الإمام الفخر : والأمرُ أمرُ إهانة ﴿فذوقوا﴾ وفيه إشارة إلى الدوام[٦] ، وإنما وضعَ الظاهر ﴿للظالمين﴾ موضع الضمير « لكم » لتسجيل الظلم عليهم ، وأنهم بكفرهم وظلمهم ليس لهم نصيرٌ أصلاً لا من الله ولا

---

(١) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٥٩ .

(٢) القرطبي ١٤/ ٣٥٢ . (٣) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٥٩ . (٤) أخرجه البخاري وترجم له بقوله « بابٌ من بلغ ستين سنة فقد أعذر إليه في العمر وذكر الآية ، قال ابن كثير وهذا هو الصحيح في مقدار العمر » .

(٥) ترجم الإمام البخاري ﴿وجاءكم النذير﴾ يعني الشيب ، وروي هذا عن ابن عباس وعكرمة قال ابن كثير : وما روي عن قتادة أن النذير هو رسول الله ﷺ هو الصحيح وهو اختيار ابن جرير وهو الأظهر . (٦) التفسير الكبير ٢٦/ ٣٠ .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا﴾

من العباد ، ثم قال تعالى ﴿إن الله عالمُ غيبِ السموات والأرض﴾ أي هو تعالى العالم الذي أحاط علمه بكل ما خفي في الكون من غيب السموات والأرض ، لا يخفى عليه شأن من شئونهما ﴿إنه عليم بذاتِ الصدور﴾ أي يعلم جلَّ وعلا مضمرات الصدور ، وما تخفيه من الهواجس والوساوس ، فكيف لا يعلم أعمالهم الظاهرة ؟ قال المفسرون : والجملة لتأكيد ما سبق من دوام عذاب الكفار في النار ، لأن الله تعالى يعلم من الكافر أنه تمكّن الكفر في قلبه بحيث لو دام في الدنيا إلى الأبد ما آمن بالله ولا عبَده ، فالعذابُ الأبديُّ مساوٍ لكفرهم الأبدي ، فلا ظلم ولا زيادة ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾ قال القرطبي : والمعنى في الآية علم أنه لو ردكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحاً كما قال تعالى ﴿ولو ردُّوا لعادوا لما نُهوا عنه﴾ [1] ﴿هو الذي جعلكم خلائفَ في الأرض﴾ أي هو تعالى جعلكم أيها الناس خلائف في الأرض ، بعد عاد وثمود ومن مضى قبلكم من الأمم ، تخلفونهم في مساكنهم جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ﴿فمن كفر فعليه كفره﴾ أي فمن كفر بالله فعليه وبال كفره ، لا يضر بذلك إلا نفسه ﴿ولا يزيد الكافرين كفرُهم عند ربهم إلا مقتاً﴾ أي ولا يزيدهم كفرهم إلا طرداً من رحمة الله وبعداً وبغضاً شديداً من الله ﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً﴾ أي ولا يزيدهم كفرهم إلا هلاكاً وضلالاً وخسران العمر الذي ما بعده شر وخسار ! ! قال أبو حيان : وفي الآية تنبيه على أنه تعالى استخلفهم بدل من كان قبلهم ، فلم يتعظوا بحال من تقدمهم من المكذبين للرسل وما حلَّ بهم من الهلاك ، ولا اعتبروا بمن كفر ، ولا اتعظوا بمن تقدم ، والمقتُ أشد الاحتقار والبغض ، والخسارُ خسارُ العمر ، كأنَّ العمر رأس مال الإنسان فإذا انقضى في غير طاعة الله فقد خسره ، واستعاض به بدل الربح سخط الله وغضبه ، بحيث صار إلى النار المؤبدة [2] ، ثم وبَّخ تعالى المشركين في عبادتهم ما لا يسمع ولا ينفع فقال ﴿قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله﴾ ؟ قال الزمخشري : ﴿أرأيتم﴾ معناها أخبروني كأنه قال : أخبروني عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الإلهية والشركة [3] ، ومعنى الآية : قل يا محمد تبكيتاً لهؤلاء المشركين : أخبروني عن شأن آلهتكم ـ الأوثان والأصنام ـ الذين عبدتموهم من دون الله ، وأشركتموهم معه في العبادة ، بأي شيء استحقوا هذه العبادة ؟ ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض﴾ أي أروني أيَّ شيء خلقوه في هذه الدنيا من المخلوقات حتى عبدتموهم من دون الله ؟ ﴿أم لهم شِركٌ في السموات﴾ أي أم شاركوا اللهَ في خلق السموات فاستحقوا بذلك الشركة معه في الألوهية ؟

(١) القرطبي ٢٢/ ٣٥٥ . (٢) تفسير البحر المحيط ٧/ ٣١٧ . (٣) تفسير الكشاف ٣/ ٤٨٧ .

غُرُورًا ﴿٤٠﴾ * إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾

﴿أم آتيناهم كتاباً فهم على بينةٍ منه﴾ أي أم أنزلنا عليهم كتاباً ينطق بأنهم شركاء الله فهم على بصيرة وحجة وبرهان في عبادة الأوثان ﴿بل إنْ يعدُ الظالمون بعضُهم بعضاً إلا غروراً﴾ إضرابٌ عن السابق وبيانٌ للسبب الحقيقي أي إنما اتخذوهم آلهة بتضليل الرؤساء للأتباع بقولهم : الأصنام تشفع لهم ، وهو غرور باطل وزور قال أبو السعود : لما نفى أنواع الحجج أضرب عنه بذكر ما حملهم عليه ، وهو تغرير الأسلاف للأخلاف ، وإضلال الرؤساء للأتباع بأنهم يشفعون لهم عند الله[1] . . ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووحدانيته فقال ﴿إنَّ اللَّهَ يُمسِكُ السَّموات والأرضَ أنْ تزولا﴾ أي هو جل وعلا بقدرته وبديع حكمته ، يمنع السموات والأرض من الزوال ، والسقوط ، والوقوع كما قال تعالى ﴿ويُمسك السماء أن تقع على الأرضِ إلا بإذنه﴾ قال القرطبي : لما بيَّن أن آلهتهم لا تقدر على خلق شيء من السموات والأرض ، بيَّن أن خالقهما وممسكهما هو الله ، فلا يوجد حادث إلا بإيجاده ، ولا يبقى إلا ببقائه[2] ﴿ولئن زالتا إنْ أمسكَهُما من أحدٍ من بعده﴾ أي ولئن زالتا عن أماكنهما ـ فرضاً ـ ما أمسكهما أحدٌ بعد الله ، بمعنى أنه لا يستطيع أحدٌ على إمساكهما ، إنما هما قائمتان بقدرة الواحد القهار ﴿إنَّهُ كان حليماً غفوراً﴾ أي إنه تعالى حليم لا يعاجل العقوبة للكفار مع استحقاقهم لها ، وواسع المغفرة والرحمة لمن تاب منهم وأناب ﴿وأقسموا باللَّهِ جهد أيْمانِهم﴾ أي حلف المشركون بالله أشدَّ الأيمان وأبلغها قال الصاوي : كانوا يحلفون بآبائهم وأصنامهم فإذا أرادوا التأكيد والتشديد حلفوا بالله[3] ﴿لئن جاءَهُم نذيرٌ﴾ أي لئن جاءهم رسول منذر ﴿ليكونُنَّ أهدى من إحدى الأُمم﴾ أي ليكونُنَّ أهدى من جميع الأمم الذين أرسل الله إليهم الرسل من أهل الكتاب قال أبو السعود : بلغ قريشاً قبل مبعث رسول الله ﷺ أنَّ أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا : لعن اللهُ اليهودَ والنصارى ، أتتهم الرسلُ فكذبوهم ، فواللهِ لئن أتانا رسول لنكوننَّ أهدى من اليهود والنصارى وغيرهم[4] ﴿فلما جاءهم نذيرٌ﴾ أي فلما جاءهم محمد ﷺ أشرف المرسلين ﴿ما زادهم إلا نفوراً﴾ أي ما زادهم مجيئه إلا تباعداً عن الهدى والحق وهرباً منه ﴿استكباراً في الأرضِ ومكرَ السَّيء﴾ أي نفروا منه بسبب استكبارهم عن اتباع الحق ، وعتوهم وطغيانهم في الأرض ، ومن أجل المكر السيء بالرسول وبالمؤمنين ، ليفتنوا ضعفاء الإيمان عن دين الله قال أبو حيان : أي سبب النفور هو الاستكبار والمكر السيء يعني أن الحامل لهم على

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٤٦ . (٢) تفسير القرطبي ١٤/ ٣٥٦ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٣١٥ .
(٤) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٤٦ .

ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

الابتعاد من الحق هو الاستكبار ، والمكرُ السيءُ وهو الخداع الذي يرومونه برسول الله ﷺ والكيد له[1] ، قال تعالى رداً عليهم ﴿ولا يحيقُ المكرُ السَّيءُ إلا بأهلِه﴾ أي ولا يحيط وبال المكر السيء إلا بمن مكره ودبَّره كقولهم «من حفر حفرة لأخيه وقع فيها» ﴿فهل ينظرون إلا سنة الأولين﴾ أي فهل ينتظر هؤلاء المشركون إلا عادة الله وسنته في الأمم المتقدمة ، من تعذيبهم وإهلاكهم بتكذيبهم للرسل ؟ ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ أي لن تتغير ولن تتبدل سنته تعالى في خلقه ﴿ولن تجد لسنةِ اللهِ تحويلاً﴾ أي ولا يستطيع أحد أن يحوّل العذاب عنهم إلى غيرهم قال القرطبي : أجرى الله العذاب على الكفار ، فلا يقدر أحد أن يُبدّل ذلك ، ولا أن يحُوّل العذاب عن نفسه إلى غيره ، والسُّنة هي الطريقة[2] . . ثم حثهم تعالى على مشاهدة آثار من قبلهم من المكذبين ليعتبروا فقال ﴿أَولَمْ يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذينَ من قبْلِهم﴾ ؟ أولم يسافروا ويمروا على القرى المهلكة فيروا آثار دمار الأمم الماضية حين كذبوا رسلهم ماذا صنع الله بهم ؟ ﴿وكانوا أشدَّ منهم قوة﴾ أي وكانوا أقوى من أهل مكة أجساداً ، وأكثر منهم أموالاً وأولاداً ﴿وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض﴾ أي أنه سبحانه لا يفوته شيء ، ولا يصعب عليه أمر في هذا الكون ﴿إنه كان عليماً قديراً﴾ أي بالغ العلم والقدرة ، عالم بشئون الخلق ، قادر على الانتقام ممن عصاه ﴿ولو يؤاخذ اللهُ الناسَ بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾ بيانٌ لحلم الله ورحمته بعباده أي لو آخذهم بجميع ذنوبهم ما ترك على ظهر الأرض أحداً يدب عليها من إنسان أو حيوان قال ابن مسعود : يريد جميع الحيوان مما دبَّ ودرج[3] ﴿ولكنْ يؤخرهم إلى أجلٍ مسمَّى﴾ أي ولكنه تعالى من رحمته بعباده ، ولطفه بهم ، يمهلهم إلى زمن معلوم وهو يوم القيامة فلا يعجل لهم العذاب ﴿فإذا جاء أجلهم فإن اللهَ كان بعباده بصيراً﴾ أي فإذا جاء ذلك الوقت جازاهم بأعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، لأنه تعالى العالم بشئونهم المطلع على أحوالهم قال ابن جرير : بصيراً بمن يستحق العقوبة ، وبمن يستوجب الكرامة[4] ، وفي الآية وعيدٌ للمجرمين ووعد للمتقين .

(١) تفسير البحر المحيط ٧/ ٣١٩ . (٢) تفسير القرطبي ١٤/ ٣٦٠ . (٣) تفسير القرطبي ١٤/ ٣٦١ . (٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٩٦ .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الإطناب بتكرار الفعل ﴿لا يمسنا فيها نصب ، ولا يمسنا فيها لغوب﴾ للمبالغة في انتفاء كل منهما استقلالاً ، وكذلك الإطناب في قوله ﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ، ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً﴾ لزيادة التشنيع والتقبيح على من كفر بالله .

٢ ـ التهكم في صيغة الأمر ﴿فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ مثل ﴿ذق أنك أنت العزيز الكريم﴾ .

٣ ـ المبالغة مثل ﴿غفور ، شكور ، كفور﴾ ومثل ﴿حليماً ، عليماً ، قديراً﴾ فإنها من صيغ المبالغة .

٤ ـ الاستفهام الإنكاري للتوبيخ ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض﴾ ؟ وكذلك ﴿أم لهم شرك في السموات﴾ ؟

٥ ـ الاستعارة المكنية ﴿ما ترك على ظهرها من دابة﴾ شبَّه الأرض بدابة تحمل على ظهرها أنواع المخلوقات ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الظهر بطريق الاستعارة المكنية .

٦ ـ السجع غير المتكلف ، البالغ نهاية الروعة والجمال مثل ﴿وجاءكم النذير* فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة فاطر »

* * *